

حِطُّ الشَّيْءِ

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الاول

الناشر
مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية

صححة بquam المؤلف

طبعت بإذن من ورثته

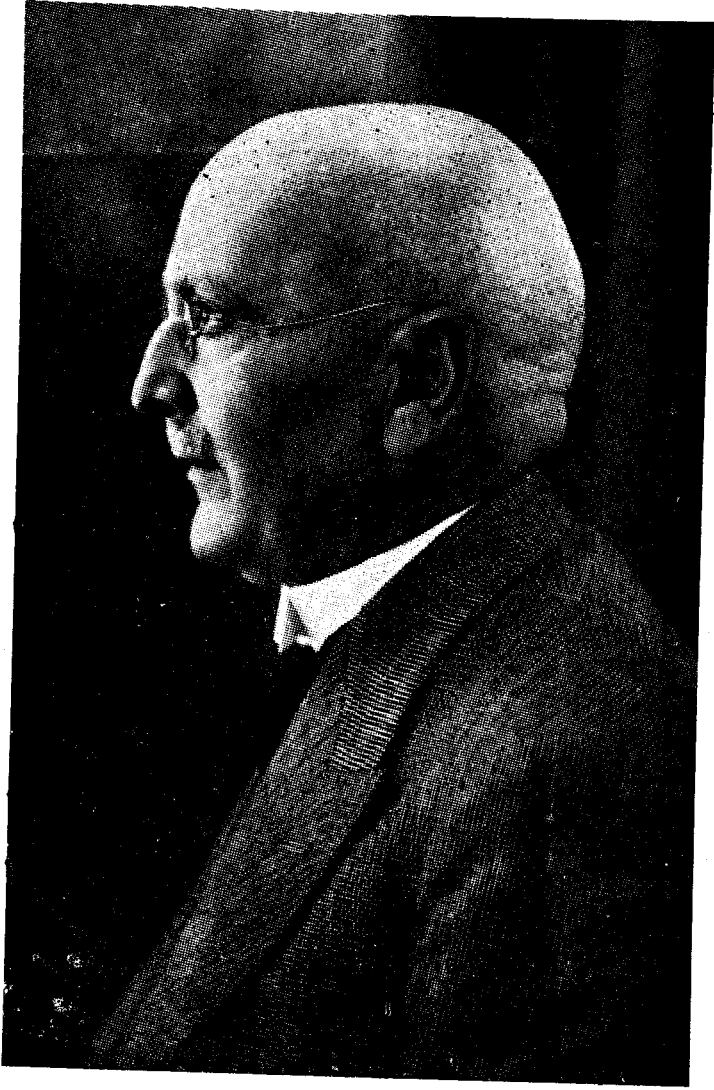
ومقوق الطبع محفوظة لهم

الطبعة الثالثة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

طبع على مطابع :

مؤسسة الاعلي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠



محمد كرد علي

۱۸۷۶ - ۱۹۵۳ م



أحمد تیمور

۱۸۷۱ - ۱۹۳۰ م

الهدى

صديقي الأبرّ العلامة العامل أحمد تيمور باشا حفظه الله :
رأيتك بعد عالمي مصر والشام ، ومفخر العرب وحجة الإسلام ،
أستاذنا المعظمين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله ،
فرداً في المعاصرين من بني قومي ، بأخلاقك الطهر ، وعلومك الغر ،
وحرصك على نشر آثار السلف ، وتفانيك في تثقيف عقول الخلف .
ولقد أوليت كتاب « خطط الشام » من معارفك وعوارفك قسطاً
عظيماً وهو لم يبرح ، علم الله ، غرساً ضيئلاً ، فلما أن أورك عوده ،
وأطعمت شجرته ، كانت خزانة علكم الأعلام في عاصمة النيل ، أحق أن
تهدى إليها ثمرة طال التوفر على تعهدها في جنات دمشق .
لم تفتأ تبعث همتي على العمل ، وتأخذ بيد عجزتي لأقوى على إخراج
هذا السفر للناس ، فالآن وقد تحققت الأمانى تفضل وزد في الإحسان ،
واقطع من وقتك الثمين ساعات ترشدني بها الى مواطن الضعف منه ،
فتقلدني من منتك اللاحقة ، فلاة فوق قلائدك السابقة .
واني لمعترف بقصوري عن وفاء حق مروءتك ووفائك ، في زمن قلّ
فيه أهل المروءات الأوفياء ، ممن لا تبطرحهم المظاهر الغرارة ، ولا تسكرهم
النعم الدارة ، ولا تغيرهم البيئات والأجواء .
أعزّ الله بحياتك دولة العلم والأدب ، وعلمّ العاملين من إخلاصك
ما يستعيدون به عزّة العرب ، وأقال هذه الأمة المحبوبة عثرات الليالي
ونزوات الأيام ، وقيض لها من ينعشها بالعلم من تشتت الكلمة والتواء
الأعلام ، ليعلو في المجتمع الإنساني سعدها ، ويرتفع في أمم الحضارة
الحديثة مجدها ، بحوله وطوله .

محمد كرد علي

خطوط الشيخ

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية
صحوة بquam المؤلف
طبعت باذن من ورثته
ومقوق الطبع محفوظة لرام

طبع على مطابع :

مؤسسة الاعلي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

الدولة النورية

« من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩ »

فتنة الإسماعيلية ووقعة دمشق :

لم يكف الشام تفرق كلمة أمرائه واستصغابهم الفرنج لسواحلها في الربيع الأول من القرن السادس ، حتى مُني بعدو داخلي يقاتل أهله في عَصْر دارهم ويستنجد بالفرنج على إرهابه ، ونعني بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديماً ويدعون في هذا الدور بالباطنية أو الإسماعيلية . فقد انتشر مذهبهم في كل بلد وكثر الدعاة إليه ، وكانت دار الدعوة في حلب ودمشق ، موطن التنفيذ والعمل . فإن أبناء هذا المذهب ودوا لو يؤسسون دولة في العراق أو الشام ، ولكنهم أخفقوا غير مرة ، ولما شعروا بضعف أمراء الشام وتشتتهم ، واشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين ، أيقنوا أن الفرصة قد سنحت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام ، ودعا بدمشق إلى مذهبه ، فتبعه خلق كثير من العوام وسفهاء الجهال والفلاحين ، ووائقه الوزير المزدقاني فأظهر دعوته علناً ، بعد أن كان يخفي ويظوف المعالم والمجاهل ولا يعلم به أحد ، فعظمت به وبشيعة المصيبة . وسكت عن هؤلاء الباطنية العلماء وحماة الشريعة خوفاً من بطشهم ، ولما استفحل أمرهم في حلب ودمشق اضطر صاحب دمشق طغتكين أن يسلمهم قلعة بانياس دفعاً لشرهم ، ليسلطهم على الفرنج ويقطع تسلطهم على المسلمين ، فعدّ الناس ذلك من غلطاته .

عظم أمر بهرام بالشام وملك عدة حصون بالجبال وقاتل أهل وادي التيم ، وكان سكانه من النصرانية والدروز والمجوس وغيرهم ، واسم أميرهم الضحالك بن جندل ، ثم قتل بهرام وقام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل ، وأقام الوزير

المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلاً اسمه أبو الوفا ، وعظم أبو الوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكانت الفرنج ليسلم إليهم دمشق ، ويعوضوه بصور ، وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليجعل أصحابه على باب الجامع ، وعلم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزير المزدقاني وأمر الناس فثاروا بالإسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف إسماعيلي (٥٢٣) وقال سبط ابن الجوزي : وكان عدة من قتل من الإسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل ولم يتعرضوا لحرمهم ولا لأموالهم ، ووصل الفرنج في الميعاد وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء ، واشتد الشتاء فرحلوا كالمهزمين ، وتبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة كثيرة منهم ، وسكّم إسماعيل الباطني قلعة بانياس إلى الفرنج وصار معهم .

قال ابن الأثير : ولما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والإسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا على دمشق إذ لم يتم لهم ملكها ، فاجتمعوا كلهم صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم ، ومن وصل إليهم من البحر للتجارة والزيارة في خلق عظيم نحو ألفي فارس ، وأما الراجل فلا يحصى . وروى ابن القلانسي أنهم كانوا يزيدون على ستين ألفاً فارساً وراجلاً ، وساروا إلى دمشق ليحصروها ، ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركمان فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس ، ووصل الفرنج فنازلوا البلد وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والغارة على الكور ، فلما سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً قد سار إلى حوران لنهبه وإحضار الميرة ، كما نهب صاحب القدس (٥٢١) وادي موسى وسبي أهله وشردهم ، سير إليهم أميراً من أمرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين ، فلقوا الفرنج فواقعهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فظفر بهم المسلمون وقتلوه فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه أربعون رجلاً ، وأخذوا ما معهم وعادوا إلى دمشق لم يمسسهم قرح ، فلما علم من عليها من الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه منهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم .

ولما استولى الفرنج على قلعة بانياس بنزل صاحبها الباطني عنها وانضمامه إليهم سقطت بأيديهم أيضاً قلعة القدموس وكانت للباطنية . وبإحراز هاتين القلعتين قوي أمر الفرنج وإن عظمت خسائرهم المادية ، وعاد الناس فأمنوا وخرجوا بعد فشل

الصليبيين في فتح دمشق وأيقنوا أن الفرنج لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل
لفناء أبطالهم واجتياح رجالهم وذهاب أنفاهم .

دخول آل زنكي الشام :

كانت مملكة حلب للبرسقي وبها ولده مسعود فلما قتل البرسقي استخلف
مسعود الأمير قيمان بجلب وسار إلى الموصل ثم استخلف على حلب قتلغ أبه
السلطاني فأساء السيرة ومد يده إلى أموال الناس لا سيما التركات ، وتقرب إليه
الأشرار فنفرت قلوب الناس منه . وكان سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق الذي
كان صاحبها أولاً مقيماً بحلب ، فاجتمع إليه أحداثها وملكوه المدينة وقتلغ في
القلعة ، وسمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلين صاحب أنطاكية فصافوه بمال ،
فرحل بعد أن خندق الحلبيين حول القلعة ، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر
البلد ، وأشرف الناس على الخطر العظيم ، وأرسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل
عسكراً مع القائد قراقوش إلى حلب ، ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فأجاب
أهل حلب إليه ، وتقدم عسكر زنكي إلى سليمان وقتلغ بالمسير إلى زنكي فأجابا ،
فلما وصلا الموصل أصلح زنكي بين سليمان وقتلغ ولم يرد واحداً منهما إلى حلب ،
وسار زنكي إلى حلب وملك في طريقه منبج وبزاعه وتلقاه أهل حلب ودخل ورتب
الأمر وملكها وقلعتها (٥٢٢) . قال ابن الأثير : ولولا أن الله تعالى قد منّ
على المسلمين بملك أتابك لبلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض
البلاد الشامية .

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد وأرسل صاحب دمشق يلتمس منه المعونة
على حرب الفرنج ، وبادر إلى تجريد وجوه عسكره ، وكتب إلى ولده بهاء الدين
سونج بحماة يأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ، فخرج من
حماة إلى نخيم عماد الدين أتابك فأحسن لقاءه ثم غدر به وقبض عماد الدين على
سونج وعلى جماعة المقدمين واعتقلهم في حلب ، وزحف من يومه على حماة وهي
خالية من حماتها فملكها ، ورحل إلى حمص ، وكان صاحبها قيرخان بن قراجه
معه ، وطلب منه تسليم حمص فراسل نوابه وولده فيها فلم يلتفتوا إلى مقاله ،

فأقام عماد الدين عليها مدة طويلة يبالغ في محاربة أهلها فلم يتهياً له ما أراد فرحل عنها إلى الموصل .

وطلب صاحب دمشق الى صاحب الموصل أن يطلق ولده ومن اعتقلهم من الأمراء والمقدمين فطلب عنهم خمسين ألف دينار ، فأجاب تاج الملوك إلى تحصيلها ، ولم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج ومن معه من الأمراء إلا في سنة (٥٢٥). ومات الخصي صاحب صرخد فاستولت سُرَيْتته على قلعتها ، وأرسلت إلى دُبَيْس بن صدقة صاحب الحلة تستدعيه من العراق للتزوج به ، وتسليم صرخد بما فيها من مال وغيره إليه ، فسار دبيس إلى الشام فضل به الأدلاء بنواحي دمشق فترل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة فحملوه إلى صاحب دمشق تاج الملوك ، ولما سمع عماد الدين زنجي بأمر دبيس أرسل إلى تاج الملوك يطلبه ، ويئذله لإطلاق ولده سونج ومن معه من الأمراء فأجابه تاج الملوك إلى ذلك وأطلق عماد الدين سونج ورفاقه .

وفي سنة (٥٢٤) جمع عماد الدين عساكره وسار من الموصل إلى الشام ، وقصد حصن الأثارب ، وكان أهله على اتصال بالفرنج يقاسمون الحلبيين على جميع أعمال حلب الغربية ، فالتقوا وعسكر عماد الدين واشتد القتال وانتصر المسلمون وانهمز الفرنج ووقع كثير من فرسانهم في الأسر وكثر القتل فيهم ، وأخذ المسلمون الأثارب عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين .

استنجاد بعض الصليبيين بالمسلمين واستقرار حال دمشق :

بينما كانت دمشق مغتربة بتاج الملوك بوري لشجاعته ، وقد سد مسد أبيه في كفايته وكفاحه ، ناداه الأجل سنة (٥٢٦) عقيب جرح كان به من الباطنية ، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل ، ووصى ببعليك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد . ولما استقر إسماعيل بن بوري في ملك دمشق ، واستقر أخوه في بعليك استولى محمد على حصن الرأس وحصن اللبوة ، فكاتب إسماعيل أخاه في إعادتهما فلم يقبل ، فسار صاحب دمشق وفتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس وقرر أمرهما ، ثم حصر أخاه في بعليك فسأله الصلح فأجابه إليه ، وأعاد عليه بعليك وأعمالها واستقرت أمورهما .

ودخلت سنة (٥٢٧) فسار إسماعيل صاحب دمشق على غفلة من الفرنج الى حصن بانياس وفتحته ، وذلك لما بلغه من عزمهم على نقض الموادعة المستقرة ، وهال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس وأكثروا التعجب من تسهل الأمر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في أقرب مدة . وفتح إسماعيل حماة وقلعتها وقتل من كان بها ، وحصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حمله إليه . وفي هذه السنة اجتمعت التراكين وقصدوا طرابلس ، فخرج من بها من الفرنج اليهم واقتتلوا فانهزم الفرنج ، وسار القومص صاحب طرابلس ومن في صحبته فحصرهم التركان في قلعة بعين وهرب القومص منها . ثم جمع الفرنج جموعهم وقصدوا التركان ليرحلوهم عن بعين فاقتتلوا وانحاز الفرنج الى نحو رفية وعاد التركان عنهم .

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك ، ونشبت الحرب بينهم وقتل منهم جماعة ، والسبب في ذلك اختلاف طفيف نشأ بين أمراءهم حدا بصاحب يافا على أن يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعدوه حتى خربت تلك الأرجاء إلى حدود مدينة أرسوف ، وعقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فجاء صاحب القدس وحاصره ، ولكن المسلمين اهتلبوا الغرة فجاسوا خلال ديار الفرنج وأخذوا يناوشونهم القتال ، فخاف صاحب بيت المقدس العاقبة وأراد مشاغلة المسلمين فأغار على أطراف حلب ، فنهض إليه الأمير سوار النائب في عسكر حلب ومن انضاف إليه من التركان وتجاربوا أياماً وتطاردوا إلى أن وصلوا إلى أرض قنسرين ، فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة ، فعاود سوار النهوض إليهم في من بقي من عسكره والأتراك ، فلقوا فريقاً من الفرنج فأوقعوا به وكسروه ، فانكفأت الفرنج إلى أرضها مهزومة ، وانتهى إلى سوار خبير خيل الرُّها فنهض هو وحسان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ، وأغار سوار على الفرنج في تل باشر فقتل منهم ألف فارس وراجل وقتلهم أيضا في موضع يعرف بنوار في عسكر حلب وما انضاف إليه من التركان ، وكانت الحرب بين الفريقين سجالات . واشترى الإسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرو ، سمعوا إليها وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج ، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم .

وفي سنة (٥٢٨) سار صاحب دمشق إلى شقيف تيرون وانترعه من ابن ضحاك ابن جندل التيمي المتغلب عليه . وانتهى إليه أن الفرنج اعتمروا على نقض المستقر

من الهدنة وقصد أعمال دمشق ، وشرعوا بإخراب أمهات الضياع في حوران ،
فوقع التطارد بين الفريقين عدة أيام ، ثم أغفلهم صاحب دمشق وقصد بلادهم
عكا والناصرة وطبرية وما جاورها فظفر وغم وسبي ورجع سالماً في نفسه وجملته .
فذل الفرنج وطلبوا تقرير الصلح بينهم .

خيانة صاحب دمشق وقتل أمه له :

ومما خدم عماد الدين زنكي أن شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق كان
لأول جلوسه على عرش أبيه أقر الولاة على حالهم وسار بسيرته مدة ، فنفس من
خناق الأهلين وساعده اختلاف الصليبيين ثم تغيرت نيته وكثرت قبائح ومصادرة
المتصرفين ، والأخبار المستورين ، بفنون قبيحة في العقوبات ، وأضمر السوء
لأصحاب أبيه وقبض على خواصهم وأركان دولته فنفرت القلوب منه . وكان
(٥٢٧) وثب عليه أحد مماليك جده طفكتين وهو في الصيد بناحية صيدنايا وجبة
عسال فأخطأه ، وقرره شمس الملوك فقال : ما أردت إلا راحة المسلمين من شرك
وظلمك ثم أقرّ على جماعة من شدة الضرب فضرب شمس الملوك أعناقهم من غير
تحقيق ، وقتل أخاه الأكبر سونج صاحب حماة الذي كان في أسر عماد الدين ،
قتله بالجوع في بيت ، فعظم ذلك على الناس ، ونفر من ظلمه المساكين والضعفاء
والصناع والمتعيشون والفلاحون وامتنه العسكرية والرعية .

وأهمّ ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتأمروا عليه ورأوا
السييل إلى النيل منه ، خصوصاً لما بعث إلى عماد الدين زنكي حين عرف اعترامه
على قصد دمشق لمنازلتها يحثه على سرعة الوصول إليها ويمكنه من الانتقام من كل
من يكرهه من المقدمين والأمراء والأعيان بإهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من
منازلهم ، وكتب إليه أنه إذا تأخر استدعى الفرنج وسلم إليهم دمشق بما فيها ،
وأسرّ ذلك في نفسه ولم يبيده لأحد من وجوه دولته وأهل بطانته ، وشرع في نقل المال
والمنازع إلى حصن صرخند . فاجتمع أعيان الدولة وأنهار الحال إلى والدته الخاتون صفوة
الملك ، فدبرت عليه من قتله من غلمانها ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده ، لما
عرفت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته . ونودي بشعار أخيه شهاب الدين
محمود بن تاج الملوك . وجاء عماد الدين زنكي وخيم بأرض عذراء ، فلما طال الأمر

راسل في طلب الصلح على أن يخرج شهاب الدين محمود إليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه ويخلع عليه ويعيده إلى بلده ، فلم يجب إلى ذلك ، وتقررت الحال على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه .

قُتل شمس الملوك باتفاق رأي والدته مع أرباب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه واستصراخه الإفرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي ، وكان جده طفكتين مثلاً سائراً في غزوه لهم المرة بعد المرة ، ومداراتهم أحياناً بالحيلة ، وجمع أمراء الشام على قصدهم أبدأ ، ومصانعة خلفاء بغداد وخلفاء مصر طلباً لتجدتهم ، ولو بالقليل من قوتهم المادية والمعنوية ، ولكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته أمه ورجال دولته . وكانت هذه الأعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون إلا على مصلحتهم الخاصة ، وإذا تأثرت أقل تأثر عمدوا إلى وضع أيديهم في أيدي أعدائهم من موجبات بقاء الإفرنج في ثغور الشام وأنطاكية والرُّها وطبرية والناصرية والقدس واستيلائهم على كثير من المعاقل . ولو لم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الأربع دمشق وحماة وحمص وحلب ، بالنظر لخلل الدول المستولية عليها واضطرابها إلى قتال أعدائها من المسلمين وأعدائها من الصليبيين ، بل وأعدائها في الداخل أمثال شمس الملوك . وللناقد البصير بعد هذا أن يقول إن دولة أتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب في أولها فأصبحت ذليلة وعبثاً ثقيلاً على الشام بعد بطنين من مؤسسها .

توحيد الحكم على يد زنكي وقضاؤه على إمارة صليبية :

بعد تقلقل أمر آل طغتكين أخذت روح آل زنكي تسري في القطر ، فنهض سوار نائب زنكي في حلب سنة (٥٣٠) فيمن انضم إليه من التركمان ، وجرّد جيشه على الأعمال الفرنجية فاستولى على أكثرها ، وغزا اللاذقية وأعمالها بغتة ، وعاد من هذه الغزاة إلى شيزر ومعه زيادة عن سبعة آلاف أسير بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف دابة ، واجتاح أكثر من مائة قرية كبيرة وصغيرة فامتألت الشام من الأسارى ورجعوا بهم إلى حلب وديار بكر والجزيرة .

هذا ما وقع من الأحداث في العقد الثالث من القرن السادس ، وأهم ما حدث ظهور دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل في حلب وإيقانه أنه لا سبيل إلى دفع

الصلبيين عن الشام إلا إذا رجع أمر المسلمين إلى ملك واحد ، وأنه إذا تقدم بجيشه قليلاً بعد أخذه حلب يستولي على دمشق ، وينقذ الأمة من فوضى آل أنابك طغتكين وضعفهم ، وكثر هجوم عماد الدين على حمص (٥٣٠) فتسلمها صاحب دمشق من أولاد قيرخان بن قراجة وعوضهم عنها تدمر ، فتابع عسكر زنكي بحلب وحماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها إلى صاحب دمشق ، فأرسل هذا إلى عماد الدين في الصلح فاستقر بينهما . وكف عسكر عماد الدين عن حمص وحدثت فتنة بدمشق بين صاحبها والجنود وعاد عماد الدين فنازل حمص (٥٣١) وبها صاحبها معين الدين أئسر فلم يظفر بها ، فرحل عنها إلى بعين وحصر قلعتها وهي للفرنج وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا إلى زنكي ليرحلوه عن بعين ، فلما وصلوا إليه جرى بينهم قتال شديد فانهزمت الفرنج ، وعاد عماد الدين حصار الحصن فطلب الفرنج الأمان ، فقرر عليهم تسليم الحصن وخمسين ألف دينار فأجابوا إلى ذلك ، وكان زنكي مدة مقامه على حصار بعين قد فتح من الفرنج المعرة وكفرطاب ، ومنع زنكي في هذه الواقعة عن الفرنج كل شيء حتى الأخبار ، فكان من بحصن بعين منهم لا يعلم شيئاً من الأخبار لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده . وملك زنكي حصن المجدل (٥٣٢) وكان لصاحب دمشق ، ودخل مستحفظ بانياس إبراهيم بن طرغت تحت طاعته ، وسار إلى حمص وحصرها ثم رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب ، ثم عاد إلى حمص فسلمت إليه المدينة وقلعتها ، وكان شرع أهل حلب في تحصينها وحفر خنادقها والتحصن من الروم بها ، وأغارت خيل الصليبيين على أطراف حلب ، وتملكوا حصن بزاعة ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت إليهم فرقة وافرة من أحداث حلب فقاتلتهم وظفرت بهم ، ونهض سوار في عسكر حلب وأدرك الصليبيين في الأثارب ، فأوقع بهم وقهرهم ونزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة وحاصرها حتى ملكها بالأمان وأسر من فيها ثم غدر بهم ، ونادى مناديه من تنصر فهو آمن ومن أبي فهو مقتول أو مأسور ، فتنصر منهم نحو أربعمائة إنسان منهم القاضي والشهود ثم رحل عنها إلى شيزر وترك فيها والياً يحفظها مع جماعة وأقام عشرة أيام يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة فهلكوا بالدخان وكان سكان بزاعة خمسة آلاف وثمانمائة نسمة ، وعاد زنكي وحاصرها حتى ملكها ونخرب الحصن والبلد عامر . وفي

سنة (٥٣٣) سار من مصر عسكر إلى وادي موسى فحاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام ، وعاد بعد ما توجه إلى الشوبك وأغار عليها وترك هناك أميرين على الحصار . وتزوج عماد الدين أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل وذلك طمعاً من عماد الدين في الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة في الدولة . وكثيراً ما كانت الكلمة النافذة للنساء من آل بيت الدولة والغيرة الصادقة في وقايتها من السقوط .

وكان متملك الروم خرج في السنة الفاتنة واشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج وعمر ميناء الإسكندرونة ثم سار إلى بزاعة وملكها وغدر بأهلها ثم رحل عنها إلى حلب ، فجربى بينه وبين أهلها قتال كثير فعاد عنها إلى الأثارب وملكها وسار نحو شيزر وحاصرها أربعة وعشرين يوماً فأنجدها عماد الدين حتى اضطر متملك الروم إلى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم . وكان يرسل إلى ملك الروم يوهده بأن فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم : إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً ، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها . ونهض هذه السنة الأمير بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي والتركمان إلى ناحية طرابلس فظهر إليه قومصها والتقى فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الأحمر وغيره . ونهض ابن صلاح والي حماة في رجاله إلى حصن الخربة فملكه .

قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حاب وحماة وحمص والمعرة وكفرطاب وبعلبك وغيرها ، وإفحاشه القتل في الفرنج واستيلائه على بعض معاقلهم ، فلم يسع شهاب الدين محموداً صاحب دمشق إلا مهادنته على قاعدة أحكمت بينهما ، وأصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام . أما الفرنج في أنطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم وصالحوه على ما اشترط ، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة مع عماد الدين وقبضوا في أنطاكية على خمسمائة رجل من تجار المسلمين وأهل حلب والسفار .

وبينا كان عماد الدين يدبر ويفكر ويهتم لأخذ دمشق نعمى الناعي (٥٣٣) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري ، قتله غلماناً في فراشه فتولى بعده أخوه جمال

الدين محمد صاحب بعلبك فبعثت والدته الخاتون صفوة الملك والدة شهاب الدين إلى زوجها عماد الدين زنكي ، وهو على الموصل ، تبعث همته على النهوض لطلب الثأر ، فجاء وفتح الأثارب وبعلك . وقال بعض المؤرخين : إن زنكي أمن قلعة بعلبك وتسلمها ثم غدر بأهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه .

ولما رأى صاحب دمشق أن دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل إليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين ، فسار هذا طالباً للقاء الفرنج إن قربوا منه ثم عاد إلى الغوطة ونزل بعذراء فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين ورحل متاقلاً . وكان الشرط بين الفرنج وصاحب دمشق أن يكون في جملة المبدول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد إبراهيم بن طرغت ، فاتفق أن نهض هذا إلى ناحية صور للإغارة عليها ، فصادفه ريمند صاحب أنطاكية واصلاً في الفرنج على إنجاد أهل دمشق ، فالتقيا فكسره وقتل في الرقعة ومعه نفر يسير من أصحابه ، وعاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها وجمعوا إليها رجال وادي التيم فنهض إليها معين الدين أتمز في عسكر دمشق وحارب بانياس بالمنجنقات ، ومعه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها وسلمها إليهم .

وجاء عماد الدين بعسكره هذه السنة أيضاً إلى دمشق وقرب من السور ، وكان قد فرق عسكره في حوران والغوطة والمرج وسائر الأطراف للغارة ، ونشبت الحرب بينه وبين عسكر دمشق ، ثم سار عائداً على الطريق الشمالية بالغانم الدثرة . وسار عماد الدين إلى أرض الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه . وفي الروضتين أنه لقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ، فحاصره شديداً فراسلوه في طلب الأمان ، وكان حصن بارين من أضر كور الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من الأرضين ونهبوها وتقطعت السبل ، كان عماد الدين استولى على هذا الحصن سنة (٥٣١) وأعطى الأمان لمن فيه وقرر عليهم تسليمه ، ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه . وظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الفائزين عليها فعادوا مفلولين . وملك الباطنية حصن مصياف ، وكان واليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر ، فاحتال عليه الإسماعيلية ومكروا به حتى صعّدوا إليه وقتلوه

وأغار الأمير لجه التركي (٥٣٦) النازح عن دمشق إلى خدمة عماد الدين على بلد الفرنج وظفر بجيولهم وقتك بهم فقتل منهم سبعمائة رجل . وظهر (٥٣٧) صاحب أنطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب في حفظ حلب وحال بينه وبينها . وظهر متملك الروم في الثغور دفعة ثانية وبرز إليه صاحب أنطاكية وأصلح أمره معه . وفي سنة (٥٣٧) خرجت فرقة وافرة من الفرنج إلى ناحية بعلبك للعبث فيها فقتل المسلمين أكثرهم وعادوا إلى بعلبك سالمين . وظفر عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار والأجناد خارجين من أنطاكية تريد أرض الفرنج فأوقعوا بها وقتلوا من كان معها من فرسانهم .

وفي سنة (٥٣٩) فتح عماد الدين زنكي الرها من الفرنج ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات . وكان لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا سلم إليه في الحال ، وهزم التركمان الفرنج الذين انتدبوا من أنطاكية لإنجاد أهل الرها شر هزيمة ، وتمكن السيف في أكثر الرجال وتفرقوا في أعمالهم ومعاقلهم مفلولين . أي أن عماد الدين أتى ببأسه على إمارة الشمال الصليبية برومتها وهي إحدى الإمارات الأربع التي أقامها الصليبيون في الشام ، فلم يبق لهم إلا إمارة أنطاكية وهي تمتد إلى قيليقية وإمارة طرابلس وإمارة القدس .

الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين :

نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام وهي إذا ما خلا فيها سيد قام سيد ، يشتد في دفعهم أو يحافظ على الحالة الحاضرة ، وكلما رأى من يعتد بعقلهم وغيرتهم من أمراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم وأمعنوا في تخريب حصونهم وأرضهم ، وهذه الأراضي أي القرى والمزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين والمسيحيين ، والويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجمين والمدافعين فإن مزرعته وداره إلى يوار ، ولا سيما في أعمال حلب وطرابلس لقربهما من إمارتين إفرنجيتين قويتين وأعمال حوران والسواد والبلقاء وجبل عوف وجبل الشراة فإن المتكفل بغزوها صاحب القدس وهو أقوى ملوك الفرنج في الشام . وإليه يرجع في المهمات والقضايا العظيمة ، وهو ينجد أصحاب الرها وأنطاكية وطرابلس يوم الشدائد .

وكان آل تنوخ وآل معن حجازاً في أعالي سواحل لبنان بين أملاك الصليبيين وأملاك صاحب دمشق وهم الأثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق والمتزلون للساحل ولكن خدمتهم للمسلمين أكثر بالطبع وهوامهم مع أبناء دينهم وعلى نحو ذلك كان الدروز وقد قاتلوا في صفوف المسلمين فأظهروا من الشجاعة والتجدة ما تفرُّ به العيون . ومن الغريب أن شيعة جبل عامل كانت مع الصليبيين على إخوانهم المسلمين إلا قليلاً ، وكأنهم اضطروا إلى ذلك اضطراراً لأن أرضهم في قبضة الصليبيين ، كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين ، ومن الموارنة أدلاء لهؤلاء وعمال وتراجمة ، وكان بطاركة أهل الصليب يتنقلون في قرى لبنان الساحلية وهم السلطان الأكبر على أمراء الفرنج

وكانت قوى فريق المسلمين وفريق الدخلاء متعادلة في الغالب ، ينال كل منهما من جاره ويغزوه في عقر داره ، ويعود وقد ملئت أيدي المتحاربين بالغانم والأسرى . والفرنج يأتيهم المدد كل سنة على طريق البحر ، والبحر لا يحمل الناس كالبهر ، والمسلمون تأتيهم النجذات من مصر في الجنوب ومن العراق في الشرق ومن ديار بكر وديار مضر وآسيا الصغرى . والفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طليان وفرنسيين وألمان ، وجيوش المسلمين مؤلفة من تركمان وأكراد وعرب .

وما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة . ولم يكتب لأحد عظماء الأمراء من أهل الاسلام أن يطول عهده وترسخ قدمه في الملك والسلطان حتى يحمل حملة رجل واحد على الفرنج ، فإن دمشق وحلب وعليهما في الجنوب والشمال المعول في الحرب لأنهما المعسكران العظيمان كثيراً ما شغلا بأنفسهما ورد دسائس الذين يتربصون الدوائر بملوكهما ، والفرقة الباطنية التي كان المقصد من الإغضاء عنها أن تقف سداً في وجه الأعداء لما عرف به أربابها من الشدة والمضاء ، أصبحت آلة شر على المسلمين لا لهم في أكثر الأحيان ، ولم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهباً وإن لم ينشقوا عنهم قومية .

فاقتضت الحال أن يتولى أمر الأمة بعد تنش وآق سنقر ويزان وابن عمار وابن منقذ ومسعود وطغتكين وبوري وزنكي أمراء من عيار أرقى وبسلطة أعظم ، تكون اجزاء حكومتهم أكثر تجانساً من ذي قبل ، وليس الزمن زمن ملك وإمارة ، ولا عهد سكة مضروبة ، وخطبة مخطوبة ، بل العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ،

وعمل بالسلاح والكراع ، وعمل بالخطط العسكرية والخدع الحربية ، وقت كله جد في جد ، وإلا فالعدو يتقدم ، والإسلام يهلك ويعدم ، وعمل عظيم كهذا متوقف على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى ، ويجذب قلوبهم بصالح أعماله لا يبهرج مقامه ولطف مقاله ، ويبهزمهم بلامع إخلاصه ، لا يبريق الذهب على كرسيه وتاجه .

صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين :

بدأ العقد الرابع من القرن السادس وفيه قتل عماد الدين زنكي على قلعة جعبر بيد جماعة من مماليكه . وكانت صفاته صفات حرية راقية اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه وشدته ، وكان يحب التوسع في الملك والذّب عن حوزة الإسلام ، ويدرك بثاقب نظره أن الأعداء محيطة بمملكته لا ينجيها منهم إلا القضاء على إحدى إماراتهم في الرّها وما إليها ، ولا يتقى بأسهم بمناوشات وحروب تستصفي معها بعض القلاع والحصون ثم يستعيدونها وبالعكس ، وما دامت دمشق لم تدخل في سلطانه لا يقوى ملكه بالشام الإسلامية مع ملكه الموصل على ردّ عواصي الدهر ودفع غوائل العدو . توفرت في شخصه شروط التوسع في الملك ، وعرف إدارة الممالك بالعمل ورثها من أبيه آق سنقر وبذّة فيها ، فكان مريباً فاضلاً شهماً مشهوداً له بذلك ، دفع إليه السلطان محمود لما تولى الموصل ولديه آلب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فلذا قيل له أتاك .

ومن صفات عماد الدين أنه كان ينهى أصحابه عن شراء الملك ويقول : إن الأقطاع تغني عنها ، ومتى كانت البلاد لنا فلا حاجة إليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الأملاك معها ، ومتى كان لأصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية وظلموهم ، على حين كانت الاقطاعات في عهده للأمراء والقواد وأرباب الدولة شائعة غير منكرة عند المسلمين وعند الصليبيين في هذه الديار . قيل للشهيد أتاك زنكي : إن هذا كمال الدين بن الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار . فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ! إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار . فإن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار . وكان كما

قال . وهذا أكبر دليل على حرصه على رجاله وإيقانه أن الدولة لا تقوم إلا بأمثال الوزير الشهرزوري .

وكانت لعماد الدين عناية بأخبار يتشدها ويفرّم عليها الأموال الطائلة ، فيقف على أخبار الملوك ساعة بساعة ، وإذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع أحد الرعية لثلا ينتشر الخبر في البلد . وكان يفرق الأموال في القلاع والبلدان فلا يجعلها في مكان واحد ويقول : إذا كانت الأموال في موضع واحد وحدث حادث وأنا في موضع آخر وذهبت لم انتفع بها ، وإذا كانت متفرقة لم يحل شيء بيني وبينها رجعت الى بعضها . وكانت المملكة قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلات أهلاً وسكاناً ، وقبل أن يجيء زكيء إلى الشام اشتدت صولة الصليبيين واتسعت مملكتهم من ناحية ماردين وشيخان إلى عريش مصر وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر ، وجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة يأخذونها منهم ليكفروا أذيتهم عنهم . وكان مهيباً شديد الوطأة على من يعشون بحياة الامة . بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة وانزجروا ، وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد . وكان يقول : إن لم تحفظ نساء الأجناد وإلا فسدت لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار . ترجمه العماد الكاتب بقوله : كان زكيء ابن آق سنقر جباراً عسوقاً ، بنكباء النكبات عسوقاً ، نمري الخلق ، أسدي الحق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العرف ، قد استولى على الشام من سنة (٥٢٢) إلى ان قتل في سنة (٥٤١) وهو مرهوب لسطره اه . وبعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود وهذا الرجل الذي كان ينتظر لإنقاذ الشام مما حل به من الولايات ، فإنه جمع الصفات الحسنة في أبيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه .

كان نور الدين في قلعة جعبر يوم مقتل أبيه عماد الدين بيد المماليك فسمي الشهيد ، فأخذ في الحال خاتمه وهو ميت من اصبعه وسار إلى حلب فملكها ، وأرسل كبراء دولة زكيء إلى ولده سيف الدين غازي بن زكيء يعلمونه الحال وهو بشهرزور ، فسار إلى الموصل واستقر في ملكها . قال ابن عساكر : وسير نور الدين الملك آلب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم : إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له ، وأنتم في

خدمته ، وإن تأخر فأنا أقرر أمور الشام وأتوجه إليكم . ولما انتهى نعي عماد الدين إلى صاحب دمشق خف في الحال إلى حصن بعلبك وحصره وكان متوليه نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين يوسف ، فخاف أن لا يتمكن أولاد زنكي من إنجاده بالمعاجل فصالح صاحب دمشق وسلم القلعة إليه ، وأخذ منه إقطاعاً ومالاً وملكه عدة قرى من عمالة دمشق .

ولم يكد نور الدين يترجع في دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضئه ، وصحة حكمه وعقله وحزمه ، وباستيلائه على الأعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام في حياة سياسة جديدة ، بعد تقلقل أمر الدولة الأتابكية بدمشق ، ودخول الوهن على فروعها بزوال أصلها الثابت ظهير الدين طُغتكين . وسار نور الدين على قدم أبيه عماد الدين في التقرب من ملوك الأطراف فخطب ابنة معين الدين أتمز الملك الحقيقي لدمشق ، والحاكم المتحكم في سياستها ليتم له بالصهر والقرابة ما كان أبوه يرمي إليه بزواجه بأب شهاب الدين محمود فلم يتم له ، وتزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية واقصراً فأمن بهذا الزواج من غارة يغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام ، ومن تسرب عسكر الصليبيين عن طريق الروم إلى مملكته .

بعد أن أصيب جوسلين صاحب الرُّها بتمزيق شمل إمارته قبل سنتين على يد عماد الدين زنكي ، جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرُّها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها وقتل من بها من المسلمين . فنهض نور الدين (٥٤١) فيمن انضاف إليه من التركمان فاستعاد البلد وقتل كثيراً من أرمناها ، ومحق السيف كل من ظفر به من نصاراها . واستنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والي صرخد الذي كان خرج إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم ، فجاء نور الدين في عسكر حسن فاجتمع الجيشان على حلب ، وبلغ صاحبي حلب ودمشق أن الفرنج احتشدوا قاصدين بصري فحال عسكر المسلمين بينهم وبين الوصول إليها ، واستظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الأدبار فتسلم صاحب دمشق حصني بصري وصرخد .

الحملة الصليبية الثانية وغزوها دمشق :

وفتح نور الدين في السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاح بالسيف وحصر ثامولة (؟)

ويسرفوث وكفرلاما من أعمال الفرنج . قال صاحب الكامل : كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجحد في أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم وبينما كان نور الدين يجمع شمله لضرب الفرنج في مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التي ظهر له ضعفها يوم استرد أبوه منهم الرُّها ، وردت الأخبار من قسطنطينية أن حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لويز السابع ، وألمان بزعامة كونراد الثالث ، وفي الجيش إنكليز وفلامنديون وطيغان ، ومن هؤلاء البنادقة والجنوية والبياسنة (البيزيون) وذلك لإنجاد الصليبيين في الشام ، إذ ساءت حالهم بعد سقوط الرُّها وقلَّ فارسهم وراجلهم لأن سيوف التركمان والأكراد والعرب قد حصدتهم ، وعلى كثرة تناسلهم مدة نصف قرن صبحوا في قلة وأصبح أعداؤهم في كثرة .

تجمعت هذه الحملة بتحسيس القديس برناردوس في الغرب ، وكان له كما لرؤساء الدين السلطان الأكبر على النفوس يصرفها كما يشاء . وذكر المؤرخون أن عدد هذا الجيش كان ألف ألف عنان من الرجالة والفرسان وقيل أكثر من ذلك . وفي التاريخ العام أن كلاً من الجيش الألماني والجيش الفرنسي كان مؤلفاً من سبعمئة ألف فارس ما عدا الرجالة الذين لا يحصى عددهم ، وأن الروم قدروا مجموعهم سبعمئة ألف رجل . قال وهو تقدير ظاهر المبالغة . واختار هذا الجيش طريق البر وعرض عليه روجر صاحب بوليه وصقلية أن يسافر بجرأ لأنه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن دياره ، وكانوا احتلوا سركوزة ، فلقني جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية وأمراء بني سلجوق في آسيا الصغرى ضروب القهر والمرت . قال مؤرخونا : واستمر القتل فيهم أي في الصليبيين إلى أن هلك العدد الدثر منهم ، وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر ما أفنى الكثير منهم .

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) إلى ساحل البحر كصور وعكا ، وأجمع من كان بها من الفرنج بعدما فني منهم أي من القادمين من طريق البر بالقتل والمرض والجوع نحو مائة ألف إنسان أن يقصدوا بيت المقدس . ولما قضوا مفروض حجهم عاد من عاد بعد ذلك إلى أوطانهم في البحر ، وبقي ملك الألمان أكبر

ملوكهم ومن هو دونه ، وصلّى سيبير في سس صلاة الموت ، وعادوا إلى عكا وفرقوا المال في العسكر وكان مقدار ما فرقوه سبعمائة ألف دينار ولم يعينوا لهم وجهة وما كانت وجهتهم إلا فتح دمشق فوراً وبغيرها وهربوا المسلمين بين أيديهم . ولم يشعر أهل دمشق إلا وملك الألمان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الأخضر . وكان الفرنج في نحو خمسين ألفاً من الخيل والرجل وقيل أكثر من ذلك . ويقول ابن منقذ: إن ملك الألمان لما وصل إلى الشام اجتمع إليه كل من في أرجاء الساحل من الفرنج ، فقصدوا أولاً المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعاً عنه ، فقصدوا ناحية المزة ووصلت ثلاثتهم إلى الميدان الأخضر فنشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك والتركمان وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير ، وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاية الأطراف بالاستصراخ ، وأخذت خيل التركمان تتواصل ، فلما ضاق الأمر بالفرنج بعد أربعة أيام ورأوا شدة عزيمة المسلمين في قتالهم رحلوا مفلولين .

ويرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج أن جيش الحملة الصليبية الثانية كان أكثر نظاماً وقيادة من جيش الحملة الأولى ، ليس فيه المتشردون والأشقياء ، وكان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم أخذوا بالحماسة الدينية وساروا في قيادة ملكين عظيمين . وفي التاريخ العام أن هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد نفعاً البتة حتى استغربت حالها أم النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحقت بارتكابها هذه الكارثة ، ونسبت أخرى هزيمة الحملة لخدايع الروم أو لخيانة نصارى الشرق وذكروا أن الصليبيين في القدس قد ارتشوا من أمير دمشق بمبلغ مائتين وخمسين ألف دينار وأن الأمير أرسل المال زيوفاً أو نحاساً طلي بالذهب .

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الألماني ولويس السابع الفرنسي وبردوين الثالث ملك القدس في بساتين المزة ولحق فلثمهم بالساحل ، بعد أن قطعوا أشجار الحدائق للتحصن بها وأحرقوا الربوة والقبة المهديوية . وقد وصف أبو الحكم الأندلسي جيش الفرنجة على دمشق في غيظه ومعتركه ومجتلده ومنهزمه وصفاً جميلاً قال :

بشطى نهر داريا أمرُّ ما تواتينا
وأقوام رأوا سفك الـ دما في جلق دينا

أنا مائتا ألف	عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من اندلس	وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور	ومن صيدا وتبنيينا
إذا أبصرتهم أبصر	ت أقواماً مجانينا
ولكن حرقوا في عا	جل الحال البساتينا
وجازوا المرج والتعدي	ل أيضاً والمياديننا
تخالهم وقد ركبوا	قطائرها حراذينا
وبين خيامهم ضموا الـ	خنازر والقراييننا
وريات وصلباناً	على مسجد خاتريننا

ومن توفيق صاحب دمشق يومئذ وهو مجير الدين أبق أن تدبير المملكة كان لمعين الدين أتسر مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محسناً لعسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي وصاحب حلب نور الدين محمود ، فجاء الشقيقان في جيش لب ، وانضم جيشهما بل روحه وروح أبيهما إلى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الأتابكية ، مع تحمس الأمة ومعرفتها حق المعرفة أن الفرنج إذا أخذوا دمشق سقطت الشام كلها ، وربما تعدوها إلى الحجاز وهناك الطامة العظمى على المسلمين ، وكان اجتماع آل زنكي الأقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحةً لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام ، وأن ملكها سيؤول إليهم بحكم الطبيعة . ولم يرض سيف الدين ولا نور الدين أن يناقشا مجير الدين ومعين الدين الحساب عما قدماه وقلاه ، بل مرا بالأحقاد مرّ الكرام ، وجعلوا الأقاويل دبر آذانها وعند الشدائد تذهب الأحقاد .

ذكروا أن معين الدين أتسر كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الصليبيين على دمشق ، يستصرخ به ويخبره بشدة بأسهم ويقول له أدركنا ، فدار سيف الدين في عشرين ألف فارس ونزل في لإقليم حمص وبعث إلى معين الدين يقول : « قد حضرت بجند طمّ ولم أترك بيلادي من يحمل السلاح ، فإن أنا جثت الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد وأخذت الفرنج دمشق وغيرها فإن أحببت أن أقاتلهم فسلم البلد إلى من أتق به ، وأنا أحلف لك إن كانت النصر لنا عليهم أنني لا أدخل إلى

دمشق وأرجع إلى بلادي » فمطله معين الدين وبعث إلى السواحل يقول : « هذا ملك الشرق نازل على حمص وليس لكم به طاقة ، فإن رحلتم وإلا سلمت دمشق إليه وهو يببكم وأنا أعطيكم بانياس » أي إن معين الدين أتسز أثر أن يتخلى عن بانياس مفتاح دمشق الأكبر من جهة الفرنج ، ولا يجعل لسيف الدين غازي إصبعا في بلده ، لعلمه أن دولة آل زنكي في عنقوان أمرها غضة الإهاب ودولتهم هرمة ، والفتى يغلب الهرم ويخلفه بحكم الطبيعة .

تقدم نور الدين في فتوحه :

ولما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب طرابلس إلى معين الدين وإلى نور الدين يستنجدهما على ولد ألفنس صاحب صقلية الذي أخذ منه حصن العريمة ، ويريدهما على أخذه خوفاً منه على بلده ، وكتبا إلى سيف الدين يطلبان منه المدد فأمدهما ، فحصروا الحصن وتقبوا السور ، فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم ، فملك المسلمون الحصن وأخربوه وأخذوا كل من فيه .

وعاد عسكر سيف الدين إلى الموصل وعسكر نور الدين إلى حلب وأخذ هذا يجمع أطرافه وتوجه إلى ما داني أرضه من أرض الفرنج وظفر بعدة وافرة منهم ، وجمع صاحب أنطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه ، ونال من عسكره حتى اضطر نور الدين أن يهرب بنفسه وعسكره إلى حلب . وفي هذه السنة (٥٤٣) نادى منادي نور الدين في حلب بإبطال الأذان بجي على خير العمل في أواخر أذان الغداة ، وأعاد أذان أهل السنة ففرح الناس وأبطل بذلك أثراً عظيماً من آثار الدولة العلوية الفاطمية .

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم أنطاكية من عزيمته ، وقصد الفرنج فكان بينه وبينهم مَصَاف بأرض يغري من العمق فانهزم الفرنج إلى حصن حارم وكانوا هزموا المسلمين أولاً بهذا الموضع ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع غنائم كثيرة إلى أخيه سيف الدين صاحب الموصل . وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بصري وقد اجتمع الفرنج قضمهم وقضيضهم ، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا أشد قتال فهزهم نور الدين .

وكثر عيث الفرنج في صور وعكا والثغور (٥٤٤) بعد رحيلهم عن دمشق

وفساد شروط الهدنة المستقرة بين صاحب دمشق وبينهم ، وكانوا يعيشون في عمل دمشق ، ويفحشون في التخريب ويمعنون في الغارة ، فأغار عليهم العسكر الشامي والتركاني والأعراب إلى أن اضطروا إلى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنتين . وأغار صاحب أنطاكية على الأعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها ، وكان عسكر نور الدين يناهز الستة آلاف فارس سوى الأتباع والسواد ، والفرنج في زهاء أربعمائة فارس طعانة وألف راجل مقاتلة سوى الأتباع ، فلم ينج منهم إلا نفر يسير ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية وقد خلت من حماها فاستمال أهلها في التسليم فأملها ، ثم نهض إلى أفامية فسلم الفرنج إليه البلد بعد حصارها واجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا إلا وقد ملك حصن أفامية وملاه ذخائر وسلاحاً ورجالاً ، واقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من في أنطاكية وتقرر أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية لنور الدين ، وما قرب من أنطاكية لهم . وقد عاون نور الدين في هذه الواقعة الأمير بزان في عسكر دمشق وعسكر أخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وقتل من الفرنج ألف وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه إلى نور الدين . قال العماد : وكانت هذه الكسرة على إنب ، وإنب حصن من أعمال عزاز .

وظهرت الفرنج في الأعمال الدمشقية للعيث فيها واتصل بنور الدين لإفسادهم في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي فعزم على التأهب لقصدهم فسار وكف أيدي أصحابه عن العيث والفساد في الضياع ، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم . وكتب إلى دمشق يستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس ، وقد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط ، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج بيوس وبعض العسكر بيعفور ، ثم رحل من منزله بالأعوج ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر ، وراسل مجير الدين والرئيس بدمشق بأنه لم يقصد محاربتهم وإنما دعاه إلي ذلك كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان وعجز أمراء دمشق عن حفظ أعمالها واستصراخهم بالفرنج على محاربتهم ، وبذمهم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، فكان الجواب عن هذه الرسالة « ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن

قصدتنا ونزلت علينا » فلما عاد الرسول بهذا الجواب أكثر التعجب منه والإنكار له ، وعزم على الزحف إلى دمشق . وما ندري إذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين أتسر والي دمشق وصاحب أمرها نيابة عن أولاد طغتكين ، وكان أتسر صالحاً عادلاً محسناً كافاً عن الظلم متجنباً للمآثم ، محباً للعلماء والفقراء ، بذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذملك مجير الدين في الانحلال .

انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين :

آذنت شمس دولة أبناء طغتكين بالمغرب ، لهلاك الرجال الغيورين عليها ، ولأن أربابها أخذوا يتقنون بالفرنج على أبناء نخلتهم حباً بأن يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم . ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها المقام الأسنى في الشام بعد أن حالف التوفيق أعلامها أكثر من مرة في سنين قليلة أخذت النفوس تتطلع إليها ، وتعلق الآمال الطيبة عليها . وقد كانت دمشق التي أجابت نور الدين بهذا الجواب الفظ نشبت فيها هذه السنة فتنة بين الأجناد والمقدمين والرعاغ والفلاحين وذلك لاستيحاءش الرئيس في دمشق من مجير الدين صاحبها ، ولم تزل الفتنة تائرة إلى أن أبعد من التمس إبعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة .

ولكن هذه الفوضى في دمشق يصعب دوامها ، وليست المسألة مسألة تقرب رجل أو رجال من أركان الدولة او اصطلام نائر وخارج على الجماعة ، وقد سرت روح الغضب حتى إلى أقرب الناس من الآل الملوكي ، وقوة نور الدين تشتد وشائجها ، ودعوته تزداد انتشاراً اليوم بعد اليوم ، فلم يسع أولي الأمر في دمشق سنة (٥٤٠) إلا تقرير الصلح بينهم وبينه ، فأقيمت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطرق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبدلاً له الطاعة وأعادهما إلى عملهما وطيب قلوبهما « ورحل إلى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره » . عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين أمام قوة قاهرة ، عملاهما وهما يسران حسراً في ارتغاء ، على أمل أن ينتقما من نور الدين باعتصامهما بالصليبيين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) أن يسوق عسكره إلى دمشق فنزل أوائل جنده على أرض عذراء ، وقصد فريق وافر منهم ناحية السهم

والنيرب في سفح قاسيون ، وكنوا عند الجبل لعسكر دمشق ، ثم وصل نور الدين في جنده ونزل على عيون فاسريا بين عذراء ودومة ، وامتد عسكره إلى ضمير ونزلوا في أرض حجيرا وراوية في خلق كثير ، ثم نزل في أرض مشهد القدم وما والاها من الشرق والغرب ، وكان منتهى الخيم إلى المسجد الجديدي قبلي البلد أي أن العسكر النوري أحاط بدمشق من أطرافها الأربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلاً ما نزله أحد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين ، وأرسل نور الدين إلى مجير الدين يقول : « كنت اتفقت معكم وحلفت لكم ، والآن قد صحح عندي أنكم ظاهرتم الفرنج فإن أعطيتهمني عساكركم لأجاهد في سبيل الله رجعت عنكم » فلم يرد جواباً . وجرى بين أوائل العسكر وبين من ظهر إليه من البلد مناوشات ولم يزل نور الدين مهملًا للزحف على البلد إشفاقاً من قتل النفوس وإنخان الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت أيدي المفسدين من الفريقين في العيث ، وحصدت زراعات المرح والغوطة وضواحي البلد ، وخربت مساكن القرى ونقلت أنقاضها إلى البلد ، وزاد الإضرار بأربابها من التئاء والفلاحين وتزايد طمع الرعاع والأوباش في التناهي والفساد ، ثم رحل العسكر النوري ونزل في أراضي فدآيا وحلقتنا المصاوبة للبلد ، ونشبت المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجالته ، ثم رحل نور الدين إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للإنجاد ليكون قريباً من معايرهم ، وبعد ذلك رحل إلى ناحية الزبداني استجراً لهم ، وجعل من عسكره أربعة آلاف فارس ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج ولقاءهم ، ونزل الفرنج على نهر الأعوج ، وخرج مجير الدين ومؤيده في خواصهما واجتمعا بملكهم وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة ، وتقرر بينهم النزول بالعسكريين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله . ثم رحل عسكر الفرنج إلى رأس الماء ولم يتبهاً خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب ناحية الفرنج للإيقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج إلى اللجاة للاعتصام بها . ثم زحف نور الدين على دمشق وقد رأى خيانة صاحبها ومماشاته للفرنج حرصاً على هذه العاصمة من السقوط في يد العسكر النوري البالغ ثلاثين ألفاً يزداد كل يوم قوة وعسكر دمشق ضعفاً . وتخرج نور الدين من

قتال المسلمين وما زال يميل إلى حقن الدماء لعلمه بأن خيانة حكومتها لا تكون ولن تكون سبباً للعبث بالغرض المقدس الذي يرمي إليه من إنقاذ الأمة ولطالما قال : « إني أرفه المسلمين ليكرن بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم » .

ولما تجلت لمجبر الدين غلظته في مفاوضة الصليبيين للخلاص من نور الدين لم يستطع حفظاً للملكه إلا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه ، ودخل مجبر الدين على نور الدين في حلب فبالغ هذا في إكرامه وقرر معه قرارات اقترحها

مقاصد نور الدين وفتح دمشق :

كانت همة نور الدين منصرفة في كل أطواره إلى توحيد الإمارات الإسلامية وهذه ، كما في التاريخ العام ، كانت على عهد الحروب الصليبية تتألف وتتمزق على الدوام بحسب طوابع الحروب والدسائس التي تقوم ثورتها بين الأمراء ، وبحسب انتقال الملك وتقسيمه ، وامتيازات الأسر . وكان في جبال الشام خاصة من الأمراء من لم تكن أرضهم تتجاوز روض قلاعهم وضاحتها كصاحب شيزر ، ولذلك عامل نور الدين مجبر الدين صاحب دمشق على ما بدر منه من الأغلاط النابية عن حد الوطنية والقواعد الشرعية معاملة رفق وإغضاء ، لأن المقصد جمع الشمل والسؤدد مع السواد . وما أفاد في هذا العقد وصول الأسطول المصري إلى الساحل في سبعين مركباً حربياً مشحوناً بالرجال واقترابه من يافا فقتل وأسر وأحرق واستولى على عدة وافرة من مراكب الفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا ويبروت وطرابلس وفعل فيها مثل ذلك . قال ابن ميسر : وظفر الأسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلهم عن آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهم بقصد الفرنج في البر ليكون هو في البر والأسطول المصري في البحر فعاقه عن ذلك الاشتغال بإصلاح دمشق ، ولو اتفق مسيره مع الأسطول لحصل الغرض من الفرنج ، وكان من جملة ما أنفق العادل بن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

لم تقف همة نور الدين عند هذه الغاية بل اهتبل الغرة وشغل المحتلين في الساحل بما نزل عليهم من بلاء الأسطول المصري ، فغزا الشمال وأسر جوسلين

صاحب تل باشر وملك قلاعه وهي تل باشر - وكان الأمير حسان المنبجي قد فتحها باسم نور الدين وهو على أبواب دمشق (٥٤٦) - وعينتاب ودلوك - وكان القتال على هذه شديداً جداً - وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وحصن بسرفوت يجبل بني عليم وكفرلاثا ومرعش ونهر الجوز وذلك في أيام سيرة . وهذا الفتح والفتح الذي تم على يده في السنة الفاتحة (٥٤٥) من تسلم قلعة أفامية جعل نور الدين صاحب الشام . وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي ، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير ، وكان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلعج أرسلان صاحب قونية وأقصرأ وقال له : هذا سلاحدار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه .

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه وأعمل الحيلة على جوسلين وهجرت الراحة ليأخذ ثأره . وأحضر جماعة من الأمراء التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه لأنه علم بعجزه عنه في القتال فيما قيل ، فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيذاً فظفر به طائفة منهم وحملوه إلى نور الدين أسيراً . وقال ابن الأثير : وعظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين ، وخلت بلادهم من حاميتها وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان جوسلين كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقبه غدره ، وحق به مكره ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله . فلما أسر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج وقلاعهم . وعني نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة والسلاح ، وكان كلما فتح حصناً نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعهما من العدو . وكان نور الدين وأبوه إذا فتحوا قلعة جعلوا فيها من المؤنة والذخائر ما يكفيها عشر سنين .

وأغار هذه السنة فريق واقر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج وأسروا ولم يفلت منهم غير الوالي ونفر يسير . وقصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافرة من الضياع من رجال ونسوان وشيوخ وأطفال فلحقهم صاحب بعلبك واسترجع منهم بعض ما أخذوا وعادوا على أقبح صفة من الخذلان .

وافتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطرطوس وقتل من كان فيه من الفرنج وطلب الباقون الأمان ، وملك عدة من الحصون بالسيف والسبي والإحراق والحرب والأمان ومنها دلوک ويحمور ، بعد أن اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج ، وتوجه مجير الدين في العسكر إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصراً واليه لمخالفته وجوره ، وما زال به حتى نزل على حكمه : وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك ، إذ لا سبيل إلى استقرار حالة دمشق إذا كان المستولون على بصرى وصرخد يمتدّون إلى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلمهم في أيديهم كما فعل سيف الدين الطنطاش نائب صاحب بصرى وصرخد واستعان بالفرنج على المسلمين فاضطر معين الدين أنسز إلى قتاله ونازل القلعتين فملكهما . وقوي عزم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر والتركان من البلدان للغزو ونصرة أهل عسقلان على الفرنج ، وكان هؤلاء شغلوا بأمر عسقلان منذ السنة الغابرة لإمداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم ، ووصل الأسطول المصري إلى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بقوة وافرة من مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان وداهموها من جوانب سورها فهدموه وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأجأت الضرورة إلى طلب المال فأجيبوا إليه فخرج أهلها في البر والبحر إلى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان ، وكانت لخلفاء مصر والوزراء يجهزون إليها المؤن والسلاح ، ولو لم تختلف أهواء أهل الدولة المصرية ويقتل العادل ابن السلار لما جراً الفرنج على حصر عسقلان والظفر بمن فيها والتحكم في ضرب غرامة عليها .

وملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس وقتل من كان فيه من الفرنج والأرمن ونهض عسكره طالباً بانياس . وفي سنة (٥٤٩) وصل نور الدين في عسكره لإمداد أسد الدين شير كوه وكان أرسله إلى دمشق في كتيبة ، وخيم بناحية القصب من المرج . ونزل نور الدين بعيون فاسريا ورحل في الغد ونزل بأرض بيت الآبار من الغوطة وزحف إلى البلد من شرقيه ، وخرج إليهم من عسكره وأحداثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه ، ولم يبرح نور الدين يهزحف يوماً بعد يوم حتى افتتح دمشق على أسير وجه ، والنفوس فيها متطلعة

إلى طلعتة لما كان يبلغ القاصي والداني من عدله وحسن سيرته ، ولما أحس صاحب دمشق مجير الدين أبق بالغبلة انهزم في خواصه إلى القلعة فأنفذ إليه وأمنه على نفسه وماله فخرج إلى نور الدين فطيب نفسه ، ونادى نور الدين بالأمان وخرجت دمشق من أيدي أحفاد الأتابك طغتكين آخر الدهر بعد أن دانت لسلطانهم اثنتين وخمسين سنة .

الداعي لنور الدين على فتح دمشق

والسبب في فتح نور الدين دمشق تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قهراً منهم كل من أراد الخلاص ، فخشى نور الدين أن يملكوا دمشق ، فاستمال أهلها في الباطن ثم حاصرها وفتحها . وفي الكامل أن سبب حرصه على ملكها أن الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان ولم يكن لنور الدين طريق إلى لمزاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق . وعلل هذا الفتح سبط ابن الجوزي بما ظهر من مجير الدين من الظلم ومصادرة الدمشقيين وسفك دماهم وأخذ أموالهم ، وقبضه على جماعة من الأعيان واستدعى سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما أخرج أخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ونهب أموالهم . وتكاثرت مكاتباته إلى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد . وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق إنقاذ القدس من الفرنج والساحل وكانت دمشق في طريقه . وطمع الفرنج في مجير الدين وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات إلى باب دمشق فيقتلون ويأسرون ويسبون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطيعة يأخذونها منه ، وذل الإسلام وأهله في أيامه ، وساءت سيرته وكثر فساده ، فكان الأمراء والأعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث الغياث وقالوا : إن شئت حصرناه في القلعة . فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف وقال : إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد فيكون وهناً عظيماً على الإسلام .

وكان من أشد الأمور على الفرنج أن يأخذ نور الدين دمشق لأنه كان أحرق

قلوبهم وحرقت أراضهم ، وكان في كل وقعة يغني غناء حسناً ، هذا ودمشق ليست له فكيف إذا أصبحت في حكمه ، لاجرم أنه يتقوى بها وتقوى كلمته ولذا عدل إلى ملاحظة مجير الدين ومكاتبته وبعث إليه بهدايا فأنس به وصار يكاتبه ويستشيره فكان نور الدين يكتب إليه إن فلاناً يكاتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم وتارة يبعثهم ، فخلت دمشق من الأمراء ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ ، وكان صاحب بعلبك قد رد إليه مجير الدين أمر دولته وكان ظالماً ، فكتب نور الدين إلى مجير الدين يقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه لعلم نور الدين أنه لا يتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجير الدين وأمر بقتله فقال له عطاء : لا تقتلني فإن الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك وسترى ، فلم يلتفت إليه وقتله وحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل إلى أحداثها وأعيانها فأجابوه ، فسار إليها ونزل عليها وكتب مجير الدين إلى الفرنج يستنجد بهم وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة ، وبلغ نور الدين فأرسل إلى الأحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين في القلعة ، وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا ولما دخل نور الدين صاح أصحابه « نور الدين يا منصور » وامتنع الأجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره .

سئمت النفوس في دمشق من سوء إدارة المتغلبين على أحكامها أمثال الوزير حيدرة ومجاهد الدين بزان وعطاء وغيرهم ، ممن لم يكونوا يهتمون بغير إملاء بطونهم وجير بهم من دماء الرعية ، ولو أصبحوا عبيداً أرقاء لأعدائهم . أما مجير الدين آخر ملوك الأتابكية في دمشق فإن نور الدين لما غلبه بذل له إقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها وأعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجير الدين وسار عنها إلى العراق وأقام ببغداد حتى مات بها . وهذا من غريب ما يحكى في باب العدل فإن الملوك جرت عادتهم في تلك العصور إذا أخذوا ملكاً أن يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تخرجاً من إهراق الدم الحرام واستحكام الطوائف والثارات والأحقاد في أمة أشد ما تكون إلى التضافر . أعطى نور الدين حمص إقطاعاً لمجير الدين حتى لا يقطع له أمه ثم عوضه عنها ببالس لأن حمص على مقربة من كور الصليبيين .

ومن خان أمته وهو في عهد عزه أقرب إلى خيانتها في دور شقائه وذلك ، اما بالنسبة (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق والغرب . وماء الفرات أسوغ للعاصي مجير الدين من ماء بردى والعاصي . والمقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام ، وهذا قد تم لنور الدين بفتح أبواب دمشق لعدله العمري ، وخروج آخر الأتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام .

لم يتبدل شيء^١ بفتح نور الدين دمشق إلا بإبطال المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القوة إلى مقصد واحد لا تتزلزل بالتردد والدسائس ، كانت معظم وقائع نور الدين يحالفها التوفيق وفي السنة التي صفت الديار له أخذ من الفرنج تل باشر . وفي سنة (٥٥٠) تقررت المهادنة بين نور الدين وبين ملك الفرنج مدة سنة ، وقبض نور الدين على ضحاك والي بعلبك وتسلم القلعة وفي السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب تقررت المهادنة والمهادنة بينه وبينهم مدة سنة وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية^(١) ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى الشَّعراء المجاورة لهم ووقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الأتراك تقصير ، فانتهز الفرنج الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم . وأغار الفرنج (٥٥٢) على أرجاء حمص وحماة وأطلقوا أيديهم بالنهب ، وأغاروا على بانياس ، فانتصر المسلمون ، ومحقت السيوف عامة رجالة الفرنج ومسلمي جبل عامل المضافين إليهم ، وملك الفرنج جبلة وكانت في أيدي المسلمين منذ سنة (٤٧٣) وثب عليها قاضيها ابن ضليعة التنوخي واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم ، وكانت بيدهم منذ سنة (٣٥٧) ، وظفر أسد الدين في جماعة من شجعان لتركمان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت . وافتتح نور الدين بانياس قهراً وظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم إلا اليسير ، وعسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية وبانياس فنهض إليهم نور الدين في عسكره من الأتراك والعرب فكتب له النصر عليهم ، وشاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التي حدثت في الشام ولكنهم شغلوا أيضاً

(١) من ضرب الفرنج في صور .

بما أصابهم من أضرارها في الساحل . وملك نور الدين بعلبك وقلعتها ، وكانت بيد الضحاك البقاعي فامتنع بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها . وفيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وملك مصر فبعث بسرية الى غزة نهبت أطرافها وسارت الى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بالغنائم الى مصر ، ثم سيّر عسكر آخر فمضى الى الشريعة فأبلى بلائاً حسناً ، وندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فأوقعت بمراكب الفرنج الفرنج فأسرت منهم وغنمت ، وسيّر عسكر الى الشوبك والطفيلة فعاثوا في أرجائهما ورجعوا بوجر الحقايب يحملون الأسرى ، وسير الأسطول المصري إلى عكا فأسر من أهلها نحو سبعمائة نفس بعد حروب ، وندب سرية أردفها بأخرى فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق فغنموا وعادوا .

وملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) وشنوا الغارة على الأعمال الشامية وأطلقوا أيديهم بالنهب والإخراب في أعمال حوران والإقليم ، وقصدوا داريا وأحرقوا منازلها وجامعها وتناهاوا في إخراجها ، فخرج إليهم من العسكرية والأحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع . وأغار عسكر نور الدين على أعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا أحسن غنيمة وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالها وقد كمنوا لهم فغنموهم وقتل أكثرهم وأسر الباقون . وتجمع الفرنج فهض نور الدين للقائهم فأنهزم هذه المرة نور الدين لتفرق عسكره وسار عسكر مصري إلى بيت المقدس فعاث وخرّب ، وجرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج وأقلعت خمس شوان من مصر فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب الفرنج وعادت بالغنائم والأسرى . وفي سنة (٥٥٤) حشد ملك الروم ووصل الى الشام وجمع نور الدين عليه العساكر فعادوا من حيث أتوا وغنمهم المسلمون .

مرض نور الدين وإبلاله وتتمة فتوحه وهزيمته في البقيعة :

من أعظم البلاء على ممالك الإسلام قديماً مسألة وراثة الملك ، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة لا تتصل فيها إلا القوة ، وصاحبها قد يحرم غيره ممن هم أقرب نسباً من السلطان المتوفى ، فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضاً شديداً وأرجف بموته بقلعة حلب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكي جمعاً وحصر هذه القلعة وكان

شريكوه بجمص وهو من أكبر أمراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولي عليها .
 وبها أخوه نجم الدين أيوب ، فأنكر عليه أيوب ذلك وقال : أهلكتنا والمصلحة أن
 تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد
 مات ، فإننا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها ، فعاد شريكوه إلى حلب مجدداً ،
 وجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير ميران .
 ولما أبتل نور الدين من مرضه واستقامت الأحوال أخذ حران من أخيه لطمع هذا
 في ملك نور الدين عندما كاد الناس ييأسون من سلامته . وقصد صاحب صيدا
 (٥٥٦) من الفرنج نور الدين محموداً ملتجئاً إليه فأمنه وسير معه عسكرياً يمنعه من
 الفرنج أيضاً فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وكان
 زهر الدولة بن بختر التنوخي والياً على ثغر بيروت ومقيماً بحصن سرحمور فولاه
 نور الدين القنيطرة وثلعبايا بالبقاع وظهر الأحمر من وادي التيم وبرج صيدا
 والدامور والمعاصر الفوقانية وشارون ومجدل بعنا وكفرعميه ورتب له علائف لمحاربة
 الفرنج ، وكان أبوه شرف الدولة قاطناً في عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على
 الفرنج .

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم وهي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج وراسلوه
 ولاطفوه وكانوا خلقاً عظيماً فرحل عنها ، ومن أعظم الوقائع التي أصيب بها نور
 الدين بالفشل أكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البقيعة بينا كان
 نازلاً تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين وعسكره إلا وقد أطلت عليهم
 صلبان الفرنج وقصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة وفي يده
 السبحة فنزل إنسان كردي فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي وسار نور الدين
 إلى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق به من سلم من جيشه . وقد نقل سبط ابن
 الجوزي في تعليل هذه الكسرة بأنه لم يكن للمسلمين برك (أنقال) ولا طليعة
 ظناً من نور الدين أنهم لا يقدمون عليه قال : وكان ذلك من قلة الحزم حيث
 غفلوا عن العدو ولم يستظهروا بالبرك والطلائع قال : وكان من عزم الفرنج قصد
 حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : ما فعل هذا إلا عن قوة ،
 وتوقفوا ثم تفرقوا وخاطبوه بالصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الأكراد من
 بحميه وعادوا إلى أرضهم .

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل وماردين والحصن وذكر لهم ما تم عليه فأنجدوه بجيوش ضخمة وكانت سنة (٥٥٩) كلها فتوحاً نافلة كان فيها مبدأ سعادة نور الدين ، فتح فيها حارم وقتل بالقرب منها عشرة آلاف وأسر ألفاً ومن جملتهم صاحب أنطاكية والقومس صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وكثر الأسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينار ثم فاداهم نور الدين . وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع وقال آخرون : يفادى بهم . فمال نور الدين إلى الفداء فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلاً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك . فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والرُبط والمراستانات وغيرها من هذه المفاداة وجميع ما وقفه منها وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

قال المؤرخون : وكان الصليبيون جاءوا لنجدة حارم في حدهم وحديدتهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم وكان الصليبيون استولوا على حارم سنة (٤٩١) وزادوا في تحصينها وجعلوها ملجأ لهم إذا شنوا الغارات فحاصرها نور الدين سنة (٥٥١) وسنة (٥٥٧) ثم فتحها هذه السنة ، وكانت قلعة حصينة في محور المسلمين . وفي سنة (٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من حارم وكان الفرنج والأرمن على حارم ثلاثين ألفاً ووقع بيمند في أسره وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد .

حملة نور الدين على مصر :

فتح نور الدين تلك الفتوح ورايته منصوره وسطوته محذورة ، استصفى من ضعاف أمراء المسلمين ما اتصل إليهم بالإرث من الأقاليم فنزلوا له عنها طوعاً أو كرهاً ، واقتصد في إهراق دماء المسلمين وأسرف في إزهاق أرواح الصليبيين ، واسترجع من الأعداء مدناً وحصوناً مهمة جعلت إماراتهم الثلاث الباقية تهتز أعصابها ، وتخاف بأس حملاته وغزواته ، ولم يخامرهم شك وهم يستنشئون أخباره أنهم ابتلوا برجل وحد قوى الشام وجمع القلوب ووجهها إلى قتالهم واسترجاع القطر منهم .

ولما تم له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور وضرغام من وزرائها (٥٥٩)

وكانت غدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين يتولاها من يستطيع أن يستجيش له أنصاراً وأعواناً . ولما استلب ضرغام من شاور وزارته وعجز في مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلاً له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن هو أعاده الى الوزارة . فرأى نور الدين أن معاونة الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقلها أنها تفتح له سبباً الى التدخل في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها وضمها إلى مملكته أو تقاضي ما وعد به شاور من الأموال ينفقها في وجوه المصالح والمرافق في الدولة . فأرسل حملة على مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للإسلام من عدة وجوه .

اقتضى رأي نور الدين بعد تدبر أمر مصر أن يندب لها رجلاً من أعظم رجاله دهاء وحنكة ، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شاذي وأصحابه بابن أخيه صلاح الدين يوسف ، وكانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة واستخصه نور الدين « وألقه (أي صاحب شرطتها) بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » وكان في تلك السنة شحنة دمشق فأخاف اللصوص وقضى على نائره الفن وفي تلك الفن قال عرقلة الشاعر :

ذر الأتراك والعربا وكن في حزب من غلبا
يجلّق أصبحت فن تجر الويل والحربا
لئن تمت فوا أسفا وإن تخرب فواعجبا

ذهبت الحملة الى مصر وأعاد أسد الدين شيركوه الوزير شاوراً الى وزارة العاضد العلوي ، ولما قبض على زمام الوزارة لم يف لنور الدين بشيء مما شرط على نفسه ، فشق ذلك على أسد الدين ، وسار فاستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه بلبيس ثلاثة أشهر . وبلغ الفرنج ما أصابه نور الدين في الشام من التوفيق وأنه أخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له طريقاً فخرج من بلبيس يمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا إلى الشام سالمين .

هذا ما كان من مبدأ دخول الجند النوري إلى مصر وما لقيه من الشدائد بيد أن قائدهم عرف أمراضها وخللها واطلع على مداخلها ومخارجها ، فكان إنجاد

نور الدين شاوراً واستنجد هذا بالفرنجة درساً نافعاً لدولة نور الدين أدركت به أنه لا سبيل إلى إنقاذ الشام إلا بالاستيلاء على مصر خصوصاً والفاطميون كانوا يخافون الفرنجة خوفاً شديداً ولا يطيقون مقاتلتهم . كان هذا أيام كان لهم شيء من السلطان على النفوس وقوة على التناحر والتغاور فما بالك بهم وقد دب الضعف في كيان دولتهم وعبث العابثون بعزتها ومنعتها . وإلا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقيماً ، لأن الروح الخبيث سرت لصغار الأمراء من المسلمين في الاعتصام بأعدائهم إذا ضاقت بهم حالهم وأتاهم سلطان أعظم من سلطانهم ، ولئن كانت الشام قد تطهرت من جرائم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية فمصر إذا استهانت بمقدساتها أيضاً يصبح البقاء في الشام خطراً دائماً .

وبينا كان نور الدين يحرق الأرم على شاور وفي نفسه منه حزازات لأنه لم يف له بما وعده ، واستعان على قتال جيشه بالصليبيين ، عاد شاور على عادته يظلم ويقتل ويصادر ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي فبعث يستنجد بنور الدين على شاور ، فما عم نور الدين أن جهز أسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) إلى مصر بعسكر جيد عدتهم ألفا فارس وأمر أيضاً أن يخرج معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف إلى مصر فامتنع صلاح الدين وقال : يا مولانا يكفي ما لقينا من الشدائد . فقال : لا بدّ من خروجك ، فما أمكنه مخالفة نور الدين . وكان في ذهاب صلاح الدين إلى مصر سعادته وسعادة أمته إذ فتح مصر وأصبح بعد ذلك ملك مصر والشام على ما سلم به في الصفحات المقبلة . قال المؤرخون : أحب نور الدين مسير صلاح الدين إلى مصر وفيه ذهاب الملك من بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . ورب زارع لنفسه حاصد سواه . فاستولى أسد الدين على الجزيرة وأرسل شاور إلى الفرنجة واستنجدهم فساروا في أثر شيركوه إلى جهة الصعيد فهزمهم واستولى شيركوه على إقليم الجزيرة واستغلها ثم سار إلى الإسكندرية وملكها .

وجعل أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب في الإسكندرية وعاد إلى الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنجة وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية ثلاثة أشهر ، فسار شيركوه إليهم فانفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الإسكندرية ويعود إلى الشام ، فتسلم المصريون الإسكندرية وعاد شيركوه إلى دمشق ، واستقر الصلح بين الفرنجة والمصريين على أن يكون للفرنجة

بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

ولكن الحال في مصر لم يسر سيراً حسناً لأن الفرنج لم يخلصوا ، ومن الخطأ الفاحش استنجد شاور وزيرها بهم واستعانته بهم على إخراج أسد الدين شيركوه منها فأرسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية وكان الفرنج ملكوا بلبيس وحصروا القاهرة ، فأحرق شاور مصر لثلاثا يملكها الفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ، وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار .

ولما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج وخلع عليه العاضد وأجرى عليه الإقامة ، وماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال وإفراذ ثلث خراج مصر ، وعزم شاور أن يقبض على شيركوه فقبض العسكر النوري عليه وقتل ، ودخل شيركوه القصر فخلع العاضد عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وتولى شيركوه الأمر شهرين وخمسة أيام ثم هلك ، فأحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وثبتت قدم صلاح الدين بمصر أنه نائب لنور الدين ، وتمكن منها وضعف أمر العاضد فكان لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلاّ بأمر صلاح الدين ، وأصبح يدعى له على منابر مصر بعدنور الدين .

بعض غزوات نور الدين :

ولم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الإلتحان في الفرنج وإرهاق الحد في قتالهم ، وقويت عزيمته بعد أن أخذ حارم وبانياس (٥٥٩) على التقدم في فتوحه وكان كلما طالت أيامه أيقن أن القوة القليلة المنظمة أفعل من القوة الكبيرة المبعثرة . ولم ينغصه في عمله سوى مقاومة أحد إخوته أمير ميران له حتى اضطره الى حربه فمضى أخوه أمير ميران إلى صاحب الروم وعفا عنه نور الدين . كأن السعادة التي أقبلت على هذا الفاتح من كل وجه أبت الطبيعة إلاّ أن تكدرها عليه بمشاكسة أحد إخوته له ، وكان بالأمس لما أرجف بموت نور الدين في حلب قام يطالب بمملكة أخيه فحاربه ، واليوم يحمل أخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما ندر من سيئاته .

وفي سنة (٥٦١) فتح نور الدين حصن المنيطرة وخرب قلعة اكاف في البرية وفتح العريمة وصافيتا وحاصر حلبه وخربها وحاصر عِقة وعصا عليه غازي بن حسان صاحب منبج فأعطاه الرقة . واجتمع بأخويه (٥٦٢) قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فحربوا هونين. وفي سنة (٥٦٥) سارت الفرنج إلى دمياط وحاصروها خمسين يوماً وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والدخائر وغرم على ذلك أموالاً عظيمة ، وخرج نور الدين فأغار على كورهم بالشام فرحلوا عائلدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها . وفيها سار نور الدين إلى الكرك وحاصرها فجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر إلى اللقاء وقال بعضهم : إن الفرنج أغاروا على حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ، ونزلوا في قرية شمسين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشرا. وبينما هو في اللقاء حدثت زلزلة هائلة في الشام فخربت معظم أسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفاً عليها من العدو وكانت قلاعهم المجاورة لبعرين وحصن الأكراد وصافيتا وعريمة وعرة في بحر من الزلازل غرقى ولا سيما حصن الأكراد ، فإنه لم يبق له سور وأغارت سرية لنور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسر لم يفلت منهم إلا من لا يعتد به وقتل فيمن قتل رأس مقدم الاستبار صاحب حصن الأكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وشجى في حلوق المسلمين .

وغزا نور الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان وعاد إلى مصر ثم حصر أيلة في العقبة المصرية بجزاً وبراً وفتحها . وغزا عرة (٥٦٧) وفتحها وغنم الناس غنيمة عظيمة . واستولى نور الدين على صافيتا وعريمة عنوة، وقارب طرابلس وهو يذهب ويحرب ويحرق ويقتل وفعل جيشه في أرجاء أنطاكية مثل ذلك ، فراجع الفرنج وبذلوا له جميع ما أخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر إلى اللاذقية وأخذهما الفرنج وهما مملوءان من الأمتعة والتجارة، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فلما خربت عمالتهم أذعنوا .

قيام نبي شهاب من حوران وحرهم الصليبيين :

وفي سنة (٥٦٨) كان قيام آل شهاب من حوران إلى وادي التيم قال الشهابي :

وكان الكبير منهم في ذلك الوقت الأمير منقذ ، ولما عزموا على القيام جمع الأمير منقذ الأُمراء من بيت شهاب ووجه القبيلة وقال لهم : أنتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين سلطان الديار الشامية والحلبية والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد أن السلطان نور الدين يتم ما ينويه وقد دس العساكر في حوران وتعلمون ما لنا عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة وأنا أرى أنه يلزم علينا القيام من حوران قبل ظهور حال من تلك الأحرار ، فلما سمع الحاضرون ما قاله الأمير منقذ قالوا له : هذا هو الصواب وليس فينا أحد يخالف مقالك ، ثم عزموا على القيام وشدوا ظعونهم وحملوا أحماهم ، ورحلوا من حوران بعشائرهم وقصدوا غربي الديار الشامية ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي .

ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران أرسل يسألهم عن السبب الداعي لقيامهم ، وأرسل لهم الخلع والعطايا النفيسة ، وطلب منهم أن يرجعوا إلى أوطانهم آمنين ، فأبوا الرجوع بسبب خراب ديارهم ، وطلبوا أن يسمح لهم بالذهاب إلى مكان آخر فسمح لهم بذلك ، فنزلوا في وادي التيم وكان نزولهم في بيداء الظهر الأحمر من الكنيسة إلى الحديدية وكانوا في خمسة عشر ألفاً والأرض التي نزلوها تحت استيلاء الفرنج ، فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين ألفاً بين فارس وراجل . وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقيف فأمدّه بخمسة عشر ألفاً فالتقوا مع عسكر الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف ومن آل شهاب ثلاثمائة ، ونقب بنو شهاب حيطان قلعة حاصبيا مدة عشرة أيام وأخذوا قنطورا وجماعته ، وكانوا ثلاثمائة وقتلوهم وأرسلوا رؤوسهم إلى نور الدين فسر كل السرور وأعطى ذاك الإقليم لآل شهاب ملكاً لهم . ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالفرنج في حاصبيا أرسل للأمير منقذ يطلب منه الصلح .

وهكذا أدى بنو شهاب خدمة عظيمة للدولة ، قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين وصلاح الدين ، والغالب أن صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسهلوا لنور الدين طريق الحملة على صلاح الدين في مصر ، فلما رأوا أنهم لا قبل لهم بنور الدين عرجوا على وادي التيم فكان في ذلك خيرهم وخير دمشق خاصة لأنهم وقفوا في غربها وقفه محمودة وردوا عنها عادية الصليبيين .

الفتور بين نور الدين وصلاح الدين :

قلنا إنه حدث جفاء بين السلطانين والسبب فيه أنه لما قويت سلطة صلاح الدين في مصر وولي ملكها بعد مهلك عمه أسد الدين شيركوه وأصبح الأمر الناهي أرسل نور الدين إليه يأمره بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية ، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة ، فلم يلتفت نور الدين الى ذلك وأصر عليه فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء العباسي فامتثلوا ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته ولما هلك جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكان شيئاً كثيراً جداً فقويت بذلك شوكته وأصبح ملك مصر حقاً وصدقاً .

وضيق على آل الخليفة الفاطمي حتى لا يتطال أحدهم لدعوى الخلافة بعد العاضد واستدعى من الشام أباه وإخوته ، وكان نور الدين مع هذا لا يخاطبه توأ بل يخاطب أمراءه بمصر ومن جملتهم صلاح الدين ، ولقد توطد ملك مصر لصلاح الدين والخطبة له فيها بعد نور الدين يدعى لهذا بعد الخليفة العباسي ، وكلما مضى شهر يزداد نور الدين استيحاشاً من صلاح الدين مع أن صلاح الدين سد أبواب الشك على نور الدين ، فقام بجميع رسوم التعظيم له ، وكان معه كقائد مع سلطانه ، وكان صلاح الدين نازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً أن يأخذه نور الدين ، واعتذر بأنه ربما نشبت الفتنة في تغيبه عن مصر ودعا دعاة العبيدين إلى إرجاع دولتهم .

ولما جاء نور الدين الكرك من قابل وحصرها (٥٦٨) كان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين واعتذر بمرض أبيه وأنه يخشى أن يموت فتذهب مصر ، فقبل نور الدين عذره في الظاهر ، وفي الواقع أن أيوباً والد صلاح الدين قضى نحبه في تلك المدة . كان في نفس كل من نور الدين وصلاح الدين شيء على صاحبه ، فلم يخرج صلاح الدين بعساكره الى الشام لحصار الكرك والشوبك ونهب أعمالها إلا لما أيقن أن نور الدين ابتعد عن سمت الشمال وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش وبهسنا حتى لا

يجتمع به . والسبب الذي دعا صلاح الدين إلى حصار الكرك والشوبك وقتل بعض العربان ونهب ديارهم هناك أن جماعة من الأعراب النازلين بأرض الكرك كانوا ينقلون الأخبار إلى الفرنج وإذا أغاروا على البلد دلوهم على مقاتل المسلمين . وكان الكرك والشوبك طريق الديار المصرية ويغير أهلها على القوافل منها فقصده تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض .

وكان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه في مصر يخاف وآله من نور الدين ، وكان استقدمهم إليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر وإذا قصدهم نور الدين في مصر قاتلوه ، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم ثم سيره بعسكر إلى اليمن ففتحها واستقرت اليمن في ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسي ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين على أن صلاح الدين لم يستطع إرسال العسكر من مصر لأول مرة إلا بعد استئذان نور الدين . فهذا وغيره من الأسباب التي أفلقت نور الدين على ملكه وحاذر أن تكون عاقبة هذا الأدب والخضوع انتزاع ملكه منه أو إنشاء صلاح الدين مملكة جديدة أعظم وأغنى من مملكة نور الدين القديمة .

وفاة نور الدين وصفاته الطيبة :

بينما صلاح الدين يحاذر من نور الدين وهذا يتجهز للدخول إلى مصر لأخذه أتى نور الدين اليقين ، ومملكته الحقيقية لم تعد الشام والجزيرة وخطب له بمصر واليمن والحرمين ، ففرق الموت شمل من كان يتخوف أحدهما من صاحبه ، وبكت الأمة الملك العادل نور الدين أبا القاسم محمود بن عماد الدين أتابك لما ظهر من عدله وحسن سيرته بحيث قل في الملوك الغابرين أمثاله . قال ابن الأثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة لا فتخرت به فكيف بيت واحد ، أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما

يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غيره البتة . وأسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والحراج وما يحصل من قسمة الغلات وكتب أكثر من ألف منشور بذلك . وأطلق المظالم بحلب ودمشق وحمص وغيرها وأسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب والمكوس وحرمها على كل متناول إليها ، فكان مبلغ ما سامح به في حلب وما إليها فقط في السنة ١٥٦ ألف دينار وما وقفه وتصدق به مائتي ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار ، وأقطع أمراء العرب لثلاثين عرضوا للحاج وجدد قني السبل ووقف الكتب الكثيرة ، وأجرى على العلماء والقراء . ولقد رأى أصحابه على ما روى ابن الأثير كثرة خروجه فقال له أحدهم : إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال : والله إنني لا أرجو النصر إلا بأولئك وإنما أنتم ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تحطى وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأني بسهام قد تصيب وقد تحطى . وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ؟ .

وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والبيمارستانات وأخذ من أحد ملوك الفرنج ثلاثمائة ألف دينار وشرط عليه أن لا يغير على ديار الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وأخذ منه رهائن على ذلك وبنى بالمال المستشفى النوري بدمشق ، ولما بلغ الملك الفرنجي مأمنه هلك . وكان يبعث بما يصل إليه من هدايا وغيرها إلى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، وأمر بإحصاء مساجد دمشق فأحصيت مائة مسجد فوقف الأوقاف على جميعها ، وكانت وقوفه في الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطناً وظاهراً صحيح الشراء . وكان آية الرحمة على الفقراء والعدل في الرعية غضيضة عن الشر عينه ثقيلة عن الباطل قدمه . حضر جماعة من التجار عنده وشكوا أن القرايطيس كان ستون منها دينار وتزيد وتنقص فيخسرون فسأل الملك العادل عن كيفية الحال ، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار

ولا يرى الدينار في الوسط وإنما يعدون إلى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية وتبطل القراطيس بالكلية ، فسكت ساعة وقال : إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني ضربت بيوت الرعية . فإن كل واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، ي شيء يعمل به فيكون سبباً لخراب بيته .

قالوا، والحق ما قالوا، إن نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات وعاقب من يأتياها ، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق ومنار العدل ، وقف مع أوامر الشرع ونواهيها ، وألزم بذلك أتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم ، وكان يروي الحديث ويرويه ، وقد ألف كتاباً في الجهاد ، وكان يباشر الإشراف على خيل الجند وسلاحهم بنفسه ، ولا يتكل على خواده ، ولا يقطع أمراً قبل أن يستأذن الخليفة ببغداد . وكان في السياسة والدهاء على جانب عظيم ، تجلّى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق ولما أخذه أغضى عنه ، وكان يكره إهراق الدماء والحرب على غير طائل ، مع شجاعة ليس بعدها مزيد ومعرفة بالرماية تضرب بها الأمثال ، ومن جيد الرأي ما سلكه مع ملبح بن قيون ملك الأرمن صاحب الدروب فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في لدمته سفيراً وحضراً ؛ وكان يقاتل به الفرنج ويقول : إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من الإسلام ، فإذا طُلب انحجز فيها فلا يُقدر عليه ، فله رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الأقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . وكان متملك الروم خرج من القسطنطينية وتوجه إلى الشام طامعاً في تسلم أنطاكية فشغله عن مرامه بالمراسلة إلى أن وصل أخوه قطب الدين في جنده من المواصلة وجمع له الجيوش والعساكر ، فأيس الرومي من بلوغ ما كان يرجو وتمنى منه الصلح فاستقر رجوعه إلى بلاده .

وقال مترجموه : إنه كان يكثر لإعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب ، أما أعماله في رد المظالم وتخفيف المغارم

فسيرته فيها سيرة عمرية ، وأما إنشائه المدارس والجموع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات فمما لم يسبق إليه ، أقام الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج جعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي أي الزاجل فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، وبنى مكاتب للأيتام وأجرى عليها وعليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة فصارت الشام بعد خلوها من العلم وأهله مقر العلم ومبأة الفقه .

هذه حال ملك القرون الوسطى وحسن بلائه في خدمة أمته وهو يقاتل الأعداء في الغرب والجنوب ، وقد فتح نيّفاً وخمسين حصناً وأقام المعالم وهو مشتغل بحفظ الأوطان ، لم يدخل اليأس على نفسه ولم يخامره الشك بأن العاقبة المحمودة تكون له وللمسلمين ، وأنه سيظهر على عدوه فيدفعه عن حماه . مع أن مدة ملكه في الشام لم تتجاوز أربعاً وعشرين سنة . لا جرم أن ظهور بني زنكي نعمة أنعمت بها الأقدار على هذه الديار ، فخرجت بها من انقسام الكلمة وتشتت الأهواء والآراء ، ومن خيانة الملوك والأمراء ، والاعتضاد بالمحاربين من الأعداء إلى تماسك وتعاضد، ومن ظلمة الجهل والغرور إلى ضياء العلم والنور، ومن سلب أموال الأمة إلى إمتاعها بالعدل الشامل والأمن الكامل . بسقت فروعها في أيسر زمن وأخرج العصور ، فخطب الناس ودّها في كل مكان وودوا لو كان لها الحكم عليهم ، ورجا أولياؤها أن تطول أيامها لأنها لا تسوق الناس إلا إلى طرق فلاحهم وسعادتهم .

الدولة الصلاحية

« من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٨٩ »

أولية صلاح الدين والملك الصالح :

توفي نور الدين محمود بن زنكي وكان له السلطان الأكبر على القلوب تحبه رعيته ويخافه أعداؤه ويحترمونه ، وبعده وسيرته وجميل سياسته وإداراته ، وطد أساس ملكه ، ووجد كلمة الشام ومصر والجزيرة ، وأنشأ عظماء في دولته كانوا ساعده الأيمن وعضده الأقوى ففتحوا الفتوح باسمه ويمُن نقيته ، وصدروا كلهم عن رأيه ومشورته ، ومن أعظمهم بل أعظمهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب . وأصل صلاح الدين من دوين بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة إيران وبلاد الكرج وهم أكراد زوادية وهي قبيلة كبيرة تعد من أشرف الأكراد ، وانتقل أهلهم من هناك إلى العراق ثم عين نجم الدين أيوب والد صلاح الدين محافظاً لقلعة تكريت وفيها وُلد ابنه هذا ، وكان نجم الدين أيوب بن شاذي حسن الخلق عادلاً شجاعاً كريماً ديناً محسناً ربي في الموصل ونشأ شجاعاً باسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، فرأى منه أمانةً وعقلاً وسداداً وشهامة ، فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها أحسن قيام ، حتى عمرت أرضها وأمنت سبلها ثم أضيفت إليه ولايتها ، وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة ، واتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده ونوابه . وهذا الرجل العظيم هو الذي أولد رجلاً أعظم وهو صلاح الدين .

وكان الزمن العصيب الذي ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكاً كفأة أثبتوا بالعمل مقدرتهم السياسية والحربية ، وأبرزوا

من آثار نجدتهم وجلادتهم ما تطأطأ أمامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زوراً ورياء ولا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل ولا يسمع إن لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قل في طبقة قواد الأمم مثلها . ولم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الأمر مثل صلاح الدين لأنه أنبغ رجاله وأكبرهم مقاماً وشأناً وأقربهم إلى قلوب الأمة ، وهو ملك مصر حقاً ، ومن ملك مصر كان حرياً بأن يملك الشام ، خصوصاً والشام يحبه ، لما بدا من غنائه ومضائه في نصرة الملة والدولة .

ولكن نور الدين قد خلف ولداً يقضي قانون الوراثة في الملوك في تلك الأعصر بأن يرث الابن ملك أبيه كما يرث قصره ومزرعته مهما كانت سنه ، ويتولى رجال الدولة أمره ويكفله من يعطفون على دولته ومن غدوا بنعمة أبيه وآله ، بيد أن الحالة السياسية في الشام ومصر وما إليهما من الممالك كانت بحيث يقضي الشذوذ عن هذه القاعدة ولو إلى حين ، فيوسد الملك إلى من جمعت أشخاصهم الكفاءة قبل كل شيء لتخرج المملكة من مأزقها الحرج ، وهذا لا يتيسر أن ينهض به ولد يافع بلغ من العمر إحدى عشرة سنة ، ونعني به ابن نور الدين الملك الصالح إسماعيل . فانظر كيف تصرفت الأقدار بما فيه الخير ، ولم تترك مصالح الدولة للأصول السخيفة في توسيد الملك للكبير والصغير على السواء .

توفي في دمشق نور الدين في سنة (٥٦٩) وبالحال ملك ابنه الصالح إسماعيل وحلف له العسكر بدمشق وأطاعه صلاح الدين وخطب له بمصر وضرب السكة باسمه ، ودبر دولته شمس الدين بن المقدم من أعظم أمراء أبيه ، واستولى سيف الدين غازي شقيق نور الدين محمود على الديار الجزرية وهي لنورالدين ، وكان صلاح الدين في مصر ، فجعل الملك للملك الفتي كما كان لأبيه من قبل . بيد أنه من المتعذر إدارة المملكة في ذلك العصر إذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى شروط الحكم ، فيصدر عن رأي واحد يحضه أولاً بمشورة رجال دولته ويكون هو المرجع فيه والمسؤول عنه ، يهتم للملكه اهتمامه بابنه وابنته ، وهل يتيسر ذلك إذا تشعبت الآراء . وكان صاحب الملك الرسمي قاصراً وأوصياؤه يدبرونه وربما كان فيهم من تطمح نفسه إلى الاستئثار بالسلطة ، وتو كان الوكيل كالأصيل ، والمتنفل كالمكاف :

ممالك لم يدبرها مدبرها إلا برأي خصي أو بعقل صبي

اختلاف الآراء واستيلاء صلاح الدين على الشام :

ولما بدأت نواجد الاختلاف تبدو بين الأمراء في الشام شعر صلاح الدين وهو بمصر أن هذا الفراغ الذي حدث بميت نور الدين يستلزم أن يملأه رجل تجمع القلوب على حبه ، وأن يصل السلسلة المقطّعة بمهلكه وإلا انفرط العقد كله ، وتصبح الديار فوضى وتفتح أبوابها على مصاريعها للدخول الدخلاء يستصفرنها وتصبح بالشقاق الداخلي أشبع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الأتابكية أخلاف الأتابك ظهير الدين .

واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس فخرج إليهم شمس الدين بن المقدم وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لأرضهم وقال لهم : أنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف وإذا طلبناه إلى بلادكم لا يتمتع ، فعلموا صدقه وصالحوه ، وتكلموا في الهدنة وحصلوا بقطيعة استعجلوها واستطلقوا عدة من أسارهم وتمت المصالحة . وفي تهديد ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته في قلوب رجال الدولة وأن الصليبيين عرفوا أنهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تديره وشجاعته .

بلغ صلاح الدين ما تم بين ابن المقدم والفرنج فأنكره ولم يعجبه ، وكتب إلى جماعة الأعيان كتاباً يقرعهم فيه ويلومهم ، ويقول إنه تجهز وخرج وسار أربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الإسلام فعاد إلى مقره . وقد « استصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم » وقال : « إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة ، وضاعت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام » . قال ابن شداد : لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ، ولا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أجل بلاد الإسلام . وقد كان صلاح الدين ينوي أن يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين وكتب : « إن الوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة » . ولكن الأمراء في الشام أخذ كل منهم يعمل على شاكلته ، ويريد أن يستأثر بالأمر دونه وهو أحق منهم وأولى .

ثم إن شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب ورضيع نور الدين وأكبر أمراءه أرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق يستدعي إلى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها ، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى الرئيس ابن الخشاب وإخوته ، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين في مصر واستدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس فوصل إلى بصرى وكان صاحبها يستحنه على القدوم ، ولما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريجان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة إليه ، فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال . ثم كتب إلى الملك الصالح بن نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : إنما جئت من مصر خدمة لك لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدي إلاّ جمع كلمة الإسلام على الفرنج . فعرض الملك الصالح ذلك على أمراء دولته فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة فكتب إليه منكرّاً عليه ، وينسبه إلى كفر النعمة وجحد إحسان والده ووعده وهدده فساء ذلك صلاح الدين وأغضى على القدى وكظم غيظه .

ولما قرر صلاح الدين أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرّها في إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس ، وكانت هذه العمالة له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الإبارين ، فملك صلاح الدين مدينة حمص وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ودكوها ورحل إلى حماة فاستغاث صاحبها بالإسماعيلية وأعطاهم ضياعاً ومالاً ليستعين بهم على صلاح الدين ، فلم يلبث أن ملك مدينة حماة وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل وإنما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك

وسار إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشكين وسجنه ، فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين ، ثم سار هذا إلى حلب وحصرها وبها الملك الصالح إسماعيل ، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم ، وأرسل سعد الدين كمشكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوه دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص ، فعاد إليهم فرجعوا أدراجهم ، ووصل صلاح الدين إلى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار إلى بعلبك فملكها .

تملك صلاح الدين ومحاولة اغتياله وسر نجاحه :

ولما استقر ملك صلاح الدين أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه ، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، ووصل عسكر الموصل وانضم إليه عسكر حلب وساروا إلى صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن تقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائباً للملك الصالح ، فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب ، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام ، وللملك الصالح ما بقي بيده منه ، فصالحهم على ذلك ورحل ثم ملك قلعة بارين كما صالح بني رزيك على أن يكون له إلى حد المعرفة ولهم ما يلي ذلك فنقض الحلبيون الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين وجاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل وديار بكر وحلب وعدتهم عشرون ألفاً بين فارس وراجل ، وعسكر صلاح الدين ستة آلاف عدا ما جاء بعد من مصر . وقال رسول سيف الدين لصلاح الدين إنه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحته سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة وإلى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه (جمعته) معلق في عمود الخيمة ،

فلما رأته وقع في خاطري أنه المنصور لأنني فارقت سيف الدين والأمراء وهم على طنafs الحرير والحمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت إليه الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العساكر بصوت الآذان وفي كل خيمة إمام . قال سبط ابن الجوزي : إن صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشاً بالرياحين ، والمغنون جلوس في انتظاره ، والحمور تراق ومطابجه بقدرها ، وفيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزرات ، فأرسل صلاح الدين بما كان في السرداق من المغنين والحمور والطيور إليه وقال للرسول : قل له اشتغالك بهذا أليق من مباشرتك الحروب ولا تعد إلى مثلها . وكان هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين غازي في سنة (٥٧١) فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه وكان استنجد بعد هزيمته في قرون حماة بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها وتسلمها وقصد منبج فحصرها وافتتحها عنوة . ولما جلس يستعرض أموال صاحبها وذخائره كان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة ما يناهز ألفي ألف دينار ، فحانت من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً « يوسف » فسأل عن هذا الاسم فقيل له : ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له فقال السلطان : أنا يوسف وقد أخذت خبيء فتمعجب من ذلك (رواه ابن أبي طي) .

ثم سار السلطان الى عزاز ونازلها وتسلمها فوثب إسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فصر به بسكين في رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين يدي الإسماعيلي وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتله أيضاً وجاء السلطان الى خيمته مذعوراً وعرض جنده وأبعد من أنكروه منهم . وهكذا فإن صاحب حلب أو نائبه أو جماعة دولته ، وصاحب حماة أو نائبه أو حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بأيدي الخوارج حرصاً على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به زمناً أولاً يستمتعون ، ولو وفقوا الى قتله لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين في دعة ومجد ، وما أكثر الأدعياء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم ، فإذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ أنفسهم فقط .

وبعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها وبها الصالح بن نور الدين فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم اليه وسألوه قلعة عزاز فسلمها إليهم ، ورفع على حلب علمه الأصفر ، ورحل عنها في المحرم (٥٧٢) ورجع من كورة الإسماعيلية وحصر قلعة مصياف ، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصلح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم إلى مصر ، وسنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام وإليه تنسب الطائفة السنانية وهو الذي كتب إلى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان وافتتحه بقوله :

يا ذا الذي بقراع السيف هدّنا لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدّده واستيقظت لأسود البرّ أضبعه
أضحى يسدّ فم الأفعى بإصبعه يكفيه ما قد تلاقي منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين وقد كتب إليه مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثت بيوتك فيها واشمخرّ عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بناستوى مغارسها منا وفينا حديدنا

وفي ذلك بيان لقوة الإسماعيلية في عصر صلاح الدين وكانوا يتهددونه كما يتهددهم ولذلك كان يغضي في الغالب عنهم وإن حاولوا اغتياله غير مرة . ولما بلغ عسقلان (٥٧٣) وشن الغارات على الفرنج طلعوا عليه وهو في بعض العسكرة فقاتلهم أشد قتال ، وقاربت حملات الفرنج السلطان فانزح إلى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا مشقة وعطشاً وأسر الفرنج العسكرة المتفرقة في الإغارة ، وأسر الفقيه عيسى من أكبر أصحاب صلاح الدين فافتداه بعد سنين بستين ألف دينار هذا مع أن جيش صلاح الدين كان نحو عشرين ألفاً وقعت الكسرة عليهم لأنهم كانوا متفرقين في الغارات وكسروا ومعظمهم لم يعلم بالهزيمة . وفي هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعاً بهزيمة صلاح الدين وبُعدّه وكادوا يملكونها فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها إلى حارم . وفيها قبض الملك الصالح على كمشكين متغلباً على الأمر وكانت له حارم فعذب كمشكين وأصحابه ليسلموا

قلعة حارم فأصروا على الامتناع حتى مات من العذاب ، ووصل الفرنج من حصار حماة ، وحصروا حارم أربعة أشهر فداراهم الصالح بمال فرحلوا عنها بعد بلوغ أهلها الجهد ، ثم أرسل الملك الصالح عسكرياً فحصرها وملكوها .

فتوح صلاح الدين ووفاة الملك الصالح :

أرسل صلاح الدين (٥٧٤) إلى شمس الدين بن المقدم ليسلم بعلبك إلى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها وسلمها إلى توران شاه (٥٧٥) وبعث السرايا والغارات إلى أرض الفرنج بعد موت ملكهم ، وكان هذا يريد أن يغير على دمشق فأخذه رجال صلاح الدين وأسروه وغنموا ما مع جماعته ، وفتح صلاح الدين حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس ، وكان الفرنج انتهزوا فرصة مقام صلاح الدين على بعلبك واشتغاله بأمرها فبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا أنه لا سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرمننا عليه فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار ، وكان الداوية أصحاب الحصن اقطعون هناك الطرق على القوافل فخربه المسلمون ، وكانت الحرب بين عسكري صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر وبين عساكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب الروم ، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج أرسلان وأرسل إليه عسكرياً كثيراً ليحصره وكانوا قريب عشرين ألفاً فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألفاً . وفي هذه السنة أحرق الإسماعيلية أسراق حلب وافتقر أهلها بذلك وكانت إحدى الجوائح التي أصابت الشهباء وسكانها . وسار صلاح الدين (٥٧٦) إلى مملكة قليج أرسلان صاحب الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوها فقصده صلاح الدين ولاية ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقهم .

وفي سنة (٥٧٧) عزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحي ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه صلاح

الدين بدمشق فقصد الكرك وأقام عليها ، ففرق صاحب الكرك جموعه وانقطع عزمه عن الحركة . وفي هذه السنة توفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وعمره نحو ١٩ سنة وأوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار إليها بعد موت الصالح ومعه مجاهد الدين قيمان واستقر في ملكها فكاتبه أخوه زنكي بن مودود صاحب سنجار على أن يعطيه حلب ويأخذ سنجار وأشار قيمان بذلك فأجاب وعاد الى الموصل .

قال ابن الاثير : إن بعضهم قال للملك الصالح وهو يوصي بالملك بعده : إن عماد الدين ابن عمك أيضاً وهو زوج أختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد (حلب) لكان أصلح ولعز الدين من الفرات الى همدان ولا حاجة به الى بلدك فقال له : إن هذا لم يغب عني ولكن قد علمت أن صلاح الدين قد تغلب على عامة الشام سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب الى عماد الدين فعجز عن حفظها ملكها صلاح الدين ولم يبق لأهلنا معه مقام ، وإن سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وأرضه فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه .

وفي سنة (٥٧٨) قصد صلاح الدين الشام من مصر وأغار في طريقه على الفرنج وغنم ، واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه لما سار ، فانتهاز فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة وفتح بعسكر الشام الشقيف وأغار على ما يجاوره وفتح دبورية وجاء الى شقيف « حبس جلدك » بالسواد من أعمال طبرية وهو حصن يشرف على أرض المسلمين ففتحه . ونزل صلاح الدين قرب طبرية وشن الغارات على بيسان وجنين واللجون والغور من مملكة الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغنم وقتل وحصر بيروت وأغار على تلك الأرجاء ونهب بلدها وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها فساروا ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها ، وكان عازماً على ملازمتها الى أن يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى الى دمياط بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير ، فكان عدة الأسرى ١٦٧٦ أسيراً . ثم عبر السلطان الفرات الى البيرة فصار معه مظفر الدين كوك بوري صاحب حران واستمال ملوك الأطراف فصار معه نور الدين محمد بن

قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وحاصر الرُّها وملكها وسلمها إلى كوك بوري ثم أخذ الرقة وقرقيسيا وماكسين وعربان والخابور جميعاً ثم ملك نصيبين وقلعتها ثم حصر الموصل وبها صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيمان وقد شحنت رجالاً وسلاحاً وحاصر سنجار وملكها وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصاري يقول لهم: إن أخرجتم الجامع جددنا عمارته وأخرينا كل بيعة لكم في أرضنا ولا نمكن أحداً من عمارتها فتركوه .

قصد الفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف وينقلوا جسده الكريم إلى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا يجعل فأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك أسطولاً في بحر أيلة (العقبة) وجعله فرقتين فرقة حصرت حصن أيلة وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة ، ولم يعهد بهذا البحر فرنج قط ، فعمر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائب الناصر بمصر أسطولاً في بحر عيذاب وأرسل به مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولي الأسطول بمصر ، فأوقع لؤلؤ بمحاصري أيلة فقتل وأسر ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة فبلغ رايغ ، فأدرتهم بساحل الحوراء وقتلهم أشد قتال فقتل أكثرهم وأسر الباقين وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها وعاد بالباقيين فقتلوا عن آخرهم بمصر .

وملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) وكان وعد بها محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وسقط فيها على خزانة كتب فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهبها لوزيره القاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين جملاً ، وكان فيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار ، فوهبها لابن قرا أرسلان هذا ، فلما قيل له في ذلك قال : لا أضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا ونحن إنما نريد أن يسير الناس معنا على قتال الأعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ، هذا وبعد مدة قل المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من أخيه العادل ١٥٠ ألف دينار لإطعامهم . وفتح صلاح الدين تل خالد من أعمال حلب ثم عيّناب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنكي بن مودود وأعطاه سنجار ، وشرط عليه الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا

استدعاه ، ولا يحتاج بحجة عن ذلك . ومن الإتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ مبشرٌ بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . ثم سار صلاح الدين من حلب بعد أن تسلم حارم ونظم أمر تلك الأرجاء وتجهز من دمشق فأحرق بيسان وشن الغارات على تلك النواحي وأرسل إلى أخيه العادل بمصر أن يلاقيه إلى الكرك فاجتمعا عليها وحصراها ثم رحلا عنها . وسار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فانزل الكرك وكتب إلى مصر فسار إليه عساكرها فضيق على من به وملك ريف الكرك ، ولم يتيسر له الإستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه ، فسار إلى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسرى وسبي فأكثر ثم سار إلى سبسطية فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين . وفي سنة (٥٨١) حصر الموصل مرة ثانية فسير أتاك عز الدين صاحبها والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة وكل من عنده ظنوا أنهم إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين فلما وصلن إليه اعتذر بأعذار غير مقبولة وأعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء ، وندم صلاح الدين بعد ذلك على ردهن ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره يقبحون فعله وينكرونه . وسار صلاح الدين عن الموصل إلى خلاط وملك ميافارقين . وغزا صاحب الكرك (٥٨٢) وأسرى قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فأبى فنذر صلاح الدين قتله بيده . وكان أرنلط من أغدر الفرنجة وأنقضهم للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة . وكان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لأن زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلاً من الفرنج اسمه كي وأخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس وكان طمع فيه ، فراسل صلاح الدين وانتمى إليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم ، ففعل ذلك عنده أعظم محل ، وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم . قال صاحب الكامل :

وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم .

وقعة حطين وفتح فلسطين :

كانت سنة (٥٨٣) سنة مباركة جداً على صلاح الدين وعلى المسلمين ، كما كانت عليه سنة (٥٦٤) بفتح مصر وإنقاذها من أيدي الفاطميين . ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا أديم الشام سنة (٤٩١) فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفاً على الحجاج من صاحبها فأخرب كما قال من رسالة إلى أخيه سيف الإسلام عماراتها وأحرق غلاتها ، وقطف ثمراتها ، وأزعج ساكنيها ، وأخاف آمنيها ، وأجلى عنها فلاحيها ، وأقام النوائح عليها في نواحيها . وأغار بعض عسكره على عكا وغنموا ثم حصر مدينة طبرية ومعها الجاندارية والحراسانية والحجارون والنقابون ففتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس ، وكان مهادن السلطان فاجتمع إلى الفرنج للحرب - وكانت طبرية تقاسم على نصف مغل الصلت والبقاء وجبل عوف والحياينة والسواد وتناصف الجولان وما يقربها إلى كورة حوران .

واجتمعت ملوك الفرنج فارساً وراجلاً وساروا إلى صلاح الدين فركب إليهم من طبرية ، والتقى الجمعان واشتد القتال بينهم وأحرق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلاً وأسراً على قرية حطين بالقرب من طبرية وأسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير وصاحب الكرك وصاحب جبيل وغيرهم من قمامصتهم وأمرأهم . وكان الفرنج في حطين خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى الفل وقاتل الباقون واستأسروهم فقتل منهم أربعون ألفاً وقيل أقل من ذلك ، ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأحضر ملك الفرنج وأجلسه إلى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماءً مثلوجاً وسقى ملك الفرنج منه البرنس أرنلط صاحب الكرك فقال له السلطان : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه على غدره غير مرة وعلى قصده الحرمين الشريفين ، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن جأشه .

قالوا : وقد عرض السلطان الإسلام على الداوية والإسبتار ، فمن أسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والأسارى إلى

دمشق. ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصره وفتحها بالأمان وكان فيها ثلاثون ألف إفرنجي وأربعة آلاف أسير مسلم، وأرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل بابا وفتحه عنوة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ودبورية والقولة وجنين وزرعين والطور واللجون والقيمون والزيب ومعليا والبعة وإسكندرونة ومنواث وأرسوف وعقربلا وأريحا سنجيل والبيرة وقلونية وصرند ومجدل الحباب وجبل الجليل وتل الصافية والتل الأحمر وقرينا وصبوبا وهرمس والسلع عدا ما تحلها من القرى والأبراج والقلاع. فتح كل ذلك بالسيف وفتح عسكره سبسطية ونابلس وقلعتها بالأمان، وفتح العادل يافا عنوة ثم فتح السلطان تبنين، وتسلم صيدا خالية ثم بيروت بالأمان بعد حصارها. وكان من جملة الأسرى صاحب جبيل فبذل جبيلًا فأطلق. وحضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين وأقلع إلى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً. وذكر المؤرخون إن إطلاق أمراء الفرنج من الأسر وحملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا.

فتح القدس والرملة :

حصر السلطان عسقلان وتسلمها ثم فتح الرملة والداروم وغرة وبيت لحم حتى وبت جبريل وتبنين والنظرون ومشهد الخليل ولد وغيرها ثم نازل القدس وبه من الفرنج عدد لا يحصى وضايقه بالتقايين واشتد القتال، وطلب الفرنج الأمان فقال : أخذها مثل ما أخذت من المسلمين بالسيف فعاودوه فأجاب بشرط أن يؤدي كل رجل عشرة دنائير وكل امرأة خمسة وكل طفل دينارين ومن عجز أسر وتسام المدينة في رجب وكان فيها بالضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من تبعهم من النساء والولدان قال ميشو : إنه كان فيها مائة ألف صليبي وكان عددهم لما فتحه (٦١٠٠) فارس و(٤٨) ألف راجل ولم يكن فيها لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود وكان يدفع إتاوة كبيرة في السنة للملك حتى يبقى فيها.

قال ابن الاثير في معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج في القدس : إن الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك، وتمكن

النجارين من النقب أرسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة إلى صلاح الدين يطلب الأمان فأبى السلطان وقال : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي فقال له باليان : أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خناق كثير ، وإنما يفرون عن القتال رجاء الأمان ، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فوالله لنتقتل أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ولا نترككم تغتمون منا ديناراً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً أو امرأة ، فإذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة والمسجد الأقصى . ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا وحيث لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ، وتموت أعزاء ونظفر كرماء ، فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه ، فأجاب صلاح الدين حيثنذ إلى بذل الأمان للفرنج .

وكان رأي صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته أولاً من إهراق دماء الفرنج كما أهرق أجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير الصليبيين في الصلح لا شأن له مع صلاح الدين ، وهو في تلك القرية والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي إلى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعته وجماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في سماحة الإسلام ، وأن لا يثير الحفاظ وهو على يقين من أن أوربا ماجيشت إلا قليلاً لفتح القبر المقدس فإذا قتل من فيه وفيهم الأمراء والسادة والقادة وغيرهم يقيم في كل دار في الغرب مائماً وتزيد الطوائف بين الفريقين ، ويهب الفرنج في الغرب إلى جمع شملهم ، أكثر مما جمعوا في القرن الماضي ومنتصف هذا القرن وتعود الشام إلى خرابها .

وما الفائدة من القتل إذا كان يجلب الولايات على فاعله وعلى ذويه . على أن صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن مألوف عادة تلك العصور وما عُدَّ عمله شيئاً فرياً ، إذ يكون قد كمال لهم بالكيل الذي كالموا به لأمته . بيد أن السماحة التي بدت منه أكسبته وقومه في الغرب إسماعطراً لا يزال يردد بالخير على كرور الأيام ، ودب الفشل في نفوس القابضين على زمام الأمر فلم

يعودوا كما كانوا في الثمانين السنة الأخيرة يأتمرون في الحال بأوامر الكنيسة البابوية ، ويحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء إلى الأرض المقدسة . وبهذا العمل انحلت العقدة المهمة الأولى من حروب الصليبيين ، وكان الخطب سهلاً بعد ذلك في عهد صلاح الدين وأخلافه فصدق في وصفه شاعره عبد المنعم الجلياني حيث قال من قصيدة :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياً	بهم ووفاءُ العهد قيد المخاصم
فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا	فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر إذ أتى	بقلب سليمٍ راحماً للمسلم
فخطوا بأرجاء الهياكل صورة	لك اعتقدوها كاعتقاد الأقاليم
يدين لها قسٌ ويرقي بوصفها	ويكتبه يشفي به في التمام

مر الرحالة ابن جبير الأندلسي بالشام وصلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين مسلمين وإفرنج وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، وأرفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك ، وتجار الصليبيين أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، والنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمانة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلهم والارتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . قال : وهذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا والتجار ، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً . وقال بعد أن ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس وإطلاق أيدي جيشه في جميع ما احتازته : وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الإعتدال في السياسة .

وبعد أن قرر السلطان أمور القدس ، وأمر بعمل الرُّبُط والمدارس الشافعية ، رحل عنها ولم يبق معه مما أخذه من مال الفداء شيء وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً ففرقها على الأمراء والعلماء والفقراء ، وأطلق كثيراً من الفقراء بدون فداء ، وأدى أخو السلطان الملك العادل فدية عن ألفي صليبي ، واقتدى به

السلطان نفسه ، وعفوا عن كثيرين ، فلم يبق سوى أربعة عشر ألفاً يخرج منهم الصبيان والبنات الذين أدى الصليبيون فداءهم ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، فكأن يخرج من القدس حراً بدون منازع ، وعامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن أرقى رجل مهذب في القرون الحديثة . ذكروا أنه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة استعادت بالسلطان فأعازها ، ومن عليها وعلى من معها بالإفراج ، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزانها ، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كمي وهي ابنة الملك أموري وكانت مقيمة في جوار القدس مع ما لها من الخدم والحول والجواري فاستأذنت بالإلمام بزوجها وأقامت عنده ، وكان مقيماً في برج بنابلس أسيراً يرسف في قيده . وخرج البطرک الكبير الذي للفرنج ، ومعه من أموال البيع والمساجد منها الصخرة والأقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال : لا أغدر به ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير إلى غير ذلك من مزاياه العالية التي علم بها أعداءه كيف تكون مكارم الاخلاق .

رحل السلطان إلى عكا ومنها إلى صور ، وقد حصنت بالرجال وحفر خندقها من البر إلى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الأسطول فوصل إليه في عشرة شوان فاتفق أن الفرنج كبسوهوم في الشواني وأخذ خمسة شوان ولم يسلم من المسلمين إلا من سبج ونجا وأخذ الباقون ، وطال الحصار عاينها فرحل السلطان عنها في الشتاء وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور فسار كل واحد إلى بلده وبقي السلطان بعكا وقد قنع الفرنج بصور ، وأرسل إلى هونين ففتحها بالأمان كما فتح قلعة أبي الحسن من عمل صيدا وشقيف أرنون وأقام رجالاً على صفد وكوكب يحاصرونهما وهما حصنان عظيمان للداوية والاستبارية وكان شديداً على رجال هاتين الرهبتين لما عرفوا به من الشجاعة والمكر ويقتلهم في الغالب إذا وقعوا في يده فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم في فلسطين من المدائن والثغور سوى صور استصفيت كلها . ولما انسلخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بمن معه بعد أن ولي أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، وأمر بنقل الغلات من اللقاء لتقوية الفلاحين وإعانة المقطعين وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى

أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة وال عمران . ومن كتاب فاضلي يصف فيه بعض مدن فلسطين في الفتح الصلاحي : وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مُدُنِيًا . وعمارات ما كان أمل إليها مفضياً . بل طال ما كان عنها مغضياً . مثل بيسان وكفربلا وزرعين وجنين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغلّة ، وبساتين مظلة ، وأنهار مقلّة ، وقلاع مظلة ، وأسوار قد ضربت على جهاتها ، وأحاطت بحبباتها ، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها .

بقية الفتح الصلاحية :

اتجهت همة صلاح الدين العالية إلى فتح ما بقي في أيدي الصليبيين من ثغور الساحل . وقصد إلى دمشق ولما اجتمعت العساكر من الأطراف سار منها فنزل على بحيرة قدس غربي حمص وأتته العساكر بها فرحل ونزل على أنطرطوس فوجد الفرنج قد أخارها فأحرقها وأحرق البسية وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطارهم . وسار إلى مرقبة فوجدهم قد أدخلوها أيضاً وسار إلى المرقب وهو للإستبار فوجده لا يرام وتسلم جبلة و « بلدة » من غربي النهر على شاطئ البحر وسار إلى اللاذقية ولها قلعتان فحصر القلعتين وزحف إليهما فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم القلعتين وعمر البلد وحصن قلعتها .

ولما كان على اللاذقية طلب مقدم أسطول صقلية من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الأرض بين يديه وقال ما معناه : إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون ممالكك وجندك تفتح بهم الممالك وترد عليهم بلادهم ، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الأمر ويشدد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر ورحل السلطان إلى صهيون فتسلمها بالأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه إلى ذلك وتسلم قلعة صهيون ، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملك حصن بلاطنُس وكان الفرنج قد أدخلوه ، وملك حصن العيذو وحصن الجماهيرية ، ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشجر فحصرها ووجدها منيعة فضايقها فطلب أهلها الأمان ، وحصر ابنه الملك الظاهر غازي قلعة سرمين وضايقها وملكها ، واستنزل أهلها على قطيعة قررهما عليهم وهدم

القلعة وعفى أثرها . وكان في هذه القلعة وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجحيم الغفير ، فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار من الشغر إلى برزويه وملكها بالسيف وسبي وأسروا وقتل أهلها وأسروا السلطان صاحب برزويه هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر ، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها . وكانت امرأة صاحب برزويه أخت امرأة يميند صاحب أنطاكية ، وكانت ترسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها .

ثم سار فنزل على جسر الحديد ومنه إلى دربساك فتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج أحد منها إلا بثيابه فقط . وسار إلى بغراس وحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك . وأرسل يميند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل إطلاق كل أسير عنده فأجابه إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر ، ثم عاد إلى دمشق فأشير عليه بتفريق العساكر ليرجحوا ويستريحوا فقال السلطان : ان العمر قصير والأجل غير مأمون . وكان صلاح الدين لما سار إلى الشمال قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها ، وختلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك وما إليها ، ثم سار السلطان إلى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالأمان وشخص إلى كوكب فضايقها وتسلمها بالأمان وسير أهلها إلى صور .

ولما سقطت القدس واستولى صلاح الدين على جميع الأقاليم التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم إلا يافا وصور وطرابلس تجمع أهل الأقاليم التي أخذها صلاح الدين في ثغر صور فكثرت جمعهم ، وأرسلوا إلى الغرب يستصرخون وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضربه وقد أدماه وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح . فخرجت النساء من بيوتهن . ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا إلى عكا من صور ونازلوها وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين ألوف أيضاً ، وعاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) إلى قتال الفرنج على عكا .

الحملة الصليبية الثالثة :

بينما كان صلاح الدين على عكا يغادي الفرنج القتال ويرواحهم ، جاءت الأخبار من الروم أن ملك الألمان قادم لنجدة الصليبيين في الشام في مائة ألف محارب ، فدخل اليأس على الناس وهذه هي الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة ، ولكن سلط على ملك الألمان الوباء والغلاء وغرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم ، ولم يصل مع ابنة سوى ألف مقاتل فقط . يشس الناس لأنهم ذهبوا إلى أن الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين بل بعد استصفاء أكثر المدن والمعقل التي كانت لهم ولا سيما القدس العلة الأولى في هذه الغزوات التي ألبسوها لباس الدين ، وكانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك : فريدرىك باربروس ملك ألمانيا ، وفيليب اوغست ملك فرنسا ، وريشاردس قلب الأسد ملك إنكلترا . فحف الأول إلى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من أمره ما كان أما الآخران فجاءا إلى عكا في البحر ، وبعد أن فتح ريشاردس جزيرة قبرس تمكن الصليبيون من أخذ عكا وقتل من المسلمين جمهور كبير .

قال ميشو : إن الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى للعرب ، كانت من أول الانتصارات ومقدمة الغنائم للبحرية الإنكليزية ، وقال أمغلطاي : إن الفرنج حاصروا عكا من البر ومن البحر ، وكانت عدتهم مائتي ألف وأربعين ألفاً ، ونصبوا عليها المجانيق من كل جهة ، وفتحوا فيها مواضع كثيرة حتى خربت ودثرت وصارت مثل الطريق ، فغلب المسلمون وطلبوا الأمان . وقال غيره : إن السلطان كان عمر في بيروت بطسة وشحنها بالعدد والآلات ، وفيها نحو سبعمائة رجل مقاتل ، فلما توسطت في البحر صادفها ملك الإنكليز وأحاطت بها مراكبه وحصل القتال بين الفريقين ، فلما رأى مقدمها اشتداد الأمر ، نزل فخرقها حتى غرقت ، وكانت هذه الحادثة أول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين .

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية ، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسرف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن مرقفهم ، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم

سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها ، ورأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة فخر بها وخرّب الرملة وكنيسة لدّ وكان هدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذلة من مساكنة الفرنج . وسار إلى القدس وقرر أموره وعاد إلى نجيمه بالنظرون . ثم ترأس الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك أنكلترا ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا ، فأنكر القسيسون عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال .

وذكر بعض المؤرخين أن ملك أنكلترا هو الذي عرض على العادل أخته ، وكانت أرملة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفي عنها ، ورغب أن يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على الساحل ، وهو يُقطع الداوية والاسبتار من المدن والقرى دون الحصون ، وتكون أخته مقيمة بالقدس وأن الإنكليز لما عنفوا المرأة وأتهموها في دينها ، اعتذر ملك أنكلترا بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل في دينها فعرف أنها خديعة كانت منه .

قال ابن شداد في وصف ريشاردس ملك الإنكليز : وهذا ملك الانكثار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنتزلة ، لكنه أكثر مالاً منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة . قال : وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنه أنهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد أي عكا حين قدومه ، فإنه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة . وقال بعد أن ذكر كيف كان ملك الإنكليز يكرر الرسائل إلى الملك لتعرف قوة النفس وضعفها ، وكيف كان يوهن المسلمين على تعرف ما عنده من ذلك أيضاً : فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى ، وكان مضطراً إلى الرواح وهذا عمله مع اضطرابه ، والله الولي في أن يقي المسلمين شره ، فما بلينا بأعظم حيلة وأشد إقداماً منه .

بقي صلاح الدين في كل يوم يقع بينه وبين الفرنج مناقشات فلقوا من ذلك شدة شديدة واستولوا سنة (٥٨٨) على قلعة الداروم وخرّبوها وأسروا من فيها .

عرض الملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاده فأحب أن يصالح صلاح الدين ، فرضي السلطان بالصلح بعد الذي أصاب جيشه من الفشل على عكا ، وفشل عكا هو الوحيد الذي أصابه ، وذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه ، وقد ملّ الجند الحرب التي دامت أعواماً ، وخرج المسلمون من عكا وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين و صليب الصليبوت ، وعشرة آلاف دينار للمركيس وأربعة آلاف دينار لحجابه ، وعقدت بين الصليبيين والمسلمين هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وأرسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها ، وأن تكون عسقلان خراباً ، واشترط السلطان دخول عمالة الإسماعيلية في أرض الهدنة ، واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك . واتفقت وفاة السلطان بعد الصلح بيسير ، فلو اتفق ذلك في أثناء وفاته كان الإسلام على خطر .

وفي التاريخ العام أن صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في أوروبا فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس في الغرب . وأن إمارات الصليبيين لم تقاتل مدة نصف قرن سوى صغار أمراء سورية والموصل . وكان مسلمو مصر يعيشون بسلام معهم ، وهذا كان عهد نجاح تلك الإمارات ، ولما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وقامت مقامها دولة حربية من المماليك ، لم يستطع المسيحيون ، ومصر تهاجمهم ، أن يقاوموا زمناً طويلاً ، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين ، وإذا احتفظوا ببقايا الإمارات قرناً آخر فذلك لأن ملوك الإسلام لم يرضوا أن يقضوا عليها . لا جرم أن هذه الحرب كانت حرباً مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين ٥١ .

مزايا صلاح الدين ووفاته :

ولا عجب إذا انتثر سلك الإمارات الصليبية في الجنوب والغرب جملة فإن تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات ، والنجيدات كانت تأتيه سرعاً دراكماً ،

والفكر متجه إلى مقصد واحد . استمات المسلمون في تأييد سلطانهم ، و حاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر والفر وصنوف الدهاء والحديعة ، وما الحرب إلا خدعة - قاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين ، مرة بالأبراج ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوما بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلام ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والدهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للغزاة ، ويخالف التوفيق أعلامهم ، وما كل خطة يقررها صاحب الأمر بادی الرأي تكون سديدة من كل وجه ، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين وظفره الباهر بهم في الأردن والجليل وبيت المقدس كيف فتح لأعدائه السبل ليذهبوا إلى صور، ويجتمع هناك فلّ جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قويت بما جاءها من البحر من الإنكليز والفرنجة ، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا ، ولو كان حياً لدافع عن نفسه دفاعاً معقولاً مقبولاً فيما نحسب، ولعلّ ذلك يدخل في باب مراحمه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس، فلم يعامل أعداءه إلا بما اقتضته سياسته وسيرته.

كان صلاح الدين يُعنى بجنده ويتعهده ويسأل عن صحة أمرائه ومن دونهم في راحتهم ومنامهم وأكلهم وشربهم ، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار أو الليل ثم يستريح أو يحارب مدة معينة ثم يذهب إلى ذويه ، على أرقى الأصول المتعارفة في الحروب الحديثة . والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغتني أفرادهم وجماعاتهم دع ما لهم من الأموال الدارة من أموال الجباية والرسوم على التجار وما خصوا به من الحرمة ورفع الشان ، يأخذون إما رواتب أو إقطاعات ، ولم تكن إقطاعاتهم كإقطاعات الغرب تورث على الأغلب بل تزول عن صاحبها بموته أو بعزله ، ولذلك كان المحاربون متعلقين أبداً بسلطانهم وأميرهم ، متفانين في إحسان الخدمة كأنهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم .

جاء صلاح الدين إلى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين ، وكان يحب دمشق ويؤثر الإقامة فيها . فلقى الأهل والولد بعد تغيب أربع سنين وذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوماً فكان عمله كأنه وداع لأهله وأولاده ومرايع نزهه وأنسه . ثم مرض أياماً وهلك حميد الأثر فضجت الأمة لفقده ،

وبكت العيون ، وانتحبت النفوس ، لأنه لم يحي مصر والشام ، بل أحيا بعمله المسلمين والإسلام ، وكان كما ذكره ابن شداد : رؤوفاً رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي ، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس ، في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصداً أبداً ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته .

مات صلاح الدين وقد ملك مصر أربعاً وعشرين سنة والشام تسع عشرة سنة ، وملك الجزيرة واليمن ، ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ، فإن صدقة النفل استنزفت جميع ما ملكه من الأموال ، فملك ما ملك ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك ، وكان رحمه الله يهب الأقاليم ، ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم ، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه . وكان كثيراً ما يقول : إن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها وشركتها لا زهرتها ومناظرتها للعدو لا نصرتها . وقد ذكر القاضي ابن شداد وعماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمر الشرعية ، وعدله وكرمه وشجاعته ، واهتمامه بأمر الجهاد وصبره واحتسابه ، وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة ، ما هو العجب العجيب ، وبعضه إذا جمع في شخص كان مفخراً من المفاخر على توالي الأحقاب .

ملأت خيرات صلاح الدين جميع الأقطار التي خفق علمه عليها ، وملأت أوقافه مصر والشام وهي غير منسوبة إليه . قال ابن خلكان : ولقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة ، فإنه فعل في هذه الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر اه .

بل قد تجدد لماليكه وخواصه أوقافاً نسبت إليهم ولم ينسب إليه إلا قليل وكان
 ممالك صلاح الدين وخواصه وأمرأه وأجناده أعف من الزهاد والعباد ، والناس
 على دين ملوكهم . ومن كرم صلاح الدين أنه أخرج في مدة مقامه على عكا
 ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، وأما العين والثياب
 والسلاح فإنه لا يدخل تحت حصر ، وما كان يركب فرساً إلا وقد وعد بأن يعطيه
 لطالب من جماعته ، وقد فرّق من ذخائر الفاطميين لما فتح مصر ما يفوق
 الإحصاء ولم يبق منه قليلاً ولا كثيراً . ومن رسالة له إلى الديوان العزيز ببغداد :
 فقد علم أن الخادم بيوت أمواله ، في بيوت رجاله ، وأن مواطن نزوله ، في
 مواقف نزاله ، ومضارب خيامه ، أكنة ظلاله ، وأنه لا يذخر من الدنيا إلا
 شيكته ، ولا ينال من العيش إلا مسكته . كان صلاح الدين يعيش عيش المتوسطين ،
 وينفق بحيث تكاد تعده إلى الإسراف ، ويكتفي من اللباس بالكتان والقطن
 والصوف ، ويجلسه منزله عن الهزء ومحافله حافلة بأهل الفضل ، وكان لمداومته
 الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية ،
 وكان من جالسه لا يعلم أنه يجالس السلطان ، بل يعتقد أنه يجالس أخ من
 الإخوان . كان من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم
 الثبات ، لا يهوله أمر . وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف وسبعون مركباً إلى
 عكا وهو لا يزداد إلا قوة نفس ، وكان يعطي دستوراً أن يسرح عسكره في
 أوائل الشتاء ويبقى في شزيمة سيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ، إذ كان عدد جيشهم
 لا يقل عن خمسمائة إلى ستمائة ألف فيما قالوا ، ومع هذا تراه صابراً هاجراً في
 محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملأه ، قانعاً من
 الدنيا بالسكركن في ظل خيمة تضر بها الرياح يمئة ويسرة ، وكان لا بد له من أن
 يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريباً منهم ، وإذا اشتد الحرب
 يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، يرتب الأطلاب
 ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره .

انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقعت
 الكوسات والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير ، فأنحاز إلى الجبل يجمع الناس
 ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو

في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة ، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، والمسلمون لا يتوقعونها ، وكانت المصلحة في الصلح .

سئل ابن بيزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف قتل منهم أكثر من مائة ألف وغرق معظمهم . وكان صلاح الدين يدور على الأطلاب اي الكتائب ويقول وهل أنا إلا واحد منكم .

وذكروا من مراحل صلاح الدين أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبيهاً رضيعاً ، فباتت أمه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج : إن سلطانهم رحيم القلب ، فاذهبي إليه فجاءته وهو على تل الخروبة راكب فغفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فأخبروه بقصتها فرق لها ، ودمعت عيناه ، وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل ، ولم يزل واقفاً حتى أحضروه ، فلما رأته بكت وأخذته فأرضعته ساعة وضمته إليها ، وأشارت إلى ناحية الفرنج فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

قال سبط ابن الجوزي : ويقال إن صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً. قلنا: إن نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان في أمته صلاحاً لدينها ودنياها .

الدولة الايوبية

« من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧ »

أبناء صلاح الدين واختلافهم ودهاء عمهم العادل :

اهتزت أعصاب المملكة لمهلك صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والبلاد الشرقية لأنه الفاتح الثاني لبيت المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح الأول . وقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة ، وناب بعض أولاده عنه في أكثر أقاليمه وخلف أخاه الملك العادل أبو بكر ، وكان ينوب عنه في مصر والشام في حياته فوقع الخلف بين بنيه وعمهم في الباطن أولاً ، ثم أعلن كل واحد لصاحبه خصومته . وكان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية ورأوا من عدلها ما لم يكذب يسبق له مثيل إلا في دولة نور الدين ، يتخوفون أن تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق والنزاع ، ومن الذين أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأكبر فقد كتب إلى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب « إن وقع اتفاق فما عدتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم » .

وكان الملك الأفضل نور الدين علي أكبر أولاد صلاح الدين قد حلف له الناس عندما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق وما إليها ، وبالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وبحلب الظاهر غياث الدين غازي ، وبالكرك والشوبك والأقاليم الشرقية الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وسعلبك الملك الأجدد مجد الدين بهرام شاه ، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن

محمد ، وبيصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، وكان في خدمة أخيه الملك الأفضل ، وبيد جماعة من أمراء الدولة مدن وحصون ، منهم سابق الدين عثمان بن الداية وبيده حصن شيزر وحصن أبي قبيس ، وناصر الدين بن كورس وبيده صهيون وحصن برزية ، ودلدرم بن بهاء الدين ياروق وبيده تل باشر ، وأسامة الحلبي وبيده كوكب وعمجلون ، وإبراهيم بن شمس الدين ابن المقدم وبيده بعين وكفرطاب وأقامية . ولما ألقى للملك الأفضل زمام السلطنة بعهد أبيه استوزر ضياء الدين بن الأثير الجزري فحسن له طرد أمراء أبيه فقارقه إلى أخويه العزيز بمصر والظاهر بجلب ، ولما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ، ووقعوا في أخيه الأفضل فحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز واستحكم الفتور (٥٩٠) بينهما فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق عشرة أشهر وقطع الماء عنها . فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم ، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين وعاد كل ملك إلى بلده . قال العماد الكاتب :

ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب ، واحتجب عن الرعية وانقطع إلى لذاته ، فسمي الملك النوام ، وفوض الأمر إلى وزيره الجزري ، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي ، فأفسدا عليه الأحوال وكانا سعيًا لزوال دولته واستبدلا أراذل الناس بكبراء الأمراء والأجناد ففسدت أمور العباد . وفي هذه السنة استعادت الفرنج حصن جيبيل وأخذ الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية .

وفي السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل ، فسار ونزل الفرار من أرض السراد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه فعاد العزيز إلى مصر . وكان الأفضل استنجد بعمه العادل لما قصده أخيه ، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية ، وساروا في أثر العزيز طالبين مصر فترلوا على بلييس ، وقصد الملك الأفضل مناخزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل وقال : مصر لك متى شئت . وكاتب العادل العزيز وأمره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين . وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابسة أولاد صلاح الدين لما رأى من فساد أحوالهم على ما رواه

المؤرخون - والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في ملا من الناس : لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيفكم بل بقلم الفاضل وكان يستشيريه في أموره - فدخل الملك العزيز على القاضي وسأله أن يتوجه من القاهرة الى الملك العادل ففعل واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين فأصلحا بينهما وأقام العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته وعاد الأفضل الى دمشق وأموره بيد الجزري يدبرها برأيه حتى كثر شاكوه وقل شاكره . وكان الاعتماد على مشورة الوزير الجزري الذي زين للملك الأفضل إقصاء أمراء أبيه ليخلو له الجح أول خطوة نحو خراب بيت بني أيوب ، وبعبارة أصح أبناء صلاح الدين يوسف . وقوة الدولة على نسبة عقل القائميين بها ، الدافعين عن حوزتها ، الغيورين على بقائها ، وقد خالف الملك الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء وكان أبوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم وكان لسان حال العادل وقد رأى اختلاف أبناء أخيه المثل المأثور « لم أمر بها ولم تسؤني » . قال سبط ابن الجوزي لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره الجزري من الأفعال القبيحة وأذى أكابر من الدولة ، والأفضل يسمع منه ولا يُعدي أحداً ولا يخالفه ، فكتب قيماز النجمي وأعيان الدولة إلى العادل يشكونه ، فأرسل العادل إلى الأفضل يقول : ارفع يد هذا الأحمق السيء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت ، واتفق مع العزيز على النزول إلى الشام فسار إلى الشام فاستشار الأفضل أصحابه فكل أشار عليه أن يلتقي عمه وأخاه ولا يخالفهما إلا الجزري فإنه أشار عليه بالعصيان فاستعد للحصار وحلف الأمراء والمقدمين وفرقهم في الأبراج وعلى الأسوار .

اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز في جميع المملكة كما كانت لأبيه ، فخرجا وسارا من مصر فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين وهو أحد أمرائه وهو أخو الملك العادل لأنه ونزل العادل والعزيز على دمشق وقد حصنها الأفضل ، فكتب بعض الأمراء من داخل البلد العادل وصاروا معه وأنهم يسلمون المدينة إليه ، فزحف العادل والعزيز فدخل الأول من باب توما والثاني من باب الفرج ، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة وانتقل منها بأهله وأصحابه ، وأخذت بصرى من الملك الظاهر خضر أخي الأفضل وكان معاضداً له ، وأعطى الأفضل صرخد

فسار إليها بأهله ، واستوطنها وأخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل فأخذ أموالاً عظيمة وهرب إلى بلده .

سلم الأفضل دمشق لعنه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، فتسلمها العادل على أن يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للأفضل وهو السلطان ، ورحل العزيز وأبقى له العادل السكة والخطبة بدمشق .

استئثار العادل بالملك الصلاحي :

توفي الملك العزيز عثمان في مصر (٥٩٥) وعمره سبع وعشرون سنة وأشهر وكان في غاية السماحة والكرم والعدل . والرفق بالرعية والإحسان إليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لأنه شبل من أسد ، وكان الغالب على دولته فخر الدين جهاركس فأقام في الملك ولد العزيز الملك المنصور محمد وانفقت الآراء على إحضار أحد بني أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذٍ بصرخد فأرسلوا إليه فسار محثاً ، ووصل إلى مصر على أنه أتاك أي مربى الملك المنصور بن الملك العزيز ، وكان عمر الملك المنصور حينئذٍ تسع سنين وأشهرًا . ولما وصل الأفضل إلى بلبس التقاه العسكر فتكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام ، وكاتبوا العادل وهو محاصر ماردین ، وأرسل الظاهر إلى أخيه الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه العادل ، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بماردین ، فبرز الأفضل من مصر وسار إلى دمشق ، فبلغ العادل مسيره ، ونزل الأفضل على دمشق وجرى بين العم وابن أخيه قتال ، وهجم بعض عسكر الأفضل المدينة حتى وصل إلى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد ، ثم تحاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل إلى الأفضل أخوه الظاهر فعاد إلى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها وقتل الأقوات عند العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف .

روى سبط ابن الجوزي أنه لما اشتد الحصار على دمشق وقطعت أشجارها

ومياها الداخلة إليها وانقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، بعث العادل إلى الظاهر يقول له : أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان وتكون دمشق لك لا للأفضل ، فطمع الظاهر وأرسل إلى الأفضل يقول : أنت صاحب مصر فأثرتي بدمشق . فقال : دمشق لي من أبي وإنما أخذت مني غصباً فلا أعطيها أحداً ، فوقع الخلف بينهما ووقع التقاعد . وكان إلقاء الخلف بين الأخوين من جملة دهاء عمهما ،

ودخات سنة (٥٩٦) والأفضل والظاهر يحاصران دمشق ، وقد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت ، وأحرق النيرب وأبواب الطواحين ، وقطعت الأنهار وأحرقت غلة حرستا في بيادرها ، وحفر على دمشق خندق من أرض اللوان إلى أرض يلبدا شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهما ، ولما تغير الظاهر على أخيه الأفضل ترك قتال العادل ، فظهر الفشل في العسكر ، فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصفر ، ثم سار الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب ، ولما تفرقا خرج العادل من دمشق وسار في أثر الأفضل إلى مصر ، وضرب مع الأفضل مصافاً فانكسر الأفضل وانهمز إلى القاهرة ، ونازلها العادل ثمانية أيام ، فأجاب الأفضل إلى تسليمها ، على أن يعوض عنها ميافاوقين وخاني وسميساط ، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به ، ثم سار الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال العادل الملك المنصور ، واستقل العادل في السلطنة ، فقطع أولاً خطبة ولد العزيز بعد أن جمع الفقهاء وقال هل يجوز ولاية الصغير على الكبير فقالوا : الصغير مولى عليه وقال : فهل يجوز لكبير أن يولي عليه وينوب عنه قالوا : لا لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة . فقطع خطبة ابن العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد من بعده ، وكان ذلك على الحقيقة مبدأً سلطنة العادل الكبرى ، فإن استنثاره بالخطبة والسكة في مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام وما إليها من ديار الشرق .

لما تم الأمر بمصر للعادل كاتب الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمعنيين شقيق أبيه وأبو امرأته) وصالحه وخطب له بحلب وأقاليمها وضرب السكة باسمه ، واشترط العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار

عسكر حلب في خدمة العادل كلما خرج الى الحرب والتزم الظاهر بذلك إلا أنه أخذ بتحصين حلب خوفاً من عمه العادل وأرسل المنصور للعادل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعين من ابن المقدم، فقبل العادل عذره وأمره بردها إلى صاحبها الأول. وسار (٥٩٧) الظاهر وملك منبج وخرّب قلعتها وملك قلعة نجم وأفامية وكفرطاب من ابن المقدم ، وأرسل إلى المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين في عنقه العادل ، فلما آيس الظاهر منه سار إلى المعرة وأقطع إقليمها واستولى على كفرطاب ، ثم سار إلى أفامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم ، فلم يسلم هذا القلعة إلا بعد الحرب الشديدة ، فرحل الظاهر وتوجه إلى حماة وقاتلها أشد قتال ، فلما لم يحصل على غرض صالح المنصور على مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية ، ثم رحل الظاهر إلى دمشق وبها المعظم ابن العادل فنازلها الظاهر هو وأخوه الأفضل ، وانضم إليهما ميمون القصري صاحب نابلس ، ومن وافقه من الأمراء الصلاحية ، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الأفضل ثم سيران ويأخذان مصر من العادل ويتسلمها الأفضل ، وتسلم دمشق حينئذ إلى الظاهر ، بحيث تبقى مصر للأفضل ، ويصير الشام جميعه للظاهر .

وفي سنة (٥٩٨) سار العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون وقام المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للمنصور صاحب حماة، وأخذت من الظاهر أيضاً قلعة نجم، وسلمت إلى الأفضل، وكان له سروج وسمي ساط، وسلم العادل حران وما معها لولده الأشرف موسى وسيره إلى الشرق . ولما استقر الصلح بين العادل وابن أخيه الظاهر، رجع العادل إلى دمشق وأقام بها وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه .

الأحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين :

مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لأخيه العادل أبي بكر بن أيوب وتخلص من أبناء أخيه الأفضل

والظاهر وغيرهما بل توفق إلى مقاصده باستفتاء العلماء بأن ملك مصر وأنقذها من حفيد أخيه صلاح الدين، وكان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك أخيه إلا قليلاً، ومقدمة لتسلسل الملك في أولاده، إذ ليس في أبناء أخيه من يدانيه في الحقيقة بحسن السياسة وبعد النظر وكثرة التجارب والدهاء، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه ويستشير به في معضلات الأمور فيبين عن رأي وحكمة وسار بعض الأمراء الصلاحية الذين غدوا بنعمة صلاح الدين سيراً لا يدل على غمط نعمة ونكران جميل، ولكن كان الأفضل والظاهر والعزيم متخالفين متشاكسين، وكل منهم يطمع في الملك ويسر لأخيه وعمه حسناً في ارتغاء، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل وهو بتجاربه يشبه أخاه صلاح الدين من أكثر الوجوه. أما الأفضل فقد ركب هواه، وأخذ إلى اللذات والمنكرات لأول مرة واستسلم لوزيره ابن الأثير، وكان هذا صاحب دعوى عريضة، لا يراعي الحال ولا يعرف الزمان، فكتبت الغلبة للعادل، ولو ترك الأخوان الأفضل والظاهر وشأنهما بدون أن يعدل عمهما من جماعتهما لاشد غزو أحدهما لأخيه، وهلك الناس بسببهما، وكثرت الغوائل والحصارات، هذا إن لم نقل إنه كان للعادل يد في توسيع شقة الخلاف بين أولاد أخيه، فقد اتخذ العادل سياسة غريبة معهم يريد أن يوفق بينهم في الظاهر ولكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على مصر والشام وبلاد الشرق، وذلك بأن أخذ بعض المشاكسين لحزبه وكان بعد ذلك يغتم فرصة حمل الأخ على أخيه فيملك الولايات على نحو ما ملك مصر، ويخطب له فيها وتضرب السكة باسمه ويزال اسم أبناء صلاح الدين.

مثل أبناء صلاح الدين صورة من خلاف الإخوة بعد موت أبيهم، والسبب في ذلك أن أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهداً يبين لكل واحد حقه من هذا الملك الذي فتحه ووطد أساسه، بل ترك الأمر للأقدار. وإذا خلف العسكر في دمشق لأكبر أولاده الأفضل فإن المملكة ليست عبارة عن دمشق، بل حلب والقاهرة تنازعانها فضل التقدم، ولو كانت أصول الورثة في الملك متبعة في ذلك العصر لتوفر على الأمة وأبناء الدولة عناء كبير وشر مستطير، ولما تعب الفاتح بفتوحه وخلف لأبنائه ميراثاً يورثه همماً وغماً، ويجنون بعملهم على الأمة الجناية بعد الأخرى.

هذا وبقايا الصليبيين لم تبرح نازلة في عكا وصور وطرابلس، ومن حسن الطالع أنهم لم يتحركوا للفتنة طول هذه المدة سوى مرة واحدة (٥٩٣) وقد وصل جمع عظيم منهم إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، فسار العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر ووصل إليه سنقر الكبير من القدس وميمون القصري من نابلس، ثم سار العادل إلى يافا وهجمها وملكها بالسيف وخربها وقتل المقاتلة، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها. وخرب صيدا أيضاً ونازلت الفرنج تبين فأرسل العادل إلى العزيز صاحب مصر فسار العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر، واجتمع بعمة العادل على تبين فرحل الفرنج إلى صور ثم عاد العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل إليه أمر الحرب والصلح، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ورجع إلى دمشق.

ومن الأحداث على عهد العادل بعد أن صفا له ملك الشام ومصر وخضع أبناء أخيه صلاح الدين له ظاهراً وإن لم يخضعوا باطناً، حصار ابنه الأشرف ماردين وسعى الظاهر (٥٩٩) في الصلح، فأجاب العادل إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك. وسار المنصور صاحب حماة إلى بعين مرابطاً للفرنج، وكتب العادل إلى أمير يافا بطلبك وحمص بإنجاده فأنجده، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا المنصور ببعين واتقوا معه، فانهزم الفرنج ثم خرج الاسبتار من حصن الأكراد والمرقب، وانضم إليهم جموع من الساحل والتقوا مع المنصور وهو على بعين فانتصر عليهم ثانياً، وأسر منهم عدة كثيرة وهاذتهم (٦٠٠) وأرسل العادل وانتزع ما كان بيد الأفضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سبساط وتوسلوا إليه في إبقاء ما كان بيده فلم يجب إلى ذلك.

وخرج الفرنج (٦٠٠) لتقصد بيت المقدس فهرع العادل من دمشق ونزل على الطور وجرت الهدنة بينه وبينهم وسلم إلى الفرنج يافا والناصرية ونزل عن مناصفات لدّ والرملة. جاءت الفرنج (٦٠١) إلى حماة بغتة وأخذوا النساء

الغسلات من باب البلد على العاصي وامتلات أيديهم من الغنائم وخرج إليهم المنصور بن تقي الدين وأبلى بلاء حسناً، وكسر عسكره، وحاصر الحلبيون المرقب وكادوا يفتحونها لولا قتل مقدمهم مبارز الدين، ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبيين وقتل خلق من المسلمين وصالح العادل الفرنج، ووقعت الهدنة بين صاحب حماة وبينهم. وأغار الأرمين (٦٠٢) على أعمال حلب فتسارع إليهم العسكر فيتوهم وهزمهم، وذهب الأرمين بالغنائم، ثم تتابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون الأرميني على الديار الحلبية وهابته العسكر. قال سبط ابن الجوزي: وبلغ الظاهر صاحب حلب إغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب ونزل مرج دابق، وجاء إلى حارم فهزم ابن لاون إلى بلاده وكان قد بنى قلعة فوق دريساك فأخربها الظاهر وعاد إلى حلب. ونازل العادل (٦٠٣) عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ثم سار إلى حمص واستدعى العساكر فأتته من كل جهة ونازل حصن الأكراد وفتح برج اعزاز وأخذ منه خمسمائة رجل، ثم نازل طرابلس وعاث العسكر في ربيعها وقطع قناتها وأخذ بالأمان القليعات وخربه، حتى وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج (٦٠٤) واستولى الملك الأوحده أيوب بن العادل على خلاط، ووصل للعادل التشريف من الخليفة الإمام الناصر وتقليد بالبلاد التي تحت حكمه، وخطب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، وكثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكراد وأكبثوا الغارة على حمص وولايتها فأنجد الظاهر غازي صاحب حلب صاحب حمص فمنعوا الفرنج عن ولايته.

وقطع العادل (٦٠٦) الفرات وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران ونازل سنجان ثم خامرت العساكر التي صحبتته، ونقض الظاهر الصلح معه، فرحل عن سنجان واستولى على نصيبين والخابور وعاد العادل (٦٠٧) إلى دمشق وقصدت الكرج وخلاط وحصروا الملك الأوحده بها وبعد أن نال ملكهم منه حمل ملك الكرج إلى الملك الأوحده فرد على الملك الأوحده عدة قلاع وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة وشرط أن يزوج ابنته من الملك الأوحده فتسلم ذلك منه

وتحالفوا، وتوفي الملك الأوحده من قابل فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط
عاصمة إرمينية الوسطى، واستقل بملكها مضافاً إلى ما بيده من الأرجاء الشرقية .
وفي سنة (٦٠٧) أرسل نساء دمشق إلى سبط ابن الجوزي الواعظ المشهور
شعورهن لتستعمل في الأدوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالاً للخيل وكرفسات
ولما صعد المنبر في الجامع الأموي أمر بإحضارها فحملت على الأعناق وكانت
ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس ضاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها ثم
المجاهدون ولحقوا بالملك المعظم بنابلس فخرّبوا في الأقاليم الواقعة تحت حكم
الفرنج وقطعوا أشجارها وأسروا جماعة منهم ولم يجسر أحدهم أن يخرج
من عكا وخاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل وصالحهم .

وقبض المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون
بأمر العادل متهماً بمكاتبة الظاهر، فقال له المعظم بعد أن لاطفه : أنت شيخ
كبير وبك تقوس وما تصلح لك قلعة سلم إليّ كوكب وعجلون وأنا أخلقك
على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش معنا مثل الوالد، فامتنع وشمّ المعظم
وذكر كلاماً قبيحاً فلما أيس المعظم منه اعتقله في الكرك واستولى على قلاعه
وأمواله وذخائره وخيله، فكانت قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار . وحبس
أسامة في الكرك إلى أن مات، وأمر العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها
فخرّبت، وأبقى عجلون ومثلّك المعظم عمالة جهاركس وهي بانياس وما
معها لأخيه العزيز عماد الدين، وأعطى صرخد مملوكه أيبك المعظمي، وأعطى
العادل ولده المظفر غازي الرها وميفارقين، وفيها استولى الببال القبرسي على
أنطاكية فرميت تلك الأعمال منه بدهاية، وتابع الغارات على تركمانها
فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق وحصل في واد فقتلوه وجميع رجاله
وظافوا برأسه في أعمالهم ثم حملوه في البحر إلى العادل بمصر .

واستولى (٦١٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل على اليمن واستولى ابن
لاون الأرمني على أنطاكية من الفرنج وتوفي (٦١٣) الظاهر غازي ابن السلطان
صلاح الدين صاحب حلب وأوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد
لأنه من بنت عمه العادل وطلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل
وأخواله وأولاده وبعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الصالح صلاح الدين

أحمد، وبعدهما لابن عمهما المنصور محمد بن العزيز بن عثمان، وحلف الأُمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وكانت مدة ملك الظاهر حلب إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي ولكن اختلافه مع أخيه الأفضل كان من أهم الأسباب في زوال الملك من ذرية صلاح الدين وكان الظاهر ذكياً فظناً . قال سبط ابن الجوزي : كان مهيباً له سياسة وفطنة وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ، مزينة بالملوك والأُمراء ، وكان محسناً إلى الرعية ملجأ الفقراء والغرباء وكهفياً للملهوفين .

الحملة الصليبية الخامسة :

بينما كانت المملكة مشغولة بالنصب والعزل وتقاتل أبناء البيت الواحد على الملك والسلطان، اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا في جمع عظيم وهذه هي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ - ١٢٢١م) وكانت مؤلفة من ألمان ومجر أما الحملة الرابعة فكانت توقفت في طريقها إلى الشام واستولت (١٢٠٤ - ١٢٦١م) على القسطنطينية فانفسخت بذلك الهدنة بين المسلمين والفرنج وخرج العادل بعساكر مصر ونزل على نابلس فسارت الفرنج إليه، ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم، فاندفع قدامهم إلى عقبه فيق فأغاروا على أرض المسلمين وكانوا في خمسة عشر ألفاً ووصلت غارتهم إلى نوى ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين شيئاً كثيراً وبلغوا خربة اللصوص والجولان ثم صعدوا إلى الطور ثم رجعوا إلى عكا ووصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صيدا إلى جزين فأنهال عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة أشخاص .

قال المؤرخون : لما قتل كند من أكناد الفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه، ورجعوا إلى عكا واختلفوا هناك فقال ملك الهنكر : الرأي أننا نمضي إلى دمشق ونحاصرهما فإذا أخذناها ملكنا الشام، فقال الملك النورمان، قالوا : إنما سمي بذلك لأنه كان إذ نازل حصناً نام عليه حتى يأخذه أي أنه كان صبوراً على حصار القلاع واسمه دستريج ومعناه المعلم بالریش لأن أعلامه كانت الریش فقال : نمضي إلى مصر فإن العساكر مجتمعة عند العادل

ومصر خالية، فأدى هذا الاختلاف إلى انصراف ملك الهنكر مغاضباً إلى بلده فتوجهت باقي عساكرهم إلى دمياط فوصلوها، والعاذل نازل على خربة اللصوص بالشام وقد وجه بعض عساكره إلى مصر . وأقام العادل بمرج الصفر وأرسل إلى ملوك الشرق مستحثاً لعساكرهم . ثم سار الفرنج إلى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الكامل من مصر ونزل قبالتهم، وأرسل العادل العساكر التي نده لدفعهم .

وخرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد أن غرم المسلمون على بنائها أموالاً كثيرة واشتغلت فيها جيوش، وذلك مخافة أن تكون سبباً للاستيلاء على دمشق. ولما مات الظاهر صاحب حلب وأجلس ابنه العزيز وكان طفلاً، طمع صاحب الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب، وكان موت الملك ونصب طفل من أبنائه سبباً كبيراً لطمع أعداء المملكة بأخذها . فاستدعى الأفضل صاحب سمياط واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وعمالتها ويسلمها إلى الأفضل، ثم يفتح الأصفق الشرقية التي بيد الأشرف بن العادل ويتسلمها كيكاوس، وتحالفا على ذلك فاستولى كيكاوس على رعبان وسلمها إلى الأفضل، فمالت إليه القلوب لذلك، ثم سار إلى تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الأفضل منه وتغيرت الخواطر عليه، ووصل الأشرف إلى وحلب لدفع كيكاوس عن المملكة، ووصل إليه بها مانع بن حديثة أمير العرب في جمع عظيم وكان كيكاوس سار إلى منبج وتسلمها لنفسه، واتفق بعض عسكر الأشرف مع عسكر كيكاوس فانهزمت مقدمة هذا فولى كيكاوس منهزماً، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها مع رعبان وغيرها وتوجه الأفضل إلى سمياط . وفي هذه السنة ورد الأمر إلى المعتمد والي دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال وتخريب دروب قصر حججاج والشاغور وطرف البساتين ونقل غلة داريا إلى القلعة وتغريق أراضيها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدها . والتقى المعظم بالفرنج على القيمون فانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية .

وفاة العادل :

توفي الملك العادل في عالقين في الجيدور (٦١٥) وكان نازلاً بمرج الصفر وقد أرسل العساكر إلى مصر وولده الكامل بالديار المصرية ومدة ملكه نحو ١٩ سنة . وكان حازماً متيقظاً غزير العقل شديد الآراء ذا مكر وخديعة، توصل بدهائه إلى أن يرشي نساء قواد الصليبيين بالجواهر والمصنوعات الدمشقية

فيخدمته مقابل ذلك بخدمات مهمة ويتجسسن له على قومهن . وكان صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويفضي عنه ، واته السعادة واتسع ملكه وكثرت ذريته وخلف ستة عشر ذكراً عدا البنات ، ورأى في أولاده ما يجب « ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في أولاده » وقد خلف آثاراً مهمة في الولايات التي تولاهها ، لا يزال بعضها ماثلاً وطهر جميع ولاياته من الكرخ إلى همدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن من النساء والحمور والحواطي والقمار والمخانيث والمكوس والمظالم ، وكان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة ألف دينار . واستمتع العادل بالملك وخدم الدولة خدمة طيبة ، وساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد إيقاع أخيه بهم وتشتت كلمة أبناء صلاح الدين

ولما هلك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضراً فحضر إليه ابنه المعظم عيسى وكان بنابلس وكتم موته ، وأخذ ميثاقاً في محفة وعاد به إلى دمشق ، واحتوى المعظم على جميع ما كان لأبيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، وكان في خزائنه سبعمائة ألف دينار ، وحلف له الناس وكتب إلى الملوك من إخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، ولما بلغ الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه جداً واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزله ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض أنقال المسلمين ، وكان في العسكر عماد الدين المشطوب وكان مقدماً عظيماً في الأكراد الهكارية ، فعزم على خلع الملك من السلطنة ، وحصل في العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الكامل على اللحق باليمن . وبلغ المعظم ذلك فرحل من الشام ووصل إلى أخيه الكامل وأخرج عماد الدين ونفاه من العسكر إلى الشام فانتظم أمر الكامل ، وقويت مضايقة الفرنج للمياط وضعف أهلها بسبب الفتنة التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب .

وكان العادل قد قسم المملكة في حياته بين أولاده فجعل بمصر الكامل محمداً ودمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى ، وجعل بعض ديار الجزيرة وميفارقين وخراسان وأعمالها

لابنه الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازي، وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه . فلما توفي ثبت كل منهم في الممكة التي أعطاها إياها أبوه واتفقوا اتفاقاً حسناً، ولم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آباءهم ، بل كانوا كالفرد الواحد كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه . قال ابن الأثير : « فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوه، ولعمري إنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام » .

ودخلت سنة (٦١٦) والأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها وإقطاعاتها، والكمال بمصر في مقابلة الفرنج وهم محاصرون لثغر دمياط، وكتب الكامل متواصلة إلى إخوته في طلب النجدة، ثم سقطت دمياط في أيدي الفرنج، فأرسل المعظم عيسى وخرب أسوار القدس مخافة أن يصيبها ما أصاب دمياط، ولما استولى الفرنج على دمياط، عظم الأمر على آل أيوب فكتب المعظم إلى الواعظ سبط ابن الجوزي : أريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط، وإني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألقى قرية منها ألف وستمائة أملاك لأهلها وأربعمائة سلطانية، وأريد أن تخرج الدماشقة ليدبوا عن أملاكهم الأصاغر منهم والأكابر . فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تحلفوا، فأخذ الثمن والخمس من أموالهم لتقاعسهم، ثم فتح المعظم قيسارية وسار إلى النهر ففتحها وهدمه وخرب في بلاد الفرنج . وفي تاريخ العلويين أن النصيرية هدموا جبلة في الحروب الصليبية ولم يبق سوى تل التويني قرب جبلة واتحد الإسماعليون مع الأكراد في الحروب الصليبية على العلويين فاستنجدوا بالأمير حسن المكزون السنجاري فجاءهم سنة (٦١٧) في خمسة وعشرين ألفاً من العلويين ونزل على عين الكلاب بقرب قلعة أبي قبيس وعلى سطح جبل الكلبية فتجمع الإسماعيلية مع حلفائهم الأكراد واجتمعوا في مصيف وأغاروا ليلاً على جناح الأمير وعساكره وغلبوه فرجع إلى سنجار خائباً .

فتح الصليبيين دمياط وذلتهم بعد العزة :

وفي سنة (٦١٨) قوي طمع الفرنج الممتلكين دمياط في مدينة المنصورة التي

بناها الكامل، وأشد القتال بين الفريقين برأً وبحراً وكتب الكامل إلى إخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده فسار المعظم عيسى صاحب دمشق والأشرف صاحب الولايات الشرقية وأصحاب حلب وحماة وبعليك وحمص فوصلوا القطر المصري والقتال مشد بين المسلمين والفرنج، ورسل الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح وقد بذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبله وجميع ما فتحه صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس، وقالوا لا بد من تسليم الكرك والشوبك .

وبينا الأمر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط ففجروا فجرة عظيمة من بحر النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، فركب الماء تلك الأرض وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط، وانقطعت عنهم الميرة والمدد فبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط ويعقدوا الصلح. فنجت الشام ومصر من الفرنج في هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم ولم يكونوا من المعرفة بحيث يقدر من منازلهم، ومنازلهم، فخابت آمالهم وخذلتهم قوتهم وتحكم فيهم من كانوا يستطيلون عليهم ويشتطون في مطالبتهم وكانت مدة إقامتهم في ديار الإسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً .

ولما انكسر الفرنج على دمياط دخل الناس كما قال ابن أبي شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة وسرور ومعهم المغاني والمطربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة قال: وبلغني أن النصارى ببعليك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالي وأمر اليهود بصفعهم وضربهم وإهانتهم.

اختلاف بين أبناء العادل وتقدم الكامل عليهم :

وقصد المعظم عيسى حماة، لأن الناصر صاحبها كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة فلم يف، ونزل بعين وغلقت أبواب حماة فجرى بينهما قتال قليل . ثم ارتحل المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها

وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها . وبلغ الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك، واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على المعظم وترحيله فأرسل إليه الكامل ناصح الدين الفارسي فوصل إلى المعظم وهو بسلمية وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل فقال : السمع والطاعة، وكانت أطماعه قد قويت في الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضباً، وتسلم المظفر سلمية من أخيه الناصر، واستقر بيد هذا حماة والمعرة وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الكامل العزيز صاحب حلب وعمره عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب وأركب العزيز في دست السلطنة، ولما وصل الأشرف بالخلعة إلى حلب اتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فأرسلوا عسكرياً وهدموها إلى الأرض .

كان الأشرف أنعم على أخيه المظفر غازي بخلاط الأرمنية وهي مملكة عظيمة، وكان قد حصل بين المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الأشرف، فأجاب المظفر إلى ذلك وخالف أخاه الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري فسار مظفر الدين وحصر الموصل عشرة أيام ليشغل الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها وسار الأشرف إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل فتزل من القلعة إلى أخيه الأشرف واعتذر إليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميفارقين وارتجع باقي الإمارات منه .

وذكر أبو شامة في حوادث سنة (٦٢٠) أن الأشرف بن العادل عاد من مصر إلى الشام قاصداً بلاده بالشرق، فالتقاه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع . وبعد أن ذكر كيف عصا أخوه عليه في خلاط قال : إنه كتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء إليه فكتب إليه : يا أخي لا تفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ما ينفعوك، فأظهر العصيان فجمع الأشرف

عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير إلى خلاط ، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف فسار المعظم إلى حمص ووصل إلى حماة ونزل على بعيرين وعاد إلى حمص وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل .

وفي سنة (٦٢٢) توفي الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف وليس بيده غير سميساط ، وكان حسن السيرة وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة وكان مع ذلك قليل الحظ وله شعر جيد .

وفي سنة (٦٢٢) كان بأيدي الإسماعيلية ثمان قلاع وهي قلعة الكهف والعليقة والقدموس والحوابي والمينقة والمصياف والرصافة والقلعة فإن ابن صباح لم يمت حتى ملك جبل عاملة وتلك الحصون . قال ابن ميسر : إن الدين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية ، ومن كان بألموت يقال لهم الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم إسماعيلية .

وفي سنة (٦٢٣) سار المعظم عيسى بن العادل ونازل حمص وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية ، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق ، وورد عليه أخوه الأشرف طلباً للصلح وقطعاً للفتن ، فبقي مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كالأسير معه ، ولما رأى الأشرف حاله مع أخيه المظفر وأنه لا خلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد أجابه (٦٢٤) كالمكره إلى ما طلبه منه وحلف له أن يعاضده ويكون معه على أخيهما الكامل ، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص ، فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم . قال ابن الأثير : إن اتفاق الملوك أولاد الملك العادل أبي بكر بن أيوب كان سبباً لحفظ بلاد الإسلام وسر الناس أجمعون بذلك . وفي سنة (٦٢٤) قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم بدمشق بعد اجتماعه بالكامل ، يطلب منه الإمارات التي كان فتحها عمه صلاح الدين ، فأغظ له وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلا السيف .

ولما استقرّ الأشرف بأرضه رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم ، وتناول في أيمانه التي حلفها أنه مكره ، ولما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك ، وكاتب الأنبرور ملك الفرنج

في أن يقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه، ووعد الأبرور أن يعطيه القدس، فسار الأبرور إلى عكا فبلغ المعظم ذلك فكتب أخاه الأشرف واستعطفه .

قال ابن الأثير : إن الكامل لما سار من مصر إلى دمشق خاف المعظم أن يأخذ دمشق منه، فأرسل إلى أخيه الأشرف يستنجده فسار إليه جريدة فدخل دمشق، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه، وأرسل إليه الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على قتال الفرنج فأعاد الكامل الجواب يقول : إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهما عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعصار وممر الأيام فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحداث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى، ثم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد، ولست بالذي يقال عني أي قاتلت أخي أو حصرت حاشا لله تعالى، وتأخر عن نابلس إلى الديار المصرية .

وانتزع هذه السنة الأتابك طغريل الشغر وبكاس من الصالح أحمد بن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعينتاب والراوندان وفيها توفي المعظم عيسى ابن العادل، وكان شجاعاً عالماً وعسكره في غاية التجميل، يجامل أخاه الكامل ويخطب له ولا يذكر اسمه معه ولا يجب التكلف والعظمة . ذكر سبط ابن الجوزي أن المعظم كان في أيام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس علامات، وكان له في عكا أصحاب أخبار وأكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة، وإن كانوا مائتين شمعتين، وإن كانوا يريدون قصد

حوران أو ناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية، وكذا إلى نابلس، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة. وترتب في مملكة المعظم وأعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود، وقام بتدبير مملكته مملوك والده وأستاذ داره عز الدين أيبك وكان لأيبك صرخند. ولم يطل الأمر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك ولا أجابه إليه، فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولى على نابلس والقدس وغيرهما من أملاك ابن أخيه الناصر داود، فاستنجد الناصر بعمه الأشرف فجاءه من الشرق فوقع الاتفاق أن يسير الناصر داود والمجاهد شيركوه مع الأشرف إلى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس، ويتوجه الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة، شافعاً في ابن أخيهما الناصر داود ففعلوا ذلك، ولما وصل الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وتعويضه عنها بجران والرها والرقه من أملاك الأشرف، وأن تستقر دمشق للأشرف ويكون له إلى عقبه فيق، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل وأن ينتزع حماة من الناصر قليج أرسلان وأن ينتزع سلمية من المظفر محمود وكانت إقطاعه ويعطي لشيركوه حمص. ووقعت سنة (٦٢٥) وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لتحرك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة.

الحملة الصليبية السادسة :

كانت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩م) بزعامة الأنبرور فريدريك الثاني وكان سياسياً داهية فلم يدخل في حرب مع المسلمين بل فاض الكامل وتسلم القدس وبيت لحم والناصرة لمدة عشر سنين وإليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن :

استولى الأنبرور فريدريك صاحب صقلية وبولية وانكبرديه على صيدا، وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا

عليها، وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبين وهونين وغيرهما . وبينما كانت الرسل تردد بين الملك الكامل وبين الأنبرور رحل الناصر داود وهو بنا بلس إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الكامل ، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر إلى ذلك فسار الأشرف في أثره وحصره بدمشق، وكانت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الحديد وفي الميدان وما بين ذلك والنصر فيه لأهل دمشق، ووقع الحريق والنهب في باب توما، وأحرق بعض الطواحين ونهبت الدور ووقع الجرح والقتل وخربوا بعد أيام قريات من قرى الغوطة وأخرجوا منها أهلها مثل جوهر وجدبا وزملكا وسقبا وغيرها. قال في الذيل: وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصار المتقدم في دولة أولاد صلاح الدين يحكمون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار. وفي هذا الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة أسد الدين وخانقاه خاتون وما يليهما من الخانات والدور والبساتين والحمامات والخانقاهات

طال الأمر ولم يجد الملك الكامل بدأ من المهادنة فأجاب الأنبرور إلى تسليم القدس إليه ، على أن تستمر أسواره خراباً ولا يعمرها الفرنج ، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين ويكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الأنبرور القدس فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظام ، وأقيمت المآتم وقال الوعاظ والعلماء: يا خجلة ملوك المسلمين مثل هذه الحادثة. قال ابن أبي شامة : جاءنا الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه إلى الفرنج فصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلمه ودخلوه مع ملكهم الأنبرور، وكان هذا من الوصمات التي دخلت على المسلمين، وكانت سبباً في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه وقد ذكر سبط ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين والمغلوبين إذ ذلك قال ما نصه: كان الكامل قد تقدم إلى شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين مادام الأنبرور في القدس أن لا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا في الحرم، فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر والأنبرور نازل في دار القاضي فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالحصارى مثل

قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد. ذلك عيسى بن مريم » ونحو هذا . فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له : إيش عملت السلطان رسم كذا وكذا قال : فما عرفني التوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي ، وكان قد دخل القدس في خدمته وهو الذي سلم إليه القدس فقال له : يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام ، فعرفه أن السلطان أوصاه ، فقال الأنبرور : أخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي ، فلو كنتم عندي في بلادي هل أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا ، هذا أول ما تنقصون عندنا ، ثم فرق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير ولم يقم بالقدس سوى ليلتين وعاد إلى يافا وخاف من الداوية فإنهم طلبوا قتله .

اختلافات جديدة بين آل العادل :

بعد أن أحيط بدمشق من كل جانب وحلّ بها من الخراب والفساد العجائب . واشتد عليها الحصار عوّض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء والصلت والأغوار والشوبك ، وأخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر وهي حران والرّها وغيرها التي كانت بيد الأشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها ، وتسلم دمشق الأشرف ، وتسلم الكامل من الأشرف الديار الشرقية المذكورة ، ولما سلم الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج ثم نزل على سلمية وأرسل عسكرياً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج أرسلان . وكان في العسكر الذين نزلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم إليه وأخذه إلى الكامل وهو نازل على سلمية فشتمه وأمر باعتقاله وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الكامل ، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر الكامل ، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان ، وكان بقلعة حماة أخ للناصر يلقب المعز بن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للكامل : لا نملك حماة لغير واحد من أولاد تقي الدين.

فأرسل الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة: اتفق مع غلمان أهلك وتسلم حماة وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكامل فراسل المظفر الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له فدخل البلد وتسلم القلعة، وفوض تدبير حماة إلى الأمير سيف الدين علي الهدباني، ولما استقر المظفر في ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص ورسم الكامل لأخيه المظفر أن يعطي أخاه الناصر قليج أرسلان بعرين بكماها، ولم يبق بيد المظفر غير حماة والمعرة، ثم رحل الكامل عن سلمية إلى الديار الشرقية التي أخذها من أخيه الأشرف عوضاً عن دمشق، وأرسل الأشرف أخاه صاحب بصرى الصالح إسماعيل بن العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها الأجد بهرام شاه، ولما طال الحصار عليها سلمها الأجد، وعوضه الأشرف عنها الزبداني وقصير دمشق ومواضع أخر. وقصد الفرنج حصن بارين ونهبوا بلاده وأعماله وأسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فأخذوهم ولم يسلم منهم إلا النادر الشاذ.

وفي سنة (٦٢٧) شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الكامل. وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة فخرج إليهم صاحبها المظفر محمود والتقاها عند قرية بين حماة وبعرين يقال لها أفيون وكسروهم كسرة عظيمة. وفي سنة (٦٢٨) سار الكامل من مصر إلى دمشق فسلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم ثم سار بهم إلى آمد وحصرها وتسلمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود، وكان سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته وتعرضه لحريم الناس، وحاصر المظفر صاحب حماة أخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفاً من أن يسلمها للفرنج لضعفه عنهم، وانتزعها منه وأكرمه وسأله الإقامة عنده بحماة فسار إلى أخيه الكامل في مصر. وسار الكامل من مصر (٦٣١) إلى قتال كيقباز ملك الروم وقد استصحب معه ستة عشر ملكاً من ملوك الشام والجزيرة من أخوته وآل بيته في عسكرهم وقطعوا الفرات وانهزم العسكر الكامل على خربتوت، وذلك لأن الملوك الذين في خدمته

خامروا عليه (خاتلوه) وتقاعدوا عن الحرب لأن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم وقال : إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيديهم من الشام، ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم فرجع الكامل إلى مصر وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده . وفي سنة (٦٣٣) سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل . وسار الكامل من مصر واسترجع حرّان والرّها من كيقباز صاحب الروم ، وكان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن أرضه . وبدت في هذه السنة طلائع الشر قال سبط ابن الجوزي : وكانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس .

وتوفي العزيز صاحب حلب حفيد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث وعشرين سنة وستة أشهر ، وتقرر في الملك بعده ولده الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الأرمني وعز الدين عمر بن مجلي وجمال الدين إقبال الخاتوني ، والمرجع في الأمور إلى والدة العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل . وقويت الوحشة بين الكامل وبين أخيه الأشرف وكان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق ، وحلف للملك الأشرف ووافقته على قتال الكامل وكاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الكامل إن خرج من مصر . وتوجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداوية بعدما فتحها صلاح الدين يوسف وخربها وأشرف عسكر حلب على أخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ثم إن الفرنج أغاروا على ريف دريساك وهي حيثند لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر فيهم القتل والأسر وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج وكانت هذه الواقعة من أجل الوقائع .

توفي الأشرف (٦٣٥) وتملك دمشق بعده أخوه الصالح إسماعيل بعهد منه . قال أبو الفداء : وكان الأشرف مفرط السخاء يطلق الأموال الجلييلة النفيسة، وكان ميمون النقيية لم تنهزم له راية، وكان سعيداً ويتفق له أشياء خارقه للعقل . وعلل الأشرف سبب الرحشة بينه وبين أخيه الكامل ثم صاحب مصر أن الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وعمالتها، وكانت لا تفي بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم أخيه الكامل إلى دمشق ، ولما فتح الكامل آمد وما إليها لم يزد منه شيئاً وبلغه أن الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام ويتترع دمشق منه فتغير بسبب ذلك، ولما بلغ الكامل في مصر وفاة أخيه الأشرف سار إلى دمشق وكان الصالح إسماعيل قد استعد للحصار ووصلت إليه نجدة الحلبيين وصاحب حصص، فنازل الكامل دمشق وأخرج الصالح النفاطين فأحرق العقبة جميعه وما بها من خانات وأسواق ، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حصص رجاله يزيدون على خمسين رجلاً نجدة للصالح إسماعيل، فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الكامل على دمشق أرسل تويقياً للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الصالح إسماعيل دمشق إلى الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً إلى بصرى . قال ابن أبي شامة في هذا الحصار : إنه كان أكثر خراباً في ظاهر البلد وحريقاً ومصادرة وأقل غلاءً ولم تطل مدته فإن الصلح جرى، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط اليوم الذي فتحت فيه آمد .

وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده :

توفي الكامل بدمشق هذه السنة (٦٣٥) بعد أن حكم في مصر نائباً وملكاً نحو أربعين سنة، حكم نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين . وكان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير أمنت الطرق في أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه . قال ابن خلكان : كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر، محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد، معاشرراً لأرباب الفضائل، حازماً في أموره، لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير إسراف ولا إقتار . وكان يخطب له بمكة : «مالك مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها الخ

وكان مع الكامل بدمشق الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الأمراء على تخليف العسكر العادل أبي بكر بن الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العسكر وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودوه بن العادل نائباً عن العادل أبي بكر بن الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه إن أقام، فرحل إلى الكرك وتفرقت العساكر. وأرسل صاحب حمص فارتجع سلمية من صاحب حماة، وقطع القنائة الراصلة من سلمية إلى حماة فبيست بساتينها، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطات نواعير حماة والطواحين.

لما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الكامل على قصدهم، ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد المظفر وحاصروا قلعتها، وخرجت المعرة عن ملك المظفر، ثم سار العسكر الحلبي ونازلوا حماة ونهبوا أرجاءها، ولما لم يبق بيد المظفر غير حماة وبعرين خاف أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض.

وجرى بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين وناבלس، انتصر فيه الجواد يونس وانهزم الناصر داود هزيمة قبيحة، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الواقعة وكان في عسكر مصر والشام، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الناصر وأثقاله. واستولى الصالح أيوب بن الكامل على دمشق وأعمالها بتسليم الجواد يونس وأخذ العوض عنها سنجار والرقعة وعانة، ولما استقر ملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، فذهب وجعل نائبه في دمشق، ولده الملك المغيث فتح الدين عمر، وكان الجواد لما يش من ملك الشام فرق الضياع على الأمراء وخلع عليهم، وفرغ الخزان وكان فيها تسعمائة ألف دينار. وفي رواية أنه فرق من خزان دمشق ستة آلاف ألف دينار وخلع خمسة آلاف خلعة.

وفي سنة (٦٣٧) هاجم الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه

صاحب حمص مدينة دمشق وحصروا القلعة فخربت بذلك دور ومدارس تحت
القلعة ثم تسلم الصالح إسماعيل القلعة وحاصر الصالح نجم الدين أيوب حمص. ولما
بلغ استيلاء عمه إسماعيل على دمشق رحل من نابلس إلى الغور، وكان هناك
قاصداً إلى مصر للاستيلاء عليها، ففسدت نيات عساكره عليه، وشرعت الأمراء
ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى
الصالح إسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه فأصبح
لا يدري ما يفعل ولا له موضع يقصده، فأمسكه الناصر داود صاحب الكرك
واعقله عنده مبعجلاً. وقصد الناصر داود القدس وكان الفرنج قد عمروا قلعتها
بعد موت الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وضرب برج داود. وتوفي
الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكان عسوفاً لرعيته وملك حمص نحو
ست وخمسين سنة ملكه أباها صلاح الدين يوسف .

انقراض الايوبيين

«وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر»

— من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ —

ظهور الخوارزمية :

بينما كان أبناء أيوب يتقاتلون على الملك والصليبيون قد أخذوا إلى السكون بعد هدنة صاحب مصر معهم واكتفوا بما ملكوه من مدن الساحل والقدس، جاء الخوارزمية يعيشون في الديار الشامية ويرعون أهلها ويقتلون فيهم ويخربون العامر . الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي أحد ملوكهم الذي استولى على إيران والعراق وأذربيجان وكرجستان، وكانت عاصمة ملكه تبريز. جاءوا سنة (٦٣٤) إلى البلاد الشرقية فاستخدمهم الصالح أيوب بن الكامل وكان في آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائباً عن أبيه. جاءوا بعد أن قتلوا ملكهم وانضموا إلى كيقباز ملك الروم وخدموا عنده وكان فيهم عدة مقدمين، فلما مات كيقباز وتولى ابنه كيخسرو وقبض على بركت خان أكبر مقدميهم، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم، فاستمالهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم ، فما زال هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المظفر .

كثرت الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب (٦٣٨) فخرج إليهم عسكرها مع المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم

خلق كثير، منهم الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين، وأسر مقدم جيش المعظم، واستولى الخوارزميون على أنقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة . وكانوا يقتلون بعض الأسرى ليشتري غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً ، ثم نزل الخوارزمية على حيلان وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في أرجاء حلب، وأحرقوا الأقات في القرى ، ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سار الخوارزمية إلى منبج وفعّلوا فيها من القتل والنهب مثل ما تقدم ورجعوا إلى حران وما معها . ثم قصدوا إلى الجبول ثم إلى تل عزاز ثم إلى سرمين ودخلوا دارالدعوة الإسماعيلية ووافوا المعرة وهم ينهبون ما يجدونه، وقد جفل الناس من بين أيديهم .

وكان قد وصل المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها المظفر إلى الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية فالرصافة طالبين الرقة، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقهم العرب فألقت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وأطلقوا الأسرى .

ووصلت الخوارزمية إلى الفرات ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم إلى الليل، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها، وقصدوا الخوارزمية واتقوا قريب الرها، فولى الخوارزميون وركب صاحب حمص وعسكر حلب أفضيتهم يقتلون ويأسرون . ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، وهربت الخوارزمية إلى عانة وبادر صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا وكانت للخوارزمية فاستولى عليهما، وخلّص من كان بهما من الأسرى، وكان منهم المعظم توران شاه أسيراً في دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، واستولى عسكر حلب على الرقة

والرها وسروج ورأس عين وما مع ذلك . واستولى المنصور لإبراهيم على الخابور ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا المعظم ابن الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيتم .

اختلاف بني أيوب واعتضاد بعضهم الفرنج وعودة الخوارزمية :

كان الملك الجواد يونس بن مودود قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار وعانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب عنها فاستولى عليها ولم يبق بيد يونس من الملك شيء، فسار على البرية إلى غزة وأرسل إلى الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ ودخل عكا، وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح إسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد من الفرنج واعتقله ثم خنقه (٦٣٨).

وكان قد قوي خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر فسلم الصالح إسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه صاحب مصر مما لم يعهد له مثال في تاريخ بني أيوب اللهم إلا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر للملك الفرنج سنة (٦٢٤) في أن يتقدم إلى عكا ليشغل أخاه المعظم عما هو فيه ووعد له بإعطائه القدس، وكان ذلك خديعة من الكامل لأخيه المعظم حتى لا يستنجد بأحد من ملوك الأطراف عليه إذا لم يتم شيء من ذلك . وقد أنكر على الصالح إسماعيل كل من شيخ الشافعية والمالكية بدمشق فعزلا من وظائفهما وسجنا بقلعة دمشق .

وكان في سنة (٦٤٠) مصاف بين الخوارزمية، ومعهم المظفر غازي صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، وذلك بالقرب من الخابور، فانهزم الخوارزمية وصاحبهم أقبح هزيمة، ونهب منهم عسكر حلب شيئا كثيرا، ونهبت وطاقت^(١) الخوارزمية ونساؤهم .

(١) الوطاق : الخيمة أو مجموعة الخيام والمعسكر .

وتوفيت هذه السنة ضيفة خاتون والدة الملك العزيز وابنة الملك العادل، وكانت تصرفت في ملك حاب تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه أنه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف إليها، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الحصي الخاتوني .

وفي السنة التالية قصدت التتر مملكة صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالحلبين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي فانهزم الروم والحلبيون . وسار الصالح وحاصر عجلون ولم يقدر على فتحها . وفيها كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح إسماعيل صاحب دمشق في الصلح، واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلما أيضاً إلى الفرنج عسقلان وطبرية . فعمر الفرنج قلعتيهما وسلما أيضاً إليهم القدس بما فيه من المزارات .

ووصلت الخوارزمية (٦٤٢) إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح إسماعيل، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف دمشق حتى وصلوا إلى غزة ودمروا بيت لحم، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية، وأرسل الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع صاحب حمص ودخل عكا، فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من مصر وكان أعطاهم الشقيف فخرجت الفرنج بالفارس والراجل، واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك، والتقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج وولى عسكر دمشق وصاحب حمص والكركيون، وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . قيل : إن القتلى زادوا على الثمانمائة وإنه أسر من الفرنج ثمانمائة . قال ابن أبي شامة : كسرت الفرنج ومن انضم إليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة في عسقلان وغزة وغنم منهم أموال عظيمة وأسروا من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . واستولى الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ثم أرسل باقي عسكر مصر مع معين الدين بن الشيخ، واجتمع إليه من بالشام من عسكر

مصر والحوارزمية، وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ولا ضاق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له سير الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة إلى العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه فلم يجب الخليفة إلى ذلك. وتسلم عسكر الملك الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل بن الملك العادل على أن يستقر بيد الصالح إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد وتستقر حمص وما هو مضاف إليها بيد صاحبها . ثم إن الحوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح أيوب فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح إسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من الإقطاعات ما يرضي خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح أيوب وصاروا مع الصالح إسماعيل، وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا إلى دمشق وحاصروها فقاسى أهلها شدة عظيمة . قال الذهبي : واشتد البلاء بدمشق واحترقت العقبة والخوانيق، ودام الحصار والويل خمسة أشهر، وهلك العوام موتاً وجوعاً، وقل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح ألفاً وستمائة درهم وأبيع الخبز كل أوقيتين بدرهم، وأكلوا الميتة وأبيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير، وأبيع رطل اللحم بتسعة دراهم، وأنتن البلد بالموتى على الطرق، وعظم الخطب وأولئك يقاتلون على الملك، والحمور الفاحشة مضمنة بالبلد والمكوس شديدة . وقال غيره : وقطعت الحوارزمية على الناس الطرق وزحفوا إلى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وضربوا بالمناجيق وكان يوماً عظيماً، وبعث الصالح إسماعيل الزرايين فأحرقوا جوسق العادل وزقاق الرمان إلى العقبة بأسرها، ونهبت أموال الناس واحترق بعضها . وزاد سبط ابن الجوزي : أنه أحرق قصر حجاج والشاغور واستولى الحريق على مساجد وحنانات ودور عظيمة، ثم نصبت على دمشق المناجيق ورميت به من بابي الجابية والصغير، ونصبت مناجيق أيضاً من داخل البلد، وترامى الفريقان وأمر بتخريب عمارة العقبة خارج باب الفراديس وباب السلامة وباب الفرج وأحرق حكر السماق وخارج باب النصر . وأرسل الصالح إسماعيل جوسق والده العادل . قال المؤرخون : وجرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جداً لم يتم عليها مثلها قط .

وفي هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص وفي سنة (٦٤٢) اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم فجمع الأمير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض للمقتاهم، واستنجد بالأمير عبدالله المعني فجمع أهالي الشوف وسار لنجدة الأمير عامر، والتقى الجمعان في مرج الحيام وصدتهم الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام، وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم وولوا مدبرين، عظمت بعد ذلك إمارة الأمير عامر واشتهرت صولته وأخذ قطائع في البقاع وأنشأ فيها مغارات عديدة.

وفي سنة (٦٤٤) اتفق الحلبيون والمنصور صاحب حمص وصاروا مع الصالح أيوب وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا نحو الحلبين وصاحب حمص، والتقوا على بحيرة قدس فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، ومضت طائفة من الخوارزمية إلى التتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به . ورحل حسام الدين المذباني بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد الصالح إسماعيل إلى الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح إسماعيل فاعتقل، فلم يبق في دمشق وعملها من يدفع عنها، فأرسل صاحب مصر عسكرياً مع يوسف ابن الشيخ إلى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى فخر الدين على بلاده وحاصر الكرك وخرب ضياعها وضعف الناصر ولم يبق بيده غير الكرك، وصادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضاً .

وفتح (٦٤٥) ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية بعد محاصرتيها مدة وكان عمرها الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة (٦٤١). وسلم الأشرف صاحب حمص قلعة شميس للملك الصالح أيوب فعظم ذلك على الحلبين لئلا يحصل الطمع للصالح في ملك باقي الشام. وفي سنة (٦٤٦) أرسل الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لولو الأرمني فحاصروا الأشرف بحمص فسلمهم إياها،

وتعوض عنها بتل باشر مضافاً إلى ما بيده من تدمير والرحبة . ولما بلغ ذلك الصالح أيوب شق عليه وسار من مصر إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبين ونصب عسكره عليها منجنيقاً مغربياً يرمي بحجر زنته مائة وأربعون رطلاً بالشامي مع عدة منجنيقات أخر، ثم رحل عنها لمرض عرض له، ولوصول الفرنج إلى دمياط ولمجيء رسول الخليفة والسعي في الصلح بين الصالح أيوب والحلبين وأن تستقر حمص بيد الحلبين . ثم استولى الصالح أيوب على الكرك أعطاه مفاتيحها الأجد فوهبه خمسين ألف دينار .

وفاة الملك الصالح ومبدأ دولة المماليك :

توفي الملك الصالح أيوب في سنة (٦٤٧) وكان ملك مصر والقسم الأعظم من الشام. وصفه أبو الفداء بأنه كان مهيباً عالي الهمة عفيفاً شديد الوقار والصمت جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه دعوا بالبحرية لأنهم كانوا ينزلون في ثكنات لهم في جزيرة الروضة على البحر بجزيرة النيل وكانوا أول كتلة اجتمعت من هذا الجيل من الناس وألفوا دولة المماليك البحرية . مات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى أحد فأحضرت شجرة الدر، وهي جارية الملك الصالح، فخر الدين بن الطواشي وجمال الدين محسناً وعرفتهما بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج، وجمعت شجرة الدر الأمراء وقالت لهم: السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، فجاء وتسلم ملك مصر إلا أنه مذته لم تطل أكثر من شهرين وأياماً، فقتله المماليك البحرية الذين أنشأهم والده، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار سلطاناً فيما بعد ولقب بالملك الظاهر، والسبب في قتله أنه اطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه واعتمد على بطانته التي وصلت معه من حصن كيفا وكانوا أراذل . وأقام رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك في المملكة وخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها، وأرسل المصريون رسولاً إلى من بدمشق من الأمراء في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، وكاتب الأمراء القيمرية الناصر يوسف صاحب حلب فسار إليهم وملك

دمشق وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة ثم سلمت جميعها إليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيصرية وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين .

ثم اتفق كبراء الدولة على إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة فسلطوا الملك الأشرف موسى بن يوسف. وكان بغزة جماعة من عسكر مصر فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا إلى الصالحية واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا أن الملكة للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأبيك التركماني بقيادة الجيش، ورحل فارس الدين أقطاي الصالحي مقدم البحرية متوجهاً من مصر إلى غزة ومعه تقدير ألفي فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الناصر بين يديه .

وبعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر والشام، وكاد الإجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الأمر عنهم بالمرّة، وهذا ما حدا ببعض بقايا الأيوبيين في الشام إلى أن يجمعوا شملهم ويسيروا إلى مصر للمطالبة بسلطنتهم وسلطنة آبائهم . فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من عاصمته وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل والأشرف موسى تورانشاه وأخوه نصره الدين والأجد حسن والظاهر شاذي أبناء الناصر داود بن المعظم وتقي الدين عباس بن العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم، والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة أولاً على عسكر مصر، ولما انكسر المصريون تبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا في النصر، بقي الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركماني بمن معه عليه، فولى الناصر منهزماً طالباً الشام وأسر معظم أهل بيته من الملوك واستقر الصلح (٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن وللناصر ما وراء ذلك، وكان نجم الدين الباذراني رسول الخلافة هو الذي حضر من جهة الخليفة وأصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم إلى مقره .

ثم اغتال المعز أيبك المستولي على مصر خوشداهش^(١) أقطاي الحمدار، فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، وكان الفارس أقطاي يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للأشرف موسى فلما قتل أقطاي استقل المعز بالسلطنة وأبطل الأشرف موسى منها بالكلية، وبعث به إلى عماته. والأشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر.

ولما وصلت البحرية إلى الناصر يوسف صاحب الشام أطمعوه في ملك مصر فرحل من دمشق بعسكر ونزل الغور وأرسل إلى غزة عسكراً فقتلوا بها وبرز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية، ومشى نجم الدين الباذرائي في الصلح بين المصريين والشاميين واتفقت الحال أن يكون للناصر الشام جميعه إلى العريش ويكون الحد بين الوردادة والعريش، وقتلت شجرة الدر المعز أيبك التركماني الصالح، وكانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب ثم تزوج بها، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيبك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته في الحمام، ونصبوا نور الدين علي بن المعز أيبك ولقبوه الملك المنصور سلطاناً على مصر والشام.

ونقل إلى الناصر يوسف صاحب دمشق أن البحرية يريدون أن يفتكوا به فاستوحش منهم وتقدم إليهم بالانتزاع عن دمشق فساروا إلى غزة، فأرسل عسكراً في أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه. ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زعر ملتجئين إلى المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جليلاً وأطمعوه في ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه. وسارت البحرية إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم، والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث، فانهزم عسكر المغيث والبحرية، وفيهم ببيرس البندقداري إلى جهة الكرك. وكان المغيث خيم بغزة وجمع الجموع ومعه البحرية وخرجت عساكر مصر مع ممالك المعز أيبك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزماً إلى الكرك في أسوأ حال.

(١) الخوشداه : المصاحب وهي كلمة فارسية.

هولاكو التتري

وبينا كان آخر ملوك الشام ومصر من بني أيوب يتنازعون مع الممالك البحرية وقد خرجت مصر عن حكم الأيوبيين، وكانت دخلت في حكمهم أولاً فأسسوا هناك بانيانها ولما انهار البناء كانت البنية الأولى أول ما هدمت وبقيت بعدها الأطراف وهي الشام وما إليها مدة قليلة جاء هولاكو التتري (٦٥٦) واستولى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وقرض الخلافة العباسية، ثم أخذ التتر يتقدمون إلى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد وصحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظي بتحف وتقادم (هدايا) إلى هولاكو ملك التتر، وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر، وكان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين وبين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم مجير الدين بن أبي زكري مصاف بظاهر غزة أنهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين، وقوي أمر البحرية بعد هذه الكسرة وأكثروا العيث والفساد، وسار الناصريوسف، وقد عرف ما تم على جنده، ومعه صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته البحرية، فقبض المغيث على من عنده من البحرية، وعلم ذلك في الحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية، ووصل بهم إلى الناصر يوسف فأحسن إليهم، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وأرسلهم إلى الناصر فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، واستقر الصلح بين الناصر وبين المغيث صاحب الكرك .

وقدم هولاكو (٦٥٧) إلى شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على الديار الجزرية وأرسل ولده سموط إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب وكان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائباً عن ابن أخيه الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكن لهم التتر في باب الله فتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد . ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم، اختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى عزاز فتسلموها

بالأمان، ولما بلغ الناصر يوسف قصد التتر حلب برز من دمشق (٦٥٨) إلى برزة وجفل الناس بين أيدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزة وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري فاجتمع عند الناصر ببرزة أمم عظيمة من العساكر والجفال، وبلغ الناصر أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به فهرب من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى غزة وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الناصر إنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الظاهر غازي، ولما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفاً من أخيه الناصر فوصل إلى غزة واجتمع عليه من بها من العساكر وأقاموا سلطاناً، وكاتب بيبرس البندقداري المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الأمان ووعدته الوعود ففارق بيبرس الشاميين وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه .

وسبب استيلاء التتر على حلب أن هولاءكو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وأرسل إلى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة يقول له : إنكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الناصر والعساكر، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على الإسلام كانت البلاد لنا، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين، إن شتمت طردتموهما وإن شتمت قتلتموهما، فلم يجب المعظم إلى ذلك وقال : ليس لكم عندنا إلا السيف . فتعجب هولاءكو من هذا الجواب وتألّم، لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك .

وأحاط التتر بحلب وقتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من أهلها إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرو ودار نجم الدين أخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم . وقيل أنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس . ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ إليها من العسكر واستمر الحصار عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان، وأمر هولاءكو أن يمضي كل من سلم إلى داره وأن لا يعارض وجعل النائب

بجلب عماد الدين القزويني .

قال ابن العديم : واحترز نواب حلب وجمعوا أهل الأطراف والحواضر واجتمعوا كلهم داخل البلد، وكانت حلب في غاية الحصانة والقوة لأسوارها المحكمة البناء وقلعتها العظيمة ، ولم يكن في ظن أحد أنها تؤخذ بسرعة قال : وخرج العوام والسوقة واجتمعوا كلهم يبجل بانفوسا ووصل جمع التتر إلى أسفل الجبل، وكنوا على القرية المعروفة ببابلا ثم كر التتر منهزمين ثم رجعو وقتلوا من المسلمين جمعا كثيرا من الجند والعوام . وقتل هولاء في حلب أكثر ممن قتل في بغداد . وقال ابن تغري بردي : إن هولاء حاصروا حلب ستة أيام ثم أوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد ، ووصل إلى هولاء على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم فأكرمه وأعاد عليه حمص ، ثم رحل هولاء إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب فأحضره هولاء وسلموها إليه ، فغضب هولاء من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم وسبي النساء ، ثم رحل هولاء إلى الشرق وجعل مكان عماد الدين القزويني بجلب رجلا أعجميا وأمر هولاء بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة فخربت عن آخرها وأمر الأشرف موسى صاحب حمص بإخراب سور قلعة حماة فخربت وأحرقت زردخانيتها ، ولم تخرب أسوار المدينة لأنه كان بحماة رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية بذل لخسرو شاه نائب هولاء في حلب جملة كثيرة من المال وقال : الفرنج قريب منا في حصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها ، فأخذ منه المال ولم يتعرض لخراب الأسوار وكان قد أمر هولاء الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضاً فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنها بلده ، وأما دمشق فإن نائب هولاء قدم إلى أهلها بالفرمان والأمان فتلقاه كبراء المدينة وأنفذت مفاتيح دمشق إلى هولاء . قال سبط ابن الجوزي : وكثرت الأراجيف بدمشق بسبب التتر فهرب كثير من الدمشقيين وباعوا أصلهم وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري والجبال والحصون ، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم ونهب آخرون . وقال القلقشندي في كلامه على البيت الهولاء كوهي :

ولو تمكنوا من دمشق لمحو آثارها وأنسوا أخبارها، وأن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به .

ولم يتعرض عسكر هولاء إلى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليه فحاصرها التتر، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، ثم تسلموا القلعة بالأمان ونهبوا جميع ما فيها، وجدوا في خراب أسوار القلعة وإعدام ما بها من الزردخانات والآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها وأخذوا نابلس بالسيف وتسلموا قلعة عجلون واستولوا على قلاع الصلت وعجلون وصرخد وبصرى والصبيبة وهدموها ووقعوا على العرب عند زيزاء وحسبان فهزموهم، وغنموا أولادهم ونساءهم وأنعامهم واستاقوا الجميع، وهرب سلطان تلك الأرجاء الناصر يوسف بن محمد إلى البراري فساقوا خلفه وأخذوه ثم قتلوه . واستولى التتر من أرض الفرنج على صيدا ونهبوها وأسروا منها ثلاثمائة أسير . وعاثوا في حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل والحليل والصلت وما إليها وجاءوا بالأسرى إلى دمشق فمنهم من اقتدى نفسه ومنهم من هرب .

وظل التتر يتنقلون في الشام حتى فتحوه إلى غزة واستقرت شحائهم فيه لأن الناصر صاحب دمشق لما بلغه أخذ حلب رحل من دمشق في عسكره إلى الديار المصرية وفي صحبته المنصور صاحب حماة، فلما رأى كبراء حماة تخلي ملكهم عنهم توجهوا إلى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها إلى هولاء وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة تكون عندهم فأمنهم هولاء وأرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجمياً اسمه خسرو شاه فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى التتر (٦٥٨) على ميفارقين بعد أن حاصروها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبها الكامل محمد بن المظفر ابن العادل أبي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطاقوا به في الأرجاء فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغاني والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفرديس إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين .

قال الذهبي : إن نصارى دمشق شمخت أثناء مجيء هولاء إلى البلاد ورفعوا الصليب في البلد وألزموا الناس بالقيام له من الخوانيت، وتقضوا العهد

وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فلما انتصر المسلمون على هولاءكو على عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر إلى دمشق في الليل فوقع النهب والقتل في النصارى وأحرقت كنيستهم العظمى . وقال أبو الفداء : إن النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الحمر إلى الجامع . قال في المذيل : إن النصارى بدمشق قد شمشخوا بسبب دولة التتر وتردد ايل شبان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم ، وذهب بعضهم إلى هولاءكو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء منهم وتوجه في حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الإسلام، ويرشون الحمر على الناس بأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك هم عظيم، فلما هرب التتر من دمشق أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويحرقونها ما استطاعوا فيها وخربوا كنيسة اليعاقبة وأخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها، وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين، ثم همرا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى هـ.

اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر هرباً من التتر، فلما انتظمت أحوالهم واستجمعوا قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، وسار معه صاحب حماة المنصور وأخوه الأفضل علي حتى التقى مع التتر في الغور، وكان كتبغا نائب هولاءكو على الشام ومعه صاحب الصيبية الملك السعيد فانهزم التتر هزيمة قبيحة على عين جالوت وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه وتفرقوا في الأرجاء ومنهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون، وجرى قطز ركن الدين بيبرس في أثرهم فتبعهم إلى أطراف الأصقاع الشرقية، وكان في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص فقارقههم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه ، وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها ، وأسرا صاحب الصيبية وضربت عنقه، وأقر المنصور على حماة وبارين والمرة وأخذ منه سلمية وأعطاه أمير العرب ، ودخل دمشق فتضاعف شكر المسلمين على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد يثست من النصرة على التتر

لاستيلاهم على معظم ديار الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، وما
تواقعوا مع عسكر إلا هزموه . قال ابن أبي شامة : ومن العجائب أن التتر
كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقيل في ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكتهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه

وقد رتب المظفر قطز شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة
وجهاز عسكراً إلى حلب لحفظها، وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير
علم الدين سنجر الحلبي ونيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين
لولو صاحب الموصل ولما استقر هذا في نيابة حلب سار سيرة رديئة وكان دأبه
التحيل على أخذمال الرعية .

مقتل المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس وأحداث :

سار الملك المظفر قطز إلى مصر بعد أن ظفر بالتر ورد فلثمهم إلى الشرق
وكان اتفق بيبرس البندقداري وبعض أعيان الدولة على قتله، فساروا معه
وقتلوه في القصير وتسطن بيبرس البندقداري وتلقب بالملك الظاهر، ودخل
مصر ففتحت له واستقرت قدمه في المملكة. ولما بلغ نائب السلطنة بدمشق
علم الدين سنجر قتل قطز وسلطنة الظاهر جمع الناس وحلفهم لنفسه
بالسلطنة، فأجابوه إلى ما أرادهم عليه، ولم يتأخر عنه أحد ولقب نفسه الملك
المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكتب المنصور صاحب
حماة في ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة : أنا مع من يملك الديار المصرية
كائناً من كان . أما السعيد نائب السلطنة بحلب فحملة أمراؤها إلى الشفر
وبكاس معتقلاً لما اندفع العسكر الحلبي من بين أيدي التتر على البيرة ،
وقدموا عليهم حسام الدين الجوكندار العزيزي . ثم سار التتر إلى حلب وملكوها
وأخرجوا أهلها إلى قرنبيبا شرقي حلب، فأفنوا غالبهم بالسيف، واستولوا على
اعزاز وخرّبوا قلعتها، واستولوا على حارم وقتلوا أهلها عن آخرهم وسبوا
النساء، وملكوا حلب وأعمالها نحو أربعة أشهر . وقارب التتر حماة فخرج
منها صاحبها وباقي العسكر واجتمعوا بمحصر مع سائر الأجناد فوقع بين التتر

وعساكر المسلمين مصاف في حمص، وكان التتر أكثر من المسلمين فانهزم التتر وهاموا على وجوههم إلى أفامية ومنها إلى الشرق، ومنهم من دخل في خدمة المسلمين. وجهاز الملك الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكرياً إلى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولي على دمشق، فخرج هذا لقتالهم فانهزم إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وأقيمت له الخطبة بها وبحلب وحمص وغيرها، ثم استقر أيدكين البندقداري الصالح في دمشق لتدبير أمورها. وفي سنة (٦٦٠) وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطي وقبض على علاء الدين طيبرس الوزير نائب السلطنة بدمشق وقبض حواصله، وكان طيبرس قد أهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم والترسيم عليهم وإخراج عيالهم وإهانتهم، وضيق على الناس وخوفهم من التتر.

ولما بلغ هولاءكو وهو في بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الناصر ابن أيوب وأخاه الظاهر غازي وكانا في أسره وقال للناصر: أنت قلت إن عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر: لو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام؟ فضربه هولاءكو. فقال الناصر: يا خوند^(١) الصنيعة، فنهاه أخوه الظاهر وقال: قد حضرت ثم رماه فقتله. ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الناصر والصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا العزيز بن الناصر لأنه كان صغيراً. وكان الملك الناصر يوسف هو آخر من ملك دمشق من بني أيوب. قبض عليه لما دخل دمشق جيش هولاءكو فجهز وولده وأخوه ومعهم جماعة من أعيان أهل دمشق إلى نخيتم هولاءكو فأمر بقتلهم.

والملك الناصر هو صاحب حلب تملك حران والرّها والرقّة ورأس عين

(١) الخوند: السيد، معرب خداوند.

وحمص ودمشق وبعليك والأغوار والسواحل إلى غزة، وعظم شأنه وكسر
عساكر مصر وخطب له بمصر وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته
وقتل مدبره شمس الدين لولو الأرمني ومغامرة ممالك أبيه العزيزية .
وكان الناصر حليماً وتجاوز به الحلم إلى حد أضرباً بالمملكة فكان إذا حضر
إليه القاتل عفا عنه وقال : الحمي أفضل من الميت . فانتشرت اللصوصية وأصبح
المسافر في أيامه من دمشق إلى حماة وغيرها لا يقدر على السفر إلا برفقة من
العسكر، وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه .

وبقتل الناصر والظاهر قلّ الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب
وضعفت عصبيتهم وأنصارهم من الأكراد وغيرهم، وكان انقراضهم بيد
المماليك البحرية الذين غنّوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم بيض أياديهم وبيد السفاك
هولاكو وجماعة من التتر . وكان شأن بني أيوب في هذا المعنى شأن بني عباس
مع الأتراك أدخلوهم في خدمتهم وأحسنوا إليهم ورفعوا منزلتهم وولّوهم
الأعمال، فما كان منهم إلا أن نقضوا بنيان تلك الدولة وفتحوا السبيل لعدوها
يستبيح حماها ويستصفي أرضها .

ولم يشبع المغول بما سفكوا من الدماء، وعادوا سنة (٦٥٩) إلى حلب
فانهزم جميع أهل القرى والمدن فتقدم قائدهم أن يخرج أهل القرى
والمدن إلى ظاهر البلد ويبقى أهل كل مدينة وقرية بمغزل بحيث يعدّونهم
ويسيروهم كل قوم إلى مكانهم وموطنهم ، ويسلمهم المغول كأنهم يسرون
إلى ضياعهم وعندما يبعدون يقولون لهم : أنتم لو كانت قلوبكم معنا صافية
لما انهزمت من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم ولم يفلت منهم غير أهل حلب
لأنهم لم ينتقلوا عنها .

حروب الظاهر وفتوحه :

وكان الملك الظاهر صاحب مصر والشام بين عاملين في خلال هذه المدة .
عامل دفع المغول وعامل دفع الصليبيين، والغالب أنه ترجح عنده معاناة الثاني
فأفلح فيه . وقد جهز سنة (٦٥٩) من مصر بدر الدين الأيدمرى فتسلم الشوبك
من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة إلى حلب (٦٦٠) وكان مقدمهم

شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب وعادت إلى الصلاح بعد إفساد المغول فيها، ثم أوعز إلى صاحب حماة وصاحب حمص وسنقر الرومي أن يسيروا إلى أنطاكية للإغارة عليها، فساروا إليها ونهبوها ولم يتيسر لهم فتحها . وقبض الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طبرس الوزيري وكان رديء السيرة في أهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، وقتل الظاهر صاحب الكرك المغيث بتهمة أنه كتب إلى التتر يطعمهم في ملك مصر والشام وقيل: لأنه أكره امرأة الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الظاهر وبقيت امرأته في الكرك، فانتقم الظاهر منه بأن أسلمه إلى زوجته في قلعة الجبل بمصر وأمرت جوارياها فقتلته بالقبايب .

وفي سنة (٦٦١) أرسل الظاهر وهو نازل على الطور عسكرياً هدموا كنيسة الناصرة وأغاروا على عكا فغنموا وعادوا ، ثم ركب الظاهر بنفسه وأغار ثانية على عكا وهدم برجاً كان خارج البلد . وأغار صاحب سيس على العمق والمعرة وسمرين والقوقعة . ومات هذه السنة الملك الأشرف صاحب حمص وكان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم ، وأولهم شيركوه بن شاذي . وكانت بقيت في أيدي الإسماعيلية إلى آخر سنة (٦٦٢) ثمان قلاع بالشام وهي الكهف والعليقة والقدموس والحوابي والميئنة ومصيف والرصافة والقلعة . وروى ابن ميسر أن التتر لما ملكوا الشام سلموا إليهم أربع قلاع ، فلما كسرهم قطز عادت الأربع قلاع إليهم فتسلمها رئيسهم وقتل أصحابه الذين سلموها للتتر قال: وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح وإلى سنة بضع وعشرين وستمائة عظيماً . وقد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقبة والأمير ادوارد من أمراء انكلترا .

وفي سنة (٦٦٣) سار الملك الظاهر من مصر ونازل قيسارية وضايقها وفتحها من الفرنج وأمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف ونازلها وفتحها وفتح القليعات (٦٦٤) وحلبا وعرة ونزل على صنف وضايقها وفتحها ثم قتل أهلها عن آخرهم . وجهز عسكرياً ضخماً من دمشق وقدم عليهم المنصور صاحب حماة وأمرهم بالمسير إلى عمالة الأرمن فانهزموا وأسر ابنان لصاحبهم وامتلأت

أيدي العسكر الإسلامي من الغنائم . وعندما توجه الملك الظاهر من دمشق للمتنقى عساكره العائدة من غزوة سيبس أصدر أمره لما نزل على قارا بين دمشق وحمص بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين ويبيعونهم خفية من الفرنج . وأخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم أجناد وأمراء. وشنّ الظاهر الغارة على الفرنج (٦٦٥) من أطرافهم واستدعى بالمجانيق من دمشق . وفي سنة (٦٦٦) توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر إلى الشام ففتح يافا من الفرنج وهدمها وقلعتها وملك الباشورة بالسيف وعوض أهل القلعة أربعين ألف درهم، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف تيرون فنزل تحتها في وادي العواميد وحاصرها فلم يقدر على أخذها، ثم صعد إلى أعلاها وكشف ماءها وبعد هزيع من الليل ذبح في قناتها عدة من الغنم والبقر وقطع كروشها ورمائها فيها، فلما أصبحوا وجدوا ماءهم منتناً وهودم عبيط فسلموها بعد حصار عشرة أيام، ووجد بها أربعمائة وثمانين رجلاً فأرسلهم إلى الفرنج في صور، ورتب عليها قوماً من جماعته وبنى برجاً على باب القلعة .

ثم أغار الظاهر على طرابلس فقطع أشجارها وغور أنهارها وضرب أربعاً وعشرين من قراها. فأنهالت عليه المردة من الجبال فذهب إلى حصن الأكراد، ومن هناك زحف على أنطاكية فنازها بغتة، وبعد حصار أربعة أيام ملكها بالسيف فقتل أهلها وأحرق كنائسها وغنم منها أموالاً كثيرة، وأحصي من قتل بأنطاكية هذه المرة فكانوا نيفاً وأربعين ألفاً، ثم أطلق من كان بها من الأسرى، وفي رواية أنه قتل من حماها بين ١٦ و ١٧ ألف صليبي وأخذ مئة ألف أسير وأحرقها وقلعتها، ونال من غنائمها ما لا يدخل تحت حصر، وخرج جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطاً لم يجب الظاهر إليها وزحف عليها فملكها . وكانت أنطاكية للبرنس بيمند بن بيمند وله معها طرابلس، ولما فتحت أنطاكية هرب أهل بغراس منها وتركوا الحصن خالياً فأرسل الظاهر واستولى عليه .

ووقع الصلح بين الظاهر وهيتوم صاحب سيبس الأرمني على أنه إذا أحضر

صاحب سيس سنقر الأشقر من التتر، وكانوا أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولوكو، وسلم مع ذلك بهسنى ودربسك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد يطلق له ابنه ليفون الذي كان في أسر الملك الظاهر، فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى ودخل صاحب سيس على أبغا ملك التتر وطلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه، وتسلم الظاهر بلاطنوس من عز الدين عثمان صاحب صهيون، وأغار (٦٦٨) على عكا وتسلم حصن مصياف من الإسماعيلية وفتح من حصونهم الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة وأمّر عليهم حسن بن المشغراني، وفرض عليه أن يرفع إليه في كل عام مئة ألف درهم. ونازل السلطان (٦٦٩) حصن الأكراد فملكه بالأمان وملك حصن عكار بعد حصاره له بالأمان، فتذلل له صاحب طرابلس وبذل له ما أراد وهادنه عشر سنين وتسلم حصن القرين بالأمان وهدمه. وأغار التتر على عينتاب وعلى الرّوج وقسطون إلى قرب أفامية ثم عادوا. فاستدعى الظاهر عسكرياً من مصر وتوجه بهم إلى حلب ونازل التتر على البيرة وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة. وشنّ الغارة (٦٦٩) بفرقة من العسكر ومعه ولده الملك السعيد بفرقة أخرى على جبلة واللاذقية والمرقب وعرة والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وأنطربوس. وفي سنة (٦٧٣) توجه السلطان إلى ديار الأرمن ودخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا إلى دمشق. وعاد التتر (٦٧٤) ونازلوا البيرة فتوجه الظاهر إليهم وبلغه رحيلهم وهو بالقطيفة فآتم السير إلى حلب وعاد التتر (٦٧٥) فزحفوا على الشام وخرج إليهم الظاهر وقاتلهم فكسرهم وقتل منهم خلائق وتبعهم إلى نحو الإبلستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل إنه قتل فيها من الفريقين نحو مئة ألف إنسان. ثم سار إلى قيسارية واستولى عليها ووصل إلى عمق حارم فدمشق.

وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون :

توفي الملك الظاهر (٦٧٦) بعد أن بطش البطشة الكبرى بالصليبيين في الشام، ودفع عادية المغول عنه ما أمكن، وغزا الأرمن الذين أصبحوا يبدون

لدولته نواجد الشر، فخرّب ديارهم وأباد خضراءهم وغضراءهم . وكان ملكاً جليلاً شجاعاً عاقلاً مهيباً وصل إلى الملك بقتل آخر ملوك بني أيوب، وما زال يتدرج في مراتب القوة حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوح الجليلة . أصله مملوك قبجاقي الجنس وقيل برجلي وكان ذا همّة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلا وهو بينهم، ولولا أنه جد في قتال الصليبيين لما كفر عما أتاه من قتل ابن أيوب، وبنو أيوب أحبهم الناس على علائهم لغناء أكثرهم في خدمة الملة والدولة .

ترجم سوبرنهايم في المعلمة الإسلامية للظاهر بيبرس بقوله : إنه كان السبب بتوسيد ملك الشام إلى قطز لما أبلى البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطز الأمراء من بني أيوب الإقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول، ولكن بيبرس الذي كان يرجو أن توسد إليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم ، فقتل السلطان في الصيد ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً، وكانت المملكة المصرية والشامية محاطة من كل جانب بالأعداء: في الشمال ملك أرمينية المسيحي، وفي الغرب الصليبيون ينزلون على جميع شاطئ الشام، وفي الداخل الحشيشية «(الإسماعيلية) الأشداء، ومن الشرق المغول الطامعون في الغنائم والانتقام، وفي جنوبي مصر أهل النوبة المجاربون، وفي الغرب البربر الصعب قيادهم ، وكان يخشى أن ينجم له ناجم في الداخل من بني أيوب ويسمو إلى السلطنة ، فيجد على دعوته أنصاراً على أيسر وجه، فرأى أن يبايع لأحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد أن قرضها المغول من بغداد، فتوفق إلى ذلك وبايع له في مصر ، لأن من مصلحته أن يظهر أمام العالم الإسلامي بأنه حامي الخلافة، وبذلك أصبح له نفوذ على حكومات مكة والمدينة ، وعرف كيف يداري معظم أمراء الفرنج الشرقيين.

هادن الظاهر الاستبار بحصن الأكراد والمرقب سنة خمس وستين وستمئة لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات على أن يكون النصف من غلات قرى جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة للملك الظاهر، والنصف لبيت الاستبار . واستقرت الهدنة بين الملك الظاهر بيبرس أيضاً وبين ملكة بيروت في سنة سبع وستين وستمئة

حين كانت بيدها لمدة عشر سنين متوالية على أن يكون جميع المتردين من بلاد الملكة إلى بلاد الظاهر وبالعكس آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم برأً وبحراً ليلاً ونهاراً، وعلى أن الملكة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد مملكة السلطان من جهة بيروت وما إليها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء وتكون الأقاليم من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين. وعقدت هدنة بين الظاهر وولده الملك السعيد وبين الفرنج الاستبارية على قلعة لدّ في سنة تسع وستين وستمائة على أن تكون قلعة لدّ والجهات المذكورة إلى آخر الزائد للملك الظاهر ولا يكون لبيت الاستبار ولا لأحد من الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب.

وعقد محالفات مع الملك مانفريد دي هوهانستوفن، ثم عقد محالفة مع شارل دانجو وجاك داراغون والفونس دي كاستيل، وعقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومي الذي طرد الصليبيين، وكانت له صلوات حسنة مع ملوك السلاجقة في آسيا الصغرى ومع صاحب اليمن. ثم إن الظاهر رأى في الصليبيين أشد الأعداء خطراً على المملكة واستفاد من تفرق كلمتهم وكان المدد الذي يأتيهم من أوروبا قد ضعف، وكان في موت شارل التاسع إنقاذ بيبرس من أعظم خصومه من الفرنج، وهكذا فإن الظاهر ظلّ ظافراً بجميع أعدائه، ولم يتوقف عن شيء لبلوغ غايته، وكثيراً ما كان يعد وعوداً كاذبة ويكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له، وكان نجاحه مناط قريحته في التنظيم وسرعته وشجاعته المتناهية، وكان البريد يدور ويروح في المملكة بسرعة حتى ليصل الخبر من مصر للشام في ثلاثة أيام وكان أسعد سلطاناً من سلاطين المماليك وأقدرهم. وروى شمس الدين سامي أن السلطنة الإسلامية صارت ذات بهاء في أيامه وأنه مات مسموماً بدمشق.

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده إلا أنه خبط وخلط وأراد تقديم الأصاغر على الأمراء الأكابر ففسدت نيات الكبار عليه وقرروا خلعهم من السلطنة، بعد أن دخل سيس (٦٧٧) وشن الغارة عليها وغنم، فحصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على أن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك فلحق بها وهلك بعد قليل.

واتفق الأمراء لما خلع الملك السعيد نفسه على إقامة بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس في المملكة، ولقبوه العادل، وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور، ثم خلعه وأجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي . ولما اضطرب أمر المملكة استأثر بالشام سنقر الأشقر الذي كان الظاهر اشترط على صاحب سيسى أن يتوسط لدى ملك التتر لإطلاقه من الأسر ففعل، ونسي سنقر هذه اليد للظاهر، وجلس على سرير السلطنة بدمشق وحلف له الأمراء والعسكر وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر . فجهز المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر، فبرز سنقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، والتقى الفريقان فولى الشاميون وسنقر منهزمين، فجعل الأمير لاجين المنصوري نائب السلطنة بالشام، وهرب سنقر الأشقر إلى الرحبة وكاتب أبا بن هولاً كوك ملك التتر وأطمعه في هذه الديار، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب في الشام مع سنقر الأشقر وقاتل معه وكتب بذلك إلى أبا أيضاً، موافقاً له، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون واستولى عليها وعلى برزيه وبلاطنس والشعير وبكاس وعكار وشيرز وأفامية وصارت هذه القلاع له . وأحرق (٦٧٧) عسكر الشام عمالة الغرب وجبيل وبيروت وذلك أن قطب الدين السعد بعد أن استقطع قرية كفر عمية من أمراء الغرب آل تنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولاً فاتهم بقتله نجم الدين بن جحى وكان أبوه وذو قرابته معتقلين في مصر فتوجهت إليه العساكر والعشيران من ولاية بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت وأحرقت قراه ، وتفرق التتوخيون أيدي سبا إلى أن أمنهم الملك فرجعوا إلى مساقط رؤوسهم .

وجاء التتر إلى حلب (٦٧٩) فعاثوا وقتلوا من كان بظاهرها وملكوا ضياعها ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس المعتبرة ودور السلطنة والأمراء وأقاموا بها يومين وعادوا من حيث أتوا، فهب الملك المنصور قلاوون إلى غزة لدفعهم فرحلوا قبل أن يوافيهم، قال ابن أبي الحديد : وكانت للتتر نهضات وسرايا كثيرة إلى الشام، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها حتى انتهت خيولهم إلى حلب، فأوقعوا بها وصانعهم عنها أهلها وسلطانها ، ثم عمدوا إلى بلاد كي خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قرضه وقضيه وجيشه ولقيفه،

واستكثر من الأكراد العتمرية من عساكر الشام وجند حلب فيقال إنه اجتمع مائة ألف فارس وراجل فلقبه التتر في عشرين ألفاً، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمته، وكانت المقدمة كلها أو أكثرها من رجال حلب وهم أنجاد أبطال فقتلوا عن آخرهم وانكسر العسكر الرومي، وهرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكية فاعتصم بها، وتمزقت جموعه وقتل منهم عدد لا يحصى .

واستأذن نائب السلطنة بحصن الأكراد في الإغارة على المرقب لما اعتمد أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب فأذن له السلطان في ذلك ، فجمع عساكر الحصون فاتفق هروب المسلمين ونزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة . وترددت الرسل بين السلطان وسنقر الأشقر، واحتاج السلطان لمصالحته لقوة التتر وتفادياً من الاشتغال بالعدو الداخلي والعدو الخارجي، ووقع بينهما الصلح على أن يسلم سنقر قلعة شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الشغر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه وحلفا على ذلك واستقر الصلح بينهما، كما استقر الصلح بين المنصور قلاوون وبين خضر بن الظاهر بيبرس صاحب الكرك .

وبعد أن استقر الصلح بين الأميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف العظيم (٦٨٠) بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فجمع قلاوون العساكر من مصر والشام ومن جملتهم عسكر سنقر الأشقر، وجاء الأمراء كلهم في جيوشهم، وكان التتر في ثمانين ألف فارس وفي رواية مائة ألف منهم خمسون ألفاً من المغول والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم، والمسلمون في خمسين ألفاً فانهمز التتر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون . وعقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتر كليام ديباجون مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الإخوة الداوية بأنطوطوس لمدة عشر سنين، لا ينال بلاده ولا بلاد ولده ولا حصونهما ولا قلاعهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس ضرراً ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية .

وسارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبهة بشري (٦٨١) وحاصروا إهدن

حصاراً شديداً وبعد أربعين يوماً ملكوها فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل، وفتحوا بقوفاً وقضوا على أكابرها وهدموها وضربوا حصرون وكفرحارون وخربوا حدث البشري وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيه عسكرياً يكمنون للعصاة وهدموا جميع الأماكن العاصية وملكوا قلعة حوفا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لأنها داخلة الشير . وتوجهت العساكر أيضاً إلى أرض الأرمن فخربت فيها وسبت عقوبة لهم عمّا أتوه من معاونة المغول على المسلمين .

وقصد المغول دمشق في سنة (٦٨٣) ثم ذهبوا إلى وادي التيم فأحرقوها وسبوا أهلها وقتلوا منهم سبعمائة نفس وملكوها وفتح السلطان حصن المرقب (٦٨٤) بعد أن نقب جنده حصنها بسرعة، وكان هذا الحصن للاستتار فنزل أهله بالأمان. في هذه السنة عقد الملك المنصور وولي عهده الملك الصالح وولده الأشرف صلاح الدين هدنة مع دام مرغريت بنت سير هنري ابن الأبرنسي مالكة صور جاء في كتابها وليس للفرنج أن يحدوا في غير عكا، وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً لا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قديماً ولا مستجداً، وعلى أن شواني مولانا السلطان وشواني ولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها الهدنة ولا تتزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها، وإن انكسر شيء من هذه الشواني والعياذ بالله في مينا من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا أو مع من له عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر منها والعود إلى بلاد إسلامية ويبطل حركة ما انكسر منها أو يرميه في البحر، فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها ويعتمد هذا الفصل من الجهتين . وفتح

حصن الكرك (٦٨٥) بالأمان وجهاز عسكرياً كثيفاً من العساكر المصرية والشامية إلى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الأشقر بالأمان . ثم سار جيش السلطان إلى اللاذقية، وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته، فركب طريقاً إليها في البحر بالحجارة وحاصروا البرج وتسلموه بالأمان وهدموه وفتح طرابلس (٦٨٨)، وكان البحر يحيط بغالب أطراف هذه المدينة ولا تقايل إلا من جهة الشرق، ولما نازلها نصب عدة منجنيقات كبيرة وصغيرة وألح عليها بالحصار ففتحها بالسيف، ودخلها العسكر عنوةً بعد حصار ٣٣ يوماً، فهرب أهلها إلى المينا وركبوا في المراكب وقتل غالب رجالها وسببت ذرايرهم، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة، وأمر السلطان فهدمت طرابلس ودكت إلى الأرض . وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس وبينها وبين طرابلس المينا، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فافتحم العسكر الإسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا من بهامن النساء والصغار - نقلت معظم هذا من تاريخ أبي الفداء، ويقول ميشو: إن المسلمين لما استعادوا طرابلس أهلكوا ساكنيها من الصليبيين إلا قليلاً وأمر السلطان بإحراق المدينة وهدمها وكان فيها مصادر الثروة والرخاء وكل ما يزهو به السلام ويستخدم في الدفاع زمن الحرب فخرب كل ذلك تحت الفأس والمطرقة قال: لما أنزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة (١٣٦٦م) واستولوا على طرابلس أوقدوا النار فيها وكان حظ طرطوس واللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك .

ولما فتحت طرابلس كتب محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً يصف هذا الفتح قال فيه: إن الحصار استمر من مستهل ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كل هضبة ووهدة، وكل صلبة وصلدة، وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها. وكان أخذها من مائة سنة وثمانين سنة في يوم الثلاثاء واستردت في يوم الثلاثاء (وفي رسالة أخرى أنها قامت بيد الإفرنج مئة سنة وستاً وثمانين سنة)

وقال مؤرخو لبنان: إن الكسروانيين والجرديين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج في طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز الأمر من حسام الدين باستئصالهم . ومن ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من أهلها تشتتوا في كل صقع . قالوا: ومن جملة أوامر حسام الدين إلى أمراء غرب بيروت التنوحيين إذا توجهوا إلى كسروان وجردّه بجموعهما ، أن كل من سبي امرأة منهم كانت له جارية، أو صبياً كان له مملوكاً ، ومن أحضر منهم رأس رجل فله دينار . وذكروا أن الحراب استولى على الأقطار الشمالية بسبب تقلقل أحوال ملوك مصر والشام، والحروب النائرة مع التتر من جهة ومع الفرنج من أخرى، فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك وقدم إلى جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير ومنهم أهل وادي التيم وخلا هذا الوادي من السكان خمسة أعوام ولم يكن فيه بلد عامراً سوى حاصبيا وكذلك البقاع . ثم عاد الناس وعمروا بعض القرى في جبل حاصبيا فقط .

وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الأشرف خليل وإخفائه في فرنج الساحل :

توفي المنصور قلاوون (٦٨٩) وكان ملكاً مهيباً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو، شجاعاً أقام منار العدل وأحسن سياسة الملك أحسن قيام وفتح الفتوح الجليلة التي لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على مثلها وهو الذي وطد حكم المماليك على الشام وأصلح كما في المعلمة الإسلامية بالتدريج ما أحدث المغول فيه من التخريب، وقام بأعمال مهمة من مثل ترميم قلعة حلب وبلبلق ودمشق . وهو الوحيد من ملوك المماليك الذين تسلسل الملك في أعقابهم وألفوا دولة فإن أعقابه حكموا إلى سنة (٥٧٨٣ ١٣٨٢ م) خمسة بطون . وقد عقد معاهدات مع الدول التي يخشى بأسها ويمكن الانتفاع بحسن الصلات معها، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة ومعاهدة دفاعية مع الملكين الفونس ملك قشتاله وجاك ملك صقلية. وعقدت هدنة بين الملك المنصور قلاوون الصالح وولده الملك الصالح علي ولي عهده وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في شهور سنة اثنتين وثمانين وستمائة وهي يومئذ بأيديهم لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر

ساعات على أن لا يكون للفرنج من البلاد والمناصفت إلا ما شرح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد، وعلى أن الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة ولا برجاً ولا حصناً ولا مستجداً. ومما جاء فيها أن شواني السلطان وولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية وإن انكسر شيء من هذه الشواني في ميناء من مواني البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر منها والعود إلى البلاد الإسلامية، ومتى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جُور البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتفقة عليها هذه الهدنة فيلزم نائب المملكة والمقدمين بعكا أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة لمدة شهرين وإذا قصد البلاد الشامية عدو من التتر وغيرهم في البر وأغارت العساكر الإسلامية من قدام العدو ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة فيكتب إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يدرأوا عن بيوتهم ورعياتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه. وإن حصل جفَل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم .

وعقد الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب مع الأشكري صاحب القسطنطينية سنة (٦٨٠) هدنة على أن لا يجارب أحدهما الآخر ويرعيا التجار في بلادهما. وكانت سفراؤه تغدو وتروح إلى أمبراطور بيزنطية والأمبراطور رودولف دي هابسبورغ وملك اليمن وأمير سيلان وغيرهم من أمراء الشرق . ولهذا السلطان آثار جلييلة في العمران في القدس ودمشق وغيرهما من ربوع الشام تدل على بعد نظره وحبه للمصالح .

وجلس في السلطنة بعد قلاوون ابنه الأشرف صلاح الدين خليل وسار على قدم أبيه في جهاد الصليبيين . وكان أول عمل اتجهت إليه همته بعد أن قدم تجار الفرنج إلى عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين (٦٨٩) أن نهض

من مصر لفتح عكا بالعساكر المصرية والشامية فهرب جماعة من أهلها من الفرنج في المراكب لما هاجمها المسلمون كما فعلوا في طرابلس على عهد والده واستنزل الأشرف جميع من عصى بالأبرجة التي كانت داخل البلد، وهي بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها فاستنزهم السلطان وأمر بضرب أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بالمدينة فهدمت إلى الأرض ودكها دكاً . وكانت كما قال الذهبي من أحسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر فلما فتحها الأشرف وهدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خراباً، وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومما وجد مكتوباً على باب كنيسة من كنائس عكا أبيات لابن ضمير الضبع :

أم الكنائس إن تكن عبثت بكم أيدي الحوادث أو تغير حال
فلطال ما سجدت على أبوابكم شم الأنوف ججاج أبطال
صبراً على هذا المصاب فإنه يوم بيوم والحروب سجال

ولما فتحت عكا رعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان وجزيرتها وقلعتها الجنوبية والشامية . واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً واستولى على صور وكان أهلها مثل سائر الساحل . وكذلك عثليث وكانوا أوقدوا فيها النار . وسلمت أنطربوس بالأمان وطرده السلطان الفرنج من جبيل وهدمها ودك قلعتها. وهربوا من أنفة والبثرون وصرند وإسكندرونة بالقرب من عكا وذلك في مدة سبعة وأربعين يوماً وكان فتحاً مبيناً. خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الأخيرة ولكن استقلت الشام ونجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة والأمة، ولا يؤخذ على الأشرف استئصاله شأفة أعدائه وإهلاكه لهم عن آخرهم، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين وفتح القدس أن يغادروا القطر جملة واحدة وظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفاً وأدرك كل من تولى زعامة الشام بعده أنه يستحيل الخلاص من الفرنج إلا بإفنائهم، وآخر الدواء الكي.

الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية :

دخلت الجيوش الصليبية الشام سنة (٤٩١) وخرج منها آخر المنهزمين سنة

(٦٩٠) أي إنهم ظلوا مئتي سنة يحاربون الشام ومصر. تعاقبت فيهما عدة دول إسلامية على البلاد، وكلها حاربت هؤلاء الدخلاء بما وسعها أن تحارب، وربما قتل من الفريقين خلال ذينك القرنين ما لا يقل عن بضعة ملايين من الأنفس، ولو لم تنقطع الرغبات في الغرب وتبطل النجدات بل الحملات الكبرى التي أصبح الباباوات والملوك يوجهونها في وجهات أخرى لقتال المسلمين لطال أمدها أكثر مما طال .

قلنا: إن الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الأمير فريديريك الثاني، وهي الحملة التي عقدت معاهدة مع ملك مصر والشام تنازل فيها هذا عن القدس وبيت لحم والناصرة عشر سنين، فلما انتهت المدة عادت القدس إلى المسلمين وعندها عمد سان لوي ملك فرنسا أن يسترجعه منهم، وكان السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة والثامنة. جاء في الأولى إلى دمياط وأنهزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر وأسر هو وجميع من معه من الرجال وعدتهم ثلاثون ألفاً، فاضطر أن يدفع فدية عظيمة عن نفسه وعن جماعته ثم عاد إلى فرنسا فزين له أخوه أن يغزو تونس ومنها يذهب ليفتح مصر والشام فهلك في تونس بالطاعون (١٢٧٠م) وبذلك انتهت الحروب الصليبية . نشأت في فرنسا وانتهت بفشل ملدها ثم بهلاكه .

ولقد عدّ الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية أنهم أوقفوا سير المسلمين عن التقدم، وتعلم ملايين منهم أموراً ما كانوا يحلمون بوجودها، وأخذوا عن الروم والعرب ما كان عندهم من أسباب المدنية التي لم يكن للفرنج عهد بها . فإن كثيراً من أصناف البقول نقلوها إلى أوروبا وشاعت هناك ولم تكن تعهد عندهم، وقد تعلم صناعة الورق رجالان إفرنسيان كانا أسيرين في دمشق، وأدخلا صناعته إلى فرنسا، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل، ومنها شاع صنعه في سائر ممالك الغرب، وتعلموا صنع الأقمشة الدمشقية والسيوف وغيرها من الصنائع الجميلة .

قال مكسيم بيتي في تاريخ الشعوب العام أثناء كلامه على إخفاق الحملة الصليبية الأولى ما تعريبه : لئن كان الصليبيون متحمسين تحمساً دينياً فقد كان ينقص هذه الستمائة ألف رجل وحدة القيادة والتجانس والامتزاج ،

وما كان لنواب البابا أدنى سلطة أدبية ولم تكن وحدة الغاية المراد بلوغها لتحول دون ظهور المطامع والمنافسات والدسائس. ويضاف إلى هذا السبب في الضعف أسباب أخرى مادية وهي صعوبة الطريق وقلة أسباب التموين وتدني القوى الحربية بسبب تفوق الجيوش في المدن المفتوحة أو رجوع بعض الصليبيين إلى الغرب إلى ما هنالك من قحط وأوبئة وخسائر في الحرب. وقال في الحملة الصليبية الثانية: إن قلة إيمان الكسيس وصعوبة التموين وقلة المؤنة جعلت الحملة شؤمى فقتل الثلاثمائة والحمسون ألف رجل الذين كانت تتألف منهم قتلاً ذريعاً في مريسوان واركلي.

ومع كثرة ما بذله أخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين أمثال العادل والكامل وبيبرس وقلاوون وابنه صلاح الدين خليل، فإن الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر وتنصرف وجهة الصليبيين إلى قتال العرب في الأندلس. وفي الحق أن تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون فقدت فيها أوروبا أكثر مما ربحت من الأنفس والأموال. وما يدرينا أن تتقدم دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال وتقضي على مملكة الروم البيزنطية ثم تتقدم في فتوحها إلى أوروبا لو لم يشتغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين. وكانت الشام من جملة ممالك السلجوقيين وربما تبعتها مصر ففتحتها صلاح الدين أو غيره باسمهم بدلاً من أن يفتحها باسم نورالدين، وما نور الدين إلا صنعة السلاجقة، وما جده وأبوه إلا عاملان من عمالهم.

شغلت أوروبا بمسألة إنقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين قرنين، وتطوعت شعوبها في هذه السبيل، ومن الأمم من لم ينلها إلا قتل رجالها وذهاب أموالها وكان الرابع على الأكثر أهل إيطاليا فإنهم حاربوا حرباً تجارية ربحوا من سفنهم وتجارتهم وخصوصاً البنادقة والجنويون والبيسيون. أما الألمان والبريطانيون والفرنسيون والهولنديون والسويسريون والنرويجيون فإنهم خسروا خسارة كبيرة.

ساق الفرنج إلى الحروب الصليبية الدين والتجارة فلما فترت نعمة الدين بهلاك من كانوا يحسنون هناك الضرب على أوتارها، ولم ير التجار في هذا

الشرق ما يكفي لسد نهمتهم وأيقنوا أن الأمر يطول إذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الإسلامية في آسيا فترت همهم بالطبع ، لكن الشام بعد ذلك وإن كانت الدول الأتابكية والنورية والصلاحية ودولة ببيرس وقلاوون وابنه يعملون حالاً إلى ترميم ما خربه الأعداء لإيقانهم أنها بلادهم ولا بد لهم من دفع أعدائهم عنها، وأنهم يسترجعونها لا محالة وسيدالون منهم، مهما طال مقام من استصفوا بعض السواحل وبيت المقدس فكان الأمر كما اعتقدوا .

وكلما طال احتلال الصليبيين كانت الأمة تستمرى طعم الموت لطردهم ، وكلما رأت من ملك أو أمير تغاضياً عنهم أو انقاء عاديتهم بالمعاهدات والمهادنات كانت تستهين به وتدعو أن لا تدوم أيامه . وعلى ما بذل الصليبيون من استمالة جيرانهم ما عدتهم هؤلاء قط إلا غاصبين أرضهم ، دخلاء على الملك الإسلامي . ولولم يؤسس الدولة في الشام ومصر ملك عاقل مثل نور الدين ويتم عمله عاقل عادل من طرازه أي صلاح الدين لما تمّ الفتح الأخير على يد الأشرف خليل ، ولما تمّ أخلافه بعده الخطة المرسومة . ولو كان الملك لا يوسد إلا للكفاة من أبناء الملك أو لأكبرهم سناً ، ولو لم يكن شجر الخلاف بين آل أيوب ، لضرب الصليبيون الضربة القاضية الأخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر أو بعشرين سنة على الأكثر ، إذ كان يتأتى للمسلمين أن يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكا بما جاء الصليبيين من التجذات العظيمة في البحر . ولكن مات صلاح الدين قبل أن يطبق خطته ، وشغل أخوه وأولاده بالتنازع على الملك ، وعدوا الهدنة الطبيعية التي مضت بين أخذ عكا واستلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشيع نفس كل طامع منهم بالملك والسلطان ، وغفلوا عن أعدائهم الذين لم يكذب يغفل عنهم نور الدين وصلاح الدين سنة واحدة إلا ريثما يجمعان قواهما ، وقد كانا لهذا الغرض يصانعان ملوك الأطراف ليسيروا معهما على قتال الأعداء ، أما أخلافهم فكانت سياستهم في الأكثر موجهة إلى اختراع الطرق لقضاء بعضهم على بعض ، أو لاستئثار قويمهم بملك مصر أو دمشق أو حلب أو الكرك والشوبك أو ماردين أو خلاط ، فشغلوا بداخيلتهم أكثر من اشتغالهم بأمور الجهاد وهي أهم وأعظم ، هذا وأكثر أولئك الملوك كانوا قد تشبعت نفوسهم بالتربية العالية والعلم والأدب الغزير ،

وكانوا على معرفة تامة بفتح المعازل والحصون، ومعرفة بعلى الحروب وقواعد السلم، وإعطاء العهد وعقد الهدنة والصلح، ورثوها واقتبسوها من أخلاق البانيين لمجدهم نور الدين وصنيعته صلاح الدين .

ومما أحر القضاة عشرات من السنين على بقايا الصليبيين في الساحل ظهور التتر في القطر بعد قضائهم في منتصف القرن السابع على الخلافة العباسية، فأصبحت الشام بين عدوين أتى الأول من الغرب فأقام وطال مقامه، وجاءها الثاني من الشرق، والشر قد يأتي من الشرق، فكان يخرب في أصقاعها ويغتم ويقتل ثم يذهب ثم يعاودها . ولكن ما حدث من حروب الخوارزمية ثم أخلاف هولاء في هذا القطر يعدّ مناوشات إذا قيس بالحروب والحرب الذي حدث بعد ذلك فأهلك الأخضر واليابس، وغدا القطر غرض النابل، وفريسة الصائل .

وفي التاريخ العام أنه كان من نتائج الحروب الصليبية إذا صُرف النظر عن هلك فيها من ملايين الخلق، إحداث إمارات كاثوليكية في الشرق انتزعت من المسلمين والبيزنطيين واحتلتها فرسان فرنسيون وتجار طليان . وقد طرد هؤلاء الأوروبيون لقلتهم بدون أن يتركوا سوى آثار معاقلم في الموالي وعلى صحور يونان والشام، ولكن هيا الصليبيون لنصارى أوربا أن يكونوا على صلات متصلة مع الشرق مدة قرنين اه قلنا: وهذه النتيجة من ربط الصلات مع الشرق كان يتأتى لأوربا الحصول عليها بدون إهراق هذه الدماء وإتلاف الأموال العظيمة وغرس البغضاء في نفوس من نزلوا عليهم .

وفي تاريخ الشعوب العام أن من جملة فائد الحروب الصليبية أنها أوقفت سير المسلمين نحو أوروبا، وقربت بين شعوب أوروبا وجمعتهم تحت لواء واحد وأشعرت قلوبهم حب الوحدة الأدبية وساعدت على إيجاد فكرة أوربية . وأخذ المسلمون والنصارى يعرف كل منهم الآخر ويعرفون كيف يحترم بعضهم بعضاً، وعقدت بينهم المعاهدات والصلات خلال المهادئات والانتقطاع عن استعمال السلاح . وقد جهز ريشاردوس فئة من العرب جعلهم فرساناً، وعقد أنكحة بين الطائفتين ودخل التسامح المتبادل في الأخلاق . وما خلت الصناعات والهندسة والفنون والأزياء واللباس والفنون الحربية من تأثيرات الشرق وقد دخلت المدينة الشرقية في مدينة الغرب دون أن تستغرقها أه .

وفي تاريخ فلسطين أن من أضرار الحروب الصليبية في الشام إيقاد جذوة التعصب الديني بين المسلمين والمسيحيين ، ورأى هؤلاء أن مسلمي العرب أحسنوا إليهم يوم الفتح أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين أنكروا أبناء دينهم. ومنها تخريب البلدان وقطع الأشجار حتى زادت الأسعار ستة أضعاف ما كانت عليه ومنها تلطيف الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ، لأن مسيحيي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم . وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثي العهود والقاتلي الأسرى ، والذين أفحشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحرقوا الديانة المسيحية اه .

لا جرم أن الصليبيين افتضحوا في هذا الشرق بأخلاقهم وقلة معرفتهم ، وعرفوا بعد أن أخفقت الحملة الثامنة واصطلموا من الساحل مبلغ قوة أعدائهم ، وأنهم في أرضهم ، وهم يحتاجون إلى الرحيل أشهراً في البر وفي البحر. وذكر ميشو أن الفرنسيين والنورماندين وسائر شعوب شمالي أوروبا المتوحشة في القرن الثاني عشر للميلاد كانوا في حالة البداوة وهذا ما ساعدهم على إعلان الحروب الصليبية في الشرق ، فلما نشأت المدينة الحديثة في القرن السادس عشر وتسربت أولاً إلى الملوك أصبحوا لا يرون الاغتراب عن أوطانهم ولا الشعوب أن تفارق مساقط رؤوسها، وعمت الصناعات وحسنت الزراعة وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة وتقاليد كل شعب وقطر والألقاب والامتيازات والحقوق المستحصلة والأمل في تنميتها ، كل ذلك قد غير من أخلاق الفرنج وبدل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال وجعلها صلات تربطهم بالوطن . وقد كتب التوفيق للملاحة في القرن التالي واكتشفت أميركا واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير في التجارة ، وأخذت الأفكار تتجه وجهة جديدة وأنشأت المضاربات الصناعية التي كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو أميركا والهند الشرقية ، ففتحت أمام الغربيين ممالك كبرى وأقطار غنية تسد مطامعهم وتشبع نهمه التائقين إلى المجد والثروة والرفقاع . فأنست حوادث العالم الحديد ما في الشرق من عجائب اه .

هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم في القرن الماضي، وإليك ما قاله أديب كبير من أدبائهم المحدثين كلود فارير: « في سنة (٧٣٢) للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، فغمرت العالم الغربي مدة سبعة أو ثمانية قرون إن لم نقل أكثر في طبقة عميقة من التوحش، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة، وكاد عهد الإصلاح يعيدها إلى كثافتها الأولى، وهذه الفاجعة هي التي أريد أن أمقت حتى ذكرها، وأعني بها الغلبة المكروهة التي ظفر فيها على مقربة من بواتيه برابرة المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب والبربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضي من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم » .

« في ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال إشبيلية وقرطبة وطليلة لبشاهد والألم الغريب آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام الصناعي الفلسفي السلمي المتسامح - والإسلام مجموعة كل هذا - من الأهويل التي لا أسماء لها، وكان منها أن أنتجت خراب غالبا القديمة التي استعبدها أولاً لصوص أوسترازيا ثم اقتطع جزءاً منها قرصان النورمانديين ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في أرجائها من الدعوة للحروب، ثم انتفخت بالجلث بما دهمها من الحروب الخارجية والأهلية الكثيرة، حدث ذلك على حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير إلى نهر السند يزهر كل الإزهار في ظل السلام تحت أعلام أربع دولات سعيدة: الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية »

دولة المماليك

« من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠ »

فتوح أرمنية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية :

أصبحت مصر والشام بعد انقضا الصليبيين من السواحل، ووضع السيف في بقاياهم، واعتصام جزء قليل منهم بالموارثة في لبنان مملكة واحدة لا يتخللها أرض لغير مالكةا، ولا ينازعها سلطان من غير المسلمين، وأصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار بالملك، والذهاب بفضل سبق، والتفكر فيما يدفع العوادي عن حدود القطر أو يوسعها إلى المدى المقدر لها، وبعد أن كانت الشام مصدر الأعمال والسياسة نازعتها مصر في هذا الشأن، فابتلع القطر المصري الشام وعده كما كان زمن الفاطميين جزءاً متمماً لمصر لا قطراً مستقلاً بنفسه وسياسته . أي إن القوة أصبحت بعد عهد العادل تستمد في الشام من مصر لأنها مقر السلطان، ومصر بين أقطار تحيط بها الصحاري من أطرافها، لا سبيل كل حين إلى غزوها كما تغزى الشام من أطرافها الأربعة، وليس في أمراء برقة وطرابلس وتونس والنوبة والسودان والحيشان من يستطيع أن يغزو مصر ويحلم بفتحها ، ولذلك كانت الشام بعد عهد الأمويين أشبه بإمارة سلطانها الأكبر في مصر ويتولاها نائبه أو نوابه . ولم يكتب للشام أن تصبح دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية، وكان أهم عدو مجاور لها صاحب سيس ، فإن الأرمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد أن قضت على سلطانهم الدولة الأيوبية، وانتزعت منهم خلاط أوائل

القرن السابع، وكانت خلاط قاعدة أرمينية الوسطى أخذها بنو أيوب لمكانهم فيها من عصبية الأكراد، وهي قسم من أرمينية الكبرى وقاعدتها سيس، وقد ذهب الملك الأشرف سنة (٦٩١) في عساكره المصرية والشامية وقصد قلعة الروم وهي على جانب الفرات يقيم بها خليفة الأرمن كيتاغيكوس فأخذه ومن معه أسرى، ورمَّ ما تخرب من تلك القلعة الحصينة .

تقدم أن فرنج الساحل لما أصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم بأهل جبل لبنان ونزلوا عليهم، وعاد آخرون إلى بلادهم في المراكب، وقد أثار هذا القسم اللاجئ إلى لبنان في نفوس بعض أهله فكرة العصيان فعصوا، فتوجست دولة الأشرف منهم خيفة فأرسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة بدر الدين بيدرا، فسار إلى جبل كسروان في العسكر وعدة من الأمراء فأنحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم، وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لأهل الجبل الطمع والقوة، فأطلق محابيس لهم بدمشق من أرباب الجرائم العظيمة، وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم . قال مغلطاي : وكل ذلك من الطمع وسوء التدبير .

وفي كتاب الهدنة التي عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية بين حاكم الريدارغون صاحب برشلونة من بلاد الأندلس وأخويه دون وفلدريك ودون بيدرو وبين صهره دون شانجه ملك قشتالة وطليلة وليون وبلنسية وقرطبة وأشيبليه ومرسية وجيان والغرب الكفيل بمملكته أرغون وبرتقال دون ألفونس ملك برتغال في تاريخ (٦٩٢) أمر الملك دون حاكم وأخويه وصهره يفسح كل منهم لأهل بلاده وغيرهم من الفرنج أنهم يجلبون من الثغور الآسيوية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك . وأن سائر أصناف البضائع المتأخرة على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعمور .

وجاء الأشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح ورضا السلطان عليهم، فرضي على أن يسلموا لنواب

السلطان ثلاث قلاع وهي : بهسنى ومرعش وتل حمدون . وكانت بهسنى قلعة حصينة في فم الدربند وباب حلب ، فلما انتقلت من أيدي المسلمين إلى أيدي الأرمن وقت مجيء التتر كان منها على المسلمين أذى ، فلما فتح السلطان قلعة الروم وأخذ خليفة الأرمن حصل للأرمن خوف عظيم فصانعوا عن أنفسهم بهذه القلاع . قال مغلطي : ورسم السلطان في هذه السنة للأمير عز الدين الأفرم بأن يسافر إلى الشوبك وأن يخرب قلعتها فراجعه في إبقائها فنهزه فسافر وأخربها وكان هذا غاية الخطأ وسوء التدبير فإن هذا الملك كان طالعه يقتضي الخراب فإنه أخرب في قلعة الجبل أكثر بنياتها ، وكذلك في قلعة دمشق أخرب قاعات كثيرة وبظاهر دمشق من حد الميدان إلى تحت القلعة ، وكان على يده خراب جميع الساحل وتعطت بلاده من جميع الأصناف التي تجاب من البحر وبقيت الشام معطلة . قلنا : ولكن هذا السلطان وأبوه دفعا الصليبيين عن القطر واجتتا أصولهم وفروعهم وأدخلاه في عهدهما في دور عز وقوة ووحدة حقيقية . واتسعت مملكة قلاوون حتى خطب باسمه في إفريقية (تونس) قال ابن إياس : وكان من أجل الملوك قدراً وأعظمهم نبياً وأمراً وأكثرهم معروفاً وبراً ، وقد جبلت القلوب على محبته سراً وجهراً اه . وقد خلف آثاراً مهمة ومصانع خالدة في مصر وبعض الشام تدل على ذوق وحسن هندسة ، وتسلسل الملك في أولاده وأحفاده لأن الرعية كانت تحبه فأحبت آل بيته ، وخفت وطأة المماليك في أيامه ثم عادت تدريجياً إلى القوة والعرامة .

اغتيال (٦٩٣) الأشرف صلاح الدين خليل بيد بعض أعيان الدولة بمصر واتفق قائلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالقاهر ، ثم اتفق الحزب القوي منهم فبايعوا للناصر ولد المنصور ثم تغلب (٦٩٤) زين الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة ، واستحلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ، ونقشت السكة باسمه وجعل الناصر في قلعة الجبل وحجب الناس عنه فترعزعت أعصاب المملكة لهذه الحوادث المشثومة التي تورث النفوس كآبة وأعمال الناس فتوراً .

ولما عاد العادل كتبغا من دمشق إلى مصر بالعساكر (٦٩٦) ووصل إلى نهر العوجا تفرقت ممالكه وغيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب

الملك العادل كتبنا ومعه فريق من الأمراء فهرب كتبنا إلى دمشق ودخل قلعتها واهتم في جمع العساكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقهم عسكر دمشق ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه من السلطنة وأرسل إلى لاجين يطلب منه الأمان وموضعاً يأوي إليه فأعطاه صرخد . وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبنا نزل بدهلزيه على نهر العوجا واجتمع معه الأمراء الذين وافقوه على ذلك ، وشرطوا عليه شروطاً التزمها ، منها أن لا يتفرد عنهم برأي ولا يسلم مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبنا . فأجابهم لاجين إلى ذلك وحلف لهم فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ، ورحل بالعساكر إلى الديار المصرية ، وأرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام .

ومن أهم ما وقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من أحفاد هولوكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد أن بذل له أهلها مالا عظيماً . ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر والشام (٦٩٧) لشن الغارات على سبب فضاقت على الأرمن الأرض بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم ، وغنموا حتى اضطر ملكهم أن يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام ، والإجابة إلى ما يرسم به سلطان الإسلام ، وإلى الاعتراف بأنه نائب السلطان في بلاده فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والأرمن ، وأن يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون والمدن ، فأجاب عظيمهم إلى ذلك وأخذ حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع . وفي سنة ٦٩٧ أيضاً وفد أحد مقدمي المغول إلى المنصور لاجين وطلب نجدة ليعود إلى الروم فجرد معهم من حلب عسكراً مقدمهم بكتمر الجلمي ، وساروا مع المقدم سلامش المغولي حتى تجاوزوا بلد سبب فخرجت عليهم التتر واقتتلوا معهم ، فقتل الجلمي وجماعة من العسكر الإسلامي وهرب الباقون .

وفي سنة (٦٩٨) وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكمتر من إمساك الكبار وسقي بعضهم ، وذهب نائب دمشق قبجق بالعساكر فترلوا بأرض حمص وهناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصريين فتكلموا في مصلحتهم ، وأن

منكوتمر لا يفتر عنهم فاتفقوا على المسير إلى غازان ملك التتر لعلمهم بإسلامه فسارا إلى حمص ونزلا بنحواصهما، فأخذوا على ناحية سلمية وعديا الفرات فلم يكن بعد عشرة أيام من مسيرهم إلا وقد جاء البريد بقتل المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وقتل منكوتمر نائبه وعلم الأمراء المخامرون بقتلهما، فاتفق رأي أرباب الدولة في مصر على إعادة الناصر محمد إلى مملكته فجاء به من الكرك وجلس على سرير سلطنته للمرة الثانية . ووصلت هذه السنة إلى بيروت مراكب كثيرة وهي ثلاثون بطنسة وفي كل واحدة سبعمائة مقاتل من الفرنج للطلوع إلى الساحل والإغارة على ديار المسلمين فأصابتهم عاصفة أغرقت سفنهم ورجع الباقون خائبين .

وقائع التتر:

لم تكذ نازلة الصليبيين تنحسم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين والتتر في سنة (٦٩٩) فسار غازان بن أرغون خان بن هولوكو بن تولي بن جنكيز خان، بجموع عظيمة من التتر والكرج والمزندة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعه إلى حلب ثم إلى حماة ونزل على وادي مجمع المروج، وسارت العساكر صحبة الناصر إلى جهة المجمع، وكان سلار والجاشنكير متغلبين على المملكة فداخل الأمراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الأمور الفاسدة التي أوجبت هزيمة العسكر . والتقوا بالقرب من مجمع المروج شرقي حمص فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به التتر وجري بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان إلى جهة حمص، فولت العساكر الإسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر وانهزم السلطان إلى نحو بعلبك بعد أن تلاقى عسكر مصر وعسكر التتر على مرج راهط تحت جبل غباغب جنوبي دمشق ووقعت بينهما وقعة عظيمة. وكان مع العسكر المصري من العسكر الشامي وعربان من جبل نابلس نحو مائتي ألف إنسان في بعض الروايات ومع غازان مثل ذلك أو أكثر .

تتبع التتر المنهزمين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق واستولوا عليها ونهبوا ضياعها وسبوا أهلها، وساروا في أثر الجفّال إلى غزة

والقدس والكرك . ولما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبجق الأمان لأهلها ولغيرهم منه . وكانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها وكان الأمير بها أرجواش المنصوري فقام في حفظها أتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها - هذا ما قاله أبو الفداء وابن إياس . ووصف مغلطي ما حلّ بدمشق وضواحيها من التتر وما جرى على العساكر المصرية والشامية ، وما تمّ من تخريب الدور والمساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية والحواضر البرانية من العقيبة والشاغور وقصر حجاج وحكر السماق وقد خرب منها واستبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن قال : إنهم أسروا من الصالحية نحو أربعة آلاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمائة أو أربعمئة أكثرهم في التعذيب على المال . ودام التتر نحو أربعة أشهر . وكان عدد من دخلوا دمشق من التتر أربعة آلاف مقاتل . وقد احترقت أماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الأشرفية وما قبلتها إلى العادلية الصغرى والعادلية الكبرى وأحرقت دار السعادة وكانت مقر نواب السلطنة وما حولها، واحتاط التتر بهذه النواحي والأماكن التي لم يصل إليها الحريق فنهبت ونقضت أخشابها، وقلع ما فيها من الرخام وأخذ ما فيها من الأثاث، وكذلك فعل بجميع الصالحية .

وعقب أن تم كل هذا الحيف جاء رسول التتر إلى دمشق بالأمان ومما شرطه في تقليده وكان مكتوباً بالعربية، أن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية . وقال صاحب التتر : إنه حارب حكام مصر والشام لأنهم خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الإسلام ، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية، ومدّ الأيدي العادية إلى حريمهم وأموالهم، والتخطي عن جادة العدل والإنصاف . قال مغلطي : إنه حمل إلى خزنة غازان ثلاثة آلاف دينار وستمئة ألف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك . وقال الصفدي: وإلى شيخ الشيوخ الذي نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة ألف درهم وإلى الأصيل بن نصير الدين الطوسي مائة ألف درهم .

ولعلي الأوتاري الدمشقي في هذه الموقعة من قصيدة:

أحسن الله يا دمشق عـزكـ	في مغانيك يا عماد البلادِ
وبرستاق نيربيك مع المـز	ة مع رونق بـذاك الوادي
وبأنس بقاسيون ونـاس	أصبحوا مغنماً لأهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالقتـ	ل ونهب الأموال والأولاد
وبنات محجبات عن الشمـ	س تناءت بهن أيدي الأعادي
وقصور مشيدات تقضت	في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيها التلاوة والذكـ	ر وعلالي الحديث بالإسناد
حرقوها وخربوها وبادت	بقضاء الإله رب العباد
وكذا شارع العقبية والقـ	ر وشاغورها وذاك النادي

أقام غازان بمرج الزنبقية من ضواحي دمشق . ثم عاد إلى بلاده تبريز وقرر في دمشق قبجق ولم يستفد إلا التخريب وقتل بعض جيشه وجيشي مصر والشام، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان إلى الصالحية، ثم اتفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلار وبيبرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام فسارا بالعساكر، وكان قبجق وبكتمر والالبكي قد كاتبوا المسلمين في الباطن وصاروا معهم، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتر وساروا إلى مصر، وبلغ التتر بدمشق ذلك فخافوا وساروا من وقتهم إلى الشرق، ورتب جمال الدين أقوش الأفرم في نيابة السلطنة بدمشق، وأقر سنقر في نيابة السلطنة بحلب، وقطلوبك في نيابة السلطنة بالساحل والحصون، والأمير كتبغا زين الدين المنصوري بحماة . وسار جمال الدين أقوش من دمشق وصحبته من الرجالة والفلاحين جمع كثير إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين وأخذ عُددهم، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتزموا به وحملوه وأقطعت ديارهم وأراضيهم .

وكان الأرمن لما وصل غازان بجموع المغول إلى الشام طمعوا في الأرجاء التي افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها، فتركها الدين بها من

العسكر والرجالة فاستولى الأرمن عليها، ولم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان، واستولى الأرمن على غيرها من الحصون والعمالات التي كانت جنوبي نهر جيحان، فجردت مصر والشام عسكراً إلى سبب ونهبت وخربت . وعاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكراً على الشام بدعوى أن عساكر صاحب مصر والشام أغارت على ماردين وبلادها فطرقت القطر على حين غفلة من أهلها وهتكوا المحارم فأتاه أهل ماردين وما إليها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الإسلامية - وكان دان بالإسلام حديثاً - فلاقى العسكر وفرق شملهم، وسبب رحيله المرة الأولى عن الشام أن الرعية تضررت بمقامه لكثرة جيوشه ومشاركته الرعية في الشراب والطعام، فرحل وترك عندهم من يحرسهم من تعدي بعضهم على بعض ويحفظ الشام من أعدائه المتقدمين وأكراده المتمردين .

ولما عبر المغول الفرات في المرة الثانية جفل الناس منهم، ودخلوا حلب وعائثا في أرجائها، وسار نائب السلطنة بحلب إلى حماة ووصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بظاهر حماة وأقام المغول بأرجاء سرمين والمعرة وتيزين والعمق وجبال أنطاكية وجبل السماق ينهبون ويقتلون ، وسار السلطان من مصر بالعساكر المصرية ووصل إلى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الأمطار والأحوال فرجع إلى مصر. وأقام المغول يتنقلون في الديار الحلبية نحو ثلاثة أشهر ثم عادوا إلى مواطنهم . والمغول هم والتتر شيء واحد والتتر صنف من أمم المغول . فقول المؤرخين المغول أو التتر من الألفاظ المترادفة تقريباً .

وفي سنة (٧٠٢) فتحت جزيرة أرواد وهي ليعقوب الطرطوسي وكان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا وكانوا يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل، فأقلع أسطول من مصر فجرى بين الفرنج والمسلمين قتال شديد انتصر فيه المسلمون وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها، وكان القتلى نحواً من ألفين والأسرى نحو خمسمائة . وفي هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت، ورفعت الشكايات إلى نائب دمشق الأقرم في الجرديين

والكسروانيين - وكانوا أعواناً للفرنج والحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع بأهل كسروان - فحشدت جيوش الشام لمقاتلتهم ، فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم ، وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم وقدمت الأكراد لنجدتهم ، فصددهم كمينان في القدار والمدفور فلم يخلص منهم إلا القليل وخربوا بعض الغرب ، وكان أمراء الغرب التنوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة وبحطوش وغيرها . ويقول صالح بن يحيى : إن السبب في قتلهم أن الهاريين من وجه التتر من العسكر (٦٩٩) حصل لهم أذية من المفسدين وخص صاً من أهل كسروان وجزين وأكثرهم أذية للهاريين أهل كسروان فإنهم بلغوا إلى أن أمسكوا بعضاً منهم وباعوهم للفرنج ، وأما السلب والقتل فكان كثيراً إلى أن عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم .

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد الشام وساروا إلى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسار منهم عشرة آلاف فارس ، وكانوا كلهم نحواً من خمسين ألفاً عليهم خطلوشاه نائب غازان ، وأغاروا على أحد أرجاء القريتين وكانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة أسندمر الكرجي نائب السلطنة بالساحل ومعاونة عسكر حلب وحماة فاقتتلوا مع التتر في الكوم قريب من عرض بين تدمر والرصافة فانهزم التتر وقتلوا عن آخرهم ، وكان المسلمون ألفاً وخمسمائة فارس والتتر ثلاثة أضعافهم

ثم سار التتر بجموعهم العظيمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا إلى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين أيديهم ، واجتمعت عساكر مصر والشام بمرج الزنبقية ثم ساروا إلى مرج الصفر لما قاربهم التتر وبقي العسكر منتظرين وصول الناصر ، وسارت التتر إلى دمشق طالبيين العسكر ووصلوا إليهم عند شقحب بطرف مرج الصفر فالتقى الفريقان واشتد القتال فانهزم التتر ولحق المسلمون أثر المنهزمين إلى القريتين يقتلون فيهم ويأسرون. ووصل التتر إلى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدر على العبور والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها إلى بغداد فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات ، وأخذ العرب منهم جماعة كثيرة ورجع غازان من حلب

في ضيق صدر من كسرة أصحابه وتمزقهم لبعدها المسافة وتخطف أهل الحصون لهم . قال شرف الدين الوحيد في انتصار الترمرة وكسرتهم تارة أخرى .

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة
وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننا
فكانت له الأولى وكانت لنا الأخرى
وقال شمس الدين السيوطي :

يا مرج صفر بيضت الوجوه كما
أزهر روضك أزهى عند نفتحته
غدران أرضك قد أضحت لواردها
دارت عليهم من الشجعان دائرة
ونكسوا منهم الأعلام فانهزموا
ففي جماجمهم بيض الظبا زبر
فروا من السيف ملعونين حيث سروا
فما استقام لهم في (أعوج) نهج
فعلت من قبل والإسلام يؤتلف
أم يانعات رؤوس فيك تقتطف
ممزوجة بمياه المغل تغتurf
فما نجا سالم منهم وقد زحفوا
ونكصوهم على الأعلام فانقصفوا
وفي كلاكلهم سمر القنا قصف
وقتلوا في البراري حيثما ثقفوا
ولا أجارهم من (مانع) كنف

غزوة الأرمن والكسروانيين وتزعزع السلطنة :

ولما ارتاح ذهن صاحب مصر والشام من التتر عاد فجرد عسكرياً من مصر وحماة وحلب (٧٠٣) ودخلوا سبب وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارتجعوها من الأرمن وهدموها إلى الأرض. ووقع الاتفاق مع صاحب سبب على أن يكون للمسلمين من نهر جيحان إلى حلب وللأرمن حد النهروان. وكان من نتائج معاونة التتوخيين في غرب لبنان بلحيش دمشق على قتال الكسروانيين أن تأصلت العداوة بين الفريقين حتى إذا كانت سنة (٧٠٤) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجليليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان ، يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التتوخية ويدخلوا في طاعتهم ، ثم أرسل إليهم الإمام ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق ، فأقضى العلماء حينئذ بنهب ديارهم بسبب استمرارهم على العصيان وإبائهم الدخول في الطاعة ، وفي الدر المنظوم أن أقوش فتح كسروان من جهتها الشمالية ولذلك دعيت فتوحاً وقال آخر : إن الأفرم جمع رجال الدروز (٧٠٦)

وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بجرمهم وأولادهم وأموالهم ونحو ثلاثمائة نفس من رجالهم واجتمعوا في الغار غربي كسروان المعروف بغار تيبية فوق أنطلياس فدافعوا عن أنفسهم ، ولم يقدر الجيش أن ينال منهم . ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا قطلوبك حارساً عليهم مدة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار ، ثم أحاط العسكر بتلك الجبال ووطئوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً من خلق الله يصل إليها ، فخرّبوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا وأسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزتها .

ويقول مؤرخو لبنان: إن الأفرم في هذه الحملة كان في خمسين ألف فارس وراجل . ويقول أبو الفداء وابن الوردي : إن هذه الحملة (٧٠٥) كانت على بلاد الظنّينين^(١) وغيرهم من المارقين عن الطاعة وكانوا يتخطفون المسلمين ويبيعونهم من أعدائهم ويقطعون الطرق . وفي تاريخ بيروت أن سيف الدين أسندمر نائب طرابلس كان نُسب إلى مباطنة الكسروانيين فأفحش فيهم القتل لينفي عنه هذه التهمة اللاحقة به وأن الكسروانيين بادوا وتشتتوا وأقطع هذا النائب بعضهم أملاكاً من حلقة طرابلس وجازى بعضهم بالرواتب .

وفي سنة (٧٠٥) أرسل نائب السلطنة بحلب مع طشتمر مملوكه في عسكر حلب للإغارة على سيس أيضاً ، وكان ضعيف العقل قليل التدبير ، ففرط في حفظ العسكر ولم يكشف أخبار العدو واستهان بهم ، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضمت إليهم الأرمن والفرنج ووصلوا على غرة إلى طشتمر فالتقوا بالقرب من أياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق . وتمكنت التتر والأرمن منهم فقتلوا وأسروا غالبهم واختفى من سلم في تلك الجبال :

(١) جبال الظنّين على ما في تاريخ بيروت هو الجبل الذي يعرف اليوم بمجل الضنية قرب عكار.

ولم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شيء يستحق التدوين حتى سنة (٧٠٨) وقد خرج الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه إلى الحجاز ، فلما وصل إلى الكرك أمر الأمراء الذين حضروا في خدمته بالمسير إلى الديار المصرية وأعلمهم أنه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة إلى المقام بالكرك . وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبادهما بالأموار ، وتجاوزا الحد في الانفراد بالأموال والأمر والنهي ، ولم يتركا له غير الاسم فاشتور الأمراء فيما بينهم واتفقوا على أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير ، فجلس على سرير السلطنة على أن يكون سلار مستمراً على نيابتها .

وفي السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر ، ووصلوا إلى السلطان بالكرك وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته ، فأعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته ، وكذلك وصلت إليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك إلى حمان ، وهاد فرجع إلى الكرك واستمرت العساكر على طاعته وانحلت دولة بيبرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف بعد أن ساعفته الأيام ، ولم يهم أنه ستخونه الأقدار ، ولا تظنى أن ما بناه على شفا جرف هار .

ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقائهم على طاعته وولائه عاود المسير إلى دمشق فسار إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء ، فأطاعه جند دمشق وجند حماة والساحل ، وطلب نائب السلطنة الأفرم الأمان فأمنه ، ولما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار إلى مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه ذلك فجردا عسكراً ضخماً أقاموا في الصالحية بطريق مصر . ولما وصل السلطان إلى غزة قدم إلى طاعته عسكر مصر أولاً فأولاً ثم تابعت الأطلاب والكتائب ، وبويع له بالسلطنة للمرة الثالثة ، ولما تحقق بيبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وطلب الأمان وأعطاه السلطان صهيون ومئة مملوك ثم قبض عليه وقتل ، وكذلك فعل بسالار . وأكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

وفي سنة (٧٠٩) وقعت فتنة في حوران بين اليمنية والقيسية وحشدوا وبلغت

المقتلة ألف نفس وكانت بقرب السويداء. وفي سنة (٧١٠) أقام السلطان ملكاً على حماة إسماعيل بن علي الملقب بأبي الفداء وهو آخر من بقي من سلالة الملوك الأقدمين في الشام . ولولا حسن سياسة أبي الفداء ما وصل إلى هذا المنصب لأن الدور أصبح دور المماليك والدخلاء وجميع مواطن النياحة أصبح فيها ممالك السلطان أو ممالك والده أو ممالك ممالك والده ، وجميعهم مرتبون من الأبواب - الشريفة . ولم يكن كل ملك أو قيل من هؤلاء الملوك والأقيال حراً بمملكته كما زعم بعضهم ، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك في بلدان صغيرة من الشام أشبه بأصحاب إقطاعات لا يزالون في حريمهم وسلمت تحت أمر السلطان . وإذا شذت في الأحايين بعضهم وعدوا على ساطنهم فإنهم لم يخرجوا عن كونهم ولاية أو عمالاً خرجوا على السلطان ليس إلا .

الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة :

وفي سنة (٧١١) قصد قراسنقر كبير الأمراء في حلب أمير العرب مهنا بن عيسى وكان على مسيرة يومين من حلب يستنصره ، وكان في ثمانمائة مملوك على الملك وكان يريد أن يبطلش به . فركب مهنا فيمن أطاعه من أهله ، واستنصر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفاً ، وقصدوا حلب وأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقر ومن بقي من أهله ولم يتعدوا إلى سوى ذلك ودخلت سنة (٧١٥) فأرسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام ومصر إلى ملطية ففتحوها ، وسبب ذلك أن حكومتها كانت تعدي على أبناء السبيل ومن جاورها من سكان القلاع ، وأن المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى إنهم زوجوا النصراني بالمسلمة ، وثبت أنهم كانوا يطلعون التتر والأرمن على أخبار المسلمين ، ثم رجع الجيش إلى مرج دابق قرب حلب ، وترددت الرسل إلى صاحب سيس الأرمني في إعادة ما في جنوبي جيحان من البلدان وزيادة القطيعة أي الإتاوة ، فجعلها نحو ألف ألف درهم . وصدر أمر السلطان بأن لا تكون بحماة حماية لدعوة الإسماعيلية أهل مصياف ، بل يتساوون مع رعية حماة في أداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك .

وأغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتر والعرب على التراكمين

والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم ووصل في إغارته إلى قرب البيضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه إلى الشرق . وجهاز نائب السلطنة (٧١٧) بجلب هدة كثيرة من عسكر حلب وغيرهم من التركمان والعربان والطماعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا إلى آمد ونهبوا أهلها المسلمين والنصارى وبالغوا في النهب الحرام فخلت آمد من أهلها .

وظهر في جبال بلاطنس من عمل اللاذقية رجل من النصيرية وادعى أنه محمد بن الحسن العسكري ثاني عشر الأئمة عند الإمامية، وقيل: زعم تارة أنه المهدي المنتظر، وأخرى أنه علي بن أبي طالب، وطوراً أنه محمد المصطفى وأن الأمة كفره . فبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف، وهجم مدينة جبلة والناس في صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة، ووجد إليه عسكر من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه وهرب واختفى في تلك الجبال فقتل وباد جمعه ولم يعد لهم ذكر، بعد أن قتل مائة وعشرون رجلاً من رجاله .

وفي سنة (٧٢٠) تقدمت مراسم السلطان بإغارة العساكر على سيس فسار الجند الشامي من الساحل ودمشق وحماة وحلب فنازلوا قلعها حتى بلغوا السور، وغنموا منها وأتلفوا الزراعات وساقوا المواشي ونهبوا وخرّبوا . وسار جمع عظيم من العساكر الشامية والعرب في أثر آل عيسى، وكانت منازلهم في سلمية، حتى وصلوا إلى الرحبة فعانة فهرب آل عيسى إلى ما وراء الكبيسات، وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن أبي بكر، ثم رضي السلطان (٧٢٢) على الأمير فضل بن عيسى وأقره على إمرة العرب موضع محمد بن أبي بكر أمير آل عيسى . وجردت بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية إلى سيس ونازلوا اياس فهربت الأرمن منها وأخلوها وألقوا النار فيها فملكها المسلمون، وخرّبوا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر إلى بلده . وهدأت الأحوال في هذه الحقبة ولم يحدث سوى أمور طفيفة مثل قدوم مراكب فرنج جنوبية (٧٣٤) إلى بيروت، قاتلوا أهلها يومين ودخلوا البرج وأخذوا الأعلام السلطانية والمراكب . وكان السلطان يعقل بعض الخوارج عليه أو من يرى في سيرهم ما يدعو إلى الشبهة ثم يطلقهم وينعم عليهم، وربما أخرج

إهلاك من يخافهم على السلطنة مثل تنكز نائب الشام عشر سنين ثم قتله، وكان قتل خلقاً فارتاحت الناس، وما كانت أفكار السلطنة موجهة إلا إلى قتال الأرمن، فكانوا يغزون كل مرة وآخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر حلب (٧٣٥)، وكان الأرمن ملكوا مدينة سيس وطرذوا من كان بها من المسلمين فخرّبوا في أذنة وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشي وغنموا وأسروا وما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم، فلما علم أهل ايباس بذلك أحاطوا بهم عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم في خان ثم أحرقوه وقلّ من نجا، فعلوا ذلك بنحو ألفي رجل من التجار والبغاددة وغيرهم. وبعد مدة سار العسكر من مصر والشام بقيادة ملك الأمراء بحلب علاء الدين ألتنبغا إلى بلاد الأرمن (٧٣٧) ونزلوا على مينا ايباس وحاصروها ثلاثة أيام، ثم قدم رسول الأرمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا المدن والقلاع التي شرقي نهر جيحان، فتسلموا ذلك منهم وهو ملك كبير ومدن كثيرة كالمصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكار وايباس وباناس ونجيمة والتقيير وغير ذلك، فخرّب المسلمون برج ايباس الذي في البحر. قال ابن الوردي: وهذا فتح اشتمل على فتح، وترك ملك الأرمن جسداً بلا روح.

وفي سنة (٧٤٠) وقع حريق بقيسارية القواسين والكفتين وسوق الخيل من دمشق دام يومين لباليها فعدم فيها نحو خمسة وثلاثين ألف قوس وعدم الناس أموالاً عظيمة منها للتجارة ما مبلغه ألف ألف وستمائة ألف دينار وخرّبت أماكن كثيرة فوقعت التهمة على بعض كتاب النصارى وأقروا أن اثنين قدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية ومعايها وقدما نفسيهما على ذلك وأنهما يعلمان صناعة النفط فقتل أحد عشر رجلاً وأنكر صاحب مصر على نائب دمشق تنكز قتل النصارى قائلاً إن ذلك إغراء لأهل القسطنطينية.

سياسة المماليك مع أكبر عمالهم ووفاة الناصر وتولي المنصور:

كانت حكومة المماليك تكثّر من نصب الولاة وعزلهم ولا سيما في دمشق فتولي في كل وقت نائباً جديداً وربما في كل شهر، ولم تطل مدة واحد من

الولاية كما طالت نيابة تنكر فإن ولايته دامت من سنة (٧١٢) إلى (٧٤٠) قال الكتبي : وهابه الأمراء بدمشق ونواب الشام وأمن الرعايا، ولم يكن أحد من الأمراء ولا أرباب الجاه يقدر أن يظلم أحداً آدمياً أو غيره خوفاً من بطشه وشدة إيقاعه . قال : وكان الناس في أيامه آمنين على أموالهم ووظائفهم . وهو صاحب الأبنية العظيمة في دمشق وغيرها من الشام وكان ممن ينشط الزراعة ولما أخذه ملك مصر وقتله في الإسكندرية تأسف عليه أهل دمشق .

وتوفي الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٤١) بعد أن خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم، وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر، وتألم الناس لفقده لأنه أبطل المكوس وأنشأ جوامع ومدارس وكانت أيامه أيام أمن وسكينة، فتولى الملك بعده ابنه المنصور أبو بكر وكان تسلطن قبل موت والده . وملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث وأربعون سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً، تملك المرة الأولى بعد وفاة أخيه الأشرف سنة كاملة، والمرة الثانية بعد قتل لاجين، ومدة ملكه ثانية عشر سنين وستة أشهر واثنا عشر يوماً، والدولة الثالثة أقام بها ثنتين وثلاثين سنة وثلاثة شهور وخمسة أيام، وكان في الثالثة حاكماً متصرفاً ليس له منازع يخالف أمره بخلاف المدينين الأوليين . وشأن ابن قلاوون قليل في الملوك، لأنه ندر من يتخلى عن الملك أو يخلع من الملوك أن يعود إلى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات . ومن غريب ما وقع له أيضاً أنه تسلطن ثمانية من أولاده لصلبه، وهذا مما يعد في باب سعادة آل قلاوون .

وفي سنة (٧٤١) فتح علاء الدين أيدغدي الزراق ومعه عسكر حلب قلعة خندروس من الروم، وكانت عاصية وبها أرمن وتر يقطعون الطرقات، وفي السنة التالية (٧٤٢) بايع المنصور أبو بكر الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان وكان قد عهد إليه والده بالخلافة فلم يبايع في حياة الناصر فلما ولي المنصور بايعه بمصر وجلس معه على كرسي الملك وبايعه القضاة وغيرهم، وكان الخليفة من أولاد العباس يقيم في مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة ويبايع السلطان عند جلوسه

خلع الملك المنصور ومقتل غير واحد من إخوته الذين خلفوه :

خلع المنصور أبو بكر فاحتج عليه قوصون الناصري ولي نعمة أبيه بحجج ونسب إليه أموراً، فأخرجه إلى قوص فقتله واليها، وأقام الملك أخاه الأشرف كجك وهو ابن ثمان سنين . أي إن الخوارج على السلطنة بعد أن سكنوا بحسن سياسة الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلعه نفسه ومكثه في الكرك حتى رجع إلى السلطنة وقد أطاعه عسكر الشام ومصر، ثم عادوا يبدون نواجد الشر ويقتلون ملكهم، فقتل الملك الجديد ونصب أخوه الصبي ليكون الحكم لقوصون الناصري كما وقع ذلك في أدوار مختلفة، ثم أرسل قوصون مع قطلبغا الفخري الناصري عسكرياً لحصار أحمد بن الملك الناصر بالكرك، وسار الطنبغا نائب دمشق والحاج أرقطاي نائب طرابلس بإشارة قوصون إلى قتال طشتمر بجلب، لأن هذا أنكر على قوصون ما اعتمده في حق أخيه المنصور أبي بكر، ونهب الطنبغا بجلب مال طشتمر وهرب هذا إلى الروم، واستمال الناصر في الكرك قطلبغا الفخري، وكان ذهب لقتاله وحاصره أياماً فباعه وباع للناصر من بقي من عسكر دمشق المتأخرين عن المضي إلى حلب صحبة الطنبغا، ثم سار الفخري إلى ثنية العقاب وأخذ من مخزن الأيتام بدمشق مالاً ولما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل إليه الفخري لما قرب من دمشق القضاة، وطلب الكف عن القتال، فقويت نفس الطنبغا وأبى ذلك، وطال الأمر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخري ثم الميمنة، وبقي الطنبغا وجماعته في قليل من العسكر، فهرب الطنبغا ومن معه من القواد إلى جهة مصر، فجهز الفخري وأعلم الناصر بالكرك وقد خطب له بدمشق وغزة والقدس، فلما وصل الطنبغا إلى مصر وهو قوي النفس بقوصون تغير أمر قوصون . وكان قد غلب على الأمر لصغر الملك الأشرف، ثم قبض جماعة الأمراء على قوصون وأرسلوه إلى الإسكندرية وأهلك بها، وقبضوا على الطنبغا وحبسوه، وسافر الناصر أحمد من الكرك وعمل أعزية لوالده وأخيه، وأمر بتسمير والي قوص لقتله المنصور وخلع الأشرف الصغير، وجلس الناصر على الكرسي هو والخليفة ثم أعدم الطنبغا وغيره، وتواتر عزل الولاة والنواب بجلب، جرى كل هذا في مدة يسيرة . وجرى

في هذه السنة (٧٤٢) من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر في مئآت من السنين على رأي ابن الوردي .

ولم يصف جو السلطنة للناصر أحمد في مصر، وسافر إلى الكرك وحصنها واتخذها مقاماً له، ولما حصل بها وقتل بها طشتمر والفخري قتلة شنيعة (٧٤٣) أنقلب عليه عسكر الشام وهو بالكرك وكاتبوا مصر فخلع الناصر، وأجلس اخوه الملك الصالح إسماعيل، واستتاب آل ملك وحصر الملك الناصر بالكرك، واجتمع عليه أخوه الصالح بما أخذه من أموال بيت المال، وخرج ببيرس الأحمدي من مصر بعسكر لحصار الكرك وكذلك من دمشق، فحاصروا الناصر بالكرك ووردت المراسيم إلى الأعمال الشامية بتجريد العشران وغيرهم إلى الكرك، فذهبوا إليها سنة (٧٤٣) ووجدوا في القلعة مع السلطان أحمد خلقاً كثيراً، وقد نصبوا على القلعة في أعلاها خمسة مجانيق ومدافع كثيرة، وأغار التركمان مرات على سيس فقتلوا ونهبوا وأسروا وشفوا الغليل بما فتكت الأرمن ببلاد قرمان، وعاد العسكر (٧٤٤) المجهز إلى سيس وما ظفروا بطائل، وكانوا قد أشرفوا على أخذ أذنة وفيها خلق عظيم وأموال عظيمة وجنُمال من الأرمن، فارتشى أفسنقر مقدم عسكر حلب من الأرمن، وثبط الجيش عن فتحها واحتج بأن السلطان ما رسم بأخذها . وحاصر يلغا النائب بحلب قراجا بن دلغادر التركماني ببجل عسر إلى جانب جيحان فاعتصم منه بالجبل، وقتل في العسكر وأسر وجرح، وما نالوا منه طائلاً فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه وكانت هذه حركة رديئة من يلغا ثم أوقع دلغادر بالأرمن وفتح قلعة كابان (٧٤٦) وبعد فتحها قصد النائب بحلب أن يستنيب فيها من جهة السلطان فعتا ابن دلغادر عن ذلك، فجهزوا عسكراً لهدمها ثم أخذتها الأرمن . وفي سنة (٧٤٥) حوصرت الكرك ونقبت، وأخذ الناصر أحمد وحمل إلى أخيه الصالح بمصر فكان آخر العهد به، وفي هذه السنة كانت الواقعة بين أهل البقاع ووادي التيم وقتل من الفريقين خلق كثير، وأحرق ابن صبيح قرية من وادي التيم، وانقطعت السبل . وتوفي الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ابن قلاوون (٧٤٦) وجلس مكانه أخوه الكامل شعبان . وفي سنة (٧٤٧) خرج نائب الشام يلغا إلى ظاهر دمشق وشق عصا الطاعة وعاضد أمراء مصر حتى

خلع الكامل شعبان وأجلسوا مكانه أخاه المظفر أمير حاج، وسلموا إليه أخاه الكامل فكان آخر العهد به، وكان هذا الكامل شعبان سيّ التصرف يولي المناصب غير أهلها بالبذل، ويعزّهم عن قريب ببذل غيرهم، وكان يقول عن نفسه أنا شعبان لا شعبان .

وفي سنة (٧٤٨) سافر ناصر الدين بن المحسن بمسكر من حاب لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والأكراد قتل فيها من الأكراد نحو خمسمائة نفس . وفيها عزمت الأرمن على نكبة اياس، فأوقع بهم أمير اياس محمد بن داود الشيباني، وقتل من الأرمن خاقماً وأسر خلقاً، وأحضرت الرؤوس والأسرى إلى حلب واقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب وأتباعه مع أحمد فياض من الأمراء في جمع عظيم قرب ساهية فانكسر سيف الدين ونهبت أهواله، وجرى على المعرة وحماة وغيرهما من العرب أصحاب سيف وأحمد فياض من النهب وقطع الطرق ما لا يوصف، وكانت هذه الحرب ضربة قاضية على بادية حماة ففطق البدو ينهبون القرى، ويغيرون على حماة والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى . وفي هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر أمير حاج بمصر وأقيم مكانه أخوه الناصر حسن، وكان الملك المظفر قد أهلك أخاه الأشرف كجك وفتك بالأمراء وقتل من أعيانهم نحو أربعين أميراً .

أحداث وكوائن وعصيان ومخامرات :

ومن الأحداث أن نائب الشام يلبغا اليحياوي هرب فتيبه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم فقتل . وفي مصر سنة (٧٥٠) دخل جبغا نائب طرابلس مدينة دمشق في جماعة كثيرة، وكان أرغون شاه نائب الشام مقيماً بالقصر الأبلق فدخل عليه الأمير جبغا وهو نائم بين عياله وقبضه، فلما أصبح الصباح طلب جبغا القضاة والأمراء بدمشق وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب، وظنوا أن ذلك صحيح فسجنه واحتاط على موجوده، ثم وجدوا أرغون شاه مذبوحاً في السجن فشاع بأن ذلك من فعل جبغا فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه فهرب فلم يتبعه أحد من العسكر وخافوا عقبي ذلك ، وكاتب أمراء دمشق

السلطان بما وقع من جبغا فأنكر ما وقع لأرغون شاه، ورسم لأمرء دمشق أن يجاروا جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة، وحاربوه وهو في طرابلس فانكسر وقبضوا عليه وشنقوه . وفي سنة (٧٥٤) قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج إلى صيدا فقتلوا طائفة من أهلها وأسروا جماعة وقتل منهم خلق كثير وكسر مركب من مراكبهم، فوصل الصريخ إلى دمشق، فاجتمعت العساكر من صفد ودمشق وأسرعوا إلى فك الأسرى، وأخذوا من ديوان الأسرى ثلاثين ألفاً وأعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم .

وإن الخلل الذي طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عظماء السلاطين من أولاد قلاوون وسرعة قتلهم واستخلاف غيرهم من المماليك، قد سرى من شرارته شيء كثير في هذه الحقبة من الزمن، ومسألة اليجياوي مع أرغون شاه مثال منها . ومن أمثلة الخلل في تلك الدولة خروج ببيغا أروس نائب حلب عن الطاعة، وكذلك بكلمش نائب طرابلس، وأحمد نائب حماة، الطنبغا برقاق نائب صفد، ولم يبق على الطاعة إلا نائب دمشق أرغون الكاملي، فأرسل يخبر السلطان في مصر بما جرى من النواب، ثم اضطر نائب الشام إلى الهرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه إلى غزة، ليعلم السلطان والأمرء بما جرى، والتف على ببيغا أروس العربان والعشائر مع العساكر الحلبية والشامية وكان معه نحو ستين أميراً لما فتح دمشق واستعرض العساكر بها ثم أرسل إلى نائب قلعة دمشق يطلب منه إطلاق أمير كان مسجوناً فيها فاعتذر عن ذلك إلا بمرسوم السلطان، وحصن القلعة تحصيناً عظيماً، وركب عليها المكاحل بالمدافع، وأرسل يقول لأهل المدينة: لا تفتحوا دكاناً ولا سوقاً ولا تبيعوا عسكر حلب شيئاً، فلما بلغ ببيغا ذلك اشتد به الغضب، وأمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ويقطعوا الأشجار، فلما سمعوا هذه المناذاة ما أبقوا ممكناً من الأذى والفساد، فنهبوا حتى النساء والبنات والقماش، وجرى على أهل دمشق من ببيغا ما لم يجر عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق .

ثم إن سلطان مصر جهز عسكراً عظيماً وجعل عليهم من أمرء الطبلخانات

والعشراوات^(١) نحو ثمانين أميراً وكان صحبته القضاة الأربعة والخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر الله فأمر بقتال جماعة ببيغا فانهزم هذا ولحق ببلاد التراكمة، وجرى بجماعته في القيود يرسفون .

وهذا السلطان هو الصالح صلاح الدين صالح وهو العشرون من ملوك الترك وأولادهم ، والثامن من أولاد الناصر محمد بن قلاوون . ثم قتل نائب حلب ببيغا ونائب طرابلس بكلمش ونائب حماة أحمد وكانوا هربوا إلى التركمان . وخلع السلطان على أرغون الكاملي واستقر به نائب حلب وجرى أرغون إلى قراجا بن ذي القدر أمير التركمان في مرعش وحواليها ، وذنبه أنه وافق ببيغا أروس على العصيان ، فلما وصل إليه أرغون هرب منه فتبعه إلى أطراف الروم فقبض عليه وأرسله إلى السلطان بمصر فسمره على جمل .

وفي سنة (٧٦٠) توجه بيدمر الخوارزمي نائب حلب إلى سيس وحاصر أهلها فطلبوا منه الأمان فتسلمها وكذلك المصيصة ، وفتح في تلك السنة عدة قلاع ثم رجع إلى حلب . وفي سنة (٧٦٢) أظهر بيدمر الخوارزمي نائب الشام العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الأخبار وخرج قاصداً الشام ، ولما بلغ دمشق أرسل له أماناً فقبض عليه وقيده .

وفي سنة (٧٦٥) جاء الفرنج إلى قلعة اياس وحاصروها فخرج إليهم نائب حلب فلما سمعوا به رحلوا عنها ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرس وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاءوا في مائتي مركب حربي إلى طرابلس ، وكان النائب غائباً عنها فطمعوا في أخذها ثم خرج إليهم بعض عسكرها فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها من المسلمين نحو ألفي إنسان فقاتل الأهلون الفرنج وكسروهم فرحلوا عن طرابلس .

(١) الطبلخانات : من الرتب العسكرية وظيفتها الضرب بالآلات الموسيقية . وكان عدة من في هاب السلطان منهم أربعين أميراً ، وبخدمة كل واحد منهم أربعون مملوكاً ، ولهم الطبول الصغار والزمارات والأبواق .

وفي سنة (٧٦٧) عصا على السلطان نائب دمشق بيدمر واجتمع إليه مقدمو البلدان فأرسل السلطان إليه جيشاً وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتله . وفي سنة (٧٧١) تشاجر الأمير جبار من آل الفضل ونائب حلب طشتمر المنصوري فخرج هذا بالعساكر الحلبية وقاتل الأمير جبار فقويت العربان على نائب حلب فقتل في المعركة .

مقتل الأشرف شعبان والأحداث بعده :

وفي سنة (٧٧٨) قتل في القاهرة الأشرف شعبان ، قال ابن إياس : وكان من محاسن الزمان في العدل والحلم وكان ملكاً هيناً ليناً محباً للناس منقاداً للشيعة محسناً وكانت الدنيا في أيامه هادئة من الفتن والتجاريد إلى الديار الشامية فساد العرب وساس الناس أحسن سياسة . وتولى الملك بعده ابنه الصالح أمير حاج وله من العمر نحو إحدى عشرة سنة وهذا آخر من تولى السلطنة من ذرية بني قلاوون وبه زال الملك عنهم وقد أقامت السلطنة في قلاوون وذريته مائة سنة وثلاث سنين وأشهرأ .

وفي سنة (٧٧٦) خرج نائب حلب إلى سيس وفتحها وكانت في أيدي الأرمن . وفي سنة (٧٧٩) خامر جميع نواب الشام وخرجوا عن الطاعة فسأقت مصر تجريدة عليهم . وفي سنة ٧٨٠ خرج نائب الشام بيدمر الخوارزمي عن الطاعة وقصد الهرب إلى التركمان ببركه ورجاله فقبضه عسكر دمشق وسجنوه فأرسل سلطان مصر وأخذ منه وسجنه ثم أطلقه بعد ثلاث سنين وأعيد إلى منصبه . وفي سنة (٧٨٠) نازل الفرنج طرابلس في عدة مراكب فالتقاهم يلغا الناصري فهزمهم ، ثم أمر العسكر أن يتأخروا فطمع فيهم الفرنج وتبعوهم إلى أن أبعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزمهم وقتل منهم جمع كبير وقبض على أكثرهم وأقلع من بقي في المراكب . وثار أقبغا عبدالله (٧٨١) وجماعة معه على نائب دمشق وكان قد تجرد مع نائب حلب في عسكر البلدين بسبب التركمان ف وقعت بينهم وبين أقبغا ومن معه وقعة فكسروهم نائب الشام وهرب أقبغا إلى نغير أمير عرب الفضل . وفي سنة (٧٨٣) نهبت طائفة من التركمان بعد ضياع حلب وعاثوا وأفسدوا وعين لهم الأتابك برقوق في مصر تجريدة

وخرج إليهم ثلاثة من الأمراء المقدمين وخمسمائة مملوك فالتقوا مع التركمان وكسروهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ونهبوا أموالهم وطردهم إلى ملطية .

وفي سنة (٧٨٤) حضر إلى القاهرة رسول صاحب سيس ومعه كتاب يخبر فيه أن الأرمن مات كبيرهم فأمروا عليهم زوجته فحكمت فيهم مدة ثم عزلت نفسها ، فانفق رأيهم أن يفوضوا أمرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم ، فانتقى لهم ملك مصر أحد الأسارى الأرمن ممن يسكنون ظاهر القاهرة ويبيعون الخمر فأخذه معهم فملكوه عليهم ، وفي السنة التالية جاءت رسل أصحاب سنجار وقيسارية وتكريت يسألون صاحب مصر أن يكونوا تحت حكمه ويخطبوا باسمه فأجيب سؤلهم وكتب لهم بذلك تقاليد وخلع عليهم . وفي هاتين الواقعتين دليل على أن صاحب مصر والشام في تلك الفترة كان أقوى من جاوره من الملوك خطب وده الأتراك والأكراد والأرمن من مجاوريه .

وفي سنة (٧٨٥) وقعت بين قبلاي نائب الكرك وخاطر أمير العرب بها مقتلة عظيمة فانكسر قبلاي . وفيها نازل الفرنج بيروت في عشرين مركباً فراسلوا نائب الشام فتقاعد عنهم واعتلّ باحتياجه إلى مرسوم السلطان فقام إينال اليوسفي فنأدى الغزاة في سبيل الله فنفر معه جماعة فحال بين الفرنج وبين البحر وقتل بعضهم ونزل إليه بقية الفرنج فكسروهم وقبض من مراكزهم ستة عشر مركباً . وكان الفرنج دخلوا صيدا فوجدوا المسلمين قد بدأوا بهم فخبأوا أموالهم وأولادهم بقرية خلف الجبل فوجد الفرنج بعض أمتعتهم فنهبوها وأخذوا ما وجدوا من زيت وصابون وأحرقوا السوق وقصدوا بيروت فتداركهم المسلمون وانكسر الفرنج ثم عادوا إلى مباحلة بيروت فتتقظ لهم أهلها فحاربوهم .

وفي سنة (٧٨٥) وقعت فتنة بين نعيم بن مهنا أمير العرب وابن عمه عثمان ابن قارا، فساعد يلبغا الناصري عثمان فكسر نعيم ونهبت أمواله . وفيها سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وبعض الشامية إلى جهة التركمان، فنازلوا أحمد بن رمضان التركماني عند الجسر على الفرات فكسر التركمان وأسر إبراهيم

ابن رمضان وابنه وأبوه، فوسطهم يلبغا الناصري، ثم تجمع التركمان وواقعوا الناصري عند أذنة فانكسر العسكر وقلعت عين الناصري وجرح ثم تراجع العسكر ولم يفقد منه إلا العدد اليسير، فطردوا التركمان إلى أن كسروهم فغدر التركمان بنائب حماة وبيتوه فانهزم ثم ركب يلبغا الناصري فهزمهم .

وفي سنة (٧٨٧) توجه نواب الشام إلى قتال التركمان فانكسر العسكر وفتك فيهم التركمان وقتلوا سودون العلائي نائب حماة وغيره . وكان السلطان أمر نواب الشام بالتوجه إلى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركمان فوصلوا إلى طيون بين مرعش وابلستين فالتقى بهم سولي فقتل سودون نائب حماة في المعركة وكذا سودون نائب بهسنى فشق ذلك على السلطان ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل أخاه .

سلطنة برقوق وحالة المماليك البحرية والشراكسة :

دخل الهرم في دولة الأتراك المصرية وزاد فساد العربان في البلدان، وخامر غالب النواب في الشام وخرجوا عن الطاعة، فاجتمع الأتابك برقوق متولي الأمر والقضاة مع الخليفة وسائر الأمراء في مصر فرأوا الحاجة ماسة إلى سلطان كبير تجتمع عليه الكلمة ويسكن الاضطراب فتكلم القضاة الأربعة مع الخليفة في سلطنة الأتابكي برقوق فخلعوا الملك الصالح أمير السلطنة وسلطنوا الأتابك برقوق (٧٨٤) وهو أول ملوك الشراكسة بمصر والشام .

وكانت هذه الدولة التركية الشركسية عجباً في ضعف الإدارة وقيام الخوارج لأن الملك على الأكثر كان ضعيفاً يُنزله عن عرشه كل من عصا عليه، واستكثر من المماليك وقدر أن يتسلط على عقول السذج من العربان وأرباب الدعارة والطمع من الناس « والمماليك السلطانية الذين جرت العادة على أنهم يفعلون الأمور المشهورة عنهم من أخذ أموال الناس وهتك حریمها » . والقاهرة لا شأن لها بعد أن يتقاتل المتقاتلون على الملك أو يقاتل القواد العصاة ويظفر أحد المتنازعين على السلطنة، أو الأمير الذي وسد إليه اجتثاث دابر العاصي، إلا أن تزين أسواقها سبعة أيام أو ثلاثة أيام على الأقل . تفعل ذلك لأقل حادث يحدث حتى ولو قبض جماعة السلطان على أحد صعايلك المماليك ممن خامر

عليه واستتبع أناساً من الغاغة . وكانت دمشق في أيام الأتراك ثم في أيام الشراكسة أخلافهم تزين سبعة أيام لأقل ظفر يقع ، فيفرح السلطان وتدق البشائر . وكان من سلاطين المماليك أهل خير تغلب عليهم الرحمة وحسن السياسة ، وكان ضعفهم آتياً من جماعتهم المماليك لأن لكل أمير منهم جوقه يتفانون في حبه إذا تغلب عليه خصمه سجنهم أو أقصاهم أو نكبهم ، فلا يزالون يعملون على إثارة الخواطر حتى يطلق سراحهم ثم يعودون إلى ما نهوا عنه وهكذا دواليك . والأمة من أجل هذا تخرب ديارها ، وتهلك أبنائها وتذهب أموالها وعروضها ، حتى يسعد الطالع أحد المتخاصمين فيتغلب على من يريد التغلب عليه . وهناك خليفة في مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد ، ويبايعهم يوم تنصيبهم ، وربما سجنوه وأقصوه عن أنظار الأمة إذا شعروا بأن هواه مع غيرهم أو يمكن أن يكون كذلك : اتخذوه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من سلاطين السلجوقيين والبويهيين وغيرهم في بغداد .

وقائع تيمورلنك

« من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣ »

بداة تيمورلنك ومناوشة جيشه :

بينما كانت أمور الدولة في الشام ومصر مختلة معتلة، لا تستقر على حال، والمتوثبون على السلطنة يكثرون ويقلون بضعف الملك وقوته، جاء تيمورلنك من الشرق، بجيوش جرارة لا قبل للمالكين زمام الأمر بدفعها فأصبح الشام بين عدوين داخلي وخارجي، كما أصبحت في أواسط القرن السابع بين عدوين أحدهما من الشرق وهم التتر والآخر من الغرب وهم الصليبيون. وتيمور هو ابن ترغاي بن أبغاي مؤسس مملكة المغول الثانية، ومعنى تيمور الحديد والملك الأعرج أو الكسيح بلغتهم. سُمي بذلك لأن راعياً ضربه فيما قيل بسهم في فخذه أدخله به في زمرة العرجان، وفي رواية أنه أصيب بسهم في الحرب في صباه. ولد تيمورلنك في قرية خواجه أيلغار من أعمال كش من مدن ما وراء النهر سنة (٥٧٣٧ هـ / ١١٣٦ م) ومات في اوترار سنة (٨٠٧ - ١٤٠٥) بينما كان ذاهباً لفتح بلاد الخطا في الصين وجيء به إلى سمرقند فدفن فيها.

وكان تيمورلنك يمتُّ بقرابة بعيدة إلى آل البيت المملوكي من المغول ذرية جنكيز خان، وذلك من جهات الأمهات لا الآباء، ورأس أبوه قبيلة برلاس التركية وحكم ولاية كش وقد تيم صغيراً وسلبه جيرانه إمارته، فتوسل تيمور إلى أمير كشغر ملك الجغتاي فأنعم عليه بولاية ما وراء نهر جيحون، ثم نزع يده من يد أمير كشغر وانضم إلى عمه حسين، ولما ماتت زوجته، وقيل إنه هو الذي قتلها بيده، أصبح تيمور في حلٍّ من أمره وداهم حسيناً وتغلب عليه واستولى على بلخ فأصبح ملكاً على بلاد الجغتاي كلها،

ولما استولى على ما وراء النهر وفاق الأقران تزوج بنات الملوك فزادوه في ألقابه كوركان « وهو بلغة المغول الختن » وكان عهد تيمور كله عهد حروب وفظائع يقتل الناس بالألوف وعشرات الألوف ، إذا لم يخضعوا لسلطانه في الحال قال السخاوي : وكان يقرب العلماء والسمراء والشجعان والأشراف ويتزلمهم منازلهم ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه ، فكانت هيئته لا تدانى بهذا السبب ، وما أخرب البلاد إلا بذلك ، فإنه كان من أطاعه من أول وهلة أمين ، ومن خالفه أدنى مخالفة وهى ، أنجد تيمور أحد الخانات على اوروس خان ملك قسم من روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان وهرات وطوريس وقارص وتفليس وشيراز وأصفهان وكشغر ومازندران والعراق بأسره ، وخرّب حفيده محمد بولونيا وروسيا ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها وفتح أفغانستان وجلب من الهند إلى مملكته المهندسين والنقاشين . ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (٨٠٥) وغلبه . وباستيلائه على لإزمير اضطر امبراطور القسطنطينية أن يؤدي إليه الجزية .

هذا الفاتح خرب عاصمتي الشام حلب ودمشق ، وكم خرب من مدن عامرة في آسيا ، وكان ملوك أوربا يخافونه وكثيراً ما أرسلوا الوفود لتنهئته بانتصاراته . هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته المشتومة إلا بأسباب أوجدها النواب والأمراء والملوك على الأرجح ، فقد كان ذكر ابن حجر في حوادث سنة (٧٩٨) : أن اطمش قريب تيمورلنك قبض عليه قرا يوسف التركماني صاحب تبريز وأرسله إلى الظاهر فاعتقله ، فكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب في حركة تيمورلنك إلى الديار الشامية . وقال في حوادث سنة (٧٩٩) وصلت كتب من تيمورلنك فعوقت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم إلى القاهرة ومضمونها التحريض على إرسال قريبه اطمش الذي أسره قرا يوسف ، فأمر السلطان اطمش المذكور أن يكتب إلى قريبه كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه من الخير والإحسان بالديار المصرية ، وأرسل ذلك السلطان مع أجوبته ومضمونها إذا أطلقت من عندك من جهتي أطلقت من عندي من جهتك والسلام .

فالتأمون بالأمر هم الذين فتحوا لتيمورلنك السبل للغزو فيما بعد ،

غزوة أذلت العزيز وأفقرت الغني وخربت العامر . قال ابن حجر أيضاً :
لما رجع تيمورلنك إلى الشرق وكان هذا دأبه إذا بلغه عن مملكة كبيرة وملك
كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها إلى أن يحصل مقصوده فيتركها بعد أن
يخربها ويرجع ، فعل ذلك بالمشرق كله وبالهند وبالشام وبالروم .

أرسلت مصر في سنة (٧٩٠) عسكرياً على تيمورلنك في سيواس فانكسر
عسكر تيمورلنك وهذه الواقعة من الوقائع الأولى بين تيمورلنك وعسكر الشام.

القتال على الملك

خامر يلبغا الناصري نائب حلب (٧٩١) وخرج عن الطاعة وقتل سودون
المظفري نائب حلب قبله، وأمسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من أمراءها،
وأظهر يلبغا العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من مماليك الأشرف شعبان ،
وكان من جملة من التف على يلبغا تمربغا الأفضلي المدعو منطاش مملوك الظاهر
برقوق، وعهد سلطان مصر إلى إينال أتاك العساكر بدمشق ليكون نائب
حلب وحلف السلطان الأمراء من الأكابر والأصاغر بأن يكونوا معه على
يلبغا الناصري فحلفوا على ذلك جميعهم، وأرسل إلى يلبغا تجريدة .

وانتشب القتال بين أمراء الغرب التنوخية وبين عشيران البر أهل كسروان
والأمراء أولاد الأعمى، وكان التنوخية ميالين إلى الملك الظاهر والكساروة
مع أرغون نائب منطاش في بيروت، فاستظهر أهل كسروان على أمراء الغرب
وقتلوا منهم نحو ٩٠ نفرأ وأمسكوا جماعة فسمروا بعضهم ووسطوا آخرين
وأحرقوا عدة قرى من الغرب وتلقبوا بعشيران البر . ثم إن العساكر الظاهرية
زحفت على تركمان كسروان وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل فقتلوا
منهم جماعة كثيرة، ولما استولى كمشبغا على قلعة حلب عمر أسواق هذه المدينة
أحسن عمارة في أسرع وقت وكانت من وقعة غازان خراباً، فلما انتصر
كمشبغا على أعدائه قتل غالب أهل محلة بانقوسا وكانوا زيادة على أربعة
آلاف نفس وقتل كبيرهم أحمد بن الحرامي وخربها إلى أن جعلها دكاً .

عوامل الخراب قيس ويمن :

ذكر الأسدي أن السبب في خراب الشام في القرن الثامن انتشار الشرور

بين قيس ويمن ووقوع الحرب والقتال بينهم، والسبب في ذلك تغيير العوائد والتدليس على الملوك والحكام وولاة الأمور، بالإغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل، والعسف في الحكم والميل مع القوي، وإنهاك الضعيف وعدم رد لفة الملهوف، ومع تغيير العوائد وقع التحاسد بينهم فاضطر كثير من أهل الزرع والضرع إلى التمرد والتشرد وتسلطت العربان والعشران^(١) وتراكت الأهواء ووقع التحاسد والإغراء، فنهبت الأموال وقتلت الرجال وتخلت العشائر وعظمت الفتن بين القبائل، وجلا أهل الزرع والضرع من الفلاحين عن أراضيهم فأوجب ذلك الخراب في كثير من أرجاء الشام، وصارت دمناً يشهد لذلك الديوان من أسماء القرى التي صارت مزارع وتسمى بالخراب الدائر، والموجب لهذا جميعه سوء التدبير مع نقص القوة ونقص سنة العدل، إلى أن صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشران، وصار الأعيان منهم يظهرون الطاعة للسلطان ويبطنون المخالفة والعصيان، ويستخرجون الأموال بالظلم والطغيان، ويرضون ببعضها من له في الدولة سلطة، وبما يحملونه للأعوان من الهدايا والأموال، فيسعى لهم ويلبسون التشاريف المملوكية بين يدي الملك والأمير والسلطان، فيصير كل واحد منهم في بلده وإقليمه إذا عاد إليه ذا قوة وسلطان، وسطوة وأعوان، وإقطاعات ونعم وديوان .

قلنا : وهذا الاختلاف الدائم بين قيس ويمن كان يقوى ويضعف بحسب الوازع ، فإذا وفقت الديار إلى حاكم يسوي بينهم ويعدل فيهم تسكن نعمة القيسي واليماني ، وإلا فيتقاتلون ويخربون العمران ويقتلون الإنسان . وكانت هذه النعمة شديدة في أرض دون أخرى من أرض الشام ، فقد كانت في القديم في حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا : « أذلُّ من قيسي بحمص » وذلك أن حمص كلها لليمن ليس بها من قيس إلا بيت واحد . ثم كانت ترى آثارها في حوران ولبنان وربما انتقلت نعمتها من حوران منذ جلاء كثير من الأسر المسيحية إلى جبل لبنان وبقيت في هذا الجبل إلى القرن الماضي ثم اضمحلت .

(١) العشران : جمع عشير أطلق في الشام على بعض القبائل التي سكنت في البقاع وجبل لبنان . قال المقرئزي : عشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط ، وفي كل مرة يثور بعضهم على بعض .

وفي هذه الأثناء ركب عسكر طرابلس على النائب وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة، وركب مماليك نائب حماة مع عسكر حماة وأرادوا قتله فهرب إلى دمشق، فوقعت الفتنة . ولما تحقق برقوق أن المملكة افتتنت خاف وأمر نائب القلعة بمصر بأن يضيق على الخليفة ويمنعه من الاجتماع بالناس، وكان مسجوناً بالقيود في برج القلعة، وأصدر أمره بالتضييق على السادة أولاد السلاطين في دور الحرم، ووصلت التجريدة من مصر إلى دمشق والتقى عسكر مصر مع عسكر يلغا الناصري فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم وقتل من الفريقين كثيرون، فانكسر عسكر السلطان وانتصر عليهم يلغا، ثم جيش يلغا وساق جيشه إلى مصر فالتف أكثر أمراء مصر عليه وقاتل قليلاً حتى اضطر السلطان برقوق إلى ترك سرير السلطنة وأعيد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان سلطاناً على مصر والشام، وأخذ الظاهر برقوق إلى قلعة الكرك فسجن فيها ثم انتدبوا لقتله رجلاً فقتل الرجل، واستولى برقوق على القلعة بعد أن قاسى من المحن أمراً عظيماً، وأتاه مماليكه الذين كانوا بقوص وقتلوا واليها والتحقوا به، والتف عليه العربان وقصد دمشق فجاءه نائب غزة في خمسة آلاف مقاتل فأوقعوا مع الظاهر برقوق واقعة عظيمة انكسر فيها نائب غزة، فنهب عسكر برقوق عسكر غزة فتقووا بتلك الغنيمة، وكان الظاهر كلما مر بقرية يخرج إليه أهلها ويلاقونه ومعهم العلف والضيافة، ولما بلغ برقوق قرية شقحب خرج إليه عسكر دمشق فتقاتلوا فقتل من أمراء دمشق ستة عشر أميراً، ومن المماليك نحو خمسين مملوكاً، وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

وصادف أن خرج عن الطاعة كمشبغا الحموي نائب حلب واستولى أبناء اليوسفي على قلعة صنفد وهو من جماعة الظاهر فقويت شوكته ودخل الظاهر برقوق دمشق، ونزل في الميدان فكبس عليه أهل دمشق وأخرجوه من المدينة إلى ظاهر البلد، لأن بعض مماليكه عبث ببعض السوقة وأخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوتي فحضر إليه جماعة وتعصبوا له فاستطال ذلك المملوك وضربهم فرجمه أهل دمشق، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب، وتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاييع،

فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق ومن معه من الأمراء وخرجوا من دمشق إلى قبة يلبغا فدخل العوام إلى الميدان ونهبوا برك برقوق وأغلقت أبواب دمشق ، وكان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق وراج أمره فتعطل بسبب ذلك .

ثم جرد المنصور أمير حاج عسكرياً من مصر وجاء الشام ليتزع الملك من برقوق ، فلما وصل العسكر إلى غزة تسحب أكثر عسكر المنصور إلى برقوق لأن هواهم كان معه ، ووقعت بين عسكر المنصور وعسكر الظاهر وقعة شقحب (٧٩٢) فانكسر برقوق كسرة قوية وهرب برقوق في نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى إليه بعض العرب وأخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، وكان على يوم من دمشق فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر وكانوا نحو أربعين إنساناً فدُعر عسكر المنصور وغُلت أيديهم عن القتال ، فنزل عليهم برقوق كالباز على الطائر واحتوى على كل ما معهم من البرك والأثقال والقماش والسلاح وخزائن المال ، وتسامع بذلك الناس فجاءوا إليه أفواجاً من كل مكان ، وبلغ ذلك منطاش وحضر ومعه عساكر دمشق وغيرهم فوقعت بينهم واقعة أعظم من الواقعة الأولى وقتل بها كثير فانكسر الأتابكي منطاش وعسكر دمشق فولوا هارين وأقام برقوق بمنزلة شقحب ، ثم إن شخصاً من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين الظاهر برقوق وبين المنصور حاج في أن يخلع هذا نفسه ويسلم الأمر إلى برقوق ، فأجاب المنصور إلى ذلك ، وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وخلع نفسه من الملك وأشهدوا عليه بذلك . فبايع الخليفة والقضاة الظاهر برقوق بالسلطنة وذلك بمنزلة شقحب ثم رحل إلى مصر فدخلها بلا منازع ، وكان مماليكه قد وطدوا له الأمن قبل وصوله وخطبوا له على المنابر فعاد واستولى على مصر والشام . وبرقوق هو الذي قرض جيش المماليك البرجية .

الخوارج على ملوك مصر :

وملك منطاش (٧٩٢) مدينة بعلبك والتف عليه جماعة من عسكر دمشق

وصفد وطرابلس ومن عربان جبل نابلس ونهب عدة ضياع ، وأرسل منطاش شخصاً يسمى تمان تمر الأشرفي إلى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كمشبغا الحموي قد ثقل أمره على أهل حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة وتعصبوا لمنطاش فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشبغا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر ، فانتصر كمشبغا نائب حلب على تمان تمر الأشرفي الذي ولأه منطاش على حلب فانكسر تمان تمر وولى هارباً ثم توجه منطاش إلى طرابلس فحاصرها حتى ملكها وهرب من كان بها من الأمراء والنائب وهرب أكثر أهلها إلى دمشق، ثم حاصر منطاش دمشق فاتفق عوامها على أن يسلموه المدينة ليلاً وكانوا يحبونه أكثر من برقوق .

فلما بلغ ذلك أمراء برقوق خرجوا إلى ظاهر دمشق وأوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة قتل فيها من الفريقين نحو ألف إنسان . ثم رجع عسكر دمشق إلى المدينة وتوجه منطاش إلى عينتاب فالتف عليه جماعة من التركمان ، فحاصر المدينة حصراً شديداً فملكها وهرب نائبها ، فلما دخل الليل جمع نائب عينتاب جماعة من التركمان وكبس منطاش فقتل من عسكره نحو مائتي إنسان وهرب منطاش نحو الفرات ، ثم إن منطاش جمع قوته وخامر على السلطان أكثر التركمان والعربان والتفوا على منطاش (٧٩٣) فتوجه إلى دمشق وحاصرها فخرج إليه نائبها فهرب منطاش إلى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء إلى دمشق فلم يجد بها أحداً من الأمراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باباً فدخل منه إلى المدينة ونهب الأسواق وأخذ أموال التجار والخيول ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته .

بلغ السلطان في مصر ما وقع في الشام فقوي عزمه على الخروج إلى منطاش في دمشق ، ونادى فيها الأمان لأن أهلها لما خرج الظاهر برقوق من الكرك ودخل مدينتهم رجموه وأخرجوه هائماً على وجهه ونهبوا أثقاله وقماشه ، فضج أهل دمشق له بالدعاء، وسكن ما كان عندهم من الاضطراب، ولما

توجه إلى حلب جاء نعيم بن جبار أمير آل فضل ونهب ضياع دمشق، وكان نعيم عاصياً على السلطان وهو من أنصار منطاش وأخرب غالب إقليم دمشق ونهب ضياعها، فلما بلغ نائب دمشق مجيء نعيم خرج إليه وأوقع معه واقعة قوية في قرية الكسوة فانكسر نائب دمشق وقتل من عسكره جماعة. أما منطاش فلما بلغه مجيء السلطان من مصر هرب إلى التركمان.

ولما عاد سلطان مصر إلى عاصمته (٧٩٤) هجم نحو خمسة عشر مملوكاً وقيل خمسة أنفس على نائب قلعة دمشق وتوجهوا نحو السجن الذي بها وأخرجوا من كان به من المحابيس من عصابة منطاش وكانوا نحو مئة مملوك، فقويت شوكتهم بالسجناء وهجموا على نائب القلعة وقتلوه وملكوا القلعة، فقاتلهم عسكر دمشق وحاصروا من بالقاعة فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم العسكر على باب القلعة وأحرقوه ودخلوا إليها وقبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم (أي قطعوهم نصفين) تحت باب القلعة وأمسكوا الثائرين فلم يبق منهم إلا من هرب.

وعاد منطاش (٧٩٤) فحاصر حلب مع التركمان فخرج إليه عسكرها وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هارباً إلى الفرات، ثم اتفق منطاش ونعيم بن جبار أمير العربان (٧٩٥) بمن معهما من العسكر وحاصروا حماة فخرج إليهم نائبها فأوقع معهم واقعة قوية فانكسر نائب حماة وهرب، فدخل منطاش ونعيم إلى المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا أموال التجار، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو في عساكر حلب وكبس على بلاد نعيم ونهب أمواله وأخذ أولاده ونساءه وأحرق بيوته وقتل من عربانه كثيراً، فأرسل نعيم يطلب من نائب حلب أولاده ونساءه الذين أسرهم فأرسل نائب حلب يقول له: ما أطلق لك أولادك ونساءك حتى تسلمنا منطاش. وكان منطاش قد تزوج من بنات نعيم واستنسل منهم. فلما رأى نعيم أن السلطان ونائب حلب عليه وقد نهبوا أمواله ومواشيه وأسروا أولاده ونساءه، قصد أن يرضي السلطان بإمساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه في حق السلطان، فندب نعيم إلى منطاش أربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع في أيديهم أخرج من تكته خنجراً شق به بطنه فغشي عليه فحملة العبيد وأتوا به إلى نعيم فقيده وأرسله إلى نائب

حلب ثم حمل إلى القاهرة، وجعل الموكل بحمله يعاقبه ويعصره ويقمره على الأموال التي غصبها فلم يقر بشيء، ودخل عليه التزع فقطع رأسه ووضعه في علبة وحمله إلى السلطان في مصر ثم أرسل السلطان إلى نعيم خلعة وأقره على عادته أمير آل فضل.

قال ابن إياس، وعنه أخذنا هذه الحوادث: فما صدق الناس بأن فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى، فوردت الأخبار بأن تيمورلنك أخذ تبريز وشيراز، وركب برقوق إلى الشام وجاءه في حلب قاصد من عند ابن عثمان ومعه مطالعات مضمونها أن يكون هو والظاهر يداً واحدة على دفع تيمورلنك فأجابه الظاهر إلى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره، ثم حضر إليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه الظاهر كما أجاب ابن عثمان. فلما أقام الظاهر بحلب بلغه أن أعلام عسكر تيمورلنك قد وصلت إلى البيرة. ثم بلغه أن تيمورلنك رجع إلى مملكته، فلما تحقق ذلك عاد هو إلى مصر. وفي سنة (٧٩٩) أخذ عسكر تيمورلنك مدينة أرزنجان وقتل أهلها ونهب ما فيها، فلما بلغ سلطان مصر والشام ذلك أرسل إلى نوابه في الشام أن يتوجهوا إلى شاطئ الفرات فخرجوا كلهم وأقاموا هناك، وكانت أرزنجان من جملة الأصقاع التي خطب بها للملك الظاهر برقوق كما خطب له في تبريز والموصل وماردين وسنجار ودوركي، وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن.

وفي سنة (٨٠١) تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان سكان مصر والشام ووصلت طلائعه إلى الأبلستين، وهو قاصد حلب فوقع الاتفاق في مصر على محاربتة والخروج عليه، وأن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو، ثم ظهر أن ابن عثمان وصل إلى ملطية وملكها ولم يشوش على أحد من أهلها وأمر عسكره بأن لا يتهبوا لأحد من الرعية شيئاً، فأقام بملطية أياماً ثم رجع إلى مملكته فبطل أمر التجريدة عليه.

وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك :

وفي سنة (٨٠١) توفي الظاهر برقوق وتولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج

وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام ، كثر طمع القريب والبعيد في اكتساحها . وكان من ذلك الحظ الأكبر لتيمورلنك حتى إنه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح وأعطى من بشره بذلك خمسة عشر ألف دينار، وتهايا للمسير إلى الشام فجاء إلى بغداد وأخذها ثانية .

وفي سنة (٨٠٢) خامر نائب الشام وأظهر العصيان وأطلق من كان مسجوناً من الأمراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب وكان اسمه تم عسكراً عظيماً من الشام وقصد نحو الديار المصرية ووصل أوائل عسكره غزة، فجيش الملك الناصر فرج وسار إلى الشام، فلما وصل كان أقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو ونائب حماة ونائب صفد إلى قتال الملك فدهش النواب، فكان أول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان - وكان مع تم نائب الشام نواب طرابلس وحلب وحماة وصفد وكثير من العربان وظن نفسه أنه أصبح سلطاناً - خامر الجميع على تم نائب الشام وتوجهوا إليه في غزة فملك السلطان غزة وبلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو وبقية الأمراء وأتوا إلى الرملة فصار السلطان في غزة وهم في الرملة، فراسلهم السلطان في الصلح فأبوا فتلقى العسكران على مكان يسمى الحبطين فكان بينهم وقعة عظيمة كُسر بها تم وأمسك واحتاطوا على بركه ودوابه، وقبض الناصر فرج على جملة من الأمراء الذين خامروا عليه وقيدهم وحبسهم في قلعة دمشق . ودخلها في موكب عظيم وقدامه تم نائب دمشق . وهو مقيد راكب على كديش أبلق ومعه عشرة من أمراء دمشق وهم في قيود فحبسهم في القلعة، ثم قتل وخنق عدة أمراء منهم .

الحرب الأولى مع تيمورلنك :

وفي هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمورلنك في وقعة صاحب بغداد القان أحمد بن أويس وقرا يوسف أمير التركمان ، فلما انكسر التتر أتوا ملطية وكانوا نحو سبعة آلاف إنسان فأرسلوا إلى نائب حلب يقولون له عين لنا مكاناً ننزله، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماة فتوجهوا إلى عسكر تيمورلنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة وقتل من عسكر

حلب جماعة فأمر السلطان نواب دمشق وصفد وطرابلس بأن يجمعوا العساكر ويتوجهوا إلى حلب يقيمون بها ، فأرسل تيمورلنك إلى دمرداش نائب حلب بعده بأن يبقيه على نيابته بشرط أن يمسك سودون نائب الشام، فأطلع دمرداش على ذلك سودون فوثب على الرسول فضرب عنقه، فلما بلغ ذلك تيمورلنك نازل حلب، ولكن تيمورلنك إذا تظاهر الشراكسة بالقوة أمامه يعرف ما تندمج عليه نفوسهم وتصل إليه قرائحهم، وإذا انكسر له فيلق صغير لم يكن إلا على أتم المعرفة بما عند من يريد فتح ديارهم، وكان له جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها، فكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه بجميع ما يروم، فلا يتوجه إلى جهة إلا وهو على بصيرة من أمرها، وبلغ من دهائه أنه كان إذا أراد قصد جهة جمع أكابر الدولة وتشاوروا إلى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني إلى الجهة الفلانية، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة حذرهما ويأمن غيرها، فإذا ضربوا النفير وأصبحوا سائرين ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين، فإلى أن يصل الخبر الثاني يكون دهم هو الجهة التي يريد وأهلها غافلون .

وذكر ابن حجر أنه كان ابتداء حركة تيمورلنك إلى البلاد الشامية في سنة اثنتين وثمانمائة . وأصل ذلك أن أحمد بن أويس صاحب بغداد ساءت سيرته وقتل جماعة من الأمراء وعسف على الباقين، فوثبوا عليه فأخرجوه منها، وكتبوا نائب تيمورلنك بشيراز أن يتسلمها فتسلمها، وهرب أحمد إلى قرا يوسف التركماني بالموصل فسار معه إلى بغداد فالتقى به أهل بغداد فكسروه، واستمر هو وقرا يوسف منهزمين إلى قرب حلب، وقيل بل غلب على بغداد وجلس على تخت الملك، ثم صار صحبة قرا يوسف فوصلا جميعاً إلى أطراف حلب وسألا أن يطالع السلطان بأمرهما فكاتب أحمد بن أويس يستأذن في زيارته مصر، فأجيب بتفويض الأمر إلى النائب فخشي دمرداش نائب حلب أن يقصد هو وقرا يوسف حلب فسار نائب حلب ومعه طائفة قليلة منهم نائب حماة ليكبس أحمد بن أويس بزعمه، فكانت الغلبة لأحمد فانكسر دمرداش وقتل من عسكره جماعة، ورجع منهزماً وأسر نائب حماة وفدي بستمائة ألف درهم، ثم جمع نعيم والنائب ببهنسي جماعة والتقوا مع أحمد بن أويس

فكسروه واستلبوا منه سيفاً يقال له سيف الخلافة وصحفاً وأثناً كثيرة . فوصلت الأخبار الى القاهرة فسكن الحال بعد أن كان أمر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمر داش وأرسل بريدياً إلى الشام بالتجهيز الى حلب .

تيمورلنك على أبواب حلب :

وصل تيمورلنك بعد فتح عنتاب إلى الباب وبزاعا بالقرب من حلب وأرسل إلى نائب حلب قاصداً ومعه المكاتبات من تيمورلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب . وذكر ابن حجر أن كتاب تيمورلنك إلى نائب حلب جاء فيه : إنا وصلنا في العام الماضي إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعني الظاهر، وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم فأظفرونا الله تعالى بهم، ثم رجعنا إلى الكرج فأظفرونا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبي ابن عثمان فأردنا عرك أذنه فشغلنا بسواس وغيرها من بلاده ما بلغكم، ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبتنا أطلمش وإن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم والسلام .

حق نائب حلب وأمر بضرب أعناق قصاد تيمورلنك، فاضطربت عند ذلك أحوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين، وقد ارتكب نائب حلب خطأ فاحشاً بقتل الرسول، ظاناً وجماعته من الحلبيين أن لهم قوة تقاوم قوة تيمورلنك . قال بعض المؤرخين : لما كان أهل حلب وصاحبها يتشاورون في دفع عادية تيمور عنهم قال نائب طرابلس : إننا نظير إلى الآفاق أجنحة البطائق إلى الأعراب والأكراد والتراكمة فيتسلطون عليه من الجوانب . وفي ذلك دليل آخر على جهل أمراء الشام بقوة تيمورلنك وعجزهم عن كشف أخبار جيوشه وتقدير مبلغ قوته . وذكر بعض المؤرخين أن عسكر تيمورلنك كان لما أسر سلطان العثمانيين أربعمائة ألف فارس وستمائة ألف راجل وقيل : إن ديوان تيمور اشتمل على ثمانمائة ألف مقاتل .

لما بلغ تيمورلنك ما فعله الحلبيون بقصاده زحف إلى قرية حيلان وأحاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع فخرج عساكر حلب وسائر النواب

بعساكرهم ، وخرج لقتال تيمور حتى النساء والصبيان من أهل حلب ، وأوقعوا مع تيمور فكان بينهم ساعة تشيب منها النواضي ، وقد دهمتهم عساكر تيمور كأمواج البحر المتلاطمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين إلى المدينة ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وكان احتفى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والأطفال ، فدخل التتر إليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال وأسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الأبقار تفتض في المساجد وآبأوهن يشاهدونهن ، ولم يرعوا حرمة الجوامع وأصبحت كالمجزرة من القتل واستمر ذلك أربعة أيام .

وفي كنوز الذهب أن جيش تيمورلنك لما دخل إلى حلب نهب وأحرق وسبي وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها ويفعلون بها ما لا يليق ذكره ، فلجأ النساء عند ذلك إلى جامعها ظناً منهن أن هذا يقينهن من أيدي الكفرة وصارت المرأة تطلي وجهها بطين أو بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها ، فيأتي عدو الله إليهما ويغسل وجهها ويجامعها في الجامع . قال : وحكى بعض من حضر الوقائع بأن تيمور عرض الأسرى من ديار الشام ونواحيها فكانوا ثلاثمائة ألف أسير وستين ألف أسير .

رأى دمر داش نائب حلب عين الغلب فنزل من القلعة هو وبقية النواب ، وأخذوا في رقابهم مناديل وتوجهوا إلى تيمورلنك يطلبون منه الأمان ؛ فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر وألبسهم تيجاناً مذهبة ، وقال لهم : أنتم صرتم نوابي ، ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة ، وكان فيها من الأموال والذخائر والحلي والسلاح ما تعجب الفاتح من كثرته ، حتى أخبر بعض أخصائه أنه قال : ما كنت أظن أن في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ، فاستنزلوا ما كان بها وهم في قيود وغدر بهم بعد أن أمنهم ، وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والمتاع ثم خرب القلعة وأحرق المدينة . واستمر مقيماً على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الأشجار التي بها ويهدمون البيوت ، وقد أسرفوا في القتل ونهب الأموال ، وصارت الأرجل لا تظأ إلا على جثة إنسان لكثرة القتل ، حتى قيل : إنه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن ، دور كل مثذنة نحو عشرين ذراعاً ، وصعودها

في الهواء مثل ذلك، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح، وتركوا أجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش . فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من أهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين ألف إنسان، عدا من هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك - هذا ما قاله ابن تغري بردي وابن حجر وابن إياس . وقال ابن حجر : إن أعظم الأسباب في خذلان العسكر الإسلامي ما كان دمرداش نائب حلب اعتمده من إلقاء الفتنة بين التركمان والعرب حتى أعاناه بعض التركمان على أموال نغير فنهبها فغضب نغير من ذلك وسار قبل حضور تيمورلنك فلم يحضر الواقعة أحد من العرب . وقال بعضهم: إن دمرداش كان باطن تيمورلنك ما كان تيمورلنك خدعه ومناه .

تيمورلنك على حماة وسلمية وحمص :

ووصل تيمورلنك إلى حماة وسلمية فأرسل جماعة من عسكره إلى نحو طرابلس فتأهوا عن الطريق فدخا في واد بين جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين . وذكروا أن ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكره وجاء حلب بعد رحيل تيمورلنك وطرد من بها من عساكره بحلب . وفعل تيمورلنك بأهل حماة كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب وأحرق معظمها ، ولم تطل يده إلى حمص فوهبها كما قال لخالد بن الوليد . قال ابن حجر : وذكر بعض من يوثق به أنه قرأ في الحائط القبلي بالجامع الأموي النوري بحماة منقوشاً على رخامة بالفارسي ما نصه : إن الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد، فحاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتم المودة فقتلوا رسلنا، فظفرت طائفة من التركمان بجماعة من أصلنا فسجنوهم، فتوجهنا لاستخلاص قريبتنا من أيدي مخالفينا واتفق في ذلك نزولنا بحماة في العشرين من شهر ربيع الآخرة .

تيمورلنك على دمشق :

وجاء تيمورلنك دمشق فنزل عند سفح جبل الثلج (الشيخ) في قطنا وإقليم البلان

ميسنون وقوي عزمه على فتح دمشق لما بلغه أن الملك فرّ منها إلى مصر، فأرسل تيمورلنك إلى نائب دمشق رسولاً من قبله فقتله قبل أن يسمع كلامه. جرى في ذلك على ما جرى عليه نائب حلب فزاد تيمورلنك حثقاً. ومن الغريب أن نائبي حلب ودمشق لم يقدرأ قوة تيمورلنك حق قدرها وهي منهما على قيد غلوة وظنا أنهما باعتمامهما في قلعي المدينة، وبالقليل ممن عندهما من العسكر وأحداث البلدين يستطيعان أن يتغلبا على جيوش تيمورلنك المؤلفة كما قال عربشاه: من رجال توران، وأبطال إيران، ونمور تركستان، وفهود بلخشان، وصقور الدشت والخطا، ونسور المغول وكواسر الجتا، وأفاعي خجند، وثعابين أبدكان، وهوام خوارزم، وجوارح جرجان، وعقبان صغانيان، وضواري حصارشادمان، وفوارس فارس، وأسود خراسان، وضباع الجبل، وليوث مازندران، وسباع الجبال وتماشيح رستمدار وطالقان، وأهل قبائل خوز وكرمان، وطلس أرباب طيالس أصبهان، وذئاب الري وغزنة وهمدان، وأفياال الهند والسند وملتان، وكباش ولايات اللور وتيران، وشواهق الغور، وعقارب شهرزور، وحشرات عسكر مكرم وجندي سابور .

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
مع ما أضيف إليهم من أعيار الخدم، وفواعل التراكمة والأوباش والحشم،
وكلاب الزهاب من رعا ع العرب وهمج العجم، وحثالة عباد الإنسان، وأنجاس
مجوس الأمم، ما لا يكتنفه ديوان، ولا يحيط به دفتر حسابان اه.

غلطة ارتكبتها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه ومن معه من المتعصبة
والمتلصصة وأرباب الدعارة من الشطار والأحداث الأغيار، قضت على
أعظم مدينة في الأرض كانت في غابر الأيام . كان بين أهل دمشق وبين
عسكر تيمورلنك في أول يوم واقعة فقتل من عسكر تيمورلنك نحو ألفي إنسان،
فأرسل يطلب من أعيان دمشق رجلاً من عقلائهم، يمشي بينه وبين أهل
دمشق في الصلح، فلما أتى قاصد تيمورلنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن
يرسلونه فوق الاختيار أن يرسلوا القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي، فإنه
كان إنساناً طلق اللسان يعرف بالتركي وباللسان العجمي، فأرخوه من أعلى
السور بسرياق ضخمة، ومعه خمسة أنفس من أعيان دمشق، فغاب عند

تيمورلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تيمورلنك تلطف معه في القول وقال له: هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقها لهم. وشرح من محاسن تيمورلنك شيئاً كثيراً وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله ويرغبهم في طاعته، فصار أهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربتة، وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ثم غلب رأيه ورأي أصحابه، فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم: إن فعلتم ذلك أحرقت البلدة جميعها، ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم إليهم القلعة بعد ستة وعشرين يوماً قال: ثم قبض تيمورلنك على ابن مفلح وأصحابه وأودعهم في الحديد.

وصف أفعال تيمورلنك في دمشق :

ذكر ابن تغري بردي أنه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نُودي في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو، فأخذوا في ذلك فقدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها، وهموا بالهلاء فمنعوا من ذلك، ونودي من سافر نُهب فعاد إليها من كل خرج منها، وحصنت دمشق ونصبت المجانيق على قلعتها ونصبت المكاحل على أسوارها واستعدوا للقتال، ثم نزل تيمورلنك بعساكره على قطنا، فملأت الأرض كثرة، وركب طائفة منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان والأمراء قد تهيأوا للقتال، وصفت العساكر السلطانية فبرز إليهم التمرية وصدموهم صدمة هائلة، وثبت كل من العسكريين ساعة فكانت بينهم وقعة انكسرت فيها مسيرة السلطان، وانهمز العسكر الغزاوي وغيرهم إلى ناحية حوران وجرح جماعة، وحمل تيمورلنك بنفسه حملة عظيمة شديدة ليأخذ دمشق، فدفعته ميمنة السلطان بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه، ونزل كل من العسكريين بعساكره وبعث تيمورلنك إلى السلطان في طلب الصلح وإرسال أطلمش أحد أصحابه إليه وأنه هو أيضاً يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم في واقعة حلب. ثم هرب الملك لأنه بلغه أنهم يسلطون غيره في مصر فاراً بجماعته.

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القبري ممن خرج جافلاً من تيمور، ما عدا العساكر الدمشقيين الذين

تخلفوا في دمشق ولما أصبحوا وقد فقدوا السلطان والأمراء والنائب غلقوا أبواب المدينة، وركبوا الأسوار ونادوا بالجهاد، فتهايم أهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمورلنك بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى السور أشد قتالاً، وردوهم عن السور والخذق، وأسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق، وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة وقتلوا منهم نحو الألف وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة، ولما أعيا تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور الطغزات أي التسعة الأصناف من المأكول والمشروب والملبوس وغيره وهذه كانت عادته في كل بلد يفتحه صلحاً . فأجابه الدمشقيون إلى ما طلب بإقناع ابن مفلح لهم ، وتقرر أن يجبي تيمور من دمشق ألف ألف دينار ففرض على الناس فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم ، فلم يرض تيمور وقال : إن المطلوب بحساب له عشرة آلاف ألف دينار أو ألف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب . قال ابن حجر : واستقر الصلح على ألف ألف دينار فتوزعت على أهل البلد ثم رجع تيمور فتسخطها وقال : إنه طلب ألف تومان فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، ولما أخذه ابن مفلح وحمله إلى تيمور قال هذا لابن مفلح وأصحابه : هذا المال لحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار(?) وظهر لي أنكم عجزتم ، ثم سلمت أموال المصريين وكراعهم وسلاحهم وأموال الذين هربوا من دمشق ، ولما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح فأخرجوه ، فلما فرغ من ذلك ، قبض على ابن مفلح ورفقته وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحراراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ، ففرقه على أمرائه وقسم البلد بينهم فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ، ونزل كل أمير في قسمه وطلب من فيه وطالبهم بالأموال فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ، وجرى عليهم من أنواع العذاب وهتك الأعراس شيء تقشعر منه الجلود ، واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم ، ثم أمر أمراءه فدخلوا دمشق ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة ، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها ، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن ، وساقوا الأولاد والرجال

وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ، ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى كاد لهيب النار أن يرتفع إلى السحاب ، وعمت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد أن أقام ثمانين يوماً وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت أبوابه وتقطر رخامه ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق بها إلا أطفال . قال ابن تغري بردي : ولقد ترك المصريون دمشق أكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها .

قال بهاء الدين البهائي يرني دمشق المظلومة ويصف ما حلّ بها من التتر في سنة ثلاث وثمانمائة ويذكر حلب وحماة :

لھفي على تلك البروج وحسنها	حفت بهن طوارق الحدثان
لھفي على وادي دمشق ولطفه	وتبدل الغزلان بالثيران
وشكا الحريق فؤادها لما رأت	نور المنازل أبدلت بدخان
جناتها في الماء منها أضرمت	فعبجت للجنات في النيران
كانت معاصم نهرها فضية	والآن صرن كذائب العقيان
ما ذاك إلا تركهم وبلت بها	فتخضبت منها بأحمر قان
كرهت جداولها حوافر خيلهم	فتسابت هرباً كخيل رھان
خافت خدود الأرض من أفعالهم	فتلثمت بعوارض الريحان
لو عاينت عيناك جامع تنكر	والبركتين بحسنها الفتان
وتعطش المرجين من أورادها	وتهدم المحراب والإيوان
لأنت جفونك بالدموع ملوناً	دمعاً حكى اللولو على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي	فكأنهن قلائد العقيان
أبني أمية أين يئمن وليدكم	والمغل تقتل في ذرى الأركان
شربوا الخمر وبصحنه حتى انتشوا	ألقوا عرابدهم على النسوان

ومنها :

لَهْفِي عَلَى كَتَبِ الْعُلُومِ وَدَرَسِهَا
 أَعْرُوسَنَا لِكَ أَسُوءَ بِحِمَاتِنَا
 غَابَتْ بِدُورِ الْحَسَنِ عَنْ هَالَاتِهَا
 نَاحَتْ نَوَاعِيرَ الرِّيَاضِ لِفَقْدِهِمْ
 حَزَنِي عَلَى الشَّهِيَاءِ قَبْلَ حِمَاتِنَا
 لَا تَدْعِي الْأَحْزَانَ يَا شَقْرَاءَنَا
 رَتَعْتَ كِلَابَ الْمَغْلِ فِي غَزْلَانِهَا
 لَهْفِي عَلَيْكَ مَنَازِلًا وَمَنَازِهًا

صَارَتْ مَعَانِيهَا بِغَيْرِ بَيَانٍ
 فِي ذَا الْمَصَابِ فَأَنْتَمَا أُخْتَانِ
 فَاسْتَبَدَلْتَ مِنْ عِزِّهَا بِهَوَانٍ
 فَكَأَنَّهَا الْأَفْلَاكَ فِي الدُّورَانِ
 هُوَ أَوَّلُ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
 السَّبْقُ لِلشَّهِيَاءِ فِي الْأَحْزَانِ
 وَتَحَكَّمْتَ فِي الْحُورِ وَالْوُلْدَانِ
 وَمَقَامِ فِرْدُوسٍ وَبَابِ جَنَّاتِ

ثم رجع ورثي دمشق فقال :

لَمْ أَدْرِ مِنْ أَبْكِي وَأَنْدَبِ حَسْرَةَ
 لِلجِبْهَةِ الْغَرَاءِ أَمْ خَلْجَالِهَا

لِلْقَصْرِ لِلشَّرَفِينَ لِلْمِيدَانِ
 لِلْمِزَّةِ الْفِيحَا أَمْ اللُّوَانِ

الخراب الأعظم وأخلاق تيمور ونجاة فلسطين منه :

وعلى ما منيت به دمشق من قتل سكانها وسبي نساها وأولادها ، وإحراق مصانعها وبيوتها ، واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها من تيمور مصيبة لا تقل عن تلك في إرجاعها القهقري وإضعافها إضعافاً لا يجبر كسره في قرون وإليك ما قاله ابن عربشاه في تفصيل هذا الهول العظيم : وبينما كان رجال يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو يتطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع ، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام ، وارتحل وجماعته وقد أخذ من نفائس الأموال فوق طاقتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأصبحت القفار والبراري ، والجبال والصحاري ، من الأمتعة والأقمشة ، كأنها سوق الدهشة ، وكأن الأرض فتحت خزائنها ، وأظهرت من المعادن والفلزات كامنها ، وأخذ تيمور كل ما هر في فن من الفنون بارع من النساجين والحياطين والحجارين والنجارين والاقباعية والبياطرة والخيمية والنقاشين والقواسين والبازدارية وبالجملة أهل أي فن كان ، وأخذ جملة من العلماء والأعيان والنبلاء ، وكذلك كل أمير من أمرائه

وزعيم من زعمائه، وأخذ من الفقهاء والعلماء، وحفاظ القرآن والفضلاء، وأهل الحرف والصناعات، والعبيد والنساء والصبيان والبنات، ما لا يسعه الضبط. ولما رحل تيمور عن دمشق، وقد أصبحت أطلالاً لا مال ولا رجال ولا مساكن ولا حيوان، صار من بقي فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون، ويخرجون من دمشق إلى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير، وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس في وسطهم، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجر عليهم من عسكر تيمور، فذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة، فعزم السلطان الناصر على العود إلى دمشق، ثم بلغه أن تيمور رحل عن دمشق وهو مريض فعدل عن حملته، وأرسل تيمور إلى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له بما قد جرى، ويطلب قريبه الذي كان أسر في أيام الظاهر برقوق، وأنه إذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى، فأطلقه وكساه السلطان وأحسن إليه، فلما وصلوا إلى تيمور أكرمهم وقبل مراسيم السلطان وتفارش وبكى واعتذر مما وقر منه وقال هذا كان مقدراً .

رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها إلى فلسطين، وكان علماء القدس انتدبوا رجلاً وجهزوه بمفاتيح الصخرة إلى تيمور لما بلغهم أخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع .

وكانت أكثر المدن الصغرى في أواسط الشام قد خضعت وصافت بحكم الطبيعة ومنها طرابلس أحضر له منها مال وقد اجتاح بعلبك ونهبها، ولما وصل الجبول في عودته لم يدخلها وأمر بتخريبها وإحراقها، وحرق حلب مرة ثانية وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس، وقتل وأسرى كل من وجدهم في طريقه، وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق موسى الأنصاري وعمر بن العديم وجماعة معهما، وأخذ بقيتهم فمنهم من هرب من الطريق، ومنهم من وصل معه . فقل تيمور راجعاً بعد أن أذاق الشام كأس اللذ والحمام، وربما إذا جمعت جملة تخريباته لا يتأتى وقوع مثلها في مئات من الأعوام عملها بجيشه الجرار في عشرات من الأيام وقال: إن ما فعله كان مقدراً فكانه شعر بعضهم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين، بيد أنه كان مغرى

بغزو المسلمين والتخلي عن غيرهم، صنع ذلك في الروم والهند وغيرهما، ولكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من تفانى في الوصول إلى غرض، ويستحيل بعد أن فتحت عليه الأقاليم وفتح ثلث آسيا تقريباً بالقهر والسيف وجعل جيشه مؤلفاً كالجيش العثماني من جميع العناصر التي كانت تحت حكمه أن لا يكون على شيء من العلم وبعد النظر. وكان يصحب معه في رحلاته زمرة من العلماء المحققين

ولو قدر للدولة أن يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة، ويحالف ابن عثمان صاحب الروم وغيره من أمراء الشرق الذين فاضوا ملك مصر والشام في أمر تيمور قبل انهيار جمهرة جيوشه على ديارهم ونظموا قواهم واستعملوا اللين تارة والشدّة أخرى، ولم يفتحوا للفتح العظيم باباً من أبواب الحجج التي يحجهم بها في عرف السياسة والفتح، لأمنت هذه الديار عادية تيمور أو لكان اكفى بمعاودة تضمن له بعض الغرامات فرحل بسلام، لأن تيمور يعرف بأن مملكته أوسع مجالاً يتيسر بقاؤها لآله لقربها من مهد عصبته ودار ملكه .

بيد أنه لم يكن في مصر ولا الشام على ذلك العهد رجل سياسي بعيد النظر والغور في السياسة كالظاهر برقوق والظاهر بيبرس مثلاً فكان ما كان لأن الديار أصبحت بلا راع يرعاها، وغدا الحكم للماليك الطبقة الثانية من عماله، ولمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون أمتهم بجهلهم إلى الخراب، والغالب أن السبب في رجوع تيمور انتشار الجراد حتى أكل الناس أولادهم فأصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم، وبهذا الرأي قال ابن حجر فذكر أن رحيل تيمور إنما كان لضيق العيش على من معه فخشي أن يهلكوا جوعاً. وقيل: إن تيمور أراد أن يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له الطرق فلما عادوا قصوا عليه ما رأوه وهو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم: إن مصر لا تفتح من البر بل تحتاج إلى أسطول لتفتح من البحر ولذلك صرف النظر عن فتحها، وهكذا نجت مدن الجنوب في الشام من تخريبه وكذلك مصر وما إليها من بلاد إفريقية وسلمت الدولة الشركسية.

عهد المماليك الاخير

« من سنة ٨٠٣ الى ٩٢٢ »

البلاد بعد الفتنة التيمورية ومخامرة العمال :

خرجت حاب وحمارة ودمشق خصوصاً من بين مدن الشام بعد فتنة تيمور كالهيكل من العظم لا لحم ولا دم، وأصيبت بنقص في الأنفس وخراب في العمران، يبكي لها كل من عرف ما كانت عليه من السعادة قبل تلك الحقبة المشؤومة، ولم يقيض للقطر سلطان عاقل قوي يداوي جراحاتها وينهض بها نهضة تنسيها آلامها. ولما رحل تيمور عن دمشق نصب صاحب مصر المقر السيفي تغري بردي في نيابة دمشق ورسم له أن يخرج إلى الشام من يومه ليعمر ما أفسده تيمور في دمشق، ونصب نواباً آخرين على نيابات الشام ممن كانوا في أسر تيمور فأطاعهم، مثل نواب الكرك وطرابلس وحمارة وبعليك وصفد وغيرهم، وأمرهم أن يعمروا البلاد المخربة. وهيهات أن يعمر في قرن ما خربه تيمور في ثلاثة أشهر .

وبعد حين رجم أهل دمشق (٨٠٤) نائب الشام تغري بردي وأرادوا قتله فهرب إلى نائب حاب، فلما بلغ سلطان مصر ذلك أرسل تقليداً إلى أقبغا الجمالي بنيابة الشام . وخامر أمير غزة وخرج عن الطاعة واسمه صُرُق، فقتل في المعركة، وخرج أيضاً عن طاعة نائب طرابلس شيخ المحمودي . وخرج دمرداش نائب حاب إلى الأمير دقماق الحمدي الذي خافه في نيابته وأوقع معه واقعة قوية فانكسر دمرداش .

وفي سنة (٨٠٦) نازل الفرنج طرابلس فأقاموا عليها ثلاثة أيام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض إليهم مسرعاً فأنهزموا فأوقع بهم وكان ذلك مبدأ سعاده .

ثم توجه الفرنج إلى بيروت وكانوا في نحو من أربعين مركباً فواقعهم دمرداش ومن معه من الجند والمطوعة وقتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير، وكان نائب الشام بيبعلبك فجاءه الخبر فتوجه من وقته وأرسل إلى العسكر يستنجد به ومضى على طريق صعبة إلى أن وصل إلى طرابلس ثم توجه من فوره إلى بيروت فوجدهم قد نهبوا ما فيها وأحرقوها وكان أهلها قد هربوا إلى الجبال إلا المقاتلة منهم، فوقع بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر النائب بإحراق قتلى الفرنج، ثم توجه إلى صيدا ومعه العساكر فوجدهم في القتال مع أهلها ولم يتقدمه أحد بل كان معه عشرة أنفس، فحمل على الفرنج فكسروهم وفروا في مراكبهم راجعين إلى ناحية بيروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض أصحاب النائب فغلبوه على الماء وأخذوا حاجتهم وتوجهوا إلى جهة طرابلس.

ودامت الفوضى في القطر حتى خامر النواب إلا قليلاً في الشام (٨٠٦) وأصبح الناس فرقتين فرقة مع الملك الناصر وفرقة عليه إلى أن خلع سنة (٨٠٨) وفي سنة (٨٠٦) أوقع نائب الشام بعرب آل فضل وكان كبيرهم علي بن فضل قد قسم الشام سنة ثلاث وثمان مائة فطمع أن يفعل ذلك هذه السنة، فقبض عليه النائب ونهب بيوته، ووقع بين نعيم أمير عرب آل فضل وبين حمزا بن سالم الدوكاري وقعة عظيمة قتل فيها ابن سالم وانكسر عسكره وغلب نعيم وأرسل برأس ابن سالم إلى القاهرة. وكان عسكر ابن سالم طاف في أعمال حلب كعزاز وغيرها وأفسد فيها الفساد الفاحش. وكان وقع بينه وبين نعيم قتال بين جعبر وابلستين واستمر أياماً إلى أن قتل ابن سالم. وقع بين دمرداش والتركمان وقعة عظيمة فانكسر دمرداش. وفي أيام الناصر فرج نصب نوروز الحافظي على دمشق وجكّم العوضي نائباً على حلب، فلما توجهها إلى عملهما أظهر كل منهما العصيان والمخامرة على السلطان فتسلطن جكّم العوضي بحلب وقبل الأمراء الأرض بين يديه وتلقب بالملك العادل ووضع يده على البلاد الحليسة وكتب إلى نواب الشامات فأطاعوه إلا القليل منهم، وأخرج أوقاف الناس وجعلها إقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب وصار يحكم من الشام إلى الفرات فانترعت يد الناصر من الديار الشامية والحلبية وصار حكمه لا يجاوز غزة.

وفارق جكم حلب (٨٠٧) فثار بها عدة من أمرائها ورفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع إليهم العسكر وتحالفوا على طاعة السلطان، وقام بتدبير أمور حلب الأمير يونس الحافظي وامتدت أيدي عرب ابن نعيم والتركمان إلى معاملة حلب فقسموها ولم يدعوا لأحد من الأمراء والأجناد شيئاً . ومدحه المؤرخون بأنه كان يتحرى العدل ويحب الإنصاف، ولا يتمكن أحد معه من الفساد .

وفي سنة (٨٠٧) حاصر دمرداش نائب حلب أنطاكية وبها فارس ابن صاحب الباز التركماني فأقام مدة ولم يظفر بها بطائل وكان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده إلى طرابلس فغلب عليها ثم توجه إلى حلب فنازلها وبها دمرداش فالتقيا وجرى بينهما قتال فانكسر دمرداش وخرج من حلب فركب البحر إلى القاهرة، وملكها جكم ثانية ثم خرج إلى جهة البيرة وغزا التركمان وأسروا منهم جمماً كبيراً . والتف نوروز الحافظي على شيخ المحمودي نائب طرابلس وأظهرا العصيان والتف عليهما جماعة من النواب وصاروا يأكلون الأقاليم الشامية والحلبية من غزة إلى الفرات وليس بيد الملك الناصر سوى مصر . وخربت صند وأعمالها خراباً شنيعاً وذلك لأن شيخاً المحمودي ومن معه من النواب والتركمان حاصروها مدة لأن واليها بكتمر جلق لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر . وخرج نعيم بن مهنا الحيارى البدوي (٨٠٨) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا العساكر وتواقعوا بالقرب من قرية عذراء خارج دمشق فانهزمت عساكر الشام وأمراء غرب بيروت واستولت العرب على دمشق وزادوا في الجور والضرب . واستولى التركمان على كثير من العمالات بقيادة رأسهم إياس ووصلوا إلى حماة فغلبوا عليها ثم ردوا عنها .

وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان :

وفي سنة (٨٠٨) كانت الوقعة العظمى بين جكم نائب حلب والتركمان ورئيسهم فارس ويدعى إياس بن صاحب الباز صاحب أنطاكية وغيرها، وكان قد غلب على أكثر الأضلاع الشمالية ودخل حماة وملكها، وعسكره يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجالة فواقعه جكم بمن معه فكسره كسرة فاحشة، وعظم قدر جكم بذلك وطار صيته، ووقع رعبه في قلوب التركمان

وغيرهم، ثم إنه واقع نعيماً ومن معه من العرب فكسره، ثم توجه جكم إلى أنطاكية وأوقع بالتركان فسألوه الأمان وأن يمكنهم من الخروج إلى الجبال مواطنهم القديمة ويسلموا إليه جميع القلاع التي بأيديهم، فتقرر الحال على ذلك وأرسل إلى كل قلعة واحداً من جهته ودخل إلى حلب مؤيداً منصوراً، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازي بن أوزر التركاني وكان بينهما عداوة فقتله وقتل ولده وجملة من جماعته . وكان قد استولى على معظم معاملة حلب ومعاملة طرابلس فصار في حكمه أنطاكية والقصير والشغر وبغراس وحارم وصهيون واللاذقية وجبله وغير ذلك، فلما أحيط به تسلم جكم الكور ورجعت معاملة كل بلد على ما كانت أولاً .

وبرز جكم إلى دمشق فالتقى مع ابن صاحب الباز وجمعهم من التركان فكسره كسرة ثانية وضرب أعناق كثير منهم صبراً وقتل نعيماً وأرسل برأسه إلى القاهرة، واستعد نائب الشام لقتاله، ووصل دمرداش توقيع بنيابة حلب عوضاً عن جكم من القاهرة، فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل إليهم المعجل بن نعيم طالباً ثار أبيه وكذلك ابن صاحب الباز طالباً ثار أبيه وأخيه، وكان معهم من العرب والتركمان خلق كثير، ووصل توقيع المعجل بن نعيم بإمرة أبيه ووصل نائب الشام ومن معه إلى حمص وكاتبوا جكم في الصالح ووقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر دمشق، ووصل إليها شيخ ودمرداش منهزمين، وكانت الواقعة في الرستن ثم رحل نائب دمشق إلى مصر، ودخل جكم إلى عاصمة الشام وبالغ في الزجر عن الظلم، وعاقب على شرب الخمر فأفحش، حتى لم يتظاهر بها أحد، وكانت قد فشت بين الناس .

ذكر هذا ابن حجر، وقال في وفيات سنة (٨٠٨): إن فارساً صاحب الباز التركاني كان أبوه من أمراء التركان فلما وقعت الفتنة اللنكية جمع ولده هذا فاستولى على أنطاكية ثم قوي أمره فاستولى على القصير ثم وقع بينه وبين دمرداش في سنة ست وثمان مائة فانكسر دمرداش، وكان جكم مع فارس ثم رجع عنه، فاستولى فارس على البلاد كلها وعظم شأنه، واستولى على صهيون وغيرها من عمل طرابلس، وصارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على أعمالهم، فلما ولي جكم ولاية حلب تجرد له وواقعه فهزمه ونهب ما معه

واستمر حكم وراءه إلى أن حاصره بأنطاكية سنة ثمان وثمان مائة، ولم تنزل الحروب بينهما إلى أن طلب فارس الأمان فأمنه ونزل إليه وسلمه لغازي بن أوزر، وكان عدوه فقتله وقتل معه ابنة وجماعة منهم، واستنقذ حكم الأقاليم كلها من أيدي صاحب الباز وهي أنطاكية والقصير والشغر وحارم وغيرها وانكسرت بقتل فارس شوكة التركمان.

وفي سنة (٨٠٩) بعث شيخ إلى نابلس جيشاً قبضوا على عبد الرحمن ابن المهتار وأحضره له إلى صفد فقتل بحضرته، وكان قد عصى بأخرة على الناصر، واتفق شيخ ونوروز فأرسله إلى نابلس فصادر أهلها وبالغ في ظلمهم فكانت تلك عاقبته. ووقعت وقعة بين شيخ والحمازوي عند حلبين فقتل في المعركة أناس من الأمراء وقبض على الحمازوي. واستولى تمر بغا المشطوب على حلب وذلك أنه لما هرب من الوقعة التي كانت بين حكم وبين قرابلك جاء مع طائفة من المغل إلى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان وحاصرها فأوقع بهم وكسرهم ودخل البلد وعصت عليه القلعة. ولما بلغهم قتل حكم سلموها فاستولى على ما بها من الخواصل وعلى ما يجلب أيضاً من الخيول والماليك المخلفة عن حكم. ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب ودخل السلطان دمشق وبنى ما كان هدم. وفي سنة (٨٠٩) ثارت طائفة من الماليك ومعهم عامة حلب على شركس المصارع.

وهكذا كثرت الفتن في الشام في العقد الأول من القرن التاسع وكلما قوي أمير قتل رجال الأمير الذي كان قبله، وشأن الظلم في الرعايا عجيب، والمصادرات قائمة على ساق وقدم، وبالجملة فقد كانت الدولة التي تولت أمر مصر والشام على حالة سيئة وكثير من ملوكها لم يتم لهم في الملك أشهر معدودة، وناهيك بهذا التبديل قال ابن تغري بردي: وكثرت المصادرات بدمشق وغيرها في أيام هذه الفتن (٨١٠) وأخرجت الأوقاف عن أربابها وخربت بلاد كثيرة بمصر والشام، لكثرة التجاريد وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع. وقال ابن حجر: وفيها كملت عمارة قلعة دمشق وكان ابتداءها في العام الماضي وصرف على عمارتها مال كثير جداً، وظلم بسببه أكثر الخلق من الشاميين وغيرهم. وبسط نوروز يده في المصادرات بدمشق

فبالغ في ذلك حتى إن بعض التجار كانوا يترحمون على تيمور وفرض على جميع الجهات مثلها، وتناول حتى الخانات والحمامات وأرباب المعاش حتى انقطعت الأسباب وتعطلت الأرزاق .

ونازل التركمان حلب (٨١٠) فحصرها علي بك بن خليل بن قراجا بن دلغادر ومعه عدة من أمراء التركمان وعدة من أمراء العرب ونازلوها أياماً ومقاتلهم العوام ومن بها، وكان بها يومئذ تمرغيا المشطوب فدخلوا ولم يظفروا بطائل، وكان لعلي بك ولد محبوس بقلعة حلب فصانع أهل حلب أباه بإرساله مكراً فما أفاد ذلك وجد في الحصار ونازل المعجل بن نعيم حماة وحاصرها ونهب علي بك ومن معه القرى التي حول حلب وجدوا في الحصار، وبالغ أهلها بالذب عن أنفسهم واشتدوا للقتال وهان عليهم الأمر خشية على أموالهم وحریمهم بحيث أنهم كانوا كل يوم لا يرجعون إلا وقد أنكوا في التركمان نكاية كبيرة، وأوقع نوروز بالمعجل ومن معه من العرب على حماة وكسرهم .

وجرت في هذه السنة وقعة في وادي عقيبة من كروم بعلبك بين أنصار السلطان وبعض أمراء المماليك الفارين من القاهرة فكأثرهم نوروز وقتل منهم وحملت رؤوسهم إلى مصر . وتصافى شيخ ونوروز بعد الخلاف وتوجها بعسكرهما إلى إقليم ابن بشارة ونهبوه وهرب ابن بشارة . وقصد تمرغيا المشطوب نائب حلب النزول على التركمان فبيتوه وكسروه ورجع منهزماً، ونهب نوروز للعرب إبلاً كثيرة فكبسوا عليها واستنقذوها وحاصر شاهين دويدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق .

وجاء الأمير شيخ والأمير نوروز من غزة في عساكر كثيفة (٨١١) فلما سمع الناصر بذلك خرج هو والأمراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الناصر ورجع إلى القاهرة وهو مهزوم، فتبعه شيخ ونوروز ودخلا إلى القاهرة، ثم قوي حال الناصر على شيخ ونوروز فكسرها فرجعا إلى الشام مهزومين، وقتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء والمماليك . وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم تنحى عنها ، وأرسل السلطان تقليداً إلى شيخ نيابة الشام وتقليداً إلى دمرداش نيابة حلب ، ثم عين نوروز إلى القدس بطالاً، ثم كتب إلى دمرداش نائب حلب بالحضور إلى مصر ورسم

لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب وخامر شيخ بعد ذلك على السلطان فجرد إليه ورجع على غير طائل .

ثم إن نوروز قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ إلى دمشق وكان قد جمع من التركمان والعرب جمعاً وسار من حلب فرجع نوروز فسبقه إلى دمشق، فتراسل شيخ ونوروز في الكف عن القتال ولم ينتظم لهما أمر، وصمم شيخ على أخذ دمشق وباتا على أن يباكرا القتال فأمر شيخ بإيقاد النيران في معسكره واستكثر من ذلك، ورحل جريدة إلى سعسع فترها، وأصبح نوروز فعرف برحيله وسار نوروز إلى سعسع فلقى بها شيخاً وهو في نفر قليل نحو الألف فالتقيا فانكسر نوروز ويقال: إنه كان معه أربعة آلاف نفس ولم يكن مع شيخ سوى ثلاثمائة نفس، وركب شيخ أقيمتهم ودخل دمشق ثم رحل إلى ملطية وأرسل شيخ عسكرياً ورحل نوروز إلى حلب لمحاصرتها ثم لحق عسكري شيخ بالتركان بأنطاكية وأوقعوا بهم واستنقذوها منهم .

وألزم النائب أهل دمشق بعمارة مساكنهم والأوقاف التي داخل البلد وضرب فلوساً جديداً ثم نوذي عليها كل مائة وأربعين بدرهم . وكتب الناصر إلى الشام بإسقاط ما على الناس من البواقي من سنة ثمان وتسعين إلى سنة ثنتي عشرة وفي السنة التالية ألزم الناس في دمشق بعمارة ما خرب من المدارس . وفيها توجه الدويدار إلى البقاع للاستعداد لبرديك لما طرق الشام، فوصلت كشافة برديك إلى عقبة سحورا ثم نزل هو شقحب، فتأهب من بالقلعة بدمشق وخرج العسكري مع سودون وحمل هو على عسكري برديك فكسروهم ثم انهزم برديك على خان ذي النون ورجع إلى صفد . واشتد الحصار على نوروز ودمرداش بحماة فقتل بينهما أكثر من كان معهما من التركمان وانضم أكثر التركمان إلى شيخ ووصل إليه المعجل بن نعيم نجدة له بمن معه من العرب فخيم بظاهر حماة، فوقع القتال بين الطائفتين واشتد الخطب على النوروزية فمالوا إلى الخداع والحيلة ولم يكن لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فبينما الشيخية مطمئنين هجم النوروزية عليهم وقت صلاة الجمعة فاقتتلوا إلى قبيل العصر فكانت الكسرة على النوروزية وتفرق أكثر العساكر عن نوروز ولحق كثير منهم بشيخ، وكتب إلى دمشق فدقت بشاره وزينوا البلد وكبس أصحاب نوروز

المعجل بن نعيم ليلاً فأبجده شيخ وكتب دمرداش إلى الناصر يستنجده ويحثه على المجيء إلى الشام وإلا خرجت عنه كلها فإنه لم يبق بيده منها إلا غزوة وصفد وحماة وكل من بها من جهته في أسوأ حال .

قال ابن حجر في حوادث سنة (٨١٣): إنه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر في العام الماضي لما دخل القدس أن يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا إلى يافا ومعهم عَجَل وصناع وأخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصناع للعمل بالأجرة فأتاهم عدة وشرعوا في إزاحة ما بطرقهم من الأدغال ووسعوا الطريق بحيث تسع عشرة أفراس ولم تكن تسع غير فارس وأحضروا معهم دهناً إذا وضعوه على الصخر سهل قطعها، فلما رجع الناصر إلى دمشق عرفه نصحاؤه بسوء القالة في ذلك فكتب إلى أرغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك والقبض عليهم وعلى من معهم من الصناع والآلات والسلاح والجمال والدهن فحتم على مخازنهم وحملهم ومعهم ما رسم به الناصر .

وفي سنة (٨١٤) ارتفع الطاعون عن دمشق وما حولها وأحصي من مات من أهل دمشق خاصة فكانوا نحواً من خمسين ألفاً وختل عدة من القرى وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها .

الملك السكير وقتله :

وبقي أمر الشام متقللاً لأن ملك مصر على هذه الصورة من السخافة والضعف وهو شارب الليل والنهار تصدر الأعمال عنه مختلة كلها، فقطع شيخ المحمودي ونوروز الحافظي اسم الناصر من الخطبة بدمشق وأعمالها، ونفرت قلوب المماليك من الناصر وصار منهم جماعة (٨١٤) يتسحبون تحت الليل ويتوجهون إلى نوروز الحافظي وشيخ المحمودي، يأتون الشام من العقبة إلى غزة فتسحب من العسكر نحو الثلث، فقويت شوكة الحافظي والمحمودي والتف عليهما سائر النواب في الشام وغالب عسكر مصر وكثير من العشير وعربان نابلس، واجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة وعشرين أميراً . ولما تحقق الناصر ذلك جرد عليهم جيشاً فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد إلى بلد والناصر خلفهم ليلاً ونهاراً فأتعب العسكر وانقطع

منهم جماعة من شدة السوق والتعب . ووصل الناصر إلى اللجون (٨١٥) فتلاقى والنواب بعد العصر وكان الناصر قد اصطبح وهو لا يعي من شدة السكر فأراد الكبس على النواب في تلك الساعة فمنعه الأمراء فأبى ، فلما رأوا ذلك تسحبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه إلا القليل من العسكر فكبس على النواب فانكسر الناصر وهرب بمن بقي معه من العسكر إلى نحو دمشق ، واستولى شيخ ونوروز على أثقاله وخزائن المال وانتصرا عليه .

فلما دخل شيخ ونوروز إلى دمشق طلعا إلى دار السعادة واجتمع هناك الأمراء وأحضروا القضاة الأربعة ورسوموا بأن يكتبوا محضراً بأفعال الناصر بأنه سفاك للدماء مدمن للخمر فكاتبوا محضراً بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس ، ثم خلعوا الناصر من السلطنة واشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ : لا أنا ولا أنت نتسلطن . ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هذا هو السلطان ، ويكون الأمير شيخ أتاكب العساكر ومدبر المملكة في مصر ، ويكون الأمير نوروز نائب الشام ويحكم في الديار الشامية من غزة إلى الفرات ، يولي من يختار ويعزل من يختار ، فتراضوا على هذا وحلف جميع الأمراء وتعاهد شيخ ونوروز ثم سلطنوا الخليفة واستمر نوروز الحافظي نائب الشام .

وأما ما كان من أمر الناصر فرج بعد الكسرة التي وقعت له على اللجون فإنه ولي منهزماً إلى نحو دمشق ، وأرسل إلى شيخ يطلب منه الأمان ، وكان نوروز صهر الناصر زوج أخته ، فلو طلب منه الأمان أولاً لما أصابه شيء ولكن قصد شيخاً فأرسل إليه من قيده وأحضره إلى السجن بقلعة دمشق ، ثم إنهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل ودخل عليه بعد أيام جماعة من الفداوية وقتلوه بالخناجر وهو بالبرج بقلعة دمشق ، وألقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ، ليس عليه غير اللباس في وسطه ، وصار الناس يأتون إليه أفواجاً ينظرون إليه ، ولو أمكن ممالك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة أيام ثم دفنوه «وكانت الدنيا على أيامه حائلة وحقوق الناس ضائعة ، وقد خرب غالب البلاد الشامية في أيامه من تيمورلنك ومن عصيان النواب وخربت أوقاف الناس في الشام ، وكم قتل من أبطال ويتم من أطفال ، وجرت في أيامه أمور شتى يطول شرحها » قال المقرئزي :

لم تنزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . طرق الشام تيمور فخر بها كلها وحرقتها وعمل بالقتل والنهب والأسر حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات وتمزق أهلها في أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء، فاشتد الغلاء على من تراجع إليها من أهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن .

الخليفة السلطان وسلطنة شيخ :

عهد الأمراء الذين قضوا على سلطان الناصر بالسلطنة إلى الخليفة العباسي وكان المسكين أشبه بعامل محترم من عمال الشراكسة لا عصبية له ولا جيش، والغالب أن العهد بالسلطنة إليه كان دسيسة سياسية من الأميرين نوروز وشيخ يوم قال الأول للثاني وهما يتفاوضان فيمن يوسدان إليه السلطنة: « لا أنا ولا أنت نسلطن» فاستولى شيخ على ملك مصر بالفعل وإليه قيادة الجند، واستولى نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك، وبقي الأمر على ذلك إلى سنة (٨١٦) وقد بلغ نوروز الحافظي أمير الشام أن المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسي في مصر وتسلطن عوضه ، فعزّ عليه ذلك ولم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ وأظهر العصيان واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق وأعمالها ولم يخطب باسم المؤيد شيخ ولا ضرب باسمه سكة، واستمر مستأثراً بملك الشام من غزاة إلى الفرات .

وفي سنة ست عشرة وثمانمائة ظهر الخارجي الذي ادعى أنه السفيناني قال ابن العماد: وهو رجل عجلوني يسمى عثمان بن ثقالة اشتغل بالفقه قليلاً في دمشق، ثم رجع إلى الجيدور ودعا إلى نفسه فأجابه بعض الناس فأقطع الإقطاعات ونادى أن مغلّ هذه السنة مسامحة ولا يؤخذ من أهل الزراعة بعد هذه السنة التي سومح بها سوى العشر، فاجتمع عليه خلق كثير من عرب وعشير وترك ، وعمل له ألوية خضراء وسار إلى وادي الياس وبث كتبه في النواحي يحث الناس على الانضمام إليه فارسهم وراجلهم مهاجرين إلى الله ورسوله ليقاتلوا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، فثار عليه غانم الغزاوي وجهاز إليه طائفة وطرقوه بجامع عجلون فقاتلهم فقبضوا عليه وعلى ثلاثة من أصحابه

فاعتقل الأربعة وكتب إلى المؤيد بجبره فأرسلهم إلى قلعة صرخد .

وفي سنة (٨١٧) خرج المؤيد شيخ من مصر في العساكر قاصداً إلى دمشق للقضاء على نوروز. وكان قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب ، فحاصره المؤيد شيخ حصاراً طويلاً ونصب حول دمشق عدة مجانيق حتى غلب نوروز وسلم نفسه إلى شيخ فقطع رأسه ، وكان نوروز مهاباً شديد البأس سفاكاً للدماء، ما كان في عسكر إلا انهزم ولا ضبط أنه ظفر في وقعة قط ، وهو الذي عمر قلعة دمشق بعد تيمورلنك. ومهد المؤيد شيخ الديار الشامية وعزل من عزل وولى من ولى، وخلع على قانباي المحمدي واستقر به نائب الشام وخلع على إينال الصصلاي واستقر به نائب حلب ، وخلع على سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على جاني بك البجاسي واستقر به نائب حماة، ولم يلبث هؤلاء النواب (٨١٨) أن خاؤوا على الملك المؤيد شيخ وخرجوا عن الطاعة، فجرد إليهم المؤيد ثانياً ، وخرج إليهم بنفسه وأوقع معهم فانصر عليهم ، وقبض على قانباي المحمدي نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على إينال الصصلاي وقتله على صدر أبيه ثم قتل الأب بعد ذلك، ثم ولى جماعة من الأمراء نواباً غير هؤلاء ورجع إلى الديار المصرية، فلم يقم سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب أيضاً فجرد إليهم ثالث مرة وخرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا إلى قرا يوسف أمير التركمان فنصب الملك المؤيد نواباً غيرهم ممن يثق بهم، ومهد الأقاليم الدمشقية والحلبية وقطع شأفة النواب الذين عصوا سلطانه، ومن الأحداث في هذا الدور دخول قرا يوسف التركماني من العراق إلى حلب (٨٢١) في نحو ألف فارس فجفل من كان خارج مدينة حلب بأجمعهم، واضطرب من بداخل سور حلب وألقوا بأنفسهم من السور ولم تسكن الحالة إلا بعد رحيله .

هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القماط :

هلك الملك المؤيد شيخ سنة (٨٢٤) وكان ملكاً جليلاً كفوّاً للسلطنة وافر العقل مقداماً في الحرب عارفاً بمكايدها وحيلها وقت التقاء الجيوش

حتى ضرب به المثل فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ومن حطمة نوروز الحافظي . هذه رواية ابن إياس بيد أن المقرئ يقول : إنه حدث في أيام هذا الملك أكبر خراب مصر والشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن أيام نيابته بطرابلس ودمشق، ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط أتباعه على الناس، يسومونهم الذلة ويأخذون ما قدروا عليه من غير وازع ولا عقل ولا ناه من دين . وتولى بعد الملك المؤيد شيخ ابنه المظفر أبو السعادات أحمد وهو في القماط فخامر نائب دمشق جقمق الأرغوني ونائب حلب يشبك المؤيدي وكذلك بقية النواب في الشام، وكان الأتابكي أطنبغا القرشي لما توجه في العسكر المصري، أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا إلى نحو صرخد، ثم إن الأتابكي أطنبغا جمع العربان والعشير ورجع إلى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق، فملك الأتابكي دمشق وقلعتها، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظهر العصيان وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع، والتف عليه العربان والعشير، وبلغ الأمراء بمصر ذلك فدخلوا على ططر واستقروا به أتاكب العسكر عوضاً عن أطنبغا القرشي . ثم اتفق الحال على أن الأتابكي ططر يأخذ السلطان معه في محفة ويتوجه هو والعسكر إلى دمشق بسبب أطنبغا القرشي والنواب، فخرج ططر من القاهرة وصحبته المظفر أحمد في محفة والمرضة معه، وكانت أمه خوند سعادات صحبة ابنها في المحفة لما خرج إلى الشام لتأمن عليه من القتل، فدخل المظفر إلى دمشق وألقى الرعب في قلب أطنبغا وجقمق فحضر أطنبغا وفي رقبته منديل فقبل الأرض قدام الملك المظفر وهو في المحفة، فلما وقعت عليه عين الأتابكي ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق، ثم قبض على جقمق وأمر بخنق جقمق وأطنبغا، ثم قبض على جماعة من النواب وقتل منهم الجعاسي نائب دمشق، وقبض على أربعين أميراً من الأمراء المؤيدية وعلى جماعة من المماليك المؤيدية . ثم خلع المظفر أحمد من السلطنة وتسلمن عوضه بدمشق وخطب باسمه على المنابر وكان معه الخليفة المعتضد بالله داود، فكان مثل ططر في هذه الحيلة مثل أكثر عمال هذه السلطنة الشركسية متى اشتد ساعدتهم استأثروا بالملك والسلطان .

وفاة ططر وسلطنة ابنه ثم تولى الأشرف برسباي :

هلك ططر بعد أن ملك ثلاثة أشهر وأياماً وخلفه في السلطنة ابنه الصالح محمد وله من العمر نحو من إحدى عشرة سنة وجعل جاني بك الصوفي أتاكبه ومدير مملكته، فغز ذلك على بقية الأمراء فوثب برسباي وقيده وسجنه فاجتمعت الكلمة على برسباي وصار صاحب الحل والعقد فتعصب له جماعة من الأمراء وخلعوا الصالح وسلطنوا برسباي (٨٢٥) فكانت مدة سلطنة الصالح ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. وخلع برسباي على المقر السيفي جاني بك البجاسي واستقر به نائب الشام واستقامت أحواله في السلطنة .

وفي سنة (٨٣٦) سار الأشرف برسباي في حملة من مصر قيل أنه غرّم عليها خمسمائة ألف دينار وقصد الشام وسار منها إلى آمد فحاصرها وكانت لابن قرابلك فلم ينل منها طائلاً، فمشى بعض الأمراء بالصلح على أن لا يتعدى على بلاد السلطان فحلف صاحب آمد على ذلك. ولما عاد الجيش المصري عاد صاحبها إلى العصيان قال ابن إياس : والملك الأشرف هو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه إلى البلاد الشامية .

توفي الأشرف برسباي سنة (٨٤١) وقد ساس الملك ونالته السعادة ودانت له البلاد وأهلها وخدمته السعود حتى مات، وفتحت في أيامه أقاليم كثيرة استرجعت من أيدي الباغين من غير قتال، وفتحت قبرس وأسر ملكها. قال المقرئزي : وكانت أيامه أيام هدوء وسكون إلا أنه كان له في الشح والبخل والطمع مع الجبن والحذر وسوء الظن ومقت الرعية وكثرة التلون وسرعة التقلب في الأمور وقلة الثبات أخبار لم نسمع بمثلها، وشمل مصر والشام في أيامه الخراب وقلت الأموال بها وافتقر الناس، وساءت سيرة الحكام والولاية مع بلوغ آماله وقهر أعاديه وقتلهم بيد غيره . وقد عقد برسباي معاهدة مع فرسان رودس وقهر صاحب مملكة ذي القدرية وكان الذي يثير عليه الفتن في الشام شاه رخ بن تيمورلنك لأن سفراءه أهينوا في مصر كما أهين تجاره في جدة، وأبى عليه صاحب مصر أن يكسو الكعبة المشرفة . وقال ابن إياس : إن الملك الأشرف كان منقاداً إلى الشريعة، وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ولا سيما

الأشرفية البرسبهيية فإنها من خالص الذهب، وكان عنده معرفة بأحوال السلطنة كفضلاً للملك، كثير البر والصدقات، وله معروف وآثار، لكنه كان عنده طمع زائد في تحصيل الأموال محبباً لجمعها من المباشرين وغيرهم قال: وكان من خيار ملوك الشراكسة .

وكان تولى رجل عظيم مثل برسباي زمام السلطنة بعد سخافة فرج وابنه الطفل وسخافة ططر وابنه من أجمل الموافقات. أعاد إلى السلطنة عزها الذي أولاه إياه مؤسسها برقوق . وبرسباي لا يقل عنه تدبيراً وحنكة وربما امتاز عنه بأمر .

الملك العزيز يوسف والملك الظاهر جقمق :

تولى الملك بعد الأشرف برسباي ابنه يوسف وسمي الملك العزيز وله من العمر أربع عشرة سنة وجعل الأتابكي جقمق العلائي نظام المملكة ثم خلع (٨٤٢) وجعل جقمق سلطاناً ولم يملك العزيز سوى ثلاثة أشهر وخمسة أيام. وفي سنة (٨٣٧) ندب السلطان العساكر إلى قتال الأرمن فملكوا مدينة أياس. وفي سنة (٨٤٣) خرج إينال الحكمي نائب دمشق عن الطاعة وأظهر العصيان على السلطان وكذلك تغري برمش نائب حلب فعين السلطان لهما تجريدة من مصر، وخلع على المقر السيفي أقبغا التمرازي واستقر به نائب دمشق عوضاً عن إينال الحكمي، وخلع على المقر السيفي يشبك السودوني واستقر به أتابك العساكر عوضاً عن أقبغا التمرازي فأوقعا مع النائبين العاصيين وأسراهما وقطعا رأسيهما وأرسلهما إلى القاهرة .

وفي سنة (٨٥٥) طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بها فأدركهم ابن بشارة مقدم العشير وقتلهم قتالاً شديداً حتى أزاحهم عن البلد بعد أن قتل من الفريقين جماعة وأمسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم. وفي سنة (٨٥٦) ركب طوغان نائب الكرك بماليكه فكبس بعض عرب الطاعة وقتلهم حتى ظفر بجماعة منهم فأسرف في قتلهم ثم نزل بمكان هناك فكثرت عليه جماعة منهم فقاتلهم ثانياً فكسروه وقتلوه أسوأ قتلة . وهذا القطر من الفن والتجاريد على عهد الظاهر جقمق المتوفي سنة (٨٥٧) وكانت مدة سلطنته

بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكان ملكاً جليلاً ديناً خيراً متواضعاً كريماً وفعل الخير وقد كانت علاقته حسنة مع سلطان العثمانيين وملوك آسيا الصغرى .

المنصور والأشرف والمؤيد والظاهر خشقدم والظاهر بلباي والأشرف قايتباي:

وخلف الظاهر جقمق المنصور فخرالدين عثمان فخلع بعد ثلاثة وأربعين يوماً وتسلمن بعده الأشرف إينال العلائي وكانت أيامه أيام لهو وانسراح وقيل : إنه لم يسفك دمًا بغير وجه شرعي فعد ذلك من النوادر وتوفي سنة (٨٦٥) وخلفه المؤيد أحمد وكان حسن السياسة بصيراً بمصالح الرعية قمع مماليك أبيه عما كانوا يفعلونه من الأفعال الشنيعة إلا أن مدته لم تطل سوى أربعة أشهر وثلاثة أيام، وخلفه الظاهر خشقدم وكان أهل الدولة يريدون سلطنة جاتم نائب الشام، فلما أبطأ عليهم سلطنوا الظاهر خشقدم (٨٦٥) يقول ابن إياس: إن الملك الناصر أبي سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي هو الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأول ملوك الروم بمصر إن لم يكن أيبك التركماني من الروم ولا لاجين من الروم فخشقدم أول ملوك الروم بمصر وأصله رومي الجنس .

وسار جاتم إلى مصر فأرجعه الملك الجديد إلى الشام، ولما بلغها أرسل السلطان إلى نائب قلعة الشام مراسيم بأن يقبض على جاتم نائب الشام فرمى عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة فهرب إلى الرها ، واستمر في هياج وعصيان وأرسل عليه سلطان مصر تجريدة بقيادة جاني بك وعين المقر السيفي تم المؤيدي نائب الشام .

وفي سنة (٨٧٢) تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذي القدرية على حلب فرسم خشقدم للأمير برديك الحمددار نائب حلب أن يخرج إليه فخرج، ثم التف عليه وأظهر العصيان على السلطان وقصدا التوجه إلى الشام، فأرسل سلطان مصر عليهما تجريدة وانهمزم الجند الذين أرسلتهم مصر لقتال شاه سوار ودخلوا حلب وهم في أسوأ حال، ثم أرسل السلطان تجريدة أخرى فهزمها سوار أيضاً، فاحتال عليهم حتى أدخلهم في مواضع ضيقة بين أشجار فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسي والنشاب والسيوف والأطبار فقتلوا من العسكر عدداً كبيراً

وقتل من مشايخ جبل نابلس وعربانه والعشير والتركمان والغلمان عدد كبير وأشرف سوار أن يأخذ حلب ثم خدمت نائرتة . توفي الظاهر خشقدم، ومملكه نحو ست سنين ونصف، وخلفه الظاهر بلباي وخلع بعد سلطنة ستة وخمسين يوماً وبه زالت الدولة المؤيدية ، وخلفه الأتابكي تمربغا ودامت سلطنته ثمانية وخمسين يوماً وخلفه الملك الأشرف قايتباي .

مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية :

بعد أن نجت الشام من فتن التتر وتيمور خاصة، ووقائع الصليبيين وويلاتها عاودتها الأوبئة والمجاعات والزلازل فزلزلت حلب مرات سنة (٨٠٦) فحرب كثير من معابدها ومساجدها وكانت كثيرة جداً، وفي سنة (٨٢٠) كان بحلب غلاء عقبه طاعون مات فيه سبعون ألفاً وخلا البلد من السكان، وفي سنة (٨٦٣) وقع الطاعون بحلب فأربى من هلك فيها وفي ضواحيها على مائتي ألف إنسان، وفي سنة (٨٧٤) اشتد الغلاء والفناء بحلب وكانت الحال في القطر كله على ذلك فجارت عليه الطبيعة وكانت من قبل يجور عليها أمراؤها. وقال الدويهي في حوادث سنة (٨٧٥) : ومن أخبار هذا العصر يستدل على أنه في دولة المقدمين وأحكامهم العادلة توفرت الراحة لأهل لبنان وكثرت عندهم المدارس والكنائس .

وبينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك أو تشترك معهم أحياناً وقد غضب عليها جبار الأرض وجبار السماء ، ظهر لها بل لدولة المماليك الشركسية في مصر والشام عدوان لدودان أو حكومتان مسلمتان نجت من شر الأولى ووقعت في شر الثانية ونعني بهما دولة حسن الطويل ودولة ابن عثمان . ودولة حسن الطويل هي المعروفة بدولة الحمل الأبيض (آق قيونلي) . استولى حسن الطويل على ديار بكر سنة (٨٧١) وقتل جهانشاه ومرزا حاكم دولة الحمل الأسود (قره قيونلي) وأبا سعيد حفيد تيمور فأصبح ملك العراقيين العربي والعجمي وفارس وكرمان، وأنشأ دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها. أما دولة ابن عثمان في الروم أي الأناضول فقد قويت على ذاك العهد ولا سيما بعد أن غلب السلطان محمد الثاني حسناً الطويل (أوزون حسن) سنة (٨٧٧).

في سنة (٨٧٢) أرسل سلطان مصر والشام عسكرياً على شاه سوار فانكسر كسرة شنيعة وقتل وجرح كثير من أمراء المماليك ونهب أثقال الأمراء والعسكر قاطبة وعاد الذي سلم إلى حلب في أسوأ حال، وقد قوي أمر سوار وتوجه إلى عينتاب وحاصر قلعتها ثم قوي عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام ومصر وكان جيشاً جراراً فقوي عزمه على مداومة حلب، فجرد سلطان مصر تجريدة ثانية فكسرها عسكر سوار وفي هذه السنين كثر تبديل نواب حلب وفي شبه هذا قال ابن الوردي :

هذي أمورٌ عظامٌ من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه في كل شهرين نائب

وفي سنة (٨٧٥) تحرك حسن الطويل لأخذ الديار الحلبية وأظهر العداوة لسلطان الشام ومصر وقد طمع في عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم وهزيمة الشاميين مرتين أمام شاه سوار، واستظهر عليهم فثار السلطان لهذا الخبر وقصد أن يخرج إلى حلب بنفسه خصوصاً لما بلغه أن سواراً استولى على سيس وقلعتها، وأرسل السلطان إلى شاه سوار الأمير يشبك الدوادر الكبير وفوض إليه أمور البلاد الشامية والحلبية وغيرها وجعل له التصرف في جميع النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب دمشق، فقلّ يشبك عسكر شاه سوار على نهر جيحان، وقتل منهم جمهور كبير، وأرسل سوار يطلب الصلح من الأمير يشبك وأن يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده وأنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان إلا أن يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان، ثم قبض عليه في قلعة زمنوطو وحمل إلى مصر فقتله سلطان مصر هو وإخوته وأقاربه .

وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت فيها أموال وأرواح وقتل جماعة كثيرة من الأمراء وكسر الأمراء ثلاث مرات ونهب بركهم، وانتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتى إن الفلاحين طمعوا في الترك و « تبهدلوا » عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار، وكادت تخرج المملكة عن الشراكة، وقد أشرف سوار على أخذ حلب وخطب له وفي سنة (٨٧٧) جمع حسن الطويل ملك العراقيين جنداً جراراً وزحف

على الشام واستولى في طريقه على كرخيا وكركر فانتدب ملك مصر لأمير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انتدب لقتال سوار في السنة الفائتة . وقبض نائب حلب (٨٧٧) على بعض رجال حسن الطويل في حلب وجماعة آخرين نسبوا إلى المواطأة معه وكانوا يكتبونه بأخبار المملكة، فأمر نائب حلب بصلبهم، وأرسل الأمير يشبك نائب حلب جيشاً إلى البيرة لقتال الطويل فخذل عسكره بعدما عدوا الفرات وطرقوا الأصقاع الحلبية من أطرافها، وتلاشى أمر حسن الطويل فأرسل يكتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر، وأرسل ابن عثمان ملك الترك قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكون عوناً على قتال حسن الطويل وكان هذا استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر والشام وصاحب الروم ابن عثمان بجرأ وهو يقاتلهم برأ ولكنه عاد في سنة (٨٧٩) يرسل إلى سلطان مصر معتذراً عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه. وفي سنة (٨٨٠) صدرت من برهان الدين النابلسي وكيل السلطان قايتباي قبائح عظيمة بأهل دمشق فرجموه ورموا عليه السهام وأحرقوا داره وأرادوا قتله، فركب نائب قلعة دمشق وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلاً، وقد كادت أن تخرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي وكان قد طغى على الناس وتجبر.

وكان النابلسي يخرب البلاد الشامية بنفسه وبولده أحمد وقد قال ابن عربشاه في كتابه إيضاح الظلم والعدوان، في تاريخ النابلسي الخارجي الخوان؛ ووصف مظالم ابنه بما تقشعر منه الأبدان: وكان طالع النابلسي أحمد الخراب، صادر أهل طرابلس وهتك ستر نائبها وصادر كثيرين في دمشق، وأراد أن يعرج على حلب فمنعه صاحبها من إتيان ما عمل في دمشق. أما ابنه فاحتكر الأقوات وطفف الكيل وغش الحبوب وأدار باسمه الطواحين والأفران وتسبب في الجزية على المدارس وأنقص معالم الطلبة وجمع من الأموال ما لا يحصيه العد، وكثر تظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصداً حاسبه على الأموال فظهر اختلاسه فنكل به، وأقام الناس عليه الشكاوي كما نكل بأبيه في مصر لما أتى من المساوي هناك، وقبض عليهما في وقت واحد.

وذهب نائب حلب تمرباي في العسكر إلى التركمان وانكسر عسكر

حلب كسرة عظيمة ، وفيها بعث ابن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب علي أبيه فجهز نائب حلب معه جنداً فقاتلوا عسكر الطويل فانكسر عسكر حلب وقتل منهم جماعة .

وفي سنة (٨٨٣) خرج سيف بن نعيم الغاوي وقرابته عن الطاعة فقاتله نائب حماة فكسر النائب وقتل من عسكره كثير، ثم خرج إليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه فتبعه، وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

مات حسن الطويل ملك العراقين (٨٨٣) وكان انقراض دولة بني أيوب على يده، وتحرش بابن عثمان ملك الروم يأخذ من ملكه شيئاً فما قدر عليه، ثم تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الأشرف قايتباي أمور وكان الأشرف يخشى من سطوته لأنه كان ملكاً جليلاً عاقلاً سائساً كثير الخيل والجداع . وفي سنة (٨٨٥) كبس عمرو بن غانم في جماعة من العرب محمد بن أيوب نائب القدس بأريحاء الغور وحصلت فتنة قتل فيها جماعة .

وقعة مشؤومة وأحداث :

كانت سنة (٨٨٥) من أشأم السنين على دولة الأشرف قايتباي فإن يشبك الدوادار كان قد نذب أيضاً من مصر لقتال سيف أمير آل فضل، فسار ومعه جيش من مصر في صحبته نواب دمشق وحلب وطرابلس وحماة مع العسكر الشامي والمصري وغيرهم من العساكر فتوجه إلى الرها واجتمع معه نحو عشرة آلاف رجل، وكان المتولي أمر الرها شخص يقال له بابندر أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل، فحصر يشبك مدينة الرها وكان يريد بعد أخذها أن يسير لفتح العراق فعاد عليه بابندر وكسر جيشه وأسره مع النواب الذين في جملة وشئت شمل جيشه وأخذ يشبك وقتله وقتل من أمراء الشام عدداً كبيراً وكذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تظأ إلا على جثث القتلى . قال ابن إياس : وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة وكانت مصيبة عظيمة هائلة. وكان يشبك باغياً على بابندر فإنه قصد محاربته من غير سبب ولا موجب لذلك فكان كما قيل :

من لاعب الشعبان في وكره يوماً فلا يأمن من لسعته

اضطربت الشام ومصر من غزوة عسكر يعقوب بن حسن الطويل حلب ودمشق، فإن النواب قاطبة كانوا في أسره وسحق جيش سلطان مصر والشام، فأعد السلطان له جيشاً آخر قال ابن إياس: ولولا فعلاه ذلك لخرجت من يده غالب جهات حلب. وثار عامة حلب بمحمد بن الصرا نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها فقتلوه وقتلوا حاجب الحجاب بحلب. وفي سنة (٨٧٨) وقعت فتنة بين طائفة الدارية وطائفة الأكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ناس واستنفر كل من الطائفتين من ينتصر لها من العشير، فدخلوا المدينة ونهبوا ما فيها إلا القليل وخربت أماكن وكان الأمر عظيماً.

أول مناوشة مع الأتراك العثمانيين :

وفي سنة (٨٨٩) قتل كثير من أمراء حلب والشام في الواقعة التي جرت بين المصريين والتركمان، وفيها خرج نائب حلب وتقاتل مع علي دولات أخي سوار وأمه ابن عثمان يجمع كثير من عساكره ووقعت بينهما وقعة انهزم فيها العسكر الحلبي وقتل نائب حلب وجماعة من العسكر الحلبي والمصري. وكانت هذه الواقعة أول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام ومصر. ولما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ركب تمراز هو وأزدمر والعسكر المصري وتوجهوا إلى علي دولات فقاتلوه فانكسر هو وعساكره وعسكر ابن عثمان ونهبوا جميع بركهم وأخذوا سناجق ابن عثمان ودخلوا بها إلى حلب وهي منكسة واستمرت الفتن يومئذ بين السلطان وابن عثمان.

وفي سنة (٨٩٠) استولى جند ابن عثمان على قلعة كولاك من حلب وفي السنين التالية استولى على سيسر وطرسوس وغيرهما وطمع في الاستيلاء على عمالات من الشام فأخذت حكومة مصر ترسل بالتجريدة إثر التجريدة فساعت حال الشام وخربت الأصقاع الشمالية منزلاً. ولكن الجند المصري أو جيش المماليك الشركسي وقع له مصاف سنة (٨٩١) في أرض حلب مع عسكر ابن عثمان وانتصر عليه وقتل منهم جماعة كثيرة قدرتهم بأربعين ألفاً وأسر أحمد بك هرسك قائد جند ابن عثمان ومن أجل أمرائه وصنفدوا عدة من أمرائه في الحديد. قال ابن طولون: إنه شاع

أن بايزيد بن عثمان أرسل إلى أهل دمشق نحو ثلاثين اتفاقية من النصارى ووضع عنهم جزية ثلاث سنين لقتال أهلها، وكل إشاعة من هذا القبيل كانت تفتح السبيل لنائب دمشق فيجمع من أهلها مالا فإذا صحت استعان بها والغالب أنها لا تصح . وفي هذه الأثناء (٨٩٢) فحش أمر خضر بك نائب القدس وتزايد ظلمه وسفكه الدماء وأخذ أموال الناس . وفي سنة (٨٩٣) استقر الأمير دقماق في نظر الحرمين ونيابة القدس والحليل بيد عشرة آلاف دينار للخزان الشريف غير ما تكلفه لأركان الدولة قال ابن أبي عذينة : وكان ذلك من أقبح الأمور وأبشعها فإن ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي كان من أهل الخير والصلاح فأبدل بظالم فاجر .

وفي سنة (٨٩٣) استولى عسكر ابن عثمان على قاعة إياس من غير قتال وبعث ستين مركباً من البحر مشحونة بالسلاح والعسكر إلى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصري فما تم له ما أراد . واستخلص جيش السلطان باب الملك من ابن عثمان فجاءت العاصفة وغرقت غالب المراكب ومن طلع إلى البر من العسكر العثماني قتله العسكر المصري . قال ابن إياس : وكانت لهم النصرة على الجنود العثمانية وكانت على غير القياس .

ووقعت (٨٩٣) معركة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان في أطراف الولاية الحلبية قتل فيها من الفريقين ألف وانهمزم العثمانيون ، وشرع العسكر المصري في حصار الجند العثماني في أذنة ، ودام حصارها ثلاثة أشهر قتل فيها من الفريقين خلق حتى استولى عليها عسكر المماليك ، ثم رجع في السنة التالية فطمع عسكر ابن عثمان في أخذ الديار الحلبية فأرسل سلطان مصر تجريدة لحفظ مدينة حلب ثم جرد تجاريد أخرى على ابن عثمان . قال ابن إياس : وطال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان في أمر هذه الفتن فزحف العسكر المصري والعسكر الشامي على أطراف مملكة ابن عثمان ووصلوا إلى قيسارية وأحرقوها وفتكوا بأهلها وكذلك فعلوا في كثير من عمالاته .

وفي سنة (٨٩٤) كان الفناء العظيم والغلاء الشديد في الديار المصرية والشامية ومات خلق لا يحصى ، واشتد ظلم نائب القدس على من اتهم بالتقصير في المهم الشريف ببلاد الروم ، وقبض على بني إسماعيل مشايخ جبل نابلس . ومن الناس

من تسحب وقبض على من يكون منسوباً إليه من أقاربه وأصحابه وجيرانه وباع بعض بناتهم ببيع الرقيق وتفاحش الأمر . وفي سنة (٨٩٦) حدثت في حلب فتنة كبيرة بين نائبيها وجماعة من أهلها فقتل سبعة عشر من مماليك النائب وخمسون من أهل حلب ثم أحرق جماعة من حاشية النائب بالنار، وكادت حلب أن تخرب عن آخرها فأحمد هذه الفتنة قانصوه الغوري حاجب الحجاب بحلب، وضاق الأمر بالناس لأن المماليك أو سلاطينهم كانوا كلما أرادوا إرسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الفاحشة على الناس ويسلبون أموال التجار والمسافرين .

وفي سنة (٨٩٧) اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد المهالكين بدمشق كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم أربعمائة . وبالرملة مئة . وفي سنة (٨٩٨) ثارت فتنة كبيرة بدمشق ورجم أهلها قانصوه اليحياوي . وفي سنة (٨٩٩) تغلب العربان على الكرك والشوبك وحدثت فتن هائلة. وكان في سنة (٩٠٠) وقعة بين أهل داريا وغوطة دمشق فخرج العسكر وقتل ما يربو على مئة قتيل، وتوفي نائب دمشق وخلت من الحكام وكثر النهب والفسق ووقع الاختلاف بين القيسية واليمنية، ولما بلغ السلطان قانصوه خروج بالعساكر المصرية فالتقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين .

وفاة الأشرف قايتباي وتولي ابنه ناصر الدين محمد :

توفي الأشرف قايتباي المحمودي سنة (٩٠١) وخليفة الوقت بمصر الإمام المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسي . وكانت مدة سلطنة الأشرف بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر وأحد عشر يوماً وهو الحادي والأربعون من ملوك الترك وأولادهم في العدة، والخامس عشر من ملوك الشراكسة وأولادهم بالديار المصرية، وكان كفواً للسلطنة وافر العقل شديد الرأي، عارفاً بأحوال المملكة يضع الأشياء في محلها، ولم يكن عجولاً في الأمور، بطيء العزل لأرباب الوظائف يتروى في الأمور قبل وقوعها، وكان لا يخرج إقطاع أحد من الجند إلا بحكم وفاته، ولا من أبناء الناس المقطعين إلا

بحكم وفاته . قال ابن إياس بعد إيراد ما تقدم : ولكنه كان محباً لجمع الأموال
 ناظراً لما في أيدي الناس ، ولولا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الشراكية
 على الإطلاق ، ولكنه كان معذوراً في ذلك ، تحرك عليه في أيام سلطنته شاه
 سوار وحسن الطويل وابن عثمان وغيرهم من ملوك الشرق وجرده عليهم تجاريد
 وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ما صرفه على
 نفقات التجاريد التي جردها في أيام سلطنته إلى أن مات فكانت نحواً من سبعة
 آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار خارجاً عما كان ينفقه عند عودهم
 من التجاريد . وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثها . وكان قايتباي أعظم ملك
 في المماليك البرجية وكان في الخارج أعظم ملك في الإسلام ، قال فيه سوبرهايم
 في معلمة الإسلام بأنه كان محتاجاً لعماراته وحملاته إلى مواد كثيرة وتحلل في
 المالية لم يستطع جباية الخراج إلا بالقوة ، وقد انتقده المؤرخون انتقاداً شديداً
 ونرى أن ما عمله من الواجب عليه وأنه أمر مفهوم بذاته في مملكته ليهيئ
 الأسباب اللازمة للدفاع عنها ، وقد أدى قلة النظام في الجباية إلى خراب مملكة
 المماليك من أجل هذا كان السلطان مضطراً إلى استعمال الشدة في جباية الأموال .

وكان مغرمًا بشراء المماليك حتى قيل لولا الطواعين التي وقعت في أيامه
 لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . وكان مولعاً بالبنان الفاخر خلف آثاراً
 كثيرة في أرجاء مملكته ، وصادر اليهود والنصارى مرتين في أيامه ، وخلفه ابنه
 ناصر الدين محمد ، وبدأت أمارات الضعف في أعصاب المملكة لصغر سنه
 وكان أبوه لا يريد سلطنته بعده ، ولكن عاجله النزاع فعمل الأمراء من عند
 أنفسهم ، وكان الفساد مستشرياً في مصر منذ تولى ، وكثيراً ما كان السلطان
 يتخوف على نفسه من الأمراء فيحضر لهم المصحف العثماني ويحلفهم وقد
 حلفهم أربع مرات وكانت أيمانهم كاذبة فاجرة .

وكان هذا الضعف ينال الشام منه قسط عظيم حتى خرب ولا سيما شماله
 لكثرة غارة الأعداء . قال ابن طولون في حوادث سنة (٩٠٦) وقفت حال الناس
 وقطعت الطرق من كثرة العرب المفارجة وبني رام خارج دمشق وأطرافها
 وكثر الظلم والاختلاف والناس مرتقبون الفتن . وفي هذه السنة وقع قتال بين
 الأمير علي الشهابي في جماعة من وادي التيم ورجال الشوف وبين الأمير بكر

الشهابي عمه في مرج الشميسة فنال ابن الأخ من عمه وقتله بيده مع ثلاثين من أصحابه وسار إلى حاصبيا فالتقاه بقية الأهلين والأمراء وساس الرعية أحسن سياسة .

الملوك المتأخرون وآخرهم الغوري :

توفي الناصر محمد وكانت مدة سلطنته نحواً من ستين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً وكانت أيامه كلها فتناً وشروراً وكان في ذاته سيء التدبير . وتسلمن بعده الملك الظاهر قانصوه ولم تطل مدته أكثر من سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وكان ملكاً مسلوب الإرادة مع الأمراء وتسلمن بعده الأشرف جان بلاط بن يشبك وكانت مدة سلطنته ستة أشهر وسمي بالملك العادل طومان باي من قانصوه أبي النصر الأشرفي قايتباي وفي سنة (٩٠٦) تولى السلطنة الأشرف قانصوه الغوري .

وفي سنة (٩٠٣) عصا أقبردي الدوادار وذهب إلى الشام فاستولى على غزة ، ثم جاء دمشق وحاصرها فلم يقدر عليها فنهب الضياع التي حولها وخرّب غالبها وحاصر حماة وأخذ منها أموالاً لها صورة وحاصر حلب شهرين وأحرق من قراها ، وكان إينال السلحدار يومئذ نائب حلب وكان من عصبة أقبردي ، فقصده أن يسلمه المدينة فرجمه الحلبيون وطرده من بلدهم وحصنوها بالمدافع على الأسوار ، ثم هرب أقبردي إلى علي دولات بعد أن جرد السلطان حملة عليه . وفي هذه السنة زحف ابن عثمان على الشام وأرسل إلى نائب حلب يقول له : اعزل ابن طرغل فأجابه إلى ماطلب ، وكثر تبديل النواب وساءت الحال وبطلت التجارة بين مصر والشام . ولما بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصري طمع في أخذ الديار الحلبية فأرسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب ، ثم تفاوض صاحب الروم وصاحب مصر والشام في الصلح وحمل ابن عثمان إلى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها ، فسلمها إلى السلطان في القاهرة . وفي سنة (٩٠٤) أغار كرتباي الشركسي نائب دمشق على عرب هتيم بأرض الزرقاء وكان كرتباي على رواية الغزي حسن السيرة بالنسبة إلى غيره من الأمراء . وجرى الصلح بين الأمراء المصريين

وبين أقبردي الدوادار، وكانوا انتدبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد أن ساءت الحال بفتنته .

وفي سنة (٩٠٥) خرج قصره نائب الشام عن الطاعة وأظهر العصيان واستولى على قلعة دمشق وأموالها وطرابلس وقلعتها، وكان السلطان حاول أن يولي قصره الشام فاخفى السلطان في الفتنة وخلفه في الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط، فلما تسلطن السلطان أرسل إلى قصره في الشام بالبشارة فلم يزد إلا عصياناً . وفي هذه السنة ولي نيابة الشام قانصوه المحمدي فأتى إلى البقاع فهرب منه مقدمها ابن حنش، وجرت بينهما أمور . ثم وقعت الفتنة بين أهل دمشق ونائبها فأحرق حي الشاغور وجرت بينهم غوائل ثم وقع الصلح عن يد ابن الكسيح شيخ الإسلام بدمشق .

وفي سنة (٩٠٧) هجم العربان على أطراف دمشق ونهبوا مغلاً كثيراً وخربت بلدان ، ذكر هذا ابن طولون .

سلطنة طومان باي :

وانتدب السلطان أحد المقدمين إلى الكرك لقتال بني لام واجتمع السلطان بالأمرء وتشاوروا في أمر قصره نائب الشام فأشاروا عليه بأن يرسل قاصداً، وكان قصره قد استولى على غزة وأعمالها والقدس وغير ذلك من النواحي، فعزم السلطان على إرسال تجريدة لنائب الشام، وكان دولات باي نائب حلب معه في شق عصا الطاعة، ولكن لم تنفع التجريدة وأعلن طومان باي سلطنته بالشام وتلقب بالملك العادل، وكان العسكر المصري نزل بسعسع بالقرب من دمشق فركب قصره نائب الشام في نفر قليل من عسكره وأظهر أنه طامع فاطمأن له العساكر، وكان غالب الأمرء من ندمائه، ولما حضر إليهم دخل معهم إلى دمشق واجتمعوا في القصر الأبلق، ثم ثارت فتنة بالقلعة، وأمر قصره وطومان باي بالقبض على جماعة من الأمرء وسجنهم .

وحضر إلى دمشق دولات باي بن أركماس نائب حلب الشهير بأخي العادل وتعصب لطومان باي وتكلم في سلطنته فأحضر قضاة الشام وكتب

صورة محضر في خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة وبايعوا طومان باي من غير خليفة وتلقب بالملك العادل أبي النصر وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه . فلما تم أمره عين لأتابكية مصر قصره نائب الشام وعين لنيابة الشام دولات باي نائب حلب وعين لنيابة حلب أركماس بن ولي الدين وهكذا عين سائر نواب الشام وخطب باسمه على منابر دمشق . ثم ذهب إلى مصر مع من أطمعهم بالمناصب من الأمراء وكان تقدم إلى من في مصر من الأمراء فخلع عليهم ونصبهم قبل حضوره وتسلطن فيها .

وفي سنة (٩٠٨) حدثت فتنة بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة وقتل أناس وضرب النائب على أهل دمشق مالا لأجل مشاة تخرج معه إلى حلب تجريدة لقتال الخارجي حيدر الصوفي وذلك مع وقوف حال الناس من الظلم وكثرته - قاله ابن طولون وزاد أن ورد المرسوم الشريف من مصر بأن يرمي على كل سكرة دراهم ليستفاد بها على إزالة ضرر العرب بالحجاز قال: وهذه رمية أخرى غير الرمية التي أخذت بحجة حيدر الصوفي .

وفي سنة (٩٠٩) جهز ابن حنش مقدم البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر ابن بشارة في قرية شيعين فقتل من جماعة ابن حنش نحو مائتين .

ومن الأحداث في هذه الأيام تجهيز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجي الدوادار سنة (٩١٠) إلى البقاع فقتل الدوادار عند جسر كامد اللوز وقتل معه نحو ثلاثمائة شخص وكانت الوقعة بينهم وبين فخرالدين بن معن أمير الشوف . قال ابن طولون : في حوادث هذه السنة : اتفق رأي المباشرين أن تعرض المشاة من كل حارة بدمشق وكذلك الجند إرهاباً للعدو فعرض عليهم غوغاء ميدان الحصا والقيبيبات بالميدان الأخضر وازداد طغيان زعرهم (أحداهم) وعلموا عجز أرباب الدولة ثم قام بالشاغور أزعرهم أبو طاقية وجمع زعر الغوغاء وما حولها من القرى وزعربقية حارات دمشق وأخذوا من أموال الناس شيئاً كثيراً وأعاره الأمير أركماس شيئاً كثيراً من آلة الحرب ثم خرجوا أطلاياً أطلاياً بترتيب يعجز عنه أرباب الدولة حتى عرضوا بالميدان الأخضر فاستقل الترك بأنفسهم ولم يعد لهم حرمة ثم ركب متسلم دمشق ودار بهم حول

المدينة وبين يديه منادٍ وينادي بالأمان وترك حمل السلاح . وكبرت بعد سنة (٩١١) الرميات والغرامات على حارات دمشق فهاج الناس وصعد أهل القبيبات إلى مأذنة الجامع الأموي وكبروا على المتسلم حتى أفرج عن المحبوسين . واشتد الجور سنة (٩١٦) في لبنان فهجر أكثر الناس مواطنهم إلى البلدان البعيدة ومن اللبنانيين من هاجر إلى قبرس، ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضيق العظيم الذي حصل فيها بسبب الجراد وكثرة الضرائب التي فرضها الحكام على الرعية .

القضاء على مملكة ذي القدرية وطبيعة دولتي المماليك البحرية والبرجية :

وأهم ما وقع من الحوادث التي عجلت في سقوط الشام بعد ذلك في أيدي العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة (٩٢١) على مملكة ذي القدرية التركمانية وكانت عاصمتها مرعش تارة و(البستان) تارة أخرى، واستولت على بهسني وملاطية وخربوت، قامت هذه الدولة سنة (٧٨٠) وتولاها عشرة أمراء أولهم زين الدين قرهجه وآخرهم علاء الدولة بن سليمان الذي قتله سنان باشا وأخاه وبعض أولاده في المعركة واستولى على ديارهم باسم سلطان العثمانيين، فبذلك سقطت الأنحاء الشمالية من الشام في يد عدوة الدولة الشركسية، وكان أمراء ذي القدرية يغزون الشام حتى استولوا على مملكة حماة فردهم الظاهر برقوق . ومنها ذهب سلطان مصر إلى دمشق سنة (٩٢٢) فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهباً وفضة، وفرش برسباني تحت حافر فرسه الشقق الحرير وخرج إلى المصطبة التي يقال لها مصطبة القابون ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارته وأقام بها تسعة أيام . وكان ذلك الذهب المشور شؤماً على السلطان ومملكته انتثر بعدها سلك ملكه .

هذه أهم الأحداث التي حدثت قبيل دخول العثمانيين إلى الشام وخروجها من ملوك الشراكسة بعد أن ملكوها بسلطنة الأتابك برقوق (١٣٩) سنة وكان المماليك البحرية ملكوها منذ سنة (٦٥١) هـ والاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية ودولة الشراكسة فكلتاهما أعجميتان، ولكن القائمين بهما لا يخرجون في التخاطب والتكاتب والأصول عن اللغة العربية

والشريعة الإسلامية، وقد كان من تينك الدولتين المماليك والأتراك والشراكسة رجال عظام مثل بيبرس وقلاوون وابنه وبيبرس الجاشنكير وقايتباي وبرسباي ولكن جاء بعدهم ملوك ممخرقون وصبيان آل إليهم الأمر فأفسدوه أو من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة. وقد وفقت هذه الدولة أي المماليك البحرية والبرجية لإخراج بقايا الصليبيين من الساحل فنجحت في التنكيل بهم حتى دثرت بقاياهم، ولكنها لم تقو على إنقاذ الشام من غارات التتر والمغول فقاست منهما ألوان العذاب والخراب .

وكان سلطان مصر والشام متى دهم الشام مداهم يعتصم بمصر ويتنعم ويلذ في قصوره، ويكتفي بإرسال تجريدة قد تكون ضعيفة، أو يصدر أمره لنائب حلب أن ينجد دمشق ولنائب دمشق أن ينجد حلب مثلاً، ولا يخرج الأعداء من هذه الديار إلا إذا أرادوا، وأتوا على الناطق والصامت وألحقوا العامر منها بالغامر، وباتت أمور السلطنة العوبة في كثير من الأدوار بأيدي ضعاف الأحلام من أسرة ذاك المملوك فتهيات السبل لقيام دولة أخرى وهي الدولة العثمانية .

أما قانصوه الغوري آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام ، ومن حكمه انتقلت إلى العثمانيين ، فلم يكن بالذي ترجح حسناته على سيئاته ، بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح وطال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت أيامه فتناً وغوائل ومخاوف ، حتى قضى الله في دولته بأمره ، واستطال عليها سلطان أقوى .

ولقد رأينا في دولة المماليك البحرية والبرجية أو التركية أو الشركسية عجائب القوة وعجائب الضعف ، رأينا منهم أغلب الذي طالت أيامه يعمل كل نافع للقطرين، ورأينا الملك المأمون منهم يتولى الملك أشهراً ولا يسجل له الفوضى وسوء الإدارة، وقليل ممن لم تطل أيامهم من هؤلاء الملوك الصعاليك من جمع في نفسه أدوات السياسة والإدارة، وكان النواب في هذه الحقبة كما يفهم من ابن طولون إذا ظفر نائب دمشق أو أحد قواده ببعض الناشزين عن الطاعة من العربان تزير دمشق سبعة أيام على غلاء النفط وسوء حالة البلاد وكانت نفقة أحد النواب بدمشق أي واليها كل يوم ألف دينار . وقال في

حوادث سنة (٩٠٩) أمر النائب بإنهاء النائب والنداء بصيام ثلاثة أيام والتوبة والخروج الى الصحراء وزيارة المزارات لينقطع الوباء قال الشافعي المولوي ابن الفرفور: قد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسناً . فلم يسهل على النائب ذلك وأسمعه ما يكره .

الدولة العثمانية

« من سنة ٩٢٢ هـ إلى ١٠٠٠ هـ »

حالة الشام قبيل الفتح العثماني :

كانت الشام أخت مصر في آخر الدولة الشركسية تقاسمها شقاءها شق الأبلمة، فيستبد المتغلبة من المماليك بالأحكام بحسب ضعف صاحب مصر وقوته، والصالح في نوابها وملوكها قليل . ولم يسعد القطران بعد فتنة تيمورلنك بسطان عادل يطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسد خللها، ويزيح بحسن الإدارة عللها . وشغل ملوك الشراكسة بالتجاريد على حسن الطويل وشاه سوار وابن عثمان من الملوك في شمالي المملكة وشرقها يجردونها فيجردون بها الرجال والأموال، وقد خرج الناس بعد وقائع الصليبيين والمغول وما أعقبها من الأوبئة والزلازل والمجاعات أعرى من مغزل، وأزمنت القوضى في أرجائها فساءت حالتها الاقتصادية والاجتماعية .

أحسّ أكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون إلى الدولة العثمانية، وكانت إلى الشام ومصر أقرب الدول الإسلامية الكبرى ، هذا والدولة العثمانية إذ ذاك في إبان شبابها، وقد وقّرت في النفوس منذ أسس بنياها السلطان عثمان التركماني سنة (٦٩٩) على أنقاض دولة السلجوقيين ، ولاسيما بما قام به محمد الثاني فاتح القسطنطينية من الغزوات والفتوحات، وتوفّق له من فتح عاصمة الروم البيزنطيين بعد أن حاول كثير من ملوك العرب وغيرهم ذلك فلم يفلحوا لبعدها عن مواطن قواّتهم ، ولقوة سلطان القسطنطينية في تلك العصور، والأمور مرهونة بأوقاتها .

هذا والناس لا فرق عندهم إذا استولى عليهم الترك الأعاجم، وقد حكمهم أجناس من المماليك زمناً طويلاً ما داموا كلهم غرباء يستعبدونهم وينالهم من ضعفهم ضعف، ومن قوتهم بعض راحة وسعادة، ولا فرق في الإسلام بين عربي وأعجمي في الحقوق والواجبات، وأقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة، وكانت الأمة تفتى بأسرها في سلطانها خلال القرون الوسطى.

مقاتل الغوري ومقدمات الفتح :

كان السلطان قانصوه الغوري آخر من ملكوا الشام من الشراكسة على شيء من الدهاء، أعدّ للأيام عدتها وأدرك ما يحيق بمملكته من خطر ابن عثمان، ولكن ما ينفع التدبير إذا كانت المعنويات في حكومته مريضة ضئيلة، والقوى في جيشه غير موحدة، وداء الهرم قد استحکم منه ومن دولته. كان في الثمانين من عمره يوم صححت نية السلطان سليم العثماني، رجل الإرادة القوية والجيش الجرار، على أخذ الشام ومصر، والقضاء على دولة المماليك. وكان الغوري على رواية كامل باشا لا يعرف على من يعتمد عليه من رجاله وأمرائه غريب الأطوار في ذاته، فكان ذلك من دواعي خروج الأمر عنه ووقوع الخلل في جيشه، وكان يعتقد بعلم الجفر، وقد ذكر أحد أدعياء هذا العلم أن الشر يأتيه من رجل يبدأ اسمه بحرف السين، فصار يتطير من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف، ومنهم سيباي كافل الشام.

ترجم للغوري أحد من عاصروه من الفرنج بقوله : « إنه من مماليك الغور في أفغانستان، كان حاجب الحجاب في حلب سنة (١٤٩٠-١٤٩٣م) ورأس محكمة عسكرية ووفق إلى قمع ثورة فأبان فيها عن كفاءة، وكان وزيراً لما حنق المماليك على طومان باي واختاروه للملك، فتردد كثيراً في قبوله لأنه كان تجاوز الستين من عمره وأخذ مكوساً وضرائب من كل إنسان حتى من البوابين وضرب نقوداً زائفة أضرت بالتجارة الداخلية والخارجية، فاستلزم عمله حنق الناس وانتقاد من عاصروه فعجل بخراب المالية وذلك لوضعه رسوماً فاحشة على البضائع، وعلى البضائع التي تمر بأرضه واستعمل جزءاً من هذه الضرائب

في إقامة القلاع ولاسيما في حلب وأنشأ طرقاً وآباراً في الحجاز . وكانت المكوس التي تجبي في المواني ورسوم البضائع الصادرة من الهند إلى أوروبا من طريق مصر آتية من عدن وجدة والسويس وإسكندرية، أو من طريق الشام ذاهبة من البصرة وحلب من أهم واردات المملكة . وتفادياً من أداء هذه الرسوم الفادحة حرص البرتغاليون على أن يكشفوا طريقاً في البحر إلى الهند على يد ملاحهم فاسكو دي غاما وكتب لهم النزول إلى شاطئ الهند وبعثوا إلى أوروبا توأماً بسفنهم النقالة الكبرى عن طريق رأس الرجاء الصالح، فتحاموا أداء المكوس الفاحشة التي كانت تؤخذ في المواني المصرية عن البضائع التي ينقلونها وعن نفقات النقل في البر فاستفاد البرتغاليون من ذلك ، ولم يسع الغوري أن يسكت عما يباحق المسلمين من مظالم البرتغاليين فحارب الأسطول البرتغالي غير مرة في بحري الهند والأحمر ونال منهم ونالوا منه قليلاً . قال : وساءت حالة الغوري حتى لم يستطع أن يدفع رواتب الممالك في أوقاتها بحيث فقدت حكومته كل معاونة قوية، وكانت سياسته الخارجية تعسة لأنه اضطر أن يحالف عدوه اللدود إسماعيل شاه خوفاً من السلطان سليم العثماني ولم يخف ذلك عن السلطان سليم عرفه بواسطة جواسيسه اه .

وبينا كان قانصوه الغوري يغوص في أحلامه وأوهامه ، كان سليم الأول وهو التاسع من آل عثمان الملقب بياوز أي الشديد الجبار يجيش الجيوش ويُعدّ الزخوف ويستجد السلاح، فبدأ بقتل الشيعة في تخوم الأناضول وكانوا أربعين ألفاً، ثم زحف سنة (٩٢٠) على الشاه إسماعيل الصفوي صاحب شروان وأذربايجان وتبريز والعراق العجمي وفارس وكرمان وديار بكر وبغداد وباكو ودريند وخراسان وانتصر في وقعة جالديران المشهورة، وانهمزم عسكر الشاه إسماعيل شر هزيمة وجرح الشاه في المعركة وفتح السلطان سليم ديار بكر والأقاليم الكردية، فهب قانصوه الغوري من مصر لإنجاده فيما قيل والأرجح أنه هب للدفاع عن مملكته . وكان نائب سلطان مصر على البيرة رجلاً اسمه علاء الدولة بن سليمان (وهو صاحب مرعش والبستان) فلما اجتاز السلطان سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوي أمر علاء الدولة أهل مرعش أن لا يبيعوا شيئاً لعسكر سليم، فهلك كثير من وجاهم ودوابهم جوعاً، فشق ذلك على

السلطان وشكها ما وقع له إلى الغوري فقال : إن علاء الدولة لم يصدر عن أمره وأنه عاصٍ عليه وأنه إذا قتله يكون له شاكرآ ، وكتب الغوري إلى علاء الدولة يحمله على متابعة عمله ، فأحس سليم بأن الغوري يكيده له وزاد علاء الدولة بأن سرق بعض أحمال من ذخائر عسكر سليم ، فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة وأولاده وأرسل رؤوسهم إلى الغوري . بمعنى أن سنان باشا استولى سنة (٩٢١) باسم السلطان سليم على مملكة ذي القدرية التي كانت في مرعش والبستان وملطية وبهنسى وخربوت وما إليها ، وكانت الدولة العثمانية جعلت حكومة أبناء رمضان التركمانية التي نشأت سنة (٧٨٠) في جهات أذنة وطرسوس وسييس تحت ظلها ، وكانت علائق أمراءها الثلاثة الأول مع دولة المماليك الشركسية أصحاب الشام ومصر مسترخية ، ففتحت السبل والمنافذ إلى الشام وصارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها وعلى خط رجعتها .

ولما أضعف السلطان سليم مملكة كبرى وهي مملكة الصفوي ، وقضى على مملكة صفرى وهي مملكة ذي القدرية ، طمحت نفسه إلى فتح الشام ومصر ونزعهما من دولة المماليك ليضمهما إلى مملكته فتدخل في طور العظمة وتكون ممالك في مملكة ، وكان أبوه وجده من قبله يقاتلان بعض حاميات الشام يتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك ، ويدفعان أمراء الأطراف أمثال أمراء ذي القدرية وغيرهم إلى مجاذبة ملوك الشراكسة حبل السلطة على التخوم . وكان أولئك الأمراء كثيراً ما يسيرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير ، لعلمهم بأن إثارة العثمانيين لهم على المماليك لا لخيرهم بل لينتقموا بهم ثم ينتقموا منهم ويضعفوهم ويضعفوا بهم .

صلات العثمانيين مع المماليك ووقعة مرج دابق :

وذكر مؤرخو الترك أن الصلات السياسية بين ملوك الشراكسة أصحاب مصر والشام وبين سلاطين آل عثمان كانت مسترخية منذ عهد محمد الفاتح ، ولما سمت همة السلطان سليم إلى فتح الشام ومصر (٩٢٢) أرسل جيشاً إلى ديار بكر يورّي بأنه يريد قصد إيران ، ولأدنى سبب أخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب ، فبعث قانصوه الغوري بعض رجاله يتوسطه في الصلح فقتل

السلطان سليم رجال السفير وأراد أن يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه وشفع فيه، وقال له : إن ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون، فاكتفى السلطان بخلق شعر السفير ولحيته، وأركبه على حمار أخرج أجرب إلى صاحبه الغوري جزاء ما قدمت يداه فيما يقال من امتهان الغوري رسل السلطان العثماني .

وترددت الرسل بين السلطانين في مرج دابق أولاً، وكان ابن عثمان فوض إلى رسله أن يتظاهروا بطلب سيدهم للصالح ليثني بذلك عزم الغوري عن القتال، وقد أحضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء مملكته يجيزون له قتل الشاه إسماعيل الصفوي، وأرسل يقول للغوري: أنت والدي وأسألك الدعاء لكن لا تدخل بيني وبين الصفوي - بينا الأمر على ذلك وقد خلع الغوري على قصاد ابن عثمان الخلع السنية، وأرسل إليه ابن عثمان يطلب منه سكرًا وحلوى وأرسل له منها مائة قنطار في علب كبار عدا الهدايا والتحف، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشراكسة وكسره شر كسرة في وقعة دامت من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر، فقتل من عسكر ابن عثمان ومن عسكر الغوري خلق كثير، فلما تحقق الغوري أنه غلب أصابه للحال فالج أبطل شقه وأرخی حنكه، واستعد للركوب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس إلى الأرض وفاضت روحه من شدة قهره، وأكثر المؤرخين على أنه لم تظهر جثته في المعركة . ويقول بعض مؤرخي الترك: إن جاويشاً من الجيش العثماني أمر بأن يبحث عن جثة قانصوه الغوري فقطع رأسه وقدمه إلى السلطان سليم ، فامتعض منه السلطان وأمر أن يضرب عنقه لتزلفه إلى مولاه بقطع رأس الملك المقتول، ولولا أن الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاويش مكتفياً بعزله .

وذكروا أن الغوري قد خانته لأول الأمر ثلاثة عشر ألفاً من جيشه، وامتنعوا عن الحرب عند الصدمة الأولى وأبوا قتال الأتراك ، ومن الأمراء الذين كانوا موالسين على الغوري وضلّعهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة، فإن السلطان سليماً كان فاوضهما

سراً ليولييهما الشام ومصر على ما قيل إذا ساعده على فتح هذا القطر، فلما انهزمت ميمنة الغوري وقتل الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام، انهزم جانب كبير من العسكر وانهزم خير بك وهرب فانكسرت الميسرة وكان ابن معن وأمراء الساحل صحبة خير بك والغزالي فقال الأمير ابن معن لمن معه من رجاله وقومه : دعونا ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه . ولما اضطرت نار الحرب فرّ الغزالي وخير بك إلى ناحية عسكر السلطان سليم بمن معهم من أمراء الديار الشامية وبقي الغوري بعسكر المصريين أي عسكر الشام والمغول عليهم من أمراءها من الشراكسة والوطنيين قد استمالهم السلطان فقاتلوا في صفوفه بدلاً من أن يقاتلوه، ونائب الشام سيباي الذي كان يتطير منه الغوري لأن اسمه يبدأ بحرف السين قد هلك دونه في المعركة يدافع عن ملك سيده لا كما كان هذا يتوهم .

قوة الغالب والمغلوب :

اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين والمماليك فأغلبهم على أن ابن عثمان كان في أربعين ألف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة ، وروى نامق كمال أن العثمانيين كانوا في ثمانين ألفاً وثمانمائة مدفع ، وأن الغوري كان في خمسين ألفاً لا مدافع لهم . وذكر الغزي أن الغوري أتى من حلب إلى دابق في ثلاثين ألفاً وقال ابن طولون: إن السلطان سليماً وصل إلى دمشق في عساكر عظيمة لم تر العين مثلها يقال : إن عدتها مائة ألف وثلاثون ألفاً . وذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليماً أمر أن تعد القتلى من الفريقين في مرج دابق فكان قتلى الشراكسة ألف نفس وقتلى الروم أي الترك أربعة آلاف . وكان فقدان المدافع من جيش الغوري وخيانة ربع جيشه وعدم ثقته بأحد من دواعي القضاء عليه وعلى سلطانه، وأهم ذلك خيانة بعض قواده وامتناع الأمراء عن الدفاع في صفوفه أو يظهر لهم الغالب!

قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر، وما قتل من رجال الغوري، ثم تحول من مرج دابق ودخل حلب من غير ممانع، ونزل في الميدان الذي كان السلطان الغوري نزله، وانتشر خبر الهزيمة وقتل

الغوري في أنحاء الشام، فوثب الناس بعضهم على بعض ونهبوا الزروع وأخذوا الأموال، واضطربت العمّال أيما اضطراب، ونهبت حارة السمرة بدمشق وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم، وكذلك فعلوا بتجار الفرنج ونهبوا أموالهم، وكانت فتنة هائلة ونهبوا بيوت أعيان دمشق من القضاة والتجار، فخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك وبسبب فتنة ابن عثمان وفساد الأحوال بمصر والشام وتوجه أمراء الغوري وعسكره المهزوم إلى حلب. فوثب عليهم أهل حلب قاطبة، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وأثقالهم، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التي كانت بحلب، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان كما قال ابن إياس. وكان بين أهل حلب والمماليك السلطانية إحْنٌ منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة إلى حلب فترلوا في بيوت أهلها واغتصبوا نساءهم وأولادهم، وأذوا الخليليين كل الإيذاء، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم.

وعلى الحملة فإن ما نال السكان أواخر حكم المماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المملوكية وفتح القلوب للسلطان سليم الأول، وخدمه كثير من أهل الشأن قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالأخبار تترى عن مقاتل الغوري ومواطن الضعف من دولته، وقد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ أواخر القرن الماضي فكان ذلك من العوامل القوية في الفتة في عضد الجيش الشركسي وإمالة القوة إلى الجيش التركي ففتحت الشام في وقعة واحدة ولم يبك على دولة المماليك إلا من كانوا باسمها يتمتعون بالخيرات وينالون مظاهرها ويسلبون نعمة الأمة.

دخول السلطان سليم حلب ودمشق :

وافى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله أهلها بالمصاحف والأعلام يجهرون بالتسبيح والتكبير ويقرأون « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وطلبوا منه الأمان فأمنهم وأنعم عليهم ثم أخذ يجمع مالا من التجار سماه « مال الأمان » ورأى خلفاء أرباب الطرق الصوفية فسأل عنهم وهم يحملون أعلامهم ويرحلون إلى دمشق وأشار عليه خير بك بأن يقتلهم وكانوا نحو ألف نفس، واستسلم

نائب قلعة حلب فأرسل السلطان إليه شخصاً من جماعته أعور أعرج وفي يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال إنه أخذ حلب بأضعف جنده . وطلع السلطان سليم إلى القلعة فرأى فيها ما أدهشه من مال وسلاح وتحف وكان بها على رواية ابن إياس نحو مائة ألف دينار وثمانمائة ألف دينار. وقال مؤرخو الترك: إنه كان فيها مليون دوكا. ورأى السلطان سليم من أنواع الأسلحة والزينة ما جمعه الغوري من وجوه الظلم والجور والتحف التي أخرجها من الخزان من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر والشام الأيوبيين وذلك عدا ما كان في بيوت الأمراء وغيرهم من رجال الدولة. ووجه ابن عثمان الجيش إلى مرعش ففتحها وملك معها ثلاث عشرة قلعة من مملكة الغوري وأحرز ما فيها من مال وسلاح . وذكروا أن العثمانيين عثروا في خيمة الغوري في مرج دابق على مئتي قنطار من الفضة ومئة قنطار من الذهب وفي رواية أن هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة وقيل: إنه وجد في قلعة حلب ثلاثمائة ألف ثوب كامل .

وأقام السلطان العثماني في حلب ثمانية عشر يوماً وبايعه أهلها بحضور واليها خير بك، وتوجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله العباسي، وكان جاء مع الغوري من مصر ومعه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة وجلس بين يديه وخلع عليه وأنعم عليه بما لا يحصى، ووكّل به أن لا يهرب أي إنه أسره بأسلوب لطيف، وصلى الجمعة في الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثماني لقب خادم الحرمين الشريفين فكان ذلك كما قال راسم فأل خير بأن السلطان سليماً سيكون صاحب دولة إسلامية كبرى . قال: وكان خيره باي (خير بك) أحد أمراء الغوري استأمن السلطان العثماني لما تقهقر جيش مصر فأنتقد نفسه . وولى السلطان على حلب قراجا باشا. وسار في جيشه إلى حماة وحمص ففتحت له أبوابهما، وبايعه أهلها على الطاعة كما بايع أهل طرابلس والقدس . وجاء السلطان دمشق فاستقبله أهلها ورضوا به ملكاً عليهم، فكأنه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة. قال ابن طولون: «وفي يوم الخميس الثامن والعشرين شعبان (٩٢٢) وصل متسلم ملك الروم (الأتركة) إلى القابون الفوقاني واسمه مصلح ميزان، ثم وجه من يكشفون له هل يسلم أهل دمشق أم يقاتلون،

وقد كانت اتفقت أكابرها ومشايخ الحارات على تسليمها فسلموها. وفي يوم الجمعة التاسع والعشرين منه دخل نائب دمشق الحديد من قبل ملك الروم واسمه يونس باشا، وخطب في هذا اليوم في الجامع الأموي المولوي ابن فرفور باسم ملك الروم وكذلك في سائر الجوامع، ثم تتابع دخول العسكر، وفي يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم إلى المصطبة السلطانية بأرض برزة في عساكر عظيمة يقال: إن عددها مائة ألف وثلاثون ألفاً وعزل عن نيابة دمشق يونس باشا وولى مكانه أحمد بن يخشي. وفي يوم الإثنين العشرين من ذي القعدة وهو خامس شهر كانون الأول ورابع الأربعينيات الشتوية سافر ملك الروم من دمشق إلى مصر لأخذها من يد الشراكسة.

مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الحديد وتغيير الأحكام :

قابل الأمراء السلطان سليماً ومنهم الأمير فخر الدين المعني الأول أمير الشوف فخطب أمامه بالنيابة عن أمراء البر خطبة جميلة استمالت بها قلب الفاتح، فأحسن إليه وخلع عليه وسماه سلطان البر وأفضل عليه وعلى رفاقه من الأمراء مثل الأمير جمال الدين الأرسلافي اليميني الذي جعله والياً على بلاد الغرب والأمير عساف التركماني أمير بلاد كسروان وبلاد جبيل، وأمرهم أن يحسنوا السياسة لقومهم وأن يسعوا بكل ما يؤول إلى عمران بلادهم، وقدمت إليه الناس من كل جانب إلا الأمراء التنوخيين القيسيين فإنهم لم يأتوا لأنهم كانوا من حزب الدولة الشركسية. وقال كامل باشا: إن أمير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) وكان عهد إليه الدفاع عن دمشق من قبل الشراكسة قبيل بالصلح الذي اقترحه عليه خيرباي وخضع للسلطان سليم، فنزل هذا في القصر الأبلق فجاءه محافظو قلاع سورية وأمراء العرب والدروز يعرضون الطاعة له. ويقول ابن إياس: إن الأمير ناصر الدين بن الحنش، أمير عربان حماة لما بلغه أن ابن عثمان أرسل طلائع عسكره وقد وصلت إلى القابون بالقرب من دمشق، لقيهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من أنهر دمشق حتى صار كل من دخل في تلك المياه بفرسه يوحد فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة.

ولما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس وعلى الأحكام الشرعية فتعطلت الحدود . قال الغزي : ولما بلغ الإمام علي بن محمد المقدسي أن العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات تنزع الدم من كبده وتمنى الموت ، للقهر الذي أصابه وللغيرة على دين الإسلام وتغير الأحكام وقال في دخول السلطان سليم دمشق هذه الأبيات :

ليت شعري من على الشام دعا	بدعاء خالص قد سمعا
فكساه ظلمة مع وحشة	فهي تبكيننا ونبكيها معا
قد دعا من مسه الضر من الـ	ظلم والجور اللذين اجتمعا
فعلا الحجب دعا فانبعثت	غارة الله بما قد وقعا
فأصاب الشام ما حل بها	سنة الله التي قد أبدعا

هذا ما رواه مؤرخ ذاك العصر، وربما وكان فيما بلغه مبالغة نشأت من تعصب للدولة الشركسية أو رجاء أخفق، وكان يظن أنه يتم على يد ابن عثمان من إقامة الحدود ورفع المظالم شيء كثير في مدة قصيرة ، وما خلت دولة مهما بلغ من سخفها وسخف القائمين بها من أنصار لها على الحق والباطل، وكثير من الأمور إذا نظرت إليها من وجهها راقنتك، وإذا ملت إلى الوجه القبيح أحصيت عليها بعض العيوب .

السلطان في دمشق وفي الطريق لفتح مصر :

جهز السلطان سليم جيشه في دمشق وقضى فصل الشتاء فيها يعمر بعض المباني . وقال صولاق زاده : إن السلطان سليماً كان مدة إقامته في دمشق يختلف في الأوقات الخمسة إلى الشيخ محمد بلخشي في جوار جامع بني أمية وإن السلطان سليماً لما كان يعتقد بالاستمداد من أرواح الأنبياء العظام الطاهرة ، وأرباب المقامات الشريفة لم يغفل هذا المقصد مدة إقامته في دمشق، ولما رأى قبر العارف بالله محيي الدين بن عربي قد تداعى وخربت تربته أمر بتعميره على ما يجب، وأنشأ بجواره جامعاً على أجمل طرز، وعمر زاوية بقربه ، ووقف على ذلك عدة قرى ومزارع . وقال أيضاً: إن السلطان سليماً صرف الأمراء

والجند فأخذوا دستوراً إلى مواطنهم ليقضوا فيها فصل الشتاء بعد أن استراح اثني عشر يوماً في المصطبة .

وذكر ابن طولون أن النائب بدمشق ابن يخشي نادى في ٢ ذي الحجة (٩٢٢) بالأمان والاطمئنان ، وأن لا ظلم ولا عدوان، ولا يحمل أحد سلاحاً، وأن لا يتكلم أحد فيما لا يعنيه .

سار السلطان عن طريق البر إلى غزة فعصت عليه ففتحها حرباً، والتقى جيش العثمانيين مع جيش المصريين في خان يونس بين غزة والعريش ، فشنت الجيش العثماني الجيش المصري، ثم عصت غزة والرملة فقمع نائر الغزاة فيها، وكانت الواقعة المهمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان اندحر فيها المصريون وقاد جندهم الغزالي. قال ابن طولون : وفي ١٦ ذي الحجة (٩٢٢) التقى سنان باشا الوزير الأعظم لملك الروم مع جان بردي الغزالي وكسر الغزالي فدقت البشائر بقلعة دمشق وسيب بها نفض كثير ثم نادى النائب بالزينة واستمرت مدة أسبوع .

ذهب السلطان سليم في جيشه إلى مصر وقتل الملك الذي كان بايع له المصريون بعد هلاك السلطان الغوري واسمه طومان باي، ففتح القطر المصري على أيسر سبب . قال ابن طولون : ولما وردت البشائر بفتح مصر زينت دمشق سبعة أيام ودارت مبشرو الأروام على بيوت الأكابر والحارات بالطبول والنايات ثم أتبعوها بزينة سبعة أيام لما ورد الخبر بأن السلطان سليماً أفنى الشراكسة وعاد السلطان عن طريق البر إلى الشام بعد تغيبه ثمانية أشهر ودخل دمشق (١١ رجب ٩٢٣) وفي يوم ٢٢ منه طلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء وتضرر الخلق بذلك ضرراً زائداً وتحقق أن السلطان عزم على الإقامة بدمشق فقلت الأسعار وعند ذلك شرع بعمارة تربة ابن عربي وصرف عليها عشرة آلاف دينار . ومن غريب التوفيق أن السلطان سليماً كان أعد في ذهابه إلى مصر خمسين ألف جمل لحمل المياه في الصحراء التي تفصل الشام عن مصر فأمطرت السماء مطراً غزيراً أغنى جيشه عن ماء الروايا، وسهل عليه قطع صحراء التيه .

وبينا كان السلطان سليم سائراً إلى مصر تأخر من جماعته من في الرملة، أناساً

فشاع الخبر أن أهل المدينة قتلوهم، وبلغ ذلك السلطان فأمر بقتل أهل البلد فقتلوا عن آخرهم ولم يبق فيها ديار ولا نافخ نار . ويقول القرماني : إن السلطان أمر بقتل عامة أهل الرملة عند عودته من مصر وقد بلغه الثقات أن أهلها قتلوا من كان عندهم من العسكر المجروحين . وقال ابن إياس : إن الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة أشيع في غزة أن الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان، فبادر علي باي دوادار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانيين وأحرقوا خيامهم وقتلوا ممن كان في الوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمئة إنسان ما بين شيوخ وصبيان وممن كان بها مريضاً، فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الأمراء رجع سنان باشا إلى غزة فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : من فعل ذلك بنا ؟ قالوا : علي باي دوادار نائب غزة، وأجناد غزة، ولم نفعل نحن شيئاً من ذلك ، فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا فيها قماش العثمانية وخبولهم وخيامهم فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم قالوا : لا . فقال لهم : كيف فعلتم بعسكرنا ذلك، فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم كثيرين وراح الصالح بالطالح .

ونصب السلطان والياً على مصر خير باي نائب حلب، ووالياً على دمشق جان بردي الغزالي نائب حماة، وأضاف إلى هذا القدس وغزة وصفد والكرك، وأما حمص وطرابلس والمدن البحرية فجعلها بأيدي عماله من الأتراك، وبقي الحال على ذلك مدة طويلة . وكانت ولاية دمشق تمتد من المعرة إلى عريش مصر على مال معين قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألف دينار . قال شمس الدين سامي : إن جانبردي الغزالي كان قائداً عاماً للجيش الذي أرسله طومانباي لقتال السلطان سليم فغلب في الواقعة التي جرت في غزة وفرّ ثم رأى أن يستأمن السلطان سليماً ويخدمه، فأعانه على قهر طومانباي وفتح مصر ثم كان سبباً لقتل طومانباي . ومكافأة لخدمته نصبه السلطان والياً على دمشق، أما حلب فقد نصب عليها قره جه أحمد باشا ودام فيها والياً ثلاث عشرة سنة لغناؤه وكفايته في خدمة دولته .

فتوح وغارات وتأذي السكان :

ولما مهد السلطان سليم الديار الشامية والمصرية عصى عليه محمد بن الحنشل المتغلب على صيدا والبقاعين وشيخ الأعراب (٩٢٤) ثم هرب وآتمهم الأمير زين الدين والأمير قرقماز والأمير علم الدين سليمان أنهم من حزبه فقبض عليهم الغزالي وبعث برأس ابن الحنشل ورأس ابن الحرفوش إلى السلطان سليم في حلب وأطلق سراح هؤلاء المعتقلين، وكان ابن الحنشل كثير العصيان على نواب حلب وعلى سلاطين مصر . ولما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من مقابلته، ثم اضطربت أحوال جبل نابلس وصار العربان ينهبون الضياع التي حول حاضرتها ويقتلون أهلها . وفي مدة إقامة السلطان سليم في حلب لادن عودته من فتح دمشق ومصر قتل بعض أشرار حارة بانقوسا، ولما بلغه أن الشاه إسماعيل الصفوي يريد أن يهاجم حلب أخذ يطيب خاطر الحلبيين ورفع عنهم ما كان أثقل كواهلهم به من الضرائب والمكوس وأنشأ يعني بتحسين حلب .

ومن أعمال الغزالي استيلاء العربان (٩٢٥) على الحاج الشامي فخرج إليهم ومعه نائب غزة ونائب الكرك، فاقتتل مع العربان وقتل منهم جماعة وغنم أموالهم . وفي السنة التالية أتى الفرنج إلى ساحل بيروت وحاصروا من بها فكسروهم وملكوا بيروت وظلوا فيها ثلاثة أيام، فلما بلغ نائب الشام ذلك عين دواداره^(١) ومعه الجمل الكثير من العساكر فتوجهوا إلى بيروت واقتتلوا مع الفرنج . وكان بين الفريقين واقعة قتل فيها كثير منهم وأسر ثلاثمائة إنسان منهم وغنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح وقماش، وقيل: أسروا جماعة من أولاد الملوك الفرنج وملكوا ثلاثة من كبار مرآكبيهم. ويقول ابن طولون: إنه قتل من المسلمين مئة ومن الفرنج أربعمائة جاءوا في زي الأروام وجيء برؤوس الإفرنج إلى دمشق (٩٢٦).

(١) الدوادار : حامل الدواة ويطلق في عهد المماليك على أشخاص يوصلون كتب السلطان ويقدمون إليه السفراء وغيرهم ممن يتمثلون أمام الملك .

وفي ذهاب السلطان إلى مصر وعودته إلى الشام قاسى الشاميون من اعتداء جنده كثيراً، فقطع الأجناد الأشجار ورعوا الزروع وأخرجوا أهلها من بيوتهم في كل بلد واحتلوا وتعدوا على أعراض الناس، فتضرر الناس بذلك وعرفوا أنهم أخطأوا في نفص أيديهم من أيدي الشراكسة لأول ما بدا لهم من قوة العثمانيين، وخاب رجائهم في أن تغيير الدول قد يكون منه رحمة، خابت الظنون لما جاء دور العمليات وغلط في الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير وأن الحظ يحفظهم متى خفقت أعلامها عليهم، وكانوا يرقبون طلعة العثمانيين منذ سنين رقبة هلال العيد، للاستمتاع بحكمهم الرشيد وعهدهم السعيد، ولطالما ساء فأل من يهتمون للأمر الجديد، ويفتحون له قلوبهم وصدورهم بادئ الرأي مع علمهم أحياناً بتهورهم، وأي فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة الخالفة على عورات الدولة السالفة، حباً بأن يكون لهم شيء من الراحة والهناء إذا تغيرت الدولة .

محاسن السلطان سليم ومساويه ومهلكه :

صرف السلطان سليم سنة وشهراً في فتح الشام ومصر وهلك بعد مغادرته القطرين بنحو ثلاث سنين (٩٢٦) وقد بالغ مؤرخو الترك في وصف فضائله خصوصاً من كتبوا بلسان الرسميات . وكثيراً ما يكون في الروايات الرسمية نظر كبير إذا وضعت على محك النقد التاريخي . وكان مؤرخو العرب أقرب إلى الثقة في وصف هذا الفاتح الذي هو بلا مرأى نابغة العثمانيين أو من نوابغهم بعد محمد الفاتح . ترجمه النجم الغزى في الكواكب السائرة بقوله : كان السلطان سليم سلطاناً قهاراً ، وملكاً جباراً ، قوي البطش ، كثير السفك ، شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن أخبار الملوك والناس ، وربما غير لباسه وتجسس ليلاً ونهاراً ، وكان شديد اليقظة والتحفظ ، يجب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية (التركية) والعربية .

ومما قال ابن إياس فيه : إنه لم يجلس بقلعة الجبل (بمصر) على سرور الملك جلوساً عاماً ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوماً من ظالم ، بل كان مشغولاً

بلذته وسكره ، وإقامته في المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه ، فكان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك دماء الشراكسة ، وما كان له أمان ، وكلامه ناقض ومنقوض ، لا يثبت على قول واحد كقول الملوك وعادتهم في أفعالهم . وقال أيضاً : إن السلطان سليماً قتل يونس باشا الصدر الأعظم وكان مقرباً جداً عنده ولكن ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ولا أمان منه لأحد من وزرائه ولا من عسكره ومن طبعه الرهج (الشغب والفتنة) والخفة ، ويجب سفك الدماء ولو كان لولده ، ويقال : إنه قتل أباه وإخوته ، لأجل مملكة الروم ، وآخر الأمر إنه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة .

وفي الواقع أن السلطان سليماً قتل وزيره حسن باشا في رحيله إلى مصر لأن هذا لاحظ أن في قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه ، ولما غادر السلطان مصر وألف جمل تحمل أمامه منها إلى الاستانة ما غنمه من الذهب والفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا في صحراء قطبة والسبب في ذلك أن السلطان اقترب من الصدر الأعظم وهو سائر معه وقال له : أرأيت كيف مصر الآن وراعنا وغداً نبلغ غزة . فلم يتمالك الصدر أن أجاب السلطان : نعم ولكن أي ثمرة حصلت من هذا التعب والمشقة ، إن لم يكن هلاك نصف الجيش السلطاني في الحروب ووسط الرمال ، وبقيت حكومة مصر بعد هذا في أيدي الخونة . فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضباً فضرب عنق الوزير في الحال ودفن في الخان الذي كان أنشأه بين مصر والشام يونس بن عبد الله التركي الدوادار بالقرب من غزة ، فدفن يونس باشا في خان سمي يونس الدوادار ، وعهد السلطان بالصدارة إلى ييري باشا .

وقال الشرقاوي : إن خير بك لما دفع إلى السلطان سليم مفاتيح مصر ردها عليه وولاه عليها إلى أن يموت فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول في جملة الأجناد فأجازه بذلك ، وشاوره في إبقاء أوقاف الشراكسة وهي نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجازه بإبقائها على ما كانت عليه ، فتشوش وزيره وقال : فني مالنا وعساكرنا ، وتبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها ، فقال السلطان سليم : أين الجلاد وكانت إحدى رجليه في الركاب فضرب عنق

الوزير ووضع رجله الثانية في الركاب . وقال : عاهدناهم على أنهم إن مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها وجعلناهم أمراءها ، فهل يجوز لنا أن نخون العهد ونغدر؟ وإذا أدخلنا أبناءهم في جندنا فهم أولاد مسلمين ويغارون على ديارهم ، وأما أراضيهم فأصلها ملك القائمين ومنهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده ، فهل يجوز أن ننازع الملاك في أملاكهم ؟ وأنا أزلت الوزير كراهة أن يغير عليّ اعتقادي بتكرار كلامه اه .

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر وألطفه ، وكان شديداً جداً على وزرائه قتل منهم سبعة لأسباب تافهة . وقال القرماني : إنه خنق إخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر نفرأً وذلك حين توليه الملك وجرى عند الأتراك في حكم الأمثال قولهم : من أراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ، لأن لقب وزير كان شهادة على الموت العاجل . وقال صولاق زاده : في عصر سليم كان الوزراء أبدأ عرضة للتنحية ثم للقتل بعد شهر من تنصيبهم ، ولذلك اعتادوا أن يحملوا معهم صكوك وصاياهم ، وكلما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون أنهم عادوا إلى الحياة بعد الموت . وقد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقي بأنه أقسى البشر قلباً لا يحلم بغير الفتوح والحرب اه . ولم يكن السلطان سليم يراعي من جميع رجاله إلا المفتي الأعظم زنبيلي علي أفندي ، وكان هذا قوالاً بالحق وكثيراً ما كان يرده عن مظالمه ، ويحول بينه وبين إزهاق النفوس بلا حق ، وقد أنقذ بعمله من القتل مئات من البشر ، وهذا المفتي العظيم تولى مشيخة الإسلام ستاً وعشرين سنة على عهد ثلاثة سلاطين وهم بايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان الأول :

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار أكثر من ثماني سنين وثمانية أشهر ، ولم يعمل في الشام إلا أن أقرّ القديم على قدمه في أسلوب الأحكام ، وغنم ما تيسر من ثروة الممالك والأغنياء ، وزاد في الضرائب والمكوس ، ونصب حكاماً ممن استأمنوا إليه أو خانوا الدولة الأولى وتقربوا إليه منذ دخل حلب ووضع قيد الأسر للخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس بمصر ، وأخذ معه لما انصرف إلى الاستانة ، ثم ألقى الاختلاف بينه وبين أولاد عمه أبي بكر وأحمد . وقال ابن إياس : إن السلطان سليماً تغير خاطره على الخليفة

المتوكل على الله وأرسله إلى مكان عسر يقال له الست أبراج والمظنون أنه كان هناك آخر العهد به فقتله وأشاع بين الملا أن مات ، ولا يستكثر ذلك من ملك قتل أباه لأجل الملك فضلاً عن إخوته وآله. ويقول « نامق كمال »: إن الخليفة العباسي قد تخلى لال عثمان عن حقه في الخلافة في جامع أياصوفيا علناً . وفي رواية أن الخليفة بقي إلى زمن السلطان سليمان وأنه أطلق من سجنه ووسع عليه وقال بعضهم: إنه أذن له بالسفر إلى مصر فسافر إليها ومات بها. وروى المؤرخون أن السلطان سليماً كان يريد أن يعمل عملاً نافعاً للأمة بأسرها . كان ينوي أن يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية فعاجلته المنية قبل إتمام هذا العمل الجليل . والغالب أنه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر والشام وخطب له في الحرمين الشريفين فسبحي فاتح ممالك العرب ، فرأى أن العرب في مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وأن الترك هم عنصر الدولة الأصلي لا يشق عليهم أن يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق والأرناؤوط والكرد واللاز والشركس والكرج . ولو وفق السلطان سليم إلى إنفاذ هذه الأمنية لخلصت الدولة العثمانية في القرون التالية من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جملة العرب عناصر كثيرة مهمة، ولزاد انتشار اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطناً لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة .

خارجي خان أولاً وثانياً :

أصبحت الشام بالفتح العثماني آمنة عزوات الشمال والشرق والجنوب ، وصارت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من هذه الواجهة ولكن أصبح أعداؤها في داخلها ومن أهل دولتها . فتحت الشام ومصر في وقتين مهمتين وما عداهما فمناوشات لا يؤبه لها . فلما رحلت القوة وخلا الجو لجان بردي الغزالي نائب دمشق حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة وصعب على طبعه إلا أن يخون سيده الثاني كما خان سيده الأول :

ومن يتعود عادة ينجذب لها على الكره منه والعوائد أملاك
ففاوض بعض أمراء لبنان والعربان فوعدوه أن يمالئوه على عمله ، ودعا
لنفسه بالسلطنة في دمشق وبايعه الناس على ذلك طوعاً أو كرهاً ، ووافق على

عصيانه الأعراب والمماليك ولقب نفسه بالملك الأشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له دمشق ثلاثة أيام وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وقبل له الأمراء الأرض وقد جمع العسكر الكثير ، وخطب باسمه على منابر دمشق وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة . وأرسل إلى أمير الأمراء بمصر ليقوم معه لنزع حكم العثمانيين عن مصر والشام فتمّ عليه للسلطان ، فقام الغزالي وحده مدفوعاً بتثييط زعانف السكان والمماليك والعربان والأكراد أتباع كل ناعق ، وكثر الملتفون عليه حتى تسحب المماليك إليه من مصر وكثروا سواده . وذكروا أن من اجتمع عليه من الجند كان خمسة عشر ألفاً من المماليك والتركان وثمانية آلاف ممن يضربون البنادق .

ولما بلغ قراجة باشا والي حلب موت السلطان سليم كان بعسكره في حيلان فرجع إلى حلب وحصنها واستخدم خلقاً كل إنسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال السلطان شهرين ، وأعطى الانكشارية كل واحد ألفين والاصباهية كل واحد ألفاً زيادة على الراتب ، وخرج إلى قرية سرمين وقرية داربيخ ونهبهما ، فخرج إليه أمير شيزر من جهة الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وغنم منه جماعة وجهاز رؤوسهم إلى دمشق ، ودخل نائب حلب إليها مكسوراً ووصل عسكر الغزالي إلى الأنصاري وخرج إليه عسكر حلب . فأرسلت الدولة على الغزالي فرهاد باشا في ثمانية آلاف انكشاري عدا من انضم إليه من قوى الأناضول وكان معهم ثمانية عشر مدفعاً كبيراً .

سار الغزالي إلى حلب ليستولي عليها فحاصرها مدة ولم يقدر عليها لصديق أهلها في قتاله ، وداهمه الجيش العثماني بما أتاه من المدد فانكسر ، وجاء إلى حماة فتبعه العسكر العثماني واقتتلوا معه فهرب منهم ، وقصد التوجه إلى دمشق وخرّب في طريقه قناطر الرستن على العاصي فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة دارت خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف إنسان وقيل أكثر من ذلك ، بينهم عربان ومماليك وجماعة من عوام دمشق وفيهم أطفال وصغار من أهل الضياع وغيرهم ممن حضر القتال . قال ابن إياس : وكانت هذه الواقعة تقرب من وقعة تيمورلنك لما ملك الشام وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرقت ضياع وما أبقوا في ذلك ممكناً . وليس الخبر كالعيان .

ثم نودي في دمشق بالأمان سنة (٩٢٧) وقد خرب نحو ثلثها من ضياع وحرارات وأسواق وبيوت ، وأصاب حلب وحماة وحمص من خراب القرى وهلاك الأنفس وذهاب الأموال شيء كثير .

كان الغزالي لما جاء دمشق مهزوماً من الجيش العثماني قتل خمسة آلاف انكشاري جعلهم السلطان سليم حامية عندما فتحها ، وذلك مخافة أن يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم وليمة وقتلهم على بكرة أبيهم شر قتلة . ثم دارت الدائرة عليه وتشتت جيشه فقتله خازن أمواله وجاء برأسه إلى القائد التركي ، فذهب ودولته الموهومة لم ينل الشام منه إلا الضغط والشدة بعدها .

قال المقار : إن الغزالي استولى على دمشق وطرابلس وحمص وحماة وحلب وخطب له بالجامع الأموي بأنه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالأشرف ، وأن الدولة أرسلت عليه جيشاً من ثلاثين ألفاً وأربعة آلاف انكشاري ومعهم مائة وثمانون عربية ، فالتقى عسكره وعسكرها عند قرية الدوير ، وتواصل العسكر الرومي وركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر وقطع رأسه ، ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية العسكر الهاريين إلى الصالحية ونواحي دمشق وارتجف الناس رجفة عظيمة وقتل من شباب الصالحية نحو الخمسين ومن كل حارة نحو المائة وكذا من القرى، وقيل: إن عدد القتلى ٧٠٧٠، وهجم العسكر على الصالحية والأحياء والقرى، فكسروا الأبواب وحواصلها وبيوتها ودكاكينها وغير ذلك وأذوا النساء فضلاً عن الرجال فلم يحترموا صوفياً ولا فقيهاً ولا كبيراً ، وكانت النساء قد اجتمعن بجامع الحنابلة ومدرسة أبي عمر وغيرهما فهجموا عليهن وعروهن وأخذوا بعض نساء وجوارٍ وعبيد وصبيان ، وجهاز الباشا رأس الغزالي ومعه نحو ألف أذن من المقتولين إلى السلطان سليمان . وبعد هذه الواقعة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل إياس باشا في دمشق ، وفرحات بك في طرابلس، وقره موسى في غزة . أما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية ومنقذها من الغزالي فقد ضحى الناس من شدته وبأسه وتمثيله بالبريء والمجرم على السواء .

طبيعة الدولة العثمانية :

بقي أرباب المقاطعات في الدولة العثمانية كما كانوا في دولة المماليك . يضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها ، ويعرقون اللحم والعظم بعد ذلك لحسابهم ، مثل أمير عرب الشام مدلج بن ظاهر بن آل جبار وكانت منازل قومه في سامية وعانة والحديثة، والأمير فخر الدين المعني الأول حاكم الشوف، وجمال الدين الأرسلافي حاكم الغرب، وبنو شهاب في وادي التيم، وبنو الحرفوش في بعلبك، وبنو ساعد أمراء البر وهوران وعجلون وغيرهم في غيرها، وكلهم أشبه بأمراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن ، والمقتدر منهم الذي كان على صلوات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله ، ومن يجعل له وكيلاً يرجع إليه في أعماله في دار السلطنة ، وإذا غضب الوالي على الأمير المتغلب يرسل عليه جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة (٩٣٠) مع أمير الشوف ، فيخرب العسكر قراه ويستصفي أمواله ويأسر أهله ورجاله ويسبي نساءه . فعلوا ذلك مرات في لبنان والبقاع وبعلبك ووادي التيم وغيرها ، وينشأ هذا الغضب من تأخرهم عن تأدية الخراج ، أما المظالم التي تنزل بالناس فحدث ما شئت أن تحدث عنها .

كان من قواعد الدولة العثمانية إذا فتحت مصرراً أن تولي أميرها الكبرى لولاتها وقضاها والصغرى لأبناء البلد المفتوح ، وتلقي حبلها على غاربها لا تهتم لتنظيمها اهتمامها لفتح أراض جديدة، وإذا كان الولاة يبتاعون مناصبهم على الأغلب بالميزاد في دار الملك ، كان المزايدون في الأكثر من الساقطين في أخلاقهم ، لا يتأخرون عن ارتكاب كل محرم ليسلبوا الرعية ما أمكن فيملاًوا خزائهم وخزائن من حملوهم على رقاب الأمة . وساعد على إيغال العمال في الفساد قلة المواصلات ، وبعد دار السلطنة عن أكثر الولايات ، فبين دمشق والاستانة مثلاً ١١٠٠ كيلومتراً و ٣٨٦ ساعة، وإن قدر لأرباب الظلامات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصاعب لبث شكواهم إلى السلطان ، كان بعض أصحاب الشأن يحولون دون ذلك ، فكانت الشام كله يستأثر بها وال أو واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون مراقب إلا من ذمتها ، فإذا

كانا ممن تجردا منها فهناك البؤس والنحس ، وضياح الحقوق وفساد النظام . قال جودت في تاريخه : إن الدولة العلية لما انتقلت من دور البداوة إلى دور الحضارة لم يتخذ رجالها الأسباب اللازمة لهذا الانتقال ، وحصروا أوقاتهم في حظوظ أنفسهم وشهواتهم ، يقيمون في العاصمة القصور الفخمة ، ويفرشونها بأنواع الأثاث والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم فاضطروا إلى الارتشاء وبيع المناصب بالمال وتلزيم الأقاليم وإقطاعها بالأثمان الفاحشة ، فضاقت ذرع الأهلين ، واضطر كثير من أهل الذمة أن يهجرُوا الأرض العثمانية إلى الخارج ، وترك غيرهم القرى وجاء الاستانة فراراً من الظلم فلم يبق مكان في الاستانة ، وتلاصقت الدور وتضايقت أنفاس الناس وكثر الحريق والأوبئة ، وصعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الضخمة من الحبوب فأصبحت الحكومة تأتي بها من القاصية ، والتجارة ليست من شأن الحكومة اه .

من أمثال الترك السمكة تفسد من رأسها ، وحقيقة أن فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة أيام كان يقبض فيها على زمام الأحكام غالباً جهلاء ظلام و صموا بسلب الناس بكل حيلة ، حتى ينعموا بما يجمعون في قصورهم ومصايفهم على ضفاف الخليج والمضيق في فروع . وإذا صادفت العناية أن تولى الصدارة رجال عظام على شيء من حسن الإدارة وقوة الإرادة ، فإن رئاسة النظار كثيراً ما تولاها في السلطنة العثمانية الندماء والسخفاء بل الطباخون والطهاون والمزينون والبساتنة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي ، أو الزنوج الحصيان الذين كانوا يولون ويعزلون كما يشاؤون ويشاء ضيق عقولهم .

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها إذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو ، فلطالما ولي المشيخة الإسلامية في الترك أغبياء أدنياء في منشئهم ومسلكتهم ممن ليس لهم من العلم الديني إلا قشوره وشارة أهله وعلى نسبة وسائط بعضهم وكثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء أحدهم إلى المناصب العليا ، وهذه الطبقة لا تقرب إلا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد . ومثل هؤلاء الرجال إذا كان لهم قوة يستندون

إليها وهي جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه ومعناه . فإن هذا الجيش الذي قدم للدولة لأول أمره خدمات جلي وفتحت به الفتوحات عاد فمحق باختلاله واعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت له .

ولئن خلف السلطان سليماً ابنه السلطان سليمان القانوني وهو العاشر من ملوك آل عثمان سنة (٩٢٦) وكان على جانب من العقل وحب القانون ، إلا أن الشام أصبحت في أيامه الطويلة التي دامت ٤٨ سنة في معزل لأن السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثني عشرة مرة وخرج في أكثرها ظافراً ، فلا يهيمه كأكثر أجداده وأحفاده من كل ما يفتح إلا أن تضرب السكة وتقام الخطبة باسمه وتجي الجبايات ولا يتأخر الولاية عن إنفاذها إلى دار الملك، فكانت الشام جزءاً صغيراً بالنسبة لضخامة ملكه ، فلم ينلها منه شيء من العدل والإشراف ينسبها ما لاقته في القرن السالف من التقلل والانحلال .

وكان السلطان سليمان بطاشا كأبيه ولكن لم يشتهر شهرته ، هاج مرة أهل حلب في أوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاضي والمفتي فصدرت إرادته السنية بقتل جميع أهل حلب لولا أن كان في الصدارة إذ ذاك رجل عاقل اسمه إبراهيم باشا ، فألغى هذا الأمر البربري واكتفى بقتل زعماء الثورة . وإبراهيم باشا كان على جانب من الأخلاق الحسنة والذكاء تولى الصدارة من سنة (٩٢٩-٩٤٢) اي ١٧ سنة وقام بإصلاحات مهمة ثم قتله السلطان وندم على قتله ، ولا عجب إذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الأكبر مصطفى وحفيده وابنه بايزيد وأولاده الخمسة على أفضع صورة .

كوائن داخلية وأمراء المقاطعات :

ومن الأحداث في الشام بعد فتنة الغزالي ما وقع في سنة (٩٢٧) من ثورة جماعة من عربان دمشق على النائب اياس باشا، خرج إليهم فانكسر وجرح ورد إلى دمشق وهو مكسور وقتل من عساكر دمشق كثير ومن عربان نابلس أيضاً ، وكانت فتنة بدمشق . وفي سنة (٩٢٨) كان مقتل حسن وحسين أولاد الأمير عساف في بيروت ، وذلك لما كان من الاختلاف بينهما وبين أخيها الأمير قائدبيه على الحكم فتوسط بينهما حتى طلبا الصلح ونزلا على أخيها قائدبيه

فغدر بهما وقتلها فحكم قائد بيه جبل كسروان حتى مات سنة (٩٣٠) وخلفه الأمير منصور ابن أخي الأمير حسن وامتد حكمه إلى عكار . وكانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد أغا شعيب من أهل عرقة ويستأجر الأمير منصور جبيل والبترون وجبة بشرة والكورة والزاوية والضنية . وفي سنة (٩٣٠) جهز والي دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز في الشوف فانتصر عليهم وأحرق قرية الباروك وثلاثاً وأربعين قرية ، وأرسل إلى دمشق أربعة أحمال من رؤوسهم فعلقت على القلعة ورجع ومعه مجلدات من كتب الدروز ، ثم أرسل أربعة أحمال من رؤوسهم وأحرق نحو ثلاثين قرية ونهب قرية البرج وسبي نحو ٣٦٠ من النساء والأطفال وغنم ما لا يحصى من البقر والجمال والغنم وغير ذلك .

وفي سنة (٩٣٥) وقع قتال بين أولاد شعيب وأولاد سيفا أمير التركان وقتل علي الشعبي في عرقة وتولى أولاد سيفا عكار، ثم قتلوا محمد أغا شعيب حاكم طرابلس قدام القاضي فأعطاهم القاضي فتوى بأنهم أبرياء من دمه وأنه هو ألزمهم بذلك . وفي سنة (٩٤٠) وقعت فتنة أهلية في العاقورة وجبة المنيطرة في لبنان نشأت من خصام بين مالك اليميني وهاشم العجمي من مشايخ العاقورة ، وكثرت الدسائس بين بني الحرفوش أمراء بعلبك وآل سيفا حكام طرابلس ، وأخذ أبناء العم يقتلون أولاد عمهم للاستئثار بالإمارة ، وخربت بعض تلك الديار ومن القرى ما نزع سكانه عنه . قال الشهابي : وكبر قدر بني حبيش عند ابن سيفا وصاروا متصرفين في تدبير حكمه وبقيت العاقورة خراباً سبع سنين لم يقطن فيها أحد . ثم إن القيسية سكنوا في طرابلس واستحصل اليمينية أمراً من نائب دمشق ورجعوا فبنوا العاقورة ثانية وفي سنة (٩٥١) توفي الأمير فخر الدين بن عثمان بن معن الذي حكم من حدود يافا إلى طرابلس وبني بنايات وقلاعاً عظيمة واستراح الناس في حكمه وأطاعته العرب وخلفه ولده الأمير قرقماز، وبعد وفاة فخر الدين امتد حكم الأمير منصور بن عساف من نهر الكلب ببيروت إلى حدود حمص وحماة وقوي بماله ورجاله .

مهلك السلطان سليمان وتولي سليم السكير :

توفي سليمان القانوني سنة (٩٧٤) ولا شأن للشام في عهده إلا أن تظهر شعورها بأخبار انتصاراته وغاراته ، وفتح قلاعه ومعاقله التي كان يملأها بجند الانكشارية ولكي يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقتضي له من النفقات الباهظة ما تنوء به قوة الرعايا ، وكان أهل الإسلام يودون بعد تكبير رقعة الملك في آسيا أن تصح إرادة الدولة على فتح فارس وقد بدت أمارات الهرم فيها فتتصل بالهند ، وذلك خير من أن تفتح المجر وتحارب امبراطور ألمانيا وتؤلب عليها دول أوروبا . ذكر ضيا باشا أن الأتراك بددوا شملهم في الحروب والقلاع والأرجاء البعيدة وجعلوا أنفسهم في أوروبا وراء سور من المرابطين يقلي عكسهم وتربيتهم يوماً فيوماً ، وفيه أمم من الخرواتين والبغار والروم لم تخترملة الإسلام ، وفي آسيا العرب والأكراد والزيدية والشيعة نشأوا وكبروا ببذر الفساد الذي بذره الشاه إسماعيل ، فكان الأولون خصماء للإسلام والآخرون خصوم الأتراك ، كانت مناداتهم بنصر السلطان من الألسن لا من القلوب ا هـ .

خلف السلطان سليمان ابنه سليم الثاني ، وهذا لم يذكر اسمه في الشام إلا على منابرهما فقط لأنه كان شريباً خميراً حتى لقب بسليم السكير وله من أعمال الخلاعة ما ينجل منه ، ولم يخرج من الاستانة للغزاة ، وهو أول ملك من آل عثمان تخلى عن الحرب بنفسه، ومات على سريريه في قصره، على حين كان أجداده يموتون في الحرب وفي طريق الغزو والفتح . وفي أيام سليم الثاني فتحت قبرس وكانت للبنادقة وهلك وأسر من أهلها نحو ثلاثمائة ألف إنسان في بعض الروايات .

هلك سليم الثاني سنة (٩٨٢) بعد أن حكم ثماني سنين وستة أشهر وخنقوا أولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة . وفي أيامه جاء أمثال محمد الباشا الصقلي من الصدور العظام ، الذي تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الإصلاحات ، وأهمها إثنان في العصاة وأرباب الدعارة ، وجاء غيره من الرجال الذين يعدهم الأتراك من العظام . ولكن الشام لم تر

طلعة هذا الملك كما أنها لم تشهد من والده من قبل شيئاً من خطط الإصلاح ولا من القوانين النافعة ، ولا شاهدتهم أو وكلاءهم يشرفون على الشام ليرفعوا الضيم عن أهله ، وفي عهده (٩٨٠) وزع القشلق (أي العساكر المشتية) على الشام ونهب عسكر الدولة لبنان وما إليه وسلبوا سائمتهم وأسرفوا في الظلم ، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها، وأقفرت في لبنان قرى كثيرة وفي الدر المنظوم أنه قتل من المواردنة في تلك المعمة نحو ثلاثين ألفاً (كذا) عدا الذين قتلوا في ليماسول في جزيرة قبرس حين حاصرها الأتراك وفتحت سنة (٩٧٨) .

عهد السلطان مراد الثالث وحملات على أرباب الدعارة :

وفي سنة (٩٨٢) تولى الملك مراد الثالث فقتل إخوته الأربعة وكانت همته مصروفة إلى توسيع حدود مملكته أيضاً وفي أيامه (٩٩١) وجه عسكرياً إلى لبنان لحرب المواردنة للشكاوى التي قدمت إليه من طائفة الروم في سواحل طرابلس بأنهم أخربوا تلك الكور . وفي سنة (٩٩٣) ولي السلطان خسرو باشا إيالة الشام وجاء دمشق وتخاصم مع محمد علي باشا الوند الوالي السابق مدة شهر ، ثم استقرت الحال على تولية علي باشا وانفصل خسرو باشا ، وكانت مدة ولايته سبعة أشهر ف عزل ثم خلفه جامورجى محمد باشا وبقي في الولاية أربعة أشهر ثم خلفه علي باشا مرة ثانية وبقي والياً أربعة أشهر . وفيها سرقت الخزينة السلطانية في جون عكار في طريقها من مصر إلى الاستانة فوجهت الدولة إبراهيم باشا وضربت على أيدي المعتدين ، وسار جعفر باشا حاكم طرابلس وأحرق إقليم عكار ، وتقدمت الشكايات من حاكم طرابلس على الأمير محمد بن عساف وعلى أمراء الدروز بأنهم هم الذين سلبوا الخزينة ، فسار إليهم إبراهيم باشا ولما وصل إلى عين صوفر حضر إليه عقال الدروز فغدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل . ويقول كامل باشا : إن إبراهيم باشا لما جاء من مصر إلى الشام كان في عشرين ألف جندي ودعا أمراء الدروز إلى المعسكر فأبى ابن معن أن يجيب الدعوة لأن والي دمشق مصطفى باشا كان استدعى أباه وغدر به وقتله فأقسم هو ألا يجيب دعوة أحد من رجال العثمانيين ، فأحرق الجيش العثماني ٢٤ قرية من قرى ابن معن وقتل الدروز القائد أويس باشا مع خمسمائة

من جنده ، وطلب إبراهيم باشا ترحيله فأرسل اليه ابن معن مئة ألف دوكا و ٤٨٠ بندقية وخيلاً وأشياء ثمينة ، ولما تسلمها الوزير العثماني أمر بإحراق ١٩ قرية من قرى ابن معن وأعدم ثلاثمائة من رجاله ، وفي خلال ذلك كان الأسطول العثماني أخرج إلى صيدا أربعة آلاف جندي وضرب الساحل وأخذ ثلاثة آلاف أسير . قال البوريني : إن إبراهيم باشا لما خرج من مصر خرج بأموال عظيمة وتحف كثيرة منها أنه جعل للسلطان مراد تحنّاً من الذهب مرصعاً بالجواهر العظيمة ورجع ومعه عساكر مصر ، وجمع عساكر الشام وحاكمها إذ ذاك أويس باشا وكبس جبل الشوف فقتل ونهب وحرق وأخذ منهم أموالاً جمّة وحاصروهم محاصرة عظيمة حتى إن أميرهم قرقماز بن معن مات قهراً .

وفي سنة (٩٤٤) أراد جماعة من أقارب الأمير علي الحرفوش صاحب بعلبك أن ينزعوا حكومتها من يد أبي علي الشهير بالأقرع بن قنبر لأنه من غير أولاد الأمراء ، وحكومة بعلبك متوارثة لبني الحرفوش ، فعرف ابن الأقرع ما دبّر له فجاهه ألفاً رجل جمعهم بنو حرفوش من كسروان والشوف وعين دارة وأرادوه على أن يخرج بعياله وبمن يلوذ به حيث شاء فأبى إلا قتالهم ، واستنجد بالأمير قرقماز بن الفريخ أمير البقاع وبغيره من التركمان والعرب فولى الدروز هارين فتبعهم أهل بعلبك يقتلونهم ، وقتلوا منهم ألفاً وثمانين قتيلاً ولم يقتل من جماعته سوى شخص واحد . قال البوريني : وكان أصلح له ولجماعته طعاماً قبل المعركة فقاتل أعداءه ورجع والطعام لم يبرد وأرسلت الرؤوس لدمشق لتعرض فيها . ثم قتل علي بن الحرفوش ابن الأقرع وندم على قتله ، وأخذت الدولة بعد ذلك الأمير ابن الحرفوش إلى دمشق بالأمان وقتلته وقتلت معه عسافاً الكذاب الذي ادعى انه ابن طرباي أمير اللجون .

بنو عساف وبنو سيفا وابن فريخ وخراب البلاد :

وفي سنة (٩٩٩) جمع الأمير محمد بن عساف الرجال وسار لطردي يوسف باشا بن سيفا من عكار ، فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله وكن له في العقبة بين البترون والمسيلحة وقتله هناك ، ولم يكن له ولد فانقطع نسله ، وكان لبني

عساف في كسروان ٢٣٢ سنة فانقرضت دولتهم تلك السنة . ذكر المؤرخون في حوادث سنة (٩٩٩) أن منصور بن فريخ أعيد إلى لواء صفد وأعطى قرقماز لواء نابلس وصاحبه الدالي على لواء عجلون ، وذلك بالتزام مال لجهة السلطنة قدره ثمان كرات كل كورة مائة ألف دينار غير ما ينوبها من الكلف . وقد خرب ابن فريخ هذا كوراً كثيرة وقتل خلقاً ، وكان في أول أمره بدوياً من خدام ابن الحنشل فترقى به الحال إلى أن التزم مالا عظيماً على لوائي صفد ونابلس وإمارة الحج وعمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قب الياس ، وشرع في عمارة دار عظيمة خارج دمشق واستعمل فيها العملة بالسخرة ، وقد خُتق في قلعة دمشق لظلمه وتخريبه العملات التي استولى عليها خصوصاً البقاع وصفد ونابلس .

وفي سنة (١٠٠٠) أمر قاضي دمشق مصطفى بن سنان بقيام النواب من المحاكم وإغلاق أبوابها فأغلقت أسواق البلد كلها ، وسبب ذلك أن الدفتردار محموداً ارتشى من ابن الأقرع بخمسة عشر ألف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فأدى ذلك إلى خراب بعلبك ظاهرها وباطنها ، ورحل أكثر أهلها حتى تعطلت الأحكام الشرعية بها وعتا بها ابن الأقرع وأتباعه وصادر الناس مصادرة ليوني بها المال الذي التزم به للسلطنة .

وكان المكس في هذه الحقبة حتى على الخمر والحمارات يتقاضاه كل من كان باشا دمشق يلتزمه صاحب الشحنة وهو من كبراء الانكشارية بمال كبير يدفعه للبasha ويحرق الأخضرين في جبايته ، وكان من الولاة في ذلك الدور في الشام الصالح والطلح مثل سليمان بن قباد باشا الذي تولى نيابة القدس وقطع دابر المفسدين ثم تولى محافظة دمشق (٩٩٠) وكان ينوع العذاب للسرقات وقطاع الطريق .

ومنهم من خلفوا آثاراً مثل خسرو باشا وعادلي محمد باشا وبهرام باشا من ولاة حلب فإنهم بنوا مدارس وجوامع فخمة في الشهباء ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي دمشق سنة (٩٨١) خمس سنين وقد مدحه ابن بدير والمقار ووصفه هذا بأنه صاحب الخيرات والحسنات وأنه عمر تحت القلعة بدمشق الحان والحمام اللذين لا نظير لهما وأثنى أيضاً على مراد باشا الذي

تولى دمشق سنة (٩٧٦) وعمر جامعاً في السويقة المحروقة وهو صاحب خيرات وحسنات أيضاً .

وأثنى المؤرخون على أحمد بن الأمير قانصوه الغزوي الساعدي الذي تولى إمارة عجلون وما والاها من كور الكرك والشوبك بعد وفاة أبيه، وباشر الإمارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة مراد بن السلطان سليم وقالوا: إنه كان قليل الأذى للرعايا وهو من قوم لهم قدم في الإمارة في هاتيك الديار ، كانوا في زمن الشراكسة أمراءها وكان من أجداده محمد بن ساعد أميراً في جبل عجلون . ومنهم درويش باشا نائب دمشق وصاحب الجامع المنسوب اليه وخان الحرير (٩٨٧) ومن ظلمتهم والي حلب حسين باشا المتوفى (٩٤٩) كان كثير القتل سفاكاً للدماء على صورة قبيحة من تكسير الأطراف والإحراق بالنار والمحرق حي وغير ذلك ، متناولاً للرشى لا نفع له سوى مضرة اللصوص ، ومن سفاكيهم العظام سنان باشا فاتح اليمن وصاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق وقد ذكر ابن المقار جريدة مخلصاته التي أرسلت إلى الاستانة بعد موته فإذا هي تساوي بضعة ملايين من الدنانير . وقد قال مؤرخو الترك: إن الخيرات التي قام بها سنان باشا في ممالك مختلفة من جوامع ومدارس وتكايا وخانات تقدر نفقاتها بمليونين ليرة ذهب بسكة زماننا ، وإن ما عمره من المعاهد والمباني الفخمة في الأقطار التي نزلها تناهز المئة . لا جرم أنه من العتاة الطغاة الذين يجيزون خراب الولايات ليعمروا جيوبهم وخزائنهم ، وأعمالهم الخيرية قد تأتي بالعرض أو لحب الشهرة . وأقبح بصدقة أو عمل خير يكون أصل ما أنفق عليه من قتل الأنفس والمال الحرام .

حالة البلاد في الحكم العثماني :

حكم الشام في هذه الحقبة من الزمن أي مدة ٧٨ سنة أربعة من ملوك آل عثمان وهم سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث، وظلت روح الدولة في هذه الديار لم تتغير . ولئن جاء فيهم واضع القوانين المدعو بالقانوني السلطان سليمان وطال عهده على ما لم يقع له مثال في تاريخ هذه الدولة ، فإن الشام كانت حاله بعد الفتح العثماني تنتقل من سيء إلى أسوأ، والوالي أو

الولاية في هذه الديار يكونون على الأغلب ممن لا ذمم لهم ولا قدرة إلا على جلب المغامر لأنفسهم ، وإزهاق الأرواح في ذلك العصر من الأمور الهينة التي لا تستغرب .

بعد الفتح العثماني واندحار المماليك في مرج دابق والضرب على أيدي العصاة في فلسطين ، كان الرجاء معقوداً أن تخلد الشام إلى الراحة ويرفرف عليها طير السعد ، فزادت المكوس والضرائب على وجه قاس ، وكثر فساد جيش الدولة من الانكشارية والسباهية ، فكان يأتي على الأخضر واليابس في المدن والقرى ، خصوصاً إذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتي فيها ، وهناك يزيد الاعتداء على البيوت والأعراض والأموال . وربما تخطفوا النساء والأولاد في الأزقة رابعة النهار ، وفي أول حكم السلطان سليمان أي بعد أربع سنين من الفتح كان ما كان من عصيان الغزالي فهلك كثير من الأبرياء في دمشق وحلب ، وارتكب الوزير فرهاد باشا لتسكين الفتنة والضرب على يد الثائر من الشدة ما عجز بالشكوى منه كل إنسان .

ويمكن حصر مصائب هذا الدور في أمور ثلاثة : ظلم الوالي ويكون في الغالب عاتياً مرتشياً ، وظلم الجند في حلهم وترحالهم ، وشقاء الديار بصغار الأمراء من أهلها ، في الجبال والسهول ، وكبار أرباب النفوذ في المدن . وهذه الطبقة تطورت تطوراً جديداً في عهد العثمانيين فكانت من أكبر الأسباب في فساد البلاد ، ولو صلحت وسلمت من ظلم بعضها بعضاً لما استطاع الوالي التركي والقاضي التركي والقائد التركي أن يعملوا مباشرة في هذا القطر عملاً مضرراً . وأهم من هذا وذلك أن الدولة العثمانية على عهد عزها لم تفكر إلا في الفتوح ، وفي حرب من يجاورها من صغار الأمراء والملوك ، حتى إذا كانت أيام إدبارها وهي تبدأ من أواخر سلطنة سليمان القانوني ، كانت هممتها مصروقة إلى قمع الفتن الأهلية ، ورد عادية أعدائها عن مملكتها الواسعة .

إن ابن الشام لا يهتم كثيراً إذا بلغت جيوش الدولة العثمانية أواسط أوروبا في فتوحها وفتحت بودابست وأشرفت على فينا ، وإذا فتح سليمان زهاء ثلاثمائة حصن وقلعة ، وأصبح اسمه في الغرب مضرب الأمثال في الرهبة ، فكانت بعض الأمهات يخوفن أبناءهن باسمه إذا أردنهم على الرقود والكف عن البكاء ،

ولا يهتم ابن الشام أيضاً إذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من أموال المغانم والمغارم ، ما دامت طرق الجباية عنده منهكة لقواه ، وما دام الولاة يسفون لأخذ المكوس لأنفسهم من الحانات ومن المسكرات ، وما دامت الضرائب تستوفى حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل إليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان والإيجار ، وما دام الأمن مختل النظام وأهل البادية ولصوص الأعراب على عاداتهم في السلب والنهب ، ومن المتعذر أن ينتصف المظلوم من الظالم ، وأن تعمل الدولة في باب العمران جزءاً مما تأتي في تخريبه .

وضع السلطان سليمان قوانينه وما ندري إذا كانت وصلت إلى هذه الديار ، وهب أنها انتهت إليها فهي في السجلات محفوظة ، لم يطبق منها إلا ما لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل بمضامينه . وما دام القانون السماوي الذي عملت الشام به منذ الفتح الإسلامي غير نافذ على ما يجب ، فما الحال بقانون يعمله رجال قد يغيرون من الغد اجتهادهم وهو يتعذر تطبيقه وإنفاذه؟ بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسميات وأخذت تلقي الشغب بين العلماء ، وذلك برتب اخترعتها لهم وجرايات أدرتها عليهم ، فزادت لأجل هذه النفقات الضرائب والخراج على الأمة وكثر التنافس بينهم ، وقلّ القوالون بالحق من رجال العلم ، وأنشأ معظمهم يدلسون ويوالسون ويمتدحون السلطان مهما ضل وغوى ، وسهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب والرواتب أن يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى بقتل الأبرياء ممن تغضب عليهم الدولة ، وكان الذين يقتلون كل سنة على هذه الصورة عدداً من الناس لا يستهان به وفيهم العاقل والدراكة ، وكل من في قتله راحة للدولة أو مصلحة يتوهمها السلطان وبعض الزبانية الطغاة من ولاته ، وقد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر أي مدة ٧٨ سنة خمسة وأربعون والياً وعلى حلب سبعة عشر ، ولم يحس الناس بتبدل نافع في حكم العثمانيين من عهد المماليك حتى بعد ثمانية عقود من السنين .

العهد العثماني

« من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠ »

عهد محمد الثالث وأمراء الإقطاعات وقتن :

دخل القرن الجديد والشام تسير من بؤس إلى بؤس ، وتعاقب تبدل الولاية عليها والسعيد منهم من كان يحول عليه الحول ، وأكثرهم يقيمون فيها أشهراً ثم يصرفون ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم أياماً ومنهم سبعة أيام ومنهم ثلاثة ، وتعاقب على دمشق خلال هذا القرن واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة وأربعون والياً ، فكان الوالي لا يتمكن من الإصلاح إن أرادته وقلبه متعلق أبداً بثبات منصبه ، والغالب أنه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المنوعة ليوفي ما عليه من المقرر لجماعة الاستانة من الأموال ، وكان الولاة يتعاونون الولاية ابتياعاً والمزايد الأكبر هو الذي توسد إليه قال راسم في تاريخه : أمر السلطان مراد أن يكتب إلى أحمد باشا كوجك والي الشام بأن يدفع إلى السلحدار باشا عشرين ألف ليرة ويبقى في منصبه فاضطر الوالي أن يؤدي المبلغ .

ومن أهم أدوات التخريب في هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الرعية ، يستطيلون على أموالها وأعراضها ويثلمون شرفها ويدلون أعزتها ، وهم القوة القاهرة وأذاهم لاحق بالكبير والصغير . وكثيراً ما حاول الولاة أن يخففوا من غلوائهم ليستأثروا بالقوة دونهم أو يرفعوا عن عاتق الأمة التعسة بعض شرورهم ، فيسفر قتالهم عن زيادة إيصال الشرور إلى الناس على ما يأتي تفصيله في هذا الفصل المغموسة حوادثه بالدماء .

كان المتغلبون على أكثر البر في أوائل القرن ، الأمير شديد بن الأمير أحمد حاكم العرب من آل جبار وكان كلقبه واسمه ظالماً جباراً عنيداً قال كاتب جلبي : وما زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لأمرء العرب وأمرأهم هم عرب آل جبار وهم قبيلتان آل حمد وآل محمد يمتد حكمهم الى أرجاء حلب والرققة . وكان قرقماز المعني في لبنان ، وأحمد بن رضوان في غزة بعد قانصوه أمير عجلون وما والاها من الكرك ، والأمرء بنو الحرفوش في بعلبك ، والأمرء بنو شهاب في وادي التيم ، وأحمد بن طرباي أمير اللجون في نابلس ، ومنصور بن فريخ البدوي على البقاع تغلب عايه بعد ابن الحنش وحكم نابلس وصفد وعجلون وانحاز إليه جماعة من جند دمشق ، وأخاف الدروز ثم شن الغارة وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقد خرب العمران وقتل الخلق حتى أخذه وزير دمشق وقتله في سنة (١٠٠٢) وذهب على حصار قلعة الشقيف النفوس والأموال ، حاصرها والي دمشق ونازل قلعتي الشقيف وبانياس ، وبلية انقلاع كبلية المدن غرض لهجمات المهاجمين فقد أخذ المحارزة قلاع القدموس والعليقة والميتقة مراراً ، وكان الإسماعيليون يستردونها بعد مدة ، وفي سنة ألف تقريباً هجم الإسماعيليون على القدموس عندما كان العلويون مشغولين بالعبادة في يوم الغدير وقتلوا من المشايخ ثمانين شخصاً عدا العوام وتملكوا القدموس (قاله في تاريخ العلويين) .

وفي سنة (١٠٠٣) توفي مراد الثالث وخلفه ابنه محمد الثالث فقتل يوم جلوسه تسعة عشر أختاً له وعشر جوار حاملات من أبيه ثم ابنين له ، وكان مع ذلك على رواية المحبي صالحاً عابداً ساعياً في إقامة الشعائر الدينية وأوصافه كلها حسنة وهو مظفر في وقائعه عالي الهمة . ولم ينل الشام شيء من تدين محمد الثالث ، وطالبت الحكومة الأهلين بأموال ستين فلقوا شدة وعتناً .

ذكر المقدسي في حوادث سنة (١٠٠٤) أنه جاء ساع من الباب العالي يأمر بأن يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء وأولاد المكاتب في الجامع الأموي ، ويقرأوا القرآن ويدعوا لعساكر الإسلام بالنصر ، وما أعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم المذكورين وطلب الدعاء منهم ، فليت شعري بأي لسان يدعون وقد اشتهر أنهم يطالبون الرعايا بعوارض ستين جديدة وعتيقة وطلبوا

اليهود بمال عظيم ١ هـ وقال أيضاً في حوادث سنة (١٠٠٥). إنه استقر في دمشق كيوان منشيء الظلم بالشمام قائداً بباب صاحب الشحنة ، فشرع يصادر ويسلب ، وكثرت القتل في أزقة دمشق ، وكان الإنسان يمشي فلا يسمع إلا من يقول غرموني أربعين قرشاً ومن يقول سبعين قرشاً وثلاثين وعشرين وأكثر وأقل . واصطلم الناس من كثرة الظلم وبقي من يخشى الفضيحة يحمل الحزبية إلى كيوان المذكور قبل أن يرسل إليه . هذا ما كان يجري في عاصمة الشام على مرأى ومسمع من القريب والغريب ، فما بالك بما كان يجري في الأقاليم التي تقل فيها المراقبة وتضعف المقاومة ، فقد تهاها لأخبارها هنا من دونها أو بعضها حتى وصلت إلينا ، وهناك ضاعت أخبارها لقلّة المدونين .

وظهر في أيام أحمد مطاف باشا كافل حلب (١٠٠٥ - ١٠٠٨) فساد كثير من العربان في أنحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقتلوا فانهزم عسكر حلب وكانوا ألف فارس وأخذ عرار أمير العرب يتبعهم ويقتل منهم ويغير عليهم .

وفي سنة (١٠٠٧) كانت الواقعة في نهر الكلب بين ابن معن وابن سيفا فانكسر ابن سيفا وتشتت جيوشه ، وتولى فخر الدين المعني كسروان وبيروت . واستولى يوسف باشا سيفا على جهات طرابلس لما أهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركماني ، واستقل بها وأخرج بواسطة عسكر السكبان جنود الانكشارية من عمالته ونكل بهم وصار له بذلك نفوذ وسلطان .

وقال نعيما في حوادث سنة (١٠٠٨) : إن عسكر الانكشارية في دمشق جاءوا حلب بحجة جباية أموال الدولة ، وتسلطوا على فقراءها وعملتها وتجاوزوا الحدود في الاعتداء ، وأساءوا استعمال سلطانهم في الرعية ، فقطع والي حلب رأس سبعة عشر رجلاً منهم ، ودام الشقاق بين الأهالي والانكشارية مدة طويلة أدى إلى سفك دماء كثيرة بغير حق ١ هـ . ومن ذلك اعتداء خدوايردي قائد حلب على الناس وفتكه ونهبه وتعديه حتى ضجر منه أهاليها وحكامها ، حين قامت الحرب بينه وبين نصوح باشا ، وبينه وبين ابن جانبولاذ ، وكان هو وأحفاده قد عاثوا في الأرض فساداً ومنه نشأ طغيان العسكر الشامي .

ومن فتن هذه الأيام خروج عبد الحلیم اليازجي رأس جماعة درويش

الرومي حاكم صنفد ، وإرسال خسرو باشا نائب الشام عسكرياً إلى درويش ليسلم الولاية إلى آخر ، فقاتل اليازجي عن مخدومه بالسيف فأخذ درويش إلى دمشق وصلب بأمر السلطان . أما اليازجي وجماعة درويش فساروا على ساحل البحر إلى طرابلس ثم إلى جانب حلب ودخلوا مدينة كلز فتنبه لهم نائب حلب وأرسل جيشاً لمحاربتهم ، فقتلوا من أصحاب اليازجي مقتلة عظيمة ، وخرج بمن بقي معه من أصحابه المفلولين ، وما زال يحارب جيوش السلطنة في الأناضول حتى هلك سنة (١٠١٠) .

وفي سنة (١٠١١) باغت الأمير يونس بن الحرفوش جبة بشري ، فلما بلغ ذلك يوسف باشا سيفاً جمع السكبان الذين عنده وهاجم مدينة بعلبك فاجتمع بيت الحرفوش في القلعة ، ونهب بنو سيفاً بعلبك وحاصروا قلعة حدث بعلبك خمسين يوماً وملكوها ثم نادوا بالأمان . وفي سنة (١٠١٤) كانت وقعة جونية بين يوسف باشا سيفاً والأمير فخر الدين المعني فانكسر عسكري سيفاً .

عهد أحمد الأول وفتنة ابن جانبولاذ وغيرها :

في سنة (١٠١٢) توفي محمد الثالث وخلفه أحمد الأول ولم يتغير شيء في الشام وغاية الأمر أن الخوارج في أيام السلطان الجديد اشتدت شوكتهم فنال الأمة منهم كل حيف ، ودخل القطر في هرج ومرج . وفي أيامه ظهرت الخوارج في جهات حلب وما زالت الأمور في تخبط حتى خرج جانبولاذ وادعى السلطنة واضطربت الأحوال على ما سيجيء . قال القرمانى : وفي أيام هذا السلطان قام الطغاة والبلغاة ، وانمحت من الوجود أمهات الأمصار وشملها البوار ، أما القرى والقصبات والرساتيق والمزدرعات فأكثر من أن تحصر .

وقال العُرُضي : كانوا يرسلون من قديم الزمان في دولة بني عثمان شردمة من عساكر دمشق وعليهم شوريجي بحالات أموال السلطنة فيحصل لهم الانتفاع ويخدمون عند الدفتردار وفي دار الوكالة وفي باب القنصل الفرنجي وفي كل مدة يرسلون غيرهم وعليهم شوريجي ، حتى قطن بجلب أعداد كثيرة منهم واتسعت أمواهم وكبر جاههم ، واستولوا على أغلب قرى السلطنة يعطون مال السلطان عن القرية ويأخذون من أهلها أضعافاً مضاعفة ،

وتبقى أهل القرية جميعاً خدمة لهم وجميع ما يجمعونه لغيرهم لا لأنفسهم .
ومن الكوائن أن خارجياً من السكبانية اسمه رستم جاء إلى كلز ومعه
من البغاة أجناد كثيرة ، وكان ضابط كلز عزيز كتخدا من جماعة حسين
باشا بن جانبولاذ أمير الأمراء بحلب ، فبعث واستنجد بعسكر حلب ومنهم
العسكر الحديد فخرجوا لنصرته ، فتقابلت الأجناد وقامت بينهم سوق الحرب
والضرب فانتصر رستم على عسكر كلز وحلب وقتل عزيز كتخدا وقتل من
العسكريين كثير وولوا منهزمين فنهب الخارجي كلز وصادر أعيان القرى .

ولما ولي نصوح باشا نيابة حلب - وكان متغلباً في حكمه عسوقاً قوي
النفس شديد البأس كما قال المحيي - كان لجند دمشق أي الانكشارية الغلبة
والعتو يذهب منهم كل سنة طائفة إلى حلب وينصب عليهم قائد من كبارهم
وكان بعض عظماء الجند قد تقووا في حلب وفتكوا وجاروا خصوصاً
طواغيتهم خداويردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي وأمثالهم ، حتى رهبهم
أهلها وصاهرتهم كبراًؤها ، واستولوا على أكثر قرأها ، فلما رأى نصوح باشا
ما فعلوه حتى قلت أموال السلطنة ، وصارت أهالي القرى كالأرقاء أجلاهم
عن الأقاليم ووقعت بينه وبينهم فتنة بل فتن ، وعجز عن إخراجهم فاستعان
بحسين بن جانبولاذ فبعث هذا ابن أخيه الأمير علي بعسكر عظيم ، فاستولى
نصوح باشا على قلعة حلب ووضع متاريس تحتها واستعد للقتال ، فأخذ العسكر
الدمشقي باب بانقوسا وجمعوا جموعهم ، وهم لا يعلمون أن حسين باشا
جانبولاذ بعث عسكره ، ودخل الأمير علي في اليوم التالي بالعساكر المتكاثفة
فتبعهم نصوح باشا والأمير علي إلى قرية كفرطاب فوقع بينهم حرب فانهزم
الدمشقيون بعدما قتل منهم جم غفير . ثم خرج نصوح باشا في عسكره إلى
كلز فقابل حسين باشا بعسكره والتقت الفئتان فانكسر نصوح باشا وقتل
أكثر عسكره ودخل حلب منهزماً وأخذ في جمع الأجناد وبذل الأموال
لتنكير العدد والأعتاد . وبينما هو على ذلك جاء الأمر بأن حسين باشا عين
كافلاً للممالك الحلبية وعزل نصوح باشا ، فلبس نصوح باشا جلد النمر ،
وامتنع من تسليم حلب لحسين باشا ، وأقبلت بعد أسبوع عساكر الوالي الجديد
حسين باشا إلى قرية حيلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب فانكسر أيضاً ،

ونزل حسين باشا بعساكره في أحياء حلب خارج السور وأغلق نصوص باشا أبواب المدينة وسدها بالأحجار ، وفتح باب قنسرين وحرسه ، وقطع حسين باشا الماء عن حلب ومنع الميرة والطعام عن المدينة ، ونصب نصوص باشا المتارين على الأسوار وصف عسكره عليها مع المكاحل ، وقامت بين الوالين حرب شعواء ، وأخذ حسين باشا في حفر الخنادق والاحتياط على أخذ البلدة ، وأنشأ نصوص باشا يحفر السرايب ، وعم الحلبيين البلاء من المبيت على الأسوار وحفر السرايب ، ومصادرة الفقراء والأغنياء كل يوم وليلة لطعام عسكر السكبان وعلوفاتهم ، وأغلقت الدكاكين وتعطلت الصناعات ، وحرقت الأخشاب للطعام والقهوة ، واشتد غلاء الحاجيات وعدم قوت الحيوان والإنسان واستمر الحصار نحو أربعة أشهر وأياماً ، ثم تصالح نصوص باشا وحسين باشا فخرج الأول واستولى حسين باشا على الديار الحلبية ، وشحنها بالسكبان وصادر الأغنياء والفقراء لأجل علوفة السكبان .

ولما قتل حسين باشا خرج ابن أخيه علي عن طاعة السلطنة ، وجمع جمعاً عظيماً من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ، ومنع المال المرتب عليه ، وقتل ونهب في تلك الأطراف ، إلى أن تعهد ابن سيف صاحب عكار للسلطنة بإزالة الأمير علي عن حلب فجمع له الجند من دمشق وطرابلس والتقى بابن جانبولاذ (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيف ، فاستولى ابن جانبولاذ على نعيمه ونعيم عسكر دمشق واستولى ابن جانبولاذ على طرابلس ، واستخرج الأموال من أهلها وأخذ دفائن كثيرة لهم ، ولم يستطع فتح قلعتها ، ثم سار مع حليفه ابن معن وكان هو وابن شهاب وابن الحرفوش حرب بعلبك وأحرق قراها ، وخرّب ابن جانبولاذ البقاع ووصل إلى دمشق ، واقتل ابن جانبولاذ مع العسكر الدمشقي فانفل العسكر الدمشقي وأرضوا ابن جانبولاذ بمال حتى فرج عن دمشق ، واستمر النهب في أطرافها ثلاثة أيام ، ثم سار إلى حلب وجاءته الرسل من السلطنة تقبّح عليه فعله في دمشق ، فكان تارة ينكر فعلته ، وطوراً يحيل الأمر على عسكر دمشق ، ويشرع بسد الطرق ويقتل من يعرف أنه سائر إلى أطراف السلطنة لإبلاغ ما صدر منه ، حتى أخاف الخلق ونفذ حكمه من أدنة إلى نواحي غزة ، وصاهر ابن سيف

فامثل هذا أمره ، وانقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو ستين ، وكان ابن سيفاً بعد أن غلبه ابن جانبولاذ على دمشق ونهب ولايته التجأ إلى أحمد بن طرباي الحارثي أمير لواء اللجون . قال القرماني : إن ابن جانبولاذ لما ولي حلب جمع كل شقي من القبائل والعشائر ، ليأخذ ثأره من جماعة الإنكشارية فالتقوه في مدينة حماة ومعهم محمد باشا الطواشي نائب دمشق وعمامة الجيوش من الكماة ، فانهزم عسكر الدولة واستمر ابن جانبولاذ في أثرهم إلى حدود دمشق فاستقبله الأمير فخر الدين بن معن بمن معه من الدروز وطائفة السكمانية ، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم .

ولما حدث ما حدث من الفتن والغوائل عهد السلطان إلى مراد باشا أن يعيد الشام إلى حكم الدولة لأنه ثبت أنه خرج عن حكمه ، فجاء في عشرين ألف فارس وعشرين ألف راجل وقيل في أكثر من ذلك ، فبرز إليه ابن جانبولاذ في أربعين ألفاً فغلب ابن جانبولاذ وهرب إلى الاستانة وأقنع السلطان بحسن حاله ، وجاء مراد باشا بعد أن كسر ابن جانبولاذ في سهل الروج قرب المعرة وقتل من جماعته أحد وعشرين ألفاً وتسلم قلعته بالأمان ، وبالغ في قطع شافة الأشقياء والسكبانية . وكان علي باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب ورفع إليها عياله وأسبابه وولى عليها أطلي طوماش باشا وأمره بحفظها لمدة ثلاثة أشهر ريثما يرجع إليه بالنجدة من سلطان العجم ، ثم تجهز للسفر وحال خروجه من أراضي حلب وصل مراد باشا الوزير ومعه أحمد باشا حافظ الشام ويوسف باشا سيفاً وشددوا الحصار على حلب وافتتحوها ، ووعد أطلي طوماش بالنيابة على حلب فاطمأن وسلم القلعة ثم قبض عليه وقتله وضبط القلعة ، وباع عيال علي باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشاً ، ثم وقعت المناداة على المحافظين فقتلوهم في أماكن مختلفة وأتوا برؤوسهم إلى الوزير ولم ينج منهم إلا القليل ، وكان الرجل يقتل العشرة منهم ، ومهد الوزير أمور حلب وخدمته أمراء العرب . وقالوا : إن الأمير فخر الدين فرّ إلى البادية في جماعة الدروز والعربان بعد تلك الوقائع لأنه أعان الحوارج على السلطنة . وللقيم محفوظ الدمشقي مرتجلاً

ومؤرخاً واقعة دخول السكبانية مع ابن جانبولاذ إلى دمشق في أوائل سنة ست عشرة بعد الألف نقلها في التذكرة الكمالية .

دخل الشام جيوش	كجمال قدرغوا
كل كردي غبي	بهم الناس لغوا
ودروز ولثام	لمقال ما صغوا
نهبوا الشام وآذوا	وعلى الناس بغوا
نهبوها في جمادى	أفحشوا أرخ طغوا

(١٠١٦)

ولم تقتصر فتنة ابن جانبولاذ على دمشق وحلب بل تناولت بعلبك والبقاع وطرابلس وغيرها . قال النجم الغزي : إن كافلي الشام وطرابلس دخلا على أهل حماة وحمص وأمرأ أهلها بإخلاء المدينتين وكان ابن جانبولاذ في أثرهما ، فدخل هو وعساكره حماة وحمص ونهبوها ونهبوا قراها ، واتفق كيوان رئيس سرية دمشق مع ابن معن على العصيان وعلى مساعدة ابن جانبولاذ ، فذهبا إليه واجتمعا به في الجون بالقرب من نهر البارد ، فاستولوا على حماة وحمص وعكار وجبلة واللاذقية والحصن وطرابلس وغزير وبيروت ، ثم اجتمع ابن جانبولاذ وابن معن وكيوان وحاصروا دمشق على ما تقدم قال : وكان الأمر مهولاً واجتمع أكثر الناس بدمشق . وقال ابن المقار في حوادث (١٠١٦) : إنه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم السيمانية أظهروا في الأرض أنواع الفساد ، وحدث بين أمراء الشام حروب وفتن عظيمة عم فيها النهب وخربت أكثر البلاد .

ومن الأحداث في تلك الأيام ما رواه مؤرخو لبنان في حوادث سنة (١٠١٦) من أن الجند المشقى « قيشلق » السلطاني تفرق على البلدان من حلب إلى الشوف ، وكان عدده نحو أربع كرات والكرة مئة ألف . كذا قالوا وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء ومن الضرائب التي كانت على الضياع والأديار . ووقع في زمن تولية كوجك سنان باشا دمشق وكان يتولاها سنة (١٠١٧) أن فرقة من عرب آل جبار المعروفين بأولاد أبي ريشة نفروا من العراق فوصلوا إلى تدمر ، وانضم إليهم قوم من طائفة السكبانية المنهزمين من وقعة علي بن

جانبولاذ . فعاثوا في تلك الديار وقطعوا الطريق ، ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن قلندر والأسود سعيد ، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغلب عسكر السلطان وهرب منهم جمع ، ومن جملة الهارين الجماعة المذكورون وكانوا نحو أربعمئة سكباني ، فلما انضموا إلى العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبندق والعرب يضربون بالرمح والسيوف ، وأخذوا قلعة القسطل وقلعة القטיפه ونهبوا المعصرة وقتلوا من بها من الرجال والنساء . فلما بالغوا بالقتل والنهب والغارة والعدوان قصدهم سنان باشا ومعه العسكر الدمشقي ، وانضم إليهم عرب المفارجة وكبيرهم عمرو بن جبير فأدر كوا العرب والسكبان في نواحي قلعة القطرانة ، فقتلوا من السكبان نحو ثلاثمئة رجل وقبضوا على آخرين ودخلوا بهم إلى دمشق على متون الجمال وعلى كتف كل واحد منهم خشبة طويلة وهي وتد (خازوق) وفي اليوم الثاني أتلفوهم وفرقوا أجسادهم على أحياء دمشق .

الأمير فخر الدين المعني وآل شهاب وقتن :

تخوفت الدولة من الأمير فخر الدين المعني الثاني لتحصينه القلاع وامتداد سلطته في أصقاع الشام ، فأرسلت عليه في سنة (١٠٢٠) الحافظ أحمد باشا كافل دمشق وكافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وأمراء الأكراد في جيوشهم ونحو النصف من الفرسان في جيش مؤلف من ثلاثين ألفاً ، وحاصر ابن معن تسعة أشهر فلم يقدر أن يأخذ قلعة من القلاع ، فلما أعيته الحيلة أرسل رجلاً من جماعته لمن في القلاع يقول : أنا مالي عندكم غرض بل إن للوزير الأعظم شأناً مع الأمير فقولوا له أن ينزل إلى خيامنا وعليه أمان الله ونأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير ونقره في أماكنه فقالوا : الأمير ذهب في المركب إلى ديار الفرنج فلما تحقق ذلك رضي بنزول أم فخر الدين فقالت : نحن ما ضبطننا بلداً بغير اسم السلطان ، ولا انكسر عندنا مال ، فعند ذلك أعطت السلطان مائة ألف قرش وأعطت الوزير خمسين ألفاً والحافظ أحمد باشا مثلها وانفصل الأمر على ذلك .

هرب الأمير فخر الدين إلى إيطاليا تاركاً الحكم في لبنان وما إليه لابنه

الأمير علي وأقام فيها خمس سنين وشهرين تعرف خلالها إلى ملوك طسقانه من أسرة ميديسيس المشهورة في فلورنسة ، وأطلع على طرف من المدينة الأوربية ثم عاد إلى وطنه بعد مهلك خصمه والي دمشق فاستلم زمام الأحكام ولا سيما المسائل الحربية ، بقوة أعظم وتدير أحكم ، مستصحباً معه كثيراً من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية ، وكان ابنه الحاكم في الظاهر وهو الحاكم في الحقيقة ، وأخذ يحصن كوره ويكثر الصلات الحسنة مع الفرنج ولا سيما مع الطليان ، وعقد معاهدة دفاعية هجومية مع أصحاب طسقانه كأنه ملك مستقل ، فخافت الدولة منه وكانت تعده من قبل عاصياً قوي الشكيمة ، وأخذت تحاذره وتنظر إليه نظرها لعاص عارف بمقاتلتها ، وأنه لا بد له يوماً أن يستقل عنها ببلاد الشام ، إذ بلغ أتباعه نحو مائة ألف من الدروز والسكبان ولم يستول فقط على الشوف وجبل عاملة بل تعدهما إلى عجلون والجولان وهوران وتدمر والحصن والمرقب وسلمية ، وسرى حكمه من صفد إلى أنطاكية وملك نحو ثلاثين حصناً مثل صفد ونيحا وشقيف تيرون وعجلون وقب اليباس وبعلبك والمرقب والبثرون .

وفي سنة (١٠٢١) خرج أحمد باشا بالعساكر من دمشق إلى وادي التيم ونزل في خان حاصبيا وهرب بيت شهاب أصحاب وادي التيم منها فهدم دورهم وأتلف أملاكهم ونهب حاصبيا (١٠٢٢) وفي سنة (١٠٢٣) خرج الحافظ أحمد باشا من دمشق إلى قب اليباس واجتمع إليه حكام صفد وصيدا وبيروت وغزة وحماة وعشائرهم وأمراء الغرب وبعلبك ووادي التيم ، فوقع بين أهل الجرد والغرب والتمن وأهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه أهل الغرب والجرد والتمن وعسكر الدولة كسرة عظيمة ، فأحرق أحمد باشا قصر بيت معن في دير القمر وكان رئيسهم إذ ذاك الأمير يونس كما أحرق قرية عبيه . ثم جرت وقعة بين جماعته وجماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة أحمد باشا وقتل منهم نحو خمسمائة قتيل وأكثرهم من السكبان وكان عسكر الدولة نيفاً وعشرين ألفاً ثم امتنع (١٠٢٤) يوسف أغا من أن يتسلم حصن الشقيف وحصن ارنون إلى أن يخرج منهما بنو معن أولاد العرب ويتصرف بهما الأتراك تمام التصرف ، فشق ذلك على الأمير يونس وأخذ في

هدمهما ، ولما انتهى الخبر إلى الوزير فرح جداً وأمر بخرابهما ، ولبث المسلمون في تخريبهما أربعين يوماً . وجرت (١٠٢٥) وقائع بين أولاد ابن معن وأصحاب المقاطعات في لبنان وحرقت الشوف والجرد والغرب والمتن وهلك كثيرون وكانت النصره للقيسية خربت بيت معن ، وكان بنو تنوخ أمراء الغرب منذ سنة (٥٤٢) يميلون إلى بني معن ، فلما حاربتهم الدولة انتهز علي بن علم الدين اليمني والي الشوف الفرصة وقبض على أعيان المعنيين وقتلهم واستصفي أموالهم ، ثم سار إلى قرية عبيه فدعا الأُمراء التنوخيون إلى مأدبة في سرايتهم فاغتلهم وقتلهم كلهم صغاراً وكباراً فانقرض التنوخيون بموتهم .

عهد مصطفى الأول وعثمان الثاني :

في سنة (١٠٢٦) توفي أحمد الأول وخلفه مصطفى الأول المعروف بالأبله فخلع بعد ثلاثة أشهر وخلفه عثمان الثاني ولم يجر في أيامه ما يستحق أن يدون في الشام اللهم إلا ما كان من حرب بين ابن معن وابن سيفا (١٠٢٨) فحرب ابن معن قرية عكار وسرايا بيت سيفا في طرابلس وخرب هذه كما خرب قلعة جبيل . ثم عاد مصطفى الأول سنة (١٠٣١) فتولى الملك أربعة عشر شهراً وخلع بعدها . إذ لم يعد في الإمكان ستر نقصه الذي كان يتولاه العلماء ليحكموا باسمه فأبرزوه في صورة ولي من الأولياء وما هو إلا أبله من البلهاء . فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضياً عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين وأرباب النفوذ في المدن والقرى والسهول والجبال ، وأصبح القطر بلا راعٍ خصوصاً بعد الضعف الذي ظهر من الدولة في العقد الثاني من هذا القرن في فتنة ابن جانبولاد وحصار حصون ابن معن ، وتجلي لأذكياء المتغلبة موقف الدولة معهم ، فأصبحوا يزدادون في إرهاب الرعية . والولاية ليسوا دونهم في العنت والتخريب والقتل والنهب .

وكان نائب حلب محمد باشا (١٠٣١) ظلوماً غشوماً أخذ أموالاً كثيرة من كل قرية من غير سبب ، وقضى أن لاتباع البضائع كلها إلا لمن عينه من جماعته ثم تباع من أحد السوقه بعد ذلك ، فكان ظلمه مزدوجاً على المدني والقروي ، وفي هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة

وفي السنة التالية (١٠٣٢) خرب الأمير فخر الدين بن معن كرك نوح وسرعين
نكاية ببني الحرفوش .

عداء على الفرنج وفتن داخلية :

وبينا كان ابن معن يهيء السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم مع أهل
الساحل ويكثر سوادهم في مدنها ولا سيما في موانئها، ويرخص لهم بتأسيس
قنصليات ويدخل المبشرين إلى لبنان، ارتكب ابن سيف حاكم طرابلس سنة
(١٠٣٢) أمراً عظيماً نذر الفرنج من غشيان الموالي لاستبضاع القطن والحبوب ،
وذلك أنه ضبط مركبين فرنساويين كان معهما ثمانون ألف قرش لابتياح
بضائع ، فأرسل ابن سيف وأمسك ولدين صغيرين من المركبين وعلمهما أن
يقولا: إن المركبين للقرصان، وإنهما أخذتا في طريقهما مركب تجارة للمسلمين،
وزعم أنه وجد في المركبين أسباباً لمداخلة المسلمين ، ولم يكن ذلك صحيحاً
ولكنه جعل ذلك طريقاً لضبط جميع ما في المركبين من البضائع والأموال ،
وأمسك جميع من فيهما من التجار والنوتية وقتلهم جميعاً. وبعد ذلك باع
المركبين بثلاثة آلاف قرش . قال الشهابي : ومن حين حدوث هذه الفعلة لم
يدخل ميناء طرابلس من تجار الفرنج أحد ، وتوجه أناس من الفرنج إلى الباب
العالي للشكوى على ابن سيف ، ولكن لكثرة عزل الوزراء لم يلتفت أحد إليهم
وراحت على من راح .

ومن الفتن الأهلية ما حدث سنة (١٠٣٢) من دخول أحمد الشهابي وحسن
الطويل بلاد عجلون ومقابلة أهل القرى لهما وتجمع أهالي نابلس وعربها ،
وحرقت من القرى فارا والحزبة وحلاوى وكانت من أكبر قرى عجلون ،
وحرق الأمير علي الشهابي قرية سرعين في البقاع وجميع قرى بعلبك وتحصن
أهل بعلبك في القلعة . وجرت فتنة بين عساكر دمشق والأمير يونس الحرفوش
- وكان هذا ظالماً متجاهراً بالظلم - وكرد حمزة سنة (١٠٣٣) فاغتنم
الانكشارية الفرصة وأغاروا على المستضعفين من الأهلين وتعاقب تغيير الولاة
وانحاز بعض الخوارج إليهم ونقل الناس أمتعتهم وأثقالهم من خارج مدينة دمشق إلى
داخلها مراراً، وحارب العسكر الدمشقي أولاد الحرفوش لإخراجهم من بعلبك.

وكان كيوان أحد كبراء الأجناد في دمشق خلال هذه المدة ينزع إلى التعدي ولا شكيمة ترد جماحه ، ولا وازع يكف من غربه ، فأخذ الناس بالتهمة وتناول إلى أخذ أملاكهم حتى استولى على أكثر بساتين الربوة والمزة من ضواحي دمشق وضم بعضها إلى بعض ، وكان إذا أخذ حصته من مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعاً أو كرهاً ، وكان نواب محكمة الباب وأعيان شهودها يساعدونه على عدوانه حتى أهلك الحرث والنسل . وذكر الغزى أن كيوان الطاغية أعيان أهل دمشق ظلماً وفتنة، وكانت بداية كيوان نهاية أويس ثم تجاوز عنه بمراتب ، فطمع هو وقائد الصالحية أولاً في أملاك الفلاحين ، واستخلاص ما ملكوه بالشراء أو بالمغارسة ، فكان يعمل الحيلة لأحدهم حتى يوقعه في مغالب صاحب الشحنة ولو بالتهمة والاستتباع . وقد اقرّف يوسف السقا من الأجناد الدمشقيين ضروب المظالم ، وصادر الناس في أموالهم وعقارهم ، وقبض على غالب أعيان دمشق وشيوخها وهرب بعضهم ، واغتصب من تجارها المشاهير وبعض أهلها الضعفاء مالاً جزيلاً أناف على مائتي ألف دينار ومن التحف والأقمشة ما لا يحصى . ومثل هذه الشؤون كانت تجري على مشهد من الولاة ويتغاضون عنها لأنها قد تكون بليعازهم وهم لا محالة شركاء أولئك الزعماء .

حملات على الأمير فخر الدين المعني وغيره :

أدركت الدولة أن خطر فخر الدين المعني على حياتها في هذه الديار زاد عن سنة (١٠٢٠) وأنه تأصلت أحكامه بعد عودته من إيطاليا، وما كانت في حملتها الأولى والثانية لتغضي عن تخريب الأقاليم إلا اضطراراً ، فساق هذه المرة مصطفى باشا والي دمشق (١٠٣٣) جيشاً على فخر الدين فاستظهر هذا بالأمير محمد الشهابي حاكم وادي التيم كما استظهر حاكم الشام بابن سيف حاكم طرابلس وابن الحرفوش صاحب بعلبك فهلك جمهور من عسكر دمشق قدر بمائتي قتيل ولم يقتل سوى رجال قلائل من جماعة ابن معن ، وكانت الواقعة في عين الجر (عنجر) . وقبض جماعة ابن معن على والي دمشق فجاء الأمير فخر الدين وقبل ذيله ، وقيل شفع بالوالي علماء دمشق

وكبرائها لدى ابن معن ، ورجع عسكر دمشق مفلولين وفي رواية أنهم خامروا على الوالي وأطلق الأمير فخر الدين والي دمشق مكرماً ، فعاد إلى الفيحاء ينتقم ممن كان السبب في غزو ابن معن . وهذه الواقعة زادت في مكانة أمير لبنان في نظر الدولة والأمة ، ودلت على أنه كان مع قوته عاقلاً بعيد النظر ، وأنها عاجزة عن أخذه إلا بتجهيز جيش عظيم لأنها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخيبة خصوصاً وقد عملت محالته لكوسموس الثاني كبير دوجات طسقانه ، وأن فخر الدين لما استظهر بأسطول فرديناند الطسقاني استولى على ساحل الشام وغلب جيش الدولة غير مرة .

وفي سنة (١٠٣٣) أيضاً جلس جماعة الوالي بدمشق على الطرق ومعهم الريش يضعونه على رأس كل من يرونه وينادون عليه « مستاهل لم يقدر أن يرفعها من شدة الخوف » قال المقار : فلما كملوا أرسلوهم إلى اليمن فقتلوا كلهم هناك . ومعنى ذلك أن الدولة كانت تريد تجنيد أناس لترسلهم من الشام إلى اليمن فلم تر أظرف ولا أعدل من هذه الطريقة في التجنيد . وفي سنة (١٠٣٨) عين والي دمشق شردمة من العسكر لمنازلة بني شهاب في وادي تيم الله بن ثعلبة فنهبوا قراهم وأحرقوها .

وقد وزعت الدولة عسكرها على كور الشام ليشي فيها سنة (١٠٤١) وكان جيشاً كبيراً فخص دمشق منهم اثنا عشر ألف جندي ما عدا أتباعهم ، وكان ما كلهم ومشر بهم من أهل دمشق وأقاموا بها أربعة أشهر ، فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من أهل دمشق خمسين قرشاً من كل دار فاضطرب أهل دمشق اضطراباً عظيماً . وقال أبو بكر العمري من قصيدة وصف بها سنة « الفشلق » :

على خيول ضمّر سبق
والشر قد يأتي من المشرق
وذلت الأرخاخ للبيدق
بالسيف والدبوس والبندق
بالفرش من خز واستبرق
غنيهم جهداً فكيف الفقير

قوم من الأتراك عاثوا بها
من جهة الشرق لقد أقبلوا
في رقعة الشام غدت خيلهم
أجلوا أهالي الدور عن دورهم
واتخذوها مسكناً دونهم
وحملوهم كلفاً أعجزت

قال المعجبى : أن القشلق من عسكر السلطان مراد بن أحمد كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فد همهم الشتاءدون الوصول إلى خطة العجم فأمرُوا أن يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس أمر المعيشة وبالغوا في التعدي ونهب أموال الناس .

وفي سنة (١٠٤٣) جاء السردار الأعظم محمد باشا إلى حلب يحمل مرسوماً سلطانياً بقتل نوغاي باشا لأنه تهامل في قتل من يجب قتلهم من الأشقياء واكتفى منهم بمصادرة أموالهم ، فقتل وأرسل رأسه بلحيته البيضاء إلى جانب السلطنة . قال نعيمان : وهذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلي للدين والدولة وهو من أقدر الوزراء . وفي هذه السنة تجمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية وثاروا بوالي حلب فقتل منهم خمسون وجرح كثيرون ، ثم جاء رؤساؤهم معتردين للوالي بما صدر من أوباشهم فتأثر جميع النافخين في بوق الفتنة وقتل الجرحى والهاربين منهم فسكنت الثائرة . وفي هذه السنة خرجت عساكر من دمشق وباغتوا أمير وادي التيم فنهبوا وأحرقوا قراها وباغت صاحبها العسكر الدمشقي فظفر بهم ورجعوا عن أقليمه .

القضاء على الأمير فخر الدين المعني :

في سنة (١٠٤٣) قويت كلمة فخر الدين بن معن الثاني وكانت الدولة منذ ثلاث وعشرين سنة تنظر إليه نظر الخارج عن طاعتها ، وحاولت غير مرة أخذه فلم تستطع لأنه كان يجيشه أقوى من الجيوش التي تساق عليه ، وأرضه حصينة بطبيعتها وحصونه كثيرة ممتنعة ، ولولا أن الدولة مرتبكة بغوائل خارجية لخصمت قوى كثيرة من قوتها وأخذته أخذ عزيز مقتدر ، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشاً من الأناضول بقيادة أحمد باشا الأرنؤادي كافل دمشق فانتصر عليه الأمير فخر الدين في وقعتين قرب صفد ، ثم انتصر عليه القائد العثماني في وادي التيم وقتل ابنه علياً وتوفي أخوه متأثراً من جراحاته ، وكانت أرسلت الدولة عليه أسطولاً من البحر فغلب على أكثر سواحله وعاون بنو سيفاً وأصحاب الأحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانية ومشوا مقابل المراكب على طريق البرفتشتت المعنيون ،

وكانت الدولة تحاذر من معاونة أسطول البنادقة أو الطسقانيين له ، ولجأ الأمير إلى شقيف تيرون فضاقت نفسه وفي رواية أنه هام على وجهه في الجبال سنة ودل جماعته عليه ، ثم عمد إلى مغارة في جزين فاضطر أن يسلم نفسه إلى الوزير العثماني فدخل به إلى دمشق بموكب حافل وهو مقيد على الفرس خلفه ، ثم حمل إلى الاستانة فقابله السلطان مقابلة لا بأس بها ولامه على أفعاله فقدم أعذاره ، واحتج بأنه جمع الرجال لأمر مختصة بالوزراء والنواب وما قتل غير العصاة على السلطنة ، وأن القلاع التي استولى عليها وفتحها كانت بيد العصاة وسلمها للسلطنة فاقنع السلطان من كلامه وعفا عنه ولكنه أبقاه مخفوراً . ولما قام حفيده الأمير ملحم وكسر جيش والي دمشق ونهب صور وبيروت وعكا صدر أمر السلطان بقطع رأس الأمير فخر الدين وخنق ابنه الأكبر .

وذكر الشهابي أن الأمير علي بن علم الدين اليميني الذي وسد إليه حكم لبنان بعد أسر الأمير فخر الدين قد ضبط جميع أرزاق بيت معن وقبض على تابعيهم وقتل بعضهم ، ثم باغت الأمراء بيت تنوخ وكانوا في الحمام في السراي التي تحت القرية فقتلهم وردم البرج على أولادهم الصغار ، ولم يترك من بني تنوخ ذكراً يخلفهم ، ولما بلغ ذلك الأمير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية وركب على اليمينية فقتل منهم كثيراً وقدر من قتل من الفريقين بنحو أربعمائة نفس ، وانهزم الأمير علي بن علم الدين إلى دمشق وخرج منها بعسكر نحو خمسمائة رجل وعندما وصل تحت قب الياس نزل سعيد أحمد أبو عذرا إلى مقاتلتهم برجال العرقوب في نحو أربعمائة رجل ، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم أطبقوا عليه فما سلم منهم إلا القليل ، فرجع الأمير ملحم واختبأ في الشوف وتجددت عند ذلك الشكايات على الأمير فخر الدين وعندما أمر السلطان بقتله . قال المرادي : إن أملاك الأمير فخر الدين وهبها السلطان مراد إلى أحمد باشا الكوجك ، وكان عمر التكية خارج باب الله بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته في بعلبك وصيدا وريشيا وحاصبيا وكانت أملاكاً لفخر الدين .

وبهلاك الأمير فخر الدين وضعف سلطة الأمراء المعنيين استراح الأمراء المجاورون أمثال بني سيف في طرابلس والأمير أحمد بن طرباي الحارثي أمير

اللجون في نابلس ، وقد وقعت بين هذا وبين الأمير فخر الدين حروب كثيرة ، وكان ابن معن توجه لقتاله ثلاث مرات ورحل ابن طرباي إلى الرملة وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدخره ، وأشهر وقعاته معه وقعة يافا وكان هو وحسن باشا حاكم غزة محمد بن فروخ أمير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة وغنم غنيمة وافرة . وحارب مرة بدو الساحل على نهر العوجا وبدد جموعهم ولكن أهل كورة حارثة في جينين حاصروه في قلعة هذه المدينة وأخرجوه منها .

هلك فخر الدين بن معن الثاني بعد أن كاد يستولي على أكثر الأقاليم بأخذه أملاك بني سيفا وبني الحرفوش في طرابلس وبلبك ، وقد كان واسع الصدر بعيد الغور والنظر متساعماً يسير مع المدينة سير تعقل ، وأخذ في آخر أمره يعمر في بيروت حديقة للوحوش تقليداً للملك إيطاليا ، وعمر قلعة صرخند وقلعة شميميس وقلعة فوق أنطاكية وجهازها بالعساكر . فشكته حكومة حلب للباب العالي . قال المحيي : إن ابن معن بلغ مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة . وعلل البوريني سبب أخذ الدولة له أنه أخذ يحصن قلعة الشقيف عدة أعوام وأخذ لواء صفد ، فعظم شأنه وارتفع مكانه وبعد صيته ، وكثرت أمواله لأنه تصرف في أرض ما خطر في بال أحد من الأمراء التصرف فيها ، وكان ملك كفر كنه وعكا والساحل وصدف وبلاد ابن بشاره والشقيف وبيروت وصيدا وجبل كسروان وجبة المنيطرة وجبيل وأنطلياس والبترون والجرد والغرب والمتن والشوف والمقيطع والشحار والبقاع وبلبك وصور والمعشوقة ، وحصن قلعة الشقيف وجددها وشحنها بالأرزاق الكثيرة وجعل بها من آلات الحصار شيئاً كثيراً واستمر في ذلك التحصين نحو عشرة أعوام ففتظن له الأمراء والوزراء .

وقال نعيما : إن قلاع الشقيف وبانياس ودير القمر كانت محصنة في عهد ابن معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى على الدولة ، وإن من قتلوا في برهة قليلة من عصاة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف وأحرقت بيوتهم وقراهم ، وإن عهده وما بعده في الجبل مضى مع الدولة تارة في حرب وطوراً في سلم وصلاح اه . ومن الحصون التي رممها وأنشأها قلعة قب الياس وبانياس وبرج الكشاف في بيروت وبرج البحصاص في طرابلس ورأس بلبك واللوبة وحدث

بعلبك والصلت وحيفا ونوله وسمر جبيل وطرابلس وصافيتا والمرقب وحصن الأكراد .

وكانت له في باب قوة الإرادة آيات منها أنه لما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا أصحاب طرابلس ، أتى بنو سيفا وأحرقوا ونهبوا الشوف فأقسم كما قيل هكذا : « وحق زمزم والنبي المختار لعمرك (لأعمرك) يا دير بحجر عكار » . وهكذا كان فإنه لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن وأخذها وهدمها ، جعل الجمال بالألوف تجلب الحجارة من عكار إلى دير القمر وبني الدور القديمة في الدير ووزع في جدرانها من حجارة عكار الصفراء .

كان ابن معن يجمع إلى الحسنات سيئات فمن حسناته أنه كان يميل إلى عمران إماراته ويتسامح مع الأجانب حتى تكثر صلات الشاميين بهم للتجارة ، وكان عنده على الدوام عشرة آلاف جندي تحت السلاح ويستطيع أن يجند مثلها وقيل : إنه كان يستطيع أن يجند أربعين ألفاً . وقد سئل لما كان في إيطاليا كم يقدر أن يجهز من العسكر فقال : كنت أجمع نيفاً وعشرين ألفاً ما عدا الذين يتأخرون في البلاد للمحافظة ، وكان يفضل على الأدباء والعلماء وكذلك كان يفعل خصومه بنو سيفا . أما سيئاته فكان مفرطاً بأخذ الأموال من الناس ولا سيما بعد أن زار إيطاليا وتعلم منها البذخ حتى اشمازت منه رعيته ، وقد بلغت جبايته تسعمائة ألف ليرة يعطي الدولة نحو ثلثها ويتمتع بالباقي . وكان نزوعاً إلى العلى محافظاً على صلواته مع الجماعة وعلى عاداته الإسلامية حتى في إيطاليا ، وبني جامعاً ومأذنة في البلدة التي نزلها ، ولما كان في الغرب عرض عليه ملك اسبانيا أن يدين بالنصرانية ويتولى مملكة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف . ذكر هذا مؤرخه الخالدي إلا أن « المعلمة الإسلامية » تقول : إن الأمير فخر الدين لما فر إلى ليفورنا (١٠٢٢) واستقبله كوسموس الثاني الدوق العظيم باحتفال حافل لم يتحقق الأمل الذي كان عقده من العودة في الحال بجيش معاون من المسيحيين للقضاء على السلطة التركية في الشام . وعبثاً حاول أن يظهر أن الدرود من نسل مسيحي اسمه الكونت دي درو وأنه هو أيضاً من أبناء كودفري دي بوليون من أمراء الصليبيين . ولم يوفق أن يحمل المسيحيين على إعلان حرب صليبية جديدة . وربما كانت قواه إذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس

متكافئة لأن الدولة كانت تعضد ابن سيفاً سرّاً حتى لا يتعاظم نفوذ ابن معن، ولكن شتان بين الرجلين في الغناء وبعد النظر .

فتن في الساحل :

وفي سنة (١٠٤٤) حارب الأمير عساف بن يوسف سيفاً الأمير علي بن عساف وأحرق بلاد جبيل والمنيطرة وقتل من جماعة عساف كثيرون ، وكثرت الحكام والأحزاب في لبنان وظلموا الرعايا وأخذوا المال الأميري مرتين ، وقبضوا على رؤساء القرى وشددوا عليهم ليخبروا عن أرزاق بيت معن وبيت الخازن ، وفي السنة التالية باغت الأمير علي بن سيفاً قرية أميون وأحرقها ، فجمع خاله الأمير عساف الرجال ودارت الحرب بينهما في أرض عرقة فانكسرت جماعة الأمير علي ، ثم أعاد هذا الكرة على خاله في عناز من بلاد الحصن فظفر به الأمير عساف وقتل من جماعته مقتلة كبيرة واشتد الضيق بالناس .

وفي سنة (١٠٤٦) قصد أحمد الشمالي اغا الانكشارية مقاتلة الأمير علي بن علم الدين لتأخره في أداء المال السلطاني ومعه متولي صفد وبيروت وطرابلس فانهمز قدامهم ، ورحل معه يمنية الغرب والجرد والمثن والشحار والشويقات بعيالهم ومواشيهم وكانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا كسروان ، وانهمز من قدامهم القيسية وكسروهم في مرحاتاً، ثم طردوهم من كسروان فساروا إلى عكار وسار عسكر الدولة على طريق الساحل ودخلوا طرابلس وخرجوا إلى نهر البارد فانهمزوا من أمامهم ولحقوهم بأرض الجون فكسروهم وسبوا حريمهم وأخذوا مواشيهم، ثم إن طروبه البدوي تداخل بالصلح بين الأمير عساف وابن أخته علي فرجع ابن علم الدين إلى بيروت . ولما حدث ذلك الاختلال في الساحل ظهر الأمير ملحم بن معن وحكم الشوف ، وجمع بيت الحرفوش سكانهم وعربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج إليهم نائب دمشق بعسكره ووقع بينهم الحرب فظفر النائب ببيت الحرفوش وقتل منهم مقتلة عظيمة . أي إن الحال لم تستتب في لبنان بهلاك الأمير فخر الدين المعني ، وقد جرت شؤون كثيرة من خراب وقتل وثشق في السنين التي أعقبت قتله حتى آخر عهد مراد الرابع .

وكان الوالي بدمشق سنة (١٠٤٦) درويش محمد باشا الشركسي ففتك بأهلها وتجاوز في ظلمهم الحد وفي آخر أيام (١٠٤٧) اجتمع العامة على القاضي واشتكوا من الظلم وبالغوا في التوسل ، فلما بلغه ركب وكان مخمياً في الوادي الأخضر بدمشق وأتى مغضباً وسفك دم بعضهم ثم عزل وصار أمير الأمراء بطرابلس . وهذه القاعدة مما كانت تسير عليه الدولة في نقل الولاة فمن ترتضيه ويوافق مصلحتها تنقله إلى مكان آخر إذا قامت عليه الشكايات مهما عظمت وثبتت لديها ، كأن الولاية الأخرى ليست من ملكها ولا يههما أمر أهلها ، وأن الوالي بمجرد نقله يغير أخلاقه .

إبراهيم الأول وسفاهته :

توفي مراد الرابع سنة (١٠٤٩) بعد أن حكم سبع عشرة سنة وكان من الشدة على جانب عظيم منهمكاً في شهواته ولذاته ، قيل إنه قتل مائة ألف إنسان منهم خمسة وعشرون ألفاً بنفسه وأمام عينيه ولكنه أمن على حدود الولايات الشرقية باستيلائه على بغداد ، وهو الذي قضى على فخر الدين المعني الثاني ، ولولا ذلك لاستقل هذا بالشام وربما امتد حكمه إلى أبعد من ذلك من الأقطار والممالك ، ولم ترتح هذه الديار بعد مراد الرابع ، كما أنها لم ترتح على عهده فخلفه السلطان إبراهيم وكان خالماً ماجناً فسدت المملكة في أيامه بأخلاقها ومشخصاتها ، وكان أبداً في شاغل عن الأمة إلا بما كان من تحقيق شهواته ، وكان غريباً فيها . وقد عقد مراد بك في تاريخه « أبو الفاروق » فصلاً في سلطنة النساء استغرق جزءاً برمته نلخصه هنا ليتبين للقارئ كيف يكون حال مملكة سلطانها سخييف ضعيف .

ومما ذكر فيه استرسال السلطان أحمد في الشهوات حتى قضى في الثامنة والعشرين شهيد الغواني والكؤوس ، أما السلطان إبراهيم هذا فهو أعظم زير ابتلي بحب النساء حتى كان كل أسبوع يبني بيكر ويجرى له عرس وتقام الأفراح في قصره ، وكان كلما سمع هو أو والدته « كوسم والدة » أو أحد حاشيته وحملة غاشيته ووزراؤه وعماله بغانية حسناء يقدمونها لسلطانهم ، حتى عجز سلطان عن ملامسة النساء لكثرة إفراطه فجاء « جنجي خواجه » وكتب نسخ

الأدوية والعقاقير النافعة في القوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بأن سلطانها يستطيع أن يقترب من أربع وعشرين بكرة في الأربع والعشرين ساعة ! وأصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري والسرايري ، وكان على نسبة اشتداد أعصاب السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له إلا الأفراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقتناء الجواري والحلي والزهور والأموال والطرائف ، وإصدار الأوامر بقتل الأنفس بمعنى وبلا معنى ، وأخذ يستريح إلى رؤية المناظر الفظيعة من القتل شأن قياصرة رومية في أواخر أيامهم .

وكان تقرر جعل النساء الرسميات أربعاً ثم أبلغت والده السلطان عددهن إلى ثمان نساء ، لأن نسل بني عثمان كاد ينقرض ، وأجبت كوسم والده تكثير نسلهم على هذه الصورة ، ولكل واحدة من تلك الجواري من الخدم والخادמות والوصيفات والندماء والنديمات والخازنات والملبسات عشرات وربما مئات ، تجبي وارادت الولايات العظيمة لتعطي إلى المقربين والمقربات ، والوظائف تباع ببيع السلع بالمزاد ولا سيما على عهد الأغوات بكتاش اغا ومراد اغا ومصالح الدين اغا وأمثالهم ، ولم يبق أحداً لا يرثي من الصدر الأعظم فنانلاً ، لأن السلطان يطلب من كل عامل عنده جُعلاً يليق بشأنه سلطانه ، حتى تعدت الحال في طلب الأموال إلى كبار التجار في الاستانة ، وأخذ رجال القصر ونسأؤه يسلبون من الأمة ما يقدرون عليه ، واضطر كثير من التجار إلى الاختفاء وإغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان ، ولا تسل عن رواج سوق الحليّ والجواهر والعربات المرصعة والطرسوت المحلاة والنعال المزينة بالأحجار الكريمة والإسراف في استعمال الذهب واللؤلؤ والزبرجد وسائر المعادن النفيسة في الآنية والزينة والنقش فإنه مما لا تتصوره العقول .

وكانت واردات لواء (سنجاق) تعطي من قبل نفقة لنساء القصر فأصبحت أبالاة الشام على طولها وعرضها يخصص ريعها وجبايتها للمرأة السابعة بحسب الأصول الحديثة على العهد الإبراهيمي . ولم يرض النساء أن تجبي لهن الأموال الولاية وبكوات الألوية ، بل كنّ يعين جباة من قبلهن يجبون باسمهن ريع الولاية أو اللواء . وقد كان الذي عهدت إليه جباية واردات الشام محمد اغا الذي اشتهر فيما بعد في التاريخ العثماني باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير ،

وهو ممن حالوا بتدبيرهم دون سقوط الدولة العثمانية . قال أبو الفاروق :
ولا غرو فقد توجد الدررة النفيسة بين الكناسات والقمامات .

ولم يكتف السلطان بما كان يقدم له من النساء بل كان يطوف العاصمة
وضواحيها ، فإذا رأى من أعجبتته وتردد وليها في إرسالها يلقي جزاءه في الحال ،
وبلغ السلطان مرة أن امرأة اببشر مصطفى باشا في جهات سيواس على غاية
من الجمال ، فأرسل إلى واردار علي باشا ثلاثين ألف ليرة ليعث إليه بزوجة
مصطفى باشا فنفر علي باشا من اقتراح سلطانه وأجاب بالرفض ، فقرر
السلطان إهلاكه ، ولكن علي باشا رفع راية العصيان وجعل عالي الأناضول
سافلها ، وقرر السلطان أن يأتي بزوجة اببشر مصطفى باشا ويعربها ويجعلها في
أحد الشوارع المهمة بين عمودين يربط إليهما رجلاها ويذاها ويطلق للعامة
والعسكر أن يلمسوها حتى تموت ، فلم يقنع السلطان أصحابه بالرجوع عن هذا
العمل البشع إلا بعد اللتيا والتي .

وقرر هذا السلطان الأخرق يوماً أن يقتل النصارى بأسرهم في مملكته
فاحتال عليه شيخ الإسلام قائلاً: إن في قتلهم نقص واردات السلطنة ، وإن
مئتي ألف إنسان إذا قتلوا في العاصمة تخف الجباية لا محالة ، وبهذا استرجعوا
من هذا المعتوه الفاجر إرادته المختلة وهكذا حتى خلع وقتل سنة (١٠٥٨) بعد سلطنة
ثمان سنين وتسعة أشهر . وقد قتل عدة من رجاله وقتل الصدر الأعظم مرة
لأنه بعث في طلبه لتدارك حطب للقصر فقال له الوزير : إن هذا الطلب ليس
من الأمور المهمة التي يفكر فيها من يفكر في أمور السلطنة فمَثَل به في الحال
ولم يجراً بعدها على تولي الصدارة إلا من كان على جانب من الرياء والنفاق
ليرضي السلطان .

وذكر مؤرخو الترك أن سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على
عهد السلطان إبراهيم ثلاث سنين خرب خلالها في جسم الدولة ما لا يقع مثله في
ثلاثة قرون ، وبلغ من ريبائه مع سلطانه ما لم يوفق إليه أحد ، وجاءه أمر من
السلطان ذات يوم يقول فيه : إن الخزينة نصبت أموالها ولا بد أن يسترجع
ما أهدها أجداده السلاطين إلى حرمي مكة والمدينة من المجوهرات ليسد
العجز فقال الصدر الأعظم على دهائه وريائه وهو يقرأ هذه الإرادة السلطانية :

لقد سقطت الدولة إلى هذه الحالة بفيلق من الجوارى الناقصات من بنات الروس وبولونيا والمجر وفرنسا .

ومما ذكره في باب إسراف ذاك الدور أنه كان عند دفتر دار محمد باشا ٤٧ طاهياً و ٧ رؤساء طهارة ولكل طاه خدامه وخيامه وأشياؤه وبغاله وجماله حاضرة على الدوام وفي بيت مؤنته من الأواني المرصعة والمذهبة والمفضضة وغيرها ما يبلغ مجموع ثمنه ثروة كبرى . وهكذا أسرف السلطان ورجاله في كل شيء وفسدت الأخلاق ولا من يجسر أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر حتى قال أبو الفاروق : إن معظم كبراء الأمة ومن كان لهم علاقة بقصر السلطان إبراهيم كانوا يتقربون إليه بتقديم الأبقار الحسان فرأوا القيادة والديانة أحسن شافع لهم عنده للترقي والاعتناء .

فإذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الأمة فيها ، فما الحال بالولايات ولا سيما البعيدة كهذا القطر ، وكان ولايته كولاة غيره من جماعة القصر ينصب أكثرهم بشفاعة النساء والقوادين والقوادات . على هذا المثال كان أغوات القصر الأغبياء ينصبون الولاية ولا يتركون لهم مجالاً ليقفوا على حال البلد الذي يقضي عليهم إدارته ، بل يبدلونهم بغيرهم بعد مدة وجيزة ويبعثون بآخر من هذا الطراز . كل ذلك من مقتضيات الجهل والطمع والشفاعة ، فاقضى أن يكون الوالي من صنائع بعض العظيمات أو العظماء ، وكثيراً ما يكون ما جمعه من المال في ولايته داعياً إلى توجيه النظر إليه فيقتل لتصادر أمواله ، ولطالما كان قتل العمال مما يروق السلطان لأنه يقبض على أكثر موجودهم ، وكم من مرة كانت امرأة أحدهم أو قصره البدیع في المضيق في فروق سبباً في الغضب عليه والحسد له ، حتى يورده الوزير الأكبر أو غيره حنقه ل يتمتع بعده بزوجه أو ليسكن قصره أو ينال غير ذلك .

وذكر أبو الفاروق عند كلامه على مصطفى سلطان وكيف تجرد في قصره عن العالم وحصر وكده في شهواته أن آل عثمان من القديم تفردوا بغلبة شهواتهم عليهم ، وقد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ أهل القصر السلطاني يتعلمون أدوية الباه من الشرق والغرب وهو يسىء استعمالها .

فتنة والٍ أحرق في حلب :

ومن الأحداث في أيام السلطان إبراهيم فتنة ثار وقدها بين الانكشارية ورؤسائهم في حلب ، كان السبب فيها أن الانكشارية طلبوا من رؤسائهم أن يعطوهم غروشاً بدلاً من الأقجاط ، وطلبوا عزل وكيل رئيسهم وكتابه ، فقتل منهم جملة ، ثم وقعت بينهم وبين رجال الصدر الأعظم فتنة قتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت القضية بقتل آغتهم ووكيله وكتابه . ومنها ما رواه نعيما في حوادث سنة (١٠٥٤) قال : إنه كان في بر حلب رجل اسمه الأمير عساف يتولى إمارة البادية ، وقد أخذ يسلب أرباب القرى أموالهم وسلط أشقياء العربان عليهم ، فأنشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم وصعب استئصال شأفتهم ، فدبر والي حلب إبراهيم باشا تدبيراً أحرق وذلك بأن دعاه إلى مأدبة ليغتاله في خلالها ، وعلم الوالي أن الرجل لا يوافي حلب فارتأى أن يأذب المأدبة على خمس ساعات من المدينة ، فخرج الوالي في جنده وخرج عامة أهل البلد لابسين أحسن بزة ، راكبين الخيول المطهمة ، حتى وافوا محل الضيافة التي أقامها الوالي للأمير البر ، وكان الوالي أوعز إلى جنده أن يطلقوا النار على الأمير عندما يقترب منه لتقبييل الركاب على العادة فأتمروا بأمره ، ولكن الأمير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم وركب فرسه من ساعته ، وكان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرماح ، فحملوا على جند الوالي حملة منكرة وقتلوا منهم جماعة ، وأحاطوا بالأهالي فسلبوهم ثيابهم وحيولهم ، ولم يكونوا أقل من خمسة آلاف وقد جرح أكثرهم ، ورجع الوالي إلى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة ، وأخذ الأمير عساف يعادي الدولة العثمانية علناً وطمعت البادية فأخذوا يطيلون أيدي اعتدائهم أكثر من قبل فاضطرت الدولة إلى تنحية واليها الفاسد الرأي السيء التدبير ، وبذل الوالي اللاحق وجماعته أنواع اللطف مع الأمير عساف حتى أعادوه إلى حظيرة الطاعة للسلطنة في الجملة ، وطفق يهادي عمال السلطنة بالخيول ويرسل إلى الحكومة جزءاً من الجباية . وما كان يألفه بعض العمال من إعطاء الأمان للخوارج أو غيرهم ثم اغتيالهم في مأثدة أو إدخال السم عليهم أو صلبهم علناً قد أدى إلى رفع ثقة الناس من عهدهم وموآثيقهم . وغلطة

واحدة ارتكبتها والي حلب الأحقق أدت إلى ما أدت إليه من الفساد والبلبلة. قال الشهابي في حوادث (١٠٥٤) أنه عزل محمد باشا الأرنؤوط عن إيالة طرابلس وتولاها حسن باشا وكانت الناس لكثرة المظالم تتبع كل ثلاثة سنابل قمح بقرش ، ثم أعيد إلى طرابلس محمد باشا الأرنؤوط وأجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة ورحل أهلها .

محمد الرابع وصدارة كوبرلي :

بويغ محمد الرابع بالسلطنة سنة (١٠٥٨) بعد السلطان إبراهيم فطال عهده إلى سنة (١٠٩٩) أي إحدى وأربعين سنة ، وإذ كان طفلاً عهدت والدته ، بعد تغيير كثير من الصدور ، بالصدارة العظمى إلى رجل عاقل من رجال الدولة وهو محمد باشا كوبرلي وكان أمياً إلا أنه أتى بأعمال وطلدت دعائم الملك بعد تزعمه في عهد السلطان السابق بسلطة النساء ، واشترط في تولي الصدارة أن يكون حراً في عمله لا ينازعه منازع ، ولا تقبل فيه وشاية ولا يعين للمناصب إلا من يريد ، وقتل ستة وثلاثين ألف إنسان حتى ألقى الرهبة في النفوس ، وأمن قيام الخوارج والنزاع إلى الثورة من الزعماء وأرباب الدعارة والجند والعصاة ، وخلفه ابنه أحمد باشا كوبرلي الذي كان حاكم دمشق وقاتل الدروز وانتصر عليهم . وكان على غاية من العلم والعمل . ثم خلفه في الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها لأنه كان جماعاً للمال له وعنده ألوف من الخيل وكراب الصيد والبزاة و ١٥٠٠ حصان و ١٥٠٠ سرية و ٧٠٠ خصي .

وخلفه مصطفى زاده من أسرة كوبرلي أيضاً وكان من المضاء والشجاعة وحسن الإدارة والاستقامة على جانب عظيم ، واشتد على المزورين والمرتشين وقضاة السوء وملاً خزانة الدولة بأموال اللصوص . وكان يُقتل من يتناول التبغ من قبل ، فجعل تجارته حرة على أن توضع عليه رسوم فاحشة ، وقضى أن لا يؤخذ من الرعايا مسلمين كانوا أم مسيحيين غير المقرر من الجزى والخراج ، وقسم المكلفين إلى ثلاثة أقسام يدفع الأول منهم دوكاً واحدة ، والثاني دوكاً اثنين ، والثالث أربع دوكات ، وهذا هو النظام الجديد الذي بقي بعد هذا الوزير

زمناً، وخلفه صدر آخر كان ابن أخت الكوبرلي الأول اسمه حسين عموجه زاده وكان على قدم أجداده بعد نظر وحسن إدارة، فصح في هذه الأسرة ما قاله أحد مؤرخي الفرنجة من أن الوزير الأول منهم لقب بالكبير أو القاسي والثاني بالسياسي والثالث بالصالح والرابع بالحكيم . ولكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن إلا في الشام لبعده المسافة عن العاصمة ، ولأن طريق الالتزام في جباية الأموال كانت سقيمة تدعو إلى إضعاف المملكة ، ولأن الوالي كانت له لامركزية واسعة يعمل بتفويضه على الأغلب .

وفي تاريخ فلسطين أن حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية أي إقطاعات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقتهم . فكان مشايخ أبو غوش أو البراغثة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مرة وبني سالم ، فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلان حكمه لا محالة ، ومن خالف العادات أو أحلّ بتقاليدهم يسجن في سجنهم ، وكان الشيخ أو الأمير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي ويأخذ الزيادة ، وإذا حدث فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من أمراء منطقتهم فيخرجون بأنفسهم ومن ورأهم رجالهم وفرسانهم . وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الأمراء والولاة فأدى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسراً كبيراً في الأموال والرجال .

ولقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر وترعرع أن يقتل شقيقه سليمان وأحمد فمنعته والدته من قتلها وحال بينه وبين القتل المفني الأعظم ، مورداً له كلام الله مخوفاً له من عذابه ، وبذلك انقضى دور قتل أبناء ملوك آل عثمان وتسلطن شقيقاً محمد الرابع بعده . ووقعت في سلطنة أحمد الرابع في الشام كوائن كثيرة منها الواقعة التي حدثت سنة (١٦٠٠م) في وادي القرن من عمل لبنان الشرقي ، وذلك أن ابن علم الدين أغرى ابشير باشا والي إيالة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام والمعنية عند وادي القرن وكانت الدائرة على عسكر الشام . ويقول مؤرخو الترك: بل كانت على عسكر ابن معن وكان اسم ابن معن الأمير ملحم ولي كما قال

المحبي بلاد عمه أي الشوف والغرب والجرد والمثن وكسروان وكان حازم الرأي عاقلاً حسن التصرف فلهذا أبقى مدة تزيد على عشرين سنة لم ينقص له فيها عيش إلا مرة واحدة لما قصده ابشير باشا وكان ذلك بإغراء بعض المفسدين وانتصر في تلك الوقعة . وفي خلال ذلك كان درويش الشركسي المعروف بالمجنون والياً على تدمر فكان يغير على العربان وينهبهم ويأسر منهم ويدخل إلى دمشق بالموالك الحافلة، ثم ولي لواء عجلون فنار بينه وبين أهلها حروب كثيرة وكسروه .

وروى نعيما (١٠٦٥) عند كلامه على والي حلب أبازه حسن باشا أنه كان من أبناء الجند بلغ المناصب بصور غريبة وهو شقي يميل إلى الفساد والمظالم، وإذا أريد تسطير ما أتاه من الجور على الرعايا لاستلاب أموالهم اقتضى ذكر مجمله كتاباً ضخماً . وأن الحكام كانوا يجبون الحباية ضعفين فيأخذون ممن يقضي عليه أداء عشرة آلاف عشرين ألفاً ، ومن يغرّم الخمسين مئة أو مئتان ، ولم يكن لتعديهم غاية ولا لظلمهم حد يقف عنده ، فتهلك القرى والديساكر بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة والقضاة ممن كانوا يتعاونون بالرشاوي مناصبهم فيغضي عنهم الكبراء لأنهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم إلى الاستانة لا يجدون أذنأ صاغية وربما انعكس الأمر عليهم وصدق رجالها الوالي الظالم وسفه أحلام المتظلمين فيزيد الظالمون في ظلمهم . قال : وكان الفقراء يرتحلون عن أراضيهم فأصبحت القرى المعمورة والقصبات المشهورة مروجاً ينقع فيها غراب الخراب ، وإذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم أغنياء يسوق الوالي عليهم الأربعمائة والخمسمائة من جنده ينهبهم ويسبيهم اه . ومن الغريب أن يكون حسن أبازه باشا والياً على حلب على عهد صدارة الكوبرلي الذي يقده العثمانيون بإدارته ولعلمهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الإدارة والإصلاح بمجرد بطشه بالعصاة وإجهازه على من لا تروقه أعمالهم أو ينازعونه في سلطانه ، أما تقاضي الحباية مرتين من الرعايا وإلقاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية في قائمة أعمالهم ! وحسن أبازه باشا، خرج عن طاعة الدولة في حلب ومات في تلك النواحي وانضم إليه السكبان وخمسمائة جندي كانوا مع نائب دمشق أحمد باشا الطيار فعينت الدولة

لقناله الوزير مرتضى باشا فتقابل الجيشان وانكسر مرتضى ثم أخذ بالحيلة وقتل هو وأعيان جماعته وتفرق عسكريه وكان ذلك سنة (١٠٦٩) .

وفي سنة (١٠٧١) قدم والياً على دمشق أحمد باشا كوبرلي ابن الصدر الأعظم محمد باشا وكان في الخامسة والعشرين من عمره . قال المحبي : وكانت الشام محتلة فأصلحها وركب على أولاد معن وبني شهاب فأزالهم عن بلادهم وقمع أهل الفتن . وذكر المؤرخون أن هذا الوالي لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فما قبل وسار إلى وادي التيم فهدم سرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبيوت مدبريهم وقطعوا نحو خمسين ألف شجرة من توهم في مرج عيون والبقاع ، وأعطى ولاية وادي التيم لأولاد علم الدين مع المقدم زين الدين وابن أخيه عبد الله . فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادي التيم . وما أسخف هذه الطريقة في التأديب التي هي عبارة عن تخريب العمران . هذا وابن الكوبرلي من خير من ولي الشام ومن رجال الإصلاح والعلم . وأقام ابن الكوبرلي على صيدا باشا وجعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم أولاد العرب وأعطاه علي باشا الدفتر دار . ولما بلغه ما صار من والي طرابلس واليمينية من حرق دور بيت أبي اللمع وبيت الخازن وبيت حمادة وقطع أرزاقهم وما وقع من الخراب في وادي علمات وإتلاف حراج مشمش ولحفد وأرض جبيل والبترون وجبة المنيطرة والعاقورة ، ولما بلغه ذلك وأن الرعايا ضاقت به وخربت ديارها أمر بصرف العساكر ورجع إلى الشام ، وعلي باشا هو الذي طلب مالاً من ناظر كنيسة مار جرجس في بيروت وإذ لم يقبل النصارى أمر أن تصير الكنيسة جامعاً وبني لها مأذنة وسميت مقام الخضر . وفي سنة (١٠٧١) قدم علي باشا إلى صيدا وهو أول من تولاه من الباشاوات وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتأولة فأوقع بالقيسية ونهب إقليمهم فارتحلوا عنه وبعد سنتين نصر الوالي القيسية .

وفي سنة (١٠٧٣) قتلت الدولة منصور بن شهاب أمير وادي التيم والأمير علي ابن عمه لموافقتهم رؤساء جند دمشق في وقعة مرتضى باشا لما ولي نيابة دمشق وقارب أن يدخلها ، فأرسل جنداً من وادي التيم تجمع في دمشق وانضم إلى من قام فيها من رؤساء الأجناد والأوباش والتقوا مرتضى باشا في القطيفة فهرب

منهم . ولما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثائرين وفي مقدمتهم الأمير منصور وأخوه والشهابيون على ما قاله المحبي في وصف إدارتهم وسيرتهم على عهده : « وجورهم بالنسبة إلى أمراء بلاد الشام كالدروز بني معن والرافضة بني الحرفوش وبني سرحان مقصور على أنفسهم من حيث المعتقد فحسب ، وما لهم في القديم والحديث كثرة أذية للمسلمين » .

ومن مساوي حكومة الإقطاعات أن صغار أمراءها من الشاميين كانوا يضطرون كل الاضطرار إلى المصانعة فتراهم أبدأً مع القوي الذي تدوم سعادته إذا ولت عنه ولووا وجوههم ، وفي هذا السيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضاً وتخرب بيوتهم وبيوت شملهم وحاشيتهم . والولاية يشدون مع هذا ويرخون لذلك شأنهم مع كل صاحب سلطة وقوة . وهكذا كانوا في معاملتهم لليمنية والقيسية يقوى تارة هؤلاء وطوراً أولئك ، فقد وقعت سنة (١٠٧٥) في الغلغول عند برج بيروت وقعة بين القيسية واليمنية قتل فيها عبد الله بن قائد بيه ابن الصواف وانكسرت اليمنية وأنهزموا إلى دمشق . واشتدت الحالة على الشام في هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر في أرجائها الذي أفلت به بيوت كثيرة لموت جميع سكانها حتى إن قاضي حلب ضبط الأموات في حلب فبلغوا ١٤٠ ألفاً وكان القحط عم القطر قبل أربع سنين فجيء بالقمح من مصر وبيعت غرارة الحنطة بثمانين قرشاً . ولم تفر الحكومة مع ذلك عن حرق الدور والقرى فقد استنجد (١٠٨٢) بنو حيمور أمراء البقاع بحكومة دمشق فأنجدهم بعسكر فداسوا وادي التيم وحرقوا دور بني شهاب وقراهم . واشتد ظلم بني حمادة في عمل طرابلس وظلموا الرعايا ، فخربت القرى وكان في خلال ذلك (١٠٨١) والياً في حلب حسين باشا المعروف بصاري حسن يتلطف بالرعايا ويتنقم من ذوي الكبر والمناصب . كما أن ظلم والي دمشق ومتسلمه اشتد سنة (١٠٨٣) فأغلقت المدينة مرتين احتجاجاً على عمله .

وفي سنة (١٠٨٦ - ١٠٨٧) حرقت قرى البترون وفي السنة التالية حرقت قرى جبيل والبترون أيضاً وختل جبيل من سكانها . وفي سنة (١٠٨٧) أمر والي طرابلس بحريق وادي علمات وهي فرحة وعلما وعشاق وطورزيا والحصون

واهمج وجاج وقرى جبة المنيطرة وهي كفر جال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقا ولما رجع للعسكر جاء مشايخ بيت حمادة وأحرقوا قصبوبا وتولا عبد الله وبسينا وصغار وشبيطن . وفي سنة (١٠٩٠) تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية كثيراً . وفيها كانت التجريدة على الأمراء آل شهاب من والي صيدا ووالي دمشق وكان النصر للباشاوات . وفي السنة التالية باغت الأمير عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الأمير فارس شهاب في نوحا قرب الفرزل فقتله وقتل خمسين رجلاً من شيوخ وادي التيم ، فجمعت أسرة شهاب العساكر وساروا إلى بعلبك فتدخل الأمير أحمد بن معن بالصلح وجعل جزية على آل الحرفوش كل سنة خمسة آلاف قرش ورأسين من أطايب الخليل . وفي سنة (١٠٩٦) تولى ابن معن صاحب الشوف جميع مقاطعات بيت حمادة فأحرق ايليج ولاسا وأفقا والمغيرة وقطع أملاكهم . وفي سنة (١٠٩٨) لما فر الأمير شديد إلى جبيل نزل إلى العاقورة فأحرق من ضياع بيت المشايخ بيت حمادة نحو أربعين ضيعة وقطع أشجارها .

وكانت مصيبة القطر في هذا الدور واحدة في الظلم ، فكان الوالي في حماة مثلاً إذا غضب على رجل يضعه على « الخازوق » ، وإذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع شيء من الكلس وألقاها في العاصي ، وأصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون أموالهم ويدفنونها في الأرض لتنجو من المصادرات والسرقات ويتظاهرون بالفقر ، وربما مات أحدهم فجأة ولا يعلم أولاده بدقيته في جدار البيت أو الحائط فيقع المال بعد مدة في يد من تنتقل إليهم الدار . قال المحبي : ولكثرة جور الحكام في حماة على الأهلين في القرن الحادي عشر هاجر أغلب سكانها إلى دمشق .

أما في جهات لبنان الغربي والشرقي فإن الوالي أو المتسلم أو المستبد إذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجره ، ولذلك كان من الدعاء على الرجل في لبنان « الله يقطع رزقه » أي أشجاره أو « يخرب زوقه » أي بيته ، والزوق البيت ، وفي سنة (١٠٩٨) ورد الأمر لعلي باشا النكدلي متولي إيالة طرابلس أن يقتص من الأمير شديد الحرفوش لتخريبه قرية رأس بعلبك وهدمه حصنها ، فكتب إلى الأمير أحمد بن معن أن يوافيه بالرجال فلجأ

الأمير شديد إلى المشايخ الحمادية فأحرق علي باشا قرية العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حمادة ، ثم نزل عسكر للباشا على عين الباطية فباغته ليلاً آل حمادة والحرافشة وقتلوا منهم خمسة وأربعين رجلاً وانهمز العسكر .

عهد سليمان الثاني والحكم على الخوارج :

توفي محمد الرابع سنة (١٠٩٩) وتولى السلطان سليمان الثاني والأمور في عهده الطويل لم يتبدل والمرض واحد ، وهو سوء الإدارة وخراب العمران وهلاك المال وهتك الأعراض وقتل الرجال . وتم القرن والشام غرض الرماة تصيبها مطامع الولاة والأمراء وأرباب الإقطاعات والألوية وأهم ما كان فيه مظالم بني سيفا وبني معن وثورة ابن جانبولاذ ، والولاة نسق واحد لأنهم نسخة من عصرهم ، وإذا كانت أحوال القصر السلطاني ومن فيه مختلة كانت الولايات حقيقة بأن تباع فيها الأرواح ببيع السماح ، تساوى في ذلك البوادي والخواضر ، والناس في أمر مريح لا يستقرون في بلد ويتنقلون في الأرجاء وإذا اشتد الظلم في مكان هجروه إلى موطن يتوهمونه أقل مظالم ومغارم ، وأنى لهم مكان يسكنون إليه ويأمن فيه سربهم . وإذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكوبرلي الذين تولوا الصدارة فإن ما أصاب الشام من عنائهم جزء صغير جداً لا يكاد يشعر به ، وعهد أولئك السلاطين كإبراهيم الفاجر ومصطفى الأبله ينسب عهد محمد الرابع ومراد الرابع .

ولم يؤثر عن هذا القرن أنه أنشئ فيه غير قليل من الجوامع والمعاهد مثل جامع ابشير باشا وخان الوزير بحلب وكان بعض الولاة في القرن الذي قبله يرهقون الرعية وقيموث شيئاً باسم العمران أما هذا القرن فغاية ما يقال فيه أنه تخريب الموجود . ومن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا البالجي أمير صفد ثم طرابلس (١٠٠٢) فقد كان من أنصف الحكام على ما قال المؤرخون ، وإذا كتب لأحدهم أن كان على شيء من الأخلاق ينازعه المنازعون على ولايته في الاستانة فلا يتقلد زمامها إلا بمقدار ما يتعرف إلى أهلها ويدرس طبائعهم ويستقري ديارهم ثم يشخص إلى العاصمة ويستبدل غيره به وهكذا دواليك . هذا وأهم ما كان من حوادث هذا القرن فتنة ابن جانبولاذ التركماني

التي زال بها حكم الدولة عن القطر سنتين وذلك من أذنة إلى غزة ولم يطل
أمد هذا الاستيلاء كثيراً إذ كانت دعامته القوة الموقته ، وهو ابن ساعته
لم تُعدَّ له الأسباب بجملتها. أما الأمير فخر الدين بن معن الثاني فإنه كاد
يستولي بالفعل على الديار لتنظيم جيشه وتعزيز قلاعه وبسط يده بالعطاء حتى
استمال رجال الاستانة أنفسهم ، وعُني بإدخال روح التجدد في إمارته ودعي
سلطان البركجده الأمير فخر الدين الأول ولو كان لحلفائه دوجات طسقانه
إذ ذاك شيء من القوة وأنجدوه بقليل من رجالهم وذخائرهم ، ولو لم يشتغل
بالبابا وملك اسبانيا وكبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا
أعانوه على نيل أمانيه في الاستقلال خصوصاً وهم الذين كانوا يزينون له
من قبل الاستيلاء على أنطاكية ، فلو قدر لهم أن ينجدوه لسهل عليه الاستقلال
بالشام من عريشه إلى فراته بعد أن تمت له كل معداته ، والعقل رائده والحزم
قائدة ، خصوصاً وكان معوّله في قوته على الدرروز وهم في هذه الديار على
التحقيق منذ القديم من أشجع العناصر التي عرفت بمتانتها ومضامها في الحروب .
وكان كثير من مدبريه ورجاله من المسيحيين ولحبة قومه له ادعته أهل المذاهب
الثلاثة في إمارته ، فالوارنة يقولون له كان مارونياً والدرروز درزياً والحقيقة
أنه مسلم سني - خلافاً للمحبي والمرادي - يحسن السياسة والإدارة وينظر إلى
رعيته نظر المساواة ويأخذ لخدمته الكفاة من كل طائفة . فهو بلا مرء مثال
الأبطال في عصره ، وكان على أتم الاستعداد للحرب وعلى معرفة بالإدارة وطبائع
الأمّة ، ولو لم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها في قتاله لعمل في الشام في
القرن الحادي عشر ما عمله محمد علي الكبير في مصر في القرن الثالث عشر ولم
يكن دونه ذكاء ومضاء ودهاء .

العهد العثماني

« من سنة ١١٠٠ الى ١٢٠٠ »

حال الشام أول القرن الثاني عشر :

تبلج فجر القرن الثاني عشر للهجرة والدولة لا تفكر في غير مصائبها الخارجية ، والمملكة التي كانت تمتد من أسوار فينا إلى جنوب جزيرة العرب ، ومن فارس إلى الغرب الأقصى لا وحدة فيها ، ولا جامعة تجمعها ، وليست متجانسة ولا متماثلة ، تكافحها الثورات الداخلية ، وتساورها الحروب الخارجية فلا تهتم للأولى اهتمامها للثانية ، وتفنى في سلطانها ويستعبد لها أرباب الإقطاعات ويستبد بها الجند والولاة ، وسكان هذا القطر كسائر الأقطار العثمانية كأرقاء لا عمل لهم إلا إرضاء شهوات حكامهم من وطنيين وغرباء ، ولم يكن اختلاف العناصر أقل ضرراً عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية واللوند والسكبان والقبوقول ، والنزاع بين هؤلاء الجند وبين رجال الإدارة قائم على ساق وقدم في أغلب السنين ، بل بين كل صنف من أصنافهم ورؤسائه ، والأرواح في هذه السبيل تباع بالمجان ، فلم يحدث شيء مما يقال له الإصلاح لأن رجال الدولة لم يفكروا فيه حتى يتوسلوا بأسبابه ، وإذا توسلوا فلا يحسنون طريقه ، وقد اعتادوا الأخذ ولم يعتادوا العطاء بتحسين الحالة ، ليزيد الأخذ والعطاء معاً .

وندر أن يجيء من الاستانة رجل صالح في أخلاقه ، معروف باستقامته وكبير عقله وسعة معرفته ، يحسن إدارة الناس ويكف الظالم عن ظلمه ، وهل

يفارق فروق إلا من أكره ، وهناك النعيم والهناء وضروب الشهوات البشرية ، وإذا جاء هذه الديار وال كبير من العمال فلإملاء همياته على الأكثر بأموال الأمة ليعود إلى العاصمة سريعاً ، يعيش عيشاً طيباً وينعم في قصورها بأمواله وطرائفه ، ويجني في سنة ثروة كبرى تكفيه وأولاده وأحفاده على غابر الدهر .

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة في الجباية ، بل لأن الجباية كانت على غير قاعدة مطردة ، قد تجبي جباية سنتين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ، ولا تراعى في الجبايات أعوام القحوط والجدوب والمصائب ، وإذا ضاقت الحال بأحد العقلاء أو ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجياً وقاتلوه وحرّفوا دعوته على ولاية الأمر في الاستانة ، ولبسوا على العامة في أمره ، حتى يسكتوا نأتمته ويزيفوا دعوته ، وإلا فلا يعقل أن يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة في الإدارة ، فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ، ومهما بلغ من انحطاط شعب لا يخلو من نبيهاء يجاهرون بالحق ، ولو كان في المجاهرة حتفهم أحياناً .

وقد مهر رجال هذا الدور في تزيين الباطل وإلباسه ثوب الحق ، وتقليل عدد الهالكين والشاكين والثائرين والناقمين ، وإذا نشبت ثورة أو حدثت فتنة أو تألف جماعة لمقصد شريف ، وكثيراً ما يصورون العذاب الأليم في صورة نعيم مقيم ، ولا يعرضون على السلطان إلا المسائل الكبرى ، كأن تتقد ثورة في الشام لا يمكن تلافياها إلا بإرسال جيش كبير من آسيا الصغرى ، وتحتاج إلى مال لا بد من استصدار إرادة سنية بأدائه من خراج الولاية الفلانية . وغدا قتل الإنسان وسبي النساء والصبيان وخراب العمران ، من الأمور المألوفة في تلك الأزمان . وفي هذا القرن بدأ الحكام وأرباب المقاطعات ينوعون أسماء الجباية كأن يقولوا الشاشية والبزرية ، لسد عوزهم والقيام بواجب الضمانات الدولية ، وكثير من الفتن كان الداعي إليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة في أوقاتها ، فتعدهم عصاة عليها وتسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالا على صاحب الإقطاع أو المتسلم ، وخراباً على البلاد وأهلها من كل وجه .

والدولة قلما سعت إلى استئصال شأفة الشر ، وما بحثت في أسبابه قط فتلافيتها قبل وقوعها ، وقلما اهتمت للفن إلا إذا التهب شرارها وخشي منها على سلطانها ، ونذر أن أعدت المستعدين ، ورفعت ظلامه المظلومين ، ولماذا تهتم وكل قطر نشز عليها تضر به بعسكر من أهل القطر الأقرب إليه ، إن لم تستطع ضربه بأبناء بلده أنفسهم ، وإذا خافت من وال أو صاحب إقطاع قوة تسلط عليه خصمه أو جاره ، فالناس أبدأ متعادون متشاكسون ، والألفة ارتفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف العناصر ، وما ذلك إلا لتنفيذ رغائب السلطان الذي لا يرى لمملكته بقاء إلا إذا تباغض الناس وتربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر .

بدأ القرن وعبدون باشا والي صيدا يوغل في مظالمه ، وجعفر باشا والي دمشق ليس دونه في إنشاء المظالم ، أما الأمراء المتغلبة من أبناء الأقاليم فكان أكثرهم من أحفاد الذين سبقوهم في غزة ونابلس وعكار ولبنان ووادي التيم وبعلبك وحوران والكرك وسلمية . قال راشد : إن بعض أعيان دمشق أغراهم المال والإقبال فأرادوا الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة ، فكادوا لواليهم حمزة باشا وطرودوا عسكره إلى خارج دمشق وقاموا بأفعال شنيعة رافعين علم الثورة ، فنقل حمزة باشا إلى إيالة طرابلس وأخذ الأهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا أهدوه إليه من الكراع والبسط وغيرها ونهبوا أتباعه . ثم عين أحمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التنكيل بهم وخلفه مصطفى باشا مكانه فاضطر أيضاً لإلقاء حبسهم على غاربهم . ولما عين كورجى محمد باشا أجريت عليه التنبهات اللازمة ليظهر الأرض من هؤلاء الأعيان فدعا الوالي تسعة منهم كما دعا العاصين محمد آغا صدقة ومحمد آغا قوشجي وبطش بهم وأرهب غيرهم من الخوارج . هذا ما قاله راشد في هذه الفتنة ، ولم يقل إن والي دمشق ارتشى من الناس وظلمهم حتى ثاروا عليه ، بل قال : إنهم أهدوا إليه أيام ولايته وطالبوه بهداياهم لما رحل عنهم فأبانوا عن صغر نفوسهم ، وهذا مما يظهر ذهنية الدولة في تلك الأيام ، وأن الوالي يجب أن تهدي إليه الخيول والطنافس والأعلاق وربما الدنانير والدرهم من غير نكير . وما ندرى كيف تكون الرشوة إن لم تكن هذه الهدايا هي الرشوة بعينها .

وفي تقرير لأحد قناصل البندقية أن منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكا ومنصب الدفتردار يباع من ٤٠ إلى ٥٠ ألف دوكا ومنصب القاضي يساوي أقل من هذه القيمة ، وكلهم إذا جاءوا البلد الذي عينوا له يسلبون النعمة ويعرقون اللحم ويكسرون العظم .

دور أحمد الثاني وفتن :

توفي سليمان الثاني سنة (١١٠٢) فتولى السلطنة أخوه أحمد الثاني وهو الحادي والعشرون من ملوك آل عثمان والسادس عشر منهم في القسطنطينية . وفي أيامه (١١٠٣) عاقبت الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم في معاملة حمزة باشا على ما تقدم ، وأرسلت حملة على أبناء سرحان حمادة (١١٠٣) النازلين في جبال طرابلس وكان لهم قبائل وعشائر ، فاتفقوا مع أبناء معن حكام صيدا وبيروت ، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة ولكن لا يؤدون إليها مطالبيها في آخر السنة ، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت إلى محافظ الإيالة المذكورة الوزير علي باشا فجمع ما تيسر له من الأجناد وذهب إلى جبالهم التي امتنعوا فيها فقتل منهم كثيرين وأخذ زعماءهم وجعلهم طعاماً لسيوف رجاله ، وطلب أبناء معن الأمان فأجيبوا إليه وتخلصت المقاطعات من تعديهم وظلمهم . ونزع الحكم من آل حمادة وكانوا في بعلبك والهرمل وعكار وجبيل والبترون والضنية والزاوية والجبة وأنهزموا على طريق العاقورة فلحقتهم العساكر ومات منهم ومن عيالهم نحو مائة وخمسين نفساً من الثلج ، ولما وصلوا إلى قرية الفرزل أتهمهم العساكر وأبادتهم ولو لم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد منهم ، وحُرقت القرى وفتشوا عنهم وقرضوهم على بكرة أبيهم . وتوجه (١١٠٣) الأمير يونس شهاب من وادي التيم ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم فقتل ونهب ثم أرسل والي طرابلس إلى ابن معن يعرض عليه القطائع التي كانت لآل حمادة فلم يقبل وأجاب أنه لا يمكنه إجابة الطلب بسبب خراب الأقاليم ، وأخذ والي طرابلس يتأثر من بقي من بني حماده في السهل والجبل حتى أفناهم واستعان بولاية دمشق وصيدا وحلب وغزة على

قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة عشر ألفاً فهرب ووُسد الأمر إلى الأمير موسى اليميني بن علم الدين .

في سنة (١١٠٥) على رواية راشد رأت الحكومة أن أبناء سرحان حمادة عادوا فنجم ناجم شرورهم ، وأخذوا يتقنون بمعاوضة ابن معن لهم ، فأقامت الدولة الوزير طوسون باشا قائداً عاماً عليهم ، فجمع من أطراف سورية ألف مقاتل من العرب والأكراد ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو وحكام سورية فالتقى عشرون ألف مقاتل في بعلبك والبقاع ، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة وتأثرهم العسكر فقبضت عليهم وأوردتهم حتفهم وطهرت تلك الأرجاء منهم اه .

وفي سنة (١١٠٦) عينت الدولة متسلماً على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدي والظلم فقام الحمويون وأخرجوه من البلد قهراً ، فذهب إلى المعرة وأرسل شكاية إلى الدولة ينسب فيها التعدي للحمويين ، وأن حسناً الدفري المشهور بابن قنبح هو مثير الفتنة، فجاء الأمر بقتله فقتل في داره سنة (١١٠٦). وكان لسان حال الدولة يقول : أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا لعمالي مهما كانت سيرتهم وإلا قاتلتكم ، ومن فتح فاه بالشكوى أنتقم منه بما يستحقه ، فهذه خطتي ، وبالرضى عنها تنالون حظوتي .

دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن :

توفي أحمد الثاني سنة (١١٠٦) وكانت مدة حكمه أربع سنين وثمانية أشهر ، فتقلد السلطنة بعده مصطفى الثاني فكتب مصطفى باشا والي صيدا إلى السلطان الجديد يقول : إنه لا يمكن أن يحكم قطر الدرروز سوى بيت معن وأظهر استعداد الأمير أحمد بن معن لذلك ودفعت مائتي كيس للمطبخ ، فورد العفو لابن معن مع أوامر الولاية على بلده ، وزاد أرسلان باشا والي طرابلس (١١٠٨) في طلب المال فتشتت كثير من الرعايا عن مواطنهم من شدة الغلاء والظلم وركب والي دمشق على حاصبيا وقطع توها .

توفي أحمد بن معن (١١٠٩) فانقرضت بموته الدولة المعنية لأنه لم يكن له ولد ذكر ، فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات وهي الشوف والمناصف والعرقوب والجرود والتمن والشحار والغرب واختاروا الأمير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم على لبنان ، فتولاهما وأحبته الناس وأطاعوه لعدله وكرمه ، وكانت البلاد يومئذ حزينين قيس ويمن والقيسية أكثر وأقوى وكانوا راضين بولاية الأمير بشير ، وأما اليمينية فلم يرتضوا به ولكن لم يمكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم وقتلهم .

وفي سنة (١١١٠) تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا وإيالة صيدا أخوه قبلان باشا ، وكان الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال للدولة وقصد العصيان فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير الشهابي ، فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوا مشرفاً في مكان يقال له المزريرة ، فقبض عليه الأمير بشير وعلى أخيه محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم إلى الباشا فأمر بشنق حسين المرجي وأعطى الأمير بشيراً إيالة صيدا من صفد إلى جسر المعاملتين ، وأجر قبلان باشا مقاطعة آل علي الصغير للأمير بشير فأقام عليها متسلماً الشيخ محموداً أبا هرמוש . وفي هذه السنة أطالت عنزة وبنو صخر أيديها على الحجاج ، وكان يعهد إلى هاتين القبيلتين بتسفير الحاج ولهما رواتب مقررة عليه ، وقتل منهما خمسون رجلاً في القيود فانتقموا من الحجاج وأخذوا أموالهم وعروضهم ، ودخل محمد باشا أبو قاوق إلى دمشق بصعوبة . وحوادث البادية تتكرر في العقد الواحد مرة أو مراراً فيهلك فيها من العربان وأبناء المدن خلثق وعيش البادية منذ القديم من الغزو ، والدولة لم تفتح لهم موارد ليعيشوا منها ويكفوا أذاهم عن الحاج والتجارة . وتولى سنة (١١١٤) إيالة الشام محمد باشا بيرام قال الناس وظلمه ماديكان وكان حبسه انحلال الحديد الأوطان من غير خيمة وكانت شمس النهار تؤذيهم وبرد الليل أعظم وكان يسمى حبسه المسطاح ولما عزل شكوا أهل دمشق إلى الدولة وأنهم نهبوه وقتلوا من جماعته وأخذوا من خزنته أربعة جمال . ولقد أثنى الأجانب على وال من ولاية حلب اسمه يوسف باشا جاء في أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد وقالوا إنه كان يحكم بدون أن يظلم ويسلب ، وإن استقامته جلبت الخير والبركة

وقد جاء حلب في تلك الحقبة واليان اسم أحدهما قائم مقام يوسف باشا تولاهما سنة (١١١٢) ثلاث سنين والآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاهما سنة (١١٢٥) ولا نعلم أيهما أثنى عليه الفرزنج.

عهد أحمد الثالث وسياسة الدولة مع من ينكر الظلم ووقعة عين دارة :
وفي سنة (١١١٥) خلع مصطفى الثاني بعد أن حكم ثمان سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وتولى السلطان أحمد الثالث وهو الثالث والعشرون من آل عثمان .
وفي تاريخ راشد أن محمداً نقيب أشرف القدس تغلب سنة (١١١٨) على الحاكم والوالي وأخذ يبيث الفساد في تلك الأرجاء فأرسلت الحكومة ألفي انكشاري وثلاثمائة جبهجي ومئة مدفعي لتقوية مركزها في القدس فوقع بينه وبين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن إلى الفرار واختفى في قلعة طرطوس ، فبلغ واليها أمره فأرسل فقبض عليه وأرسله إلى الاستانة فقتل . وما ندري معنى لقول المؤرخ إن نقيب القدس أخذ يبيث الفساد في تلك الأرجاء ، بل نعتقد أن ثورته لرفع فساد العمال وسوء الإدارة ، يعرف ذلك من عرف أن القوم اعتادوا في كتاباتهم الرسمية أن يلقبوا بالمفسدين كل من كانوا من المصلحين ، بيد أنهم مفسدون لأمرهم ، عاملون على نقض أساس محدهم . كما وقع في هذه السنة أيضاً وقد أراد سليمان باشا البلطجي كافل دمشق أخذ قرض من تجارها وإحداث بعض مظالم ، فمنعه أعيان دمشق ومنهم أسعد البكري وعبد الرحمن القاري المحاسني فنفاهم إلى صيدا وعرض للدولة أموراً عنهم لم يأتوها ثم أعيدوا إلى بلدتهم واعتذر الوالي عما عزا إليهم .

وفي سنة (١١١٩) توفي الأمير بشير الشهابي وخلفه الأمير حيدر الشهابي فركب في السنة التالية لغزو المتاولة لأن المشايخ بني علي الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الأمير بشير بلاد بشارة من بشير باشا وبقي في يد الأمير حيدر حكم بلاد الشوف وكسروان ، فغزاهم الأمير حيدر وتجمعت المتاولة في قرية النبطية فأوقع بهم هناك وظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورجع إلى موطنه فعظم ذلك على بشير باشا فأرسل يقوي الأمراء اليمينية في الغرب والجرود

من بني علم الدين وغيرهم . وفي سنة (١١٢١) تعاضم أمر اليمينية في الشوف وتظاهر الأمراء بنو علم الدين بذلك وساعدهم الأمير يونس أرسلان حاكم الشويفات ومال إليهم من القيسية الشيخ محمود أبو هرموش ، ثم وسد الحكم إلى الأمير يوسف علم الدين وأخيه منصور ، وكان زمام ولايتهما بيد الشيخ محمود أبو هرموش فجاروا على القيسية وظلموهم ولم يبقوا لهم منزلة ولا حرمة . وفي هذه السنة أحرق الأمير يوسف مع عسكر الدولة بلدة غزير ونهبها ، وسار والي دمشق إلى جبل عجلون وباغت نابلس وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وسبي عسكره نحو سبعمائة امرأة .

وفي سنة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) أنفذ الأمير حيدر الشهابي أمراً إلى قيسية الشوف فتجمعوا في رأس المتن ، فلما بلغ اليمينية ذلك أرسلوا إلى بشير باشا والي صيدا فحضر إلى حرج بيروت ، وأرسلوا إلى نصوح باشا والي دمشق فحضر إلى البقاع واجتمع القيسية من الغرب والجرد والشوف إلى عين زحلنا في العرقوب ، ثم انتقلوا إلى عين داره ، وجرى الاتفاق أن تطلع عساكر الدولة المجتمعة في حرج بيروت إلى بيت مري في أول المتن ، وأن يطلع نصوح باشا إلى المغيثة في طرف المتن ، واليمينية إلى حمانا في وسط المتن ، وتمشي الثلاث فرق في يوم واحد على القيسية ، فأجمع رأي القيسية مع الأمير حيدر الشهابي أن يباغثوا اليمينية في الليل في عين داره ، فباغثوهم وأعملوا فيهم السيف ، وقاتلت اليمينية أشد قتال وما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين داره ، وما سلم من اليمينية غير قليل . وفي تلك الليلة قتل خمسة أمراء من بني علم الدين وأمسك الشيخ محمود أبو هرموش وقطع الأمير لسانه وأباهم يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم أمرهم ، ونزح من كان يمنياً وخربت ديارهم ، وزال ذكر اليمينيين من الشوف وحكم الأمير حيدر وأعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدهم به ، وكثرت المشايخ في أيامه . وتعرف هذه الواقعة بوقعة عين داره التي قتل فيها جميع الأمراء من آل علم الدين بيد الأمير حيدر الشهابي فانقرضت سلالتهم كما ضعفت شوكة اليمينيين .

فن ومظالم مستجدة وظهور آل العظم :

وفي سنة (١١٢٢) ركب نصوح باشا على الكرك وعمل لغماً ووضع فيه البارود وأعطاه النار فانهدم جانب من السور فصاح أهلها بالأمان وخرجوا عن القلعة فقتلهم وأسر الأولاد وسبي النساء . وفي سنة (١١٢٣) باغت ناصيف باشا والي دمشق المتن وأسر منها أناساً وسبي النساء والأولاد . وفي سنة (١١٢٤) عهد والي صيدا بولاية بلاد بشارة إلى الأمير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا فأنشأ بها مظالم كثيرة .

وفي سنة (١١٢٩) تولى دمشق عبد الله باشا الكمر كجي وكان عادلاً حكيماً لكنه لم تطل مدته أكثر من سنة . وفي سنة (١١٣١) كانت وقعة القرية بين الأمير حيدر الشهابي والمشايخ المتاولة وكانت النصره للأمير حيدر . وفي سنة (١١٣٣) كانت الفتنة بين مشايخ المتاولة والشيخ ظاهر العمر حاكم صفد وجرى بينهم قتال شديد فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير ، ثم خرج عثمان باشا والي دمشق بالعسكر على صفد وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل وقتل البشناق أولاد مشايخ صفد . وفي سنة (١١٣٦) كان الظلم شديداً وكثرت العوانية حتى صارت أرض الشام مشغولة بالظلم في شرورها وكثر الظلم واستلاب الأموال . واثرت (١١٣٧) فتنة بين القبوقول والانكشارية وظلت دمشق ثلاثة أيام مقلعة وقتلت فيها جماعات من القول والرعية وكذلك الحال في حلب . وفي تاريخ العلويين أن الحرب دارت بين الكلبيية وبنو علي من عشائر النصيرية مدة سبع سنين بدأت سنة (١١٤٠) ثم اتحدت العشائر الكلبيية « الراصرة والقراحلة والباشوطية والجهينية وبيت محمد » وهجمت على عشيرة بني علي بالاتفاق وحرقوا قراها وحاصروا قلعة عين الشقاق لما تجمع بنو علي فيها بعد أن هدموا جميع قراها ولم يبق ملجأ لبني علي سوى الحصار ، وداموا على الدفاع في القلعة . ثم دكتها الدولة العثمانية . قال صاحب تاريخ العلويين الذي أورد هذا : لم يكن العلويون يحاربون الأتراك فقط ، بل كانوا يحارب بعضهم بعضاً أيضاً لأن المنطقة ضيقة والنفوس كثيرة ، وفي عهد الأتراك أصبح الأخ يقتل أخاه لياكل ماعنده .

وعرف هذا الدور بظهور آل العظم حكاماً في الشام ، واختلف الباحثون في أصلهم فمن قائل إنهم أتراك من قونية ، ومن زاعم أنهم عرب من المعرة

معرة النعمان . تولى دمشق (١١٣٧) إسماعيل باشا العظم وكان من قبل والياً على طرابلس وهو أول من تولى إيالة دمشق من بني العظم ، وقال بعض المؤرخين : إن ناصيف باشا كان والياً على دمشق وقتل في الرملة سنة (١١٣٠) وعلى هذا فيكون هو أول من تولى دمشق من هذه الأسرة . ذكر ابن ميرو أن والد إسماعيل بن إبراهيم العظم كان جندياً سكن معرة النعمان وكان لأهلها مع التركمان التي ترد إلى جبلها شتاء وقائع جرح في بعضها والد المترجم فتوفي وأعقب المترجم إسماعيل وسليمان وموسى ومحمداً وكلهم أعقب خلا محمداً وكانت ولادة إسماعيل قبل السبعين وألف بالمعرة وبها نشأ ، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار حاكماً ببلاده ثم بحماه ، وأنعمت عليه الدولة بطوخين رتبة روملي ومالكانة حماة وحمص والمعرة وعلى أخيه سليمان ، ومنصب طرابلس عليه وسر عسكر الجردة فبعد عودته من الجردة سنة (١١٣٨) تولى الشام وإمرة الحاج بالوزارة وحج ست سنين وحارب في السنة السادسة عرب حرب بين الحرمين وامتحن سنة (١١٤٣) وحبس بقلعة دمشق واستأصلوا أمواله مع أموال ذويه ثم أفرج عنه وأعقب السيد إبراهيم وأسعد وسعد الدين ومصطفى ومعظمهم تولوا الوزارة .

وفي سنة (١١٤٣) توفي الأمير حيدر الشهابي حاكم لبنان بعد أن حكم ستاً وعشرين سنة على رواية المؤرخ الشهابي بالعدل والحلم والكرم وحسن التدبير وخلفه ابنه الأمير ملحم ، والأمير حيدر هو الذي أحيا ذكر القيسية وألقى ابنه الفتنة بين المشايخ فاختلفوا ، وكانت الدولة لا تقدر عليه على بغض أسعد باشا العظم والي صيدا له وسعيه به .

عهد محمود الأول :

تنازل أحمد الثالث عن ملكه باختياره (١١٤٣) بعد أن حكم ثماني وعشرين سنة وتسلطن محمود الأول وهو الرابع والعشرون من آل عثمان والتاسع عشر منهم في القسطنطينية ، وكان السلطان أحمد الثالث غريباً في أطواره يحب الطيور والأزهار ، ويقضي أوقاته في تسلية سراريه بالأفراح

والزین ، ومع هذا يسجل له الفضل ورجاحة العقل في حسن اختياره صدوراً عظاماً شرفوا بأعمالهم عهده فلم يكن كبعض أجداده لا يعمل ولا يترك أحداً يعمل .

وفي هذه السنة وقع بين القبوقول والانكشارية الحرب والقتال وأغلقت دمشق أربعة أيام وقتل من الفريقين شرذمة . وقعت بين رجال والي طرابلس عثمان باشا والانكشارية فتنة وضد الانكشارية قتل بها من الفريقين ناس ، ثم تصالح الجنندان على أن يلزم الانكشارية حماية الوالي ويعزل قائم مقامه وبعض الضباط ويخرج عسكره من المدينة . وفي سنة (١١٤٤) استأجر الأمير ملحم الشهابي بلاد بشارة وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير وباغت إخوته فهربوا ونهبت الدرروز ذاك الإقليم وعاد أولاد الشيخ نصار واستأجروا المقاطعات من الأمير ملحم .

قال الشهابي في حوادث سنة (١١٤٧) انتقل أسعد باشا العظم من صيدا إلى إياالة دمشق وكان والياً عليهما منذ سنة (١١٤٣) وتولى إياالة صيدا أخوه سعد الدين باشا والي طرابلس وتولى طرابلس سليمان باشا العظم وقويت شوكة بني العظم في بلاد العرب وعظمت دولتهم اه . عظمت دولتهم لأنهم أخلصوا في الغالب للدولة كل الإخلاص حتى أمنتهم ووسدت إليهم الأحكام في الشام وتركتهم يعملون ما يشاءون ، وجاء دور وهم حكامها من أقصاها إلى أقصاها ، وقل جداً في هذا القرن من تولى ولاية حلب أو دمشق أو طرابلس أو صيدا أو اللاذقية أو غزة بضع سنين . ومن بني العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين ، فإن إسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (١١٣٧ - ١١٤٣) ، وسليمان باشا العظم تولاهما خمس سنين للمرة الأولى (١١٤٦ - ١١٥١) وثلاث سنين للمرة الثانية (١١٥٤ - ١١٥٦) وأسعد باشا العظم تولاهما أربع عشرة سنة (١١٥٦ - ١١٧٠) وكان تولى صيدا أربع سنين ومحمد باشا تولى دمشق مرتين اثنتي عشرة سنة ، وكان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بني معن وبني شهاب وبني الحرفوش وبني سيفا وبني طرابيه ومنهم الصالح والطالح وهل هم إلا نموذج من عصرهم ، ولا شك أنهم جمعوا أموالاً كثيرة لأن حكوماتهم طالت أيامها والولاية

بالالتزام ، فكان الوالي منهم كسائر الولاة يرضي الاستانة بمبلغ ويبقى له بعد كل إسراف مبلغ كبير ، وهو المتحكم في الأفراد والجماعات . وقد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفي سنة (١١٥٦) وعذب المفوض بذلك أسرته على أشنع وجه ، وكذلك ضبطت أموال ابن أخيه أسعد باشا وأخرجت الدفائن من قصره وكان بعضها مخبوءاً في الأرض والجدران والأحواض وبيوت الخلاء وفعلت مثل ذلك بأتباعه ورجاله . قال الشهابي : إن أسعد باشا العظم بنى أبنية عظيمة في دمشق وجمع مالا لا يحصى وسار بالحج مرات فأنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى وأمرت أن لا يشهر عليه سلاح ولا يقتل ، ثم أرسلت إليه فقتلته في الحمام طمعاً بكثرة أمواله وضبطت ماله وأملاكه وقال : إنه كان جليلاً عاقلاً حسن التدبير مولعاً بالخيل الجياد حتى قيل : إنه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لأجل ركوبه .

وذكر الدويهي أن السلطان محموداً أنعم على عبد الرحمن أفندي (١١٦٥) محصل حلب بالولاية فوجه في الحال متسلمه حسن اغا إلى طرابلس فأمن الخواطر ونادى بالأمان وصار الفلاح ينزل إلى طرابلس آمناً على نفسه وأرخص الأسعار ومهد الأمور التي كانت متبليبة من ظلم بيت العظم ، وكذلك فعلوا بإسماعيل باشا في دمشق وبأخيه سليمان باشا والي صيدا وبياسين بك بن إبراهيم باشا والي اللاذقية من قبل أبيه وأسعد بك بن إسماعيل باشا والي حماة وحسن بك أخي إسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعاً سجنوهم وأخذوا أموالهم للسلطنة وولوا غلى صيدا أحمد باشا بن عثمان باشا أبو طوق اه . وقال فولنيه الرحالة الفرنسي : إن بني العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة .

وترجم ابن ميرو أسعد باشا العظم فقال : إنه لما وسدت إليه الدولة مالكانة حماة سار فيها سيرة حسنة وعمر بها خانات وحمامات وبساتين ودوراً ليس لذلك كله في البلاد الشامية نظير ، ثم ولي صيدا فاستغفى منها وطلب حماة منصباً بعد أن كانت مالكانة له ولعمه ، فرفعت منه المالكانة ووجهت له منصباً ودخلها سنة أربع وخمسين ومائة وألف ، وبذل الأموال إلى أن جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا . وفي سنة ست وخمسين تولى دمشق وإمرة الحاج

لموت عمه سليمان بات الوزير وحج بالحجيج أربع عشرة حجة وعزل عن دمشق وإمارة الحاج بالوزير حسين باشا مكّي وولوه حلب ثم عزل عنها ونفي إلى جزيرة كريت ونسبوا له ما وقع بالحجيج وقتل بمدينة أنقره . وقال في ترجمة أسعد باشا أيضاً: إنه كان محموداً في ولايته وأهل الشام في زمانه في راحة وأمن وطمأنينة ، وكان صبوراً صبر على الأشقياء حتى أخذهم الله على يده ، وأذاه عرب حرب فصبر على أذاهم حتى انتقم الله له منهم عن يد الوزير عبد الله باشا جته جي . وقال جودت في وقائع سنة (١١٩٧) : وفيها توفي والي الشام وأمير الحاج محمد باشا العظم بعد أن أقام في وظيفته اثني عشرة سنة ولما كان وزيراً مشهوراً من أهل الثروة والغنى عين مباشرين مخصوصين من الاستانة لضبط أمتعته وأمواله . وقد أثني المرادي على محمد باشا العظم هذا فقال : إن له من المآثر في كل ولاية وليها ولا سيما في دمشق ما يحسن ذكره وأنه رفع المظالم وأنشأ المعالم قال : وبالحملة فهو من أحسن من أدركناه من ولاية دمشق وأكملهم رأياً وتديراً .

والغالب أن الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بني العظم في الشام يقاتلون الخوارج عليها ولا تحذمهم أنفسهم بنزع أيديهم من يدها ويدفعون إليها الخراج في أوقاته ولذلك كانت ترعاهم على الحملة في حياتهم وتركهم يستمتعون بنعمها ، فإذا هلكوا جاءت ووضع يدها على عروضهم وأموالهم كما هي عادتها ، ولعلها استبطأت أسعد باشا في الولاية فخشيت شره فخنقته . وبالحملة فإن أحوال ذلك العصر يصعب الآن الحكم عليها لقلّة من نظر في المؤرخين في الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح .

فن ومشاغب :

رجع إلى سلسلة الحوادث . فقد توفي سنة (١٠٤٨) الأمير محمد فروخ النابلسي وكان من شجعان الدنيا ، تولى حكومة القدس ونابلس فأرهب العربان وكبر صيته وبقي في إمارة الحج ثماني عشرة سنة ، وألقيت رهبته في قلوب العربان وكانوا إذا أرادوا أن يخوفوا أحداً منهم يقولون ها ابن فروخ أقبل

فتتلوى قوائمه . وفي سنة (١١٥٢) كبس وزير صيدا مقاطعة الشقيف وقتل الشيخ أحمد فارس وأولاده ورفعت القبوقول والأورط من الشام (١١٥٢) نجث سيرتهم وهاجم (١١٥٦) الأمير ملحم الشهابي إقليم المتاولة ووصل إلى قرية نصار فالتقى بعساكرهم وانتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة وقتل منهم ألفاً وستمائة قتيل وقبض منهم أربعة مشايخ ونهب أرضهم وأحرقها ، وباعت والي صيدا ووالي طرابلس ووالي دمشق إمارة الأمير ملحم الشهابي في لبنان لتأخره عن أداء المال السلطاني وأحرقوا إقليم التفاح ومرج بشرة ثم وقع الصلح وأدى ما عليه . وجهاز (١١٥٦) سليمان باشا العظم والي دمشق عسكرياً على الظاهر عمر الزيداني بعد أن قبض على أخيه مصطفى وشفقه بدمشق ، فلما وصل الوزير إلى قرب عكا لحصارها رشا ظاهر العمر بعض أتباعه فأدخل على سليمان باشا السم في طعامه فمات وجيء به إلى دمشق في أكثر الروايات ، وسليمان باشا هو ابن إبراهيم ولي طرابلس وصار جرداويماً لأخيه شقيقه الوزير إسماعيل ثم ولي صيدا ، وبها صارت له الوزارة ثم ولي صيدا ثانية ثم ولي دمشق (١١٤٦) بإمارة الحج وحج خمساً بالحج الشامي ثم ولي مصر وعاد إلى دمشق فوليا ستين .

وفي سنة (١١٥٧) كانت الموقعة في مرج عيون بين المشايخ المتاولة وأهالي وادي التيم ومعهم دروز جبل الشوف وكانت الكسرة على الدرروز وعسكر وادي التيم وقتل منهم نحو ثلثمائة قتيل وحرقت المتاولة جميع قرى مرج عيون . وفي سنة (١١٥٨) ملك الدالاتية قلعة دمشق فقاتلهم الانكشارية ، وأمر أسعد باشا العظم حاكم دمشق أن يقصدوا سوق ساروجا وأطلقت المدافع فخربت الدور ونهبت دار رئيس الفتنة وخربت ، وجرت القافية بقية الدور ولم يبق من سوق ساروجا إلا القليل وأعمل اسعد باشا السيف بكل عاص وقاتل عسكره أناساً ، وسلبوا الدور وأحرقوا بعضها ، ثم صلب كثيرين وبقيت المشنقة أياماً لا تخلو من مصلوب اتهم أنه كان يمالئ أرباب الدعارة على رغائبهم ، وتركت جثثهم أياماً أمام السراي تأكلها الكلاب وسلخت رؤوسهم وجعلت أكواماً ، وصارت المدافع تطلق بكرة وعشية مدة شهرين ، وكثر العزف بالأبواق وإطلاق السهام النارية في الفضاء .

وفي سنة (١١٦٠) غزا أسعد باشا العظم البقاع فركب الأمير ملحم الشهابي بعسكره إلى المغيثة ونزل إليه عند بر الياس فانكسر الباشا ووصل الأمير ملحم إلى سهل الجديدة ثم رجع وأحرق جميع قرى البقاع ورجع إلى إمارته منصوراً وهابته الدولة . والسبب في هذه الفتنة تأخر الأمير ملحم في دفع الأموال الأميرية علة العلل وأصل معظم الفتن ، وغضب سليمان باشا العظم (١١٦١) على الانكشارية في دمشق فأخرجهم عنها ، فحضر رئيسهم أحمد آغا القلطقجي ومعه عدة أغوات إلى جبل الشوف ، واجتمعوا عند المشايخ بني يزبك وكانوا ينزلون وينهبون من نواحي دمشق ويقطعون الطريق ، وأحرق الأمير ملحم ديار بني تلحوق في الغرب وديار بني عبد الملك في الجرد .

وحاصر سليمان باشا العظم الشيخ ظاهر العمر في قلعة طبرية (١١٦٠) ثلاثة أشهر فأدركه ركب الحج فارتفع عنها، ولما خرج الباشا إلى الحج أرسل الأمير ملحم عسكراً إلى بعلبك فطرد الأمير حيدرأ الحرفوش وولى مكانه الأمير حسناً ، وخربت الدروز أرجاء بعلبك وقطعت أشجارها . وفيها حضر خط شريف بقتل أغوات الانكشارية بدمشق فقبض الوالي على بعضهم وقتل ابن الفلاقسي . وذكر ابن بدير أنه بلغ متسلم دمشق سنة (١١٦٢) أن بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاءوا دمشق ينهبون ويحرقون فأرسل إلى الموالي والمفتي والقاضي يأمرهم بأن يأخذوا معهم الأعلام وينادوا: هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله والسلطان ليخرج إلى قتالهم . فخرج الناس فقتلت الحامية زمرة وكان الدروز يحتجون بأن قدومهم كان لإخراج إخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا في حارة الميدان والقيبيات كل من لا يخرج للقتال معنا نهب ماله وداره ، فانضم جماعة من الحارات ونزلوا إلى السويقة ووقع القتال بينهم وبين القبوقول والدالاتية ، وأغلقت البلد حوانيتها وحصرت الحارات ونبه المتسلم على أهلها أن لا يخرجوا إلى الأزقة ليحرسوا دورهم، ثم جرت مقتلة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم والقبوقول . وفتح عسكر الباشا الدكاكين في باب الجابية ونهبوا ما فيها من طعام وهدموا مصاطبها وصيروها متاريس ومن الغد باكروا القتال

وزحفوا إلى السويقة ومعهم العملة والبنائون فحرقوا الدور والقصور وأطلقوا المدافع على الأشقياء فولوا الأدبار، فأمر المسلم عسكره أن يقعوا في نهب الدور والدكاكين . وروي أنه أخرج فتوى وحجة وأمرأ قاضياً بأن ينهب الجند من حد السويقة ويقتلوا ويهدموا ولا يعفوا عن إنسان فسلبوا الأموال وسبوا الحریم. ولما هرب الدرود نودي في البلد بالأمان وأن تفتح الأسواق ويكف عن النهب قال ابن بدير : وقد سرت مع من سار فرأيت فضائح الميدان، والقتلى مجدلة، والأبواب محطمة، والدكاكين مقفلة، ثم اضطرب أهل القبيبات والميدان والسويقة وباب المصلى وأخذوا ينقلون أثاثهم إلى داخل المدينة مثل باب السريجة والقنوت وغيرهما من الحارات . وخاف الأكابر والحكام والعامّة فجعلوا يعزلون الدكاكين ويخبأون ما حوته في البيوت وبلغ عدد الدور المنهوبة في هذه الواقعة كما قيل ألفاً وتسعمائة دار وأما الخوانيت فكثيرة جداً.

هذا وقد أخذ القبوقول يمسكون الناس ويأتون بهم إلى الحكام ويقولون : هذا كان يقاتل مع الأشقياء فيقتلهم المسلم من غير حجة ولا إثبات، ولا قصد للقبوقول إلا أخذ ثارات لهم مضت مع الإنكشارية، إلى آخر ما أصاب دمشق في ذلك العام من حرق ونهب وغلاء وفضائح وفظائع . وكان من العادة أن تغلق أرتجة الفيحاء وخوانيتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول والإنكشارية وبينهم وبين الدالانية والأشراف والأكراد والدرود، حتى ينادي منادٍ من قبل الحاكم يأمر بفتح الدكاكين ويطمئن الناس .

وجاء دمشق (١١٦١) أحد موالى أسعد باشا العظم وكان نقل بعد ولايته دمشق إلى حلب، فذكر الإنكشارية والعامّة ظلمه أيام كان سيده حاكماً في دمشق فقاموا قومة رجل واحد فالتجأ إلى القلعة وحماه القبوقول، ولما أريد على الخروج من دمشق أبي فأغلقت البلدة دكاكينها ومحالها وتجمع الإنكشارية وتبعهم الناس وتعصب العناتبة والأكراد والدالانية مع القبوقول وأهل حارة العمارة وحدثت غارة في سوق الدرويشية وأطلقت النيران على الإنكشارية ثم قاموا على أهل حي العمارة فانهزم أهلها منها وأحرقوها حتى صارت بلقماً وراح أهلها إلى الجامع الأموي، ودامت الفتنة أياماً حتى قر رأي الأكابر والأمراء على إخراج مولى ابن العظم من دمشق فأخرج ولم تطفأ جذوة الفتنة، لأن

الناشرين ما زالوا يتلمظون بطعم الغنائم ويزدردون حاوى الغارة ، وجاء الخبر بأن الجالين عن دمشق نهبوا الضياع في طريقهم وقتلوا الأنفس وهتكوا الأعراض وصادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم وقتلوا منهم فريقاً . وأخذ القبوقول يطلقون النار على الرعية وظلت الفتنة قائمة في البلد بين القبوقول والإنكشارية والأشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة أولاد وشبت الحرب في شوارع المدينة أياماً ثم عتا الإنكشارية على حاكم دمشق فصاح في جنده وركب إلى الميدان فهربوا أمامه فأعمل هو وجنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ومن لم يمت بالسيف قاده بالسلاسل والأغلال ، وعم نهب العسكر الكبير والصغير والناس بين قتيل وأسير ، ونهبت الدور والدكاكين وانتكبت نكبة عظيمة فعريت النساء وخطفت الجوارى والعذارى ، وتمنى العقلاء الموت ، ثم نهض جماعة الحاكم إلى النهب فمنعهم وأمر بجمع ما نهبوه فما وصل إلا القليل أودعه بعض الجوامع وأمر منادياً ينادي لتأخذ الأسباب أصحابها ، فأخذ بعضها وذهب الأكثر ، وأما أتباع الوالي فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه ويقطعون رأسه أو يجسونه ، وتناول أذاهم من في الدور وتمعت الحال .

ووصف ابن النجار هذه الفتنة فقال : إن السلطان أرسل والياً آخر غير الذي كان وجرت هذه الواقعة في عهده ، فقتل الأشقياء من المسلمين والدروز والنصارى وخرّبوا وحرّقوا الدور ونهبوا الأماكن قال : وتعطلت الأسواق والمعاملات بسببهم في دمشق قريباً من سنة لا تقام جمعة ولا يسمع آذان ولا يفتح جامع ولا يتمكن أحد من الخروج من منزله لحاجة ولا لغيرها ، لفسادهم وإفسادهم وتعديهم على الخاص والعام . وإنما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود والٍ بدمشق فإن واليها كان خرج منها إلى الحج أميراً فجاء الوالي الثاني وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر وسلب دورهم ومتاعهم وأثاثهم ، ولحق دمشق وأهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده كل بؤس ، وذلك بسبب قيامهم على أولئك الأشقياء ، وانتهبت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من الأبرياء ، نزل هذا الجند الكثير من دور الناس ، وأخرجوا أهلها منها بالعنف وظهر من أتباع هذا الوالي ما أنسى أهل دمشق ما كانوا

فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند إليهم وقال : إن هذه الفتن وقعت سنة (١١٧٠) وأرسل عبدالله باشا الشجي والياً ليرفع الحيف عن الدمشقيين ويعيد الأمن إلى طريق الحج ، واشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول والإنكشارية ثم فرّ الإنكشارية طالبين البراري والقفار فتبعهم نفر من الجند وقتلوا منهم عدداً ، ثم إن الجند أخذ في قتل من يراه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا معظم المنازل والخوانيت من الحلقة إلى باب الجابية ، والجند يأتون بالرؤوس إلى الوزير ، فقتل من الرعايا على هذه الحال عدد كثير وانتهب المال والمتاع ، وظلم رئيسهم وحواشيه واختطفت النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع ، والجند يقولون إن جميع الدمشقيين كفره وإنهم قوم يزيد . قال الشهابي في دخول والي دمشق الجديد إلى المدينة : إنه كان مع الشجي ثلاثة عشر ألف رجل فاجتمعت أهالي دمشق إلى الميدان ليمنعوه من الدخول فدهمهم ليلاً وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وفي سنة (١١٦٣) حصل بين سعدالدين باشا العظم وبين أهل حلب وحشة فرحل عنها جرداويماً « وكان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لأنه لم يتول هذه الإيالة في الدولة العثمانية أحد استقلالاً لقلة دخلها ووفرة خرجها فولوه طرابلس جرداويماً لأخيه أسعد باشا الوزير فأقام جرداويماً فيها وفي صيدا وحلب اثني عشرة سنة » روى الشهابي في حوادث سنة (١١٧١) أنه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق والقبوقول وكانت دروز الجبل تعين الإنكشارية في القتال فانتصروا وحاصرت القبوقول في القلعة وجرى بينهم أربع وقائع ، والإنكشارية تنتصر بإمداد الدروز ، ثم وقعت الفتنة بين عسكر الباشا وعسكر الإنكشارية فانكسر عسكر الوزير وخرج الإنكشارية من دمشق نحو ألف فارس ووقع القتال بين أهل البلد وعسكر الوزير فقتل من أهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالأمان .

وعدد ابن بدير كثيراً من مظالم الدقردار فتحي أفندي ومما قال : إن الأهلين لما ضاقوا به ذرعاً استعدوا الباب العالي فأعدهم فأحضر إلى العاصمة ليمثل بين يدي السلطان ، فأخذ يمنح المنايح لأرباب المظاهر حتى أدخلوا على السلطان شخصاً آخر بدلاً منه وأوهموه أنه هو المشتكى منه فأمر

بقتله فقتل . أما فتحي فسفره أعوانه من النظار تحت جنح الدجى فآب إلى دمشق يفعل الأفاعيل المنكرة، حتى إذا ضاق الخناق ورد الأمر بقطع رأسه فقطع وجرّ في شوارع المدينة وترك للكلاب تنهشه ومثل ببعض أعوانه وصودرت أمواله .

عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث وبعض الأحداث في أيامهما :

وبينا كانت دمشق تموج بالفتن وتستل فيها الأرواح بسوء إدارة الولاة وتلاعب رؤساء الجند كان لبنان وهو ربيب القوة والمقاومة لا يخلو على ذلك العهد من فتن تدك العمران، وتفني الإنسان والحيوان، فقد ذكر المؤرخون أن المشايخ المناكرة تطاولوا (١١٦٣) على إقليم جزين فعظم ذلك على الأمير ملحم الشهابي وركب لحرب جباع الحلاوة فهربت المتأولة من وجهه وأحرق أكثر ضياعهم، وكان قد أصاب منهم جماعة في جبل الشوك فوق جباع وقتل من المتأولة نحو ثلاثمائة نفس وحرقت حارة جباع وقطع الأشجار، وأحرق قليمي الشقيف وبشارة، ثم حدث بين جماعة الأمير ملحم الشهابي ووالي دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع في البقاع على المسافرين في طريق دمشق فقتل أناس من عسكر الفريقين، ثم وقع الصلح بين أمير لبنان ووالي دمشق على أن يؤدي الأول للثاني نفقة الحملة . وفي سنة (١١٦٥) وقعت فتنة بين المشايخ بني أبي نكد فغضب الأمير ملحم الشهابي عليهم وأرسل فنفاهم من البلاد فنزحوا إلى وادي التيم وهدم منازلهم في دير القمر ثم رضي عنهم . وكانت للسيد أحمد باشا الذي كان والياً في حلب سنة (١١٦٥) الحظوة عند رجال الاستانة قال أبو الفاروق : فعينوه والياً على قونية فسبقه إليها زوربا كورد محمد، وأثار أفكار أهلها عليه لما عرف به من مظالم، فحاربوه وهلك أناس في هذا السبيل، ثم عينته الدولة والياً على حلب فسبقه إليها كورد محمد أيضاً ومثل الرواية التي مثلها في قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر . ودامت الحرب فيها مدة وأحرقت البيوت وخربت البساتين وقطعت المياه عن البلدة .

وفي سنة (١١٦٨) توفي محمود الأول بعد سلطنة خمس وعشرين سنة وتولى السلطنة السلطان عثمان الثالث وهو الخامس والعشرون من آل عثمان ولم يعمل

عملاً يذكر اللهم إلا ما كان من تبديل وزرائه والإفراط في هذا التبديل، وكان يميل إلى الطرب والصفاء ويعمر الأبنية في العاصمة وأسس بعض دور الكتب وفي خلال ذلك تولى دمشق وإمارة الحاج حسين باشا مكّي ولم يكن شرهاً في جمع المال ويميل إلى العدل وحسن الرياسة غير أنه كما قال المرادي : كان بطيء الحركة عن شهامة الوزراء، فبسبب ذلك حصل من الجند الوطني والقبوقول (الحرس) وغيرهما من طوائف الأكراد والعسكر فتن وحروب وحصل للأعيان والرؤساء الضيق العظيم وقامت عليهم الناس .

وفي سنة (١١٧٢) هلك السلطان عثمان بعد أن ملك ثلاث سنين وثمانية أشهر وخلفه مصطفى الثالث فافتتح العهد بالإعلان بتبديل السياسة ولكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام وسيادة الاشمئزاز على الناس، ووضع ثقته في وزيره رجب باشا فأحسن وكان رجب ذكياً ومخلصاً . وفي سنة (١١٧٤) كان والياً على دمشق عثمان باشا الكرجي وكان يلقب بالصادق، وسبب هذا اللقب أنه كان من بعض مماليك أسعد باشا العظم وهذا يحبه لنباهته ، ولما قتل أسعد باشا وضبطت الدولة داره وأمواله طلبوا عثمان هذا فأخبرهم بخزائن مولاه، ثم وجدت قائمة بين تلك الأموال فكانت مطابقة لكلامه فأنعمت عليه الدولة ولقبته بالصادق، وتولى ولاية دمشق إحدى عشرة سنة (١١٧٤ - ١١٨٥) ومما وقع في أيامه ركوبه لحرب محمد الجرّار إلى قلعة صانور، أرسل إلى الأمير يوسف فبعث بعسكره والتقى به عثمان باشا فعظم أمره عنده وأكرمه، وأصلح الأمير إسماعيل الشهباني حاكم حاصبيا قلعة بانياس وبني ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن وأقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة وجيزة ثم سلمه القلعة ونهب عثمان باشا كل ما كان فيها وأمر بهدمها .

سيرة ظاهر العمر الزيداني وسياسته :

استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود والٍ مخلص لها في دمشق عثمان باشا الكرجي الصادق، فركته وشأنه يعدل باسمها ويقاقل أعداءها، فطالت ولايته على حين تقلبت حلب في مدة حكمه على دمشق إحدى عشرة سنة في أيدي

عشرة ولاة: وكانت الشام تتمخض في خلال ذلك بظهور رجلين في العقدين الأخيرين من هذا القرن كما تمخضت أواخر النصف الأول منه بظهور آل العظم، ونعي بهذين الرجلين الشيخ ظاهر العمر الزيداني وأحمد باشا الجزائر. وقد اهتمت لعظم شوكتها الأمة والدولة، جاء الثاني على أثر الأول فبزه ظلماً وعدواناً. ولم يكن قيام أمر الرجل في ذلك العهد يتوقف على نباهة فيه وعلم وسياسة، بل غاية ما يحتاجه شيء من المعرفة بطبائع من يقوم فيهم، وتلطف باستمالة قلوب أفراد يعول عليهم، ورأس مال قليل يؤديه ثمن إقطاع أو نفقة الظهور، ومهارة في البطشة الكبرى الأولى ودهاء وحيلة، وعندها يزيد كل يوم قوة، ولا تلبث الدولة أن ترعاه، والأهلون أن يتفياًوا ظله وحماه.

في أواسط القرن الحادي عشر جاء إلى جهات فلسطين الشمالية من الحجاز رجل يدعى زيدان وله ولد اسمه عمر ولعمر ولدان اسمهما ظاهر وسعد. ظعنوا عن ديارهم لخصومة وقعت بينهم وبين عدو أقوى منهم مراساً، فجاءوا وضربوا خيمتهم في الأطراف الشمالية من سهل البطوف في أرض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس. ولما كانت قرية عرابة أقرب القرى إليهم جاء وجهاء القرية وزاروهم وحيوهم وسألوهم أن يأتوا إلى قريتهم يضرّبون خيامهم في أرضها لأنهم كانوا على أربعة أميال منها. وكان في قرية سلامة المعروفة اليوم بخربة سلامة الواقعة على منحدر الوادي المسمى بهذا الاسم شيخ درزي قوي الجانب برجاله الأشداء باسط أجنحة نفوذه على ما جاوره. مر بعرابة ذات يوم ووقع نظره على فتاة أعجبه حسنها وطمع فيها لنفسه. ونزل بيت أحد وجهاء القرية ودعا إليه الزعماء وطلب منهم الفتاة، فشق على سكان عرابة ذلك خصوصاً وهو درزي وهم سنة. وارتابك أهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع فقال لهم: الخطب سهل على أن تعاهدوني أن تعملوا ما أسألكم إياه ولا تبوحوا به فقال: أجبوا الدرزي إلى ما طلب وعينوا له وقتاً يوافيكم فيه لأخذ العروس، وإذا جاء مع جماعته رحبوا به فإذا استقر بهم المقام خذوا أسلحتهم ثم اتركوهم يهزجون ويرقصون إلى حين الرقاد، وكل واحد منكم يأخذ واحداً إلى داره ليؤويه ولما رقد الجميع هبّ زيدان وأفنى جماعة الدرّوز، ثم أغار هو وجماعته على سلامة مع سكان

عراية فبطشوا بمن بقي فيها وخربوها فعظم قدر زيدان وانضم إليه أناس من يحبون الغزو والشقاوة، وألف منهم جيشاً يغزو بهم، فينزل بأرباب العمل الويل والحراب. ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة وكان منهم حاكماً طبرية والناصر، فأضحى المقادحة بلا زعماء فاحتل أهل عراية نمرين وغيرها. ورزق ظاهر ستة أولاد ذكور وكفله سكان عراية لدى والي صيدا فالتزم الجباية، وكان بعض السنين يتلكأ عن أداء ما تعهد به وأحياناً يؤدي للدولة حقها، حتى نمت ثروته وأقام في عكا فجعل أخاه سعداً في دير حنا، وأولاده علي في صنفد، وعثمان في شفا عمرو، وسعيد في الناصرة وجهات مرج ابن عامر، وصلبي في طبرية، وأحمد في تبنة وجبل عجلون.

كانت جبال بيروت وأعمالها بيد حكامها الأمراء الشهابيين يدفعون الأموال لوالي صيدا المعين من قبل الدولة، وكانت صور وعملها بيد المتأولة يضمنون أموالها من والي صيدا، وأما جبال عكا وما إليها فكانت بيد مشايخها ومن جملتهم بيت أبي زيدان كانوا يضمنونها من والي صيدا أيضاً، فما زال الأمر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتأولة وتزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه وأقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس، وعمرُوا قلعة طبرية وقلعة صنفد وغيرهما وبدأوا يسطون على عكا وصور، وأظهروا الشقاوة وقطع الطرق فضجر منهم والي صيدا واضطر أن يضمن مدينة عكا إلى الشيخ ظاهر العمر ويضمن صور للمشايخ المتأولة، وابتدأ الشيخ ظاهر العمر يبني في عكا سرايا عظيمة وسوراً وأبراجاً ويجمع إليه العسكر وانتشرت أعلامه في تلك البقعة وأطاعته مشايخ المتأولة ودخلت عرب البادية تحت حكمه «وكان عادلاً في الرعية وسار معهم سيرة مرضية» وساعدته المتأولة في أطراف لبنان فخافه السلطان وأوهمه أنه يجعله نائبه في القدس ويوليه عكا والناصر وطبرية وصنفد وسائر البلدان التي في تلك الأطراف وأنه أمير العرب فصدق وكف عن المحاربة. وذكر شوفيه وايزامبر: أن ظاهر العمر نشط الزراعة وقضى على غزو القبائل المجاورة له من العرب فوفق إلى توطيد الأمن في الأقاليم فكان المسيحيون والمسلمون يهرعون إلى نزول أرضه من جميع أطراف الشام لينعموا فيها بالراحة والتساهل الديني.

وقال واصفوه: إنه ما زال في ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الروسية فضعفت الدولة في الأقطار الشامية، فزاد ظاهر العمر قوة وعدا على والي صيدا وطرده منها وتملكها وأرسل لها حاكماً من عنده، واستمر يحارب الوزراء سبع سنين ولم يدفع مالا للدولة، وله معهم وقائع انتصر فيها على عساكر الترك وعسكر الدروز والعربان . وفي هذه الأثناء صادق دولة روسيا بمشورة وكيله الخاص إبراهيم الصباغ من أهل عكا، وكان هذا صاحب عقل وتمييز إلا أنه يجب المال كثيراً، كما حالف الأمير فخر الدين المعني الثاني في القرن الماضي أمراء طسقانه .

واستمر الشيخ ظاهر حاكماً على عكا نحو أربعين سنة إلى سنة (١١٨٩). والسبب في وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر وولاية الأطراف أن عثمان باشا الصادق والي دمشق لما وليها سنة (١١٧٤) وكان شديد المكر كثير الدهاء، ولي أولاده الاثني عشر وطرابلس، فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر ويطلب المال للسلطان، فبدأت الحرب بينهما فانكسر عثمان باشا وخلت خزائنه فأخذ يلح على الأهالي في طلب المال، فضج الناس من ظلمه، وعصاه أهل الرملة وغزة ويافا ولم يطيعوه إلا بعد حروب كثيرة، فوقعت البغضاء في قلوب إقليم القدس وتمنوا بحكم علي بك صاحب مصر عليهم، وكان هذا قد قوي فأطاعته البلاد المصرية .

وحاول عثمان باشا سنة (١١٨٣) أن يغزو ظاهر العمر بالاتفاق مع أمراء جبل الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالي مصر علي بك، وكان هذا عزم على رفع لواء العصيان على الدولة، وفي قلبه حقد على عثمان باشا، فهش لاقتراح الشيخ ظاهر لأنه كان يريد امتلاك الأمصار من عريش مصر إلى بغداد، وكان قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالباً منها أن تمدّه بالمراكب والرجال وهو يملكهم المدن البحرية في الشام . ولما وصات إليه رسالة الشيخ ظاهر جهز له ستة سناجق كبار ورأس عليهم إسماعيل بك وأصحابهم بعشرة آلاف من الغز والعربان والمغاربة وأمرهم أن يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر وساروا إلى أراضي المزيريب في حوران، وكانوا نحو عشرين ألفاً، لقتال عثمان باشا فعدل إسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من تمرد أولاد الظاهر وعشيرته، فشكا (٢-١٩)

الشيخ ظاهر إلى الأمير علي بك ما لقي من إسماعيل بك فابتدأ الأمير علي يجهز العساكر والجنود على نية الخروج لتملك الشام .

وفي هذه السنة قبض الأمير يوسف الشهابي على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا إلى وزير طرابلس وأتوا بعسكر إلى قرية بزيزا ووقع القتال بينهم في قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس وحاصر بعضهم في برج في أسفل القرية ثم سلموا وساروا إلى طرابلس، وفيها بلغ الباب العالي ما فعله علي بك، فأمر والي دمشق أن يسير بخمسة وعشرين ألفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي بك فسار الوالي بالعساكر، فوافاه الشيخ ظاهر العمر في ستة آلاف بين جبل النيران وبحيرة طبرية وردده على أعقابيه .

حملة أبي الذهب على الشام :

استكثر أمير مصر علي بك (١١٨٤) من جمع طوائف العسكر وأمر بسفر تجريدة إلى الشام وأميرها إسماعيل بك وكان أرسل أحد رجاله فقتل سليطاً شيخ عربان غزة هو وإخوته وأولاده، فذهبت تجريدة من البر وأخرى من البحر ووقعت بين جنده وحكام الشام وأولاد العظم حروب ومناوشات . وفي سنة (١١٨٥) أخرج علي بك من مصر تجريدة عظيمة وأميرها محمد بك أبو الذهب في جند كثير من المغاربة والترک والهنود واليمانية والمتاولة، وسافرت من طريق دمياط في البحر، فلما وصلوا إلى الديار الشامية حاصروا يافا وضيقوا عليها حتى ملكوها، ثم توجهوا إلى باقي المدن والقرى وحاربهم النواب والولاة فهزموا وقتلوا وفروا من وجه الجيش المصري، فاستولى على الممالك الشامية إلى حدود حلب . قال هذا الخبرتي، وقال غيره: إن محمد بك أبا الذهب لما وصل إلى الشام حضر إليه أولاد ظاهر العمر ومشايخ المتاولة وانضموا إلى عسكره فصار جيشاً عظيماً ينيف على الستين ألفاً، فسار محمد بك أبو الذهب طالباً دمشق، وكان عثمان باشا قد رجع من الحج فجمع العساكر لقتاله، فما لبث عثمان باشا أن انكسر فخيم أبو الذهب حول المدينة قاصداً حصارها، وأرسل إلى أهلها كتاباً يشير فيه إلى ما أتاه عثمان باشا من الظلم وإهانة الحجاج والزوار وظلم المسافرين والتجار، وأنه يريد أن يظهر هذه

الأرض منه نصرة للدين وغيره على المسلمين، ويذكر ما فعله بعلماء غزة في العام السابق من دفنهم في الأرض أحياء، وأنه أخذ فتوى المذاهب الأربعة في قتاله، وصرف الأموال والعساكر ليردوا الظالم ويستردوا المظالم، فخرج العلماء والعوام من أهل دمشق كافة إلى محمد بك أبي الذهب وطلبوا منه الأمان فأمنهم وأكرمهم، ودخل المدينة وجلس في دار الوزارة ونادى بالأمان، وكانت القلعة لم تزل محاصرة فأمر بإطلاق المدافع عليها وطلب المحاصرون الأمان فتسلم القلعة. وتراجع عثمان باشا إلى حمص وجهاز العساكر الكثيرة. وابتدأ إسماعيل بك يغير قلب محمد بك أبي الذهب على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور وخوفه عاقبة التمرد على السلطان فنهض بعساكره ليلاً من دمشق وسار طالباً الديار المصرية، وشاع رحيله من الغد فتعجب الأهليون من ذلك ولم يعلموا السبب فيه، ورجع أولاد ظاهر العمر والمشايخ والمتاولة كل منهم إلى مكانه وقد تأسفوا على سعيهم.

وفي رواية أن السبب في ترك العسكر المصري بزعامة محمد بك أبي الذهب حصار دمشق أن عثمان باشا واليها لما أشرف على الهلاك بعث إلى قائد المماليك بصرة ثقيلة بالدنانير للرجوع عن محاربتة فارتشى منه، وأمر عسكره بترك المحاصرة وتركوا حصار قلعة دمشق، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم، وأنهم قد فارقوه وتركوه وحده عجز عن فتح القلعة فرجع إلى دياره، فتخلص عثمان باشا وعاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج لمحاربة ظاهر العمر ودخل أراضيه وحاصره في عكا وجدّ في الحصار حتى صعب الحال على الشيخ، وكاد عثمان باشا يفتح عكا، فما نجا الشيخ في هذه المرة إلا بمساعدة ولديه، فقد جمعا العرب وهجما على الترك ليلاً فكسروهم وشردوهم فهرب منهم عثمان باشا، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره وحارب الدروز فغلبهم وتملك قراهم التابعة لعامل صيدا. ولما بلغ السلطان خبر فتوحه وهو مشغول بحرب روسيا صعب الحال عليه، فأرسل السلطان إلى الشيخ يعرض عليه الصلح، وقد عزل عثمان باشا وولديه عن ولاية دمشق وصيدا وطرابلس، وأما الشيخ ظاهر فقد أضمر في نفسه أن يدخل في طاعته الشام كله وهو يستند في ذلك على مساعدة علي بك أمير مصر.

وذكر المرادي أنه كان مع محمد بك أبي الذهب تسعة ألوية وخمسة من أولاد الظاهر أمير بلدة عكا ومشايخ المتأولة والصفدية ونحو ثمانين مدفعاً وأربعون ألف مقاتل، وعينت الدولة لقتاله والي حلب ووالي كليس ووالي طرابلس فخرجوا مع وزير دمشق بالعساكر الشامية والأجناد، وصارت المعركة في سهل داريا وفي أقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقي وفر هارباً كل من والي كليس، والي حلب وعساكرهما، وقتل منهم شرذمة قليلة وثبت كافل دمشق عثمان باشا وولده محمد باشا والعساكر الدمشقية ودام القتال ثلاثة أيام، وفر أعيان البلد إلى حماة واستولى الفرع على الناس، وغص الجامع الأموي بأهالي القرى فنزلوا بأهلهم وأمتعتهم ومواشيهم إليه. ولما عاد أبو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا وولده محمد باشا ورئيس «اليرلية» يوسف أغا جبيري من جبل الدروز ومعه خمسة آلاف درزي وبعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبيري، لأنه كان السبب في تقوية الدولة المصرية على العساكر الشامية طمعاً في قتل عثمان باشا وصيرورته مكانه كافلاً بدمشق.

عاد أبو الذهب إلى مصر ورجع إلى دمشق عثمان باشا وحضر إليه الأمير يوسف الشهابي لأنه كان قد أرسل إليه نائبه يوسف أغا جبيري يستنجده، وكان الأمير يوسف قد جمع عسكراً وتجهز للمسير فاتفق قيام أبي الذهب عند ذلك. ولما فرغ بال عثمان باشا وقتل نائبه يوسف أغا جبيري رئيس الأنكشارية ونهب أمواله أقام مكانه رجلاً من أهل دمشق يقال له عثمان أغا شبيب، ثم خرج بعسكر عظيم إلى أرض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر والمتأولة الذين كانوا السبب في تلك الفتنة فجمع ظاهر العمر رجاله واجتمعت المتأولة وكبسوا عثمان باشا في الليل فذعرت عساكره وقتل منهم خلق كثير. وهزمهم الشيخ ظاهر وما زال في إثرهم حتى وصلوا إلى بحيرة الحولة فألقى كثير منهم أنفسهم في البحيرة وماتوا غرقاً. وهرب عثمان باشا بنفر قليل فاستولى ظاهر العمر والمتأولة على أسبابه. وكتب الشيخ ظاهر إلى الأقاليم الشامية ودخل الناس كافة في طاعته. فخرج علي بك من مصر فالتقاه ظاهر العمر بالإكرام ودخل به إلى عكا فأرسل كتباً منه (١١٨٥) ومن الشيخ ظاهر العمر إلى ملكة المسكوب يسألانها معاضدتهما على الدولة العثمانية، وأن ترسل

لبيهما المراكب الحربية ليسلماها الديار المصرية . وأقام علي بك ينتظر الجواب وقويت مشايخ المتأولة على الدولة، وتناولت على أطراف جبل الشوف ومرج عيون والحولة، فاتفق الأمير يوسف ونخاله الأمير إسماعيل حاكم وادي التيم الأدنى وجمع الأمير يوسف نحو عشرين ألف جندي وسار قاصداً قرية جباع الحلاوى وأحرق لإقليم التفاح وحرقت جباعاً وقطع أشجارها وهدم بناياتها .

وكان عسكر المتأولة المجتمع في النبطية نحو ثلاثة آلاف، ولما وصل الأمير يوسف الشهابي إلى كفر دمان أحرقها وتوجه إلى النبطية فالتقى بشرذمة من عسكر المتأولة نحو خمسمائة خيال ووقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الأمير يوسف كسرة هائلة، ومات كثير من عسكره تعباً وعطشاً ومنهم من اختلت عقولهم، وفقد من عسكره في هذه الواقعة أكثر من ألف وخمسمائة قتيل، وركب الشيخ كليب نكد من حاصبيا إلى دير القمر وغزا المتأولة في قرية علمان فهزمهم ومنعهم من الحضور إلى إقليم الخرنوب وتلك الأطراف، وسارت عساكر الدولة مع عسكر الأمير يوسف لحصار مدينة صيدا وأنقازها من يد ظاهر العمر وكانوا في أكثر من عشرين ألفاً معهم المدافع والزنبركات فأقاموا على حصارها سبعة أيام . وجاءت المراكب الروسية إلى عكا التي استنجد بها ظاهر العمر فأرسلها إلى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة وجيش لبنان، وساق ظاهر العمر عسكره وقدره بعشرة آلاف جندي والتقى بعسكر لبنان وجيش الدولة في سهل الغازية، وانتشب القتال فانكسر عسكر الدولة وقتل منه نحو خمسمائة نفس وانقلب راجعاً إلى دمشق، وأما المراكب الروسية فسارت إلى بيروت وملكت جانباً منها وأحرقت بعض الأبراج، فهربت الشهابية من المدينة وخرج أهلها إلى البر، ودخلت الفرنج بيروت ونهبت كل ما وجدته فيها، ثم رحلت إلى عكا بعد أن أعطها حاكم لبنان (٧٥٠٠) قرش تعويضاً، ثم عادوا وأطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ، حتى ظن الناس أن القيامة قامت وسمع صوت المدافع على ما قيل إلى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف، وأحاطوا بالمدينة بجزاً مدة أربعة أشهر ليل نهار، فتضايق المتحاصرون فيها ونفد ما عندهم من الزاد فكانوا يأكلون لحوم

الحليل والحمير والكلاب ، وهناك اضطر الجزار إلى التسليم وطلب الأمان عن يد ظاهر العمر وتسلم الأمير يوسف بيروت وغرم المسلمين ثلاثمائة ألف قرش وسلمها للسفن المسكوبية . قال أحد المؤرخين : ضرب الروس بيروت ونهبوها في القرن الثامن عشر وكانت فيها بيوت أمراء الجبل ومشايخه ، وكانوا بنوا فيها خانات وقيساريات وكان الفرنسيون يدعونها « باريز الموارنة الصغرى » وكثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا .

ووقعت في هذه السنة بين الشهابيين والحماديين في العاقورة والقلمون واقعة . وفي سنة ١١٨٦ أخذ سيد أحمد من والي دمشق حكم البقاع فتوجه إلى قب الياس وبني ما كان هدم فيها من الزلازل وحصنها بالمدافع والرجال . وفي هذه السنة أحرق يوسف الشهابي بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بني رعد حكام الضنية مع المشايخ بني حمادة . وفي سنة ١١٨٧ حمل عثمان باشا والي دمشق في خمسة عشر ألف جندي على الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان في جهات البقاع . وجرت عدة وقائع بين العسكرين وأنهزم والي دمشق في الليل تاركاً المدافع والذخائر ثم انفصل الفريقان على غير نتيجة .

عهد عبد الحميد الأول وتمة أخبار أبي الذهب :

هلك أحمد الثالث (١١٨٧) وخلفه ابنه عبد الحميد الأول وفي أيامه استولى العجم على العراق ولم يبلغه الخبر إلا بعد خمس سنين ، وهو السابع والعشرون من آل عثمان ، مضت مدة على رحيل أبي الذهب من الشام وبقي ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا وكسرتة والي دمشق غير مرة واتهام أبي الذهب بالخيانة أمام والي مصر ممتعاً بولايته حتى سنة (١١٨٩) ، وفيها سافر أبو الذهب إلى الديار الشامية - رواية الجبرتي - لمحاربة ظاهر العمر واستخلاص ما بيده من الأقاليم ، وكانت الدولة أذنت له بالمسير إلى ظاهر العمر وخراب أرضه ، فوصل إلى أرجاء غزة وارتجت الديار لوروده ، ولم يقف أحد في وجهه وتحصن أهل يافا بها وكذلك ظاهر العمر تحصن في عكا ، فلما وصل إلى يافا (١١٨٨) حاصرها وضيق على أهلها وامتنعوا هم أيضاً عليه وحاربوه من داخل وحاربهم من خارج ، وألقى عليهم المدافع والمكاحل والقنابر عدة أيام وليال ،

فكانوا يصعدون إلى أعلى السور ويسبون المصريين وأميرهم سباً قبيحاً ، فلم يزلوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية وملكوها عنوةً ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم بالحبال والسلاسل وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم جمعوا الأسرى خارج البلد وأعملوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم ولم يميزوا بين المسلم والمسيحي والإسرائيلي والعالم والجاهل والعامي والسوقي ولأبين الظالم والمظلوم . وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة والرياح والزوابع ، ثم ارتحل عنها طالباً عكا . ولما بلغ ظاهر العمر ما وقع يافا اشتد خوفه وخرج من عكا هارباً فوصل إليها أبو الذهب ودخلها من غير مانع ، وأذعنت له باقي المدن ودخلت تحت طاعته وهدم قلعة دير مار يوحنا ودير مار الياس في صفا وقتل رهبانها .

ويقول جودت : إن أبا الذهب قام من مصر في ستين ألف جندي إلى يافا ، وبعد حصارها خمسين يوماً استولى عليها وأعمل السيف في أهلها كبيرهم وصغيرهم ، وأن ظاهر العمر طلب مدداً من الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان فأبى أن يمدده فلم يسعه إلا الهرب من عكا والتجأ إلى عرب غزة ، ولما حصل أبو الذهب في عكا استولت الدهشة على الناس حتى إن بعض الأسر الكبيرة هاجرت بيروت خوفاً وهلعاً ، أما الأمير يوسف حاكم لبنان فقدم هدايا إلى أبي الذهب طيب بها قلبه ، وجاء متسلم صيدا أحمد آغا الذكري ملتمساً رضاه مظهراً طاعته ، فأمنه على نفسه ومركزه ، كما جاء مشايخ بني متوال فأكرمهم أبو الذهب ثم استدعى أن يولى أمور مصر والشام فجاءه من السلطنة المنشور بذلك ولكن كان قد قضى نحبه وتفرقت جموعه وعادوا إلى مصر ، فلم تتل الدولة مأربها من ظاهر العمر ولم تستفد الشام سوى أن قتل من أهلها جمهور كبير ولاسيما في حصار يافا . وجرى على أثر هذه الواقعة بين المتأولة والغز الذين في صيدا قتال عظيم فانكسرت المتأولة كسرة هائلة وقتل منهم جماعة .

خاتمة ظاهر العمر وولاية حلب :

قال جودت : لما سمع ظاهر العمر بوفاة أبي الذهب عاد إلى عكا وأخذ

يطيل أيدي الأذى أكثر من قبل، فأرسلت عليه الدولة سنة (١١٨٩) قائد البحر حسن باشا الجزائري، وكتب إلى والي دمشق إذ ذاك محمد باشا العظم وإلى والي صيدا وإلى الجزائر أحمد باشا الذي نُصّب محافظ السواحل الشامية وإلى متصرف القدس، فبعث قائد البحر أولاً يطلب من الظاهر ما في ذمته للدولة من الأموال الأميرية (وهي خراج سبع سنين) فلم يوافق على ذلك مستشار ظاهر العمر لإبراهيم الصباغ، وكان بيده جميع أموال ظاهر العمر، وقال له: إن الدولة لا يرضيها شيء وأراد سيده على المقاومة ولكن استمال متسلم صيدا عسكري ظاهر العمر وقال لهم: لا يجوز مقاتلة عسكري السلطان فأبوا أن يقاتلوه. فلما علم ظاهر العمر بالأمر فرّ على وجهه لا يلوي على شيء هو وأولاده، فضبط قائد البحر أمواله وذخائره وجيء بإبراهيم الصباغ فأخذت منه أموال ظاهر العمر ثم قتل. ويقول بعض المؤرخين: إن ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان وثمانون ألف كيس من النقد قال جودت: سبحان الله! بمثل هذا المال والنوال ومتسلم صيدا أحمد آغا الدكزلي يطلب عشر معشاره لإرضاء الدولة فتشع نفس إبراهيم الصباغ فيجلب البلاء على نفسه ويكون سبباً لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان.

وذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر أنه في أواخر سنة (١١٨٩) حضر قائد البحر حسن باشا الجزائري بالأسطول لأن السلطان عبد الحميد الأول لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة (١١٨٧) التفت لتنظيم الولايات فوجه قائد البحر إلى حيفا، وذلك بعد موت أبي الذهب ورجوع العساكر المصرية بمدة قليلة، وأن مطالب القائد كانت أموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر أن ليس عنده مال وأنه مستعد لحرب قائد البحر لأن عنده باروداً وقذائف وثلاثة مدافع، فأطلق قائد البحر أربعة أيام النار على عكا، وكان عدد قنبله ٧٧٥٠ قنبلة ولم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلاً من المحلات، وقيل بل سقطت قنبلة على مخزن البارود فاحترق، فخرج الشيخ ظاهر بعياله فقتله أحد المغاربة في الطريق في محل يسمى الرقايق، وكان قاتله عبداً من عبيده منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد التركي به لخيانته سيده، وحزوا رأسه وحمل إلى الاستانة ونهب العسكر المدينة ساعتين. وكان قائد السفينة الفرنسية التي جاءت

لحماية تجار عكا الفرنسيين وحملتهم إلى وطنهم نبه على التجار الفرنسيين بأن كل من عنده وديعة لإبراهيم الصباغ ولكل من يلوذ به ملزم بحسب أوامر السلطان أن يقدمها إلى قائد البحر العثماني فأعطوها وكانت ٣٦ ألف كيس ذهب عدا الجواهر والتحف، وضبطت حواصله وكانت مشحونة بأصناف البضائع وضبط مبلغ كبير من يلوذ بإبراهيم الصباغ الذي أخذ وقتل في الاستانة، وكذلك أحمد آغا الدكزلي الذي خان مولاه فقد صلبه قائد البحر في صاري المركب، وسلم قائد البحر ولاية عكا إلى أحمد باشا الجزائر، سلمه عكا وصيدا وما يليهما، فاحتال الجزائر على أولاد ظاهر العمر وأقام الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ ويقول مشاققة: إن حسن باشا طلب من ظاهر العمر خمسين ألف قرش تبلغ بأسعار ذلك الوقت خمسة وعشرين ألف ريال فرنسا فأشار أكثر معتمدي الشيخ بالدفع إلا الطبيب التاجر إبراهيم الصباغ فإنه خالف رأي الجماعة، وقيل: إنه وصل من أموال ظاهر العمر وأولاده وإبراهيم عبود الصباغ إلى خزينة السلطان ثلاثمائة وثمانون ألف كيس تساوي خمسة ملايين ليرة وخمسة وعشرين مليون فرنك خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه .

وفي أوائل (١١٩٠) رجع حسن باشا الجزائري بالأسطول إلى عكا وحضر محمد باشا العظم والي دمشق بعسكره وإبراهيم باشا والي القدس بعسكره ونصبوا معسكراتهم خارج مدينة عكا وطلع معهم أحمد باشا الجزائر بعساكره وساروا جميعاً مع أمير البحر قاصدين البطش بأولاد ظاهر العمر فأمنوهم وحملهم قائد البحر إلى الاستانة وقتل في الطريق أحدهم واسمه أحمد لأنه طعن فيه جهاراً وبقي أحد أولاد الظاهر واسمه الشيخ علي ينتقل في البراري ، فبلغ الدولة خبره فأرسلت إلى محمد باشا العظم أن يرسل إليها رأس علي الظاهر أو يقتل هو به ، فأرسل والي دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته وأنكر جماعة أحمد باشا الجزائر الرأس المحمول ، وقالوا : إنه ليس رأس الشيخ علي الظاهر فأحضرت الحكومة ولديه الحسن والحسين وكانا في الاستانة وقالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقبل لهما : ما يبكيكما؟ فأجابا هذا رأس والدنا علي الظاهر وقد عرف من كبر عارضيه لأنه كان يدعى أبو سبعة شنبات ، وبذلك انقضت دولة الظاهر واندثر ذرارياها

وقامت دولة الجزائر أحمد باشا الذي ضيق على أولاد الظاهر وذرائه وبعث أحد جواسيسه إلى ابنه علي وقتله في مرج علما الخيط .

والغالب أن الشيخ ظاهر العمر الذي حكم صيدا وعكا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وإربد وصفد وجميع المتأولة كانت تحت أمره ، كان إلى السداجة والقطرة ، استسلم لوكيله إبراهيم الصباغ ، وكان هذا مثلاً سائراً في الإمساك وحب المال ، فحاول أن يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه أضعاف أضعافها من الذهب ، دع سائر العروض والجواهر ، واغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان في ذلك ذهاب دولته وهلاكه وهلاك وكيله ، ولم يشر جمع الأموال الثمرة المرجوة ، ولو قدر له أن يعمل بما رسمه له السلطان سنة (١١٨٨) من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه وذنوب غيره على شرط أن يؤدي الحراج لبقية في عزه إن كانت الدولة تريد دوام العز لأحد .

كانت الشكوى قليلة من إدارة ظاهر العمر فإن ما جمعه في أربعين سنة قد جمع غيره من حكام الأقاليم مثله في مدة قليلة . ذكر فولنه أن علي باشا المعروف بمتأله لي الذي تولى حلب مرتين آخرها سنة (١١٩٣) ، وكان معاصراً للجزائر جمع في خمسة عشر شهراً زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هي الفرنك الطلياني) وأنه سلب جميع أرباب الحرف حتى انتهى سلبه إلى منظفي الغلايين . وقال غيره إن مدينة حلب التزمها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو أربعين ألف جنيه ويعطي الوالي ٨٣٣٠٠ جنهما في السنة لنفقات الولاية لكنه يكثر ابتزاز الأموال الطائلة من الأكراد والتركمان وسائر السكان ، وقد جمع منهم عبيد باشا الذي كان والياً قبل عهد فولنه ١٦٠ ألف جنيه في سنة واحدة وضرب ضريبة على كل واحد وكل صناعة .

قال بعض من عاصره : وقد فر من حلب غالب تجارها ووجوه الناس ومن له شهرة وسجن الأعيان ، وأن الكوسح خادمه لما خرج إلى قتال التركمان صار يخرب القرى ويسلب أموالها حتى قام أهالي حلب وحاصروه وأخرجوه من البلدة . ونقل في أعلام النبلاء في حوادث سنة (١١٩٤) أن عبيد باشا والي حلب جاء في جيش عظيم إلى كلز لتأديب الأشقياء وأصدر أمره إلى أهل البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض والرعابا إلى طرف الباشا ويبقي الأشقياء ، فأجابوه

بلسان واحد: ليس في بلدتنا أهل عرض أصلاً بل كلنا أشقياء، فزحف الوالي على البلد فحاصرها وفتحها ووقع القتل والنهب في كلز ، وهتكت الأعراض وذبحت الأطفال . وأن الوالي أخذ يسلب أموال الناس في حلب وفي مسجونيه من الأكابر والمشايخ والاشراف خلا الرعايا وأهل الذمة مقدار عظيم ، وعسكره كثير يرتكب في حلب أنواع الرذائل ، وبلغ من سوء فعل أتباعه أن كسروا غراريف بساتين حلب ودواليبها وأخشاب بيوتها وطياراتها من حدود قرية بابلا (باب الله) إلى قرب بستان الدباغة ، وحرقوها وحرقوا أخشاب قرى البلد بأجمعها ، وسلبوا متاعها ونهبوا مواشيها وتركوها قاعاً صنفصفاً إلا ما حماه الله من القرى البعيدة ، وجاء الوالي الحديد فنبه أن لا يحمل أحد سلاحاً وكل من وجد من أهالي المحلات خارجاً عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه أن يخبروا عنه ليقتله، ومن شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لأحد عليه، وصار يقتل كل من أخبر بسوء حاله ، وأمر الناس أن يفتحوا دكاكينهم وأرباب القرى أن يتعاطوا زراعتهم وأن ما مضى لا يعاد ، ومن لم يفتح دكانه ينهبها ويشنق صاحبها .

وروي في أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذي تولى حلب بعد عبدي باشا أنه صار يأخذ بالمجان ممالك وجواري من أصحابها قهراً ، ويحضر التجار وغيرهم ويكرمهم ويقول لهم : « أنا وزير إقشعوا خاطري ، لا يعلم بها أحد حتى لا يمشيها غيري » وأرسل فطلب من كل بلدا حصاناً . وجاء بعده عبدي باشا وسار على أقدام سمييه الأول في الظلم والجور على صورة لم يسبق لها مثيل، وأنشأ يأخذ بدل القرش أربعة، وصادر القوم وعذبهم وصارت حبوسه ملأى بالناس .

وصف فولنه ظاهر العمر بأنه لم تشهد له الشام مثيلاً في الأزمان الغابرة ، وكان داهية باقعة في السياسة حكيماً محنكاً ولكنه كان طماعاً طامعاً، ومن محاسن صفاته أنه لم يكن يجب الاحتيال ويجاهر بما يضممر ولو قاسى من ذلك العنت ، وأنه أحب المسيحيين ورفع شأنهم وعدل في الناس .

وقال من عاصره : حكم الظواهره البلاد نحو ثمانين سنة وامتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالاً إلى أطراف جبال القدس جنوباً ومن البحر

المتوسط غرباً إلى جبل عجلون شرقاً ، وكانوا يرجعون في أحكامهم إلى أصول العشائر حسبما توجيه إليهم ضمائرهم ، وقد شادوا في الأقاليم أبنية ضخمة فرم ظاهر العمر بعض ما تمكن من ترميمه مما خربته الحروب الصليبية ورفع سور عكا الداخلي ، وشاد فيها جامع محلة الجرنية وبنى علي في صغد القلعة الباقي شيء من آثارها إلى اليوم ، وبنى صليبي في طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة إلى عرب الصقر الذين صال عليهم صليبي واكتسحهم ، وعمر الجامع الواقع جنوب السراي ، ورم عثمان قلعة قرية شفا عمرو وعمرها ، وبنى أحمد قلعة تبنة ، وشيد سعد قلعة دير حنا . وهذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة ، وعمر في دير حنا الجامع الموجود إلى اليوم وكان بناؤه سنة (١١٤٤) هـ .

أولية الجزائر :

أخذ الجزائر بعد استلام ولاية صيدا سنة (١١٩١) يقوى وتشد شكيمته خصوصاً وقد ولي دمشق مع بقاء عكا عليه، ثم استقل بولاية عكا وأخذ يغزو متغلبة تلك الأرجاء فوقت بينه وبين الأمير يوسف الشهابي وقعة سنة (١١٩١) في نقار السعديات بين صيدا وبيروت فلم يسلم من جماعة الشهابي إلا القليل ، وأحرق عسكر الجزائر المكاس والحديدة والدكوانة في لبنان وقتل أناساً من أهلها ، ثم وقعت بين عسكر الدولة وعسكر لبنان في المغيثة عدة وقائع انتصرت الدولة فيها على أهل الجبل وقتل منهم قتلى كثيرة وأكثرهم من المتن وداهم عسكر الدولة بني الحرفوش في بعلبك وأحرقت الدولة زحلة . وقوي الجزائر بمجيء ستمائة فارس من اللوند وكانت الدولة أمرت بقتل جماعتهم وكانوا ستة عشر ألفاً ، فلم يسلم منهم إلا الذين جاءوا الجزائر، ولما عزم على الإقامة في عكا ابتداء بإصلاح أسوارها وإتقان بنائها وجعل على كل قرية أن يحضر أهلها جميعاً ثلاثة أيام في الأسبوع بالسخرة لأجل العمارة .

وجرت حروب كثيرة بين الشيخ علي بن الشيخ ظاهر العمر وعساكر الجزائر حتى قتل على ما سلف، وكذلك بين الجزائر والأمير يوسف الشهابي والتقى مرة في طريق صيدا عسكر الجزائر بالنكدية وكانوا يكمنون له فقتل

الجزار أكثرهم وقبض على بعض أعيانهم، فجعل الأمير يوسف يعتذر للجزار ويستشفع في إطلاقهم مقابل مئة ألف قرش، ولما طلب الأمير المال من الجبل أبى الأمراء الدفع فطلب الأمير من قائد عسكر الجزار أن يتلف أشجار بيروت ففعل وقتل جماعة من رجالهم، ثم سار إلى بعلبك وعظم أمره، وحيثئذ خرجت بيروت من يد الأمير يوسف ودخلت في حكومة الجزار، واقتتل الأمير يوسف مع الجزار فانهزم في عدة مواقع ثم تصالح الشهابي والجزار. وأرسل أحمد باشا الجزار (١١٩١) أحد رجاله من الأكراد في جماعة منهم فاجتازوا قب الياس فعلم أهلها فحصنوها، وردوهم عنها بإطلاق المدافع فذهب الأكراد إلى بعلبك وصادروا كبار المتأولة، ولا سيما الأمير محمد الحرفوش وسجنوه، ثم شنوا الغارة على سعد نايل وقتلوا بعض سكانها ونهبوها، ثم حاربوا الدروز في البقاع وقتلوا بعضهم وأحرقوا قرى كثيرة في البقاع وهاجموا سغبين ثم عادوا عنها، وقد قتل منهم نحو مائتين ثم أمرهم الجزار فعادوا إليه، وكان سبب إرسالهم أن الأمراء اللمعيين لم يدفعوا الضريبة الشاشية التي فرضها الجزار على اللبنانيين في السنة السابقة. وفي سنة (١١٩٢) أو ٩٣ نقل الجزار مركزه إلى عكا لحصانتها. وزاد الجزار (١١٩٤) المكوس والمغارم على لبنان.

وفي سنة (١١٩٥) وقعت فتن ومناوشات بين عسكر الجزار وعسكر الأمير سيد أحمد وعسكر دمشق في أرض قب الياس في البقاع قتل فيها كثيرون وانتصر الجزار ووقعت وقعة في الظهر الأحمر في وادي التيم، وفي سنة (١١٩٧) استولى الجزار على بلاد بشارة بعد وقعة مع مشايخها من بني متوال، وتسلم هونين وتبين وشقيف أرنون، أخذ هذه القلعة الأخيرة بالأمان وقتل من بها وتسلم جباعاً وباد اسم بني علي الصغير وبني منكر. وفي هذه السنة توفي محمد باشا العظم وكان وزيراً عادلاً مهاباً على قول ميخائيل الدمشقي وقال المرادي: إنه كان من رؤساء الوزراء عقلاً وكمالاً وعدلاً ودينياً وسخاءً ومروءة وشجاعة وفساسة وتديبيراً وكان واسع الرأي مهاباً وضرب على أيدي البغاة وقطاع الطريق، وراقت دمشق وما والاها في أيامه، وصفا لأهلها العيش ونامت الفتن، وعين محمد بن عثمان باشا وكان ظالماً قاسياً ثم تولى أخوه درويش

باشا ثم تولى محمد بطال باشا وكان حدثاً جاهلاً ليست له خبرة بالمقاطعات .
وقتل (١١٩٧) الوزير حسين مكّي باشا والي غزة وصادرت الدولة أمواله
وكان حارب بني صخر وعرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم .

وفي سنة (١١٩٨) تولى أحمد باشا الجزائر ولاية دمشق وفي سنة (١١٩٩) وقعت
فتن أيضاً بين عسكر الدولة واللبنانيين قتل فيها فريق من الطرفين . ومن جملة
الفتن ما ذكروه من عصيان يوسف الجرار وتحصنه في قلعة صانور ، فحاصرها
الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل فطمع أهل نابلس وأخذوا يتهبون الناس ،
فذهب الباشا ونهب بعض قراها وقتل أناساً كثيرين ثم حاصر صانور ثانية ،
وأصبحت مقاطعة نابلس في فوضى والجزار كل مرة يغزوها ويخرب في قراها
ويقتل من أهلها ولم ينل أحمد الجزار من يوسف الجرار ما كان يتطال إليه
حتى مات الجرار . قال بعضهم : إن نابلس لم تبرح بعصيانها تقلق الإدارة
التركية وكان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور . هذا وقد تولى حلب في هذا
القرن سبعون والياً قضى معظمهم أشهراً في الولاية وأكثرهم لم يتجاوز الخمس
سنين وكان ولاية دمشق في هذا القرن ستة وأربعين والياً كان منها نحو خمس
وأربعين سنة في حكم آل العظم .

الحكم على القرن الثاني عشر :

قرن كله ذل ومسكنة ، وتقاتل وتشاحن ، عرف بتغلب القيسية على
اليمنية بعد وقعة عين دارة ، ورجوع ابن معن إلى الإمارة في لبنان ، وانقراض
دولة المعنيين بموت الأخير منهم ، وظهور بني شهاب حكام وادي التيم بمظهر
جديد خلفوا المعنيين في لبنان ، وبظهور أبناء علي الصغير في بلاد بشارة
وانقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالي لبنان ، وظهور بني العظم حكاماً
في الولايات الشامية وتراجع أمرهم ، ثم ظهور ظاهر العمر في عكا وما إليها
ودوام حكومته أربعين سنة ، ثم إرسال والي مصر تجريدة بقيادة إسماعيل بك
وأخرى بقيادة محمد أبي الذهب ورجوع هذا عن الديار الشامية بعد أن فتحها إلا
قليلاً ، واعتصام الظاهر عمر بملكة روسيا وحصار أسطول الروس بعض الساحل
ولا سيما بيروت ، ثم ظهور الجزائر الذي قرض بيت ظاهر العمر .

والدولة قلما جهزت جيشاً خاصاً للقضاء على سلطة أحد المتغلبين اللهم إلا جيوشاً أشبه بنجدات يوم مجيء أبي الذهب لفتح الشام ، واستغاثت بأبي الذهب لتنقذ الشام من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر ، اي إن الدولة كانت تستعين بالبحار على جاره وبابن العم على ابن عمه وتضعفهم جميعاً ، ومعظم حملاتها كانت للانتقام ممن يتلكأ في تأدية الجباية لها ، وقلما سمع بأنها نحت عاملاً كبيراً لسوء إدارته ، وكثرة نهمته في جمع ثروته ، والعامل المستقيم من ولايتها لا تطول ولايته كثيراً حتى يتمكن من إصلاح بعض الشؤون ، وكان الولاة في الحقيقة يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها إلى مراجعة الاستانة في كل أمر ، ولكن أين العامل النشط فيهم الذي يعرف يدبر أمور الناس ، وإذا تهيأ الرجل فلا تحدته نفسه بذلك حتى يتهم حالاً بإرادة الاستقلال ويشي فيه جيرانه والطامعون في ولايته .

أما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطاً والوسط لا يعمل عملاً نافعاً ، ولم ينشأ للسلطنة صدور عظام عرفوا بالمضاء وحب العمل أمثال أبناء كوبرلي وصوقولي في القرن الماضي ، بيد أن أعمالهم لم يصل إلى الشام منها إلا الصدى ، ولم يخرج من الشام نابغة بعقله وإدارته من أرباب الإقطاعات وغيرهم كما كان في القرن المنصرم ، وجل همهم مصروف إلى دفع عادية خصماتهم من أقربائهم أو غيرهم ، وكانوا دون من يأتي من الاستانة من الولاة عقلاً وعدلاً ، ومما ظهر في هذا القرن من النقص المحسوس قلة السكان فقلق العقلاء ، وكان في حلب قبل استيلاء العثمانيين (٣٢٠٠) قرية يتقاضى منها الخراج فنزل عددها إلى أربعمئة قرية حتى إن ابن معن لم يقبل أن يتولى مقاطعة بني حمادة لأنها خربت ، وهام الفلاحون على وجوههم في المدن والجبال وهكذا الحال في ولاية دمشق وفلسطين . وقال فولته : إن سكان كسروان وحده ضعفا سكان فلسطين . وهكذا كان السكان يكثر في المقاطعات التي تتخلص مباشرة من إدارة الباب العالي مثل لبنان ووادي التيم ونابلس وعجلون ، وإن لم تكن حالتها مما يستحب .

أما أعمال العمران فلم يقيم فيها إلا قصور لأرباب الدولة أمثال قصر لأسعد باشا العظم في دمشق وقصره في حماه إلى غير ذلك ، وقامت من المدارس مدرسة

إسماعيل باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم في دمشق، وبعض مدارس في حلب ، ولكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة بمقياس واسع ، وتداعت المساجد والجوامع ، ولم يبق من المشاريع النافعة ما يستحق الذكر كأن القطر لا صاحب له يغار عليه ، فالمتغلبة من أبنائه والقادمون من الولاية عليه ، لا يهتمون لمثل هذا الشأن ، وسلاطينها ضعاف إن أفلح أحدهم فعمر له جامعاً ومقبرة خاصة في دار الملك عدوه محباً للعرمان ، متقرباً بعمله الصالح من الباري الديان .

انتهى الجزء الثاني من خطط الشام

وبليه الجزء الثالث وأوله العهد العثماني من سنة ١٢٠٠

فهرست

الجزء الثاني من خطط الشام

٤٣ - ٣	الدولة النورية من سنة ٥٢٢ إلى سنة ٥٦٩
٣	فتنة الإسماعيلية ووقعة دمشق
٥	دخول آل زنكي الشام
٦	استنجد بعض الصليبيين بالمسلمين واستقرار حال دمشق
٨	خيانة صاحب دمشق وقتل أمه له
٩	توحيد الحكم على يد زنكي وقضاؤه على إمارة صليبية
١٣	الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين
١٥	صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين
١٧	الحملة الصليبية الثانية وغزوها دمشق
٢١	تقدم نور الدين في فتوحه
٢٣	انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين
٢٥	مقاصد نور الدين وفتحه دمشق
٢٨	الداعي لنور الدين على فتح دمشق
٣١	مرض نور الدين وإبلاله وتتمة فتوحه وهزيمته في البقيعة
٣٣	حملة نور الدين على مصر
٣٦	بعض غزوات نور الدين
٣٧	قيام بني شهاب من حوران وحرهم الصليبيين
٣٩	الفتور بين نور الدين وصلاح الدين
٤٠	وفاة نور الدين وصفاته الطيبة

الدولة الصلاحية من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٥٨٩ ٤٤ — ٦٨

- ٤٤ أولية صلاح الدين والملك الناصر
 ٤٦ اختلاف الآراء واستيلاء صلاح الدين على الشام
 ٤٨ تملك صلاح الدين ومحاولة اغتياله وسر نجاحه
 ٥١ فتوح صلاح الدين ووفاة الملك الناصر
 ٥٥ وقعة حطين وفتح فلسطين
 ٥٦ فتح القدس والرملة
 ٦٠ بقية الفتوح الصلاحية
 ٦٢ الحملة الصليبية الثالثة
 ٦٤ مزايا صلاح الدين ووفاته

الدولة الأيوبية من سنة ٥٨٩ إلى سنة ٦٣٧ ٦٩ — ٩٤

- ٦٩ أبناء صلاح الدين واختلافهم ودهاء عمهم العادل
 ٧٢ استئثار العادل بالملك الصلاحي
 ٧٤ الأحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين
 ٧٩ الحملة الصليبية الخامسة
 ٨٠ وفاة العادل
 ٨٢ فتح الصليبيين دمياط وذلتهم بعد العزة
 ٨٣ اختلاف بين أبناء العادل وتقدم الكامل عليهم
 ٨٧ الحملة الصليبية السادسة
 ٨٩ اختلافات جديدة بين آل العادل
 ٩٢ وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده

انقرض الأيوبيون وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر من سنة ٦٣٧

إلى سنة ٦٩٠ ٩٥ — ١٢٩

- ٩٥ ظهور الخوارزمية
 ٩٧ اختلاف بني أيوب واعتضاد بعضهم بالفرنج وعودة الخوارزمية
 ١٠١ وفاة الملك الناصر ومبدأ دولة المماليك

- ١٠٤ هولاكو التتري
- ١٠٩ مقتل الملك المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس وأحداث
- ١١١ حروب الظاهر وفتوحه
- ١١٤ وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة المنصور قلاوون
- ١٢١ وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الأشرف خليل وإخوته في فرنج الساحل
- ١٢٣ الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية
- دولة المماليك من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠ ١٣٠ - ١٥٤**
- ١٣٠ فتوح أرمنية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية
- ١٣٤ وقائع التتري
- ١٣٩ غزوة الأرمن والكسروانيين وتزعزع السلطنة
- ١٤٢ الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة
- ١٤٤ سياسة المماليك مع أكبر عمالهم ووفاة الناصر وتولي المنصور
- ١٤٦ خلع الملك المنصور ومقتل غير واحد من إخوته الذين خلفوه
- ١٤٨ أحداث وكوائن وعصيان ومخامرات
- ١٥١ مقتل الأشرف شعبان والأحداث بعده
- ١٥٣ سلطنة برقوق وحالة المماليك البحرية والشراسة
- وقائع تيمورلنك من سنة ٧٩٠ إلى ٨٠٣ ١٥٥ - ١٧٥**
- ١٥٥ بداءة تيمورلنك ومناوشة جيشه
- ١٥٧ القتال على الملك
- ١٥٧ عوامل الخراب قيس ويمن
- ١٦٠ الخوارج على ملوك مصر
- ١٦٣ وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك
- ١٦٤ الحرب الأولى مع تيمورلنك
- ١٦٦ تيمورلنك على أبواب حلب
- ١٦٨ تيمورلنك على حماة وسلمية وحمص

- ١٦٨ تيمورلنك على دمشق
- ١٧٠ وصف أفعال تيمورلنك في دمشق
- ١٧٣ الخراب الأعظم وأخلاق تيمور ونجاة فلسطين منه
- ٢٠٤ - ١٧٦ عهد المماليك الأخير من سنة ٨٠٣ إلى ٩٢٢
- ١٧٦ البلاد بعد الفتنة التيمورية ومخامرة العمال
- ١٧٨ وقائع التركمان مع الناشرين على السلطان
- ١٨٣ الملك السكير وقتله
- ١٨٥ الخليفة السلطان وسلطنة شيخ
- ١٨٦ هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القماط
- ١٨٨ وفاة ططر وسلطنة ابنه ثم تولي الأشرف برسبائي
- ١٨٩ الملك العزيز يوسف والملك الظاهر جقمق
- المنصور والأشرف والمؤيد والظاهر خشقدم والظاهر بلباي والأشرف
قايتبائي
- ١٩٠
- ١٩١ مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية
- ١٩٤ وقعة مشؤومة وأحداث
- ١٩٥ أول مناوشة مع الأتراك العثمانيين
- ١٩٧ وفاة الأشرف قايتبائي وتولي ابنه ناصر الدين محمد
- ١٩٩ الملوك المتأخرون وآخرهم الغوري
- ٢٠٠ سلطنة طومان باي
- ٢٠٢ القضاء على مملكة ذي القدرية وطبيعة دولتي المماليك البحرية والبرجية
- ٢٣٤ - ٢٠٥ الدولة العثمانية من سنة ٩٢٢ إلى ١٠٠٠
- ٢٠٥ حالة الشام قبل الفتح العثماني
- ٢٠٦ مقاتل الغوري ومقدمات الفتح
- ٢٠٨ صلوات العثمانيين مع المماليك ووقعة مرج دابق

٢١٠	قوة الغالب والمغلوب
٢١١	دخول السلطان سليم حلب ودمشق
٢١٣	مقابلة أمراء البلاد سلطانهم الحديد وتغير الأحكام
٢١٤	السلطان في دمشق وفي الطريق لفتح مصر
٢١٧	فتوح وغارات وتأذي السكان
٢١٨	محاسن السلطان سليم ومساويه ومهلكه
٢٢١	خارجي خان أولاً وثانياً
٢٢٤	طبيعة الدولة العثمانية
٢٢٦	كوائن داخلية وأمراء المقاطعات
٢٢٨	مهلك السلطان سليمان وتولي سليم السكير
٢٢٩	عهد السلطان مراد الثالث وحملات على أرباب الدعارة
٢٣٠	بنو عساف وبنو سيفا وابن فريخ وخراب البلاد
٢٣٢	حالة البلاد في الحكم العثماني

العهد العثماني من سنة ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ ٢٣٥ - ٢٦٦

٢٣٥	عهد محمد الثالث وأمراء الإقطاعات وفتن
٢٣٨	عهد أحمد الأول وفتنة ابن جانبولاذ وغيرها
٢٤٣	الأمير فخر الدين المعني وآل شهاب وفتن
٢٤٥	عهد مصطفى الأول وعثمان الثاني
٢٤٦	عداء على الفرنج وفتن داخلية
٢٤٧	حملات على الأمير فخر الدين المعني وغيره
٢٤٩	القضاء على الأمير فخر الدين المعني
٢٥٣	فتن في الساحل
٢٥٤	إبراهيم الأول وسفاهته
٢٥٨	فتنة وال أخرق في حلب
٢٥٩	محمد الرابع وصدارة كوبرلي
٢٦٥	عهد سليمان الثاني والحكم على الخوارج

٣٠٣ - ٢٦٧	العهد العثماني من سنة ١١٠٠ إلى ١٢٠٠
٢٦٧	حال الشام أول القرن الثاني عشر
٢٧٠	دور أحمد الثاني وفتن
٢٧١	دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن
٢٧٣	عهد أحمد الثالث وسياسة الدولة مع من ينكر الظلم ووقعة عين دارة
٢٧٥	فتن ومظالم مستجدة وظهور آل العظم
٢٧٦	عهد محمود الأول
٢٧٩	فتن ومشاغب
٢٨٥	عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث وبعض الأحداث في أيامهما
٢٨٦	سيرة ظاهر العمر الزيداني وسياسته
٢٩٠	حملة أبي الذهب على الشام
٢٩٤	عهد عبد الحميد الأول وتتمة أخبار أبي الذهب
٢٩٥	خاتمة ظاهر العمر وولاية حلب
٢٩٩	أولية الجزائر
٣٠٢	الحكم على القرن الثاني عشر
٣١٠ - ٣٠٥	فهرس الجزء الثاني من خطط الشام

حِطُّ السَّمْعِ

تأليف

محمد كرد علي

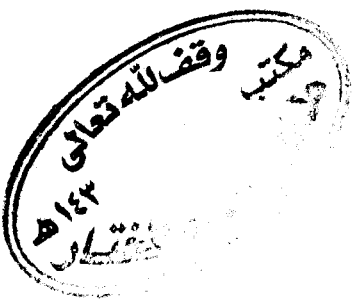
الجزء الثالث

الناشر
مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية
صححة بقاء المؤلف
طبعت بإذن من ورثته
ومقوق الطبع محفوظة لهم
الطبعة الثالثة
١٤٠٣م - ١٩٨٣م

طبع على مطابع :

مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠



العهد العثماني

« من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢٤٧ »

الجند أداة الظلم والتدمير :

كان الشام في هذا القرن مهد القلاقل والثورات ، يقع الاعتداءُ في الأكثر على النصارى واليهود وأهل السكينة من المسلمين . وأكثر الفوضى ناشئة من الجند الجاهل الذي تمادى في اللؤم والدناءة حتى آض كالوحوش الضارية . ويقسم هذا الجند إلى ثلاثة أقسام : الإنكشارية والقبوقولي وهما القسمان القويان ، والقسم الثالث حرس الولاية الخاص وهو يتألف من المغاربة والتكارنة والترك والأرناؤد والدالاتية وغيرهم ، والعداوات متأصلة بينهم . ولطالما قامت بسبب ذلك فتن ، ووقعت ويلاتها على الشعب فيهرق دمه وتنهب أمواله ، وتغلق حوانيته ، وتقف الأعمال ، ولا سيما في الحواضر كدمشق وحلب . ولا تنفض هذه المشاكل إلا بتدخل الولاية أو أحد الأعيان ، ويتكرر ذلك أبدأً لأن العلة الأولى فيها لم تستأصل ما دام المجرمون لا يعاقبون والأوباش لا يُحملون على حرمة الشريعة . ولذلك كانت شوارع المدن وأحيائها كثيرة الأبواب والأرتجة وتفضل أيام الثورات ، وساعة المخاصمات والمشاغبات ، والأزقة ضيقة معوجة لتصلح لحرب المتاريس .

وأكثر رجال الجندية نفوذاً الإنكشارية لكثرتهم وشدتهم وصدقتهم للوالي . وكان زعماء الجند يلقبون بالأغاوات . ويرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي ينتمون إليها ، ويرسم على أبواب المقاهي اسم الفريق الذي يختلف إليها ، وليس لهم نظام خاص . والمحلات تخضع للأغا المقيم فيها

وهو يخضع لزعيم الفرقة . ولم تكن تكفيهم إداراتهم التي يتناولونها من مال الخزينة لكثرة أتباعهم ، فيضطرون للعمل يذهبون إليه وهم مسلحون ليسهل عليهم الانضمام إلى فرقته متى دعت الحاجة ، ولا شأن للخاملين وأهل الفسق إلا الاجتماع في المقاهي والحانات ، وإطالة أيدي الأذى على الناس يصادرون أموالهم ويفترسون نساءهم وصبيانهم ، وكثيراً ما يقتلون أحد أبناء السبيل لغير سبب كأن يجربوا بنادقهم أو سيوفهم في أول من تقع أعينهم عليه .

تمادى الرعاع في قحتهم وفجورهم إلى الغاية ، لضعف الحكام وقصورهم عن ردع القوي عن الضعيف ، فنشأت فئة من الناس مسلمين ومسيحيين ، اتكلوا في حفظ أنفسهم وأهلهم على أنفسهم وشدة بأسهم في الدفاع . وكان القوم يحترمون هؤلاء الأشداء ويخافونهم ، وكان منهم من عرف بالشهامة والشمم بما يغبطون عليه ويخفف ويلات الشرور اللاحقة بالرعايا من اعتداء الجند أحياناً . وبلغ التعصب الديني أقصى شدته في هذا العصر حتى تجاوز القوم فيه حد الإفراط ، يحسب المرء كل من لم يتدين بدينه ممن يجوز له قتله أو الاعتداء عليه ، وابتزاز ماله وانتهاك عرضه ، وانتشر هذا الروح حتى عمّ السواد الأعظم من الناس . قال مشاققة بعد إيراد ما لخصناه : وكان فريق من العلماء وأهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة ولكنهم لم يوقفوا لردع الرعاع في زمن عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على القوم .

من أجل هذا ساغ لنا أن نستنتج أن الشام كان أهلها وحكومتها بين ظلم ومظلوم ، يشتد الوالي في إعنات الرعية لسلب أموالهم ويرسل إلى العاصمة بالمقرر عليه ، وكثيراً ما يشاكسونه فلا يدفعون المفروض عليهم ، أو ينتفضون عليه بإيعاز بعض أهل النفوذ وقد يكون الحق معه ، والرعايا عرضة لاعتداء الجند وأغواتهم والأعيان وأتباعهم ، تساوى في الظلم المدني والقروي ، وربما كان المدني أكثر تعرضاً للمهالك لقربه من هذه العوامل التي أخذت على نفسها تمثيل التخريب في مسارح الجهل على ضروره وأشكاله . وظلمات بعضها فوق بعض ، وسلاسل مفرغة من المصائب لا يدرى أين طرفاها . وليت

شعري ما يرجى من عناية دولة بأمته وهي تعطي الوزير ثلاثة أطواخ والأطواخ أذنا ب خيل فالذنب معلق من أسفله في رأس عصاً وطولها نحو ثلاثة أذرع وشعره مسدول عليها ، فإذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم إلى محل نزوله فيستعدون لاستقباله وتهيئة ما يلزمه من المآكل والعلف للدواب بلا ثمن . وأما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير في السفر . ومعنى الأطواخ أن الدولة تحكم البلاد بأذنا ب خيلها - قاله مشاققة ونحن نقول : إن الدولة التي يبلغ من غرورها هذا المبلغ لا تنجح في الحكم بحال .

قال جودت في حوادث سنة ألف ومائتين : « إن وظيفة جابي المال في حلب كانت منذ أربعين سنة مطمح أنظار الموظفين في الدولة لأنها تأتيهم بثروات إذا جاءوا بها إلى الإستانة ينالون بواسطتها رتبة الوزارة ورتبة ميرميران ، ومن كان منه ذلك أحمد باشا فإنه أخذ العلم والطوخ واشتهر شهرة عظيمة ، وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشترى بالمزاد ، وكثيراً ما كانت الدولة ترسل بمفتشين يشاركون المرتكبين من هؤلاء الجبابرة ، وكثيرون ممن يتولون هذه الوظائف يرحلون بالأموال ينفقونها في شهواتهم حتى يهلكوا فقراً وقهراً ، ولذلك كانت أموال الدولة تبدد ويسرف فيها . »

حوادث الجزائر وفتن الإنكشارية وغيرها :

بدأ القرن وأعظم وزير مسموع الكلمة في الإستانة قوي الشكيمة في ظلم الرعايا بالشام ، أحمد باشا الجزائر ، تولى دمشق بعد ولاية عكا ، وذهب أميراً مع الحج فرجع الدمشقيون الشكاوى عليه إلى دار الملك فعزل وذهب إلى الإستانة فعينه الدولة وزيراً على صيدا ، وأقام في عكا وحصنها وضبط أملاك بيت شهاب في بيروت ورفع أيديهم عن حكمها ، وأنشأ للثغر أرتجة وسوراً فسُر المسلمون بذلك ، ونُصب على دمشق لإبراهيم دالاتي باشا سنة إحدى ومائتين وألف وكان جسوراً مهيباً فحدث بينه وبين الأهالي اختلاف وتعصبوا عليه وحدثت فتنه ، فأغلق أحمد آغا الزعفرنجي شيخ الإنكشارية القلعة وقتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل وأراد أن يضرب الوزير ، فخرج

هذا إلى حمص وحماة وجمع عسكرياً كثيراً ، وأوعزت الدولة إلى الجزائر وإلى الأمير يوسف الشهابي أن يعاوناه بعسكرهما ففعلا ، وعاد الوالي إلى دمشق فارتاع أهلها وأرسلوا النساء إلى الجامع الأموي فكلمه أعيان المدينة فاشترط عليهم أنه يلتزم الرحمة إذا خرج الزعفرنجي من القلعة وتسلمها رجاله ، ودخل البلد وقتل بعض الأردباء قيل: إنهم مئة وخمسون رجلاً من جماعة القلعة ، وكان جاء الوالي في عسكره إلى باب الله واجتمع العسكران ووقع قتال فهلك فيه من الفريقين خلق . وملك الوالي الميدان ، واستمر ذلك مدة والعسكر محيطة بالقلعة حتى سُلمت . وأقام هذا الوالي أربع سنين في دمشق ، وذهب أمير القلعة إلى أمير عرب الموالي فاراً منه فأوعز إلى متسلم حماة أن يقتص من عربيه لفسادهم في تلك الأرجاء ، فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً قتل منهم نحو ألف إنسان وانهمز الباقون . وكان عرب الموالي ثاروا هذه السنة في ضواحي حمص وحماة فنهبوا القرى وفتكوا بأغوات الدنادشة حكام المدينتين منهم وقتلوا كلاً من شيخ الكلبيين وشيخ النصيرية وعاشوا في تلك الجهات وفتكوا بأعيانها . وفي سنة ١٢٠١ دخل عثمان باشا إلى أنطاكية ونزل عسكره على الحرير وفعل فيها أفعالاً قبيحة ، وأتى إدلب وصادرها وخرب جميع القرى التي مرّ عليها ، وخرب الراموسة ، واشتبك القتال بينه وبين أهل الشيخ سعيد عدة أيام فقتل من عسكره بالطاعون والسلاح عدد كبير ، ونهب قرى في تلك الأرجاء ، هذا والطاعون في حلب وأرجائها يفتك ذريعاً .

وخربت القرى وهلك الفقراء في فتنة الأمير جهجاه الحرفوش (١٢٠٢) وكان قوي على إبراهيم باشا والي دمشق ، وسرت شرارة فتنة الزعفرنجي إلى أهل دمشق حتى طلب الوالي عسكراً من جبلي نابلس والشوف ودقت طبول الوالي (١٢٠٣) من دومة وفرق العساكر ثلاث فرق فدخل عمر آغا من الزفتية ، وابنه على صفّ الجوز ، والوزير على السلطاني ، وأحرقوا القبيبات وحرارة التركمان ، وجرت الدماء من الصباح إلى العصر حتى أطاع أهل دمشق السلطان عبد الحميد الأول ، وخرب الوالي القلعة وأهلك متوليها بمدافعه شرذمة قليلة من عسكر الوزير ، وبقيت الحرب بين الفريقين ستة أيام بلياليها .

وفي أيام إبراهيم باشا الكردي (١٢٠٣) انتشبت الحرب في وادي أبي

عباد فوق كامد اللوز في البقاع بين عسكر الجزائر وعسكر الشهابيين أمراء لبنان ووادي التيم انكسر فيها عسكر الجزائر كسرة عظيمة . ووقع بين عسكر الجزائر والهوارة والدروز في جب جينين قتال انكسر فيه عسكر الأمير وقتل منه مقتلة عظيمة ، ثم جمع الأمير يوسف عسكر لبنان وأرسلهم مع سليمان باشا والهوارة إلى عين دارة ، فالتقوا بعسكر الجزائر في قب الياس فانكسر أيضاً عسكر الأمير يوسف وحدثت عدة وقائع بين عسكر الأمير في جزين وعسكر الجزائر في جباع كسر فيها عسكر الأمير يوسف . وكان عسكر الزعفرنجي يعيث خلال ذلك في مرج الغوطة ، فيهلك الفلاحين ولا إهلاك الأوبئة ويرعى رجاله الزروع ولا أكل الجراد .

عهد سليم الثالث وفتن وكوائن :

هلك السلطان عبد الحميد الأول سنة ١٢٠٣ وخلفه السلطان سليم الثالث وكانت أيامه كلها غوائل وفتناً : استقلت فيها القريم وأصبحت روسيا بما أخذته من أملاك الدولة على البحر الأسود دولة بحرية مهمة ، وقبل بمعاودة كوجك قينارجه (١١٨٨) مع روسيا وبها انحط مقام الدولة ، وحارب روسيا مرتين . وقال مترجموه من الترك : إنه كان عادلاً حليماً تحبه رعيته . ويقول من عاصره : إن عبد الحميد الأول كان أخرج للغاية وإنه كان جاهلاً وليس فيه من جودة الرأي والحزم والمضاء شيء ، ولم يستطع أن يستفيد من الثورة السياسية والدينية التي نشبت في القافقاس ، ولم يحسن الانتفاع من أسباب النجاح التي كانت متوقعة من بحريته وجيشه .

وفي سنة ١٢٠٤ وقعت فتنة بين الأمير قاسم الحرفوش وابن عمه جهجاه في سهل أبلح بالبقاع ، فدحر قاسم عسكر الأمير بشير الشهابي فشق عليه فأرسل نجدة أخرى للأمير قاسم ، فلما علم ذلك جهجاه هرب سكان بعلبك وأتلف ما فيها ولم ينالوا من جهجاه ، ثم استصرخ الجزائر فأمر بأن يمد بجيش فأرسل معه عسكر المغاربة والدولة ومشايخ الدروز فانشب الحرب بينهم وبين جهجاه فاندحروا وقلق الناس ، ورحل كثير من السكان من تلك

الأرجاء ، ثم تغلب جهجاه على قاسم . وفي السنة التالية وقعت وقعة بين جهجاه وحاكم بعلبك إسماعيل فانهزم هذا وقتل من رجاله نحو مائتي رجل ولم يقتل من رجال جهجاه أحد . وفي سنة ١٢٠٥ أحرقت عساكر الدولة وقيل عسكر الأمير بشير حاصبيا وأكثر القرى التي حولها .

مظالم الجزائر واحتلال الإدارة :

تولى أحمد باشا الجزائر دمشق للمرة الثانية سنة ١٢٠٥ وظل مقيماً في عكا وأرسل متسلمين منهم أرفه أميني وكان كما قال مشاقرة ظالماً قاسياً يشبه أستاذه في إنشاء المظالم والحوادث الصعبة على المسلمين والنصارى واليهود . وكان الجزائر مغتاضاً من أهل دمشق لعرضهم على الدولة مساوئه مما أدى إلى تنحيته عن عمله سنة إحدى ، فأراد الانتقام من الساعين به هذه المرة . وبالحقيقة أن مدة حكم الجزائر في دمشق وهي خمس سنين لم يرتح فيها الناس شهراً واحداً من طلب الأموال ظلماً وطرح المعاملة المتصل التي حدثت بها خسائر عظيمة وطرح بضائع متنوعة ، ينهبها من جهات ويطرحها بأسعار زائدة على أخرى ، وليس هناك صغير ولا كبير إلا ويناله الظلم والقهر ، ونزح كثير من السكان وتركوا أوطانهم وعيالهم . سلسلة من المظالم لا حد لها . وكان كل سنة يقتل في قلعة دمشق بدون تحقيق أناساً وقد قتل في إحدى السنين مئة وستين رجلاً خنقاً وذلك في ثاني سنة من ولايته . وفي السنة الثالثة قتل نحو ستين وكان كلما جاء دمشق مرة في السنة وهو ذاهب ليحج بالناس أو آيب منه يعمل هذه الأعمال للإرهاب ولم يقف أمر المظالم عند حد أوامر الجزائر المجنونة ، بل كانت الفتن في جهات أخرى من الشام على عاداتها في القرون الماضية ، من ذلك أنه جرت سنة ١٢٠٦ عدة وقائع كانت سجالاتاً بين الجبل وعسكر الدولة الذين كانوا مع الأمير بشير ، وأحرقت عسكر الدولة غريفة وسبت نساء وأولاداً . واشتد الخصام بين بشير قاسم وحيدر ملحم الشهابيين على الإمارة في لبنان ، وكان بشير تعهد للجزائر بخمسة آلاف كيس على مثل ما تعهد به يوسف ، فأخذ يصادر كل من مالاً الأمير يوسف ،

ومال الناس إلى الأمير حيدر للتخلص من الضرائب التي سامهم الأمير بشير دفعها ، وسادت الفتن في اللبنانيين الغربي والشرقي ، وهاجم والي دمشق بعلبك للانتقام من الأمير جهجاه لأنه لم يخلد إلى السكينة ، وقتل عشرات من الناس في بعلبك وسغبين وقتل من العسكر أكثر من ذلك .

وهجمت أهالي حلب على بطلان آغا نوري ومحمد آغا وعلى عسكره وحصل بينهما مناوشة أدت إلى انهزامه خارج حلب ، وتوجه إلى عينتاب وحاصرها خمسة أشهر إلى أن قتل وحمل رأسه ورأس أربعة وعشرين من العصاة إلى الإستانة . قال جودت : وكان هؤلاء الخونة يتقربون إلى رجال الإستانة بالأمور الدنيئة فينصبونهم حكاماً في بعض المقاطعات فيفسدون في الأرض ويتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان وتقاوم الحكومة ولا تبعة في ذلك إلا على رجال الدولة .

وفي سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) أخرج الخزار الفرنج من بيروت وبنى السور بجماعة أبنية الشهاية التي دكها ودك كنائسهم وجعلها إصطبلات . وفي هذه السنة قتل رجل من أهل بيروت خارج البلد فأغلقوا الأبواب وقبضوا على كل من وجدوه من أهل الجبل وكانوا نحو ستين رجلاً فقتلوهم جميعاً . وحدثني الثقة من أهل بيروت عن أبيه عن جده أن حكام بيروت المسيحيين اشتدت مظالمهم وعتوهم على المسلمين فكان الأمير يمر في شهر رمضان في المدينة يحملون أمامه الغليون للتدخين فينتصب المسلمون على الأقدام يحيمونه فلا يتنازل أن يجيبهم بل يقول الخادم من ورائه : سلم الأمير . فضاقت الحال بالمسلمين فشكوا أمرهم إلى قائد الأسطول العثماني وكان يأتي كل سنة ليحمل الأموال المقررة فقال لهم : الخطب سهل وهو أن تغلقوا أبواب المدينة متى رأيتمونا أقلعنا بسفننا وتذبجوا النصارى وبذلك تراحون منهم ففعل غوغاء المسلمين وقتل بهذا التدبير الجائر كثير من الأبرياء ، وبذلك تبين أن الدولة لم تكن تهتم إلا بلجايتها ، فإذا استوفتها فسواء لديها تقاتل رعاياها أم تصالحوا ، والغالب أنها تحبهم أن يكونوا على خصام أبدأ حتى يخلو لها الجو ، وقاعدة « فرق تسد » من أهم قواعد حكمها .

وفي سنة ١٢٠٧ هـ وهب الشهابيون الهرمل للأمير جهجاه الحرفوش فلم

يذعن له سكانها فحاربهم وقتل منهم نحو أربعين رجلاً وأحرق البلدة وفي سنة ١٢٠٨ قامت الفتن بين الأشراف والإنكشارية في حلب دامت عشرين يوماً قتل فيها بعض أهل اليسار والشرف ثم انكسر الأشراف وحصرهم الإنكشارية في جامع الأطروش وجرى من القبائح ألوان وأشكال .

وفي سنة ١٢٠٩ صدر أمر أجزار بمصادرة بعض صيارف دمشق من الإسرائيليين وقتل بعضهم وأدخل الرعب على أبناء نخلتهم ، ونال مثل ذلك بعض أغنياء الأهالي على اختلاف مذاهبهم ، وبدأ القتل والصلب وقطع الأنوف وحبس خلق وجرم الأبرياء وهام الناس على وجوههم ، وفي هذه السنة غزا عسكر دمشق بعلبك فهرب الأمير جهجاه إلى رأس بعلبك فأحرق بعض بيوتها وكان رجال الدولة يحاذرون من شيء يقع على الشام بعد أن اعتصم الظاهر عمر بروسيا فقد ذكر شاني زاده أن والي صيدا عبد الله باشا كتب إلى الدولة بأن كنيسة عكا والناصرية وقلعة حيفا كلها مستحكمة البناء لا تخلو من محذور فاستفتى السلطان فأقضى بأن تهدم الكنيسة القديمة والحديدة معاً لثبوت مضرتها ونفذ الحكم . وكثيراً ما كان الولاية في العهد العثماني يوجسون خيفة من الديارات والبيع إذا كانت مستحكمة البناء فقد أخرج السلطان سليمان النصارى من ديرهم في سفح جبل بالقرب من قرية البعنة في صفد وكان قديماً يعرف بدير الخضر وأمر أحمد بن أسد البقاعي من الصوفية بالإقامة فيه مع أولاده .

وفي سنة ١٢١٠ تولى دمشق عبد الله باشا العظم والقطر في حالة مزعجة وقد دام في ولايته هذه ثلاث سنين وبقي الجزار في عكا وفي هذه السنة وقع القتال بين عسكر أولاد الأمير يوسف في جبيل وبين الذين كانوا في قلعتها من عسكر الأمير بشير وكسروهم . وفي سنة ١٢١١ أرسل عبد الله باشا العظم عسكراً إلى البقاع فأرسل الأمير بشير والجزار والي عكا عسكراً فالتقاهم الجزار ، ووقع القتال في مندرة من قرى البقاع ، فانكسر عسكر دمشق كسرة عظيمة وقتل منه جماعة . ولم يزل عسكر لبنان والهوارة مجداً في آثارهم إلى وادي المجدل وغنموا خيلهم وسلاحهم وذهب بعض اللبنانيين وأحرقوا البترونة قرب الزبداني . وفي سنة ١٢١٢ توجه والي دمشق إلى التفتيش كالعادة فلقى الطريق ممسوكة منافذها من عسكر الجزار فساعت حال رجاله ثم توجه إلى جينين

فطمع الأهليون فيه ولم يُعطوه مال الدورة ، فألحق به الجزار جنده قاصداً قهره وعسكره . فركب وركب العسكر وتوجه نحو عسكر الجزار فدارت بين الفريقين حرب انتصر فيها والي دمشق على الجزار ، وقتل الأول من عسكر الثاني خلقاً ، ورجع لم يعترضه أحد وقد جمع الأموال الأميرية برمتها . وفيها قامت الإنكشارية على أعيان حلب وقتلوا كثيراً منهم حتى كانوا يقتلون السيد وهو يصلي في المحراب ، فعرض الحال على الدولة فجاء شريف باشا والياً على حلب فمنعته الإنكشارية من دخولها ، فتعهد بأن يكون مسعفاً لهم فدخل وأنته الأشراف فقوي بأسهم على الإنكشارية وبعد ذلك أرسل إلى الإنكشارية سراً أن يثوروا بالسادات فكبسوهم ليلاً وقتلوا منهم مائتين وخمسين نفساً وأخذ منهم شريف باشا خمسمائة ألف قرش وقدمها للدولة ، وقويت شوكة الإنكشارية في حلب .

وفي سنة ١٢١٣ ضرب الجند الدالاتية جميع قرى دمشق وأكلوا مغلها وحرقوا دوابها وصار منهم قتل وسلب - قاله ابن آقبيق : وقال أيضاً في حوادث هذه السنة : إنه كثرت الفتن وانحل الحكم حتى بقي إطلاق البارود من القلعة سبعة أيام . وانتشرت الفوضى في الأحياء والبلاد لا حكم فيها لحاكم ولا متسلم ، وأفندية البلد (دمشق) مسجونون عند الباشا في المخيم وبقي ذلك حتى رحل الباشا ، وبقي عسكره يومين وليلتين نهبوا في خلالها ما في القرى من مأكول ومنظور وعزم غالب أهلها على الرحيل لما أوقع فيهم الجند من الضرر .

محاولة نابوليون فتح الشام واستيلاؤه على غزة ويافا :

بينما كانت الفتن الأهلية بين العمال على المال ، والشام قد ضعفت فيها كل قوة ، والدولة كلما رأت عاملاً قوياً تكتفي بأن تضع في جواره عاملاً آخر تملي له من قوتها حتى يظل في خصام مع جاره ، والضعف في الإدارة ظاهر كل الظهور ، والناس من الجزار في قسم عظيم من ديار الشام في أمر مريح ، وهي مفتحة الأبواب خالية من أسباب الدفاع إلا ما كان من أسوار

أمهات مدنها أتى نابوليون بوناپرت مصر (١٢١٣) وفتحها ولما شعر باجتماع الجيوش لمحاربتة وأنه إن لم يفاجئ الدولة العلية في الشام قبل أن تم استعداداتها الحربية تكون عواقب الأمور وخيمة عليه وأن من يحتل مصر لا يكون آمناً عليها إلا إذا احتل القطر الشامي فهذه اللواعي قام من مصر ومعه ثلاثة عشر ألف مقاتل قاصداً الشام من طريق العريش .

ولما بلغ أحمد باشا الجزائر قدوم الجيش الفرنسي من مصر إلى عكا أسرع - على رواية نقولا الترك - بتدبير ما يحتاج إليه في الحصار ، وأرسل إلى يافا العسكر وحصنها بالمدافع والقنابر ، وامتد إلى مدينة غزة بعساكره وعشائره ووصلت جيوشه إلى قلعة العريش . وأقاموا فيها وتبنت الغز للجهاد . وفي شهر شعبان سنة ١٢١٣ خرجت العساكر الفرنسية إلى مدينة بلبس والصالحية وكتب إلى الجنرال كليبر أن يتوجه من دمياط في البر على طريق قتيية . ولما سير بوناپرت العساكر أحضر علماء الدين وقال لهم : إن الغز المماليك الهاربين مني قد التجأوا إلى أحمد باشا الجزائر فجمع لهم العساكر وحضر إلى العريش وعزموا على الحضور إلى الديار المصرية فلذلك أخذتني الغيرة وعزمت أن أسير اليهم بالعساكر وأن أخرجهم من قلعة العريش ، ثم جاء الفرنسيون إلى هذه القلعة وكان فيها ألف وخمسمائة مقاتل فحاصرها ثمانية أيام ، ولما فرغت مؤونتهم وبارودهم أرسلوا يطلبون الأمان ، وأن يخرجوا من القلعة بغير سلاح ، وبعد ذلك حضر قاسم بك المسكوبي في عسكر ومهمات فبلغ بوناپرت وصوله وربطوا عليه الطريق وكبسوه ليلاً وذبحوا عساكره ولم يسلم منهم إلا القليل . وعندئذ أمر الجنرال دوکوا قائد مصر ووکیل بوناپرت التجار أن تسير بالقوافل إلى الشام لينتفع بالمكاسب أصحاب التجارة وينتفع سكان الشام ببضائع مصر حسب العادة السابقة . وسار أمير الجيوش بالعساكر من قلعة العريش إلى خان يونس واستخلص غزة من الغز عساكر الجزائر فوجد في غزة حواصل ذخيرة من بقسماط وشعير وأربعمائة قنطار بارود واثني عشر مدفعاً ومستودعاً كبيراً من الخيام والقنابر . ولما بلغ يافا بنى المتاريس أمامها وأرسل يطلب إلى حاميتها التسليم وكانت نحو ثمانية آلاف فأبت وقتلت الرسول فأدار عليها المدافع وقوي الصدام فقتل

من العسكر ما ينيف على خمسة آلاف ومن أهالي البلد ألفان وهجم الفرنسيون على المراكب التي في الميناء وأخذوا منها بضاعة ثمينة . ومن الغد أطلق أمير الجيوش الأسارى وسرح الشاميين والمصريين وأمر بقتل الهوارة والأرناؤد جميعاً لأن بعضهم كان في قلعة العريش وحين أطلقهم أمرهم أن يذهبوا إلى بيوتهم فأتوا يافا وحاصروا بها فقتلهم واستبقى بعض الأغاوات الكبار . وجد الفرنسيون في قلعة يافا ثمانين مدفعاً وغنموا غنائم كثيرة من المراكب وغيرها .

وقائع نابليون على عكا وفي مرج ابن عامر :

وسار بونايرت بالعسكر قاصداً مدينة عكا على طريق الجبال ، ولما وصلوا إلى أرض قاقون كانت عساكر الجزائر والنابلسيون في الوادي ، وحينما بلغهم قدوم الفرنسيين أخرجوا منهم من فم الوادي خمسمائة مقاتل وبدروا يرمحون تجاه العسكر وكان قصدهم أن يجروهم إلى ذلك الوادي ، فلما علم أمير الجيوش مقصدهم قسم عساكره أثلاثاً ونشبت الحرب فقتل من عسكر المسلمين وولى الباقون منهزمين ، ومن الغد سار عسكر الفرنسيين إلى وادي الملح وكان بلغ الجزائر اقرباهم من تلك الديار فأرسل إلى حيفا فأحضر الذخائر الحربية والعسكر ، وعندما وصل الفرنسيون إلى حيفا خرج أهلها لمقابلتهم وسلموا أمير الجيوش مفاتيح البلد والقلعة ، ودخل الفرنسيون إلى حيفا فوجدوا بها قارباً صغيراً فيه جماعة من مراكب الإنكليز فأخذوهم أسرى ، وبعد ذلك انتقل أمير الجيوش بالعساكر إلى مدينة عكا ونصبوا المضارب والخيام في محل يقال له أبو عتبة ، وبنوا المتاريس الحصينة ووضعوا فوقها المدافع وسار الجنرال كليبر والجنرال منو إلى الناصرة ونصب حاكم إفرنسي على شفا عمرو وابتدأت الحرب على عكا خامس يوم من شوال سنة ١٢١٣ ودامت أربعاً وعشرين ساعة والجيوش الفرنسي يضرب المدافع والقناير ، والمراكب العثمانية والإنكليزية تطلق المدافع من البحر حتى خيل للناظرين والسامعين أن مدينة عكا لم يبق فيها حجر على حجر ، وهم الجزائر أن يخرج فطمنه

الإنكليز وقالوا له : إننا أسرنا في عرض البحر ثلاثة مراكب مشحونة ذخيرة فضعف أمرهم ، ثم أسر الفرنسيون مركبين كانا قادمين من الإستانة فيهما ذخائر ومدافع وستة وثلاثون ألف دينار مرسله للجزار فسرى عن الفرنسيين ، وحضر إلى أمير الجيوش قرب عكا الشيخ عباس بن ظاهر العمر فرحب به وأعطاه السلاح والكسوة وعشرة أكياس وكتب له أن يكون متولياً على مقاطعة أبيه . وحضر أيضاً مشايخ بني متوال فوسد إليهم حكم إقليمهم وساروا من عند أمير الجيوش إلى صور وقدموا له الذخائر وتسلموا القلعة التي كانت لآبائهم .

وكان قد اجتمع من دمشق جند من المغاربة والهواراة والعربان والغز بلغوا ثلاثين ألف مقاتل بين فارس وراجل وانتهوا إلى مرج ابن عامر فبلغ كليبر خبرهم فسار إليهم في ألف وخمسمائة مقاتل ، وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع انهزموا أمامهم مكيدة لهم ، ولم يزل الفرنسيون في أثرهم حتى وصلوا إلى أطراف المرج ومن هناك أحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، ولما رأهم القائد كليبر قد أحاطوا بالعسكر قسم رجاله أربعة أقسام مع كل قسمة منهم . مدفع . شاهد أهالي الناصرة كثرة جيوش دمشق وأن الفرنسيين إلى قلة فبادروا وأخبروا أمير الجيوش فأحضر حالاً القائد لتُرك وأمره بتحضير ثلاثة آلاف عسكري وأخذوا معهم أربعة مدافع ، وأمر الجنرال بونابرت أن يسيروا على وادي عبلين وبعد ثلاث ساعات من مسيرهم ركب أمير الجيوش وسار وراءهم طالباً أثرهم ، ووصل في منتصف الليل بعسكره إلى بئر البدوية وعند الصباح سار بالعسكر إلى أن نفذ إلى مرج ابن عامر وصعد إلى تل عال فكشف أرض المرج ونظر إلى الجنرال كليبر في وسط البيداء وعساكر المسلمين محيطة به والهجوم من كل ناحية وليس لهم عليه سلطان ، ثم شاهد جبلاً بعيداً وعليه المضارب والخيام وكان هذا جيش الغز ، فنزل أمير الجيوش وعزل خمسمائة مقاتل ، وأمرهم أن يقصدوا الجبل ويكبسوا الجيش وتوجه قسم منه حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم وأحاطوا بهم ، ولما وصل أمير الجيوش إليهم ضرب مدفعاً واحداً ثم ضرب القسم الثاني ثم الثالث وحينما سمعت العساكر المحاربة المدافع ورأوا قدوم النجدة وعلموا أنهم صاروا

في وسطهم ولوا منهزمين، ولما أصبح الصباح أرسل خمسمائة جندي إلى جينين وأمرهم أن ينهبوها ويحرقوها وأخرب قرى جبل نابلس لأنهم لم يطلبوا منه الأمان .

ولما بلغ أمير الجيوش قدوم عسكر دمشق إلى صفد أمر الجنرال مورات أن يسير بخمسمائة راكب فرحل بعسكر دمشق إلى جسر بنات يعقوب ، وعلم الجنرال منو وهو في الناصرة أن في مدينة طبرية عسكر الجزائر فنشب القتال بينهم ، فانكسر عسكر الجزائر وانهزم بعد أن قتل منه مائتا جندي ، وظهر الطاعون في عسكر فرنسا فمات منهم خلق . وكانت الحروب قائمة على مدينة عكا الليل والنهار وهم يهجمون على الأسوار والقنابل تنهال عليهم كال مطر ، وقد أهلكوا من العساكر الإسلامية والإنكليزية خلقاً كثيراً وهدموا أبراج عكا وأسوارها . ولما هلك بعض قواد الفرنسيين على أسوار عكا مع جملة صاحبة من جندهم بدأ بونابرت يرجع إلى وطنه لأمر طراً على مركزه هناك .

وكانت إنكلترا أهاجت ملوك الفرنج على فرنسا فاضطر الفرنسيون أن يرجعوا عن عكا بعد أن فقدوا على سورها ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي ، ومات في الطاعون وعلى الطريق ما ينيف على ألف . وفي ١١ ذي الحجة أمر أمير الجيوش بالقيام بجميع المضارب والخيام وانتقل إلى مدينة حيفا وكان فيها عدة حواصل قطن للجزار فأمر بإحراقها. وسار إلى يافا فأخذ ما كان لهم من الأمتعة والمدافع الكبار ودفنوها في الرمال، وقد كانوا أخذوا من العساكر العثمانية أربعة آلاف بندقية فألقوها في البحر وأحرقوا المراكب التي كانوا غنموها من المسلمين وأخذوا من فيها أسرى وسخروهم في نقل الجرحى والمرضى من عسكر الفرنسيين يحملونهم على ألواح خشب إلى مصر .

خطبات نابليون في الشام :

هذا ما رواه المؤرخ نقولا الترك في دخول نابليون جنوب الشام وخروجه منها وما وقع له من الوقائع وكانت مدة مقامه في الشام شهرين لم تستفد منها

فرنسا سوى قتل بعض أبنائها ، وكذلك خسرت الشام خسارة الضعيف مع القوي . و نابليون وإن عدّوه نابغة القواد في عصره أخطأ كثيراً في توسعه في فتوحه . وفتح الشام ومصر من جملة خطيئاته ، ولم تريح أمته من حملتها على هذين القطرين إلا نشر مدنيتهما على أيدي من استصحبهم نابليون معه من العلماء والمهندسين والطبيين ، وكانت مصر مباءة علمهم وعبقريتهم .

وقد أخذ صاحب تاريخ الدولة العلية القائد بونابرت بأنه ارتكب قبل مغادرته يافا أمراً شنيعاً لم يسبق في التاريخ وهو قتله الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه في سيره . وفي تاريخ فلسطين أن جنود الجزائر في يافا يوم نابليون كانت مؤلفة من عرب وأتراك ومغاربة وأرناؤد وأكراد وجركس ، فانسحبوا لما فتحها نابليون إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قبل أن يؤمنهم على حياتهم فأجابهم القائد الفرنسي إلى طلبهم فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المعسكر . ولما رأهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة التي سلمت إليه أماناً وقبلهم حقناً للدماء فبهت وحرار في أمره وقال : ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم ألكم مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا ؛ ومن يتولى خفارتهم إذا أرسلناهم ؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ، ثم استشار ضباطه في قتلهم فخالقوه ولكنه أصر على رأيه وأمر بهم فقتلوا رمية بالرصاص في ١٠ آذار سنة ١٧٩٩ هـ .

ويقول مشاققة : إن بونابرت أمر قبل أن يغادر يافا إلى عكا بقتل الأسرى الذين وقعوا في قبضته ثلاثاً : في العريش وفي غزة وفي يافا ، وكان يطلق سراحهم كل مرة بعد أن يأخذ عليهم العهود أن لا يعودوا إلى قتاله ، ولما أسره هذه المرة وعددهم يربو على ثلاثة آلاف حنق عليهم وعلم أنهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري ، فأمر جنوده بإطلاق النار عليهم ولم يواروهم التراب ، وبقيت أجسامهم طعاماً للطيور ، وظلت رفاتهم مكشوفة مدة ٥٥ هـ . وهذا السبب معقول وله من القوانين الحربية ما يشفع به بعض الشيء أكثر من الرواية الأولى . وانتقد مسترمان على نابليون ذبحه حامية يافا وكانت مؤلفة من أربعة آلاف أرناؤدي ووضعه السم لجنوده لدن عودته لأنهم أصيبوا

بالتعاون . وفي رواية أنه وجد فيها ألفين من الأسرى الذين أطلقهم وكانوا عاهدوه في العريش ألا يجاربهوه فقتلهم والحرب غشوم .

وقال مشاققة : إن بونابرت بعد أن فرق جموع الأتراك على الحدود السورية أرسل كتاباً إلى الجزائر ينصح له أن يجنح معه إلى السلم فلم يتنازل الجزائر إلى إجابته ، فأرسل إليه رسولاً ثانياً فقتله الجزائر فحنق نابوليون وتقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل إلى غزة ، وهزم من رجال الجزائر أربعة آلاف فارس ، وأسفرت وقعة يافا عن قتل ثلاثة آلاف من الجنود التركية ، ودخلت رجال نابوليون يافا ، وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع ، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سمح بها نابوليون لرجالها بالتصرف والتمتع بمال المغلوب وأملاكه . وقال الشهابي : إن العساكر الفرنسية حاصرت يافا ثلاثة أيام وملكوها بالسيف ، وكان عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر ألفاً فما سلم منه إلا القليل ، وقتل كثير من النساء والأولاد حتى جرى الدم في أسواق يافا ، وأرسلت دمشق عشرين ألف جندي إلى عكا فالتقاها ألف جندي من الفرنج وكسروها وقتلوا منها مقتلة عظيمة .

ولما جاءت الأخبار إلى دمشق بأن عسكر الجزائر وعسكر الإنكليز قتلوا من جند نابوليون ثلاثة آلاف جندي زينت دمشق وضربت المدافع من قلعتها ، وقد أصيبت الأقاليم التي وقعت فيها تلك الوقائع وما إليها بالحراب ، ومن أهم خرابها تسلط الجند على ضعاف الرعايا فقد نهبت العساكر التي ذهبت من دمشق لمقاتلة الفرنسيين (١٢١٣) مدينة صنف و عملوا المنكرات أثناء طريقهم . فأصيبت فلسطين هذه المرة بغوائل كانت سواحل فينيقية وأعمالها تصاب بمثلها أو أكثر منها في القرنين الماضيين . وأصبحت مثل هذه الوقائع في هذا الجزء من الشام أي في اللبنايين الغربي والشرقي وما جاورها من الأمور العادية ، وما ذلك إلا لقيام أمثال بني حمادة وبني معن وبني حرفوش وبني شهاب من كانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر كبار الأمراء وهم صغار بمواقعهم ونقص تربيتهم الحربية وضعف أخلاقهم وقلة معارفهم ، فكانوا بمقاومتهم

بعض المقاومة لعمال الدولة من الترك يخربون ديارهم ، ويهلكون من أخذوا على أنفسهم حمايتهم من ضعاف السكان .

حال الشام بعد رحيل نابليون عنه :

كان يظن بعد رحيل نابليون ومعاونة الإنكليز للدولة العثمانية على إخراجهم من الشام ، أن الدولة تبدل شيئاً من أصول إدارتها وترجع عن استسلامها لعمالها الذين يحبون الجبايات ويرضونها بجزءٍ منها ويحتفظون بالباقي لأنفسهم . ولكن الأحوال بقيت بحالها ، وظن الجزائر نفسه أنه هو الذي دفع جيش نابليون عن الشام ، فعاد يمثل مظالمه ويحمل على الناس مغارمه ، ويتناول استبداده المسلمين والنصارى واليهود على السواء ، وجنونه فنون .

ولم يكف فلسطين ما حلّ بها من ظلم الجزائر ثم وقائع نابليون حتى قام محمد باشا أبو المرق يسومها العسف والخسف ، يجور على أهل بيت المقدس والخليل وغزة والرملة ولُدّ ، حتى اضطرت السادات الأشراف الأبرياء لكثرة مظالمه أن يبيعوا أولادهم كما تباع العبيد والجواري على ما ذكر ذلك أحمد باشا الجزائر في كتاب صدر عنه سنة ١٢١٧ إلى وكيله في دمشق .

ومن أحداث هذا الدور نهب العسكر الدمشقي (١٢١٤) جميع القرى في طريقه إلى غزير في لبنان ، وتفرقت عساكر الدولة في ضياع كسروان ونهبوا كل ما وجدوه وذلك للضرب على أيدي الأمير بشير الذي كان على ما يظهر يحاول أن يأكل الخراج ، ولذلك قاتله جيش الدولة (١٢١٥) مرة أخرى لما جاء إلى نواحي بعبدا في لبنان وقتل من أدركه في المتن ، ورجع بشير إلى عاريا وكان عسكر الدولة أحرق عدة بيوت من بعبدا والحلث وسبي النساء وقتل العجائز والأولاد فاجتمع معه أربعة وخمسون رأساً من القتلى فأرسلوها إلى الجزائر ونهبوا أموالاً ومواشي وأحرقوا عاريا . وذهب والي دمشق سنة ١٢١٧ إلى حماة وفتحها وبالغ في الظلم حتى فر غالب أهالي حماة عن بلدهم اتقاء شره ، وتفرقوا في دمشق وحلب وطرابلس وأصبحت حماة كالقرية لقلّة سكانها .

قال ابن آق بيق : وفي سنة ١٢١٧ شغلت دمشق بالظلم وإكرامية الباشا من البلاد واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وإرهاق القرى بالطروحة والإكراميات وفرض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها أثر في السابق قال : ولما خرج عبد الله باشا العظم من دمشق سنة ١٢١٨ قاصداً إلى طرابلس ليحارب أهلها ، وضرب عسكره بعض القرى ونهبها وظلوا على هذا التخريب حتى بلغوا طرابلس فحاصرها وخرج أهلها هائمين على وجوههم ووقع القتال بين عسكره وعسكر المسلم وقتل من القرين خلق . وكان أحمد باشا الجزار يرسل التجيدات إلى عبد الله باشا العظم .

وقال أيضاً : إن الجزار كان يطلب من الأغنياء أموالاً يأخذها منهم بعد الحبس والضرب وبقي الطرح على جميع الأصناف وأغلقت الدكاكين بدمشق وبات الناس في كرب والعسكر يحيط بالبلد ، والأكراد والشيخ طه الكردي وجنوده يعذبون الخلق أنواع العذاب حتى يقرؤا لهم بالأموال ، والطرح على الخلق أشكال وضروب من بنّ وتنباك وألاجه وحرير وشاشات وزنانير واستصفاء بيوت وخانات وبساتين وغير ذلك ، وظهر في دار ابن عقيل وكيل الجزار بدمشق طمائر ذهب قدرت بنحو خمسمائة كيس . ولم يكن يمر يوم دون أن يقبض على أربعة أو خمسة من أرباب الوجاهة والثروة يسجنون في سجن القلعة ويعذبهم أكراد الجزار بالكماشات والحديد والعصي إلى أن يشرف المعتذبون على الموت ويشتط العمال في طلب المال من المصادرين ويطوفون بهم في المدينة ، فيضطرون إلى بيع جميع ما يملكون ليكفّ عنهم ، ووصلت الحال بالأغنياء إلى التسوّل ، وكان قتل النفوس على الأكثر في سبيل أخذ المال مشروعاً كان أو غير مشروع . فقد حدثت فتنة طفيفة بين ملتزم أموال بلاد بشارة ، فأرسل الجزار على العصاة عسكراً قتلوا منهم ما ينيف على ثلاثمائة رجل وأسروا عدة ، وأرسلوهم إلى عكا جعلوا على الأوتاد ثم أخذ الجزار أموالاً جزيلة من السكان .

ومن الحوادث في أيام عبد الله باشا العظم بدمشق أن القبوقول قصدوا إثارة فتنة (١٢١٤) فأغلق آغا القلعة بابها ، وحاصره الباشا فاضطر إلى التسليم بعد مدة ، فقتل آغا القلعة وهمدت الفتنة ، ثم سار عبد الله باشا لمحاربة

مصطفى بربر متسلم طرابلس وحاصر قلعتها بشدة ، وطال الأمر فالتجأ بربر إلى الجزائر فسكت ولم يجبه لأنه كان يفاوض الإستانة لأخذ ولاية دمشق ، وبينما الحال مشتدة على بربر وعبد الله باشا يحاصره بعسكره أرسل الجزائر إلى وكيله بدمشق محمد بن عقيل ألفي جندي وأمره أن يقبض على عبد الرحمن المرادي وحسن دفردار المتسلم وابن سبوح متسلم حمص ويقتلهم حالاً ونادوا باسم الجزائر والياً . فبلغ ذلك عبد الله باشا وعلم أن الدولة متغيرة عليه ، فخاف كثيراً وهام على وجهه في البادية يختبئ عند العرب . أما بربر طرابلس فرضي عنه الجزائر وأقره متسلاً على بلده ، ثم لامت الدولة الجزائر على ما أتاه من قتل ابن المرادي كما يقتل العامة فتخلص الجزائر مما أتاه وألقى تبعة قتله على وكيله ابن عقيل وقطعه إرباً مع أن الجزائر هو الذي أمره خطأ بقتله .

مساوىء أحكام الجزائر :

توفي الجزائر سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) بعد أن ضرب الأهالي ضربة لم تصب بمثلها منذ أزمان . أصله بشناقي من جماعة علي بك أمير مصر هرب إلى الشام لما قُتل مولاه ، وأقام يختلج إلى لبنان فاطلع على أحواله وأحوال الديار التي كانت تحت حكم الظاهر عمر من أرض الجليل . ثم توجه إلى الإستانة فعين وزيراً على صيدا أولاً وحصن عكا ورفع عن بيروت حكم بيت شهاب وضبط أملاكهم . وكان أحمد البشناقي هذا جزاراً سفاكاً لأنه لما كان كاشف البحيرة في مصر عهد إليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من المماليك فأسرف في القتل فلقب بالجزار . ولا غرو فالدم البشري في نظر أحمد باشا الجزائر ، كدم الخرفان في نظر القصاب والجزار . هاج المماليك على الجزائر مرة يريدون قتله فيما يقال ولولا حذره الشديد لقتل ، وتحصنوا في برج داخل عكا فطلبوا الأمان ، ولما علم أن خيانتهم كانت بالاتفاق مع بعض سراريه غضب عليهم جميعاً وخنقهم بالماء الحار . حج الجزائر مرة بالناس فلما عاد ترامى إلى سمعه اتهام مماليكه بحريمه فلم يلبث أن أرسل المماليك في حملة على لبنان وأوقد ناراً كبيرة في داره ، فكان خصيانه يأتونه بنسوته واحدة بعد

أخرى فيقبض بنفسه على عنق الواحدة ويطحها في النار على وجهها ، ويدوس على ظهرها ويضغط على رأسها ، حتى يتم شيئها في النار وتهلك فيرفعها ويحضر غيرها ، وعلى هذه الصورة الشنعاء أهلك الجزائر سبعمائة وثلاثين امرأة ولم تنج غير فتاة في الثامنة من عمرها .

كان الجزائر يقتل الكبير والصغير من وزراء وأفندية وعلماء وأغوات ، ويرضي السلطان بالمال ويداريه فيتغاضي عنه ، وكان إذا عامل أحد المغضوب عليهم بالرفق وعزف عن قتله يجذم أنفه ، ثم يصلم أذنه اليمنى ثم يقطع عينه اليمنى ولو كان من خواص خدامه . وكم من بيت خربه بسلب ماله ظلماً ، وكم من رجل قتله بعد أن صادره ، وكان لا ذمة له ولا ذمام ، خدمه رجال من بيوت معروفة فلما بدا له قتلهم وصادرهم واختلق لهم ذنوباً وألقاهم في البحر . ولقد أكرمه الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان لما كان الجزائر صلوكاً متشرداً لأول أمره وعاونوه لما أصبح والياً ، فكانت النتيجة أن شنقه وألقاه ثلاثة أيام معلقاً ، ولطالما أخذ التوتية والركاب في مراكب كانت قادمة من مصر قبل مجيء الفرنسيين إليها ، وقتل جميع من فيها من أبناء مصر أو الشام وصادر جميع ما يحملون من البضائع .

تفنن الجزائر في إهراق الدماء وحكم المؤرخين عليه :

وكان من عادة الجزائر بعد أن يصادر المصادر أن يقتلهم كما فعل سنة ١٢٠٥ فقبض في دمشق على أولاد عبيد وأخذ منهم ستين ألف قرش ففروا إلى حلب ثم قبض على ثلاثين من أتباعه وسجنهم في القلعة ففقدوا أنفسهم بمائتين وخمسين ألف قرش ثم قتلهم ليلاً ، وقبض على خازن أمواله وأسبابه ونفاه إلى مصر ، وقبض على مفتي عكا وإمامها وعلى رئيس مينائها فقتلهم صبراً . وظلم جميع أكابر دمشق وسلب أموالهم .

وخرج ذات يوم في عكا قبل الشمس إلى باب السراي وأمر بإغلاق أبواب المدينة وقبض على كثيرين من العمال والكتاب والأهالي فسجنهم ، وكانوا مائتين وثلاثين إنساناً وقبض على النواب وسجنهم ، وكان كلما تقدم إليه

إنسان يكشف رأسه وينظر في وجهه فالذي يقول فيه نيشان يرجعونه إلى السجن ، والذي يقول ما فيه نيشان يطلق ، ثم إنه أحضر الفعلة أيضاً وصنع بهم كذلك وقبض منهم جملة وأحضر التجار وأرباب الصنائع والحمالين وعلى هذا المنوال عامل الجميع فامتألت السجون ، ومن الغد أحضر المغاربة وأمر أن يخرجوا السجناء كلهم خارج البلد ويقتلوهم ففعلوا ما أمرهم به ؛ قال مدون وقائعه : وكان يوماً عصبياً لم تكن تسمع فيه إلا صراخ المقتولين ظلماً وعويلهم وأنيهم ، وبقي القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد ، ثم أمر أن ينادي المنادي في شوارع عكا ليخرج أهل القتلى لدفن موتاهم ، وأشار إلى أن كل امرأة ترفع صوتها تُقتل حالاً ، فخرج الناس ودفنوا القتلى . ثم ابتداء يرسل جنوده يقبضون على الفلاحين ومشايخ القرى وأصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله ومنهم من يصلم أذنه ويجدع أنفه ويطلقهم .

ولم يذكر المؤرخون علة استرسال الجزائر في قتل الناس على هذه الصورة من غير سبب ولعله أصيب بمس من الجنون أو ان جنونه أطبق هذه المرة فأزهق الأرواح ، وإن امتاز في أدوار حياته بالسفك والفتك . وذكر المؤرخون أن الجزائر قبيل وفاته أمر أن يغرقوا من كان في سجنه في البحر فنفذ أمره . وفي التاريخ العام أن الجزائر أوقد جذوة التعصب بين المسلمين في بيروت وأغراهم بقتل الموارنة حتى يضمن حكمه على بيروت . ولم يكن يُعرف فيما إذا كان الجزائر خادماً مخلصاً للسلطان أو عاصياً وقعاً . وكان كثيراً ما تجيئه رسل جاويشية من الإستانة تحمل إليه بعض الأوامر فيجز رأس القادم ويبعث به إلى ديوان الإستانة ، وهناك يغدق الذهب على الوزراء والخصيان ونساء الحرم السلطاني . وكثيراً ما كان يقول وهو في حال السكر للمسيو دي توليس : السلطان كالبنات يعطي نفسه لمن يعطيه أكثر ، فإذا حاول أن يقاومني فأنا أردته إلى الصواب بأن أهيح عليه مصر والشام وآسيا الصغرى ، وأزحف على الإستانة في جيش « القابسز » وأكون قادراً مثل لويس الكبير امبراطور فرنسا .

وقد وصف مشاقة الجزائر وصفاً معقولاً قال فيه : إنه كان داهية ذا بأس وحنكة واسعة ، سلمت إليه الدولة إدارة شؤون إيلتها وعولت عليه في

إخضاع الشام وضمه تحت جناحها ، على طريقة الغدر والخداع وإلقاء الفن والحروب الأهلية بين الأمراء والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجزور والعسف ويسوموهم الذل أنواعاً والظلم أشكالاً ، وشريعة الرجل منهم إرادته السخيفة ، والحاكم يشق ويقتل ويشوه أخلاق الشعب ، وكأن الحال قيضت لهم رجلاً كالجزار ينتقم منهم ، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الأهلية يكرهون العدل ويعشقون الظلم ، لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ، ولم تكن معاملة الجزار للأمير يوسف أقسى من معاملة هذا الأمير لأنسابه وإن ما لحقه من الجزار هو مما يستحقه . وقس على الأمير بقية المشايخ والأمراء الذين كانوا يستبيحون أموال الرعية وأعراضهم في سبيل أهوائهم .

قال إن الجزار ظلم ولكنه خدم الدولة والشعب ، وعادت خدماته على الدولة بالنفع فأخضع القطر لشوكتها فأطاع ، ورد عنها بشاته أمام نابوليون خطراً كان يهددها يوم حصار عكا ، وأفاد الرعية بأن أزال عنهم ضغط المشايخ والأمراء المستبدين فكان جورهم بالنسبة لجزور الأمراء والمشايخ قبله أقل وطأة . ولما جاءهم وضع حدياً لظلمهم وزعزع سلطتهم وأرغم أنوفهم وأطلق الفلاح من عقابهم . وعلى الجملة فإنه عمل بما يوافق عصره وينطبق على أبنائه ، فبموته سُري عنم كان غضبه يهددهم ويوشك أن يوقع بهم . وقال إن الجزار على قبح أعماله حفظ المساواة بين الرعية مع تفرق مذاهبها ، فيحبس علماء المسلمين وقسوس النصارى وحاخامي اليهود وعقال الدروز سوية ، وهكذا في إجراء العذابات الجهنمية عليهم لا يفرق بينهم ، وأكبر ما يحصى عليهم من الذنوب التوقف عن أداء الأموال التي يطلبها منهم وربما نشأ تلكوهم من عجزهم .

وقال إن الجزار كان يتأخر عن دفع الأموال الواجب عليه أداؤها للسلطنة ويعتذر عن الدفع بأنه محتاج إلى العساكر لإدخال لبنان في الطاعة ، فسئمت الدولة من تعللاته الطويلة وكتبوا له أن المدة طالت ويظهر أنك غير قادر على تمهيده ، فلذلك صممت الدولة على إرسال وزير مقتدر بعساكر كافية لإخضاع لبنان لسلطوتها فكان جوابه أنني بعد أيام قليلة إن شاء الله أبشركم بفتحته لأنه ظهر عليهم الضعف عن المقاومة ، وقد منعنا وصول الذخائر إليهم من البقاع والسواحل وهم لا يقدرّون على العيش بدونها ، لان أراضي الجبل قليلة بالنسبة

لسكانه . وبعد مدة وجيزة بشر الدولة بشارة كاذبة مع الساعي فادعى أنه فتح الجبل وأنه وجد فيه من السكان النصارى مائة وعشرين ألف رجل ومن الدرود ستين ألفاً ومن الشيعة ثلاثين ألفاً ومثلهم من السنة، فأتحفته الدولة بسيف مجوهر ومدحته على همته ، وأرسلت إليه بعد مدة أوراق جزية النصارى المعتادة وزادوا عليها مائة وعشرين ألف ورقة برسم نصارى لبنان ، فسقط في يد الجزائر واستدعى المعلم حاييم فارحي مدير خزائنه واستطلعه طلع رأيه في هذه القضية فأجابه يجب الآن دفع هذه القيمة من خزانتك لما عرضته للدولة عن فتح الجبل وعن عدد النصارى فيه . ثم نظر في هذه الزيادة فدفع ثمن هذه الأوراق . وبعد أشهر أرسل بشارة للدولة بأن نصارى الجبل دخلوا في الإسلام . ولما دخلت السنة الثانية أرسلت الدولة للجزائر أوراق جزية لبنان كالسنة الماضية فأرجع الزيادة بقوله : إن نصارى لبنان تقدم العرض عن دخولهم في الإسلام وارتفعت عنهم الجزية شرعاً . قال : وهكذا كانت أمور الدولة في ذلك العهد تجري بلا تحقيق في صحة ما يعرضه عليها مأموروها .

ولما هلك الجزائر أرسلت الدولة راغب أفندي الذي صار والياً على حلب بعد ذلك لضبط متروكاته ، وكانت قوانين الدولة يومئذ تقضي بأن يؤخذ كل ما يخلفه مستخدموها من أملاك وأموال وعروض ، فحررت التركة مع سندات الأموال التي كان يجررها على الأمراء والمشايخ عدا الأموال الأميرية ، فحسبت هذه الديون الظالمة من حقوق الدولة ، ولما رأوا أنها وافرة وأنه من المتعذر تحصيلها جعلوها مقسطة على رعايا أولئك الأمراء والمشايخ على عدة سنين ، فكان لبنان يدفع المال مضاعفاً ، فالمال الواحد يبلغ أربعمائة كيس وكان يجبي من لبنان مال الجوالي على النصارى ومال فريضة على الدرود ، فكان القسط الواجب على اللبنانيين أداؤه من مطلوبات الجزائر يبلغ مقدار ستة أموال أميرية وصار الأهالي يدفعون كل سنة مالمين .

ولم يعلم ما خلف الجزائر من الأموال بعد حكم تسع وعشرين سنة ولكن الذي قاله المؤرخون أن أحد رجاله الشيخ طه الكردي أخذ ألف كيس وأرسلت الدولة رجلين من الإستانة للبحث عن موجوده ، فما رأوا شيئاً مهماً غير ما كان أرسله إسماعيل باشا للدولة مع القبطان باشي في أول الأمر من مال

وتحف ، يقال إنها بلغت ثمانية آلاف كيس بيد أن إسماعيل باشا صرف أموالاً كثيرة على العساكر والأغوات ، وعلى كل فهي قليلة بالنسبة لطول عهده ، والغالب أنه كان معتدلاً في أخذ المال غير اعتداله في سفك دماء الرجال ، أو أنه ادخر كميات من الذهب غير ما عثر عليه منها فضاغت عند وكلاته وخواصه .

قاعدة المبالغة في الثروة والفقر ، والظلم والعدل ، والعلم والجهل ، والقبح والجمال تناولت أعمال الجزائر أيضاً ، ولو كان في قلبه بعض رحمة وعزوف عن سفك الدم الحرام إلا بما تقضي به الشريعة لعد مصلح عصره قياساً مع الصفات التي أوردتها مشاقفة . لا جرم أن التبعة في بعض أعماله تعود على عماله ورجاله ، وأكثرهم من أبناء هذه الديار .

المتغلبة على الأحكام بعد الجزائر :

خرج الشام بعد هلاك الجزائر مقلّم الأظفار ، معروق العظام ، بل مقطع الأوصال ، سيء الحال ، وأحدث موته فراغاً ففقدت به الدولة أعظم قوة تمثلها ونفّس بهلاكه خناق أرباب المقاطعات المتغلبين من الأعيان ، وكان في سجن الجزائر في عكا رجل يقال له إسماعيل باشا أرناوطي الأصل ، وأصله من جملة عساكر الوزير الأعظم حين حضر إلى مصر لاستخلاصها من الفرنسيين . ولما قام الفرنج على المسلمين وأخرجوهم من مصر وتشتت العساكر في تلك الأقطار قصد إسماعيل باشا أحمد باشا الجزائر ، فدعاه إلى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا أبو المرق فقبض عليه الجزائر وسجنه وعذبه ، كما كان يفعل بمن يقبض عليه وبقي في سجن الجزائر إلى أن هلك هذا ، فخرج إسماعيل باشا من محبسه وجعل مكان الجزائر فاستولى على متروكاته حتى اضطرت الدولة إلى قتاله لعصيانه في قلعة عكا وأرسلت عليه حملة ودام الحصار أربعة أشهر حتى أخذ وقتل فاستراحت الأمة من أحمد الجزائر ومن خلفه .

وعصا أهل وادي التيم فأرسل عليهم إسماعيل باشا جنداً كبس القرى وقتلوا زهاء مائتي قتيل وأخذوا مائتي أسير ، وكبس الأمير بشير جنبلات

بعساكر الدروز بعض قرى عكا وقتل من عساكر إبراهيم باشا جماعة ، وإبراهيم باشا هو إبراهيم باشا الحلبي الذي نصبته الدولة مرة ثانية على دمشق وكان والياً على حلب . وكان حدث بموت الجزائر اضطراب وخلت دمشق من الأحكام ، فمهد الأمور وعهدت إليه الدولة مع ولاية دمشق بصيدا وطرابلس وأوعزت إلى الأمير بشير الشهابي حاكم الجبل أن يكون في طاعة إبراهيم باشا وعوناً له على إصلاح حال صيدا والساحل ، فصعد والي الجبل بالأمر لأنه كان داهية يراعي الدولة ولا يتأخر عن قضاء لباتاتها ، ولا سيما الخراج والجزية يؤديهما في أوقاتها .

حاولت الدولة غير مرة القبض على مصطفى بربر متسلم طرابلس وظلّ في منصبه يسوم الناس مظالمه ، وما لبث خصمه اللود عبد الله باشا العظم أن تولى دمشق للمرة الثالثة بعد أن كانت الدولة غضبت عليه بوشايات الجزائر وشرده في البادية ولكنه دعاها إلى الرضى عنه وداواها بما تداوى به في العادة بأكياس من الذهب . وخرج عبد الله باشا من دمشق بالمحمل (١٢٢٠) فحدثت بينه وبين الوهابيين أمور عظيمة ، وكانوا قد استولوا على الحجاز وتقدموا إلى الشام فهلك غالب عسكره وانتهب الحاج .

عين سليمان باشا الكرجي من ممالك الجزائر والياً على عكا فأقام حاكماً على يافا وعلى غزة محمد آغا أبو نبوت أحد ممالك الجزائر ، وبقي حاكمها إلى أن طمع بالاستقلال فيها ، وعندما تحقق سليمان باشا ذلك ركب عليه بالعسكر فهرب إلى مصر ثم إلى الإستانة وشفع فيه الشافعون فنال رتبة الوزارة . وسليمان باشا هو الذي أراد أن يرفع بعض المظالم عن الرعايا ويحملها على الأجانب في عكا كأن يبيع الغلات والقطن والزيت من الأجانب فقط ، تبتاع الحكومة ما يفضل عن عوز الأهلين وتخزنه في مخازن لها تبيعه من التجار الأجانب القادمين في مراكبهم بالأسعار التي تريدها .

ومن الأحداث في سنة ١٢٢١ ما حدث من فتنه بين العسكر الوطنيين وجند الحرس في دمشق ، فحاصرت القلعة وأغلقت المدينة كلها ، ووضعت المتاريس داخل المدينة ، وجرت بين العسكرين حرب المتاريس في الأزقة والشوارع والسطوح والأسواق والمآذن فغلب الوطنيون الحرس وكسروهم

وهزموهم إلى مأذنة الشحم ثم ارتدوا عليهم وأخذوا طالع الفضة ، ونهب الخلق تلك الجهة كلها ، وراح الحرس مكسورين ثم عادوا وهزموا الوطنيين عند الشيخ عمود فنال الفريقان أحدهما من الآخر على غير طائل . ولم يقف شقاء دمشق عند حد التقاتل بين الجند بل أسرف الوالي كنج يوسف باشا (١٢٢٢) في ظلم الناس وأراد ستر ذنوبه فأرسل إلى الدولة ألف كيس من المال لإنعامها عليه بإمارة الحج وإيالة طرابلس مع ولاية دمشق وذهب إلى نابلس وقهر أهلها وجبي منهم أموالاً عظيمة ثم ذهب إلى جبل النصيريين وقاتلهم وانتصر عليهم وسبي نساءهم وأولادهم ، وكان خيرهم بين الدخول في مذهب أهل السنة والخروج من جباهم فامتنعوا وحاربوا وخذلوا ، وبيعت نساؤهم وأولادهم ، فلما شاهدوا ذلك أظهروا التسنن فعفا عنهم وتركهم في أرضهم بعد أن حاربهم شهرين ونهب قراهم ، ثم رحل إلى طرابلس ليقبض على مصطفى بربر متسلمها ، فتحصن هذا في القلعة فوقع القتال ، وكان الحصار أحد عشر شهراً وطرابلس خلال هذه المدة خالية من سكانها وقد جمعوا في الخانات سلعهم ومتاعهم وماعونهم ، ثم دخل يوسف باشا البلد وأطلق لعسكره الأكراد والأرناؤد وغيرهم النهب فلم يبقوا على شيء فيها وأنزل عسكره في الدور فخرّبوها بأخذ خشبها للدفء والوقود . وتوسط سليمان باشا والي صيدا عند الدولة فعفت عن مصطفى بربر وتسلم يوسف باشا القلعة . وكان مصطفى بربر من خدام الأمير حسن أخي الأمير بشير فتوصل بكائه وشجاعته إلى المناصب العالية وحاز اعتبار الوزراء وخشية الرعية .

مقتل سليم الثالث ومصطفى الرابع وتولي محمود الثاني :

في غضون سنة ١٢٢١ خلع سليم الثالث بيد الإنكشارية وقتل لأنه أراد أن ينفذ خطة في إصلاح الإدارة على الرغم من حروبه مع روسيا والنمسا وغيرهما من دول الغرب ، وبنى عسكراً جديداً يستعاض به عن الإنكشارية وكان هذا السلطان واسع النظر لكن الدهر خانة فلم يقدر أن يطبق إصلاحه ،

وكان أراد أن يخفق علم التمدن الأوربي فوق مملكته فاستدعى إليه من فرنسا ضباطاً ومهندسين ورجالاً من أرباب الصناعات فجاءه العدد الكثير منهم . وخلفه مصطفى الرابع فألغى جميع خطط الإصلاح ، ولكنه قتل كما قتل سلفه سليم ولم يطل عهده أكثر من أربعة عشر شهراً ، وخلفه محمود الثاني (١٢٢٣) متشعباً بروح إصلاح سليم الثالث ، يريد إخراج الدولة من سباتها ، معتقداً أنه لا سبيل إلى نجاتها إلا بإيجاد قوة لها من غير عسكر الإنكشارية الذين عراهم الانحلال منذ مئة سنة ، وأصبحوا يقتلون الملوك والوزراء ويخونون الدولة في ساحات الوغى ، ويعبثون بشعبهم وموأمراتهم بكيان الدولة ، ذاهباً إلى أن من جملة الأسباب في بقاء الدولة أن يقلد الفرنج في مناحيهم وعاداتهم . وهو الذي لبس الطربوش والألبسة الغربية . وأخذ يقيم الحفلات والمراقص وحفلات السماع على الطريقة الأوربية .

وفي سنة ١٢٢٣ مرّ ببلاد النصيريين طيب إنكليزي فقتله الرعاع هناك ، فصدرت الأوامر بالقبض على القتلة فأرسل سليمان باشا والي صيدا عسكرياً بزعامة مصطفى بربر فاكنتح ديارهم وقتل سبعين رجلاً من كبارهم ، وحشا رؤوسهم تبنأ وبعث بها إلى الباشا ، ثم امتنع النصيرية عن أداء المال فأرسل عليهم مصطفى بربر فنكل بهم وقتل خمسة وأربعين من رجالاتهم فأخلدوا إلى الطاعة ؛ وكان من مقتل الطيب وسيلة إلى الغارة على ضعاف الرعايا في زمن أصبح فيه شنّ الغارات صناعة يحترفها أناس مخصوصون في خدمة متغلب من المتغلبين .

وفي سنة ١٢٢٤ قوي الاختلاف بين والي دمشق وابن الشهابي وابن جنبلاط وكانا استوليا على أملاك عظيمة من الفلاحين في البقاع فلم يزرع أحد في تلك الأرجاء . وكان الوهابيون قد استولوا خلال هذه المدة على الحجاز وأخذوا يجاذبون عمال الدولة جبل السلطة في الأرجاء التي بين الحجاز والشام . وذكر بعض المؤرخين أنهم ارتكبوا في بلاد حوران سنة ١٢٢٥ أفعالا بربرية من سبي النساء وقتل الأطفال ونهب الأموال وإحراق المنازل والغلال حتى قيل إنهم أتلّفوا نحو ثلاثة آلاف ألف درهم وفي تاريخ نجد (١٢٢٥) أن سعوداً اجتاز بالقرى التي حول المزيريب وبصرى فنهبت الجموع ما وجدوا فيها من

المتاع وشعلوا فيها النيران ثم رجع إلى وطنه ومعه غنائم كثيرة من الخيل والمتاع والأثاث والطعام وقتل من أهل الشام عدة . وساق والي دمشق يوسف باشا حملة على مصطفى بربر متسلم طرابلس واستنجد بالأمير بشير الشهابي حاكم لبنان فلم ينجده معتذراً بفنن النصيرية والإسماعيلية وأن الجند اللبناني مضطر أن يرابط في الجبل ، فقال والي دمشق من متغلب طرابلس بالإجاعة وطول الحصار .

فتنة كنج يوسف باشا :

صدر الأمر السلطاني في سنة ١٢٢٥ إلى سليمان باشا والي صيدا أن يقتل والي دمشق كنج يوسف باشا ويصادر أمواله . لأن يوسف باشا عجز عن سوق قوة لقتال ابن سعود ورأى كما قال جودت ، اشتغال الدولة بمشاكلها الداخلية والخارجية فرصة لادخار المال ، وأكثر من الاعتداء على الأهلين وظلمهم ، واختلس زيادة على هذا أموالاً كثيرة من مرتبات الحج . ومما قاله السلطان لوالي صيدا في أمره الصادر بهذا الشأن : إني آمل منك صداقة وحسن خدمة لأنك تربية الغازي الجزائر أحمد باشا حتى لا يقال إن هذا راح ولم يخلف إنساناً ! . ومعنى ذلك أن الدولة كانت راضية عن الجزائر إذا ذكرته تذكركه بأنه مثال رجالها الأماناء ، وما ذلك إلا لأنه كان يؤدي لها الخراج في الحملة ويقاتل أعداءها ويرشي جماعة الإستانة بالمال على الدوام . أما سوء سيرته في الرعية وظلمهم وتقتيلهم فهذا لا ينقص بزعمها قدر الرجل ، بل يجب على العمال أن يتقبلوا مثاله .

ولما جاء سليمان باشا في جند من الدروز وغيرهم لأخذ دمشق من كنج يوسف باشا تعصب الدمشقيون لواليهم القديم ، ووقع القتال في أرض الجديدة وداريا ، فانهزم الدمشقيون وظفر العسكر اللبناني والعاكوي وقتل كثير من الدمشقيين . وفي هذه الواقعة يقول المعلم نقولا الترك في مدح الأمير بشير :

وخاض غمار الحرب تحمل خلفه ثلاثة آلاف تصول وتخطر
فلاقته فرسان المنايا مغيرة تنادي على الباغين : الله أكبر

ونار الوغى والسيف قد قارع القنا
فولى على أعقابه كل ظالم
وكم من سراياهم ترامت جماجم
كأوراق أشجار على الأرض تنثر
وغطى الفريقين الغبار المكدر
وفي سهل داريا الأعادي تقهقروا

وكان والي دمشق القديم قد جمع أمواله فبلغت كما قيل اثني عشر صندوقاً من الذهب وعشرة أحمال من الفضة ، فعرض بعض الجند لجماعته أثناء خروجهم ليلاً من السراي ، فأقلت هو ووقع المال في أيدي الجند والعامه ، فتقاسموه واغتنى أناس من هذه الغارة على أموال الوالي التي سببت نكبته ، وجمعها من أموال الدولة ودماء الأمة ، وتوجه يوسف باشا كنج إلى مصر فتوسط له محمد علي الكبير بالعضو ثم بعثت الدولة بعض رجالها فضبطوا ما خلفه الوالي السابق من الأموال في دمشق بعد أن نهب ما نهب ، فكانت نحو ثمانية آلاف كيس من صافي الصابون وبعض أشياء كان يتجر بها .

سليمان باشا وأمراء راشيا وكوان حلب :

وعدّ مشاققة من حسنات سليمان باشا ضمه إقليم البلان إلى ولاية دمشق بعد أن كان مستقلاً تحت لواء أمراء راشيا الشهابيين قال وذلك لأن حكام ذلك الإقليم مستبدون ، وكانت الأهالي تقاسي عذاباً وجوراً لا يطاقان ، والأمراء يدفعون عن الإقليم مالاً معلوماً لحفظ استقلالهم به وبراشيا معاً ، والحكومة مشطورة مع الأهالي إلى شطرين حزب يناصر الأمير فندي وآخر الأمير منصوراً ، وكان كل واحد منهما يراقب الآخر ويترصده الفرص ليفتك به ، فيحتاج كل منهما بالطبع إلى عصابة ومال وحاشية . وقد أثنى مشاققة على سليمان باشا وقال : إنه خدم الدولة والرعية خمسة عشر عاماً بالعدل والأمانة ، وكان الأسف عليه عاماً حتى شعرت الدولة بفقده (١٨١٩ م) وقال : لما سلبت بلاد بشارة من أيدي مشايخها كثرت التعديبات واضطرت حكومة صيدا إلى وضع عساكر كثيرة ، فلما جاء سليمان باشا الكرجي والياً على عكا اقتصر على مائتي جندي من المشاة وخمسمائة فارس وأربعمائة خيال من الهواراة يتبعهم مشاة ضبطية في باب السراي وجماعة المدفعيين على أسوار المدينة وأقام في كل بلدة من المدفعيين والضابطة كفايتها .

وسليمان باشا من ممالك الجزائر اشترك مع سليم باشا في حرب الجزائر ، ولما أفسد الجزائر هذا العسكر على باب عكا هرب سليم باشا وسليمان باشا ، إلا أن هذا عاد إلى مولاه تائباً فوجه عليه متسلمية صيدا . وكان سليمان باشا هذا لا يسمع وشاية ويحمي من يعينهم من جماعته ولا يسمع فيهم كلاماً ، وإذا عين أحدهم لا يرفعه مهما وقعت عليه من الشكاوي ، وإذا توفي أخذ خدامه مسلماً كان أو مسيحياً يضع ولده مكانه إن كان له ولد ويجري عليه رزقه وإن كان لا ولد له يدرُّ راتباً على عياله ، وكان يعطي كل واحد من خدام بابه على حسب حاله من القرش إلى العشرة قروش كل يوم ، وهذا لأكبر ما يكون من أرباب الوظائف . قال العورا مدون وقائعه : وكان عنده لما مات ٢٢ « دعبولة » في كل دعبولة ألف كيس ريال فرنسا (كل ريال بأربعة قروش) عدا ما كان تحت يد صرافه حايمم وأخيه موسى وهو يربو على اثني عشر ألف كيس و عدا الديون التي للخزينة على تجار عكا وبيروت وما عند حريمه من الجواهر والتحف وخلا ما عنده من الغلات والكراع .

هذا الرجل الذي خلف هذه الثروة وما ذلك بالأمر المستنكر على ولاية عصره ، كان يتبجح بكلام العادلين والمصلحين مع أفراد من حاشيته ومن يغشون مجلسه ، ليدل على حبه لإحقاق الحق وزهده في حطام الدنيا . شنشنة معروفة في بعض من يتولون الأمر يرثون أنفسهم من حب الدنيا وهم سراق منظمون ، ويستحلون في السر كل كبيرة وفي جهرم أعفة أتقياء . هذا الرجل قال لوكيله و صرافه حايمم و كاتبه حنا العورا يوم استولى على دمشق وخلصها من يوسف كنج باشا : أنا قضيت حياة رأيت فيها الحلو والمر ، فإذا أردتم أن تخدموني بالصدافة فأنا أشرط عليكم أن لا تظلموا أحداً ، فلا أريد الظلم ولا أذية أحد ولا خراب بيت أحد . ولا عيني بمال أحد ، وأريد ما أمكن سد باب الظلم ، وليس لي حاجة في غير لقمة خبز طيبة وحصان مليح و « جوبق » دخان والكسوة الاعتيادية وامرأة واحدة ولست آذن ولا أرخص لأحد منكم أن يجمع لي مال عباد الله بالظلم ولا بالخطف ولا بالحيلة ولا بوجه من الوجوه ، ولا أريد إلا أخذ الأموال المرتبة بأمر السلطان فقط ولا

أشكر من يسعى لي بجلب الأموال من غير حلها بل أغضب عليه ، وهأنذا أشهد الله وملائكته ورسوله عليّ وعليكم بهذا جميعه ، وأنا بريء الذمة من كل ما فعلونه في هذه الدنيا وفي الآخرة ، فهل تقبلون بشرطي هذا كي أسلمكم زمام أموري وأريح فكري ، فأجابوه : نعم قبلنا وسمعنا وأطعنا فحينئذ قال لهم : وأنا سلمتكم مصلحتي بتمامها تصرفوا بها بحسب صداقتكم ، وقد توكلت على الله وهو نعم الوكيل . كلام أشبه بكلام عمر بن عبد العزيز لأناس من حاشيته من زهاد التابعين وتابعي التابعين !

وفي سنة ١٢٢٦ حدثت فتنة بين الدروز القاطنين في الجبل الأعلى من عمل حلب وبين أهالي تلك الأرجاء وجرت بينهم وقائع فاتفق جميع أهل تلك الأطراف فأرسلوا يستشفعون بالأمير بشير فكتب إلى حكام حلب ، وأرسل مباشرين لإحضار الدروز من هناك وكانوا أربعمئة بيت وأعطاهم مئة ألف درهم لمعاشهم .

وكثيراً ما كان يجري الخلاف في دمشق بين آغا القلعة والوالي فيعتصم الآغا وجماعته في القلعة ويشرع بإطلاق الرصاص والبارود والمدافع على جماعة الوالي ويصيب الأهالي من ذلك خطوط جسيمة كما وقع سنة ١٢٢٧ فأخذ عسكر الوالي يحيط بالقلعة ويطلق من المآذن المجاورة النار عليها والجنود يطلقون النيران ، ودام ضرب المدافع والحصار الشديد ليلاً ونهاراً بلا فتور ، وقتل أناس خارج القلعة واحترقت بعض الأماكن ، ثم وضع عسكر الوالي سلام ودخلوا القلعة من سورها وجرت المذبحة بين المحاصرين والمحصورين ونهب عسكر الوالي القلعة ، وكان من يذهب قتلاً من الجند على نسبة من يقتل من الرعية . والقلاع آية البلاء على الرعية ولا ينتفع بها عند الاقتضاء إلا الوالي أو المتغلب انتفاعاً مؤقتاً .

ومن الولاة الذين ملأوا حلب وأرجاءها ظلماً ابن جبار جلال الدين باشا (١٢٢٧) كان مثلاً في المصادرات وقتل من يأبى إعطاء المال ولا يكاد يمضي يوم إلا ويقتل إنساناً وقد احتال على ثمانية عشر شخصاً من رؤساء الإنكشارية في حلب وأهلكهم فسكنت الفن قليلاً وقطع من أوصال الإنكشارية وقبض على القياد بشدته وقلة ذمته في إهراق الدماء . وروى في أعلام النبلاء أن

ابن جبار هذا عين اثنين يتجسسان أخبار الناس الذين تجب مصادرتهم فكان يرسل اثنين حاملين بلطة يأتیان بمن يجب مصادرته ، فيزج في الحبس ويوضع في رقبته سلسلة لها شوك ، ثم يطالب بما قرر عليه وهو جرم أو جرمان ، والجرم أربعون كيساً والكيس خمسمائة قرش ، فمن لم يدفع الجرم في ثلاثة أيام يخنق ويرمى تجاه باب القلعة ، وكلما خنقوا واحداً أطلقوا مدفعاً فكان يعلم عدد المخنوقين في الليلة من عدد المدافع ، وكان الوالي إذا أراد النزول إلى السوق أمر فزنت له الأسواق نهراً فيتزل ومعه « البلطجية » والعساكر عن يمينه وشماله فيدور في الأسواق ، ومتى أدار وجهه إلى رجل فإن البلطجية يأتون ويضربون رقبة صاحب ذلك الخانوت ، يفعل ذلك بثلاثة أو أربعة أشخاص ثم يعود ، ولما تكرر منه هذا العمل الفظيع سأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء وما ذنبهم فكان يقول : لا ذنب لهم غير أنني أقصد إرهاب الناس . وتعذيبه الناس وأخذهم بالتهمة الباطلة من المأثور عنه المشهور به .

وجاء بعده خورشيد باشا وكان يصلي ويصوم لكن أتباعه يفعلون كل كبيرة وهو عنهم ساكت ، وحدث أن الأهالي هجموا على دار رئيس دائرته سليمان بك وقتلوه وحملوا سائر أتباعه بما عندهم من أدوات الفحش والخمر إلى القاضي فعد الوالي ذلك نشوزاً على السلطنة من أهل حلب فاستدعى عسكرياً فجاءته جملة مستكثرة منهم ، ف وقعت وقعة بين العسكر والعصاة في محلة قسطل الحرامي (١٢٣٥) فانكسر العصاة وهاجم العسكر البلدة وأخذوا يطلقون المدافع على أسوارها فخرّبوا جانباً منها ودام الحصار ١١١ يوماً وجرى القتال داخل البلد في الشوارع والأسواق ، وكان القتال سجلاً بينهم إلى أن فر العصاة من الأهالي ودخل الولاية فيمن معهم من العسكر واحتلوا البلدة وقتلوا سبعة من كبار العصاة وأرسلوا برووسهم إلى الإستانة . وقد قال الأهالي إنهم ثاروا لشدة ما كانوا يلقونه من العنف وما كانوا ينوعون تحته من ضريبة الدور التي ضربت عليهم في سنة قحط وغلاء ، وقد قتل بالطبع من الثائرين والأهالي والجند مئات .

تولى دمشق سنة ١٢٣٢ صالح الكوسج باشا « وكان عادلاً حليماً فهماً » وراقت الحال في أيامه ولم يحدث إلا نشوز عرب فليحان فأرسل عليهم جنداً

فتحصنوا في اللجاة فقتلهم العرب ولم يسلم من الجند إلا القليل ، وبعد سنتين تولى دمشق سليمان باشا وكان عادلاً إلا أنه محب للمال . وذكر جودت أن جماعة من الحشاشين والأشقياء (١٢٣٥) أدخلوا بالأمن في حلب حتى كان الولاية يضطرون أن ينزلوا خارج البلد في مكان اسمه الشيخ بكير وأنه لم يمض على الثمانية عشرة شقياً الذين كان قتلهم بالخدعة جلال الدين باشا جبار واليها ، حتى عاد الأشقياء فكثروا وأرادوا القيام بثورة ، فتدارك الوالي الأمر باستدعاء الجنود الكثيرة ، وحسم هذه النازلة . قال بعد أن ذكر أربعة أبرياء قتلوا في حلب بدلاً من أربعة مجرمين بواسطة أحد الأعيان : كان على ذلك العهد بين الأعيان كثير من الأردباء الأشرار ، وهذه الحالة لم تكن خاصة بالإستانة ولا بالولايات ، وكان قتل الإنسان في سهولته كتقطيع لحم الدجاج ، حتى حدث مرة أن الأراجيف كثرت في الإستانة وبيننا كان مجلس الوكلاء ينظر في طريقة لحسم مادتها قال حالت أفندي : إن أحسن طريقة أن يقطع رأس الحلاق المقيم في « أوقجيلر باشي » وبذلك يحدث للناس خوف ودهشة وتقطع مادة الأراجيف ، فقال له أحد الحضور : عفواً إن هذا حلاقي فقال حالت أفندي : ليس هذا الذي أردت أن أضرب عنقه بل الحلاق الذي يسكن في الطرف الآخر وبذلك يحصل المقصود . قال وبالحملة فقد كثر في تلك الأيام في الإستانة وخارجها من اسودت قلوبهم وقست أفئدتهم من الناس ، وكانت الإدارة من كل وجه مختلفة بحيث لا يتيسر وصفها ولم يبق من وسيلة إلا تجديد الأصول وإصلاح أمور الدولة وتنظيمها ، وقد نال هذا الشرف والي مصر محمد علي باشا والفضل للمتقدم اه . وهذا كلام مؤرخ رسمي يكتب للسلطنة ، والحقيقة أن الحالة كانت أسوأ مما وصفها به .

وقعة المزة واستسلام الدولة لوالي عكا :

تولى دمشق سنة ١٢٣٥ درويش باشا ، وفي أيامه اعتدى جماعته على مزارع ابن شهاب وابن جنبلاط في البقاع فاضطر والي الجبل إلى إرسال جند لمحاربتة ، وأرسل والي عكا جنداً ووقع القتال فانتصر والي الجبل على والي

دمشق ، وبعثت الدولة والي حلب للنظر في هذه الفتنة بين الولاة ، فرأى أن السبب في ذلك عبد الله باشا والي عكا ، فبحاصره والي حلب في عكا على غير طائل ، ثم عزل درويش باشا عن إيالتي دمشق وصيدا وعفي عن عبد الله باشا ، وهلك جمهور من الجند والناس في هذه الفتن التي كان منشؤها فيما قيل دسيسة من بعض الإسرائيليين هلك أحد أنسابهم وتقربوا من درويش باشا فأثروا فيه . وذكر الشهابي في هذه الواقعة المعروفة بوقعة المزة لأن هذه القرية حرقت فيها ، أن عبد الله باشا استمال بعض مشايخ جبل نابلس ووقعت الفتنة بين أهالي ذلك الإقليم فانقسموا ففتين ووقع القتال بينهم ، وقالوا : إن سبب هذه الفتنة أن درويش باشا كان يريد تسلم عكا من عبد الله باشا بأمر الدولة فتشيع الأمير بشير الشهابي لوالي عكا ، وسار في عسكره من المشاة والفرسان من أهل الشوف والمناصف والمتن ، وعسكر عبد الله باشا في الدالاتية والهواره ، وجعلوا مصافهم من كوكب إلى المعظمية من إقليم البلان وخرج درويش باشا إلى المزة فأقبل الأمير بشير ، فلما علم عسكر درويش باشا بقدومه تحصنوا للحصار ، وانتشب القتال بين الطرفين وأطلقت عساكر دمشق المدافع والزنبركات أي المدافع الصغيرة ، فهجم الأمير بعسكره هجمة واحدة وهدم أسوار البلدة ، وكانت مبنية باللبن وامتلكها ، ففرت عساكر دمشق وقد قتل منهم نحو مائتين وخمسين رجلاً وأخذوا منهم خمسمائة أسير ، وغنم عسكر الأمير خياماً وذخائر وخيلاً وسلاحاً ، ورجع إلى المعظمية وبلغت أسرى عسكر دمشق من أهلها ٣٧٤ رجلاً عدا من قطعوا رؤوسهم . ومضت عدة أيام وفي نهر بردى تطفو العرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم ألف رجل ومائتي رجل بين قتيل وجريح ، وقتل من عسكر عكا نحو سبعين رجلاً . وانتشب القتال بين الأمير خليل بن الأمير بشير وبين فيزو باشا أحد أتباع والي دمشق وهو قادم من نابلس في قرية مرجانة فقبض عسكر عبد الله باشا على مائة وخمسين أسيراً وقطعوا خمسة وعشرين رأساً وانهمز فيزو باشا إلى دمشق .

وأرادت الدولة أن تضرب على يد عبد الله باشا (١٢٣٧) والي عكا فأمدت والي دمشق بواليي حلب وأذنة ليتعاونوا على ضربه وقد تحصن فيها

بألفي جندي ، فحاصره الولاية المذكورون تسعة أشهر فلم يستطيعوا الاستيلاء على عكا مع أنهم كانوا في ستة عشر ألف جندي . ولما عجزت الدولة عن أخذ هذا الثغر من عبد الله باشا وأصبح في يده معظم القطر الشامي حقيقة رتب عليه خمسة وعشرين ألف كيس وهي تساوي نحو نصف مليون ليرة ، وذلك بدل نفقات عسكرها في حصار عكا ، وكان عبد الله باشا يوقع كتاباته هكذا « أمير الحاج السيد عبد الله والي الشام وصيدا وطرابلس ومتصرف ألوية غزة ويافا ونابلس وسنجاك القدس الشريف حالاً » .

سياسة الأمير بشير في لبنان وتقاتل الولاية وارتباك الدولة :

تولى دمشق مصطفى باشا (١٢٣٧) وفي أيامه حدثت فتنة بين الأمير بشير وابن جنبلاط وعلي العماد كتبت النصره فيها للأمير ، وهرب المشايخ المذكورون إلى حوران فأمسكوا وقتلوا ، واضطر الأمير بشير الشهابي بعد ذلك إلى التغيب في دمشق وحوران ، ثم عاد بعد مدة إلى لبنان وتسلم زمام الأمر وطلب الأموال المتأخرة من اللبنانيين فثاروا عليه في اثني عشر ألف فارس وقيل في ثلاثة عشر ألف مقاتل وليس معه فيما قيل سوى ثلاثمائة ، فقتل منهم على قلة عديده وأخضعهم لسلطانه ، وعاونه الشيخ بشير جنبلاط على كبح جماحهم وكذلك والي عكا أرسل إليه عساكر الأرنؤود والحوارة والمغاربة والأكراد فنشب القتال بين الفريقين فقتل من جماعة الأمير بشير ١٥ رجلاً وأحضروا ٢٩ رأساً من رؤوس محاربيهم . ثم قلب الأمير الشهابي ظهر المجن للشيخ جنبلاط وسعى بقتله ، كما قتل أناساً من أهله وحاشيته وسمل عيونهم ليأمن شرهم بزعمه ، وذلك لأن ابن جنبلاط قويت شوكته وأثرى وكثر مشايعوه ، فما كان من أمير الجبل إلا أن سعى بإهلاكه وألقى الفتنة بين الحزب اليزبكي والجنبلاطي ليخلو له الجو وسلم معظم لبنان لأناس من مشايخ الموارنة يحكمونه ويأتونه بالجزية والحراج ليدفع هو المقرر عليه لوالي صيدا أو عكا ، ويأمن جانب الدولة فنصفوا الولاية له . وكان من سياسته أن يظاهر صاحب الظهور والقوة شأن الأمراء اللبنانيين في معظم أدوار تاريخهم .

وكثر الخلاف بين والي طرابلس ووالي دمشق ووالي صيدا ووالي عكا ، والناس يقتلون بسبب هذا الاختلاف بينهم ، وحاكم دمشق يحاصر حاكم عكا ، والدولة ترضى عن هذا وتغضب على ذلك ، وتسلب ولاية زيد لتعطيها لعمرو ، تلاحظ في ذلك التوازن بين القوات ، وتتحاشى رجوع الذين يعصون أمرها من الولاة . وأعقل الولاة وأدهام من كانت تدوم ولايته ستين وكانت الوظائف الحسابية في هذا الدور بيد الإسرائيليين والكتانية بيد المسيحيين ، وكان الولاة يصادرون بعض الإسرائيليين ويحبسونهم وربما يقتلونهم لاستحصال المال فيحتال هؤلاء لتمشية أمورهم ، وحدث أن معظم الحامية والموظفين في دمشق كانوا مرة من أهل بغداد والموصل وكركوك فغضب الوالي عليهم فأمر بترحيلهم فهلك بعضهم في الطرق .

كانت الشام تتخبط بأيدي الولاة وأرباب الإقطاعات ، والدولة غير مستريحة في داخليتها وخارجيتها ، فاستقلت اليونان (١٨٣٠ م) بعد حرب هائلة فقدت فيها الدولة أسطولها وذهب قسم من الأسطول المصري ، وكان الأسطول اليوناني ضرب بيروت ١٢٤١ (١٨٢٥) ، وتوسعت اختصاصات إمارتي الأطلاق والبغدان (رومانيا) حتى بلغتا الاستقلال أو كادتا ، وفتحت روسيا لها طريق البحر الأسود ، وما زالت حال الدولة على ذلك حتى نشأت ثورة الإنكشارية في الإستانة (١٢٤٢) وكانت الدولة أخذت تنظم جنداً جديداً على الأصول الحديثة ، فاستراحت بعض الشيء بعد إهلاك الإنكشارية ، وكذلك حال الأمة المسكينة التي قاست الأهوال من اعتداءاتهم ، وكان الفضل الأكبر في ذلك لمصلح الدولة السلطان محمود الثاني الذي أظهر من الثبات وقوة الإرادة في هذا الشأن ما لم يعرف به أجداده الذين قتلوا بأيدي الإنكشارية ، واستناموا لما يأمر به مخافة أن تزهق أرواحهم . وقضى أيضاً على أهل الطريقة البكداشية في الإستانة وما إليها مما ذكره له التاريخ بالإعجاب ، وعاب بعضهم عليه شدته وأعجب بأعماله معاصروه من الأعاظم . فقد قال سفير روسيا في الإستانة بعد سنتين من قرض جيش الإنكشارية : إن السلطان محموداً بقضائه على هذا الجند المختل الذي تصعب إدارته قد ظفر بنور من التبوغ

بمثله تنجو الممالك من المهالك . وقال دي لاجونكيير : إذا كان السلطان محمود أقل سعادة من بطرس الأكبر في إرادة التجدد فإن منشأ ذلك بأن بطرس الأكبر قد وجد أمة لا تزال على الفطرة أي جديدة ، وكان من الأسهل أن تنظم وتصاغ ، وعلى العكس في محمود فإنه صادفته عقبات من الأوضاع القديمة ، أوضاع نشأت وكبرت مع المملكة وكان منها فيما مضى قوتها وقدرتها ، أوضاع وضعها السيف وأيدها الظفر وقدسها الدين .

تولى دمشق صالح باشا ثلاث سنين وثلاث مرات كل مرة سنة وأظهر شدة زائدة ثم تولاهوا ولي الدين باشا (١٢٤٢) وكان أحق مغفلاً مهملًا ثم عزل ونصب عبد الرؤوف باشا (١٢٤٣) وكان عادلاً لطيفاً وطمعت الشام به لعدله وفي ١٢٤٣ أحدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الأمير أهل تلك القرى اللبنانيين أن يرجعوا بمالهم إلى إقليمهم فرجعوا فخرّب البقاع فارتضى وزير دمشق حينئذ بأخذ عشرين ألف قرش من تلك القرى وكتب إلى الأمير أنه رتب العشرين ألف قرش عوضاً عن المال الميري والقسم أي الثلث .

محاولة الدولة قتل النصارى وفتنة نابلس :

وأرادت الدولة أن تنتقم من نصارى الشام بل من النصارى في أنحاء المملكة لثورة اليونان عليها ومطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة (١٢٤٤) وجزائر البحر المتوسط فأمرت والي دمشق أن يقتل المفسدين من كبراء طائفة الروم فعقد مجلساً من أعيان دمشق وتلا أمر الإستانة على مسامعهم ، فكان جوابهم أنه لا يوجد من النصارى عندنا المفسدون وجميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا تجوز أذيتهم . لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأن الرسول عليه السلام أوصى بالذميين وقال : من آذى ذمياً كنت خصيمه يوم القيامة . ونحن لا نقدر أن نتحمل هذه التبعة ، وكتبوا محضراً للدولة بحسن سلوك نصارى الإيالة وطاعتهم ودفعتهم المرتبات الأميرية وأنهم يستحقون حسن الرعاية والرحمة من السلطنة السنية. ولعمري أي علاقة للثائرين في جزائر البحر والمورة مع الآمنين من الرعايا في الشام، فقد أبان عقلاء دمشق إذ ذاك عن رأي سديد، ولكن لا

ندري إذا كان رأيهم راق لدى ولاية الأمر في الإستانة . وأي أمر جائر أكثر من هذا كأن النزاع إلى الاستقلال من اليونان كانوا يصلرون عن آراء مسيحيي الشام أو آسيا الصغرى ، أو أن هؤلاء يخونهم على نزع أيديهم من أيدي الدولة ، ولو استطاع المسلمون أنفسهم في ذلك الوقت أن يستقلوا عن الدولة لينجوا من خلل إدارتها لما تأخروا عن ذلك ساعة .

وفي سنة ١٢٤٦ (١٨٢٩) طلب والي عكا من الأمير بشير الشهابي أن يفتح قلعة صانور وكان أهل نابلس عصوا عليه وتحصنوا في قلعة صنفد وأعجزوه فلم يقدر عليهم لأن معظم الأهالي انضموا إلى الثائرين ، وكانت صانور منذ القرن الماضي تشغل بال رجال الدولة في عكا وصيدا والقدس ، فنشبت بينه وبينهم غدة وقائع وبعد حصار ثلاثة أشهر وتخريب عدة قرى ، أمر الوزير بهدم القلعة ودكها إلى الأساس ودك مغائرها وهدم آبارها ، وسبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها والي دمشق على الثائرين ، ولما عجز عن جمعها أحيلت إلى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع ألف كيس وأمر بجمعها من أهل نابلس ، وكان من زعماء النابلسيين إذ ذاك أسعد بك طوقان والشيخ القاسم الأحمد ، وفشل النابلسيون ولم يبق في القلعة عند تسليمها سوى ٣٦٧ وكان فيها أكثر من ألف ومائتي نسمة قتل بعضهم وضرب الآخرون وذكر مشاقفة أن سبب عصيان نابلس سلخ عبد الله باشا لها بأمر الدولة عن إيالة دمشق ، لأن والي دمشق ادعى أن المطلوب منها ستمائة كيس لا تتحصل إلا بسوق حملة تستغرق المبلغ المتحصل منهم ، فتعهد عبد الله باشا بأن تضم إليه ويدفع ألفي كيس عنها ، وأن عسكر أمير الجبل الذي جاء نجدة لعبد الله باشا كان نحو خمسة آلاف رجل ، وأن النابلسيين نزلوا على حكم الأمير بشير الشهابي فعفا عنهم جميعاً وهدم القلعة وحصل الأموال الأميرية بعد مناوشات طفيفة .

مقتل سليم باشا والي دمشق :

انقضى النصف الأول من هذا القرن أو كاد والقطر نهبُ أيدي الطامعين من الولاة والمسلمين ، يسيئون في الرعية الاستعمال ، ويعبثون بما خولتهم

دار الملك من السلطة فيمثلون أعظم مظهر من مظاهر الحكم الاستبدادي الفردي الجاهل . ولم يكن يخطر في بال الدولة أن رعاياها يقوون على الانتقام من أعظم عمالها ، وهم الموصوفون في معظم أدوارهم بالطاعة للملوك والزعماء والرضى بما تقضي به الأقدار ، ولو صحت عزيمة المظلومين مرة أو مرات أن يهلكوا من يحاول إهلاكهم وخراب أرضهم وديارهم ، لما ساءت الحال ، وبلغت الشام ما بلغته من الاختلال ، نريد أن نقول إن الرعايا طالت أيديهم فقتلوا والياً عظيماً من ولاة السلطنة . ونعني به سليم باشا الصدر السابق مبيد جيش الإنكشارية .

نصبت الدولة هذا الشيخ والياً على حلب ثم على دمشق سنة ١٢٤٧ ، وكان ظاهره شجاعاً مهيباً وباطنه جباناً وقد هم أن يغتال بعض أعيان المدينة فبدأ بمدينة حماة ، وقتل بعضهم فأيقن القوم أن هذا القاتل لا يصعب عليه أن يهلك أناساً في دمشق ليصفو للدولة الحال بزعمه ، فلما جاء عاصمة الشام أراد أن يضع على كل سكرة أي عقار في دمشق « مصريتين » كما هو الحال في الإستانة فنارت العامة بإشارة الأعيان وكانوا عند المصائب الشديدة تتحد على الأغلب كلمتهم ، اتقاء شرٍ عظيم يقعون فيه ، وكثيراً ما كانوا يدخلون الأوهام على الولاة؛ لثلاثيشتطوا في مطالبهم وتكون المغامم مناصفة بين الأعيان المتغلبة والحاكم المنصوب ، فضرب الوالي العامة من أبراج القلعة بالقتال، حتى إذا ضاق عليه الخناق جاء في بعض رجاله إلى دار قرب باب البريد فتأثره العامة وهدموا على رأسه سقف المخدع وأحرقوه .

وذكر بعضهم أن هذا الوالي تحصن برجاله في جامع المعلق أولاً والسكمان بالقلعة ، فبدأ الحريق من باب الهواء وأخذ يمتد ، فلما رأى ذلك داخله الوهم لقلته رجاله وكثرة الدماشقة فتحصن بالقلعة ، وأخذ يحرق دار الحكومة ليشغل الناس ويفوز بنفسه ، وكان الحريق هائلاً خرب كثيراً ، ثم اعتمدوا على حصار القلعة وأخذ الوالي يطلق المدافع على البلد ، وأقام الناس متاريس حول القلعة ثم في الحارات وحاصروا العسكر المرابط في جامع المعلق ، وقتل في هذه المناوشات كثير من الأهالي وجماعة الوالي، وطال المطال وتألب الناس على الوالي حتى إن والي عكا أخذ يقوي أهل دمشق عليه ، ولما ضاق به الحصار

خرج إلى بيت القاضي بجانب دار المشورة ، فجاء سبعة رجال وكسروا الباب والنافذة عليه وألقوا النار بعد أن أخرجوا من عنده ابن أخيه والكيخية ، ثم قطعوا أعناقهما افتراءً وعدواناً كما قال مدون هذه الواقعة إذ ليس لهما ذنب يوجب القتل حتى إن الباشا نفسه افتروا عليه لأنه لم يظهر منه أذى إليهم غير تمسكه بإتمام الأوامر التي بيده من الإستانة ، وربما كان يضمر للأعيان شراً لا نعلمه وأما في الظاهر فليس لهم عذر سوى أنهم افتروا عليه وعلى جماعته على نوع مستغرب مناف للشرائع كلها ثم أخذوه عرياناً إلى القلعة ، مع الاثنين خاصة بعد أن داروا برووسهم ودفنوهم داخل القلعة وتولى الشريجي الداراني ورشيد نسيب الشوملي أمر البلد ، وبات الناس يتوجسون خيفة من رجال الإستانة ، ولو كان ما أتوه في حالة راحة الدولة لأرسلت عليهم جنودها يفعلون بالأبرياء والحناة الأفاعيل المنكرة ، ولكن الدولة كآتت تتوجس خيفة من محمد علي والي مصر وما بلغه من القوة بجنده وبحريته واستعداده ، ولها مشاكل في أوروبا تخاف أن تتجزأ قوتها إذا أرادت تأديب الدمشقيين . ولذلك لم تحب أن تناقش الأهالي الحساب ولم تسوؤها فجميعتها بشيخ هيم قاتل ، والقاتل مبشر بالقتل ، ومن عادة الدول على الأغلب أن تفتك بعد حين فيمن استعملته آلة للفتك ، ولذلك نرى مؤرخي الترك قد نطقوا بلسان الحكومة ولم يحركوا ساكناً كأنهم رأوا لعمل الدمشقيين مبرراً من حسن نيتهم .

وقال مشافة : لما قتل الدمشقيون سليم باشا اجتمع أعيانهم ورتبوا حكومة مؤقتة وأخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم ، فورد الخبر بخروج عساكر مصر لتأتي الشام فسكن روعهم بعض الشيء ، ولما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر عما عمله أهالي دمشق وأرسلت والياً عليهم اسمه علي باشا . وأخذت الدولة تؤول عمل أهل دمشق وأصبحت كالمحامية عنهم تختلق لهم الأعدار عما بدر منهم لأن السياسة اضطرتها إلى ذلك . فقد جاء في تاريخ لطفلي نقلاً عن جريدة تقويم الوقائع الرسمية أن سليم باشا لم يعمل بحسب الوقت لما جاء دمشق ، وقد عين الحاج علي باشا والي قره مان لاستئصال الفتنة التي كان شوبها يترامى إلى المسامع ، بيد أن سليم باشا قتل قبل وصول خلفه ، وتبين أن للغرباء يداً في هذه الفتنة ، وأن تأديب المشاغبين بسوق قوة على دمشق يضر بأهاليها !

وقال المؤرخ إن سبب عصيان الدمشقيين أن سليم باشا مر بحماة عند شخوصه إلى دمشق وقتل بضعة رجال من عرب عترة وقيد البرازي في القيود وأتى به معه إلى دمشق فدهش أهلها، وكان اقتراحه وضع ضريبة فأوقد جذوة الفتنة . وذكر أن الأهالي هجموا على السراي أولاً وأغلقوا دكاكينهم وانتشرت الفوضى . وقد كتب السلطان على محضر قدمه بهذا الشأن عاطف بك ابن خليل شقيق سليم باشا قال فيه : قد يتبادر إلى الذهن أن لبعض الأطراف يداً في حادثة دمشق، ومن الجائز أن يكون ذلك بصنع والي صيدا لأن هؤلاء ليسوا على ثقة تامة من دولتنا العلية وهم ينفرون منها على الدوام ، وعلى هذا فإن أمور إيالة الشام إذا دخلت في النظام على ما يجب يحدث ذلك ضرراً لهم ، وقد عرفوا هذا حق المعرفة ، فيجوز أن يكونوا سبب هذه الفتنة لإيصال الحالة إلى تلك الصورة .

وقد ظهر من الأوراق الرسمية الأخرى التي نشرها لظفي في تاريخه أن السلطان ذهب مذهبين في هذه الفتنة فكان يقول في بعض أوامره قبل مقتل سليم باشا القائم بتطبيق قانون رسوم الاحتساب سداً لنفقة الجند: إن أهالي دمشق وحواليها وإن كانت أرضهم مباركة ، لا يستنكف أكثرهم عن عار ولا يعرفون الحياء ، وظاهر أنهم أشرار وسيرون بحول الله وقوته من أسباب التأديب ما يقفون به عند حدهم . وقال في كتاب آخر : إن وقوع هذه الحادثة في دمشق ليست منبعثة من جسارة الأهالي فقط ، بل نشأت بلا ريب من إغواء الأطراف وتحريكها . وذكر المؤرخ أن السبب في فتنة سليم باشا تحريك محمد علي والي مصر ليجعل مقدمة لدخوله الشام، وفي رواية أخرى أن والي عكا عبد الله باشا كان هو السبب في ذلك .

وقصارى القول أن سليم باشا مبيد جيش الإنكشارية الذي عجنت طينته بالدماء فقتله أعيان دمشق مخافة أن يبطش بهم كما بطش في حماة ، خافوه ووجدوا فرصة للنيل منه لما جاء يطبق قانون الاحتساب، فآثروا الرأي العام عليه ففعلوا وربما كانوا يريدون الاكتفاء بتهديده ليحملوه على الهرب ، ولكن الأمر خرج من أيديهم إلى أيدي العامة فقتلوه غير حاسبين للعاقبة

حساباً ، فكان قتله على غير رضى العقلاء من الأعيان ، وكان هلاكه مخيفاً لمن يأتي بعده من الولاة .

الحكم على الموقف السياسي في نصف قرن :

ويجوز لنا بعد نقل حوادث نصف قرن أن نلخصها ونستنتج منها على الصورة التالية (أ) كان الظلم يقع على المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين على السواء ، ولما كان المسلمون هم السواد الأعظم من السكان كان تأثير الظلم في مجموعهم أقل من تأثيره في مجموع الإسرائيليين مثلاً . (٢) أوغل أرباب الإقطاع في الظلم فقلّم الجزار من أظافرهم ليستأثر وحده بالظلم والقتل ، فحالفه التوفيق بطول المدة إلى الضرب على أيديهم بعض الشيء ، فلما هلك عادت الحالة الأولى إلى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين . (٣) مرّت حملة نابليون بونابرت على جنوبي الشام كالسحابة ، وكان من الجزائر أن ضمّ قوى الأقاليم برأي انكلترا التي تولت حربه بجرأ بأسطولها ، وساعد أن حكومة الديركتوار في باريز استدعت نابوليون فعاد أدراجه مسرعاً لا يلوي سلى شيء كما رجع ريشاردس قلب الأسد ملك انكلترا في الحروب الصليبية بعد أن عقد مع صلاح الدين يوسف ميثاقاً أنقذ به الصليبيين ومحاربيهم من القتل والقتال . (٤) الظلم الواقع على النصيرية وإرادتهم على تغيير معتقداتهم واتخاذ مقتل رجل غريب يمتّ بنسبه إلى دولة أجنبية قوية ذريعة إلى تخريب جبالهم وقتل زعمائهم بدون تحقيق ، على حين كان زعماء الأرجاء الأخرى من القطر يفعلون فعلهم وزيادة ، ولا من يردعهم أو يقوى على نزع سلطانهم وتخفيف وطأتهم ، مثل محمد باشا أبو مرق الذي عجت الأرض إلى السماء في فلسطين من مظلّمه حتى أخذ الناس يبيعون أولادهم كما تباع الجوارى والإماء فراراً من ظلّمه وقياماً بما يفرضه عليهم من المغارم . (٥) قيام مصطفى بربر متسلم طرابلس واستعانتها بكافل عكا على كافل دمشق وظلمه الرعية ومحاولة الدولة غير مرة أن تستريح من تسلطه فلم تستطع ذلك إلى أن هلك حتف أنفه . (٦) انقضاء دولة بني العظم بهلاك عبدالله باشا آخر من ولي

منهم سنة ١٢٢٣ ولم يبق بعده أحد من ذريتهم لتولي الأحكام . (٧) اشتغال الدولة بالغوائل التي أصابتها ولا سيما استقلال اليونان ومحاولتها لما نال اليونان ما أرادوا أن تنتقم ممن يدينون بدينهم في الشام ، فرد حزم الحازمين لإرادة المختلين من ولاية الأمر الظالمين بحجة دينية أيضاً . (٨) عدم توفيق سليم الثالث في تطبيق خطط الإصلاح وكذلك مصطفى الرابع حتى تولى السلطنة محمود الثاني فبدأ في إنفاذ إصلاحه بمقياس واسع ، كان أوله مقتل جيش الإنكشارية في العاصمة والولايات ، فعدّ مصلح عصره الذي أدخل دولته في المدنية الغربية طوعاً وكرهاً ، وجعل لها مقاماً بين الدول لم يكن لها من قبل على اتساع أقاليمها ، وخروج أكثر القاصية من حكمها فتيين لها أن عظمة الممالك بحسن إدارتها وكثرة مدنياتها لا بعظم رقعتها وخصب بقعتها ، وأن دولة غناماها في عنفوانها وبذخها كما هي في ضعفها وشيخوختها، تُؤلّي رقاب الأمة ولو بالصورة الظاهرة ، وجبوة خراجها ولو بالتغاضي عن بعضه للجباة لا للرعية لا تصلح ويصلح أهلها .

دور الحكومة المصرية

« من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٦ »

حالة الدولة العثمانية عند إذلال جيش محمد علي الكبير لها :

كانت الدولة العثمانية إلى أواخر منتصف القرن الثالث عشر جسماً كبيراً تعرفه نوبات عصبية من حين إلى آخر فيردها بقوته ، أو يطول زمنها عليه حتى تنتهي بطبيعتها . وصاحب المرض إذا طالت عليه معاودة النوبات قد يألفها ويظن أنه بريء من كل خطر ، على حين تكثر آلامه ، وتقرب منه حمامه ، والأدوار العصبية أشد ظهوراً في ألم الجسم ، وإذا تكررت على المصاب يصير إلى العجز فلا يستطيع أن يدفع ضراً ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية إذا نظر إلى ظواهرها يظن معها قوة ، وفي الحقيقة هي إلى ضعف لكثرة ما استحکم فيها من أمراض وساورها من أوجاع ، غفلت عن تعهد قوتها الحقيقية ، فكانت تعلقو وتسفل وتطفو وترسب ، بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلاطين ، تقوم بالفرد ولا شأن للجماعة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأصول إدارة ، وأهم ما امتاز به جندها الطاعة للرؤساء إلا أنها أصبحت في حروبها تستهلك أكثر مما تستحصل ، لأن جيش الإنكشارية وهم مستندوها في قوتها عراه الانحلال فعدت الواقعة التي كان يكتفى فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق إليها ثلاثين ألفاً ثم يشغب ولا يعمل عملاً . ولا عبرة بالعدد إذا كان المجموع أقرب إلى التفسخ ، ومعنويات المقاتلين إلى الضعف .

إن بعض الغوائل التي أصيبت بها المملكة والشام من جملتها في هذا القرن والذي قبله كانت بصنع جيش الإنكشارية وتمرده على رؤسائه ، وبضعف

الزعماء واختلافاتهم المتصلة مع الولاية في الخارج ، والوزراء والملوك في دار الملك ، فكان وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني ، وصدور الأمر بقتلهم في الولايات مما نفس خناق الأمة . وإن كانت العقوبة التي نزلت بهم في الشام أخف ، لأن بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من الأهلين ، فلما نزل ما نزل بجماعتهم غيروا ألقابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم ، وبعد أن تخلصت الدولة والأمة منهم صعب على العثمانية في بضع سنين أن تصلح ما فسد في عشرات بل في مئات ، وهل من سبيل إلى ارتجال جيش منظم إلا إذا ساد السلام أعواماً طويلاً ، وانتشر العلم وتعلم القواد على الأقل ، وكيف يتأتى ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام لا تفتأ متنقلة من أزمة إلى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان .

ولم يخطر ببال الدولة يوم قام محمد علي في مصر أن يتدرج بعد قتل المماليك في مراتب القوة والسيادة ، حتى يقبض على زمام الأمر (١٨٠٤م) وينظم قوته البرية والبحرية ، وينشط الزراعة والتجارة وتسمو به الهمة ، أن لا يكتفي بما يملك بل يتزع إلى التوسع في فتوحه ، لإيقانه أن الدولة وإن كانت في صدد إدخال الإصلاح على أوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل ، لا تستطيع أن تلحق غبار مصر التي جرت على الأصول في تنظيم جيشها وإدارتها وسلطان العثمانيين على اتساع ولاياته وكثرة خيراتها ، يتعذر عليه أن يقوم في مملكته بما قام به محمد علي في ولايته ، لأن الإصلاح في الجسم الثقيل المختلف الأمراض ، أصعب منه في جسم له مرض واحد ، إذا عولج كان أقرب إلى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير إلى الارتقاء بخطى واسعة سريعة ، والدولة العثمانية تنظر إلى هذه المظاهر باهتة ، وقلما يبدو لرجالها أن يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ، إن لم يجاروهم في هذا المضمار . فأصبحت دولة بني عثمان لا تكفي عادية دولة من دول الغرب إلا إذا استعانت بأخرى عليها ، واستفادت من تخالفهم وتباين أغراضهم ، بعد أن كانت أيام شبابها تنال من دولها مجتمعات ومنفردات . ولكن الجيش الذي يصل إلى أسوار فيينا على عجلات البقر، ويقاوم المحاربين والمسلمين بالسيف والشباب

غدا يحتاج إلى أسباب في النقل أسرع ، وسلاح في الفتك أقطع ، غدا يحتاج إلى علم وعدد ، أكثر من احتياجه إلى أسماء ضخمة وعدد ، وأصبحت السياسة والإدارة والحرب علوماً عملية ، والدربة والتنظيم رأس كل أمر ، والجيوش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المتشبع بها أفرادها ، فكيف تنجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة ، وكيف لا تتجلى الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ، ودول تحركت ونمت وربت ، وبين أمة فتحت أقطاراً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها ويصارعونها ، وهي عنهم غريبة وهم عنها غرباء لم تمثلهم ولم تمثل فيهم كما فعل محمد علي فتمثل في مصر والمصريين .

لماذا تراجعت الدولة العثمانية :

نسب ميشو انحطاط الدولة العثمانية وإخفاقها في حكم الولايات التي افتتحتها إلى عدة أسباب أهمها الجهل والجمود والغرور قال : « ومن حسن طالع النصرانية أنه لما فترت المهمة في الحروب الصليبية التي يراد بها حماية أوروبا ، أخذ الأتراك يضيعون شيئاً من قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية ، فكان العثمانيون بادئ بدء الأمة الوحيدة التي كان لها جيش دائم منظم تحت السلاح ، وبه أحرزت الدولة التفوق على الأمم التي تريد إخضاعها لسلطوتها . وغدت أوروبا في القرن السادس عشر ، ولعظم ممالكها جيوش يقاومون بها أعداءهم ، وسرعان ما انتشر النظام والتربية العسكرية بين شعوب النصرانية . وأخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كان الأتراك يزهلون في التجارب التي وصلت إليها الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم ، ويزاد على ذلك ما غبث بكيان الأتراك من الخرافات وقلة التسامح ، فحال ذلك دون فتوحهم . كانوا إذا استولوا على ولاية يحاولون أن يحكموها بأنظمتهم ، ويغرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم ، فاقتضى لهم من ثم أن يبدلوا وجه كل شيء ويقضوا على حياة كل شيء في

الأمصار التي يتزلونها ، وأن يقضوا على أهلها أو يضعوهم بحيث لا يستطيعون أن يناجزوهم الشر ، ويرفعوا رؤوسهم فيهم ، ولذلك يلاحظ أن الأتراك استولوا مراراً على المجر ، فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ، ولم يستطيعوا أن يؤسسوا فيها مستعمرة أو موطناً ثابتاً ، وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف لسكنى أقطار أبعد والاحتفاظ بها ، وبهذا نجت ألمانيا وإيطاليا من غارات الأتراك ، وربما استطاع العثمانيون أن يفتحوا العالم لو قدر لهم أن يُخلِّقوا الأقاليم التي يتزلونها بأخلاقهم ويتزلوا فيها كثيراً من أبنائهم . قال : « من الأسباب الرئيسة التي أضعفت القوة الجندية في الأتراك ، الحروب التي كانوا أعلنوها على أوروبا وفارس . فقد صددهم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى ، وجهادهم في النصارى أضر بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت طريقة الأتراك في حربهم الفرس والشعوب النصرانية متباينة ، فبعد أن قاتلوا زمناً مقاتلة ما وراء النهر والقفقاس ، أصبحوا عاجزين عن قتال أوروبا ، فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من أمم الغرب . وظلوا بعدئذ بين عدوين تقريباً يهمهما زوالهم ويتحمسان بالحماسة الدينية . حمل الأتراك معهم مثل جميع البرابرة الذين أتوا من شمال آسيا نظام حكومة الإقطاع ، وكان أول عمل يأتيه أولئك الشعوب الرحالة تقسيم الأراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعيها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الإقطاع . والفرق بين الأتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو أن استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك مجالاً قط للإقطاع أن تكون وراثية ليكون بجانبهم طبقة من الأشراف كما هو الحال في الحكومات الأوروبية المطلقة ، وهكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق إلى جانبها ديمقراطية عسكرية .

« شبهوا الأتراك بالرومان . وكانت بداية هذين الشعبين واحدة ، وما أشبه أشياع روملوس بأتباع عثمان . ويتفاوت الشعبان في نظر التاريخ ، ذلك لأن العثمانيين ظلوا كما كانوا في الأصل . أما الرومان أيام فتوحهم فلم يزهلوا في معارف من فتحوا ديارهم . ولم يستنكفوا من الأخذ بعاداتهم ومعبوداتهم .

ولم يقتبس الأتراك من الأمم المغلوبة شيئاً ، وتشددوا في أن يظلوا على بربريتهم . ولم تتأصل الأرستقراطية الوراثة في جانب الاستبداد المطلق ، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي قضى بها على الأمة العثمانية أن تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير المجتمعات يدركون أن بالأرستقراطية تنهذب الأخلاق وتنشرف عادات الشعوب ، وبالطبقة المتوسطة تنتشر المعارف وتبدأ المدينة .

« إن فقدان طبقة الأشراف أو العالية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط ، بل إنه حلّ لنا معنى جمود الفكر الإنساني في هذا الضرب من الحكومات ، وكيف لم يتقدم قيد غلوة . وما كان في المساواة المطلقة ، ومن حكومة تغار من كل ما لا تكون هي منشأه ومصدره شيء من المنافسة والقذوة وحب المجد ، وبدون هذه الأسباب يقضى على كل مجتمع أن يبقى في الجهل الأعمى الذي كان عليه لأول أمره ، وأن يفقد معظم مزاياه ومصالحه . وبالنظر لزهده الأتراك في العلوم والآداب ظلت أعمال الصناعة والزراعة والملاحة في أيدي مواليتهم وكانوا في الحقيقة أعداءهم ، ذلك لأنهم كانوا يشمرون من كل جديد ، ومن كل ما لم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا أن يلجأوا إلى الأجانب في كل ما اخترع ونظم في أوروبا ، وهكذا لم يكن لهم نقض ولا إبرام في مصادر سعادتهم وقوتهم ، وفي متانة جيوشهم وأساطيلهم . ولا يخفى ما أضاعه الأتراك بوناتهم عن السير في معارج الرقي العسكري الذي أصاب منه الأوروبيون قسماً موفوراً ، ولما كان الشأن في حروبهم لجيوش متحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم البشرية وما أبرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات ، كان العقل المساعد هو المحد من الشجاعة .

« شبه بعضهم جيش الإنكشارية العثمانية بطوائف البرتوريان من الرومان ، في حين كان هؤلاء متخيين ، وما جرى على خاطر الأتراك قط أن يختاروا أميرهم سواء في ذلك شعوبهم وجيوشهم . وكانت مصلحة الإنكشارية تقضي أن يلقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من الجديد . أما الأتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة أكثر من

غيرهم ، كما يحترمون الأوهام وحب العملات التي يتزولونها . ولما استولوا على مدينة الإستانة كانوا يوجهون أنظارهم على الدوام إلى المواطن التي أنشأتهم وتناسلوا فيها ، فكانوا أشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في أوربا : من ورائهم قبور أجدادهم ، ومهاد عبادتهم وكل ما يقدسونه ويحترمون ، وأمامهم شعوب يكرهونها ، وأديان يريدون القضاء عليها ، وأقطار يترأى لهم أن الباري تعالى يلعبها . وأهم ما أضر الأتراك وقادهم إلى انحطاطهم ، ذكرى مجد سالف ، وإعجاب وطني لا تناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم ، فكانوا يستهينون ، ولهم القوة ، بالأخطار التي تهددهم ، فإذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرابين وإذا غلبوا حملوا على رؤسائهم .

هذا رأي المؤرخ الفرنسي في العثمانيين وعلّة انحطاطهم وقال غيره وأغرق : إن شأن الأتراك العثمانيين في الولايات التي يفتحونها إذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلاً مؤقتاً ضربوا خيامهم فيه ، إذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم في الأرض التي نزلوها سوى آثار أطنابهم ، وعمد خيامهم فقط .

حملة محمد علي على الشام وهزيمة الأتراك :

أظهر والي مصر محمد علي وهو بعض عمال الدولة العثمانية مثلاً مجسماً من التجدد في الممالك ، وبدت أمارات قوته بعد أن قرض المماليك من مصر ، فلم يسع الباب العالي إلا الاعتراف بسلطته ومحاستته ، شأنه مع كل عامل أحرز قوة ، على شرط أن يؤدي الجزية ، ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم . وكان محمد علي أسعد طالماً من سلطانه ، لأنه لم يصطدم يوم قام بإصلاحه بما اصطدم به السلطان محمود في تطبيق الإصلاحات ، رأى من المصريين قبولاً لدعوته ، واستعداداً للمدينة ، وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التي استخدموها للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون عصبية . قام بما أراد في مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد ،

بل فتحت مصر بفضلها صدرها لذلك . بيد أن محمد علي لم يقف عند الحد الذي بلغه من الاستئثار بوادي النيل ، وطمح إلى التوسع في الملك ، شأن عظماء الفاتحين الطامعين في بسطة السلطان ، ولكن أي البلاد يفتح ؟ هل يتوسع في إفريقية ؟ في صحراء ليبيا وصحراء النوبة وهي أصقاع لا توازي العناء . وربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل في شمالي إفريقية أو في أواسطها ، أم يقصد الشام وهي مفتاح كل فتح ، وفيها من العمران ما يوازي العناء في استصفائها ، وبينها وبين سكان مصر من وجه الشبه ما لا ينكر محله ، ثم لا يصعب عليه إذا خفقت عليها أعلامه ، أن يتقدم إلى الأمام ، ويملك من أرض العرب والترک ما طاب له ، ولا يعلم ما تحدثه الأيام .

بحث محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد أن خلق له سبباً معقولاً لفتح الشام ، وذلك أن بعض فلاحي الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من إعنات عماله بالجندي والضرائب ، فهاجروا إلى جهات غزة ملتجئين إلى والي عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي إرجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم إلى الشام ، فامتنع الوالي من ذلك بدعوى أن القطرين تابعان لسلطان واحد ، فاستشاط محمد علي غضباً خصوصاً وهو الذي استرضى خاطر الدولة على والي عكا وكانت غضبت عليه ، ودفع عنه ستين ألف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه ، فاتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فأمر سنة ١٢٤٧هـ بإعداد جيش للسفر إليها عن طريق العريش وطريق البحر في آن واحد ، وذلك لمحاصرة عكا من جهتين ، وعين ولده إبراهيم باشا قائداً عاماً للجيش ، وسليمان بك الفرنساوي قائم مقام له ، وجند ستة ألياء من المشاة وأربعة من الفرسان ، ومعهم أربعون مدفعاً وكثير من مدافع الحصار الضخمة ، وما يلزم ذلك من الأعتاد والمؤن . فوصل إبراهيم باشا مع الأسطول إلى يافا وفتحت له كما فتحت القدس و نابلس أبوابها ، وكانت عكا أشهر مدن الشام بمحصانتها وفيها خمسة آلاف مقاتل ، فدام حصارها سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة بالمدافع الكبيرة ، ومن البر ثلاثون ألف جندي ، وبريطانيا العظمى متغاضبة عنه طوعاً أو كرهاً ، إذ كان لمحمد علي من فرنسا نصير وظهير ، وليست بريطانيا حرة مطلقه ، في

البحر المتوسط لتضرب أسطول محمد علي منذ أفلح من الموانئ المصرية إلى السواحل الشامية. قال المؤرخون: ولما كانت الجيوش المصرية تحاصر عبد الله باشا في عكا جاءه من نابلس ستمائة رجل واخترقوا صفوف العسكر المصري ودخلوا عكا لمساعدة وزيرها شاهرين سلاحهم ضارين من عارضهم .

وبعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين ألف مقاتل بقيادة عثمان باشا والي حلب ، فترك إبراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا ، والتقى في ضواحي حمص مع القسم الآخر بالجيش العثماني الذي كان كأخلاق الزمر لا نظام له ولا دربة ، وأبلى المصريون بلاء حسناً حتى أوصلوا العثمانيين إلى العاصي وغرق كثير منهم فيه ، واختفى عثمان باشا في حماة ، ثم احتل إبراهيم باشا بعلبك وعاد إلى عكا وشدد الحصار عليها ففتحتها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين أتوه بأنفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الأتراك في أرض حمص ، وأتاه الأمير بشير الشهابي إلى المعسكر يريد الدخول في طاعته . فتحت عكا بضرب المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الأبيض فاستسلمت الحامية ، وأخذ عبد الله باشا واليها أسيراً وحُمل إلى مصر مكرماً ، ثم فتح الأسطول المصري سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور . وبعد أن فتح إبراهيم باشا عكا قصد دمشق ومعه الأمير بشير وأمراء حاصبيا وراشيا فجمع علي باشا والي المدينة عسكراً من الأكراد وأحداث البلد قُدّر بعشرة آلاف ، وكشف إبراهيم باشا بمنظاره خيول الأكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادي لمقاتلة الأكراد ، ونبه على العسكر النظامي أن يقاتلوا الدمشقيين ولا يؤذوهم ، بل يطلقون البنادق في الفضاء ، فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا وقاتل الأكراد جهدهم حتى غلبوا ، وفي إثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم .

تقدير مؤرخين وشاعر لغلبة محمد علي :

يؤخذ مما قاله البيطار أن إبراهيم باشا قد ساعده الأمير بشير الشهابي وروّسها جبل نابلس ، لأن عبد الله باشا والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها

وحصل منه ضرر لأهل نابلس وكان ذلك من أسباب الغلاء الذي وقع في الديار الشامية ، وأن إبراهيم باشا بينا كان جيشه على عكا يقاسي الأهوال ويتجدد منه الرجال إثر الرجال جاء عباس باشا حفيد محمد علي باشا إلى البقاع وحصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم ، وافترق أهل جبل لبنان وتلك النواحي فرقتين ، فتابع النصارى منهم الأمير بشيراً المتفق مع إبراهيم باشا ، وخالفهم الدروز وأظهروا الطاعة للسلطان ، ثم قصد إبراهيم باشا إلى طرابلس وحصص ودخلهما بلا قتال .

قال : وتوجه إبراهيم باشا إلى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والذخائر وعاونه أهل الجبل من المسيحيين والدروز ، وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع إليهم إبراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ، ثم دخل عسكر إبراهيم باشا عكا من الأبراج على السلام . وذكر بعضهم أن من جملة من قتل من عسكر إبراهيم باشا اثنا عشر ألفاً ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف . قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ أرسل إبراهيم باشا إلى دمشق يطلب منهم أن يمكنوه من الدخول إليها فلم يرسلوا إليه جواباً ثم طلب ثانياً فأرسلوا إليه إنا لا نمكنك من الدخول أصلاً ، وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه إلى قرب قرية داريا فخرج إلى لقاءهم خلق كثير من أهل دمشق فقاتلوهم قتالاً يسيراً ، ولم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر ، وقتل من كل فريق رجل أو رجلان ، ثم دخل إبراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليها علي باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنيب ومحمد شوربجي الداراني وجميع أبناء الترك الموظفين وغالب أعيان دمشق ، ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو أربعة آلاف وفر باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين ألفاً وغنم أموالهم وعتادهم وسار بعد ذلك إلى حماة فحلب فملكهما بلا قتال ، ثم جاء أنطاكية وعينتاب واللاذقية واستولى على حصن الإسكندرونة وعلى حصن بيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينهما مقتلة عظيمة .

وفي البهجة التوفيقية أن الدولة جيشت جيشاً آخر بلغ عدده ستين ألف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص وانهمز الجيش التركي

وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والأسرى ٣٠٠٠ وتفقهق الجيش التركي إلى حلب ، وحاول حسين باشا دخولها فمنعه أهلها خوفاً من انتقام إبراهيم باشا فتقهق إلى بيلان فتقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين مدفعاً وكان غنم منه أولاً اثني عشر مدفعاً ثم غنم أربعة عشر مدفعاً آخر وقتل من العثمانيين أربعة آلاف ومن المصريين خمسمائة وخمسون ، ووقع في يد إبراهيم باشا ألفان من العساكر النظامية أسرى من الأرنؤود والهوراة فأعطاهم الأمان وأدخلهم في جملة جنده ، واختفى حسين باشا ولم يعرف له أثر ، واجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين ألف مقاتل آخر - وفي رواية أخرى مئة وخمسين ألف عسكري بالمدافع والمهمات - ولم يكن مع إبراهيم باشا سوى ثلاثين ألفاً فاللقى الجيشان في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا أسيراً في أيدي المصريين وانهزم الأتراك وغنم المصريون منهم في هذه الواقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون ألفاً .

ويقول مشاققة : إن جيش حسين باشا لم يكن سوى أربعين ألفاً من الترك ، على حين لم يكن مع إبراهيم باشا سوى اثني عشر ألفاً وكان أبقى من عسكره جانباً للمحافظة في الأقاليم المفتوحة وهلك الآخر في الحرب أو الوباء فغلب ، وهذا أقرب إلى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لِمَ لم تستطع الدولة أن تجيش في الحال نحو عشرين إلى ثلاثين ألف جندي من حلب ودمشق وترسل أسطولاً إلى عكا يصد عنها أسطول محمد علي أو يقيم العثرات في سبيله ، كما أنه استغرب كيف أن العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقفاً يردون به عادية أعدائهم ، وانهزموا تحت نيرانهم إلى الإسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعاً وألني أسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جندياً . وقد وصف الشيخ أمين الجندي فعال الأتراك وهناً عزيز مصر وولده إبراهيم وحفيده عباساً بفتح الشام فقال من قصيدة :

والله غير ما بهم من نعمة لما تغير حالهم وتبدلا
وقد استباحوا المنكرات فلا تسل عما توقع منهم وتحصلا

أبصرت حياً من مضرتهم خلا
وطغوا وزادوا في الضلال توغلا
بالسنة الغراء فارتدوا على
جهلاً فلم تر قط منهم أجهلاً

وقضاتهم للسحت قد أكلوا فهل
نبدوا الشريعة من وراء ظهورهم
وتمسكوا بالبدعة السوداء لا
ومشايع الإسلام أصبح علمهم

وقال في وصف وقائع المصريين مع الترك :

والخيل من وقع القنابر جُفلاً
ودماؤهم للمشرفية منهلاً
غطوا الرؤوس ولم يغطوا الأسفلاً

فترى الكماة مبددين على الثرى
أضحت طعاماً للطيور لحومهم
واختلّ عقد نظامهم رعباً وقد

وقال :

بين المقابر قد تسرّ واختلا
في باب حمص وقد أبى أن يدخلها
حمص إذ امتثلت ولم تبدّ القلا
كل السيوف مدى الزمان وأطولا
عند المزار وللضريح استقبلا
ألفى بحمص للعساكر مأكلا
يبغي العساكر أن تقوم وترحلا
في صولة والبر بالقتلى امتلا

وأقى بهم للرسن المشهور إذ
حيث الجهاديون حل وزيرهم
قامت بخدمته وطاعة أمره
لما رأى سيف الإله أحدّ من
ألقي السلاح تأدباً وتواضعاً
حتى إذا نفدت ذخائره وما
أمضى إلى أرض القصير ركابه
وهناك حاربهم وفرّق جمعهم

وقال :

مهما استعان بمكره ونحيلا
لمعة النعمان يخترق الفلا
وعلى الجبال سما وأشرف واعتلى
يخشون منه لدى الفرار ثقلا
كسرت وأن حسينهم وتلى إلى
ببزوغ شمس مراحم لن تأفلا

هل يغلب الأسد المجرّب ثعلب
وإلى حماة الشام سار وبعدها
حتى إذا اقتحم المضيق ببأسه
تركوا الذخائر والخيام وكلها
من يخبر الأتراك أن جيوشهم
والعز بالعرب استنار مناره

سقوط الأناضول وتضاؤل السلطان العثماني أمام الجيش المصري :

وما زال الجيش المصري يتقدم في الأناضول حتى وصل إلى كوتاهية وأراد أن ينزل بورصة بحجة أن ليس له في أواسط الأناضول حطب وموتة في الشتاء ، وكانت الطريق إلى الإستانة أمامه مهيباً لا يقف فيها ما يوقف سيره ، وأهل الأناضول والإستانة راضون عنه ، وأشاع إبراهيم باشا أن مقصده من غزوته هذه توطيد دعائم السلطنة . وكان رجاله من الأوربيين يحثونه على أن يواصل السير ويفتح الإستانة ، وأن لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما أخذه من آسيا الصغرى ولو استمع إليهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلاً من دولة الأتراك ، فأعاد محمد علي بذلك الدولة العربية . قال دي لاجونكيير : ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد وهذا الطموح ، بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك . وبقيت هذه المشكلة التي كان يتأق أن يكون منها عراك بين قوميتين هما العربية والتركية ، مقصورة على دائرة معينة من الحرب ، لم تتعد حد القتال بين ملك وأحد عماله الناشزين عليه .

ولما رأى السلطان محمود ما آلت إليه حاله ، عرته الدهشة وداخله الفزع ، فطلب معاونة الدول العظمى علناً لتعينه على محمد علي ، وحرص خصوصاً على معاونة روسيا التي أصبحت بعد معاهدة أدرنة ترى نفسها حامية الدولة العثمانية ، وليس من مصلحتها أن تكون هذه الدولة قوية ، فأخرجت روسيا إلى الإستانة اثني عشر ألف جندي ، واستدعي فيلق البغدان وهو مؤلف من أربعة وعشرين ألف مقاتل ليأتي إلى الإستانة ، وعقدت معاهدة في كوتاهية على أن تبقى الشام وأذنة وجزيرة كريت لمحمد علي ويرحل عن الأناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل إنه ستون ألف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمد علي غير ذلك ، والخطبة تلقى في المساجد باسم السلطان . وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين ، دعيت معاهدة «خنكارا إسكلهسي» وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضائق في قبضتها ، فهلعت قلوب أوروبا لذلك ، وأخذت انكلترا تحسب لهذه المعاهدة ألف حساب .

ولما انتهت شؤون الفتح جعل إبراهيم باشا مقره في أنطاكية ، فكان يحضر

أحياناً إلى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب عن أمم حالة بلاد الأكراد، وكانت منتقضة على الدولة العثمانية إذ ذلك . وكان إبراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية (الحاج إبراهيم والي جدة والحبشة وسر عسكر حالاً) وبعد فتوح عكا صار توقيعه هكذا (سر عسكر عربستان) أي قائد جيوش بلاد العرب وفوض محمد علي ولاية دمشق إلى شريف باشا وماليتها إلى حنابك البحري ، وكان هذا من المقربين جداً من محمد علي ، ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨م) وأقامت والياً عليها إسماعيل بك ابن عم إبراهيم باشا حاكماً مستقلاً ، ورجح مشاققة أن السبب في ذلك الثورات التي حدثت في الأقاليم والقتال التي ذهبت براحة الأهالي والتعدي والحروب التي أفنت معظم الرجال لأنها كانت كلها محصورة بإدارة واحدة وهي دمشق ، ولذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ أوامره للبعد بين البلدان . وعهد تنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري ، وقيل: إن حكومة محمد علي كانت إلى الرفق بدمشق أكثر منها في حلب ، لأن الحلبيين قاوموا إبراهيم باشا بعض المقاومة ، ولم ينزلوا عن القلعة حالاً ، وقال مشاققة : بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حرية وغرمهم مالاً لاحتكار بعض الأصناف حتى يستفيد من ذلك أعوانه .

أعمال إبراهيم باشا في إصلاح الشام :

وكان من أول أعمال إبراهيم باشا الجليلة في الديار الشامية ترتيب المجالس الملكية والعسكرية ، وإقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية ، جعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ أن استقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وينالهم من ذلك مصة الوشل — ورأت الشام في أيام إبراهيم باشا إبطال المصادرات ، وتقرير حق التملك ، وتوطد الأمن في ربوعها ، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعمت تربية دود

الحريير واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل .
وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيساً يتقاضى الأمير ضعفيها ويدخر في خزائنه الخاصة
المال الزائد على المقروض .

وأكد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحمّاة
وحمص وغيرها عمرانها القديم . وأخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيها
الناثرون أحياناً مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ،
ورخص للأجانب في إرسال معتمديهم إلى دمشق ، وكانوا يمنعون من دخولها
قبله ، فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . ويقال
على الجملة: إن الناس حمدوا حكومة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم
يقم ابنه إبراهيم عملاً بايعاز أبيه بتجنيد الشبان ولو لم يُثقل كاهل الأهاليين
بالضرائب - وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً وأعظمها خمسمائة قرش -
فإن هذا مما نفرت منه القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل
أهل حلب وأهل دمشق .

فتوق وفتن وحصار الفلسطينيين لإبراهيم :

لم تقع حوادث مهمة في السنين الأولى التي قضاها إبراهيم باشا في الشام
للهم إلا ما وقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنة بين المسيحيين قتل فيها خلق وما
كان من عصيان النصيرية فانئذئذ الأمير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم
عسكراً خيم في البهلوية فهرب النصيرية بقضهم وقضيضهم وتركوا مواشيهم
وغلالمهم وأمتعتهم ففتحها العسكر وأحرق لهم خمس عشرة قرية وقطع أشجارها
ثم أحرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين أخرى وكانت مناوشات بين عسكر
الأمير والنصيرية . وعلل مشاققة هذه الوقائع بأن المصريين لما شرعوا بتغيير
عوائد العشائر ، وطلب أموال أميرية زيادة على ما اعتادوا دفعه ، نفرت قلوب
الأهالي منهم ، وصاروا يتمنون رجوع حكم الأتراك ، وابتدأ الناس ينتفضون
عليهم واضطر المصريون إلى الاستكثار من الجنود لحفظ مركزهم الحديد ،
فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية وأرسل الحاكم عسكراً لقتالهم

من لبنان وحاصبيا وراشيا ، فتوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال ، ولعدم العناية واستخفافهم بالحصم آلت الحال إلى تراجعهم وقتل كثير من رجالهم ، وآبوا إلى اللاذقية يتعثرون بأذيال الحجل ، إلى أن جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكرياً كثيراً وقهرت أهلها .

وأوعز إبراهيم باشا إلى الأمير بشير أن يرسل ولده بألفي مقاتل إلى طرابلس سنة ١٨٣٣م ١٢٤٩هـ يجتمع هناك بسليم بك أحد قواد المصريين لتأديب العكارين والحصنيين والصابئيين فذهب وقبض على بعض العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الأعيان وجرت بينهم عدة وقائع . والغالب أن وقائع جبال النصيرية امتدت منها إلى صافيتا وعكار والحصن أو امتدت من هذه إلى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت وأنطاكية ، واشتغل إبراهيم باشا بإدخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية ، فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الأعمال ، وطلب من نابلس إنفاذ قانون الجندية فخرج أهلها عن الطاعة وحاصروا إبراهيم باشا في القدس نحو شهرين وكان لبيت أبي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الفتنة ورئيسها قاسم الأحمد حاكم نابلس ، فلما ضاق الحصار بإبراهيم باشا اضطر محمد علي أن يجيء بالذات إلى يافا وأرسل إلى قاسم الأحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بمال جسيم ويقول إنه لا يأخذ منه عسكرياً ولا مالاً فرضي قاسم الأحمد وفك الحصار وخرج إبراهيم باشا حتى وصل إلى يافا ، فوجد العساكر قد وصلت لنجدته ، فرجع على عقبه في الحال واشتغل بالقتال والنهب والسلب ، فهرب قاسم الأحمد إلى الخليل فلحقه إبراهيم باشا بعسكره ، واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يذر . ثم دار على الساحل فأدب العصاة من أهله ولم يزل يتتبع آثار قاسم الأحمد حتى قبض عليه وقتله في دمشق ، وقتل أربعة من أولاده وأمر بجمع السلاح من جميع البلدان .

وفي تاريخ فلسطين أن إبراهيم باشا لما قضى بأخذ أموال ورجال من فلسطين ندم أصحاب الإقطاعات على سكوتهم ، واجتمعوا في قرية بيت وزن غربي نابلس وانفقوا على محاربتة ، فنكث جماعة منهم مالوا معه ودلوه على الطريق والمياه ، فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم ، وفتح طريق

طول كرم ثم نابلس ، وعطف على القدس فاحتلها ، وقد تهافت الأهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ، ولكن أهالي الخليل هزموه عند برك سليمان وحصروه في القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية وظفر بهم .

خطأ إداري لإبراهيم باشا ووقائعه في اللجاة ووادي التيم :

لا جرم أن إبراهيم باشا أخطأ في تطبيق قانون التجنيد في الشام على نحو ما فعل أبوه في مصر ، وكان عليه أن يقنع والده بالعدول عنه إلى حين ، لأن صاحب القطر الأصلي لم يقطع آماله من استرجاعه وهو يسعى بكل ممكن إلى استخلاصه من غاصبه ، وكل ما تنفر منه قلوب الرعية يفرح به لأنه يخدم مصلحته . فمسألة التجنيد قللت من أنصار الحكومة المصرية في القطر لقلّة اعتماد الناس الجندية في ذلك العصر ، وقد أصبح القوم يعدون التجنيد من باب إلقاء النفس في التهلكة ، وزال من الأفكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف ، وهذا الروح كان قد ضعف في الأمة بعد أن حكمها الغرباء قروناً بالعرف والقهر . قال في معلمة الإسلام: إن تجنيد الشعب في الشام أدى إلى هجرة عدد عظيم من أهلها إلى آسيا الصغرى والعراق . ووضع اليد على الحيوانات للأعمال العسكرية نتج منه انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الأمن قد استتب في الأرجاء فإن الغضب العام لم يكن أقل منه . وجاء في تاريخ حماة أن إبراهيم باشا كان يحشر الناس لبناء الثكنة العسكرية في حماة ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون منه إلى رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الأنهار وربما قلع الإنسان عين نفسه أو قطع إصبعه ليعفى من الخدمة العسكرية . ولقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وأبوا تجنيد أولادهم ، فأرسل والي دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فالتقوا به في جنوبي اللجاة في وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ، ثم أرسل عليهم قائداً اسمه محمد باشا فقاتلوه وقتلوه وقتلوا خلقاً كثيراً ، ثم أنفذ إبراهيم باشا أحد رجاله شريف باشا إلى قرية أم الزيتون في وادي اللوى في أربعمئة فارس فقتلهم

الشيخ حمدان الدرزي عن آخرهم ولم يبق إلا على مقدمهم . وذكروا في سبب هذه الوقائع أن إبراهيم باشا طلب ١٨٠ نفرًا للجندية من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان وأرسلهم إلى عكا ، فطلب المشايخ إبدال ذلك بالمال وأوهموه الطاعة فلما عادوا إلى إقليمهم ثاروا عليه ، فتوجه إليهم الجند بقيادة علي آغا البصيلي كبير طائفة الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر آغا أبو جيب فعقدوا هناك مع كبراء الدروز مجلساً للمشاورة في هذا الأمر ، فامتنع الدروز من تسليم الأنفار وأرادوا الاستعاضة عنهم بالمبدلات العسكرية . فقال البصيلي : إني أرسل مراسلة أستشير بها أفندينا . وعلى ذلك قرّر القرار . وفي تلك الليلة كبيت الدروز العساكر وأذاقتهم كووس المنية، وقتل أبو جيب وكان المتسلم في حوران وجبل الدروز ، ولم يسلم من القتل سوى البصيلي وخمسة عشر نفرًا، ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا اللجاة فجاءهم عسكر إبراهيم باشا فقتلوه . وهذه هي الوقعة التي قتل فيها الفريق محمد باشا . وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف . وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم أن المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومعهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم . وكانوا يربطون الطرق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق ويقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامي .

وروى مشاققة أن العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلاً من الهوارة قتلوا إلا قليلاً ، فأرسل إبراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع مع أن الدروز يومئذ لم يكونوا أكثر من ١٦٠٠ مقاتل . ولما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء إبراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الأتراك فساق قوة أخرى ، فرأى الرعب قد دبّ في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد إلى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الأكراد . ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه إبراهيم باشا ورجاله إلى أن قادوهم إلى سهل دامة ، وهناك رجعوا عليهم وأعملوا السيف فيهم وفتكوا بجمعهم ، ولما عرف إبراهيم باشا أن عسكره ذُعر من شجاعة الدروز عمد إلى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل إلى الدكتور كلوت بك يستحضر منه

محلولا قاتلاً فرفض هذا لإجابة طلبه وحاول أن يمنعه من استعمال تلك الوسطة لما فيها من القسوة التي تشمل الحریم والأطفال معاً ، أما إبراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولاً والرعية ثانياً ، ولما عجز عن إخضاع العصاة ألزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليمانى ألقاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز إلى ترك المكان بعد أن مات منهم عدد كبير عطشاً وأتوا إلى إقليم البلان .

وكان دروز وادي التيم وإقليم البلان ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان ولما ضاق بهم ذرع إبراهيم باشا استدعى من مصر عسكرياً من الأرنؤود فأمدته أبوه بأربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا ، وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعرة أيضاً فلم يظفروا بهم . وكانت دروز الأقاليم تنجد دروز حوران سرأ أولاً ثم أخذت تنجدهم علناً . أما نصارى لبنان فتجنّدوا أولاً مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم . وتجمع العصاة في قرية حينة من إقليم البلان ، فأطلق الأمير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم ١٥٠ رجلاً وبلغ شبلي العريان ذلك فحضر بعسكره من الوعرة وحاصر العسكر المصري في سراي حاصبيا فقتل من أمراء حاصبيا الأمير علي ثم أرسل العريان إلى الأمير محمود خليل أن يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين ، واضطرت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ، ففر الجند المصري منهزماً نحو البقاع فتبعه العريان بمن معه وأعمل في أقيمتهم السلاح فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل وتشتت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون ، ثم جمع إبراهيم باشا ما تشتت من عسكره في البقاع وعاد فخيم في قرية عيحا قرب راشيا ، فأتته الدروز وتحصنوا قبالتة في غابة هناك ، وانتشب الحرب بينه وبينهم فلم يظفر بهم ، ثم اشتبك الدروز مع عسكر إبراهيم باشا في وادي بكافهجهم عليهم إبراهيم باشا بعسكره وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب ، فقتلوا من الجند المصري وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطروا عقيبها إلى الفرار . قيل إنه قتل من الدروز في الوقعة الأولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم إبراهيم باشا وقتلهم ، ثم حدثت وقعة في قلعة صخور وتفرق الدروز ، وطلب العريان الأمان من إبراهيم باشا فأجابته إليه وجعله قائداً على ألف فارس هواره . وفي سنة ١٢٥٢ توجه الأمير مسعود

الشهائي لحرب العرب العصاة في الصفا فاستسلموا له ومات من عسكره خمسون جندياً دنقاً .

نعم بدأ الاشمزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر أمره إلى ابنه إبراهيم باشا باحتكار أصناف الحرير للحكومة ، وبضرب ضريبة جديدة على الأهالي ، وبتهيز عدة الآيات ، وزاد الحق لتزح السلاح ، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطئ الأردن ، وفي هذه الواقعة التي انتهت بقتل قاسم الأحمد حاكم نابلس بدمشق ، قتل إبراهيم باشا كثيراً من زعماء الأتراك ممن كانوا ساعدوا العصاة عليه ، وأخذ الدرروز والنصيرية والموارنة يستعملون للثورة يهيجهم عليها عمال الدولة العثمانية ، وبريطانيا تحرض العثمانيين وتعلمهم كيف يسلكون . وقد روى كامل في تاريخه أن إبراهيم باشا فقد من جيشه في الستين التاليين لأمر التجنيد نحو عشرين ألفاً . ومن انتقض على إبراهيم باشا أهالي الكرك فإنه لما فتح إقليمهم نظم إدارته وجعل له حامية من جنده ، وبعد قليل تمرد السكان وذبحوا الحامية والموظفين على بكرة أبيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آية إلى مصر ، فأضلوها الطريق وأهلكوا أكثرها .

سياسة الأتراك والدول مع محمد علي :

وكانت الدولة العثمانية بمعاونة الدولة البريطانية لا تفتأ منذ دخول المصريين إلى الشام تدس الدسائس في القطر ، وتستميل رؤساء العشائر وأرباب الزعامات والأعيان ، بالمال تارة والوعود الخلافة أخرى ، وبعد أن عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثاني وهو خمس سنين أيضاً ومضى أكثره وأدى المقرر عليه من المال ، أرتأى العثمانيون بإيعاز بريطانيا العظمى أن يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين ألف مقاتل وفي رواية مئة ألف مجهزين بمدفعية مهمة ومعها طائفة من كبار ضباط روسيا وبروسيا وزحف إبراهيم باشا في أربعين ألفاً حتى انتهى الجيشان إلى سهل نيزيب (نصيبين) ، واشتبك القتال بين الجيشين ثمان ساعات ونصفاً فراجع الجيش العثماني بعد أن قتل منه ستة آلاف وقيل أربعة وأسر اثنا عشر

ألفاً ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه الواقعة ١٦٦ مدفعاً و ٢٠ ألف بندقية ، وقتل من المصريين أربعة آلاف وقتل المصريون من الأتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة أسداسهم .

وذكر المصنف المجهول أن وقعة نزيب كانت يوم ١١ ربيع الثاني ١٢٥٥ (٢٤ حزيران ١٨٣٩) وأن إبراهيم باشا استولى من العثمانيين على مائة وعشرين مدفعاً وعشرة آلاف بندقية وجميع مهماتهم وذخائرهم وعتادهم وقتل منهم أربعة آلاف وخمسمائة وجرح ١٨ ألفاً وأسر ثمانية آلاف وخمسمائة وقتل أمراء كثيرين. وقتل من جيش إبراهيم باشا أربع مائة وجرح ثمان مائة وقصد أربع مائة ثم قصد بيره جك (البيرة) فهرب العثمانيون وغنم منهم ٣٢ مدفعاً بعثاها . انتهى خبر الهزيمة إلى الإستانة بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلس ابنه عبد المجيد وهو قتي في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد وسلطته مهددة بجيوش محمد علي ، وليس للدولة جيش ، وقد فقدت أسطولها في الإسكندرية ، سلمه لمحمد علي أمير البحر أحمد فوزي باشا ، فرأى السلطان أن يساد ويقارب ، فأرادته الدول على أن يتربص ريثما يتوفق إلى حل مرضي بإجماع الآراء بينهم ، فكان من ذلك حل المسألة المصرية العثمانية بالطرق السلمية الحربية ، فاتفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا أن لا تتجدد معاهدة « خنكار إسكلهسي » بين العثمانية والروسية ، وأن السلطان إذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول ، على أن تبقى المضايق والردنيل تحت إشرافهن ، وكان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي أن تكون مصر والشام وأذنة ملكاً وراثياً له ولأولاده فأرضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاهدة فرنسا ، وقضي على محمد علي أن يخرج من أذنة والشام في عشرة أيام ، وأن لا تبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا أي فلسطين من أرض الشام . تقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بيد أن محمد علي أبي أن يخرج من الشام ، فبعثت انكلترا بأسطولها إلى السواحل بقيادة روبرت ستوبفورد فضربت بيروت واستسلمت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور وقاومت عكا ، وبعد أن أطلقت عليها البوارج الإنكليزية قذائفها ثلاث ساعات أصابت مستودع البارود فانفجر وقتل كثيراً من الرجال ، ثم

اضطرت العساكر المصرية إلى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وقامت إلى جنب محمد علي تبرر عمله ، وتنصره برأيها ومعاونتها الأدبية .

ونشر السلطان عبد المجيد ١٢٥٥ (١٨٣٩) خلال هذه المدة خط كلخانه أو البراءة السلطانية وهي أول قانون إصلاحى في السلطنة العثمانية يقضي بإعطاء العناصر العثمانية حقها وحريتها ، ويضع نظاماً لاستيفاء الضرائب على نظام واحد ، وتطبيق القانون العسكري وغير ذلك من الأمور الإدارية ، فصفت أوروبا لقانونه ورجت الارتقاء لمملكته . وكان هذا القانون مما أوحى به بريطانيا واستملاه عقلاء الساسة من الأتراك في العاصمة .

انقراط عقد الحكم المصري :

ولما أحس أهل لبنان بواسطة دعاة البريطانيين أن الدول أزمعت إجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة إن لم ينجل مختاراً ، أخذوا يناوشون الحماية المضرة وقتلوا بعض المسلمين من المصريين ، وكان الأمراء الشهابيون واللمعيون يقوون العامة سرأ ويحثونهم على الثبات ، والإفرنج يخبرون الناس باتفاق الدول الأربع النمسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، ويؤكدون أن المراكب الحربية قادمة إليهم ، واشتدت الفتنة بين أهل الجبل والأمير بشير وحرقت إبراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبي حريماً .

وكان أمير لبنان في ظاهره مع إبراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته ، وقبض المصريون على ٥٧ رجلاً من أعيان لبنان بينهم أربعون من أمراء الشهابيين كانوا يدعون أهل بلادهم لنخلع طاعة المصريين فنفاهم إبراهيم باشا إلى مصر ومنها إلى السودان ، وأخذ أعوان أمير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح والخيل وطرح المغارم ، وجاء على الأثر الأسطول العثماني والأوربي في أربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة

آلاف وخمسمائة جندي عثماني وألفي جندي أوربي ، فأخذ إبراهيم باشا يجمع شمله في الداخل ، ويستدعي جنوده من الساحل ، وبحسب تقارير ضباط الإنكليز أن المقتول والمجروح والضائع من العسكر المصري لم يكن أقل من عشرين ألف جندي .

وخرج إبراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد أن فرق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبيوت الأراامل والأيتام ، وأخذ معه جميع الحبوب والمواشي خارجاً من باب الله ونزل في سهل القدم ، ومنها قصد إلى مصر عن طريق البر . وقبل رحيله عن دمشق أرسل خالد باشا التركي من الساحل أحمد آغا اليوسف في شردمة من الجيش فخرج إليه إبراهيم باشا بجند قليل وهزمه شر هزيمة ، فرجع إبراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة ، أما أحمد آغا فتزل بعسكره بعيداً عن دمشق في إحدى قرى الزبداني ينتظر إخلاء إبراهيم باشا المدينة ، ثم خرج إبراهيم باشا صادعاً بالأمر الذي جاءه من والده بالجلء عن الشام فخرج أهل دمشق لوداعه وخطبهم وحرصهم على الإخلاء إلى الطاعة والسكينة ، ريثما تعود الحكومة العثمانية ، وعينت الدولة علي باشا الذي كان والياً على الشام يوم دخول إبراهيم باشا ، وكان أشد الأتراك تعصباً ، وبقي فنصل بريطانيا المستر ودد الذي أثار الموارنة على إبراهيم باشا مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة أعمال عمالها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله ونصب ذلك فتنصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة أمر مطلق .

أراد محمد علي أن يقاوم دول أوروبا ويظل في الشام ، ولكنه علم ببعد نظره أن ذلك متعذر ، وأن أسطولاً ضرب بيروت وأحرق الأسطول المصري ونزل تسعة آلاف جندي إلى سواحل الشام ، وأن الموارنة بعد أن كانوا عضد ابنه إبراهيم أصبحوا يعاونون الأوربيين على طرده من الشام ، وتقدم أمير البحر بأبيه أمام الإسكندرية وأخذ من محمد علي معاهدة لم يترك له بها سوى مصر ، وأنه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لبريطانيا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة الموانئ ومساعدة كل من أراد خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية ، وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لإشغال الجيش المصري في الداخل ، كي لا يقوى على مقاومة السفن النمساوية والبريطانية

وأن يكون لمراكب روسيا والنمسا وبريطانيا معاً حق الدخول في البوسفور
لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

فضل حكم محمد علي :

كانت حسنات حكومة محمد علي في الشام أكثر من سيئاتها . وضعت أصول
الإدارة والحباية ورفعت أيدي أرباب الإقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب
تكفيهم ، ولم يخلص من ذلك إلا الأمير بشير الشهابي والي لبنان ، فإنه نال
ولايته مباشرة من محمد علي في مصر ، وظلّ يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت
سلطة المشايخ والأمراء المستبدين . قال مشاقة : كانت الدولة التركية خبيثة
بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية فبعثت تدس الدسائس في المشايخ ،
وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ، ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة ، طمعاً
بإرجاع نفوذهم ، وكان التصيرية أول من شق عصا الطاعة وتبعهم الدروز
في حوران ووادي التيم ، ففضى المصريون معظم أيام دولتهم في الشام بالحروب
والفلاقل .

ومن مآثر الحكومة المصرية التي عددها مشاقة تجفيفها المستنقعات وتصريف
الأقذار في مجار خاصة ، وتجديد أسعار اللحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف
أديانهم وطبقاتهم ، لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ، وإنفاق
كل مال في وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها
الحساب ، لأنه اعتاد أن يكون محكوماً لا حاكماً نفسه ، عبداً لا حراً . وأكد
أن البريطانيين استخدموا رجلاً من رجالهم السياسيين اسمه المستر دود فجاء
كسروان بدعوى أنه يريد تعلم اللغة العربية ، وأخذ يبتدئ الدسائس حتى أعلن
الكسروانيون العصيان ، وقاتلوا جيشاً من جيوش إبراهيم باشا وجيوش الأمير
بشير ، ودام القتال أياماً ، وتغلب العصاة على جند إبراهيم باشا مراراً ، وهي
المرّة الأولى التي ذاق بها إبراهيم باشا طعم الانكسار .

ومدح مشاقة الأمير بشيراً الشهابي الذي كان عضداً قوياً لإبراهيم باشا، وقد
تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ إلى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة لما استولت

على الساحل إلى مالطة وبقي منفيًا فيها زمناً ولم يستطع أن يعود إلى إمارته . قال إنه كان شجاعاً مقداماً ، وقائداً محنكاً ، وسياسياً داهية ، خدم الجزائر بكل أمانة ونشاط ، وخدم خلفه وحفيده مثله ، وخدم الدولة التركية والدولة المصرية ، وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها ، وكان صادقاً إذا وعد أميناً على واجبه ، ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر . وانتقد مشاققة حكومة محمد علي تقاعسها عن إشهار استقلالها عن الدولة التركية ، مع أنه كان من أسهل الأمور بعد أن اكتسحت القطر ، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكاً مستقلاً وأرسل سفراء إلى عواصم الدول الأجنبية ، وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان ، ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية ، لأجبرتها على الاعتراف بسيادته لأنه استحال عليها لإخراج جنوده من الشام ، أو صد هجمات إبراهيم باشا وتقدمه إلى قلب عاصمتها ، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم أو لكانت على الأقل أضيفت الشام إلى مصر وأصبح حظ القطرين واحداً . ولم يظهر سر امتناع محمد علي من الإقدام على هذا الأمر الخطير ولو فعل لغير حالة هذا الشرق القريب لا محالة .

رأي الغرباء في حكومة محمد علي :

أثبتت حكومة محمد علي في فتوحها أن المصري بل العربي إذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته ، وأنه لم يضره في القرون الماضية إلا فناؤه في الحكومة التركية ، بدعوى أن الإسلام لا يفرق بين الأجناس ، والعربي والتركي أخوان ، وأن الظلم إذا جاء من مسلم كان مقبولاً ! . وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، بل إن الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما يمثّلها .

كتب المستر برانت فنصل بريطانيا في دمشق إلى سفير دولته في الإستانة سنة ١٨٥٨م ما تعريبه : لما كانت الإيالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير

إلى سكنى المدن والقرى المهجورة ، وإلى حراثة الأرضين المهملة ، وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الأرجاء الواقعة حوالي حمص ، وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية ، وفي هذه الأماكن أكره العرب على احترام سلطة الحكومة ، وجعل السكان بمأمن من اعتداءاتهم . وكان الشام بأسره تحت إدارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ ألف جندي نظامي وغير نظامي بإمرة إبراهيم باشا ، فبحسن إدارة الأول تضاعف نجاح الأهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما أن نشاط إبراهيم وحزمه وطد الأمن ومدّ رواق الثقة ، وقد عُدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ، إذ كان عليها أن تصلح عدة أمور مختلفة ، وأن تبدل القوضى والتعصب والقلقل التي كانت سائدة بالعدل .

« وامتعض أصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات من ذلك كثيراً لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كل سرور لخلاصهم من الظلم الذي أتوا تحت عبئه طويلاً ، واغتبط النصارى خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق . ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لأنه وإن كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة ، لم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ، ولا تضبط حاصلاتهم وغللهم ، ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما النصارى الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالاً لإصلاح بيوتهم وتموينها ، وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .

« وقصارى القول أن جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات ، وكم من مرة ذهبت الجنود بإمرة إبراهيم باشا لإتلاف بيوض الجراد وما نقف منها وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والنماء ، فلو طال الحكم المصري على الشام لاستعادت قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء ، وأصاب شطراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي ، وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة في جهات

حوران ، وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون . قال : « ولم يكد المصريون يطردون من القطر ويتقلص ظلُّ سطوتهم - وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد - حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في إدارة المالية النزاهة والاقتصاد ومنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان فخلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالتدريج حتى أمكن القول إنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى إلى هذه الديار التي تركها المصريون » . هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها إنجليزي . وقال برييه الفرنسي في كتابه الشام على عهد حكومة محمد علي ما تعريبه : « ما من بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والمجد في كل مظهر من مظاهر الحياة ، وما من بلد عانى شقاءً كشقاءها من تقلبات الزمان ، وسقي أديمها بالدماء ، فإن خصبها المدهش وجمال إقليمها وتنوعه ، ومركزها المهم الذي يقرب إليه جميع الأجزاء القديمة التجارية من الأرض ، كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ، ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نبهت أطماع الفاتحين ، وجلبت غير مرة على الشام ويالات الحروب . » وكانت الشام على عهد الأتراك العثمانيين مقسمة إلى أربعة إيالات : حلب وطرابلس وعكا ودمشق ، وقبل مجيء إبراهيم باشا إلى الشام كانت حكومة هذا القطر من الممالك العثمانية التي تتعب السلطنة ، ولا يمكن حصر السلطة في يد واحدة ، لأن معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد تمكنه من العصيان وكثيراً ما كان السلطان سلطاناً بالاسم مع أن الشام كانت مقسمة إلى أربع إيالات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة وكثيراً ما كان الباشوات يُشنعون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابران ولطالما شنت عليه باشاوات بيد الأهالي كما أحرقوا باشا دمشق .

« وكان الدم يجري لأقل شبهة والعذاب الأليم يحل فيُشنع الباشاوات وتستل أرواحهم من أسفلهم ويجعلون العصاة على الحديد ويحزون الرؤوس وبذلك كان يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا وإلا أصبحوا عرضة للحرق والشق . قال : ومن المحقق أنه ليس إلا طريقة الإرهاب والقوة التي

تؤثر الأثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم إلى الطاعة ، وقد عرف إبراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين وذلك بأن استمال إليه قلوب أشرافهم وأعيانهم وألقى بينهم الشقاق ضمناً عند الاقتضاء ، وبذلك تيسر له حكم هذه الإيالات ووضع ضرائب شديدة عليها ما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر وأديان مختلفة ، وكان شريف باشا حاكماً على الشام كله وتحت يده الحكام ، وكان طماعاً في المال اه .

حكمتنا على أنفسنا وعلى غيرنا :

هذا هو الإنصاف في الحكم على حكومة إبراهيم باشا وما هي في الحقيقة إلا روح محمد علي الكبير التي كان يستمد منه ابنه ، ولا يصدر إلا عنه في الخطوب ولا يقطع أمراً دون الرجوع إلى رأيه ، حتى جاءت أحكام المصريين نموذجاً في الإدارة ، ولو عزمت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط إبراهيم باشا في الإصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر، ولكن العثمانيين ابتلوا بالإهمال والغرور، لا يعمدون إلى حسن الإدارة ويتظاهرون بالإحسان إلا يوم الشدائد ، فإذا زالت عادوا إلى طبائعهم في إعنات الرعية وإلقاء الحبل على الغارب ، ونسوا ما أعطوا من عهود ، وما وضعوا من القوانين. وهذا ما دعا إلى ظهور الفروق الكثيرة بين الإدارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش إبراهيم باشا عن هذه الديار ، وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام، لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتساهمها سياستها أحياناً . وما مصر والشام إلا طريق الهند الأقرب ، بل مفتاحها من البحر المتوسط ، وإذا أردنا أن ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على أماني محمد علي بل أماني العرب من إنشاء دولة عربية، كما أوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة أن تدعو الدولة العثمانية إلى حرب الوهابيين في نجد والحجاز حرباً عواناً لأنه كان

يخشى أن يؤسسوا أيضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عشرة في سبيل أماني تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب .

ولو نظرنا إلى ما وقع لإبراهيم باشا في الشام لأول الفتح ، لم نره إلا قتالاً مع العثمانيين أي قتال الجيش المصري مع الجيش العثماني ، وإذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا أو عن دمشق أو يوم حمص مثلاً أناس من الأكراد والهوراة فهؤلاء ليسوا شاميين وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم ويرزقهم ، على نحو ما وقع لإبراهيم باشا من هذه الفتنة ، أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم إلى صفوفه فأخذوا يقاتلون معه ، ولم يلتو القصد على إبراهيم باشا إلا لما دخلت أصابع الأجانب ، وأخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، وأما المدن والسواد الأعظم من الناس فقد استقبلوه وأخلصوا له وشعروا بحسن إدارته ولا سيما المسيحيون والاسرائيليون وكلهم أدركوا الفرق بين حكومته وحكومة الترك .

ولقد تجلّى في وقائع محمد علي في الشام تجلياً لا مجال للريب فيه ، أن اختلاف المذاهب وتباين التربية ، كان من العوامل القوية في إلقاء الفتنة بين أبناء هذا الوطن ، وأن دول أوربا عند أغراضها تستحل بث بذور الشقاق بين المتآلفين ، وتستخدم وسائل غريبة في تكدير صفاء الآمنين ، وتعبث بعقول السذج المساكين ، وأنها قلما اهتمت لمصلحة أمة من أمم الشرق ، بل تهمها ومصالحتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد ويرقى بحكم محمد علي الذي كان بإقرار رجالها من أرقى ما عهده القطر منذ قرون ، ولعل أبناء الشام أيقنوا بخطأهم في الانتفاض على الحكومة المصرية وهي مثلهم عنصراً ولغة وعادات أنهم كانوا على ضلال في الحنين إلى حكم العثمانيين ، وما كان من حقهم أن ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون في الإثم والعدوان . وكان على الشاميين منذ عهد المصريين أن يدركوا أن الدولة دب فيها ديب الفساد ، وأن من العناء رياضة الهرم ، وأن الهرم إذا نزل في الدول لا يرتفع .

العهد العثماني

من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٧

رجوع الشام إلى سالف بوئسها على العهد العثماني وفتن الدروز والنصارى

أشبه الشام بعد الحكومة المصرية حال من كان في محنة مستديمة وشظف عيش ، ثم حسنت حاله بان علّم النظام والسكون ، وامتّع ببعض الراحة ، وغذي بالأطياب ، فتغيرت طبيعته ، وتبدلت نفيسته ، وبمحاولة لإرجاعه إلى سابق مألوفه ، عدّ من يحاول ذلك جانياً عليه . وما كان يحلم أولاً بأن يستمتع بغير ما كان له ، وبرجوعه سيرته الأولى تجلّى له الفرق وتنغص عيشه .

تبين الفرق بين الإدارتين المصرية والعثمانية ولو طال عهد المصريين أكثر - وكانوا في صدد الفتح يتخوفون بادرة العثمانيين كل حين - لسعد القطر حقيقة وأيقن حتى من كانوا ينعمون من دماء الأمة على العهد العثماني أن طريقة المصريين في المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة في إنفاذ القوانين ، وتقليد الغرب في كل أمر جوهري أفضل طريقة لراحة السكان ، وكان يرجى أن يألفوا في مدة قصيرة ما تأصل في فطرتهم على توالي القرون ، وتعودوه من حكم أرباب الإقطاعات الذين صدّهم المصريون عن تجارتهم الشائنة التي ألقوها زمن العثمانيين ، وهي الاتجار بالحباية يجبوونها أضعافاً ، ويسلبون الباقي من الأمة بمرأى من الحكومة ومسمع .

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاية لها ذئباب
لم تكذب تخني الجنود المصرية أرض الشام حتى رجعت إلى حالتها القديمة
وثارت العداوات في الصدور ، وزادت الدسائس الأجنبية ، وأخذت فرنسا

تساعد الموارنة ، وبريطانيا تعاون الدروز ، فتعدى هؤلاء على الموارنة في سنة ١٢٥٧ ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه الفظائع المنكرة ، وزحفوا على زحلة بثمانية آلاف ، وانتشب القتال بينهم وبين أهلها ، ومعهم أهل بعلبك ، فانهزم الدروز شر هزيمة ، ولولا تدخل الجيوش بشدة لامتدت الثورة . وانجبت حادثة دير القمر عن مائة وتسعة قتلى من النصارى وعدد كبير من الدروز قدره مشاقفة بأكثر من خمسمائة لأنهم كانوا مهاجمين قال : ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفروا منهم نفوراً تاماً ، وطلبوا من الوزير حاكماً عليهم ورفع سلطة المشايخ عنهم فأجابهم إلى ذلك ، لأن هذا ما كان يرغب فيه ، ولولاه لما كان الأتراك يخدمون عروض المحاضر طعناً على أمراء الجبل ويحضون أهله على الفتن .

عاملت الدولة العثمانية بعد عودتها إلى القطر كل من ساعدها على مقاصدها وخدمها أو تظاهر بخدمتها وتجسس لها زمن الحكومة المصرية المعاملة التي ترضيه ، فرجع أرباب النفوذ والإقطاعات إلى سالف مجدهم ، المبني على تقطيع أوصال الشعب والتغذي بلحمه . وأقامت بدلاً من الأمير بشير الشهابي الأمير بشير قاسم الشهابي حاكماً على لبنان . وكان دون سلفه إدارة ومعرفة ، وأقصت الأمراء الشهابيين عن وادي التيم ، وأقامت شبلي العريان متسلماً لها لأنه خدم الأتراك في حرب المصريين ، نزع من النصارى سلاحهم وقدم للدروز باروداً وذخائر ، وكان يرى سلب القرى المسيحية وإحراقها من عوامل الخدمة لطائفته ودولته .

ولم يكن من مصلحة الدولة أن تسود الألفة بين الطوائف ، وأن يتعامل أهل الوطن الواحد بالحسنى ، فكان أكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني ويساعدون الدروز على النصارى في لبنان ، حتى يتيسر للدولة أن تنزع الحكم من أرباب الإقطاعات وتقيم له والياً كما لطرابلس وصيدا والقدس وحلب ودمشق ، ولذلك كثرت الفتن والمناوشات بين النصارى والدروز ، فأثار الأمير قاسم الشهابي الدروز على الموارنة (١٨٤١م) فقتلوهم ونهبوهم فتدخلت الدولة وعزلت الأمير قاسماً الشهابي لتقيم مكانه والياً عثمانياً ، نصبت عمر باشا النمساوي ثم عزلته ، وجعل الجبل قائم مقاميتين الأولى نصرانية والثانية

درزية ، فلم ترض الطائفتان ذلك ، وأصبحت الأولى بيد فرنسا والثانية بيد انكلترا ، واختل الأمن في أرجاء الشام لمحاولة الدولة نزع السلاح من فئة أو أهل ناحية وإبقائه في أيدي آخرين .

كتب قنصل انكلترا في دمشق سنة ١٨٤١م (١٢٥٧هـ) إلى نجيب باشا كتاباً قال له فيه : « إذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استتباب الأمن ففي وسعها أن تبدأ بإظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى وتدمير أماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق . إن نزع السلاح من يد الشاميين عامة أمر مرغوب فيه لو تسنى لإتمامه دون التخوف من حدوث ثورة عامة ، بيد أنا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على نصارى لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، على حين سمح لسائر أتباع السلطنة بحفظ أسلحتهم ، ومع ذلك لا ينبغي أن يغرب عن البال أن الباب العالي اعترف بصدق رعاياه النصارى وأمانتهم في هذه الأجزاء إذ لجأ إليهم قبل الجميع فوزع عليهم أسلحة لطردهم العدو الطرفين (يريد إبراهيم باشا المصري) كما أن احتلال جنود حضرة السلطان الآن للشام هو نتيجة مساعدة اللبنانيين » .

فتن أهلية في الجبال والمدن :

وفي سنة ١٨٤٢ قبض عمر باشا النمساوي على زعماء الدروز فاجتمع أتباعهم وهجموا على سراي بيت الدين وكان هناك فتهددهم ، وحضر شبلي العريان يجنده المنظم واجتمع في الطريق بفرقة من الأرنؤاد قادمة إلى عمر باشا ليرسلها لتأديب الدروز فوقعت بين الفريقين موقعة فهزمهم جند عمر باشا في أقل من ساعة .

وظلت مراحل الأحقاد في لبنان تغلي والحكومة تجهل أو تتجاهل السبيل لقطع شأفة الفتن من الجبل وغيره من الأصقاع الشامية . وقد عينت سنة ١٢٦٠هـ رجلاً لجباية الأموال الأميرية من جبل النصيرية ومطاردة بعض الأشقياء ، فلما بلغ ناحية البهلوية طلب مقدمي الكلية ورؤساءهم فأرسلوا إليه رجلين وهما إسماعيل عثمان وحبيب مخلوف فأرسلهما في الحال إلى اللاذقية مقيدتين وأخذ في تعذيبهما ، وانتهى الخبر إلى الجبل فتجمع نحو خمسمائة رجل من أهله

ومضوا إلى اللاذقية وهاجموا دار الحكومة وكسروا السجن وأخذوا السجنين ومن معهما من المأمورين، فصدر الأمر بأن يجهز الجند الذي كان معه مع جميع الأهالي النازلين بين أنطاكية وصافيتا ، فتألف منهم جيش عسكر في القرداحة ، فأرسل النصيرية بعض نساأهم إلى القائد يحملن أعلام الأمان ويطلبن العفو ، وأن يضمن لهن سلامة الأنفوس والأموال والعيال ، فأبى إلا إنزال العقوبة بالثائرين ، وكان عددهم نحو ستمائة ، وعدد العسكر النظامي والمقاتلة من الأهلين نحو عشرين ألفاً وقيل ثلاثين ألفاً ، وكان في قرية المران شيخ من أهل الدين والصلاح يعتمد العاويون عليه وكان يعرف علم الفلك فأخذ الطالع كما جاء في مصدر علوي وقال لهم : إنه لن يفقد منهم إلا رجل يصاب برجله ولا يموت وسألوه عن موعد الهجوم فقال : غداً الظهر فتزلت الطمأنينة على قلوب الثائرين خصوصاً وقد عددهم أنهم لا يصابون بأذى ، ولما حان وقت الظهر تجمهر الثائرون وانقسموا ثلاث فرق وهاجموا العسكر ، ودارت الدائرة على الجيش وقتل القائد وهلك من عسكره على ما قيل نحو ألفي رجل وغنم النصيرية جميع الذخائر ، فأرسلت الحكومة على الثائرين فبدأ يدعوهم إلى الطاعة بصورة لطيفة ويضمن لهم سلامتهم فأطاعوا وسلموا الذخائر بأسرها إلى الحكومة .

وفي سنة ١٢٦١ قام الدروز ثانية في لبنان وقتلوا النصارى واستمرت الفتن إلى سنة ١٢٧٧ . وفي سنة ١٨٤٥ أرسل والي دمشق إلى دروز حاصبيا يحضهم ، على رواية مشافة ، على قتل النصارى ويمدهم بالسلح والذخيرة ، وأوعز إلى دروز حوران أن يقدموا لمساعدتهم ، وسأل مثل ذلك مسلمي البقاع فهرب نصارى حاصبيا قبل الإيقاع بهم . فانقض عليهم الدروز في جهات راشيا وفتكوا بمعظمهم وتشتتوا في تلك الأرجاء ومنهم من سلم فجاء زحلة ، ومنهم من عاد إلى حاصبيا ، ومنهم من قتل ، وعينت الحكومة أحد أمراء الشهابيين حاكماً على حاصبيا لكنهما لم تسمح له بمعاينة المعتدين وزعماء هذه الفتنة .

وفي غرة المحرم سنة ١٢٦٧ وقعت فتنة بحلب سرت إلى حي باب النيرب وهي قرلق وبانقوسا فنهبت أحياء النصارى وأحرقت ثلاث كنائس ودام النهب ثلاثة أيام ، ثم قام الأهالي على الوالي وطلبوا منه رفع « الفردة والنظام »

فامتنع من ذلك فضربه الأوباش ، ثم انكسر سكان الحارات وانتشر الحريق في الأحياء المذكورة والنهب والقتل فقتل من الحلبيين نحو خمسمائة رجل كلهم من الرعاى ومن العسكر نحو ذلك وقبض على مثل هذا المقدار من الناس ، ثم بحثوا عن أمتعة النصارى المسلوبة فأرجع إليهم غالب ما نهب منهم .

وفي هذه السنة عصى محمد الحرفوش أمير بعلبك وجمع عسكراً من بعلبك وإقليم البلان ، فأرسلت عليه الدولة قوة بقيادة مصطفى باشا فانهزم أمامه إلى قرية معلولا وتحصن بها مع إخوته وأولاد عمه فحصرهم الجنود إلى أن دخلوا عليهم بدلالة أهل القرية ، فأسر الأمير محمد وطوق القائد العثماني بعلبك بثلاثة آلاف جندي فاستسلم أمراؤها فقبض عليهم وأرسلهم إلى دمشق فنفوا إلى كريت ، وقضي بذلك على عامل من عوامل حكومة الإقطاعات .

وفي نكبات الشام أن الحروب الأهلية التي حدثت في دير القصر وزحلة وغيرهما من الأنحاء سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥) انتهت بقتل ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن ونحو أربعمائة رجل من الدروز ولولا محاربة الدروز النصارى بالخيانة ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح لكثرت عدد القتلى وزاد على هذا القدر ، وأما الخسائر المالية فلم تقدر في ذلك الحين .

وفي سنة ١٢٦٨ امتنع دروز حوران من دفع الخراج فنذبت الحكومة لإخضاعهم والى دمشق محمد باشا القبرصي بفرقة من الجند فوقعت بينه وبينهم معركة دامت بضع ساعات فانهزم والى دمشق ووضع الدروز أيديهم على مهمات الجند والمدافع ، ثم توسط قنصل بريطانيا فأرجع الدروز مسلوبات العسكر ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة صاري عسكر (سر عسكر) انتهت سنة ١٢٦٩ .

حرب القريم منشؤها في الشام وكوائن درزية ونصيرية :

وفي سنة ١٢٦٨ حدثت في القدس وبيت لحم أمور تألفت منها الأسباب لنشوب الحرب العظمى بين الدولة العثمانية وروسيا وهي الحرب المعروفة بحرب القريم (١٢٧٠) وذلك لاختلافات قديمة بين الروم واللاتين بسبب كنيسة

القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم . ادعت كل من الطائفتين حق الرياسة والتقدم على الأخرى باستلام مفاتيحها ، وكانت روسيا طمعت في الشرق وقامت تطالب بحماية الروم الأرثوذكس أبناء مذهبها كما ادعت فرنسا حق المطالبة بحماية مورنة لبنان والطوائف البابوية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وحاولت الدولة أن تغفل عن مطالبة قيصر روسيا ، فاتخذ من ذلك حجة وقام يريد إنفاذ وصية بطرس الأكبر القاضية بافتتاح الأرض العثمانية والاستيلاء على الإستانة .

هجم الأسطول الروسي في البحر الأسود على الأسطول العثماني وحطمه ، فنشبت الحرب بين الروس والعثمانيين وانتصر الروس وكادوا يبلغون الإستانة ، فأرسلت انكلترا وفرنسا جيشاً وأساطيل إلى أرجاء البحر الأسود ، وقاتلت الروس وانتصروا عليهم في سواستبول ، وكذلك بعثت ساردينيا فرقة من الجند الإيطالي ، دفع الدول إلى ذلك أمر غير حب المحافظة على الدولة العثمانية ، وهو الخوف من خروج روسيا إلى البحر المتوسط وبخروجها خطر على أوروبا بل خطر على بريطانيا العظمى وطريق هنداها ، وبعد حرب ثلاث سنين (١٨٥٦) ظفرت الدولة مع الدول الأخرى بالروس ودفعت بريطانيا نفقات الحرب ، وحصلت الدولة الروسية على مطالبيها وامتيازاتها ، ومن شروط المعاهدة ضمان استقلال المملكة العثمانية وسلامتها ، والحظر على أية دولة أن تدخل في شؤون تركيا الداخلية ومساواة النصارى مع المسلمين في الحقوق . ولما رأى رجال الدولة أن الطريقة البالية القديمة في إدارة الملك العثماني تؤدي بها لا محالة أقنعوا السلطان بنشر الخط الهمايوني وبه قبلت الدولة (١٨٥٦) في عداد الدول الأوروبية فكان هذا العامل النافع من نتائج حرب القريم ، وبان للدولة وجه خطيها في اعتزالها السياسة الدولية .

وفي سنة ١٢٧٣ وقعت فتنة بين الدرود والحوارنة في اللجاة فاز فيها الدرود وفي سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨) قهرت الدولة النصيرية بقهر زعيمهم إسماعيل هواش وجردتهم من كل رعاية وخصوصية ، والسبب في هذه الفتنة أن طائفة الكلبيية عصت أوامر الحكومة فأرسلت هذه خمسمائة فارس ضربت قرى الساحل ، واتصلت الأخبار بالنصيرية فهاجموا الجند وقتلوا منهم فجهزت الحكومة بعد أيام عسكرياً عظيماً وهاجمت الطائفة وجعلت قوة لها في الساحل وزحف النصيرية ولم يلبثوا

أن أحاطت بهم العساكر من كل جهة فدافع النصيرية حتى فقدوا خمسة وعشرين رجلاً وفي اليوم التالي التحم القتال ودامت المناوشات والمقاومات أربع سنين حتى أرسلت الدولة عسكرياً جراراً ، وندبت كامل باشا لإجراء الصلح بين الدولة والنصيرية فم ذلك على يده .

مبدأ المذابح المعروفة بمحاذة سنة الستين وحاذة بيت مري ودير القمر :

استطال النصارى بعد حرب القرى ، ولا سيما في لبنان ، وأخذت الدولة تثير الدروز على النصارى على ما يؤكده الغربيون والنصارى ، وبقيت الحوادث تتوالى والأصابع العثمانية والأجنبية تعبت بعقول المغفلين ، وكانت الثورات على ما في تاريخ زحلة تتوالى والحصام يزداد اتساعاً ، وعوامل الحقد تسكن القلوب فتحركها على جر الويل وإهراق الدماء ، وكان ذلك من أهم ذرائع التنافس والتناوب بين المسيحيين والدروز ، وكان البلاد ألقت التعصب فتوالى عليها من العصبية القيسية واليمانية واليزبكية والجنبلاطية والمعلوفية والمكارمية والزحلية والقنطارية ، ثم بدأت العصبية المسيحية والدروزية ، فكانت الأخيرة أشد من الأولى ، وتحفز الدروز للتنكيل بالمسيحيين ولا سيما سكان زحلة ودير القمر الذين أوغروا صدورهم ببسالتهم ونفوذ كلمتهم لدى إبراهيم باشا والأمير بشير لمعاضدتهم لها .

بدأت الفتنة العظمى بهجوم شرادم من الدروز على قرية بيت مري في لبنان يوم ٣٠ آب ١٨٥٩ فانهزم الدروز وأحرقوا ثلاث قرى مسيحية وقتل بعض رجالها ، وفي الربيع التالي بدأت الدروز تفد على المختارة مركز آل جنبلاط كبار مشايخ الدروز . قال مشاققة : وفي شهر نيسان من تلك السنة ورد أمر إلى خورشيد باشا من السلطان بإهلاك النصارى عن آخرهم واطلاق أيدي الأوباش ، فألح خورشيد باشا على سعيد بك جنبلاط أن يصدع بالأمر فأوعز إلى رجاله بالهجوم على النصارى ، فقتل الدروز بضعة عشر منهم في الطرق ، ثم وقعت مناوشة في دير القمر وأرغم طاهر باشا قائد الحامية في دير القمر نصارى الدير على تسليم سلاحهم له ، وبعد أن جمع سلاح النصارى سمح للدروز

بالمهجوم على المدينة فسالت الدماء أنهاراً ثلاثة أيام ، ولم ينج من النصارى إلا عدد قليل ، ثم أحرقوا المساكن وارتكبت الجنود التركية مع النساء على عاداتها ما ارتكبت ، وبلغ عدد قتلى الدبر على رواية مشاقة ما يقارب ألفي نفس من الرجال البالغين والنساء والأطفال ثم أعمل الدروز سيوفهم في أهل جزين . فحوادث الشام سنة ١٨٦٠ بدأت إذاً ببيت مري في السنة الماضية وثنت بدبر القمر ومن هناك انتشرت في الأطراف .

مذابح حاصبيا وراشيا ورأي إنكليزيين في أصل المذابح :

طلب والي دمشق الخراج المتأخر من دروز حاصبيا وعين أحد الشهابيين في فرقة من العساكر لشد أزره ، فتألب دروز وادي التيم وإقليم البلان على الشهابي في حاصبيا وهاجموها ولم يلاقوا مقاومة شديدة من النصارى لقلّة عددهم وكان عدد القتلى متساوياً بين الفريقين ثم نزع من النصارى سلاحهم ، وأخذ الدروز يفتكون بهم ويحرقون مساكنهم ، ثم تنحى العسكر التركي وترك الدروز وشأنهم مع النصارى فقتلوا منهم ٧٢٤ رجلاً وقتل من الدروز والأتراك أربعون . وفي اليوم الذي جرت فيه مذبحه حاصبيا باغت دروز حوران نصارى راشيا الوادي في بيوتهم وفي السراي على مرأى من الجنود التركية وبمساعدهم أجهزوا على جمعهم وقتلوهم مع أمراء الشهابيين ولم ينج منهم سوى أميرين ثم نهبوا بيوتهم ، وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة . وهاجم دروز حوران بقيادة إسماعيل الأطرش مدينة زحلة فردهم أهلها مراراً ، وطال القتال يومين فاضطر الدروز إلى الرجوع عنها ، ثم عاد الدروز ومعهم الجند العثماني وأحرقوا جانباً من المدينة وأخذ الجند يرتكب الفاحشة واغتصبوا الراهبات ونهبوا الكنائس والأديار ، فلم يبق لدى قناصل الدول شك في أن الدولة العثمانية تريد هذه المذابح وتدبرها حتى لا تطالبها الدول بحماية النصارى وتجند سبيلاً إلى مراقبة أعمالها الجزئية والكلية مما يسقط من منزلتها، وقد هلك من الزحليين نحو مئة إنسان لأنهم لم يمكنوا الدولة من إدخال جندها إلى بلدهم . وإسماعيل الأطرش هذا قتل يوم جاء لمعاونة أبناء مذهبه في واقعي

راشيا وزحلة ١٣٥ نصرانياً التجأوا من إقليم البلان إلى شيخ قرية كناكر .
قال اللورد دوفرين : « لم يبق أذى ريب يحول دون نسبة المذابح الأخيرة
وجميع الحروب والاضطرابات والمنازعات التي انتابت لبنان في مدى الخمس
عشرة سنة الأخيرة إلى استياء الحكومة العثمانية من الاستقلال النوعي الممنوح
للجبل ، فجعلت مرمى سياستها أن تبرهن على أنه يتعذر العمل بطريقة الحكم
التي منحها الدول لبنان في سنة ١٨٤٥ ، ولهذا كان الأتراك يفتنمون الفرصة
لإثارة دفاثن الأحقاد القديمة بين الدرروز والموارنة ، ولما ازداد تعجرف المسيحيين
وتعصبهم بقوة المساعدات الأجنبية التي فازوا بها ، ثقل على الأتراك احتمال
وطأة استقلالهم ، فعملوا العزم على اتخاذ الدرروز آلة ليقوعوا بهم ويضربوهم
ضربة أشد إبلاماً مما تقدمها ، بيد أن ما حدث في حاصبيا وراشيا ودير القمر
قد جاء مجاوزاً الحد المنوي لعدم توفر شروط اللباقة في خورشيد باشا وأعوانه
لإنفاذ سياسة دهاء كهذه ، فأفرطوا فيها بحيث افتضح سر سياستهم وكان له
دوي هائل في الأندية الأوربية » .

وقال أيضاً : « لما زرت هذه الأصقاع (لبنان) قبل استيقاظ الفتنة ببضعة
أشهر شاهدت أماراتها بادية في عواطف الفريقين ، فالدرروز كانوا مستعدين
للقتال ، والموارنة كانوا يعتقدون أن قد آذنت ساعة فوزهم ، كما أن دخل
الجمارك يثبت أن قد أدخل إلى لبنان من كانون الثاني ١٨٥٧ إلى ربيع ١٨٦٠
أكثر من ١٢٠ ألف بندقية و ٢٠ ألف مسدس وكان من المشتهر انصراف
المطران طوبيا وشركائه إلى إيقاظ الفتنة. » إلى أن يقول : « فمن العيب وصف
النصارى بأنهم شهداء قديسون فهم يضاهون جيرانهم الدرروز في حروبهم همجية
وظمأ إلى الدماء ، وكثيراً ما كانوا يقتتلون بعضهم مع بعض ولا يعفون عن
النساء . يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الحازنيين منذ سنتين ، ومثل
هذه المعايب كثيرة في تاريخهم ، بيد أن الدرروز هم من هذا القبيل أكثر شفقة
من غيرهم فلا يقتتلون بعضهم مع بعض ويحترمون النساء ، وعليه فمن الخطأ
وصف القتال الذي جرى بين الدرروز والموارنة بمثابة اعتداء وثنيين برابرة
على أتباع دين المسيح الودعاء ، بل هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في

الهمجية ، أنزل الفائزون في أعدائهم البلية التي كانوا مهددين بها فيما لو تغلب هؤلاء ، وإذا كان الدروز ارتكبوا في هذه الحروب فظائع أكثر بربرية من المعتاد فالسبب فيه تدخل الأتراك وشدة حنقهم على النصارى وقد أثاروه بتهديدهم وعجرفتهم . »

وقال قنصل انكلترا في دمشق على ذاك العهد : « لقد بقي من كل ما رتبته المصريون شيء واحد سالما وهو عتق النصارى من رقهم على أن هذا ربما يصير عاملاً جديداً لاستئناف الاضطرابات لضعف الإدارة العثمانية وظلمها ، والظلم يدفع إلى المقاومة والضعف يزيد في التمرد ، والسكان يؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة ومن طوائف نصرانية متعصبة يعادي بعضها بعضاً ، والحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع ولهذا أمت مضطرة إلى إثارة طائفة على أخرى بإيقاد جذوة التحاسد والبغضاء بينها ، وبمثل هذه المسائل تتمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها ، بيد أنها تخسر ثقة الرعايا بها وتعكر كأس الوثام بين العناصر المختلفة ، فتحول دون كل تقدم ونجاح . »

مذابح دمشق ورأي الغريب والوطني في تحليلها :

وبعد هذه النصوص المعتبرة لم يبق شك في أن الدولة هي التي وضعت الخطة العوجاء لذبح النصارى ليتيسر لها أن تمتلكهم وتضعف من غلواء المسلمين أيضاً شأنها في معظم أحوالها في كل بلد نزلته . والموارنة كالدروز لا يخلون من المواقظة الشديدة ، اغتر كل فريق بمن كان يزين له الشر ويحسن له العاقبة بعد ارتكابه فآتمر بما أمر به ، فكان ذلك وبالاً عليه وعلى جاره ، ولم يخسر الدافع لهما شيئاً . وما كان يخطر بالبال أن هذه الشرارة تسري إلى دمشق مدينة التسامح والطف ويقوم رعايا المسلمين بمعاونة الدروز يؤذون من أمروا بالإحسان إليهم بعد أن عاشوا وإياهم ثلاثة عشر قرناً في صفاء وهناء .

ويؤخذ مما قاله مشاققة أن مذبحه دمشق لا علاقة لها بحوادث لبنان على ما قيل ولا تعزى لها الأسباب التي عزيت لتلك ، وأن من أسبابها الأولية عبث النصارى بالشريعة التي أحدثتها الدولة على أثر حرب القريم مكرهة من دولة

الروس ، وهي مساواة الرعايا بالحقوق المدنية ، وإعفاء النصارى من الخدمة العسكرية ، وقيل : إن الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة التي يقال عنها المساواة وهي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبها على النصارى وتجعل لهم سبيلاً إلى بغضهم ومقتهم ، ولو كان النصارى وقتئذ على شيء من الحكمة لرفضوا إعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم من الوطنية ، وأبكت لسانهم عن المطالبة بحقوقهم . قال : وكان مسلمو دمشق عامة وسورية خاصة يسفهنون عمل الدولة التركية الذي قامت به مضطرة عقب حرب القريم ، وكثر تدمير المسلمين من الدولة مع التفرغ ، فأجابتهم أنها لم تفعل ذلك إلا مضطرة ، وبلغ من حقد المتعصبين أنهم تأمروا وألقوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية وإبدالها بدولة تعيد مجد الإسلام ولا تخضع لأهل النصرانية وبلغ الأتراك أمرهم فأوغروا صدورهم على النصارى ليلهؤهم ويتخلصوا من شرهم .

وبعد أن فصل هجوم النصارى على مطران الروم بدمشق يريدونه على أن يرفع عنهم حيف الحكومة ، وطلبها بدل الخدمة العسكرية منهم ، وذكر كيف عرض المطران على الوالي بأن النصارى تجمهاوا جمهرة العصاة وأرادوا الإيقاع به ، قال : إن الوالي لم يشأ أن يردع النصارى رأساً وأناط بتأديبهم رعاي المسلمين الذين كانت الحكومة تخشى بطشهم ، ولا تتجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب ، وكانت الحكومة غير راضية عنهم لفتكهم ببعض وزرائها وامتناعهم عن إجابة مطالبها ، ورغبة أحمد باشا (والي دمشق) بإثارتهم على النصارى كي يتخلص منهم أو من بعضهم فيقل عددهم وتضعف شوكتهم ويصبح إخضاعهم لأوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دولته الخطر الذي كان يتهدها به مسلمو دمشق وقد جاهرها بخلع دولة الأتراك عنهم وراسلوا دولة مصر لتأتي لتجديتهم ولم يفلحوا .

« فرأى والي دمشق للوصول إلى هذا الغرض أن ينصب المدافع على أبواب الجامع الأموي وقاية للمسلمين الداخلين إليه في أوقات الصلاة من غدر النصارى ! وأمر في عصر اليوم التاسع من تموز ١٨٦٠ بإخراج الرعاي المسجونين من المسلمين بقصد تطوافهم في الشوارع وهم مكبلون بالقيود إرهاباً للشوار من المسلمين والدروز معاً ، فلما وصلوا إلى باب البريد هجم بضعة من المسلمين على الخفر وبتشوا به وخلصوا رفاقهم ونادوا بالجهاد ، فهجم الأوباش على

المسيحيين في بيوتهم ومحلاتهم ووضعوا السيف فيهم ، قتلوا الرجال ، وسبوا العيال ، وهتكوا الأعراس ، وراحوا بالعروض والأموال ، وقتلوا بعض الرهبان الفرنسيسكانيين .

وذكر برانت فنصل بريطانيا أن السبب الرئيسي في إيقاد جذوة الفتنة أن أولاد المسلمين أخذوا يرسمون صورة الصليب في الطرقات ويدوسونها ويهينون المسيحيين المارين ، فقبض عليهم « التفكجي باشي » وقيدهم بالسلاسل وأكرههم على تكليس الطرق ، فهجمت الغوغاء وأنقذتهم فاشتعلت الفتنة . قال : وعندي أن أحمد باشا مخطيء في ضعفه مع مجلسه ، وعدم اتخاذه الاحتياطات التي أشير عليه بها غير مرة ، وإصراره على إبقاء رئيس التفكجية في مركزه ، مع اشتهاه بعدم الكفاية رغماً عن تحذير عدة أشخاص من جميع الطبقات منه قبل إيقاظ الفتنة بعدة أسابيع ، وإهماله إنقاذ مسيحيي حاصبيا وراشيا نكثاً بوعوده لما أخبر بالخطر المحدق بهم ، وتقاعده عن استدراك مهاجمة زحلة وقلة اكترائه بذبح الدروز النصارى إن لم نقل بتواطئه ، وهو القاتل ، على ما روي ، إنه يوجد في سورية آفتان كبيرتان هما المسيحيون والدروز فكلما ذبح أحدهما الآخر استفادت الحكومة العثمانية . وإن حظر حمل السلاح على النصارى والسماح به للمسلمين والدروز لا يمكن تأويله إلا بأن حكومة تلك الأيام كانت لا تهتم لفتنة تحدث أو أنها تود إحداثها أو لا تجسر أن تعامل الجميع بالسوية . وقال الماجور فرازر إن فوؤاد باشا قال له : إن الدمشقيين يكرهون الأتراك ، وأن من الضروري إلقاء الرعب في قلوبهم توطيداً لأركان الحكم العثماني فيتجنبون ركوب متن الفتنة .

وقد علل مشاققة سبب فتنة دمشق تعليلاً مقبولاً فقال : « إنه لم يكن لها تعلق بجائحة لبنان بل لها أسباب خصوصية نشأت عن تصرفات جهلة النصارى عندما عجز عقلاؤهم عن ردعهم ، فلما وضعت الدولة قوانين المساواة بين رعاياها من أي مذهب كانوا توسع جهلة النصارى في تأويل هذه المساواة بأن معناها أنه لا يجب على الصغير الخضوع للكبير ولا للوضع أن يحترم الرفيع ، وتوهموا أن أدنياء النصارى هم بمنزلة عظماء المسلمين ، ولم يريدوا أن يفهموا أن المساواة هي في الحقوق الشرعية والنظامية ، وأن من الواجب حفظ اعتبار

أهل الاعتبار بالدرجة اللاحقة بهم من أية طائفة كانوا خصوصاً النصارى نحو المسلمين ، وعليهم أن يعرفوا بأن كبراء البلاد ومعتبريها هم منهم ، والسلطنة مع وزرائها وعسكرها وجميع عظمائها من المسلمين ، وأن النصارى في سورية هم الجزء الأصغر والأضعف في كل شيء ، بكل الوجوه يجب على المسيحيين تقديم الاحترام الوافر نحو المسلمين ، والطاعة التامة لأولياء الأمور فيما يرسمونه لهم ٥١ » .

ضحايا مذابح دمشق وتخريبها :

قدر فنصل الإنكليز عدد من ذبحوا من نصارى دمشق بزهاء ٣٥٠٠٠ نسمة ، والغرباء الذي لجأوا إلى المدينة طلباً للنجاة نحو ٢٠٠٠ نسمة . وقال لورتيه : إن عدد من هلك من النصارى في فتن لبنان وحوادث دمشق بلغ اثني عشر ألفاً ، وأن في دير القمر وحدها تربة بناها أبناء وطنه فيها ستة آلاف من الهالكين وهو عدد فيه نظر . وقد قتل بعض النصارى في محال منفردة مثل نصارى جباع من عمل صيدا ، فإن الدرور انقضوا عليها وحرقوا بيوتهم ونهبوا القرى ، وأن مائتين وخمسين نسمة من جزين كانوا في الغابات فطاردهم الدرور من محل إلى آخر وقتلوا بعضهم ، ولم يصل منهم إلى قرب صيدا إلا خمسة عشر رجلاً فقط . وحرقت ميمس والكفير من عمل حاصبيا وهلك فيهما مائة وعشرون نصرانياً ، وخربت ثمان قرى للنصارى في البقاع وحرقت ، وقتل من بقي فيها من الشيوخ والأحداث بينهم النساء والأطفال واعتدي على العذارى ، وشوهدت من بيروت ثنتان وثلاثون قرية تحترق وذلك يوم ٢٨ و ٢٩ أيار وأمست بعض البلدان الزاهرة في لبنان مهجورة .

وقال كراهام : إن ستين قرية وبلدة في لبنان قد دمرت وأصبح هذا الجبل بلقياً ويتعذر معرفة عدد النصارى الذين قتلوا في مذابح جبل لبنان ، فالتخمينات متباينة ويقدر بعضهم القتلى بأربعة آلاف وآخرون بعشرة ، وهذا العدد الأخير مبالغ فيه كثيراً . قال وأرجح أنه لا يتجاوز الأربعة آلاف ، فقد جمعت عدة أبناء موثوق بها وعارضتها بعضها على بعض فتبين لي أن عدد القتلى في دير القمر

يختلف بين ١١٠٠ إلى ١٢٠٠ وفي حاصبيا وراشيا ٧٠٠ وفي صيدا ٥٥٠ وإذا أضفنا إليها ٢٠٠ لاجيء قتلوا في ٣٠ و ٣١ أيار في جوار بيروت وألف نصراني ذبحوا في بيوتهم على ما أرجح فلا أعتقد أن عدد القتلى يتجاوز ٣٥٠٠ ذكر ، وفقدهم يحرم القطر أيدي عاملة كان يتوقف عليها نجاحها .

وزعم لنورمان أنه يريد أن يكتب تاريخاً لا رواية خيالية ، ولكنه كان إلى المبالغة واستعمال أساليب الخطابة والخيال ، ومع هذا ننقل بعض ما ذكره مما عساه قد فاتنا تفصيله . أما المبالغات في الأرقام فمما نكله إلى فطنة القارئ يردها ببصيرته لأن قناصل الوقت في هذه الديار أصدق قبلاً ، وروايتهم أقرب إلى الصحة والسداد خصوصاً من لم يكن لدولهم رأي خاص إلا الحقيقة . فقد ذكر لنورمان أن ستين قرية في الغرب والتمن أصبحت في ثلاثة أيام خراباً يباباً ، وأنه قتل في مقبرة صيدا مائة واثنان وعشرون رجلاً وقتل الضبطية ١٧ شخصاً على أبواب صيدا ، وأن ألفاً ومائتي نصراني اختبأوا في غابة على أربعة فراسخ من صيدا فأحرقها الدروز والمسلمون فلم ينج منهم إنسان وهلكوا ذبحاً وحرقاً ، وأنه قتل في دير المخلص على مقربة من صيدا مائة وخمسون راهباً وأخاً ، عدا ما سلب منه من العروض والأموال التي جاء بها سكان الجوار وأودعوها الدير لأنه كان محترماً من الناس كافة قبل هذه الحوادث، وأنه قتل في حاصبيا تسعمئة وخمسة وسبعون مسيحياً لم ينج منهم إنسان ، وقتل من أمراء الشهابيين في وادي التيم أحد وثلاثون رجلاً ولم ينج منهم سوى ثلاثة لأن ضلعهم كان مع فرنسا ، وأنه أحرقت في أرجاء حاصبيا قرينا الكفير وشويا وفي عمل راشيا قرى بيت لها وكفر مشكة وعيحا وحرقت حاصبيا كراشيا كلها ، ولما جاء جيش الاحتلال الفرنسي في شهر أيلول سنة ١٨٦٠ إلى زحلة رأى نحو ستمائة جثة من جثث الدروز ملقاة على الأرض إلى جانب جثث قتلى النصاري ، وأن المدينة خربت ولم يحدث فيها قتل إلا في دير اليسوعية والباقي من أهلها هلكوا في الدفاع عن بلدهم وأنه قتل في دير القمر ٢٢٠٠ إنسان وأن ثلثمائة إنسان كانوا مختبئين في دار فلما جاء خورشيد باشا قائد بيروت قتلهم عن آخرهم ، وأن مسلمي بيروت وفي مقدمتهم عمر بيهم أعظم تجار تلك المدينة فتحوا بيوتهم للاجئين إليهم من المسيحيين ، وأخذوا يوزعون عليهم الأطعمة

وحوالوا بحكمتهم دون تدخل الرعاع من أبناء طائفتهم في الأمر فخفضوا من غلوأهم .

وذكر أن عدد المهالكين من ٣٠ أيار إلى ٢٠ حزيران في لبنان وسورية المجوفة كان أربعمائة إنسان في المتن والغرب وجوار بيروت ، وألفاً وثمانمائة في صيدا وجزيرين والكور المجاورة ، وألفين وخمسمائة في قضاءي حاصبيا وراشيا ، ومائتين وخمسين في زحلة ، وألفين ومائتين في دير القمر ومئة وواحداً وعشرين في بيت الدين ، وخمسمائة في بعلبك أي ٧٧٧١ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال ، وأنه خربت ٣٦٠ قرية وهدمت ٥٦٠ كنيسة ، وحرقت ٤٢ ديراً ، وهدمت ٢٨ مدرسة كان فيها ١٨٣٠ تلميذاً ، وخسرت الأقاليم التي وقعت فيها الفتن جميع محاصيلها السنوية ، وقدر مجموع ما فقد من أموال النصارى وعروضهم بخمسة وتسعين مليون فرنك يدخل فيها أربعة ملايين قيمة تعطيل التجار عن أعمالهم مدة شهرين .

أما بشأن دمشق فقد أغرق في التقدير أيضاً فقال : إن الحريق والنهب والقتل دام خمسة أيام من اليوم التاسع من تموز إلى اليوم الثالث عشر قتل في خلالها ٨٥٠٠ مسيحي ودمرت ٣٨٠٠ دار ، وقدرت الخسائر بمائة مليون فرنك ، ثم قدر عدد من هلكوا من النصارى بالأمراض والقلة بعد المذابح بثلاثين ألف نسمة ! وقال : إذا أضفنا هذا العدد إلى من نكبوا في هذه المذابح بلغ من هلك في دمشق ولبنان ٤٦٣٠٠ إنسان خلال سنة واحدة بتعصب المسلمين والدروز . قلنا وجميع التقديرات تثبت أن القتلى ومن هلكوا بسبب مصائب تلك الفتنة والأمراض لا يتجاوزون ربع ما قدره صاحب كتاب مذابح الشام على أن هذا العدد لا يستهان به أيضاً .

عمل الدولة والدول عقبى الحوادث :

ولما ترامت هذه الأخبار المشؤومة إلى الغرب أرسلت الدولة أحد كبار وزراء ذلك الوقت فؤاد باشا لإنزال العقوبة بالفاعلين من المسلمين والدروز ، وأرسلت فرنسا عشرة آلاف جندي للمحافظة ومنع التعدي وكذلك باقي الدول

الأوربية ، منها من أرسل مراكب حربية ، ومنها من أرسل نواباً لإصلاح الحال . وخيم جند فرنسا في البقاع تسعة أشهر وظلت السفن الأجنبية راسية في موانئ الشام وعددها عشرون بارجة، وعقد في بيروت مؤتمر دولي مؤلف من وكلاء الدول الخمس انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا ، وضع أساس نظام جديد للبنان أقره السلطان عبد المجيد ووافقت الدول عليه ١٨٦١ (١٢٧٧) ثم عدل هذا النظام سنة ١٢٨١ واشتركت به دولة إيطاليا مع الدول السابق ذكرها .

أعاد فؤاد باشا الأمن إلى نصابه ونفى بعض الأعيان من دمشق لأنهم لم يحولوا دون الأشقياء والسفلة وما أتوا من المنكرات ، وقتل ١١١ مسلماً رشفاً بالرصاص وشنق ٥٦ ونفى ١٤٥ وحكم بالأشغال الشاقة على ١٨٦ استخدموا في إنشاء الطرق وقضى غياباً بالقتل على ١٨٣ وفي عداد الذين قتلوا ١٨ شخصاً من كبار الأسر وأناس ذوو وجهة ، وسمح للنصارى الذين دانوا بالإسلام كرها أن يعودوا إلى دينهم وعددهم خمسمائة ، وأخلت ثلاث حارات في دمشق لسكنى النصارى ، وجند ثلاثة آلاف جندي من هذه المدينة وجعل البديل العسكري مائتي ليرة ، وأرسل زهاء ألف رجل للنفي والسجن إلى الإستانة وغيرها ، وقتل والي دمشق المشير أحمد باشا رمية بالرصاص لتساهله في إطفاء الفتنة وقال هذا يوم قتل : إني مظلوم وسماه الأتراك بالشهيد ، وكان من عظماء الدولة تربي تربية عالية في مدارس الغرب . وقيل : إن فؤاد باشا عجل بقتله مخافة أن تشيع الأوامر التي وردت إليه من الإستانة ونفذها ، وأنه لذلك بادر بأخذ حقيبة أوراقه منه ساعة اجتماعه به ، وقتل قائد حي النصارى وقائدي حامية حاصبيا وراشيا ، وعزل خورشيد باشا قائد الجند في الساحل ، وعوض على المتكويين من مال الدولة والأهلين . وقال قنصل بريطانيا : إن الخسائر المالية بدمشق من حريق ونهب وأعلاق وعروض وغيرها لا تقل عن مليون وربع ليرة ، وكان يرى أن خمسة ملايين ليرة لا تكاد تكفي للتعويض عن تخريب الأملاك ، وعن خسارة الأموال والحلي والجواهر والأمتعة الثمينة والسلع والملابس قال ذلك لفؤاد باشا لما قال له أن يفرض غرامة قدرها ٢٥ مليون قرش أي زهاء مائتي ألف جنيه . هذا عدا ما أصاب النساء من هتك

الأعراض وفض الأبقار وركوب العار وبيعهم من الأكراد وأهل البادية كما يباع الإماء كل واحدة بمئة إلى مئة وخمسين قرشاً .

أما الدروز في لبنان ووادي التيم ودمشق وحمص وحوران فقد نفى منهم نحو مئة إلى طرابلس الغرب ، ولم يقتل أحد منهم لأن النصارى طلبوا محاكمتهم بالشرع ، ولا بد في الشرع من شهود عدول ، والنصارى في هذا الحادث لا تصح شهادتهم ، والدروز لا يشهد بعضهم على بعض ، وإلا فإن فؤاد باشا أراد فيما قيل أن يقتل منهم خمسمائة رجل . ولاحظ المايجور فرازر بقوله إنه إذا لم يحكم على غير سبعة وخمسين قاتلاً فيستنتج من ذلك أن معظم من اشتركوا في المذابح لم يزالوا مطلقاً سراحهم ، لأنه من المستحيل أن يعتقد بأن أكثر من ثمانية آلاف شخص ذبحهم سبعة وخمسون رجلاً دع النساء السبايا واللائي عبث بطهارتهن . وذكر آخر أن الدروز لم يرتكبوا الفاحشة مع النساء وتركوا ذلك لرعا المسلمين .

عمل العقلاء في دمشق وبيروت ورأي مؤرخ منصف في المسلمين :

وهنا لا بد من التنويه بعمل أكثر عقلاء المسلمين في دمشق وبيروت خاصة ، وما بذلوه لحقن دماء أبناء ذمتهم من النصارى ، فقد أنقذوا ألوفاً منهم على ما يقضي بذلك الدين والشرف ، ولولا ذلك لم يبق منهم ديار ، وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر الحسيني ، فشكرته الدول النصرانية جمعاء ومما قالتها الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند في شكر صنيعه : إنها عرفت من سلوك سموه الفرق بين المسلم ذي العقل الراجح ، والجبناء المتظاهرين بالتدين الذين عملوا بإثارتهم التعصب على إبادة كثيرين من النصارى العزل . وقد كان للشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي ومحمود أفندي حمزة وأسعد أفندي حمزة والشيخ سليم العطار وسعيد آغا النوري وعمر آغا العابد وصالح آغا المهاني والسيد عمر بيهم إلى عشرات غيرهم من أهل العلم والسرورة في دمشق وبيروت ممن فتحوا بيوتهم لإيواء مواطنيهم المنكوبين يد طولى في هذا الشأن تذكر فتشكر ولقد قال السيد محمود حمزة قصيدة في تقبيح ما صدر من رعاي الدمشقيين من أفعال القتل والنهب منها :

يا وحوشاً صادفت في غابها آمناً فاستقبلته بالسهام
إلى أن قال :

بئس مصر قد خلت من حاكم جور سلطان ولا عدل العوام
قال مشاققة خلال كلامه على فلاح مسلم رأى نصرانياً بين القتلى الذين
أهلكهم الجزائر على باب عكا فأخذه إلى قريته وضمد جراحه ولما عوفي حملة
إلى دمشق لثلاثا ينتقل خبره إلى ذاك الطاغية : فهذه القصة ذكرتها ما ورد
في الإنجيل الشريف عن السامري الذي ضمد جراحات الواقع بين اللصوص ،
ولكن ما عمله هذا المسلم مع النصراني هو أعظم لأنه خاطر بنفسه لكي ينقذ
الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه قبلاً ، وهكذا يوجد من الصلاح والمروءة بين
المسلمين من يسدون المعروف للغرباء عنهم ، وكفى دليلاً على ذلك ما شوهد
بالعيان من أعمال حضرة الأمير عبد القادر الجزائري والمرحوم صالح آغا
المهاني والكثير غيرهم من أتقياء المسلمين من طبقات مختلفة في حادثة سنة ١٨٦٠
فقد صانوا ستة عشر ألف نسمة مسيحية عن الذبح بسيف الأشقياء والثائرين
الذين لم تصنعهم حكومة دمشق لغاية لم تعد مكتومة وهي لم تعرف بها ولكن
القرائن أثبتتها والتفوه بها ممنوع هـ .

من المسؤول عن هذه الفتنة الشعواء :

كانت هذه الفتنة سبب خراب قسم عظيم من مدينة دمشق ، كما خربت
مئات من القرى في لبنان ، وخربت زحلة وحاصبيا وراشيا ودير القمر إلا
قليلاً ، وأهم ما خرب الكنائس والأديار القديمة والبيوتات التاريخية الجميلة ،
وهام كثير من نصارى دمشق وغيرها على وجوههم في الأرض ، ومنهم من
هاجر إلى مصر وقبرص واليونان والإستانة وأصيب المسلمون بأضرار كثيرة ،
ولربما نجا المجرمون وقتل من كان جرمهم خفيفاً . والذنب كل الذنب على
الحكومة وعمالها أولاً لما أبدوه من الضعف ثم على الأقرب فالأقرب من
الأعيان والمشايخ والخاصة ثم على العامة .

ولو قام كل واحد من الأعيان والمشايخ بواجبه لحفّ الشر كثيراً في دمشق ، وربما امتنع عامة الأشقياء عن أعمالهم على الرغم من تخريص الحكومة لهم سرّاً أو من إبدائها تساهلاً ظنوا معه أنها تدعوهم إلى عمل ما عملوا . فقد ثبت أن والي دمشق قال للأمير عبد القادر الجزائري وهو يستأذنه للمحافظة على النصارى وإطفاء الفتنة : ليس لي من الأمر شيء ، وإذا كنت تستطيع أنت أن تحافظ بجماعتك المغاربة فلك ذلك فأجابه أن السلاح يتقضي ، فأعطاه سلاحاً لأربعمائة مقاتل . وفي تحفة الزائر أن الأمير عبد القادر استأذن الوالي يوم فتنة لبنان ودمشق في طلب مشايخ الدرروز إلى بعض القرى خارج البلد والاجتماع بهم ليعظّمهم ويحذرهم سوء عاقبة ما اعتزموا عليه فأذن له وخرج إليهم وتكلم معهم بما أثار فيهم فأذعنوا لنصائحه ووعدوه بأنهم لا يحركون في دمشق ساكناً ولا يثيرون فتنة ، ولما كان أمر الله لا يرد قويت بواعث الفتنة ولم ينجع فيهم نهي الحكومة ولا أثرت فيهم شدة انتقامها . قال واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة أربعة عشر يوماً في دمشق ، وما أوقع أحمد باشا الشهيد وجماعة من رؤساء الجند إلا اغتراره بأقوال من كان يستبعد أن يقع في دمشق ما وقع في الجبل ، لدعوى وجود البواعث المقتضية لذلك بين اللبنانيين وعدمها في دمشق .

ومن القرائن القوية على أن لحكومة الإستانة يبدأ في إثارة هذه الفتنة ، أنها أرسلت بعض رجالها قبل وقوع المذابح بأشهر إلى الشام وبعد ذلك تبدل وجه كل شيء وتغيرت معاملة الحكومة للنصارى . ومن يحسن الظن بالحكومة التركية ينسب ما جرى إلى إهمال العمال ، وإلى ما كان لديهم من الوسائط القليلة والرجال وأن الحكومة أرادت أن تنتقم ممن كانوا يتطلعون إلى دولة أخرى تحكّمهم كاللدولة المصرية ، ولسان حالها في الحقيقة بشأن هذه الفتنة المثل المشهور « لم آمر بها ولا ساعني » وماذا يهّمها قتل نحو أحد عشر ألف نسمة وخراب قُدّر ببضعة ملايين من الدنانير وغير ذلك من المقايح والمساويء ، إذا كان في ذلك تأييد سلطانها على قطر ما زالت سلطتها عليه اسمية منذ فتحته .

وقد ذكر العارفون من العرب والفرنج أنه لولا انتداب الدولة لمثل الداهية فؤاد باشا لعقوبة الرعاع وغيرهم ، لكانت أوروبا اشتطت في معاملة الدولة

وسابقتها بعض ولاياتها . ومن حسن الحظ أن هذه الفتنة لم تعد دمشق وأواسط لبنان ونجا منها شماله بفضل رجل اسمه يوسف كرم حال دون انبعاث الدروز إلى جهاته ، ولو اتصلت نيران الفتنة بأقاليم الجنوب والشمال ولم تبق محصورة في الوسط لكان الهول أعظم والخطب أدهى وأمرّ . ونجت جنوب الشام وشمالها لضعف الحكومة فيهما ، ولأن القول الفصل في كل بلد كان لجماعة من عقلائها ووجوهها فإن الرعاع حدثتهم أنفسهم أن يبیطشوا في حمص وحماة وحلب وطرابلس واللاذقية ويافا وغيرها فحال عقلاء تلك المدن دون الإيقاع بأحد من أهل وطنهم ، ولم تبطل أقاليمهم بما ابتليت به سورية المجوفة .

سوء أثر حوادث الشام في الدولة ومنازعة الدول لها في سلطانها :

سبع عشرة سنة مضت على الدولة وهي تحرك الشعرة الدينية لتضرب الدرزي بالنصراني وهذا بالمسلم ، حتى وصلت إلى هذه النتيجة المرمضة من إهلاك من أهلك وإضعاف من أضعفت ، فانتقمت من الذين قتلوا بعض ولائها قبل دخول المصريين ، ثم عاونوا محمد علي الكبير معاونة فعلية وأدبية ، وبالغت في عقوبتهم حتى أنستهم ما استمتعوا به على عهد حكومته الرشيدة ، وخلصت من حماية فرنسا وانكلترا للموارنة والدروز ، ولكن السياسة التي اتبعتها كادت تفشل ويخرج القطر كله من الحكم العثماني ، لولا الشدة في عقاب من قضت السياسة بعقوبته والإسراع بتنفيذ الأحكام والتعويض على المنكوبين . ولم لم يقو فؤاد باشا إلا على المسلمين لأنهم لا سياج لهم إلا الدولة العثمانية ، يوثرونها على غيرها مع اعتقادهم ظلماً وسوء إدارتها ، أما الدروز فإن لهم كالموارنة سنداً قوياً يحميهم . ولذلك لم يؤخذ أشقياءهم بما أجرموا ، وهذا من غرائب السياسة في هذا العصر أن يجعل القاتل في حلّ مما أتاه . ولكن المسلمين من جهة ثانية انتفعوا بهذه العبرة التي وقعت لهم وإن كلفتهم كثيراً ، فأصبحوا لا يثقون برجال الدولة على الحملة ، ويعتقدون أن الظاهر من أقوالهم غير الباطن ، وأن الدولة متى اقتضت مصلحتها تهلك أمة حتى تستفيد فائدة صغيرة ، وتخرّب بلداً إذا كان من ذلك مغمّ ترجوه . وبهذا العمل الأخرق الذي قصدت

به الدولة التفريق بين أجزاء قلوب أبناء الوطن الواحد المشتركة منافعهم المتحدة مرافقهم ، قد سلبت شطراً من سلطتها ففتحت أبواب ديارها للدول أوربا بأن أعطتها الحق لحماية طوائف من رعاياها ، وكانوا لا يرون غيرها مرجعاً لهم في الشام ، وأوجدت مسألة « حماية الأقلية » على مقياس واسع ، فنتج من ذلك إنشاء حكومات داخل حكومة ، وأصبح رؤساء الدين من النصارى يراجعون العمال في شؤون طوائفهم في التافهات والمهمات ، ويريدونهم على تأييد مطالبهم وإن كانت جائزة أحياناً ، وصار العامل إذا لم يخفض جناح الذل للرئيس الروحي على ما يجب يقيله من وظيفته بما لديه من الوسائط الفعالة . وأمسست دور القناصل بعد الحادثة محاكم دائمة للنظر في قضايا من علقوا آمالهم على الدولة التي تمثلها تلك الدار . وغدا قنصل روسيا مسيطراً على مسائل الروم الأرثوذكس ، وقنصل فرنسا الحاكم المتحكم في قضايا الباباويين ، وقنصل بريطانيا العظمى مهيمناً فيما يعرض للبرتستانات والدروز ، وغدا أهل كل نخلة يجعلون من الدولة التي يمتنون إليها معقد آمالهم ، ويدعون في سرهم وجهرهم أن يقرب أيام حكمها مباشرة عليهم ، ونزل كثير من الطوائف عن شخصياتهم فأصبحوا عرباً بالدم متفرنجين بالتربية والعادات ، يحتقرون ما كان عليه أجدادهم ويغالون في اقتباس ما عند غيرهم ، خصوصاً إذا كانوا ينتحلون نحلتهم ويرون في الآخرة رأيهم . على ان الحادثة فتحت لجميع السوريين أبواب الأخذ عن الغرب وما كان ذلك مما أضر على إطلاقه ، بل جاءت منه فوائد مهمة في باب الحضارة . والعبرة المهمة التي أخذها الناس من هذه الفتنة المشوومة إنقان جمهور تلك الطوائف التي عبث بها العابثون ، أن التبعة على قدر الفهم وأن القتلة وأرباب الدعارة نال شرهم الأبرياء من طوائفهم ، وأنه لا يؤخذ إذا جدّ الجد غير أهل المدارك وعيون الناس .

وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم فحلّ بغير جارمه العقاب

العهد العثماني

« من سنة ١٢٧٧ إلى ١٣٠٠ »

بعد فتنة سنة الستين :

خرج الأهلون في دمشق ولبنان بعد المذابح الفظيعة في تلك السنة المشؤومة ، وقد خسروا ماديّاتهم ومعنويّاتهم . هلكت النفوس التي حرم الله قتلها ، وهلك ألوف من النصارى ومئات من المسلمين والدروز ، وخسر أهل المدن والقرى أموالهم ، وخربت الدور والقصور ، وحرقت البيع والأديار . وكانت الخسائر في المعنويات أشد لأن الغرب أساء الظن بأهل هذه الديار ، وأجمل حكمه عليهم كافة وعدّهم متوحشين ظالمين ، ولم يستطع أحب الناس من الأوربيين للمسلمين أن يدافعوا حتى الدفاع عنهم ، مع علمهم بأن الفتنة أمر دُبر بليل ، والدولة هي المسؤولة أولاً وقد رجحت كفة الدروز في مدينة دمشق بما جاءهم من نجدات الحورانيين أبناء مذهبهم ، فكان من الدروز أن اشتركوا أكثر من المسلمين في هذه المذابح . وكان للجند النظامي وغير النظامي من الأجناس المختلفة يد في قتل النصارى في ضواحي صيدا وبيروت ودير القمر وحاصبيا وراشيا وزحلة ودمشق وغيرها ، وهم الذين هتكوا الأعراض على الأكثر فباعوا بالخزري والعار ، وأخذت أوروبا بعد أن قويت علاقاتها التجارية بالشام تسعى إلى تقليصها ، لأن كابوس الفتنة استولى بعد تلك الوقائع على العقول في الغرب والشرق سنين كثيرة ، وربما دام حتى انقرض من شهدوها وسمعوا بفظائعها .

جمعت الدولة للمنكوبين غرامات حربية من الأهلين بما زاد عن طاقتهم ، ولم يصل إلى المصابين كما قال مشاقة أكثر من ربع الذي تكلفت له الدولة ،

فضاع الربع الثاني في النفقات اللازمة ، والثالث اختلسه مأمورو الحكومة ، والربع الرابع ربحه صيارفة اليهود ، وبالجملة فإن الخسارة وقعت على الدولة والمسلمين والنصارى ، ولكن الدولة استعاضت عما فقدت بتذليل الرعايا وإخضاعهم لكل ما ترسمه عليهم ، حتى لقد جبي فؤاد باشا بقايا الأموال في دمشق التي أعيا الولاية تحصيلها على أيسر وجه ، ولم يبق للعشائر رؤساء تتعب الحكومة بمعارضة أوامرها .

وخرج لبنان من فتنته ممنوحاً استقلالاً إدارياً ، وأخذ يستمتع منذ سنة ١٢٨١ بنظام خاص فينتخب له الباب العالي متصرفاً نصرانياً بموافقة الدول الست العظمى ويعطي الدولة بالاسم ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس خراجاً سنوياً ، وبقيت تسد العجز في موازنة الجبل مدة طويلة ، وأهم ما ربحه لبنان القضاء نهائياً على سلطة أرباب الإقطاعات . وأصبح كما قال بعضهم في عهده الحديد ملجأ للأحرار من كل نحلة كما كان بفضل الأمراء المتولين عليه من آل عساف وآل معن وآل شهاب ملجأ للطوائف الكاثوليكية .

أما مسلمو دمشق فبدأت أيام ذلم بالقضاء على كبارهم ، وكان في قتلهم وتشريدهم عبرة لمن خلفهم أو نجا من المعمة ، وأصبحوا عبيد الدولة حقيقة في كل ما تأمر به ، حتى إن منهم من كانوا لا يراجعون الوالي وإن كان غلظه ظاهراً كل الظهور حتى لا يغضبه بزعمهم ، ولطالما حاول بعض الولاة العقلاء أن يعلمهم حسن الدفاع المعقول عن حقوق الأهالي ، فكان جوابهم أن افعلوا يا مولانا ما تشاءون فإننا لا نحب المناقشة مع العظماء . إفراط في العهد الأول وتفريط في العهد الثاني .

السلطان عبد المجيد وخلفه عبد العزيز :

توفي السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧ (١٨٦١) أي بعد مضي أشهر من انتهاء فتنة الشام ، وكان عهده سيئاً يحكم في شؤون المملكة السراري والجواري والمقربون في القصر السلطاني ويسرف السلطان في الأموال ويبدد ثروة السلطنة ، وكان إسرافه مبدأ ارتباك الدولة في ماليتها ، فإن عبد المجيد لما زوج ابنته فاطمة

من علي غالب بن رشيد باشا أنفق على الجهاز والعرس مليوني ليرة افرنسية . وكان كما قال دي لاجونكيير أكثر ملوك بني عثمان إنسانية ، اكتشف عدة مؤامرات رُتبت للإيقاع به فكان كل مرة يعفو عن المتآمرين ، فحمل إلى قبره أسف أمته وحرمة أوروبا له التي أثنت عليه على الرغم من فجاج الشام وجُدّة ، وذلك لكونه لم يقض على عمل السلطان محمود في الإصلاحات ولأنه ساعد ما وسعته قوته على تأييدها والاحتفاظ بها .

خلف عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز ، وأخذ لأول مرة يهتم لتنفيذ خطط الإصلاح التي وضعها أبوه وأخوه أولاً ، وبدأ بنفسه في إصلاح المالية ، فألى أن لا يتزوج بغير امرأة واحدة ، وأبطل الإسراف في نفقات قصره ، فتخلى عن جزء مهم من مرتباته ، ولم يلبث أن عاد إلى طبيعته في الترف ، وعاد الإسراف في أموال السلطنة إلى أشبع صورة بحيث لم تأت سنة ١٨٧٥م حتى أعلنت الدولة إفلاسها ، وتمنت لو تقرر من مصارف أوروبا بفائدة اثني عشر بالمئة . وفي التاريخ العام : ولسوء الحظ أن السلطان عبد العزيز نسي حالاً نياته الحسنة الأولى ، وأصبح في الحرم تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم وخادمة ، وكانت تُمدّ كل يوم خمسمائة مائدة ، ويجلس إلى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً .

نُشر أول قانون للولايات على أصول فرنسا سنة ١٢٨١ (١٨٦٤) وكان السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦) نشر خطأً سلطانياً يقضي بإدخال إصلاحات إدارية كثيرة في السلطنة العثمانية ، عاقت حوادث الشام عن تطبيقها في ربوعه ، فأخذ القطر بعد الحوادث المشؤومة يتدرج نحو المدنية ، وقد تخلص من أرباب الإقطاعات ، ولم يتخلص من أرباب النفوذ في المدن والقرى ممن كانوا يسرقون الأمة والحكومة معاً ، ويقاسمون الولاة والعمال على الأرباح . أما الولاة في أول القرن والقرن الماضي فكانوا لا يهتمون إلا بالاحتفاظ بولايتهم ويبدلون بسرعة كما قال أحد العارفين من الأوربيين بمن يجهلون كثيراً أخلاق الشعب وإدارة الأحزاب السياسية ، فينبذون وراء ظهورهم الاهتمام بإنجاح الولايات لأنهم موقنون بقصر مدة ولايتهم عليها ، فيكبّون مدة حكمهم على جمع الأموال الوافرة بقدر ما تمكنهم الحال . وفي أواخر هذا القرن تبدلت

الأحوال فأصبحت الدولة تبعث إلى الشام بأعظم رجالها يتولونها ، وفيهم المستقيم العفيف عن أموال الناس العارف بأصول السياسة والإدارة .
وفي سنة ١٢٨٠ شب قتال شديد بين بني علي والكلبية وهاجم الكلبية والنواصرة بني علي حتى بلغوا قرية ست يல்லو ثم حرقوا بتغراموا وديروتان ومغسلة وخربوها وكان الرجال يحاربون والنساء يشتغلن بالتخريب والإحراق وهجم بنو علي على الفرقة وديرونة ورويسة البساتنة وحرقوها - قاله في تاريخ العلويين .

وفي سنة ١٢٨٦ كانت الواقعة المعروفة في جبال النصيرية بوقعة الوالي ، وسببها أن طائفة الكلبية النصيرية ظهر منها شقاوة ، وخالفت أوامر الدولة فأرسلت هذه والياً لتمهيد الأمور وإرجاع العصاة إلى الطاعة ، ومعه جيش قدر بعشرة آلاف فسار إلى قرية الحديدية ورابط فيها ، فأرسل الوالي يطلب مقدمي الكلبية ووجوه النصيرية ومقدميهم ومشايخهم المعتمد عليهم من قضاء صافيتا إلى ناحية البجاق ولما وافوه قبض عليهم جميعاً وسار الجيش إلى قرية المرج وأمر بحرق القرداحة أكبر دساكر تلك الجهة ، كما أحرق بعض قرى الكلبية والنواصرة ثم مضى إلى بني علي وأحرق وأفسد وعذب جميع الطوائف النصيرية من عمل صافيتا إلى البجاق ، ولما شفيت صدور الجيش من العذاب والتخريب ، التأم مجلس إداري في جبلة فحكم بصلب ثلاثة من أعظم الطائفة الكلبية وصلب آخر من بني علي ، وأخذت الحكومة الباقين إلى بيروت فسجنتهم خمس سنين ثم برأتهم وأطلقت سراحهم .

ويحدثنا الشيوخ أن أيام السلطان عبد المجيد وعبد العزيز كانت سعيدة على الشام في الحملة ، وإن كان ذلك اللوران مبدأ تصفية حسابات الدولة ، فقد أعلنت رومانيا في أيام عبد العزيز استقلالها ، وتخلت الدولة عن الصرب ، وطلب سكان كريت أن تدخل الإصلاحات على جزيرتهم ، فلما رأوا إهمالاً من الدولة طلبوا ضمهم إلى اليونان ولكن الباب العالي قوي عليهم ونجحت سياسته. وفي سنة ١٨٦٨ نزع مصر عن الدولة ، وأصبحت خديوية تدفع خراجاً معيناً للسلطنة ، ثم هاج سكان البوسنة والهرسك وساءت حالة السلطنة وأصبحت

الديون العمومية أربعة مليارات فرنك بعد أن كانت قبل عشر سنين ٣٧٥ مليوناً أنفقها السلطان في خصوصياته . وبينما كان عسكر الدولة يحتاج إلى المال في بلغاريا ، والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ أشهر ، كان عبد العزيز يفكر في نقل قسم من ثروته الخاصة على باخرة أجنبية إلى أودسا . هذا والثورة فاشية في بلغاريا ، والصرب والجبل الأسود تحاربان الدولة ، وأوروبا تخاطب الحكومة في أمر النصارى الذين كانت تخشى على حياتهم مخاطبة الأمر للمأمور فتمس كل يوم عاطفتها ، وشهرت الدولة إفلاسها ولم يصرف السلطان من الأموال التي اقترضها سوى واحد من خمسة عشر على الجيش والأسطول . برهان واضح على قبح الحكم المطلق كيف كان نوعه وحالة القائم به ، وأنه إذا اتفق أن جاءت فيه بعض أيام راحة فهي نسبة لا تكون معياراً ، ولم تريح الدولة من عهد عبد العزيز سوى تأسيس نظارتين مهمتين: العدلية والمعارف .

خلع عبد العزيز وتولية مراد الخامس :

شقيت السلطنة بإدارة عبد العزيز وكادت تتداعى أركان الدولة وهو لاه في أفراجه لا يبالي بما تخبؤه الأيام ، ما دام كل من تحت سماء السلطنة عبيده الخاضعين ، وأصبح لا ينفذ أمراً للوزارة ، وكأنه عرف حالته فأخذ يفاوض امبراطور روسيا سراً ليحميه فاطلع الوزراء على الأمر، فلما رأوا سوء المغبة عياناً تأمروا على خلعهم ، فاجتمع الصدر الأعظم مدحت باشا وناظر الحربية حسين عوني باشا ورشدي باشا المترجم من أعاضم رجال السلطنة بالاتفاق مع الشريف عبد المطلب ، وكان ذلك برأي مدحت باشا أولاً ، وأسرعوا في خلع عبد العزيز على حين فجأة ، قبل أن يتقل ثروته إلى الديار الأجنبية ، ويطلع على ما دبروا له فيبطش بالمتآمرين ، وذلك بفتوى شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي أثبت فيها عليه العتة والجهل بالأمر السياسية ، والإسراف في أموال الأمة بما لا تستطيع تحمله وإنفاقه في شهواته ، وإخلاله بعمله في أمور الدنيا والدين مما ساق الملك والملة إلى الخراب . ونصبوا بدله مراد الخامس .

ولما كان عبد العزيز على جانب من عزة النفس وشمم السلطنة صعب عليه

الخلع فطلب مقرضاً يقص به شعره فانتحر بقطع بعض عروق يديه وقيل بل قتل بيد أئيمة وهو غير صحيح . وقد ساعد سفير انكلترا رجال الدولة القائمين بهذا العمل ، بأن استدعى قسماً من الأسطول الإنكليزي إلى ميناء الإستانة ليلجأوا إليه إذا انكشفت مؤامرتهم قبل إتمامها . ولما تبرع مراد في دست السلطنة تنازل عن ستين ألف كيس من مخصصات القصر وترك للمالية ريع المناجم والمعامل على حين كان يرسف في قيود ديونه التي تراكت عليه منذ ولايته العهد ، وقد أنافت على مليون ليرة وليس في الخزينة من المال ما يكفي إلا لسدها وبعض زيادة طفيفة ، والجند والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ أحد عشر شهراً . وكان مراد ليلة خلع عبد العزيز ارتاع فأصابه مس من الجنون لما بشروه بالبيعة له بالسلطنة ، على صورة لم يكن يتوقعها واشتد خلله بعد أيام من توليته عندما بلغه مقتل حسين عوني باشا فلم يتلطف مبلغه بالأمر وقال له إن الوزراء قتلوا فقال الآن جاءت نوبتي في القتل وبدأ معه الجنون المطبق ، فلم يسع أهل الحل والعقد إلا خلعه بعد أن سكتوا على ذلك شهرين ، فخلعوه بإثبات جنونه المطبق ونصب مكانه السلطان عبد الحميد الثاني يوم ١٦ شعبان سنة ١٢٩٣ ، بعد أن تعهد لمدحت باشا بأن ينشر القانون الأساسي ، ويؤسس في السلطنة حكومة دستورية .

عهد عبد الحميد الثاني :

تولى عبد الحميد زمام السلطنة وروسيا تهيج ممالك البلقان ، والدولة ماثلة إلى السقوط لإسراف عبد العزيز ، فألغى جانباً كبيراً من نفقات المطبخ السلطاني وكانت نفقاته على عهد عبد العزيز أربعين ألف ليرة في الشهر فأنزل مبلغاً لا يستهان به ، وقضى أن لا تخرج من المابين موائد الطعام بل أن يأكل فيه من له حق الأكل ، وألغى الامتيازات التي كانت لوالدة السلطان ، لأن والدته ماتت وهو صغير فتوفر بذلك ١٥٠ ألف ليرة نفقات سنوية ، وأخذ يتولى بنفسه إدارة الشؤون ويتفنن في الجاسوسية ليطلع على الصغيرة والكبيرة . لكن روسيا أعلنت الحرب على الدولة فترعت البوسنة والهرسك من أملاكها واستقلت الصرب والجبل الأسود ، وانهمز العثمانيون أمام الروس وخرجوا من حربهم

وقد أضاعوا جزءاً مهماً من مملكتهم وما يربو على مائتي ألف كيلو متر مربع من الأراضي ، وسبعة ملايين من الرعايا ، وانسلخت جزيرة قبرص عن السلطنة وقضت معاهدة برلين (١٢٩٤) أن لا تسلب من الدولة الإمارات التي كانت تابعة لها فقط ، بل نصف أرضها في أوروبا ، وأن يتعهد السلطان بإصلاح مكدونية وكريت وإرمينية وتحملت السلطنة غرامة باهظة. وأعلن السلطان القانون الأساسي في المملكة وسارع بتأليف مجلس نيابي ومجلس شيوخ واجتمع مجلس الأمة قبل أن يحضر نواب اليمن وبغداد والبصرة وطرابلس الغرب لبعده ولاياتهم واكتفوا بوجود ثلثي النواب ، وانتهت معاملة أعضاء مجلس النواب بعد ثلاثة أشهر من نشر القانون الأساسي ، ولم يكن انتخاب النواب بالرأي العام بل بتعليمات موقفة بمعرفة مجالس الإدارة .

ولما تناقش النواب في مسألة الصلح مع روسيا لم يرتضوا بالشروط الصعبة التي اقترحتها الدولة الظافرة وحدث في المجلس أخذ ورد ، شق ذلك على عبد الحميد وربما بدرت بوادر من بعض النواب بحق السلطان فأمر بإقفال المجلس ، وكان على حالة يرضى معها ان يتنازل عن ثلثي المملكة على أن يضمن له عرشه ، فصدر أمره بتوقيف أعمال مجلس النواب إلى مدة غير معينة وأمر بإخراج عشرة من نواب الولايات في ثمان وأربعين ساعة من الإستانة ، وكان منهم خمسة من ولايات الشام ، فأظهر بذلك أول صورة من صور استبداده خالف بها الأصول النيابية ، ولم تتمتع الأمة بحرية الدستور سوى أربعة أشهر لأنه صعب على مانحه أن يسير على غير خطة الاستبداد ، ونذر أن يجيء من المستبد إلا مستبد ، فزاد حتى الأحرار والغيورين على بقاء السلطنة العثمانية ، وأخذ هو يشتد خوفه على نفسه ، ويقضي على من كان خلع عمه عبد العزيز على أيديهم من الوزراء ، ولا سيما مدحت باشا الذي نقله إلى ولايات بغداد والشام وإزمير ، ومنها إلى حبس الطائف فقتله هناك ، وأخذ يستكثر من الجواسيس وأصبح ولا همّ له بعد سنين إلا اتخاذ الاحتياطات لذلك ، وكثرت أوهامه وظنونه ، وأنشأ يراقب المطبوعات مراقبة دقيقة مضحكة ، ولا يسمح بنشر جريدة ولا كتاب على الأكثر إلا إذا طُرز باسمه واختلقت له فيه الأماديح . وفي أول عهده (١٨٨١م) أخذ الصهيونيون يتزلون فلسطين مئات كل سنة ،

وهم مقدمة الصهيونية الذين كانوا يحاولون أن يقيموا بناء القومية اليهودية في فلسطين ويعيدوا لصهيون أي القدس مجدها بإنشاء المعبد الذي خرب وعرش داود .

انسبال الدروز على جبل حوران ووقائعهم :

مضت قرون على لبنان قبل منحه استقلاله النوعي عقيب حوادث الشام وهو بؤرة الفتن ، ومنبعث الثورات والقلائل ، لأنه كان فيه كتلتان عظيمتان بل دينان مختلفان الموارد والدروز . كل منهما يريد التوسع في السلطة ، وكل منهما تعلم الطاعة لرؤسائه وعماله ، يسير بقيادتهم يوم الكريهة ، أو يجتمع تحت لواء صاحب إقطاعه راضياً مختاراً ، وكل منهما يستمد من قوة غريبة . والموارنة أقدم استمداداً وصلات بالأمم اللاتينية من جيرانهم ، وجيرانهم أشد بأساً وأكثر مضاء أثبتوا ذلك في مقاتلتهم الصليبيين ، فكان قتالهم لهم أشد من مناجزة بعض الطوائف الإسلامية من سكان أرجاء الساحل لهم . فلما وقع ما وقع في حوادث لبنان عام (١٨٦٠م) قضت الطبيعة على بعض رجال طائفة الدروز أن يهاجروا إلى جبل حوران فحلوا إليه في فريق من إخوانهم أهل وادي التيم والجبل الأعلى وصفد وعكا وغوطة دمشق وإقليم البلان وكان منهم طائفة فروا من وجه القضاء في الأصقاع الأخرى ، وآخرون أتوا حوران بدافع الحاجة ، فكثروا سواد من كانوا حلوا في هذه الربوع أيضاً من أبناء مذهبهم ، وأول نزول الدروز في حوران بعد وقعة عين دارة المشهورة في لبنان سنة (١٧١٠م ١١٢٢هـ) فتألفت كتلة منهم هناك وقويت عقيب حوادث الشام ، وأخذ الدروز يرجعون إلى أخلاق البادية بعد أن أوشكوا أن يدخلوا في الحضارة في اللبنانيين الغربي والشرقي . اعتر قدماء الدروز بإخوانهم الذين جاءوهم وأخذوا يجمعون شملهم على عاداتهم بإمرة قوادهم ، وكان أهمهم بنو حمدان ثم أسرة بني الأطرش التي أصبح معظم الجبل بتدبير كبيرهم إسماعيل الأطرش خاضعاً لهم ، وسلطة هذا البيت تتناول أكثر أنحاء الجبل والأكثرية معهم على الأغلب . ومنذ نزول الدروز في حوران ما برحوا يناوشون النصارى والسنيين من أهل القرى والبادية

القتال ، حتى استقلوا به استقلالاً تاماً ، وكانت أول وقائعهم المشهورة بعد وقائع إبراهيم باشا ما حدث سنة ١٢٩٦ بينهم وبين أهل بُسْر الحريري من أجل فتاة ، فهجم الدروز على بسر وقتلوا من أهلها ثمانية أو عشرة أشخاص وقتل من أهل بسر خمسة أثناء الدفاع عن أنفسهم ، وعند ذلك تجمع الحورانيون ألوفاً ، وأراد مدحت باشا أن يجيب الحورانيين إلى مطالبهم وهي إنزال العقوبة بثلاثة وعشرين رجلاً من الدروز ، فأبى الدروز إلا أن يعطوا دية عن القتل ، وقصد أن يسوق قوة على حوران للتهديد لا للضرب ، ثم حلت المسألة صلحاً .

قال عثمان نوري في تاريخه : وعقيب ذلك طلب مدحت باشا إعفائه من ولاية سورية ، فاغتبط عبد الحميد بذلك لأنه كان يرى أن بقاءه طويلاً في هذه الديار لا يجوز ، لأنه تدرع بعمرانها وهو منه موجس خيفة على الدوام . وقال كان النزاع والجدال قائمين على ساق وقدم بين أهالي سورية المتباينين في الدين والجنس ، فلما وليها مدحت باشا دخلت في طور السكينة والأمن ، ولا سبيل إلى تقرير الحكم العثماني في أرض تتأثر فيها الأفكار بالنفوذ الأجنبي إلا بانتظام الإدارة وإجراء العدل وتنظيم المالية ، وهذا ما عمله مدحت باشا . وكان عبد الحميد يرثيه في كل ما يرثيه ، ويحول دون أمانه ، بحيث أن السلطان لم يكن يتوقف ساعة عن بث بذور الاضطراب في الولاية لينتقم من مدحت باشا ، وذلك بتحريض مثل المشير أحمد أيوب باشا وجميل باشا عليه اه .

انتهت مسألة الدروز بعد أن ساقَت الدولة عليهم قوة إلى القراصة من عمل نجران وقتلت منهم ستمائة واستأمن الرؤساء ، ولم يكن سواد الدروز في الجبل إذ ذاك أكثر من عشرة آلاف ، وتسمى هذه الوقعة بوقعة القراصة وهو ماء قرب نجران ، ولما لم تحسن الدولة الإدارة في الجبل زادت جرأة الدروز إلى أن كانت سنة ١٢٩٨ فهجموا على قريتي الكرك وأم ولد وذبحوا سكانهما على بكرة أبيهم ولم يبقوا حتى على الأطفال الرضع ، فسيقت عليهم حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا أسفرت عن ربط دية شرعية مقسطة عليهم ، وتأسيس قائم مقامية جبل الدروز مؤلفة من ثمان نواح وتعيين القائم مقام والمديرين منهم . كانت الدولة تقاسي الأمرين في تأديب عصاة الدروز كل مرة . قال مدحت باشا في مفكراته سنة ١٢٩٧ والذي زاد في الطين بلة أن فرنسا تحمي الموارد

الكاثوليك وانكلترا تشيع للدروز ، وكل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع نفوذهما في سورية أو ضرب إحداهما بالأخرى ، فلما أخذت الدولة أهبتها لتأديب الدروز قام سفير إنكلترا في الإستانة يشكو من ذلك ، ويكرر التردد على المايين والباب العالي فأصبحت الأوامر ترد تترى بحل هذه العقدة حلاً سلمياً .

ومن جملة تدخل فرنسا أنها تجاھرت بحماية يوسف كرم قائم مقام النصارى في شمالي لبنان لما ثار على متصرفه داود باشا لما أراد زيادة خراج لبنان من ٣٥٠٠ كيس إلى ٧٠٠٠ كيس ليزيل العجز من موازنة الجبل فنال من عسكر المتصرف فاستنجد هذا بوالي دمشق وبيروت فأرسل إلى متصرف الجبل زهاء عشرة آلاف مقاتل فسارت إلى كرم. وعندها تدخل قنصل فرنسا في الأمر ومنح الحماية الفرنسية ليوسف كرم فركب من بيروت على دارعة قاصداً إلى فرنسا وكان ذلك سنة ١٨٦٦ .

المصلح مدحت باشا وطبقته من العمال :

اضطر مدحت باشا أن يتخلى ويا للأسف عن ولاية سورية وقد طبق مفاصل الإصلاح في أرجائها الواسعة على أسرع ما يمكن ، أنشأ الطرق والمكاتب والمدارس ونشط الصناعات والزراعة ، وضرب على أيدي المرتشين ، ونشر الحرية الشخصية ، ولقن الحكام والمحكوم عليهم دروساً في الوطنية والشعور بالواجب وكان يرجى للشام أن تسبق الإستانة في الحضارة بفضل إصلاحاته لو طالت أيامه وأيام غيره من الولاة المقندين أمثال ضيا باشا في دمشق ، ورسم باشا وداود باشا في لبنان ، وكامل باشا في حلب ممن كانوا بسيرتهم معلمين للحكام ، وضعوا لهم أصول الإدارة ، وحرصوا حقيقة على إمتاع الناس بالعدل وأعمال العمران ، فكانوا حجة على الدولة بأنها تستطيع الإصلاح إذا أرادته على قلة الرجال لديها على شرط أن تركهم يعملون بوجداناتهم وعقولهم ، وما عهد إليهم تنفيذ من القوانين الكافية بمعرفة أرباب النزاهة من رجال الشام .

وقد تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ والياً وعلى حلب ٥٢ والياً

وهكذا سائر المتصرفيات الثانوية ، لا يسلم الوالي إلا ريثما يُودّع ، والطيب منهم هو الذي لا تطول أيامه خاصة ، لأن حساده كثيرون في الإستانة وفي الولاية التي يتولاها وتقارير الحواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد ، والدولة يصعب عليها أن تتفقت من قيودها القديمة قيود حكومة القرطاسيات أي المفاوضات الطويلة بالورق ، فإذا رأت رجل جد من أبنائها يحاول أن يعلمها الصواب في المعاملات ، لا تلبث أن ترميه بكل شعاء ، وكان حظ النوابغ في كل دور من أدوار العثمانيين ولا سيما في العهد الحميدي أن يغض منهم ويسعى إلى التخلص من إصلاحهم ومراميمهم ، ولسان الحال يناديهم لا نجب أن نخرج عن مألوفنا العاطل المجمع على عطله ونوثر أن نموت فيه على سلوك سبل التجدد:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميست إسلام

العهد العثماني

« من سنة ١٣٠٠ إلى سقوط عبد الحميد الثاني »

الحالة في مبدأ القرن الرابع عشر وإصلاح جبال النصيرية والسبب في خرابها:

غدت الدولة العثمانية أوائل هذا القرن قوية الشكيمة لسرعة الاتصال مع دار السلطنة ، وتشعب الأسلاك البرقية وطرق البريد ، وشدة مراقبة دول أوربا لأعمال السلطنة ، وتسابق الدول في تأييد نفوذهم في الولايات . وامتاز لبنان الذي كان يكثر ترداد اسمه بثوراته وإقطاعاته الحين بعد الآخر ، بأن انقطع ذكره بعض الشيء من باب المسائل المزعجة ، وأصبح يعمل لنفسه بما متع به من امتياز خاص ، ولم يعد الدرزي والماروني فيه يقتتلان كما كانا في القرن الماضي لتأييد سلطان ملك أو أمير ، أو للأخذ بيد صاحب الإقطاع أو حياً بالغارة والنهب والقتل .

ونشبت فتن في جبال النصيرية لأن هؤلاء لم يتأت لهم نصير من الغرب كما قام للبنانيين يأخذ بأيديهم إلى السعادة التي يتخيلها لهم ، ويسوقهم إلى طريق الحكم الذاتي ولو على صورة ابتدائية ، وكان أهل السنة المجاورين للنصيرية ينظرون إليهم نظر الازدراء ، وهم في جبالهم يعدون قوة بحسب حسابها ، وإذا كانوا طوع لإرادة مشايخهم ورؤساء قبائلهم كانت سلطة الدولة عليهم قليلة . وإذا كتب للدولة ان أحرزت بعض سلطان عليهم في الشواطئ البحرية أو في الأماكن القريبة من ضفاف العاصي من جهة الداخل ، فإن أعالي الجبال كانت معتمسهم ، وربما كان فيها أماكن لم تدسها حوافر الخيول التركية لوعورة مضايقتهم ، وقد أرسل السلطان عبد الحميد رجلاً من خاصته اسمه

ضيا باشا جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في مبدأ هذا القرن فرجع عن النصيرية الظلم ، ووسد الحكم لبعض مشايخهم ووجوههم ، بأن جعلهم أعضاء في المحاكم والمجالس ليشعر نفوس قومهم العزة بعد الامتحان والذلة ، وأنشأ لهم جوامع ومدارس فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون ، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً ، ونفس من خناقتهم فبدأوا يشعرون بأنهم بشر كسائر مواطنيهم وأنهم شركاء في هذا القطر لهم فيه حقوق سائر أرباب المذاهب وبعد أن ترك هذا المتصرف العاقل منصبه الذي دام بضع سنين على أحسن ما يكون ، مع أنه كان يعلمه في درجة الأمين ، خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دُنست ، وكانت الدولة في أكثر أدوارها لا تأخذ من معظم إقليم النصيرية شيئاً يذكر من الضرائب ، والقائم مقام الذي يجبي منهم ضريبة السنة أو بقايا ضرائب السنين السالفة تصفق له الدولة وينال تقدير ولاية الأمر فيشرفونه برتب الدولة ومراتبها ، وكانت جباية خمسين ألف قرش من النصيرية تستلزم إعداد حملة عليهم ينفق عليها ما يقرب من المبلغ المجبي أحياناً .

قلنا: إن النصيرية كانوا ينظر إليهم نظر ازدراء . وقد سألنا عالم جبلهم في أيامنا الشيخ سليمان الأحمد عن رأيه في الحوادث الأخيرة ، فكتب إلينا يقول ما نثبته بالحرف لأن قوله حجة في هذا الباب قال : « كان أهل الحاضرة (اللاذقية) في هذا القرن يعدون ما يفعله جهلة العلويين (النصيرية) بفتيا علماء الدين ، فيعصبونه بهم لدى الحكام ويفرونهم بهم وبالرؤساء ، ويحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة ، وكان الدين أعظم الوسائط التي توصل بها إلى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصائب العظيم الذي وقع على آل سعيدهم البهلوية من أشرف وأجل البيوت العلوية في حادثة سنة ١٢٩٥) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية ، بل على وجهاء البلد ورؤسائه السنين وعلمائهم ، ثم على أهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا يسارعون لما بين عشائرتهم من الضغائن والأحقاد والغارات إلى الدخول بخاطر الأغوات ثم بخاطر الحكام عن أيديهم ، ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة ، وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم وبعشيرته على عدوه . ولا تسل عما تفعل الهمجية . ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل أشرافها

وذلك ، عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك ، حسبما تقتضي سياسة التفرقة والأحوال . ولا أدري إلى أي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله أن يحسم أسبابها بأيدي المصلحين . والتبسط في شرحها لا يجدي أو لا ينتج إلا أن الشرقيين هم السبب الأعظم في بلاء أنفسهم وحنة الله فيه على المتسمين بسمات الدين ، وتلك حزازة في نفوس المصلحين . والذي أراه أن قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلويين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية ، وكانت الحكومة إذا أخرجت جردت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت ، فإذا رجعت العساكر ، عادت العشاير إلى ما كانت عليه ، يضبط الحاكم الحازم جماهم ، ومتى بدل بحاكم ضعيف الإدارة أو مرتش ، عم البلاء من الرؤساء الفسدة والأشقياء الجهلة . لما حكم إبراهيم باشا المصري قطع دابر أهل الفساد ، وضرب الأمن أطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها نهب ، ولا قطع سبيل ، فرنع الأنام في بحبوحة الأمن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والإنصاف ، فلما دالت دولته حصل من اختلال الأحوال ما لا يحصره المقال اه .

فتن درزية وفتن أرمنية :

كان يظن بعد أن خمدت نائرة الفتن في لبنان وما إليه من جبل اللكام أن الناس يرتاحون من الحملات والغارات إلا ما كان من غزو البادية بعضهم مع بعض فإن ذلك من المتعذر لأنه مرض قديم مستعص نشأ قبل الإسلام بقرون ، ولم تقو جميع الحكومات التي تعاقبت على الشام أن تقضي عليه وتستأصله من أصوله ، بيد أن القوة التي أحرزها جبل حوران بالدروز الذين هاجروا إليه جعل من الجبل موطن غارات وغزو ، وأصبح هذا الجبل لإبرة سفينة الأمن في الشام ، وكان يتلبس بهذه الصفة جبل لبنان في القرون الماضية فيتعب سائر الأرجاء الشامية ، ويضطر الحكومة أن تتقي شره بإثارة أهل الجوار عليه ، وإلقاء الخلاف بين أمرائه ومشايخه .

نشبت فتن في جبل حوران في أعوام مختلفة ، وكثيراً ما كان بعض أشقياء

الدروز فيه يطيلون أيدي الاعتداء على سكان حوران والغوطة والمرج وجبل قلمون ، فيتحد أشقياء القرن القبلي منه مع عرب السردية ويغزون في البلقاء وما إليها قبائل بني صخر والحويطات والسرхан وقرى حوران الجنوبية ، وينضم أشقياء القرن الشرقي إلى عرب الصفا يغزون تجار بغداد ودير الزور ، ويتحد أشقياء القرن الشمالي مع عرب الحسن ويهاجمون قرى جبل قلمون والنبك وحمص ، ويتحد بعضهم مع عرب اللجاة فيسلبون قرى سفوح جبل حوران ويقتلون الموظفين ويمثلون بالعسكر إذا خلوا بهم ، ولا يدفعون الأموال الأميرية ، وبذلك تأيدت شوكة الدروز وخافهم جيرانهم من أهل القرى والبادية ، وتخوفت الدولة عاقبة أمرهم للرابطة القوية بين أفرادهم ، وهم إذا جاءهم الغريب ، والدماء تسيل بينهم كالسيول ، لا يلبثون أن يكونوا عليه يداً واحدة ويصدقوا قتال عدوهم المشترك ، بما فيهم من شمم وإباء عربي وعند الشدائد تذهب الأحقاد .

رأى الدروز في سنة ١٣٠٤ وقد ارتاشوا وتأثلوا ونما عددهم أن يستولوا على قرى اللجاة للتحصن بها عند الإيجاب واستثمار ما يمكن استثماره منها فاحتشد نحو خمسمائة فارس منهم بقيادة شبلي وفندي الأطرش ، ووصلوا إلى المسمية وهاجموا قلعتها فردوا عنها . وفي سنة ١٣٠٨ انقسم دروز حوران إلى فرقتين المشايخ والعامه وزادت بينهم العداوة والبغضاء فأدى ذلك إلى حدوث وقائع متعددة ودخل بعض المشايخ إلى قلعة المزرعة فأرسلت عليهم ست كتائب مشاة وألأي فرسان مع مدافع ، وفي أثناء مغادرتهم ثكنة المزرعة تعرض لهم العامة فقابلهم العسكر بالضرب ، فانهزم الدروز بعد أن تحملوا خسائر كاية ودخل الجند السويداء وأسرعوا ببناء ثكنة عسكرية . وتعرف هذه الواقعة بوقعة العامة ونال الدروز من الجند في سنة ١٣١١ في طريق المزرعة وحاصروا قلعتها ثلاثة أيام . وفي سنة ١٣١٣ هجم الدروز على قرية الحراك وقتلوا أكثر أهلها وهدموا جامعها الحصين ونهبوها مع قرى المليحة الغربية والمليحة الشرقية وحريك ودير السلط وكحيل فأرسلت الدولة عليهم (١٣١٤) حملة بقيادة أدهم باشا ولما بلغ أول حدود الجبل تعرض له الدروز فقابلهم العسكر بالمثل ، وبعد وقعة القراصة ونجران والسجن وأم العلق دخل العسكر السويداء .

ولو وضعت الإصلاحات الإدارية موضع العمل يجد ونشاط لاستقام الأمر كثيراً ، ولقلت الفتن التي تقع بين الرعايا والعمال .

وكانت الحكومة سنة ١٣١٥ تنذر بتطبيق أصول الأعشار بصورة الأمانة على حسابها ، فقتل الدروز ضابطاً كبيراً مع ثلاثين جندياً في عرمان ، ومدير ناحية صرخد وزفقاءه من الدرك ، وأكثر حراس الأعشار في جميع قرى الجبل فأرسلت عليهم الحكومة مفرزة مؤلفة من أربعمائة جندي وفي رواية درزية أربع كتائب قتلوها بالفووس والسيوف إلا قليلاً في محل يدعى العيون قرب عرمان وغنموا مدفعين وجميع الأسلحة والذخيرة وحاصروا ثكنة السويداء ٢٨ يوماً ريشما وصلت القوة العسكرية بقيادة المشير طاهر باشا مؤلفة من ٥٤ كتيبة ، وحدث بينهم وبين كتيبتين كانتا في آخر القوة حرب دامت ست ساعات وانهم الدروز في وقعة الشبهة . وخوفاً من وقوع قتل عام رجع العسكر عنهم . وفي هذه المرة قبضت الحكومة على ستمائة رجل منهم مائتان من رؤساء العصابات ، ونفتهم من الشام ثم أرجعتهم مكرمين من الإستانة فابتاعوا بالدرهم التي نالوها من إحسان الدولة سلاحاً في طريقهم ليقاتلوا به عمالها .

وفي سنة ١٣١٩ ساقطت الدولة على الدروز قوة من الفرسان والمشاة إلى الصفا واللجة للتنيكل بهم ، واسترداد ما سلبوه من المواشي وغيرها . وفي سنة ١٣٢١ وقع خصام بين طائفتي الحلبية والمغوشين من الدروز أسفرت عن قتل أكثر من أربعين شخصاً ، فأرسلت الحكومة ثلاث كتائب لإجراء التحقيق . وهكذا توات وقائع الدروز وأكثرها في مقاومتهم للدولة كلما أرادت أن تدخلهم في الطاعة ، وتجري عليهم الأحكام التي تجري على جيرانهم من أخذ رسوم الأغنام ، وتسجيل الأملاك أو النفوس أو أخذ الأعشار . ولكم جرت وقائع لذلك في قنوات ومفلة والشوفي والحجلة والكفر ونجران ، وكم من وقائع بين المساعيد والعزام وبين بني الأطرش الدروز وبني المقداد السنيين . وبعد جهاد أربعين سنة أصبح الدروز في جبل حوران الأكثرية المطلقة بعد أن كانوا أقلية في أواخر القرن الماضي وزادت نفوسهم ستة أضعاف عما كانوا قبل خمسين سنة .

الحملة على جبل الدروز وعلى الكرك :

وفي سنة ١٣٢٤ اعتدى دروز حوران على عرب المعجل فغزا الدروز المعجل في النقرة من حوران فقتل المعجل منهم نحو سبعين رجلاً ثم اعتدى المعجل على قافلة درزية وقتلوا رجلاً من أكابر بيوتهم بالقرب من براق ، فهاجمهم الدروز في ضمير من مرج الغوطة وقتلوا نحو أربعمئة من العرب ، وأبقوا على النساء ، وفي سنة ١٣٢٨ غزا دروز حوران جيرانهم أهل قريتي معربة وغصم وسكانها مسلمون ونصارى على أثر خصام وقع بين نواطير القرية ونواطير بصرى على الكرم فقتلوا ٥٩ رجلاً وامرأة عدا الجرحى ونهبوا القسم الأعظم من قرى السهوة وجيزة وسماقية وطيسة ، فأرسلت عليهم الدولة حملة مؤلفة من ثلاثين ألف جندي بقيادة سامي باشا الفاروقي فضربهم ضربة خفيفة قتل فيها زهاء ألف رجل منهم ونحو مئة وخمسين من الجند وأحرقت بعض القرى ولا سيما الكفر أهم موقع حربي في الجبل وحواليها دار معظم القتال ، وغنم الجند والضباط ما فيها من متاع وحلي وأرزاق مما حشره الدروز فيها من أنحاء الجبل ، ولم تستفد الدولة من هذه الحملة إلا احصاء نفوس الجبل ، واستأمن الدروز فحكم على بعض زعمائهم وأشقيائهم بالصلب فصلبوا في دمشق وجند بعض شبانهم وعفي عن بعض المجرمين وجرم بعض الأبرياء . وهكذا غرمت الدولة والأمة حتى امتلأ صندوق القائد فيما يقال ولم تنفذ خطط الإصلاح التي وضعت على العادة في كل مرة ، ومنها ما يرضى به الدروز لكن تطبيقه يحتاج إلى إخلاص وحكمة . وقد أبان الدروز في هذه الحرب شأنهم في أكثر حروبهم وغاراتهم عن مهارة في الفنون الحربية وشجاعة متناهية .

وأرادت الدولة في تلك السنة أن تحصي نفوس سكان لواء الكرك كما أحصت سكان لواء حوران ، فانقض أهل الكرك على الدولة لأنهم بادية على الأكثر والبادية تخاف الجندية أكثر مما يخاف منها أهل المدن والمزارع لأن عهدهم بالحكومة حديث وصعب التأليف بين طبائعهم ومعاملة الموظفين الفاسدين وكان لواء الكرك أسس في سنة ١٣١١ على سيف البادية بين الحجاز والشام ، وقد ثبت للدولة أن المرسلين يعملون بنشاط لتنصير تلك الأصقاع ، وكان ذاك الإقليم من قبل بعيداً عن كل سلطان ويحكمه رؤساء عشائره ، ولم يكن أكثر قراهم

معموراً مأهولاً، وكانت ديارهم كأنها قطعة من الحجاز القاحلة لا الشام الخصيبة، وصادف أن قطعت مرتبات عرب بني صخر والخرشان وغيرهم من أهل الوبر، فقام البدو الذين حرموا روايتهم وهي أربعة آلاف ليرة في السنة، ووسطوا على بضع محطات السكة الحديدية الحجازية على طول أكثر من مائتي كيلو متر في أرض اللواء، ونهبوا قطاراً بحمولته وقتلوا وجرحوا بعض موظفي الخط، وقام الكركيون باديبهم وحاضرهم وأطالوا يد الاعتداء على التجار والموظفين والحامية فقتلوا منهم نحو ١٥٠ إنساناً، ولو لم يلجأ أكثرهم إلى قلعة الكرك لهلك في هذه الفتنة بضع مئات وحرقت الأماكن الأميرية كلها ونهبت خزانة الحكومة ودور الموظفين وأحرق قسم منها، وخرب قسم عظيم من المدينة (٥٤٩ داراً) بإطلاق القلعة المدافع عليها وقطع العصاة الأسلاك البرقية وهاموا على وجوههم في البراري، وبعد أن جاء المدد للمحصورين في القلعة قبضت الدولة على عشرات من الثائرين عدا من قتلهم هناك صبراً وحكمت عليهم بأحكام مختلفة وأكثرهم بالقتل. ولم يشترك أهالي معان والطفيلة في هذه الفتنة، وكانت النية أن يقوموا مع الكركيين في يوم واحد. وجرت وقائع بين عسكر الدولة وعرب المجالي وبني حميدة وابن طريف وكورة وسليط وغورين وكثر ربا وعراق وخنزيرة والمعايطة وعبيد وجملامدة وأغوات بالقرب من قرية كفر ربة استسلم فيها بعضهم، وبلغ عدد القتلى من الكركيين نحو ألفي نسمة. ولم يحدث بعد هذه الواقعة شيء يذكر في أرض الشام اللهم إلا هياج العربان للغارة والنهب في الشمال والجنوب، وكانت الدولة تسوق عليهم قوى خفيفة تارة، وتتركهم وشأنهم تارة أخرى، خصوصاً إذا لم يقع منهم على أهل المدن والقرى اعتداء مباشرة، ولم يتدخل قناصل بعض الدول لمأرب لهم، كأن يكون في القتلى بعض النصاري أو أن تقضي السياسة بأن يوجدوا مسألة جديدة تحب دولة ذلك القنصل استثمارها في دار الملك.

ومن الحوادث التي وقعت في سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦م) الخلاف الذي وقع بين الحكومة المصرية والحكومة العثمانية على حدود الشام وعقدت بينهما المعاهدة المعروفة بمعاهدة رفح وتعين الخط الفاصل الإداري بين ولاية الحجاز ومتصرفية

القدس وبين شبه جزيرة طورسيا ، وكان للصحف الوطنية المصرية حملات على بريطانيا بهذا الشأن .

رأي في دلال الدروز والنصيرية على الدولة :

وفي الحق أن مسألتين في هذا القطر شغلنا الأفكار خلال هذه الفترة : مسألة النصيرية في الساحل ، ومسألة الدروز في الداخل . أما المسألة الأولى فمما يحدث له أمثال في كثير من الأقطار ، وتنتهي كل ثورة بصلب بعض أرباب النفوذ والسيطرة وتخريب بيوت الثائرين والساكنين . ورابطة النصيرية وتعلقهم بمشايخهم أقل من رابطة الدروز وهي أقرب إلى الحل إذا انعقدت . ثم لأنهم ليسوا من المعرفة بحيث يتطلون إلى تأييد سلطانهم ، أو تحذمهم أنفسهم بالاستقلال عن الدولة ، إذ لا ملجأ لهم من الأمم الغربية يرجعون إليه ويصدرون عنه ، ولكن هل كان دروز حوران مثلهم يا ترى ؟ بعد أن حاول إخوانهم غير مرة أن يقيموا لهم حكومة مستقلة في لبنان ثم انسالوا على جبل حوران يحاولون الاستقلال بربوعه ، والابتعاد عن سيطرة عمال العثمانيين في هذا الجبل الذي ينتهي العمران به وتبدأ البادية المترامية الأطراف ؟. إن ظواهر الحال تدلّ على أن الدروز في جبل حوران حاولوا منذ عهد إبراهيم باشا المصري أن ينزعوا أيديهم من أيدي حكام القطر ويستمتعوا بامتياز لهم خاص ، لأنهم يتقل عليهم حكم غيرهم في الحملة ، وبين عامتهم وعامة غيرهم فروق في الآداب العمومية والأخلاق والعادات ، وإذا ثاروا يعرفون السبب في ثورتهم ، لأن مشايخ العقل منهم يلقنون أجاويدهم ، وأجاويدهم يلقنون عقالمهم ، وعقالمهم يلقنون عامتهم كل ما ينفع في شؤونهم العامة فكانوا يرضون عقيب كل فتنة أن يتفقوا مع الدولة على مال معين يودونه لسلطنة ، ثم لا يلبثون أن يمتنعوا عن أدائه مع أن الجبل الذي تملكوه بالسيف أو بالشراء بأثمان زهيدة من جيرانهم المسلمين والنصارى هو من الخصب بحيث لا يصعب عليهم أن يودوا الأعشار والأموال المطلوبة أو جزءاً من الضرائب التي يدفعها سائر الحورانيين ، ولعلمهم أو بعض مشايخهم كانوا يدلون على الدولة بما لهم من عطف بريطانيا عليهم فيتوهمون

أن ينشئوا لهم في صميم الشام دولة صغرى ناسين جميع الاعترافات التي كانت تحول دون أمنهم ، وتهيب بالدولة إلى مناجزتهم القتال كلما حاولوا أن يرفعوا رؤوسهم .

وكانت الدولة هي التي ساعدت على تعاقب ثوراتهم وتسلسل شقاوتهم واستلذاذهم بالحروب ، لأنها اتخذتهم آلة في لبنان ووادي التيم وحوران للانتقام من عدوها إبراهيم باشا واستخدمتهم آلات لها في مذابح سنة الستين . ودفعتهم في طريق الشقاوة والمقاومة بما لها وسلاحها فظنوا أنفسهم قوة مهمة لا تقف أمامها قوى دولة ، وعرفوا أنهم إذا ظفروا كان لهم ما يريدون ، وإذا غلبوا يحسنون مداراة رجال الدولة ، ولهم من بريطانيا العظمى على كل حال دولة تسأل عنهم وتعنى بمصالحهم ، فلهم أن يدلوا على جيرانهم وعلى الحكومة .

وكان الشعب في معظم الأرجاء يستخف بعامة الدروز إذا اختلفوا إلى الحواضر، وإذا ذكروا يذكرونهم كما يذكرون النصيرية بالسخرية والمهانة ، فيشق ذلك على جماعتهم خصوصاً والدروز لم يفقدوا أصولهم العربية ومن شأنها الشم والإباء ، فكانوا يصعب عليهم سماع ما يصمونهم به ، وربما كذب الناس عليهم ونسبوا اليهم أموراً ليست من مذهبهم ولا من عاداتهم ، كذبهم على النصيرية أيضاً . وكان لبعض المشايخ المتعصبين في الحواضر يد في إلقاء هذه الكراهة وهذه النفرة بين هاتين الشيعتين وبين الأكثرية من أهل السنة ، الذين انشقوا منهم ، ولعل الحكومة كانت تعتمد ذلك ولا يسوؤها فتغضي عما كان النصيرية والدروز يسامونه من الذل ، وتفسح المجال للعامة والمشايخ البله أن يعاملوا مواطنيهم تلك المعاملة المولمة على النفوس الأبية ، فيقابلها الدروز بمثلها يوم يكون لهم السلطان المطلق في جبلهم وأرضهم .

ولو كانت الدولة بذلت شيئاً من العناية بهذين الشعبين الجبليين في الساحل والداخل ، كأن تنشر بينهم التعليم الابتدائي ، وتعطف على كورهم فتصلح طرقها ، وتدخل عليها ما يمكن من أسباب النجاح لاستغنت هي والأمة عن مقابلتها ، وهم بعض أبنائها ، بالسيف والمدفع لتعيدهم . كلما نشروا إلى حظيرة

الطاعة ، ولو دخلت المدينة على دروز جبل حوران ونصيرية جبل اللكام ، كما دخلت مثلاً على دروز جبل لبنان ، لكان من هذين الشعبين العربيين خلقاً وخلقاً قوّة في الشام، ولما استحكّم هذا النفور الذي كان من أثره ما ظهر في العهد الأخير يوم رضوا بأن يتزعوا أيديهم من أيدي جيرانهم ، مع علمهم بأنهم شركاء متضامنون في هذا القطر المحبوب .

العهد العثماني

« من سنة ١٣٢٦ إلى ١٣٣٦ »

الدستور العثماني وثورته :

منذ أقفل السلطان عبد الحميد سنة ١٢٩٤ المجلس النيابي وعطل الأحكام الدستورية ما برح بعض أحرار العثمانيين تركهم وأرمنهم وعربهم وأرناؤدهم ، يتأفون من حالة الدولة ويدعون سرا ، إذا لم يمكن الجهر ، إلى المطالبة بإعادة هذا المجلس ، وقد أسسوا للوصول إلى هذه الغاية جمعيات سرية في بعض ممالك أوروبا ومصر ، جعلت لها فروعاً في بعض الولايات العثمانية وعملت في الخفاء زمناً ، والسلطان يصمُّ أذانه تارة ، ويتصامُّ عن هذه المطالب المشروعة تارة أخرى ، ويعاقب من يقتدر عليه من هؤلاء الدعاة إن كانوا في قبضته وتحت عكسه بالنفي والتغريب ، أو بالمداراة وإغداق الأموال والرتب على بعضهم إذا كانوا بعيدين عنه . وأهم جمعية ألفت لهذا الغرض جمعية الاتحاد والترقي ، تشعبت فروعها في أنحاء السلطنة وقويت في بث دعوتها في الشام حوالي سنة ١٣١٤ وما برحت على ضم شملها وتكثير سواد القائلين بقولها وإبلاغ دعوتها في جرائد لها أنشأتها خارج السلطنة ، وكلمة الجمعية تزيد انتشاراً كلما اشتد عبد الحميد في إرهاب الداخلين فيها ، ولا سيما في المدارس العليا في الإستانة ، والمدارس العليا مجمع شمل أذكيا الطلاب من الترك والعرب والشركس والأرناؤد واللاز والأرمن والروم ، فإذا عادوا إلى الولايات يضيفون إلى تدمير الأهلين من فساد الأحكام تدمراً ، ويكثرون سواد الخائنين على ذاك النظام الرث القديم .

التاثر الأحوال ، وتنكرت الأخلاق ، وبات القول الفصل للرشي والمحابة والشفاعات ، وغلوا في التجسس والوقية ، وكثر الفقر وعم القهر ، وزاد الضغط على الأمة ، ونال الجند حظ وافر من الشقاء ، وغدا المرابطون منهم والغزاة لا يُطعمون إلا ما يحفظ عليهم رمقهم فقط ، وكثيراً ما كانوا يهلكون جوعاً كما وقع لهم في اليمن مرات ، أو بسوء التدبير كما وقع لكتائب الأرنؤود في دمشق في إحدى الحملات على الدروز ، فهلك مئآت منهم لأنهم تركوا في العراء في تشرين الثاني فهلكوا بالزحير ، وقد يخدمون السنين ولا يلبسون ثياباً تقيهم حمارة الحر وصبارة القر ، ويطول أمد خدمتهم فيقتضون العشر والخمس عشرة سنة لا يسرحون ، خصوصاً إذا كانوا في ديار قسوة كاليمن والحجاز .

أخذ أحرار الضباط يبشون في الأجناد روح الثورة ، وكانوا مستعدين لقبول ما يلقي عليهم ، فتمرد أولاً بعض الجند في آسيا الصغرى ، ثم سرت روح التمرد إلى جند مقدونية . والجند موقنون أن الدولة لا تهتم بأرواحهم اهتمامها بالبنادق التي يحملونها. واتفق أن ضاقت صدور المسلمين من الأرنؤود في مقدونية من طمع الدول الأوروبية فيهم ، وأدركوا أن العثمانية تسلمهم متى عجزت كما فعلت مع غيرهم ، فيقعون في قبضة الحكومات الأجنبية على نحو ما وقع لمسلمي البوسنة والهرسك وبلغاريا ورومانيا واليونان والصرب . فقام الأرنؤود بدأ واحدة في مناصرة الجيش المطالب بالدستور ، واتحد الفيلقان الأول والثاني في الروم ايلي ، وتبعهما الفيلق الرابع في كردستان ، وذلك بالاتحاد مع عصابات البلغار . ونادى الضابطان نيازي بك وأنور بك بالدستور ، أو يرحفان على دار الملك ، فلم يسع السلطان إلا أن يعيد العمل بالقانون الأساسي الذي كان أوقفه منذ إحدى وثلاثين سنة ، فصدرت الإرادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وبوشر بانتخاب النواب وأطلقت حرية الاجتماع وحرية القول وحرية الكتابة والنشر بعد ذلك الضغط المنهك ، وألغيت الجاسوسية التي جعلت وكدها في كشف عورات الناس بما لا يفيد شيئاً في حياة الدولة . وأخرج ألوف من الموظفين والخدمة والمغنين والطباخين وغيرهم من المايين أو قصريلديز حيث كان السلطان أكثر أيام ملكه ، وإليه انتقل الحكم من الباب العالي الذي كان في عهده اسماً

بلا مسمى ، ما يريد لا يكون إذا لم يرده المايين ، وما يريد المايين ينفذ في الحال بدون مناقشة ولا حوار .

إعادة الدستور وحال الدولة بعده :

أعيد الدستور إلى العمل بدون إهراق دماء ، لأن جواسيس السلطان عبد الحميد هتولوا له في قوة النزاع إلى الثورة من فيالق جيشه ، وكانوا قتلوا بعض رجاله في سلانيك ممن أرسلهم للبحث عن قضية الثورة ، كما بالغوا في تقدير قوة الأحرار وسريان أفكارهم في الولايات ، فلم يسعه وهو محكوم لأوهامه وظنونه إلا أن يرد ما اغتصبه من حقوق الأمة العثمانية ، ونجحت سياسة الأحرار وفشلت سياسة أعوانه الذين كانوا يتملقونه ويقولون له : إن أوربا إذا اتفقت على الدولة لا تستطيع أن تفلت من يديها ، وما زال دولها متخالفات فلا يخشى على السلطنة العثمانية ، أما الرعية فهي من ضعف الجانب بحيث تستطيع الدولة أبداً أن تقضي على كل ثورة تحدث في أرجاء ولاياتها ، ثم إن الرعايا همج يسبحون بمحمد آل عثمان في كل أوان ، ولا تدرك عقولهم معنى للحرية ، والحرية لا يتطلبها إلا بعض الشبان ومن لف لفهم من المحرومين والناقمين الذين فسدت نياتهم بما لقنوه من تعاليم أوربا المضرّة ! .

وأخذ الناس في الشام يقصدون جمعية الاتحاد والترقي التي كانت سبب هذا الانقلاب الذي أنعش الأمة بعض الشيء وكثرت الآمال والأمان في إصلاح الحال ، وطردت الشام ولايتها وعمالها الذين عرفوا بالحاسوسية لعبد الحميد والنيل من رعيته ، وكفّ أهل النفوذ في القاصية عن الضغط على الفلاحين ، إذ عرف هؤلاء من يدهم على رفع شكوايهم للمراجع ، وأهين بعض من اشتهر عنهم أنهم من أنصار عبد الحميد الغارقين في رواتبه ومراتبه حتى اضطروا أن يندجوا في الأحرار ويقدموا شبانهم ، ولطالما امتهنوهم وسعوا بهم إلى الحكام في عهد الحكومة المطلقة ، وبدىء بانتخاب أعضاء مجلس النواب ، فحاولت جمعية الاتحاد والترقي أن يكون نواب الشام ممن تركز إليهم ، أو ممن عرفوا بميلهم إلى الحرية وبعدهم عن السياسة الحميدية ، ولكنها سعت لتقليل عددهم

في الشام سعيها لذلك في سائر الولايات العربية ، لثلاث تتألف منهم أكثرية في المجلس ، إذا انضموا إلى بعض العناصر الأخرى فيصبح الأتراك أقلية ، لأن الاتحاديين لا يريدون إلا دستوراً ينتعش به الأتراك ، وينال الخير بالعرض سائر العناصر على صورة لا تضر بكيان الترك ، ويسعون إلى تترك العناصر لتؤلف جمعية الاتحاد أمة واحدة متجانسة بلغتها إذ لم يمكن تجانسها بدينها ، ويقوم أحرار العثمانيين من الأتراك في القرن العشرين بما عجز عن عمله محمد الفاتح وسليم ياوز من الفاتحين .

وبينا أحرار الأتراك دعاة القومية التركية الشديدة يفكرون في وضع خطط الإصلاح ، ويحيون كل ما هو تركي ، ويحاذرون كل ما هو عربي ، والناس في فرح وجدل لأنهم أخذوا على الأقل يقولون ما يريدون ويستمتعون بحرياتهم ، أعلنت اليونان ضمها لجزيرة كريت كما أعلنت النمسا لإلحاق ولايتي البوسنة والهرسك ، ورفض أمير بلغاريا السيادة العثمانية وأعلن استقلاله ، وعاد مجلس النواب إلى عمله (١٣٢٦هـ) ولم يمض إلا أشهر قليلة حتى ندم السلطان عبد الحميد على ما وهب طوعاً أو كرهاً من تنفيس خناق العثمانيين ، وأحب أن يقوم بعمل ارتجاعي يعيد به الناس إلى الضغط والفناء فيه وفي أعوانه ، فيعملوا أحراراً من دون ممانع أو مناقش ، فنهض جماعته من جواسيس وعمال ومن طردوا من الضباط من الجيش لقلّة اقتدارهم وغيرهم من العوام الذين تخدعهم ألفاظ الشرع ويتبعون كل ناعق ، وألّفوا حزباً باسم الدين سموه « الحزب المحمدي » وأنصار هذا الحزب كثيرون لأنه اسم تحبه أكثرية الأمة ، فدخل الناس فيه أفواجا عن سلامة نية ، حتى قيل إن من وقعوا على محضر الرضى بالدخول في سلكه بلغوا سبعين ألفاً في دمشق وحدها ، واختار السلطان لبث دعوته الولايات التي لم تتأثر أعصابها كثيراً بدعوة الأحرار وثورة الجند كالشام مثلاً ، وأخذوا يهيجون العامة باسم الدين ويرتبطون بالسلطان بأيدي أناس كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغوغاء .

فعضا السواد الأعظم من جنود الإستانة بما بذله السلطان لهم من الذهب الوهاج ، ولم ير أعوانه الذين هيجوا الأجناد واسطة لإضاعة رويتهم أحسن من إسكارهم ، فأسكروهم ليلة الفتنة ، وفرقوا عليهم الذهب الكثير ليقوموا

بالمطالبة بتطبيق الأحكام الشرعية بحذافيرها ، وإبعاد بعض النواب وإسقاط
الوزفرة وتعيين الضباط الأميين الخارجين من صفوف الجيش ، لا من دكات
المدارس ، أي اختيار الجهلة على المتعلمين ، وبعبارة أفصح إبطال القانون
الأساسي لأنه مخالف بزعمهم للإسلام ، ومن قواعده الحرية ، والحرية ليست
من شأن الدين ! . وقتل في هذه السبيل أناس من النواب وغيرهم من الدستوريين
وعامة الناس في شوارع العاصمة ، لأن الجند الثائر كان يطلق النار في الفضاء
إرهاباً وترويعاً فيصيب الأبرياء وغيرهم ، واغتال الضباط الجهلة كثيراً من
الضباط الدارسين .

فلما تجلى هول الموقف للاتحاديين أهاجوا النفوس في الروم ايلى ، فقامت
بعض ولايتها على ساق وقدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور ،
وهب جند الفيلقين الثاني والثالث في أدرنة وسلاطية وزحفا على الإستانة بقيادة
محمود شوكت باشا البغدادي فاستولوا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع ،
وقبض على المنتقذين والعصاة من الجند المشاغب ، وضربت أعناق بعض
المشايع والتمشيخين للسياسة لا للدين ، ونفوا ألفاً وخمسمائة رجل من رجال
السلطان وحاشيته إلى الحجاز واليمن ، وخلعوا عبد الحميد بفتوى من شيخ
الإسلام أثبت عليه فيها قتل الأنفس البريئة وسجنها وتعذيبها ومخالفة الشرع
وإحراق كتب الإسلام والإسراف في مال الأمة ، وبايعوا باتفاق مجلسي النواب
والأعيان لولي عهده رشاد أفندي باسم السلطان محمد الخامس وحملوا السلطان
عبد الحميد المخلوع منفياً إلى سلاطية .

عبد الحميد وسياسته وأخلاقه :

وبذلك تخلصت الأمة من عبد الحميد بعد أن حكم فيها ثلث قرن زاد
أخلاقها فساداً . تولى لأول أمره زمام السلطنة وكيلاً عن أخيه مراد الرابع ،
وكتب على نفسه عهداً دفعه لمدحت باشا ثم أرسل على ما قيل من أحرق دار
مدحت ليحرق العهد في جملة ما أحرق ، وأخذ يستميل قلوب أكثر أهالي
الإستانة حتى اجتمع الصدران الأعظمان رشدي باشا ومدحت باشا ودعوا ألف

شخص من الكبراء وأرباب المقامات ، وقرروا أن جنون السلطان مراد مطبق لا يرجى أن يفيق منه ، وأفتى شيخ الإسلام بجل بيعته - وما أسرع مشايخ الإسلام في إصدار فتاواهم لصاحب الوقت أياً كان وما أبطأهم في فتاويهم في المسائل الجوهرية - وبوبع لعبد الحميد فما عتَم أن أقصى عن دار ملكه من كانوا السبب الأول في خلع عبد العزيز من العظماء .

وأخذ عبد الحميد يكثر من التضييق على أخيه مراد وعلى سائر أفراد الأسرة السلطانية ولا سيما ولي عهد السلطنة ، ويشرد كل من عرف بالإنكار عليه من الوزراء والعظماء ، فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة وساستها ، وأصبحت الطبقة التي اختارها تسير على رغبته، وكل من خالفه، ولو في سره، أقصاه وسجنه وعذبه ، وكلما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعال ، ويبالغ في الاحتياط لنفسه ، وغدا يتولى كل أمر بذاته ، ويبعد أرباب الوجدان من رجال الدولة ويستعيز عنهم بأناس ممن يصطنعهم ، وما يصطنع إلا من فسدت أخلاقهم من كل جنس على الأغلب ، حتى آلت أزمة الدولة في العهد الأخير إلى أيدي طبقة من أعوانه طغوا وبغوا .

أخذ عبد الحميد يملك الأملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين ، فكان كلما سمع بأن في إقليم كذا أراضي من أملاك الدولة يأخذها بلائمن إن كانت من الأملاك الأميرية ، أو بئمن طفيف إن كانت للأفراد وعجزوا عن استغلالها ، فيضمها إلى أملاكه السنية ، وألف عدة شركات وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع وبعض المعامل ، وضارب بالأوراق المالية وأنجر بالامتيازات . وهكذا أصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً قلما يهتم بشيء من أمر الملك إلا إذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثرة ضاقت بالإنفاق عليهم خزانة الأمة ، وكلهم أمناؤه إن اخطأوا فلهم الأجر ، وإن أصابوا فحدث ما شئت أن تحدث عما ينهال عليهم من إنعامه وإحسانه . ولقد قلّ جداً في عماله من لم يتجسس له ، لا سيما بعد أن شاهد الناس أن الترقى في الوظائف لا يتأتى في الأغلب إلا من طريق الجاسوسية المحببة إلى قلب السلطان ، وغدا التجسس عند بعض الطبقات من الأمور التي لا تنكر . اشتد ضغط عبد الحميد على المدارس حتى حظر أن يعلم فيها التاريخ

الصحيح وعلوم السياسة والاجتماع ، لأنها تترقي العقول وتلقح الأذهان ، وأصدر إرادته السرية إلى مديري المعارف في بعض الولايات ومنها الشام أن يوقفوا سير المعارف عند الحد الذي وصلت إليه ، لأن في انتشار المعارف انتشار المفساد وتمزيق شمل الأمة !! ورأت المطبوعات منه ومن أعوانه الجهلاء من الدنيا ما يكفي في نعتهم أنهم أعداء كل فكر وارتقاء وتجديد ، وأصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثلثين الأخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزهد وتلفيق أو أماديح كاذبة له ولأرباب المظاهر ، وأمور عادية لا تترقي عقلاً ولا تزيل جهلاً ، وحاول أن يرفع من دعاء القنوت لفظ « ونخلع ونترك من يفجرك » لأن فيها لفظ خلع وقلبه ينخلع من هذه اللفظة ، ولأنه رأى مخلوعين قبله ، وأن يسقط من صحيح البخاري أحاديث الخلافة وأن تصادر حاشية ابن عابدين لأن فيها باب الخلع . ورفعت من المعاجم كثير من الألفاظ كالعدل والمساواة والاعتقال والقانون الأساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل ، وغير بعض الأسماء فلا يقال « مراد » بل « مرآة » ولا « عبد الحميد » بل « حامد أو حميد أو حمدي » لأن مراد اسم أخيه وعبد الحميد اسمه ، وأصبحت الصحف في أيامه أبقواً تقديسه وتوكله على صورة بلغ فيها السخف إلى غاياته .

وكرت في أيامه مظاهر التكريم الخلابة من أوسمة ورتب ، وأخذت تباع في آخر عهده بالمراد بيع العقار والدار ، ولها سماسة ولها تجار ، يغوي بها السلطان من يريد تشريفه ، ويرفع بها من يهمله رفعه ، وأصبح بعض العقلاء في دار الملك والولايات يتظاهرون بالبلاهة ، أو ينقطعون عن الخدمة ويقنعون بالدون من العيش ، لأن سلطانهم لا يرضيه منهم إلا أن يكونوا على قدمه في كل ما يذهب إليه . ولقد نصح له بعض سفراء الدول في أواخر عهده بالكف من شروق بعض العمال ، لأن استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة ويضر بمستقبلها ، فقال لهم : وماذا أعمل مع من ذكرتم وهم يجبونني ويتفانون في خدمتي ! أي أنهم في حل من عمل ما أرادوا من عسف الأمة ما داموا يظهرين له الحب ، ويخدمون أغراضه على ما يجب .

كان عبد الحميد من الحسد بحيث يحسد خصيانه ، وأشق ما يبلغه أن يعلم

أن في أحد أطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه ، فيحتال عليه ليأتي به إلى الإستانة ليدفنه حياً ويجعله إلى الخمول بعد الشهرة ، ويخرجه قسراً من عالم النباهة والظهور ، فإن لم يستطع ذلك فلا أيسر من التقول عليه للحط من كرامته ، ويلذه جداً أن يشهد الشقاق مستحكماً بين حاشيته ، ويلقي بينهم العداوة والبغضاء ولذلك كان بعضهم عيوناً على بعض ، ينال الواحد من رفيقه في غيبته وحضرته ، حتى يتقربوا من قلب سلطانهم الذي يجب الملق ، ويهش للدهان والتزلف . عادة له منذ كان فتياً ، فقد ذكر مربيه المستشرق فمبيري المجري أنه كان وهو فتياً لم يبلغ الحلم يلقي الشقاق بين أفراد الأسرة المالكة في القصر ، وينقل الكلام من أناس إلى آخرين من أهل بيته ، ويتجسس عليهم ويكشف سترهم . أما إسراف السلطان عبد الحميد فإنه كان أقلّ من إسراف عبد العزيز بقليل ، ولكن طغمة الجواسيس كانت مع نفقات قصره في الربع الأخير من دوره تستنزف جزءاً مهماً من واردات السلطنة التي عرف كيف يستغلها ، وكيف يصرفها في شهواته على طريقة مستورة ، لم يطلع عليها إلا الخواص من رجاله . فقد ذكر الثقات أن آل عثمان لما أجلت لهم جمهورية تركيا من بلادهم في صيف ١٣٤٢ بأجمعهم كان مع بعض سراري السلطان عبد الحميد عقود من الماس والجوهر عرضوها في مصر للبيع فعجز الأغنياء عن أداء قيمها ثم جعلتها بعض المصارف عندها رهناً على مال أسلفته ، فكم كان يا ترى من أمثال هذه الحلبي المدهشة عند نساء آل عثمان ، والأمة تهلك وعمالها لا يقبضون روايتهم . وكلما عقدت قرصاً فكرت في آخر بحيث كانت الدولة تعيش بالقروض في آخر أيامها . وأصبح عبد الحميد في عهده الأخير يملك ألوفاً من المزارع والقرى ، ويحمل جانباً من أمواله يضعها في المصارف الأجنبية ، يعدها لطارىء يطرأ عليه ، فلما سقط لم تنفعه ، واستولى عليها الاتحاديون كما استولوا على خزائن قصره يلديز ومجوهراته وأعلاقه وجواريه ، ونقضوا كل ما أبرمه ، وفصموا عرى ما أحكمه .

راي مؤرخ تركي في عبد الحميد وذكر حسانه :

جاء في كتاب عبد الحميد الثاني ودور سلطنته أنه كان يعتقد بالسحر والطلسمات والأرواح والفأل ، ولم يتعلم شيئاً حتى إنه كان يغلط بالإملاء التركي ، وله من المزايا الاحتياط المتناهي والبصيرة وحب السعي وبعد النظر ، وأن يعلم ماذا يقال فيه ، ينفر من الحرب ، ويلتزم السداجة في لباسه وحاجاته ، يحرص على الأمر والقيادة ، ويتحرى من الأصول والمعاملات أكثرها استقامة ، يميل إلى الأخذ بعلم الباطن الذي يأخذ بمجامع قلوب العامة ، وإذا كانت أفكاره كثيرة الجولان أصبحت لا تثبت في مركز واحد ، وإذا كان مبتلياً بالسويداء تراه على الدوام حزيناً مغموماً مغيضاً محققاً ، مفرطاً في الاحتياط والتدبير لا يعتمد على أحد ، ممسكاً لا يعرف الكرم ، عرضة للاضطرابات الذهنية والبدنية لعدم تطابق جملته العصبية . تبدلت حاله لما جلس على سرير الملك فنفعت المحن التي رآها لأول أمره أكثر مما أضرت به ، ولئن كان أذنأً يجب أن يسمع ما يقال فيه ، وينظر في الدقيق والجليل من الأمور ، وهو محاط بجماعة من الأشرار ومزاجه عصبي ، فإن كل هذا زاد في ذكائه . وكان إلى السابعة والعشرين يتعاطى المسكرات ويغوص في السفاهات ، فنصح له طبيبه أن يقلع عنها أو يهلك كما هلك بالسل من قبل أبوه وأمه ، فرجع عن عاداته الضارة ونظم حياته ، وكان أول عمل قام به يوم استولى على زمام السلطنة أن سلب جميع ثروة أخيه مراد ، عقارها ومنقولها ، وكان ماهراً في عمليات الجمع والطرح والضرب ، إلا أنه يمتنع أبداً من إجراء عملية الطرح إذا كان فيها ضرر عليه ، ولم يكتف بمصادرة ثروة أخيه بل تصرف بثروة رعيته على ما يشاء ، وأضاف معظم واردات الدولة إلى خزينته الخاصة ، وما كانت الحكومة تتمكن من دفع الرواتب لغير النظار وكبار المقربين بصورة منظمة ، أما سائر الموظفين والجند فإن عبد الحميد ترك لهم واردات يتناولونها راتب شهر أو شهرين في السنة فقط ، وبذلك فتح باباً عظيماً من أبواب الرشوة اه .

ومما ينبغي أن يدون في أيامه أن بعض الأمة انصرف إلى الزراعة والتجارة أكثر من الأدوار الماضية قبله في الشام ، لأن الأمن استتب أكثر من القرن الماضي ، وطرق المواصلات البحرية والبرية زادت انتظاماً ، والناس في الجملة

قويت رغبتهم في تعليم أبنائهم ، ولكن المسلمين مالوا إلى التترك لأخذ الوظائف الجندية والملكية ، والمسيحيين والإسرائيليين مالوا إلى التفرنج لتعلمهم في مدارس الأجانب التي ظهرت تأثيراتها في أيامه ، ومنها الهجرة إلى مصر والسودان والاميركتين ، والزهد في سكنى المملكة العثمانية . وفي عهده زادت الخطوط الحديدية في المملكة ومعظمها خطوط حربية ثبت له غناؤها بعد حرب روسيا الأخيرة ، وفي أيامه اتصلت حلب برياق ودمشق ببيروت ، ودمشق بدرعا ، ويافا بالقدس ، وحيفا بدرعا ، ودمشق بالمدينة ، وطرابلس بجمص ، إلى غير ذلك من الخطوط التي نفعت الشام ولا سيما الخط الحجازي من دمشق إلى المدينة المنورة .

وفي أيامه خفت وطأة الأشقياء إذ كان يقضى عليهم بالسجن الطويل والقاتل منهم يؤبد في السجن ، فاستراحت الشام قليلاً وأخذت تدخل في نظام الأمم الأوروبية . وكان من سياسته أن لا يستدين من أوربا مالا ولا يعقد قروضاً مهما احتاجت الدولة للمال وساءت حالها ، وكان لا يحب إهراق الدماء ، وأبطل الحكم بالقتل فكان القاتل يخلد في سجنه . ففي أيامه اعتدى اليونان على الأرض العثمانية ، فأعلنت الدولة حرباً على اليونان وكان الدخول في هذه الحرب مخالفاً لإرادته ، وقد جعله الباب العالي أمام أمر واقع فأعلنها كارهاً ، فانتصرت الدولة لكن أوربا حاولت أن لا تنحي على اليونان ، وما زالت تطاول في عقد الصلح إلى سنة ١٨٩٧م وكانت نتيجة ذلك أن دفعت اليونان للعثمانية غرامة قدرها أربعة ملايين ليرة ولعلها أول غرامة أخذتها من تغلبها في إحدى الوقائع بعد ذلك العز الباذخ ، وقضى عدل السياسيين بأن تخرج الدولة من تساليا !.

ويقال بالإجمال: إن عبد الحميد نسخة صحيحة من تربية القصور، وصورة من صور دسائسها وشرورها ، استفاد من تجارب غيره ومخبرهم فاحتاط وحذر ، وطالت أيامه وعرف كيف يدخل في روح الأمة ويسخر مشايخها وأرباب الطرق والمظاهر ، يسبحون بحمده ويعددون حسناته بما يقبضون من صلاته ، وخلقوا له مناقب اخترعوها ما كان هو يحلم بها ، وكان كل شيء في أيامه ظواهر ومظاهر ، ومن دهائه النافع معرفته الدخول في عقلية السفراء فكان

يرشيهم ويرشي زوجاتهم بطرق مختلفة يتفنن فيها ، ولم يكد يسلم من هداياه ورشاويه إلا سفير بريطانيا العظمى على ما يقال . فكان إذا أهداه السلطان هدية يقدم له من الغد مثلها أو أحسن منها ، حتى لقد قالت امرأة هذا السفير يوماً : لقد أعجزنا أمر عبد الحميد يريد أن يرمينا في شبكته بالجواهر والحلي كما رمى نساء السفراء قبلي . وكان كثيراً ما يلقي الشعب بين السفراء أنفسهم . وكانت له طرق وله ديوان خاص لإعطاء الصحف الأجنبية مالا حتى تسكت عن خلل الدولة. وبهاتين القوتين قوة السفراء وقوة الصحفيين استطاع يوم ثورة الأرمن في العاصمة وأرمينية وقتل الأتراك والأكراد نحو مئة ألف من الثائرين، أن يسكت ساسة أوروبا عن عمله وعمل عماله ، ومع هذا لم يمنع الحذر من القدر فطوي بساطه وبساط أسرته بما عليه جملة والله وارث الأرض ومن عليها .

الأحداث في أيام محمد رشاد وحرب طرابلس والبلقان وحزب الإصلاح :

تولى محمد رشاد الخامس بعد السلطان عبد الحميد الذي قضى في شهر ذي القعدة ١٣٣٣هـ (١٩١٥م) وهو ضعيف المدارك لأن أخاه ضيق عليه مدة حكمه الطويل حتى تبدل عقله وكان كأخيه عبد الحميد قليل المعلومات لم يدرس من اللغات الأجنبية شيئاً ، بل درس الآداب الفارسية وبرع فيها . وزاد تسلط الاتحاديين عقيب أن ظفروا بمن أوقدوا فتنة ٣١ آذار وقضوا على الارتجاع وغيروا بعض خططهم التي كانت ترمي إلى تفوق الترك على سائر العناصر وخاصة العرب ، فدعت الحال إلى تأسيس حزب الأحرار المعتدلين (١٣٢٩) الذي ظهر بعد ذلك باسم حزب « الحرية والائتلاف » في العاصمة والولايات ، ولم ير الاتحاديون للخلاص من مخالفيهم أحسن من الاعتماد على القوة فاغتالوا بضعة رجال في الإستانة وحاولوا ان يغتالوا في الشام بعض أعدائهم الأشداء من أرباب القلم فلم يفلحوا، وأقصوا من الخدمة كل من لم يسر على رغائبهم، وتقاتل الحزبان فكانت الغلبة تكتب أكثر السنين للاتحاديين لأنهم دعاة الحرية الأول وترتيباتهم تامة من أكثر وجوهاً، تشبه ترتيبات جمعية الماسون ، ولا سيما فيما كان من قبضهم على قياد الأعمال وأخذهم بمخنق جميع العمال .

وئارت اليمن سنة ١٣٢٩ فأرسلت الدولة جيشاً عظيماً على صنعاء والعسير قتل في حربها من أبناء الشام ألوف . كما كانت كل مرة تدفن ألوفاً من أبنائها في تلك الولاية القاصية . حدثني عظيم من الأتراك وكان أكبر رجال الشورى العسكرية في الفيلق الخامس بدمشق أن الدولة بحسب إحصاء الجيش كانت تدفن كل سنة من أبناء الشام في اليمن نحو عشرة آلاف جندي يهلكون بالأمراض والفتن والقلة وتغير الهواء ، دامت على ذلك نحو خمسين سنة حتى عقد الصلح بين إمام اليمن يحيى بن محمد حميد الدين وبين قائد الحملة اليمنية عزت باشا ، وبهذا العقد لم يبق للدولة هناك غير سلطان قليل في صنعاء وتعز وما إليهما من السهول والجبال ، وانتقلت جل الأحكام إلى الإمام وذلك في سنة ١٣٢٩ هـ .

وظهرت أيضاً فتن أخرى في كردستان وألبانيا وأذنة ، فلم ترتح المملكة سوى أشهر معدودة بعد إعلان القانون الأساسي . ومنشأ كل فتنة داخلية العمال على الغالب ، ثم تمتد وتنتشر فيصيب الأمة شرها ، ويتولى الأمر الجهلاء ثم يتعذر على العقلاء حل العقد التي يعقدونها ، وكم من مجنون رمى في بر حجرأ فصعب على مئة عاقل إخراجه . ثم نشبت حرب طرابلس بين العثمانية وإيطاليا ، وجاءت إيطاليا بأسطولها إلى سواحل طرابلس وبرقة بدون مسوغ ، وضربت سفينتين عثمانيتين كانتا راسيتين في ميناء بيروت فهلك من أهل المدينة والجند زهاء مائتي نسمة ، وأرسلت الشام جنداً ومعاونات نقدية إلى طرابلس ، آخر ما بقي للعثمانيين من الولايات في بر إفريقيا . ولم يعقد الصلح في أوشي من سويسرا بين العثمانية والإيطالية حتى أعلنت دول البلقان المتحدة (بلغاريا والصرب والجبل الأسود واليونان) الحرب على الدولة العثمانية فغلبتها ، وجاء جيش البلقانيين إلى چتالجة من ضواحي الإستانة ، وعقدت الهدنة يوم الثالث من كانون الأول ١٩١٢ بين العثمانيين والبلغانيين ، وعقد مؤتمر في لنديرا لإصلاح ذات البين بين الفريقين فلم يفلح ، وعاد المتحاربون إلى النزاع بعد الأزمة الوزارية التي انتهت بسقوط الصدر كامل باشا وقتل ناظم باشا ناظر الحربية بيد أنور بك من ضباط الاتحاديين ودعاة الدستور في الروم ايلي ، وأخذ الاتحاديون بعد هذه الفاجعة يستولون على أزمة الأمر وظهر أنور بك بمظهر جديد فقبض على عنان الحكومة ، واستوتفت الحرب بين المتحدين من البلقانيين

الذين انفرط عقد اجتماعهم فزحف العثمانيون على أدرنة فاستعادوها إلى الملك العثماني ، ولم يبق للدولة في أرض أوروبا غير ولاية أدرنة وما إليها من ضواحي الإستانة ، وانسلخت عنها هذه المرة ولايات قوصوة وإشقودرة ويانيا ومناستر وسلانيك وعادت الحرب فنشبت بين العثمانيين والبلغاريين في ١٧ تشرين الأول ١٩١٢ وعقد الصلح في ٢٩ أيلول ١٩١٣ وقد فقدت العثمانية في هذه الحرب مئة ألف جندي بين قتيل وجريح وثمانين مليون ليرة ثمن ذخائر وسلاح، وخرجت من الروم ايلى وكانت صرفت في فتحه خمسين سنة وحكمته خمسمائة سنة ولم توفق إلى نشر لغتها ودينها فيه على ما يجب .

وفي سنة ١٩١٣ اتحد جماعة من السوريين بينهم اللبنانيون النصارى والمسلمون على مطالبة الدولة بإصلاح الشام. وكتب والي بيروت أدهم بك إلى الصدر كامل باشا كتاباً قال فيه : (كانون الأول ١٩١٢) تتجاذب القطر عوامل مختلفة ، ولقد ولي قسم عظيم من الأهالي وجهه شطر انكلترا أو فرنسا لإصلاح الحالة التعسة التي هم فيها فإذا نحن لم نأخذ بالإصلاح الحقيقي يخرج من يدنا لا محالة. فأرسل الصدر إلى الوالي يريد الأهلين على عرض مطالبهم ، فاجتمع المجلس العام في بيروت وانتخب ٩٠ عضواً عقدوا جلستهم الأولى في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣ واختارت من أعضائها خمسة وعشرين مفوضاً سمتهم اللجنة الدائمة ، وقدمت هذه بياناً بالإصلاحات المنشودة ، واتفق على ذلك أعيان المسلمين والمسيحيين فوضعت اللجنة في بيروت لأئحة أهم ما فيها توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجنب . وفي أوائل الصيف ذهب وفد من البيروتيين وغيرهم إلى باريز وعقدوا هناك مؤتمراً قرر يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ أن تضمن للعرب حقوقهم السياسية ، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للملكة اشتراكاً فعلياً ، وأن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها ، وان تنفذ لأئحة الإصلاحات التي نظمت في بيروت القائلة بتوسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجنب ، وأن تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني ، وتكون لغة رسمية في الولايات العربية ، وأن تجعل الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية .

فخاف الاتحاديون العاقبة وبعثوا أناساً من قبلهم وقبض واليهم في بيروت

حازم بك على عدة أعضاء من الإصلاحيين فأغلقت المدينة حوانيتها أياماً فأخرجهم من السجن ، وبعث الاتحاديون أناساً من قبلهم إلى باريز وغيرها ، واسترضوا أعضاء الوفد وأطمعوا بعضهم بالوظائف الكبرى ، ووعدوهم أن تجري لهم الحكومة الاتحادية من مطالب الإصلاح ما يمكنها القيام به ، مثل تسليم الأعمال الإدارية إلى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بإدارة الولايات ، وأن يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية ، وتستعمل اللغة العربية في بعض أعمال قانونية معينة ، وأن تضاف الصيغة العربية على إعلانات الجلب إلى المحاكم كما تضاف إلى الأحكام المدنية والجنائية ، وتكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية ، وأن يعين بعض العرب في مجلس الأعيان ومجلس شورى الدولة ومحكمة التمييز ومشيخة الإسلام ودار الفتوى .

وطبق الاتحاديون بعض هذه المواد فرأينا في بعض مراكز الألوية والولايات في الشام مدارس تجهيزية تدرس العلوم بالعربية ، وإلى جانبها المدارس القديمة التركية في كل مظاهرها ، ووضعت الصيغ العربية إلى جانب الصيغ التركية في أوراق الجلب إلى المحاكم ، وأخذت الحكومة تقبل الشكاوي بالعربية من الأهليين ، وعين بعض رجال الشام في وظائف كبرى في العاصمة ، وكان نائب دمشق في مجلس النواب شكري العسلي أول من رفع صوته بهذا الطلب ، طلب إعطاء العرب حقهم من الوظائف وقال : إن أربعة فقط من أبناء العرب موظفون في الإدارة المركزية في جملة بضع مئات من الأتراك ، فنيه أفكار من لم يكن متنبهاً من أبناء العرب إلى غمط حقوقهم ، وحتق بعض أقحاح الترك عليه وعلى من عاونه على بث هذه الفكرة وعدوها خروجاً على الجماعة .

الصهيونية ومنشورها :

وكان شكري العسلي أيضاً أول من نبه أفكار مجلس النواب إلى الخطر الصهيوني في فلسطين وكان الاتحاديون وفيهم الإسرائيليون أو الصابثون من اليهودية (الدونمة) أمثال جاويد بك ناظر المالية - ينوون أن يبيعوا نحو ثلاثة ملايين دونم من الأراضي في فلسطين وسورية من جمعيات الاستعمار الصهيوني

فبطل المشروع لما ظهرت مضرته إلى عالم الوجود وقامت حول المشروع ضجة في الصحف فلم يسع الاتحاديين إلا أن يطهروا دفتره . ولكن كان الصهيونيون يولفون عدة جمعيات للوصول إلى أغراضهم السياسية منها جمعية أحباء فلسطين انتشرت في أطراف فلسطين وتفرعت منها عدة جمعيات منها جمعية معاونة فلاحي اليهود وصناعهم في فلسطين وسورية وأنشأوا لهاتين الجمعيتين فروعاً كثيرة في أمهات مدن فلسطين وبلاد بشارة وهوران وعبر الأردن ، وابتاع للإسرائيليين أبناء مذهبهم من كبار أغنياء أوربا أراضي ، وأمدوهم بالمال ليحققوا آمالهم القديمة في استرداد فلسطين ويعيدوا مجدهم إليها ، وهذه الآمال قديمة ترد إلى عهد الرومان ، وغاضت بعد أن شتتهم في الأرض أدريانوس في القرن الثاني بعد المسيح وفرق جامعتهم وأبعدهم عن صهيون أو أورشليم أو القدس عاصمة مملكتهم القديمة ومدينة هيكلهم العظيم ، ولكنها ما لبثت أن ظهرت في صورة التمني وفي عهد قسطنطين الذي أذن لهم بالدنو مرة في السنة من أسوار بيت المقدس ليندبوا مجدهم الزائل ، وما زالوا إلى يومنا هذا يدنون من حائط الحرم الشريف الخارجي المسمى بالبراق ويتذكرون مجد ملوكهم وعظمة هيكلهم ومدينتهم ويطلبون من الله أن يعيد ما خسروه . ولكن رجال النهضة منهم لم يقفوا عند حد التمني فألف الدكتور هارثشل الجمعية الصهيونية التي جعلت همها الوحيد جمع المال وتوحيد كلمة اليهود على اختلاف لغاتهم وبلدانهم وجمعهم في بلد واحد أمين . وعهدت الجمعية الصهيونية إلى الإيكا بالاستعمار التدريجي كما عهد إلى جمعية الاتحاد الإسرائيلي بالتهذيب والتعليم .

وقد كتب شكري العسلي في هذا الصدد يوم قام الإسرائيليون لابتياح سهل يزرعيل ما نصه : إن الجمعية الصهيونية اليهودية ورفيقاتها جمعيات إيكا وفاعوليم والأليانس وغيرها ساعيات في استرجاع فلسطين التي وعدهم بها ربهم في الإصحاح الثاني والثلاثين من أرميا من الكتاب المقدس الباحث في أسر بابل لليهود والذاكر وعد الرب برجعهم إلى فلسطين بقوله في آخره : « يشترى الحقول بفضة ويكتبون ذلك في صكوك ويختمون ويشهدون شهوداً في أرض بنيامين وحوالي أورشليم وفي مدن يهودا ومدن الجبل ومدن السهل

ومدن الجنوب لأنني أرد سبيهم بقول الرب اهـ . وذلك بعدما سبتهم حكومة الكلدان على أنهم لم يستطيعوا البقاء بعد ذلك لأنهم أصبحوا محل النزاع بين حكومة الرومان في مصر وحكومة الرومان في أنطاكية ثم انقضوا ولم يبق لهم ملك ولا دولة . والآن عملاً بهذه الآلية يشترى الأراضي في فلسطين على حساب الفضة ويشترطون البيع على أن يكون الثمن فضة ، ويكتبون الصكوك ويشهدون ، وهكذا تراهم لا يفرون طرفة عين يتجسسون أخبار من تأخرت حالتهم المالية من أهل هذه الديار وهي عبارة عن لواء عكا بأجمعه ولواء القدس ولواء نابلس وقسم من لواء الكرك وبعض قضاء عجلون ، ويطمعون البائع بالثمن الفاحش ويكتبون الصكوك ويشهدون عليها ويسجلونها عند محرر المقاولات وعند بعض القنصليات، وكانت الحكومة قبلاً منعت استعمارهم ولكن بما بذلوه من الدنانير التي تسحر ألباب الخائنين من الحكام والمستخدمين استطاعوا أن يستولوا على ثلاثة أرباع قضاء طبرية وبعض قضاء صفا ويافا والقدس والقسم المهم من نفس حيفا وبعض قراها، واليوم يسعون للدخول إلى قضاء الناصرة ليستولوا على سهل شارون ويزرعيل المذكور بالتوراة والمعروف اليوم بمرج بني عامر الذي يشقه الخط الحجازي من الغرب إلى الشرق .

« وهكذا اشترى الكثير من القرى واستولوا عليها ، وهم لا يخالطون العثمانيين ولا يشترى منهم شيئاً ، ولهم بنك أنكلو فلسطين يقرضهم بفائدة لا تتجاوز الواحد في المائة في السنة ، وقد جعلوا كل قرية إدارة فيها مدرسة ، وكل قضاء مديرية ولكل جهة مدير عام، ولهم راية لونها أزرق وأبيض وفي وسطها ترس أو مجنّ داود وتحتة كلمة عبرانية معناها « صهيون » لأنه جاء في التوراة أن أورشليم ابنة صهيون ، ويرفعون هذا العلم مكان العلم العثماني في أعيادهم واجتماعاتهم ، ويتمنون بالنشيد الصهيوني وقد احتالوا على الحكومة فقيدوا أنفسهم عثمانيين في سحل النفوس كذباً وبهتاناً ، وهم لا يزالون حاملين الجوازات الأجنبية التي تحميهم وعندما يصيرون إلى المحاكم العثمانية يظهرون جوازاتهم ويدعون الحماية الأجنبية ، ويحلون دعاويهم واختلافاتهم فيما بينهم بمعرفة المدير ولا يراجعون الحكومة ويعلمون أبناءهم الرياضة البدنية واستعمال السلاح وترى بيوتهم طافحة بالأسلحة وفيها كثير من المارتين ولهم طوابع

بريد في قراهم وغير ذلك مما يبرهن على أنهم بدأوا بإنفاذ دعوتهم السياسية .

الحرب العامة والسياسة الألمانية والأخلاق التركية :

خرجت الدولة من حرب طرابلس والبلقان واليمن وكردستان وغيرها من البلدان مجردة من قوتها من المال والرجال ، ولم تكذب تفكر في جمع شتاتها حتى قتل ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو من بلاد الصرب وأعلنت الحرب العالمية ، فكان نصيب الدولة العثمانية أن تسير مع ألمانيا والنمسا والمجر مخالفة لمن على بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا وغيرهن من الدول ، وكان ذلك بتزيين الاتحاديين وفي مقدمتهم طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا ، وكانت الدولة تميل منذ نحو ثلاثين سنة لألمانيا وقد زار امبراطورها خليفوم الثاني المملكة العثمانية مرتين وقال في المرة الثانية (١٣١٦) لما زار القدس ودمشق في خطاب له ألقاه في بلدية دمشق : « أبتهج من صميم الفؤاد بأني وطئت بلداً عاش فيه من كان أعظم أبطال الأعصر السالفة بأسرها الذي كان بأفعاله يعلم أعداءه أنفسهم كيف يكون الأبطال ، العالى المقدر المشهور السلطان صلاح الدين الأيوبي . قال : وليتأكد حضرة السلطان عبد الحميد خان الثاني صاحب الخلافة العظمى والثلاثمائة مليون من أهل الإسلام المرتبطين بمقام خلافته المنتشرين في جميع أطراف الكرة الأرضية أن امبراطور ألمانيا يبقى صديقاً لهم إلى الأبد » .

انتهجت ألمانيا السياسة الإسلامية واتخذت لها دعاء من دهاة رجالها في الإستانة ، فتم لها ما أرادت بعد سنين من الاستعانة بالدولة العثمانية على حرب أعدائها ، واستسلم رجال الدولة لما تم ، مخدوعين بالأقوال المبهجة مأخوذون بالوعود اللطيفة ، وكان السلطان محمد رشاد وهو لا يعقد ولا يربط في شؤون السلطنة ، يقاوم الذين يريدون إصلاء الحرب في الدولة لعلمه بمضارها ، ولم يوافق عليها بعض الوزراء فخرجوا من الوزارة إلا أنور وطلعت وجمالاً وهم الحركة العاملة في الدولة ، أرادوا خوض غمارها متشبعين بالروح الألمانية ولا سيما أنور ، وعلقوا على ألمانيا أمانيتهم في إرجاع الدولة إلى عزها أيام سليم وسليمان ، وما كادت تعلن الحرب حتى نفذ الوزراء الأربعة الذين لم يقولوا

بدخول الدولة في الحرب ومنهم سليمان أفندي البستاني من أهل الشام خطتهم وقدموا إقالتهم تاركين الحكومة في أيدي الأتراك . أما سعيد حلیم باشا الصدر الأعظم الذي كان عزم أن يستقيل فدفعه حبه للفخر والأبهة والعظمة أن يبقى في رأس أعظم منصب في الحكومة التركية ، فلم تك إذاً نتيجة دخول الدولة في الحرب إلا توحيد السلطة في المملكة بأيدي رجال الاتحاد والترقي ، وانتهت الثورة التي كانت ترمي إلى جعل تركيا دولة دستورية بجعل تركيا حكومة مطلقة ، رائدها الظلم والاستبداد ، وغاية أفرادها الأوّل النفوذ والسلطة والكسب على ما قال سفير أميركا في الإستانة لأول الحرب .

وعلى ذلك شرعت الدولة لأول وهلة تعبي جيشها ، وأخذت من الشام سبعاً وعشرين قرعة كادت تقف معها حركة العمل وقوفاً مريباً ، ولم تلبث الدارعتان الألمانيّتان غوبن وبرسلو أن دخلتا في ميناء الإستانة ملتجئتين من مطاردة الأسطول الإنكليزي لهما في عرض البحر المتوسط ، وسلمت قيادتهما بالصورة الظاهرية إلى العثمانيين ، فعدت روسيا هذا العمل من الدولة العثمانية إعلاناً لها بالحرب ، وما فتئت أيدي الألمان أن تغلغت في جميع فروع الإدارة في السلطنة ، وأخذت ألمانيا تغدق الذهب الوهاج على الدولة ، وكان لأنور باشا القائد العام وناظر الحربية قسط عظيم منه لا يسأل فيما أنفقه ، وبدأ الألمان يغرون الأتراك باستعمال الوسائل الوحشية في معاملة الأجانب والعثمانيين معاً ، ويضيقون خاصة على غير المسلمين من الأرمن والأروام ونصارى الشام . وزعم سفير أميركا في الإستانة أنه درس أخلاق الأتراك فعلم علم يقين أن أقوى عواطفهم عاطفة الخوف فهم لا يحبون ولا يبغضون بل يخافون ويريدون غيرهم أن يخافهم .

قسط الشام من الحرب وعمل جمال باشا :

دخلت الدولة في الحرب وقاتل أبناء الشام في الجبهات الحربية المختلفة . قاتلوا في چناق قلعة ورومانيا ودبرويجة وقفقاسيا والعراق والسويس وشبه جزيرة سينا فهلك منهم عشرات الألوف ، وقاست الشام أنواع الحرمان

والأمراض فهلك منها، ولا سيما في لبنان، من الجوع فقط نحو ١٢٠ ألفاً، ومثل هذا العدد هلك بالحميات ولا يقل الهالكون من أبناء الشام عن ثلاثمائة ألف إنسان مدة أربع سنين .

وفي الحق أنه لم يقع حرب جدية في الشام ، بل كان أبناؤه يساقون كسائر العثمانيين إلى الجبهات الأخرى ، والجبهة الوحيدة التي كانت بجوار الشام جبهة الإسماعيلية فلم تنشب الحرب حتى ندب الاتحاديون أحد كبار رجالهم أحمد جمال باشا ناظر البحرية العثمانية إذ ذاك قائداً على الجيش الرابع ، وكانت منطقتة تمتد من أقاصي حدود أذنة إلى المدينة المنورة ، وأخص أعماله أن يشاغل البريطانيين في حدود مصر ليضطروا إلى وضع قوة مهمة من جيشهم في ترعة السويس ، تخفف عن الدولة في جناق قلعة من جيش الحلفاء ، وعن عاتق الألمان في الجبهة الغربية بين الحدود الألمانية والفرنسية ، وهذا تدبير ألماني صرف وقد نجح بمشاغلة البريطانيين وإشغال أذهان قوادهم ، فوضعوا على الترععة وفي حدود سيناء جيشاً عرمرماً اتقاء جيوش الترك والألمان .

وكان بعضهم يعتقدون أن افتتاح مصر والتغلب على البريطانيين في الترععة من الأمور السهلة ، لأن المصريين يقومون في الحال بثورة على البريطانيين عندما تراءى لهم أعلام العثمانيين المحبوبة في وادي النيل . قال سفير أميركا في مذكراته : وكان جمال باشا ناظر البحرية وأحد الثلاثة الذين يديرون دفة الملك في تركيا ذاهباً إلى الشام ليتسلم قيادة الجيش الرابع ، وكان الجيش يحبيه ويهتف له بأنه مخلص مصر ، فأعلن جمال باشا على رؤوس الأشهاد قبل سفر القطار من الإستانة ، أنه عقد النية أنه لا يرجع إلى الإستانة قبل افتتاح مصر . قال : لم أكد أرى ذلك المشهد الفخم حتى رجعت بي مخيلتي تطوي الأعوام والقرون إلى أن استقرت في تاريخ رومية على مشهد يشبه ما رأيته في القرن العشرين ألا وهي حفلة وداع مرقس أنطونيوس حين غادر رومية ليخضع الشرق ، فكانت تركيا مثل رومية في ذلك الوقت في دور الانحطاط والانحلال ، فرأى جمال باشا أن يبذل جهده لعله يتمكن من أن يصير حاكماً على ولاية غنية ، وكان يؤمل أنه إن أفلح بافتتاح مصر ينال شهرة عالمية واسعة .

جاء جمال باشا إلى الشام وقبض على زمام القوة وأكثر الأحكام فيها ،

وبدأ يهيمء بواسطة الألمان حملته على التربة فسارت الحملة (٤ شباط ١٩١٥) فرقتين، فرقة منها اجتازت المسافة من السبع إلى القناة في ستة أيام والأخرى في عشرة ، وقطع الجيش الصحراء التي تبلغ مسافتها ثلاثمائة كيلومتر ، دون أن يقع في معضلة من حيث الماء والتموين ، وكشف القسم الواقع بين بحيرة التمساح والبحيرة المالحة من القناة ، وهجم قسم من المفززات بواسطة الجسور العوامة إلى الساحل المقابل بالحراب على البريطانيين ، فأغرقت المدافع المنبعتة من ست طرادات انكليزية الجسور العوامة، وقبضوا على من جازوا الساحل الآخر من الجند العثماني وأكثرهم من أبناء الشام ، وقتل في معركة الإسماعيلية بتقدير جمال باشا في مذكراته ١٩٢ قتيلاً و ٣٨١ جريحاً وأخذ ٧٢٧ أسيراً ومتغيباً ، وقدر البريطانيون ما فقد من الترك بألف قتيل وألفي جريح وستمائة وخمسين أسيراً . وعاد العثمانيون أدراجهم مغتربين بزعمهم أنهم يستطيعون إن أرادوا بجسورهم العوامة أن يقطعوا التربة إلى الشق الآخر ويستولوا على مصر . وكان الجيش البريطاني الذي هاجمه الترك على التربة مؤلفاً من جيش هندي قوي وفرقة من الجنود البريطانية وجيش قوي من أستراليا ونيوزيلندا ، وأربعين ألف رجل من الاحتياطي وراء الخنادق المتقنة التي حفرت حذاء التربة ، ونحو مليون جندي وعامل مصري استخدموا في خدم ثانوية أفادوا بها الجيش البريطاني فائدة عظيمة .

وأنفق العثمانيون نفقات طائلة على السكك الحديدية حتى وصلت إلى بر السبع وصرفوا عليها مئات الألوف من الليرات لتحسينها وتحسينها ، أما البريطانيون فأخذوا بعد تلك الحملة العثمانية التي فشلت يتقدمون في الصحراء نحو الشام ، يمدون الخطوط الحديدية في الرمال تحت حماية مدافعهم ، وما زالوا يسرعون في تمديد الخطوط في صحراء الحفار بحيث كان معدل ما ينشون كيلو مترين كل يوم ، وهكذا حتى اقتربوا من العريش فلم يتقدموا خطوة إلى الأمام إلا بحسب طريقتهم المعروفة في فتوحهم أي بقدر مرمى المدافع ، ريثما تم الخطوط الحديدية وتوأم السبل .

إهلاك أحرار الشام والسياسة الاتحادية مع العرب :

خطب جمال باشا لأول شخوصه إلى الشام في النادي الشرقي بدمشق (١٣٣٣) قائلاً : يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم ، منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام ، عضوا على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم ، اعملوا على ترقية العرب والعربية جددوا مدنيتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالاً كاملين - جهر بهذا على رؤوس الأشهاد وقال مثله لأرباب الأقاليم في مجالسه الخاصة ، بيد أنه كان يفكر هو وجماعته من الاتحاديين في الطرق إلى الانتقام من العرب المخالفين ، وإنزال العقوبة بمن رفعوا أصواتهم بالمطالبة بحقوق لأمتهم فعدوهم خائنين للدولة ، وما هم إلا مخالفون على الأغلب ، والمخالفة طبيعية في كل حكومة دستورية بل في كل حكومة ، تظهر وتستر بحسب الأحوال والدواعي ، وعدّ الائتلافيون أي الداخلون في حزب الحرية والائتلاف خائنين في نظر الاتحاد والترقي ، وكان بعض أعضاء الحزب ينزعون مترعاً انكليزياً أي يجبون أن يعملوا بمشورة بريطانيا ، وبعض حزب الاتحاد ينزعون مترعاً ألمانياً ، وحسب الاتحاديون من الخائنين أيضاً جماعة الإصلاحيين في بيروت أي المطالبون بالإصلاح في ظل العثمانية ، واللامركزيين أي المطالبون بتوسيع سلطة الحكومات المحلية . وكان هذا الحزب تألف في مصر من الشاميين وأنشئت له فروع في بعض مدن الشام وقصباته ، وتألف حزب فتیان قحطان في الإستانة . وهكذا قل في جمعية العهد العسكرية والجمعيات اللبنانية المختلفة المقاصد في لبنان والمهاجر .

فلما دخلت الدولة في الحرب رأى الاتحاديون أن الفرصة آذنت للقضاء على كل فكرة تخالف ما هم عليه وأصحابهم في سياسة الملك ، وتلقي الرهبة والهول في كل القلوب ، واعتزوا بمخالفة الألمان وبالأموال التي كانت تقرضهم إياها بالملايين ، وليس أحسن ملائمة من هذا الدور لتولي أحد كبار أساطينهم أحمد جمال باشا زمام القوة في الشام ، وهو الذي كان تولى قتل المخالفين في الإستانة من الأتراك أنفسهم ، وقتل حتى صهر السلطان ، فأصبح متمرناً على الانتقام من كل من يخالف مذهبه السياسي ، أو كما قال عن نفسه في آخر

خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق إن طالعه كان القتل ، نُدب لقتال الناشزين من الأتراك كما عهد إليه قتل الناشزين عن الطاعة من العرب .

ولماندب جمال باشا لقيادة الجيش الرابع حمل معه أضاير التهم والتحقيقات وتقارير الجواسيس الموجهة لمئات من أبناء الشام ، وبينهم أناس من أهل الطبقة العليا وكثير من الشبان المتعلمين . فألقى عصا التسيار في دمشق وشرع بالتحقيق عن زمرة هؤلاء المتهمين ، وألف ديواناً عرفياً في عالية من لبنان فحكم أوائل آب ٣٣١ ش على ١١ رجلاً نفذ فيهم حكم القتل صلباً في ساحة البرج في بيروت ، وكانوا متهمين بالدخول في حزب اللامركزية ، ثم شرع بالقبض على طبقة أخرى أكثر علماً وتأثيراً ومكانة ، ومدار تهمة الفريق الثاني أو القافلة الثانية أنهم حاولوا سلخ سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة بموازرة الدولة البريطانية ، ولكن الحكومة التركية آهمتهم أنهم كانوا يعملون لإدخال الأجانب (الفرنساويين أو الإنكليز) إلى الشام في حال الحرب . وإذا تفوه به بعضهم لأحد القناصل طمعاً في إمارة أو مظهر من المظاهر فلا يسري اعترافه على الجميع . ويقول جمال باشا في مذكراته رداً على من يقول إن الاشخاص الذين أجزموا وظهرت إيدانتهم وشنقوا في سورية قد شملهم العفو العام الصادر في سنة ١٩١٣ فمحاكمتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني - إنه قد بين في الكتاب الأحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) أن أولئك الأشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام بأعمال جنائية جديدة ، وأن إيدانتهم ترجع إلى جرائمهم بعد ذلك العفو ، وإذ كانت الوثائق الخاصة بإيدانتهم قبل العفو تعتبر قرينة قوية ، بدا للمحكمة أن تفحصها وتنشرها لتبين للملا مبلغ شناعة خيانتهم اه . وبعد أن أورد بعض الوثائق السياسية قال : فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الإنسان بسهولة أن الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق للاستيلاء على سورية بحجة حماية العرب . وفي الحق أن أعمال بعض من صلبوا قد ظهرت في أوراق قناصل فرنسا في دمشق وبيروت وحلب وغيرها من مدن الشام ، فإنهم أبقوا أوراقهم في أماكنها بعد دخول الدولة في الحرب فانكشفت بذلك أسرار مهمة ساعدت الاتحاديين على الإبلاغ في عقوبة مخالفتهم . أما قناصل بريطانيا

فقد أحرقوا أوراقهم ومنهم من استظهر الخطط الحربية المتعلقة بالشام ، فنجا بذلك كل من كان له صلة من الأهلين بقناصل بريطانيا العظمى .

وقد حكم الديوان العرفي في عاليه على ٢١ رجلاً بالقتل وهم القافلة الثانية فصلبوا في بيروت ودمشق في يوم واحد (٤ رجب ١٣٣٤) صلب سبعة في دمشق والباقيون في بيروت ، وكان فيهم الأبرياء الذين ما أرادوا قط خروج الشام عن حكم الترك ، وصلب بعض وجوه الموارنة ورهبانهم لأنه ثبتت عليهم دعوة فرنسا للاستيلاء على الشام . ولما قبض على الرعيل الأول في السنة الأولى للحرب سألت خلوصي بك والي دمشق ، وكان يفيض معي بمسائل الدولة بحرية تامة ، وكان من الأحرار العقلاء في السلطنة ، وهو أعلم تركي وأعقل عامل رآته الشام في الأربعين السنة الأخيرة قائلاً : كنتم أسس في بيروت فماذا رأيتم يا سيدي في قضية أولئك المتهمين وما هو وجه تهمتهم يا ترى ؟ . فأجابني بما تعريبه بالحرف : « سلسلة من التزويرات والتلفيقات عليهم ، قاتلهم الله وأخزاهم » ، أي قاتل الله المزورين والملفقين ويعني بهم الاتحاديين .

ومن الغريب أنه سيق إلى القتل بعض من كان ناهم العفو يوم أغلقت الحسابات القديمة مع الدولة ، كجماعة الإصلاحيين الذين نالوا بعض المطالب بعد موتمرهم في باريز ، فاتهموا بمسائل أخرى ارتكبوها ، وأغرب منه أن يتطوع بعض السوريين بالجاناسوسية للترك ويشهدوا على رجالهم في الديوان العرفي بما أوصلهم إلى أعواد الصلب ، وأن يتوسع بعض المصلوبين في شهاداتهم واستنطاقاتهم ويدخلوا في زمرة عشرات من الشبان وغيرهم حتى تسقط بزعمهم مكانة تلك القضية فيطوى سجلها بما فيه ، ولكن رجال الديوان العرفي كانوا أعقل من أن تغرهم هذه الظواهر ، واكتفوا بإصدار أحكامهم على من ثبتت إدانتهم بحسب الخطة المرسومة أو اقتضت مصلحة الاتحاديين القضاء عليهم من النباء ، وهدد جمال باشا بالقتل أعضاء الديوان فيما قيل إن لم يحكموا على المتهمين السياسيين فوافق بعضهم على القتل اضطراراً لا اختياراً .

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان أن خطأ جمال باشا في رأيه وجنابته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية :

أولاً — إن فريقاً آخر من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم

ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية .

ثانياً — إن فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ولا قرائن قطعية تذهب في جزأهم إلى درجة القتل ، وقد برر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بأنه من باب « القتل السياسي » مع أنه كان الأولى بهؤلاء أن يتركوا إلى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً — على فرض غير الواقع ، وهو أن هؤلاء مجرمون أعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأي ، فتح هذه المسألة أثناء الحرب ومجازاة أناس قد عفي عنهم ونكء القروح التي كانت قد سكنت نوعاً ، وإثارة عواطف العرب وحفاظتهم وإظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحت لهم للبطش وتعزيز النزعة الأجنبية بهذه السياسة .

رابعاً — إن الألوف الذين تفاهم إلى الأناضول مع عيالهم وخراب بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم في الغربية لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلاً أن يكونوا خائنين للدولة فكان تغريبهم عن أوطانهم مجرد عذاب وقهر ، بدون أدنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ ألف ليرة شهرياً فكان خطأ جمال أنه سلح أعداء السلطنة العثمانية ، وأنصار الشقاق بين العرب والترك ، ورواد السياسة الأجنبية الكثيرين في الشرق ، بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمال جمال ... اه .

وبعد فقد عمل جمال باشا ما عمل بقرار من جمعيته ، وكان من ورائه أنور باشا يحثه على إهلاك هؤلاء الذين صلبوهم . وقد جاء هذا مرة إلى عاليه من لبنان فقال على صورة الاستنكار : « أما قتلتم بعد هؤلاء الخونة ؟ » . وكان أنور باشا نمراً مفترساً في صورة حمل وديع ، والدم في نظره ونظر رفاقه طلعت ومدحت وناظم وشركاؤهم أحلى في المذاق من طيب الشراب خصوصاً إذا كان صاحبه غير تركي ، ومساويه ومساوي أصحابه أكثر من أن تحصى ، تجردوا من كل عاطفة ومن كل دين ، وعاطفتهم دهان وتظاهروهم بالدين رياء .

وقبل تنفيذ الأحكام بالجوقة الثانية كان قائد الجيش الرابع ينفي من الشام إلى صميم الأناضول أسراً برمتها ، وفيهم بيوت من صلب رجالهم بالنهم السياسية ومن جلاهم أناس من الغوغاء والقتلة القدماء ، واشترك في هذه النكبة المسلمون والمسيحيون وغيرهم على السواء ، خصوصاً من كان لهم صلة بدولة من دول التحالف فرنسا وبريطانيا وروسيا ، ثم طمع الاتحاديون أن يتوسعوا في تأديبهم ، وأعدوا في الأناضول ألوفاً من الدور ليجلوا الناهين من سكان الشام إلى تلك الأرجاء ، وكان الاتحاديون قرروا في مؤتمرهم أن يجلوا العرب إلى أرض الترك ، ويستعصوا عنهم في الشام بأناس من شذاذ الآفاق ، وأن يعاملوا مهاجرة الشام كما عاملوا الأرم من يوم جلوهم عن أقاليمهم أي أن يقتلوهم على بكرة أبيهم في الطرق ، ويغتالوهم بالطرق التي اغتالوا بها أعداءهم الأرم . وشرع الترك يقبضون على جوقة ثالثة من وجوه الأهلين ومنورهم ويعذبونهم بتهم سياسية وجهوها إليهم منها أن لهم ضلعاً في إنشاء حكومة عربية ومفاوضة شريف مكة بذلك .

خلع شريف مكة طاعة العثمانيين وتأثيره في الأتراك :

كانت البقية الباقية من منوري الشام تخاف سوء المغبة من عمل الاتحاديين خصوصاً بعد أن مرتوا على إزهاق النفوس ، ورفعوا حجاب الوهم الذي كان مسدولاً فرفعوه وعرفوا ما تحته يوم جسروا على قتل كبراء الأمة ولم ينتطح عنزان . وكادت النوبة تصيب أهل الطبقات الثالثة والرابعة يوم أعلن الشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة استقلاله بملك الحجاز (٩ شعبان ١٣٣٤ هـ حزيران ١٩١٦م) وثار العرب على الترك في مكة ، وقتلوا الحامية التركية وأسروا أكثرها ، وحوصرت المدينة بعربه ، وذلك بتدبير الخلفاء وأموالهم ، فشغل الترك بهذه المصيبة التي لم يكونوا يتوقعونها ، وأخذوا يستميلون إليهم رجالات الشام ويستبدلون اللين بالشدة ، وإذا كانوا على عزم إنفاذ حكم القتل برجال من القافلة الثالثة بعث ملك الحجاز الجديد بواسطة جمهورية أميركا المتحدة ، وكانت على الحياد ، بأن كل منفي عربي أو مسجون إذا أصيب

بأدنى إهانة فهو مستعد أن يعمل أضعافه مع الأتراك الذين في أسرهم ، فكفّ الاتحاديون عن القتل ، وأطلقوا سراح السجناء مرغمين ، بعد أن عذبوهم أنواع العذاب ، فعدّ ذلك من حسنات الملك حسين ، ولقد آلم الاتحاديون قلوب السوريين بقتل طبقة مهمة من الشبان والكهول والشيوخ ، ونفي النساء والأطفال إلى الولايات التركية ، ومع هذا لم تقصر الشام في تقديم أبنائها للحرب جنداً ، ولا أموالها وعروضها لمعاونة الجيش ، ولا أرزاقها وحيواناتها وذخائرها لخدمته ، فحق على الدولة من كان يريد انتصارها ، وتأصلت العداوة بين الترك والعرب ، وما كانت العداوة في الحقيقة إلا بين دعاة الاتحاديين والمستنيرين من العرب ، حتى لا يبقى بعد الحرب رجال يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بمطالبة الدولة بشيء من الإصلاح .

ومنذ نادى الملك حسين باستقلال الحجاز أخذ الضباط العرب وغيرهم من العراقيين والشاميين واليمنيين ممن وقعوا في أسر دول الحلفاء ، أو كانوا في خدمة الجيش التركي على مقربة من الحجاز أو في الجهات البعيدة كالفقاس ينضمون إلى جيش الحجاز العربي فألفوا جيشاً لا بأس به يرجع إلى نظام في الحملة ، وهذا الجيش هو الذي قاتل الترك في الشام ، وأوقع الشعب في الفياق التركية ، وفت في عضد الدولة العثمانية في بوادي الحجاز ، وساعده ما كان ينهال من الأموال الإنكليزية التي استمال بها ملك الحجاز والقواد أولاده الأربعة العربان في الشام والحجاز ، وتسرب قسم منها إلى كبار الضباط من أبناء العرب ، وكان لجمعية العهد يد طولى في التحاق ضباط العرب بصاحب الحجاز وهذه الجمعية كانت مؤلفة من ضباط العرب في الدولة كما كان مثل ذلك لجمعية الفتاة العربية التي ألفت في باريز قبل الحرب بنحو خمس سنين من المفكرين من أبناء العرب وخصوصاً الشاميين ، وضمنت إليها بعض الأعيان والمفكرين وفي مقدمتهم أنجال شريف مكة وأبلغوا والدهم قرارهم وامتدت دعوتهم إلى جبل الدروز .

وقدر بعض الواقفين عدد من انضم من البدو إلى الجيش العربي في جميع الجهات بما يناهز المئة ألف والعسكر النظامي لا يتجاوز الخمسة آلاف . وقال بعضهم : إن البدو لم يتجاوزوا السبعين ألفاً يكثرون ويقلون بحسب الحاجة ،

والنظامي وهم من أبناء العرب الذين أسروا من الجيش التركي أو فروا منه خمسة آلاف والنظامي لم يتجاوز هذا القدر .

وكان شاعر الثورة الشيخ فواد الخطيب يحفز أرواح هذه الأمة بشعره ومما قاله في الثورة :

يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم
فالظلم أيقظ منهم كل ذي سِنَّة
أرهقتم الشعب ضرباً في مفاصله
فالشق عن حنق منكم وموجدة
هيئات يصفح عنكم أو يصفحكم

يا ابن النبي وأنت اليوم وارثه
والنف حولك أبطال غطارفة
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقاً
قد عاد متصلاً ما كان منفصماً
شم الأنوف يرون الموت مغتنماً
سداً من الترك إن تعرض له انهتما

يا من ألح علينا في ملامته
لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها
بعض الملام وجرب مثلنا الألبا
مضنى لما ضج بالزعم الذي زعما

ايه بني العرب الأحرار إن لكم
يستقبل الناس من أنفاسه أرج
تلك الحياة التي كانت محجبة
سارت مع الدهر من بدو ومن حضر
من ذلك البيت - من تلك البطاح - على
فجرأ أطلّ على الأكوان مبتسماً
ما هبّ في الشرق حتى أنشر الرما
في الغيب لا سأمأ تخشى ولا سقما
حتى استتبت فكانت نهضة عمما
تلك الطريق - مشت أجدادنا قدما

لستم بنبيهم ولستم من سلالتهم
إلى الشام - إلى أرض العراق - إلى
إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
أقصى الجزيرة - سيروا واحملوا العلما

أماني الأتراك وخيبتهم وتخريبهم :

كانت حالة الشام تسوء كلما طال أمد الحرب العامة، وقد أتى الجند وبعض ضباطهم وعمال الحكومة من ظلم الناس باسم الجيش والتكاليف الحربية ما ضاقت به الصدور، وغلت مراحل الأحقاد، وكلما دامت الحرب شهراً زاد القوم من الدولة اشمزازاً وقهراً، ومن يجسر والأحكام العرفية سائدة، وسلطان الفرع الأكبر فاغر فاه، أن يقول كلمة خير، أو يرفع مظلمة أو يتنقد معوجاً، فإن التعذيب كان مصير من يجرؤ على ذلك، والسجن والقتل كان يتهدده كما وقع لمئات في دار الملك ومنهم أصدقاء أنور ياشا وشركاؤه في أعماله، قتل بعضهم لأنهم قالوا بطلب الصلح من الحلفاء، وأن الدولة تحاول بحربها الانتحار. قال سفير أميركا: « رأيت أنور في أحله الأيام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له: إن تلك الأعمال (نهب التجار والفلاحين باسم الجيش) تفضي بالمملكة إلى الخراب العاجل والدمار الأكيد، ولكنه لم يعبأ بأقوالي ولم يخفق فواده أماً لتلك الأعمال، بل كان يفتخر بأنه أنشأ جيشاً كبيراً مجهزاً من لا شيء. بلغ عدد الجنود التي جمعها أنور نحو مليون ونصف مليون، وبقي نحو مليون أسرة في أنحاء المملكة وليس لهم من يساعدهم على القيام بأعباء الحياة، وقد فتك بهم الجوع فتكاً ذريعاً. أما الحكومة التركية فكانت تدفع لكل جندي في جيشها نحو ربع ريال في الشهر ٥٠٠. قلنا: إن الدولة جمعت في الشام سبعمائة وعشرين قرعة أي من ابن الثامنة عشرة إلى ابن الخامسة والأربعين وكان معدل ما يجمع من كل صنف ثمانية آلاف جندي فيكون مجموع المجندين من السوريين مائتين وأربعين ألف مقاتل فر منهم بحسب الإحصاءات الرسمية إلى آخر الحرب نحو مئة وخمسين ألف جندي وظل في الخدمة بين أسير ومريض ومستخدم في خدمة خفيفة ببلده نحو خمسين ألفاً وقتل نحو أربعين ألفاً. ولو أردنا تفصيل ما وقع من الجيش ولأجل الجيش، وأهمه استباحة الأعراض المصونة، والعبث بالمقدسات والمشخصات، لاقتضى لذلك مجلد برأسه، فقد فسدت الأخلاق بحيث لا يتأتى أن تصلح إلا بفناء معظم من تلوثوا بتلك اللوثات، وكانت تنضب المواد الحيوية يوماً بعد يوم، وقل الفحم الحجري جداً فأخذ الأتراك يسرون القطارات بالحطب، يقطعون

الزيتون والكيينا من فلسطين ، والجوز والمشمش والخور من الغوطة ، والسنديان والزان والسنوبر من لبنان ، والزيتون والفسق من حلب ، والغضا من الحجاز ، واشتد الجوع وعزّ الحبز ، وأصبح الغني يغتبط بأنه ينال قوت يومه على أيسر وجه ، وذل أعظم عظيم في هذه الديار أمام جمال باشا وأشياعه من الاتحاديين ، وصانعه أكبر البقية الباقية من الأحرار مخافة أن ينالهم من ظلمه ما نال غيرهم ، وكان الموت معلقاً بين شفثيه ومن لا يصانعه يذله ، وربما قتله أو نفاه من هذه الأرض . وكان يعمل ما يريد ثم يكتب إلى الإستانة بما حصل . ومن أغرب الأحكام أن يجعل القتل في أيدي العرفاء والنقباء من صغار الضباط ، فكان لأحدهم إذا قبض على عشرة فارين أن يهلك واحداً منهم بالقرعة! وهكذا تجددت الأحكام القهقهوشية ، ورخصت الأرواح وبيعت ببيع السماح .

قال جمال باشا في مذكراته : ويقيننا أن الفضل في عدم حدوث ثورة في سورية خلال العامين والنصف العام اللذين أعقبا لإعلان الشريف حسين استقلال بلاده ، إنما يرجع إلى أحكام القتل التي وقعت في نيسان ١٩١٦ وبقطع النظر عن ذلك فإن أنور باشا وهو وزير الحربية ، وطلعت باشا وهو وزير الداخلية ، قد وافقا على تنفيذ أحكام القتل بدون استئذان من المراجع العليا ، ثم أرسلتُ إلى الإستانة تقريراً بما أجرئته وهناك راجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم أرسلته بناء على قرار مجلس الوزراء إلى القصر للتصديق السلطاني ، وهكذا أبدت الإرادة السنية الأحكام التي قضى بها الجيش ونفذها وبذا ختمت هذه الرواية اه .

وكلما كانت الأمة ترجو انفراج الأزمة كان أحمد جمال باشا وهو قوي الثقة بنفسه وجيشه يرجو أن تنجلي الحرب عن نصرة دولته ، ويؤسس في الشام معاهد لتتريك العرب وتقوية الدعوة التركية الاتحادية في نفوس الأمة ويفتح شوارع في يافا والقدس وبيروت ودمشق ويضع المصورات والخطط والتصميمات لهندسة أمهات مدن الشام على الطريقة الحديثة ، وقد نفذت أحكامه على البادية والحاضرة ، حتى إن بعض أمراء العرب كانوا عيوناً له يقبضون إحساناته الكثيرة ، ولا يتلكأون عن قبول المعاونات التي يقدمها لهم الإنكليز . ولم يسلم من يد جمال باشا إلا دروز جبل حوران فإنهم خدعوه بوعودهم ، ولم يتجندوا

بحجة العمل في أراضيهم لإخراج الحبوب للجيش . ولكن الغلات التي استغلوها لم يقدموا منها شيئاً للدولة على الرغم من إلحاح القائد العام عليهم ، فحفظوا حبوبهم في أهراتهم حتى شحت في الشام ، ثم أخذوا يبيعونها بأثمان فاحشة ولولا ذلك لجاع أهل مدينة دمشق نفسها على قربها من حوران أنبار الشام العظيم . ولذلك كان جمال باشا يحرق الأرم عليهم ، ولو خرجت دولته ظافرة لأرسلوا حملة على هذا الجبل تهلكه وتخربه . وأخرى وهي تعد في مآثر الدروز هذه النوبة ، وهي أنهم آووا في جبلهم نحو عشرين ألف لاجيء من العرب والترك على اختلاف مذاهبهم ، فراراً من الجندية أو غيرها ، وأطعموهم مدة الحرب بلا عوض ، ومنهم من كانوا يشغلونهم في أراضيهم مقابل إطعامهم فقط ، فكانت مضافات الرؤساء منهم أشبه بقنادق ومطاعم عامة مجانية ، خدامها أصحاب تلك البيوت من أعيان الجبل ، فمثلوا بعملهم القيرى العربي والمروءة والشهامة ، وكفروا عن سيئات المسيئين منهم في الماضي ، وكان جبل الدروز أقوى صلة بين جزيرة العرب والشام والعراق مدة الحرب ولا سيما بعد استقلال الحجاز ، وعزم الحلفاء على فتح الشام باسم الأمير فيصل واسم أبيه ، فكان مركز جبل حوران من الوسائط النافعة لأبناء الشام والحجاز معاً ، وفيه تألفت عصابات من الدروز لإلقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي ، وظل أكثر زعماء الجبل على ولائهم للدولة العثمانية حتى أظلتهم الرايات العربية .

الوقائع المهمة في فلسطين وسقوط القدس وما إليها :

أخذ الجيش التركي في الجبهة ينضغط على نفسه وتتضاعف فيه مضاعفات النفوس من جوع وعري ، ففي ٢٦ و٢٧ آذار ١٩١٧ حدثت معركة غزة الأولى بين الترك والإنكليز وفي ١٩ نيسان كانت معركة الرمادة ، وفي ٤ آب انهزم الأتراك للمرة الثانية في محاولتهم غزوة مصر في قطيا ، وفي ٢٣ تشرين الأول و ٧ تشرين الثاني اخترق البريطانيون خط العثمانيين بين بئر سبع وغزة ، فتخلى الأتراك عن الابن وبئر السبع وكانت وقعة في أزقة غزة على أسلوب حرب المتاريس اشركت فيها البحرية البريطانية بمدافعها من البحر ، وكانت الغلبة

فيها للأتراك وفقد من الإنكليز على رواية قائد الجيش الرابع في وقائع غزة ٤٠٠٠ وفقد الترك ٢٨٦ قتيلًا و ٧٥٦ جريحاً و ٥٨٥ متغيباً وأسيراً ، وادعى القائد التركي أن كل جندي من الحامية في غزة قتل جندياً إنكليزياً وأن الجيش البريطاني في أرجاء غزة كان مؤلفاً من أربع فرق فرسان وأربع مشاة ، وأن المعركة دامت ثلاثة أيام واضطر البريطانيون إلى النكوص على أعقابهم يهتمون في خطوطهم تاركين وراءهم القتلى والجرحى وعددهم ٧٠٠٠ أي ما يعادل جميع القوة التركية التي اشتركت في القتال في تلك الجبهة. وفي الأخبار الرسمية التركية أن خسائر الإنكليز (رجب ١٣٣٥) في ساحة غزة الثانية قدرت بثلاثة آلاف فيهم كثير من الضباط ، وأفاد أحد الأسرى أن فرقة بات عددها أربعة آلاف رجل بعد عشرة والأسرى بلغوا نحو الأربعمائة وخسائر الإنكليز بالنسبة للوقعة الأولى كثيرة وخرب الجانب الأعظم من غزة وكان تشتت أهلها تحت كل كوكب . ومن الأسباب التي قضت بخرابها أن الأتراك وضعوا بعض مدافعهم الرشاشة الخفيفة في المآذن وأخذوا يطلقونها على البريطانيين ، فما كان من هؤلاء إلا أن قابلوهم بإطلاق القنابل من مدفيعتهم من البر والبحر . ولم يتناول الخراب غزة فقط بل تناول يافا أيضاً ، وذلك لأن العثمانيين أجلوا أهالي تينك المدينتين إلى الداخل فترك سكانهما عروضهم ومتاعهم وأموالهم أو باعوها بأثمان طفيفة وارتكبت الفرقة الثالثة من الفرسان وهي من الترك أنواع الفطائع في النساء بما يخجل منه .

كانت قيادة الجيش الفعلية في الشام بيد الألمان وبالاسم بيد العثمانيين فإن القواد فونكريس وفالكنهايم وليمان سندرلر أبلوا بلاء حسناً في وقائع شبه جزيرة سينا وغيرها ولذلك كان قائد الجيش الرابع يكرههم لأنهم جعلوه وأوامره وراء ظهورهم . ووظيفته الحقيقية في هذه الحرب أن يقدم لهم جنداً وأرزاقاً وينفذ ما يأمر به القائد الألماني لنظام الجيش وانتظامه . ولم يقصر الأتراك والحق يقال في مد الخطوط الحديدية إلى جبهة مصر على تعذر جلب الأدوات اللازمة لها من الغرب فأنجزوا خط العفولة نابلس متصلاً بجيفا ودرعا ودمشق قبل الحرب ثم أنجزوا مسعودية - طوركرم - لد - الصرار - الحفير - وهو

٢٥٤ كيلو متراً، ومدوا خطاً من التينة حتى دير سيند قرب غزة وهو ٤٠ كيلو متراً في أيام قليلة وخرّبوا خط حوران دمشق وطرابلس حمص لأخذ خطوطهما الحديدية ، وأصبحت بئر السبع مركزاً مهماً فيها الكهرباء وأدوات الرفاهية في المدن ، وسدوا طريق العريش - الابن - نخل ، وحفروا آباراً وعملوا أحواضاً وجروا الماء في البادية إلى القصيمة إلى ثلاثين كيلو متراً .

سار الجيش الإنكليزي على عادته في قتال الترك في سينا سيراً بطيئاً ولكنه كان أميناً ، ومدوا خطهم الحديدي بالقرب من الساحل ليكون له من الأسطول عند الاقتضاء معتم ، وفي ٣١ تشرين الأول أخذوا بئر السبع وفي ٢١ كانون الأول ١٩١٦ أخذوا العريش وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٧ أخذوا رفح . وأخلوا شبه جزيرة سينا من كل ما هو تركي سنة ١٩١٧ ، وأخذت يافا في ١٦ تشرين الثاني وكانت أخلت من السكان زهاء سنة ونصف وتشرّد أهلها ، وسقطت القدس في ١٠ كانون الأول ١٩١٧ ودخلها القائد المشير اللنبي الإنكليزي دخول الظافر فسقطت بيت المقدس كما قال بعضهم في أيدي الفرنج بعد أن خرجوا منها في الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة . وقرعت أجراس الكنائس فرحاً بسقوط القدس ومن جملتها الكنائس الألمانية كأن ما خسرتة ألمانيا سياسياً بهذا السقوط يعزيها بعودة الأرض المقدسة دينياً إلى أيدي المسيحيين .

واستولى الإنكليز على أريحا يوم ٢١ شباط ثم جعلت الجبهة على خط يافا أريحا وظل المتحاربون يقتتلون إلى سنة ١٩١٨ وقد كلت همم المقاتلين من الترك فاخترق القائد اللنبي الجبهة التركية في أيلول ١٩١٨ واستسلم جيشان تركيان وكان انهزم أحدهما نحو الشمال أي نحو طريق القدس نابلس ، ونشبت بين الفريقين البريطانيين والأتراك معركة هائلة في البيرة انتهت بهزيمة الأتراك وانسحابهم إلى اللبن وبلغ الجناح الأيسر من الجيش البريطاني حيفا وتجاوز الجناح الأيمن نابلس وسقطت حيفا في ٢٣ أيلول ١٩١٨ وكذلك عكا والناصرية وبفتح حيفا وطوركرم ونابلس والناصرية وطبرية فتحت أبواب الشام أمام الجيش البريطاني .

عمل الجيش العربي (*) :

في شهر حزيران سنة ١٩١٦ أي في السنة الثالثة للحرب العامة لما قام الشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة بثورته على الترك وقتل وأسر حامية مكة من الأتراك ونودي به ملكاً على الحجاز ، ثار ابنه الأمير علي في عرب المدينة المنورة المواليين لأبيه على الحامية التركية غداة ثورة مكة فلم يستطيعوا أخذها لأن فخرى باشا قائد حاميتها التركي كان حصنها تحصيناً عظيماً فما استطاع العرب أن ينحوا على تلك الحصون مخافة أن يصاب قبر الرسول ومسجده بأذى وقبعت الحامية التركية بما ادخرته من الطعام في داخل حصونها وأجلت الحكومة أكثر أهل المدينة إلى الشام وآسيا الصغرى وعددهم لا يقل عن أربعين ألفاً ولم ترك سوى بضعة آلاف ممن آثروا أن يموتوا في جوار قبر النبي على الجلاء غير مطالبين الجيش المحاصر بخبز ولا إدام . وأخذ عرب الأمير علي يناوشون الحاميات التركية على السكة الحجازية مدة ويخربون بعض خطوطه ويعود العسكر العثماني فيصلح ما خربوه ويستخدمه في الضروريات لتموين الجيش المرابط في المدينة ، وأخذ منذ ذلك الحين الأمير فيصل ثالث أنجال الملك حسين في سرايا من عرب الحجاز يشاطيء ساحل البحر الأحمر متقدماً إلى سمت الشمال نحو الشام وينضم إليه أسرى الجيش التركي من العرب ممن أسروا في ترعة السويس وشبه جزيرة سينا وساحة العراق . ففتح ينبع البحر والوجه وهنا تألف الجيش الشمالي الذي قاده الأمير فيصل ، أما شقيقه الأمير عبد الله النجل الثاني فكان في الطائف يحاصرها حتى سقطت ، أي أن الأمير علياً كان يشاغل الحامية التركية في المدينة ويفتح رابع ويجعلها ميناءه ، وشقيقه الأمير فيصلاً يحاول الابتعاد عنها للانضمام إلى الجيش البريطاني في شبه جزيرة سينا .

وفي تموز ١٩١٧ أي بعد أحد عشر شهراً من ثورة صاحب الحجاز على الترك فتحت العقبة بمعاونة الشيخ عودة أبي تايه من مشايخ الحويطات ومن شجعان العرب ، وقد أبلى بلاء ليس بعده بلاء في هذه الواقعة وفي أكثر الوقائع

(*) تفضل بعض رجال الثورة العربية السيد نسيب البكري والسيد فخرى البارودي والشيخ سعيد الباني فأعطوني بعض معلوماتهم عن دخول الجيش العربي إلى الشام .

التي اشتبك فيها الجيش العربي مع الجيش التركي ، وكان له الفضل بإسقاط الطفيلة وأبي الأسل والكويرة وغيرها من المواقع التي احتلها العرب في أوائل الشام من الجنوب . وقد أسر في فتح العقبة تابوراً تركيا برمته تام الأهبة لم يفلت منه ولا أركان حربه ورجال شوراه الحربي استسلموا كلهم لأبي تايه فعاملهم أرقى معاملة مدنية . وكان لمدافع الأسطول البريطاني من البحر أولاً يد طولى في إخلاء الترك للعقبة وبسقوطها حمى العرب مؤخرة البريطانيين في سينا ، وكان الأتراك يأتون من معان إلى بادية سينا يضربون البريطانيين ، وباستيلاء العرب على العقبة استطاع الإنكليز أن يستولوا على غزة ثم رفح وبئر السبع ، أما الأتراك والألمان فقد دافعوا عن العقبة دفاعاً عظيماً ولكن البريطانيين كانت لهم السلطة على الساحل والعرب يحاربون بأجسادهم وأرواحهم مع صاحب الحجاز وأولاده .

استولى العرب على الطفيلة ووادي موسى وحاولوا الاستيلاء على معان الواقعة على الخط الحديدي فردوا عنها مرتين بخسائر ، خصوصاً يوم ٢٢ تموز عندما هاجموا محطة أم الجرذان (الجرذونة) فكانت خسائرهم عشرين ضابطاً ومائتي جندي واستولوا على أم الجرذان ثم تخلوا عنها . وأرسل الأتراك من الكرك أربع كتائب وسرية من البغالة بغية احتلال الطفيلة وبيننا كانت سائرة في وادي موسى بلغ العرب خبرها ، فتحصن محافظ الطفيلة الأمير زيد رابع أنجال ملك الحجاز في مائتي جندي نظامي وقوة قليلة من البدو في رووس الجبال وأخرج أهل الطفيلة وسلّحهم وفرقهم على الجبال التي في أطراف الوادي ، وجعل العسكر التركي في شبه حصار وأطلق عليهم النار، فارتبك الجيش الزاحف وجفلت البغال وقتل حامد فخري بك القائد التركي المعروف عند الأتراك بفتح بكرش فسقط في يد الجيش وانهمز أكثره وسلم الباقي ، وأخذ العرب ما يربني على ستمائة أسير تركي وغنموا أربعة مدافع سريعة الطلق ولم يكن معهم سوى مدفعين قديمين . أما الكرك على حصانتها فإن الأتراك أخلوها من أنفسهم . وانضمت إلى الجيش العربي في الوقائع الأخيرة سرية مدفعية إفرنسية كما كانت الطيارات الإنكليزية لا تغفل يوماً عن كشف مواقع العدو وتهيئة سبل التقدم لهم ، وكانت وقائع البدو مع الترك على الأكثر أشبه بمناوشات عصابات

لا بحروب منظمة. والأمير فيصل ينظر إليه نظر قائد عربي يتلقى الأوامر من المستر الذبي ولقبه قائد الجيوش الشمالية .

جاء في نشرة وزارة الحربية البريطانية في آب ١٩١٧ أن خطة العرب في بدءا نهضتهم خطة حسنة تحوي في مطاويها حدقا وحزماً ودهاء، فقد خربوا قسماً من السكة الحديدية واستولوا على مراكز الأتراك على جانبي الطريق وكانوا على جانب من البسالة يتغلبون غالباً على جيش أكثر منهم عدداً وعدداً . وقال ليمان سندرلر الألماني : إن العرب من أول شهر أيار إلى التاسع عشر منه خربوا خمسة وعشرين جسراً .

خرب العرب محطة القطرانة وأسروا عدداً من الترك وبعد أسبوع هجموا على الحسا فأخذوا قطاراً كان هناك ودمروا قسماً من العدة والذخيرة ولكن الأتراك أخرجوهم بعدئذ من الحسا فتقهقروا جنوباً وهم يخربون في الجسور والخط . وفي تشرين الثاني ١٩١٧ واقعت القوى البريطانية حامية الترك في عمّان فسقطت الصلت في أيدي البريطانيين والعرب وعاد الأتراك فهاجموها في آذار ١٩١٨ وردوا البريطانيين إلى غربي الأردن . وكانت حال الصلت ومعان وعمان وغيرها تعدة جداً لأن الاستيلاء عليها كان متبادلاً بين الفريقين المتحاربين وأهلها بين نارين خصوصاً نار العثمانيين الذين كانوا يعاقبون الأهلين لدى عودتهم إلى بلد أنهموا منه بحكم الطبيعة أو القواعد الحربية بما يخرج عن حد المألوف تشفياً وانتقاماً .

لما صدر الأمر بالهجوم العام لضرب الجيش التركي الألماني الضربة القاضية فاوض البريطانيون الأمير فيصلاً أن يجهز حملة تسير من أبي الأسل إلى جسر تل شهاب في حوران لتقطع خط الرجعة على الجيوش التركية فتألفت الحملة من الجيش النظامي يرافقها شردمة من البدو . ويظهر أن القيادة التركية شعرت بذلك لأن من البدو من كانوا يتجسسون للعرب وعليهم ولترك وعليهم ، ومن عادة البدوي أن ينحاز إلى صفوف الغالب ويتنقض على المغلوب ولو كان في صفوفه لأن هدفه الوحيد السلب والنهب - فأوعز القائد التركي إلى الحامية أن تدافع عن معان بالهجوم على الجيش العربي في الوهيدة لإشغال الحملة عن المسير إلى تل شهاب وسار الألمان مع الأتراك من الشمال على الشوبك والطفيلة

ليلتقوا مع الجيش التركي الذي خرج من الشرق على معان فباغتت الحامية ليلاً على تل سمنة المطلة على معان واستولوا على حصونها ، وبضبطها أصبح الجيش العربي في خطر ، فبلغ الأمير فيصلاً ذلك بالهاتف من الوهيدة بين معان وأبي الأسل وتبعد عن كل منهما زهاء ساعتين أو أكثر ، وكانت مقر الجيش العربي ومقر الأمير وراها في أبي الأسل ، فاهتم للأمر لتناقص عدد الجيش العربي الذي انضمت أكثريته إلى الحملة المنوه بها ، وكانت بارحت قبل هذا الهجوم بيوم المقر من جهة الطريق الشرقي البعيد عن الخط الحجازي مسافة يوم تقريباً وهو من جهة الجفر وباير (ماءان لأهل البادية) فندب الأمير أخاه الأمير زيداً واستعاد حصون تل سمنة ، وكان الأتراك ينوون أن يتقدموا منها للاستيلاء على الوهيدة مقر المعسكر العربي ، ولولم يتقدم أحد أبناء العرب ممن كان مع الجيش التركي ويفاوض بالهاتف مركز الجيش العربي وينذره سوء العقبى ويسارع الأمير فيصّل بإرسال عبيده وعددهم مائة وخمسون ويسيروا كالبرق الخاطف يقفون أمام الجيش التركي ويشاغلونه ريثما تقدمت فرسان الجيش العربي وتبعها المشاة - لولا هذا لما رُد الأتراك عن معان وهلك الجيش العربي بأسره .

ومن ذلك الحين انقلبت حامية معان من طور الدفاع إلى طور الهجوم ، وعهد الأمير فيصّل بالقيادة العامة في مقر أبي الأسل إلى أخيه الأمير زيد والتحق بالحملة يرافقه قليل من الجند النظامي وحرسه من العبيد وبعض المتطوعة من بدو ومن حضر قاصداً الأزرق ليتخذ مقر القيادة للحملة ، وضرب موعداً للنوري بن شعلان أن يلاقيه بالأزرق مع شردمة من قبيلته كما أوغز إلى عوده أبي تابه أن يتزح مع شردمة من قبيلته من الجفر إلى الأزرق ، ولكن جنده كان قليل العدد والبدو الذين أرادهم على أن يوافوه تخلفوا عنه فأصبح موقفه في خطر ، وكان في وسع مئة جندي عثماني لو هموا به أن يأسروه ومن معه ، ولكن قذف الرعب في قلوب المحاربين من الترك فظنوا أو هناك جيوشاً جرارة لا قبل لهم بها ، وزاد حراجه الموقف تشويشاً أن بعض مشايخ قرى جبل الدروز بعثوا إلى الأمير يحثون على احتلاله الأزرق بدعوى أن احتلاله يوغر عليهم صدر الحكومة التركية لأن الأزرق وإن كان مقدمة بادية الشام وغير مملوك لأحد لكنه

يعتبر في نظر الدروز ونظر القبائل الرحل ملحقاً بالدروز، ولم يؤثر هذا الاحتجاج في نفس الأمير فيصل لعلمه أن لا قيمة له بالنسبة إلى زعماء الجبل الموالين له وفي طليعتهم سلطان باشا الأطرش الذي أخلص كل الإخلاص للثورة العربية وعاونها بماله وجاهه ، ولعلمه أنهم متجرون بهذا الاحتجاج غير أنه أورت اضطراب الأفكار خشية تجسهم للأتراك، وبعد خمسة أيام أرسل أحد شيوخ قبيلة بي صخر وهو الوحيد في موالاة الجيش العربي دون بقية شيوخ القبيلة الذين كانوا موالين للحكومة التركية ويقطعون السابلة على كل قافلة تلتحق بالأمير فيصل في أبي الأسل ، وجهزه بفتة من المتطوعة لتخريب جسر عمان لقطع المواصلات بين القيادة التركية ومعان . وجاء على الأثر الكولونل لورانس الإنكليزي ، ملقن الثورة العربية والمشرف عليها الذي دُعي « ملك العرب غير المتوج » وأخبره بسقوط نابلس وما وراءها إلى الشمال ، وأنه وقع في أسر الجيش البريطاني من الجيش التركي زهاء ستين ألفاً وكان الفضل الأكبر في ذلك لتخريب جسر تل شهاب . وصباح اليوم السادس ورد على الأمير فيصل نجاب يخبره بسقوط معان وأسر حاميتها وسوق رجالها إلى العقبة ، وبعد ساعتين جاءه نجاب آخر من عمان يحمل إليه أوراق الحكومة التركية فيها مبرهنات على سقوطها وانجلاء الترك عنها قبل تخريب الجسر . فرأى الأمير فيصل عندئذ نقل المقر إلى بصرى عاصمة حوران ، مخافة أن يضم الأتراك شملهم في درعا دفاعاً عن دمشق ولم يكذب يستقر بها حتى بلغه سقوط درعا بيد الجيش العربي الإنكليزي ومتطوعة الحورانيين ، فسار إليها ونظم حكومتها وأخذ منه القلق لأنه كان جرى اتفاق بينه وبين الحلفاء أي بينه وبين البريطانيين أن كل فريق من العرب أو البريطانيين يسبق جيشه إلى فتح مقاطعة أو بلد يكون حق احتلالها وإدارة شؤونها لذلك الفريق إلى أن يُبست في المصير ، وحافظ الجيش الإنكليزي على هذا الوفاق فكان إذا سبق ففتح بلداً أو أسقط حصناً في العمالة التي يريد إعطائها للعرب يتوقف ريثما يدخل العرب فينسب الفتح إليهم ولا سيما في الشام الداخلية . ولذلك خف السيد نسيب البكري من الأزرق بأمر الأمير فيصل إلى جبل الدروز ولقي صديقه سلطان باشا الأطرش وجيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس وذهبوا إلى بصرى وهناك التحق بهم بعض الحورانيين

ولا سيما آل مقداد وساروا إلى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الأتراك قليلاً في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانتظام ، ودخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ما عدا المشاة إلى دمشق واتفق دخول هذه الحملة مع أوائل الحملة البريطانية الزاحفة على الفيحاء من طريق جسر بنات يعقوب - القنيطرة .

سقوط حوران ودمشق بيد الجيوش البريطانية :

وفي ١٧ أيلول ١٩١٨ قطع الجيش العربي الخط الحديدي على عشرة كيلومترات من شمالي درعا (بين خربة الغزالة ودرعا) بمعاونة الطيارات الإنكليزية ، وكذلك خط درعا - حيفا اي من المزيريب وخط عمان - درعا فانقطع الخط في نصيب ، وأصبحت حامية درعا مقطوعة عن كل مدد، وفي اليوم الثاني كان الهجوم البريطاني العام فوجه الترك إلى العرب بقسم كبير من قوتهم فلم يبق فيها الجناح الأيسر من الجيش البريطاني إلا بقية ما لبثت أن تفرقت شذر مذر ، وأسر العرب في هزيمة الأتراك تسعة آلاف أسير ، وغنموا تسعة آلاف بندقية وثمانية مدافع وأربعة وخمسين رشاشاً . وفي ٢٦ منه هجم الجيش العربي وقد انضم إليه عرب الرولة وعرب عنزة وعدد من الدروز على سكة الحجاز على ١٥ ميلاً جنوبي درعا ، فحربوا جسراً وقسماً من الخط .

وفي ٢٨ منه احتلت القوات النظامية درعا وفي ٣٠ منه تغلبت فرقة استرالية على نجدات الأتراك في قطنا ، وتقربت عند المساء إلى أبواب دمشق وفشل الأتراك ، وظل الجيش البريطاني يطارد المنهزمين حتى بلغ ضواحي دمشق يوم ٣٠ أيلول وكان ناوش المهاجمون بعض الحاميات في المدن التي ذكرت ولا سيما في الناصرة (٢٠ ايلول) وقد نشب قتال فيها بين البريطانيين والألمان من الساعة الخامسة صباحاً إلى الظهر ، وعندها أخلى ليمان سندر الناصرة وركب سيارته إلى دمشق .

وعلى هذا كان أول من دخل دمشق فرقة من الخيالة الاسترالية والفرقة البريطانية جاءت من درعا على طول الخط الحجازي ومن الغد (أول تشرين

الأول) دخل البريطانيون والجيش العربي في يوم واحد ، وقد تأثر الجيش البريطاني بقايا المنهزمين من الجيش التركي بين ربوة دمشق وقرية دمر فهلك من الجند المنهزم نحو مئة وعشرين ، وسرقت خزينة الجيش التركي وكانت في القطار في مركبتين بين الشاذروان ودمر فنهبا الفلاحون وغيرهم من المصطافين ، وطارد الفرسان البريطانيون والاستراليون المنهزمين من الأتراك ممن حاولوا المقاومة أولاً في سفح جبل قلمون قرب دومة فظن الترك أن الأهلين قاموا بمناصرة الجيش البريطاني فاستسلموا فخفف أهل قرية خفير من أعالي الجبل لرد الأتراك دفاعاً عن قريتهم . وكان بعض سكان حوران اعتدوا في الأيام التي سبقت سقوط دمشق على بعض المنهزمين من الجيش لأخذ سلاحهم على الأكثر ، ولكن الأمير طاهراً الحسيني وأبناء عمه الأمير سعيد والأمير عبد القادر كانوا ألفوا من المغاربة سرايا من المطوعة وأخذوا ألف بندقية من الحكومة التركية خرجوا الى أذرع وخففوا ويلات الجيش التركي وساعده على الهزيمة ، ولما خلت دمشق من حكومة كانت مسائل الأمن فيها لأناس من أهل البلد والوجاهة في مقدمتهم أحفاد الأمير عبد القادر الحسيني فلم يقع ما يكدر في النفس والأموال .

وقبل سقوط مدينة دمشق عقد الأتراك مجلساً حربياً حضره قواد الجيش من الترك والألمان والنمساويين والمجريين ورجال الشورى الحربي ، فرأى القسم الأعظم من المؤتمرين نسف جميع الأماكن الأميرية في دمشق ، وكان الألمان أعدوا لذلك العدة ، وقال بعض الراوين بل نسف مدينة دمشق ، إلا أن القائد النمساوي أقنع رفاقه بأن هذا عمل غير معقول ، لأن الدمشقيين حاربوا مع الدولة العثمانية وقاموا بكل ما فرض عليهم بإخلاص ، فليس من العدل وقد خسر الترك الحرب أن يعاملوا دمشق هذه المعاملة القاسية وكانت حجته داحضة . وكان جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير من رأي القائد النمساوي سراً فعاضده وأشار إلى من استلموا زمام البلد من الوطنيين أن يعلنوا استقلال الشام ، فرفعوا العلم العربي على دار الحكومة ضحوة يوم ٣٠ أيلول وبعد أن هنا جمال باشا الصغير الحاضرين من الدمشقيين باستقلالهم ، غادر دمشق على

سيارته إلى رياق ، وكان آخر قائد تركي خرج من عاصمة القطر ، بعد أن ملكها الأتراك أربع عشرة سنة .

وبعد يومين استدعى من فؤوس إليهم الأمن في البلد من وجوهها الأمير فيصل بن الملك حسين قائد الجيش العربي ، وكان مرابطاً في الجيدور فدخلها ونزل في دار آل البارودي في القنوات وهناك شرع بتأسيس الحكومة العربية . وكان البريطانيون عهدوا إلى اللواء علي رضا باشا الركابي من قواد الجيش التركي ومن أبناء دمشق بأن يكون حاكماً عسكرياً لمدن الداخلية دمشق وحلب وما إليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائته في خدمتهم ، ويقال : إنه كان أرسل إليهم مصور الحصون حوالي دمشق وكان وكل إليه الترك عملها ، وأرسله القائد التركي قبيل سقوط دمشق بيضعة أيام ليجمع شمل المنهزمين من الجيش التركي في القنيطرة وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، فادعى أن العربان سلبوه ماله وثيابه ، وانضم إلى الجيش الإنكليزي ، وهكذا ذهب من دمشق قائداً تركياً وعاد إليها بعد أيام حاكماً عربياً بريطانياً .

وأطال بعض أهالي بعلبك أيديهم على المنهزمين من جند الترك ، وأخذوا سلاحهم وسلبوهم ثيابهم وعتادهم وقتلوا نحو ثلاثين جندياً ، وذل الأتراك في الشام بعد عزتهم ، وكان الاتحاديون العلة الأولى في هذه الذلة ، وذهاب هذا الملك العظيم ، وخدم الاتحاديون الدولة بادية بدء إذ حموا الدستور كما قال كامل باشا لكنهم بتدخلهم في السياسة وبسط سيطرتهم على السلطة الإجرائية أصبحوا حكومة في حكومة ، وأضحوا خطراً على الدستور . بل صاروا بعد خطراً على المملكة كلها ، ضاربوا بها في سوق السياسة الألمانية فخسروها .

سقوط بيروت والساحل والهدنة :

كانت الطائرات البريطانية يوم ٢٩ أيلول أمطرت قنابلها على مستودعات محطة رياق نقطة اتصال الجنوب بالشمال ونهب ملحم قاسم أنابيب رياق وحوش حالا في جماعة من رجاله ، فنسف الألمان ما بقي من المون والعتاد في المستودعات والأنابيب ، وانهمزوا في السكة الحديدية إلى الشمال ، ولم يتركوا أحداً من الترك معهم نجوا باستعمال الشدة ، وفي ذلك الحين قذف الألمان في بيروت المون

والمواد الحربية في البحر ، وأصلاهم الحلفاء ناراً حامية خلال هزيمتهم ، ولم تنفعهم وتنفع الأتراك خطوط الدفاع التي كانوا جعلوها في الجبل المطل على بيروت ، كما لم تنفعهم والترك أيضاً الخطوط التي انشأوها في جبل المانع والمزة وقاسيون المحيطة بدمشق من غربها وجنوبها وشمالها ، وهكذا لم تصب دمشق وثرها بيروت بأذى يوم الهزيمة على نحو ما كان العقلاء يحاذرون .

لم يجر استيلاء الحلفاء على بيروت إلا يوم ٧ تشرين الأول أي بعد سقوط عاصمة الشام بثمانية أيام ، فأرسلت الحكومة العربية في دمشق برقية إلى رئيس بلدية بيروت بأمر الأمير فيصل غداة وصوله إلى دمشق تأمره فيه برفع العلم العربي ، ووصل إلى بيروت من دمشق اللواء شكري باشا الأيوبي تحف به شردمة من الفرسان ، واحتل دار الحكومة ، وبعد أربعة أيام وصل القائد الإنكليزي وأمر اللواء العربي بالعودة إلى دمشق ، وأُنزلت الراية العربية وعين الكولونل بياباب الفرنسي حاكماً على بيروت ، وأخرج الفرنسيون جنداً إلى البر بين تصفيق الأهالي ولا سيما أبناء الطوائف الغربية ، ثم صدر أمر القائد اللنبي إلى الأمير فيصل أن يحتل جيشه حمص وحماة وحلب ، وكانت الجنود الإنكليزية والاسترالية تتقدمه أولاً ، ففتحت حمص يوم ١٤ تشرين الأول ، وحماة يوم ١٦ ودخل الجيش العربي حلب يوم ٢٥ منه مساء بعد مقاومة خفيفة ومناوشة الفرسان البريطانيين والاستراليين لبقايا الجيش التركي الذي دافع لإشغال الجيش المهاجم حتى يتسنى له الانسحاب من حلب بانتظام وسلام خشية الأسر ، ويتم له نقل الموظفين وعيالهم والنقود والأوراق والسجلات ، وطلب الشريف ناصر بن علي قائد الحملة العربية إلى قائد الفرقة البريطانية الجنرال مكداندرو أن يمدّه بسرية من جيشه ليضمها إلى فصيلة عربية يمدّها بها السرية التي كان أنفذها لاحتلال حلب فرفض الجنرال طلبه ، وبعد الإلحاح عليه صرح بأن القائد العام أمره أن لا تطأ قدم جندي واحد من الجيش الإنكليزي مدينة حلب إلا بعد دخول الجيش العربي ورسوخ قدمه بها ، وهكذا لم يدخل الجيش البريطاني حلب إلا بعد دخول الجيش العربي ورسوخ قدمه بها ، وهكذا لم يدخل الجيش البريطاني حلب إلا بعد دخول الجيش العربي بأربع وعشرين ساعة وتأليف الحكومة العربية الموقته ، وكان آخر ما سقط من الديار الشامية ميناء الإسكندرونة احتلته البحارة الفرنسية يوم ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨ .

وصرح القائد مكاندرو في خطاب له في إحدى المآدب بحضور المستر مارك سايكس والمسيو جورج بيكو بعد أن أثنى على شمم العرب وذكأهم ونبوغهم وشجاعتهم بقوله : « وما يلفت النظر أنهم بفرط بسالتهم وإقدامهم سبقونا إلى حلب بيوم كامل أربعاً وعشرين ساعة » .

احتل العرب قلعة حلب ودار حكومتها ، وقد فقدوا أربعة وخمسين جندياً ، وأحصوا أربعمئة قتيل تركي في الشوارع . وذعر الترك لأنهم أصبحوا بين عدوين الجيش المهاجم والأهالي وانقض زعماء بادية حلب على الجيش التركي ، عندما كان يدافع على سلامته على أبواب حلب ، للسلب والنهب . وفي ٢٦ تشرين الأول بدأ الجيش العربي بمهاجمة الأتراك في القسم الشمالي الذي كانوا فيه من المدينة فأجلوهم وتبعهم فرسان البريطانيين في اليوم التالي فواصلوا الزحف شمالاً إلى أن بلغوا المكان الذي تتقاطع فيه سكة حديد بغداد وسكة حديد سورية ، وقد وقعت في قطعة معركة شديدة بين الأتراك والبريطانيين قتل فيها كثير من الفريقين وانتهت بانهزام الأتراك إلى الشمال والجيش البريطاني متأثرهم ، والأتراك يرتكبون الفظائع في القرى المستضعف أهلها ، ووقف البريطانيون على كيلو مترات قليلة من شمالي حلب ، فأبلغت انكلترا قائد جيوشها بعقد الحلفاء الهدنة مع الأتراك يوم ٣١ تشرين الأول ، وكان الأتراك يتذرعون بالهدنة منذ بدء الهزيمة الكبيرة في فلسطين ، ولكن بريطانيا العظمى سوفت في الأمر ريثما أخرجت الترك من الشام كله بالقوة على ما يظهر ، وبعد الهدنة ظلت شرادم من الجيش التركي في حارم وأنطاكية وبيلان وإسكندرونة لم تستطع اللحاق بالجيش المنهزم ، فتنسخت وتخللتها الفوضى ، وانقلبت إلى شبه عصابات تسلب وتنهب وتوذي الأهلين ، إلا أنها لم تلبث أن انضمت إلى المنهزمين وراء جبال طوروس أو دخلت في الطاعة واستسلمت .

ومن شروط الهدنة مع الأتراك تسليم حامية الحجاز وعسير واليمن والشام وما بين النهرين وانسحاب الجيوش من قلقية عدا من يحافظون على الأمن ، وكان الفريق فخري باشا محاصراً في المدينة المنورة في خمسة عشر ألف جندي ، ولم يسلم إلا عندما جاءه الأمر من حكومته في الإستانة أي في كانون الأول . وبينما كان الأمير فيصل لأول الاحتلال العربي في حلب وردت عليه برقية من

وزارة خارجية بريطانيا العظمى بواسطة المستر اللني تطلب حضوره إلى باريز ليشهد مؤتمر الصلح للدفاع عن قضيته ، وعينه والده وكيلاً عنه في مؤتمر فرسال ، إذ لم تكن له صفة رسمية ثابتة تخوله حضور جلسات المؤتمر بصفة قانونية ، فقدم للمؤتمر مذكرة قال فيها إننا نعتقد أن سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية التي يقطنها عدد وافر من السكان من طبقات مقيمة هي بلاد متقدمة تقدماً كافياً من الوجهة السياسية يمكنها معه أن تقوم بأعباء أمورها الداخلية ، ونرى أيضاً أن الاستشارة والمعاونة الأجنبية ستكون عاملاً ثميناً جداً لنمونا القومي ، ونحن مستعدون لصرف ما يلزم من النقود مقابل هذه المعاونة ، ولا يسعنا أن نفاذي مقابلها بجزء من الحرية التي أخذناها قبلاً بأنفسنا وبقوة سلاحنا .

سبب سقوط الشام بأيدي الحلفاء :

عجب العارفون لسرعة سقوط الشام في أيدي الجيش البريطاني ، وكيف كان تقدم الجيش المهاجم على مقدار سير خيول الفرسان ، ولا عجب فالجيش مهما بلغ عدده إذا كسرت معنوياته ورأى الأفراد قادتهم يفرون ويختبئون ويرتعدون يدب فيه الفشل ، ولم يكن الجيش التركي في الشام والحجاز أكثر من مائة وعشرين ألفاً ، بقي في المدة الأخيرة منه مع ليمان ساندرس الألماني خمسون ألف جندي على حين كان يلزمه مئتا ألف ، وجميع مدافع الترك على اختلاف العيارات لم تتجاوز الثلاثمائة ، ومعظم ما يستندون عليه المدافع النمساوية ثم البطاريات الألمانية ، أما الأعتاد الحربية والقنابل منها بوجه خاص فكانت قليلة جداً عند العثمانيين ، لا يبيحون استعمالها إلا عند الضرورة الماسة ، على حين كان البريطانيون يسرفون لا يبالون في إطلاق القنابر . وقد ألقى ليمان ساندرس التبعة على جمال باشا الكبير فقال في تقرير له إلى وكيل القائد العام : إن كل ما في سورية من إنسان وجماد وحيوان قد تسمم من سوء إدارة جمال باشا وإن الثبات فيها لا يمكن أبداً .

وفي الحق أن سوء الإدارة قضى بأن يجوع الجند المحارب ولدى الدولة أنابيب الأطعمة الكثيرة لم يتفجع بها . وما كان يظن أن الجند التركي ، وبه يضرب

المثل بالطاعة والشجاعة، أن يبدأ بالهرب، منذ بدت أمارات الفشل والبؤس، كانوا يهربون زرافات في الجبال إلى آسيا الصغرى وهم لا يعرفون الطريق وأهل القرى يطعمونهم ويلبسونهم ويهدونهم السبل. على أن الثبات أمام الجيش البريطاني لم يعد فيه أدنى فائدة ما دام حلفاؤهم البلغار قد طلبوا الصلح، وأمارات الانهزام بدت بجميع أعراضها في الساحة الغربية في أوربا.

وقصارى القول أن هذه الحرب كانت على الشام من أشأم الحروب لأنها حاربت وهي تحب السلم، فكان حربها تبعاً للدولة، وفقدت أبناءها وأموالها وخرب عمرانها. فقد منها نحو عشر سكانها في المعارك والجوع والأمراض أي نحو ثلاثمائة ألف رجل على أقل تعديل وخسرت من حيوانها وشجرها وذخائرها وبيوتها وجسورها ما يساوي الملايين من الدنانير، ويصعب تعويضه إلا في السنين الطويلة، هذا ما عدا من قتل من السوريين في الحرب مع الحلفاء فقد تطوع من الشاميين من غير المسلمين مع الحلفاء أكثر من عشرين ألفاً منهم خمسة عشر ألفاً كانوا في الجيش الاميركاني.

قبض الاتحاديون على زمام السلطنة العثمانية من سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) إلى سنة ١٣٣٦ (١٩١٨) ولم تتخللها إلا أشهر معدودة خرج الحكم فيها عن يدهم إلى الأحزاب الأخرى، وكان من عملهم الأول إعطاء الحرية لأمة لم تشرك في طلبها بل تولدت من فكرة بعض الأحرار والضباط، ثم قضاوا على تلك السلطنة العظيمة، وجنوا جنوناً عظيماً بسياسة تبريك العناصر، حتى خرجوا عن طور العقل، ولم يجربوا أن يسمعوا بالعرب والعربية وحقوق العرب، فضلاً عن مراعاتهم وهم نصف سكان المملكة، وفي أرضهم أشرف معاهدها التي كان سلاطين العثمانيين يبسطون بواسطتها نفوذهم المعنوي على العالم الإسلامي. قامر أنور وطلعت وجمال بالمملكة العثمانية كأنها سلعة في السوق ففسروا رأس المال، وكانوا يعللون آمالهم أن يضيفوا إليه أضعافاً مضاعفة، وبسقوطهم دب الفشل في الدولة العثمانية نفسها، وكيف لا يدب وقد خرجت رازحة بديونها فاقدة أكثر من نصف مملكتها.

رأي مؤرخ تركي في انقراض الدولة العثمانية :

نسب أحد مؤرخي الترك المعاصرين أسباب انقراض العثمانيين إلى عوامل كثيرة أهمها في نظره .

(١) انقطاع البطولة من المسلمين وقيام الأتراك سداً أمام النصرانية وبذلك جلبوا عليهم خصومة أوروبا النصرانية جمعاء، فكانت مطارق النصارى تتساقط على رؤوس الأتراك قروناً .

(٢) التغافل عن الوطنية التركية ولم تجعل التركية أساساً لسياسة الدولة، فصانوا أديان من وجدوهم من القوميات وأبقوا على ألسنتهم، بل أيدوها وناصروها ، فمنح محمد الفاتح مثلاً الروم امتيازات مذهبية، فأحدث بذلك دولة في دولة، وارتكب خطأ فاحشاً، وعوضاً عن أن يجعلوا المملكة متجانسة صيروها كبرج بابل، وما قاسته التركية بل هذه الدولة في هذه السبيل مما لا يستطيع تسطيره، فإن السلجوقيين حافظوا على جميع ما وجدوه في الأناضول من الأديان والقوميات الغربية ، وجرى العثمانيون على مثالمهم فرعوا ما وجد بأعيانه ، وما عرفوا ما هو التمثل ، وكانت هذه العناصر كلما وجدت فرصة تستل من بناء الدولة حجراً وتذهب به، وبصنعهم صارت الحال إلى ما صارت إليه ، وقد اشتهرت بممانعة شيخ الإسلام زنبلي علي أفندي لياوزخان (السلطان سليم) لما أراد أن يُسلم الروم ، قاومه باسم الدين، فبقيت هذه العناصر بحالها لفقدان الدعوة إلى القومية التركية ومكان الشريعة . وهذه العناصر فتحت للأجانب سبيل التدخل في شؤون الدولة الداخلية فكانوا السبب في انقراضها ، ولم يهدأ لهم بال في هذا الشأن ، واجتهدوا في الوصول إليه ، ومن أسباب هذه الذهنية المشوومة الرأي الأخرق القائل بلزوم الإبقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة. وهذا من أساليب العرب وأصولهم (٣) تدخل الدين في مصالح الحكومة، وعدم قيام بناء الدولة على ما يجب

(٤) جهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم

(٥) ربيتهم أبناء الصرب والروس والاولاح والأرمن والعرب والأرناؤد والكرج والجرکس وغيرهم من العناصر، ثم تسليمهم أمور الدولة إليهم بدلاً من أن يأخذوا

بأيدي أبناء الترك، وهؤلاء وإن لم يكونوا أتراكاً كانوا يبذلون الجهد للقضاء على التركية وإسدال الحجاب عليها ، وكان الملوك يعتصمون بالإسلام فأورثوا بذلك التعصب قوة

(٦) كانت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية عاملة على الانتقام لمملكة بيزنطية فبشعور روسيا بهذا الانتقام ، وحرصها على جعل الأتراك روساً في لغتهم ومناحيهم ، كانت تحارب تركيا أبداً وهذا من جملة أسباب الانقراض .

إلى أن قال : إن الحكومة العثمانية تذرعت بالمعنويات ولم تلتفت إلى الماديات ، وهذا من أعظم خطيئات الترك العثمانيين ، وكان عليهم أن يجمعوا الأتراك بأسرهم تحت علم واحد ، وبدلاً من أن يجعل العثمانيون حرثهم نسقاً واحداً هبوا كالأسود الظمأى إلى أواسط إفريقية يلتمسون السراب عبثاً ، ومن طرف آخر انصرفوا إلى أوربا كالطيور التي جعلت قلوبها كالسباع ، فطحوا برؤوسهم بلا موجب قلاع فينا ثم وقفوا وزؤوسهم دامية . ومن أعظم دواعي الأسف أنهم فتحوا سبيل الرواج للسانين العربي والفارسي ، فداس هذان العنصران لسانهم الخاص أي التركية ، وعبث بالأمة الفقر والجهل الخ . ونحن نقول إن السبب الأعظم تغافل الدولة عن تقليد الغرب في الماديات والمعنويات فظهر على توالي القرون الفرق بين الحامل والعامل ، وكان تركيب الدولة من عناصر مختلفة ، ومعظمه كان في بدء أمرها من غير المسلمين ، من جملة الدواعي في عدم تركيبها تركيباً مزجياً ، خصوصاً ومعظم تلك العناصر أرقى من الترك الأصليين عنصراً وأعظم تاريخاً، ولا عيش للمتوسط مع الذكي ، وإذا أخضعه لسلطانه بالقوة فإلى حين .

العهد الحديث

« من سنة ١٣٣٦ - ١٣٤٣ »

تجزئة الشام بين فرنسا وانكلترا :

كانت نتيجة الحرب تجزئة الشام بين فرنسا وبريطانيا، فاستقلت هذه بفلسطين وما إليها، واستأثرت فرنسا بالساحل من صور إلى ما وراء الإسكندرونة ، وبقيت الداخلية اي الكرك والصلت ومعان وعمان وحوران ودمشق وبعبك وحمص وحماة وحلب مستقلة بإدارة الأمير فيصل ، والموحون اليه البريطانيون. أما القيادة العامة فكانت بأيدي البريطانيين ودعيت الشام بلاد العدو المحتلة عملاً باتفاق سايكس بيكو الذي عقد يوم ٩ أيار ١٩١٦ قاضياً بتقسيم الأقاليم العثمانية غير التركية إلى مناطق نفوذ ومناطق سيادة، وإنشاء دولة أو دول عربية متحدة في الأصقاع العربية ، وبموجبه تتناول الدول العربية داخلية سورية وقسماً من العراق . أما دولة سورية العربية فجعل فيها لفرنسا وحدها حق تقديم المستشارين والموظفين الأجانب، وذلك إجابة لرغبة الدولة السورية نفسها ، أو دول الاتحاد العربي ، وقد حوّلت بريطانيا العظمى هذا الحق نفسه في دولة العراق ، ويقضي هذا الاتفاق بان تنشئ فرنسا في ساحل سورية وفي قلقية ، وبريطانيا في جنوب العراق وفي جملتها بغداد ، وفي موالي حيفا وعكا ، نظام الحكم الذي تريدها ، ونوع الإدارة الذي تستحسنه ، وأن تنشأ في فلسطين حكومة دولية .

وسار الحال على ذلك مدة إلى أن تم الاتفاق (١٥ أيلول ١٩١٩) بين

الحكومتين الفرنسية والإنكليزية على أن تخرج بريطانيا عساكرها من الشام ، بشرط أن لا تدخل العساكر الفرنسية إلى المدن الأربع منها أي دمشق وحلب وحمص وحماة ، لأن بريطانيا قطعت للعرب عهداً أن تولف لهم حكومة عربية ، وهكذا كان فإن الجيش البريطاني تراجع إلى شرقي الأردن وفلسطين . وعينت بريطانيا على فلسطين السير هربرت صموئيل وهو إسرائيلي إنكليزي مفوضاً سامياً ، وعينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً على سورية ولبنان ، ويعمل هذا القائد مستقلاً باسم دولته ، وكان من قبله من الفرنسيين يعملون حتى في لبنان بقيادة اللورد النبي القائد البريطاني العام .

وجاء في هذا الاتفاق أن بريطانيا وفرنسا تضمنان لسكان ما بين جبال طوروس والخليج العجمي ، استقلالاً واسعاً يأمنون معه على حريتهم ، ويتمكنون من تجديد حضارتهم ، وكانت كل من بريطانيا وفرنسا نشرت بلاغاً قالتا فيه : إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي هاجتها مطامع الألمان ، إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت قروناً طوالاً تحت مظالم الترك — تحريراً تاماً نهائياً وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حرّاً . ولقد أجمعت فرنسا وبريطانيا على أن تؤكدا ذلك بأن تعاونا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية في الشام والعراق — وهما المنطقتان اللتان أتم الحلفاء تحريرهما — وفي الأراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها ، وأن تساعدوا هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض فرنسا وبريطانيا أن تنزلا أهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدها ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التي يختارها الأهليون من أنفسهم ، وأن تضمنا لهم عدلاً متزهاً يساوي بين الجميع ، وتسهلا عليهم ترقية الأمور الاقتصادية ، وذلك بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ، ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية ، تلك هي الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة اه .

فتنة الأرمن واعتداؤهم على العرب :

كانت الدولة العثمانية في السنة الأولى للحرب أجلت من الأناضول إلى الشام عشرات الألوف من الأرمن ، وأعملت فيهم السيف وقتلت منهم مئات الألوف صبراً بطرق مختلفة ، لأن بعض أبناء جنسهم قطعوا خط الرجعة على الجيش العثماني أثناء حربه في جبهة روسيا ، فصدر أمر الحكومة العثمانية أن يقتل الأرمن قتلاً عاماً، ويقال : إنه هلك فيه نحو مليون نسمة منهم ومن لم تستطع الدولة قتلهم بعثت بهم إلى ديار العرب، رجاء أن تجد سبيلاً آخر لقتلهم ، ويقال إن الألوف التي جلتها إلى الشام كانت توغز من طرف خفي بقتلها ، ولكن العرب أظهروا من الشمم والكرم ونصرة الضعيف ما فطرت عليه أخلاقهم فلم يمسّ الأرمن بأذى حتى في أقصى الشرق والجنوب من الشام حيث تكثرت الجهالة والهمجية .

ولما دخلت جيوش الحلفاء الشام كان في جملة كتائب فرنسا متطوعة من الأرمن ، فوقع في نفوس بعضهم أن ينتقموا من العرب عما جنته أيدي الأتراك على أبناء مذهبهم فقابلوا إحسان العرب إليهم بالإساءة ، وبدأوا ببيروت فأطلقوا بنادقهم على بعض البيروتيين علناً وقتلوا بعض الوطنيين ، ثم أخذوا حيث يتزلون ، يبدون من أمارات الغضب ما يتناول الأبرياء مباشرة ، وقد تمرت هذه الكتاب حتى على الحكومة التي قبلتها متطوعة في صفوفها مثل الكتبية التي تمرت في الإسكندرون (١٩١٩) حتى اضطرت القيادة الفرنسية أن تنقلها إلى أذنة ، ولم تقف معاملة الأرمن للعرب بالسوء عند هذا الحد بل تكونت منها أسباب لفتنة أهلية في حلب انتهت بقتل وجرح وأحكام بالقتل وإهانة الأعيان . وقد سألتنا صديقنا السيد أمين غريب وكان في الشهباء قريباً من هذه الواقعة ففضل وكتب إلينا ما ثبتته بنصه ، وقوله ثقة في هذا الباب قال :

كان الجيش الإنكليزي محتلاً مدينة حلب وقد وقفت طلائعه في مسلمية وما حولها بسبب الهدنة بين الحلفاء من جهة والدول الوسطى من جهة ثانية . وكانت تركيا بحسب الشروط قد أخذت تسرح جيشها ، فيعود الجنود العرب إلى الشام بطريق أذنة ويمرون بالجنود الأرمن الذين عسكروا في أذنة ونواحيها ، وكان هؤلاء الجنود قادمين مع الحلفاء (وأرجح أن قيادة أمورهم كانت في

أيدي الفرنسيين (فكان كل عربي يمر بالأرمن لباساً ثياب الجيش التركي المنحل يهيج منظره العسكري عاطفة النقمة في قلوب الأرمن إذ يتذكرون فظائع الأتراك بهم وبأهلهم . ولا يعذرونه بأنه عربي ، جاهلين الفرق بين هذا وبين التركي فيعاملونه بخشونة . وكنا في حلب نستقبل كل يوم عشرات ومئات من أولئك العرب مسرّحين وهم مهشمو الوجوه مجروحون مضروبون بأيدي الأرمن فكان هؤلاء الجنود ينتشرون في حلب وينشرون بين أهلها أخبار تعدي الأرمن عليهم انتقاماً منهم لما فعل الأتراك بهم ، وكان كثير من هؤلاء الجند من الحلبيين المسلمين ، هذه أول مقدمة لحادثة حلب .

السبب الثاني - كان الإنكليز عند دخولهم حلب قد أخذوا الأرمن اللاجئين إليها ووضعوهم في أماكن مخصوصة عنوا فيها بإعاشتهم وترتيب أمورهم وتحسين حالتهم ، فرأى الأرمن من الإنكليز حماة يدفعون عنهم ذلك الشر المستطير والضيم العظيم ، فصاروا كمن انتقل فجأةً من الظلمة الحالكة إلى نور كهرباء ساطعة ، وتحولوا حالاً إلى جواسيس متطوعين للإنكليز ينقلون إليهم الأخبار المتنوعة ، وجرأهم هذا الانقلاب في حالتهم من تعاسة وشقاء إلى حرية وإكرام فنشأت فيهم غطرسة غير معهودة لدى الحلبيين فقابلها هؤلاء بالاشمئزاز الطبيعي فازدادت نارها اضطراباً ، وصارت الخشونة في الحديث على رأس كل لسان أرمني تقريباً ، فتكاثرت الحوادث البسيطة في جميع أنحاء الشهباء .

السبب الثالث - الجنيه المصري ، فإن الإنكليز طرحوه في حلب عند قدومهم وقد تناقصت في ذلك الحين قيمته الحقيقية عن قيمته الرسمية ، وكان الأرمن يتناولون الجنيه من دوائر الاعاشة الإنكليزية ويذهبون لصرفه عند الفوائين وباعة الحمص مثلاً ، فكان الأرمني يأكل صحن فول بعرشين ثم يبرز للفوال ورقة بليرة ويطلب منه حسم العرشين وإعطاءه الباقي من المال الحجر ، وكانت قيمة الورقة ستين غرشاً ، فكان المسكين يضطر إما إلى خسارة كل موجودات محله وهي لا تزيد عن أربعين غرشاً وإما إلى مواجهة شرطي كان غالباً يعطف على خصمه الأرمني تنفيذاً للقانون ، وتعددت هذه الحوادث وتنوعت حتى امتلأت منها القلوب وغلت من حرارتها الحواطر .

جاء يوم الجمعة في ٢٨ شباط ١٩١٩ وهو يوم السوق التجارية هناك ، فكان مسلم يبيع حماراً وقد ساومه عليه أرمني فاختلفا وتصايحا وتشاتما ثم تلاكما فكانت هذه الشرارة التي شعلت النار في المهشم . وفي سوق الجمعة وما حولها من الأماكن التي يكثر الأرمن فيها حصل التعدي عليهم وفي أقل من ساعة بلغ عدد القتلى ٥٢ والجرحى مئة ، قتلوا كلهم وجرحوا بالمدى والخناجر وسواطير اللحم لا بالرصاص . وقد اجتهد الأرمن يومئذٍ اجتهداً عظيماً كي يشركوا الحكومة العربية في الجناية عليهم بسبب وجود بعض الجنود والشرطة الأهلية في أماكن التعدي لأنهم لم يصادفوا منهم عوناً . أما عدد قتلى المسلمين الحلبيين فلم يرد ذكره أمامي لكنه بحسب ما سمعت لا يتجاوز العشرة .

وقد أقيمت ٩٢ دعوى على المتهمين بهذه الحوادث ، وآخر ما بلغني أن قد حكم على نحو ثلاثين بالقتل فقتلوا في أوقات مختلفة وصدر الحكم على كثيرين بالسجن . أما الثلاثون عيناً من أعيان حلب فقد قبض عليهم الإنكليز يومئذٍ بتهمة تحريض الأهالي على ذبح الأرمن ، لكن هذه التهمة لم تثبت أمام التمهيص الذي أجرته لجنة من المحققين كنت عضواً فيها . ولهذا لم تقع عليهم محاكمة بتاتاً ، لكنهم جعلوا قيد التوقيف مدة ريشما سكنت الحال ، وأذكر أن القائد الإنكليزي لما أراد أن يسرحهم ألقى عليهم كلاماً ملخصه : إنكم زعماء والزعيم لا يُعذر على جهله ما يدور بين جماعته . إننا لم نجد عليكم ما يوجب عقاباً قانونياً . لكننا لا نبرئكم من التبعة في وجود أسلحة مع بعض أناس منتمين إلى زعامتكم ، فعليكم كلما علمتم بعد الآن أن تعلمونا بمن يحمل من الأهالي سلاحاً على شخصه أو في بيته ، وإلا فنحن نتوخى لكم التحقير حتى لا يبقى في أذهان الناس أثر لاعتقاد الزعامة فيكم « وهلم جراً .

أعمال الحكومة العربية وحكومة الصهيونيين :

لما جلت الجيوش البريطانية عن المدن الأربع دمشق وحلب وحماة وحمص أخذت الحكومة العربية بإمارة الأمير فيصل بن الحسين تعد لها جيشاً من الأهلين ، وكانت بريطانيا تؤدي كل شهر لحكومة المدن الأربع مائة وخمسين ألف جنيه

مصري ، لتستعين بها على تنظيم شوونها ، وكان يصرف من هذا المبلغ جزء مهم على بث الدعوة وتنظيم العصابات ، فأخذت بريطانيا تفكر في قطعها ، ولكن الحكومة الوطنية زادت في معدل الجباية والرسوم حتى تسد العجز يوم انقطاع الإعانة الكبرى ، ودخل في السياسة الوطنية شبان متحمسون ، وأكثرهم من غير أبناء هذه المنطقة الشرقية منطقة المدن الأربع ، وأصبحت لهم منزلة عند الأمير يرمون وينقضون ، فأبعدوا عنه كثيراً من رجال الحل والعقد ، وأصبح الأمير يعمل هو والشبان ، والمستند في ذلك على طائفة من أرباب الفتوة والعوام ، وكثرت الأحزاب السياسية في دمشق حتى زادت على ثمانية ، وكلها بالطبع تريد استقلال الشام ، ومنها ما يدعو إلى استقلال جميع العرب ، وكثرت المنازع واشتد التنازع بين أبناء الوطن ، وكلهم يريد له الخير ولا يهتدي إلى طريق الصواب . لأن عمال بريطانيا وفرنسا أخذوا يعملون في الشام ، وكل منهم يريد الاحتفاظ بحقوق دولته وإثبات الأرجحية لها وتوطيد أقدامها .

وقد تأفف الناس من السياسة التي جرى عليها الأمير فيصل في الاعتماد على الغرباء عن منطقة المدن الأربع ونزع ثقته من الأعيان والمفكرين من دون سبب ، فأخذوا ينصحون له سراً بالعدول عن هذه الخطة ، وأوفد أعيان الدمشقيين ومفكروهم وفدأً يبين له ما يجب السير عليه حرصاً على المصلحة فلم يلتفت إلى كلامهم . وقال في بعض مجالسه : إن أولئك الغرباء الذين يعتمد عليهم قد خدموه أكثر من الدمشقيين وأن هؤلاء لا مأرب لهم إلا المال . على أن الأيام أثبتت عكس ما قال ولكن السياسة تسود الأبيض وتبيض الأسود . وكانت المنطقة الساحلية أي التي دعيت باسم المنطقة الغربية ، قد أقامت لها حاكماً إفرنسياً على لبنان لأول عقد الهدنة ، وأخذت فرنسا تحتل السواحل وما إليها إلى قلقية ، ولم تمض على ذلك مدة حتى بدأت العصابات التركية تسيء إلى الجيش الفرنسي في قلقية وشمال الشام فقتل من الفريقين مئات . وكانت فلسطين منذ رحل الترك عنها في قبضة الجيش البريطاني فلما مضت السنة الأولى للهدنة أصبحت بريطانيا تفي للإسرائيليين الصهيونيين بما وعدهم به وزيرها بلفور مدة الحرب ، إذا عاونوا بريطانيا بأموالهم بأن تجعل لهم من فلسطين وطناً قومياً . فجعلت اللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين بمثابة العربية والإنكليزية

وأخذت الوظائف تنتقل من أيدي المسلمين والمسيحيين إلى أيدي الإسرائيليين ، وخص الإسرائيليون بالرعاية على ما لم يكن لهم به عهد ، فشق ذلك على أهل الوطن ، واجتمع المسلمون والنصارى وألّفوا جمعية تطالب بريطانيا بالعدول عن هذا الوعد البلفوري، وكثرت الوفود منهم إلى أوربا وإلى مصر مركز القيادة العامة للجيش البريطاني ، فشعرت بريطانيا بصعوبات حقيقية في إدارة فلسطين (آب ١٩٢١) وحدثت فتنة في يافا والقدس وغيرها من المدن الفلسطينية وتوقفت الأعمال ، والقوم لا عمل لهم إلا لإرادة بريطانيا على الرجوع عن وعدّها لليهود ، وقد ملأ أبناء فلسطين من غير اليهود وهم ثمانية أضعافهم العالم صياحاً وعويلاً ولم ينفس لهم كرب ، ولم يدركوا لهم غاية . وهكذا كان من شبح الصهيونيين ما أخاف المسلمين والنصارى فاتحدوا اتحاداً صادقاً وجامعتهم في اتحادهم ، وحدة المصلحة على طراز كان فيه شيء من الغرابة .

ولما تركت الحكومة العربية في دمشق وشأنها على أثر انسحاب الجيوش البريطانية إلى الخط الذي عينته معاهدة سايكس بيكو في فلسطين، رأى الأمير فيصل أن يذهب (١ أيلول) إلى لندن وباريز ليتمهم ساستهما حقيقة أماني الأمة السورية ويعرف موقفه من معاهدة بريطانيا وفرنسا المنعقدة في ١ أيلول ١٩١٩ وخلاصتها تسليم قلقية والمنطقة الغربية من أرض العدو المحتلة أي ساحل سورية إلى الإدارة الفرنسية ، فسحبت بموجبها الجيوش البريطانية إلى ما وراء الخط المفروض الذي عين الحدود بين المنطقتين المنوه عنه بمعاهدة سايكس بيكو ، أما المنطقة الشرقية وأرض العدو المحتلة أي المنطقة العربية فتبقى الحكومة بدمشق قابضة على زمامها ، وتقدم لها الدولة الفرنسية المساعدة الضرورية التي نصت عليها معاهدة سايكس بيكو .

ما استطاع رجال بريطانيا أن ينيلوا الأمير فيصلاً رغائبه ، وأحالوه على فرنسا لأن الانتداب في الشام أصبح لها دون سواها ، وفي فلسطين تم الانتداب لإنكلترا وكذلك العراق . فبذل الأمير جهده حتى يفهم رجال السياسة في بريطانيا وفرنسا ما هي المسألة السورية ، وبعد الجهد العظيم لم ير إلا الاتفاق مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كليمانسو وتعهد له أن يكون مع فرنسا ويرضى بانتدابها على الشام ، واعترفت فرنسا لأهل الشام على اختلاف مذاهبهم بالاستقلال

وحكم أنفسهم بأنفسهم ، وذلك في اللائحة التي تم توقيعها بين فرنسا والأمير فيصل يوم ١٦ كانون الأول ١٩١٩ واعترف الأمير بأن السوريين لا يستطيعون في الوقت الحاضر، لاختلال النظام الاجتماعي الناشئ عن الاضطهاد التركي والخسائر المحدثه أثناء الحرب، أن يحققوا وحدتهم، وينظموا إدارة الأمة دون مشورة ومعاونة أمة مشاركة، وطلب باسم الشعب السوري هذه المهمة من فرنسا وقد جاء في المادة الخامسة من هذه اللائحة أن الأمير فيصلاً يتعهد بأن يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إداري داخل الدولة تكون مجهزة بأوسع استقلال يلتئم مع وحدة الدولة ، وجاء في المادة السابعة أنه يعترف بالعربية لغة رسمية في الإدارة والتدريس وتعلم اللغة الفرنسية كما تعلم لغة مساعدة وبصورة إجبارية ومختارة .

وتعهد الأمير بأن يقضي على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الفرنسي ، وعلق اعترافه بالانتداب الفرنسي جهاراً على إدماج لبنان في الشام ، ثم عاد إلى الشام (٣ شعبان ١٣٣٧ - أيار ١٩١٩) فاستقبلته السلطان الفرنسية والبريطانية استقبالاً رائعاً ، وكان استقباله في دمشق فخماً للغاية فخطب في بيروت خطبة رضي عنها الفرنسيون ، ولما جاء دمشق خطب خطبة تخالفها إجمالاً وترضي المنادين بالاستقلال التام الناجز ، وبدأ التقلقل في سياسته والتناقض في أقواله ، لأنه كان بين عاملين العامل الفرنسي والعامل الإنكليزي وهذا أشد وأقوى وان لم يكن ظاهراً للعيان ، ومن أشد العوامل في هذا حالة والده ملك الحجاز ، ولأن إنكلترا إذا غضبت تنقطع عنه المعاونة المالية الشهرية، وبدونها يستحيل القيام بشيء من أعمال المقاومة والدعاية .

المؤتمر السوري ومبايعته فيصلاً ملكاً على الشام :

كانت الحكومة العربية بدمشق دعت مؤتمراً تألف من أكثر أبناء الشام . ومنها فلسطين ، لوضع القانون الأساسي وتعيين شكل الحكومة ، فقرر إعلان ملكية الأمير فيصل (١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨ - ٧ آذار ١٩١٩) فبوع له بالملك على الأصول باسم فيصل الأول ، وأعلن شقيقه الأمير عبد الله ملكاً

على العراق ، بايع أهل الحل والعقد الملك الجديد فرحين مغتبطين ، ولم يحضر قنصل بريطانيا حفلة التنصيب وحضرها معتمد فرنسا فرحاً مسروراً ، وكان محباً للعرب مجاهراً باستقلالهم ، وتألقت وزارة قالت أولاً إنها لا تقبل بالانتداب الفرنسي الذي كان قرره على الشام مؤتمر سان ريمو في ١٦ نيسان (١٩٢٠) فدهش المفكرون لهذا التبدل في السياسة ، وذهبت في ذلك الظنون كل مذهب ، فمن قائل إن الأمير نودي به ملكاً بإيعاز إنكلترا لأنها ذكرت خدماته وخدمات والده وإخوته لها في الحرب ، فأرادت أن تكافئهم وتقوم بما وعدتهم به . ومن ذهب إلى أن فرنسا رأت ذلك من مصلحتها ، لأنها كانت عرضت على الأمير أن يقبل بالانتداب الفرنسي على الشام ما عدا فلسطين وهي تدخله لبنان في سلك ملكه فلم يقبل . ثم تبين بعد أيام أن المسألة ليست منبعثة إلا عن آراء الأحزاب لأن من أساطينها من كان يذهب منذ حين إلى أن أوروبا إذا رأت الشاميين يتنادون بالأمير فيصل ملكاً عليهم ، لا تنازعهم في ذلك لأنهم أحرار في بلادهم . ويكون ساسة أوروبا أمام أمر واقع لا يجروون أن ينقضوا ما أبرم !! وفي ١٨ آذار أي بعد البيعة بعشرة أيام أبلغت فرنسا وانكلترا الأمير فيصلاً بأنهما لا تعترفان بصحة قرار المؤتمر السوري الذي بايعه ملكاً ، ودعي إلى الحضور إلى أوروبا لعرض قضيته أمام مجلس عال ، فاعتذر بأن أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة الشام ، وأرسل من قبله رسولاً إلى لندرا وطلب إلى فرنسا وانكلترا معاونتهما ليعترفا له بالاستقلال . وكان الأمير يرى من معتمد فرنسا لدى حكومته عطفاً ومعاونة ، وكذلك من معتمد إيطاليا التي أرسلت إلى دمشق قنصلاً برتبة سفير صغير ليحسن تمثيل دولته أمام الدولة السورية الفتية . أما ملكية الملك فيصل فإن انكلترا كانت على ما قيل تميل إلى الاعتراف بها ولكن فرنسا عارضتها في ذلك .

العصابات بين الساحل والداخل :

نشطت العصابات في المنطقة الشرقية فأرسلت الدولة المحتلة في المنطقة الغربية (كانون الثاني سنة ١٩٢٠) كتيبتين من الجند بدلالة بعض نصارى جديدة مرجعيون ودير ميماس والقلبية فضربوا قصر محمود الفاعور أمير عرب

الفضل في الخصاص من أرض الحولة فلما رأى عرب الفضل أنهم المقصودون بالذات حملوا على الجند حملة منكرة كانت فيها لهم الغلبة ، وقتل كثير من الجند الفرنسي وقليل من العرب وعندئذ هجم نحو مئة وخمسين رجلاً من العرب وأرباب القرى المجاورة على جديدة مرجعيون فأحرقوا نحو أربعين داراً ونهبوا بعضها وقتلوا نحو عشرين رجلاً من أهلها . وادعى العرب أنه قتل من الجند نحو أربعمئة ولم يقتل منهم سوى سبعة أشخاص ، وادعى الفرنسيون أن المهاجمين من العرب كانوا نحو أربعة آلاف معهم ٢٥ مدفعاً رشاشاً ومدفعان من مدافع الصحراء ، وادعى العرب أنهم ما كانوا أكثر من ثلاثمئة ولا مدافع لهم ولا رشاشات ولم يكونوا ستة إلى واحد كما ادعى الفرنسيين .

وبعد خمسة أشهر (١٥ حزيران) تكررت هذه الحوادث في عين ابل والقليلة والجديدة نفسها ، وضربت الحكومة المنتدبة على أهل جبل عامل مائتي ألف ليرة ذهباً جزاء عن العصابات في جبلهم . وذكر الريجاني أن الجباة الماهرين جمعوا من هذا الجبل أربعمئة وخمسة وثمانين ألف ليرة دفعوا منها تعويضاً لأهل الجديدة خمسين ألف ليرة .

ووقعت وقائع كثيرة في بلاد بشارة وأنطاكية وتل كلخ ، كانت العصابات العامل الأقوى فيها ، وحاولت المنطقة الغربية لإنشاء عصابات مثل عصابات المنطقة الشرقية لتدفع الشر بالشر ، وأرصدت في بعض الروايات لثلاثمئة ألف ليرة ذهباً لهذه الغاية ولكن عصابات المنطقة الشرقية كان عملها أعظم وأفظع واكتفت بها الحكومة المحتلة ولبثت ترتقب نتائج عملها . وربما جسدت أمرها وهولت فيه أكثر من الحقيقة . ومما حدث وقائع النصيرية والإسماعيلية (نيسان ١٩١٩ - ١٣٣٧) فأغار النصيرية على الإسماعيلية في جبل الكلبية في قرى عقر زبتي وخربة الفرس وجمعه شبه وغيرها من قرى الإسماعيلية ، وفي ناحيتي الحواري والقدموس ، وسكانهما إسماعيلية ، فنهبت القدموس وخربت بعض بيوتها ، وكانت المعركة دامية بين الطائفتين قدر بعضهم قتلها بمائتين وزاد آخرون إلى أكثر من ذلك ، فزحفت كتيبة من الجيش الفرنسي على قرية اللدولية فأحرقتها ، وأحرقت قريتي كاف الجوع والسلورية ثم سارت إلى

المريقب مقر صالح العلي زعيم الثورة ومن المعتقدين عند النصيرية ، وكان جمع القلوب حوله بدهائه ، وعشائره تبلغ خمسة آلاف ، ومعهم عشائر المتاوررة ، فتألفت كتلة من اثني عشر ألف مقاتل من أهالي جبال النصيرية وتعاهدت على قتال الجيش الفرنسي ، فأحرق الجيش بيوت زعيم الثورة فهاجم هذا الحملة ودامت المعركة بينهما سبع ساعات ، ثم تراجعت الحملة إلى القدموس ومنها إلى بانياس وطرطوس .

ومن الأحداث خلال هذه السنة ما وقع من اختلاف (شباط ١٩١٩) بين مشايخ الإسماعيلية وجماعتهم من الفلاحين انقلب إلى فتنة ، اضطر معها الأمراء أن يستنجدوا بمشايخ النصيرية ليعينوهم على أبناء مذهبهم فعاونوهم حتى انتصروا على جماعتهم ، وأراد الفلاحون من الإسماعيلية بعد كسرتهم أن ينتقموا لأنفسهم فهاجموا قرى النصيرية القريبة من أرضهم ، وارتكبوا أنواع القسوة وحرقوا الدور ونبشوا قبور الأولياء من شيعتهم فاضطرت السلطة كما قال الكولونيل نيجر إلى التدخل واشتعلت نيران الفتنة ولم تخمد إلا في تموز ١٩٢١ . قال : وكادت هذه الفتنة تعم الجبل كله ، لو لم يعلن استقلال جبال النصيرية ، وذكر في تقرير له أن المفاوضات كثرت بين جبال النصيرية وأنقرة أي الحكومة التركية ، وانقطعت بعد عقد الصلح بين فرنسا وتركيا ، وأن البنادق التي جمعتها السلطة من الجبل بلغت خمسة عشر ألفاً منها ماوزر حديث جداً ومنها إنكليزي ، وكان الشيخ صالح زعيم العلويين يرسل انقرة على الدوام . وفي تاريخ العلويين أن الثوار الأتراك اعتدوا على القرى الساحلية المتحايدة وأحرقوا ستين قرية وقتلوا بعض العلويين ودامت الفتنة ستة أشهر قتل فيها من أهل الجسر وصهيون أكثر مما قتل منهم في الحرب العمومية الكبرى .

ذكر الجنرال غورو في إحدى خطبه أنه اشترك مع عصابات مرجعيون زعيم وخمسة ملازمين و ٣١٧ جندياً عربياً ، وأعانتهم الحكومة العربية بأربع رشاشات ثقيلة وثلاث خفيفة ، وخمسين صندوق ذخيرة ، وأن مذابح عين ابل وفتنة العاملين كانت بتحريض من المنطقة الشرقية أي حكومة فيصل في دمشق ، والغالب أن عمال الفرنسيين كانوا يبالغون في أخبار العصابات ويؤكد

الخبيرون أن العسكر العربي ما اشترك مع العصابات أصلاً ولا في وقعة من الوقائع .

على أن بريطانيا وهي الصديقة المحببة إلى حكومة فيصل لم تخل من اعتداء العصابات عليها ، اعتدت على أطراف سمخ في المنطقة البريطانية ، كما اعتدت على قطار في الشمال يحمل عسكرياً بريطانياً . ومما جرى خلال تلك الفترة اتفاق بريطانيا وفرنسا اتفاقاً عسكرياً على أن تحتل الثانية بعلبك ورياق وحاصبيا وراشيا فزحفت الجنود الفرنسية لاحتلال هذه الأفضية وكانت من عمل الحكومة العربية الفيصلية ، وبعد مناوشة في وادي جريبان دامت أربع ساعات بين الجيش العربي والجيش الفرنسي دخل هذا بعلبك ، ثم سعى فيصل فأخرجهم من تلك المقاطعة ثانية .

ترامت أخبار العصابات إلى الغرب وتجسست بالطبع على العادة في نقل الأخبار ، وشكا العقلاء من أهل هذه الديار وخافوا عاقبة هذه السياسة ، وأسفوا لتقاتل أبناء الوطن ولتجدد نكرة الدين ، ولم يكن قناصل الدول غافلين عما يتم ، وكانوا ينقلون أخبار الوقائع في الحملة على وجه الصحة ، وأخذت العلائق تتوتر بين الأمير فيصل وحكومة الانتداب في الساحل ، وكانت فاتحة أعمال الجنرال غورو في الشام أن طلب إلى فيصل أن يعطيه البقاع لينقل على الخط الحديدي ما يحتاج إليه الجيش الفرنسي في جهات عينتاب فأبى الأمير إجابة الطلب .

الاستفتاء في الدولة المنتدبة :

زينت بريطانيا للحلفاء إرسال وفد يستفتي أهل سورية ولبنان ، في الحكومة التي يختارونها للانتداب عليهما فجاء الشام (حزيران ١٩١٩) وفد أميركي منتدب من الدول ليدرس حالة الشام ويعرف ما يرضيها من الحكومات ، فبدأ عمله من الجنوب إلى الشمال ، وجاء دمشق فاجتمع إلى العلماء والرؤساء والقادة ، فكانت الكلمة في المدن الأربع مجمعة على طلب الاستقلال التام ورفض المعاونة

الفرنسية وطلب المساعدة الأميركية أو البريطانية فقط ، وكذلك مدن الداخلية ، أما في الساحل فالموارثة والطوائف البابوية طلبوا فرنسا . ويقول الريحاني : إن الأقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الفرنسي ولم تشمل هذه الأقلية الطوائف المسيحية كلها . قال : ومما يدعو إلى الأسف أن قد كانت اللجنة الأميركية عاملاً آخر من عوامل الشقاق لأنها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبية الدينية والطائفية .

وقد قالت هذه اللجنة الأميركية إنها زارت ٣٤ مقاطعة من مناطق العرب والإنكليز والفرنسيين ، (فلسطين وساحل سورية وداخلها) فيها ٢,٣٦٥,٠٠٠ من المسلمين و ٥٨٥,٥٠٠ من النصارى و ١٤٠,٠٠٠ من الدرروز و ١١٠,٠٠٠ من اليهود و ٤٥٠,٠٠٠ من الطوائف الأخرى . وهو إحصاء تقريبي وأنه بلغ مجموع العرائض التي تلقتها اللجنة ٩١٠٧٩ عريضة وفي كل واحدة خمسون توقيعاً على الأقل ، وأن مطالب الأهالي تنحصر بطلب إنشاء مملكة ملكية ديمقراطية دستورية لا مركزية .

ولما جاءت اللجنة الأميركية إلى دمشق ، أصدر المؤتمر السوري قراراً فحواه طلب الاستقلال التام لسورية ، والاحتجاج على المادة الثانية والعشرين من قانون جمعية الأمم ، ورفض المساعدة الفرنسية وطلب مساعدة الولايات المتحدة لمدة عشرين سنة ، وإن لم تقبل هذه فبريطانيا العظمى بنفس هذه الشروط ، وأن العزم معقود على تأسيس حكومة ملكية ديمقراطية يرأسها الأمير فيصل ، وتقوم على أسس القومية وتحفظ حقوق الأقلية . وكانت الأكثرية المطلقة في الحكومة العربية بجانب أميركا في مسألة الانتداب ، وفي الساحل كانت لفرنسا . ولما كانت أميركا لا تقبل بأن تنتدب على بلد لا شأن لها فيه فالانتداب يكون لبريطانيا ، وهذا ما كان يريده فيصل لتكون الأصقاع العربية كلها ذات انتداب واحد ، وتكون روحها واحداً وهي الروح البريطاني وخالفه فريق صغير فقال بأن في تعدد الانتدابات فرجاً للشام يقرب أيام استمتاعها بحريتها ، ناجية من إشراف الدول المنتدبة ، وقد كانت ثقة الأمير بالإنكليز السكسونيين في القضية السورية عظيمة جداً . كتب إلى صاحب هذه الخطط من باريز يوم ٤ آذار ١٩١٩ كتاباً خاصاً جاء فيه : « وإذا استثنينا بعض من يريد الاستعمار

فجميع أصوات العالم معنا فلا يشق عليكم ما يبلغكم من بعض الجهات فهي قراقرع وضرب دغوف لا خوف منه هذا بشرط أن نكون موحدى الفكر والعمل .
الأمّة الاميركية والبريطانية معنا وسنصل إلى ما نأمن نتمناه .

أفكار فيصل والعث بالسياسة :

تجلت أفكار الأمير فيصل بمجىء اللجنة الأميركية كل التجلى ، وكانت الدعوة أولاً منذ يوم رفع العلم العربى على الأصقاع الداخلى أن الاستقلال تام للولايات العربية تتناول الوحدة الشام والحجاز والعراق وسائر الأقطار العربية فى الجزيرة ، وما فتئت الدائرة تضيق حتى أخذوا يدعون إلى الشام بحدوده الطبيعية ، ثم سكتوا عن فلسطين ، لأن العلم البريطانى كان يخفق عليها منذ خروج الأتراك منها ، ثم اكتفوا بالدعوة لاستقلال سورية ، ثم تخلوا عن لبنان واكتفوا بالدعوة إلى استقلال المدن الأربع وهذه أيضاً لم تسلم لهم على ما يراد لها . وذكر الريحاني أنه كان لفيصل رأى فى تقسيم العمالات إلى مقاطعات وفقاً لخالتها الطبيعية والعقلية والتهذيبية صرح به خصوصاً للوفد اللباني الذى جاء دمشق يهنئه بعودته من باريز ، وليؤكد له أن فريقاً كبيراً من اللبانيين يتمنون الانضمام إلى سورية . وقد أخذت الحكومة العربية بعد أن نودي بالملك فيصل ملكاً على الشام تزيد فى الضرائب وشرعت بالتجنيد (كانون الأول ١٩١٩) وجعل البدل النقدي عن الخدمة العسكرية ثلاثين ليرة عثمانية لسته أشهر حتى زادت وارداتها من ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيه إلى ٢,٣٠٠,٠٠٠ وذلك لتستعين بهذا المال على مقاومة فرنسا ، وقد دفع الناس الأموال تخلصاً من الخدمة العسكرية ، وكان بقي معهم نقد كثير من الحرب العامة ، ومنه ما صرفته الحكومتان البريطانية والعربية عقيب الاحتلال ، وكيف يقاوم جيش جديد جيش حكومة كبرى وهو قليل العدد والعُدُد ، فيه ظواهر ومظاهر لا حقائق يعول يوم البأس عليها ، باتت المسألة أشبه بالهزل منها بالجد .

لما سألت الوزارة أمراء الجيش بحضور الملك فيصل عما عند الجيش العربى من الذخائر والعتاد وفى كم يوم تنفذ إذا اشتبكت الحرب ، أجابوا إنها تنفذ

في ساعتين وقد لا تنفذ في يومين. فسألتهم الوزارة وعلى ماذا تستندون في الحرب بعد نفاذ الذخائر؟ فأجاب بعضهم أنهم يأملون في أول ملحمة أن يدحروا الجيش الفرنسي الزاحف ويستولوا على ذخائره وعتاده، وعلق بعضهم آماله على الجيش العربي في حلب. وقال آخر: إننا ننسحب إلى رؤوس الجبال، ونعتمد على حصوننا الطبيعية ونحارب حرباً دفاعية بالمناشة. ولما سألتهم الوزارة على ماذا تعتمدون في هذه الحرب، وعلى أي شيء تتكلمون في المقاومة؟ أجابوا على حماسة الأمة ومعاونتها فأجابهم أحد الوزراء: دعونا من البحث في المعنويات فإننا نقدرها مثلكم، وأخبرونا عن قوتكم الفعلية المادية وقولوا كم تتمكنكم المقاومة؟ فقالوا: ست ساعات إذا اشتد لظى الحرب دفعة، ولم نوفق لدحر العدو وهزيمته.

وهكذا كان الأمانة على مصلحة الأمة يفكرون ويتناقشون قبيل أن ساقط فرنسا جيشها من الساحل إلى الداخل، أما العامة ومن كان يحمسهم فقدر عن مبلغهم من الخيالات ولا حرج. ولقد قال يوماً أحد دعاة العامة ممن أضروا كثيراً بحماستهم قضية الاستقلال في مجلس عقد بدمشق من خاصة القوم ليقرروا الحرب مع فرنسا أو الصلح وتأليف عصابات تغزو المنطقة الغربية: «إن فرنسا عجزت بعد الحرب العامة أن ترسل إلى الشام بضعة أنفار من جيشها، وليس لديها مال، وما تهددنا به من قوتها لا تستطيع إنفاذه، فالأولى أن نتكل على الله ونبدها بالحرب.» فأجاب صاحب هذه الخطط وكان في الجلسة من جملة المدعوين: «لست من أمراء الجيش حتى أعرف ما عنده من القوى المادية، ولكنني أعرف فرنسا وقوتها ولا أكون إلى المبالغة كثيراً إذا قلت إن فرنسا تستطيع أن تكتسح الشام من جنوبه إلى شماله إذا أرسلت علينا عوران حربها الأخيرة فقط، فيجب علينا يا سادتي أن لا نغش أنفسنا ونتردع بالمحال.»

حملة فرنسا على المدن الأربع:

كانت الحكومة العربية في أيدي العامة والهزائين من أمراء جيشها، وخطط الأحزاب متضاربة، وأعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم، وكان الجنرال غورو المفوض السامي في سورية ولبنان يعزز جيشه في الساحل ويستدعي

من فرنسا فرقاً من الجند فأرسل يوم ١١ تموز ١٩٢٠ إلى الملك فيصل كتاباً مطلعاً : بينما كانت السكينة سائدة في سورية أثناء الاحتلال الإنكليزي ابتداءً من الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ولا يزال آخذاً بازدياد منذ ذلك الوقت . وأرسل إليه أيضاً يوم ١٤ تموز ١٩١٩ بلاغاً يدور على خمس مواد وهي أن يعطى لفرنسا الحط الحديدي من ريباق إلى حلب ، وأن تلغي حكومة فيصل القرعة العسكرية التي أخذت تجمعها ويقبل الانتداب الفرنسي والنقود السورية ويضرب على أيدي الأشقياء . فطلب الملك مهلة أربع وعشرين ساعة فانتهت مدة الإنذار الأول في ١٨ تموز الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً ثم مددت أربعاً وعشرين ساعة أخرى ثم مددت ثانية وانتهت يوم ٢٢ تموز . ووقع تأخير في إرسال الجواب بالإيجاب أي بقبول مطالب فرنسا وكان الداعي إليه انقطاع الأسلاك البرقية ، فأمر الجنرال غورو جيشه بالمسير إلى دمشق بقيادة الجنرال غوابيه يوم ٢١ تموز فسار إلى البقاع واحتل ريباق وأخذ يصعد أكامات مجدل عنجر ، وكان الجيش العربي اتخذ له حصوناً في تلك الأكامات ، وتجمع بعض عامة دمشق وبضع مئات من البدو عسكر البيشة الحجازي وأخذوا يخفون إلى مقابلة الجيش الفرنسي الزاحف فوصلوا إلى جبال ميسنون ، وفي يوم ٢٢ تموز خرجت كتبية عربية من حمص مغيرة على الجند الفرنسي في تل كلخ فانهزمت الكتبية وأخذ منها ١٥١ أسيراً بينهم ضابطان وثلاثة مدافع رشاشة .

وفي ٢٢ تموز أعلم الجنرال غورو الملك فيصلاً أنه مستعد أن يتوقف عن الزحف إذا قبل بمواد الإنذار والشروط التالية (١) تنشر حكومة دمشق منشوراً كتب مسودته الفرنسيون وبينوا فيه السبب الذي حملهم على إعطاء الأوامر للجنود بالزحف على دمشق والسبب الذي توقف من أجله ذلك الزحف . (٢) الموافقة على بقاء الجنود الفرنسية حتى نهاية الحط الذي وصلوه وقتئذ ليوم تنفيذ جميع شروط الإنذار . (٣) تسليم خط السكة الحديدية من ريباق إلى التكية للفرنسيين وبقاؤه بأيديهم في هذه المدة . (٤) سحب جميع الفصائل الشرفية إلى شرقي هذا الحط وجعل الدرك تحت رعاية الفرنسيين بالمنطقة التي تم احتلالها . (٥) تتوقف حكومة دمشق عن إرسال المعاونات للعصابات المنظمة

التي تعمل في المنطقة الفرنسية . (٦) نزع السلاح من أهالي دمشق ومن الجنود الذين سرحوا . (٧) قبول بعثة إفرنسية بدمشق تقف على صورة تنفيذ شروط الإنذار ، وترسم خطة للمباشرة بتطبيق الانتداب الفرنسي على الشام .

كان الجيش الفرنسي الزاحف على دمشق مؤلفاً من عشر كتائب مشاة وست كتائب فرسان وسبع بطاريات من الجنود الإفرنسية والسنغالية والمراكشية والجزائرية ، والجيش العربي مؤلفاً من بضعة ألوف سطر عددها على الورق فقط وهو مشتت في حلب وحمص ودمشق ، وليس له وحدة في القيادة . وصدر الأمر إلى الجند المرابط في حصون المجدل من الجيش العربي بالتسليم وفض الجيش ، ثم عاد فصدر الأمر ثانية إلى جماعة الحصون أن يبقوا على المقاومة ، ولم يكن عددهم يزيد على مئة وعشرين جندياً . وأصبح الحكم في دمشق للغوغاء الذين كان يحمسهم زعمائهم ، وهجموا على القلعة لأخذ السلاح منها فنهبوا الذخائر فاضطرت الحكومة لحفظ الأمن أن تستعمل فيهم القوة فقتل منهم نحو مئتي إنسان ، وبات الناس في كرب عظيم . وحدث تبلبل ، فلم تصل برقية الملك فيصل إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية بقبول شروط فرنسا كلها إلا بعد أن تقدم الجيش الفرنسي ووصل إلى ميسنون من طريق دير العشائر إلى الميماس وقطع خط الرجعة على العرب ، فدارت الحرب في عقبة الطين بين الجيش الزاحف وبين سرايا الجند العربي وجند البدو والمتطوعة ، وكان الجيش العربي أربعمئة جندي ومئتين من الهجانة يصحبهم ويتبعهم من الأهالي والعربان عدد يختلف بين الأربعة والخمسة آلاف على رواية الريحاني ، فقتل في أربع ساعات بقنابل الطيارات وقذائف البنادق والرشاشات كثير من الفريقين ، وفي مقدمة الوطنيين يوسف بك العظمة ناظر حربية الملك فيصل وكان من أكبر القائلين بالمقاومة وعرف أنه غلط في تقدير القوة وسبق السيف العذل بعد صدور أمر الملك بفض الجيش وتراجع القوة المنظمة في الحملة ، فأثر الانتحار في خط النار واستشهد في ساحة الحرب محافظاً على شرفه العسكري ، وقد قتل الجيش الزاحف طائفة من الأهالي الذين حاربوه بعد أن سقطوا أسرى في يده لأن قانون الجندية يبيح قتل غير الجند إذا اشركوا في المعركة ، وفي رواية

أنهم أجهزوا على الجرحى الوطنيين أيضاً وحفروا قبورهم بأيديهم قبل أن يرموا بالرصاص . وترك الجيش العربي في ساحة الحرب ١٥ مدفعاً قيل إن بعضها كان معطلاً قبل أن ينصب في أماكنه و ٤٠ رشاشاً وذخائر كثيرة . حدثني ثقة زار ساحة ميسنون غداة الواقعة رواية عن ضابط سنغالي برتبة وكيل أن قتلى الوطنيين في ميسنون من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ وأنه قال له الضابط : أقسم بالله أنه لم يلوث أحد السنغاليين يده بدم أحد من الوطنيين . قال محدثي : إن كل من رآهم مجذلين من قتلى الجيش الداخلى هم من السنغاليين ليس فيهم أحد من الجنس الأبيض .

وعاد المنهزمون من ساحة الحرب فدخل الجيش الفرنسي من الغد إلى دمشق (٢٥ تموز) وأبلغ رئيس البعثة الفرنسية الكولونيل تولا الملك فيصل أن يغادر دمشق عملاً بقرار حكومة الجمهورية بأسرع ما استطاع في السكة الحديدية الحجازية مع عائلته وبطانته على قطار خاص أعارته إياه فأذعن ، وعين قبيل رحيله علاء الدين الدروي رئيس وزارة على أن يختار بنفسه من يشاء من الوزراء، أعطاه تقليد الوزارة قبل سفره ليملاه بالوزراء الذين يختارهم دليل الثقة به. فلم يلبث أن ألف وزارته ومن الغد ألقى خطاباً في دار الحكومة حط فيه من كرامة ولي نعمته الملك فيصل فاشمأز أرباب الوفاء من مصانعته ، ولم يلبث أن أرسل إليه برقية يقول فيها: إن السلطة العسكرية تبلغ جلالتكم أنها تطلب خروجكم من حوران وأنها وضعت تحت أمركم قطاراً فإن لم تفعلوا ضربت قنابل طياراتها قرى حوران .

سقطت دمشق يوم ٢٤ تموز بعقب وقعة ميسنون ، وسقطت حلب يوم ٢٣ بيد الجنرال دي لاموت عقب مناوشة طفيفة ، وحمص وحماة يوم ٢٨ منه بدون صعوبة فقبضت فرنسا على قياد المدن الأربع وحكم الديوان الحربي الفرنسي على ٥٨ رجلاً من الوطنيين أكثرهم من حاشية الملك وبعضهم من أهالي جبل عامل وتركت الحكومة المنتدبة لهم المجال حتى انهزموا ، ومنهم من لحق بالملك ومنهم من سار إلى شرقي الأردن أو فلسطين أو مصر .

لم يسمع للعلاء رأي قبيل هذه الحوادث ، وكثير منهم كان يكتم فكره لئلا يرمى بضعف الوطنية ، ومنهم من لم يسمعهم السكوت فصرحوا وأوذوا

وهجوا ، ونال العامة منهم بإيعاز الزعماء . ولكن كان أهل المصالح الحقيقية يحاذرون التهور ، ويودون لو تتفاهم الحكومة الوطنية مع حكومة الانتداب ، ولظالما نصحوا سراً للقائمين بالدعوة إلى الاستقلال أن يترووا في الأمر ولا يعتمدوا إلى المقاومة الفعلية لاعتقادهم مضرة ذلك ، وأن يجعلوا سلاحهم المناقشة بالحسنى لثلاث تنزل فرنسا المدن الأربع حرباً ، وأن يقبل مستشاروهم وبعض مطالبهم الخفيفة ، وأن يرسل إلى باريز ولندرا وفد من أرباب المكانة والمعرفة يطلب شروطاً موافقة للانتداب في الشام وهو واقع لا محالة ، إذ ليس في يد الملك فيصل ولا في يد أبيه الملك حسين عهد وثيق من دول الحلفاء يثبت له أو لأبيه ملكية الشام ، وغاية ما ربحه الملك حسين من اتحاده مع الحلفاء في الحرب استثنائه بملك الحجاز . وكان الحلفاء وعدوا أن يمنحوا العرب استقلالهم ويساعدوهم على نيئه ، وبهذه الوعود انضم نحو ثمانين ألفاً من العرب إلى صفوفهم وقاتلوا معهم الأتراك بقيادة الأمير فيصل الذي كانوا ينظرون إليه نظراً إلى قائد من قوادهم ، ولكن الحلفاء لما تم لهم الظفر لم يفوا بوعدهم على ما يرضي العرب .

بعد وقعة ميسنون المحزنة فصلت إدارة البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا عن أحكام المدن الأربع واستقل الجنرال دي لاموت بأحكام حلب ودير الزور والإسكندرونة ، وظلت دمشق وحمص وحمص وحماة وحوران دولة ذات ، وزارة وكانت عجلون والصلت وعمان ومعان جعلت حكومة برأسها سموها حكومة شرقي الأردن ثم دعيت حكومة الشرق العربي ، وذلك بإمارة الأمير عبد الله شقيق الملك فيصل ، وهكذا دخلت المدن الأربع في الانتداب الفرنسي كما دخل الساحل لأول عهد دخول الحلفاء . وخطب الجنرال غورو في دار الحكومة بدمشق قائلاً إن فرنسا ما جاءت إلى هذه الديار مستعمرة وسترونها أمينة على تقاليدنا ، راغبة في أن تضمن استقلالكم في عهد الوصاية الحر ، قال إن العصاة التي كانت تهاجم الجيش الفرنسي لم يكونوا من الأشقياء فقط ، وكان يقودهم ضباط الجيش النظامي ، وتمد بالأسلحة والأعتاد والمال ، ومع أن فتكها لم يكن شديداً في جنود فرنسا فإن أضرارها كانت عظيمة على الطوائف العزلاء إذ دمرت بيوتاً وأحرقت قرى ونهبت الأموال والمواشي ، وكانت

أعمال الحكومة الشريفة الرسمية لا تقل بإزاء فرنسا عداءً عن أعمال عصاباتها اهـ. وكان غورو نشر منشوراً في الطائرات على أهالي سورية قبيل وقعة ميسنون قال فيه : « قيل لكم إن فرنسا ترغب في استعماركم وأنها تريد استعبادكم وما ذلك إلا إفك مبین . إن فرنسا قبلت الانتداب التي عهد به إليها مؤتمر السلم على سورية، وهي عازمة على أن تدع الموظفين الوطنيين يزاولون أشغالهم بشرط أن لا يعملوا بسلطتهم ضدها فيخونون العهود والمواثيق المقطوعة »

تعريف الانتداب وسياسة الأتراك فيما يتعلق بالشام :

أما الانتداب فلفظ حديث يراد به الإشراف أو الكفالة وهو لا يخرج عن الحماية إلا باعتبارات قليلة . وقد جاء في صك عصبة الأمم في تعريفه أن الشعوب التي جعلت تحت حكم الانتداب المحدد والموقت والذي طلبوه من أنفسهم هم مستقلون وأن المنتدب عليهم هو المرشد الموقت ريثما يصبحون قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم . وقال بوانكاره من ساسة فرنسا : لسنا في الشرق لنضم أقطاراً إلينا ولا لنضع حمايتنا وإنما نحن هناك بموجب انتداب تلقيناه من عصبة الأمم تنفيذاً لمعاهدة فرسال . وقال ديوي من علماء القضاء في فرنسا : الانتداب أنفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى هو عبارة عن حماية مستترة . وفي المجلة النيابية أن مدة الانتداب تقسم إلى ثلاثة أدوار ابتداءً الدور الثاني في ٢٩ أيلول ١٩٢٣ وينتهي في ٢٩ أيلول ١٩٢٦ وهذا الدور يسمونه دور تنظيم الانتداب ، وفي انتهاء الدور الثاني يجب أن يكون هناك حكومات وطنية وعندها يدخل الانتداب في دور التصفية ، وبعد انتهاء الدور الثالث للانتداب تعقد معاهدة تحالف موقته تقوم مقام النظام الحالي ، وتحدد باتفاق مشترك حقوق المنتدبين والمنتدب عليهم وسلطتهم ، وهذا يعد انتهاء للانتداب . ولم يحدد مدة معينة للانتداب في سورية ولبنان وفلسطين .

جعلت معاهدة صلح فرسال (١٩١٨) الانتداب ثلاث طبقات فما رُمز له بحرف (أ) هو الانتداب الخفيف مثل انتداب فرنسا في سورية ولبنان والانتداب البريطاني في فلسطين والعراق، ويقضي على الدولة المنتدبة على هذه الأقطار أن تقصر مهمتها على تقديم مساعدتها لها . ومن الانتداب ما رمز له بحرف (ب) وهو الانتداب ببعض الشروط . ومنه ما رمز له بحرف (ج) وهو انتداب أمة

على أقاليم تعد جزءاً من أملاك الدولة المنتدبة . فجعلت الشام من الصنف الأول من الانتداب أي إنه اعترف باستعدادها للاستقلال إذا دربت عليه زمناً .
قال الرئيس ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة في شروطه الأربعة عشر : أما الأمم الأخرى التي هي تحت النير التركي فيكفل لها كيان آمن ويمكن لها حتى ترتقي في استقلالها من غير ممانعة ، ولم يسمع أن أحداً من أهل السلطات الأجنبية في الشام قال إنها غير مستقلة منذ سقطت في أيدي الحلفاء، وقال أحد كبار رجالهم : إن ما عملته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي يتعذر جداً عمله في هذا القرن والناس هنا غيرهم هناك ، والأحوال في الشام غير الأحوال في الجزائر .

وفي المادة الأولى من نص الميثاق الوطني التركي الذي تباع الأتراك على العمل به بعد سقوط الدولة العثمانية ما نصه : « إن الأنظار التي تسكنها أكثرية عربية من أرض المملكة العثمانية وهي التي كانت تحتلها الجيوش المحاربة حين عقد الهدنة في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ ينبغي أن تعين مصيرها بنفسها وذلك باستفتاء الرأي العام فيها استفتاء حراً . وهكذا كان كرم الأتراك مع إخوانهم العرب أجازوا لهم أن يعلنوا استقلال الشام عند آخر ساعة من سقوط عاصمة الشام بيد الحلفاء ، ورضوا لهم أن يعينوا مصيرهم بأنفسهم في ميثاقهم الوطني وهم يومئذ لم يكونوا يملكون لأنفسهم حولاً ولا طولاً ، ولما عرضت المسائل العثمانية على بساط البحث في مؤتمر لوزان لم يجر ذكر الشام إلا من حيث الحدود التي تم الاتفاق عليها بين فرنسا وتركيا بصورة لا تزال سرية عرف منها أنه اقتطع جزء عظيم من التخوم الشمالية في الشام أضيفت إلى آسيا الصغرى بدون حق . هذا والأتراك كانوا ظافرين بأعدائهم اليونان الذين كانوا استولوا على معظم ولايات أدرنة وإزمير وبروصة بعد الحرب العامة فقويت جمهورية تركيا التي جعلت مقرها في أنقرة بدلاً من الإستانة وهزمت جيش اليونان شر هزيمة (آب ١٩٢٢) وكان ظفراً داوى به الأتراك جراحهم بعد هزائمهم في الحرب العالمية .

وقد نصت المادة ٩٤ و٩٥ من معاهدة الصلح التي عقدت في مدينة سيفر يوم ١٠ آب ١٩٢٠ بين الحلفاء والمشاركات معهن من الدول وبين الدولة

العثمانية أن المتعاقدين على اتفاق بأن الشام والعراق وفلسطين ، عملاً بالفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من الجزء الأول (عهد جمعية الأمم) ، معترف بها مؤقتاً دول مستقلة على شرط أن تبذل لها النصائح والمعونة من دول منتدبة عليها تقودها في إدارتها إلى الزمن الذي يستطيع أن يسرن فيه بأنفسهن وأن المنتدب على فلسطين يكون مسؤولاً عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة بريطانيا يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ووافقت عليه الدول المحالفة بشأن تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، على أن لا تمس فيها الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية، ولا تمس الحقوق والأنظمة السياسية التي يستفيد منها اليهود في كل بلد . وكان الحلفاء تفاوضوا مرات بشأن الشام فرأوا أن تكون فلسطين دولية ، ولكن الأتراك لما هاجموا ترعة السويس زاد الإنكليز معرفة بمكانة هذا القطر الحربية فرأوا أن يجعلوها منحدرراً لمصر بالفصل بين عرب هذه وعرب الشام فأخذوا يطالبون بحيفا وعكا ثم بفلسطين كلها وتعهدوا لليهود أن يجعلوها لهم وطناً قومياً، وتعهد الحلفاء تعهدات مبهمه بشأن الشام حتى يعاونهم برجاله ونفوذه .

تأثر الحورانيين بعوامل الفيصلين ومقتل وزيرين وقتل اليهود في فلسطين :

غادر الملك فيصل دمشق في زمرة من عماله وأكثرهم من السوريين ، وخرج من الجنوب غداة جاء الجيش الفرنسي من الغرب ، فطفقت الحكومة المحتلة تجمع السلاح من البادية والحاضرة ، ووضعت على المدن الأربع غرامة حربية قدرها مئتا ألف ليرة عثمانية ذهباً ، ولكن أهل حوران لم يخضعوا للأمر ومردوا على الحكومة وبث فيهم بعض أعوان الملك فيصل فكر الثورة ، فرأى رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي أن يذهب بنفسه لإلقاء النصائح عليهم مستصحباً معه وزيرين من وزارته أحدهما عبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى أكبر أعيان دمشق ، فهاجمهم بعض الحوارة في محطة خربة الغزالة وأنزلوهم من القطار وقتل الدروبي واليوسف ، وقتل بعض ركاب القطار ، مع أن رئيس الوزارة كان عارفاً بأفكار الحوارة من جهة حكومة دمشق ، ووصمهم لها بالخيانة لأنها سلمت سورية للأجانب . وانجلت وقعة

حوران عن جمع غرامة قدرها مئة وعشرون ألف ليرة عثمانية ذهباً منها دية الوزيرين لكل من أسرتهم عشرة آلاف ليرة وحكم على بعض المتهمين بمقتل الوزيرين فزادت حوران خراباً فوق خرابها .

وفي آب ١٩٢٠ زار المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل الشرق العربي ومما قاله في خطاب له في الصلت : إن الحكومة الفرنسية كررت تأكيداتاً بأنها لا تريد أن تتدخل بأي شكل كان في شؤون هذه المقاطعة ، وبما أن الحكومة الفرنسية قد عززت نفوذها في دمشق فقد أصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن إدارة دمشق . تسألوني عن نوع المساعدة التي تريد إنكلترا ان تقدمها لكم فأجيبكم إنها لا تريد أن تضمكم إلى الإدارة الموجودة الآن في فلسطين ، بل تنشئ لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم ، وسترسل إليكم عدداً قليلاً من الضباط ورجال القضاء محنكين عارفين باللغة العربية وأحوال الشعب العربي فيسكنون البلدان الكبرى في هذه المقاطعة ، وأنتم تعرفون أكثرهم شخصياً وسيساعدونكم في تنظيم الدفاع تجاه أي هجوم خارجي وفي تنظيم الشرطة لصيانة الأمن في الداخل وترقية التجارة وتأييد العدالة وإنفاق ما تدفعونه من الضرائب بأمانة تامة على مصالحكم واحتياجاتكم ويستشيرونكم في الغاية التي تدفع لأجلها الأموال وإصلاح الطرق وترميمها وإنشاء المدارس وتقديم المعاونات الصحية . إلى أن قال : وستكون التعليمات العمومية التي ترسلها الحكومة البريطانية إلى موظفيها هنا مبنية على قاعدة مساعدة الأهالي ليحكموا أنفسهم بأنفسهم ، فمراعاة هذه المبادئ المؤسسة على العدل والشرف اللذين تمتاز بهما الإدارة البريطانية في جميع أنحاء العالم هي الأسس الصالحة لكل حكومة صالحة .. اه . » وفي كتاب « عامان في عمان » : وقد قوبل هذا البيان من أهالي المنطقة بفتور دل عليه أن زعماءهم جمدوا بعد أن سمعوه جمود الحيرة لا يدرون أشر أريد بهم أم أراد بهم ربهم رشداً ... ولما سئلوا عما يجول في نفوسهم وقف أحدهم وقال : يظهر أن أوروبا عدلت عن فكرة اعتبار الكفاليات في الأمم ورجعت إلى القرعة فهي بينما تمنع سورية ولبنان وفلسطين الاستقلال تعترف به لشرقي الأردن ... !

واشتد الهياج بين الصهيونيين وأعدائهم من السكان في حيفا في نيسان

١٩٢٠ ونشبت الفتنة في القدس سفكت فيها الدماء ونهبت مخازن اليهود ولولا مهارة الإدارة البريطانية لامتد هيب العداء إلى سائر مدن فلسطين لما ملئت به النفوس من الغيظ من الصهيونية والصهيونيين .

تقسيم الشام وخرابها واستقلال لبنان والعلويين ومجلس فلسطين ودولة شرقي الأردن ودولة جبل الدروز :

وفي أول أيلول ١٩٢٠ أعلن استقلال لبنان في حرج بيروت بحضور الجنرال غورو ، وأضيف إلى لبنان الأصلي الذي عرف بمحدوده بعد سنة الستين جبل عامل ووادي التيم والبقاع وبعلبك وطرابلس وعكار والحصن وصافيتا فاحتج فريق من أهالي بيروت وطرابلس مع بقية البلدان المنضمة من الداخل إلى متصرفية جبل لبنان قائلين إن هذا الضم جرى بدون رضی الأهالي وبغير استفتاء ، وإن ذلك مخالف لتصریحات وزارة الخارجية في فرنسا وبريطانيا القائلة بأن الأقاليم التي انسلخت عن الدولة العثمانية مستقلة وللأهالي الحرية التامة في تقرير مصيرهم وتأسيس حكوماتهم الوطنية، وأن الحلفاء لا يرغمون السكان على قبول نظام معين . وجعل للبنان حاكم إفرنسي ، لأن فرنسا رأت أن الاختلاف بين طوائفه لا يمكن معه إرضائهم كلهم ، إذا عين أحد أبناء الطوائف الأخرى حاكماً ، فعادت نعمة الطائفية إلى الجبل بصورة أشد مما كانت على عهد الترك ، وقسمت مقاعد الحكم على الطوائف ، وأقيم للبنان الذي دعي لبنان الكبير مجلس نيابي تنفذ المفوضية العليا للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان ما تراه صالحاً من مقرراته ، وقسم لبنان إلى ألوية وأقضية يدير شؤونها موظفون وطنيون ، ويدير الحكومة المركزية في بيروت عدة مديرين أو وكلاء أو وزراء يتقلد زمامها الوطنيون ، ولكل مدير منهم مستشار إفرنسي . وتمت للموارنة في لبنان أمينتهم التي طالما نشدوها من حكم فرنسا لهم ، ونجت الشام من تهديد بطريركهم وكانت انتدبته طائفته إلى مؤتمر الصلح لينظر في استقلال لبنان ، فقال وقد هدد بأن لبنان يبقى محصوراً في حدوده القديمة إذا أصر على الرفض : « إننا نفضل الموت جوعاً في ظل صخورنا على أن نكون تابعين لدمشق ! » واقتطعت جبال النصيرية وأصبح يقال لها أرض العلويين جعلت حاضرتها

اللاذقية وحاكمها لإفرنسي وإدارتها أشبه بانتداب الدرجة الثانية مما رمز له بحرف (ب) ، وكان تقسيم القطر على هذا المنوال مبدأ خرابها الاقتصادي فاضطر إلى تأليف عدة وزارات ومجالس وإدارات ومنها ما لا عمل له في الواقع ونفس الأمر لإلا قبض الرواتب من مال المكلفين ، وشوهد الإسراف في أموال الحكومة وقد حاولت الحكومات غير مرة أن تقتصد وما برحت الأموال تصرف في الأمور المستهلكة أكثر من الأمور المستحصلة ، ولا نسبة بين رواتب كبار الموظفين وصغارهم .

وفي تشرين الأول ١٩٢٠ انتخب في فلسطين مجلس شورى مؤلف من عشرين عضواً نصفهم من الموظفين والنصف الآخر نصبتهم الحكومة ، وهم أربعة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين وثلاثة من الإسرائيليين ، ووظيفة هذا المجلس استشارية فقط . فقامت فلسطين مسلموها ونصاراها محتجين على هذا المجلس . وفي تشرين الثاني ١٩٢٠ قدم إلى عمان الأمير عبد الله بن الحسين لاسترجاع دمشق من فرنسا وإرجاعها إلى السلطة الشريفة فأرضته بريطانيا بأن جعلته أميراً على عبر الأردن على أن لا يمس أراضي الانتداب الفرنسي ، وقد حدثت بعض حوادث على التخوم بين حوران والبلقاء ، وتألفت هناك عصابات لغزو الأراضي التي جعلت تحت الانتداب الفرنسي وبعد أن قصدت إحدى العصابات اغتيال الجنرال غورو المفوض السامي في ٢٣ حزيران ١٩٢١ على ٤٠ كيلو متراً من دمشق في طريق القنيطرة ، ولم ينالوه بأذى وقتل أحد ضباطه ، طوي بساط العصابات والمؤامرات ، وكان أمر هذه العصابات مما دبر في الشرق العربي .

وفي الخامس والعشرين من حزيران (١٩٢١) أعلن استقلال جبل الدروز وكان من قبل بين عاملين العامل البريطاني والعامل الفرنسي ، فلما جاء الجيش الفرنسي إلى دمشق كان من أهل الجبل من يرحبون بالفرنسيين فنالوا استقلالهم (٥ نيسان ١٩٢١) وأصبح جبلهم وهو نحو مائة وخمسة عشرة قرية دولة برأسها جعلت السويداء عاصمتها ، ونصب على الجبل أمير من أهله ومستشار لإفرنسي ، فانتزع أيضاً من -حكومة دمشق التي جعلت دولة لها حاكم ، وذلك بعد أربعة أشهر من استلام الفرنسيين زمام الأمر ، وجعل لهذه الدولة مديرون

بدلاً من وزراء وجعل علم خاص لكل من دولة لبنان الكبير ودولة العلويين ودولة حلب ودولة دمشق ودولة جبل الدروز الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ويحمل كل علم في مطاويه العلم الفرنسي المثلث الألوان ، ولم يجعل لفلسطين علم خاص وبقي العلم فيها انكليزياً واقتصر شرقي الأردن على العلم العربي ، وبذلك أصبحت الشام سبع دول وكانت على آخر عهد الأتراك ثلاث ولايات (دمشق وبيروت وحلب) وثلاثة ألوية مستقلة (القدس - لبنان - دير الزور) .

متاعب لبريطانيا وفرنسا واعتداءات :

وفي شباط ١٩٢١ عقد مؤتمر في حيفا مؤلف من رجال فلسطين مسلميه ونصاراهم نظم احتجاجات على وعد بلفور وطلب تأليف حكومة وطنية وانتخاب جمعية تأسيسية ينتخبها السكان العرب . وفي ١٥ آذار خرج الزعيم فؤاد سليم من لاربد في مائة وعشرين فارساً للقبض على بعض الأشقياء من عرب الشقيرات وعلى بعض زعماء الكورة في جبال عجلون فأحاطت بالقوة العسكرية أهالي ست قرى بقيادة كليب الشريدي وابنه وساعدتهم الغابات ووعورة الأراضي وسقط ربع الجنود بين قتيل وجريح وفقد ثلث الخيل ثم استسلم الباقون للعرب الثائرين الذين سلخوا الضباط والعسكر عتادهم وأسلحتهم وأبستهم .

وألقي المندوب السامي في فلسطين في ١٨ نيسان ١٩٢١ خطاباً في عمان قال فيه: إن الحكومة البريطانية تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في الحرب وترغب في أن تتوطد في زمن السلم دعائم التحالف الذي بني في خلال الحرب وقال : يساعد الضباط البريطانيون منذ شهر آب الماضي في إدارة شؤون الأقاليم الواقعة وراء نهر الأردن وسيواصلون العمل بصفتهم مستشارين بالنيابة عنى للأمر عبد الله وموظفيه في الأنحاء المختلفة . وقال: إن الضباط البريطانيين الذين يقومون بهذه المهمة في جميع أنحاء المنطقة يعطفون على السكان وعلى آداب اللغة العربية وإن الحكومة البريطانية عولت على ألا تكون البلدان الواقعة فيما وراء نهر الأردن مركزاً للعداء على فلسطين أو سورية .

وفي أول أيار ١٩٢١ نشبت فتنة بين الصهيونيين والوطنيين في يافا انجلت عن قتل ٤٨ رجلاً من العرب وجرح ٧٣ منهم وقتل من اليهود ٤٧ شخصاً

وجرح ١٤٦. وفي سنة ١٩٢١ دخل الأتراك عينتاب وأخرجوا الكتائب الفرنسية منها وباغت عربان الزور الفرقة الفرنسية السورية وقتلوا بعض ضباطها فحل بهم العقاب ، فتخلت فرنسا عن قلقية بأجمعها وانحصرت قوتها بالشام من حدود كليس في الشمال ، وتألفت عصابات من أبناء حارم وكفرتخارين وإدلب وجبل الزاوية والمعرة وصهيون وجرت بينها وبين الجيش الفرنسي معارك قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان بعض رؤساء تلك العصابات من الأتراك . وقد فقدت فرنسا من جندها في سورية وعلى حدودها بضعة ألوف . وقال الجنرال ويغاند المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في حفلة إزاحة الستار عن النصب التذكارى الذي أقيم لقتلى جيش الشرق في بيروت سلخ ذي القعدة ١٣٤٢ (حزيران ١٩٢٤) : بعد الهدنة سكت المدفع في أوربا إلا من الشام ، وكانت الأمهات الفرنسيات يعتقدن بأنهن سيشاهدن أولادهن إلى جنبهن فاضطرت فرنسا إلى إرسال أولادها إلى ساحات القتال في مرعش وأورفة وميسنون حيث تم تحرير سورية بقيادة سلفي الجنرال غورو وقد بلغ عدد القتلى نحو تسعة آلاف و ٢٥٠ ضابطاً فيمكن أن تذكروا أولادكم وأولاد أولادكم بذلك هـ. ولم يقتل هذا العدد في أرض الشام بل معظم من قتل في قلقية .

توحيد حكومات سورية وعدم رضى الأهلىن :

لم يرتض أهل الداخل وفريق عظيم من سكان الساحل هذا التمزيق الذي حلّ بالشام ، فكثّر الناقدون والناقدون ، وزعم بعض ولاة الأمر من المنتدبين أن هذا التقسيم كان برضى الأهلىن ، ونزلت فرنسا على رغائبهم ، وبعد التجربة الأولى رأت المفوضية العليا أن تعيد المدن الأربع إلى جمعها بعد الشتات فأعلن الجنرال غورو في اليوم العشرين من حزيران ١٩٢١ في دمشق أساس الوحدة السورية بإنشاء مجلس اتحادي لها مؤلف من دول العلويين وحلب ودمشق فقط ، على أن يكون أساساً للوحدة وألقى خطاباً مثل خطاب دمشق في مدينة حلب يوم ٢٨ منه بحضور مندوبي الدول الثلاث ومما قال فيه : وكان العمل الأول الذي قامت به فرنسا لتوطيد اتحادكم وحرىتكم الوطنية تأسيس الحكومات المستقلة ، وكانت الغاية من ذلك مراعاة النزعات الخاصة ووضعها في قالب يتألف منه مجموع متناسب الأجزاء . قال : ولم يفتني قط وجوب إحكام

الصلوات بين هذه الدول التي ينبغي أن يولّف مجموعها سورية المستقلة أي سورية التي طالما رغبت فرنسا في إنشائها قال : والواجب أولاً تنظيم هذه الدول ومنحها قسماً أوفر من الحرية ، وتأسيس صلة اتحاد بينها ، ولا أذكر لبنان بين دول الاتحاد لأن تقاليدَه الخصوصية تقضي عليه بالسعي على انفراد وراء التقدم وبمشاركة قليلة في الاتحاد السوري لا تتناول إلا الوجهة الاقتصادية دون سواها ، إلى أن يقرر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الاتحاد .

وبدء من قابل يجعل بعض فروع الإدارة اتحادية كالبريد والبرق والعدلية والمعارف العالية والتملك ، وجعل للاتحاد مجلس مؤلف من خمسة عشر عضواً خمسة عن كل دولة ، واجتمع المجلس في حلب في السنة الأولى وفي السنة التالية نقل مقره إلى دمشق بصورة دائمة ، ويختار هؤلاء عضو رئيساً من بينهم فعين لهذا الغرض السيد صبحي بركات الخالدي واختار لدوائر الاتحاد مع العرب جماعة من الأتراك والأرمن والروم فتأثر الوطنيون لذلك ، لأن اللغة العربية لم تُرَع لها حقوقها وحرَم الوظائف بعض الوطنيين وتولاها بعض من ليس لهم بهذه الأرض صلة ، ولا بالعرب والعربية قرابة .

وفي ١٧ أيار عازمت بريطانيا العظمى أن تعترف باستقلال شرقي الأردن وأن يجعل أميرها عبد الله بن الحسين وتنشأ فيها حكومة دستورية وتعقد معه اتفاقاً على أن تتعهد حكومته بالاعتراف بالحقوق الدولية . وأنشأت هذه الحكومة تمنح لقب باشا لمن تريد تشریفهم أو تأليف قلوبهم من المشايخ وغيرهم ، فمنحت هذا اللقب للصعاليك وأسرفت في منحها والتف حول أمير تلك الكورة بعض جماعات من الوطنيين الذين كانوا اشتغلوا مع أخيه الملك فيصل في دمشق ولم يلبثوا أن انفضوا من حوله بطرق اتخذتها حكومته ، وكان يتقاضى لها معاونة سنوية من بريطانيا ١٥٠ ألف جنيه ولنفقاته الخاصة ٣٥ ألفاً من الجنيهات ثم أنزلت المعاونة إلى ٨٠ ألفاً ومخصصاته إلى عشرين ألفاً .

وفي صيف سنة ١٩٢٣ اعتدى بعض دروز الشوف على النصارى من جيرانهم واغتيل بعضهم ، فقابلهم المعتدى عليهم بالمثل ، واختل الأمن في أواسط لبنان وكاد يتعدى إلى بعلبك ، فعينت حكومة الانتداب بجمع السلاح من الأيدي وعاقبت الفاعلين ، ووضعت غرامات على بعض القرى التي خالفت أوامر

الحكومة . وفي سنة ١٩٢٣ و١٩٢٤ كثر إغلاق الحوانيت في دمشق وحمص وحماة احتجاجاً على كثرة الضرائب ، وتقريب بعض أشخاص من الحكومة المنتدبة يوسعون مجال الخلف بين المنتدبين والمنتدب عليهم ، ويسودون الناس بوشاياتهم للاحتفاظ بكراسيهم وأغلقت دمشق خمسة عشر يوماً متتابعة احتجاجاً صامتاً على انتخاب أعضاء المجلس التمثيلي بالإكراه واستعمال الحكومة وسائط الإرهاب في المدن والقرى .

صك الانتداب وموافقة الدول الكبرى عليه وأشكال جديدة من الإدارة:

جاء في معاهدة لوزان (٣٠ شباط و٢٤ تموز ١٩٢٣) التي عقدت بين الدول وبين تركيا أن الحدود التركية السورية قد ذكرت في المادة الثامنة من الوفاق الفرنسي التركي المؤرخ بيوم عشرين تشرين الأول ١٩٢١ - والغالب أن هذا الاتفاق المعروف باتفاق فرانكلين بويون ، لم ينشر خلافاً لما ادعته السياسة في العهد الحديث بعد الحرب ، من أنه لا تعقد بين الدول محادثات سرية بعد الآن - أن مجلس جمعية الأمم أثبت في جلسته المنعقدة يوم ٢٩ أيلول ١٩٢٣ أن الانتداب على الشام (سورية ولبنان) والانتداب على فلسطين قد دخلا كلاهما في دور التنفيذ ، وقد جاء في المادة الأولى من هذا الصك أن الدولة المنتدبة تضع نظاماً أساسياً لسورية ولبنان في خلال ثلاث سنوات تبتدىء من تاريخ الشروع بتطبيق الانتداب ، ويعد هذا النظام الأساسي بالاتفاق مع السلطات الوطنية ، وينظر فيه بعين الاعتبار إلى حقوق جميع الأهلين في الأراضي المذكورة وإلى مصالحهم وأمانهم ، وينص فيه على اتخاذ التدابير التي من شأنها أن تسهل لسورية ولبنان سبيل النمو والتقدم المتوالي لدولتين مستقلتين ، وتسير إدارة سورية ولبنان طبقاً لروح هذا الانتداب ريثما يشرع في تنفيذ النظام الأساسي ، وتؤيد الدولة المنتدبة الاستقلال الإداري المحلي فيهما ، بكل ما تسمح به الأحوال .

وجاء في المادة الثانية أنه يمكن للدولة المنتدبة أن تبقي جنودها في الأراضي المار ذكرها لأجل الدفاع عنها ، ويمكنها أيضاً، إلى أن ينفذ النظام الأساسي ويعاد الأمن إلى نصابه، أن تنظم القوات المحلية اللازمة «المعروفة بالميليس» للدفاع

عن تلك الأراضي ، وأن تستخدمها في هذه السبيل وفي حفظ النظام ، ولا يجند أفراد القوات المذكورة إلا من أهل تلك الأصقاع وبعد ذلك تصبح تلك القوات تابعة للسلطة المحلية مع الاحتفاظ بما يجب أن يبقى للدولة المنتدبة من حق السلطة والمراقبة عليها ، ولا يجوز استخدامها لغايات غير التي تقدم ذكرها إلا بإذن الدول المنتدبة . وما من شيء يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في الإنفاق على القوة العسكرية النازلة في أراضيها من قوات الدولة المنتدبة ، ويحق للدولة المنتدبة كل حين أن تستخدم المواني والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات في سورية ولبنان لنقل جنودها وجميع المعدات والمؤن ومواد الوقود . وفي المادة الثامنة أن الدولة المنتدبة تضمن للجميع حرية الضمير التامة كما تضمن حرية القيام بجميع الشعائر الدينية التي تتفق مع النظام العام والآداب ، ولا يجوز أن يتبع شيء من التمييز وانتفاء المساواة بين سكان سورية ولبنان بسبب اختلاف الجنس أو الدين أو اللغة وتقوم الدولة بإتمام التعليم العام باللغات الوطنية الشائعة في أراضي سورية ولبنان .

وصادقت الولايات المتحدة (١٩٢٤-١٣٤٣) على صك الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان الذي وضع موضع التنفيذ منذ ٢٠ أيلول ١٩٢٣ وقد جاء في المادة الخامسة منه للأميركان الحرية التامة في إنشاء المعاهد والصروح والملاجيء العلمية والدينية والفنية في جميع أراضي الانتداب الفرنسي مع التعليم باللغة الإنكليزية ، ولم تعترف الولايات المتحدة بالانتداب البريطاني إلا في أواخر شباط ١٩٢٥ مشرطة أن يكون للرعايا الأميركيين مثل الحقوق التي للرعايا الإنكليز .

طبقت مواد الاتحاد في حلب ودمشق بعض الشيء مع وجود الدولتين دولة حلب ودولة دمشق ، أما دولة العلويين فلم تتحد بغير الأمور العدمية . وفي يوم ٢٦ حزيران ١٩٢٤ (٤ ذي القعدة ١٣٤٢) أعلن المفوض السامي في حديقة الأمة بدمشق الوحدة السورية وتأليف الدولة العربية السورية من حكومي حلب ودمشق فقط ، فخرجت دولة العلويين ودولة جبل الدروز كما خرجت دولة لبنان الكبير بالطبع من باب الوحدة ، فأصبح بذلك عدد دول الشام ستاً بدلاً من سبع أي أن المدن الأربع عادت فألفت حكومة واحدة على نحو ما

كانت زمن الحكومة الفيصلية ، ولكن بتشذيب بعض أطرافها إذ نزع من جسمها دولتنا الشرق العربي وجبل الدروز وخطب القائد قائلاً : إن هذه الدولة الجديدة الفخورة بماضٍ يحوي أعظم ما نظره الشرق والتي ستضم إليها أهم مدن الإسلام التي كانت منبع الترقى الفكري في جميع الأزمان ... إن مثل هذه الدولة تقدر ويجب أن تكون في الشرق الأوسط مركزاً مشعاً وجذاباً . والسلطة التشريعية تكون بيد مجلس نيابي والسلطة الإجرائية تسلم إلى شخص يدعى رئيس الحكومة السورية بالانتخاب ، ويكون له مجلس وزراء يجتمعون تحت رئاسته يكون كل واحد من هؤلاء الوزراء مسؤولاً شخصياً عن دائرته أمام مجلس الأمة .

وفي حزيران ١٩٢٤ (ذي القعدة ١٣٤٢) ألقى أحد رجال بريطانيا بياناً قال فيه : إن مهمة بريطانيا في فلسطين هي إنشاء وطن قومي لليهود من ناحية وصيانة مصالح السكان غير اليهود من ناحية أخرى ، وقد سعت بريطانيا لمعاملة الأهلين على قدم المساواة ، ولكنها صادفت متاعب كثيرة بالنظر لعدم تجانسهم ، وأنشأت إدارتين مختلفتين لإحدهما في غربي الأردن حيث يوجد الوطن القومي لليهود والآخر في شرقي الأردن حيث للعرب الأغلبية ، ولكنها تسعى دائماً إلى التوفيق بين مصالح اليهود والمسلمين .

غزوة النجديين عبر الأردن واستيلاؤهم على مكة وشؤون :

حكومة عبر الأردن أو شرقي الأردن أو الشرق العربي هي بمثابة حاجز يقي فلسطين اعتداء البادية ، وقد كثر اعتداء عرب البلقاء وما إليها مثل عشائر الحويطات وبني عطية على تجار نجد يسلبونهم بضائعهم وجمالهم ، وشكت حكومة الملك عبد العزيز بن سعود صاحب نجد إلى حكومتي الحجاز والشرق العربي فلم يسمع لها شكوى ، فأرسل صاحب نجد نحو ألف وخمسمائة مقاتل من رجاله في ١٠ آب ١٩٢٢ وهاجموا أم العمد في البلقاء ، وقتلوا أهل الطنيب وأعملوا السيف والنار في عرب بني صخر واشترك الأديبات من عرب البلقاء في قتال النجديين ، وتلاحقت أفخاذ بني صخر ورجالهم من العيسى والزبن والحريشة ، وجاء بعض بني حميدة النازلين إلى الجنوب الشرقي من مادبا حتى

وادي الموجب ، واشتركوا في رد هجمات أهل نجد فأزاحوهم إلى بئر عمري وهناك تشرّدوا في الأودية والتلال ، وقيل إنه قتل منهم نحو ثلثمائة وقتل من أهل الشرق العربي كثيرون ، وقد تأثرت الدبابات الإنكليزية النجديين إلى عمري فعادت وجنودها يزعمون أنهم لم يهتدوا إلى الطريق .

وجاء النجديون ثانية بقيادة درزي بن دغمي السميز زعيم الرولة المتدينة ، وأغاروا على عرب الحويطات في وادي موسى ، وعلى أطراف معان ، ونشبت معركة أبلّى فيها الحويطات بلاء حسناً وعاونهم بعض بني عطية النازلين حوالي معان إلى تبوك ، وجاء النجديون في ١٤ المحرم ١٣٤٣ إلى الكاف (قريات الملح) الواقعة على الحدود بين نجد والشام في ٢٢٠٠ - ٢٦٠٠ مقاتل كما قدرتهم حكومة الشرق العربي واستولوا في طريقهم على الكاف وأخذوا حاميتها وهي أربعون جندياً وضابطان وقتلوا المفرزة البريطانية النازلة في محطة الطيران في زيزاء وعددها اثنا عشر جندياً وضابط ، ووصل الجيش إلى مضيق رأس العين محلة عمان ، فخرج أهالي الصلت وعمان ومنهم شراكس وششن من النازلين في قرى الناعور وعين صويلح ووادي السير ، اشتركوا مع الجند العربي في القتال من الصباح إلى العصر ، حتى تراجع النجديون إلى محل يبعد ثلاث ساعات عن قصر المشتى إلى الشرق وكان تأثير الطائرات البريطانية في النجديين كثيراً هاجت لأصوات قنابلها لإبلهم ، وقد قتل النجديون من قابلهم بالسلاح من أهالي الزيزاء واللبن وأم العمدة والطنيب والقسطل ومادبا ويادودة والرجيب وسحاب والموقر وعمان ، وادعت حكومة الشرق العربي أن النجديين خسروا ألف قتيل وجريح على أقل تعديل وأن عدد قتلى عرب المنطقة مادبا وعمان لا يتجاوز المئة والعشرين وأن خسائر الجنود والبدو المرافقين لهم بلغت عشرين رجلاً وامرأة ، وقد عزز الجيش البريطاني في فلسطين قوة الشرق العربي بأربع دبابات وستمائة جندي . وقال العارفون من الأهلين : إنه قتل من أهالي المنطقة نحو ستمائة ولم يتجاوز قتلى النجديين المئة وأربعين قتيلاً وأن قتلى بني صخر فقط ثلثمائة قتيل . والمقصود من هذه الغزوة عمان وأميرها عبد الله بن الحسين لأن اعتداءاتهم على تجار نجد كثيرة ، وعاونهم العيسي والزبن والحريشة والحديد والعجارمة والدعجة ، وذكروا أنه كان في جملة النجديين كثير من عرب

حرب النازلين بين الحرمين لأنهم مغاضبون لملك الحجاز فالتحقوا بالإخوان نكايه به . وذكر بعض الواقفين على مجرى السياسة أن الجنيهات الإنكليزية وجدت بكثرة في جيوب الإخوان الذين غزوا بلاد الأردن للمرة الأولى وأن حملتهم لم تتقدم نحوها إلا بعد زيارة المستر فيليبي المندوب الإنكليزي في الشرق العربي لبلاد نجد .

وفي اليوم الأول من كانون الثاني ١٩٢٥ (١٣٤٣) أعلنت الوحدة بين دولتي دمشق وحلب فقط وعينت الوزارة برئاسة السيد صبحي بركات الخالدي على أن لا تسأل وزارته أمام مجلس النواب شأن سائر الوزارات في العالم ، ولا تسأل الوزارة عما تفعل ، وتستمد قوتها من المفوضية العليا ، وللمستشارين القول الفصل في كل الأمور ، وهكذا الحال في نظار لبنان الكبير فهم غير مسؤولين إلا عند المفوضية العليا .

وأعلن الجنرال سراي المفوض السامي يوم وصوله إلى بيروت إخراج الحاكم الفرنسي الذي كان يتولى لبنان الكبير وأن يباشر المجلس النيابي اللبناني بانتخاب حاكم وطني ، ولما اختلفت آراء النواب حل المجلس وبوشر بانتخاب جديد ، وأخذ التعصب الديني بعض نواب اللبنانيين فأثروا حكم غريب على واحد من قومهم مهما كانت نخلته ، أما حاكم العلويين فقد ظلّ إفرنسياً ، ومن المظاهر الغربية أن تستحكم اللغة الفرنسية في مجلس لبنان الكبير استحكام اللغة التركية من مجلس وزراء سورية ، وأن يعد بعض أولئك النواب والوزراء التفرنس والترك من أمارات الظرف والفضل ، في ديار أرضها وسماؤها عربيتان وهي مستقلة بالإجماع ، واللغة أول أداة في أدوات الاستقلال ، وحجر الزاوية في بنيانه .

وفي كانون الثاني ١٩٢٥ (رجب ١٣٤٣) رأى بعض المفكرين في حلب وحماة وحمص ودمشق أن الوقت ملائم لعرض مطالب الشاميين على المفوض السامي الجنرال سراي ، فتألفت وفود من الأعيان والمفكرين من المدن الأربع وقصدت إلى بيروت وعرضت مطالب الأمة على المفوض السامي ، وخلصتها أن الحلفاء اعترفوا باستقلال الشام في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ وأنه يحق لها تقرير

مصيرها وأنه فككت أجزاؤها وأنشئت فيها دويلات صغيرة قضي بها على وحدة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن القائمين بالأمر أثاروا التعرّتين الطائفية والدينية ، ومنحوا المدارس الأجنبية ذات البعثات الدينية المساعدات المالية والمعنوية، ليفصموا عرى الرابطين الوطنية والقومية وليتمكنوا بهذا التفريق من القضاء على استقلال القطر ووحدته ، وأن سورية بحدودها الطبيعية وطن واحد بلغتها وقوميتها وعاداتها وأخلاقها وتاريخها فلا مسوغ لتجزئتها وجعلها دويلات عديدة، وأن أسلاف المفوض السامي اتخذوا اختلاف المذاهب والمساومات السياسية معاول لتقويض بناء الوحدة السورية ، فسلخوا القسم الشمالي منها وأعادوه إلى الحكومة التي أنقذ منها في بادئ الأمر ، ولم تزل طامعة بالاستيلاء على القسم الآخر فحرموا هذا الوطن حدوده الطبيعية وخطوط دفاعه ، والحدود إذا لم تكن عسكرية طبيعية لا سبيل إلى ضمان استقلالها . وأن المتدبين السابقين لم يكتفوا بأن يحفظوا للبنان الصغير امتيازاته ، بل عمدوا إلى ضم أرجاء أخرى من الداخل والساحل مما يزيد عن مساحته الأصلية مرتين ، ويزيد على عدد سكانه مرة وجعلوه في صورة دولة لبنانية مستقلة ، كما سلخوا جبل الدروز وجبال العلويين وجعلوها دولتين . وطلبوا تأليف لجنة تأسيسية وإعطاء حق التشريع للأمة والحرية الشخصية وحرية الاجتماع والجمعيات والصحافة وإلغاء القرارات الاستثنائية والمحاكم الأجنبية وأن تدار الأوقاف الإسلامية والخط الحجازي الذي هو وقف إسلامي بمعرفة الحكومات الوطنية ، وأن تمنع الهجرة الأرمنية إلى الشام لأن عدد المهاجرين إلى هذا القطر بلغ مائة وثمانين ألفاً زاحموا الوطنيين في الأعمال الصناعية والتجارية مزاحمة لا تحتمل إلى غير ذلك من المطالب كالنقد السوري ورفع الحواجز الجمركية وذلك بعقد اتفاقات مع الحكومات المجاورة كما عقد بين سورية وفلسطين للتبادل التجاري ، وطلبوا إلغاء الديون العمومية وإبطال الضمانات الكيلومترية التي تعطي لبعض الخطوط الحديدية لاستغنائها بما تربح عن هذه المعاونة ، وأن توحد النُظُم الإدارية ، ويلغى قانون العشائر ويجعل حد لتدخل المستشارين في صغار الأمور وكبارها ، وتسند الوظائف إلى أهل الكفاية من بني الوطن الأصليين ويقتصر على استخدام الوطنيين في جميع الوظائف المحلية .

وقد وعد المفوض السامي وفود المدن الأربع بدرس مطالبهم وإنفاذ ما في وسعه ووسع حكومته إنفاذه ، وأشار إلى أن الواجب عليهم أن ينظموا صفوفهم ويؤثفوا أحزاباً تسير بعقل وروية لا يتخذها بعض أرباب الأغراض سلباً لبلوغ غاياتهم . وقد عاد الجنرال سراي في خطاب له ألقاه في حمص (أيار ١٩٢٥) خاطب به الأعيان بقوله : اعملوا على توحيد كلمتكم قبل اهتمامكم بالاستقلال فإن الاستقلال إنما يحصل عليه من اتحدت آراؤهم ، إلى هذا أوجه نظركم ، اتحدوا أولاً فإن الباني إنما يباشر وضع الأساس قبل أن يهتم بالتوريق والدهان اهـ . وبالفعل تأسس في سورية حزبان حزب من جميع طبقات الشعب واسمه حزب الشعب وآخر يناصر الحكومة الحاضرة واسمه حزب الوحدة كما تألفت في لبنان أحزاب .

صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب الفلسطينيين والسوريين وكوآئن :

وفي يوم ٢٥ آذار ١٩٢٥ (١ رمضان ١٣٤٣) جاء القدس لورد بلفور الوزير البريطاني صاحب الوعد للصهيونيين يجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود الذي صرح به في تشرين الثاني ١٩١٧ باسم بريطانيا العظمى ، فاحتج المسلمون والنصارى فيها على محيئه وأضربوا عن الأعمال إضراباً تاماً ، وكان محيئه للاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية في بيت المقدس ، وقد أرسلت برقيات الاحتجاج من أنحاء القطر على من فصل بعمله فلسطين عن أمها الشام ، وجاء مساء يوم ٨ نيسان الى دمشق فأظهر الدمشقيون نفرتهم منه ومن وعده ، وأغلقت المدينة صباح الغد محتجة على وعده وبعد الظهر تجمع جمهور لا يقل عن خمسة آلاف في ساحة الشهداء أراد الدرك منعهم من التجمع بالتهديد والضرب فرشقه بعض الفتيان بالحجارة ، فاضطر الدرك إلى استعمال السلاح في الهواء فجرح عشرون شخصاً هلك منهم اثنان واضطرت الحكومة للورد أن يخرج إلى بيروت فأركب البحر والبيروتيون يحتجون عليه كاحتجاج الدمشقيين ، ولم يستطع أن يرى اللورد من دمشق غير جلدان الفندق ، ومن بيروت إلا الطريق إلى السفينة فقط .

وفي ٢٨ أيار (١٩٢٥) أنذرت بريطانيا العظمى الملك حسين بن علي أن يغادر العقبة خلال سبعة أسابيع - وكان جاءها بعد أن سقط الحجاز في أيدي جيش الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد - لتستلمها حكومة شرق الأردن

وتضمها مع معان إلى الأصقاع التي تديرها لأنها ضمن الانتداب البريطاني ، ولتحافظ عليها من الوهابيين الذين فتحوا مكة والطائف وانتزعوها من يد الملك حسين ، فأجاب جلالته إنه لا يسعه بالنظر للعهود المقطوعة له من الحلفاء ولا سيما بريطانيا أن يتنازل عن هاتين البلديتين الحجازيتين (العقبة ومعان) وأنه لا يعترف بالانتدابات المخالفة لتلك العهود ، وأبان ما سينجم عن عملها هذا الذي سيدعو إلى هياج عظيم في العالم العربي . وبعد أيام أوعزت إليه انكلترا أن يغادر القطر فحملته إلى قبرص ليقيم فيها . وفي حزيران قتل الأشقياء قائدين افرنسيين في طريق دير الزور كانا يسيران في سيارة فبعثت السلطة طائرات أمطرت عشائر البواسرية التي فقد الضابطان في أرضها وابلأ من القذائف ، فهلك منهم أكثر من ثلاثين نفساً وتلف كثير من الخيل والإبل والغنم ، ثم حكمت على خمسة منهم بالقتل . وفيه جاء وفد من أعيان دروز جبل حوران وراجعوا السلطات الفرنسية يطلبون انضمامهم كما كانوا سابقاً إلى حكومة دمشق على أن يكون لهم بعض الامتيازات المحلية إذ ثبتت لهم مضرة الانفصال . كما أن وفداً من اللاذقية قابل بعض رجال تلك السلطة وأبانوا له الأضرار التي نشأت من فصل جبال النصيرية عن أمها سورية وطلبوا إرجاعهم إلى حكمها . وفي شهر نيسان ١٩٢٥ جاء فلسطين وزير المستعمرات البريطانية فقابلته وفود الأمة يتقدمها وفد اللجنة التنفيذية ووفد الحزب الوطني ، وتكلم غير واحد من رجال الوفد معرباً عن ظلامه الفلسطينيين وضرر الوطن القومي ، فرد الوزير على أقوالهم ومما قاله : إنه رأى فلسطين أسعد من الأربعين مستعمرة التي يهتم بشؤونها ، وقدمت له الوفود تقريراً هذا ملخصه :

١ - قدم عرب فلسطين تقارير كثيرة وأرسلوا وفدهم إلى لندن مرتين وفي كل ما قدموه بينوا التناقض الغريب الذي يظهر في خطة الحكومة الانكليزية في ديارهم على الرغم من أ - نص عهد جمعية الأمم . ب - العهود المقطوعة للملك حسين . ج - البلاغ المنشور من القائد النبي قائد الحملة الفلسطينية . د - بعض مواد صك الانتداب . هـ - البيانات الرسمية والشبه الرسمية الصادرة من الوزارات .

٢ - جرّت السياسة التي تسير عليها الحكومة في فلسطين إلى حالات

اقتصادية صعبة لا يمكن الاستمرار على تحملها ، ودوام الحال على هذا الشكل دون أن يجد العرب آذاناً صاغية عادلة يؤدي حتماً إلى سقوط القطر في هوة أشد عمقاً من الحالة الحاضرة إذ أنهم . أ - يقضي عليهم أداء ضرائب باهظة للإفناق على ترتيبات واسعة لا يتحملها البلد لتنفيذ السياسة الصهيونية التي لا يمكن أن تتفق مع مصالحهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ب - إنهم حرّموا إدارة بلدهم وتمتعهم باستقلال ذاتي على حين ليسوا أقل مستوى من سكان البلدان العربية الأخرى مثل العراق وشرق الأردن التي تتمتع بحكم ذاتي نيابي . ج - حرّموا حتى مما كانوا يتمتعون به من بلديات ومجالس إدارة ومجالس عمومية منتخبة ومن إرسال أعضاء إلى البرلمان في العهد التركي . د - فتحت أرضهم لهجرة يهودية كبيرة تحتوي على كثير من العناصر غير الصالحة لحياة البلاد وتحملها اقتصادياً واجتماعياً . هـ - قد جعل للعناصر اليهودية أرجحية ظاهرة في الإدارة الرئيسة وفي تسيير المصالح اليهودية القومية والاجتماعية، هذا وهم أقلية ضئيلة عدداً ومصصلحة .

٣ - ما أراد العرب في فلسطين قط ، وهم يطلبون حقهم في الحكم التشريعي ، أن يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم ، ولكنهم يريدون أن تمتنعوا بحقهم باعتبار أنهم أكثرية ساحقة في العدد والمصلحة ، وباعتبار أنهم عدواً بوعود صريحة ، وباعتبار أن عهد جمعية الأمم يخولهم ذلك مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الإدارة والتشريع بحسب نسبتهم .

٤ - يعتقد العرب أنهم لن يطمثوا في ديارهم ولن يروا في الحكومة البريطانية النية الحسنة التي طالما أعلنت أنها تنطوي عليها إذا استمرت في طرز الإدارة والسياسة التي سارت عليها في فلسطين إلى الآن مع أنهم يريدون دائماً أن يكونوا على وفاق تام معها في مصالحها التزبية ، ويعتقدون أنه قد آن للحكومة البريطانية أن تقاع عن تجربتها العقيمة وأن تعيد نظرها بصورة جديدة في هذه السياسة التي جعلت القطر وأهله في حالة اضطراب روحي وانحطاط اقتصادي وقلق .

٥ - وها نحن أولاء نقدم لها مطالب الأمة بصورة صريحة واضحة رجاءً أن تبدل علاقة الانتداب السيئة .

١ - تأسيس حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب من الأهالي الفلسطينيين بحسب التمثيل النسبي .

٢ - تسن جمعية وطنية منتخبة القانون الأساسي الذي يضمن بقاء الأماكن المقدسة بيد أهلها القدماء على أن لا يغير شيء فيها وتحفظ حقوق الأجانب ومصالح الدولة المساعدة المتفقة مع مصالح البلد وتضمن مشاركة اليهود الوطنيين بالحكم والتشريع بنسبة عددهم ويراعى في وضعهما الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ضمانا للتعهدات الدولية التي تحملتها الدولة المساعدة وهي التعهدات الصحيحة وحفظ الآثار وحرية الأديان ونحوها على النمط الوارد في المعاهدة المعقودة بين الحكومة الإنكليزية والعراق اه .

تاريخ الصهيونية وعملها الأخير :

ولما كانت الصهيونية من أهم المسائل التي تشغل بال الشاميين عامة وإخوانهم أهل فلسطين خاصة وكان لها مساس بسياسة هذا القطر وتاريخه عهدنا إلى أحد الواقفين على أسرارها^(١) فكتب إلينا ما ملخصه : اليهود قبيلة سامية نزلت من العراق إلى فلسطين وسكنت فيها زمناً ، ثم هاجرت إلى مصر فمكنت هناك مدة طويلة وانقلبت إليها ، وفتحتها فتحاً عسكرياً وتسلطت على بعض شعوبها . وقد أسسوا شبه حكومة ثم ما لبثوا أن دب فيهم الفساد ، فانشطروا إلى قسمين شمالي وجنوبي ، وأسسوا عرضة لغارات حكومات مصر وآشور وبابل لوقوع أرضهم في الطريق الوحيد بين الدول المتراخمة ، ثم تغلبت تلك الدول عليهم فسبواهم وأخرجوهم من فلسطين ، فبدأت نفوسهم تحن لإعادة مملكتهم القديمة وإحياء قوميتهم ، وقد كبر هذا الرجاء في نفوسهم ، فحاولوا مرات استردادها من أيدي الرومانيين ففشلوا ، وخرب تيطس هيكلهم وشتتهم في أطراف الأرض ، وسرعان ما ثاروا بقيادة باركوخبا ومساعدة الخاخام عقيبا فأخفقوا ، وعجزوا عن الخلاص من حكم الرومانيين الثقيل .

ورغم هذه الصدمات أصبحت فكرة الرجوع إلى فلسطين عقيدة دينية عندهم ، برزت في آدابهم الشعرية والنثرية ، وأظهروا من الحنين إلى فلسطين

(١) كاتب هذا الفصل السيد عمر الصالح البرغوثي .

والتلهف على زوال مجدهم ، ما خلد ذكرهم في تاريخ الأدب . وقد زعم كثيرون أن المسيح أتاهم مبشراً بالرجوع إلى أرض الميعاد فلم ينجحوا لأن البيئة التي عاش فيها اليهود قروناً حالت دون بلوغهم أمنيتهم وحرمتهم الشعور بالروح القومي ، لو لم تتوال عليهم عواصف الاضطهادات في أوروبا التي أيقظتهم ودفعتهم إلى إظهار الصهيونية^(١) الحديثة التي أوجدها عاملان « الأول » الشعور بالقيومية ، « الثاني » مضادة اليهود العامة . والقصد من الصهيونية عزل الشعب اليهودي عن الشعوب الأخرى ، وجعل فلسطين وطناً خاصاً بهم ، يقوم على القومية ويعترف لهم به اعترافاً دولياً مضموناً ضمناً شرعياً .

ظهرت الصهيونية بمظهرها الحقيقي سنة ١٨٥٢م حين حضر هولنكسورث الإنكليزي على إقامة حكومة يهودية في فلسطين لحماية طريق الهند البرية . وسافر السر موسى منتفوري إلى فلسطين وطلب من محمد علي باشا المصري إسكان اليهود في القطر فرفض طلبه . وقام كثيرون من الأدباء والسياسيين واقترحوا اقتراحات مختلفة منها جعل فلسطين حكومة يهودية ، أو عمل خط حديدي في العراق وإسكان اليهود على جانبيه أو إيجاد مأوى لهم في شرق الأردن .

وقد حام كاليشر في كتابه مطلب صهيون حول استعمار فلسطين واستملاك الأرض وإنشاء مدرسة زراعية وتأليف حامية إسرائيلية عسكرية ومزج الفكرة القومية بالروح الديني وصرح أن الخلاص الذي نوه به الأنبياء يأتي متتابعاً بمساعدة اليهود أنفسهم . وسافر مراراً لترويج هذه الفكرة ، وألف الجمعية الأولى الاستعمارية في فرنكفورت سنة ١٨٦١ وحمل بعض الحاخامين على الاشتراك معه وأعلن بعضهم أن الاستعمار في فلسطين من الأمور المقدسة فألهبت تقوى اليهود هذه الحملة البراقة ، وألّفوا بضع جمعيات استعمارية في الممالك الأوروبية وأسست المستعمرة الصهيونية الأولى (عيون قارة) في فلسطين سنة ١٨٧٤ .

إلا أن العمل البلدي شرع فيه سنة ١٨٩٧ عند عقد المؤتمر الأول الذي اشترك فيه ممثلو خمسين جمعية صهيونية وبرزت الروح الاستعمارية بشكل جلي فقاومتها الحكومة العثمانية بوضع العراقيين أمام هجرتهم وقيدتهم بقيود

(١) صهيون جبل جنوب القدس ثم شمل المدينة وأصبح علماً عليها . والنسبة إليه تدل على الجماعة الذين يرغبون في الرجوع إلى فلسطين .

جعلت هجرة اليهود إلى فلسطين في حكم المستحيل تقريباً . وكلما كان ينتعش الروح اليهودي القومي يشتد كره الأمم لهم ، وهم لا يعبأون بذلك زاعمين أنها موجة ستضمحل أمام الرقي العلمي المنتشر هناك ، فانتهت عاقبة هذا الرجاء بالفشل وتعرضوا للاضطهاد في الأقطار .

ألف الزعيم الصهيوني الكبير تيودور هرتسل كتابه الوطن اليهودي سنة ١٨٩٥ . وقد جاء فيه أن مقاومة اليهود في نمو مستمر ومقاومتهم خطر على العالم بأسره ، لأن اليهود شعب لا يمتزج بغيره والاختلاط الحقيقي يكون بالزواج المتبادل ، واقترح فيه أن يعطى لهم جزء من الأرض في فلسطين أو الأرجنتين ليجتمعوا بها ويقيموا لهم وطناً خاصاً بهم ، وإذا سمح لهم بفلسطين فإنهم يرون من الواجب أن تكون محلات العبادة المختصة بالطوائف الأخرى ملكاً ممتازاً لهم . وأشار بتأليف جمعية تشرف على الأعمال العلمية والسياسية وتأسيس شركة يهودية كالشركات الإنكليزية والفرنساوية الصناعية «الاستثمارية» العظمى يكون رأس مالها ٥٠ مليون ليرة إنكليزية وتتخذ لها مركزاً رئيساً في لندن ، ويعهد لهذه الشركة بالأعمال التي تهيئها اللجنة التنفيذية اليهودية وتسعى الطائفة الجديدة لترويج المهاجرة بطريقة منتظمة ، ولم يعبأ هرتسل بقوانين الكنيسة فطلب فصلها عن السياسة .

ولما زار هرتسل بريطانيا العظمى لم يقبل اليهود على دعوته كما أقبل أهالي أوروبا الذين ناصروه بالمال والرجال . وأول من اعتقد بصحة مشروع الوطن اليهودي جمعيتزيون في النمسا التي طلبت تأليف جمعية يهودية عامة ، واقترحت تأسيسها في لندن ، ثم عرفوا هرتسل أن جمعيتهم قبلت دعوته . وظهر أن الذين استهوت قلوبهم فكرة تأليف الجنسية اليهودية هم الذين اعتبروا هرتسل زعيماً ومخلصاً لهم . ولكن المتدينين قاوموه عندما عرفوا أن بعض زعماء دعوته لا دينيون . وتصدى له رؤساء الحاخامين في روسيا وألمانيا والنمسا وانكثروا وقالوا : إن الصهيونية حركة بعيدة عن اليهودية وإنها مخالفة لأوامر الله تعالى . وقال الكاتب الشهير لوسيان وولف : إن الصهيونية حماقة ، وقال غايكر : إن الصهيونية تؤدي إلى حرماننا حقوقنا المدنية في الممالك الخارجية . أما بعض نصارى أوروبا فقد أظهروا عطفاً على الصهيونية وطفقت بعض جرائدهم تحض اليهود على

استعمار فلسطين إتماماً لنبوءات التوراة ، فصادفت دعوتهم رواجاً وتكاثر دافعوا الشاقل^(١) الذين انضموا إلى الصهيونية على مقاومة أنصار الدين لها وقد عقدت بين سنة ١٨٩٧ - ١٩١١ عشرة مؤتمرات ، وبعقد المؤتمرات قصد هرتسل إحياء الشعور القومي في اليهود ونشر الدعاية الصهيونية ، وقد نجح في فكرته هذه ووفق لعقد المؤتمر الأول في مدينة بازل (سويسرا) سنة ١٨٩٧ فاشترك فيه أعضاء كثيرون بعضهم يمثل جماعات وبعضهم جاءوا عن أنفسهم وقد قرروا ما يلي :

(١) تعليم اللغة العبرية ونشر آدابها وإنشاء مدرسة كبرى في يافا أو القدس .
(٢) إنشاء مدارس يهودية في الأحياء الإسرائيلية لتعليم اللغة العبرية وتأليف لجنة تعتنى بالآداب العبرية .

(٣) إنشاء صندوق توفير يهودي وقد وضعت قاعدة غرض الصهيونية وهي إيجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين مضموناً ضماناً شريعياً دولياً وتتخذ الوسائل للوصول إلى هذا الغرض .

(١) ترقية حال الزراعة والتجار في فلسطين .
(٢) تحالف اليهود تحالفاً محلياً أو عمومياً حسب قوانين مواطنهم المختلفة .
(٣) تقوية الشعور اليهودي .
(٤) بذل المساعي الأدبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض الصهيوني وقد أسست فروع عديدة للقيام بهذه المشاريع وجمعت ٤٠٠,٠٠٠ ليرة إنكليزية .

وافتح المؤتمر الثاني في مدينة بازل أيضاً سنة ١٨٩٨ وتألف من أعضاء الجمعية الصهيونية العاملة وبعض الزعماء من الأقطار الأخرى واشترك فيه عدد من حاخامي روسيا المعترف بهم رسمياً نواباً عن اليهود المتدينين ، وورد عليه أربعون برقية من الحاخامين المتعصبين يعلنون بها اعتقادهم بالصهيونية ، فانضم إلى الجمعية الصهيونية نفر كبير من اليهود ، وقد أسس هذا المؤتمر جمعية إستعمارية غرضها توسيع نطاق الاستعمار بشرط اكتساب رضى

(١) الشاقل هو الشلن أو الفرنك : وكل من تصهين لا يحق له، أن ينتخب أو ينتخب حتى يدفع شلناً في السنة .

الحكومة التركية وانعقد المؤتمر الثالث في بازل أيضاً سنة ١٨٩٩ وصرح فيه هرتسل بأن مساعيه كانت متجهة للحصول على امتياز من السلطان عبد الحميد ولكنه لم يوفق . ثم تليت تقارير اللجنة العاملة فظهر منها أن معدل زيادة الجمعيات الصهيونية في روسية ٣٠ بالمائة وفي الممالك الأخرى ٢٥ بالمائة وبلغ عدد دافعي الشاغل أكثر من ١٠٠ ألف نفس أي أن ٢٥٠ ألفاً من اليهود تصهينوا في ذلك الوقت. وانعقد المؤتمر الرابع في كوينس هال في لندن سنة ١٩٠٠ وقصدوا بانتخاب هذا المكان التأثير في الرأي العام الإنكليزي لأن بعض الإنكليز ارتاحوا الى الدعوة الصهيونية وناصروها لما لها من الارتباط بالكتاب المقدس . وبلغ عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا ١٠٤٣ جمعية وفي انكلترا ٣٨ وفي الولايات المتحدة ١٣٥ وفي بلغاريا ٤٢ جمعية .

أما آمال الصهيونيين في فلسطين فقد كاد يقضى عليها لأن الباب العالي أصدر أوامره في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ بمنع مهاجري اليهود من الإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر ، وذلك بما ثبت له من انتعاش الحركة الصهيونية وكونها آخذة في التهام فلسطين واستملاك بقاعها والاستيلاء على وادها وصادرها فاحتجت إيطاليا على هذه الأوامر بأنها مجحفة وأنها لا تفرق بين رعاياها النصراري واليهود . وكذلك عرضت هذه المسألة على وزير الولايات المتحدة فأصدر أمره في ٢٨ شباط سنة ١٩٠١ إلى سفيرها في الإستانة ليحتج باسم حكومتها فرفض الأتراك كل تدخل بهذا الشأن . ثم توجه هرتسل إلى الإستانة وقابل السلطان عبد الحميد في أيار سنة ١٩٠١ مرتين وأنعم عليه السلطان بالوسام المجيدي الأول وعاد إلى لندن وقابل جمعية الميكابيين في ١١ حزيران سنة ١٩٠١ وأعرب لهم عن ثقته في نجاح مهمته لدى السلطان .

وانعقد المؤتمر الخامس في كانون الأول سنة ١٩٠١ وقبلت فيه القواعد الرئيسة وصودق عليها وهي : (١) عقد مؤتمر عام مرة كل سنتين . (٢) يعقد أثناء هذه الفترات اجتماعات يحضرها أعضاء الجمعية العاملة الكبرى وزعماء البلدان المختلفة . (٣) تأسيس هيئة إدارية في الأمكنة التي يبلغ عدد دافعي الشاغل فيها خمسة آلاف نفس إذا هم طلبوا ذلك . وتحت أسباب فتح المصرف وإعطاء إعانة لدار الكتب اليهودية في القدس وتأليف دائرة معارف عبرية

وتأليف إدارة عامة تشتغل بشؤون الأمة اليهودية . وانعقدت جلسة طويلة بشأن التهذيب انتهت بالقرار الآتي : المؤتمر يجذب التمسك بالروحيات وتعليم الطائفة اليهودية على قواعد عنصرية دينية وعلى كل صهيوني أن يعمل لهذه الغاية .

ثم انفض المؤتمر وانصرف الزعماء لمتابعة غايتهم فذهب هرتسل إلى القدس على رأس بعثة صهيونية فقابلوا امبراطور المانيا غليوم الثاني أثناء زيارته القدس وفاوضوه بمهمتهم فأجابهم : « إن كل المساعي لترقية زراعة فلسطين والتي تعود بالمنفعة على الدولة التركية وتحترم سيادة السلطان توافق هواه ورضاه » . فامتعض هرتسل وذهب إلى الإستانة وقابل السلطان عبد الحميد وكانت خطته ترمي إلى التفاهم على أساس تنظيم المالية العثمانية وأن يقنع جلالته بإخلاص الصهيونيين لأنهم يعملون علانية لا في الخفاء ، وأن اليهود عنصر خاضع للقوانين لا يخالفون رغائب القوة الحاكمة . وطلب إليه أن يمنح اليهود سلطة واسعة للحكم البلدي الذاتي ويدفعون مقابل هذا الامتياز مبلغاً وافراً ويؤدون ٣٠٠,٠٠٠ غرش مرتباً سنوياً مثل جزيرة ساموس ذات الاستقلال الإداري يجندها الخالص ورايتها الخاصة ومجلس نوابها الخاص أي حكومة ذات استقلال داخلي . ففشل في سياسته ومفاوضته وظل اليهود يباشرون بعض الأعمال الاقتصادية والزراعية في فلسطين في شيء من التقية والتكتم .

ولما أخفق سعي هرتسل مع الأتراك وجه نظره إلى الحكومة الإنكليزية أملاً أن يحصل على مقاطعة بجوار الأرض المقدسة يأوي إليها المهاجرون أو المضطهدون مؤقتاً فاستحسن طلبه وباشر مفاوضة لورد كرومر فعرض عليه استعمار شبه جزيرة سينا وأرسل الفريقان بعثة سنة ١٩٠٣ لترتاد الأرض . وقد كاد هذا المشروع يتم لولا قلة المياه ورفض حكومة مصر إعطاء شيء من ماء النيل . ولما حبط هذا المشروع عرض عليهم وزير خارجية انكلترا شرقي إفريقيا على أثر حرب البوير واقترح هرتسل الدخول في المفاوضة بشرط إحداث وطن يهودي في شرقي إفريقيا .

وعقد المؤتمر السادس في بازل في آب سنة ١٩٠٣ وبحوثا في اتخاذ إفريقيا وطناً قومياً ، فقبول هذا الاقتراح بالرفض وقد قال هرتسل : إن شرقي إفريقيا ليست صهيون ولا يمكن أن تكون كذلك وقال مكس نوردو : لو اتخذنا

شرقي إفريقية وطناً لتعذر علينا إلا أن نكون في دار عزلة . وفي خلال ذلك انعقد مؤتمر صهيوني في زمارين فلسطين برئاسة اوسيشكن شاهده خمسون عضواً وستون معلماً وكان هذا المؤتمر مصغر مؤتمر بازل فأسسوا جمعيات إدارية لتهيمن على المستعمرات وتراقب شوئونها . وفي ٣ تموز توفي هرتسل بعد أن أعلى شأن الغاية الصهيونية وثبتها ووجد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم ، وحوّل المسألة اليهودية من خيرية زراعية إلى اقتصادية سياسية .

وفي ٢٧ تموز ١٩٠٥ انعقد المؤتمر السابع وانتخب مكس نوردو رئيساً له وكان تقرير اللجنة الفلسطينية خير التقارير التي قدمت لهذا المؤتمر ، لأنه تضمن خبر انتشار جريدتهم ونشاط حركتهم ، وقد أعيد البحث في استعمار شرقي إفريقية ، ولكنه قرر أخيراً ، بأن المؤتمر الصهيوني السابع لا يتحول عن قاعدة مؤتمر بازل الرئيسة وهي إعداد وطن لليهود في فلسطين مؤمناً تأميناً شرعياً ومعترفاً به اعترافاً علنياً وأنه يرفض رفضاً باتاً كل استعمار خارج فلسطين .

وقد بحث أيضاً في عمل الجمعية الصهيونية في مستقبل فلسطين وتقرر بشأنها ما يلي : تطبيقاً للحركة الإدارية السياسية ولأجل تقويتها يجب أن تقوم على الأسس العلمية مقاصد الروح الصهيوني بالقواعد الآتية : (١) التنقيب عن الآثار . (٢) ترويج الزراعة والصناعة على الأصول الديمقراطية الممكنة . (٣) تحسين الحالة الاقتصادية والتهديبية وتنظيم يهود فلسطين بإحداث نهضة فكرية جديدة (٤) الحصول على الامتيازات كمشتري الأرض المملوكة والمتروقة والمزارع وغير ذلك .

وفي سنة ١٩٠٥ أنشئت جمعية بصليل لترقية الحرف والصناعة في القدس . وفي سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثامن في لاهاي وأسس مدرسة الجمناز اليهودية في يافا . وأسس مصرف داود ولفسون لبناء دور للعمال في فلسطين . وفي سنة ١٩٠٨ أسست اللجنة التنفيذية للجمعية الصهيونية في فلسطين واتخذت يافا مركزاً لها . وفي سنة ١٩٠٩ عقد المؤتمر التاسع في مدينة همبورغ وتقرر إنشاء مستعمرة يهودية على قواعد الاشتراك والتضامن .

وفي سنة ١٩١١ أنشئت الجمعية الاستعمارية لأرض إسرائيل (فلسطين)

وعقد المؤتمر العاشر في بازل . وكانت بين سنة ١٩٠٥-١٩١١ الفكرة اليهودية الوطنية جامدة وشعر قوادهم أن استرداد الأرض المقدسة شيء بعيد المنال حتى إن الحصول على قطعة من الأرض أمر عسير . وفي سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر الحادي عشر وكانت أبحاثه جامدة وقد توالى على الحركة الصهيونية في هذه الفترة الخلدان ، ولولا الحرب لعدلوا عن غايتهم القومية وأرجأوا البحث في فلسطين إلى حين . والحقيقة أن دور القهقري في تاريخ الحركة الصهيونية بدأ بوفاة هرتسل .

الأوضاع الصهيونية :

(١) المصرف اليهودي الاستعماري - ليست مقاصد هذا المصرف مالية فقط بل سياسية أيضاً وبما أنه اكتسب حقوق الشركات ذات الامتياز فقد اتخذ أداة لهيئة الصهيونية العملية، وغايته العمل في فلسطين أو سورية أو في بقعة أخرى آياً كانت إذا اقتضت مصلحة اليهود ذلك . ولكن تعدل هذا النص وقيد بهذه الجملة « العمل في فلسطين وسورية وسائر أنحاء تركيا آسيا فقط » وفتح فرع لهذا المصرف . وأسست سنة ١٩٠٥ فروع مالية لشركة انجلو فلسطين في القدس ويافا وحيفا والناصرة لنفس هذه الغاية . .

(٢) البنك الملي اليهودي - وغايته توفير رأس مال دائم يجعل ملكاً للطائفة اليهودية ليستخدم في أغراضها الخصوصية مثل مشرى الأرض في فلسطين ويشترط أن لا يمس رأس ماله حتى يبلغ مليون شلن ويجب بقاء نصف هذه القيمة في المصرف . وتجمع أمواله من استعمال طوابع البريد الإضافية التي تلتصق على رسائل الصهيونيين ومن الدعوات والهبات وما شابه ذلك .

العمل التهذيبي - كان توحيد التعليم اليهودي من أهم أغراض الصهيونية الرئيسية لذلك شرعوا في إقامة غرف قراءة ومنتديات للخطب وللدروس الليلية في أماكن مختلفة وفي سنة ١٩٠٣ أنشأوا مدرسة البنات القومية في يافا ، وقد نظم سنة ١٩٠١ حاييم ويزمان منهاجاً تاماً لجامعة عبرية وفتح لها فرع للآداب في القدس وعملوا لها بضعة احتفالات ولم تنزل في مهدها .

جمعيات الطلبة - لما انتشرت الفكرة الصهيونية تغلغت في نفوس الطلبة

اليهود في فينا وروسيا وغليسيا ورومانيا وتواصلوا بالمحافظة على الشعور اليهودي وتعزيز الآداب العبرية وكان شعارهم إلى الأمام . ووجهوا اهتمامهم لاستعمار فلسطين وتألفت بعد ذلك جمعيات عديدة من طلبة المكاتب وانتقوا أسماء وطنية تشير إلى نهضاتهم السابقة وفتح لها فروع في فلسطين .

الجمعيات الرياضية - دعيت رياضية ولكن غايتها في الحقيقة عسكرية لا سيما وأن أسماءها ترمي إلى هذا الغرض ، وقد امتدت بسرعة إلى الإستانة وبرلين وصوفيا وبخارى وهمبورغ . وانتشرت فروعها في فلسطين بأسماء مختلفة وظهرت بالتمرين على حمل السلاح والحركات العسكرية وتنظيم الجند . الصحافة - للصحافة اليهودية أثر كبير في نشر الدعوة الصهيونية ، فلهم صحف عديدة في روسيا والنمسا والمانيا وانكلترا وإيطاليا وغيرها من الممالك ، وهي تكتب المقالات الطويلة انتصاراً لقضيتهم ودفاعاً عن صهيونيتهم وقد كان لهم بضع صحف في فلسطين لاقية لها .

انتشار الصهيونية - راجت الفكرة الصهيونية عند كثير من اليهود فانضم إليها أشخاص ما عرفوا شيئاً عن الغاية الصهيونية ، وتبرع فريق منهم دون أن يكلفوا إلى ذلك حتى إنك لا تجد فئة من اليهود إلا وبينهم صهيونيون، وغالوا باظهار دعوتهم وجأهروا برفع رايتهم الزرقاء البيضاء في احتفالاتهم فاحتج العرب على ذلك على غير طائل ، ولا نزال نرى اللونين الأزرق والأبيض وفي نصفهما الثلث المتقاطع ترس داود يرفرفان في أيام أعيادهم على صدورهم أو على مرتفعات معاهدهم أو على طرفهم وسلعهم .

الأحزاب الصهيونية - بذل اليهود جهوداً كبيرة لاستعمار فلسطين وحصل تباين في آرائهم فانفصل بضع فرق عن جامعتهم وبرزت في المؤتمرات وكثيراً ما كانت المنافسة عنيفة بين هذه الفرق التي سنذكرها هنا: (١) فرقة الحكومة وهي أتباع هرتسل ومنهاجهم ما صرح به رئيس المؤتمر في جلساته العديدة من وجوب إنشاء وطن لليهود في فلسطين والأقاليم المجاورة لها يضمن ضمناً شرعياً مع تمسكهم بقرار مؤتمر بازل . (٢) فرقة الوسط المزراحية - وهم عصابة اليهود المتدينين الذين ألفوا فرقتهم أثناء انعقاد المؤتمر الخامس وهي فرع من حزب المتطرفين وقد تزايد أعضاء هذا الحزب وعقدوا مؤتمراً خاصاً سنة ١٩٠٤

وانتشروا في انكلترا وأميركا وروسيا والمانيا . وكانوا يظاهرون هرتسل في جميع المناقشات يرمون إلى أن يكونوا هيئة صهيونية أرثوذكسية أمينة للتوراة والتقاليد في كل ما يتعلق بالحياة اليهودية . (٣) فعال زيون الحزب الديموقراطي - هو حزب اليسار الذي يوجد بين صفوفه بعض مشاهير الاشتراكيين وعددهم قليل ، ولكنهم برهنوا على اقتدار وحذق وتغلبوا على حزب مندلستون في المؤتمر ، وكان مركزهم في النمسا وسويسرا ، ويوجد منهم فرقة متطرفة اسمها (فرقة العملة الاشتراكية الصهيونية) ويظن أن هذه الفرقة تخدم غرضها الاشتراكي أكثر من عملها الصهيوني . (٤) الزيون زيونست - توجد فرقة بهذا الاسم في الجمعية العمومية نشأت على أثر المناقشات التي دارت في المؤتمر السادس ، وزعيم هذه الفرقة اوسيشكن واضع أصول الفرقة الجديدة الذي صرح أن سياسة هرتسل فشلت ، والحركة الصهيونية تحتاج إلى العمل السريع في فلسطين بدون انتظار منحة أو امتياز ، ويجب شراء الأرض حالاً بقسم من مال المصرف القومي . (٥) التريتويالين - قوام هذه الفرقة هم الذين رغبوا في قبول استعمار شرقي إفريقيا ثم عدلوا خطتهم وقرروا أن يستحصلوا على كل أرض في أي بلد بشرط أن ينالوا فيها استقلالهم الإداري . وظهرت فرق أخرى لم تنل شهرة مثل الفرق التي تقدم ذكرها . ومنها فرق الصهيونيين السياسيين الذين عقدوا اجتماعاً خاصاً سنة ١٩٠٥ . (٦) الصهيونية السياسية الحقيقية - وهم يعتقدون أن طلب الحكم الإداري لليهود مبالغ فيه ويريدون أن يهتم الصهيونيون في الإسراع بمشروع استعمار فلسطين وجوارها ، وهناك فرق صغيرة .

الصهيونية في الحرب :

كانت القيادة الصهيونية العامة في برلين مؤلفة من ستة أعضاء رئيسهم واربورغ ، وكان أربعة منهم في برلين وواحد في لينينغراد والآخر في أميركا الشمالية ، فلما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ توقفت أعمال الصهيونية السياسية ولم يلبثوا أن نقلوا إدارتهم العامة إلى كوبنهاغن ونقلوا الإدارة المالية إلى هولاندة وتظاهروا بالحياد التام أمام جميع الدول وتربصوا ليروا أين تكون الغنيمة لينصرفوا إليها ، أما عضوهم في الولايات المتحدة فقد أخذ يجمع حوله

الصهيونيين وألف لجنة عاملة . ورغم هذه الاستعدادات السياسية فإن مركز الحركة الصهيونية لم يكن في كوبنهاغن ولا في امستردام ولا في نيويورك بل كان في لندن لأنها محور العالم، وفازوا بحمل بعض الدول على الاعتراف بحقوقهم التاريخية في فلسطين على ضعف الروح الصهيوني في انكلترا . ولم تعلن تركيا الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حتى انتبه الرأي العام اليهودي وأيقن اليهود أن المسألة الشرقية سيعاد البحث فيها فانتعشت آمالهم يوم صرح رئيس الوزارة الإنكليزية أن جرس جنازة تركيا قد دُق لا في أوروبا فقط بل في آسيا أيضاً واستبشروا بأن تأسيس دولة يهودية في فلسطين أصبح ممكناً ومعقولاً وبرز حاييم ويزمن أستاذ جامعة منشستر فقبض على قياد الحركة الصهيونية العامة ، وكان هذا صهيونياً لم يشغل وظيفة مهمة في ترتيباتهم السابقة على أنه كان دائماً يميز نفسه في المؤتمرات ، وكان يحض بشدة على العمل داخل فلسطين ويذكر ما يترتب على ذلك من الفوائد ، ويقاوم بعنف جميع الذين كانوا يطلبون أن تقتصر الجهود الصهيونية على السياسة فقط . وهو الداعي إلى تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وهو الذي اعتبر دخول تركيا في الحرب عهداً جديداً لفلسطين ، وفرصة نادرة يجب أن يستفاد منها . وقابل رجال السياسة الإنكليزية يومئذ وفتح باباً للمفاوضات التي أدت إلى تصريح بلفور المعلوم وإلى اتفاق سان ريمو وإلى اعتراف انكلترا بتسهيل تأسيس الوطن القومي اليهودي . وقد كان ويزمن يعمل بنفسه دون مشورة أو مساعدة أحد غير بضعة نفر من صغار الصهيونيين ، فرأى أن يدعو إلى لندن العضوين الروسيين في المؤتمر الصهيوني لیساعده في العمل وانضم إليهم فيلسوف الصهيونية اشير كتربرغ المعروف «باحاد هعام: أحد القوم» والمشهور بتعصبه لنشر العلم والتهذيب بين الصهيونيين فألفوا لجنة غير منتخبة لكنها ربما كان يعتمد عليها من أكثر الصهيونيين وحاولوا مراجعة الحكومة البريطانية لإكمال المفاوضات التي باشرها ويزمن .

وفي الاتفاق السري المعقود بين فرنسا وانكلترا سنة ١٩١٦ القاضي بأن تأخذ فرنسا شمالي فلسطين وانكلترا ميناعي حيفا ويافا وتجعل فلسطين وما فيها من الأماكن المقدسة تحت حكم خاص للاحتفاظ بمصالح دول الحلفاء الدينية ولم تذكر المسألة الصهيونية ولم يرد ذكر ما وراء الأردن والبحر الميت وخليج

العقبة وكان من المنتظر أن تدخل هذه المناطق في الدولة العربية أو الحلف العربي الذي كان في النية لإيجاده بموجب معاهدة سرية عقدت مع شريف مكة الملك حسين ومفوض بريطانيا .

وفوضت الحكومة الإنكليزية مارك سايكس النائب الإنكليزي بمفاوضة زعماء العرب والأرمن والصهيونيين فعقد اجتماعاً رسمياً مع الصهيونيين في شباط سنة ١٩١٧ ولم يشترك فيه أحد من العرب وقد شهدته ويزمن وسكولوف وهربرت بنتويش وكاون وسافر وهربرت صموئيل المندوب السامي السابق لفلسطين وجمس روتشلد . وبعد البحث الطويل توطدت العلاقات بين الصهيونيين والحكومة الإنكليزية ووضعت القضية الصهيونية على أساس قانوني وفوض ويزمن وسكولوف أن ينوبا عن الصهيونيين فيما بعد ، وأبلغت الحكومة الإنكليزية هذه المفاوضات إلى الحكومة الفرنسية ، وذهب سكولوف إلى باريس ليبين لفرنسا أغراض الصهيونية وعلاقتها بالحالة السياسية الدولية الراهنة ، وقابل ناظر الخارجية المسيو كامبون وأخذ منه هذا التصريح « إن الحكومة الفرنسية لا يمكنها إلا أن تشعر بالعطف على غرضكم الذي يتوقف نجاحه على فوز الحلفاء وإنه مسرور بإعلان هذا التأكيد » . ثم توجه سكولوف إلى رومة واستحصل تأكيداً بالعطف على الحركة الصهيونية من رئيس الوزارة الإيطالية والبابا .

ونشطت الحركات العسكرية في فلسطين وتقدمت بسرعة فائقة حتى وقع احتلال القدس سنة ١٩١٧ فرنّ صدق ذلك في لندن وأجاب تصريح بلفور الشهير الذي ضمن في كتاب أرسل إلى اللورد روتشلد وهذا نصه : « تنظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين ، وتبذل الجهد في سبيل ذلك على أن لا يجري ما يضر بحقوق غير اليهود في فلسطين سواء من الوجهة الدينية والمدنية ولا ما يضر باليهود من الحقوق والمقام السياسي في سواها من الممالك » .

فقابل اليهود هذا التصريح بالترحيب واصطبغوا جميعهم بالصبغة الصهيونية وقاموا بمظاهرات في كل مكان واكتسب هذا التصريح موافقة دول الحلفاء الكبيرة فوافقت عليه فرنسا وإيطاليا واليابان سنة ١٩١٨ أما الولايات المتحدة فإنها لما لم

تكن أعلنت الحرب على تركيا لم توافق عليه ، ولكن الرئيس ويلسون أرسل في آب سنة ١٩١٨ كتاباً إلى رئيس لجنة الصهيونيين الأميركيين هذا نصه : « راقبت برغبة شديدة العمل الأساسي الذي قامت به لجنة ويزمن في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية وهاءنذا أتخذ هذه الفرصة لأظهر امتناني بتقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي ممالك الحلفاء منذ تصريح بلفور الذي يحمل موافقة انكلترا على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ووعده الحكومة الإنكليزية بأنها تساعد ما استطاعت وتضمن الوصول الى هذه الغاية على ألا يضر هذا العمل بحقوق غير اليهود (العرب) المدنية والدينية من سكان فلسطين او يعيب بحقوق اليهود خارج فلسطين .

ولجنة ويزمن التي أشار اليها الرئيس ويلسن لجنة صهيونية أرسلتها الحكومة الانكليزية الى فلسطين سنة ١٩١٨ ومنحتها سلطة واسعة ، أي أن تكون بمثابة الهيئة الاستشارية للسلطات البريطانية في كل ما يتعلق بالمسائل التي تمس اليهود أو الوطن اليهودي القومي بموجب تصريح حكومة جلالة الملك . وتنحصر أغراضها في ما يأتي : (١) أن تكون حلقة اتصال بين السلطات البريطانية واليهود في فلسطين . (٢) أن تشارك في توزيع الإحسان على أهالي فلسطين وان تساعد على إرجاع المنفيين منها واللاجئين إليها . (٣) أن تعاون على تقديم المستعمرات اليهودية وعلى تنظيم السكان اليهود في فلسطين . (٤) أن تساعد المعاهد اليهودية في فلسطين لإعادة عملها ونشاطها . (٥) تسعى لإحكام العلاقة الودية بين اليهود وغيرهم من سكان فلسطين العرب . (٦) تجمع ما تراه مناسباً من المعلومات وتقديم تقريراً فيما يمكن عمله لترقي الاستعمار اليهودي وتقديم القطر عموماً . (٧) تبحث إذا كان في الإمكان تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وتختار محلها ، فاختارت جبل الطور وافتحتها بوضع الحجر الأساسي بحضور رؤساء الحكومة .

ولما غُلبت تركيا وحلفاؤها وعقد مؤتمر باريز ، دخلت النهضة الصهيونية في طور جديد فذهب ويزمن وسكولوف الى باريز ليمثلا الصهيونيين وبيينا مطالبهم وجاء غيرهم من صهيونيين الأصقاع المختلفة ، وقد سمع مجلس

الحلفاء الأعلى اقترحاتهم في جلسته المنعقدة في ٢٧ شباط سنة ١٩١٩ وهذه هي أولاً - وجوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخي في فلسطين وشد أزرهم لإعادة بناء وطنهم القومي . ثانياً - أن تسلم سلطة الحكم العليا في فلسطين الى جمعية الأمم وأن يعهد إلى إنكلترا بالوصاية عليها وتكون مسؤولة أمام جمعية الأمم . ثالثاً - أن يضاف الى صك الانتداب لحكومة فلسطين الشروط الآتية :

(١) تجعل فلسطين في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي ، وأن يؤول ذلك في النهاية إلى إيجاد حكومة مستقلة على أن لا يعمل شيء يعث بحقوق غير اليهود (العرب) في فلسطين أو بحقوق اليهود التي يتمتعون بها خارج فلسطين .

(٢) وللوصول إلى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية : (أ) بتشجيع الهجرة اليهودية وإسكان اليهود في الأرض الفلسطينية مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين الثابتة من غير اليهود (العرب) .

(ب) تعضيد وكالة يهودية في فلسطين وفي العالم للإشراف على بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وأن يعهد إلى هذا المجلس بمراقبة التعليم اليهودي .
(ج) بعد الاقتناع بأن قانون هذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص يجب أن يفضل على غيره بإعطاء المشاريع الاقتصادية وتمنح له الأولوية في كل امتياز في الأعمال العامة أو في استثمار الثروة الطبيعية التي تجدها الحكومة من الضرورة إعطاءها لها .

(٣) تساعد الدولة الوصية جهد استطاعتها على توسيع الحكم الذاتي للمقاطعات أو المراكز الممكنة لإقامتها بالنظر إلى حالة القطر .

(٤) تعطى الحرية التامة في ممارسة العبادات الدينية لجميع الأديان في فلسطين دون تمييز بين السكان مهما اختلفت جنسياتهم أو حقوقهم المدنية .

ولم يقدم اقتراح بإدارة الأماكن المقدسة ورأوا تركها لرأي الدول الكبرى . وقد طلب أن يدخل ضمن حدود فلسطين المجرى الأسفل لنهر الليطاني وهضاب جبل الشيخ الجنوبية (منابع الأردن) ومن الشرق الجولان ونهر اليرموك وما يليهما من المناطق الجنوبية التي كانت من نصيب فرنسا في اتفاقية سايبك بيكو واعتبرت هذه المناطق من الأسس لتقدم الاستعمار الفلسطيني وأدلوها بحجج

تاريخية . فسمع مجلس الحلفاء أقوال الصهيونيين ولم يصدر قراراً حاسماً لاشتغاله بمسائل أهم من معضلة فلسطين .

وضع اليهود ثقتهم بالحكومة الإنكليزية وما خامرهم شك في صداقتها ولم تحدثهم أنفسهم أنها تتأخر عن مناصرتهم أو لإنجاز ما وعدتهم به وقلقوا فقط لأنها ليست هي وحدها صاحبة الحل والعقد في أمرهم، ولذلك كانت هذه الفترة حرجة جداً في تاريخ اليهود فيما أن يقضى لهم أو يحكم عليهم . ولقد كان من المنتظر لإحداث تغييرات تلائم المطالب الصهيونية لأن الحكومة الفرنسية صدقت على وعد بلفور لها ومعاهدة سايكس بيكو بطلت لانحلال روسيا، إلا أن اتفاق الحكومة الإنكليزية مع الملك حسين كان له شأن يذكر ، ونشاط الحركة الوطنية العربية في فلسطين ومقاومتهم الصهيونية ، أسمعت المراجع الرسمية صوتها وعاكست الخطط البريطانية المتحيزة للصهيونيين ، كما أن بعض المقامات الدينية النصرانية أظهرت استياءها مخافة أن يتمكن اليهود من السيادة في هذا القطر ، أضف إلى هذا أن اليهود اللاصهيونيين في اميركا وأوربا كانوا يقاومون الصهيونية بشدة ، فمجموع هذه العوامل أخر سير القضية الصهيونية لكن العاملين الأولين (معاهدة الملك حسين ومقاومة العرب) كان لهما الأثر الأكبر في ذلك .

كان العرب يستندون في سياستهم على الأمير فيصل حليف دول الحلفاء وكان هذا يتنازعه عاملان متناقضان ، أحدهما العرب الذين يطلبون إليه بشدة مقاومة الصهيونية ، والثاني بعد نظره الذي جعله يسعى بإخلاص للتعاون مع قواد الصهيونيين ، فتخرج مركزه بين هذه المطالب المتناقضة ، وغلب عليه العرب فلم يرض عن تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين ، ثم عدل عن هذا الرأي وأرسل كتاباً إلى أحد زعماء اليهود الأميركيين ، هذه خلاصته : «إننا نشعر أن العرب واليهود هم أبناء عم في الجنس وأنهم تحملوا اضطهادات متشابهة من الدول القوية ، وقد ساعدتهم حسن الطالع بأن يتمكنوا من الصعود معاً إلى الدرجة الأولى من سلم آمالهم الوطنية، ونحن العرب وخاصة المتعلمين نظن برغبة شديدة إلى النهضة الصهيونية، وقد اطلع وفدنا في باريز الآن على الاقتراحات التي قدمتموها أمس إلى مؤتمر السلام ونحن نعتبر أن هذه الاقتراحات معتدلة

ولائقة ، وسنعمل جهدنا وما في وسعنا لمساعدة اليهود أبدأ ونتمنى لهم وطناً ينزلون فيه على الرحب والسعة . وإني أتطلع وشعبي أيضاً إلى مستقبل نستطيع فيه أن نتبادل التعاون لتصبح الأصقاع التي نشترك في الاهتمام بها ذات مركز بين الأمم المتقدمة في العالم .

ولقد حدثني أحد أخصاء الملك فيصل أن الكولونيل لورنس قدم إليه كتاباً بالإنكليزية وطلب منه أن يوقع عليه ففعل دون أن يعرف ما فيه لأنه كان موضع ثقته ! . وعلى كل فالملك فيصل مسؤول سواء عرف ما تضمنه الكتاب أو لم يعرف ولكن إذا نظرنا أيام حكمه نجد أنه لم يفد الصهيونيين إلا باتخاذهم حجة على رضى العرب عن الصهيونية .

وقد مرت الأيام واليهود يبذلون جهودهم لحل معضلة فلسطين المعقدة فلم يتوصلوا إلى حل مرضي لأن بعض الدول رفض قبول قواعد الرئيس ويلسون وبعضها تردد مساومة . وأخيراً اختلف اليهود والإدارة العسكرية في فلسطين وأظهروا أن فلسطين أرضهم وما على العرب إلا أن يرحلوا عنها ، فثارت نائرة العرب وتمرد روحهم الوطني ووقفوا بالمرصاد للصهيونيين فاتفق أن كانت جماهير جبل الخليل قادمة إلى القدس للاشتراك في موسم النبي موسى سنة ١٩٢٠ فتحرش بهم اليهود تحرشاً اعتبره أهل الخليل اعتداءً فهاجموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وما كاد البرق يتناقل هذه الحادثة إلى سان ريمو حيث كان وزراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا مجتمعين لتقرير صورة المعاهدة التي ستقدم إلى تركيا والتي لم يكن فيها نص على فلسطين سوى أن تسلم بها تركيا إلى الحلفاء وهم يفعلون بها ما يرونه مناسباً . وقد كانوا ينوون تأجيل النظر في مسألتها وتعيين شكل حكومتها النهائي ولكن حوادث القدس التي ربما كانت مدبرة من اليهود أو الحكومة غيرت هذا المنهج وأسرع الحلفاء في تصفية الخلاف بينهم ، وبحثوا في فلسطين واعترفوا بمطالب الصهيونيين ، وأضافوا هذه الفقرة إلى المعاهدة المصدقة في سان ريمو :

توافق الدول الموقعة على هذه المعاهدة بموجب المادة ٢٢ من صك الانتداب وتعهد بإدارة فلسطين بالحدود التي ستقررها دول الحلفاء إلى دولة وصية تختار

من الدول المذكورة تكون مسؤولة بتنفيذ التصريح الذي فاه به بلفور في ٢ شباط سنة ١٩١٧ بالنيابة عن الحكومة البريطانية والذي وافقت عليه دول الحلفاء وفيه تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على أن لا يمس حقوق العرب المدنية والدينية ولا المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود خارج فلسطين . وقد تقرر أيضاً في سان ريمو أن تكون الحكومة الإنكليزية الحكومة الوصية على فلسطين . فأبدلت الحكومة الإنكليزية الإدارة العسكرية في فلسطين بإدارة مدنية وعينت على رأس هذه الإدارة هربرت صموئيل الصهيوني الصميم فتولى منصب المندوب السامي في فلسطين في ١ حزيران سنة ١٩٢٠ فقاطعه الوطنيون ولكنه باشر بتأسيس إدارة مدنية وجابهه مشكلتان صعبتان وهما : (١) الحدود (٢) مواد الانتداب ، وحلت هاتان المشكلتان بالتدرج وفي المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا ، أما الحدود التي اقترحها الصهيونيون أمام المجلس الأعلى فلم توافق عليها فرنسا لأنها أصرت على الحدود المقررة في معاهدة سايكس بيكو وبعد مباحثات طويلة تنازل الفرنسيون عن مقاطعة المطلة وبانياس أما صور وصيدا والمجرى الأسفل لنهر الليطاني ومنايع نهر الأردن والشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية والجولان واليرموك فقد أخرجت منها ، خلا عدة أميال أضيفت إلى فلسطين من شاطئ اليرموك الغربي قبل أن يصب في الأردن .

وقد قابل اليهود هذا الحل باستياء شديد لأنهم رأوه يؤثر في استعمارهم ويضر بفلسطين وسورية . وأظهر الفرنسيين أنهم لن يتنازلوا عن مطالبهم إلا إذا توفقت انكلترا وفرنسا إلى تعديل الاتفاق فيعطي إلى فلسطين ما يزيد من مياه الأردن الشمالي واليرموك لتنتفع منها بتوليد قواها الكهربائية أو استعمالها في ري الأرض وغير ذلك . وهكذا أضيف إلى صك الانتداب بعض ما يتطلب اليهود وما يعود عليهم بالنفع واقتصرت الولايات المتحدة من مطالبها من فلسطين على أن تكون حقوقها التجارية مضمونة . فكاد هذا التأخير يجعل مستقبل فلسطين السياسي غامضاً لأن المفاوضات سارت ببطء ولم تنته حتى تموز سنة ١٩٢٢ حين بحث في الوصاية وصدقت عليها عصبة جمعية الأمم . وفي صيف سنة ١٩٢١ كان عدل صك الانتداب بشأن شرقي الأردن بفقرة هذا نصها : للدولة الوصية الحق بتأجيل أو عدم تنفيذ بعض المواد الواردة في صك الانتداب الذي يتعاق

في شرقي الأردن ، وهكذا خرجت الصهيونية رابحة بعض الريح من الحرب ولكن أعمالها لم تصطدم بقوة عملية بعد ، وإنها وإن كانت الآن في دور المد فسيأتي عليها دور الجزر فلا يجد رجالها مأوى يعودون إليه ويندمون على ما فقدوه من تمازجهم بالأهالي الذين عاشوا وإياهم دهرًا طويلًا هـ .

الصهيونية بعد الحرب :

وضعت الحرب العالمية أوزارها ، وكل أمة تنتظر أن يصيبها قسط وافر من حقوقها المسلوبة . فتلمس اليهود المشتتون في أقطار العالم بصيص تصريح بلفور ، ينظرون إليه نظرم إلى صك هبة أو بيع قطعي يخولهم امتلاك فلسطين ، فشمخت أنوفهم وأعلن قوادهم أن فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكليزية ، وما على العرب إلا أن يرجعوا إلى جزيرتهم ، ونشروا راياتهم بكثرة وفي كل مكان وأنشدوا نشيدهم القومي ، وأخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية ، فتولى رئاستها صهيوني صميم ورئاسة النيابات صهيوني متطرف ، وتغلغل الصهيونيون في جميع الدوائر وسيطروا على الإدارة العامة ، وصارت اللغة العبرية لغة رسمية ، وظنوا أنهم سيأتي إلى فلسطين ألوف من اليهود بسرعة يؤلفون الأكثرية الساحقة ثم ينشئون دولة يهودية تتم بها النبوات القديمة ، ولم يعلموا ما يقابلهم من الصعاب في تحقيق أمنيتهم ، وتجاهلوا أن القطر يسكنه ثلاثة أرباع مليون عربي يملكون أرضه ويستغلون موارده، وعبثوا بالرأي العام الإنكليزي وتهاونوا في إيجاد عمل للمهاجرين وعجزوا عن إعداد سبيل المعيشة لهم ف وقعت في أزمة اقتصادية وبقي قسم كبير من المهاجرين مدة طويلة بلا عمل .

أما الشعب العربي الجريء فإنه كان ينتظر من الحلفاء إنصافاً لا سيما بعد أن انشقوا عن حكومتهم التركية وشاركوهم في الحرب . فكانت نفوسهم تصبو إلى الاستقلال التام أو إلى الاستقلال الداخلي تحت إشراف بعض الدول المخلصة . ولما انقشع ظل الأتراك ظهر الحلفاء بمظهر الجشع وقسموا سورية إلى حكومات وأجزاء فأدرك عرب فلسطين أن اليهود يسعون لتأسيس حكومة يهودية في مجرى تنفس جسم الديار العربية ، فغضبوا وأنشأوا الجمعيات الإسلامية المسيحية وأهلبوا صدور الأهالي وأثاروا نفوسهم ، فاشتعل الروح الوطني بين جوانحهم

وعقدوا المؤتمرات واشترك مندوبوهم في المؤتمر السوري في دمشق وأعلنوا أن فلسطين جزء من سورية وأرسلوا وفوداً إلى أوروبا والحجاز لاستصراخ العالمين الإسلامي والنصراني فقابلتهم الحكومة الإنكليزية بجفاء وعبث بمطاليهم وغالطت في التعابير الفنية والتفاسير السياسية ، وأصرت على اتباع سياستها القديمة التي ترمي إلى فصل العالم الإسلامي والعربي بعضه عن بعض بوضع الصهيونيين حاجزاً بين الشام ومصر والحجاز والشام. وارتاب العرب في الشق الثاني من وعد بلفور الذي يضمن حقوق السكان لأنهم رأوا تناقضاً بيناً بين شقي التصريح المذكور ، فلو آمنوا بالشق الثاني وسلموا بمبدأ مهاجرة اليهود إلى القطر وفقاً لنص الشق الأول يصبح اليهود أصحاب الأكرية المطلقة في مدة وجيزة ، فإذا انسحب البريطانيون عندئذ فكيف يمكن تطبيق الشق الثاني .

لا شك أن العرب يقعون هنالك أمام مشكل خطير وتصبح الأماكن المقدسة التي بأيديهم مهددة بانتقالها إلى أيدي أعدائهم لا سيما وهم يعتبرون أنفسهم والعالم الإسلامي ينظر إليهم بأنهم أوصياء يجب أن يحافظوا عليها ، فهاج هائج العرب وأبوا أن يذعنوا لحكم السياسة وترزعزت ثقة اليهود في تصريح بلفور وأحجموا عن الهجرة إلى فلسطين فذهب المندوب السامي إلى لندن وطلب بياناً من الوزارة بحجة إزالة مخاوف العرب وقصد تأمين اليهود ليقبلوا على المهاجرة فأجيب طلبه وصدر بيان في حزيران سنة ١٩٢٢ وهذا ملخصه :

« لم تكن الغاية من تصريح بلفور جعل فلسطين يهودية والقضاء على الشعب العربي ولغته وآدابه أو الخط من شأنها ، ولكن الغاية تأسيس وطن لليهود في فلسطين ، وليس للجمعية القائمة في فلسطين نصيب في إدارة الديار العمومية كما أن الجنسية التي سيتمتع بها جميع سكان فلسطين تكون جنسية فلسطينية ليس لها علاقة باليهود أو غيرهم . إن اليهود أعادوا في المدة الأخيرة بناء طائفة في فلسطين يبلغ عددها ٨٠,٠٠٠ نفس يشتغل سدسهم في الزراعة ، ولهذه الطائفة هيئات سياسية خاصة فلها جمعية تنتخب لإدارة شؤونها الداخلية ، ومجالس منتخبة في المدن ، وهيئة تشرف على مدارسها ولها رئيس حاخامين منتخب ومجلس رباني (محكمة شرعية) لإدارة أمورها الدينية ، وغدت لغتها العبرية لغة رسمية في دوائر الحكومة ، ولها صحافة عبرية كافية . ويقصد من

هذا العمل أن تتقدم الطائفة اليهودية الحالية بمساعدة اليهود المنتشرين في العالم ليجعلوا فلسطين مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي أجمع مميزات قومية .
وليعلم العرب أن مجيء اليهود الى فلسطين هو حق ثابت لا منة يمن بها عليهم ،
وقد سمح لهم بزيادة أفرادهم بالمهاجرة بقدر تحمل البلاد الاقتصادي .

وقد عرض هذا البيان قبل نشره على الجمعية الصهيونية فوافقت عليه ،
ثم عرض على وفد العرب الفلسطيني في لندن فحاول تعديل بعض فقره فلم
ينجح ، فزاد كره العرب لليهود واشتدت المعارضة للصهيونيين .

وكانت فلسطين تسير الى الإنحطاط بمساعي المندوب السامي تطبيقاً للفقرة
الواردة في صك الانتداب وهي وضع القطر في حالة اقتصادية وسياسية لافقاره
وانتزاع الأملاك من أهله ، فمنع تصدير الشعير حتى هبط سعره وخسر الأهالي
خسارات باهظة، وعمل أعمالاً أخرى أدت إلى إستياء العرب الشديد الذي طورته
السياسة الصهيونية وأحالتها الى كوارث قصدت استغلالها فحدثت الثورات الآتية .

ثورتا القدس وثورة يافا :

لكل بلد أعياد ، وفلسطين منيع هذه المواسم ، اشتركت فيها جميع الأديان
وموسم النبي موسى أعظم المواسم يقع في عيد الفصح عند الطائفتين المسيحية
واليهودية ، فالأقاليم العربية الإسلامية البعيدة لها مواسم مستقلة من عهد صلاح
الدين بن يوسف ، والقريبة تأتي متتابعة الى القدس ، وجبل الخليل أعلق الناس
بهذه العادة ، يأتون بكثرة ينشدون الأهازيج البدوية الثورية ، قدموا الى القدس
في يومهم المعروف فتحرش بهم اليهود وأثاروا حفيظتهم فنشبت معركة قتل
فيها عشرة أشخاص من الفريقين وكسرت أبواب دكاكين اليهود ونهبت
بضائع ليست بقليلة واضطربت القدس وأعلنت فيها الأحكام العرفية . والداعي
الى الثورة الثانية أن اليهود اتخذوا يوم تصريح بلفور الواقع في ٢ تشرين الثاني
عيداً لهم يعلنون فيه سرورهم ، فقرر العرب جعله ذكرى حزن وبؤس يقفلون
فيه حوانيتهم ويحتجون إلى الحلفاء على هذا الظلم ، يطوف فتيانهم في الشوارع
وينشدون أناشيد الرثاء الوطنية فمانعتهم الشرطة وضرب بعضهم فأهاج كامن
حقدهم واصطدموا باليهود وقتل أشخاص ووقع النهب .

ويمكن ان نعد ثورة يافا ثورة سياسية تجل فيها الروح العربي بكل مظاهره وأسبابها أن فرع حزب بوعالي صهيون في يافا انضم إلى حزب الاشتراكيين المتطرفين المعروفين (بالموبس) والذين من أصولهم « القاء النزاع بين الطبقات لا التمسك بالوطنية والجنسية » . فحاول هذا الحزب الثوري استمالة هيئات العمال اليهود في فلسطين فرفض حزب (احادوت هاعابودا) طلبهم وأبى الانضمام اليهم ، فغضبوا وقرروا إعداد تربة فلسطين للثورة الاجتماعية . وفي خلال تشرين الأول والثاني سنة ١٩٢٠ حدثت قلاقل بين العمال واليهود في يافا حسمت للحال . ونشرت جمعية الموبس إعلانات في أنحاء يافا وتل أبيب طلبوا من جميع العمال الاشتراك في الثورة الاجتماعية ، وأن يحتفلوا باليوم السابع من تشرين الثاني وهو العيد السنوي لحكومة السوفيات في روسيا وهذا بعض ما ورد في الإعلانات « ليحي اليوم السابع من تشرين الثاني يوم العمال الاشتراكيين ، لتسقط فرنسا وانجلترا ، لتحي الجمهورية الروسية السوفيات ، ليحي المؤتمر الاشتراكي الثالث لتحي فلسطين الاشتراكية وحملوا راياتهم الحمر وساروا وفي مقدمتهم السيدة شارلوت روزنتال فحاولوا إكراه عمال اليهود على الاشتراك معهم فوافق بعضهم ورفض الآخرون فاعتدوا على المتعتين وحصلت معركة بسيطة .

وفي أيار سنة ١٩٢١ خرج حزب الموبس من ناديمم وعلى صدورهم شارات حمراء وفي أيديهم رايات كتب عليها بخط أحمر جُمَل تحض الناس على الثورة وهذا نموذج منها : ليحي المؤتمر الإشتراكي ، لتحي النساء الحرة في الجمعية الاشتراكية ، ليحي اليوم الأول من أيار. لتسقط القوة الإنكليزية القهرية. فتعقبت الشرطة جموعهم المندفعة حتى وافت شوارع تل أبيب وصادمت اليهود وأطلقت عيارات نارية فظنها العرب مظاهرة مقصودة وجهت إليهم وتحسبوا من شرّ مداهم فتجمهروا للدفاع عن أنفسهم، وسرعان ما اشتبكوا مع اليهود وأهقرت الدماء وامتدت الثورة إلى الضواحي حيث هوجمت بعض المستعمرات الصهيونية ودام القتال ثلاثة أيام فقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ وقتل من العرب ٤٨ نفساً يدخل فيهم البدو والقرويون وجرح

٧٣ ، فأعلنت الأحكام العرفية ووضعت غرامات باهظة على الذين اشتركوا في هذه المعركة من العرب وحرق بيت شاكر أبو كشك قائد الثورة خارج يافا ، وقد استفاد اليهود من ضباطهم في الجيش إذ ساعدوهم كثيراً وألبسوا شبابهم ثياباً عسكرية وسلحوهم ببنادق الجند وأوهموا العرب أنهم جنود انكليزية .

المهاجرة :

كان عدد اليهود قبل احتلال الانكليز ٥٥ ألف نفس فلما أبيحت المهاجرة وتدفتت جموع الصهيونيين وأكثرهم من شرق أوروبا أنشأت الحكومة دائرة المهاجرة والسفر لتسهيل الهجرة الصهيونية ، ثم تحول هذا الى فرع خصوصي في ديوان أمين السر العام وأرسلت الحكومة مأمورين من اليهود على نفقة الوطنيين لتشجيع الهجرة ، وقد بلغ عدد اليهود في الإحصاء الرسمي سنة ١٩٢٢ (٨٤,٠٠٠) نفس وقد قدر عددهم في آذار سنة ١٩٢٥ (١٠٨,٠٠٠) شخص (وأصبحوا اليوم أكثر من أربعمئة ألف) .

وبعض هؤلاء المهاجرين متدين وبعضهم بولشفيكي وهم فئة قليلة ، وبعضهم جهلاء متشردون وبعضهم متعلمون ، وكلهم وضع نصب عينيه إخراج العرب من فلسطين وامتلاكها وأكثر من ثلاثة أرباع اليهود يسكنون في المدن والباقي في القرى . وقد بذلوا جهوداً كبيرة لمشتري الأرض والاستعمار الزراعي في فلسطين بيد أن المهاجرين رغم مآلتيهم الشخصية وما يتوارد عليهم من المساعدات الخارجية وما يتبع ذلك من التنظيم ، يآلفون المدن ويتركون القرى ، ودلت الإحصاءات على أن قسماً قليلاً منهم يحترف الزراعة فالأربعون ألف مهاجر الذين دخلوا فلسطين لم يشتغل منهم في الزراعة سوى ثمانية آلاف وتسلس الباقون الى المدن الكبيرة مثل القدس ويافا وحيفا وفتحوا الحوانيت المختلفة كالحلاقة وبيع السلع البسيطة وأهملوا الزراعة . والذي يعلم أن فلسطين قطر زراعي وأن الزراعة هي المهنة المنتجة الرئيسة فيها لا يرتاب في أن الصهيونيين لم ينجحوا من هذه الجهة كثيراً .

تقدر مساحة فلسطين بعشرة آلاف ميل مربع تقريباً نصفها جبال قاحلة وأرض رملية وصحراء بلقع والنصف الآخر قابل للزراعة . واليهود كانوا

يملكون قبل الحرب نحو ١٧٧ ميلاً مربعاً وكان لهم ٤٣ مستعمرة . أما اليوم فيملكون نحو ٣١٩ ميلاً مربعاً أي ستة في المائة من مجموع الأرض الزراعية وبلغت مستعمراتهم نحو ١٠٠ قرية أكثرها في الساحل وبعضها اشتراكية . فالبيع والشراء والزراعة والأكل والمعيشة كلها مشتركة والعزّاب نساء ورجالاً ينامون معاً أما المتزوجون فلهم غرف خصوصية ، ويؤخذ الأولاد من والديهم يجعلون تحت المراقبة ويعنى بأمرهم لأنهم ملك مشترك للمستعمرة . وأكثر مستعمرات اليهود تعتمد على المساعدات الخارجية وعلى قروض المصارف ويملك البارون روتشلد ٤٠ ٪ مما يملكه اليهود في فلسطين .

المعارف والمصارف والصحافة والمشاريع الاقتصادية :

للإهود في فلسطين إدارة معارف تشرف على المدارس اليهودية من صهيونية وأرثوذكسية وهي مستقلة عن إدارة الحكومة. وقد كان للإهود سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ مائة وعشر مدارس فيها ١١,٢٢٠ تلميذاً و ٥٨٤ معلماً وفي سنة ١٩٢١ بلغت مدارسهم نحو ١٣٥ مدرسة فيها ٥٢٣ معلماً و ١٢,٨٣٠ طالباً وهي موزعة كما يأتي : في القدس ٣٣ مدرسة وفي يافا ١٧ وفي حيفا ٦ وفي طبريا ٤ وفي صفد ٤ وفي المدن الأخرى ٥٨,٧ في مستعمراتهم و ٦ في سورية .

ويقدر أن ٨٣ ٪ من أبناء الإهود في فلسطين يتعلمون في المدارس اليهودية ويندر أن يدخلوا المدارس الأجنبية . أما المدارس اليهودية في فلسطين فمتنوعة فبينما تجد المدرسة الدينية التي تشبه الكتاتيب المعروفة عند العرب ولا تعلم سوى التلمود والتوراة على الأصول القديمة ، تجد من جهة أخرى بساتين الأطفال الحديثة تسير على نظم منتسوري وفروبل . وهي أنواع فمنها مدرستان ثانويتان اختلط فيهما الشبان والشابات إحداهما في القدس والأخرى في يافا ، ولهم مدرسة صناعية في حيفا ، ودار معلمات في يافا ودار معلمين في القدس ، ولهم مدرسة نيتز الزراعية التي أسست منذ ٥٠ سنة تقريباً وفيها ١٠٠ طالب وقد كانت تابعة لجمعية الاتحاد الإسرائيلي (الليانس) فألحقت مؤخراً بالجمعية الصهيونية . ولهم مدرسة تجارية في يافا وثلاث مدارس للموسيقى ومدرسة للفنون الجميلة في القدس . ولغة التعليم في جميع هذه المدارس العبرية وبرامجها

تشبه برامج مدارس أواسط أوروبا مع تعديل طفيف . وهم يشددون إلى حد الإفراط في الاهتمام بتعليم جغرافية فلسطين وتاريخها اليهودي .

ومجموع ما أنفقته إدارة المعارف الصهيونية سنة ١٩٢٠ (١٢٠) ألف جنيه أي ينفق على كل تلميذ تسعة جنيهات وهو معدل باهظ جداً . ولكن موازنتهم أخذت تتناقص إلى أن بلغت ٨٠,٠٠٠ جنيه رغم ازدياد الطلاب . وقد ساءت الحالة المالية وامتنت إدارة المعارف الصهيونية عن دفع رواتب المعلمين فتذمروا وأنذروها بالإقلاع عن العمل إن لم تجبهم إلى مطالبهم فلم تصغ إليهم وعجزت عن أداء مشاهرتهم فاضربوا شهراً كاملاً ثم حل المشكل حلاً سياسياً . والرسوم في المدارس اليهودية هي عالية جداً يؤدي الطالب الخارجي في المدرسة الثانوية ما يقارب العشرين جنيهاً سنوياً لقاء التعليم فقط . وقد أسس اليهود «أوبرا» إسرائيلية إلا أن الإقبال عليها قليل لكون لغتها عبرانية ويُقدر ما أنفقه اليهود من المال بعد الحرب بستة ملايين جنيه . مليون واحد اشتروا به أرضاً ومليون للصنائع ونصف مليون للمساعدات وثلاثة ملايين ونصف للاستعمار والتهديب وللأمور المختلفة سياسية وإدارية .

أعظم مصرف لليهود في فلسطين بنك انكلو فلسطين الذي كان رأس ماله سنة ١٩٢٠ (١٠٠) ألف جنيه وفيه من الودائع ٧٠٠ ألف جنيه أما الآن فقد زيد رأس ماله إلى ٣٠٠ ألف جنيه واحتفظ هذا المصرف بأرباحه ولم يوزعها منذ سنة ١٩١٤ وذلك لأنه اضطر إلى تسليف المستعمرين قروضاً لمدد طويلة . وإدارة هذا المصرف العليا في لندن وله فروع في أمهات المدن الفلسطينية والسورية ولهم غير هذا المصرف مصارف عقارية . وأخرى تسلفهم للبناء وكلها تفضل معاملة اليهود على غيرهم وتعطيهم بفائدة أقل مما تأخذه من العرب . ولليهود بضع صحف في فلسطين يصدر بعضها باللغة الإنكليزية مثل « فلسطين الأسبوعية» «النشرة الفلسطينية» وبعضها يصدر باللغة العبرانية ومنها دَوَّار لسان حال العمال وها آرتس ، ودوَّار هايوم . وكولي إسرائيل لسان حال الأرثوذكس ومجلة هايشوف وغيرها من الصحف الضئيلة .

في ٢١ أيلول سنة ١٩٢١ عقد اتفاق بين وكلاء التاج بالنيابة عن السر

هربت صموئيل المندوب السامي لفلسطين وبين بنيحاس روتنبرغ المهندس الروسي على أن يجمع روتنبرغ خلال سنتين مليون جنيه لشركة تؤسس في فلسطين وأن يجمع ما لا يقل عن مائتي ألف جنيه نقداً ، فإذا قام بهذه الشروط فالمندوب السامي يمنحه امتيازاً لمدة سبعين سنة للاستفادة من مياه الأنهار الآتية :
 (أ) مياه نهر الأردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافده نهر الأردن التي تقع في الأرض التي يسيطر عليها المندوب السامي لفلسطين .
 (ب) مياه نهر الأردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافده نهر الأردن الخارجة عن الأرض الخاضعة للمندوب السامي والواقعة في منطقة الانتداب الفرنسي .

وذلك لتوليد القوى الكهربائية وغيرها . ثم رخص له أن يبني على جسر المجمع محطة كهربائية بعد سنة وأن يستعمل بحيرة طبرية خزاناً للمياه التي يريد الانتفاع بها وأن يبني سداً عليها لرفع المياه إلى درجة معلومة ، وتنقل هذه المياه في قني تشاد لهذه الغاية وسمح له أيضاً بأن يبني غير تلك المحطات متى رآها ضرورية لتوليد القوى الكهربائية . وأن يغير مجرى نهر اليرموك وروافده وبثوقه إلى بحيرة طبرية وأن يستملك من الأرض والأبنية ما يراه ضرورياً لهذا المشروع . ومنح أيضاً استثمار نهر العوجا بالقرب من يافا . وتعهدت الشركة بأن تبدأ بالعمل بعد اثني عشر شهراً وأن تنجز المشروع في خمس سنوات . ولكن عدل هذا الشرط الأخير ورخص للشركة بتمديد هذه المدة وتعهدت إذا هي تأخرت عن إنجاز هذا العمل في الخمس سنوات أو في المدة التي يعينها المندوب السامي ولم تقم بالعمل تدفع عن كل شهر ألفي جنيه لحكومة فلسطين ويحق للمندوب السامي إلغاء هذا الاتفاق .

نظرة في نجاح الصهيونية :

إصلاح شيء أصابه البلى أسهل من خلق شيء من العدم ، والصهيونية مهما تقدمت فهي فكرة خيالية لا حقيقة لها أوجدتها هوى بعض اليهود لاستيطان بلاد اجتازوا بها وسكنوها ردىاً من الزمن ثم جلوا عنها كما وقع للعرب في الأندلس والفرق بين الحادثتين كبير لأن العرب غرسوا مدنية فأزهرت وأينع ثمرها ،

أما اليهود فقد زالت آثارهم واندرست مدنيتهم الساذجة . فمطالبتهم بالرجوع إلى هذه الديار متعذرة كل التعذر . (١) لدثور قوميتهم . (٢) لثشتيت نزعاتهم وعاداتهم . (٣) اليهود يجمعهم الدين وتفرقهم الأمم ، دينهم واحد وهم أمم شتى . (٤) لا تجمعهم وحدة ولا يسرون في منهج . (٥) الأرض يمتلكها أصحابها وهم جزء من محيط عربي عظيم .

فاليهود وإن تقدموا قليلاً لا إخال نجاحهم إلا مؤقتاً ولو ساعدتهم بريطانيا ودول الغرب والفشل عاقبة كل حركة ليست طبيعية ودافعها غير عقيدة صادقة ، أما أعمال اليهود خارج فلسطين بعد الحرب فإنهم انصرفوا لإقناع أوروبا بأن العرب راضون عنهم وعقدوا بعض مؤتمرات وعدّلوا بعض خططهم وجمعوا أموالاً جمّة وتوددوا إلى جيرانهم وطاف دعواتهم الأقطار التي يسكنها اليهود واكتفوا بحصر قواهم العملية داخل فلسطين ومراقبة الحركات السياسية الدولية العالمية (١) ٥١ .

حوادث وغوائل :

في نيسان (١٩٢٥) خطب اللورد النبي المعتمد البريطاني في مصر في حفلة مقابر الحرب البريطانية في غزة خطبة ذكر فيها السامعين بأن هذه البقعة جرت عليها معارك حربية قديمة وحديثة وأثنى على الأبطال البريطانيين الذين قادوا بأرواحهم فطردوا الأتراك في محاولاتهم الثلاث . وقد ذكر بعضهم أن قتلى البريطانيين في البقعة التي حارب بها شمشون في غزة خمسة آلاف جندي .

وفي هذا الشهر وقعت فتنة بين أهالي قرية العاليات من عمل حمص بعضهم مع بعض وبينهم وبين الحكومة انتهت بقتل أربعين نفساً وثمانية وأربعين جريحاً ويقال : إن خمس أسر فنيت على بكرة أبيها والسبب في ذلك أن رجلاً من العلويين اسمه شعبان من أهل وادي البرغل من عمل اللاذقية قام منذ السنة الماضية

(١) المصادر : المعلمة الانكليزية . المعلمة اليهودية . بقظة فلسطين لشتين . تاريخ الصهيونية لسوكولوف . تاريخ الصهيونية لروحي بك الخالدي مخطوط . تقرير مندوب فلسطين السامي . تقرير قاضي القضاة في فلسطين . منشور الحكومة الرسمية . معلومات خصوصية من الدوائر الرسمية . جرائد فلسطين .

يدعو التصيرية إلى إدخال الإصلاح على مذهبهم ، وتعاليمه تدور على روحانية الإمام علي بن أبي طالب في الألوهية ، وتخطئة من يزعم وجوده في الشمس كالشماليين أو القمر كالكلازيين وقد أوجب على أتباعه صيام رمضان والصلوات الخمس وتعليم النساء خلافاً لما جرى عليه الأسلاف في المذهب العلوي من حظر التدخين على النساء . فانقاد إلى رأيه كثيرون ولاسيما عشيرة المتاوررة ولما كان قد بقيت بعض البيوت في قرية العاليات لم تتمذهب بمذهبه وقع بينها وبين من دانوا به خصام أدى إلى القتل وتدخل الحكومة .

وفي سلخ ذي الحجة حدث اختلاف بين السلطة المنتدبة وزعماء جبل الدروز أدى إلى نفي بعضهم. ونشبت فتنة بين الدروز والحامية أدت إلى قتل بضع مئات من الفريقين ، وخربت السلطة بضع قرى بالقنابل التي قذفت بها من الطائرات والمدافع .

التقسيم الإدارية الحديثة

تقسيم القديما قبل الإسلام :

كان الشام ينقسم بحسب مصلحة المتغلبين عليه، ولما كان يطلق عليه اسم آرام كان يقسم إلى عدة أقسام مثل آرام صوبة وآرم معكة وآرام بيت رحوب وآرام دمشق وفدان دمشق وهي أقسام مملكة آرام، وكانت دمشق قصبته، أي إنها كانت منقسمة بين ملوك كثيرين كملوك دمشق ورحوب وصوبة وجشور على ما يفهم من رواية التوراة . وأراد الرومان إضافة فلسطين إلى ولاية سورية الرومانية سنة ٦٦ ب.م ولما نظم أغسطس قيصر مملكته وصارت سورية ولاية امبراطورية عاصمتها أنطاكية احتفظت بعض مقاطعاتها باستقلالها، فكانت خلكيس (عين جر أو عنجر) مملكة صغيرة ، وابيلية (وادي بردى) رئاسة ربع ، ودمشق مستقلة بعض الاستقلال إلى أيام نيرون . ووسد أمر اليهودية لوال كان له بعض الاستقلال في حدود ولايته تحت إدارة والي سورية ، وكانت تدمر مستقلة في سلطانها إلى سنة ١١٤م وأضاف الامبراطور تراجان الأضقاع الواقعة ما وراء الأردن ، وقضى على مملكة النبطيين وجعلها حكومة ممتازة سماها الولاية العربية وجعل بصرى عاصمتها .

وقسم ساويرس الروماني سورية إلى قسمين وجعل القسم الأول إلى الشمال، وفيه سورية الكوجانية وسورية المجوفة أي السهول التي على ضفتي العاصي إلى أنطاكية والبحر وما بين اللكام ولبنان، والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان إلى وسط البرية وفيه

بعلبك وحمص ودمشق وتدمر . وانقسمت مملكة الشام بعد مقتل ديمتريوس إلى قسمين ملكت كلوبطرا في عكا وجنوب المملكة وملك زنوبيا في أنطاكية وشمالها . وكانت الشام مقسومة إلى قسمين سورية وفلسطين وأطلق اسم سورية على الاثنين منذ إضافتهما إلى المملكة الرومانية قبل المسيح بمدة .

أجناد الشام وتقسيم العرب :

وقسم الأوائل الشام خمسة أقسام الأول فلسطين ومن مدنها ايليا وهي بيت المقدس وعسقلان ولدّ و نابلس وحبرون أي الخليل ، والثاني ، الأردن ومدينتها العظمى طبرية ، والثالث الغوطة ومدينتها العظمى دمشق ، والرابع حمص ، والخامس قنسرين ومدينتها العظمى حلب وهو أشبه بتقسيم العرب ، قسموها خمسة أجناد أي خمسة فيالق ، وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين .

سمى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كوراً وكذلك دمشق وكذلك الأردن وكذلك حمص مع قنسرين . وسميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جنداً ، وذكروا أن الجزيرة كانت إلى قنسرين فجندها عبد الملك بن مروان أي أفردها ، فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها ، وأن محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ففعل ، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً ، وأفرد الرشيد قنسرين أي كورة حلب بكورها فصيرها جنداً واحداً .

ومعلوم أن العرب أطلقوا اسم الشام على سورية وفلسطين معاً وهذه القسمة أي قسمة الشام إلى قطرين لا توافق عليهما الطبيعة كما قال العارفون من علماء الجغرافيا المحدثين ، لأنهما شيء واحد وما هي إلا اعتبارات سياسية صرفة ، وهو تقسيم موضوع على التعارف كما قال المقدسي ، وقد قسم الشام إلى ست كور وقال : فإن قال قائل لم جعلت قسبة الكورة حلب (أي لم يجعلها قنسرين) كما كان مصطلح العرب إلى القرن الثالث وههنا مدينة على اسمها قيل له : قد قلنا إن مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند ولا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين إليها وأنطاكية

ونفاستها وبالس وعمارتها أجناداً لمدينة صغيرة أي قنسرين التي وصفها بأنها مدينة خف أهلها .

التقسيم في عصر الصليبيين والمماليك :

وما زال تقسيم الشام إلى أجناد مدة الأمويين وطرف صالح من عهد العباسيين ويفرق العمال الذين ينصبونهم بحسب ما يرون فيه المصلحة ، دام ذلك إلى القرن الخامس فكانوا يقطعون بعض الأعمال ويدعونها ممالك فكانت صرخد مملكة والزبداني مملكة وحمص مملكة وحماة مملكة وحلب مملكة . وهذا التقسيم مختل بالطبع لاختلال أحوال القطر بالحروب الصليبية قال القلقشندي : قواعد الشام ست كل قاعدة منها تعد مملكة ، بل كانت كل قاعدة منها مملكة مستقلة بسطان في زمن بني أيوب ، وهذه القواعد الست العظام هي دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك . بل كانت الغوطة والمرج من عمل دمشق ولاية برأسها ، كما كان الجبل ووادي بردى ويبوس ولاية ، وكما كانت بيت لها في الغوطة ولاية على عهد الأمويين .

وقسم المماليك الشام قسمين جنوبي وشمالي وكان يعين لكل منهما كافل أي وال يقيم كافل القسم الأول في دمشق ويقال له كافل الممالك الشامية ، وينزل عامل القسم الثاني في حلب ويقال له كافل الممالك الحلبية . وفي سنة ٧٦٨ جعل الملك الأشرف من ملوك الترك حلب أكبر من دمشق كما كانت على القاعدة القديمة ، وعد الظاهري سبع ممالك في الشام في القرن التاسع وهي المملكة الشامية والمملكة الكركية والمملكة الحلبية والمملكة الطرابلسية والمملكة الحماوية والمملكة الصفدية والمملكة الغزاوية .

وكان لدمشق أربع صفقات غربية وهي الساحلية والقبلية والشامية والشرقية ففي الصفقة الأولى وهي الغربية عشر نيابات وخمس ولايات . فأما النيابات فمنها غزة والقدس ، والولايات فمنها ولاية الرملة ولد قاقون وبلد الخليل ونابلس وأما الصفقة قبلية وهي الثانية ففيها نيابات وثمان ولايات ، فأما النيابات فالأولى منها نيابة قلعة صرخد ونيابة عجلون . وأما الولايات فالأولى ولاية بيسان وولاية بانياس وولاية قلعة الصبيبة وولاية الشعراء وأذرعات وحسبان والصلت وبصرى .

والصفقة الشمالية وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات . فأما النيابة فبعلبك وأما الولايات فالأولى ولاية البقاع البعلبكي والثانية ولاية بيروت والثالثة ولاية صيدا ، والصفقة الرابعة الشرقية وبها ثلاث نيابات وأربع ولايات . وهناك نيابات حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وولاية تبنين وهونين وولاية الشقيف إلى غير ذلك من مصطلح القرن الثامن للهجرة .

على عهد العثمانيين :

وقسم العثمانيون الشام ثلاث نيابات أو إيالات وهي دمشق وحلب وطرابلس وظلّ هذا التقسيم إلى ما بعد عهد السلطان أحمد فكانت دمشق وهي أعظمها عبارة عن عشرة ألوية وأهمها القدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت وصيدا ، وولاية طرابلس خمسة ألوية وهي طرابلس وحماة وحمص وسلمية وجبلة . وقسمت حلب تسعة ألوية تتناول سورية الشمالية برمتها ما عدا عيتاب التابعة لولاية مرعش، وفي سنة ١٦٦٠م أحدثت الدولة ولاية جديدة وهي صيدا لمراقبة الجبل . وقد امتدح الجنرال دي تورسي من طرز الإدارة التي منحها سليم الأول للشام وهي التي كان عليها العمل في الأكثر إلى خروج الأتراك من هذا القطر ، وذكر بعضهم أن الشام كانت على عهد أوائل الحكم العثماني أربع إيالات كبرى وأن تقسيمها إلى ثلاث إيالات كما مر حدث بعد زمن .

وفي سنة ١٢٧٢هـ كانت الشام تقسم لإيالتين إيالة دمشق وإيالة صيدا، ولما نظمت الولايات على أسلوبها المتعارف أخذ لواء الرها (أورفة) من الجزيرة ولواء مرعش من الأناضول وألحقا بحلب فجعلت ولاية وجعلت بقية الشام ولاية جسيمة حاضرتها دمشق . وأنشئت القدس لواء مستقلاً سنة ١٨٧٠ تفاوض الإستانة مباشرة، وبعد خروج المصريين (١٨٤٠) كانت القدس تجعل تابعة لإيالة صيدا تارة، وتابعة للباب العالي تارة أخرى، وأصبح لبنان مؤلفاً من أفضية الكورة والبترون وكسروان والمثن والشوف وزحلة وجزين ، وظلت بيروت وطرابلس ونابلس واللاذقية وعكا وأعمالها تابعة لولاية دمشق ، وبقي مركز الجيش دمشق على ما كان عليه قبيل دخول إبراهيم باشا . وفي سنة ١٨٨٧ جعلت القدس متصرفية مستقلة، وجعلت الكرك أي ما وراء عبر الأردن متصرفية برأسها ، وجعلت بيروت سنة ١٨٨٨ ولاية مستقلة عن دمشق لموقعها الاقتصادي وأضيفت

إليها عكا ونابلس واللاذقية وطرابلس وصور وصيدا ومرجعيون . وكان لبنان منذ سنة ١٨٦٠ مستقلاً استقلالاً إدارياً يتولاه متصرف من الباب العالي برتبة وزير وتصادق على تعيينه الدول الست العظمى .

ويوم جلا الأتراك عن الشام كان يقسم إلى ثلاث ولايات وهي دمشق وحلب وبيروت وثلاثة ألوية مستقلة أي ولايات صغيرة تفاوض الباب العالي مباشرة ، وهي القدس ولبنان ودير الزور . واصطلح في فلسطين أولاً على جعلها أربعة ألوية وهي لواء القدس ويافا ولواء الجليل ولواء السامرة واللواء الشمالي . وجعلت المدن الأربع دمشق وحلب وحماة وحمص وما يتبعها دولة قسمت إلى عدة ألوية وهي الكرك وحوران ودمشق وحمص وحماة ودير الزور وحلب والإسكندرونة واستقل لواء اللاذقية .

تقسيم فلسطين :

وبحسب التقاسيم الإدارية الأخيرة تقسم حكومة فلسطين إلى ثلاثة ألوية وهي (١) لواء القدس ويافا ومركزه القدس . (٢) اللواء الجنوبي ومركزه غزة . (٣) اللواء الشمالي ومركزه حيفا . ويقسم لواء القدس ويافا إلى سبعة أقضية وهي قضاء القدس ورام الله وأريحا وبيت لحم ويافا والرملة . وليافا امتياز شبيه باستقلال إداري . ويقسم اللواء الجنوبي إلى أربعة أقضية وهي قضاء غزة والمجدل وبئر السبع والجليل . ويقسم اللواء الشمالي إلى عشرة أقضية وهي حيفا وعكا وزمارين والناصرية وطبرية وصفد ونابلس وطولكرم وجنين وبيسان .

تقسيم الشرق العربي أي شرقي الأردن :

وتقسم حكومة الشرق العربي إلى أربعة ألوية وهي (١) لواء عمان ويتبعه قضاء مادبا وناحية زيزاء (الجيزة) ومركزه عمان . (٢) لواء الصلت ومركزه الصلت . (٣) لواء أربد ومن عمله أقضية جبل عجلون وجرش وأم قيس ومركزه أربد ، ويتبع المركز رأساً ثلاث نواح وهي الرمتا والكورة والغور ، ومن عمله قضاء جرش ناحية الزرقاء . (٤) لواء الكرك ويتألف

من قضاءي الكرك والطيفة ويتبع الكرك مباشرة ثلاث نواح : المزار ، السماكية ، الغور ، وأضيفت العقبة ومعان إلى الشرق العربي .

دولة سورية :

وتقسم دولة سورية إلى سبعة ألوية وهي لواء (١) دمشق و (٢) حوران (٣) حمص و (٤) حماة و (٥) حلب و (٦) دير الزور و (٧) الإسكندرونة. ويقسم لواء دمشق إلى ستة أقضية وهي (١) قضاء دومة وفيه ناحيتان « تل منين » و « دير سلمان » (٢) قضاء جيرود وفيه ناحية القطيفة و (٣) قضاء النبك وفيه ناحية يبرود و (٤) قضاء الزبداني و (٥) وادي العجم الذي جعل قضاء حرمون بعد وفيه ثلاث نواح وهي الطيبة ومركزها زاكية و «بيت جن» و «الدير علي» (٦) القنيطرة وفيه ناحية مجدل شمس .

ولواء حوران ويلحق بمركزه ناحيتا بصرى وطفس ويتبعه قضاءان ازرع والزوية وفي قضاء أزرع خمس نواح وهي نوى ، المسمية ، الصنمين ، اللجاء الجنوبية ، اللجاء الشمالية .

ولواء حمص ومن عمله خمس نواح وهي حسية ، الرستن ، عين ظاظ ، القصير ، جب الجراح . ويتبع حمص قضاء واحد وهو « القريتين » وفيه ناحية تدمر ويتبع لواء حماة ثلاث نواح وقضاء واحد فيه ثلاث نواح أيضاً فنواحي اللواء طار العلاء ، الحميرة ، بارين ، والقضاء سلمية وفيه ثلاث نواح : عين كاسون ، عقيربات ، معر شحور .

لواء حلب ويلحق به عشرة أقضية (١) جرابلس ولها ناحيتان ناحية قلقوم وناحية جسرين و (٢) جبل سمعان وفيه ثلاث نواح عذان ، الزربة ، أبو الظهور و (٣) الباب وفيه ناحيتا دير صافر ، صوسنباط و (٤) المعرة ولها ناحيتان الأندرين ، خوين الكبير و (٥) اعزاز وفيه ناحية نين و (٦) منبج وفيه ناحيتان أبو قلقل ، مسكنة و (٧) كرد طاغ وله أربع نواح ناحية فاطمة ، الجوم ، راجو ، بلبل و (٨) حارم وفيها أربع نواح كفر تخاريم ، باريشا ، سلقين ، ترمانيين و (٩) جسر الشغور وفيها ناحيتان دركوش ، المضيق و (١٠) إدلب

وفيها ثلاث نواحٍ أريحا، سرمين ، معرة مصرين، وأطلق على لواء حلب اسم ولاية حلب .

ويقسم لواء دير الزور إلى ستة أفضية جعلت مراكزها الآن (١) دير الزور . (٢) الرقة . (٣) الميادين . (٤) البوكمال . (٥) حسجة ، (٦) كرو . ويقسم قضاء دير الزور إلى أربع نواحٍ مراكزها في دير الزور وكسره ومراط وسوار . وقضاء الرقة إلى خمس نواحٍ مراكزها الرقة وخربة الرز ومرابط وأبو هريرة وسبخه . وقضاء الميادين إلى ناحيتين مركز أحدهما ميادين والثانية عشارة . وقضاء البوكمال إلى ناحيتين مركز أحدهما البوكمال والثانية الصلاحية . وقضاء حسجة إلى أربع نواحٍ مراكزها في شدادي وحسجة ورأس العين وعاموده . وقضاء كرو إلى ثلاث نواحٍ مراكزها كرو وعزنور وديرون اغا .

دولة جبل الدروز :

وتقسم دولة جبل الدروز إلى ثلاث عشرة ناحية وهي عري ، القرية ، صرخد ، ملسح ، سالة ، المجدل ، نجران ، عاهرة ، وادي اللوى ، الهيت ، شهبه ، سليم ، نمره ، ومركز الدولة قرية السويداء .

دولة لبنان الكبير :

يقسم لبنان الكبير إلى إحدى عشرة محافظة وتقسم كل محافظة إلى مديريات وهي (١) محافظة صيدا ومركزها مدينة صيدا ومن عملها مديرية النبطية ومديرية عدلون ومديرية جزين (٢) ومحافظة صور مركزها مدينة صور ويتبعها مديرية تبنين ومديرية علما ومركز المحافظة مدينة صور (٣) محافظة مرجعيون مركزها الجديدة ومن عملها مديرية حاصبيا (٤) محافظة بيروت مركزها مدينة بيروت (٥) محافظة الشوف مركزها بعقلين ويتبعها مديريات المختارة وشحيم وعين زحلته ورشميا والشويفات وعاليه ومديرية دير القمر المستقلة (٦) محافظة طرابلس ومركزها مدينة طرابلس ويتبعها مديريات حلبا وقبيات وسير (٧) محافظة المتن ومركزها بجنس ومن توابعها مديرية بكفيا وبرمانا وبسكنتاوحمانا (٨) محافظة بعلبك ومركزها مدينة بعلبك ويتبعها مديريات طليا ودير الأحمر والهامل

ورأس بعلبك (٩) محافظة زحلة ومركزها مدينة زحلة ويتبعها مديريات قب الياس وسغين وراشيا (١٠) محافظة كسروان ومركزها غادير وبيت خشبو ومن عملها مديريات جبيل وريفون والكفور وقرطبا (١١) محافظة البترون ومركزها مدينة البترون ومن عملها مديريات تنورين وبشري وأميون .

دولة العلويين :

تقسم حكومة العلويين إلى لوائين (١) لواء اللاذقية ومركزها مدينة اللاذقية وتنقسم إلى خمسة أفضية وهي اللاذقية وجبله وصهيون وقضاء المرقب مركز حكومته باناس وقضاء العمرانية ومركز حكومته مصياف (٢) لواء طرطوس ويقسم إلى ثلاثة أفضية وهي طرطوس وصافيتا وقصبته دريكيش والحصن وقصبته تل كلخ . أما جزيرة أرواد فمستقلة وتعد من دولة العلويين .

العقود والعهود الأخيرة (١)

صورة الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية لاجل تثبيت اتفاقية سايكس بيكو بواسطة السر ادوار غراي و م. كامبون في أيار سنة ١٩١٦

الرسالة الأولى :

من مسيو ا. كامبون إلى السر ا. غراي ٩ أيار ١٩١٦ . ١ - تميل فرنسا وبريطانيا العظمى إلى الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الألف والباء كما هو مبين في المصوّر بإمارة زعيم عربي وتقدمان لها الحماية . ويكون لفرنسا في منطقة الألف ولبريطانيا العظمى في منطقة الباء الحق الأول في عقد القروض وفي التزام المشاريع المحلية . وتقدم فرنسا في منطقة الألف وبريطانيا العظمى في منطقة الباء المستشارين الفنيين والإداريين حينما ترى الدولة العربية أو الحلف العربي ضرورة لذلك .

٢ - تفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء أن تعمل فيهما على ما ترغبان فيه أي أن تديرهما مباشرة أو غير مباشرة بالاشتراك مع العرب وتأسيس دولة عربية أو حلف من الدول العربية .

٣ - تدار المنطقة الحمراء بإدارة دولية ويترك أمر البت في تعيين شكلها إلى أن تتم المفاوضات مع روسيا وسائر الحلفاء ومندوبي شريف مكة .

٤ - تعطى بريطانيا العظمى : (أولاً) مرفأَي حيفا وعكا. (ثانياً) كمية

(١) رأينا إثبات هذه الوثائق التاريخية بنصوصها وإن كنا أشرنا إليها في متن التاريخ السياسي وذلك ليسهل الرجوع إليها .

معينة من ماء نهرى دجلة والفرات تؤخذ من منطقة الألف وتعطى لمنطقة الباء . وعلى حكومة جلالة الملك مقابل ذلك أن لا تفاوض في وقت من الأوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل أن توافق فرنسا على ذلك .

٥ - تكون الإسكندرونة مرفأً حراً للتجارة البريطانية ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات أو اختلاف في الرسوم الجمركية ، ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الإسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنها بالبحر أو بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء . لا فرق في أن تكون هذه البضائع واردة من المنطقة الحمراء أو صادرة إليها أو خاصة بمنطقة الألف أو الباء . تكون حيفا مرفأً حراً للتجارة الفرنسية وتجارة مستعمراتها وتجارة البلاد المشمولة بحمايتها ، ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات أو اختلاف في الرسوم الجمركية ، ويكون شحن البضائع منها وإليها مباحاً بالسكة الحديدية التي تمر بالمنطقة الحمراء . لا فرق في أن تكون هذه البضائع واردة أو صادرة من المنطقة الزرقاء أو من منطقة الألف أو الباء .

٦ - لا تمد سكة حديد بغداد بمنطقة الألف جنوباً إلى ما وراء الموصل ولا بمنطقة الباء شمالاً إلى ما وراء سامراء قبل أن يتم إنشاء السكة الحديدية بين حلب وبغداد عن طريق وادي الفرات وقبل أن يوافق الفريقان على ذلك التمديد .

٧ - يحق لبريطانيا العظمى وحدها أن تنشئ وتدير وتمتلك خطاً حديدياً يبتدىء من حيفا وينتهي بمنطقة الباء ، ولها الحق أيضاً أن تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط الحديدي متى شاءت ، ومن المعلوم عند الحكومتين أن هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فإذا تعذر مده فنياً في المنطقة الحمراء واقتضى الأمر لمروره بغيرها تسمح فرنسا بذلك .

٨ - تبقى تعرفه المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقاً لمدة عشرين سنة في المنطقة الحمراء والزرقاء والألف والباء ولا يصير فيها تغيير أو تبديل إلا بمعرفة الفريقين وموافقتهما .

لا توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة أعلاه ، و تحصل الرسوم بحسب الأصول في المرفأ الذي ترد إليه البضائع وتسلم بعد ذلك إلى الإدارة الداخلية التي تخصصها تلك البضائع .

٩ - من البديهي أن فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الأوقات بشأن النزاع عن مالها من الحقوق في المنطقة الزرقاء، ولا تتخلى عن هذه الحقوق إلا إلى الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة قبل أن توافق حكومة جلالة الملك على ذلك. وعلى حكومة جلالته أن تعمل بموجب هذه الشروط بالمنطقة الحمراء .

١٠ - يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية الحاميتان للدولة العربية على عدم السماح للدولة ثالثة أن تمتلك شيئاً في أراضي شبه جزيرة العرب وأن تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة إلى شرق ساحل البحر الأحمر، وهذا لا يمنع أن تعدل الحكومة البريطانية جبهة عدن بمقتضى الأصول الفنية والأحوال الخاصة بعد أن ثبتت ضرورة ذلك على أثر العداء التركي .

١١ - تجري المفاوضة مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية أو الدول العربية المتحدة كما في السابق باسم الدولتين.

١٢ - معلوم أن مراقبة توريد الأسلحة إلى البلاد العربية منوط بالدولتين .

الرسالة الثانية :

من مسيو ا. كامبون إلى السرا. غراي في ١٥ أيار سنة ١٩١٦ قبل أن تجاوب فخامتكم على رسالتنا في تاريخ ٩ أيار سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية أبديتكم رغبتكم في إضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي ستصبح فرنسية وفي المناطق التي ستسود فيها الإدارة الفرنسية ، فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك أن توافق أيضاً على نفس الشروط في المناطق الداخلة في دائرتها .

ولي الشرف أن أعلم فخامتكم أن الحكومة الفرنسية مستعدة أن تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي كانت تتمتع بها قبل الحرب في المناطق التي ستعطى لها (أي لفرنسا) أو المناطق التي ستشمل بعنايتها ، أما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والتمنية فستبقى كما في الماضي ، ومن المعلوم أن هذه الامتيازات لا تعني بقاء الامتيازات الأجنبية والامتيازات القضائية .

الرسالة الثالثة :

من السر ا. غراي إلى المسيو ا. كامبون في ١٦ أيار سنة ١٩١٦ يوافق
على نص المعاهدة كما جاءت في كتاب المسيو ا. كامبون في تاريخ ٩ أيار
سنة ١٩١٦ .

نسخة مختصرة عن دستور فلسطين الرسمي

ينص هذا النظام على تعيين رجل صالح لإدارة حكومة فلسطين يعرف بالمندوب السامي والقائد العام ، ويخوله السلطة اللازمة لتنفيذ جميع الواجبات المقررة بوظيفته ، وتطبيق شروط الانتداب الذي منحه دول الحلفاء السامية إلى بريطانيا العظمى ، وتأسيس وطن قومي لليهود .

ومنح المندوب السامي السلطة لتقسيم البلاد بموافقة الوزير إلى مقاطعات أو أجزاء إدارية على أسلوب ملائم لأعمال الإدارة ، وخول جميع الحقوق للتصرف بالأراضي العامة أو بما له علاقة فيها ، وبجميع الحقوق لاستثمار المناجم والمعادن على اختلاف أنواعها وإعطاء امتيازات شرعية لأي كان لاستخراجها ، وله الحق أن يهب الأراضي العامة والمعادن والمناجم ، ويؤجرها أو يسمح باستثمارها مؤقتاً بالشروط التي يريتها ، وله الحق في تعيين موظفي الحكومة بعد مراعاة أوامر الوزير بالأحوال التي يراها مناسبة ، وأن يعين واجباتهم ويبقى هؤلاء الموظفون في مراكزهم ما دام المندوب السامي راضياً عن أعمالهم . ويؤلف مجلس تنفيذي لمساعدة المندوب السامي على الطريقة التي تشير بها حكومة جلالة الملك . ويؤلف اعتباراً من التاريخ الذي يعينه المندوب السامي مجلساً تشريعياً لفلسطين يستعاض به عن المجلس الاستشاري وتكون له السلطة التامة لسن القوانين الضرورية للمحافظة على الأمن والسلام وانتظام الحكومة ، بشرط أن لا يخالف التعليمات المعطاة من حكومة جلالة الملك ، وأن لا يسن قانوناً يمس الحرية الشخصية أو يقيد الحرية الدينية أو يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنسية أو الديانة أو اللغة أو يخالف نظام الانتداب الموضوع لفلسطين .

لا تنفذ القوانين التي يسنها هذا المجلس قبل أن يصادق عليها المندوب السامي وتقرها حكومة جلالة الملك .

يحتفظ المندوب السامي بالقوانين التي أجازها المجلس التشريعي لموافقة جلالته عليها ويحتفظ أيضاً بالأمر التي لها مساس بنظام الانتداب . ويحتفظ جلالته الملك لنفسه بحق رفض أي قانون قد يكون المندوب السامي وافق عليه في خلال سنة واحدة من تاريخ الموافقة عليه ويعلن رفضه إياه بواسطة كاتم السر العام .

يؤلف المجلس التشريعي من ٢٢ عضواً عدا المندوب السامي، منهم عشرة أعضاء من الموظفين واثنا عشر من غير الموظفين ، وينتخب الغير موظفين بموجب الأوامر التي تصدر من مجلس الملك الخاص ، أو بموجب ما يوضع من القوانين والأنظمة من حين إلى آخر بشأن هذه الانتخابات ، ويكون الأعضاء الموظفون الأشخاص الذين يشغلون وظائف كاتم السر العام والنائب العام ومدير المالية ومفتش الشرطة والسجون ومدير الصحة ومدير الأشغال العامة ومدير المعارف ومدير الزراعة ومدير الكمارك مدير التجارة والصناعة .

المحاكم الملكية والشرعية

تؤلف محاكم صلح في كل قضاء وناحية ويكون لها السلطة الخاصة بقانون حكام الصلح العثماني كما هو معدّل بموجب القوانين والأنظمة النافذة الآن . وتؤلف محاكم مركزية في الأقضية التي يعينها المندوب السامي ولها الحق في رؤية جميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح في ذلك القضاء والحق في رؤية جميع القضايا الجنائية الخارجة عن وظيفة محكمة الجنايات . وتؤلف محكمة جنايات لها السلطة التامة في رؤية الجرائم المعاقب عليها بالقتل والجرائم الأخرى التي ينص عليها القانون الخاص .

وللمندوب السامي أن يؤلف بأمر منه محاكم أراضٍ كلما دعت الحاجة إلى ذلك للنظر في المسائل المتعلقة بملكية الأموال الغير المنقولة .

وتؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا وتعين صورة تأليفها بقانون خاص ويكون لها صفة المحاكم الاستثنائية .

وللمحاكم الشرعية الإسلامية وحدها الحق في رؤية الدعاوي المتعلقة في الأحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصايا الخ . ولمحاكم الطائفة اليهودية الدينية وحدها أن تنظر في استماع الدعاوي المتعلقة بالأحوال الشخصية . ولمحاكم الطوائف المسيحية المختلفة وحدها أن ترى مسائل الزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصايا وتنظر في الأوقاف الخ . إذا شملت قضية تتعلق بالأحوال الشخصية أشخاصاً من طوائف دينية مختلفة يجوز لأي خصم أن يقدم طلباً إلى قاضي القضاة وهذا يعين بمساعدة مستشارين من الطوائف المختلفة المحكمة التي لها السلطة في استماع تلك القضية . وإذا قامت شبهة حول قضية من القضايا الشخصية الداخلة في اختصاص محكمة دينية تحال القضية إلى محكمة خاصة يعين شكلها بقانون خاص .

بعض مواد عامة

يجب أن تنشر باللغة الإنكليزية وبالعربية وبالعبرية جميع القوانين والإعلانات الرسمية والنماذج التي تصدرها الحكومة وجميع الإعلانات الرسمية التي تعلنها السلطات المحلية والبلديات في المناطق التي يعينها المندوب السامي بأمر منه . ويجوز استعمال اللغات الثلاث في المباحثات والمناقشات التي تدور في المجلس التشريعي وفي دوائر الحكومة ومحاكمها مع مراعاة الأنظمة التي تسن من وقت إلى آخر .

يحق لجميع سكان فلسطين أن يتمتعوا بالحرية الشخصية التامة والحرية الدينية المطلقة مع مراعاة حفظ النظام العام والآداب العامة ويحق لكل طائفة دينية معترف بها من الحكومة أن تتمتع بالاستقلال الذاتي لإدارة شؤونها الداخلية بعد مراعاة نصوص كل قانون وأمر يصدره المندوب السامي .

إذا رأت طائفة دينية أو فريق كبير من أهالي فلسطين أن شروط الانتخاب لا تنفذها حكومة فلسطين كما يجب ، فلها الحق في رفع مذكرة بواسطة عضو في المجلس التشريعي إلى المندوب السامي فينظر في هذه المذكرة على الطريقة التي يعينها جلالة الملك وفقاً للاصول التي وضعها مجلس عصبة الأمم .

المعاهدة البريطانية الفرنسية

المنعقدة في ٢٣ كانون الاول سنة (١٩٢٠) التي تبحث في بعض الشؤون المهمة مما له علاقة بالانتداب على سوريا ولبنان وفلسطين والعراق .

أنابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية الزيرين المفوضين الواضعين اسميهما أدناه ليحلا جميع الأمور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق وفرنسا على سوريا ولبنان في المجلس الأعلى الذي اجتمع في سان ريمو وقد اتفقتا على الشروط الآتية :

١ - تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الفرنسي أي سوريا ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني أي فلسطين والعراق كما يلي :

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر الى حدود ولايتي ديار بكر والموصل القديمة، ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوي ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي فيترك فيها جميع الأراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بالبوكمال ويمتد باستقامة الى أمتار فجنوب جبل الدرروز ومن هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائراً الى جنوب خط السكة الحديدية وموازياً له . وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي ويبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الفرنسية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الإمكان أن تمتد في وادي اليرموك سكة حديدية في الأراضي المشمولة بالانتداب البريطاني وستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين أن يبنا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية ليتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحريّة ومن الغرب يسير الخط من سمخ ماراً داخل بحيرة طبرية فأول وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا ، الى نبعه ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الفرنسية لغاية بانياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية ، وسيوضع لهذا

الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع أطراف البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي كصور وصيدا والمناطق الواقعة الى الغرب والى الشرق من بانياس .

وتفصل التخوم بالمطلة بمفرق المياه في وادي الأردن وحوض نهر الليطاني وتسير جنوباً مع وادي الأردن فوادي فرعم ووادي كركرة اللذين يبقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليللونة ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الفرنسية ويصل الحد الى شاطيء البحر المتوسط في ميناء رأس الناورة التي تظل في المنطقة الفرنسية .

٢ - - تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة أشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الفرنسي والمناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بينها في المادة الأولى، وتتألف هذه البعثة من أربعة أعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية اثنين منهم وتعين الاثنان الآخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المتدبتين .

إذا وقع خلاف بين أعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الأمم ويكون قرارها فيه قطعياً

تقدم بتقارير البعثة النهائية الحدود الثابتة التي عينت أخيراً وترتبط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل أعضاء البعثة ، ويعمل ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الأمم وتحفظ النسختين الأخرين الحكومتان المتدبتان .

٣ - - توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الفرنسية المتدبة لأجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لثلا يقلل إبرازها لحيز الفعل مياه دجلة والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني .

٤ - - توافق الحكومة البريطانية بالنظر إلى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة إلى خليج الإسكندرونة على أن لا تفاوض أحداً بخصوص التنازل عنها أو تسليمه إياها قبلما توافق فرنسا على ذلك .

هـ - أ : توافق الحكومة الفرنسية على وضع ترتيب حرّ يبين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالاً مشتركاً .
تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه إدارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسي بأسرع ما يمكن أي بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لإدارة السكة الحديدية البريطانية أن تسير قطاراتها ذهاباً وإياباً بين هاتين المنطقتين وفقاً لمصالحها ، وتنقل البضائع التجارية إلى المنطقة المشمولة بالانتداب الفرنسي بواسطتها ، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والإدارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية ، أما إذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة أشهر من تنفيذ الانتداب بين الإدارتين المذكورتين أعلاه فستعين جمعية الأمم حكماً يفصل الخلاف وعندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضی الطرفين .

ب : يعمل بموجب هذه الاتفاقية إلى أجل غير مسمى وتصحح أحياناً بحسب الحال السكة الحديدية ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائماً .

ت : توافق الحكومة الفرنسية على تعيين بعثة خاصة تدرس الأراضي ، وبعد درسها تعين الحدود في وادي اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية يمكن معها بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الأنابيب التي توصل بين فلسطين وبين سكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطاني ، وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي ، ويجب على بريطانيا العظمى إحقاق حقها هذا ببرهه لا تتجاوز عشر سنوات .

تألف البعثة التي ذكرناها أعلاه من عضو بريطاني وعضو فرنسي يضاف إليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هذا إن رأت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لزوماً لذلك .

ج : إذا اقتضى الأمر لأسباب فنية أن يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الأماكن المشمولة بالانتداب الفرنسي توافق الحكومة الفرنسية على مرور

هذا الخط بتلك المناطق وتقدم للحكومة البريطانية أو لعمالها المساعدات اللازمة.
 د : إذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة أن تمد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفذ الحكومة الفرنسية الشروط التي اشترطتها على نفسها بالفقرة الأولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة أشهر من إنشاء السكة .

هـ : توافق الحكومة الفرنسية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي أن تصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية .

٦ - تم الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل أعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو .

٧ - لا تضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسية موانع في منطقتي انتدابهما لجميع الموظفين اللازمين لإدارة خط السكة الحجازية أو لاستخدامهم .
 تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي بمنطقة الانتداب البريطاني والفرنسي لثلاث تأخر أعمال هذا الخط .
 توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية عند اللزوم على أن تعقد اتفاقية مع الحكومات المحلية استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر بإحدى مناطق الانتداب .

٨ - يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب مرور ستة أشهر من إمضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص أحوال مياه نهر الأردن الأعلى ونهر اليرموك وتوابعهما لاستخدامهما في الري ولأجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

تزود الحكومة الفرنسية الاخصائيين الذين تعينهم للدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين المياه الزائدة خدمة لمنافعها العامة إذا لم يحصل الاتفاق المطلوب عند نهاية هذا الدرس وتعرض المسألة على الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لتدرساها وتقررا فيها قراراً نهائياً .

تشرك إدارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الأعمال في دفع نفقات بناء الترع والحلجان والسدود والخزانات والأحواض والأقنية وخطوط الأنابيب

الحديدية الخ . وتشترك في جميع الأعمال التي من شأنها إنبات الحراج وتنشيط تربيتهما .

٩ - توافق الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية عملاً بنص المادة ١٥ والمادة ١٦ من نظام الانتداب الفلسطيني وعملاً بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام الانتداب العراقي وعملاً بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبناني السوري وعملاً أيضاً بموجب الحق العام المعطى من الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التي تخص أناساً من التبعة الفرنسية أو من التبعة البريطانية على المثابرة في إدارة هذه المدارس في منطقتي انتدابهما ، ويسمح بتعليم اللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية في هذه المدارس .

لا تعني هذه المادة بحال من الأحوال منح رعايا إحدى اللولتين المشار إليهما حق فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الأخرى .

صك الانتداب الفرنسي

« على سورية ولبنان »

إن مجلس جمعية الأمم :

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على أن أراضي سورية ولبنان التي كانت فيما مضى جزءاً من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعيينها الدول المشار إليها إلى دولة منتدبة موكول إليها نصح الأهالي ومعاونتهم وإرشادهم في إدارتهم وفقاً لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد قررت أن الانتداب على البلاد الآنفة الذكر يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسية وقد قبلته .

ولما كان نص هذا الانتداب المبين في المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية وعرض للتصديق على مجلس جمعية الأمم .

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد بإجراء هذا الانتداب باسم عصبة الأمم طبقاً للمواد المذكورة .

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآنفة الذكر (الفقرة الثامنة) تقضي بأنه إذا كانت درجة السلطة والمراقبة والإدارة التي تجريها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقاً بين أعضاء جمعية الأمم فالمجلس هو الذي ينظم ذلك .

يوضع نصوص الانتداب كما يلي موافقاً عليه :

١ - تضع الحكومة المنتدبة في برهة ثلاث سنوات اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستوراً نظامياً لسورية ولبنان .

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية وتراعى فيه حقوق جميع السكان القاطنين في هذه البلاد ومصالحهم . وتشرع الحكومة المنتدبة في إيجاد الوسائل التي من شأنها أن تسهل تقدم سورية ولبنان وريقيهما حكومتين مستقلتين وتسيرهما بموجب روح هذا الصك إلى أن يتم الشروع في تنفيذ ذلك الدستور . ويجب على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلي قدر ما تسمح به الحال

٢ - يمكن للحكومة المنتدبة أن تبقي جنودها في البلاد للدفاع عنها . وقد حُوت حق تنظيم جند من المليس المحلي للمحافظة على الأمن والدفاع عن الحوزة كما تقتضيه الأحوال وذلك ريثما تنفذ الدستور ويُعاد الأمن إلى نصابه ، وتنظم جنود المليس المحلي من سكان البلاد فقط .

ترتبط هذه الجتود فيما بعد بالإدارات المحلية تحت إشراف الدولة المنتدبة ولا يجوز استخدامها لأغراض أخرى سوى الأغراض المعنية فيما تقدم إلا بعد موافقة الدولة المنتدبة .

لا مانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات القوات التي تضعها الدولة المنتدبة في البلاد .

يجق للدولة المنتدبة في كل حين أن تستعمل المواني والخطوط الحديدية ووسائل النقل الموجودة في سورية ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمهمات والوقود اللازمة لها .

٣ - يعهد إلى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية ولبنان الخارجية ولها حق إصدار البراءات إلى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الأجنبية ، وتشمل الدول المنتدبة بحمايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه الديار .

٤ - الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن أي جزء من أجزاء سورية ولبنان وعن عدم تأجيرها أو وضعه تحت سيطرة دولة أجنبية .

٥ - إن إعفاء الأجانب من الأمور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الأجنبية وبفضاء القنصلات والحماية التي كانوا يتمتعون بها أيام الدولة العثمانية لا تطبق في سورية ولبنان غير أن المحاكم الأجنبية تستمر على القيام بوظيفتها إلى أن يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة .

إن الدول التي كان أتباعها يتمتعون بالامتيازات الأجنبية الميسنة أعلاه أول أب سنة ١٩١٤ والتي لم تتنازل عن هذه الامتيازات أو توافق على عدم تطبيقها لأجل محدود ، ستمنح ثانية جميع هذه الامتيازات أو بعضها بعد انقضاء أمد الانتداب بالصورة التي يتم عليها الاتفاق بين الدول ذوات الشأن .

٦ - تضع الحكومة المنتدبة في سورية ولبنان نظاماً قضائياً يصون حقوق الوطنيين والأجانب على السواء .

يحافظ على أحوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية وخصوصاً إدارة الأوقاف التي تدار وفقاً للشريعة ولإرادة الواقف .

٧ - تكون معاهدات تسليم الرعايا الأجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الأجنبية مرعية في سورية ولبنان إلى أن يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن .

٨ - تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير وحرية القيام بجميع شعائر العبادة التي لا تخل بالأمن ولا بالأداب العامة ولا يكون تمييز من أي نوع بين سكان سورية ولبنان بسبب الجنس أو الدين أو اللغة .

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام ويكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية . ولا تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم أبنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقاً لقانون التعليم العام الذي تعينه الحكومة .

٩ - تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل في أعمال المجالس الإدارية وفي إدارة الطوائف الدينية وفي إدارة المعابد المقدسة التي تخص إحدى الطوائف وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد .

١٠ - تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سوريا ولبنان لأجل محافظتهم على الأمن وعلى الحكم بطريقة مرضية . ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيد أعضائها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج أعمالهم عن أصول الدين .

يمكن لهذه البعثات الدينية أن تشتغل بأمور الإسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة أو الحكومة المحلية .

١١ - يجب على الحكومة المنتدبة أن لا تميز في سوريا ولبنان بين أتباعها

وأتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الأمم ، وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الأجنبية على أنواعها وأن لا تميز أيضاً بين أتباع أي دولة أجنبية وبين أتباعها في الأمور التي لها مساس بالضرائب والتجارة والملاحة وتعاطي الحرف والمهن أو في معاملة السفن البحرية أو الوسائط الهوائية وكذلك يجب أن لا يكون تمييز في سوريا ولبنان بين البضائع التي يكون مصدرها أو مقصدها ممالك تلك الدول المذكورة ويجب إطلاق حرية المرور التجارية في عبر المنطقة المشار إليها بشروط عادلة .

للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر أعلاه أن تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التي تراها ضرورية أو أن توعد للحكومات المحلية أن تفرضها ، وللدولة المنتدبة أو للدول المحلية التابعة لمشورتها أن تعقد بسبب الحوار اتفاقاً جمر كياً خاصاً مع البلاد المتاخمة لها .

وللحكومة المنتدبة عملاً بشروط البند الأول من هذه المادة أن تتخذ الوسائل الفعالة التي تعتقد صلاحها لترقية الموارد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان .
 تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون النظر الى تابعة الأشخاص الداخلة دولهم في عداد أعضاء جمعية الأمم بشرط أن لا تمس هذه الامتيازات سلطة الحكومة المحلية ، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام . لا تمس هذه الفقرة تحديد سلطة الدولة المنتدبة في إيجاد الاحتكارات المالية التي ترقى مصالح سورية ولبنان وتحفظ مواردهما المالية والمحلية ، وعلى الحكومة أن تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة أو بواسطة شركة خاصة تعمل تحت إشرافها على شرط أن لا يوجد هذا العمل لا عمداً ولا بالواسطة احتكاراً خاصاً بالدولة المنتدبة أو برعاياها ، او يمنحها ميزة في الأمور الاقتصادية والتجارية والصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع .
 ١٢ - تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية ولبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن أو عساه يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الأمم بخصوص الاتجار بالرفيق ، وبالعقاقير ، وبالسلاح ، والمعدات الحربية ، وبالمساواة التجارية ، وحرية العبور ، والملاحة ، والطيران ، والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية ، وباتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع والآداب والفنون .

١٣ - تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الأحوال الاجتماعية والدينية اتحاد سورية ولبنان في الأمور ذات الفوائد العامة التي تقرها جمعية الأمم لمنع الأمراض ومقاومتها وفي جملتها أمراض الحيوان والنبات .

١٤ - تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالأثار والعاديات ينطبق على الأحكام الآتية ويضمن هذا القانون لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية . (١) يجب أن يفهم من لفظة « العاديات » كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ . (٢) إن التشريع لحماية العاديات يجب أن يكون أجدر بالتشجيع منه بالتهديد ويجب على كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الإذن المذكور في الفقرة الخامسة أن يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه وينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه ، (٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات إلا لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن أخذه . ولا يتأتى إخراج شيء من العاديات من البلاد إلا باذن تلك السلطة . (٤) كل شخص يتلف أو يثلّم قطعة من العاديات تعمداً أو إهمالاً يجب أن يجازى جزاء معيناً . (٥) ممنوع كل حفر أو تنقيب لإيجاد العاديات إلا باذن من السلطة ذات الشأن ويغرم المخالف لذلك غرامة مالية . . (٦) توضع شروط عادلة للسماح بتزعم الملكية مؤقتاً أو أبدياً في الأراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية . (٧) لا تعطى الرخصة بإجراء الحفريات إلا لأشخاص يقدمون أدلة كافية على خبرتهم الأثرية وعلى الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص أن لا تستثني علماء أمة من الأمم . (٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي . فإذا تعذر الاقتسام لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

١٥ - عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عنه في المادة الأولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي أنفقتها الحكومة المنتدبة لأجل تنظيم الإدارة وترقية الموارد المحلية والقيام بالمشاريع العامة التي أفادت إفادة خاصة وترسل نسخة عن هذه التراتيب إلى مجلس جمعية الأمم .

١٦ - تكون اللغة الفرنسية واللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين في سورية ولبنان .

١٧ - تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتها خلال السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب ويرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والأنظمة التي تسن سنوياً .

١٨ - على مجلس جمعية الأمم أن يوافق على كل تعديل يطرأ على شروط هذا الصك .

١٩ - يستعمل مجلس جمعية الأمم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب لتحافظ حكومة سورية ولبنان في المستقبل على علاقتهما المالية ومنها الرواتب القانونية التي منحتهما إدارة سورية ولبنان أيام الانتداب .

٢٠ - توافق الدولة المنتدبة إذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخلة في عضوية جمعية الأمم بخصوص تفسير شروط صك الانتداب أو تطبيقها على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشرة من مواد عهد جمعية الأمم هذا إذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بالمفاوضات .

صك الانتداب

« على فلسطين »

لما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد اتفقت - تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم - على أن تعهد إلى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة في إدارة شؤون فلسطين التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التي تعينها الدول المذكورة .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد وافقت أيضاً على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وصادقت عليه الدول المذكورة بأن ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي مع البيان الجلي بأن لا يعمل ما يعبث بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى .

ولما كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين والبواغث التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك الديار .

ولما كانت دول الحلفاء اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المنتدبة لفلسطين .

ولما كان الانتداب على فلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعرض على مجلس جمعية الأمم لموافقته عليه .

ولما كانت الحكومة البريطانية قد قبلت الانتداب على فلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جمعية الأمم طبقاً للنصوص والشروط التالية .

ولما كانت المادة ٢٢ المتقدمة الذكر (في الفقرة ٨) تنص على أن درجة السلطة والسيطرة أو الإدارة التي تكون للدولة المنتدبة إذا لم يتم الاتفاق عليها بين أعضاء جمعية الأمم فإن مجلس جمعية الأمم ينص على ذلك نصاً صريحاً. فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يأتي :

١ - للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والإدارة عدا ما وضعت لهما حدود في نصوص صك الانتداب هذا .

٢ - تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في حالة سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في ديباجة هذا الصك وترقية أنظمة الحكم الذاتي وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين دون النظر إلى الأجناس والأديان .

٣ - على الدولة المنتدبة أن تنشط الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الأحوال .

٤ - يعترف « بهيئة » يهودية صالحة (لائقة) كهيئة عمومية لتشير وتعاون في إدارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين وتساعد وتشارك في ترقية القطر تحت سيطرة حكومته دائماً .

ويعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها في ما تقدم ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلها صالحة لهذا الغرض وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي .

٥ - تسأل الدولة المنتدبة عن عدم التنازل عن شيء من أرض فلسطين أو تأجيرها أو وضعه تحت تصرف حكومة دولة أجنبية .

٦ - على حكومة فلسطين مع كفالة عدم إلحاق الضرر بحقوق جميع طوائف الأهالي أن تسهل هجرة اليهود (إلى فلسطين) في أحوال مناسبة وتنشط بالاتفاق مع الهيئة اليهودية المشار إليها في المادة ٤ استقرار اليهود في الأرض

الزراعية وفي جملتها الأراضي المدورة والأراضي البور (الموات) التي تستغني عنها الأعمال العامة .

٧ - يتعين على حكومة فلسطين أن تسن قانوناً للجنسية يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعية الفلسطينية .

٨ - إن امتيازات الأجانب ، وفي جملتها المحاكم القنصلية وحماية القنصليات ورعاياها ، وهي التي كان الغرباء يتمتعون بها بحكم الامتيازات أو العرف في السلطنة العثمانية لا تنفذ في فلسطين ولكن متى انتهى أجل الانتداب فإن هذه الامتيازات تعاد برمتها أو مع التعديل الذي يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن إلا إذا كانت الدول التي ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في أول آب ١٩١٤ قد سبقت فتنازلت عن حق رد تلك الامتيازات أو وافقت على عدم تطبيقها لأجل مسمى .

٩ - الدولة المنتدبة مسؤولة عما ينشأ في فلسطين من نظام قضائي يكفل حقوق الأجانب والوطنيين ويضمن كل الضمان احترام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية لجميع الشعوب والطوائف ولا سيما إدارة الأوقاف التي تسير على الشريعة الدينية وشروط الواقفين .

١٠ - تراعى المعاهدة المبرمة بين الدولة المنتدبة وسائر الدول الأجنبية شأن تسليم الرعايا الأجانب المطلوبين من فلسطين إلى أن تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين .

١١ - تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور في ما له علاقة بترقية البلاد ولها السلطة التامة لتدبير ما يلزم لوضع يد الحكومة أو سيطرتها على أحد موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة أو التي ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التي أخذتها الدولة المنتدبة على نفسها . وعليها أيضاً أن توجد نظاماً للأراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة أمور أخرى ومنها المنافع التي تنجم عن تشجيع إكثار المهاجرة واستغلال أعظم قدر مستطاع من الأرض .

ويجوز للإدارة أن تتفق مع الهيئة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على

أن تجري أو تستثمر بالإنصاف والعدل الأعمال والمصالح والمنافع العمومية وترقي المرافق الطبيعية حيث لا تتولى الحكومة هذه الأمور مباشرة بنفسها . ويشترط في هذه الاتفاقات أن لا تتجاوز الأرباح التي توزعها الهيئة القائمة بالعمل مباشرة أو غير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال . وكل ما يزيد على هذه الفائدة يستخدم فيما ينفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه حكومتها .

١٢ - يعهد إلى الدولة المنتدبة بالسيطرة على علاقات فلسطين الخارجية وحق إصدار البراءات إلى القناصل الذين تعينهم الدول الأجنبية وللدولة المنتدبة الحق أيضاً في أن تشمل رعايا فلسطين ، وهم في خارج ديارهم بحماية سفرائها وقناصلها .

١٣ - تتقلد الدولة المنتدبة كل التبعة المختصة بالأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية في فلسطين ، وهذا يتناول المحافظة على الحقوق الموجودة وضممان الوصول إلى المواضع المقدسة والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على الأمن العام والآداب وتُسأل الدولة المنتدبة أمام جمعية الأمم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك على أن لا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد حسبما تراه الدولة المنتدبة لتنفيذ نصوص هذه المادة وبشرط أن لا يفسر شيء في هذا الانتداب تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض للأماكن الإسلامية أو التدخل في إدارة المشاهد الإسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات .

١٤ - تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس الحقوق والدعاوي المتعلقة بالأماكن المقدسة والحقوق والدعاوي الخاصة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين وتعيين وظائفها ويعرض الأسلوب المتبع في تعيين هذه اللجنة وتأليفها وعملها على مجلس جمعية الأمم ليوافق عليها ولا تعين اللجنة ولا تشرع بعملها من غير موافقة المجلس .

١٥ - على الدولة المنتدبة أن تتحقق أن الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب فقط ويجب أن لا يكون هناك تمييز من أي نوع كان بين سكان فلسطين بسبب

الجنس أو الدين أو اللغة وأن لا يحرم أحد من دخول فلسطين بسبب اعتقاده الديني فقط .

لا تحرم طائفة من الطوائف من حق المحافظة على مدارسها لتعليم أبنائها بلغتهم إذا كان ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي تفرضها الإدارة (الحكومة) .

١٦ - تُسأل الدولة المنتدبة عما تقتضيه المحافظة على النظام العام والحكم المنتظم من الإشراف على الهيئات الدينية والخيرية التي لجميع المذاهب في فلسطين وبمراعاة هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ تدابير في فلسطين تعوق أعمال هذه الهيئات أو تتعرض لها أو تجحف بممثل لها أو عضو فيها بسبب دينه وجنسيته .

١٧ - يجوز لإدارة (حكومة) فلسطين أن تنظم على قاعدة اختيار القوات اللازمة للمحافظة على السلم والنظام وللدفاع عن البلاد أيضاً على أن تكون تحت إشراف الدولة المنتدبة ، ولا يجوز لإدارة فلسطين استخدام هذه القوات لأغراض أخرى غير الأغراض المعينة في ما تقدم إلا بموافقة الدولة المنتدبة وفي ما عدا هذه الأغراض لا يجوز لإدارة فلسطين أن تجمع قوات عسكرية أو بحرية أو جوية ولا أن تبقئها عندها .

وليس في هذه المادة ما يمنع إدارة فلسطين من الاشتراك في نفقات قوات الدولة المنتدبة في فلسطين . ويحق للدولة المنتدبة في كل وقت أن تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية وموانئها لحركات القوى المسلحة ونقل الوقود والمهمات .

١٨ - على الدولة المنتدبة أن تتكفل بعدم التحيز في فلسطين لرعايا أية دولة تكون عضواً في جمعية الأمم (ومن ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) إذا قيسوا برعايا الدولة المنتدبة أو أية دولة أجنبية كانت في الأمور المتعلقة بالضرائب أو التجارة أو الملاحة أو تعاطي الصنائع أو المهن أو في معاملة السفن التجارية أو الطيارات الأهلية . وكذلك يجب أن لا يكون هناك تحيز في فلسطين ضد عروض يكون منشؤها في بلاد من بلدان الدول المذكورة أو تكون مرسلة إليها . وتطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة .

ومع مراعاة ما تقدم وسائر شروط صك الانتداب هذا يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض بإشارة الدولة المنتدبة من الضرائب والرسوم الجمركية ما تراه ضرورياً وتتخذ من التدابير ما تظنه صالحاً لزيادة ترقية الموارد الطبيعية في البلاد وصيانة مصالح السكان ويجوز لها أن تعقد بإشارة الدولة المنتدبة اتفاقاً جمركياً خاصاً مع أي دولة كانت أملاكها كلها داخلة في تركيا الآسيوية أو شبه جزيرة العرب في سنة ١٩١٤ .

١٩ - تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن الإدارة (إدارة فلسطين) على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المعقودة حتى الآن أو التي قد تعقد بموافقة جمعية الأمم في المستقبل من أجل الاتجار بالرفيق والاتجار بالسلح والذخيرة أو الاتجار بالمخدرات أو تتعلق بالمساواة التجارية وحرية المرور (الترانسيت) والملاحة والطيران وبالمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية وبحقوق أصحاب الآثار الأدبية والفنية والصناعية .

٢٠ - تعاون الحكومة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين في تنفيذ كل سياسة مشتركة تقرها جمعية الأمم لمنع انتشار الأمراض وفي جملتها أمراض النباتات والحيوانات ومكافحتها بقلر ما تسمح به الأحوال الدينية والاجتماعية وغيرها .

٢١ - تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات ينطبق على الأحكام الآتية ويمتع هذا القانون رعايا الدول الداخلة في جمعية الأمم بالمساواة في المعاملة فيما له مساس بالحفريات والتنقيبات الأثرية :

(١) يجب أن يفهم من لفظة « العاديات » كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ .

(٢) يجب أن يكون قانون حماية العاديات أقرب إلى التشجيع منه إلى التهديد ، وعلى كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الإذن المذكور في الفقرة الخامسة أن يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه وينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه .

(٣) لا يمكن نقل ملكية شي من العاديات إلا لمصلحة السلطة ذات الشأن

ما لم تعدل هذه السلطة عن أخذه ولا يمكن إخراج شيء من العاديات من القطر إلا بإذن تلك السلطة .

(٤) يجازى كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمداً أو إهمالاً جزاء معيناً .

(٥) ممنوع إجراء حفر أو تنقيب للظفر بالعاديات إلا بإذن من السلطة ذات الشأن ويغرم المخالف غرامة مالية .

(٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتاً أو دائماً في الأراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية .

(٧) لا تعطى الرخصة بإجراء الحفريات إلا لأشخاص يقدمون أدلة كافية على اختبارهم الأثري . وعلى الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص أن لا تستثني علماء أمة من الأمم .

(٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي . فإذا تعذرت القسمة لأسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

٢٢ - تكون الإنكليزية والعربية والعبرانية اللغات الرسمية في فلسطين فكل عبارة أو كتابة بالعربية على طوابع أو عملة في فلسطين تكرر بالعبرانية وكل عبارة أو كتابة بالعبرانية تكرر بالعربية .

٢٣ - تعترف إدارة فلسطين بالأيام المقدسة (الأعياد) عند كل طائفة من طوائف فلسطين أيام راحة مشروعة لأفراد تلك الطائفة .

٢٤ - تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الأمم تقريراً سنوياً يرتاح إليه المجلس تذكر فيه التدابير المتخذة خلال السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب وترسل نسخ من جميع الأنظمة والقوانين التي تسن أو تصدر أثناء السنة مع التقرير .

٢٥ - يحق للدولة المنتدبة بإذن مجلس جمعية الأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ما تراه من هذه الشروط غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة في الأملاك الواقعة بين نهر الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الأمر ، وأن
(٣-١٧)

تضع من التدابير لإدارة هذه الأملاك ما تراه ملائماً لتلك الأحوال بشرط أن لا يعمل عمل يخالف شروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢٦ - توافق الدولة المنتدبة إذا وقع نزاع بينها (الدولة المنتدبة) وبين عضو آخر في جمعية الأمم يتعلق بتفسير شروط صك الانتداب أو تطبيقها على عرض هذا النزاع على المحكمة الدائمة للعدل الدولي المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الأمم إذا لم يمكن حله بالمفاوضات .

٢٧ - يلزم موافقة مجلس جمعية الأمم على كل تعديل في شروط صك الانتداب هذا .

٢٨ - من التدابير في حالة انتهاء الانتداب المخول بموجب هذا الصك للدولة المنتدبة يتخذ مجلس جمعية الأمم ما يراه ضرورياً لصيانة استمرار الحقوق المكتسبة في المادتين ١٣ و ١٤ على الدوام بضمان الجمعية ويعمل على أن يكفل احترام حكومة فلسطين الاحترام التام للعهود المالية التي أخذتها إدارة فلسطين على عاتقها في عهد الانتداب وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في الراتب والمكافأة تودع الصورة الأصلية من هذا الصك في محفوظات جمعية الأمم وترسل صور مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجمعية الأمم إلى جميع أعضاء الجمعية .

صك الانتداب

« على شرقي الأردن »

لأمين سر جمعية الأمم العام بخصوص تطبيق الانتداب الفلسطيني في شرق الأردن في ٢٣ أيلول سنة ١٩٢٢ .

يتشرف أمين سر جمعية الأمم العام بعرض مذكرة لأعضاء الجمعية قدمتها الحكومة البريطانية في ١٦ أيلول سنة ١٩٢٢ بخصوص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني .

وقد صادق المجلس على هذه المذكرة بموجب قرار قرره أثناء انعقاده في لندن في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ بشأن تطبيق الانتداب على فلسطين وسورية .

* * *

« مذكرة العضو البريطاني »

١ - تنص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني على ما يأتي :
يحق للدولة المنتدبة بإذن جمعية الأمم أن تؤجل أو توقف تطبيق ما تراه غير مطابق للأحوال المحلية الحاضرة من الشروط ، وذلك في الأملاك الواقعة بين نهر الأردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين بعد وأن تضع من التدابير لإدارة هذه الأملاك ما تراه ملائماً لتلك الأحوال على أن لا يعمل عمل يخالف شروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢ - تطلب حكومة جلالة الملك من المجلس وفقاً لشروط هذه المادة أن يقرر القرار الآتي :

لا تطبق الشروط الآتية على نظام الانتداب الفلسطيني في القطر المعروف

بشرق الأردن الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادي عربة وبحر الميت ونهر الأردن حتى النقطة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية .

وتلك الشروط الملغاة هي :

الشرح الثاني والثالث من الديباجة .

المادة الثانية - في جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل لإنشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في الديباجة .

المادتان - الرابعة والسادسة .

المادة السابعة - يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعية الفلسطينية .

المادة الحادية عشرة - الجملة الثانية من الفقرة الأولى والفقرة الثانية . والمواد

١٣ و ١٤ و ٢٢ و ٢٣ .

وفي تطبيق نظام الانتداب على شرق الأردن تقوم حكومته بالأعمال التي تقوم بها حكومة فلسطين في فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة .

٣ - تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التي تقع على عاتقها في تطبيق نظام الانتداب على شرق الأردن وتتكفل بأن الشروط التي توضع لإدارة ذلك القطر وفقاً للمادة ٢٥ من نظام الانتداب لا توافق بقية شروط نظام الانتداب التي لم تشر إلى عدم تطبيقها في هذا القرار بحال .

عهد أنقرة

الذي وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٢١

المادة الأولى — يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان أنه بعد التوقيع على هذا الوفاق تنتهي حالة الحرب بينهما ويبلغ ذلك في الحال إلى الجيوش والسلطات الملكية والسكان .

المادة الثانية — بعد التوقيع على هذا الوفاق يطلق سراح أسرى الحرب من الطرفين ويعاد جميع الفرنسيين والأتراك المأسورين والمسجونين على نفقة الفريق الذي أسرهم إلى أقرب مدينة تعين لذلك . ويستفيد من هذه المادة جميع الأسرى والسجناء من الفريقين مهما كان مدة أو محل سجنهم وتوقيفهم أو أسرهم .

المادة الثالثة — بعد شهرين من التوقيع على هذا العهد على الأكثر تراجع الجيوش التركية إلى الشمال والجيوش الفرنسية إلى جنوب الخط المعين في المادة الثامنة .

المادة الرابعة — يجري الإخلاء والاستيلاء اللذان يتمان خلال المدة المذكورة في المادة الثانية على الكيفية التي تعين بالاتفاق المشترك وذلك بواسطة لجنة مختلطة يعينها قواد الجند من الفريقين .

المادة الخامسة — يمنح الفريقان المتعاقدان العفو العام في الأصقاع التي تم الجلاء عنها وذلك بمجرد وضع اليد عليها .

المادة السادسة — تصرح حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا أن حقوق الأقليات التي جرى الاعتراف بها جهاراً في الميثاق الوطني سيوافق هو عليها

على نفس الأساس الذي عقد في الوفاق المتعلق بهذا الشأن بين دول التحالف خصومهم وبعض أحلافهم .

المادة السابعة - تدار شؤون صقع الإسكندرونة إدارة خصوصية ويتمتع السكان الأتراك في تلك الأرجاء بجميع التسهيلات لترقية ثقافتهم وتكون اللغة التركية صفة لغة رسمية .

المادة الثامنة - يعين الخط المذكور في المادة الثالثة ويحدد كما يلي :
يمتد خط التخوم من نقطة يجري اختيارها في خليج الإسكندرونة في جنوب ناحية بياس مباشرة ويتجه إلى ميدان اكبس (تبقى محطة السكة الحديدية والناحية تابعتين لسورية) .

ومن هنا ينحني نحو الجنوب الشرقي بحيث يترك لسورية مديرية مرسوى ولتركية بلدة قارصايه مع مدينة كليس ثم يسير مع السكة الحديدية حتى محطة جوبان بك ويسير مع خط بغداد ويبقى سطحه للأملاك التركية حتى نصيبين .
ومن هناك يتبع الطريق القديم بين نصيبين وجزيرة ابن عمر حتى يبلغ نهر دجلة وتبقى لتركيا نصيبين وجزيرة ابن عمر والطريق بينهما ويكون للبلادين نفس الحقوق في الانتفاع من هذا الطريق .

وتكون المحطات في شعبة جوبان بك ونصيبين ملكاً لتركيا كأنها جزء من سطح السكة الحديدية .

وتتألف لجنة من مندوبي الفريقين في برهة شهر بعد التوقيع على هذا الوفاق لتحديد الخط المذكور وتبدأ هذه اللجنة بعملها في تلك المدة .

المادة التاسعة - يبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية (وهو القبر المعروف باسم ترك مزارى) الواقع في قلعة جعبر مع كل ما يتعلق به ملكاً لتركيا تستطيع أن تضع فيه حراساً وترفع العلم التركي .

المادة العاشرة - تقبل حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا بنقل امتياز فرع السكة الحديدية البغدادية الواقع بين بوزانتي ونصيبين مع سائر الشعب المنددة في ولاية أذنة الى شركة افرنسية تعينها الحكومة مع جميع الحقوق والقوائد والمنافع المتعلقة بالامتيازات ولا سيما فيما له علاقة بالاستثمار والانجار .

يحق لتركيا أن تنقل منقولاتها العسكرية بالسكة الحديدية من ميدان اكبس إلى جوبان بك في أرض سورية ويحق لسورية أن تنقل مهماتها الحربية بالسكة الحديدية من جوبان بك إلى نصيبين في الأرض التركية . ولا تضاف زيادة عن أجور السكة في هذه الشعبة أو الفرع ، وتحفظ الحكومتان بحقهما في درس ما تقضي به الضرورة من الحياذ إذا اقتضت الحال وذلك باتفاق الفريقين .

وإذا لم يتسن الاتفاق فكل فريق حر في عمل ما يراه .
المادة الحادية عشرة - تؤلف لجنة مختلطة بعد التصديق على هذا العهد لتعقد اتفاقاً جمركياً بين تركيا وسورية وتحدد اللجنة شروط هذا الاتفاق ومدته ويكون للبلادين حق التمتع بحرية العمل ريثما يعقد هذا الوفاق .

المادة الثانية عشرة - تقسم مياه نهر قويق بين مدينة حلب والصقع الواقع إلى الشمال الباقي لتركيا قسمة عادلة يرتضي بها الفريقان .
ويتأتى لمدينة حلب أن تأخذ على حسابها من نهر الفرات شطراً من المياه من الأرض التركية لتستعملها في أراجأها .

المادة الثالثة عشرة - يظل سكان القرى أو نصف الرحالة من أهلها ممتعين كما في السابق بحقوقهم في المراعي إذا كان لهم أملاك في إحدى الجهتين من الخط المعين في المادة الأولى ويتيسر لهم لضرورة استثمار أراضيهم أن يعملوا أحراراً لا يؤدون رسماً جمركياً ولا ثمن المراعي ولا أي رسم كان ويتنقلون من جهة إلى أخرى من هذا الخط مع مواشيهم وما تنتج وأدواتهم وآلاتهم وبذارهم وحاصلاتهم الزراعية وهم مكلفون بأن يؤدوا الحقوق والرسوم عليها في الأراضي التي ينزلونها .

انتهى الجزء الثالث وبه انتهى التاريخ السياسي في القطر الشامي ويليهِ الجزء الرابع وبه يبتدىء تاريخه المدني

فهرست

الجزء الثالث من خطط الشام

٤٤ - ٣ العهد العثماني من سنة ١٢٠٠ إلى ١٢٤٧
٣ الجند أداة الظلم والتدمير
٥ حوادث الجزائر وفتن الإنكشارية وغيرها
٧ عهد سليم الثالث وفتن وكوائن
٨ مظالم الجزائر واختلال الإدارة
١١ محاولة نابوليون فتح الشام واستيلاؤه على غزة ويافا
١٣ وقائع نابوليون على عكا وفي مرج ابن عامر
١٥ خطيئات نابوليون في الشام
١٨ حال الشام بعد رحيل نابوليون عنه
٢٠ مساوىء أحكام الجزائر
٢١ تفتن الجزائر في إهراق الدماء وحكم المؤرخين عليه
٢٥ المتغلبة على الأحكام بعد الجزائر
٢٧ مقتل سليم الثالث ومصطفى الرابع وتولي محمود الثاني
٢٩ فتنة كنج يوسف باشا
٣٠ سليمان باشا وأمرء راشيا وكوائن حلب
٣٤ وقعة المزة واستسلام الدولة لوالي عكا
٣٦ سياسة الأمير بشير في لبنان وتقاتل الولاة وارتيابك الدولة
٣٨ محاولة الدولة قتل النصارى وفتنة نابلس
٣٩ مقتل سليم باشا والي دمشق

- الحكم على الموقف السياسي في نصف قرن ٤٣
- دور الحكومة المصرية من سنة ١٢٤٧ إلى سنة ١٢٥٦ ٤٥ - ٧٢
- ٤٥ حالة الدولة العثمانية عند إذلال جيش محمد علي الكبير لها
- ٤٧ لماذا تراجعت الدولة العثمانية
- ٥٠ حملة محمد علي على الشام وهزيمة الأتراك
- ٥٢ تقدير مؤرخين وشاعر لغلبة محمد علي
- سقوط الأناضول وتضاؤل السلطان العثماني أمام الجيش
المصري ٥٦
- ٥٧ أعمال إبراهيم باشا في إصلاح الشام
- ٥٨ فتوى وقتن وحصار الفلسطينيين لإبراهيم
- ٦٠ خطأ إداري لإبراهيم باشا ووقائعه في اللجاة ووادي التيم
- ٦٣ سياسة الأتراك والدول مع محمد علي
- ٦٥ انقراط عقد الحكم المصري
- ٦٧ فضل حكم محمد علي
- ٦٨ رأي الغرباء في حكومة محمد علي
- ٧١ حكمنا على أنفسنا وعلى غيرنا
- العهد العثماني من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٧ ٧٣ - ٩٣
- رجوع الشام إلى سالف بؤسها على العهد العثماني وقتن
الدروز والنصارى ٧٣
- ٧٥ فتن أهلية في الجبال والمدن
- ٧٧ حرب القرى منشؤها في الشام وكوائن درزية ونصيرية
مبدأ المذابح المعروفة بحادثة سنة الستين وحادثة بيت مري
- ٧٩ ودير القمر
- ٨٠ مذابح حاصبيا وراشيا ورأي إنكليزيين في أصل المذابح

- ٨٢ . . . مذابح دمشق ورأي الغريب والوطني في تحليلها
- ٨٥ . . . ضحايا مذابح دمشق وتخريبها
- ٨٧ . . . عمل الدولة والدول عقبى الحوادث
- عمل العقلاء في دمشق وبيروت ورأي مؤرخ منصف في
- ٨٩ . . . المسلمين
- ٩٠ . . . من المسؤول عن هذه الفتنة الشعواء
- سوء أثر حوادث الشام في الدولة ومنازعة الدول لها في
- ٩٢ . . . سلطانها
- ١٠٤ - ٩٤ . . . العهد العثماني من سنة ١٢٧٧ إلى ١٣٠٠
- ٩٤ . . . بعد فتنة سنة الستين
- ٩٥ . . . السلطان عبد المجيد وخلفه عبد العزيز
- ٩٨ . . . خلع عبد العزيز وتولية مراد الخامس
- ٩٩ . . . عهد عبد الحميد الثاني
- ١٠١ . . . انسيال الدروز على جبل حوران ووقائعهم
- ١٠٣ . . . المصلح مدحت باشا وطبقته من العمال
- ١١٤ - ١٠٥ . . . العهد العثماني من سنة ١٣٠٠ إلى سقوط عبد الحميد الثاني
- الحالة في مبدأ القرن الرابع عشر وإصلاح بلاد النصيرية
- ١٠٥ . . . والسبب في خرابها
- ١٠٧ . . . فن درزية وفتن أرمنية
- ١١٠ . . . الحملات على جبل الدروز وعلى الكرك والنصيرية على الدولة
- ١١٢ . . . رأي في دلال الدروز
- ١٦٠ - ١١٥ . . . العهد العثماني من سنة ١٣٢٦ إلى ١٣٣٦
- ١١٥ . . . الدستور العثماني وثورته
- ١١٧ . . . إعادة الدستور وحال الدولة بعده

- ١١٩ عبد الحميد وسياسته وأخلاقه
 ١٢٣ رأي مؤرخ تركي في عبد الحميد وذكر حسناته
 الأحداث في أيام محمد رشاد وحرب طرابلس والبلقان
 ١٢٥ وحزب الإصلاح
 ١٢٨ الصهيونية ومنشؤها
 ١٣١ الحرب العامة والسياسة الألمانية والأخلاق التركية
 ١٣٢ قسط الشام من الحرب وعمل جمال باشا
 ١٣٥ إهلاك أحرار الشام والسياسة الاتحادية مع العرب
 ١٣٩ خلع شريف مكة طاعة العثمانيين وتأثيره في الأتراك
 ١٤٢ أماني الأتراك وخيبتهم وتخريبهم
 ١٤٤ الوقائع المهمة في فلسطين وسقوط القدس وما إليها
 ١٤٧ عمل الجيش العربي
 ١٥٢ سقوط حوران ودمشق بيد الجيوش البريطانية
 ١٥٤ سقوط بيروت والساحل والهدنة
 ١٥٧ سبب سقوط الشام بأيدي الحلفاء
 ١٥٩ رأي مؤرخ تركي في انقراض الدولة العثمانية

العهد الحديث من سنة ١٣٢٦ - ١٣٤٣ ١٦١ - ٢٢٤

- ١٦١ تجزئة الشام بين فرنسا وإنكلترا
 ١٦٣ فتنة الأرمن واعتداؤهم على العرب
 ١٦٥ أعمال الحكومة العربية وحكومة الصهيونيين
 ١٦٨ المؤتمر السوري ومبايعته فيصلاً ملكاً على الشام
 ١٦٩ العصابات بين الساحل والداخل
 ١٧٢ الاستفتاء في الدولة المنتدبة
 ١٧٤ أفكار فيصل والعبث بالسياسة
 ١٧٥ حملة فرنسا على المدن الأربع

- ١٨٠ . تعريف الانتداب وسياسة الأتراك فيما يتعلق بالشام
تأثر الحورانيين بعوامل الفيصليين ومقتل وزيرين وقتل
- ١٨٢ . اليهود في فلسطين
- تقسيم الشام وخرابها واستقلال لبنان والعلويين ومجلس
- ١٨٤ . فلسطين ودولة شرقي الأردن ودولة جبل الدروز .
- ١٨٦ . متاعب لبريطانيا وفرنسا واعتداءات
- ١٨٧ . توحيد حكومات سورية وعدم رضى الأهليين
صك الانتداب وموافقة الدول الكبرى عليه وأشكال
- ١٨٩ . جديدة من الإدارة
- ١٩١ . غزوة النجديين عبر الأردن واستيلاؤهم على مكة وشؤون
صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب الفلسطينيين والسوريين
- ١٩٥ . وكوائن
- ١٩٨ . تاريخ الصهيونية وعملها الأخير
- ٢٠٥ . الأوضاع الصهيونية
- ٢٠٧ . الصهيونية في الحرب
- ٢١٥ . الصهيونية بعد الحرب
- ٢١٧ . ثورتا القدس وثورة يافا
- ٢١٩ . المهاجرة
- ٢٢٠ . المعارف والمصارف والصحافة والمشاريع الاقتصادية
- ٢٢٢ . نظرة في نجاح الصهيونية
- ٢٢٣ . حوادث وغوائل
- ٢٢٥ - ٢٣٢ . التقاسيم الإدارية الحديثة
- ٢٢٥ . تقاسيم القداماء قبل الإسلام
- ٢٢٦ . أجناد الشام وتقسيم العرب
- ٢٢٧ . التقسيم في عصر الصليبيين والمماليك

٢٢٨	على عهد العثمانيين
٢٢٩	تقسيم فلسطين
٢٢٩	تقسيم الشرق العربي أي شرقي الأردن
٢٣٠	دولة سورية
٢٣١	دولة جبل الدروز
٢٣١	دولة لبنان الكبير
٢٣٢	دولة العلويين
٢٣٣ - ٢٦٣	العقود والعهود الأخيرة
٢٣٣	الرسالة الأولى في اتفاقية سايكس بيكو
٢٣٥	الرسالة الثانية
٢٣٦	الرسالة الثالثة
٢٣٧	نسخة مختصرة عن دستور فلسطين الرسمي
٢٤٠	المعاهدة البريطانية الفرنسية
٢٤٥	صك الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان
٢٥١	صك الانتداب على فلسطين
٢٥٩	صك الانتداب على شرقي الأردن
٢٦١	عهد أنقرة
٢٦٤ - ٢٧٠	فهرست الجزء الثالث من خطط الشام

خطوط الشيخ

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الرابع

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

الطبعة الثانية
صححة بقلم المؤلف
طبعت بإذن من ورثته
ومقوقه الطبع محفوظة لهم

طبع على مطابع :

مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

التاريخ المدني

العلم والأدب

ما يُراد بالعلم والأدب :

نريد بالعلم علم الدين والدنيا ، فالعالم بالحديث عالم ، والعالم بالطب علم ، والعالم بالكلام عالم ، والعالم بالهندسة عالم . والكيمياء علم ، والبيطرة علم ، والتاريخ علم والجدل علم ، وشرف هذه العلوم بشرف مقاصدها ، وأشرفها في نظر الإلهيين ما هذب النفس وأعدّها للحياة الخالدة . وعلوم الدنيا هي الوسيلة إلى تلك السعادة كما قال حجة الإسلام الغزالي : إن الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، ليستظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا . فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا .

كان البشر قبل ظهور الأديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا ، وكانت بسائط على حالة ابتدائية بالطبع ، ويعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعابدهم يجودون صنعها ، ويمجدونها ويتغنون بمدحها ، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل بصورة أخرى ، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول . أما الأدب فالذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن الأخلاق ويدعو إلى المكارم . واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أديباً وعلوم العربية أدباً . والمراد بالإسلام كما قال

التنوير من حين انتشار وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية بنحو ست سنين .

للأهوية والأهواء تأثير في العلم ، والعلوم ربيبة الأرض المعتدلة أو الباردة أكثر من الحارة والبيئة ، لأن أهل هذه قصيرة آمالهم في الحياة ، محدودة مطالبهم ، فاترة هممهم ، مثوم حدهم ، متداعية صحتهم . ومن صرف وكده أيضاً إلى الأهواء المذهبية ضعف سلطان العلم فيه ، لتوزع قواه ، وانصراف رغبته عن الفانية إلى الباقية ، واشتغال ذهنه بأمور لا يتسع لغيرها في الأغلب . وكلما توغلت أمة في مضممار المدنية نظرت إلى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة ، وشرقت ما تشد حاجتها إليه منها ، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها . فقد رأينا جامعات أوربا في القرون الوسطى تنشأ لغرض الدين على الأكثر ، فلما عظمت مطالب البشر ، وأخذت المدنية تسير سيرها ، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم تقرأ كما يقرأ التاريخ والأدب والطبيعة ، لا فضل لديني لاهوتي على طبيعي رياضي ، إلا بالأثر الناتج عن درسه وبجته ، هذا إن لم يرجحوا في عرفهم العالم الثاني . وبيننا نجد تماثيل العلماء بالمثال في شوارع الغربيين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم ، لا نشهد من علماء الدين إلا نفرأ قليلاً أقيمت لهم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط . كان الاقتصاد على العلم الديني في الصدر الأول للإسلام ، ثم تسربت العلوم الدنيوية بسرعة ، ورأى علماء الأمة أنها نافعة لقوام الدين والدنيا ، وبذلك أقنعوا العامة ومن فوق درجاتهم ، فأقبل الناس عليها ، وكانت العناية أولاً بعلوم القرآن والسنة ، ثم أقبل الناس على الفقه لأن حالة الزمن اقتضت الإقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة الإسلامية وما حدث فيها من المشاكل والعُضَل ، ثم أقبلوا على علم الكلام ، لما رأوا الحاجة الماسة إليه خصوصاً وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصاراً وعشاقاً ، ثم مالوا إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذاهب الشافعي وأبي حنيفة ، ثم كثرت العلوم بين العرب في المدن وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة ، إلى أن أخذت تتطور تطوراً جديداً أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيجيء .

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في ديار الإسلام زهد الملوك والأمراء فيها واشتغال الناس بالفن والغوائل . ومذ أخذ العلماء يتعلمون علوم الدين للجاه والمال ، ضعفت علوم الدين والدنيا معاً . وأصبح السلطان للممخرقين والمعطلين والمتهوسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم ، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق ، وتهذيب الأخلاق ، على أن من تعلم علماً للاحتراف لم يأت عالماً وإنما يجيء شبيهاً بالعلماء . ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد ، فأقاموا للعلم مآتماً ، وقالوا كان يشتغل به أرباب المهم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم ، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخصاء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سبباً لارتفاعه ، ومن هنا هُجرت علوم الحكمة وإن كانت شريفة لذاتها .

إن الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جداً ، ولكنهم يكونون على الأكثر ممن نسبيهم أو أكثرهم بأهل النبوغ والعبقرية ، يتفانون في مقصدهم ويأتون بالحديد يبدعون ويبرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنواناً للتصدر ، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الأرض ، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقاباً ودهوراً ، ومن هذا الفريق أنجبت الشام قديماً وحديثاً جماعة افتخرت بهم ، وعدّوا بأعمالهم بالقياس إلى حال هذا القطر وإلى مجموع علماء الأمة كتلة صالحة أثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية ، وقد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربي لقربه منا ، ولاطراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الحملة ، ، فوقفنا بها على منازعهم وأعمالهم . وغابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقين لأن القوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من أهل الصناعات فقط لا من أهل العلم . كأن العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعةً من الصناعات . وقد اصطلاح المتأخرون على أن المراد بالعلم إذا أطلق يقصد منه العلم الديني . ومن الغريب أن بعض المتأخرين ممن دوّنوا تراجم أهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والممخرقين ولم يذكروا مثلاً تراجم أهل تلك

الأيام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا بأعمالهم مدنية أعصارهم .
 لم يتسلسل العلم قرونًا طويلة في الشام تبعاً لتغير الدول وانصراف الهمم
 «والعلم مذ كان محتاج إلى العَلَمِ» ذلك لأن الشام كان في جميع أدواره
 ممراً للفاتحين يطمع فيه جيرانه ، بل البعيدون عنه لتوسطه بين برّ آسيا وإفريقية
 وأوربا . والقدر الذي عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كافٍ ولا شك في
 إنشاء مدنية صالحة خصوصاً إذا دعمها ما كان ينهال عليها من علوم أهل
 العراق والجزيرة ومصر والأندلس وفارس وغيرها . وكأن الشرق مُني بالتساهل
 والإهمال ، وعدم التسلسل في الفكر والاطراد في العمل ، فكان مظهر الحياة
 الفردية في الأعم الأغلب من حالاته، وعلى العكس في الغرب فإنه كان ولا
 يزال مثال الحياة الاجتماعية والتعصب للفكر والاستماتة فيه ، والتسلسل في
 الأفكار .

ولقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشدد في إرهاب
 الأفكار الحرة ، وديوان التفتيش الديني يحرق الأنفس البشرية بالعشرات
 للقضاء على الفلسفة والتجديد ، بيد أن الغرب كان إذا هلك فيه رجل بطريق
 الإلحاد والخروج عن مألوف القوم ، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول
 ما بدأ به سلفه ، ناسياً أن الهلاك يحل به إذا اشتهر أمره . ورأينا في هذا الشرق
 القريب أناساً ينزعون إلى التجديد والإبداع كان نصيبهم من الحياة ضرب
 أعناقهم ، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول وتقية ،
 وكان نصيب الأمة العربية أن يقل فيها جداً ظهور من يخلفهم في دعوتهم ،
 وقد يأتي العصر والعصران ولا يظهر فيهما نابغة يذكر وعالم مبدع ، وجاء
 زمن وهو ليس ببعيد ، وقد أصبح الناس ينكرون البدييات في العلم ، ويحرمون
 ما حلل الله من ضروره النافعة، فغارت ينابيعه من أرضنا وفاضت في الغرب
 وزادت مع الأيام فيضاناً ، وقويت تقية العلماء ودخل في غمارهم الجاهلون
 فسقطت هيبة العلم . وكان من نتائج عمل الغربيين تلك الحضارة الحديثة
 المدهشة ومن تفاشلنا وتجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس وإضاعة مدنية الأجداد .
 العلم ابن الحرية ، والأدب ربيب التسامح ، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه
 الديار المثال الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب ، وكان

العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل . فإن كانت أنطاكية وبيروت قبل الإسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع ، فقد امتازت بعدهما حلب والمعرة وطرابلس ودمشق وحمص بهذه الخصائص . والعلم بضاعة ثمينة لا تروج الرواج المطلوب إلا في ظل السلام وصلاح السلطان . هذا شأن العلم ، أما الأدب وهو منظوم الكلام ومنثوره والخطب والرسائل فيتصرف أيضاً على هذا المثال ، وبه أدركنا بعض الحالة الاجتماعية والروحية التي كانت عليها تلك الأعصر ، ورأينا فيه تبديلاً محسوساً في القرون التالية ، فكانت الآداب في الشام في القرن الأول غيرها في القرن الثاني والثالث ، وقد استحكمت أسباب الحضارة وعم الترف ، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال ، وما لبثت في أواخر هذا القرن أن عراها الكساد قليلاً ، ثم هبت إلى الحياة بعض الشيء في السادس والسابع تبعاً للحالة السياسية التي كان عليها القطر زمن الحروب الصليبية ، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عدّه في مصاف المفلحين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع ، أما في القرون الأربعة التالية فضعت حالة الشعر أكثر من ذلك بما لا يقدر ، وأصبح نظماً لا شعراً فُقد من أكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسماً له من الشعر قوافيه وأوزانه ، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم وتتأثر أنفاس الابن بأنفاس أبيه وجده .

إن حكمنا على المنظوم يسوغ أن نوردّه في المنثور ، كان الإنشاء في القرنين الأولين للإسلام يسير مع الطبع غالباً ونبغ في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة ، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الإدارة أو السياسة أو القضاء أو في أمر مهم من أمور الدولة في سطرين أو ثلاثة ليس فيه شيء من الكلفة بتة بل هو آية الفصاحة والبلاغة ، وهكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان ، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزباد بن أبيه وعتبة بن أبي سفيان وشهدنا التكلف بادياً في كتابة القرون التالية التي انتقلت فيها صناعة الكتابة إلى بغداد أو القاهرة وضعف أمرها في الشام . وكان الشام يتبع العراق تارة ومصر تارة أخرى ، حتى إذا كان القرن السادس ، ونبغ في الدولة الصلاحية القاضي الفاضل

بطريقته المستملحة في الكتابة المسجعة على الأغلب ، وحذا حذوه العماد الكاتب ثم ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر وغيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة وهي احتذاء مثال المجودين من القدماء لحصرها في قيود الجناس والبديع والأسجاع فجمدت القرائح وقل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها ، فما بالك بالإنشاء الذي هو ابتكار المعاني والإبداع في القوالب . وإذا استطعنا أن نعد عشرة كتاب في القرن الواحد لا تقوى على عدّ منشى واحد فيه . وحكمنا هذا مبنيّ على ما قرأناه فيما خلفه السلف في هذه الديار من الكتب والآثار المبعثرة في بطون الدفاتر ، وربما كان في المفقود الذي لم يصلنا من هذا النوع ما يوهلنا لو ظفرنا به ، أن نصدر حكماً أصح من هذا على فنون الإنشاء والكتابة والشعر والنظم ، والإنشاء من الكتابة كالشعر من النظم .

ولو لم ينبغ في الكتابة من المؤلفين أمثال القفطي وياقوت وابن أبي أصيبعة وابن العديم ثم الصفدي وابن فضل الله والمقرئزي والشهاب الحلبي وأمثالهم في القرنين السابع والثامن لقلنا إن الانحطاط في الكتابة بدأ في الشام منذ القرن السادس ، بيد أنها أصبحت في الحقيقة سجعاً كسجع الكهان بظهور ابن عريشاه الدمشقي وابن حجة الحموي وأمثالهما في القرن التاسع ، أما في القرن العاشر وما بعده فإن الكتابة كالشعر كانت إلى التكلف والسجع غالباً ، ومن أفلت من المؤلفين من قيود التكلف ، ونجا من الرصيع والتسجيع ، جاء كلامه مقبولاً في الجملة وقليل ما هم .

بقيت الكتابة والشعر ترسفتان في قيودهما القديمة إلى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للأمة في مصر بضعة شعراء ومنشئين أدخلوا الآداب في طور جديد ونزعوا عنها ثيابها البالية ، وألبسوها حلة قشبية ، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده وإبراهيم المويلحي ثم المنفلوطي وطه حسين والعقاد وأضرابهم . ومن الشعراء محمود سامي وإسماعيل صبري ثم حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وتلك الحلبة ، وانتشرت كتاباتهم وقصائدهم في العالم العربي ومنها اقتبس شعراء الشام وكتابه وبطريقتهم اقتدوا وغيروا أسلوبهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وما أسلوبهم إلا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين ،

وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الأدب العربي أي منذ زهاء خمسة عشر قرناً . وكان للصحف والمجلات ولانتشار الآداب الانكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا ، والمبرزون فيه ما زالوا قلائل جداً ، ويرجى أن لا يمضي عقدان أو ثلاثة من السنين حتى تكون الشام أخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية ، والنظر إلى وفرة السكان والغنى ، وتوفر أسباب التعليم العربي في القطر المصري .

العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام :

صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن ذكر الرجال الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحثيين ومن كان قبلهم من القبائل التي نزلت الشام ، وخلفت فيها آثاراً في العمران لا تقوم بغير العلم ، ولم ينقل إلا أسماء قليلة اشغل أربابها بالعلم الديني والدينيوي على عهد بعض الدول الخالفة ، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان ، ولولا بعض عاديات أثرت عن الأمم التي تأصل حكمها في بعض أرجاء القطر ، وأخبار نقلتها التواريخ الصحيحة لقلنا إن أكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة . وأهم ما أثر عن الفينيقيين مما ساعد العلم بالنسبة لعصورهم اختراعهم حروف الكتابة ، بل تحسين أصولها وجعلها مطابقة للأصوات ، ونقلهم لها إلى الأمم التي أبحروا وانجروا معها ، وعنهم أخذتها أمم الحضارة الحديثة النازلة على شواطئ البحر المتوسط وما إليها . وهذا الاختراع أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر العلم . قال بورتير : لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف هجائية ، وليس هم أول من استعملوا الكتابة لأننا علمنا من الآثار أنها كانت عند المصريين والكلدانيين قبل عهدهم ، غير أن كتابتهم لم تكن بحروف وفق الأصوات البشرية الأصلية كالحروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل الاعتبار لأنهم أتقنوا الكتابة ونشروها بين أكثر الأمم المتقدمة لاتساع تجارتهم ، فإن الحروف الهجائية في لغات أوربا وغربي آسيا وشمال إفريقيا مشتقة من حروفهم .

وأخبار العلم قبل الإسلام في الشام ضئيلة ومنها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه وسلامة أذواق بنيه . وكان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة متقطعة لا مطردة ، ويخرج العلماء والفلاسفة فرادى ، انتقلت إلينا أسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم أو يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودي في سنة ١٠٠م وله عدة تواريخ وقد صار والياً على الجليل ، وكتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية ، ومنهم يوستوس الطبراني اليهودي المؤرخ وفيلون اليهودي الحلبي وفيلودورم الايكوري من جَدَر وتيودور الخطيب من عسقلان وأقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضي الذي نبغ في صور ، كما نبغ فيها فرفوريوس الفيلسوف ، وكان بعد زمن جالينوس ، ونبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً على نهر الطونة (الدانوب) وجاء في رَقْنِيَة ارسطيفس الرفي وفلسفته هي الفلسفة الأولى قبل أن تتحقق الفلسفة ، وثاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الأول قبل المسيح في مدينة طرابلس ، ومن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم .

واشتهر في هذه القرون الأولى هرميوس البيروتي تلميذ فيلون المؤرخ الفينيقي في فنون الأدب ، وطوروس البيروتي في الحكمة ، ولوپركوس البيروتي في اللغويات والفلسفيات ، ومناسياس البيروتي في الخطابة ، واشتهر في الآداب مرقس كالوريوس برويس البيروتي ، وفي الجغرافيا ماريوس الصوري ، وكان معاصراً لبطليموس القلوذي في القرن الثاني للمسيح . وكانت أنطاكية على عهد خلفاء الإسكندر اوسلوقس نيقاتور ومن جاء بعده مباءة أدب وحكمة ، ونبغ فيها من الشعراء ورجال الدين والأدب والخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني ، والقديس لوقا ، والشاعر ارسطياس . وكما كانت أنطاكية دار حكمة وعلم ، كانت بيروت تدعى مرضعة الحكمة على عهد الرومان ، وكانت فيها مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض أباطرة الرومان من الشاميين - وقد نشأ من حمص وبُصْرَى أباطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها - وكانت اللغة اللاتينية لسان

العلم في تلك المدرسة ، ويدرس فيها الفقه والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب ، وقد تخرج بأساتذتها أناس تأقت شهرتهم في الأدب والشريعة ، وكان قضاة الرومان من خريجها مدة أربعة قرون ، وكان اثنان من تلامذتها من جملة أعضاء المجمع الذي ألفه الامبراطور يوستينانوس لتدوين الفقه وقيل ثلاثة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروتاوس ، ومن أساتذتها اميل بابنيان من بيروت وكان من أشهر فقهاء الرومان ، عد من جملة الفقهاء الخمسة الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة ، وإذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله ، ومنهم اوليان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانيين ذهب بعضهم إلى أن مولده في بيروت وغيرهم إلى أنه في صور ، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان ، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني ، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشاً فقيهاً فيلسوفاً بليغاً ، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ ، ولنجينوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات أسقف أنطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتها. ومن كان في تدمر وفي أرجاء الشام على ذلك العهد كيككراتيس الصوري وعالم المؤرخين بوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ . ومن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية والمصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح وأسماء أولادها عربية—كاسيوس ويونيسيوس وأوريجانوس فيلسوف قيسارية . ومن علماء بيروت الأقدمين هرمبوس له تأليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتاباً في البيان والفيلسوف الأفلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساويرس بطريرك اليعاقبة وهذا كان في القرن الخامس للميلاد . وكثر في القرن الثالث للميلاد الكتاب وأرباب القرائح وأهل العلم والحصافة والحكمة ، ومن نشأ من الأدباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين . قال سنيوبوس : حفظت في مدارس الروم في دمشق والإسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم وأكلوها ونشروها .

مواطن العلم في القطر قديماً :

كان العلم يدرس في تلك الأحقاب في أربع مدارس وهي القسطنطينية والإسكندرية ورومية وبيروت ، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية ، وأخرى في آثينة ، وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن ، ولكن دون مكانة مدرسة جارتها بيروت . وقد ألقى يوستينانوس مدارس قيسارية وآثينة والإسكندرية ، وأبقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ولقب بيروت بأُم العلوم وظُر الشرائع . وأعفى ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من الرسوم تنشيطاً لهم . وقد خربت مدرسة بيروت قبل الإسلام بالزلازل التي تواترت على الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠م الذي التهم بيروت ومساكنها ومعاهدها .

وكان في غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها وكان فصحاءها على العهد اليوناني المرجع الأول في الفصاحة والبلاغة ، وكان في قيسارية في القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها أوريجين أحد رجال الكنيسة وتخرج منها الأسقف أوزيب أبو التاريخ الكنسي وقيل: إنه كان في أريحا مدرسة أسسها ايليا .

قال استرابون الجغرافي اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد: لم يبق في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة، بل كان فيهما كثير من أصحاب علم الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة ، ومدارس تقتبس فيها كل العلوم البشرية ، وقد أنشأت صيدا في أيامنا كثيراً من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت أبوه ، ونشأ في صور انتيباتر وقبله أبولون ، وكان في أيامنا فيلسوف اسمه بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه .

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية لغة العلم في هذه الأحقاب ، ولم يكن السريان السكان الأصليون دون الرومانيين واليونانيين في تخريج الرجال ، ولا سيما في عهد النصرانية . فقد هبت في المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية السريانية بحلب وجوارها من رقدتها ، فسار في طليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير ، نشأ في حلب أو في صقعها ودرس الآداب السريانية في مدرسة الرها ،

وهي إحدى المدارس العالية في العالم السرياني ، ونشأ منهم سمعان العمودي وبالاي والقديس إسحاق الأنطاكي ، ومن فحول شعراء السريان ، اخسنايا المنبجي أحد غلاة المنوفسية (الطبيعة الواحدة) ويوحنا بن افنون القنسريني شيد ديراً على ساحل الفرات عرف بدير قنسرين ، وكان جامعة للآداب والمعارف الآرامية عصرأ طويلاً مات سنة ٥٣٨ وتوما الحرقلي نشأ في دير ترعيل قرب حلب وتلقى العلم في قنسرين وقد ترجم الأناجيل وغيرها من الأسفار المقدسة من اليونانية إلى السريانية .

ومن المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام ، ولكنها خرّجت للشاميين رجالاً أيضاً ، وسرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات ، مدرسة حران ، وقد أخذت الشام ولا سيما شماليها منذ القرن الخامس تغص بالمدارس والأديار حيث تُدرس الآداب السريانية ، ويتنافسون مع المدارس العالية الأخرى في ديار السريان ، وكانت حران بمثابة آئينة العالم الآرامي ، كما انبعثت من مدرسة نصيبين في ديار مضر في القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية . وفي تاريخ كلدو وأثور أن مدرسة نصيبين كانت أول مدرسة في الشرق ، أزهرت في القرن الخامس والسادس والسابع وبلغت عزها ومجدها ، واشتهرت مدرسة نصيبين أكثر من مدرسة اورهاي اشتهار مدرسة المدائن وغيرها ، وكان صيتها في فارس والروم وإيطاليا وإفريقية ، وهي أول كلية لاهوتية بل أول جامعة درّس فيها علم الإلهيات ، وظهر منها علماء كفاة كتبوا في الفنون ولا سيما في الإلهيات . واشتهر اليعاقبة كالنساطرة في العلم والتأليف . والنسطوريون أكثر عدداً ، واليعاقبة أكثر مادة . وكان يرشح من علوم هؤلاء الأشوريين على الشام شيء كثير للاشتراك في اللغة والدين إذ ذلك .

هذا بعض ما انتهى إلينا من أخبار العلم ونوابغه في الشام من الفينيقيين والسريانيين والرومانيين والبيزنطيين وما زالت بعض آثارهم وأخبارهم شاهدة بفضلهم ، وأنهم ليسوا دون من خلفهم في أمور كثيرة ، مما اهتدى إليه العقل البشري ، فإن حرمانا كتبهم لأن الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم مزبورة على بعض الأحجار ، دونوا فيها أعمالهم

الحربية وما أثرهم العلمية ، لا جرم أن من ينشئ هذه المصانع وينزل فيها لا بد أن يكون على جانب من الغنى ، وهذا لا يزكو إلا بالعلم المختلف الضروب وفي ظل حضارة بديعة .

ما حمل العرب من العلم إلى الشام :

تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سُمع في تاريخ البشر ، كانوا أول ظهورهم نصف متمدنين يكثر فيهم الأميون ويقل من يكتب فيهم حتى في أهل الطبقة الأولى ، ويعد فيهم من الممتازين من يحسن الكتابة ، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم ، ومن ضيق البداوة إلى متسع المدنية . ولما جاء الإسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر والخطب ، لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة ، وهما في نظرهم جماع كل العلوم ، ينقلون أنسابهم وأخبارهم في الصدور ، وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن تجارب شخصية أو تقليدية ، ولم يكن التدوين يعهد عندهم ، وكانت حدثت هذه الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام بقليل نقلها إلى الحجاز حرب بن أمية ، وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة . أخذت الكتابة من واضعها مرامر بن مرة . وأول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم الكتاب بالمدينة ، وكان ممن أسر بيدر ولا مال له ، فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ويخلي سبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت .

ولما فتحت الشام وكانت أشبه بنصف عربية بمن حكمها من الغسانيين في الجنوب والوسط والتنوخيين في الشمال من عمال الروم ومن كان ينزلها من القبائل والبطون العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة وسينا ، كان الشعر مما يفاخرون به ، وإذا نشأ فيهم شاعر رفعوا من شأنه واعتمدوا على قريحته في الشدائد . وكان جبلة بن الأيهم من ملوك الغسانيين شاعراً مجيداً يعجب بالشعر ويحيز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت ومن أهل بيته فصحاء لا يستهان بهم . جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء جزيرة العرب وكانهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم وقبيلهم ، ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض أرجاء

الشام . وكذلك حسان بن ثابت ذكر أرض الغساسنة ومنازلهم . وأقام المتلمس المتوفى سنة ٥٨٠م في حوران عند الغساسنة إلى وفاته .

جمع القرآن ونشره في الشام :

جمع القرآن على عهد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) على ما روى ابن سعد أبي بن كعب ومُعَاذ بن جبل وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وسعد بن عبيد وأبو زيد ثابت . وكان مجمع بن جارية قد جمع القرآن إلاّ سورتين أو ثلاثاً . وكان ابن مسعود قد أخذ بضعاً وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمع . قال وكان بقي على مجمع بن جارية سورة أو سورتان حين قبض النبي وفي رواية أن من جماع القرآن عدا من ذكروا ، علي بن أبي طالب وعبيد بن معاوية . وقال محمد بن كعب القرظي : جمع القرآن في زمن النبي صلى الله وسلم خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وابو أيوب وأبو الدرداء فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبي سفيان : إن أهل الشام قد كثروا وربلوا وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم . فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم : إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم ، إن أجبتهم فاستهموا ، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لتساهم . هذا شيخ كبير لأبي أيوب ، وأما هذا فسقيم لأبي بن كعب . فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء فقال عمر : ابدأوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة منهم من يلقن ، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس ، فإذا رضيتم منهم فليقيم بها واحد ، وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين . وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ، ومعاذ إلى فلسطين . وأما معاذ فمات عام طاعون عمّواس ، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها ، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات . وهذه أول بعثة علمية حجازية أتت الشام لتعلم أهلها وثقافتهم . ويرجع الفضل الأول في اقتراح إنفاذها لأحد أبناء أبي سفيان النجباء كما كان أبو سفيان

وأبو حرب نقلًا لخط العربي إلى الحجاز ، والشام مدينة لأمية في أمور كثيرة لاشتراكها في خدمة الحضارة اشتراكاً عملياً .

قال زيد بن ثابت : أرسلت إلى أبي بكر فأتيته فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال لي إن القتل قد استحرّ بالقراء يوم اليمامة ولاني أخشى أن يستحر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن ، فأرى أن يجمع القرآن بحال فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر : هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ورأيت ذلك الذي رآه عمر . قال زيد بن ثابت : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . قد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن واجمعه ، قال زيد : فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أنقل عليّ من الذي أمرني به من جمع القرآن ، أجمع من الرقاع واللخاف^(١) والعسب^(٢) وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره . فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة ابنة عمر - رواه صاحب الفهرست .

وأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه أبي بكر وتفريقه في الأمصار ، وكان بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق فإنهم قالوا : قرأنا أصح من قرآن أهل الشام ، لأننا قرأنا على أبي موسى الأشعري ، وأهل الشام يقولون : قرأنا أصح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأمصار ، فأجمع رأيه ورأي الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ، ويجرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها إلى مصر من الأمصار . وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد

(١) اللخاف ككتاب حجارة بيض رقاق .

(٢) العسب بضمسين جمع العسيب وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها .

الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقال عثمان : إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم .

فتح العرب الشام ولم يحملوا إليه غير دين يبعد عن الشرك وعبادة الأصنام ، وغير بلاغة الشعر والخطب المغروسة في طباعهم ، وفطر سليمة جبلت عليها نفوسهم ، فاقتبسوا في الحال مدنية من نزلوا عليهم وتمثلوها وهضموها في أقصر مدة ، وأتوا بعدها بأمور جديدة ، على ما قاموا بمثل ذلك في بغداد ومصر وفارس والأندلس وغيرها . ولقد أظهروا وهم في أوج عزهم من التسامح مع السكان ما دهش له المخالفون واستغربه الموافقون ، ولا غرو إذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد أن ثبت أن الرسول عليه السلام أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود أي يتعلم لغة غير لغة العرب .

العلم والأدب في القرن الأول :

من شعراء الأمويين جرير والفرزدق وكانت للأخطل الشاعر صحبة يزيد ابن معاوية مدحه وهجا الأنصار ، وما فيهم بيت إلا ويقول الشعر ولم يمسه أحد بسوء ، وكان خلفاء الشام يقربونه على حين كان أهل نخلته يتبرمون بسلطة لسانه ، حتى إن الأسقف حبسه مرة في الكنيسة بدمشق لشمته أعراض الناس ، واسترساله في هجوهم ، هذا والملوك تهابه ، والخلفاء تكرمه ، وذكره في الناس عظيم . ومنهم مسكين الدارمي والراعي والرازج العجلي والأحوص وعددي بن الرقاع القضاعي وعلقمة بن عبدة وجناح بن روح والربيع بن مطر التميمي وحكيم بن عباس بن الأعور الكلبي والحسين بن عبيد الكلابي وأنيف العذري وأسباط بن واصل الشيباني صديق الخليفة يزيد بن الوليد وجواس ابن القعطل الكلبي وعثمان بن الوليد القرشي . وكان معاوية ومن خلفه من خلفاء بني أمية وبني مروان يفضلون عليهم ، ومن شعرائهم نابغة بني شيبان كان يفد على المروانيين فيجزنون عطاءه ، وكان الأمويون يرسلون لأبي العباس الأعمى أحد شعرائهم بعطائه إلى مكة ، وغالوا في الحرص على إكرام الشعراء ما خلا عمر بن عبد العزيز فإنه كان يقصي الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن والتشبيب في أشعارهم ، ولكنه كان رضي الله عنه يفضل

على العلماء فقد كتب إلى والي حمص : « انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقهِ وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا وإن خير الخير أعجله والسلام » . وظلت القبائل في الإسلام إذا نشأ منها شاعر تغتبط وتفاخر ، وإذا عدته ذلت ، لأنها تعده لسانها الناطق ومدون مفاخرها .

وقد أعطى النعمان بن بشير عامل حمص أعشى همدان شاعر اليمن عشرين ألف دينار من مال اليمانية ، اقتطعها برضاهم من عطائهم ديناراً ديناراً ، وكان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الأول والوليد الثاني من يقول الشعر الجيد وكان عبد الملك من أكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً .

وقد نشأ في القرن الأول من الفقهاء والمحدثين جملة صالحة في الشام منهم عبد الرحمن بن غنم بن سعد الأشعري الصحابي ، بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام يفقه الناس فتفقه عليه عامة التابعين بالشام (٧٨) ومنهم فضالة بن عبيد الصحابي ولي قضاء دمشق لمعاوية وأمره غزو الروم في البحر (٥٣) ، وأبو الدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم المقرئ ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان مات (سنة ٣٢) وأول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن إسماعيل وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن . ومن علماء الشام أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وأوس بن أوس الصحابي الشاعر سكن بيت المقدس والرملة (سنة ٣٢) ، ومن أخباريهم عبيد بن شربة الجُرهمي وفد على معاوية بن أبي سفيان وأملى أشياء في أخبار الملوك أخذ عنه علاقة بن كُرُسم الكلابي أيام يزيد بن معاوية ، وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها وهو أحد من أخذت عنه المآثر وربما جاز أن يعدّ أول من دوّن التاريخ في الشام .

ومن علماء الشاميين أبو إدريس الحولاني فقيه الشام وقاضيه ، وعمرو البكالي المحدث الفقيه ، وبشير بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني مروان ، وإبراهيم بن كثير بن المرتجل الرملي ، وكان عبادة بن الصامت والي بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه أبو سلام الحبشي واسمه محذور ويقال بالباهلي الدمشقي وشهر بن حوشب الأشعري المحدث (١٠٠) ، وبلال بن أبي الدرداء الأنصاري

قاضي دمشق (٩٣) ، وأبو مسلم الخولاني شيخ الفحاء وزاهدا من سادات التابعين ، وروح بن زنباع يكنى بأبي زرعة ، ويقال بأبي رنباع الحذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان ، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث . ومالك بن دينار أحد الأعلام أقام في القدس (٢٣) وجبير بن نفيير الحضرمي عالم أهل الشام (٧٩) وغيلان بن مروان الدمشقي من كبار المعتزلة وكان الحسن يقول إذا رأى غيلان في الموسم « أترون هذا هو حجة الله على أهل الشام ولكن الفتى مقتول » وكان أوحده دهره في العلم والزهد قتله هشام بن عبد الملك وقتل معه صاحبه صالحاً لأنه كان ينال من بني أمية . وإسماعيل بن عبد الله بن أبي مهاجر مولى بني مخزوم من أهل دمشق كان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان .

ونشأ من الكتاب في هذا القرن عبد الله بن أوس الغساني سيد أهل الشام وأسود بن قبيس الحميري من كتاب بني أمية بدمشق ، وفي الفلسفة ساويرا سابوخت أسقف قنسرين اليعقوبي كان على عهد السفينانيين في انشام ممثل الحركة الأدبية وقد جادل الموارنة بحضرة الخليفة معاوية سنة (٦٥٩م) وألف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطراب والفلسفة واللاهوت ، ويعقوب الرهاوي وغيرهم ، ونشأ في القرن السابع للميلاد أي في القرن الأول للهجرة كاليينيكوس البعلبكي وهو مهندس كيماوي قيل إنه مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرها ، وكان أبو قره أول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية . ومن مشاهير النصارى في القرون الأولى القديس يوحنا الدمشقي (٧٨٠م) كان علماً في عصره وألف كتباً كثيرة في اللاهوت ومنهم قزما المنثشي وقزما البار وندراوس الاقريطشي والبطريرك صفرونيوس .

عناية خالد بن يزيد بالنقل وأوائل التدوين :

كانت الكتب التي ترجمت لأبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي حكيم آل مروان وعالم قریش ، أول نقل أو تعريب كان في الإسلام في عاصمة الشام . وخالد بن يزيد هذا زهد في الخلافة وعشق العلم ، وإذا أنشأ جده معاوية ملكاً في الشام دام ألف شهر ، فإنه أنشأ بعلمه مملكة

باقية بقاء الدهر ، فقد « أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي » والصنعة صنعة الكيمياء . فترجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم . ومن نقل له اصطفن القديم ، نقل كتب الكيمياء ، وكان خالد بصيراً بالطب أخذه عن يحيى النحوي وأخذ الكيمياء عن مريانس الرومي وأتقن هذين العلمين وألف فيهما وله رسائل وكتب في غير هذه الأغراض ، دالة على معرفته وبراعته ، وله شعر كثير ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه . وكان من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام وقيل عنه قد علم علم العرب والعجم ، وكان خطيباً شاعراً ، فهو أول من أعطى التراجمة والفلسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات . وفي الفهرست: ويقال والله أعلم إنه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه كتاب الحرات ، كتاب الصحيفة الكبير ، كتاب الصحيفة الصغير . كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة .

جاء في التاريخ العام: لما جاءت العرب وجدت المدنية اليونانية راسخة في جميع الأقطار التي داهمتها أولاً مثل الشام ومصر والعراق فاقتربت من المملكة البيزنطية وبدا لها من وراء مدنيتهما النبوغ اليوناني كما تجلى لها من الفرس المدنيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدت في بلاد كنعان ومصر تذكارات من الأمم القديمة التي لا تزال عليها مسحة الأجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها .

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها ، ثم تمزقت وتقسمت أصبح دينها واحداً ولسانها واحداً وقوانينها المعمول بها واحدة ، وذلك من نهر السند إلى أعمدة هركول وتمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم ، وأخذوا يقتبس بعضهم عن بعض من تبادل التجارة وسياحة الأفراد وتنقل الجيوش والأمم وانتشار المعتقدات والأخلاق والأفكار يتصادمون ويتمازجون ويتحدون ويتداخلون وكل شعب ينقل إل الآخر عاداته وتاريخه وملكاته الطبيعية.

فالمدينة التي عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست إذأ عربية صرفة، بل هي بحسب النموذجات التي تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه : يونانية وفارسية وشامية ومصرية وإسبانية وهندية ، ولكن إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف إلا أن يقول بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لينقل هذه المدينة ينقلون إلى الشعوب الجاهلة في إفريقيا وإسبانيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وعلومه واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان ، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صُبت فتمازجت تمازجاً متجانساً أبدعوا مدينة حية مطبوعة بطابع قرائمهم وعقولهم . وبفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية في القرون الوسطى التي عاوت فيها أيد أخرى أن تكون ذات وحدة موصوفة ، فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، وسلطة الأساتذة الأقدمين لا تحول دون الأبحاث العلمية والاختراعات الحديثة كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الإبداع في الاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدينة وكانت دمشق إحدى مراكزها ومنبعث أنوارها اه .

وبعد فإن خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الإسلام ، وفي دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب في العالم العربي ، ودمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فأولى أبو هاشم بعمله هذه الأمة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلى على الأيام . وإن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة ، وتمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية ، ومن أولها التدوين والترجمة ، فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب فباعتها من غيرها وهذا يعدّ من مفاخرها الثالثة . وخالد بن يزيد أول من عني بعلوم الفلسفة ولم يتفرد بذلك المنصور العباسي خلافاً لما قاله كاتب چلبي من أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية . قال الأصفهاني كان خالد ابن يزيد ينزل حلب وتوفي سنة ٥٨٥ .

وبذا رأينا أن التدوين حدث في القرن الأول في العلوم الدنيوية ويرى نالينو أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كتاب أحكام

النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم ، وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد القرآن والحديث ومعانيهما ثم دوّنوا فيما هو كالوسيلة إليهما .

وحدث التدوين في عصر الصحابة الكرام على ما في « توجيه النظر » فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألف كتاباً في علم الفرائض وذكر البخاري أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي . وذكر صاحب الفهرست أنه رأى في مدينة الحديثة على الفرات خزانة للكتب فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين ، وأمانات وعهود بخط أمير المؤمنين علي وبخط غيره من كتاب النبي ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والقراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم .

وذكر المؤرخون أن أول كتاب نقل إلى العربية كتاب أهرن بن أعين في الطب وجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه للناس وبثه في أيديهم . وعمر بن عبد العزيز هو الذي قال : كنت أصحب من الناس سراهم ، واطلب من العلم شريفه ، فلما وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفاسف العلم ، فتعلموا من العلم جيده ورديته وسفاسفه .

علماء القرن الثاني والأدب والنقلة والمنشئون فيه :

مضى القرن الأول وجاء الثاني فكثرت القراء والمحدثون والشعراء والنقلة والمترسلون والكتاب بكثرة الفتوحات وفرط العناية بالعلم والأدب ، وقد نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حيوة الفلسطيني الكندي الأردني الفقيه العالم الذي كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١٠١) ومكحول مولى بني هذيل فقيه دمشق وأحد أوعية العلم والآثار (١١٣) وعبد الله ابن عامر اليحصبي القاري المحدث أحد القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق (١١٨) وسليمان بن موسى الأشدق الفقيه وكان أعلم أهل الشام بعد مكحول (١١٩) وربيع بن يزيد شيخ دمشق بعد مكحول (١٢٣) وسليمان ابن حبيب المحاربي قاضي دمشق أربعين سنة (١٢٦) ويحيى بن يحيى بن قيس

الغساني كان ثقة إماماً عالماً بالفتوى والقضاء وسيد أهل دمشق (١٣٥) ويزيد ابن يزيد بن جابر الأزدي إمام فقيه (١٣٤) والعلاء بن الحارث الحضرمي الفقيه (١٣٦) ويحيى بن الحارث الذمّاري المقرئ الدمشقي وعليه دارت قراءة الشاميين (١٤٥) وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤) وعبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي البيروتي (١٥٧) كان إمام أهل الشام وعالمهم قيل: إنه أجاب في سبعين ألف مسألة ، وصار يُعمل بمذهبه في الشام نحو عاشر سنة وآخر من عمل بمذهبه أحمد بن سليمان بن حنبل قاضي الشام وعمل أهل الأندلس بمذهبه أربعين سنة ثم تناقص بمذهب الإمام مالك . وكان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعز من أمر السلطان . وكان مع علمه بارعاً في الكتابة والترسل .

ومن علماء الشام يونس بن ميسرة بن حنبل بن ثور بن يزيد الكلاعي الحمصي ، وكان ثقة في الحديث (١٥٣) والوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الأوزاعي وكانوا يقولون علم الشام عند إسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم فأما الوليد فمضى على سننه ميموناً عند أهل العلم متقناً صحيح العلم (١٩٥ أو ١٩٤) ومن المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدم الصنعاني وأبو مرثد الغنوي وإبراهيم بن جدار العذري ومبشر بن إسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأموناً (٢٠٠) ويحيى بن عمرو السيباني من أهل الرملة (وسيبان بفتح السين المهملة بطن من حمير) (١٤٨) وصعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس . وصدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي دمشق (١٦٦) والهيقل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم وله تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥) وعبد الله بن أبي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه ويجلسه معه على السرير (١١٧) ونمير بن أوس الأشعري المحدث (١٢١) وربيع بن يزيد القيصري من أئمة التابعين (١٢٢) وإبراهيم ابن أبي عبله من علماء التابعين (١٥٢) وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥) وسعيد بن عبد العزيز التنوخي الفقيه العالم (١٦٧) ومحمد بن الوليد الزبيدي كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث (١٤٨) ويحيى بن حمزة كان كثير الحديث وكان قاضياً بدمشق (١٨٣) وبقية بن الوليد الحمصي

المحدث (١٩٧) وأسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧) .

وحرص المسلمون في الصدر الأول بعد علم الدين على علم الطب ، وكان من الأطباء في القرنين الأول والثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهبهم منهم الحكم ابن أبي الحكم الدمشقي الطيب وكان أبوه أبو الحكم طبيباً في صدر الإسلام ، وكان أبو الحكم يستطبه معاوية ويعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الأطباء المتميزين بدمشق . ومنهم عيسى بن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير . وتياذوق كان في أول دولة بني مروان ومشهوراً عندهم بالطب ومنهم عبد الملك بن أبحر الكتاني كان طبيباً عالماً ماهراً يقيم في أول أمره في الإسكندرية لأنه كان المتولي للتدريس بها بعد الإسكندرانيين ، ولما ملك المسلمون الإسكندرية أسلم ابن أبحر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب .

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب إمام الإنشاء العربي وواضع أساسه وكان عالماً في كل فن من فنون الأدب (١٣٢) وهو الذي فك قيود الإنشاء وضبط أصوله وكان ختته سالم ويكنى أبا العلاء أحد الفصحاء والبلغاء . وقد نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر ونقل له وأصلح هو ، وله رسائل ومجموع نحو مائة ورقة . ومن الكتاب قنان بن متي وابنه قيس وحفيده الحصين ومنهم أسامة بن زيد أبو عيسى الكاتب التنوخي ويقال الكلبي . ومن المشهورين بالبلاغة والخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب إلى منبج ، وخالد بن عبد الله القسري الخطيب المفاوه (١٢٦) وأبو السامي وعبد الله بن خدش وأبو مسلم الشامي . .

ومن الناقلين أي المترجمين جبلة بن سالم ، وكان ناقلاً من العربي إلى الفارسي ، ونقل بعضهم شيئاً من تواريخ الأمم عن الفارسية . ولم يلبث النقل أن صار إلى بغداد بانتقال الخلافة إليها ، فانتقل بذلك المترجمون الذين أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف الطيب المهندس المترجم المصنف ، وكان يحسن العربية والسريانية واليونانية ، جيد النقل فصيح اللسان ، ومثل أبي عثمان الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي المعروف بابن الناعمة ، وزروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي وكلاهما من النقلة ، وهلال

ابن أبي هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وحنين بن إسحاق البغدادي المولد نشأ في الشام وتعلم فيه .

وللشاميين منذ القديم ميل إلى النقل عن الأمم الأخرى ، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الأول والثاني وكذلك في القرون التالية إلى يومنا هذا وهم أقدر الأمم على تعلم اللغات الغربية والتفصح فيها . وكان أكثر النقل عن السريانية ، وهذه نقلت عن العبرانية ، وهذه نقلت عن اليونانية ، ولذلك تعب فلاسفة المسلمين في حل رموز الفلسفة اليونانية لأنها نقلت عن نقل ، وذكر أحد المعاصرين من الإفرنج أن كتب أرسطو كانت تنقل ليفهمها أهل القرون الوسطى من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية ومنها إلى العبرية ومن هذه إلى اللاتينية وكان الترجمة بادية بدء لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب وينقلونها إلى اللاتينية حرفاً بحرف . وقال نالينو : إن أكثر نقلة القرن الثاني كانوا ضعافاً في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع وكثيراً ما ترددوا في تعريف المصطلحات العلمية المجهولة عند العرب في ذلك العصر ، ومن المعلوم أن طريقة التعريب لم تتقن إلا في القرن الثالث .

العلم والأدب في القرن الثالث :

لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة ، وتجلي آثار النبوغ والتجدد ، بل كان كالتتمة لبعض ما سمت له الهمم في القرنين الماضيين ، وعلى صورة ربما كانت أضعف ، زاد التدوين فيه أكثر من ذي قبل ، وأخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية وبقيت الشام بمعزل ، راحت العلوم الفلسفية في بغداد أواخر القرن الثاني والثالث وسرى منها شعاع إلى الشام ثم عراها ما خنقها . ومن أفضل على الشام الخليفة المأمون فإنه أنشأ فيها مرصداً فلِكياً عمله له يحيى بن أبي منصور وهو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في أيامه وكان ذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة بعد المائتين . وقام في الشام محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من المصنفات (٢٣٣) وعبد الله بن ذكوان القارئ الحافظ (٢٤٢) وهشام بن عمار خطيب دمشق وقارئها وفتيها ومحدثها (٢٤٥) وأحمد

ابن أبي الخواريزي من كبار المحدثين والصوفية (٢٤٦) ومحمود بن سميع صاحب الطبقات وأحد الأثبات الثقات (٢٥٩) وأبو زرعة الدمشقي النصري عبد الرحمن ابن عمرو المحدث صنف كتاباً (٢٨١) وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني شيخ دمشق وعالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز التنوخي وغيره من الشاميين (٢١٨) وصفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩) والقاسم بن عثمان الجوعمي شيخ دمشق وزاهداً (٢٤٨) والحافظ زكريا بن يحيى السجزي المعروف بخياط السنة (٢٨٧) وعبد الغفار بن عثمان والوليد بن مزيد العذري البيروتي كان من أهل العلم والرواية وكان الأوزاعي يقول، فيما عرفت ما حمل عني أصح من كتب الوليد بن مزيد (٢٠٣) وولده أبو الفضل العباس بن الوليد البيروتي كان من أهل العلم والرواية (٢٧٠) والإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبى أحد الأئمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومئة وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ وهو أول من صنف في أصول الفقه . ومن أعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذُكر عند عبد الله بن أحمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال: ما كان بالشام منذ أربعين سنة مثل محمد بن عوف . وعبد الله بن اسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي ومحمد بن عبد الله بن عبد السلام بن أيوب البيروتي وآدم بن أبي إياس العسقلاني من مشايخ البخاري (٢٢١) وهشام بن الغاز بن ربيعة الجُرثمي الصيداوي (٢٥٦) وأبو بكر محمد بن بركة القنسريني الحافظ ببرداعس سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها عن أبي جعفر أحمد ابن محمد بن رجاء المصيبي ويوسف بن سعد بن مسلم وهلال بن أبي العلاء الرقي .

ولقب حافظ كان يطلق على من يحفظ ألوفاً من الأحاديث بأسانيدها وكانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية ، ويطلقون اسم المحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والإسناد جميعاً ، والفقهاء على من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد . وكان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى والمحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي

ومعجم الطبراني وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية . هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر وكتب الطباقي ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين .

ومن كان في الشام الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق . وعثمان بن خُرَزاذ الأنطاكي المحدث . وأبو الحسن محمد الغساني الصيدواوي المعروف بابن جميع الحافظ المحدث وأبو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ . واحمد بن الخليل الحلبي المحدث وأحمد ابن المسيب الحلبي المحدث وعبد الله بن إسحاق الصُفَرِي المحدث وموئل الرمي وأبو توبة الربيع بن نافع ويزيد بن خالد الرمي روى عن أنيث بن سعد والمفضل ابن فضالة وروى عنه أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني وأبو زرعة الرازي وموسى بن سهل الرمي (٢٦٢) وعبد الله بن محمد بن نصر بن طويط ويقال طويث أبو الفضل البزاز الرمي الحافظ . سمع في دمشق هشام بن عمار ودُحَيْمًا وهشام بن خالد بن أحمد بن ذكوان ، ووارث بن الفضل العسقلاني ، ونوح بن أبي حبيب القومسي .

ومن شعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس وأصله من سَلَمِيَّة وإدريس بن يزيد النابلسي الأديب الشاعر وأدهم بن محرز والعتابي وأبو تمام . واشتهر في هذا القرن بالهندسة أبو بكر البناء المهندس الذي بنى لابن طولون ميناء عكا .

الأدب في القرن الرابع ونهضته على عهد سيف الدولة وأبي العلاء المعري :

قل في القرن الثالث في الشام الشعراء والأدباء ، ولم ينبغ فيه إلا رجال في الحديث ، والمغازي والفقهاء ، فطلع القرن الرابع وقد ظهر فيه الأدب العربي في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله ، ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير ، اللهم إلا إذا كان على عهد الأمويين ، ولم تبلغنا جميع أخبار شعراء سيف الدولة بن حمدان في حلب ، وقد قصده نوابغ الشعراء والأدباء ، قال الصفدي وكانوا يسمون عصر سيف الدولة الطراز المذهب لأن الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين من حوله لم يأت بعدهم مثلهم .

ذكر التعاليبي من شعراء الشام المحدثين العتابي ومنصور النمري والأشجع السلمي ومحمد بن زرعة الدمشقي وربيعة الرقي قال علي أن في الطائين (أبي تمام والبحري) اللذين انتهت إليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية وهما هما . ومن مولدي أهل الشام المعوج الرقي والمريمي والعباس المصيبي وأبو الفتح كشاجم والصنوبري وأبو المعتمم الأنطاكي ، وهؤلاء رياض الشعر وحدائق الظرف . ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً أورد صاحب اليتيمة من شعرائه ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينثقوا من أدهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الأيام .

وكان في هذا القرن أكثر الجهابذة والصياغين والصيافة والدباغين بالشام من اليهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى وانحطت مدن الشام في العلم انحطاطاً كثيراً ومنها حمص . ذكر السيوطي أنه نزلها خلق من الصحابة وانتشر بها الحديث زمن التابعين وإلى أيام حرير بن عثمان وشعيب بن أبي حمزة ثم إسماعيل بن عياش وبقية وأبي المغيرة وأبي اليمان ثم أصحابهم ثم تناقص ذلك في المائة الرابعة وتلاشى ثم عدم بالكلية .

كان أبو فراس الحمداني الذي قال فيه الصاحب بُدِءَ الشعر بملك وختم بملك ، يعني امرأ القيس وأبا فراس - ابن عم سيف الدولة وأعطاه على بيت واحد ضيعة بمنجج تغل ألف دينار . ولطالما أعطاه وأعطى الشعراء في بابه ولا سيما أبو انطيب المتنبي عشرات الألوف من الذنانير دع الإقطاعات والضياح ، وكان أبو بكر وأبو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف الدولة وكانا على خزانة كتبه كما كان عليها أيضاً السلامي والبيغاء والوأواء . وربما قلّ في الملوك من مُدَحٍّ بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى إن كلاً من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبي الحسن علي بن محمد السمساطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت . وكان أبو محمد الفياض كاتباً لسيف الدولة ونديمه معروفاً بعبء المديني في مضمار الأدب وحلبة

الكتابة ، أخذ بطرفي النظم والنثر ، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السفارة إلى الحضرة أحداً ، لحسن عبارته ، وقوة بيانه ، ونفاذه في استغراق الأغراض ، وتحصيل المراد .

ومن خواص شعراء سيف الدولة أبو العباس أحمد بن محمد النامي وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة ، ومنهم أبو الفرج عبد الواحد البيغاء من أهل نصيبين ومن شعرائه أو ما قربوا من عصره الخليل الشامي والوواء دمشقي وأبو طالب الرقي وأبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرقعق ، وأبو القاسم الحسن الواساني الدمشقي وأحمد بن محمد الطائي الدمشقي وابن أبي الجحوع وابن رشدين وكشاجم (وأقام كشاجم في الرملة كثيراً فسمي الرملي ٣٦٠) والصنوبري وأبو الفتح البكتمري وأبو الفرج العجلي وأبو حصين الرقي وأبو الفرج سلامة بن بحر . ومن علماء الأدب واللغة ابن خالويه وابن جني . ومن الشعراء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبدالله ابنا ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها . وكان جعفر بن ورقاء الشيباني (٣٥٢) من بيت إمرة وتقدم وآداب ، وكان المقتدر يجريه مجرى بني حمدان وتقلد عدة ولايات ، وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، ومن الشعراء منصور وأحمد ابنا كَيْغَلْغ وأبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البازيار وأبو زهير المهلهل نصر بن حمدان والمغمم المصري واسمه ابو الحسن محمد الشعباني وأبو عبد الله محمد بن الحسين وأبو نصر بن نباتة التميمي والشيطمي وأبو العباس الصُقَيْرِي وأبو العباس الناشيء وأبو نصر البنص ، وأبو القاسم الرقي المنجم الفلكي وعبد العزيز بن نباتة السعدي كان شاعراً مجيداً وله في سيف الدولة غرر القصائد (٤٠٥) ومن شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن أبي حصينة المعري (٣٢٧) ومن اجتمع بسيف الدولة وجالسه مدة ثم جاء معه إلى دمشق فتوفي فيها المعلم الثاني حكيم الإسلام أبو نصر محمد الفارابي صاحب التأليف الممتعة في الحكمة (٣٣٩) .

وأهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري التنوخي حكيم العرب وأديبهم ، وقد كانت المعرفة في أيامه كعبة القصاد ، من طلاب الآداب ، جذبهم إليها أبو العلاء ، فجعل بلده دار حكمة وأدب ،

كما جعل سيف، الدولة في القرن الذي قبله مدينة حلب مجمع الأدباء والشعراء بإحسانه ومشاركته . أحسن نابغة الشام أبو العلاء المعري إلى الآداب العربية أي لإحسان ، وهو من بيت أدب وفضيلة ، كان أبوه عبد الله بن سليمان لغويًا شاعراً ، وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله وأخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين ، وكان الشعر والأدب متسلسلاً فيهم من بطون كما تسلسل في بيتهم القضاء مدة مائتي سنة . ومن شيوخ أبي العلاء أبو بكر محمد بن مسعود النحوي ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي الحلبي ، ومن تلامذته أبو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التأويخ المشهور ، وأبو يعلى عبد الباقي ابن أبي الحصين ، وأبو محمد عبد الله الحفاجي ، ورشاً بن نظيف بن ما شاء الله المقرئ ، وهذا كان أول من أنشأ في دمشق داراً للقرآن في حدود سنة ٤٤٤ و الخطيب التبريزي والحسن بن علي بن همام والأمير أبو الفتح بن أبي حصينة وعشرات غيرهم من أهل المعرة وكفرطاب وحلب ودمشق وحمص وحماة وطرابلس والرقّة وهكار والمصيصة وبغداد وتبريز والأندلس إلى غيرهم من التنوخيين أهل بيته ، وكان أكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم . ومن ضحّب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيراً علي بن القاضي التنوخي كان من أهل بيت كلهم فضلاء أديباء ظرفاء . ومما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر وتغالي الناس في الشعر والأدب ما قيل من أن سبعين شاعراً رثوا المعري على قبره يوم مات ، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذلك العهد .

وقام في هذا القرن من العلماء إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي مقرئ أهل الشام (٣٣٨) ومن المحدثين عمر بن علي العتكي الأنطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب المقبول وعبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦) ومحمد ابن عبيد الله يعرف بابن أبي الفضل أبو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩) وأبو الدحداح أحمد بن محمد بن إسماعيل التميمي محدث دمشق كان يسكن في ربض باب الفراديس في طرف العقيبة (٣٢٨) قال القاسمي وإليه تنسب مقبرة الدحداح ، وعمر بن حسن الحرقى الحنبلي الدمشقي صاحب التصانيف العديدة وأحمد بن شرام الغساني أحد النحاة المشهورين بالشام

(٣٨٧) ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب أحسن التقاسيم المطبوع وأبو مسهر البيروتي المعروف بمكحول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١) وأبو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب (٣٥٩) والمنجم الصابي البعلبكي وأبو القاسم علي بن أحمد الأنطاكي كان رياضياً مهندساً وله تصانيف جليلة وكان مشاركاً في علوم الأوائل (٣٧٦) وإبراهيم الأزدي العجلي الأنطاكي الفقيه المقرئ (٣٣٨) ومحمد بن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب وغيره توفي في يافا (٣٢٧) ومحمد التميمي المقدسي والحافظ أحمد بن عمير مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل وصنف وذاكر وحدث (٣٢٠) وأبو الحسين بن كشكرايا الطيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاوي وعيسى الرقي المنجم الطيب وكلاهما من أطباء سيف الدولة . وكان عيسى ينقل من السريانية إلى العربية ويأخذ أربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين . وعبد الله بن عطية المقرئ الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة (٣٨٣) وعبد الرحيم بن نباتة الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان خطيب حلب وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة (٣٧٤) وقام في حلب أربعة من الشعراء المعدودين وهم أبو الحسن المستهام الحلبي وأبو محمد الماهر الحلبي وابن الفتح الموازيني الحلبي وأبو الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي . ومن الشعراء الشاميين أبو الجود الرسعبي واسمه محمد بن أحمد وأبو مسكين البردعي شاعر محدث ينتقل في البلدان وكان مجوداً . والخليع الرقي واسمه محمد بن أبي الغمر القرشي . ومن المهندسين الرياضيين المجتبي الأنطاكي (٣٧٦) وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة له تاريخ . وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ .

الآداب في القرن الخامس :

امتاز القرن الخامس بأن نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عُمنوا بالفلك والعلم الطبيعي والرياضي والطب ، كما امتاز بأن نبغ فيه في الأقطار العربية الأخرى من الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي

من هم فخر العرب على تعاقب الحقب . وقد انتقلت من كتبهم وأفكارهم أشياء كثيرة إلى الشام . ويصح أن يقال إن العلم اقترب من العلوم المادية في هذا الدور ، ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة والشعر ونقل الأحاديث والعناية بالدين وتم تدوين أقوال أرباب المذاهب والشعراء فانصرفت العناية إلى علوم الدنيا . ومن نشأ في هذه الديار أبو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والتقسيمات والهندسة وعلم الهيئة ونقش الرخام وضرب الخيوط والطب وله عدة تأليف (٥٠٠) ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك (٥٠٠) ورضوان الخراساني الرياضي ومحمد بن عبد الواحد المهندس صنف كتاباً في ركابة الزوال بدمشق ومعرفة طلوع الفجر بالمنازل منازل القمر (٤٠٩) وجورجس بن يوحنا البيرودي العالم بالطب وله عدة رسائل ومقالات . ومن المؤرخين حمزة بن أسد أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخاً للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته وقد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق . ومبارك ابن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهورة بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب في شيء من هذا النوع رجعوا إليها وله تاريخ حلب توفي في حدود سنة (٤٩٠) في صور . ومن الحفاظ محمد بن علي الصوري الحافظ قالوا : كان يذاكر بمائتي ألف حديث . قال غياث : سمعت جماعة يقولون ما رأينا أحفظ منه (٤٤١) والحافظ محمد بن جميع الغساني الصيداني ويقال له الصيداوي (٤٠٢) وعبد الواحد الشيرازي المقدسي الأنصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل أقام بدمشق وله تصانيف (٤٨٦) وسلامة بن إسماعيل ابن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفظ ألف تأليف (٤٨٠) والحسن ابن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعة مشهور بنثره (٤٨٢) .

ومن الكتاب والخطباء صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي الكاتب وأبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني كان صاحب الديوان بحلب ، وتادرس بن الحسن النصراني كان وزير صالح بن مرداس وعبد الله بن

أسعد فقيه حمص يعرف بابن الدهان . وعبد العزيز بن أحمد الكنايني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦) نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور ثم جاء دمشق (٤٩٠) علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) وهو الذي طلع إلى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم وطلبوه ليكون خطيب جامعهم فوثب أهل داريا بالسلاح وقالوا : لانعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم : أما ترضون يا أهل داريا أن تسمع الناس في البلاد أن أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام . ومن مشاهيره الحسين بن علي بن شواش الكنايني المقرئ (٤٩٧) والحسين بن علي بن إبراهيم الأهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦) والخطيب أبو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠) وأبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم (٤٥٦) ومن الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨) وأبو الفتان بن حيوس الحلبي الشاعر . ومحمد بن سنان الحلبي الشاعر وأبو مشكور الحلبي الشاعر وأحمد بن فضالة الدمشقي شاعر . وعلي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الأدب راوية للأخبار كتب لأبي العلاء المعري رسالته المشهورة فأجابه عنها برسالة الغفران وكلا الرسالتين مطبوع .

ومما يذكر في هذا القرن أن القاضي جلال الملك بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة لتكون مركزاً من مراكز التشيع ، فنشرت العلوم والآداب وأصبحت طرابلس مباءة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهاز هذه الجامعة الدينية بمئة ألف مجلد وربما كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها أول بلدة علمية في الشام على ما رأى فان برشم .

العلم والآداب في القرن السادس :

دخل القرن السادس وعلى كثرة ما كان فيه من الفتن نشأ للأمة علماء خدموا العلم في فنون مختلفة ، وكانت بالشعر أقل من عصر سيف الدولة وعصر أبي العلاء المعري ، وإن كان نور الدين وصلاح الدين وأسرتهما ممن يجيزون

عليه ويعجبون ويترنمون بسماعه ، وكان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلقون ، ومما عني به نور الدين محمود بن زنكي أنه كان يجلب العلماء من القاصية ويسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري وشرف الدين بن أبي عصرون ، يني لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مريديهم أنواع الإحسان ويلتر عليهم الرواتب . وقد أحصي فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه ، كان يعطيهم من صدقاته . ومن كتاب للقاضي الفاضل لصلاح الدين : ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار .

وأزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس ومنها نشأ أبو الفرج ابن العبري صاحب التاريخ المطبوع . وتعلم كثير من المحاربين والقواد والأمراء من الصليبيين اللغة العربية في الشام . في تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها : أما بشأن اللغة (أي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال على صورة مطردة ، وهو أن لغة الأكثر تمدناً أثر أهلها في غيرهم . وكان أكثر الأمم تمدناً بلامراء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان . وقد تعلم قليل جداً من العرب والترك والفرس لغة الإفرنج ما عدا بعض التراجمة الرسميين . وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم إلى فلسطين . إلى أن قال : ولا ريب أن مجاورة التمدن الإسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل . ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ فقد أخذنا عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الأرقام وشروح أرسطو حتى حمام الزاجل والشعار Armoiries وأدوات الموسيقى والأزياء والثياب والزهور والبقول . وبعد إذ حدث أحياناً أن الأشياء التي نقلت لم تكن تسمى إلا بأسماء المدينة الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان وثياب دمشق فإن غيرها قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة ويتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الحملة اه .

ونبع في هذا القرن أبو المجد محمد بن أبي الحكم ، وكان طبيباً مهندساً

فلكياً (٥٧٠) وأبو زكريا يحيى البياسي من أطباء صلاح الدين وعمل لابن النقاش وهو علي بن عيسى بن هبة الله أستاذه في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف التجارة وابن النقاش هذا كان أوحده زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للمشتغلين عليه وكان يعالج أيضاً كتابة الإنشاء (٥٧٤) وأبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم المغربي وهو عالم بالحكمة والطب والأدب والهندسة (٥٤٩)^(١). وعمر بن علي بن البدوخ الدمشقي عالم بالطب شاعر له تأليف (٥٧٦) وابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠) وموفق الدين بن المطران عالم بالطب والفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧) وقد نعى على أهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضاهمهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بتفاقم الخطب في هذا الشأن .

وأبو الفضل عبد الكريم الحارثي الدمشقي وهو مهندس طيب نجار نحات هندس أكثر أبواب المستشفى النوري الكبير اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث له عدة مصنفات (٥٩٩) وهو الذي أصلح الساعات التي لجامع دمشق . وعلي ابن عبد الباقي بن أبي جرادة العقيلي الأنطاكي الحلبي عالم بالأدب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف وأربعين وخمسمائة . زين الدين علي بن غانم الأنصاري الدمشقي المعروف بابن منجه الحنبلي كان من أعيان أهل العلم وله رأي صائب وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص . ومحمد بن ظاهر المقدسي ذو الرحلة الواسعة والتصانيف والتعاليق (٥٠٧) والحافظ أبو القاسم علي بن عساكر محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهاها صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١) وكتابه من أعظم المفاخر في التاريخ معدن أدب وركاز علم . وحمزة بن أسد أبو يعلى التميمي الدمشقي العميد بن القلانسي الكاتب صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق المطبوع . تولى رئاسة دمشق وجمع بين كتابة الإنشاء وكتابة الحساب توفي في عشر التسعين وأربعمائة ، وتوفيق بن محمد المهندس المنجم الأديب الدمشقي وله تصانيف (٥١٦) وأبو البيان محمد بن محفوظ

(١) قال العماد في الخريدة: إن أبا الحكم كان طبيب البيارستان الذي كان يحمله أربعون جملا المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم .

القرشي له عدة تصانيف (٥٠١) . ومخلص الدين أبو البركات عبد القاهر ابن أبي جرادة الحلبي كان أميناً على خزائن نور الدين وكان كاتباً بليغاً وشاعراً محيداً مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة . وعبد الرحيم البيساني المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة ومحبي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨) وعماد الدين الأصفهاني العالم الكاتب الشاعر صاحب التصانيف ومنها الفتح القدسي المطبوع (٥٩٧) ومحمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الأديب الشاعر الكاتب (٥٧٢) وعبد الله بن أبي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥) . وعلي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الحنفية (٥٤٨) وسلّم بن أيوب أحد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه والعربية نشر العلم في صور (٥٤٧) والحافظ محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالاً في الآفاق يجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف وله تصانيف كثيرة (٥٦٧) وبهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيرة صلاح الدين نشأ في حلب وعظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره وارتفاع منزلته ومجد الدين طاهر ابن نصر الله بن جهيل الحلبي والد بني جهيل الفقهاء الدمشقيين كان إماماً في الفقه والحساب والفرائض ، ومحمد بن خضر المعري شاعر . وتقي الدين عبد الغني الجماعيلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠) والحسين الأسدي مسند دمشق (٥٥١) وقطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨) والحسن بن هبة الله بن صصرى التغلبي المحدث (٥٨٦) وتاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤) وتقية بنت غيث الأرمنازي الصوري الشاعرة الأدبية ولها شعر سائر (٥٧٩) وعلي بن الموازيني مسند دمشق (٥١٤) وأبو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسماع (٥٩٨) . وموسى البلاغشاني الفقيه (٥٠٦) وعلي ابن إبراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨) وهبة الله بن أحمد الأكفاني الأمين المحدث (٥٢٤) وعلي بن مسلم السلمي الدمشقي الفقيه (٥٣٢) ونصر الله بن محمد المصيبي الدمشقي العالم (٥٤٢) .

ومن الشعراء والأدباء أحمد بن الحياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب

(٥١٧) وأحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصاف المشهور (٥٤٨) وطراد بن علي المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤) وأبو الوحش الشاعر وعبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه . وعرقلة الدمشقي النديم الخليع الشاعر ومحمد بن حرب النحوي الأديب (٥٨٠) والحسين ابن رواحة الأنصاري الحموي الفقيه الأديب الشاعر (٥٨٥) ومسلم بن خضر ابن قسيم الحموي الشاعر ، والحسن بن أبي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النحاة له مصنفات في الفقه والأصلين والنحو وله ديوان شعر (٥٦٨) وحسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧) وعلوي بن عبد الله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الأشهب الأديب المتفنن (٥٩٦) وأسامة بن منقذ صاحب كتابي الاعتبار ولباب الآداب وكلاهما مطبوع شاعر كاتب . وزرعة ابن موسى أبو العلاء الطبراني النصراني كاتب الأمراء بني منقذ كان معاصراً لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر .

وقد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي وهو فيلسوف قتله صلاح الدين بدسائس الفقهاء قتل بقتله الحكمة ، وهي صناعة الصنائع حتى إن سيف الدين الآمدي الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجروا أن يقرئ أحداً شيئاً من العلوم الحكيمية ، وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ إلا أشياء قليلة منها وقل الناغون والمشتغلون بها ، ولم تقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الأعلام ، ولم ينشأ من الأفراد أمثال قطب الدين النيسابوري والشهاب السهروردي وسيف الدين الآمدي ، ولقد أبان رنان كيف أن الفكر الديني لسوء حظ الإسلام تغلب بعد جدال طويل فختق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدنية العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية رديحاً من الدهر ، وارثة المدنية اليونانية . قال : وأوربا مدينة لمدينة العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى .

العلم والأدب في القرن السابع :

لما خرب التتر بغداد سنة (٦٥٦) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى

الشام ومصر ولم تكن انقطعت منها كل الانقطاع من قبل ، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق إلى دمشق والقاهرة . وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الإحصائيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبع الشام طبقة عالية عُدّت تأليفهم من الأمهات في خزانة كتب الأمة العربية ، ومرجعاً ثقة للأخلاف اقتبسوها من أعمال الأسلاف. فمن المؤرخين عمر بن أبي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب (٦٦٠) وهو كمال الدين عمر بن الصاحب السعيد قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن الصاحب السعيد قاضي قضاة جمال الدين أبي غانم هبة الله بن قاضي القضاة مجد الدين أبي عبد الله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة . بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة وعلم . ومن مفاخر هذا القرن بجلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الأكرم أحد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر وله تأليف أكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ومن كتبه المطبوعة مختصر تاريخ الحكماء . وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء والمشارك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦) وفي حماة إبراهيم بن أبي الدم صاحب التاريخ الكبير المظفري في الملة الإسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبد الرحيم البارزي قاضي حماة وابن قاضيتها وأبو قاضيتها . وفي حماة أيضاً علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين بن واصل (٦٩٧) كان إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والأصول والهيئة ألف تاريخاً في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الانبرورية في المنطق صنعها للانبرور ملك الإفرنج صاحب صقلية وانبولية وأنكبردة لما توجه إليه رسولاً في أيام الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩) . ونبع من المهندسين إبراهيم بن غنّام المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق ، واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل إليها في زاوية المدخل ، وهو الذي هندس القصر الأبلق

الذي قامت التكية السليمانية في القرن العاشر على أنقاضه . ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر بن أيوب خلف عدة مصنفات منها المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء وكان في خدمته قريب مثنى متعمم من النحاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك . وجاء الناصر داود ابن الملك المعظم وكان شاعراً أديباً وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم . وجاء الأ مجد بهرام شاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان شاعراً رقيقاً وله ديوان (٦٢٨) ونبغ في دمشق أحمد بن خلكان قاضي قضاتها الفقيه المورخ المدقق وصاحب وفيات الأعيان المتبحر المطبوع (٦٨١) وأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الأطباء المطبوع (٦٦٨) وعبد الرحمن أبو شامة له عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والأول مطبوع . ويوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ ، المطبوع منه الجزء الثامن وهو الأخير ، أقام زمناً في دمشق (٦٥٤) وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقة في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها إلا المديجات . ومن النوابع في دمشق عز الدين الإربلي الفيلسوف الضرير كان بارعاً في الفنون الأدبية رأساً في علوم الأوائل يقرئ المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠) وعاش في دمشق أيضاً حكيمان عظيمان من حكماء الإسلام وماتا فيها هما سيف الدين علي الثعلبي الآمدي سيد العلماء وأزكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمة والمذاهب الشرعية والمبادي المنطقية أقام سنين كثيرة في حماة مستتراً ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه إلى الانحلال . وقد صنف في أصول الفقه وأصول الدين والمعقولات عدة مصنفات طبع له كتاب الإحكام ومات في دمشق سنة (٦٣١) والثاني الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلسي الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف وله عدة مصنفات في الأخلاق وكلام القوم منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨) ونبغ في دمشق شمس الدين الخوي العالم في الحكمة والشرع والطب وغيره وله تأليف (٦٣٧) ورفيع الدين الجلي عالم بالعلوم الحكيمة وأصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب وله تأليف

(٦٤١) وإسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن المعلم كان شيخ الحنفية في وقته وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر الأديب له تأليف (٦٦٧) وأخوه جمال الدين بن الرحبي الطبيب العالم ورشيد الدين الصوري طبيب متفنن في علوم كثيرة وله عدة تصانيف في الطب . ومهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري طبيب متميز في العلوم الحكيمة وأديب له من الكتب شرح التوراة (٦٢٤) والصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال عالم بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣) ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف بالدخوار عالم بالطب وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق، ونجم الدين يحيى بن البردي عالم في الحكمة والهندسة والعدد صاحب المدرسة الطبية المنسوبة إليه في دمشق وصاحب دار الهندسة أيضاً ألف وله ثلاث عشرة سنة في الرد على عبد اللطيف البغدادي وله عدة مصنفات (٦٢١) وعلاء الدين علي بن أبي الحزم بن النفيس الدمشقي صاحب التصانيف الكثيرة كانت تصانيفه يملؤها من حفظه وكان مشاراً إليه في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق .

وشمس الدين بن المؤيد العُرُضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق ودعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد وكان العُرُضي وابنه محمد من علماء الفلك وتولى مؤيد الدين الأرصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة في متحف درسدن في ألمانيا. وعثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣) وعلي بن محمود اليشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك وحل التقاويم شاعر خطاط (٦٨٠) وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب وعلوم الأدب له تصانيف طبية (٦٥٠) ونجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العاملة وكانت أمه عالمة بدمشق وتعرف بينت دهين اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب له مؤلفات (٦٥٢) عز الدين ابن السويدي الدمشقي عالم بالطب والأدب شاعر مجيد . يعقوب السامري عالم بالطب وعلوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١) وعلي بن خليفة بن أبي أصيبعة عالم بالطب والعربية وله كتب في الطب وغيره (٦١٦) وعبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزاً في الحكمة والطبيعي والطب وأصول الدين والفقه والخسر وشاهي من أصحاب التصانيف الجلييلة في المنطق والحكمة ومن تلاميذ فخر الدين الرازي وعفيف الدين التلمساني الدمشقي

أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠) وعبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيهه وقته (٦٢٠) وأحمد ابن هبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩) وكريمة بنت عبد الوهاب بن علي مسند الشام أم الفضل القرشية الزبيرية وتعرف ببنت الحقبق (٦٤١) وفاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدث (٦٧٨) وفاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣) وست العرب بنت يحيى بن قايمز أم الخير الدمشقية الكندية المحدث. وست الكتبة بنت الطراح المحدث وزينب بنت علي بن أحمد بن فضل الصالحية محدثة . وعائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدث (٦٩٧). وعلي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق وخصوصاً في العربية . وعبد الوهاب ابن سحنون طيب وله شعر وأدب وفقه (٦٩٤) وزيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفسر عُرف بعلو السماع (٦١٣) وعلم الدين السخاوي المقرئ النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧) وإبراهيم بن أحمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦) والقاسم بن أحمد المرسي اللورقي شيخ القراء والمتكلمين (٦٦١) وعبد الكريم بن الحرستاني خطيب الشام (٦٦٢) وعبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الإسلام له تصانيف (٦٦٠) والحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢) ورشيد الدين الربيعي مفسر لغوي كاتب (٦٨٧) ومحمد بن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وجاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجيلي مسند دمشق (٦١٨) والحافظ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله الأنطاقي المحدث (٦١٩) ومكرم بن محمد بن أبي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥) وإسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (٦٧٦) وعبد العظيم وهو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥) والقاسم بن أبي بكر الإربلي المقرئ المحدث (٦٨٠) ومحمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠) .

وجاء من العلماء في الشام عبد الله الجماعيلي الإمام في الخلاف والفرائض والأصول والفقه والنحو والحساب والنجوم والمنازل (٦٢٠) ويعقوب بن صقلان المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الأنطاكي وعرف بها (٦٢٦) ونجم الدين النخجواني كانت له عارضة قوية في علوم الأوائل ونفيس الدولة بن طليب

الدمشقي وولده صفى الدين النصراني الملكي ومحمد بن القيسراني الدمشقي عالم بالأدب والهيئة (٦٣٠) وأبو الفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات وعلم حل الزيج وتسيير الموالي (٦٠٤) وأحمد بن هبة الله المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي اللغوي وعبد الله اليونيني المحدث . ونجم الدين القمرابي عالم بالحكمة والشريعة . وشرف الدين المتاني عالم بالحكمة والشريعة وهما اللذان ذهبا إلى الموصل مختفين ليلقيا الفيلسوف الأكبر كمال الدين بن يونس وحلا لغزه في الحكمة ، وكان عجز العلماء عن حله ، فسألهما عن موطنهما فقالا الشام فقال : من أي موضع منه قالوا من حوران فقال : لا أشك أن أحدكما النجم القمرابي والآخر الشرف المتاني . وفي هذا دليل على شهرتهما في العلوم الحكيمة والدينية . وقمرا مزرعة يقال لها قميرة اليوم ومتان قرية صغيرة وهما من قرى صرخد في جبل حوران .

وكانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفرطاب التي خربت في أواخر الخامس . قال ابن العديم كانت كفرطاب مشحونة بأهل العلم وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به . وهاتان المدينتان أصبحتا الآن قريتين حقيرتين ، وكان في قرى غوطة دمشق علماء وفقهاء ويختلف إليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تأليف الحافظ ابن عساكر كتب في روايات أهل داريا وكفرسوسة وصنعاء دمشق والروبة والتيرب ومن حدث بهما وأهل الحميريين وقبيبة وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والبلاط وبيت سوا ودومة ومسرابا وحرستا وكفربطنا ودقانية وحجيرة وعين ثرماء وجديا وطرميس وبيت لها وبرزة . ومن هذه القرى ما دثر الآن ، وذكر المحدثين من أهل مَنين وأهل بعلبك مما دل على العناية بالحديث في القرن السادس .

ومحمد بن مياس العُرماني الشاعر الأديب وموسى القمرابي الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥) ومسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر والتاج الصرخدي محمود بن علي التميمي الشاعر المحسن (٦٧٤) والرشيد البصري سعيد بن

علي أحد أئمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر (٦٨٤) وعلي بن بليان الكركي (٦٨٤) والفخر البعلبكي عبد الرحمن الحنبلي الفقيه المحدث (٦٨٧) وعبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة قال الصفدي: لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح وبرع في الفقه وحدث كثيراً (٦٦٢) ونبغ في حماة ابن بركات له تأليف في التاريخ. وأبو بكر بن الخيثمي الحموي كان إماماً في الأدب ومحمد بن المظفر بن أبي بكران الحموي عالم الأئمة الفقيه المحدث. وعبد العزيز بن حجة الحموي الشاعر الأديب وأبو المحاسن محمد بن نصر بن عُنَيْنِ الدمشقي الشاعر (٦٣٢) ومحمد بن أبي الفضل الدوّلي الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥) ومحمد شمس الدين الأنصاري الكاتب بدمشق (٦٥٠) ومحمد بن العفيف التلمساني الشاعر (٦٨٨) ومحمد بن سوار ابن إسرائيل شاعر (٦٧٧) ومحمد بن عبد المنعم التنوخي شاعر (٦٦٩) وابن الساعاتي الشاعر الدمشقي صاحب الديوان المطبوع (٦٠٤) وفتيان الشاغوري الدمشقي الشاعر المبدع (٦١٥) وتقي الدين اليلداني المحدث (٦٥٥) وعلي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦) وأبو المحاسن الشواء الشاعر الحلبي (٦٣٥) ومحمد بن أبي اليسر التنوخي الدمشقي الكاتب الشاعر (٦٦٩) وعبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري البدري الدمشقي إمام فقيه ناظم ناثر له تصانيف جيدة (٦٩٠) ومحمد ابن سعادة مفسر أصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وعبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف (٦٦٠) وعبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤) ومحمد بن عبد الواحد السعدي المحدث الأصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣) والحافظ خالد بن يوسف النابلسي (٦٦٣) وأبو السخاء فتیان الحلبي النحوي. ويحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن أبي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء (٦٣٠) ويحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث. وأحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي محدث ويعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزنجشري المطبوع وشرح تصريف الملوكي لابن جني المطبوع منه المتن (٦٤٣). وكانت حلب لما دخلها ابن خلكان في هذا العصر في سنة (٦٢٦) للاشتغال بالعلم أمّ البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين. ومما انفرد

به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق فكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدينية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها الذي بني في القرن الرابع ولا بغداد بمدرستها النظامية .

الإمام ابن تيمية والإصلاح الديني والأدب والعلم في القرن الثامن :

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، أراد إرجاع الدين إلى نضرتة الأولى ، وتعريته من القشور التي ألصقتها به الجهلة المتتمسون ، فأذوه وعذبوه ، وسجنوه ونفوه ، ونعني به شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية نابغة النوايغ في الشرع وصاحب التأليف العديدة المتمعة المطبوعة ، وإمام المعقول والمنقول ، وسيد العلماء ، ورأس الفقهاء (٧٢٨) وإن دمشق لتفاخر وحق لها الفخر بأنها تجلت فيها روح ابن تيمية ، ودفنت أعظمه في تربتها ، ولكن عصره يخجل كل الخجل من أعمال من ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد ، ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فأكثروا من أذاه ، طمعاً في نيل الخطوة من العامة والملوك واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة مصر والشام فاعتقلوه زماناً في القاهرة والإسكندرية ودمشق ، والأمة وعقلاء علمائها تقدسه حتى لقي ربه . وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الإسلام « لوثيروس » صاحب المذهب الإنجيلي في النصرانية بيد أن مصلح النصرانية نجح في دعوته ، ومصلح الإسلام أخفق وبالأأسف .

قال السيوطي : إن دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك وأولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التابعين وتابعيهم ثم إلى أيام أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري وهشام ودحيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم أصحابهم وعصرهم . وهي دار قرآن وحديث وفقه ، وتناقص بها العلم في المائة الرابعة والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين

وأيام محدثها ابن عساكر والمقادسة النازلين بسفحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية والمزني وأصحابهما .

ونبع أفراد في هذا العصر ولا سيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث، ومنهم بدمشق البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمعجم الكبير (٧٤٠) والحافظ جمال الدين المزني صاحب التصانيف (٧٤٢) والحافظ محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة والأدب والتاريخ وله عشرات من المصنفات أكثرها في التاريخ والرجال منها تاريخ الإسلام والمشتبه وميزان الاعتدال وطبقات الحفاظ وهذه الثلاثة الأخيرة مطبوعة (٧٤٨) والحافظ عمادالدين بن كثير المفسر المؤرخ الفقيه صاحب التأليف ومنها تاريخه المطول المطبوع (٧٧٤) ومحمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي الإمام الحجة المجدد من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٥١) طبعت بعض كتبه في السنة ومن أهمها إعلام الموقعين . وأحمد بن فضل الله العمري الدمشقي إمام أهل الأدب والتاريخ والجغرافية والأسطرلاب وحل التقاويم وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الأبصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان . ومسالك الأبصار معلمة أدبية تاريخية كبرى (٧٤٩) وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة من المطبوع منها الوافي بالوفيات (أجزاء) ونكت العميان وشرح قصيدة ابن زيدون والأرب من غيث الأدب وتشنيف السمع والغيث المنسجم ونسب الجراكسة ولوعة الشاكي وجنان الجناس إلى غير ذلك (٧٦٤) والملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء وكان عالماً فقيهاً مؤرخاً جغرافياً فلكياً منها تاريخه وكتابه تقويم البلدان وهما مطبوعان (٧٣٢) وكان يفضل على العلماء كثيراً أوى إليه أثير الدين الأبهري فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباتة في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به . وبعمل الملك المؤيد أبي الفداء وعمل أسرته من قبل ومن بعد أصبحت حماة مدينة علم وأدب وخرجت رجالاً يفتخر بهم في تاريخ العلم وكانت أشبه بالقرى في القرون الأولى للفتح الإسلامي . ومثل هؤلاء الملوك على صغر ممالكهم كانوا مادة العلم والأدب في تلك العصور ، وكثيراً ما كان ملوكنا هؤلاء يجتالون

لنشر العلم بطرق غريبة حتى إن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزنجشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة . ومن قرأ المفصل تعلم النحو والأدب معاً . وفي أواخر دولة المعظم عيسى هذا وفي دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل وكثر ذلك فأحمد في الدولة الأشرفية . ولعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذي أوعز به ملك مصر إلى فقهاء الشام في القرن الثامن كان من جملة ما ارتآه الجاحدون من الأسباب للنيل من المجددين .

وجاء في هذا العصر أبو بكر محمد الأنصاري المعروف بشيخ الربوةالدمشقي كان يعرف الرمل والأوقاف ونحو ذلك من العلوم وهو صاحب نخبة الدهر في التوزموجرافيا والجغرافيا المطبوع والسياسة في علم الفراسة (٧٢٧) وأبو بكر بن عبد الله بن أيك صاحب صرخد له تأليف كثيرة . ومحمد الأكل بن مفلحالدمشقي الفقيه المؤرخ (٧٦٤) ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ (٧٦٤) . وعمر بن الوردى المعروف بابن أبي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة كان فقيهاً أديباً (٧٤٩) . وعلي بن إبراهيم علاء الدين بن الشاطر الفلكيالدمشقي (٧٧٧) ويعرف أيضاً بالمطعم الفلكي ، كان أواخر زمانه يعرف تطعيم العاج وعالماً بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من أحسن الدور وضعاً وأغربها ، وله الزيج المشهور والأوضاع الغربية التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجامع دمشق يقال : إن دمشق زينت عند وضعه ، وفي تاريخ الصالحية أن ابن الشاطر هو صاحب الأسطرلاب والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع وألف الزيج والكرة وله الرسالة عليها . ويعرف علم الخيط في المزولة وتركيبها .

ومن المهندسين محمد بن إبراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد التقي المهندس كان معاصراً لابن فضل الله وحدثه بأحاديث عن الجامع الأموي وشهاب الدين أحمد الحموي النقاش كتب الختمة

الشريفة من أولها إلى آخرها على خاصة مفصلة الأجزاء والسور . ومن المحدثين
 الحافظ علي بن محمد اليونيني البجلي (٧٠١) قال الزبيدي وله ولأبيه ترجمة
 حسنة وإخوته البلدر الحسن والقطب موسى وأمة الرحيم حدثوا ومن ولده الصدر
 عبد القادر وعم أبيه الزين عبد الغني وهم بيت علم وحديث . وعمر بن إبراهيم
 العجمي الحلبي فقيه فرضي حاسب له مصنفات (٧٧٧) وحسن بن عمر بن
 حبيب الحلبي له عدة تأليف منها درة الأسلاك في دولة الأتراك وأكثر
 كتبه مسجعة (٧٧٩) وعلي بن مظفر الوداعي المقرئ المحدث الكاتب وقف
 التذكرة الكندية في خمسين مجلداً وضعها في المدرسة السيمساطية وهي بخطه
 في فنون مختلفة (٧١٦) وقاضي القضاة بدمشق عبد الله المقدسي (٧٣١) والجلال
 الفزويني إمام البيان صاحب المصنفات والمثل السائر في الخطابة (٧٣٩) وعلي
 ابن سليم بن ربيعة الأذري فقيه أديب نظم التنبيه في الفقه في ستة عشر ألف
 بيت وشعره كثير (٧٣٢) وعبد الله بن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣)
 وأحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥) ومحمد
 ابن أبي بكر الأرموي القراني صاحب التأليف (٧١٤) وصلاح الدين خليل
 ابن كيكليدي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة
 (٧٦١) وشيخ قراء دمشق أحمد بن محمد بن أبي الحزم سبط السلعوس (٧٣١)
 وأحمد بن البرهان له مصنفات (٧٣٨) . ومحمد بن عبد الهادي البحر الزاخر
 في العلم (٧٤٤) وشيخ القراء ذو الفنون إبراهيم بن عمر الجعبري بالخليل (٧٣٢)
 وتصانيفه كثيرة . ومحمد بن جماعة الكناني الحموي له معرفة بفنون وله عدة
 مصنفات (٧٣٣) ومحمد بن علي المؤذن المعروف بابن أبي العشائر (٧٨٩) له
 عدة مصنفات منها تاريخ قنسرين . وعبد الرحمن الفقيه المواقبي سبط الأبهري
 وكان له يد طولى في الرياضي والوقف والعمليات ومشاركة في فنون (٧٣٣)
 وهبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨) وعثمان بن
 محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠) وإسماعيل بن محمد بن
 جمال الدين بن الفقاع الحموي (٧١٥) العالم بالقرآت العربية درس في
 عدة مدارس بحماة وشهاب الدين السبكي الفقيه له تأليف (٧٧١) والكمال
 ابن الزملكاني الفقيه الأصولي العالم بالعربية صاحب الرسائل (٧٢٧) والأمير

العالم الشاعر أبو بكر محمد بن صلاح الدين بن صاحب الكرك (٧٣٠) وسليمان ابن أبي العز الأذرعي الفقيه (٧٠٧) والقاسم بن محمد الإشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩) ومحمد بن سليمان الصرخدي المصنف الجامع بين أشات العلوم (٧٩٢) وقاضي القضاة يوسف المحجي (٧٣٨) وابن أخيه محمود بن محمد ابن جبلة الخطيب ومحمد بن إسماعيل الكفربطناوي من فقهاء المدارس ، وقاضي قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعوني ومحمد بن يعقوب المعروف بابن صاحب الحلبي (٧٦٣) فقيه أديب كاتب ومحمد بن عيسى البعلي كان صاحب فنون (٧٣٠) وأسمى بنت محمد بن سالم بن صصرى التغلبية المسندة المحدثة (٧٣٣) وزينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء . وست العرب ابنة محمد بن علي الدمشقية المحدثة كانت حية سنة ٧٦٦ ومن الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق (٧٣٢) وأحمد بن الصلاح البعلبكي الطبيب في بعلبك صاحب التأليف .

ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧) والحسن بن علي المحدث الكاتب المجود (٧٣٢) ومحمد بن الحسن الصائغ العروضي الأديب الشاعر له تأليف (٧٢٢) وأحمد أبو جلنك الشاعر الحلبي (٧٠١) . ومن كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل (٧٥٥) وأحمد الأنصاري . إلى أمثالهم ممن نبطوا العلم ونشروه وأظهروه .

ويلاحظ أن أعلاماً من العلماء اشتهروا في هذا القرن والذي قبله وبعده ، وكثير منهم نشأ من قرى الجنوب والشمال ، والقرى ما زالت مادة المدن في العلم والأدب كما هي في الزرع والضرع ، ومن مواظهم اليوم من لا يعرف شيئاً مما يطلق عليه اسم العلم ، وبعضها في جاهلية جهلاء ، مثل زملكا وحرستا وكفربطنا والمزة وبلدا وداريا وإزرع ومحجة ونوى والجلدور ويبرود والبقاع وعجلون وصرخد ومان وقمرا وحسبان والكرك وجبرين ويونين وأنطاكية وصفد وبعلبك والمرة وكفرطاب وشيزر . وتوشك بعض تلك القرى أن تدثر ، وأعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسبحان من هذا شأنه .

العلوم في القرن التاسع :

بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم، وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ، والسبب أن حكومة المماليك البرجية والبحرية كانت تشدد في إرهاب المتفلسفة والمتفقهة على غير الأصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى أربعة أئمة: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي. فكان المخالف قليلاً يعزر على مذهب المالكية ، والقتل أيسر مراتب التعزير عندهم ، ثم زادت الحال اشتداداً في أوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر ، وقتله لبعض العلماء ، وحمله إلى سمرقند كل ممتاز بعلم أو صناعة . ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجهمهم ، ومنهم أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة صاحب الطبقات وغيره (٨٥١) وأحمد بن علاء الدين حجي الحسيني الدمشقي الحافظ المؤرخ له كتاب سماه الدارس في أخبار المدارس ولعله الأصل لكتاب النعمي في المدارس وله ذيل على تاريخ ابن كثير وغيره (٨١٥) وأحمد بن محمد بن عربشاه له عدة مصنفات في الأدب والتاريخ شاعر كاتب مجيد في اللغات العربية والفارسية والتركية ومن تأليفه عجائب المقدور في أخبار تيمور وهو مطبوع (٨٥٤) وصالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت وأمراء الغرب المطبوع كان في أواسط القرن التاسع ونقل عن أحمد بن شباط الغربي الأديب المؤرخ أيضاً .

ومن الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلوني الفقيه كان في الشاميين نظير البيجوري في المصريين (٨٢٥) وإبراهيم بن إبراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب ومتعلقتهما له تأليف (٨٥٠) وإبراهيم بن علي الحسيني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق والحكمة وأدب البحث وغيرها . وإبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه (٨٠٣) وعبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة (٨٣٤) وتقي الدين الحصني عالم له مصنفات في الفقه وغيره (٨٢٩) وأبو بكر محمد بن مزهر الدمشقي الفقيه انتهت إليه رئاسة عصره (٨٣٢) وعلاء الدين البهائي الغزولي عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البذور في منازل

السرور مطبوع ، وإبراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان إماماً بالعربية والأدب والدين والتاريخ له نظم الدرر في تناسب الآي والسور في التفسير وعدة تواريخ للرجال ، وعبد الله التنوخي الأمير اللبناني المعروف بالسيد فقيه أديب مشارك في الطب والفلك طبعت بعض رسائله في الوعظ (٨٨٤) ، ومحمد بن أحمد الباعوني (٨٧١) له مؤلفات منها منظومات في التاريخ .

ونشأ في هذا القرن أحمد الطولوني كبير المهندسين وكان أبوه وجده مهندسين . وخليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخاً للحوادث وغيره (٨١٥) ومحمود العيني (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره . وعبد الرحمن ابن العيني عالم دمشق في هذا القرن . وأحمد المقدسي المشهور بابن زوجة أبي عذبية (٨٥٦) صاحب تاريخ دول الأعيان . وأحمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة (المطبوع) وإنباء الغمر . وأحمد بن خليل المعروف بابن اللبودي له أدب وشعر وبعض تأليف (٨٩٦) وأحمد بن المحوجب عالم بالدينيات واللسانيات . وأحمد بن عبد الله العامري فقيه أصولي له تأليف . وأحمد بن محمد الكشك عالم فقيه (٨٣٧) وزين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات ومنها طبقات الخنابلة المطبوع . وأبو العباس المالكي الفقيه العالم الملقب له عدة مصنفات . وعبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموي فقيه أديب له مصنفات . ومحمد بن خليل القباقي الحلبي (٨٤٩) إمام في القراءات صنف فيها . وعبد الله ابن قاضي عجلون فقيه عالم بالمعقولات (٨٦٥) وقاضي القضاة العوني الناصري خطيب الخطباء (٨١٥) . وصدقة الجيدوري المقرئ (٨٢٥) ونور الدين أبو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تأليف كثيرة . ومحمد الجزري الدمشقي المقرئ صاحب المصنفات الجليلة منها كتاب الطبقات ، والنشر في القراءات العشر طبعاً (٨٣٣) وعائشة بنت عبد الهادي محدثة دمشق (٨١٥) وأبو البقاء البدري له تأليف (٨٨٧) وعلاء الدين ابن خطيب الناصرية الحلبي المؤرخ (٨٤٣) وأبو بكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وغيرهما وهما مطبوعان وكان رئيس أدباء عصره (٨٣٧) . وزين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب

في عدة فنون وله أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض .
 ومحمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له عدة تأليف منها الدر
 المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره . وأحمد السرميني الحلبي الفلكي
 (٨٢٤) كان إماماً في الهيئة وحل الزيج وعمل التقويم . وعبد الملك الباني
 الحلبي (٨٣٩) علّم بالقراآت له نزهة الناظرين في الأخلاق . وعز الدين
 ابن عبد السلام السعدي المقدسي العالم الرحلة صاحب التأليف (٨٥٠) . وأبدر
 البشتكي محمد بن إبراهيم الدمشقي (٨٣٠) . وعلي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له
 كتاب في الفقه اسمه معين الحكام . وابن حبيب الحلبي (٨٠٨) له عدة مصنفات .
 وعبد الله بن جماعة المقدسي صاحب التأليف (٨٦٥) . والبرهان الحلبي المحدث
 (٨٤١) وعبد الله توقشندي المقدسي عالم زمانه في الأرض المقدسة (٨٦٧) .
 ومن علماء السريان نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة في حلب . وقد امتاز
 هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال اللويهي في حوادث سنة ٨٧٥ هـ : وقد
 أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فإذا هم
 ينيفون على مئة وعشرة وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالي المربع
 وتمسكوا بالسرياني المدور .

انحطاط العلم والأدب في القرن العاشر :

زاد انحطاط العلم في القرن العاشر ، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة
 على المعارف في هذه الديار مثل القرنين السالفين . وكانت الآداب تسير إذ
 ذاك بقوة التسلسل منبعثة من قوتها القديمة ، وإذ اختلف لسان الحاكم والمحكوم
 عليه ، وخصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك ، مالت
 النفوس عن العلم ، اللهم إلا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته وقليل
 ما هم . ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولّون المدارس في الشام
 أحداً من أبناء العرب ، زاعمين أن العلماء في العرب كثير وأنهم إن ولوا
 عربياً من غير طريقهم ، كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن إرضائهم ،
 وضاق الأمر على ملازمي الروم . وحصر الترك عنايتهم بالاستانة كما حصرها
 من قبل ببورصة ، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم ، بل جامعة ذلك

العصر ، كما قال جودت . وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون إلى القسطنطينية زرافات ، ولذلك لم يكن حظ للولايات دغ البعيدة من عناية الدولة العثمانية بها وترقيتها في العلم والآداب .

وتسلسل العلم الديني في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن والذي بعده على صورة غريبة مثل بني الغزي وحمزة وفرفور والعمادي والنبلسي ومفلح وممن نبغ بدمشق محمد بن محمد الغزي العالم بعلوم اللسان وغيرها وله عدة مصنفات (٩٣٥) . ومحمد بن بدر الدين الغزي الفقيه المفسر النحوي المحدث المقرئ الأصولي النظار المؤرخ وله مئة وبضعة مصنفات (٩٨٤) . وعبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ والأدب (٩٩٢) . وامتاز في الدينيات محمد بن حمزة (٩٣٣) وعلي بن إسماعيل بن عماد الدين (٩٧١) وإسماعيل النبلسي (٩٩٣) . وإبراهيم بن عمر بن مفلح (٩١٧) . وكان فيه محمد بن علي بن طولون النحوي الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه ومنها المطبوع (٩٥٣) . وعبد القادر النعيمي المؤرخ المحدث ألف كتباً كثيرة منها الدارس (٩٢٧) . وعبد الباسط العلموي اختصر بعض كتب النعيمي وزاد عليها ومنها مختصر الدارس (٩٨١) . وابن سكيكر الدمشقي المؤرخ له زبدة الآثار في ما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار (٩٨٧) . وبهاء الدين محمد بن يوسف الباعوني ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (٩١٠) . ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التأليف (٩٥٠) . ومحمد بن مكّي عالم بالطب والهيئة والهندسة والفلك (٩٣٨) وعرف بالمهارة في الفقه وغيره . وأبو بكر البلاطسي (٩٣٦) . وأبو بكر محمد القاري (٩٣٥) وأبو الفتح البستري (٩٦٢) . وأحمد بن محمد الشويكي له تأليف (٩٦٦) وإسماعيل الكردي الباني عالم بالمعقولات (٩٥٦) . وعثمان الآمدي وهو خطيب متفنن (٩٨٥) . ومحمد بن محمد بن عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦) . وأحمد بن أحمد الطيبي الفقيه النحوي له عدة مصنفات (٩٧٩) . وأسد الشيرازي عالم في البلاغة والعربية والمنطق والأصلين والفقه (٩٩٨) . ومحمد بن هشام نحوي (٩٠٧) ، ومحمد بن منيعة (٩٠٤) . ومحمد الكنجي له يد في النحو والحساب والميقات والقرآن (٩٣٢) . ومحمد الكفرسوسي

(٩٣٢) . ومحمد الميداني عالم بالقراآت والعربية له عدة مصنفات (٩٢٣) .
 وإبراهيم بن الهلالي فقيه محدث (٩١٦) . وأبو بكر ابن قاضي عجلون إمام
 مفنن (٩٢٨) .

وجاء في القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي صاحب تاريخ
 القدس والخليل المطبوع . وبرهان الدين المقدسي الفقيه الأديب له عدة مصنفات
 (٩٢٢) . وفي غزة أبو عبد الله محمد بن قاسم الغزي (٩١٨) له كتب في الفقه
 والأصول وغيرها . وإبراهيم بن يوسف الحنبلي المعروف بابن الحنبلي له عدة
 كتب (٩٥٩) . وفي دمشق يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب
 الرسائل والكتب الكثيرة في الفنون المختلفة وهو أشبه بالسيوطي في مصر بكثرة
 تأليفه وتنوع موضوعاته طبع له كتاب مساجد دمشق . وفي حلب محمد ابن
 الحنبلي المؤرخ العالم له عدة تأليف منها تأليف في تاريخ حلب (٩٧١) . وعبد
 البر ابن الشحنة الحلبي الأصولي الفقيه (٩٢١) . وعمر الشماع الحلبي المؤرخ
 المحدث له عدة مصنفات (٩٣٦) . وفي الرملة شمس الدين الرملي العالم الفقيه
 (٩٢٣) . ونشأ في حلب خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين (٩٧١) عالم بالحساب
 والميقات والهيئة والوقف والموسيقى والطب وهو صاحب شجرة الإفادة بشرقية
 جامع حلب الأعظم . وفي حماة محمود بن أبي بكر المعري الحموي الحلبي
 الفقيه . وفي دمشق هاشم بن السيد الطيب ناصر الدين السروجي (٩٦٤) .
 وفي حماة محب الدين بن داود الحموي له تأليف . وفي دمشق موسى بن
 يوسف بن أيوب القاضي شرف الدين الدمشقي الشافعي ألف تاريخاً في مجلد
 وتذكرة في مجلدين (١٠٠٠) .

ومع انحطاط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كان في الشام بعض
 النساء العالمات مثل فاطمة بنت قريمران شيخة المدرستين العادلية والزجاجية
 معاً انتهت إليها رياسة أهل زمانها بحلب أخذت العلم عن زوجها (٩٦٦) .
 وبوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبية (٩٣٨) . وعائشة الباعونية الدمشقية المحدثه
 المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تأليف ومنها البديعية وشعرها لطيف (٩٢٢) .

الآداب في القرن الحادي عشر :

أما القرن الحادي عشر فشيبه بتاليه وسالفه من حيث قلة الإبداع والتجدد والاكتفاء بالموجود ، لكن عدد العالمين والمتأدين كان أكثر على ما يظهر أو أنه دون كله ولم يفقد ، فقد نشأ في دمشق أحمد بن محمد الغزي فقيه له بعض التأليف (١٠١٧) ومحمد أكمل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخاً ترجم فيه معاصريه وله تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١) . والنجم محمد الغزي محدث الشام صاحب التأليف منها في التاريخ وتراجم الرجال (١٠٦١) . وأحمد بن سنان القرماني الأديب المؤرخ صاحب التصانيف وله تاريخ آثار الدول المطبوع (١٠١٩) . وعبد الوهاب الفروري الفقيه (١٠٧٣) . وأحمد بن أبي الوفاء بن مفلح الحنبلي الفقيه المحدث عارف بالفرائض والحساب والتاريخ (١٠٣٨) . ومن الفقهاء محمد الداودي (١٠٠٦) . ومن علماء العربية محمد الخوخي (١٠٢٢) . وفي الفقه محمد الحصكفي صاحب التصانيف في الفقه وغيره (١٠٨٨) . ومحمود الباقراني له عدة تصانيف (١٠٠٣) . وأبو بكر ابن عبد عرّف أبوه بمنلا جامي (١٠٧٧) . وأحمد بن محمد الزريابي فقيه المالكية (١٠٥٠) . وكمال الدين بن مرعي العيتاوي الفقيه (١٠٨٦) . ورمضان العطيفي الفقيه النحوي الراوية (١٠٩٥) . وعبد الباقي بن فقيه فصة محدث مقرئ أثري (١٠٩١) . ويحيى الشاوي له تأليف . وشمس الدين بن بلبان عالم بالسنة (١٠٨٣) . والشاكر الحموي كان متصوفاً ناظماً وناثراً وله ديوان في ثلاث مجلدات .

ومن أدباء هذا القرن وشعرائه أبو بكر بن منصور العمري (١٠٤٨) وإبراهيم الصالحي الشاعر المعروف بالأكرمي (١٠١٢) . وعمر بن محمد المعروف بابن الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه أبي بكر بن منصور العمري شاعر مجيد عارف بالطب (١٠٦٥) . وإبراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨) وأبو بكر ابن أحمد المعروف بابن الجوهري . ومحمد الكريمي (١٠٦٨) . وعبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب المؤرخ (١٠٤١) . وعبد اللطيف البهائي شاعر متفنن (١٠٨٢) . وعبد اللطيف بن المنقار شاعر (١٠٥٧) . والحسن البوريي الشاعر اللغوي له تأليف منها تراجم رجال عصره وشرح ديوان ابن الفارض المطبوع

(١٠٢٤) . وأحمد العناني الشاعر (١٠١٤) . وأحمد بن الشاهيني الأديب اللغوي (١٠٥٣) . وأحمد الصفوري الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣) . وأحمد ابن محمد بن المنقار أديب شاعر (١٠٣٢) وإسماعيل النابلسي الفقيه له بعض التأليف (١٠٦٢) . ودرويش محمد بن أحمد الطالوي الدمشقي الأديب (١٠١٤) ومنجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان المطبوع (١٠٨٠) . وشهاب الدين العمادي شاعر منشي (١٠٩٨) . وعبد الحي العكري المعروف بابن العماد مصنف أديب مفن أخباري أثري له شذرات الذهب في التاريخ مطبوع (١٠٨٧) . وعبد الرحمن بن النقيب منشي شاعر (١٠٨١) . وإبراهيم العمادي أحد بلغاء الشام المذكورين (١٠٩٨) . وأحمد بن الملا النخجواني الملقب بالمنطقي شاعر ناثر فقيه ينظم وينثر في الألسن الثلاثة العربية والفارسية والتركية .

وظهر في دمشق في العلوم والفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين علي الطرابلسي اشتهر بالرياضيات والقراءات والفرائض والفقه وله تأليف (١٠٣٢) . وعمر بن محمد القاري عالم مفن له باع في الهيئة (١٠٤٦) . وعمر بن يحيى المعروف بالدويك كان عارفاً بفنون عديدة منها الرياضيات والفلك والميقات وله شعر (١٠٨٣) ومحمد بن يونس الطيب الخطيب (١٠٠٨) والملا محمود الكردي عالم في كثير من الفنون (١٠٤٧) . وابن الحكيم المصاحب أبو بكر بن محمود رئيس أطباء دمشق وخطيب أمويها عالم في العلوم الغربية مثل علم الوجود وعلم الحرف وله يد طولى في العقلية (١٠٠٧) . وعبد القادر ابن عبد الهادي رياضي فقيه أصولي (١١٠٠) . وعبد الحي بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩) . وإبراهيم بن الأحمد الزبداني محدث فرضي رحالة أخذ الفرائض والحساب عن العلامة محمد النجدي ويلحق بابن الهائم في هذين العلمين (١٠١٠) . ونشأ في هذه المدينة أيوب الحلوتي من المتصوفة له في التصوف رسائل (١٠٧١) . ومن الخطباء الشهاب أحمد بن يحيى البهنسي الخطيب ابن الخطيب ابن الخطيب وأحمد بن محمد البصراوي ويعرف بابن الإمام (١٠٠٣) .

وجاء في المدن الأخرى أبو الجود عبد الرحمن الحلبي البتروني كان محققاً في المذهب والتفسير والبحث نظاراً (١٠٣٩) . وأبو الوفاء محمد بن عمر العرضي الحلبي متفرد بالإتقان والحفظ والضبط له تاريخ معادن الذهب وله رسائل

وتأليف (١٠٧١) . ومحمود البيلوئي الحلبي كان إذا تكلم في فن من العلم يقول سامعه لا يحسن غيره (١٠٠٧) . وفتح الله البيلوئي الحلبي له عدة مصنفات وحواش ومجاميع وشعر (١٠٤٢) . ونور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة الحلبية المطبوعة وغيرها من الحواشي والشروح والرسائل (١٠٤٤) ، وعلي البصير له كثير من التأليف في الفقه وغيره (١٠٩٠) . ومحمد بن حسن الكواكبي رئيس حلب في الفنون والعلوم ألف مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير وهو شاعر مجيد (١٠٩٦) . وعبد الوهاب بن رجب إمام في العربية (١٠١٥) . وعلي البصير الحموي له تأليف في الفقه وغيره . ومحمد بن أبي بكر الحموي له تأليف عديدة في الفقه والتفسير والعربية ورسائل ورحلات وكان عالماً بالفرائض والحساب والمنطق والحكمة والزرايرجا والرمل وهو جد الشيخ محمد المحبي مؤلف خلاصة الأثر (١٠١٦) .

ومن علماء السريان أندراوس اخييجان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك . وأبو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦) . وأحمد بن خليل الأطاسي الحمصي الفقيه مفتي حمص وعالمها (١٠٠٤) . وأحمد بن النقيب الحلبي الأديب المتفنن (١٠٥٦) . وباكير بن أحمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن في حلب من أدباء عصره أكثر رواية منه للنظم والنثر (١٠٩٤) . وبشير بن محمد الخليلي القدسي الأديب الشاعر لم يكن في زمنه من أقرانه من يدانيه فيه إلا شرف الدين العسيلي (١٠٦٠) . وتقي الدين التميمي الغزي صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١٠١٠) . وحسن بن محمد أبو الفوارس الحموي المعروف بابن الأعوج أمير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند أحد من أمراء عصره . وحسين الجزري الحلبي الشاعر (١٠٣٣) . وحسين بن عبد الله المعروف بالمملوك متصوف (١٠٣٤) . وخير الدين الرملي المفسر المحدث الفقيه اللغوي صاحب التأليف والفتاوي ومنها المطبوع (١٠٨١) ورجب بن علوان الحموي أمهر ما كان في العلوم الرياضية كالهَيْثَة والحساب والفلك والموسيقى وغيرها (١٠٨٧) . وسرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠) وصالح بن سلوم الحلبي رئيس الأطباء (١٠٨١) . وصلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩) . وعبد الحق الحمصي الملقب زين الدين الحجازي

عالم بالمعقولات . وعبد الله بن حجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان مطبوع بشعره وإنشائه في الألسن الثلاثة وله تأليف (١٠٩٦) . وفتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢) . ومحمد القاسمي الحلبي شاعر ناثر (١٠٥٤) . ومحمد الكواكبي الحلبي عالم في المنقول والمعقول (١٠٩٦) . ومحمد بن عبد القادر الشهير بالحادي الصيداوي أديب فقيه (١٠٤٢) . ومحمد التمرناشي الغزي رأس الفقهاء الحنفية له التأليف الكثيرة (١٠٠٤) . ومحمد بن علي المعروف بالحريري وبالخرفوشي العاملي الدمشقي اللغوي النحوي الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩) . ومحمد البيلوني الحلبي راوية الشعر والوقائع خير بصنعة النقد أديب (١٠٨٥) ، ومحمد بن محمد الحلفاوي الحلبي أديب (١٠٥٤) ومحمد العسيلي القدسي له تصانيف دينية . وموسى الرام حمداني الحلبي البصير متفنن في الرياضيات والعلوم الحكمية وعلم الحرف والأخبار والأدب (١٠٨٩) . وبهاء الدين العاملي الفقيه الأديب صاحب المخلاة والكشكول وغيرهما من كتب الأدب المطبوعة . ومحمد الفصي البعلبكي الفقيه وآبائه كلهم رؤساء العلم في تلك الناحية وله تأليف (١٠٢٤) . وأبو الوفاء بن معروف الحموي له تأليف (١٠١٦) . وحسين الأشقر كان جامعاً لأنواع الفنون (١٠٤٢) . وعبد القادر بن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفاً (١٠٤٠) . وعبد النافع بن عمر الحموي كان متضلعاً من العلوم شاعراً (١٠١٦) . ودادود الأنطاكي ويعرف بالشيخ السوري (١٠٠٥) ألف كتاباً في السب سماه تذكرة أولي الأبواب مطبوع . وتقي الدين الغزي التميمي (١٠٠٥) له الطبقات الحنفية .

العلوم والآداب في القرن الثاني عشر :

دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً لا إبداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و « صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير » . كما قال أحد العارفين بذلك القرن . وجاء في العاصمة زمرة من العلماء منهم إبراهيم بن حمزة محدث لغوي (١١٢٠) . وأبو

الإسعاد بن أيوب عارف بعلم جمة مبرز في علوم الأبدان (١١٠٦) . وأبو الصفا المقتي فقيه مفسر نحوي . وأحمد بن حسين باشا الكيواني أديب كاتب صاحب الديوان المطبوع (١١٧٣) . قال المرادي : وهو في هذا القرن أي الثاني عشر كالأمير منجك المنجكي في القرن الماضي بل أرجح ، وإن لم يكن أرجح منه فهو مقارن له . وأحمد بن عبد الكريم الغزي فقيه نحوي له تأليف (١١٤٣) . وأحمد بن علي المنيني المحدث اللغوي النحوي الأديب له تأليف منها شرح تاريخ اليميني المطبوع (١١٧٢) . وأحمد شاكر الحكواتي شاعر رحلة (١١٩٣) . وأحمد الفلاقنسي أديب منشي (١١٧٣) . وأحمد المهمنداري فقيه مفنن له شعر وأدب (١١٠٥) وأحمد البهنسي فقيه أديب (١١٤٨) . وأحمد البقاعي أديب مفنن شاعر (١١٧١) . وأسعد الطويل أديب (١١٥٠) . وإسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣) . وإسماعيل العجلوني رحلة له يد في العلوم لا سيما الحديث والعربية وله تصانيف (١١٦٢) . وحامد العمادي فقيه فرضي شاعر أديب له تأليف . وخليل الحمصاني له يد في التفسير خاصة (١١٢٣) . وزين الدين البصروي عالم أديب (١١٠٢) . وسعيد الجعفري عالم أديب له شعر (١١٨٣) . وسعيد السمان لغوي شاعر ناثر له تأليف (١١٧٢) . وسعدي العمري شاعر ناثر (١١٤٧) . وسعدي بن حمزة محدث فرضي حاسوب مهندس مساح (١١٣٢) . وسليمان الحموي المعروف بالسواري كاتب شاعر (١١١٧) . وصالح الجينيبي محدث فقيه (١١٧٠) . وعبد الجليل المواهي عالم في المعقولات (١١١٩) . وعبد الرحمن الصناديقي فقيه أصولي نحوي (١١٦٤) . وعبد الرحمن الغزي فقيه فرضي نحوي شاعر (١١١٨) . وعبد الرحمن الكيلاني عالم مدقق شاعر ناثر (١١٧٢) . وعبد الرحمن البهلول شاعر لغوي أديب (١١٦٣) . وعلي الطاغستاني عالم محقق مفنن (١١٢٩) . ومحمد الدكدكجي صوفي مقرئ متفنن (١١٣١) . ومحمد الكفيري فقيه أديب (١١٥٠) . ومحمد الغزي فقيه أديب مؤرخ نسابة (١١٦٧) . ومحمد أمين المحبي عالم أديب مؤرخ له تأليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١) . ومحمود الجزيري عالم في الزايرجا والحرف والأوقاف والرياضيات (١١٤١) . ومحمود العبدلاني عالم محقق (١١٧٣) . ومراد المرادي عالم في المعقول والمنقول له تأليف (١١٣٢) .

ومكي الجونخي عالم أديب متضلع له شعر وكتابة (١١٩٢). ومصطفى اللقيمي عالم فرضي حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧). ومصطفى البكري عالم بلغت مؤلفاته ٢٢٣ مؤلفاً بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وله نظم كثير وقصائد خارجة عن الدواوين تقارب اثني عشر ألف بيت (١١٦٢). ومصطفى العلواني الحموي أديب ناثر ناظم (١١٩٣). ومصطفى السفرجلاني متفنن في العلوم الحكيمية له رسائل في المنطق والفلسفة والحكمة والكلام وشعر ونثر (١١٩١). وموسى المحاسني عالم محقق (١١٧٣). وعبد الرحيم المخلاقي عالم في الفرائض والحساب والفلك (١١٤٠). وعبد الرحمن الكابلي عالم محقق (١١٣٥). وعبد الرحيم الطواقي فقيه نحوي فرضي له بعض تأليف ورسائل (١١٢٣). وعبد الرزاق الرومي فقيه له تأليف. وعبد السلام بن محمد المعروف بالكامل أو الكامدي فقيه أصولي نحوي أديب (١١٤٧). وعبد الغني النابلسي إمام في التصوف والفقه والتفسير وعلوم الأدب وله تأليف كثيرة ونظم ونثر المطبوع منها شرح الطريقة المحمدية والبلديعية وكتاب في الزراعة وديوان والرحلة القدسية والرحلة الحجازية وغيرها (١١٢٦). وعبد الفتاح بن مغيزل أديب طيب (١١٩٥) عبد القادر التغلبي فقيه فرضي (١١٣٥) عبد القادر الكردي عالم محقق له ثلاثون تأليفاً (١١٧٨). وعبد الله البصروي عالم محقق في العلوم والفنون مؤرخ (١١٧٠) عبد الله الطرابلسي أديب شاعر له تأليف ورسائل (١١٥٤) عبد الله المكتبي محقق في الحساب والفلك والهيئة والتقويمات (١١٦٢). عثمان الشمعة عالم بالدينيات وعلوم الأدب (١١٢٦). عثمان القطان عالم بالعقليات والنقلات (١١١٥). عمر البغدادي عالم متصوف له رسائل (١١٩٤). عمر الرجيجي كاتب أديب (١١٣٠). علي العمادي عالم أديب (١١١٧). علي التدمري فقيه نحوي فرضي عالم بالحرف والزاييرجة والوقف (١١٣١). علي كزبر عالم رحلة مقرأ (١١٦٥). محمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣). يوسف ابن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء.

هذا غاية ما يقال في رجال دمشق أما في المدن الأخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث، العالم بالمعقولات (١١٧٨). أحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤). أبو السعود الكواكبي العالم المحقق

الشاعر (١١٣٧) . وبنو الكواكبي وبنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيها العلم عدة قرون . المطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات وله تأليف بالسريانية والعربية (طبع منها كتابه في النحو) وهو تلميذ عالم عصره سليمان الحلبي . عبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الإنجيل وطابعه . عبد اللطيف الأطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء والأوقاف وغيرها وله شعر كان حياً سنة ١١٤٠ . البطريك ميخائيل جروة الحلبي . الايكونيموس بطرس التولوي . القس يوحنا زندو الحلبي . وعطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر . والشاعران ميخائيل جبارة وأنطون ذكري . ويوسف الشراباتي . ويواكيم البعلبكي الواعظ له تأليف (١٧٨٢م) .

وأحمد العكي العالم الفقيه له تأليف كثيرة وشعر وأدب (١١٤٧) عبدالله الاطرابلسي المعروف بالأفيوني الفقيه له عدة تأليف وشروح (١١٥٤) . عبد المعطي الحلبي له فتاوى ورسائل كلها منتخبة (١١٥٤) . إبراهيم الحاقلي له عدة تأليف ترجم عدة كتب من العربية إلى اللاتينية منها كتاب ابولونيوس في الهندسة ومختصر في الفلسفة الشرقية وعدد تأليفه ٦٤ (١٦٦٤م) . البطريك اسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤م) ، علي البرادعي البعلبي الواعظ كان جده الأعلى جلال الدين من العلماء الأجلاء . ومحمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤) . السمعاني اللبناني كتب بالعربية واللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨م) وله شهرة في ايطاليا وإسبانيا وتأليفه كثيرة قال الدبس بعد أن عدد تأليفه : وأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وإن كان مغرماً بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه . والقس يوسف الباني الحلبي ترجم عدة كتب إلى العربية في الدين المسيحي . والبطريك مكاريوس الحلبي نبغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد وهو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية وبلغاريا وروسيا .

العلم والأدب في القرن الثالث عشر :

كان القرن الثالث عشر تنمة القرن الثاني عشر ، ولكن فيه بطء وضعف ، نشأ فيه من دمشق محمد بن حسين الحلبي العطار العالم بالرياضيات والفنون

(١٢٤٣) اتهم بالتساهل في دينه فالتزم بيته فألف عدة رسائل بالفنون الحربية والفلك والحساب طبع بعضها . وأحمد الكزبري العالم بالكتاب والسنة (١٢٤٨) .
 أحمد المنيني الفقيه المحدث (١٢٥٦) . أحمد بن إسماعيل ببيرس فقيه (١٢٤٧) .
 أسعد المنير فقيه (١٢٤٢) . حامد العطار المحدث المفسر (١٢٦٣) . كمال الدين الصمادي الجرائحي الدمشقي له تأليف في التاريخ (١٢٠٩) . حسن جينة فقيه أديب له رسائل في الأخلاق (١٢٠٦) . خليل الخشة فقيه (١٢٤٢) .
 رضاء الدين الحلبي فقيه (١٢٨٦) . شاكر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب (١٢٢٢) . صالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقه والأدب (١٢٤٦) . عبد الرحمن الكزبري الفقيه المحدث (١٢٦٢) . مكسيموس مظلوم له خمسون تأليفاً ومعرباً (١٨٥٥م) . يوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات والتاريخ والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانية (١٨٦٠م) . حسين الغزي الحلبي أديب (١٢٧١) . جبرائيل بن يوسف المخلع أديب يحسن الفارسية ترجم الكلكستان للشيخ سعدي مطبوع (١٨٥١م) . عبد القادر العمادي فقيه (١٢٢٨) . عبد الغني السقطي عالم مفنن (١٢٣٦) . عمر الغزي فقيه (١٢٧٧) . قاسم الحلاق فقيه مفسر محدث شاعر ناثر (١٢٨٤) . كمال الدين الغزي عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤) . محمد المخلاقي فرضي موقت فلكي (١٢٠٧) .
 نجيب القلعي فقيه (١٢٤١) . محمد عابدين صاحب التأليف والرسائل المتقنة منها حاشيته المشهورة ورسائله وفتاويه وكلها مطبوع . عبد الغني الميداني عالم بالأصول والفقه وفنون العربية (١٢٩٩) عبد السلام الشطي شاعر فقيه (١٢٩٥) . مصطفى المغربي التهامي عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠) .
 عبد القادر الحسيني الجزائري عالم بالتصوف والأخلاق وله شعر ونثر وتأليف ومنها المواقف ورسائل منها مطبوع (١٣٠٠) .

ونشأ في حلب محمد نور الترماني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات والأدب وله شعر وأخوه أحمد الترماني (١٢٩٣) خلف عدة تأليف وحواش وشروح ومنها كتاب الجامع في الكيمياء . رزق الله حسون (١٨٨٠م) كاتب شاعر ضليع بالعربية وفنونها وله رسائل جيدة وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالاستانة . وفرنسيس مراث الأديب له عدة تأليف

و ديوان شعر (١٨٧٣م) . عمر الأنسي البيروتي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣) . أمين الجندي الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧) . بطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١م) . ناصيف اليازجي الشاعر اللغوي الأديب صاحب المقامات والديوان وغيرهما من كتب النحو والبيان وكلها مطبوعة اشتهر في هذا العصر كثيراً (١٨٧١م) . نقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر وتاريخ حملة الفرنسيين على مصر والشام مطبوع وغيره . حسين بيهم البيروتي أديب له ديوان شعر (١٢٩٢) . محمد النصري كان في حدود المائتين وألف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب. نصر الله الطرابلسي شاعر (١٨٤٠م) . أحمد البرير البيروتي شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦) . حيدر أحمد الشهابي اللبناني (١٨٣٤م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب إليه المطبوع . محمد أرسلان اللبناني له مؤلفات في الفلك والتاريخ (١٨٦٤م) . ناصيف المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفاً طبع أكثرها . نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي له كتب في التاريخ والأدب . عمر اليافي متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤) . محمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨) .

العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر :

وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت تبشير العلوم الرياضية والطبيعية ، وكانت انحطت انحطاطاً أشبه بالاندراس ، تقبل على الشام من طريق الديار المصرية ، بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر فإنه أنشأ مدارس للهندسة والطب والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها ، فتخرج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين . وأخذت تسري من أنوارها أشعة نافعة إلى الشام .

ثم إن الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الاستانة ولا سيما المدرسة الحربية والطب ، وبعد حين أحدثت مدارس الملكية والحقوق والزراعة والهندسة فأخذ بعض أفراد من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية ، فكان ذلك إلى آخر عهد العثمانيين في ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم ، لأن الدولة كانت تحرص على نشر لغتها ، وأبناء العرب أو من يريد أن يسلك مسالك الجيش والطب والإدارة والهندسة والزراعة أرغمتهم الحالة على التخلي عن

لغتهم ، فجاء أكثرهم ضعافاً حتى في العلم الذي أخصوا فيه ، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم ، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا وأفادوا كما نبغ من مدارس الوطنيين النصارى مثل مدرسة عين ورقة الأكاديمية التي أنشئت سنة (١٧٨٩ م) ونبغ فيها كثير من البطاركة والمطارنة والكهنة من الموارنة في القرن التاسع عشر . قال الدبس : ومن هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى الشام وغيرها من العلوم والفنون ، ومثل مدرسة كفتين للروم الأرثوذكس ، والمدرسة الوطنية في بيروت ، والجامعة الأميركية في بيروت التي علّمت زمناً طويلاً العلوم بالعربية ومنها الطب ، فجاء من تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية .

ونشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط وكان يعرف العربية والسريانية والإيطالية واللاتينية والعبرانية واليونانية ، ووجد من خديوي مصر إسماعيل وغيره من ملوك المسلمين وأمراءهم تشيخاً على إتمام عمله ، كما نشأ في تلك الحقبة أحمد فارس الشدياق اللغوي المحقق صاحب جريدة الجوائب وكتاب الساق على الساق وكشف المخبا والجاسوس على القاموس وسر الليال وغيرها وكلها مطبوع ، ووجد هذا من عزيز مصر وباب تونس وملك باهوبال تشيخاً كثيراً . وهنا يقضي الواجب أن نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد علي الكبير فإن رجالها في كل دور قد تقيّلوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بأيدي المعارف وبر المؤلفين والصحافيين والشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة والعاملين على الأخذ بأيدي العاملين فيها .

العلوم والآداب في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر :

ومن علماء القرن الأخير والذي بعده في دمشق سليم العطار محدث فقيه محمود الحمزاوي فقيه أديب له مصنفات . بكري العطار إمام العربية ولا سيما النحو والتصريف ثم الفقه والحديث . حسن البيطار فقيه متفنن . محمد الطنطاوي عالم بالعربية والأصول والفقه والفلك والميقات . حسن الشطي فقيه . محمد الجوخدار فقيه . عبد الله الحلبي فقيه أصولي . أحمد الحلواني شيخ القراء . محمد الحاني متصوف فقيه . عمر العطار فقيه عالم بالعربية . عبد الرحمن الطيبي فقيه . محمد المرعشلي أديب وفقيه . عبد الرحمن البوسنوي عالم بالعربية .

أحمد فوزي الساعاتي عالم بالعلوم المادية والدينية . عبد المجيد الخاني أديب شاعر . عبد الحكيم الأفغاني عالم بالفقه والأصول . ملا عيسى الكردي فقيه أصولي . محمد محمود الأتاسي فقيه أصولي . علاء الدين عابدين فقيه أديب . صالح قنباز عالم بالتربية والطب له عدة رسائل وكتب . عبد الله السكري فقيه . محمد المنيني فقيه محدث . وفي بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية والفقه وله شعر وأدب وعدة تأليف نشر العلوم الإسلامية والعربية بين نصارى لبنان (١٣٠٧) . إبراهيم الأحذب عالم بالتفسير والحديث والأصول والفقه واللغة والأدب وله عدة تأليف ثلاثة منها دواوين باسمه ونحو ثمانين مقامة ونظم مجمع الأمثال للميداني وشرح رسائل بديع الزمان وهما مطبوعان وغير ذلك من المقالات في الصحف (١٣٠٨) . أمين الشميل حقوقي مؤرخ له عدة تأليف (١٨٩٧) . إسكندر ابكار يوس له تأليف في التاريخ (١٨٨٥) يوحنا ابكار يوس (١٨٨٩) له قطف الزهور في تاريخ الدهور ومعجم إنكليزي مطول . محمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب في الحديث . عبد الغني الرافعي الطرابلسي (١٣٠٩) شاعر متصوف . محمد الميقاتي الطرابلسي (١٣٠٢) شاعر . إبراهيم الحوراني الحمصي (١٩١٦م) أديب رياضي فلكي له عدة تأليف ومقالات وتحقيقات . سليم كساب لغوي أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩م) . ميخائيل مشاقة الدمشقي رياضي فلكي موسيقي مؤرخ من رجال الإصلاح الديني في النصرانية (١٨٨٩م) له تأليف . سليمان الصولة شاعر هجاء له ديوان (١٨٩١م) . يوسف الدبس (١٩٠٩م) أديب له تاريخ سورية المطبوع . جرجس همام رياضي أديب له المعجم العربي الانكليزي والكتب المدرسية والهندسية (١٩٢٠م) . سعيد الخوري الشرتوني لغوي أديب صاحب معجم أقرب الموارد وغيره من الكتب اللغوية والأدبية كان متقناً للفقه الإسلامي . رشيد الشرتوني أديب نحوي كاتب له عدة كتب مدرسية وغيرها . رُشيد الدحداح اللبناني له عدة تأليف في التاريخ ونشر تأليف فيه (١٨٨٩م) . أديب إسحاق كاتب مترسل شاعر سياسي (١٣٠٣) . إبراهيم سركيس أديب له بعض الرسائل والمصنفات . سليم شحادة مؤرخ وهو أحد مؤلفي كتاب آثار الأدهار المطبوع . أنطون الصقال شاعر كاتب . قاسم أبو الحسن الكسبي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع

(١٣٢٢) . حسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية في الرد على الدهريين وغيرها من المقالات في الصحف ومنها في الأخلاق والأدب (١٣٢٧) . يوسف ضيا الخالدي المقدسي له عكاظ الأدب والتحفة الحميدية في اللغة الكردية . روجي الخالدي له عدة تأليف منها علم الأدب عند الأفرنج والعرب . طاهر الجزائري العالم بالتفسير والحديث والفقه والأصول والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة له بضعة وعشرون مصنفاً مطبوعة في فنون مختلفة وله التفسير ومعجم اللغة وغيره مما لم يطبع وكنائش فيها آراؤه ومطالعاته يحسن الفارسية والتركية ويلم بالحبشية والسريانية والعبرانية والفرنسية (١٣٣٩) . محمد المبارك متصوف أديب لغوي شاعر ناثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠) . محمد مرتضى متصوف فقيه أديب كاتب شاعر . عبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ رجال عصره مخطوط . جمال الدين القاسمي فقيه محدث أصولي أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن وعدة كتب في الإصلاح الإسلامي وتاريخ دمشق وبعضها مطبوع (١٣٣٢) . عبد الله الحموي شيخ القراء . شاکر الحمزاوي فقيه . شبلي شميل فيلسوف كاتب أديب طيب له تأليف وآثار في النشوء والارتقاء والفلسفة . جرجي زيدان مؤرخ كاتب قصصي له عدة مصنفات منها روايات تاريخية وتاريخ التمدن الإسلامي وآداب اللغة العربية (١٩١٤) . رفيق العظم مؤرخ اجتماعي كاتب له عدة مصنفات منها أشهر مشاهير الإسلام (١٣٤٣) . سليم التنير كاتب باحث له تأليف ورسائل .

ومات من الفقهاء خالد الأتاسي . أبو الخير عابدين . أمين السفرجلاني أديب له بعض تأليف . أحمد الزويتيني الحلبي (١٣١٦) الفقيه . أحمد صلاح . محمد الزرقا . صالح الرافعي . أحمد الصديقي . طاهر الحسيني . يوسف الإمام . خليل التميمي . محيي الدين الحسيني . ابراهيم أبو رباح . بشير الغزي . مصطفى كرامة . صلاح الدين تفاعحة . محيي الدين البياتي . حسين العمري إلى أمثالهم . وهلك في هذا القرن من الشعراء والكتاب والكاتبات والأدبيات سليم قصاب حسن شاعر له ديوان مطبوع . نجيب حداد شاعر كاتب قصصي (١٨٩١م)

داود عمون شاعر أديب . يوسف خطار غانم ، محمد الهلالي شاعر . إسكندر عازار . نعوم شقير له مؤلفان في تاريخ سينا والسودان مطبوعان . أمين حداد . نعوم لبكي . أنطون رباط . أبو الخير الطباع . محمد علي حشيشو . جرجي ديمتري سرتق . فرح أنطون له عدة تأليف وترجمات مطبوعة . إسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة . شاكر شقير كاتب شاعر . محمد أرسلان . عمر حمد شاعر . عمر اليافي . محمود الشهال شاعر . نقولا رزق الله . جميل مدور . نوفل نوفل . أمين الشميل . صلاح الدين القاسمي . شاكر الخوري له كتاب هزلي . أحمد الصابوني له تاريخ حماة مطبوع . محيي الدين الحياط كاتب له عدة كتب مدرسية . حسن رزق . حسن بيهم كاتب متفنن . سليم سرقيس كاتب هزلي . عبد الوهاب الإنكليزي . سليم الجزائري . شكري العسلي له عدة رسائل اجتماعية وأدبية . رشدي الشمعة شاعر كاتب . أحمد طيارة . عارف الشهابي . عبد الغني العريسي . جرجي حداد . سعيد عقل . باترو باولي . رفيق رزق سلوم . فيليب الخازن . فريد الخازن . محمد المحمصاني عبد الحميد الزهراوي . عبد القادر المؤيد . حسين وصفي رضا . بشارة زلزل له عدة كتب في الطب وغيره . محمد عبد القادر الحسيني . محيي الدين الحسيني له مؤلفات . شاكر عون . سليم بسترس . سليم تقلا . سليم عباس . سليم البستاني . أسعد الشدودي . عبد الغني الرفاعي . شاكر أبو ناصر . خليل باخوس . سليم باز . سليم جدي . فيليب جلاد . نجيب حبيقة . يوسف حرفوش . أمين الخوري . يوسف دريان .

وهلك من النساء في العهد الأخير عفيفة كرم . وردة اليازجي . عفيفة اوزون . زينب فواز . وردة الترك . هيلانة البارودي . سلمى قساطلي . هنا كسباني . مريانا المرائش . سارة نوفل . فريدة عطية .

المعاصرون من العلماء والأدباء :

ومن شيوخنا وكهولنا وشبابنا ونسائنا من اشتغلوا بالعلوم والآداب على اختلاف أنواعها ومن اشتهر منهم : (١) علماء الدين والفقهاء والقضاء : سليم البخاري . رشيد رضا . بدر الدين الحسيني . عبد الله العلمي . عبد الله الجزائر .

مسعود الكواكبي . سعيد العرفي . سعيد مراد الغزي . مصباح محرم . عبد المحسن الأسطواني . أحمد عباس . محسن الأمين . جرجس صفا . عطا الكسم . سعيد النعسان . سعيد الباني . بهجة البيطار . طاهر الأتاسي . يوسف النبهاني . محمود منقارة . عبد الكريم عويضة . عبد اللطيف نشابة . عبد الحميد الجابري . عبد القادر بدران . عبد القادر القصاب . طاهر المنلا الكيالي . أحمد النويلاتي . خالد النقشبندي . نجيب قباني . عبد الكريم حمزة . محمد الأسطواني . محمد الكستي . إبراهيم هاشم . سليمان أحمد . طاهر أبو السعود . يوسف الإمام الحسيني . محيي الدين الخاني . عيسى العكرماوي . منيب هاشم . نمر الداري فهمي الحسيني . عادل زعيتر . أحمد الزرقا . نجيب أبو صوان . مصطفى برمدا . حسن الشطي . عوني عبد الهادي . معين الماضي . يوسف الخيري . أمين عز الدين . إسماعيل حافظ . ميخائيل عيد البستاني . مصطفى الخاني . مصطفى نجا . فوزي الغزي ، فتح الله أديب . علي الكيالي . عبد المجيد المغربي . محمد الحسيني . محاسن الأزهرري . توفيق الدجاني . خليل الخالدي .
ومن المتفردين بالقراءات في دمشق : محمد الحلواني . عبد الله المنجد . أحمد دهمان . محمد القطب . عبد الرحيم دبس وزيت وغيرهم .

(٢) العلوم الفلسفية والمادية : يعقوب صروف . منصور جرداق . جودت الهاشمي . مصباح حولاً . فارس الحوري . سعيد البحرة . رشدي سلهب . درويش أبو العافية . شكري خليفة . أمين معلوف . عبد الوهاب المالكي . أميل خاشو . يوسف افتموس . إبراهيم الدا . وجيه الجابري . فيكتور كورنلي . إسماعيل باقي . أحمد رستم . مصطفى الشهابي . وصفي زكريا . جمال الفرا . يوسف قدورة . محمد الترماني . صلاح الدين الكواكبي . مصطفى نمر . هاشم الفصيح . عبد الوهاب القنواني . أسعد الحكيم . سعيد شقير . أحمد حمدي الحياط . مرشد خاطر . جميل الخاني . حسني سبوح . محمد محرم . شوكة الشطي . جميل صليبا . جعفر الحسيني وغيرهم .

(٣) العلوم الاجتماعية والتاريخية والحقوقية : شكيب أرسلان . فارس نمر . داود بركات . خليل ثابت . عيسى إسكندر المعلوف . نقولا حداد . محمد رستم حيدر . نسيم صبيعة . سعيد حيدر . جرجي يبي . عمر الصالح البرغوثي

خليل طوطح . ميخائيل ألوف . قسطنطين الباشا . سليم شحاده . نجيب صليبا .
رفيق التميمي . أسد رستم . راشد طيارة . أسعد منصور . سعيد المحاسني .
زكي الخطيب . عارف الخطيب . قسطنطين زريق . حبيب الخوري .
روحي عبد الهادي . حسن فهمي الدجاني . أحمد سامح الخالدي . ساطع
الحصري . حسن يحيى الصبان وغيرهم .

(٤) الأدباء : عبد الله البستاني . لويس شيخو . أسعد خليل داغر . سليم
الجندي . إسعاف النشاشيبي . عارف النكدي . كامل الغزي . قسطنطين الحمصي .
الخوري بطرس البستاني . مصطفى الغلاييني . رشيد عطية . أمين ظاهر خير الله .
حنا صلاح . رشيد بقدونس . أنيس المقدسي . جبر ضومط . جرجس منس .
أحمد رضا . سليمان ظاهر . عزة دروزة . بندلي الجوزي . عبد الرحمن سلام .
عبد القادر المغربي . عبد القادر المبارك . إبراهيم منذر . أنيس الخوري المقدسي .
ميخائيل صقال . نجيب ميخائيل ساعاتي . جرجس شلحت . سامي جريديني .
حسني عبد الهادي . راغب الطباخ . سامي الكيالي . عز الدين علم
الدين . عبد الله النجار . عمر الأتاسي . أيفانيوس زائد . علي ناصر الدين .
عبد اللطيف صلاح . عبد الله مخلص . عمر الزعني . حبيب كحالة . عارف
الزين . فيليب طرازي . راجي الراعي . جميل معلوف . عمر الفاخوري .
جرجي باز ، أحمد صلاح الدين . أحمد عبد المهدي . يوسف زخم . جميل
الشطي . صبحي القوتلي . توفيق ناطور . أنطون جميتل . نزيه المويد . لويس
معلوف . شكري الجندي . وصفي الأتاسي . أمين الحشيمي . أنيس النصولي .
أديب التقي . جودت الكيال . محمد الداودي . أحمد عبيد . حمود الزبروتي .
منح هارون . فائز الغصين . سامي العظم . خالد الحكيم . وجيه بيضون .
نجيب الرئيس . شريف عسيران . أديب الصفدي . أديب فرحات . سعيد الصباغ .
جمال الملاح . أديب وهبة . عبد الغني باجقني . عارف التوام . فوزي العظم .
حسن الحكيم . الياس القدسي . عبد الله رعد . صبحي أبو غنيمة . ميشل بيطار .
إبراهيم حرفوش . توفيق حمادة . عبد الله خير . سليم خطارالدحداح . حكمة
المرادي . يوسف اليان سرقيس . يوسف صادر . أنطون صالحاني . جودت
المارديني . نعيم صوايا . إسكندر طحيني . بولس عبود . إميل عرب . يوسف

علوان . يوسف غصوب . جبرائيل قرداحي . يوسف قيقانو . نجيب مخلوف .
 فيليب مسك . أمين مشحور . حلمي مصري . عيسى بندك . شكري كنيذر .
 عبد الله صفيير . حبيب زيات . أحمد عمر المحمصاني . محمد علي الطاهر .
 يوسف حيدر . أنطون شعراوي . توفيق الحلبي . توفيق جانا . أسعد ملكي .
 رزق حداد . عباس أبو شقرا . طه مدور وغيرهم .

(٥) الكتاب : عبد الباسط فتح الله . خليل زينية . خليل سعادة . خليل
 سعد . سامي قصيري . نعوم مكرزل . يوسف الخازن . عبد الله الأسطواني .
 نجيب شاهين . أميل زيدان . إبراهيم سليم النجار . يوسف العيسى . بدر الدين
 النعساني . عادل أرسلان . محمد الجسر . توفيق اليازجي . ادوارد مرقص .
 أمين الريخاني . مصطفى الخيري . محمد علي السراج . محب الدين الخطيب . سليم
 قبعين . ميخائيل نعيمة . بولس الخولي . جبران تويني . جبران خليل جبران .
 شحادة شحادة . أمين غريب . فؤاد صروف . سعيد أبو جمره . يوسف البستاني
 خليل السكاكيني . عادل جبر . نجيب نصار . رشدي الحكيم . عيسى العيسى .
 سليم ابكاربوس . أمين الكيلاني . سعيد الزهور . خليل بدوي . خليل بيدس .
 بطرس غالب . ناجي أديب . وجيه الكيلاني . سعيد الأفغاني . صلاح الدين المنجد
 نجيب الريس . سامي كباره . جبران تونسي . خليل كسيب . علي الطنطاوي .
 كاظم الطاغستاني . عمر الطيبي . أمين الحلبي . راشد البيلاي . عبد الهادي
 اليازجي . فارس فياض . أحمد شاكر الكرمي . أحمد كرد علي . معروف
 الأرنؤوط . عبد الحسيب الشيخ سعيد . نجيب اليان . ايليا زكا . نجيب شقرا .
 زكي مغامر وأمثالهم .

(٦) الشعراء : فؤاد الخطيب . أمين ناصر الدين . خليل مطران . خير
 الدين الزركلي . خليل مردم بك . شفيق جبري . سليمان التاجي . عبد الحميد
 الرافي . مصباح رمضان . طانيوس عبده . الياس فياض . سليم عنحوري .
 محمد الشريقي . نوفل الياس . محمد البزم . جرجي عطية . بشارة الخوري .
 شبلي ملاط . أمين تقي الدين . رشيد نخلة . محمد سليمان . أسعد رسم . فخري
 البارودي . نسيب أرسلان . ايليا أبو ماضي . حلیم دموس . أبو السعود مراد .
 عبد الرحمن القصار . كامل شعيب . عارف الرفاعي . نديم الملاح . محمد

الفراقي . عبد الرحيم قليلات . جميل العظم . إبراهيم الشدودي . حسين الحبال .
 أمجد الطرابلسي . جميل سلطان . زكي المحاسني . عمر أبو ريشة وغيرهم .
 (٧) الخطباء : عبد الرحمن شهنلر . أسعد الشقيري . أسعد عفيش .
 نقولا فياض . غريغوريوس حداد . حبيب أسطفان . أنيس سلوم . فيلكس
 فارس . حنا خباز . عبد الرزاق الدندشي . مصطفى الشماع . محمود النحاس .
 بدر الدين الصفدي . أفرام أبيض . عبد الرحمن الكيالي . سامي السراج وغيرهم .
 (٩) الكتاتيب والشواعر والخطيبات : ماري زيادة . ماري عجمي . سارة
 خطيب . لبيبة هاشم . نجلا أبو اللمع . سلمى صائغ . جوليا طعمة . عفيفة
 صعب . عنبرة سلام . مسرة الأدلبي . ماري نبي . هيلانة البارودي . فاطمة
 سليمان . ابتهاج قدورة . بهيجة المؤيد . خيرية ترمانيي وغيرهن .

تأثيرات الأجانب في التربية :

من المعاهد التي خرجت أناساً بالعربية والفرنسية كلية القديس يوسف
 اليسوعية في بيروت ، وكان أول نزول الآباء اليسوعيين في الشام سنة (١٦٥٣م) ،
 فأسسوا مدرسة عينظورا ببلبنان التي أخذها الآباء اللعازريون بعد مدة (١٨٣٤م)
 وخرجت كثيراً من الأدباء باللغة الفرنسية فقط . وقد ضعفت في هذا القرن
 ملكة البيان في المسلمين ، وهم يتلون القرآن ولكن بدون أن يتدبروا معانيه ويفهموا
 إعجازه ، حتى أصبح الفقيه والمحدث والنحوي والمنطقي لا يحسن كتابة
 سطرين إلا بصعوبة . ويتعاضى عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في
 المفردات البسيطة إلى المعاجم ، وضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ
 إلا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم أن يسمع ويلدون ، بل كانوا إذا
 أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئاً منها لأهل العصور التي سلفت
 ويوردونها بدون مناسبة ، بل إن الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من
 التعميدات والتقاريط وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على
 صورة مستكرهة ، وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبز الأب للابن ، وكان
 المفتي أبو السعود من مشايخ الإسلام في الإستانة أول من ابتدعها وأخرجها
 للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية

توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة ، كما ورثوا حوائثهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم . بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء للأمينين ، وكم من أمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة ، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم ، لأن أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفاً على بذل شيء من الرشي ، فيصل إليه أجهل الناس وبذلك فترت الهمم ، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين ، لأن الجاهل والعالم سواء ، ومن يحسن المصانعة والرشوة ويمت إليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة .

وأصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصبها ليتزلف بها إلى الكبراء وأرباب الدولة ، والشاعر كطبال أو زامر أو قرّاد يغني ويلعب أمام من يعطيه دراهمات قليلة . وهناك شبكة رسمية أخرى يصطاد بها المال وهي أن من حفظ قواعد النحو والصرف في كتب لهم معينة وانقطع إلى مدرسة من المدارس ، وجاز الامتحان ست سنين على أسلوب لهم مخصوص يعنى من الخدمة العسكرية ، فتعلم بذلك كثيرون ، ومن فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء وأدباء ، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر .

وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها آخذة بالأفول والاندراس ، والمسلمون أو الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قبيل المناصب الدينية والإدارية والعسكرية ، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الحملة ، جعلت تدريس العربية وآدابها واللغات الحية أول بند من منهاج الدراسة فيها ، فجاء من أبنائهم ومن أخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب ، ومنهم أفراد نزحوا إلى مصر وأميركا وتولوا الأعمال الكبرى وأظهروا آثار قرائحهم ونبوغهم ولا سيما في القرن التالي ، وبطلت القاعدة التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصارى وغناء اليهود ، فأصبح بالتعلم من النصارى نحاة ثقافات ، ومن اليهود مغنون ومغنيات ، أي أن الزمن أبطل ذلك الزعم .

الآداب في القرن الرابع عشر :

اختص القرن الرابع عشر بأن تجلت فيه فائدة العلم لعامة الشعب ، فصار المقتدرون من الناس يلقون بأولادهم لأي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها ، ودبت الغيرة في نفوس المسلمين فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية وغيرها في بيروت وصيدا ودمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية ومدرسة الحكمة المارونية في بيروت .

وكان الفضل في هذه النهضة الشامية أولاً لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطاركة الموارنة ومطارنةهم وأساقفتهم وقسيسيهم بالعلم واللغة . أما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية أكثر من غيرها ، ولو لم تُبطل تدريس العلوم بالعربية وتجعله إنكليزياً لتضاعفت الفائدة التي نشأت من هذه المدرسة العالية ، وكان من أساتذته الدكتور فانديك الاميركاني والدكتور ورتبات الأرمني فضل على العربية بما كتبه في العلوم المختلفة باللغة العربية وكذلك كان شأن بوست الاميركاني فإنه ألف كتاباً علمية نافعة بلغتنا فعدنا منا ، وكذلك فعل بورتر وغيره .

إن المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الأميركيين واليسوعيين وغيرهم من الأمم ذات المطامع في الأرض المقدسة قد جعلت التربية متلوثة فأصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي أنشئت له مدرسته ، وانقسمت الأمة بهذا الضرب من التعلم أقساماً ، وتباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غابر العصور ، ولأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة ، فالإنجيليون أو البرتستانتيون تنتشر دعوتهم كل يوم ، واليسوعيون ينزعون منزعاً آخر في التربية الدينية والسياسية ، وهكذا لو أردنا أن نعدد أسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين إرسالية. ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته

وبلاده ، وكم رأينا رجالاً ونساء درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لاعرب
ولا إفرنج ، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ،
بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم ، ولذلك صح أن يقال إن تلك المدارس لم
تنفع النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في
هذه الديار أنصاراً .

وبينا نرى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف ولم
ينفعوا الشام بشيء كثير من علمهم ، نشاهد كثيرين ممن درسوا في مدارس
الرهبان والقسيسين والحاخامين والمدارس العلمانية الفرنسية يكتبون الفرنسية
أو الإنكليزية أو الألمانية أو الروسية أو اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات
وكل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم والأديب ، بل إن معظمهم قد اسودت
الشام الجحيلة في عينه ، وهجرها إلى أرض أخرى . إن الشامي المتأدب في الحملة
بآداب قومه يحب لغته ويغار عليها ، ولذلك أسس عدة صحف ومجلات راقية
في مصر والمهجر من أميركا الشمالية والجنوبية وحبب المطالعة بالعربية إلى
من نزل عليهم ، أو إلى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا ومجلاتنا
العربية خارج الديار الشامية عن خمسين جريدة ومجلة حية ، وما ندري إن
كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل ، فإن الجيل الجديد
من الشاميين في أميركا الشمالية والجنوبية قلما يعرف العربية بل هو يتكلم
بالإنكليزية أو الاسبانية أو البرتغالية . وأعظم نقص في المدارس الأميرية والطائفية
والأجنبية أن الأولى تصوغ موظفين والثانية والثالثة تهيب المتخرجين على معلميهما
إلى الهجرة ، وتباعد بين أبناء الوطن الواحد وتبث مبادئ اجتماعية لا تنطبق
على حالتنا .

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق
في الوطنية وضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس غير الوطنية في ديارهم . فإن كانت
هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته إليها من النور ، فقد أضرمتها بانحلال
عقدة الوطنية ، فمدارس الأميركيان والروس واليونان والفرنسيين والإنكليز
قد أصلحت وأفسدت . أصلحت بتلقين من تخرجوا فيها شيئاً من معارف
الغرب ، وأضعفت في نفوسهم حب الوطن بتحبيبها إليهم أوطاناً غير أوطانهم ،

وتعريفهم إلى رجال غير رجالهم . والعاقل من حرص على نفع أمته قبل كل نفع ، وانتفع بما عنده قبل أن يتطال إلى ما عند غيره . ومن زهد في لغة آبائه وجلوده كان حرياً بالزهد في وطنه ووطنيته . واللغة والوطن يصح أن يكونا اسمين لمسمى واحد . جنت مدارس الأجانب والحكومة أعظم جناية ، لأن المتخرجين فيها ومعظمهم من الذكاء على جانب لم ينفعوا الدولة ولم ينفعوا الأرض التي وللوا فيها . إن المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأغلاق ونفائس المتاع ، أستغفر الله بل إن من يسرق فلذات الأكباد ، ليخرجها على ما أراد ، أشق على النفس وطأة ، وأعظم في المغبة أثراً . وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال ؟ أوليست الأرواح أئمن من كل بضاعة ، وهل أعز من الولد على قلب أبويه . إن المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها ، وناهب الروح ماذا يدعى في الشرع والعقل . ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات والعناصر كلها ، وتتجرد أمة فتفتنى لإحياء غيرها ، وتقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى ، ولا تهتمها دارها وتريد هدمها لتعمر بأنقاضها دار جارها .

في نحو سنة (١٢٧٨) فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية وهي أول مدرسة أميرية أنشئت في حلب . وأنشأ^(١) مدحت باشا في دمشق سنة (١٢٩٥هـ) ثماني مدارس ابتدائية للذكور والإناث ودار صنائع ، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة ، وما برحت المعارف منذ ذلك العهد تملو وتسفل والحكومة لا تطالب من المدارس الابتدائية والثانوية إلا أن تُخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين وعسكريين يكونون أتراكاً بألسنتهم لا بقلوبهم ، عثمانيين بتربيتهم لا بأصولهم ، وقد أخذ دعاة تريك العناصر يقاومون العربية سرراً ، فما هي إلا أعوام حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر أو خمس عشرة سنة ، وهم لا يحسنون لغتهم ولا لغة الدولة الرسمية ،

(١) من تقرير لنا في إصلاح المعارف العمومية في ١١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ - ٢٢

تشرين الثاني ١٩٢٠ .

فضلاً عن اللغة الفرنسية التي كان تعلمها إذ ذاك رسمياً في الظاهر صورياً في الحقيقة ، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة ، وكان يندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة ، ومعظم من أتموا تعلمهم في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا مستعدين للوظائف فقط .

وما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه ، وجعل التعليم بالعربية عقبي خروج الدولة العثمانية من هذا القطر ، وروحها لم تبرح تلك الروح التركية ، لأن معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية وتخلق بالأخلاق التركية ، وقد حاولت إدارات المعارف في الديار الشامية نزع الروح القديم وتنشئة المعلمين نشأة عربية ، وليس في الوسع أن يشيب المرء إلا على ما شب عليه ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم إلى إيجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضي الأمة العربية وينفعها في حاضرها ومستقبلها ، وتغذية العقول غذاءً كافياً ينفعها في استخراج ثمرات الأرض وكنوزها والتفنن في صنعها ووضعها ، وتحديد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة والصبي . أما التعليم الديني عند المسلمين فهو أحط تعليم ، أصيبوا بذلك بعد خراب المئات من المدارس الدينية في القطر وأكل أوقافها ، وقد تغافلت الدولة التركية عن إنهاضها ، ولم يتبها لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في إصلاحها ، وإذا درس المشايخ اللروس النظامية ، وتأهلوا للقضاء والفتيا والتعليم أهلية حقيقية ، تنحل بتعليمهم التاريخ والرياضيات والطبيعات والاجتماعيات مشاكل كثيرة . ومن العجيب أن مدينة كدمشق لا يقل سكانها عن ثلاثمائة ألف نسمة كان فيها في الثلث الأول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل — عدا الكتابيب الملحقة بالجوامع — تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة ، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة ، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تضحك وتبكي ، وبلغت أكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والإمامة من السخف ما نسأل الله معه السلامة .

وقد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها بمعاونة ناظر أوقافها كبر هذا الأمر ، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية والدينية مدة اثنتي عشرة

سنة ، ونزل الطلبة في المدارس : المدرسة الحسروية والمدرسة العثمانية والشعبانية والقرناصية والإسماعيلية ، وربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله ، يتقاضونها من أوقاف تلك المدارس ويقراً الطلبة اليوم على أساتذة تلك المدينة على نظام في الحملة ويرجى أن يكون منهم علماء دينيون ومتأدبون .

أما علماء الدين عند المسيحيين والإسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا أو إيطاليا أو أميركا وغيرها فلا يرقى في الأغلب إلى الرئاسة الدينية عندهم إلا من توفرت فيه شروط العلم والنباهة ، ويكون على الأغلب بانتخاب أقرانه ، ولذلك جاء البون شاسعاً بين عقلية علماء الدين من المسلمين وعقلية غيرهم من أرباب الأديان ، وغدا أرباب الإنصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الإسلام على النحو الذي هي في النصرانية ، لأنه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة وجمع كلمة الخاصة ، ولأن الحكومات ليس من شأنها أن تعلم إلا البسائط العامة المشتركة ، والأمور الأخرى من شأن زعمائها الذين تعتقد فيهم صلاحها. ومن أغرب الحالات أن مدارس الحكومة في جميع المقاطعات الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين ، أما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم أبنائهم على غير مدارسهم أو على مدارس المبشرين . وبهذه الطرق المختلفة في مناحي التربية يستحيل أن يجتمع أبناء الوطن على مقصد واحد ، لأن كل فرد يتعلم النفرة من مخالفته في معتقده ، وخصوصاً في مدارس بعض الرهبنات التي تهزأ بالإسلام والعرب ، وتحرف التاريخ الصحيح ولا تعلم منه إلا ما ينطبق مع رغائبها ، ولا يفيد شيئاً في تكوين الوطنية والقومية ، ولو اتحدت التربية واشترك جميع أبناء الشام في التناغمي بها والاعتماد عليها ، لا تلبث هذه الأمة خمسين سنة أن تخرج سماؤها سلسلة طويلة من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها ، ارتفاعه عند أمم الحضارة في الغرب ، ويؤثرون فيها كما أثر أجدادنا في مجموع الحضارات الحديثة . وعندنا أن لا نهضة في الأخلاق والعلم والشؤون الاقتصادية والاجتماعية إلا إذا تعلم المسلمون تعليماً صحيحاً ، لأنهم ستة أسباع السكان ، والثروة الثابتة ملكهم ، وهذا لا يتم إلا إذا تعلم أبناء غير المسلمين مع أبناء المسلمين تعليماً وطنياً واحداً .

الجامعات والكليات :

احتفل الصهيونيون (سنة ١٣٤٣هـ) بإنشاء جامعتهم العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدها ، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الأميركية والمذهب الإنجيلي من الجامعة الأميركية ، وانتشرت المدنية الفرنسية والكتلكة من كلية القديس يوسف اليسوعية .

وفي (١٥ حزيران ١٩٢٣م) أسست في دمشق الجامعة السورية وهي ذات فرعين الطب والحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ثم أضيفت إليها شعبة الآداب وألغيت بعد سنين ، وما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق ، لأن معظم المدرسين من الطبقة التي لا تقيم للعربية وزناً ، فقد تخرجت في مدارس الترك لتكون من الموظفين في الحكومة العثمانية ، ولم تُعن بالمطالعة والبحث ولا بالتأليف والترجمة ، وبعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم مشهور أمرها ، ومن الغريب أن توسد هذه الأعمال العلمية الجليلة إلى أناس هم أترك في تربيتهم وأفكارهم ومنازعتهم في صميم بلاد العرب ، وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية . ويرجى إدخال الإصلاح المنشود إلى هاتين المدرستين العاليتين إذا وُسدت مناصب التعليم فيهما إلى كفاة ، يحسنون العربية لإحسانهم العلم الذي يدرسونه وأن تصقل أُماليهم بأيديهم صقلاً متقناً بحيث تصدر دروسهم عن علم أتقنوه وتمثلوه وهضموه وصار لهم ملكة خاصة ، لا مترجمة في الأكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون إلى اليوم ، ومتى كانت اللغة التركية لغة علم وعنها يؤخذ في مثل هذا العصر ، والمعلوم أن لغات العلم ثلاث الإنكليزية والفرنسية والألمانية ليس إلا ، ومتى كانت تربية الأعاجم تصلح للأمة العربية التي يجب أن تتكون بحسب تاريخها ومنافعها الحاضرة والمقبلة . وبعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين ارتقى مستوى التعليم في الجامعة السورية وارتقت اللغة العربية فيها باعتزال من ربوا تربية تركية ووسد إليهم أمر التعليم لأول إنشائها وجاء أساتذة أتقنوا العربية وآدابها وهم اليوم يلقون دروسهم

بلغة أقرب إلى الفصحى وقد وضعوا التأليف في الطب والحقوق بلغة عربية مقبولة .

ولا سبيل إلى الانتفاع بالجامعة السورية نفعاً حقيقياً يتفق مع شهرة الديار الشامية القديمة بالعلم - إلا إذا تمت فروعها فأنشئت فيها مدرسة للآداب وأخرى للعلوم وثالثة للإلهيات ، وبذلك تم فروعها وتنبعث منها أنوار الحكمة المشرقية والمغربية ، ولا غضاضة علينا إذا جئنا من مصر وديار الغرب بعلماء إخصائيين في الفروع التي لا نحسنها من ضروب العلم ، نتعلم منهم طريقتهم في البحث والدرس والتحليل والتركيب ، فالقطر المصري وهو أسبق منا في العلوم ما زال إلى اليوم يأتي من الغرب بعلماء يوسد إليهم الإدارة والتعليم في جامعتهم . وعلى ذكر القطر المصري لا بأس بأن نشير إلى أن المتعلمين من الشاميين ما برحوا يفزعون إلى مصر منذ أواخر القرن الماضي يخدمون الآداب ويرزقون منها ، فكان لمصر الفضل على الشام وبنيه لأنها كانت منبعث قرائحهم . وكان في هذه المقايضة العلمية بين الشام ومصر من الفوائد ما لا يمكن أحداً جهله .

وبعد ذلك يرجي أن لا يضيق كثيراً نطاق اللغة العربية ، بعد أن رأى الناس أمرها يضعف الحين بعد الآخر في الغرب والجنوب ، وهي إلى ضوئولة في الشرق والشمال والوسط على ما يبذله المجمع العلمي العربي منذ سنة (١٣٣٧هـ) من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبيهم ، والأخذ بأيدي المؤلفين والمترجمين ، وتحجيب المطالعة إلى الجمهور ، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة ، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها . وإذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء الهيئ وعلماء مدنيين وأدباء ومهندسين وطبيعيين وكيميائيين وزراعيين وأطباء وحقوقيين وأثريين يعرفون كيف يبحثون ويعلمون ، نخدم المدنية خدمة حقيقية .

الإخصاء :

وبعد فإن أهم ما ينبغي صرف العناية إليه اليوم نشر العلوم الانسيكلويدية ، أي المشاركة في العلوم المتعارفة ، ثم الانقطاع إلى فرع واحد ، أي إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والتاريخية

والأدبية ثم معالجة موضوع واحد : « إذا كانت القرون الوسطى قرون التعميم في التعليم ، فإن هذا العصر عصر التخصص . فقد اتسعت معارف البشر النظرية والعملية فدعت الحاجة إلى أن يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم إلى أقسام ينقطع إليها أفراد . فالأصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الإحصائيات . كان بادئ بدء كل شيء مفهوماً في الفلسفة ، فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم ، وتنقسم إلى قسمين : المحسوسات والمعقولات ، ودعيتا علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة . أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيمياً معقولاً ولا جارية على طريقة معقولة ، وكان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك يخلفون في تعلمها آباءهم ، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام . ثم حسنت الحال بالتدرج ودخلت الأعمال في طور نظام ، وانتظمت العلوم الرئيسة . لا سيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية أي التجارة والصناعة والحرف ، ونشأ الإحصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات . فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة ، ولا يخصي في تعاطي فرع واحد إلا في المدن ، أما في القرى فيمارس كل فرع من فروع الأمراض الباطنية والخارجية . وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم إلى أقسام .

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الإحصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع من المعارف ، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر ، أن يزيد أبدأ الإحصاء في كل علم وشأن . وإذا نظرت إلى الإحصاء من حيث العلم فإنه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم ، فان المبادئ الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس ، ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم ورأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف إليه وبدون ذلك يتقدم المرء في عمله تقدماً بطيئاً ، ويخلط ويبقى متوسطاً وإلى ضعف . والإحصاء ضروري أيضاً في العلم العملي أي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للسرعة في الإنتاج وبهذا يرى أرباب معامل الابر والحيطة في لنسرا أن في تقسيم الأعمال اقتصاداً كبيراً .

إذا قسمت الأعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها ، فالإحصاء يؤدي ولا جرم إلى الضعف الأدبي ، وذلك أن العاملات مثلاً إذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر ، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فإنهن لا يفقدن شيئاً من حواسهن ، ولكنه ثبت أنهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت . أما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضاً . ومن ينصرفون في العلم المحض إلى الإحصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه ، ويدهشون من عاصروهم بغرابة أخلاقهم ، وتشتت أفكارهم ، وبالجملة فيقضى على كل مخصص في العلم أو في الصناعة أن يحرز حظاً من المعارف لأول أمره ، وأن يخصص في علمين أو ثلاثة ، فإذا ملأرس أحدها أراح غيره هـ .

الصحافة العربية :

نشأت الصحافة ، أي نشر صحف الأخبار ، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة عام (١٥٦٦م) في مدينة البندقية ، ولم تلبث أن انتشرت في أوروبا ، ولكنها لم تعرف في ديار العرب إلا في سنة (١٧٩٩م) أنشأها في مصر نابوليون بوناپرت ، ولم تصل إلى الشام إلا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر ، ففي بدء سنة (١٨٥١م) أنشأ المرسلون الأميركيون في بيروت أول مجلة عربية اسمها «مجموع فوائد» . وللشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد ، جمع جريدة ، وهو الاسم الذي وضعه أديب لبناني للتعبير عن Journal أو Gazette ثم وضع لغوي لبناني آخر اسم «مجلة» للتعبير عن Revue أو Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في شتى الموضوعات . وما زال للشاميين الفضل الأكبر في إنشاء الجرائد والمجلات . وقد أنشأوا في الاستانة ومصر وتونس وأوروبا وأميركا صحفاً عربية كثيرة ، وآزرروا في صحف كثيرة ، كما أنشأوا في الشام صحفاً كانت تعلق وتسفل بحسب مقدرة القائمين بها ، ذلك لأن الأمة كانت غالبية ، ولم يكن الإقبال على مدارس المرسلين والمدارس الطائفية وهي التي سهلت درس العربية قبل غيرها ، هذا الإقبال الذي شوهد من بعد ،

وخرج مئات من الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مبادئ لغتهم ومبادئ اللغات الأجنبية .

ولما احتل البريطانيون مصر وزاد الضغط على الصحافة العربية في الشام ، هبط مصر كثير من نهباء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف ومن المترجمين وغيرهم ، وأنشأوا جرائد ومجلات ومنها إلى اليوم جريدتا الأهرام والمقطم ومجلات المقتطف واللال وغيرها من الجرائد والمجلات التي نشرها الشاميون وغاشت مدة ثم احتجبت . وكلها أبلت بلاءً حسناً في خدمة الأفكار ونشر الآراء العلمية والتهديبية والأدبية والدينية . وقد نشرت في الشام وفي مصر بأقلام الشاميين أنفسهم صحف ومجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء ، وإن كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم والأدب ، وقضي عليها لقلة القراء ، أو لوفاة أصحابها كمجلة الضياء والمنار ولم يأت من يخلفهم في موضوعهم . وأخرى أن المجلات المفيدة لم تجد من الحكومات والجمعيات معاضدة فعلية .

ظلت الصحف السياسية والمجلات العلمية مستندة إلى قوى أصحابها فقط ، ولو كان في القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لألفوا شركات برؤوس أموال كبيرة لإنشاء بضع صحف ومجلات تخدم الخدمة اللازمة ، ولا تسف إلى تناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات أو من أفراد أو من أرباب المظاهر يعطون المجلات أو الجرائد ما تيسر حتى تسبح بحمدهم وتنشر محامدهم وصورهم فالجرائد والمجلات بذلت الجهد إذاً في نشر الأفكار والتهديب في الشام على قلة الوسائط ، وكان صوتها يسمع أكثر مما سمع لو بذلت الأمة العناية بتعهدا أكثر مما بذلت ، نعم كانت خير معلم وأجمل مدرسة للناس ، ترشدتهم في جميع ما تشتد إليه حاجتهم من المعارف ، وتغرس في نفوسهم روحاً وطنياً لا تقوم الأمم بغيره ، وتلقن الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة في الجملة لأمة لم تستقر حالتها السياسية .

دخل منذ ثمانين سنة كثير من النهباء في الصحافة ، ولكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عدداً ، فأفسد المتوسطون عمل الذين كان يرجى من أقلامهم رفع مستوى المعارف . ومع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في كل أدوار الصحافة الشامية كان منها أن علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه ،

علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية . لا تبق لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها ، علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين . وأن أمتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى ، ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد ، والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا يتزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، وأصبح بعض العامة ممن أدمنوا تلاوة الصحف وتفهمها ، أرقى عقلاً من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة أو مئتين من السنين . علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية ، وأن نعمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً . علمتهم أن الغرب لا يريد خيراً للشرق ، والشرق شرق والغرب غرب ، وأن الأقليات التي كانت تصرفها أوروبا بحسب أميالها السياسية لا تعيش إلا بالاندماج في الأكرثيات ، وتوحيد المقاصد الوطنية . وكل أمة تُحكّم برأي السواد الأعظم من أبنائها .

علم معظم الناس ، إلا أناساً مأخوذين بتعصبات مذهبية ونعرات طائفية ، أن الغرب لتحقيق أغراضه يفادي بكل من يمتون إليه بصلة من صلوات القربى المذهبية ، وأن الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت وكان السبيل إلى الحصول عليها ، وقاعدتهم كلهم الغاية تبرر الوسطة . ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة ، فكانت تحتال في أول دور أن تشرف صاحب الجريدة برتبة لها ووسام ، ومن خالف الصدع بأمرها تكسر قلمه وتشرده وتسجنه وتُنزل عليه غضبها ، وقد تجلّى ذلك في الثلث الأخير من الدور الحميدي ، فلما أعلن القانون الأساسي أخذ الأتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدأ مبدأ السير بقوة الصحافة إلى الغرض الذي يرمون إليه ، فصانعوا بعض أربابها وضحكوا من بعضهم بإكرامهم وإعطائهم مالا . ولما جاءت الحكومات المنتدبة وهي من أعرف الأمم بتأثير الصحافة في الأفكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت أيضاً بين الرغبة والرغبة والعطاء والمنع . ولم تخل الشام في كل دور من أناس باعوا في خدمة صاحب القوة ضمائرهم . شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية ، ولكن ظهر ذلك جلياً في صحافتنا لأن الدعاة للقوة ضعاف ،

حتى في فهم ما انتدبو إليه ، فكانت تنكشف أعمالهم منذ أول يوم يسبحون بحمد من استهووهم .

وبعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج إلى أربع أو خمس صحف وبضع مجلات على النمط العالمي من نوعها في أمم الحضارة ، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس وبيروت ودمشق وحلب) وترجع في شؤونها إلى شركات منظمة تدير ماليتها ، أو أحزاب سياسية ثابتة تدير حركتها ، ويوكل أمرها إلى كفاءة ينسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة أوروبا وأميركا، ونحن لا نتطال إلى أن يكون للشام اليوم صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها، وصدق لهجتها لأمتها ، وسرعة تناوُلها الأخبار ، وتنوع أساليب التعليم والتفهم ، بل نرجو أن تكون لنا صحافة متناسبة مع ماضيها وحاضرنا ، بحيث لا تكون الشام أحط من مصر في هذا الشأن على الأقل . الصحافة عنوان ارتقاء الأمة ، وليس ما يمنع من إبرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق ، وهذا لا يتم إلا إذا وسدت أعباء الصحافة للعارفين .

قلنا في سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس) :
وقد رأينا هذا التهلك على إنشاء الصحف والمجلات حتى كان لنا منها نحو مئة صحيفة في هذا القطر الصغير ، نأسف لأكثرها على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها ، وهي خلو من الفوائد اللازمة ، ولولا بضع جرائد ومجلات لا بأس بها في الحملة ، لقلنا إننا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية، قلنا : إن للنجاح في الأعمال أسباباً كثيرة ، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، إذا اختل أحدها تعذر النهوض بالشق الآخر . وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا الحد المقرر . وهل في الأرض عمل لا يحتاج إلى علم وتجارب ومال واستعداد ؟ ولطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة، والشام في عهدها الدستوري وغيرهما من الأنظار والأمصار التي يتكلم أهلها بالعربية، تتجرأ على إصدار الصحف بدون حساب ولا روية، وأدركنا العامة أجراً من الخاصة على اقتحام هذا المركب الصعب ، وليس لديهم في الأغلب من وسائل النجاح كبير أمر ، فلا يلبث ما ينشئون أن يظهر إلى الوجود حتى يختفي اضطراباً لا اختياراً . وهذا هو السبب في تعدد الجرائد وقصر أعمارها واشتمزاز

الناس منها ، إذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آلة للتكسب والتدجيل لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم .

« ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس أمرها كالصحافة . فلم يعهد معلم في النجارة أو الحدادة أو البناء أو الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة ويتصدر للاعتياش منها وهو لا يعرف من أسرارها سرّاً . ولكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على أسباب كثيرة أهمها العلم والتجربة والمال ، قد رأينا أناساً من الأغمار يدعون به بدون خشية وأكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات دع تأليفها وإصدارها .

« كان جمهور الناس إلى عهد قريب يشارك الأطباء في طبهم ، فترى الكبير والصغير إذا عرض لهما مريض من خاصتهما ومعارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يشفيه ، مدعين أن ذلك من مجرباتها أو مجربات أصحابها ، ولما كثر الأطباء واستنارت الأمة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الأطباء في طبهم إلا عند الطبقة الجاهلة . أما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها وليست منهم ، ويصفون للأمة أدوية تقيها الأسواء والأرزاء ، ويعترضون على العالمين والحاكمين والسلاطين بلا خشية ولا حياء . كأن طب الأرواح ليس أصعب من طب الأشباح . أو كأن الصحافة من العلوم اللدنية لا الكسبية ، يتعلمها المرء بالدوق وتوحي إليه إحياء .

« من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أديائها في أخلاقهم ومعارفهم وقد شابوا اسمها وعبثوا بجمالها ، تدرعاً إلى مطمع ينالونه ، وصيت بالباطل يحصلونه ، ومقام عال ينزلونه . نعم لم نشهد العطار يبطاراً ، ولا الإسكاف نجاراً ، ولا الخطاب رساماً ، ولا الفحام نظاماً ، ولا الجوهرى حجاماً . ولكن شهدنا الفلاح صحافياً ، والمتشدق مؤلفاً ، والثرثار محامياً ، والمكثار خطيباً . كما نشهد الأغبياء قد يحاولون مجارة الأذكى ، والفقراء يقلدون الأغنياء .

« بيد أن سنن الفطرة التي لا تغالب ، ونظام هذا الكون البديع الذي قلما اختل ، يعاقبان المعتدي على ما لا يعلم بما جنته يدها ، كما قيل في الأمثال الإفرنجية كل خطأ يحمل عقوبته فيه . ونلدراً جداً في الناجحين من تيسر لهم الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا باتخاذ الذرائع المنجحة ، ونسج حلل مجدهم بأيديهم .

رأينا كثيراً ولا سيما في مصر والشام التصقوا بالصحافة وأنفقوا ثروتهم في سبيلها فلم ينجحوا ، ورجعوا بعد العناء الطويل وخسارة المال صفر الأيدي خائنين ، لأن مائدة العلم لا يجلس إليها طفيلي ، ولأن التمويه إن صعب في عمل فهو في الأعمال العلمية أصعب ...

« ولقد شاهدنا عياناً أن معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقتين خاصة هي التي قام بأعبائها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة وتدرّبوا في السياسة وتدوّقوا لماظة من العلوم التي لا يسع صاحب جريدة ومجلة جهلها . ومعظم من لم يخادهم التوفيق أخفقوا لأسباب ناشئة من ضعفهم وقلة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الأدوات إن لم نقل إنها تتوقف على أدوات أكثر . ولو كان قومنا يباليغون في انتقاء الرجال للأعمال ، لوضع في قانوننا بند يلزم كل من تصدر لمعاونة صناعة القلم ، أن يمتحن في الفن الذي يخوض عبابه ، كما يمتحن المتطببون والصيادلة ، فإنشاء الصحف إن لم يكن أحقّ بالعناية من معرفة الأمراض والعلل والعقاقير ، فلا أقل من أن يكون على مستواها ، فكم من جاهل قتل نفساً زكية ، ومن صحافي جرّع قراءه السم الزعاف ، على حين ينتظر منه الترياق النافع . »

هذا ما قلناه ونزيد عليه أن الإخصاء أو الاختصاص العلة الأولى في نجاح الغرب في صحافته يجب أن يكون له في صحفنا المقام المحمود ، وفي اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر أعمال الصحافة إلى أمثال هؤلاء من الحقوقيين والكتاب والسياسيين دخلت مصر في حياة جديدة ، وهذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض أبنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب والصحافة . ومن أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام « المشرق » « مجلة المجمع العلمي العربي » « المجلة الطبية » « مجلة المعهد الطبي » ومن المجلات المحتجبة « الرئيس » « الطبيب » « المقتبس » « الآثار » « الكلية » « الحارس » « الخدر » « المرأة الجديدة » ومن صحفنا اليومية « لسان الحال » « الأحرار » « القيس » « ألفت باء » « فتى العرب » « الرأي العام » « البلاغ » « الاستقلال » « الجوائب » « فلسطين » « العهد الجديد » « البرق » « الأحوال » « النهار » « النضال » « الكفاح » « الأيام » إلى ما هنالك من جرائد أسبوعية ومنها الجدي والهزلي المصوّر وغير ذلك .

وبعد فالواجب على الصحفي قبل كل شيء أن يحسن الكتابة العربية كأحسن منشئها، وأن يكون قادراً على النقل والاحتذاء من أفكار الغربيين، أي عارفاً بلغة أو لغتين من لغات السياسة والعلم، وأن يكون ممن عانى البحث ملمماً بالقوانين الدينية والزمنية وتاريخ الأمة ولا سيما تاريخ هذا القطر عارفاً بالاقتصاد والاجتماع وحياة الأمم وتاريخها وثوراتها ونهضاتها ونقباتها وألوان أحزابها وأوضاعها كل هذه المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه . أما المباحث المالية والزراعة والتجارة والفنون والأدب والشعر والآثار والتاريخ وغيرها مما يجعل من الصحيفة مدرسة تامة الأدوات لإنارة الأفكار وبث الصحيح منها ، فيجب أن يوكل شأنها لأهل الإخضاء من العارفين بها . وبذلك يصح أن يقال إن لنا صحافة راقية ، وما دامت الصحيفة الواحدة ينشئها واحد أو اثنان أو ثلاثة على الأكثر ، تضطر الصحف إلى أن تكون ناقلة ضعيفة في مادتها وأخبارها وأفكارها وإذا زاد عليها خدمة غرض سياسي لا يحسن صاحبها التصرف فيه ، فهناك البلاء الذي يحول دون الرقي .

الطباعة والكتب :

لم يصل إلينا فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد ، إلا في القرن السابع عشر ، ومن أوائل الكتب العربية التي طبعت في رومية في القرن الخامس عشر الإنجيل الشريف وقانون ابن سينا ، وقام بتأسيس مطبعة في الشوير من لبنان عبد الله زاهر الراهب الماروني سنة (١١٤٥) وطبعت هذه المطبعة ٣٤ مؤلفاً خلال ستين سنة وأكثرها ديني وهي مطبعة يدوية على الحجر ، وقد طبعت مطبعة الشوير المزامير سنة (١٦١٠م) ، ودخلت الطباعة الاستانة سنة (١١٣٥هـ) وأول مطبعة أنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن عشر ، بل إن فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه إلا بمجيء الإرساليات والرهينات الدينية من الغربيين ، وإلى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأميركانية أسست سنة ١٨٣٤م واليسوعية ١٨٤٨م) التي كان الغرض الأول منها نشر الكتب المقدسة والدعاية إلى إنجيل المسيح في هذا الشرق

القريب بين أبناء العرب، ثم خدمة التهذيب والثقافة الإنكليزية والفرنسية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية. والكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل على أنه لا يتأتى نشر المبدأ الذي يريدونه قبل أن يخدموا القطر بلغته.

ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت، وقلّ جداً فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة ولاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة. طبعت قصصاً عربية وأشعاراً ودواوين قديمة وحديثة وكتباً دينية ورسائل علمية في المعارف العامة وقليلاً من كتب العرب التي لا يزال ألوف منها محفوظاً في خزائنا وخزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه ويحود العناية به من حيث التصحيح والتعليق. ونحن قلما كتب لمطابعنا أن تتأسى بهم وتتعلم منهم. ولولا ألوف من كتبنا طبعت في مصر والإستانة والهند وأوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في العلوم والآداب القديمة، ذلك لأن بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون إحياءه من كتب القدماء، أو ما يؤلفونه هم على النمط الحديث، لأن الطابعين ينظرون إلى أرباحهم أولاً، وأرباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم، والجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجدل إقباله على الهزل، ولا يقدر أن المنفعة له في الصعب قبل السهل، وأكبر الظن أن كثيراً من أرباب المطابع هم من العامة أو يقربون منهم في الفكر والتعلم. ولقد شاهدنا أناساً من الغيّر على العلم طبعوا مصنفاتهم بأنفسهم فافتقروا إذ لم يعرفوا تصريفها، والمؤلف غير التاجر، ثم هم لم يجدوا في الأغنياء والحكومات من ينصرهم ولو بابتياح نسخ معدودة من كتبهم. ورأينا أناساً طبعوا كتباً سخيفة من تأليفهم فروجوها هم أو أحبابهم بالتجبية والقمحة فدرت عليهم أرباحاً لا يستهان بها. فلا عجب إذا أصبح الطابعون والمصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة ولو كان في الطابعين من يخاطرون بطبع كتب العلم والأدب التي لها قراء مخصوصون لزداد عدد الراغبين في المسائل الجدية أكثر من الآن ولا ترفع ميزان العقل أكثر مما ارتفع.

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين أو لمن قبلهم في عهد ارتقاء العلم في العرب، وقل أن طبع كتاب بذلك الإلتقان الذي تطبع

به الكتب في أرض المدينة اللهم إلا في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت أم خسرت لأنها لجماعات لا لأفراد . وما عدا عشرات من الكتب التي طبعها في بيروت خاصة علماء المشرقيات أو من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع والنشر . لم يكد يطبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجاً في إتقانه ووضعه وتأليفه . وغاية ما نشره كتب قصص وكتب مدارس ابتدائية أو أشعار أناس تهجموا على التأليف تهجماً . ولما يستعدوا له الاستعداد الكافي ، ولم يجودوا مصنفاتهم بإنصاجها بالبحث والتنقيب ، وإيراد الطريف من المباحث .

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة . ولولا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا ، وما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ أكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب ، ولولا ما طبعته جمعيات المستشرقين في ممالك أوربا وأميركا لفاتنا الوقوف على أمور كثيرة في مدينة العرب وتاريخهم ، ولإى اليوم لم تبلغ مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب ، وبعضها باتقان زائد في الطبع ، كطبوعات المطبعة الأميرية ودار الكتب المصرية ومطبعة جمعية التأليف والترجمة والنشر مبلغ مطبعة ليدن وليبسيك في الإجازة ، ولا سيما في النهارس والشروح والهوامش والأمانة في النقل الذي أصبحوا به قدوتنا وعنهم يجب أخذه

تأملنا ملياً فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية موقته إلا قليلاً ، تخدم فكراً خاصاً ولا يتوقع منها إلا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة ، ومعظم من يعدونهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون ، ومنهم من لا يجيد الترجمة ، وكم من تأليف نظرت فيه فانبضت نفسك مما في تضاعيفه من ضعف التأليف ورداءة الطبع . ومع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الأولى أي في أواخر القرن الماضي أكثر من اليوم ، ولقد تسربت روح التفرنج إلى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية ، وغدوا لا يهتمون إلا بالأخذ من كتب اللغة التي يحسنونها من لغات الغرب ، وفي الغالب تكون الفرنسية أو الإنكليزية . ولما رأينا رجلاً كفوءاً من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير كتب الإفرنج أن نقل . لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بني قومه . موضوعاً نافعاً لهم في اجتماعهم وصناعتهم وتمدنيهم ، لأن الأثرة زادت بزيادة المدنية .

وقد زاد في رداءة التأليف المطبوعة كون المؤلفين ، ومنهم الوسط في علمه وتأليفه ، يخافون نقد الناقدین عليها ، وكون بعض الصحف والمجلات تصانع في الأكثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين ، وتدهن دهاناً عجيباً لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة والمجلة أو على مشربه السياسي ! . أو يكون ممن يتوقع منه أن يكتب له ذات يوم مقالة أو يعاونه أدنى معاونة مادية . ولذلك استشرى الفساد وظن كل من طبع شيئاً أنه خدم الأمة خدمة صالحة . والنقد الذي هو من أهم الذرائع في السير نحو الكمال إلى بحاج المدنية مما لا يؤبه له ، وربما تعرض صاحبه لمقت هؤلاء الطابعين والمؤلفين . قسم السيد أسعد داغر من يعرضون في سوق الأدب بضاعتهم من ترجمة وتأليف وتصنيف إلى فريقين فريق المحترفين وفريق الهواة ، فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتقوا شربة المرّة ، ويعيشوا من شق تلك القصة ، والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والأدب لأن لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب ، ورغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح والمكاسب ، ومعظم هؤلاء هواة كانوا أم محترفين يشق عليهم أن تنقد كتبهم ومولفاتهم وينظرون إلى الانتقاد والمنتقد بعين الشائئ الكاشح .

ليس في كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهو عصر النهضة عندنا ، سوى كتب قليلة تستحق العناية وتستوقف القارئ للأخذ منها مثل كتب محمد عابدين ، أحمد فارس ، فانديك ، ورتبات ، پوست ، پورتر ، لامنس ، شيخو ، مشاققة ، إبراهيم اليازجي ، إبراهيم الحوراني ، طاهر الجزائري ، عبد الرحمن الكواكبي ، سعيد الشرتوني جمال الدين القاسمي ، رفيق العظم ، شبلي شميل ، شكيب أرسلان ، نجيب الحداد ، يعقوب صروف ، عيسى المعلوف ، إسعاف الناشيبي ، إبراهيم الأحمد ، يوسف الأسير ، بطرس وسليمان وعبد الله البستاني ، أحمد حمدي الخياط ، مرشد خاطر ، جميل الخاني ، شفيق جبري ، سليم الحندي ، خليل مردم بك ، أمين الريحاني ، خليل سعادة وأضرابهم ممن أبرزوا تأليف منقحة ، وفي بعضها إبداع وإيجاد ، وذلك لأنهم هضموا العلوم التي عرّفوا بها ، وجاءوا بالجدید ، وفيها أفكار علمية أو مدنية أو دينية صحيحة .

الفنون الجميلة

تعريف الفنون الجميلة :

الفنون الجميلة أو الصنائع النفيسة ، وأسماها بعضهم نواضر الفنون وقيل إن العرب أطلقوا عليها اسم « الآداب الرفيعة » هي الصنائع التي من شأنها إدخال السرور بجمالها وجلالها على النفوس البشرية، وتربي ملكة الذوق والشعور، وهي سبعة أقسام : الموسيقى ، الغناء، التصوير، النقش ، البناء ، الشعر والفصاحة ، الرقص . وأرجعها بعضهم إلى ثلاثة فروع فقط : التصوير والشعر والموسيقى . ولقد كان لهذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ما ساعدتها بقعتها وطاقتها ، وربما تم فيها أشياء لم تصلنا أخبارها ، أما الدول التي تعاقبت على الشام بعد الإسلام ، فإن ما وصلنا من أنباء هذه الفنون فيها قد تعرض له كاتبوه بالعرض كأن يكون المشتغل بالموسيقى أو التصوير مثلاً ذا مشاركة في فنون أخرى من أدب وشعر ، وطب وفلك ، وحديث وفقه ، أو أن القوم دوتوا عامة سير الموسيقيين والمغنين والمصورين والنقاشين مثلاً فضع ما دونوه في جملة ما ضاع من أخبار حضارتنا .

الموسيقى والغناء :

نشأت الموسيقى مع البشر ولازمتهم في جميع ما عرف من أدوارهم في حياتهم الخاصة والعامة ، وفي مظاهر سلمهم وحربهم ، وسعادتهم وشقايتهم ، وأفراحهم وأتراحهم، وسفرهم وحضرهم ، وتعبهم وراحتهم ، ودينهم وديناهم والمرء من طبعه أن لا يستغني عن رفع صوته ، ليطرب نفسه وجليسه ، وقلبه

يصبو بالفطرة إلى سماع أوتار تهزه وتطربه . فالموسيقى تجمع الحواس وتنشط لها النفوس ، وبها يجسر الجبان ، ويعطف اللئيم ، ويرقّ الكفيف ، ويلين القاسي ويقوى الضعيف ، ويكف الظالم ، ويعتدل المائل ، فهي مدعاة السرور ، مجلبة الطرب ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب ، مهوثة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الأخلاق القومية ، مصورة الانفعالات النفسية ، أصدق عامل على التحمس ، أقوى دافع إلى النهوض والتحمس ، معلمة أنفع الدروس الشريفة مذكرة بالمطالب العالية ، فيها يتجلى العقل البشري بإشارات وحركات ، تعمل عملها في الأفتدة والوجدانات .

ولقد ثبت أن العنصر السامي من أكثر العناصر واوعاً بالطرب والخيال ، وقيل : إن الحثيين من أقدم شعوب الشام كانوا أقل عناية بالموسيقى والغناء من جيرانهم البابليين والأشوريين والآراميين ، ومع هذا كان لهم من الغناء ما ابتدعوه بنظرتهم ، ومنه ما أخذوه من مجاورهم . وكان الآراميون مولعين بالغناء والضرب بالإيقاع على آلات لهم يوقون بها ويزمرون ، ويضطربون بها فيضطربون ، وهي بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التي سبقتهم إلى سكنى هذا القطر . ومثل هذا يقال في الفينيقيين الذين اقتبسوا مدنية الفراعنة ، وهم من أصل سامي ، فإنهم كانوا يعرفون الموسيقى ، ومنها ما نقلوه عن المصريين لتمازج مدنية السلائل المصرية بمدنية فينيقية الصغيرة ، وإذ كان للمصريين عناية فائقة في معابدهم بالموسيقى على ما ظهر من تماثيلهم التي مثلت بها الضاربين والمغنين ، تعلم جيرانهم أهل فينيقية بعض هذه العناية ، ولكن على طريقة الاحتذاء لا إبداع فيها ، ويقال ذلك في الكنعانيين والإسرائيليين فقد أواعوا بها وظهرت آثارها في معابدهم وبيعتهم ، وأمام أربابهم ومعبوداتهم ، وفي حروبهم وغاراتهم وأعيادهم ومآتمهم واجتماعاتهم ، على ما فهم من نصوص التوراة . ومزامير داود مشهورة مذكورة ، والآلات التي اشتهرت عند الشعوب القديمة وعانت استعمالها ، ترجع في الأكثر إلى شبابة وبوق وصنج وطبل ودف .

ولقد دلت بعض النقوش التي عثر عليها في وادي موسى وجرش وتدمر أن العمالقة والنبط والعرب لم يكونوا أقل من الشعوب التي سبقتهم إلى نزول هذه الديار ولوعاً بالتلحين والإيقاع والضرب على القيثارة والنفخ بالمزمار ، وقد

نقل اليونان والرومان إلى هذا القطر موسيقاهم وأصول غنائهم على الأرجح كما نقلوا أربابهم ، واقتبسوا أرباباً مع أربابهم ، وإذ طال عهد دولتيهم كثيراً تأصلت موسيقاهم ، وثبتت مصطلحاتهم ، وربما نقلوا بعض مصطلح الأمة التي حكموا عليها في غنائها وموسيقاها . ولما انتشرت النصرانية في الشام في القرن الثالث للميلاد عني منتحلوها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بيعهم ، وإذ اقتبست النصرانية كثيراً من عادات الروم ومصطلحاتهم لم تقصر في اقتباس الموسيقى والتلحين والغناء لثبوت فوائدها الروحية .

ولما جلت بعض القبائل العربية إلى الشام يوم سيل العرم وقبله وبعده ، حملت معها ما ألفت أن تفرغ إليه من اللحن ، وتضرب عليه من الآلات ، حتى إذا كان الإسلام ، وكانت مدينة الفاتحين إلى السداجة والفطرة ، وكان غناؤهم لا يتعدى الحناء والإنشاد يوم الغارة والحقل ، وفي ظل الخيام والآطام ، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية . وقال بعض العارفين : كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط . وزعم بعضهم أن أخذها كان من الرومية أكثر . ولا يعقل أن يتأخر العرب في نقل الموسيقى إلى القرن الأول للهجرة واستعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون ، ولهم من فطرتهم ومناخ أرضهم أعظم دافع للولوع بها ، وهم المعروفون بحب الارتحال وكانت لهم صلوات مع جيرانهم من الأمم الأخرى منذ الزمن الأطول « ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب » .

ومع هذا فنحن مضطرون أن نشايح القائلين بأن أول من غنى هذا الغناء العربي بمكة ابن مسجح ، نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم كثر الموالي من الفرس فكانوا يتعلمون في مكة والمدينة ، ومنها ينتقلون إلى الشام والعراق ومصر وغيرها من الأصقاع التي استظلت براية الإسلام . وفي الأغاني أن سعيد ابن مسجح أبو عثمان مولى بني جُمح وقيل إنه مولى بني نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، مكي أسود مغنٍ متقدم ، من فحول المغنين وأكابرهم ، هو أول من وضع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام ، وأخذ ألحان الروم .

وقيل : إن أول من أخرج الغناء العربي جرادة ، جارية ابن جدعان وفيه نظر

فإن الغناء معهود من عهد عاد، حتى كان من جملة مغنياتهم الجراداتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال غنته الجراداتان. وكان النضر بن الحارث بن ككدة أول من ضرب على العود أخذه عن الفرس وعلمه أهل مكة فانتشر في الحجاز وكان يتغنى أيضاً .
وفي القصة التي ساقها صاحب الأغاني في الدعوة التي دعي إليها حسان بن ثابت في آل نسيط وقد أتوا بجريتين إحداهما رائقة والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنتا بقول حسان :

انظر خليلي بيباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد
ورواية حسان نفسه أنه كان في الجاهلية مع جبلة بن الأيهم ، وقد رأى عنده عشر قيان : خمس يغنين بالرومية بالبرابط (الأعواد) وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، أهداهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . في ذلك كله إشارة إلى أن الغناء العربي في الشام أقدم من الإسلام .
موسيقى كل أمة ملازمة لها كروحها ، وهي مظهر من مظاهر حياتها ، فلا يعقل أن تخلو أمة من روح حتى تجيء أمة أخرى فتقبسها روحها . ولكن الأمة إذا اختلطت بأخرى ، وكان عند الثانية فضل على الأولى في شيء ، وفي الثانية طبيعة الاقتباس ومرونة على الاحتذاء والتشبه ، قد تحمل الأولى إلى الثانية ما ينمي فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها ومناحيها .

ولقد زعم بعضهم أن الإسلام يُحِلُّ الموسيقى محلها اللائق بها، وادعى بعضهم أنه حرمها ، فكان الخطر أسهل من الإطلاق في نظرهم ، بيد أن الإسلام وهو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل ، إلا أنه لا يقول بالإفراط في شيء حتى ولا بالعبادة ، لأنه يكون قد دعا إذ ذاك إلى البطالة واللهو ، وهما مخالفان للشرع ، وبذلك تكون الموسيقى وبالاً على من يأخذ نفسه بها ، ومصيبة على من ينصرف إلى سماعها ، ولو صح ما قالوا فلماذا رأينا جليّة من الصحابة والتابعين لحنوا وتغنوا، وسمعوا الألحان وطربوا لها ، ولو لم يجزها الشارع الأعظم في أوقات معينة وحوادث وقعت ، هل كان يجزأ أحد من أصحابه ومن بعدهم على الجلوس في مجالس الطرب ، والدين غض والعهد بصاحبه غير بعيد ، قال عبد الله بن قيس : كنت فيمن يلتقى عمر مع أبي عبيدة مَقْدَمَهُ الشَّام ، فينما عمر يسير إذ لقيه المقلِّسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر :

امنعهم فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين هذه سنتهم ، أو كلمة نحوها ، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم فقال : دعوهم . والتقليس الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم المصرب بأصناف اللهو . وقيل المقلس هو الذي يلبس القالس أو القلنسوة وهي أشبه بقبعات الروم .

ولما استقر الملك لأمية في الشام ودخلت الحضارة كان في جملة ما دخل إليه الغناء على صورة لا خنا فيها ولا تبذل ، ولقد روى المبرد أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه ، فلما أصبح قال ليزيد : من كان مُلهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر ، قال : إذا فألخثر له من العطاء . وقالوا : إن معاوية قال لما دخل على ابن جعفر يعود فوجده مُفريقاً وعنده جارية وفي حجرها عود : ما هذا يا ابن جعفر؟ فقال : هذه جارية أرويتها رقيق الشعر فتزيده حسناً بحسن نغمتها قال : فلتقل ، فحركت عودها وغنت وكان معاوية قد خضب .

أليس عندك شكر للذي جعلت ما ابيض من قادمات الريش كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم
فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر : لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين
قال : كل كريم طروب .

ورأينا بعض خلفاء بني أمية في دمشق وأمرأهم وساداتهم ، يضعون ألحاناً ويسمعون الغناء ويولعون بالموسيقى ، ويجيزون أربابها ويواسونهم من غير تكبير : ومنهم عمر بن عبد العزيز ، وناهيك به من كامل ، في جميع الفضائل . فقد دوت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها ، وكان أحسن خلق الله صوتاً . قال أبو الفرج : وأما الألحان التي صنعها فهى محكمة لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة وحذق في الغناء . ومن صنع في شعره غناء يزيد بن عبد الملك الأموي ومن غنى وله أصوات صنعها مشهور وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز ، الوليد بن يزيد . وقد ذكروا أنه كان للخلفاء من بني العباس غناء ، ومنهم من كان يضرب بالعود ، ومن خلفاء العباسيين السفاح والمنصور والواثق وابن المعتز والمعتضد وكثير غيرهم من أبناء الخلفاء ، دع سائر الطبقات من أهل

الرفاهية والسعة ، ممن كانوا في كل زمان ينشطون إلى سماع الأغاني ، ويبرون الرجال والنساء من أرباب الموسيقى والغناء ، ويغالون باتباع الجوارى اللاتي حذقن الغناء ، وبرعن في الموسيقى وشون شيئاً من الأدب .

وكانت تغلو في العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجوارى . والسواذج منهم أي غير المثقفات دون من عني أولياؤهن بثقافتهم في الرتبة والقيمة مهما بلغ من جماهن ، والموسيقى والشعر في مقدمة ما كان يطلب منهم . وذكر المسعودي أن كثيراً من الجوارى اشتهرن بالغناء بالمدينة ، وكان يقصدهن بعض الناس من بغداد ، وربما وافى الواحدة وجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما ، ومنهن القارئة القوالة ، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة . وكان لبعض الموسيقيين والموسيقيات والمغنين والمغنيات من أرباب النباهة والفضل ، يد في إصلاح بعض الأحوال وتخفيف النوازل عند العظماء ، ولطالما ارتجلوا ألحاناً وأبياتاً ظاهرها طرب وغرام وسلوى ، وباطنها وعظ وعبرة وتعريض ، ذلك لأن الموسيقى عندهم كانت على الأغلب مرافقة للشعر والأدب ، وكم من شاعر تدفقت الحكمة على قلبه ، وجاش بها صدره ، فهذب نفساً بل نفوساً بأبيات يقولها .

جاء أبو النصر الفارابي الفيلسوف إلى الشام على عهد سيف الدولة بن حمدان فأدهشه ومن عنده من الموسيقيين على إتقانهم لها ، وأقام في دمشق ومات فيها ، قال ابن أبي أصيبعة : إن الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها إلى غاياتها ، وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه ، وإنه صنع آلة غربية يسمع عنها ألحاناً بديعة ، يحرك بها الانفعالات ، ويحكى أن القانون الذي كان يضرب عليه للطرب هو من وضعه ، وأنه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم . وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة بن حمدان مع الوزير المهلبى للاستئثار بمغنية أديبة مشهورة اسمها الجيداء ما يدل على ولوع القوم بالموسيقى ، وكان لجيداء في مجالس سيف الدولة من ارتجال الألحان والأدب البارع ما اشتهر أمره ، وفي عصره اشتهرت في انطاكية المغنية المشهورة « بنت يحنأ » .

ولم تبرح الشام تخرج من رجال الموسيقى والغناء رجالاً كانوا بهجة

عصورهم ، ومنهم أبو المجد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين من أهل القرن السادس ، كان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ، ويجيد الإيقاع والغناء والزمر وسائر الآلات ، عمل أرغناً وبالع في إتقانه^(١) وحاول أيضاً عمل الأرغن واللعب به أبو زكريا يحيى البياسي من أطباء الناصر صلاح الدين . وكان من البارعين في هذا الفن من العلماء قسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المؤمن بن فاخر ونجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة وفخر الدين الساعاتي . وكان رشيد الدين بن خليفة أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود ، وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى إنه شوهد من تأثير الألفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبي نصر الفارابي ، فكثير إعجاب المعظم به جداً وحظي عنده . ومنهم علم الدين قيصر أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين بن يونس في الموصل .

وكان أحمد بن صدقة طُنبورياً مقدماً حاذقاً حسن الغناء ومحكم الصنعة ، وكان ينزل في الشام فاستدعاه المتوكل إلى بغداد وأجزل صلته . وكان خلفاء بني العباس كلما سمعوا بناغمة في هذا الفن حملوه من القاصية وأغدقوا عليه الهبات ذكراً كان أم أنثى ، ولهم في ذلك نوادر إن لم تصح كلها ففي بعضها إشارة إلى ما كانوا فيه من حب هذا الفن .

ومنهم الجمال البستي كان يلعب بالحنانة (الأصل الصغانة وهي التيثارة) ولي خطابة جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الأشرف ، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ وكان يتهم باستعمال الشراب ، وصاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين إسماعيل . فكتب إليه عبد الرحيم المعروف بابن زويتينية الرحيبي أبياتاً ، يعرض بها بالرجلين ويرجو أن يعاد جامع التوبة إلى ما كان عليه محله من قبل ، وهو خان للفسق والفجور ، لأن حظه حتى بعد أن صار جامعاً أن يتولاه موسيقار ، وشرب عقار ، فقال :

(١) الأرغانون آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض ، ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ثم يركب على هذا الزق أنابيب صفر لها قصب على نسب معلومة ، يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجية على ما يريد المستعمل (الحوارزمي) .

يا مليكاً أوضح الحقّ لدينا وأبانّه
جامع التوبة قد قلّسني منه أمانه
قال قل للملك الصا لح أعلى الله شأنه
يا عماد الدين يا من حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في ضّري وبوسٍ وإهانه
لي خطيب واسطي بعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قب لُ يغني يجفانه
فكما نحن فما زل لنا ولا أبرح حانه
ردّني للنمط الأوّل واستبقِ ضمانه

وكان محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٣١ شاعراً موسيقياً ملحناً قانونياً دهاناً ، وكان الكمال القانوني من المشهورين في عصره بقانونه ، وصفه عبد الرحمن بن المسجف (٦٣٥) الدمشقي فقال :

لو كنت عاينت الكمال وجسته أوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفه ال يسرى وفي اليمنى حياة الأنفس

وذكر ابن حجر في أخبار سنة (٧٧٩) أن دنيا بنت الاقباعي المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم في صناعتها ، فاستدعاها الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها ، ثم وفدت على الأشرف فحظيت عنده ، وهي كانت من أعظم الأسباب في إسقاط مكس المغاني ، سألت السلطان في ذلك فأجابها إليه ، واستمر إبطاله في الدولة . واشتهرت في القرن الثامن بدمشق فرحة بنت المخيلة المغنية كما اشتهرت المغنية المعروفة بالحضرية وهي التي كانت مع عرب آل ميرا يوم وافوا دمشق لحرب التتر في زهاء أربعة آلاف فارس ، فكانت تغنيهم من الهودج سافرة وكانوا يرقصون بتراقص المهاري وتقول :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة لبالي لاقينا جُداماً وحميرا
ولما لقينا عصبه تغلبية يقودون جُرداً للمنية ضمراً

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تتكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثله ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ومنذ الزمن الأطول إلى أيامنا ما خلقت الشام من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة . ولم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأمويين والعباسيين ومن بعدهم من المماليك وغيرهم من مبرزين في الغناء والموسيقى . واشتهر في دمشق بضرب القانون وكان أستاذاً فيه أحمد التلعفري (٨١٣) كان كاتب المنسوب . ومن الناهيين ابن القاطر الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن فإذا حضروا معه مجلساً عظموه وتراخوا في العمل حتى يشير إليهم ، ذكر ذلك المحبي وترجم له ولرجب بن علوان الحموي وقال : إن هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها وهو أعرف من أدركه وسمع به . وله أغانٍ صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن . ومنهم برسلوم الحلبي رئيس أطباء الدولة العثمانية ونديم السلطان محمد بن إبراهيم كان حسن الصوت عارفاً بالموسيقى . واشتهرت أسرة بني فرفور في القرنين الماضيين بدمشق بالشعر والآداب وقد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى وهما جمال الدين وعبد الرحمن .

وفي تراجم أهل الغناء الذي كتبه الكنجي المتوفى سنة ١١٥٠هـ ترجمة ستة وعشرين مغنياً من معاصريه في دمشق وفيهم المؤذن والمنشد في الأذكار والمغني على الآلات الموسيقية ، مما يدل على الإقبال على الموسيقى حتى في عصر الظلمات فإذا كانوا في عصره على هذا القدر في دمشق فقط فكيف كان في حلب وغيرها من المدن ، وحلب مشهورة من القديم بغرام أبنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان ، دع الموسيقىات والمغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبة البحري في حلب التي ذكرها كثيراً في شعره الخالد .
ومن الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب وهم المحترفون ، ومنهم من كان يخدم هذا الفن المهم حباً به وهم الهواة ، ومن هؤلاء طبقة من الرجال والنساء لا يُستهان بها ولكنها كانت ولا زالت متكئمة ، ومنهم من تستعمل من الموسيقى أو تسمع منها ما لا يعبث بوقارها إن كانت من أرباب

المظاهر الدينية أو الدنيوية مخافة أن ترمى بما يثلم الشرف ، لأن بعض الفقهاء شددوا على الغناء والموسيقى ، وكان بعضهم يعد ساقطاً من العدالة كل من يغني بأجرة من الموسيقين والمغنين ، ويتساحون مع من يغني في جماعة من أصحابه ، ويعدون الغناء فناً يفقر صاحبه ، وجاء في الأمة مثل شيخ الإسلام عبد العزيز ابن عبد السلام (٦٦٠) وكان على نسكه وورعه يحضر السماع ويرقص ويتواجد والناس تقول في المثل « ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام » . وصناعة الغناء كما قال ابن خلدون : آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية ، وأول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعته .

ولقد أدركنا وأدرك أجدادنا أن الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين ، وكل مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم ، أو نزهة من نزهاهم ، كانت تضم أناساً أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة ، فكان السرور يملأ القصور والدور ، والموسيقى والإنشاد من الأمور المألوفة لا يُستغنى عنها بحال ، أما في القرى والبوادي فكان لهم الغناء والحداء ، وضرب الرباب والقيثارة والمزمار والدف والكوبة ، أي أن لهم ما يطرب آذانهم وترتاح إليه أرواحهم وتسهل معاناته وممارسته ، ومن مشاهير الموسيقيين في النصف الأول من القرن الماضي محمد السوالاتي الدمشقي أخذ عنه أرباب الموسيقى في عصره من المصريين والشاميين ذكره في سفينة الملك .

ومن أهل المظاهر الذين عُرفوا بالموسيقى في أوائل هذا القرن الشيخ أبو الهدى الصيادي من حلب وعبد الرزاق البيطار من دمشق وكانا من أساتذة هذا الفن الجليل ، ومنهم من عُنى بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال . أحمد السفرجلاني . علي حبيب . عمر الجراح . عبد القادر الحفني . محيي الدين كرد علي . سامي الشوا . رحمون الحلبي . توفيق الصباغ . علي الدرويش . باسيل الحجار . محمد الشاويش . نجيب زين الدين . مصطفى سليمان بك . شفيق شبيب . محمد علي الأسطه . رضا الجوخدار . مصطفى الصواف حمدي ملص . رجب خلقي . يوسف الزركلي . محمد الأنصاري ، محمد محمود الأتاسي . ميشل الله ويردي . مدحت الشريجي . اليكسي بطرس . اليان نعمة . إسكندر معلوف . بولس صلبان . نصوح الكيلاني . تحسين يوقلمه جي . عباد الحلو . طلعت شيخ الأرض . حسن التغلبي . جميل البربير ، أحمد التنير . أمين

النقيب . محيي الدين بعيون . وديع صبرا . عزت الصلاح . قسطندي الحوري .
 أحمد الشيخ . محمد الجراح . إبراهيم شامية . فريد الأطرش . وغيرهم ممن جعلوا
 الموسيقى حرفة أو للتسلية في خلواتهم ومنهم من كانوا صلة بين الموسيقى القديمة
 والموسيقى الجديدة . ومن المنشدات المطربات فريدة محيش . رمزية . جمعة .
 خيرية السقا . نادرة . سارينا . فيروز . أسمهان الأطرش . ماري جبران .
 ماري عكاوي . لور دكاش .

ولقد أنبغت بيروت وحلب كثيرين من المغنين والغالب أن في هاتين المدينتين
 خاصية حسن الصوت . سألت صديقتنا الشيخ كامل الغزي من أساتذة حلب عن
 المغنين والموسيقيين في بلده فكتب لي رسالة قال فيها :

إن حلب لا تخلو في أكثر أوقاتها من الشداة والمترنمين الذين يعدون بالمئات
 ويعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائها أجره باسم ابن الفن ، ومن رجال أواسط
 القرن الماضي مصطفى شبك ، فتح نادياً لممارسة الفنون الموسيقية دعاه بقاعة
 بيت ممشان ، كان يختلف إليه في أوقات معينة كثير من المولعين بالموسيقى
 ليتلقوها عن أستاذها . وما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذي تتوفر فيه
 دواعي الطرب فيقولون : (ولا قاعة بيت ممشان) . ومن رجال أواسط
 القرن الماضي عبد الله البويضاتي ومن رجال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي
 محمد بن عبده . إسماعيل الشيخ . جبرا الأكثر . آجق باش . طاهر النقش .
 محمد الوراق . الدرويش صالح قصير الذيل . محمد غزال . باسيل حجار . أحمد
 سالم . أحمد بن عقيل . ومن أخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد
 أحمد أبو خليل القباني الممثل الموسيقار الدمشقي والسيد عبده الحموي المطرب المصري
 وهما من المشاهير . ومن تلامذته امرأة قنصل إيطاليا في حلب كانت تقول إن
 السيد أحمد بن عقيل يقل نظيره في هذا الفن حتى في أوربا قال : ومن الأحياء في
 حلب عبده بن محمد عبده وشرف الدين المعري ومن قينات القرن الماضي وأوائل
 القرن الحالي الحاجة عائشة المسلمينية .

وقال : إن العود المعروف بالبربط لم يكن معروفاً في حلب في القرن الماضي
 حتى جاء حلب سنة (١٢٩٣هـ) رجل من أهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ

الناس عنه. ومن العازفين على الكمنجة أوائل هذا القرن شعيا الكمنجاتي وإسحاق عدس ونيقولاكي الحجار . ومن الأحياء سامي الشوا ووالده أنطون موسيقار أيضاً . والعازفون بالناي المعروف عند العرب باليراعة كان نابغة فيه أوائل القرن عبده زرور وكل من في حلب اليوم خريجوه وتلاميذه اه . ومن الموسيقيين الحلبيين أيضاً عبد الكريم بلّة وحبيب العبديني وأحمد مكانس وعمر البطش ومصطفى طمرق توفوا في أوائل هذا القرن .

ولقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن الماضي لأنها خُدمت أكثر من موسيقانا ، ثم جاءت الموسيقى الإفريقية ، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجاً لا يقام له وزن ، لم يحتفظ بالقديم وهو من روحه وعاداته ولم يحسن اقتباس الجديد لأنه ليس من مصطلحه . ولا يفوتنا القول إن الموسيقى في العصور المتأخرة كان لها في أذكار بعض أرباب الطرق الصوفية مقام رفيع . ومنهم من أتبعها بالصنوج والأوتار ، ومنهم من شفعها برقص ، وقد قام منهم مبرزون في صنعتهم ، وماتت شهرتهم ، يوم سكنت نأمتهم ، والموسيقى في الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية وتباين العصور ، ما زالت شائعة معتبرة وكم من موسيقار عندهم تقلبت به الحال حتى رقي بفضلها إلى أرقى درجات الكهنوت .

التصوير :

أخذ الحثيون التصوير على الأغلب كما أخذوا النقش والبناء عن جيرانهم من البابليين والآشوريين ، وربما أخذوا عن المصريين أيضاً ، لكنهم لم يجودوه كل الإجابة على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة ، وخالفنا رأي بعض المشتغلين بآثارهم المعجبين بمدنيتهم ، فإن الآثار التي اكتشفت للحثيين في جرابلس تدل على مبلغ تلك الأمة من الإتقان في النقش والتصوير . وقد قال لنا الاستاذ هرورزي التشكي وهو إخصائي بآثار الحثيين : إن عادياتهم مما يعجب منه ، ولا تقلّ يجمهاها عن بقية آثار الأمم الأخرى ، وكذلك فعل الكنعانيون والفينيقيون والإسرائيليون ، أخذوا عن آشور وبابل ومصر هذا الفن ، ولم يعرف أنه كان لهم طرز خاص في التصوير ، وكانوا على ما ظهر دون من اقتبسوا عنهم . أما

التدمريون فأجادوا في تصويرهم وكانوا ينقشون على القبور صور من دفن فيها من الرجال والنساء ، مثل أهل جنوة في إيطاليا في العصور الأخيرة ، ومنها صورة جاريتين رأهما أوس بن ثعلبة التيمي في القرن الأول وقال فيهما أبياته المشهورة :

فتأتي أهل تدمر خبراني ألمّا تسأما طول المقام
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفي دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها تنطق ، ومنها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصفيف الشعر في ذلك العصر ، وكيف كانت أزياء نساء تدمر وبهجة رؤوسهن وأقراطهن وعصباتهن ، وفيما ظهر مؤخراً في مدينة تدمر من تماثيل صاحبته زينب ووصيفاتها وفي غير ذلك من الشخصوس دليل على تبرز التدمريين في هذا الشأن .

أما التصوير عند الروم واليونان في الشام فإن منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبي : لم يبدع التصوير إبداع الروم والرومان أحد من الأمم ، فقد كان لهم إغراب في خرط التماثيل وإبداع في عمل النقوش والتصوير ، حتى إن مصورهم يصور الإنسان ولا يغادر شيئاً إلا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت ، وضحك الحجل ، وبين المتبسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيركب صورة في صورة ، وصورة في صورة .

والمصانع الشامية من العهد الروماني هي ذات أشكال معتادة في تلك الأعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش النباتية الكبيرة المنقولة عن نباتات القطر ولا سيما في فلسطين على عهد الملوك والقضاة ومنها ما يستعمل فيه صور الطيور . قال دوسو : إن في الكتابات التي وجدت في الصفا صورة فرسان مسلحين برماح طويلة على مثال بدو هذه الأيام ، وأحياناً تمثلهم وهم يطاردون غزالاً أو وعللاً أو يصطادون أسداً ، ومنهم الفرسان يحملون الرماح والمشاة مسلحون بالقوس والنشاب . ولقد غصت فلسطين على عهد الامبراطور قسطنطين بالمصانع التي تذكر بالحوادث الخطيرة التي وردت في الإنجيل وقد زينت هذه المصانع بالفصوص التي تمثل هذه المشاهد .

جاء الإسلام للقضاء على الوثنية وعبادة الأصنام ، فحاذر المسلمون إذا أجازوا الرسم المجسم أن يكون في عملهم مدرجة للعرب إلى الرجوع إلى عبادة الأصنام ، فجعلوا في التجويز بعض القيود الخفيفة ، ولما ذهبت تلك الخشية أخذت مسألة التصوير تنحل شيئاً فشيئاً ويُعتمد إلى ما فيه مصلحة منه . ذكر المقرئزي أن الرسول عليه السلام أقر نقود العرب في الجاهلية التي كانت ترد إليهم من الممالك الأخرى والدنانير قيسرية من قبل الروم مصورة وأن عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلداً سيفاً .

ورأينا زيد بن خالد الصحابي استعمل السر الذي فيه صور ولم ينكر الناس عمله . قال صديقنا السيد محمد رشيد رضا في المنار : ومن الآثار في حكم التصوير وصنع الصور والتماثيل اتخاذ أحد أعظم أئمة التابعين القاسم بن محمد ابن أبي بكر (رض) الحجلة التي فيها تصاوير القديس والعنقاء ، وهو ربيب عمته عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقهها ، ومنها استعمال يسار بن نعيم مولى عمر بن الخطاب (رض) وخازنه الصور في داره ، ومنها صنع الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين قال : وعمل مروان يدل على أن التصوير كان مستعملاً في عصر الصحابة ، فمن عرض مسألة التصوير واتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها أن دين الفطرة الذي قرن كتابه ووصف بالحكمة ، ورفع منه الحرج والعسر عن الأمة ، لم يكن ليحرم صناعة نافعة في كثير من العلوم والأعمال ويحتاج إليها في حفظ الأمن وفنون القتال ، وإنما يحرم ما فيه مفسدة أو ما كان ذريعة إلى مفسدة اه .

ويعجبني ما كتبه أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف رحلته إلى صقلية عام ١٣٢٢ هـ (١٨٩٤ م) في مجلة المنار وقد ذكر تنافس الغربيين في حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج فقال : « إذا كنت تلدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوين والمبالغة في تحريره خصوصاً شعر الجاهلية ، وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المطبوعات من الرسوم والتماثيل ، فإن الرسم

ضرب من الشعر يُرى ولا يُسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ ، متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً ، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرح والخوف والحشية . والجزع والفرح مختلفان في المعنى ، ولم أجمعهما هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والحشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفرع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك .

قال : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية وأوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك : إن الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتي فهو يجيبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه حديث إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين : الأول للهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهّد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة

في نقش المصحف موضع النزاع ، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر وبالجملته فانه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل اه .

لما جاء الفاتحون إلى الشام كانت في تصويرها عالة على الروم والفرس وبقيت على ذلك مدة قليلة لأن التصوير لم يكن يعرف أنه كان في متفرق أقطار جزيرة العرب اللهم إلا في اليمن ، برع فيه أهلها براعة أثبتتها الآثار والمصانع ، وكانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل إلى الحجاز وسائر أرجاء الجزيرة وما إليها منذ عهد الجاهلية ، وأول ما عرف التصوير في الشام على عهد المسلمين كان في زمن الوليد باني الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى في القدس وغيرهما ، وما نظن أن جميع من صوروا له ما أراد من الحيوان والنبات والشجر والمدن والأصقاع كانوا من أصول عربية بل كان فيهم الفرس والروم الذين دخلوا في خدمة الدولة العربية ، ومنهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع ، وقد وجد الأثري موسىل التشكي في قصر عمرة على سبعين كيلو متراً من قصر المشتى في البلقاء كتابات ونقوشاً تشير إلى فتح الأندلس في أيام الوليد وفيه من النقوش الزاهية والتصاوير العجيبة ما يأخذ بالأبصار . قال صاحبنا شيخو : وفي هذه القصور من الآثار الهندسية ومن التصاوير ومن تمثيل أحوال البادية كالصيد والغزوات والمآدب والمصانع ما أذهل العلماء لوجوده في البراري . ويقول ريسون : إن العرب قد نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين ، ولم يخالفوهم إلا بعدم تجسيم الحيوان ، ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبك أوراق وأقواس باهرة وفصفاة زاهرة وآكام ومعاهد ساحرة .

وفي التاريخ العام أن الإسلام حظر تمثيل الصور الآدمية ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون في قصورهم صور وتماثيل . ومع هذا لم يخلف العرب في النقش ولا في الرسم آثاراً خارقة للعادة ، وما بقي من آثارهم وعادياتهم الحجرية وأنواطهم المنقوشة ، وعاجهم ومجوهراتهم ، يشهد باستعدادهم الفني ، فإنهم نقلوا عن غيرهم في هذا الشأن أولاً ثم أخذوا يبرنون أنفسهم على حسن

الهندسة بالنقل عما عثروا عليه بادئ بدء ولا سيما عن الآثار البيزنطية ، فكانوا يخشون أول أمرهم ثم أخذوا يجرأون فيعدلون ما يريدون احتذاءه بل يخترعون ويبدعون ، فظهر لهم علم جديد مستقل على غير مثال ، قال : ولا نعلم هل كان للعرب قبل الإسلام طرز من البناء الخاص بهم ، لأنه لم يبق من الزمن السابق للإسلام سوى خرائب مبعثرة ، ومن الهجرة إلى القرن العاشر كان عهد الطرز اليوناني العربي ، وعلى مثاله جاء بناء المسجد الأقصى في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الأعظم في قرطبة ، والتأثيرات اليونانية ظاهرة فيها اه .

وبعد أن ترجم العرب كتب الفنون والصناعات عن الروم والفرس والقبط والسيان والهند ، منذ أول النصف الثاني من القرن الأول ، أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور ، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للأبصار ، ولا سيما كتب النبات والبيطرة والحيوان والجراحة والهندسة والفلك والجغرافيا وبعض كتب الأدب والمحاضرات والمقامات ، فاستعملوها بحسب الحاجة وأجادوا بالنسبة لعصورهم ، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب في متاحف الشرق والغرب ، وأكثر من أثر عنهم التصوير والإجادة فيه وصنع التماثيل ووضعها في قصورهم خلفاء بني أمية في الأندلس ، ومن جاء بعدهم من الملوك ، والصور- كما قال ابن أبي أصيبعة - إنما جعلت لارتياح القلوب إليها واشتياق النظر إلى رؤيتها ، والصبياي يلزمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها ، وكذلك نقشت اليهود هياكلها ، وصورت النصراني كنائسها وبيعها ، وزوق المسلمون مساجدهم .

نعم زوق المسلمون مساجدهم ، وكانوا أوائل الإسلام يكتفون بالصلاة في مساجد أشبه بالأرض القفراء ، ويفضلون السجود على الحصا ويعلمون فرشها بالبواربي بدعة ، وذلك لثلاث تشتغل العين بشيء يبعد النفس من الخشوع لبارئها ، ثم أخذوا يتأقنون في مساجدهم ، ويفرشونها بالطنافس والزرابي ، ويصورون حيطانها ، وينقشون فيها آيات ثم مشجرات وأماكن جميلة ، ومعظم ما انتهى إلينا أو بلغنا خبره في العصور العشرة الأخيرة في الشام تصوير المسائل العلمية ، والأمصار والأشجار ، والسفن تمخر في البحار ، ثم تصوير الحيوان والإنسان ولكن على قلة .

لا جرم أن التصوير في هذه الديار كان ضعيفاً بعض الشيء لأن مسألته كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين جمدوا على ما فهموه من الشريعة ، والتصوير عارض على الملة غير مغروس في فطرتها ، ولكن المسلمين تطوروا بطور الأمصار التي نزلوها . ولم يتوقف ملوكهم وأمرأؤهم على فتاوى الفقهاء لإقامة المعالم واقتباس الحضارة ، فقد ذكر ابن بطريق أن بطريق الروم في قنسرين طلب إلى أبي عبيدة ابن الجراح الموادعة على نفسه سنةً حتى يلحق الناس بهرقل الملك ، ومن أقام فيها فهو في ذمة وصلاح ، فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك ، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصوّر الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي أبو عبيدة ، ومرّ بالصورة أحد العرب ، ووضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقأ عين التمثال عن غير قصد ، فأقبل البطريق وقال لأبي عبيدة : غدرتمونا يا معشر المسلمين ، ونقضتم الصلح ، وقطعتم الهدنة فقال أبو عبيدة : فمن نقضه؟ فقال البطريق : الذي فقأ عين ملكنا . فقال أبو عبيدة : فما تريدون ؟ فقال : لانرضى حتى نفقأ عين ملككم . فقال أبو عبيدة : صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما أحببتم وما بدا لكم ، فقال : لانرضى إلا بصورة ملككم الأكبر فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود ، وأقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه فقال البطريق : قد أنصفتمونا . وذكر المقرئ أن خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر والشام المتوفى سنة (٥٢٨٢هـ) عمل في داره في القاهرة مجلساً برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد ، المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياها ، والمغنيات اللاتي يغنيهن بأحسن تصوير وأبهج ترويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين والكراذن^(١) المرصعة بأصناف الجواهر ، وفي آذانها الأخراس^(٢) الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهي مسمّرة في الحيطان ولوّنت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة . فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا .

(١) قلنسوة من الديداج مرصعة .

(٢) جمع خرص : الحلقة من الذهب والفضة أو حلقة القرط .

كانت هذه القاعة المصورة في القرن الثالث. وظهر في عصر الأيوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران وعلى الكتب ، ومنها ما كان إلى القرن السابع في دير باعتل قرب حمص ، كان فيه على رواية ياقوت عجائب منها آرج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة فيها ، وصورة مريم في حائط منتصب ، كلما ملت إلى ناحية كانت عينها إليك . ومنها ما كان في هيكل دير مران في سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعاني . وذكر ابن جبير أنه كان في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير أمر عجيب ، وكان مثل ذلك في كنيسة القيامة وغيرها من كنائس فلسطين .

كان اليازوري من وزراء الفاطميين يفضل كثيراً على المصورين الشرقيين وكانوا من المسلمين . وقد جعل الظاهر بيبرس رنكه أي شعاره الأسد ، وجعل دراهمه على صورته ، وجعل أقوش الأفرم رنكه في غاية الظرف وهو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسنٌ عليه سيف أحمر يمر من البياض فوقاني إلى البياض التحتاني وقال فيه نجم الدين هاشم البعلبكي :

سيوف سقاها من دماء عداته وأقسم عن ورد الردى لا يردها
وأبرزها في أبيض مثل كفه على أخضر مثل المسنّ يحدها

قالوا: وقد كان الخواطي ينقش رنكه على معاصمهن وفي أماكن مستورة من أجسامهن .

ومن أجمل ما أبتت الأيام وإن لم يتم لها إلى الآن قرنان ، الصورة الباقية في دار أسعد باشا العظم في حماة من أبداع ما حوت من النقوش العجيبة وغيرها ، وهي صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا في حائط القاعة الكبرى ونقشت عليهما صورة حماة في ذلك العهد بجوامعها ومدارسها ، ونواعيرها وقصورها ، ظهر منها أن حماة كانت أعمر مما هي عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير .

أخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم وبالغت فيها ولا يزال إلى اليوم قطع في الدور وغيرها ، وأهمها ما لا يزال في كنيسة مادبا في البلقاء من مصور فلسطين ونهر الأردن يشقها من وسطها والأسماك تعوم فيه ، والمدن التي كانت

عامرة لعهد واضعها ، ولا يزال القسم الأعظم منها بحاله لم يصب بأذى الأيام .
 وآثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة في دور مادبا لم تزال على بريقها ، وفي دار سليم
 الصناع في مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة أيضاً تخال ما فيها ماء حقيقياً
 وعلى جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات والطيور البرية
 والداجنة ، تسرح في جنينة زاهرة والطيور المائية واقفة في وسط الماء على آنية
 تشبه الزهرية ، وفي كل زاوية من زواياها صورة إنسان تخالف الأخرى . وفي
 هذه البلدة عدة قاعات فرشت أرضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما
 يُغسل بلاط القاعات وأفنية الدور .

قال في مسالك الأمصار : والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق
 عليه زجاج رقيق ومن هذا النوع المسحور (المسجور) وأما الملون فدمعجون وقد
 عمل منه في هذا الزمان (٧٤٠-٧٥٠) شيء كثير برسم الجامع الأموي وحُصل
 منه عدة صناديق وفسدت في الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة وعمل منه قبيل
 للجامع التنكري ما على جهة المحراب ، غير أنه لا يجيء تماماً مثل المعمول القديم
 في صفاء اللون وبهجة المنظر ، والفرق بين الحديد والقديم أن القديم متناسقة
 على مقدار واحد والحديد قطعه مختلفة وبهذا يعرف الحديد والقديم اه .

ووصف ابن فضل الله هذا يمكن أن يستنتج منه أن الفسيفساء كانت تعمل
 في الشام ، وأن هذه الصناعة اللطيفة وإن اختصت بها القسطنطينية قد نقلت إلى
 الشام وجود عملها . وكان الوليد بن عبد الملك يحمل الفسيفساء على البريد من
 القسطنطينية إلى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة .
 وكانت الفسيفساء في الجامع الأموي قبل حريقه الأول في القرن الرابع ملونة
 مذهبة تحوي صور أشجار وأمصار وكتابات ، على غاية الحسن والدقة ولطافة
 الصنعة ، وقل شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسي
 وقال غيره : إنه مثلث في صور الجامع صفات البلاد والقرى وما فيهما من العجائب
 وأن الكعبة المشرفة صورت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين :

إذا تفكرت في الفصوص وما	فيها تيقنت حذق واضعها
أشجارها لا تزال مثمرة	لا ترهب الريح في مدافعها
كأنها من زمردٍ غرست	في أرض تبرٍ يُغشى بفاقعها

فيها ثمار تخالها ينعت وليس يخشى فساد يانعتها
تقطف باللحظ لا بجارحة الا أيدي ولا تجتنى لبائعتها
وتحتها من رخامه قطع لا قطع الله كف قاطعها
أحكم ترخيمها المرخم قد بان عليها إحكام صانعها

قال صديقنا أحمد تيمور في رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموي وما فيه من التصاوير : « ولا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه ، أو من عمل صناع الروم الذين استعان بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد » وقد علل المقدسي زخرف الجامع الأموي فقال : قلت يوماً لعمي : يا عم كم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمضارع ورم الحصون ، لكان أصوب وأفضل ، قال : لا تغفل بُني ، إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل ، وذلك أنه رأى الشام بلاد نصارى ، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد افتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لدّ والرها فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن ، وجعله أحد عجائب الدنيا ، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهياتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى اه . ولذلك حرص المسلمون في كل دور على السير على قدم الوليد في الاحتفاظ بنقوش الجامع وتحاسينه وتزايينه وتزاويقه ، وما أبقته الأيام من نقوش الفسيفساء أو الفصوص حيطان قبة الظاهر بيبرس في دمشق ، فإنها الأثر الباقي من هذه الصناعة في هذا الصقع ، بعد أن دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق في أدوار كثيرة ولم يبق منها إلا ما كشف مؤخرأ في الحائط الغربي من صور الأشجار وغيرها . ومن القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بحلب وفيها يقول الرشيد النابلسي من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ ويذكر ما على جدران الدار من الصور :

دارٌ حكّت دارينَ في طيب ولا عطرٌ بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها قطبٌ على فلك السعود يدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج غضٌ ووردٌ يانعٌ وبهار

نور من الأصباغ مبتهج ولا نور وأزهار ولا أزهار

ومنها :

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها ولا يخشى سواه صوار
وفوارساً شبت لظي حرب وما دعيت نزال ولم يُشَنِّ مغار
وموسدين على أسرة ملكهم سكرأ ولا خمر ولا خماس
هذا يعانق عوده طرباً وذا أبدأ يقبّل ثغره الزمار

ثم لما تزوج بضيقة خاتون ابنة عمه العادل وأسكنها في هذه الدار وقعت نار عقب العرس فاحترقت واحترق جميع ما فيها، فجددها وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها .

ومن القصور المصورة القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس في مرجة دمشق أوائل النصف الثاني من القرن السابع ، وعلى أنقاضه بنيت التكية السليمانية ، وكان على واجهته مائة أسد منزلة صورها بأسود في أبيض ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض في أسود، وهذه الصور أجمل من صور الأسود والنمورة وغيرها من الحيوانات التي كانت في قلعة حلب ، ومن الحمامات المصورة حمام سيف الدين بدمشق عثر أحمد تيمور على قصيدة في ديوان عمر ابن مسعود الحلبي الشهير بالمحار في وصف هذا الحمام جاء فيها :

وخطّ فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطق
ومثل الأشجار في لونها ولينها لو أنها تسورق
أطيّارها من فوق أغصانها بودها تنطق أو ترعق
وهيئة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحقد
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

ومن التصوير على النسيج على ما ذكره البدري من تصوير «الأبيض القطني المصور لأحياء القصور وأموات القبور» وكان يصنع في دمشق . ومن التصوير في الكتب ما ذكره أبو الفداء في حوادث سنة (٦٤٢) في ترجمة المظفر صاحب حماة قال : استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندساً

فاضلاً في العلوم الرياضية فعمل له كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة. وذكر ابن قاضي شهبة أن علي بن محمد بن صالح الرسام عالم صنف المتوفى سنة (٥٧٤٩هـ) كان في أول أمره يرسم القماش وقال : إن عنده كتاباً في علم الفلك صورت فيه جميع الأبراج والنجوم بليقتي الكتاب أي بالأحمر والأسود تحت كل صورة أرجوزة بتعريفها . قال القاضي جمال الدين ابن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة منها . وقد اطلع مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط فيه وصف شجرة الإفادة التي كانت في الجامع الأموي بحلب وتعد من الذخائر النفيسة العلمية قال : إنها كانت عظمة الرواء مصنوعة من حجر ونحاس وحديد ذات خطوط وجداول في أصول العلوم الرياضية شبيهة بشجرة ذات جذع وأغصان وأوراق عظيمة في كل ورقة منها أصل من أصول تلك العلوم . وكان الطلبة يقدمون حلب من القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضية المرسومة في هذه الشجرة . واسم غارس شجرة الإفادة خليل بن أحمد غرس الدين علي ما في در الحلب .

ويدخل في باب النقش والصنائع الغربية ما رواه المقدسي في حوادث سنة (٩٩٠) يوم عمل ختان ابن درويش باشا والي دمشق، فأنهم صنعوا شيئاً يسمى النقل بجامع المصلى وجامع ايلخان خارج محلة القراونة وجامع التوبة ، وهو يشتمل على أربع عشرة قلعة من الورق المحشو بالبارود وأربع عشرة فرساً وأربعة عشر عفريناً كذلك، وعلى صور طيور ووحوش وكلاب وغير ذلك، وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطياف وغيرها كل ذلك من الشموع المصبغة والتذهيب والتفضيض ، وكان ارتفاعه على علو الجملون الذي بجامع المصلى بحيث لم يتأت نقله منه وإخراجه إلا بعد فك الجملون المذكور ، وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور وهدم مواضع متعددة في طريقه إلى دار السعادة ، وهدم الحائط الشرقي من باب دار السعادة أيضاً حتى أدخل ، وكان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجة عليه جميع أهل دمشق رجالاً ونساء لم يتخلف أحد . ثم في اليوم الثاني منه نقل النقل الذي صنع بجامع محلة القراونة وجامع التوبة وهو يشتمل على قصرين عظيمين من

الشمع أيضاً أحدهما أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع والآخر دونه مشتملين على ما تقدم وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والفيلة والسباع والطيور وغيرها ، كل ذلك من السكر المعقود وعلى التقول والملبسات بالسكر أيضاً .

وكان رشيد الدين بن الصوري يستصحب مصوراً ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويُرِيه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصور بحسبها ويجتهد في محاسنها . ثم إنه سلك في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك أنه كان يُرِي النبات للمصور في إبان نباته وطرأوته فيصوره ، ثم يرِيه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يرِيه إياه أيضاً في وقت ذواه وييسه فيصوره ، ومن ذلك نستدل أنه كان في القطر أكثر من مصور في ذلك العصر ، وأن ذلك التصوير بالأصباغ كان مألوفاً ، وقد بلغ من خدق المصورين أن يصوروا النبات على أنحاء شتى ، أما عنايتهم بالنبات نفسه فمسألة ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون ، وهذا كان في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة أي في القرن الثالث عشر للميلاد .

ولا شك أن كل هذه البدائع كانت من صنع صُنْع الأيدي من الشاميين ، فمن المصورين على الخزف ومن المصورين على الخشب ومن المصورين على النسيج ومن المصورين على النحاس والحديد ، فمن المصورين على الخزف « الغيبي » قال تيمور : إن له قطعاً بدار الآثار العربية بمصر ، عثروا عليها بأطلال القسطنطينية وقد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها « الغيبي » فقط وعلى بعضها « الغيبي الشامي » وإن في دار الآثار العربية أيضاً لوحاً من القاشاني « لمحمد الدمشقي » عليه صورة مكة المكرمة والكعبة المعظمة صورها سنة (١١٣٩هـ) وكتب عليها اسمه .

وبعد فهذا القليل الذي قرأناه واستأنسنا به يدل على ذوق وإبداع ، وإن مشاركة الأمة في هذا الفن كانت على حصة موفورة ، وفي هذا العصر نبغ في الشام مصورون لا بأس بهم أخذوا عن إيطاليا وفرنسا وغيرهما وكادوا يجارون

مصري الغرب بإبداعهم ، ومنهم من يصور بالأصباغ ، ومنها بدونها أي بالسواد ، ومنهم من يصور التماثيل من المرمر والرخام والصفر ، ومنهم من ينقش فييدع على الخشب والنحاس ، ومن المصورين باليد توفيق طارق ، علي رضا معين ، نديم بخاش ، مصطفى الحمصاني ، مصطفى فروخ ، عبد الحميد عبد ربه ، عبد الوهاب أبو السعود ، بشارة السمرة ، داود القريم ، حبيب سرور خليل صليبي ، سليم عورا ، جبران خليل جبران ، خليل الغريب ، نقولا الصائغ .

النقش :

ويصح أن يعد في باب التصوير نقش البيوت والتماثيل فإن المعروف أنه كان للشام حظ منه ، ولم نر للنقش على الحجر براعة وإبداعاً عند الأمم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان والرومان ، فإن النقوش التي عثر عليها في شمالي الشام من أصل حثي مثل الأسود التي كانوا يرسمونها على أبواب مصانعهم وجدرانها وأبي الهول المجنح برأس إنسان أو ثور وهو من نقوش الآشوريين ، والنقوش التي عثر عليها في الجنوب من أصل سامي كالكنعانيين والإسرائيليين وما عثر عليه في الساحل من نقوش الفينيقيين وأربابهم ومعظمها منقولة عن المصريين الفراعنة — كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع وحسن الذوق بحيث يرتاح إليها النظر مثل نقوش الرومان واليونان ، ومثال منها الناووس الذي عثر عليه في صيدا من القرن الرابع للميلاد وجعل في دار الآثار في الإستانة وهو يمثل نساء باكيات تمثيلاً كأنك تراهن .

أين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل ، أين نقش الناووس البديع المنسوب للإسكندر المقدوني أو لأحد قواده ، وهو مما كان عثر عليه في صيدا أيضاً وحفظ في دار الآثار بالإستانة ، من نقوش قبر أحيرام الذي عثر عليه في جبيل وجعل في دار الآثار في بيروت ، أو قبر حيرام الذي عثر عليه قرب صور ونقل إلى متحف اللوفر في باريس سنة ١٨٦٠ م .

آثار تدمر وتماثيلها تم عن ذوق وفضل صناعة أكثر من أرباب الفينيقيين والحثيين ، والغالب أن تماثيل الشبه كانت تعمل في قبرس والروم وتحمل إلى تدمر لتزين بها رحباتها وساحاتها ، وصناعات جرش ومادبا أجمل من نقوش

السهول في حوران والصفاء . كأن للإقليم وللعنصر الذي يتزله دخلاً كبيراً في إجادة النقش والتصوير . ومعظم العناصر التي نزلت الشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية ، والساميون كما قال بعض علماء الإفرنج ما زالوا ينفرون من الرسم والنقش والتصوير . ولا غصاصة إذا قلنا إن الآريين أفرطوا في الاشتغال بالرسم والنقش إفراطاً شوهدت آثاره في أمم أوروبا التي خلفتهم ، فكل شيء إذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم ولا يدرك ، فأضعفوا بذلك قوة التخيل وقوا الباصرة .

ومما يستدل به على أن التماثيل قبل الإسلام كانت تعمل وتنقش في الشام وأن العرب نقلوا عنها في جزيرتهم ما رواه ابن الكلبي من أنه كان لقضاة ولحم وجدام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده . وقال ربيعة بن صبغ الفزاري :

وإنني والذي نغم الأنام له حول الأقيصر تسبيح وتهليل

قال : ووجد عمرو بن لحي أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال : ما هذه؟ فقالوا نستسقي بها المطر ، ونستصبر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . ولا شك أن هذه الأصنام تعد من الصناعات الشامية .

ولم يخل عصر في الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر والنقش بالأصباغ على الجدران وعلى الخشب يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف ، والنقش بالجبس على الجدران ، ومنها مقرنصات جميلة ذات تعاريف وكتابات حفزت في مدفن أحد الوزراء من القرون الوسطى في صالحة دمشق أمام دار الحديث الأشرفية البرانية وبينهما الطريق وتسمى هذه المدرسة التكريتية . وفي بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر وبعده في حلب ودمشق كثير من القاعات تدل على ذوق . وفي در الحبيب أن أبا بكر بن أحمد النقاش الجلومي الحلبي خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم واستفاد منهم ومهر في نقوش البيوت وكتابات الطرازات على طريقة القاطع والمقطوع ، وفي نقوشه ما كان لكفآل حلب وغيرهم من الرماح والسروج بالذهب واللازورد مع معرفة طريقة حله وصنعة التراكش وضعاً ونقشاً وصنعة اللوح الذي يكتب فيه وصناعات أخرى تم عشرين صنعة . ولا يعقل أن يعمل

ذلك مثل هذا الفن ولا يكون حواله عشرات من المتعلمين والعاملين .
ومن النقوش الكثيرة التي بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش
باب أنطاكية وباب النصر وعلى هذا قطعة من إفريز تمثل كرمة معرشة يركض
إلى جانبها أرنب . ومن أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من
عمل نور الدين زنكي والجزء الثاني الذي أنشأه الظاهر غازي يدل على صورة
الهندسة المألوفة في عصر الأمويين : مثلث قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة .
ومن المناير العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكي في حلب برسم
المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي من خشب مرصع
بالعاج والآبنوس وعليه تاريخ سنة (٥٦٤هـ) وقد وضعه صلاح الدين في محله
عند فتح القدس وقد عمل في حلب أيضاً محراب الجامع الكبير بحماة صنعه ذلك
الفنان الحلبي . ومن أجمل المناير منبر الحرم في الخليل من صناعة الفاطميين ومنبر
جامع الحنابلة بدمشق من الخشب . ومن المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب
من الخشب ومحراب الأقصى من الرخام . ومن المحاريب الجميلة محراب جامع
الفردوس بحلب الذي أنشأته ضيفة خاتون وهو من عمل حسان بن عنان . وجامع
الظاهر غازي في قلعة حلب الذي بناه سنة (٦١٠هـ) فيه أجمل ضروب الهندسة من
النقوش المعروفة في المصانع الجميلة . ومن أهم الآثار العربية تابوت من الخشب
وضع على قبر السيدة سكيئة بنت الحسين في مقبرة باب الصغير بدمشق عمله
أحمد بن محمد بن عبد الله سنة (٥٦٠هـ) وقد نقش بخطوط كوفية وجعل داخل
الحروف نقوش وحروف صغيرة أخرى بالكوفية أيضاً . وتابوت ومحراب
ومنبر جامع خالد بن الوليد بحمص من أجمل الآثار العربية . وكذلك تابوت
مدفن أبي الفداء صاحب حماة . ومن الآثار العربية ما نقش بالحروف الكوفية
على تابوت من الحجر دفنت تحته السيدة فاطمة الصغرى بنت الحسين من القرن
الرابع . ومن التوابيت المهمة تابوت سيدي صهيب في حي الميدان بدمشق (من
القرن السادس) ومنها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسيدة حفيظة
في طريق عين الكرش المؤدي إلى حي الأكراد بدمشق .

وذكر القزويني سوق المزوقين في حلب وقال : إن فيه آلات عجيبة مزوقة ،
وذكر ابن جبير أن أكثر حوانيت حلب خزائن من الخشب البديع الصنعة قد

اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش. وقد عُرِف الحلييون من القديم بحسن الذوق في هذه الصناعة كما عُرِفوا بحسن الذوق في الخطوط العربية المنوعة الأشكال ، وكلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار ، وتعد في باب النقش ، وقد كان عدد الخطاطين الذين أنبغتهم حلب على اختلاف العصور أكثر من غيرها من مدن الشام .

ذكر الغزي أن النقاشين في حلب أصناف منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنائين الحليين في القرون الماضية وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصناعة النقش ، من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين مرصوفين في جانبي أحد أبواب قلعة حلب لا يفرق الناظر إليهما في أول وهلة بين ملامحهما ، فإذا أمعن النظر فيهما تبين له أن وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكي مما دل على براعة النقاش .

وقال : إن من النقاشين من يعاني النقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون بالمدننين ينقشون صور أشخاص وأزهار وطيور وأشجار ، وإن هذه الصناعة انحطت في حلب أواخر القرن الماضي حتى سافر جماعة من أهلها إلى أميركا وتلقوا هذه الحرفة من أربابها وعادوا فنشروها بين الناس . ومن أشهر النقاشين يوسف سعد الله الحويّك ، ومن الحفارين والنقاشين يوسف الزغبى وبشارة عيسى الزغبى وهذا حفر صورة آل رومانوف في قطعة صدف من أنفس التحف .

واشتهر في دمشق وحلب وبيروت خطاطون كثيرون في العهد الأخير ومنهم أمين زهدي . مصطفى السباعي . مراد الشطي . مصطفى القباني . محمد علي الحكيم نجيب هواويني . حسين البعجاتي . ممدوح الشريف . سليم الحنفي . محمد علي الخطيب . زكي المولوي . حنا علام . يوسف علام . نسيم مكارم . مشكين قلم . محمد يحيى . صادق الطرزى . موسى الشلي .

وكان فن الخط إلى عهد بعيد صناعة يتنافس بها ، وكثير من البارعين فيها كانت مدار معاشهم ينسخون الكتب وغيرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطباعة بطل التنافس بالخط العربي الجميل وقلّ الراغبون فيه .

البناء :

قالوا : إن علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها، إذا قارنا بينه وبين الموسيقى نجد أن كليهما مطرب للإنسان ، فالأول مكوّن من نغمات غير متنافرة منتظمة الأوقات ، والثاني مكوّن من تراكيب وأوضاع غير متنافرة الأجزاء ، يظهر الأول مذيّبات العدد والأوتار يحملها الهواء إلى الأذان فيطرب بها الإنسان . ويظهر الثاني الظلّ والضوء والألوان فتراها العين في أتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة والراحة فتشتاق إليها النفس ، فكلا الفنين جميل غير أن الأول تذهب محاسنه في الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها ، وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل .

مواد البناء الحجر والتراب والخشب والحديد قد توجد كلها في قطر ولا يوجد إلا بعضها في آخر ، فمصانع بابل تداعت لأن معول البانين كان على الآجر لا الحجر . ومصانع الشام بقيت لأن الحجر فيه كثير مبذول ، وإن كان أقدم ما عُرّف من آثارنا يُرد إلى زهاء ألفي سنة ، وأقدم ما عُرّف في بابل وأشور ونيوى من الآجر المكتوب يرجع إلى أربعة آلاف سنة . وما عمل عندنا من الخشب والتراب دثر بعد مدة ليست بطويلة من عهد بانيه .

ولقد ظهر أن الشام في القديم لم يكن له طراز خاص في البناء . وكان بناؤه بحسب روح الدولة التي تحكم فيه والأمة التي تتغلب عليه : مصرياً أيام القراعنة ، آشورياً على عهد الآشوريين ، بابلياً في أيام بابل ، فارسياً في دور الفرس ، رومياً في دولة الروم . رومانياً في عهد الرومان . ولم يكن للحثيين والإسرائيليين هندسة خاصة، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الآشوريين أصول بنائهم ، وليس مما اكتشف منه حتى الآن ما هو خارق للعادة في أشكاله ووضعه بل هو محرف عن الطراز الآشوري تحريفاً كثيراً ، وما اكتشف من الصور النصفية وغيرها من عهد الحثيين لا ينم عن ذوق وإبداع على الأكثر . ومصانع الحثيين في الحملة مقتبسة من مصانع الآشوريين والبابليين اقتباساً رديئاً لا يخلو من جفاء وسذاجة على ما قال الباحثون . وسار الإسرائيليون في صنع مصانعهم على تقليد الآشوريين والمصريين وقلدوا المصريين في الأكثر لقرب فلسطين من مصر ، ولاستيلاء المصريين زمناً على فلسطين . وكذلك فعل الفينيقيون والكنعانيون .

وعلى عهد الإسكندر دخل الشام طرز جديد في البناء أي أصول الهندسة اليونانية. غصت جبال الشام بالمغاور الطبيعية والصناعية، ومنها ما كان لسكنى أهلها قبل أن عرف التاريخ، ومنها ما جعلوه قبوراً لموتاهم في الأمم التي عرف بعضها التاريخ، وقد ثبت بهذه المغاور أن الشاميين استعملوا منذ الزمن الأطول آلات من المعادن لقطع الحجر ونحته. ولا يمكن تحديد العصر الحجري في الشام، ويمكن أن يرد العصر المعدني إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. وفي غربي الأردن آثار كثيرة من ذلك، وكلها ذات صلة بعبادات الأقدمين. واحترام الأحجار المقدسة كان قديماً منتشرأ في جميع أرجاء الشام. ومن المغاور مغاور عدلون بين صيدا وصور ومغاور نهر إبراهيم في لبنان، ومغاور بيروت وجبيل وأنطلياس، ومن مصانع فلسطين الصهاريح ومعاصر الزيت والخمر. وبناء الفينيقيين من هذا النوع أجمل من بناء العبرانيين.

وقد اقتبس العبرانيون في أصول مبانيهم مباني الفينيقيين، وهؤلاء أخذوا على ما يظهر من المصريين، وقد قيل: إن بنائين فينيقيين هندسوا معبدي داود وسليمان. ويقول سنيوبوس: إن القدس كانت بالنسبة لبابل وثيبة عاصمة أقاليم فقيرة، وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون إلى العمران، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم إقامة المعابد، ولم يكن في القدس إلا قصر سليمان وهو أول معبد عبراني.

وأخذت الشام أصول الهندسة اليونانية وتناغت بها قبل أن يفتحها الإسكندر. ولم يبق من الآثار اليونانية على كثرتها في الشام بقدر ما بقي من الآثار الرومانية. فإن الرومان أنشأوا مدناً برمتها خططوها على أصولهم. وكان من هذه المدن ما بني على نفقة أباطرة رومية. ومعلوم أن الرومان تفتنوا في البناء وخلفوا في كل مكان امتد سلطانهم عليه آثار الهندسة من طرق وقنوات وأسوار ومسارح وملاعب وحمامات، مما شهد لهم باتساع الفكر ومعرفة الهندسة والمتانة في العمل وجمال الأسلوب. لا جرم أن علاقة الشام بإيطاليا أقدم من الإسلام، علاقتها بأرضنا مذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الأمة العظيمة.

وأخذ النصارى في بناء كنائسهم عن فارس والشرق، ثم اقتبس منهم الرومان أصولهم في البيع، وما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية أن اختلطت

ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية . وأجمل هذه الصناعات على ما قال هوار الجوامع والقصور . والتقليد محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، لأن تأثيرات الأساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث ، كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الإبداع والاختراع . قال : وفي الشرق نشأت هذه المدينة وكانت دمشق إحدى مراكزها .

وقال جلابرت : **و** من المصانع المنوعة في الهندسة الشامية شيئان يلفتان النظر خاصة وهما البيع والأبنية ذات السطوح . وكان المهندسون الشاميون فيها عالية على الشرق يسترشدون بآراء مهندسي فارس . وقد أثرت الهندسة الشامية إذ ذاك في هندسة كثير من الأمم ولاسيما في بيزنطية ، وأخذت بيزنطية عن الشام أو من طريق مصر عن الشام ، أصول كثير من الأبنية . وقال لامنس : إن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة أخذت تسير في طريق مستقلة عن النماذج اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصناعات النفيسة ، وأنشأ المهندس الشامي يرفض استعمال الملاط بين الأحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازية تقوى بها بدون لحمه بين أجزائها ، واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان بالحجر النحيت ، وبنى الكنائس ذات القباب فكثرت البيع البديعة التي يعجب الأثريون بخرائبها العظيمة اليوم وعنهما أخذ بُناة الكنائس الرومانية هـ .

كان أساتذة العرب في البناء لأول أمرهم أناساً من الروم ، فكان بين أبنيتهم الأولى وأبنية النصرارى وجه شبه ، فقد بنى المسجد الأقصى على مثال كنيسة القبر المقدس ، ونقل استعمال القباب من الشرق إلى الغرب ، ولم تكن معروفة إلا في هذا الشرق ، وقد أفرط العرب كالروم في استخدام الفسيفساء في الجدران والقباب ، وزادوا في هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم ، وكان محبباً إلى نفوسهم ، جميلاً في عيونهم . ويقول بعض العارفين : إن الشام لا يحوي كثيراً من المصانع الحارقة للعادة من صنع العرب ، لأنهم اكتفوا بما وجدوه في القطر من المباني القديمة ، فاستعملوها على ما يشاءون ، ولطالما بنوا بمواد أخذوها من أبنية قديمة .

أما هندسة الصليبيين فأكثرها حصون وقلاع ، ولا يعرف إذا كانت في

الأصل من بناء العرب أو الإفرنج ، المريجح أن هؤلاء طبعوها بطابعهم ، وقالوا لم يخترع العرب أبنية خاصة بهم ، بل تجلى في هندستهم حبهم للزخرف واللفظ واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين ، وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار ، مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة ، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثوب من ثياب الشرق تفنن حائكته في نقشه ونقشه .

نعم إن العرب لم يخترعوا ولكنهم اقتبسوا بادئ بدء ، فإن ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا إليها بنائين من الفرس والروم ، والوليد لما بنى أموي دمشق وأقصى القدس دعا إليهما بنائين من الفرس والروم والهند . ولا جرم فقد برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الأبنية وهي ما يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار وتقنية القنيّ وسد البثوق وتنضيد المساكن . ولو لم يرعوا في كيفية إيجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والأسوار والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهرنا اليوم أثره .

ومالت الهندسة الشامية إلى السذاجة لأول انتشار النصرانية ، فكانوا يجتنبون كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة ، وجمال الحجم وترتيب الأجسام . ونشأت بين القرن الرابع والسادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى ، منها بعض أمثلة في الشام العليا وهوران . ويقول جلابرت : إنه كان لأهالي الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي أشاعه الرومان في الشام ، وهو بناء قديم يدعى بالطراز الشامي لا أثر فيه للطرق الرومانية والشرقية المحضنة في البناء ، وعلاقته ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في أنطاكية ، وقد نشأ عنه طرز مركب شاع في القرون الأخيرة ، وطرق البناء في حوران تختلف عن الهندسة الشمالية فتألف طرز وطني مابين للطرز اليوناني الذي أدخله السلوقيون .

ومن أهم أبنية القرون الوسطى وتدل على ذوق جميل في البناء ، المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدس وغيرها من البلدان ، و القليل الباقي منها إلى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامي من حسن الذوق ، ومنها

في دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى والظاهرية والمستشفى القيمري ، وفي حلب مستشفى أرغون شاه ومدرسة الفردوس إلى غيرها من الأبنية الكثيرة في القرون المتأخرة .

ومن أهم أبنية القرون الإسلامية بدمشق المأذنة الغربية في الجامع الأموي المعروفة بمأذنة قايتباي وهي من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة والنقش والأصول المعمارية قامت على قصبتين من الأرض (٤٨ متراً مربعاً) بارتفاع ٦٦ متراً هندستها معمار عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة (٨٨٥هـ) وبانيها السلطان الملك الأشرف قايتباي كتب اسمه في جهاتها الأربع . وقد أجرى ترميمها وإرجاعها إلى أصلها وإكمال نواقصها المهندس الرسام توفيق طارق سنة (١٣٤٢ هـ) وكان على رفرف شرفتها الأولى آية ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً ﴾ الآية وكتبها موسى شلبي وبقي قسم من الحروف القديمة .

وقد دخلت إلى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية أصول الهندسة الطليانية في الدور والقصور ، وما برحت ترسخ مع الزمن ، ولا سيما في طرابلس وبيروت بحيث أن جميع ما نراه في مدن الساحل من الدور هو مما أنشئ في القرن الأخير وفي هذا القرن هو طلياني الصبغة ، وهندسته عارضة على هذه الديار . هذا في الساحل أما هندسة البيوت في الداخل فإنها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها ، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة إلى شمالي إفريقية ، ثم نقلها العرب بعد قرون إلى الأندلس ، ولا تزال هناك إلى اليوم يفاخر بطرازها ويُطرَس على آثارها ، كأن تكون الدار ذات مدخل أو دهليز يؤدي إلى فناء واسع فيه حوض ماء وإيوان ، وعلى جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار والزهور ، والدار ذات طبقتين فقط : السفلى للصيف والعليا للشتاء . وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس أن البيوت في طرابلس كانت ذات أربع وخمس وأحياناً ست طبقات . وكثرة الطبقات في الدور لم تعهد إلا في الغرب ، وما نظن الشام زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم أديار التاريخ .

الشعر والفصاحة :

ظهر كثير من الشعراء والبلغاء في هذه الديار ولا سيما من السريان واللاتين

والروم ، اشتهروا في العالم وخلدوا آثار نبوغهم ، ولطالما أخرجت مدرسة نصيبين والرها ومدرسة الفقه في بيروت ومدرسة أنطاكية خطباء هزوا النفوس وعلموها بخطبهم وأشعارهم ومجادلاتهم . وقد كثر سواد هذه الفئة في عهد الدول العربية الإسلامية أيضاً . والشعر والخطابة مما امتازت به العرب في الجاهلية والإسلام وغالت في الولوع بهما ، ولقد أثر القرآن في هداية العرب ببلاغته وفصاحته ، تأثيره بحكمه وهدايته . ولطالما كان شعراء العرب يصفون الشام ويتغزلون بها منذ أول يوم عرفوها ، حتى إذا كان الإسلام وتبسطوا في أرجائها ، أوحى إلى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعته أعظم ديوان بل خزانة عظيمة في الأدب تدل على فضل قرائح ، ونبوغ في فنون القول ، وتوسع في مجال الخيال ، وما هم إلا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات أفكارهم على غير مثال .

لا جرم أن الشام كانت أول الأقطار التي أخذت الفصاحة عن العرب في جزيرتهم ، وبقيت فيها على اختلاف العصور وتعاقب الدول محفوظة في الجملة ، فما انقطع منها من ينظمون ويجدون حواليتهم من يطرب لنغماتهم ويصفق لنبراتهم وإن لم يعرفوا صحاحها من زيوفها . كان الشعر مبدأ دخول العرب في الحضارة ، والأدب متدمة النهوض في العلوم ، ولذلك رأيتهم لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته ودرايته . وأكثر ما يجيد الشعراء في أرض صح إقليمها ، واعتدل نسيمها ، وطابت تربتها وأديمها ، وصفت أمواهاها ، وساغ نعيمها ، وكثرت ظلالها بأشجارها ، وغردت أطيارها في أسحارها ، وفغم أريج نوارها وأزهارها ، وهذا على حصة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها . وقد أنعم عليه الخالق بضرور البدائع والروائع ، فكان شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام كما قال الثعالبي . وما زالت بعض قصائد شعراء ذلك الدور مضرب الأمثال في البلاغة ، وما يرح عرب المدن يتغنون بشعرهم ويعجبون به ويترنمون ، ويتوفرون على حل ما استعجم عليهم من ألفاظه ومعانيه . قال : والسبب في تبرز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق

بمجاورة الفرس والنبط ومدخلتهم إياهم ... انبعثت قرائحهم في الإجابة ،
فقدوا محاسن الكلام ، بألین زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاعوا ، وكان أبو بكر
الحوارزمي قد دوّخ الشام في صباه ولطالما قال وهو أحد أمراء النظم والنثر :
ما فتق قايي ، وشحد فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حدّ لساني ، وبلغ هذا
المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التي علقت بحفظي ،
وامتزجت بأجزاء نفسي .

حكى المازني المتوفى سنة ٢٤٩ قال : دخلت دير بصرى فرأيت في رهبانه
فصاحة وهم متنصرة من بني الصارد وهم أفصح من رأيت فقلت : ما لي لا
أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ؟ فقالوا : والله ما فينا أحد ينطق بالشعر إلا أمة
لنا كبيرة السن فقلت : جيئوني بها فجاءت فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :

أيا رفقةً من دير بصرى تحملت	تؤم الحمى لقيت من رفقة رشدا
إذا ما بلغتم سالمين فبلغوا	نحية من قد ظن أن لا يرى نجدا
وقولوا تركنا الصارديّ مكبلاً	بكل هوى من حبكم مضمراً وجدا
فيا ليت شعري هل أرى جانب الحمى	وقد أنبت أجراءه بقلاً جعدا
وهل أردن الدهر يوماً وقيعة	كان الصبا يسدي على منته بردا

وما برحت الديارات في الشام تقدر الفصاحة كما تقام فيها للموسيقى أسواق .
وظهر الضعف في الشعر خلال القرون الأخيرة ، ونسلت عليه القرون إلى
أن خلع في أوائل هذا القرن الثوب البالي القديم ولبس ثوباً جديداً فيه من جلال
الحديث وعز القديم ما جمع فيه الجسم والروح . بدأ هذا من لبنان وبيروت ثم
تناول عامة مدن الشام . أما القرى والبوادي فقد اكتفت بالأزجال ، والزجل
نوع من الشعر محدث يصفون فيه أيامهم ومفاخرهم وهو أشبه بالرجز الذي
كانت العرب ترنم به في عملها وسوقها وتحذو به في بواديه . وكان للزجالين
في القرن الماضي وفي هذا القرن منزلة عند أهل الزرع والضرع ، يدعون الزجال
إلى الأفراح ليحمل البهجة إليها ، وإلى الأتراح ليسري عن النفوس ما نزل بها ، وهم
ضروب من المواليا يسمونها العتاني والإبراهيمي يطربون بها ولا تخلو من معانٍ شعرية
قال صديقنا الشيخ إبراهيم الحوراني وكان شاعراً مجيداً بالفصحى والعامية :
والنصارى واليهود يعتقدون أن بعض الشعر إلهام إلهي ووحى حق كشعر أيوب

وداود وسليمان وأشعيا وعدة من كتبة الأسفار الإلهية والشعر بقسميه الفصيح والعامي المعروف عند العامة بالمعنى يعمل على ثلاثة أبحر الرجز والوافر والسريع ، أما أغانيهم التي يسمونها بالقراديات وهو اسم خشن سميت مؤخراً بالعديات وبالقوليات كما يقولون لمن يعانيتها (القوال) فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف ، ووزن بعضها المتدارك مع تغييرات أيضاً. وجاءت أغانيهم المعروفة بالمولات البغدادية والمصرية والزلاغيط على بحر البسيط اه .

ولا يزال إلى اليوم لكل قبيلة في الشام شاعرها ينشدهم من حفظه أو نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسليهم بها ، ولشعر البادية عندهم أوزان خاصة ، وإذاً قيس على علات لفظه على أبحر الشعر يرى بعضه موزوناً وفي بعضه عيوب بسيطة ، ومن أشعر شعراء البادية نمر بن عدوان في عبر الأردن كانت له امرأة اسمها وضحاء تميم بها كما تميم قيس بليلاء فرثاها بعد موتها بعشرات من القصائد ومنها ما فيه معانٍ جميلة — قاله أديب وهبة .

وإذا انتشرت المدارس في المدن والقرى على حد سوى ، وجعل التعليم في كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام في الناس أكثر مما نراه بالفصاحة والشعر فلا تلبث الشام أن تحسدها جاراتها كما كانت في القديم على اختصاصها بذلك ، وكما تحسده هي مصر اليوم على تفنن شعرائها وخطبائها وسريان الفصاحة إلى ألسن من ليسوا من الأدب العربي في العبر ولا في النفي .

الرقص :

ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ ونحن لم نتعرض له هنا إلا مجازاة للفرنج في إدماجهم له في الفنون الجميلة . عدّ « طاشكيري » الرقص من أنواع العلوم فقال : إنه علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخصين بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهده ، وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والأغنياء والأمراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي اه . وذكروا أن الرقص قديم كقديم العالم وأن أقدم شعوب الأرض كان لها رقص على أوزان معلومة . فالرقص مرتبط بالموسيقى والإيقاع ، وكثيراً ما كانوا يتبعون الرقص بالتصديّة والضرب بالأيدي ، ثم عرفوا الشبابة حتى جاءت المزاهر

والمعازف، وكان الرقص على نوعين : رقص مقدس من توابع الحفلات الدينية، وراقص عالمي لتسلية العامة ، أي أن الرقص رقصان ديني أو رقص المآتم وراقص الحبور والابتهاج . وفي التوراة أن الرقص كان شائعاً عند العبرانيين ، وقد رقص داود أمام تابوت العهد، ولما خرج بنو إسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص ، الرقص المقدس المنظم وراقص سري له اتصال بالتعبد على نحو ما كانوا يرقصون في التيه حول عجل الذهب . وكان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى في الحفلات العامة احتفاءً بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو أو تكريم مجد أبطال الوطن . وهكذا كان الرقص شائعاً عند المصريين، ثم شاع عند اليونان وهم المشهورون بتفننهم فيبلغ عندهم أقصى درجات رقيه وانتقل إلى الرومان ، وإذ كانوا شعباً قاسياً غليظاً فقد عندهم بهاء ورواه وما يقصد منه . ولكل شعب رقصه الخاص به ، عليه صبغة أخلاقه القومية الثابتة. ولجميع شعوب الغرب والشرق رقصهم الخاص أو رقصات عرفت بهم وأثرت عندهم . والإنكليز أكثر الأمم انحطاطاً في الرقص لم يبرزوا فيه تميزهم في معظم مظاهر الحياة القومية .

وكان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعية استعملوه في كل دور عرف من أدوارهم . والرقص أو الزفن كان عند العرب على ما يظهر على الطراز الذي هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى والعرب الرحالة ومنه ما يعرف بالدبكة ، فإن وفد الحبشة لما قدم إلى الحجاز جعلوا يزفون أي يرقصون . وفي حديث فاطمة أنها كانت تزفن للحسن أي ترقص له وفي رواية ترقصه . ومن غريب تفنن العرب في مسائل الظرف والنوق أنهم عرفوا علماً سموه « علم الغنج » عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى وقال : هو علم باحث عن كيفية صدور الأفعال التي تصدر عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال والمتصفات بالظرف والكمال إلى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون .

والغالب أن رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة، والأمم تقتبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها . وكذلك تقبس غيرها بعض ما ألفته في هذا الشأن . من ذلك أن الرقص الإسباني إلى اليوم لم يبر بعد خمسة قرون من مغادرة العرب أرض الأندلس على الطراز العربي وكذلك موسيقاهم إلا قليلاً . وقد

أصبح الرقص في الغرب علماً بذاته ولكن العرب لم يقصروا فيه ، ولا سيما في عصور البذخ والرفاهية . وبعض المحققين من علماء المشرقيات من الأسبان والبرتغال (مجلة الزهراء) يبرهنون الآن على أن موسيقى الأوربيين وشعرهم انتقلا من فارس إلى أوربا بواسطة العرب ، ومنهم من ينشر منذ سنين قطعاً قديمة ويبين ما فيها من آثار الروح الشرقي ، وكان لنا في الشام نوع من الرقص يسمونه بالسماح (ولعله السماع) يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد جميل من الموشحات فقط ، وهو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت Opéra, Opérette عند الإفرنج أي القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى فقط ، ويزيد رقص السماح على الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة .

وفي كتاب مفرح النفس : واعلم أن من الرياضيات البدنية التي تختص بالنفس اختصاصاً كثيراً إلى الغاية الرقص ، وهو عبارة عن حركة متناسبة من اليدين والرجلين بضرب من الضروب المعروفة في الموسيقى بإرادة النفس وشوقاً إلى محل طلبها الأصلي، قال: إن الرقص مندوب إليه في ترويح الأرواح ونفسي كدورة النفس وحصول الإشراق لها ، ويجب أن يكون مع سكون وتجمع من الذهن والعقل فتحصل اللذة والبهجة ، فالرقص له في إحداث راحة النفس وسرورها قوة عظيمة يعجز اللسان عن وصفها والذهن والعقل عن تصورها اهـ.

التمثيل :

ويدخل في باب الرقص أو في باب الموسيقى (فن التمثيل) وهو وإن كان مشهوراً في الشام على عهد الرومان واليونان ، بدليل ما نراه من الملاعب الخاصة به وبعرض الحيوانات والصراع في البراء وعمان وبلبلك وأفامية ولدّ وقيسارية وغيرها من المدن القديمة . إلا أنه لم يعهد على الصورة المعروفة حديثاً ، اللهم إلا على الندرة عند عرب الأندلس ، وهذا في بعض الروايات . ولقد قالوا: إن أنطاكية أيام عزها ارتقى فن التمثيل فيها حتى كانت تجلب الممثلين من صور وبيروت والمغنين من بلبلك . وقال بعضهم : إن السبب في عدم العناية بالتمثيل في الإسلام حجاب النساء . والتمثيل لا يتم بدون مشاركة الجنس اللطيف . ولما لم يعهد التمثيل عند الجنس السامي لم تخرج العرب عن هدي جنسها . والتمثيل

ما عرف إلا عند الجنس الآري فقط . ومن ذلك الفرس وهم آريون خلفوا للعرب كتاب ألف ليلة وليلة وهو اختراع آري فيه شيء من التمثيل . وكان العرب في الجاهلية والإسلام يرون من سقوط المروءة أن يمثل مجلس الأمير أو الوزير ، وإن كان لا يخلو تمثيله من حكمة ، فكيف بمجلس صباية ، ومعظم التمثيل يدور عليها ، لا جرم أنهم قصروا في التمثيل ، وتقاعسوا عن اقتباسه عن الأمم الآرية ، وإن عرف من حالهم أنهم لم يأخذوا عن الأمم الأخرى إلا ما اشتدت حاجتهم إليه من أنواع العلوم ، أدبحوه في حصارهم ومزجوه بأجزاء نفوسهم . وإذا كان التمثيل لا ينطبق مع عادات العرب ولا عرف به مجتمعهم أعرضوا عنه ، وجاء الإسلام موافقاً لمصطلحهم وعاداتهم وأخلاقهم في بعض الأحوال .

بيد أن العصر الأخير لم يضمن على الشام بتجلي الآداب الرفيعة فيه ، فقام فيها سنة (١٢٨٢هـ) في دمشق أيضاً رجل من أبناءها هو السيد أحمد «أبو خليل» القباني من المبرزين في الموسيقى المشهود لهم بالإجادة فأنشأ داراً للتمثيل ، وبدأ يضع روايات تمثيلية وطنية ، من تأليفه ونظمه وتلحينه ، ويمثلها فتجيء دهشة الأسماع والأبصار ، لا تقل في الإجادة من حيث موضوعها وأزايؤها ونغماتها ومناظرها عن التمثيل الجميل في الغرب . واعتاض لأول مرة عن النساء بالمرء ، ولما انتقل إلى مصر لنشر فن التمثيل العربي هناك ، عاد إلى الطبيعة واستخدم في كل دور من يصلح له من الجنسين ، ووجه الفخر في أبي خليل أنه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية ، ولم يذهب إلى الغرب لغرض اقتباسه ، بل قيل له : إن في الغرب فناً هذه صورته فقلده ، وقيل : إنه شهد رواية واحدة مثلت أمامه في إحدى المدارس الأجنبية ، ولما كانت عنده أهم أدوات التمثيل وهو الشعر والموسيقى والغناء ورأى أنه لا ينقصه إلا المظاهر والقوالب ، أوجدها وأجاد في إيجادها ، ولذلك كان أبو خليل مؤسس التمثيل العربي ، ونابعة العرب في الموسيقى والتمثيل ، ورواياته التي ألفها ما زالت منذ زهاء ستين سنة وإلى يوم الناس هذا ، موضع إعجاب الأمة ، تمثل في دور التمثيل وتلد الجمهور مثل رواية أنيس الجليس وغيرها .

هذا وإن سبق لمارون النقاش في بيروت فعرّب في سنة (١٨٤٨م) من إحدى

اللغات الأوروبية بعض الروايات التمثيلية ومثلها بالفعل . والإبداع في التأليف والوضع ، لا في النقل والاحتذاء ، وإن عدّ الناقل صاحب فضل أيضاً .

ولما كان التمثيل كما قلنا عارضاً على مدنيّتنا رجع القهقري بعد أبي خيال . وظل إلى يومنا هذا يمشي مشياً ضعيفاً ، فلم تقم إلى الآن جوقة تمثيل وطنية تبث في الأمة روح الفضائل والآداب ، وتأخذ من الناس بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيلهون بما يجلب السرور إلى قلوبهم . والنور إلى عقولهم ، وتهذب في مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار ، كما تهذب في الكتابات عقول الصغار . فقد قال فولتير : إن المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه إياه كتاب ضخّم .

ولعل أبناء الشام إذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة ، ترتقي فيهم سائر الفنون التي انحطت ولا تزال منحطة ، فتكون من العوامل في نهوضها إلى المستوى اللائق بها في سلم الحضارة والهناء . والتمثيل الراقى أنفع لمجتمعنا من ذلك التمثيل الساذج الذي ما زال في أكثر مدن الشام مألوفاً للعامة ، ونعني به خيال الظل أو الخيال الراقص المعروف أهله بالمخيلية وعرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك . وإن لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز) . والتمثيل أجدى على أبنائنا وبناتنا من القصصين أي الحكوية (الحكواتية) الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع في المقاهي ويثون فيهم سخائف وخرافات .

ومن غريب شأن هذه الأمة أننا رأينا كثيراً من نجباء أبنائها برعوا في التمثيل ، ومنهم من يعرف الأدب وما ينبغي له ، قد زهدوا في فنهم ، وكنتموا نبوغهم فيه . شأن كثير من أرباب الصوت الرخيم والغرام بالموسيقى ، والضرب على آلات الطرب المتعارفة ، يخافون أن يعرفوا بها ويعمدون إلى التقية كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة .

ومن عرفنا منهم نور الدين حقي . حكمة المرادي . صالح الحيلاني . أحمد عبيد . سليم عطاء الله . أمين عطاء الله المعروف بكش كش بك . واشتهر أيضاً حمزة الأصيل . صالح شهبندر . حسن الساعاتي . إبراهيم المنجد . إبراهيم نفس . راغب السمسمية . جرجي نفس . درويش البعجاتي . أبو الخير الغلاييني . يوسف مردم بك . خالد السمسمية .

متى ترتقي الفنون الجميلة :

لا جرم أن ارتقاء الشام في هذه الفنون على اختلاف فروعها ، موقوف على ظهور نوابغ من أبنائنا يرحلون إلى الغرب لنقلها والتشبع بأدابها ، ثم يعودون فيلبوبون على إحياء ما اندثر أو كاد من هذه الصناعات النفيسة في القطر ، وينشرونها على النظام الغربي الحديث على صورة مقبولة ، وإذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية في كل فن من هذه الفنون لا يأتي جيل ثان بعد جيلنا هذا حتى يكون عند أهل القطر العدد الذي يحتاجون إليه من الأعيان الذين لا غنية للمجتمع الشامي عنهم في إنهاضه . ويشترط في من يريدون الإخصاء في هذه الفنون أن يكونوا ممن يحبون أن يُعرفوا بما اختصوا به ، أو يسعوا طاقتهم لنشره ، ومن لا يحب صنعته ولا يفاخر بها لا يبرز فيها ، وعندئذ نعدّ شيئاً مذكوراً بين أمم الحضارة في باب هذه الفنون كما كان أجدادنا .

يقول الجاحظ : إن الضحك في موضعه كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا ، وكلموا ليستربحوا ، وقد قسم الله الخير على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة ، وجوز المعارض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوغ المباح ، كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جِماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال اه .

الزراعة الشامية

العامر والغامر :

حياة الشام بزراعته ثم بصناعته وتجارته ، والقرى والبوادي أوسع بقعة وأوفر سكاناً من المدن والخواضر ، ولا نعلم مقدار سكان الشام في القرون التي سبقت الإسلام ولا في القرون التالية، وقال بعضهم: إن سكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين ، ولكن الظاهر من مصانع أهلها وطرقهم القديمة التي كانت تربط أجزاء القطر كالشبكة وآثار عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى، وخرائب القصور الفخمة، والدّمن التي تشاهد الآن في أواسط الفلوات الحالية ، والعاديات والآثار الجمّة، يدل على ارتقاء زراعتهم وكثرة ثروتهم ونفوسهم . فقد كانت حوران أنبار الشام على عهد الرومان لوفرة حبوبها ولا تزال هي والبلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدي الظالمة في الأكثر ، معروفة بهذه الصفة وجودة حنطتهما التي لا مثيل لها ، وما يقال عنهما يقال عن جميع الأصقاع الشامية . ولا سيما ما كان بقرب المياه والأودية فإنه عامر بطبيعته لا يحتاج إلا لأمن ونظام حتى يفيض لبناً وعسلاً .

ومغل حوران كسيل دافق يأت من أرجاء جلتق موجلا

ومما أقامه الرومان لحفظ زراعة البلقاء وحوران وما كان على سيف البادية من مرج الغوطة وأداني جبل قلمون وتدمر فحلب فما وراءها ، مخافر مجهزة أحسن جهاز لمنع البادية من التسلل إلى المعمور ، لأن داء الغارات على الزروع والعيث في العامر من الأدواء القديمة . واعتداء الرحالة من أهل الظعن ، على المقيمين من أهل الدساكر والمزارع ، النازلين في الدور والمساكن ، داء قديم

عُقام على ما يظهر . وما اتخذ الروم من الغسانيين في الجنوب ، والتنوخيين في الشمال عمالاً لهم إلا ليقوموا بإنفاذ هذا الغرض ، ويأمنوا بسلاطنتهم عيث البادية على أرض الشام الجميلة .

ولست البادية التي تحد أكثر هذا القطر من الشرق كما قال الدكتور پوست بادية حقيقية لأنه يقع فيها بعض المطر في فصل الشتاء ، وينبت فيها عشب ترعاه المواشي ، وتسكنها قبائل شتى من العرب ، وتندرج هذه البادية إلى جهة شمالي الشام ، في السهل المتسع الممتد من نواحي حلب إلى ما بين النهرين ، وكان هذا السهل مسكوناً في قديم الزمان ، ولم تزل فيه آثار عظيمة تدل على كثرة الذين سكنوه ووفرة ثروتهم ، إلا أنه أمسى الآن قليل السكان تجول فيه العرب والأكراد . وقد أكد موسيل أن البلاد الواقعة في شرقي الأردن كانت قبل مئة وعشرين سنة عامرة بالسكان وهي اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية .

وأهل الوبر الذين يشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات تشتد حاجتهم في الربيع إلى أن يدخلوا المعمور ، فإذا حصدت الزروع يضطرون إلى رعي أنعامهم وأغنامهم في أرض الحصيد ، ومراعي دير الزور والجولان طلباً للماء ، والتماساً لبيع حاصلاتهم واستبضاع ما يلزمهم . وإذا كانت أرض السقي أقل من أرض العذي بالشام ، ومعظم الأنهار لا يستفاد من سقيها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين ، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الحصبة .

قلة العناية بالأنهار :

نقول هذا وأهم أنهارنا الفرات وهو نهر يتاخمننا من الشرق ، ولا نستفيد منه الاستفادة المطلوبة لأنه منحط عن مستوى أرضنا ، ولم يكن كذلك في الدهر السالف بما كان يعهد به من السدود والسكرور التي كانت سبب غنى العراق ، وبالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من أرض الشام . ولا يستفاد من الأنهار التي تشق قلب القطر الفائدة المطلوبة في الري . فالأردن مثلاً يشق بعض أرجاء فلسطين والعاصي الذي يجري من سفوح لبنان ماراً بجمص فحماة فأنطاكية حتى السويدية لا ينتفع بهما على ما كان الحال قديماً . فقد انتهى إلينا من عمل القدماء سد قدس بالقرب من قرية قطينة بجوار أرض حمص ، وكان أعلى مما هو الآن بحيث يتأتى

أن يسقي العاصي بواسطته وما اخترع له من النواعير ، جميع الأرض العالية في وادي نهر المقلوب كما كانت العرب تسمي العاصي . ولا تزال إلى الآن آثار السلود والقي في غور الفارعة بادية للعيان ، تدل على أن القدماء كانوا يتتفون من مياه نهر الأردن أكثر منا اليوم . ويقول صديقنا الأمير شكيب أرسلان : إن الأراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران (جمع غور) إنما تسقى من أودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقاء ، والسائل من جهة عجلون إلى الغرب ، ومثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بني عامر إلى الشرق ، ومثل ماء الفارعة النازل من الغرب إلى الشرق ، ومثل عين السلطان التي تسقي جنان أريحا ، ومثل غور نمرين المنحدر من وادي شعيب أسفل الصلت إلى الغرب وماء حسيان وغيرها من المياه ، وهذه الحداويل كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذي أصبح عاطلاً من كل عمل اه .

وحالة الإرواء في أكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة . فالقريب من الماء يروي أرضه أو بستانه بالقربة أو المدار كأهل الزور وجزيرة ابن عمر في أقصى الشام ، فإن هذه الأنحاء في وسط المياه كالفرات والخابور وغيرها من كبار الأنهار وقلما تستفيد منه ، وقد خربت السلود القديمة ولم يعمل غيرها ، ذلك لأن الأنهار الكبيرة ولا سيما الفرات قد تتحول عن مجراها في معظم السنين لأنها خالية من الجوانب المثينة المحددة ، وهي في أرض رخوة خبار ، فإذا فاضت طغت على الأرض اللينة .

وكان نهر بردى ونهر الأعوج يستفاد منهما أكثر من جميع الأنهار التي تعطش الأرض التي حفافها ، وهي من مجراه على قيد أشبار ، أو يترك للبحر يصب فيه على هينته وهواه ، كنهـر عفرين والأسود وقاديشا والأولي والأزرق والعوجا وإبراهيم والمقطع والقاسمية وغيرها . وكـم في هذه الديار من آثار قنوات عجيبة مثل قناة بسمية في سنير ، وربما كان ماء عين الفيحة يسيل منها إلى بلد بعيد كما هو المأثور ، ومثل قناة مسين التي جرها المأمون إلى معسكره في أعلى قاسيون بدمشق . وكـم من قناة طمت بتهاون الفلاح فهلك مع أرضه عطشاً ، لأن الحكومات قلما التفتت في الأدوار الأخيرة إلى العناية بأمرها ، والأعمال

المشركة قلما تجدها نصيراً في هذه الأرض ، ولو كانت مياه الشفة فكيف بمياه الري ري الأرض .

خراب الزراعة والمزارع :

ويمكن أن يقال إن القطر خرب بتزول الفاتحين المخربين والعاهات الطبيعية ثم من فساد النظام في الدولتين الجركسية والتركية في القرون الوسطى إلى هذا العهد ، وقد كان مسرح ظلم ، وميدان حروب وغارات ، يهلك الفلاح فيه كما يهلك النمل تحت الأقدام ، وقبل أن يهلك ابن المدن الذي له من اجتماعه بأخيه ، واعتصامه وراء حصنه وسوره بعض الوقاية ، وكانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل غيرها ، وعلى نسبة قرب القرية من المدينة أو من الطرق الموصلة أو طرق الغزاة والفاتحين ، كان الخراب إليها أسرع من الماء إلى الحدور . وكان من دلائل القوة في تلك الأعصر أن تخرب القرى وتلقى النار فيها إذا غضب الملك أو الأمير أو المقدم أو صاحب الإقطاع على ذلك الإقليم أو تلك القرية . وكان قطع الأشجار من أبلغ أنواع النكابة في الخصم ولذلك أمثلة كثيرة في القديم والحديث إلى زمن كتابة هذا الفصل . وما أصيبت به الأشجار في غوطة دمشق خلال الثورة الشامية الأخيرة مثال مما تعمله الحكومات حتى باسم الحضارة . فكان طبائع الحكومات واحد يوم تغضب من شعب أو تريد أن تكره التناء على التزول على إرادتها .

وأهم ما أثر في حالة الفلاح نظام الحكومات ، لأن أصول الإدارة لم تؤسس في هذه المملكة على ما يجب ، وكانت المظالم الأرضية و المفاسد البشرية أشد تأثيراً في أهل الفلح والكرث والقائمين على تربية الماشية والضرع ، من الآفات السماوية ، كازلازل والأوبئة والقحط من قلة أمطار أو فيضان أو انتشار جراد أو ديدان وجرذ وفيران .

هذه العوامل هي جماع الخراب الذي أصاب العامر فدمر القرى والأقاليم ، ومنها ما لا تزال دمنه ومياهه شاهدة على ماضيه الزاهر ، فقد ذكر الظاهري من أهل المئة التاسعة للهجرة أنه كان على عهده نيف وألف قرية ومدن صغار في حوران ، وأنه كان في إقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية وبه مدن صغار وبلدان تشابه المدن ، وأنه كان في وادي التيم وما إليه ثلاثمائة وستون قرية ، وإذا

أحصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لا تجددها في حوران تزيد على أربعمائة قرية ومنها الحَرَب ، وفي الغوطة على ثنتين وأربعين ، وفي وادي التيم على ثلاثين إلى أربعين . وهكذا سائر الشام . فإن حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادي عشر ، ومنها ما ظل خراباً إلى النصف الأخير من القرن الماضي لأن معظم عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم ، وكان من جندها ولا سيما الإنكشارية في آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهد الناس أرفع منها ، لذلك خربت حتى الضواحي والأرباض من المدن الخافلة أمثال حلب ودمشق وحماة وحمص وما شاكلها . وكانت رجل الإنكشاري بل الجندي التركي على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار والبوار . ولذلك لا نكاد نرى عمراً إلا على طول الطرق العامة الكبرى وما إليها من اليمين والشمال ، ونشاهد المدينتين العظيمتين حلب ودمشق مثلاً ينقطع في الحال أو على ساعات قليلة عمرانهما الذي كان وارف الظلال إلى القاصية . وكان هذا بفعل البادية وفعل الجيوش المدمرة .

عوامل الخراب :

ولولا ذلك الظلم المتسلسل قروناً في أعقاب الفلاحين المساكين ، وأسواط النقمة التي انهالت على رقابهم الجليل بعد الجليل ، لما تيسر اليوم لأحد أن يملك المزرعة والمزرعتين بل ربما العشر والعشرين قرية ، وبعض الأسر الحديثة تملك الخمسين والثمانين ، والإنسان قد تكفيه المئة دونم أو جريب إذا أحسن تعهدها ، فكيف له أن يعمر أوفاً من الأقدنة ، ويتسع وقته وماله لحمايتها وترقيتها ؟ نقول حمايتها لأن كثيراً من القرى تنازل عنها مُلاكها لأرباب النفوذ ليحموهم من ظلم الحكام والمرابين ، وأخذوا ثمنها بضع عباات وغلايين ، أو قفة من البن أو رطلاً من الدخان أو أقة من الحلوى المعروفة بالبقلاوة ، ومن الأراضي ما توسل أهلها إلى أرباب المكانة أن يسجلوها في دائرة التملك بأسمائهم لما شرعت الدولة العثمانية ١٨٨٢م بتسجيل الأملاك على أصحابها ، وذلك فراراً من ظلم عمال تلك الحكومة ومن وضع الرسم المعتاد ، ومنهم من تخلوا للأعيان عن أراضٍ عانوا مع آبائهم زراعتها زمناً طويلاً ، تخلصاً من تسجيل نفوسهم

لما حررت النفوس ، ومن أهل القرى من خرجوا عن ملك أراضيهم لأنه وجد فيها قتيل ، وكانت العادة ولا تزال إلى اليوم أن يلزم أهل الأرض بدية من يقتل فيها أو تفرض غرامة ثقيلة عليهم ، فمنهم من تركوا أرضهم مخافة أن يلزموا بمال لا قبيل لهم بأدائه . ومن القرى ما خرج عن ملك أهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر في القرن الماضي لما عجزوا عن دفع الأموال الأميرية فباعته الحكومة التركية بالثمن البخس صفقة واحدة لرجل واحد مقابل رشوة قبضها الوالي .

ومن المرابين من اقتنوا قرى كثيرة في الديار الشامية لأنهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه بأخذ الربا الفاحش . وما زلنا في كل دور نرى الفلاح في أكثر الأقاليم يقترض المئة بمئة وخمسين من الخريف إلى البيدر وأحياناً ترتفع الفائدة إلى أكثر من هذا القدر ، فإذا أضيف إلى ذلك ظلم الأعشار^(١) وتعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها ، لا نستعظم إذا رأينا خراباً ، بل نقول : لماذا نرى هذه الرشاشة من العمران قرب المدن والثغور ، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات .

ولقد كانت الأوقاف من جملة ما أضر الزراعة ، ذلك لأن الأراضي الموقوفة تجمد على حالة واحدة في أشجارها وغللاتها ومجاريها وسكورها وزرائبها ، وكل جسم لا ينمو يصيبه الفناء . وعلى كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر وغيرها لا يمضي القرن والقرنان حتى يعود الوقف ملكاً صرفاً ، ولولا ذلك لكثير الخراب أكثر مما هو الآن في القرى والحدائق . ولو دام حكم إبراهيم باشا المصري إلى اليوم لأصبحت أرضنا عامرة كمصر لأنه نشط الزراعة وأمر بنشر دود الحرير ودود القز وعلم الأهالي كيفية قطف الزيتون بالأيدي حتى صار شجره يعطي ثمراً في كل سنة فاستعادت بعمله أكثر القرى عمرانها القديم .

كتب قنصل بريطانيا في دمشق سنة ١٨٥٩م بمناسبة زيادة الضرائب على الأهاليين وتوكيل الجنود بجبايتها بالعنف : إن الحكومة تأخذ مال الشعب ظلماً وعنفاً ، ولا تحميهم من البلو الذين يزدادون جرأة واعتداءً ، وعملها قائم

(١) جربت الحكومة في الشام في سنة ١٩٢٥م طريقة التربيع فجمعت مقدار أعشار سنتين قبل الحرب وسنتين بعدها وأخذت ربمها وأنشأت تنقاضي مالا مقطوعاً . وألغت بذلك الأعشار فألغت بإلغائه نظاماً سيئاً من نظم القرون الوسطى .

بابتزاز أموال الفلاحين التعساء لما فيه مصلحتها ، على حين لا تأتي بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم أن يدفعوا الأموال اللازمة لتحسين حال الولاية ، وسد حاجات الحكومة المركزية ، وإنما تهمل الاحتياط للأمر . وقال أيضاً : « إن جو الشام صاف وهواءها جيد وأرضها خصبة حسنة الري ، ففي مكنتها أن تصبر على هذه الحالة أكثر من غيرها من الولايات الأقل خصباً ، ولكن لا بد في آخر الأمر من أن تفرغ هذه الموارد » .

آفة الهجرة على الزراعة :

ومما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات كلها ، بدأت تدب في جسمها أواخر القرن الماضي بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن في التماس الرزق وطرق الغنى . وذلك منذ دهش الناس لأرباح المهاجرة الأول من الشاميين إلى أميركا . أرباح لم يكن لابن هذه الأرض عهد بها وكان ثلاثة وعشرون قيراطاً من أربعة وعشرين قيراطاً منهم يعيش ، ولا سيما في الأرض القاحلة ، عيش القلة الشديدة . فلم يلبث الناس في الجبال أن حذوا حذو أولئك المهاجرين ، فأخذ الناس يترحلون إلى أميركا الجنوبية والشمالية وإلى أستراليا وجنوبي إفريقيا وغيرها من البلاد المفتوحة حديثاً ، حيث يسهل جني المال ، وتزيد أجرة العامل على نفقته كثيراً .

وهاجر ألوف أيضاً إلى مصر والسودان عقبى الاحتلال الإنكليزي سنة (١٨٨٢م) فحرمت الشام في أربعين سنة نحو سبعمائة ألف يد عاملة ، كان ثلثهم يستوطن في الأصقاع التي نزلها ، تمسك بتلابيبه لكثرة علاقته وطيب العيش فيها ، والثلث الثاني يهلك ، والثلث الثالث يرجع . ولم تلبث الهجرة أن عمت جميع السكان ، اقتصرت على أبناء الجبال أولاً ، ثم تناولت ابن السهول ، وانتقل الغرام بها من ابن القرية إلى ابن المدينة . ومن جملة ما زاد في عدد المهاجرين سهولة السفر وتأليف شركات للتسفير تسلف المهاجر أجرة طريقه ونفقاته الأولى ريثما يجد عملاً حيث ينزل .

وهذه الهجرة من أعظم ما أخر حال الزراعة في هذا القطر ، فأصيبت بضربة مهمة أهمها ارتفاع أجور العملة فيها لأن من عاد منهم يحمل مالا ولو

قليلاً استنكف عن العمل في الزراعة كما كان هو وأبوه ، ومنهم من بنوا القصور الغناء والدور القوراء في مزارعهم ، وأخذوا ينعمون بطيب العيش ، ويبحثون أوقات فراغهم في أمور ما كانت لهم ولا كانوا لها ، ويلهون ويلعبون على الطرق التي اقتبسوها في مهاجرهم . وقد كانت جبال لبنان وعامل والعلويين وقلمون والحليل والسامرة من أشد الأصقاع التي تأذت بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها . ولقلة اليد العاملة رأينا بعضهم في البقاع يقرون امرأته إلى ثوره تعمل مع فدانها ، ورأينا الحوارنة يستكثرون من الأزواج يتخذونهن أجيرات في أعمال الحقل وعلف الدواب واستخراج الدرّ وعمل السمن واللبن . ولئن دخلت القطر أموال طائلة بسبب الهجرة فثروة أمة لا تعد بكثرة نقدها بل بكثرة ما يعمل أبناؤها في أساليب الرزق المختلفة ، وقل أن أنفق مال يذكر على تحسين الزراعة وإقامة الشركات النافعة ، ونحن لم نبرح ننشد مع حافظ إبراهيم :

أيشكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهب

خصب الأراضي ومعالجتها وما يزرع فيها :

يضرب المثل بزكاء منابت الشام واعتدال أهويتها ، وجودة مناخها ، وكثرة مياهها ، على كثرة حزونها وجبالها ، وإن أرضاً تعطي حبتها في بعض الجهات مئة حبة ، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصفا ، لتعد من أخصب بقاع الأرض ، وذلك لأن أرضها مستريحة منذ العصور المتطاولة . فإذا كان بنو إسرائيل قد جعلوا عادة لهم أن يريحوا أرضهم مرة كل سبع سنين ، فإننا قد أرحناها منذ قرون ، ولذلك لا تضمن علينا بخيرات سطحها كلما حرثناها وزرعناها . وما زالت زراعتنا كما عرفها الأجداد بل كما عرفها الإنسان منذ آلاف من السنين ، ليس فيها شيء من العلم إلا التجارب ، ولا من التغيير إلا ما تضطر إليه الأحوال وتهدى إليه الفطرة ، ولذلك يعوزها كثير مما يجود في غيرها من النباتات والأشجار . قال الرحالة فولني في كلامه على مناخ الشام : إن الأرز يجود زرعه على شواطئ بحيرة الحولة ، والنيلة تنبت بلا عمل على ضفاف نهر الأردن في بيسان وهي لا تحتاج إلا إلى قليل من العناية حتى تستوفي الشروط المطلوبة . وبعد أن أفاض القول على مدن الشام قال : إن دمشق تفاخر وحق

لها الفخر بأن فيها كل الثمار التي تحصل في ولايات فرنسا . ثم ذكر أن البن الذي يزرع في تهامة اليمن تلاثم زراعته أرض الشام ، ومناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر والسرو .

وقال « هوار » : لئن كان القطن زرع في أوربا فإن ضواحي هاتين المدينتين (دمشق وحلب) كانت خاصة بزراعة شجيرة القطن ، وهذه الحقول البديعة توجب حيرة السياح ، والقطن الصغير الطول ينبت في ضواحي دمشق ، وكانت عكا واللاذقية وقبرس تعطي صنفاً ثالثاً من القطن ، وكانت أرجاء نابلس إلى عهد قريب تصدر من القطن ما قيمته مئات الألوف من الدنانير .

وقال « پوست » : تقسم فلسطين باعتبار الفلاحة إلى أربعة أقسام : السواحل كساحل غزة ويافا وشارون وهي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحرارة ، ووادي الأردن (العربة) وهي تناسب مزروعات المنطقة الحارة والجبال وفيها أودية كثيرة مخصصة كمرج ابن عامر « يزرعيل » ، والأودية المجاورة كالناصرية ونابلس والحليل « حبرون » وهي تناسب مزروعات المنطقة المعتدلة ، والسهول الداخلية وهي تناسب في الأكثر الحنطة والشعير والسمسم . قال : ولا شك بأن هذه البلاد كانت ذات أشجار برية وبستانية أكثر مما هي الآن . وكان التراب على جوانب الجبال أكثر مما هو اليوم ، وكذلك العيون فإنها كانت أكثر عدداً وماءً فضلاً عن أن مياه الشتاء كانت تجمع في مساقٍ وصهاريج . وقال « ورن » : إن فلسطين « شرقي الأردن وغربيه » كافية لسكنى خمسة عشر مليوناً من الجنس البشري إذا اعتنى بها الاعتناء الواجب . قلنا : إذا كانت الشام على هذه الصفة من الخصب والسعة فكيف لا تسع العشرين مليوناً من الناس وكل إقليم من أقاليمها كالبلقاء أو الجولان مثلاً يعد الصالح من تربته أكثر من مملكة من الممالك الصغرى في أوربا ، ولكن السر بالسكان لا بالمكان .

تقسيم السهول والجبال :

قسم صاحب كتاب الزراعة العملية الحديثة أقاليم الشام الزراعية إلى خمسة أقاليم يتركب كل منها من عدة مناطق تكاد تكون واحدة في درجة الارتفاع عن سطح البحر وهي :

(١) إقليم الغور أي شواطئ الأردن وهو يمتد من بحيرة الحولة شمالاً إلى بحيرة لوط جنوباً ، أي أراضي جنوب بحيرة الحولة وأراضي البطيحة والغوير وسمخ والقسم الشرقي من بحيرة طبرية وأرض جسر المجامع وبيسان وجنوب بيسان وغور الصلت ومنطقة أريحا وشواطئ بحيرة لوط . ومن جملة نباتات هذا الإقليم البردي والأسل والقصب الفارسي والأكاسيا الشوكي والسوسن وزنبق الماء على شواطئ بحيرة الحولة والسدر الكثير في الأراضي المجاورة لبحيرة طبرية كأرض الغوير والمجدل والبطيحة وغيرها والغار والطفاء والقصب وأنواع النخيل وسفط السيل والرتم والبان والصلة والغرقد والعوسج والعشر وغيرها على شواطئ الأردن في منطقة بيسان وشرق الشريعة والصلت وأريحا .

(٢) إقليم السواحل التي تمتد من شبه جزيرة العقبة إلى خليج الإسكندرونه ويشتمل على السهول الساحلية من غزة ويافا وحيفا وعكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونه ويدخل فيه مرج ابن عامر وأراضي جنين وشمال بحيرة الحولة ويوجد فيه الليمون والبرتقال والموز والمان . ومن جملة نباتات هذا الإقليم الطبيعية البلان والصنوبر البحري والقندول والوزال والطفاء وأنواع البرسيم والشقائق والدقلى والأقحوان والقصب الفارسي وأنواع مختلفة من البلوط (٣) إقليم السهول وتدخل فيه سهول الكرك والبلقاء وحوران وسفوح حرمون والبقاع والجولان والغوطة والمرج والسهول المرتفعة في فلسطين وحمص وحماة وحلب وما شاكلها من السهول المتقاربة في إقليمها، وتوجد في هذا الإقليم الأشجار المثمرة والخضر والتوت واللوز في الأرض البعلية والخور والصفصاف والدلب في شواطئ الأنهار .

(٤) إقليم الجبال ويدخل فيه جبال الكرك والصلت وعجلون وقلمون وجبل الشيخ ولبنان ولبنان الشرقي والنصيرية والأقرع ، ويوجد فيه الزيتون والكرم والتين واللوز والصنوبر والسرو والفتق البري والميس والحبوب وكثير من الأشجار المثمرة، وفيه من النباتات الطبيعية البطم والقسيقب والجنستا والخرنوب والزعرور والعليق والشذاب والدردار والزيتون والسنديان والدلب والصنوبر والديشار والآس والسرّخس ، وفي أقسام الجبال المرتفعة بعض أنواع البلوط ثم الأرز والدفران.

(٥) إقليم الصحراء وتتناول ما نسميه بادية الشام أي الأضواء الواقعة شرق المعمور من دمشق تنبت فيه بعض النباتات والأعشاب منها ما يزول في الربيع ومنها ما يبقى في الصيف . وليس في هذا الإقليم سكان إلا البدو الضاربون في أرجائه .

من الذين أدخلوا الطرق الجديدة :

أدخل ثلاثة أصناف من الناس في الشام روحاً جديداً في زراعتها، ومنهم مهاجرو قافقاسيا وغيرهم ممن سكنوا قرى كثيرة في عمل حلب ودمشق وعمّان، فإن هؤلاء أدخلوا أصول الزراعة على طريقتهم وهي أرقى من طريقة من نزلوا عليهم في حمص والبلقاء والجولان مثلاً . ثم إن الألمان الذين أقاموا لهم مستعمرات في حيفا ويافا منذ (١٨٦٨م) قد كانوا مثال الفلاح النشط، وكان على فلاحنا المجاور لهم أن يتعلم منهم ويعتبر بما يأخذه الفلاح الحرمانى من وافر الغلات ، ويتعلم منه تنظيم داره وإصطبله وحديقته ومزرعته وتعليم أولاده وغير ذلك مما يعود عليه بالنفع والراحة . وأهم من أدخلوا التجدد في الزراعة في ربوع الشام الصهونيون من مهاجرة ألمانيا ورومانيا وروسيا وبولونيا وغيرهم ، فإنهم والحق يقال قد أنشأوا بأموال روتشلد وبركم وفير و فيتيفوري وغيرهم من أغنياء الإسرائيليين الذين ابتاعوا الأراضي في فلسطين لأبناء نحلتهم ، وأمدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها ، مزارع حرية بأن تكون نموذجات الحقول ، وقد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات الصهيونية اليهودية وجمعيات ايكا وفاعوليم والأليانس وغيرها بأعمال مهمة لنشل أبناء دينهم من سقطتهم، وأنشأوا لهم قرى كسارونا وزمارين والخضيرة وملبس والعاونة والشجرة وغيرها هي كالقرى الأوربية باتقان أعمالها الزراعية . ومن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجري اللبنانيين الشرقي والغربي فإن منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله في الزراعة وأدخل طريقة الأميركان في أرضه .

درس الزراعة :

وكان من أثر مدرسة الزراعة العملية في نير قرب يافا التي أسست منذ نحو خمسين سنة ، وكان يتخرج فيها في السنة على الأقل عشرون تلميذاً يستطيع

تطبيق علمه الزراعي على العمل - أن نشرت أصول الزراعة الحديثة بين أبناء إسرائيل ، وغدا فيهم الكفاة للقيام على الحرث والتسميد والبذر والغرس والتعهد والتقليم والتطعيم ، وأصبحت مستعمراتهم تخرج أصنافاً جيدة من الحمور واللوز وغيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها .

ومن مدارس الزراعة التي نفعت بعض أبناء سورية وفلسطين مدرسة اللاطرون بين يافا والقدس أنشأها الآباء البيض . ومدرسة تعنايل بين بيروت ودمشق أنشأها الآباء اليسوعيون . وقد أنشأت الحكومة السابقة مدرسة زراعية في سلمية لكنها ضعيفة في تلقين العمليات والنظريات ، وقد ألغتها مؤخراً بحجة أن تلاميذها لم يعملوا في الصناعة التي اقتصوا بها ، وآثروا التوظيف في أعمال الحكومة ، وذلك على شرط أن تؤسس مدارس عملية أخرى ومشاتل في كل قسبة فلم يتم شيء من ذلك .

ومن الغريب أن الزراعة وهي تكاد تكون في هذا القطر المحبوب مورد عيشه الأول ، لم يدرسها إلى اليوم سوى أفراد قلائل ، ولا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك آباؤهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الأصول في مدارس فرنسا وإنكلترا وتونس ومصر والإستانة ، وجاءوا فعنوا بتطبيق ما تعلموه ، وكان الواجب أن يكون لكل بضع قرى مهندس زراعي ، يعلمها من علمه ويمدها بتجاربه ويدير شؤونها كما يدير أهل البصر في الغرب مزارعهم .

نقص كبير :

إلى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعية الحديثة التي تقلل عمل الأيدي وتزيد النماء كآلة الحرث والبذر والدرس والتذرية دع غيرها ، وما أبقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعية التي طبع بعضها بلغتنا في أوروبا دليل كبير على ترقى هذا الفن أيام لم يكن في الأرض من يحسنه . سبق العرب الغرب في كل شيء ، وسبقهم هو اليوم ويا للأسف في كل شيء ، والدهر دول يوم لك ويوم عليك .

سبق الأجداد في كل شيء ، وتأخر الأحفاد في كل شيء ، والفلاحة التي هي أشرف الأعمال وضعيفة في نظر كثيرين حتى إن بعضهم قال وقد رأى

السكة في دار : ما دخلت هذه السكة دار قوم إلا ذلوا، ولو قال: ما خلت هذه السكة من دار قوم إلا ذلوا لكان أقرب إلى الصواب . شعار الغرب اليوم «الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » وإذا كانت الفلاحة عندنا ينظر إليها نظر احتقار فمن باب أولى أن ينظر إلى الفلاح كذلك وهو خادم الوطن الحقيقي . وإذا كان الفلاح كالسلطان في مزرعته عند الأمم الممدنة ، فهو هنا عبد رقّ لصاحب الأرض وللحكومة وللمرابي .

وبينا نرى أرباب المزارع في الممالك الراقية ، ومصر منها ، يُعنون براحة فلاحيهم وتعليم أبنائهم وبناتهم ، وتوفير قسطهم من الصحة والهناء ، ويجعل لهم حتى في قراهم مدارس ومعابد ودور تمثيل وصور متحركة للتسلية ، نجد أكثر المزارعين هنا يجحدون في أن يبقوا فلاحيهم جهلاء أغبياء حتى يخضعوا لهم بزعمهم أبد الدهر خضوعاً أعمى ، وقلّ أن سمعت بأن مزارعاً أنشأ لفلاحيه عندنا مدرسة بسيطة أو مسجداً وأتاهم بخطيب يعلمهم أو بطبيب يطبهم، ولذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفرأ من هذه الوجهة ، لأن صاحب القرية لا يهتم إلا لتكثير الدخل السنوي وإرهاق فلاحه ، وابن البادية والقائمون على الزرع والضرع أقل الأمة ويا للأسف حظاً من التفكير بسعادتهم ، كأنهم ليسوا مادة الثروة ، إذا اختل نظامهم تطرق الخلل إلى سائر مذاهب المعاش ، ومقومات الحضارة ومظاهر الرخاء والهناء .

ولا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين أنهم « غير الوجوه إذا لم يُظلموا ظلّموا » ولكن تثقيف أودهم بالتربية قلما يعخطر ببال ، وقطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواء عاجلاً !

التحسين الأخير :

على أن من الواجب أن يقال أيضاً: إنه استفادت كثير من قرى الغوطة والمرجين ووادي العجم والبقاع وبعليك والحولة وجبال عامل وعكار والحصن ونابلس وعكا والخليل وغزة وسهول حمص وحماة وحلب وأنطاكية وإسكندرونه والسويدية عمراناً منذ ثمانين سنة بفضل بعض طبقة الأعيان ، لأنهم استطاعوا أن يحموها من عيث البادية وعبث الظلمة من العمال ، وأن يمدوها بالمال وقت

العسرة . ففرّموا على تحسينها أموالاً ، وصرّفوا قواهم إلى الانتفاع بها ما أمكن . وكان العربان يداهمون حتى القرى القريبة من الحواضر ، ويطلبون منها « الخوة أو الخواة » وهي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين يؤدونه لصعاليك البدو صاغرين ، وإذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم ، محتجين بضيق ذات اليد أو رداءة الموسم ، نهبوا دورهم وحرّقوا عروضهم وغلّاتهم واعتدوا على أرواحهم . وقد كانت معظم الأرياف مأوى الأشقياء وعصابات قطاع الطرق ، فما كان الفلاح يحسر أن ينتقل من قرية إلى أخرى ، أو يحمل محاصيله إلى المدن ، ولا أن يعمل في حقله البعيد قليلاً عن القرية أو المزرعة . فلما طبق قانون الولايات سنة (١٢٨١هـ) ثم أنشئت المحاكم النظامية كان من أثرها القضاء على عصابات من أرباب الدعارة ، وقلّت الشقاوة ، فانصرف الفلاحون كلهم إلى العمل ، لأن الأسعار بدت بالارتفاع ، فبعد أن كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال إلى بيروت أو عكا فلا يتحصل منها غير أجره النقل ، أصبح الفلاح يحمل غلاته إلى المواني البحرية ولا سيما غزة ويافا وحيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونة فتأتيه بأرباح طائلة ، لأن الحبوب كالثمن ، أصبحت تسافر في البحار ، ويدفع في ثمنها النصار .

وانتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بآبن المدن فعرف بؤسه ، فلم يكن على ما كان منذ سبعين سنة مملوكاً لجهله الطبيعي . ولظالميه من المرابين وغيرهم من أدوات التخريب . وكان من تأسيس المصارف الزراعية ، وإن كانت قليلة رؤوس الأموال ، ويجب أن يكون فيها التسهيل كثيراً ، أن أنزلت معدل الربا إلى سبعة في المئة ، فخففت من غلواء المرابين والصيارفة . ولو زيد في ترقية المصارف الزراعية وأنشئت مصارف عقارية تقرض أرباب العقارات أيضاً بفائدة معتدلة لزادت المنافع المطلوبة للزراعة .

وصادف أن قلت آفات الزراعة في العهد الأخير ، فأصبحت الأوبئة في البشر والبقر لا تفعل فعلها الشديد كما كانت في الأدوار السالفة ، وردمت بعض المستنقعات الصغيرة التي كانت بجوار بعض القرى ، وعني ديوان الصحة بفتح مستوصفات في القصبات ومستشفيات في المدن ، فتحسنت الصحة بعض الشيء ، وأصبح الفلاح يدرك فائدة التطب ، وإن أعوزه الطبيب أحياناً ، وفتحت وزارة

المعارف مدارس ابتدائية في بعض القرى الكبيرة فدخلت المدنية قليلاً وزادت النفوس زيادة محسوسة ، وربما زادت عما كانت عليه منذ سبعين سنة سبعة أضعاف . وهذه الزيادة أفادت الزراعة أيضاً . ولم تصب بعض الأصقاع الزراعية بالضعف إلا مدة الحرب الأخيرة ، وقد كلب عمال الترك فاستلبوا من الفلاح ابنه وبقرة وغنمه وخيله وحميره وبذاره وحطبه وقطنه وصوفه وقشره ، ولو طالت الحرب سنة أخرى لحصد الوباء البقري الأبقار من أكثر أنحاء الشام ، لأن ما بقي سالماً منها كانت الحكومة تأخذه للنقل أو للذبح ، فتعطل بعضهم عن الحرث ، ولكن من نجوا من هذه الغوائل ولو قليلاً استفادوا من ارتفاع الأسعار أرباحاً طائلة ، فوفوا ديونهم وخرجوا وقد أغنتهم الحرب ولم تفقرهم . وما زلت أعتقد أن أصحاب الحوانيت مقصرون جداً في تعليم الفلاح ، وتحسين حالته المعاشية والمنزلية والصحية ، حتى كاد يصبح بطول الزمن شقيق البهائم لا يفرق عنها إلا أنه ناطق ، وهذا النقص يحمل عليهم وعلى الحكومة . فقد تجتاز إلى اليوم القرية والقريتين في الأرجاء البعيدة ولا تجد رجلين أو ثلاثة من أهلها يقرأون ويكتبون على ما يجب ، فكيف لهم أن يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات . ولا يستقيم للزراعة حال فيما أرى إلا إذا علّمت كل أسرة يأتيها رزقها من الزراعة أحد أبنائها هذا الفن الجليل ، ولا تمضي بضعة سنين حتى تدخل الشام في طور الأقطار الزراعية الراقية ، وعندها تتضاعف الثروة مرتين أو ثلاثاً ، وينقطع دابر الهجرة ويعمر الغامر كما يزيد عمران العامر . ويعتقد الناس أن العز والغنى معقود بالأرض ، وأن الشرف يستمد من المرء من عمله الحر الحلال .

عناية الأقدمين بالزراعة :

إن ما انتهى إلينا من الكلام القليل على الزراعة الشامية لا يشفي غلة الباحثين اليوم ، لأنه مجمل يحتاج إلى تفصيل كثير . وإذا عرضنا له هنا فلالاستثناس به في تاريخ الزراعة في الجملة ، فقد علمنا أن الإسرائيليين كانوا يريجون الأرض سبع سنين ثم يزرعونها فتأتي غلاتهم مخصبة نامية . وعلمنا أن النبطيين وهم

العرب الرحل في أرجاء البتراء في الجنوب كان من المحظور عليهم أن يزرعوا الحنطة ويفرسوا الأشجار المثمرة وبينوا البيوت إذ كانوا يعتبرون أن الاحتفاظ بهذه الخيرات يحتاج إلى أن يفادي المرء بحريته . وعرفنا أن الفينيقيين كانوا لا يُعونون بالزراعة عنايتهم بالتجارة ، فكانوا يجلبون من الداخل ومن السواحل القريبة منهم ما يلزمهم في غذائهم . حتى إذا جاء العرب وأبدوا ما أبدوا من حب التحضر كان قانونهم من أحميا أرضاً مواتاً فهي له واطرد ذلك منذ الفتح . واغتبط العرب بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع بعد قحولة الحجاز وبواديه المحرقة فقال زياد بن حنظلة في فتح عمر مدينة إيليا من قصيدة :

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها وعيشاً خصيباً ما تعد ما كله

حتى إذا تربعت أمية في دست الخلافة وأخذ آهـم ورجاهم يقنتون المزارع ، وبيالغون في اتخاذ الغروس والزرور المثمرة المغلة ، جعلوا القرى مستغلات لهم ونزلوها وعُـنوا بعمرانها ، وتنافسوا في ذلك . فقد ذكر المنبجي أن هشام بن عبد الملك اتخذ المستغلات الكبيرة في أكثر المدن التي في سلطانه ، والحنات والحوانيت والحجر والضياع والمزارع ، وهو أول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب ، واشتق أنهاراً كثيرة غزيرة ، وهو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة ، وغرس غرساً كثيراً بالجزيرة والشامات ، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته .

ولطالما عُنِي الخلفاء بأن لا تبقى أرض شاغرة لا تستغل ، فقد أنزل معاوية قوماً من الفرس في طرابلس ، وكان الرشيد لما انتشر ذلك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده وكان ربما أتى على جميع أهل البيت فتخرب أرضوهم وتعطل ، قد وكل بهذه الأرضين من عمرها فكان يتألف الأكرة والمزارعين إليها فصارت ضياعاً للخلافة .

وما زالت العناية بتعهد الأرض متوفرة حتى اغتني العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم وبعد نظرهم . والعرب كما قال أحد علماء الإفرنج - عمال زراعقور رجال براءة ، برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواعير العجيبة بل ووطنوا النباتات والأشجار الإفريقية والآسيوية في أوربا كالنخل والبرتقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والأرز والحنطة السوداء والزعفران والهندباء

والخرشوف والسبانخ والباذنجان والطرخون والبصل والياسمين الخ وينسب إليهم اختراع طواحين الهواء ونواعير الماء . وقال ميشو : ما من دار في أوروبا إلا وتعرف اليوم البصل Echalote الذي جاء اسمه وأصله من عسقلان . ومعلوم أن الأندلس ابنة الشام فتحها الشاميون ونقلوا إليها مدنيتهم . وهذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الأندلس ثم في سائر أوروبا تكاد تكون خاصة بأرض الشام في تلك القرون .

لا جرم أن الحضارة التي أوجدها العرب كان من أول دعائمها الزراعة فاحتاجت الدولة والأمة إلى الاستكثار من الغروس واستجادة الزروع من وراء الغاية . قيل لإسحاق بن يحيى الختلي من ولاة دمشق (٢٣٥) لِمَ سكنت دمشق وفلحت أرضها ، وأكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة ، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها؟ فقال : لا يطيق نزولها إلا الملوك قيل له : وكيف ذلك؟ قال : ما ظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار ! . ولطالما دهش العرب بغوطة دمشق لأنها كانت أول ما يقع عليه نظرهم من عمران الشام فيعجبون للأشجار والزروع المنوعة التي لا يُعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب ويدهشون للخصب والمياه الدافقة من كل جهة .

أصناف الزروع والأشجار :

ذكر المهلبي أنه تجلب من كور حلب وضياعها ما يجمع جميع الغلات النفيسة فإن بلدة معرة مصرين وجبل السماق بلد التين والزيتون والزبيب والفسق والسماق والحبة الخضراء . وقال ابن شداد : وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفاً من الغلات . وقال ياقوت : ويزرع في أراضيها القطن والسمن والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذياً لا يسقى إلا بماء المطر ، ويحجى مع ذلك رخصاً غصاً رويماً ، يفوق ما يسقى بالمياه والسيح وقال : إن أكثر مستغل ضياع الغور السكر ومنها يحمل إلى الآفاق ، وفي عسقلان نخل كثير وصنوف من التمور والرمان يحمل إلى كل بلد بحسبه ، وإنها معدن الجميز كثيرة المحارس والفواكه . واشتهرت نواز في جبل السماق بتفاحها الكبير المليح . وتل أعرن في حلب بعينها الأحمر المدور . وقال ابن جبير : في بلاد المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسق وأنواع الفواكه ويتصل

التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين . وقال ابن حوقل : وما حول معرفة نسرين من القرى أعداء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك أكثر ما بجميع جند قنسرين أعداء ومياههم من السماء . وقالوا: اشتهرت الفرزل في البقاع بزيبها الجوزاني ، وكان يعمل به الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها ، وأن بعلبك معدن الأعتاب والحولة معدن الأقطان والأزهار ، واشتهرت بيسان بالنخيل الكثير كما اشتهرت بيروت وآبل بقصب السكر ، يطبخ بها السكر الفائق ، وعراق الأمير بسفرجلها ، والناعمة بخرنوبها الفائق . وقال المقدسي : إن عسقلان معدن الحميز وأريحا معدن النيل والنخيل كثيرة الموز والأرطاب والريحان . ومعان معدن الحبوب والأنعام ، ويبني معدن التين الفائق الدمشقي . وأن أشجار جبال فلسطين زيتون وتين وجميز وسائر الفواكه أقل من ذلك . وقال : خير العسل ما رعى السعتر بليليا وجبل عاملة وأجود المري ما عمل بأريحا ، وأن عنب القدس خطير وليس لمعنتها نظير .

وذكر ابن حوقل أن أهل زُغر يلحقون كرومهم وكروم فلسطين كما يلمح النخل بالطلع الذكر وكما يلحق أهل المغرب تينهم بأذكارهم . وقالوا: إن لبنان كثير الأشجار والثمار المباحة يتعبد فيه أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات ، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك .

وقال شيخ الربوة : ولجبل لبنان ولا سيما بقضييه وأذياله نحو من تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً مباحاً بلا ثمن وله قيمة جيدة وثمرن يكتفي به الجاهلي الجامع طول سنته له ولأهله ، ومن ذلك الكثيراء والريباس والبرباريس والقاوينا وهو عود الصليب والقيسه والبقس والقبب الذي يعملون منه المرامل والملاعق والآلات المموهة بالذهب والفضة ويحمل إلى سائر البلاد والأقاليم ، وليس عملاً أطف منه ولا أحسن ، ومن النباتات أيضاً شجر المحمودة والاشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد إلا في إقليم دمشق وهو معلق في شقيف عال ما يقدرون على جنيهه إلا أن يدلوا جانبه بجبال من رأس جبل عال ، كما يدل الدلو في البئر ، وهي لأجل الترياق الفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والأهبل والقراصيا والزيزفون ، وأما الفواكه فكثيرة جداً بلبنان اه .

وذكر الثعالبي أن التفاح اللبناني موصوف بحسن اللون وطيب الرائحة ولذاذة الطعم يحمل منه في القرايات إلى الآفاق ، وكان يحمل إلى الخلفاء في بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون ألف تفاعه . وقال المقدسي في الرملة : إنه ليس أطيب من حوارى الرملة ولا ألد من فواكهها ، أطعمة نظيفة وأدمات كثيرة وأنها جمعت التين والنخل وأنبتت الزروع على البعل وحوث الخيرات والفضل . وقال : إن ماء فلسطين من الأمطار والطل وأشجارها أعذاء وزروعها كذلك لا تسقى إلا نابلس فإن فيها مياهاً جارية . وقال ياقوت : إن ياسوف من قرى نابلس توصف بكثرة الرمان .

وقال أبو الفدا : إن جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب وسائر الفواكه أقل من ذلك . وذكر المقدسي أن على نحو نصف مرحلة من كل جانب من حبرون قرى وكروم وأعناب وتفاع يسمى جبل نضرة لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه عامتها تحمل إلى مصر وتنشر . وقال ابن حوقل في زغر : إن بها بسراً يقال له الانقلاء لم ير بالعراق ولا بمكان أغرب ولا أحسن منظراً منه لونه كالزعفران ولم يغادر منه شيئاً ويكون في أربع منه رطل ، وبها النيل الكثير المقصر عن صباغ نيل كابل ، وفيه لهم تجارة كبيرة واسعة ومقصد كبير . وقال الظاهري : إن غزة كثيرة الفواكه . وقال ابن بطالان في أنطاكية : إن أرضها تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون . وقال ياقوت : وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حرّان وما يقارب ذلك فتعم الكل . ولقد ذكروا في باب خصب أريحا أن الجفنة التي عمرها ٤٢ سنة تكون استدارتها على سطح الأرض مترين وثلاثين ستمتراً وتحمل في السنة ١٥٠٠ كيلو من العنب وأنه يضرب المثل بورودها وأزاهيرها ويخرج منها الزقوم والسدر وهو أشبه بالزيتون الكبير يستخرجون منه زيتاً للجروح . وكذلك النبق وهو بمقام الصبار والزيزفون في بلاد أخرى يستعمل حيطاناً للحوائط أي للبيساتين .

وذكر الثعالبي أن زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة وإنما قيل له الزيت الركاني لأنه كان يحمل على الإبل من الشام وهي أكثر بلاد الله زيتوناً

وفيه ما فيه من البركة والمنفعة . وقال شيخ الربوة في نابلس : وقد خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز والبراري مع العربان ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي ، ويعمل منه الصابون الرقي يحمل إلى سائر البلاد التي ذكرناها وإلى جزائر البحر الرومي ، وبها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض . والظاهر أن هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياساً مع حالها في القديم ، فقد قلّ عدده في فلسطين بعد الحرب العامة واستعويض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا من الجهد لغرس الزيتون والكرمة ، أما في أرباض دمشق فهو آخذ بالقلّة منذ اشتهرت الفواكه وهي هينة العمل سريعة الغلة ، وكان في حمص على ما تبين من الحضرّيات التي أُجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره التي لم يبق لها زيتون تعصر منه ولا تجد الزيتون اليوم في أرجاء حمص إلا في بقعة أو بقعتين . واشتهر في القديم زيتون الطفيلة والشوبك اشتهارهما بمشمشهما وكثراهما ورماتهما . سألتنا أحد شيوخ الصلت عن السبب في لإحجام القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع أنه يوجد كل الجوده فقال : لا تذكرنا بغياوتنا فقد حملنا سعيد باشا شمدين أحد متصرفي البلقاء على أن نغرس في هذه الأودية التي تراها مئة ألف زيتونة فوق في أنفسنا أن في الأمر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل أراضينا على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالأمر بالظاهر ، وغرسنا ألوفاً من شجر الزيتون ، ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان أحدنا يجيء الى الغرسة فيحركها حتى لا يطلع جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون إلا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ما هو . قلنا : وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالأمس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار . ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة ، واليوم يطلب الأهلون في هذا العمل وفي غيره الأرض الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم ! هكذا رأينا أهل الشراة والطفيلة ومعان ، على حين يقضي قانون الأراضي بأن كل من يحمي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والداكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من أقصى العامر فهي له . ولقد رأينا كثيراً من

أهل القرى استأصلت أشجار التين والكرمة وغيرها لأن العشارين كانوا يتقاضون منهم عشرين فاحشاً أثمرت أم لم تثمر ، فعدمت بعض القرى شجرها المثمر بهذا الظلم ! .

وما قيل في كثرة الزيتون يقال في كثرة الأعناب واشتهرت بلدان كثيرة بذلك ، وقد أكثر شعراء العرب من ذكر خمرة بيت رأس ولبنان وغزة وجدر وصرخد وأذرع والآنديرين وبنات مَشْشِج وبَيْسان ولدّ ومآب والخمر المقدّية وخمر الأحصّ وقاصرين (في أرجاء حمص وحلب) وكان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه . واشتهرت حلبون في جبل سنير بخمرها وكثرة كرومها . ويظهر أن الزعفران كان كثيراً ما يوجد في الشام لأنه كان يدخل في الأطعمة والأشربة كثيراً ، ومزارع الزعفران التي كان يطلّ عليها من دير مرّان في السفح الغربي من قاسيون جبل دمشق مشهورة ، والغالب أنها كانت في أرض النيرب ، وكان الزعفران يوجد في جادية في قرى البلقاء والجادية هو الزعفران . ولم تكن عنايتهم بالنخيل أقل من عنايتهم بالزيتون والكرم مثلاً ولا سيما في جنوب الشام وشرقه .

ولا أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا والكستانة والبنديق والبسيسيم (المشمولة) وكانت كثيرة مبذولة هي والكراز حتى القرن الحادي عشر وكان القطن يوجد في ضواحي دمشق وحماة وحلب . ذكر القلقشندي زروع الشام وفواكهه ورياحينه فقال: إن غالب زروعه على المطر قال في مسالك الأبصار : ومنها ما هو على سقي الأنهار وهو قليل وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البرّ . الشعير . الذرة . الأرز . الباقلاء . البسيلة . الجلبان . اللوبياء . الحلبة . السمسم . القرطم . ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم . وبه من أنواع البطيخ والقثاء ما يستطاب ويستحسن . وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس . الملوخيا . الباذنجان . اللفت . الجزر . الهليون . القسنيّط . الرجلة . البقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة ، وقصب السكر في أغواره إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حد مصر .

وأما فواكهه ففيه من كل ما يوجد في مصر كالتين . العنب . الرمان . القراصيا . البرقوق . المشمش . الخوخ - وهو المسمى باللراقن - والتوت

والفرصاد ، ويكثر بها التفاح والكمثرى والسفرجل مع كونها أكثر أنواعاً وأبهج منظراً ، ويزيد عليه فواكه أخر لا توجد بمصر ، وربما وجد بعضها في مصر على الندور الذي لا يعتدّ به كالجوز . البندق . الإجاص . العنّاب . الزعرور ، والزيتون فيه الغاية في الكثرة ، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلدان وغير ذلك . وبأغوارها أنواع المحمضات كالأترج . الليمون . الكباد . النارج . ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر . وكذلك الموز ولا يوجد البلح والرطب فيه أصلاً . قال في مسالك الأبصار : وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى في الربيع كالسفرجل والتفاح والعنب .

وأما رياحينه ففيه كل ما في مصر من الآس والورد والزرجس والبنفسج والياسمين والنسرین ، ويزيد على مصر في ذلك خصوصاً الورد حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان . قال في مسالك الأبصار : وقد نسي به ما كان يذكر من ماء ورد جور ونصيين .

وبعد فقد دخلت الشام في العهد الحديث عدة ضروب من الزروع والغراس لم تكن له فيه من قبل مثل الشوح . الأوكالبتس . الأكاسيا . المشمش الهندي . البننورة (الطماطم أو القوطة) والبطاطا فكان منهما فائدة جلي وأصبحت البننورة والبطاطا من أهم أنواع التغذية ، وسرعان ما انتشر الغرام بهما وعمت القاصية والدانية زراعتهما .

الأشجار غير المثمرة :

كانت الشام مشهورة بسروها وصنوبرها وأرزها ، ويقول الشجارون : إنه كان في غوطة دمشق ألوف من أشجار السرو انقرضت ، وأدرك الغزي في حلب من شجر السرو الهرمي والصيواني أشجاراً قليلة ثم فقد عن آخره ، وكان يوجد منها بكثرة ، وأحسن الجبال في الشام التي احتفظت بغاباتها بعض الشيء جبل لبنان ، فإن الصنوبر والأرز فيه كثير . وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ، ولأن من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة

في بيت لحم ، وقالوا: إن الآشوريين والبابليين والفرس والمصريين استعملوه في قصورهم وبناء هياكلهم واستعمله الإسكندر المقدوني في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ من مدينة صور وكذلك السلاسة أدخلوه في بناء دورهم . وكانت أخشابه تحمل إلى طرابلس وصيدا وصور وبيروت وتعمل منها السفن وفيها عمل معاوية أساطيله لغزو الروم . وما برح كثير من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من مملكة إلى أخرى . وهو عطر الرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم إذا مسسته بيديك ، ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبت به الأرضة ولا يفعل فيه السوس . والغالب أن الحكومات السالفة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزنتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح باحتكار غيره وبدأ النقص في هذه الأشجار منذ خمسة قرون وقد احتاج اللبنانيون إلى الاحتطاب للدفع والعمارة ، وكانوا يسمون رزق الرجل أشجاره ، وإذا غضب الحاكم على أحدهم يقطع شجره فيقولون في أمثالهم الدارجة (الله يقطع رزقه) أي شجره كما يقولون (الله يخرب زوقه) أي بيته ، وربما أسرع اللبنانيون في احتطاب شجر الأرز وغيره لثلاث تصدعهم الدولة العثمانية كما أن كثيراً من القرى في القاصية كانت أيام الأعشار تقطع التين والكرم وغيره من شجر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين يتقاضون العشر من الشجر أثمر أم لم يثمر على ما تقدم .

ولم يبرح شجر الأرز مشاهداً في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأهل ، وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو ، لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك الأرجاء ، ومنها ما غرس حديثاً ، وثالثة فوق قرية عين زحلنا ، وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه ، ورابعة بين أفقا والعاقورة في جرد جبيل من جبل كسروان ، وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتا نحو عشرة آلاف ، وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى

وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع طولهما خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . وفي تسريح الأبصار أنه لا أثر اليوم في الشام لشجر الأرز إلا في أعالي سير بالضنية في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر . وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب Sapin على أن في جبال قره مورط لإحدى شعاب جبل اللكام من عمل أنطاكية غابات من الأرز وغيره من فصيلته . ولو توفرت العناية بأمثال هذه الأشجار وقضت الحكومة على كل فلاح أن يغرس ويتعهد عشر شجرات منها ، إذاً لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا بأشجارها الغضة الملتفة ، تحسن المناظر والمناخ ويكون منها عموم النفع ، كلما وقع القطع منها في ثلاثين سنة كما تجري فرنسا في غابة فونتينبلو وغيرها من غاباتها البديعة المشهورة . ولا تكون في جمالها أقل من شجر الأرز الذي يكسو نجاد جبال طوروس (الدروب) ووهادها فترى فيها تلعة مستطيلة إلى جانبها تلعة هرمية وأخرى ذات شكل بيضوي وغيرها المحلودب والمربع أو قائم الزوايا ومنفرجها وكلها مزينة بالأشجار .

يقول كاتب جلبي من أهل القرن الحادي عشر : إن غابات الشام كثيرة أشهرها غابة عسقلان وهو حرج كبير يمتد إلى نواحي الرملة . ومن الغابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا تمتد إلى عكا وكان يقال له غاب قلنسوة وهذا الحرج يمتد من قاقون إلى عيون التجار ، ومن الحراج حرج القنيطرة ، وفي أطراف حلب عدة غابات وخصوصاً الغاب الكبير ويقال له الزور وأكثر شجره التوت اه . ولقد ثبت أن الغابات كانت في القرون السالفة أكثر من اليوم وأن معظم جبالنا التي نراها اليوم جرداء كانت خضراء وأن التجريد من الغابات وقع في أدوار مختلفة فقد ذكر ابن حوقل أن جبل قلمون وجبل المانع وجبل الشيخ المحيطة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من أشجارها قال : إنك إذا كنت في دمشق ترى بعينك على فرسخ وأقل جبالاتاً قرعاء من النبات والشجر وأمكنة خالية من العمارة .

وتجريد الشام من غاباته دعا إلى زيادة مساحة عدد البطائح والمستنقعات وتأليف صحار من الرمال فقد قالوا : إن الظلال كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة أو

ثمانية كيلو مترات فأصبحت اليوم عبارة عن كثبان من الرمل . وهكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر فأبقت فيها الرمال وألقت منها بطائح ومغايض وأفسدت الأراضي العامرة . ولهذا النظر قلّ ولا شك مساحة المزروع من أرض الشام سنة عن سنة والمستنقعات معروفة ضررها بحياة الفلاح وإن كانت أقلّ من الكثبان والحرار . وضرر المستنقعات يتناول الأنفس لما ينبعث عنها من الحميات التي كثيراً ما رأيناها تقفر قرى برمتها من سكانها . وقد قال الزراعي أرزنون : إن أهم الآفات التي ابتليت بها الغابات ثلاث : الرعي المتبادل وحق المرعى في الأراضي الخالية والحيوانات الصغيرة . ولا سيما الماعز وفأس الخطابين . ونسب خراب الغابات في فلسطين - وسائر الشام تتصرف عليها - إلى إصداًر الخشب والتبن والسماذ إلى الخارج ، وقال : إن الريح من إصداًرها لا يوازي خراب الغابات وقلة غذاء الحيوانات وبوار الأراضي بقلة السماذ والسباخ .

الأشجار المثمرة وغيرها :

وكانوا يتفننون بتسمية الفواكه والبقول والورود . قال البدرى : والعنب في دمشق فقط أصناف : البلدي . خناصرى . عاصمي . زيني . بيتموني . قناديلي . إفرنجي . مكاحلي . بيض الحمام . حلواني . بوارشي . جبلي . قصيف . ابراز الكلبة . قشلميش . كوتاني . عبيدي . شحماني . جوزاني . دراقني . مسخ العصفور . عرايشي . رومي . شيهي . ينطاني . عصيري . رناطي . ورق الطير . سماقي . حرصي . مجزع . شعراوي . دربلي . قاري . علوي . عينوني . مورك . مشعر . مسط . مرصص . محضر . مقوس . حمادي . تفاحي . رهباني . زردي مبرد . مخصل . مغاربي . شحمة القرط . وقسم المشمش إلى أحد وعشرين صنفاً وهي : حموي . سندياني . أويسي . عربيي . خراساني . كافوري . بعلبكي . لقيس . لوزي . دغمشي . وزيرى . كلابي . سلطاني . حازمي . أيدمري . سنيني . بردي . ملوّح . قرط البخاتي . جلاجل القلوع . الخ . ووصف العماد الكاتب المشمش الدمشقي فقال : طلعت في أبراج الأطباق كأنها كرات من التبر مصوغة ، وبالورس مصبوغة ، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية ، حلا

منظراً وذوقاً ، ولو نظم جوهره لكان طوقاً ، كأنما خرط من الصندل ، وخلط بالمندل ، وجمد من الثلج والعسل ، وتصاحب هو والسultan في الركوب والجلوس ، والتناجي بما في النفوس .

وقال البدرى : ومن خصوصيات دمشق « الطرخون » من بقول المائدة وكان يخرج فيها السذاب والرشاد وبقلة الحمقاء والماش والهندباء والكرابيا والتوت الأسود والشامي . وكان يكثر فيها الكراز والوشنة وهو فيها سبعة أنواع . وذكر أن الورد جنس تحته ستة أنواع بدمشق ومنه الجوري والنسريني ، والزرجس جنس تحته أنواع منها اليعقوري والبري ، والمضعف وذكر مثورها وزنبقها وأذريونها وآسها وحبه وربحانها ونيلوفرها وبانها وجيلانها وزنزلختها وتمر حنائها وقراصيها وكثيراها (ثلاثة وعشرون صنفاً) وتفاحها ودراقها (ستة عشر صنفاً) وخوخها (ثلاثة عشر صنفاً) إلى غير ذلك مما كان في القرن التاسع .

الصناعات الزراعية القديمة :

وكانت الزهور والورود من أهم فروع الزراعة ، وللطيبوب والعطور ومستقدرات الزهور ، شأن وأي شأن منذ الأزمان المتطاولة . وكان للأقدمين على ما يظهر غرام شديد بالملاب العطر المائع والكباد اليابس ، ويستعملون المسك والعنبر والزعفران كثيراً ، ويولعون بالعرف والأريجة ، وكان لهم طيب يقال له الغالية وهي مسك وعنبر يعجنان بالبان قال ابن سيده : ويقال إن الذي سماها غالية معاوية بن أبي سفيان وذلك أنه شمها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال : هذه غالية . وقد حفظ لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن شيئاً من الإشارة إلى كثرة الورد والزهر في دمشق فقال : إن العطر وغيره كان يستخرج في المزة من ضواحي دمشق من زهورها وورودها حتى إن حراقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألدّ من المسك إلى مدة انقضاء الورد . وذكر صفة إخراجه في الكركات والأنبيق ورسم صورها - والقرع والأنبيق آلتان لصنع ماء الورد السفلى هي القرع والعليا على هيئة المحجمة هي الأنبيق - قال : وغير هذه الكركة كركة أخرى يستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب وذلك

بعد حشو القرع بالورد وبلسان الثور وبزهر النوفر أو البان أو زهر النارج والشقيق والهندباء أو بورق القرنفل المزروع بدمشق .

قال: ويحمل الورد المستخرج بالمزة إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك وكذلك يحمل زهر الورد المزي إلى الهند وإلى السند وإلى الصين وإلى ما وراء ذلك ويسمى هناك الزهر . ومما أرخوه إنه كان لقاضي القضاة الحنفية ولأخيه الحريري قطعة بأرض تسمى سُور الزهر طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً بائنين وعشرين ألف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثله اه .

وكانت حلب في القديم مختصة بماء الورد النصبي الذي يستخرج بالباب من أعمالها قال ابن الشحنة: إنه لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه مع أن المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه أطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي . وينبت في أرض حلب زهر القرنفل وكان يستقطر ماؤه . واشتهرت في القديم زهور لبنان وما إليه من الجبال كجبل الشيخ فإنها كثيرة مبذولة في الربيع شأنها في مراعي الجولان والعمسق والبقاع والبقية كما اشتهرت طيوب البلقاء وصموغها وكانت تحمل إلى مصر . وقلّ اليوم من يلتفت إلى هذه الصناعات الزراعية .

ومن صناعاتهم الزراعية في القديم السكر وكان يعمل في القديم على ضفاف الأردن ولا تزال معاملته في جنوبي الغور تدعى إلى اليوم مطاحن السكر ، وكان السكر أكثر مستغل تلك الناحية يحمل إلى الشرق والغرب . وكان يصنع السكر في أنطاكية وطرابلس وعكا وبافا ويحمل منها إلى الآفاق . قال القلقشندي من أهل القرن التاسع : في الشام يعمل السكر الوسط والمكرر . وكانت زيوت الشام كخمورها تصلر إلى القاصية . ويعصر السليط أي دهن السمسم في دياف من حوران وبه اشتهرت . وكان الصابون الحلبي والنابلسي وغيره مما يفيض عن حاجة القطر يباع منه في الأقطار الأخرى . وكان الجبن الكركي مشهوراً يصلر إلى مصر . وقد قامت الحكومة العثمانية إبان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات والمربيات في دمشق فتعمل الحساء ذروراً ثم يذاب في ماء حار وقت الاستعمال فيأتي كأنه طبخ الساعة واستخرجوا من العظام مرقاً معقماً . وأخذوا يعملون

من الثمار والبقول مجففات ومحضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة عهد بالقطف من الشجرة أو المسكبة . وبلغ عدد البقول المربية عشرة أنواع كان يتناولها الجندي في كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق والمباقل والمقاني . واستخرجوا في معامل الفيلق بدمشق أشربة كثيرة من ماء الزهر وماء الورد وشراب قشر الليمون وقشر البرتقال تجعل أرواحها في زجاجات وتكفي القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل في أشربة الجيش ولا سيما في مستشفيات البادية . وبالجملة فقد كان لتعقيم السوائل واستخراج الأشربة وتجفيف الثمار والبقول وخبز الأخباز بالآلات الكهربائية الصحية شأن لم يعهد في الشام ثم تنوسي بعدهم .

ومن صناعاتهم العسل وكانوا يغالون بأكله كثيراً واشتهر عسل سنير وجبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك وجبنها وزيتها ولبنها، قال ياقوت: ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل . وكانت بيسان توصف بكثرة النحل ، والنخيل مما يوجد في الأغوار وكان كثيراً في القديم والشاميون يعنون بتعهده من وراء الغاية . ويظهر أن العسل والزعفران والديبس والقنود والتمور كانت مما يعول عليه في الأطعمة والحلواء أكثر من اليوم . ولدينا وثيقة في بعض المأكولات ذكرها أبو القاسم الواساني من شعراء اليتيمة الدمشقيين نظمها منذ نحو ألف سنة في وصف جماعة زاروه في قرية جمرايا على مقربة من الهامة في غربي دمشق ، ومما جاء فيها ما أكلوه من الأطعمة وفيه إشارة إلى كثرة أنواع التمر :

أكلوا لي من الجرادق ألفية — سن بين^(١) تشتاقه العارضان^(٢)
 أكلوا لي أضعافها غير مشطو ر^(٣) ومالوا إلى سميذ^(٤) الفران
 أكلوا لي من الجسداء ثلاثي سن قرّبصاً بالخسل والزعفران
 أكلوا ضمهفها شواءً وضعفها سها طيخاً من سائر الألوان
 أكلوا لي تبالسة^(٥) تبت عفا لي بعشر من الدجاج السمان

(١) البن: ضرب من الكوامخ وهي المخللات تستعمل لتشهيه الطعام .

(٢) العارضان: شقا الفم .

(٣) المشطور: الخبز المطلي بالكامخ .

(٤) السميذ: بإعجام الدال وإهالها هو الحوارى أي الدقيق الأبيض .

(٥) التبالسة: ضرب من أطعمتهم والتابلج التوابل أبرز الطعام . وتبت عفا أسقمته .

أكلوا لي مضيرة^(١) ضاعفت ض
 أكلوا لي كشكية^(٢) قرحت قل
 أكلوا لي سبعين حوتاً من النه
 أكلوا لي عدلاً من المالح المش
 أكلوا لي من القريشاء^(٤) والبر
 ألف عدل سوى المصقر^(٦) والبر
 أكلوا لي من الكوامخ^(٧) والجو
 ومن البيض والمخلل ما تع

ومن صناعاتهم الزراعية صناعة الصابون وكانت من أنجح الصناعات القديمة ومصابنه في حلب وكلز وإدلب وأنطاكية ودمشق وناپلس وطرابلس واللاذقية وحيفا ورام الله وبعض قرى لبنان . وخير الصابون وأشهره اليوم الصابون النابلسي فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره أو أن السر في جودته إتقانه ببلون غش . ومنذ أفلتت الصناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال أهلها انحطت في دمشق صناعة الصابون فقد كانت له أماكن خاصة لتجفيفه وكانوا لا يبيعونه إلا بعد ثلاث سنين من صنعه ويصدر إلى أقطار العالم وثمنه يزيد خمسين في المئة على سائر أنواع الصابون وكنت إذا غسلت به الثياب تجد من رأتحتها ما ينعش قلبك

(١) المضيرة : مريقة تطبخ باللبن المضير أي الحامض وهي أشبه باللبنية أو لبن أمه أو الشاكرية اليوم .

(٢) الكشكية : طعام يعمل من الكشك (بفتح الكاف) والعامة تكسر كاهه يعمل من جريش الحنطة واللبن الحليب ويترك أياماً حتى يختمر فيكون منه ذرور يعمل كالحساء ويطبخ باللحم أو بالزيت وقالوا فيه :

الكشك شيء خبيث محرك للسواكن
 الأصل در وبر نعم الجدود ولكن

(٣) الأنجدان (بإعجام الدال وإهاها) : ورق شجرة الخلتيب .

(٤) البجن القريش كأمير : أي اليايس الشديد كما في التاج والذي نعرفه أن القريشاء والقريش يعمل من الدر ويختمر ويبقى طرياً كالزبد والقشدة .

(٥) البرني والمعقلي والصرقان والبردي واللؤلؤي والصيحاني : ضروب من التمر .

(٦) المصقر : المدبس .

(٧) الكوامخ : المخلات .

(٨) الخلاط : ضرب من المشهيات والمخلوطة طعام من أنواع شتى .

من الروائح الذكية ، والآل بييعون الصابون الدمشقي أخضر بدون تجفيف ويزاحمه في عقر داره الصابون الغربي لخصه وهو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص ، وعسى أن يرسل صناع الصابون في نابلس وطرابلس ودمشق وحلب وعكا وحيفا إلى أوروبا من يدرسون المادة التي تدخل الصابون الغربي فتزيد رغوته أخضر كان أو يابساً ، يعيدون إلى الصابون البلدي رونقه السالف ويخلصون من النكهة الخبيثة في الصابون الغريب .

معادن الشام وحماتها :

وخليق بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح الأرض من الخيرات الطبيعية إلى هذا الحد ، أن لا نغفل الكلام على ما حوى بطنها من المعادن والأمواه النافعة . فقد أجمع المتقدمون أنه كان فيها معادن حديد في لبنان كان قدماء المصريين يحملونها إلى قطرهم ، وأجمع المحدثون الذين بحثوا عن طبقات الأرض وتركيبها على أن الشام خالية من الفحم الحجري وما وجد منه لا يوازي ثمنه ما يصرف في تعدينه ، وفي لبنان طبقات القضة Gres فيها فحم خشبي متحجر (لنيت) يمكن استثمارها وفي قرطبا وميروبا والمنيطرة مناجم من هذا الحجر الخشبي وأشهر طبقاتها الفحم الخشبي المتحجر في قرنايل ، وقد صار الاعتناء باستخراجه من سنة (١٨٣٥ إلى ١٨٣٨ م) ، ومن مناجم هذا الحجر منجم مارشينا وفالوغا وبزبدین وجزين وزحلتا وعين الثغرا وحيطورة ويجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيتية للوقود .

والفحم الحجري ونظنه من نوع الفحم الخشبي في جبل البشر وأبي فياض شرقي حلب وذكر ياقوت أن في جبل البشر ويمتد إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية أربعة معادن: القار، والمغرة، والطين الذي يعمل منه بواتق لسبك الحديد، والرمل الذي يعمل منه في حلب الزجاج وهو رمل أبيض كالاسفيداج . وللحمّر مناجم في عينبل وحريقة في جبل عامل وفي أرجاء مرجعيون ، وأشهرها منجم حاصبيا ، كان يستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل واحد منها ١٠٠ كيلو وكان السلطان عبد الحميد الثاني يستثمره لنفسه ، وبعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقلّة اليد العاملة واضطرت أن تهمل معدن سحمر

في البقاع وغيره من المعادن في الشام . فأضر لإهمال الحُمَرَّ بأرباب الكروم فتصاعدت أثمانه وهو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فلحقته اللودة من أجل ذلك وقلت مداخيله . وفي الناس بين حمص وتدمر معدن للحمر يكاد يوازي معدن حاصبيا بصفائه . وفي المقارن بين درعا وسمخ مناجم كلس ممزوج بحمر، وكذلك في أرباض تدمر وفي الصلت ووادي اليرموك . قال المقدسي : إن في الشام جبال حمر يسمى ترابها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح . ومعدن الحديد كثير في قضض لبنان وأتربته ، وعلى سطح الجبال وبطن الأودية ، لا سيما في أرجاء البترون وكسروان والمتن وفي قرية دومة وبيت شباب وفي عكار ومشغرة والفرزل ومجاري الأنهار مثل نهر الكلب ونهر إبراهيم . ومن هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التي كانت في تلك الأرجاء ، والمانع من استثمارها اليوم قلة الوقود أي الفحم الحجري ، والحطب لا يفي بهذا الغرض على نحو ما كان الحال إلى عهد قريب .

وأهم مناجم الحديد في برمانا وبحملون ووادي النهر الكبير حجر الصفار (الكروم) وفي جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة وفيها رصاص ممزوج بالفضة وخشب فحمي ونيكل وكان في القديم في ناحيتي باير وبوجاق معدن حجر الصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن ولم يبق له أثر ، ويوجد حجر الصفار على شواطئ بحيرية طبرية ومن نوع البيريت واللانيت في برتي وكفر سلوان ومرجبا وفي راشيا وسفح جبل الشيخ الغربي وجنوبي حاصبيا وفي عين اللبوة وعين عطا وشوايا وعين قني والروج والكفير .

والنحاس في قرية اهمج في كسروان وفي الجنوب الغربي من حلب وكان منه في عين جبر فأكدى لكثرة ما استخرج منه ، وكان النحاس الأحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من حلب . وذكر كاتب چلبلي أن في بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل إلى الأطراف فيباع ويحمل إلى السودان والحبشة من أسورته ويقايض عليها بالتبر .

واستثمر معدن الفحم الحجري في مرجيليا في لبنان أثناء الحرب الكبرى

لوقود السكك الحديدية واستخرج منه (١٩١٦) ما يقارب ١٣٠٠ طن . وذكروا أن الطبقات الفحمية في لبنان وجدت في نبحا ، المراح ، كركبا ، زحلنا ، عيبه ، عرمون ، جمهور ، عين تراز ، بحملون ، القرية ، رأس الحرف ، مرجيليا ، بتبيات ، مارحنا ، الكنيسة ، عين موفق ، قرنايل ، جورة أرسون ، بزبدين ، رأس المتن ، ترشيش ، جوار الجوز ، حيطورا ، عين تدجورا ، عين زحلنا ، صيدنايا ، قيتولة ، بكاسين ، جزين ، حمصية ، مشغرة ، قرطبا ، حدث الجبة ، مزرعة بيت ابن صعب ، الديمان ، الفنيات . ومنه الرديء الذي لا بال له .

وفي جهات أبو فياض على ٨٠ كيلو متراً من حلب فحم حجرى رديء من اللينيت كما أن منه في جهات حوران وفي قرية عرنة من إقليم البلان معدن الفحم الحجرى قيل : إنه لم ينضج وفي حضر من إقليم البلان معادن أخرى براقه . وفي جبال الكرك كثير من أنواع المعادن قصدها مؤخراً كثير من معدني الإنكليز لتحليلها ومعرفة أنواعها . والبتروك (زيت الكاز) حول البحر الميت . وفي أرسوس على عشرين كيلو متراً من الإسكندرونه وفي وادي صقلاب من أعمال الكورة في شرقي الأردن وفي المزيريب من عمل حوران وفي أرجاء الإسكندرونه معدن غاز سائل جرى تعديته فلم يأت بفائدة . وفي أرجاء طرابلس معدن المغرة ونوع من الصبغ الأصفر Ocre jaune .

ويوجد الكبريت بكثرة في جهات الباروك وفي قرية عنجرة من جبل عجلون وفي أرجاء البحر الميت وبالتقرب من حمة عفرة في الطفيلة معادن الكبريت والقصدير والبتروك والنفاس وفي رأس العين من عمل الزور وفي أماكن جبلية عديدة ولا يصلح للاستعمال لامتزاجه بمواد غريبة فحمية وحديدية . ويوجد الزاج في حارم ، والنيكل ومنه الفاخر في جبل الأقرع ، والفوسفات في جبال السرو بين الصلت وعمان حسب نفقات استثماره فأوا أنها لا تنفي بها وارداته فترك وشأنه . والفوسفات موجود في شمالي يبرود وبعض جهات فلسطين . والبوتاس حول البحر الميت والاسفلت في جبل الأكراد على ثلاثين كيلو متراً من اللاذقية (في قرى كفرية وقصاب وخربة السولاس) ويقال : إنه أغنى منجم عرف من نوعه . وكان في مقاطعة جرش في أرض تسمى تلؤل الذهب معدن ذهب جاء في الكتاب المقدس أن سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها . وفي

الجنوب الشرقي من تدمر وفي أرجاء أنطاكية معادن ذهب ولكنها شحيحة .
وتكثر الفضة في جبال اللاذقية وشمالى بعلبك ومصيف وعلى ضفاف العاصي
فيما يلي أنطاكية معدن ذهب ومعدن رصاص فضي ومعدن إثمء وحجر الكحل
ومعدن فحم ومعدن الطفال المعروف بالبيلون في أرجاء كلز وأنطاكية ، وفي
جبال قره موط لإحدى نواحي أنطاكية عدة معادن تستعمل للصيغ وفي جبل بارسال
من أعمال كلز معدن مرمر أصفر .

وكان في قرية يعفور من عمل دمشق معدن فضة قاله شيخ الربوة ، وبأرض
حدث من جبل لبنان جوسية فوق كرك نوح يلتقط حجارة زلطية تكسر مرقشيشا
وكل معدن مائل باللونية إلى لون ما هو قسمه ، وعد الخوارزمي المارقشيشا من
عقايرهم فقال : ومنها مربع ومدور وقطع كبيرة غير محدودة الشكل وهي
ضروب فمنها أصفر يسمى الذهبي وأبيض يسمى الفضي وآخر يسمى النحاسي .
ويوجد الملح في مواضع كثيرة ولا سيما في جهات تدمر وجيرود وحماة
والخليل وحوالى البحر الميت . وملح جيرود فيه مرارة وأجوده ملح الجبول .
وفي حلب عدة ملاحات وأعظمها ما كان في جوار قرية جبول على شكل مخروطي
عظيم لا تظاف أطرافها في أقل من ثماني عشرة ساعة يجمد ماؤها في شهر أيار
إلى تشرين الثاني فيكون في هذه الفترة ملحاً ، ويسمى هذا النهر نهر الذهب
يجري من ناحية باب بزاعا إلى أن ينتهي إلى سبخة الجبول في مساكب يعملها
أهل الجبول والقرى المجاورة لها ، وكانوا يقولون إن هذا النهر سمي نهر الذهب
لأن أوله بالقبان وآخره بالكيل ، أي أنه تزرع في أوله الجبوب كالحبة السوداء
والأنيسون والكراويا وأنواع الفواكه مما يباع بالرطل ، وآخره الملح الذي يباع
بالكيل .

ويوجد الزئبق في أرض أنطاكية وغيرها ، قال شيخ الربوة : إن معدن الملح
الأندراني كان يستخرج من أرض سلوم عند بحيرة لوط وكيف ما تكسرت
حجارته ما تكسرت إلا فصوصاً مربعات الزوايا . ويوجد النحاس في ناحية
الصور على نهر الخابور ومعدن السوديوم في البصرة والصور والشدادى والقصي
ويعرف باسم بارود القصي . والرصاص في أنطاكية والمغرة في جهات حلب
وعمان والجبص (الجبس) في جهات جيرود وصافيتا وعكار وطرابلس .

والرخام الأصفر في جبل الجرمق من عمل صفد وعلى ساعتين من مادبا جبلاان أصفر وأحمر والحجارة الكلسية على كثرة في جميع الأرجاء ، وأهم أنواع الحجارة الكلسية الرملية الحواري والرخام السماقي والجنس المدعو « شحم بلحم » وأجمل المقالع ما كان في جوار حلب وفي جبل باريشا من عمل حارم وهو رخام أصفر ومن أجملها الحجر المزي وهو يضرب إلى الصفرة يستخرج من مقلع المزة قرب دمشق والحجر العربي وهو أحمر يستخرج من مقلع معربا في قلمون كما يستخرج من مقالع تلفتا حجر هش وهو شديد البياض يعتملون عليه اليوم في البناء بدمشق لسهولة نحته وتكثر مقالع الحجر الرملي في منحدرات لبنان السفلي وعلى الشواطئ البحرية ولونه أصفر . وجميع البنيان من صور إلى طرابلس مبنية بحجره وهو سريع التفتت سهل النحت لدى خروجه من المقلع ويتصلب في الهواء ويصلح للملاط أكثر من الحجارة الكلسية الجميلة . والحجارة الكلسية ذات تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها أبيض كامد تتحول بمرور الزمان بفعل أشعة الشمس إلى شيء من الصفرة الذهبية ولذلك كانت أبنية حلب وبيروت بهذا الحجر الجميل من أجمل أبنية الشام ، واشتهرت الداروم في القديم برخامها قال الرحالة ناصر خسرو : « والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الأبنية والدور مغطاة بصفائح من الرخام مرصعة بإتقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبرمل تلك الديار ، وبالممنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد كما تقطع الدفوف من شجره . ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه المجزع (المبقع) والأخضر والأحمر والأسود والأبيض وبالجملة من مختلف الألوان اه » .

هذا أهم ما في بطن الشام من المعادن ومهما كانت حالها فهي وافية بحاجة أهلها ولكنها لا تمنح ألباناً غيرنا كالمعادن المشهورة في العالم بذهبها وفحمها وغير ذلك ، ومعادننا تجزئنا إذا استثمرناها بعض الشيء .

الحمات الشامية :

الحمة (بفتح الحاء وتشديد الميم) العين الحارة يستشفى بها الأعداء والمرضى ،

وفي الحديث: العالم كالحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء ، فبينما هي كذلك إذ غار ماؤها ، وقد انتفع بها قوم وبقي أقوام يتفككون أي يتندمون . فالحمة هي ما يعرف اليوم بالحمامات المعدنية تكثر في أرض الشام البعيدة عن الساحل ، وأهمها حمامات طبرية على شاطئ البحيرة ، تنفع النساء في الأمراض التناسلية وتشفي الأوجاع الحادة المزمنة وأمراض الرثية والنقرس والبول السكري وأمراض أعضاء التناسل والمرءة السوداء والتهاب قصبه الرئة المزمن وبعض الأمراض الجلدية وغيرها .

قال أبو القاسم في وصف حمة طبرية : وفيها عيون ملححة حارة وقد بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج إلى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبقرها حمة يغتمس فيها الجرب اه . ويجري الماء إلى الحمامات من أربع عيون حارة وأهمها ما بناه إبراهيم باشا المصري وهو في الشمال ويعرف باسمه وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وعليه قبة عظمى ، وهي مثقوبة بثقوب أسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالميزان المثوي وهو صاف يراق في الحملة ملح الطعام مرّ مهوَّع وتنبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت أو رائحة بيض فاسد ، وهذه الحمامات ملك الحكومة تؤجرها وموسم الاستحمام فيها من أول كانون الثاني إلى آخر حزيران .

ومنها « الحمة » حمة جندَر في وادي اليرموك على الخط الحديدي عند الكيلو متر ٩٣ و ٩٥ تنفع في أمراض الجلد وغيرها وهي مياه معدنية حارة تنبجس غزيرة وتجري إلى نهر الشريعة وهي ثلاث حمامات يبعد بعضها عن بعض بضعة دقائق يدعى أحدها « المقلّي » أو « حمام سليم » درجة حرارته ١١٩ والآخران « حمام الجرب » وحرارته ١٠٨ ، أو « حمام الريح » وحرارته ٨٢ بميزان فارنهایت وعندها آثار الحمامات الرومانية وبقرها ملعب عظيم وهو ملعب جندر المشهورة في الجاهلية والإسلام قال أحد واصفها : « ولا أبلغ إذا قلت إن معدل قاصديها في شهر نيسان لا يقل عن عشرين ألفاً يقيمون أياماً تحت حر الشمس وهبوب الريح لا بيت يؤويهم ولا نزل يكنهم ، فإن كان قاصدوها يبلغون هذا العدد وهي فقراء خربة في شهر واحد فكم يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة وأبنية وفنادق وما به تستتب لهم الراحة فيه أبلغ إذا قلت إنهم يزيدون على المائتي ألف ؟ » .

وحمة زرقا معين في شرقي الأردن تبلغ درجة حرارتها ١٤٢ بميزان فارنهایت والمالح في قرية تياسير في غور الأردن من أرجاء نابلس درجة حرارته ٩٨ ف وحمة أبي ذابلة بجانب فحل وحمة أبي سليم في المهدي من أرض صنمة ، بقرية سحم الكفارات وحميمة يزور النيص من أرض صنمة أيضاً ودرجة حرارتها فوق ١٠٠ ف أما حمامات طبرية فدرجة حرارتها ١٤٤ ف وماء حمة جدر عذب جيد الطعم يشرب سخناً وبارداً بخلاف طبرية .

وحمة أبي رباح من عمل ناحية القريتين في حمص تنفع في الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج خاصة . وحمة ضمير في جبل قلمون كبريتية ، وحمة أرك في جهات تدمر ، وحمة أنطاكية وهي كبريتية وفيها مغنيزيا أيضاً . وحمة إسكندرونة بين حلب وإسكندرونة على الطريق . وحمة جسر الشغفر وحمة زرقا معين في البرك وهي ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها ويقصدها السياح من الفرنج كما يقصدون حمة عفرة من بحيرة لوط . وحمام النبي داود في وادي الحسا . وذكر ابن الشحنة أن في السخنة من أعمال قنسرين خمسة حمامات ينتفعون بها من البلغم والريح والجرب . وبناحية العمق حمة أخرى . وبكورة الجومة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجري إلى الحمة والحمة قرية يقال لها جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التي تصيبهم . قال الغزي : إن في أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية حارة لو جمعت إلى حوض لكانت حماماً عظيماً . وفي سنة (١٣٠٠) بنت بلدية حلب على بعض هذه العيون خلوة وصارت تؤجرها .

وذكر شيخ الربوة أن بين حمص وسلمية كهفاً في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم فإذا دخل الإنسان ذلك الكهف خُيل إليه أنه في الحمام لشدة الوهج وكثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البئر الذي في وسط الكهف ويسمع غليان الماء بقعر البئر ولا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر ومن نظر فيه يشيط من الحرارة . ولعله يقصد بذلك حمام أبي رباح . وظهر مؤخرأ على كيلو مترين من قرقخان من عمل إسكندرونة نبع ماء معدني درجة حرارته ٤٣ فهافت الناس على الاستحمام به .

هذه أهم حمّات أو حمامات الشام المعدنية وأكثرها كما رأيت لا يتنفع بها الانتفاع المطلوب ، وحالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها ولا أبنية للمستحمين حوالها . وقد عرف من تاريخ الرومان أنهم كانوا يُعنون من وراء الغاية بالحمامات المعدنية ، فكانوا يبنون عليها أبنية بحسب مصطلحهم ، ولكن لم نر أن العرب في هذه الديار عنوا بشيء من هذا القبيل اللهم إلا إذا كان ضاع عنا خبره لقلة التدوين . ولو أنها وقعت العناية اليوم بحماتنا على النحو الذي تنتفع به بعض الأصقاع التي تنبجس فيها مياه معدنية من إقامة المستحمات والمنازل لتزول طلاب الاستحمام وتديرها تديراً جديداً مرفهاً صحياً لكان منها منافع كثيرة لأبناء الشام ومورد أرباح لها تأتي من ألوف من الغرباء والقرباء يقصدها للانتفاع بها ويصرفون في جوارها أياماً وشهوراً يجعلون عليها مقاصير للتغميز والتمسيد ، وأخرى للتعريق ، وغيرها للتبريد ، وفنادق فيها شروط المدنية الحديثة ، وحدائق وغيابات تفرس بالقرب منها تحسن المناخ وتجميل المناظر الطبيعية

نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة (١)

أقاليم الشام :

أولاً - لا تقل حرارة غور الأردن عن مثلها في بعض الممالك العربية الحارة كالعراق ومصر . ففي إحدى السنين كان معدل الحرارة السنوي في طبرية $21/70$ درجة وهو لا ينقص عن $21/5$ درجة وقد يبلغ أكثر من 22 درجة لا سيما في مناطق الغور الجنوبية . ولما كانوا يحسبون معدل الحرارة السنوي في القاهرة $21/5$ درجة وفي بغداد $22/8$ درجة كانت حرارة الغور كافية لنمو كثير من الزروع والأشجار التي أغنت مصر وستغني العراق وأعظمها شأناً القطن . ويفضل إقليم الغور أقاليم مصر والعراق في أن أمطاره قلما ينقص ارتفاعها في السنة عن 300 ميليمتر ولهذا يمكن زرع الحبوب الشتوية فيه عذياً ، على حين لا يستطاع ذلك في مصر وفي معظم العراق لقلة الأمطار فيهما .

(١) كتب الفصل التالي الأمير مصطفى الشهابي .

ثانياً - ليست سواحل الشام أنقص شأناً من الغور من الوجهة المذكورة فمعدل الحرارة في حيفا ويافا وبيروت قلما يقل عن ٢٠,٥٠ درجة ولهذا يوجد في الساحل كثير من النباتات التي تتطلب حرارة عظيمة كالقطن مثلاً لكنه لا بد من إسقائه في كلا الإقليمين .

أما السهول ففي بعضها من الحرارة ما يكفي لنجاح القطن وهي التي لا تعلو كثيراً عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر وسهل الغاب شمالي حماة وسهل العمق وإدلب ، ويجب الري إلا في إدلب والعمق . أما في السهول المرتفعة كالغوطة وهوران والبقاع فالقطن ينتج محصولاً متوسطاً إلا أنه لا يجد من الحرارة ما يكفي لتفتح كل ثماره . ولهذا قد لا يأتي زرعه فيها بفائدة من الوجهة الاقتصادية والواجب أن لا يحل القطن مكان القنب في الغوطة مطلقاً . هذا ومن العبث البحث في زرع الأقطان في إقليم الجبال كسهل الزبداني وسفوح سنير وغيرها لأن نصف ثماره لا يتفتح هنالك لقلّة الحرارة. هذا ومن العبث أيضاً البحث في تعديم زرعه في سهول البلقاء وهوران ووادي العجم وحمص وحماة وحلب الشرقية في البعل من الأرض ، لقلّة الأمطار السنوية واختلاف مجموعها بين سنة وأخرى وإن نجحت زراعته بلاري في بعض قرى حوران كقرية الحراك في وادي الزبيدي ضربت مثلاً بها لأنها مجتمع مياه أرضية وحالة كهذه لا تصلح للقياس .

ثالثاً - ليست مقادير الأمطار واحدة في مختلف مناطق الشام . فأغزرها في السواحل دائماً . فقد دلتنا قوائم رصد الجو في مرصد الجامعة الأميركية في بيروت على أن ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ٧٠٠ ميليمتر في أكثر السنين وأنه يبلغ ٩٠٠ ميليمتر أحياناً وهو رقم كبير . وثبتت أن ارتفاع الأمطار في حيفا ويافا يزيد على ٥٥٠ ميليمتر في أكثر السنين . وهكذا في باقي سواحل الشام ، وفي المناطق القريبة من الساحل . أما السهول الداخلية وهي أعظم المناطق شأناً وأغناها تربة وأوسعها مساحة ، فارتفاع أمطارها يختلف بين ٢٠٠ و ٥٠٠ ميليمتر في السنين العادية . ولما كان ارتفاع المطر الضروري لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ٢٥٠ ميليمتر اتضح أن منتوجات الحبوب في تلك السهول تختلف اختلافاً كبيراً من سنة إلى أخرى ، تبعاً لمقادير المطر المنهمر ولتواريخ هطله في خلال السنة . وأمطار غوطة دمشق قليلة ، فقد قستها

بنفسه خلال عشر سنين متتابعة فرأيت أنها لا يبلغ ارتفاعها ٢٥٠ ميليمتر في أكثر هذه السنين ، وكان ارتفاعها دون مائتي ميليمتر في ثلاث سنين . فالغوطة إذن كالواحة كادت تكون صحراء لا تصلح للزرع ، لولا بردي والأعوج ومشتقهما التي قلبتها جنة ناضرة .

رابعاً - لا يسقط الثلج في إقليم الغور ولا تهبط الحرارة إلى الصفر . ويندر هبوطها إلى الصفر في السواحل . أما في السهول الداخلية فلا تهبط لأوطأ من عشر درجات تحت الصفر في السنين الاعتيادية ويندر هبوطها إلى هذا الحد . لكن لكل قاعدة شواذ ففي شتاء سنة (١٩٢٤-١٩٢٥) وكانت سنة قرّ شديداً هبطت الحرارة إلى ١٥ درجة تحت الصفر في دمشق و ٢٠ درجة تحت الصفر في سلمية . ودام الصقيع عدة أيام فأتلف الأسباناخ والملفوف والسلق والمقدونس والبيقية والحلبة والفول وغيرها من البقول كما أتلف براعم التين والرمان وأغصان الليمون والبرتقال وبعض ورق الزيتون . وباد كثير من الأزهار والرياحين وأشجار التريين كالمنثور والكافور والسنط والفلفل الكاذب والخروع والكزورينا وغيرها . أما الحنطة والشعير والمشمش والتفاح والكمثرى والدراق والخوخ والسنوبر والسرو والازدارخت والصفصاف والزيزفون والورد فقد قاومت فلم يمسه الصقيع بأذاه .

وأضر مما ذكر هبوط درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بضعة أيام في أوائل نيسان من سنة ١٩٢٥ فتلف أكثر من نصف محصول المشمش في الغوطة، واسودت أفنان الجوز ، وبادت نباتات الخيار والكوسى والبنادورى البكيرة ، فعاد الزرع إلى بندر بنورها ثانية . ولقد ذكرت هذه الأحداث لأن الطاعنين في السن من أرباب الفلاحة لم يرو شيهاً لها منذ ثلاثين سنة ونيف .

خامساً - ليس لبناء التربة في الشام كبير تأثير في إمكان غرس الشجر أو عدمه في إحدى المناطق ، بل العامل الأقوى هو الإقليم وذلك أن الأمطار تهطل في الشام خلال شهور معلومة ثم يعقب المطر ببوسة تدوم بضعة شهور . وتكون الرياح شديدة ، والحرارة زائدة ، في شهور الببوسة ، ومهما كان ارتفاع المطر السنوي كبيراً حتى في سواحل الشام فكثير من أشجار الفاكهة لا يعيش بهناء غدياً ، بل لا بد من إسقائه كالبرتقال والليمون والتفاح والكمثرى والمشمش

والخوخ . وليس السبب في ذلك قلة مجموع الأمطار السنوية بل انجاسها منذ أواخر الربيع وطول فصل الصيف وأوائل الخريف . فأمطار باريز مثلاً لا تزيد في السنة على أمطار بيروت أو أمطار طرابلس لكن المطر في باريز يهطل في كل شهور السنة تقريباً فتنمو الأشجار المذكورة دون ري على العكس من حالتها في الشام .

ومن الشجر ما يعيش بلا إسقاء في جميع مناطق الشام الغربية كالزيتون والكرمة واللوز والتين والرمان والفسق والآس والزعرور والعناب . أما مناطقها الشرقية فمنها ما يصلح دون ري للكرمة واللوز والزيتون كشرقي العاصي إلى جبال الشومرية وكالجلولان وحوران وجبل حوران وعجلون والبلقاء . ومنها ما أمطاره من القلة بحيث أن الأشجار عموماً لا تنجب فيه بلا ري ، كالغوطة والمرج وشرقي سنير (منطقة القريتين) وبادية الشام . وينمو الكرم واللوز بلا ري بعد أن يكبر في القرى الشرقية من منطقة سلمية والحمرآة . أي أن المطر في تلك المنطقة وحالة المياه الأرضية هما بحيث لوسقي الكرم سنتين أو ثلاثاً حتى تضرب جذوره في التراب ، لأمكن بعدها أن يعيش بلا ري .

واختلاف الأقاليم في الشام يجعل هذا القطر صالحاً لزراع زروع متنوعة ، وغرس أشجار شتى ، فالغور والساحل للقطن والنخل والموز والقشطة والبرتقال والليمون والزيتون . والسهول للحبوب والزيتون واللوز والمشمش والخوخ والكرمة . والجبال للتفاح والكمثرى والكرز . وتقل الأصقاع التي تحوي كالشام أقاليم عديدة في مساحات ضيقة . وليس في العالم بلد غيرها يستطيع فيه الإنسان أن يصعد إلى ارتفاع ٢٨٠٠ متر فوق سطح البحر بعد أن يكون في أعماق من مائتي متر من هذه السوية وذلك بقطع مسافة لا تزيد على ٦٥ كيلو متر ، هذا شأن الذي يكون في البطيحة أو التابعة على شواطئ بحيرة طبرية مثلاً ويريد الصعود إلى قمة جبل الشيخ فهو يعتلي ثلاثة آلاف متر بقطع تلك المسافة الصغيرة .

أثرية الشام :

كثيراً ما نسمع أن الشام قطر زراعي محض وأن تربتها من أحصب الأثرية

فما معنى ذلك وما هو مبلغه من الصحة؟ أما كون الشام محض أرض زراعية فلائها لا كبير منتوج فيها سوى منتوجات الأرض فهي إذا لم تقس بغيرها تعد قطر آزرعياً ذا شأن كبير . أما إذا قسناها ببعض الممالك الأوربية حيث الأرض خضراء دائماً ، والمحاصيل كبيرة بسبب كثرة الأمطار في كل فصول السنة ، أو لو قايستنا بينها وبين بعض الأقطار التي فيها أنهار عظيمة تسقي بمياهها ملايين من الهكتارات ك مصر اليوم وعراق الغد ، إذن لوجدنا أن الشام ليس لها شأن عظيم حتى من وجهة الزراعة لأنها ما برحت ولن تبرح أرض حبوب شتوية كالحنطة والشعير تنتج بالقليل من المطر الذي يهطل فيها . أما الأشجار المثمرة والأقطان والخضر فمقامها في الدرجة الثانية لما تتطلبه من الري على حين لا تروي أنهار الشام مساحات واسعة على ما سيحيى ذكره . ونقول لمن جعلوا دينهم التنويه بأن الشام من أعظم الأقطار التي تنتج أقطاناً أنهم مدفوعون إلى دعايتهم هذه بعوامل سياسية ، لأن القطن في الشام لا يمكن أن يكون له المقام الأول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا تروى إلا بما تجود به السماء من المطر القليل الذي يكاد لا يكفي لحياة الحنطة والشعير . ويجب أن لا يتخذ القطن الإدلاي مثلاً لأن صنفه من أردل الأصناف ، ولأن منطقة إدلب وأشباهاها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعة الأرجاء . وقولي هذا لا ينبغي كون زرع القطن مفيداً اقتصادياً في كل مكان يستطيع أن ينجب فيه . فمما تعيننا معرفته أن الأمكنة التي يستطيع أن ينجب فيها صغيرة إذا قيست بمجموع أراضي الشام الزراعية :

ولئن لم تجعل الطبيعة للشام حظاً كبيراً من المطر والأنهار التي تستطيع أن تروي مساحات واسعة ، فلقد جادت عليه بتربة من أجود الأتربة . وهاك خلاصة ما تجب معرفته :

أولاً - تراب أهم سهول الشام طيني كلسي (أكثر قرى حوران والغوطة وسهول سلمية وحمص وحماة ولساتين وحارم الخ ...) وتراب بعضها طيني رملي (بعض قرى الغور والبقاع الخ) . وتراب بعض آخر رملي طيني (بعض قرى الساحل والسهول الشرقية القريبة من البادية) . ومن المعلوم أن بناء هذه الأنواع الثلاثة يعد جيداً لا سيما الأول منها .

أما من حيث غنى أتربة الشام بالعناصر الغذائية . فقد كشف التحليل عن أن معظمها غني بالحامض الفسفوريك والبوطاس . أما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير في بعض المناطق كالغور مثلاً ، وكاف في أكثرها ، وقليل في بعض المناطق التي أنهكها الزرع المتتابع دون مدّ الأرض بالسماد .
ويفيد أن أذكر كلمتين في الطبقات والأدوار الجيولوجية التي تنتسب إليها أهم المناطق الزراعية فأقول :

الأرض البركانية : إن أتربة حوران وجبل حوران واللجاة والجولان والبطيحة وجبل المانع والصفاء وغربي العاصي بين حمص وحماة الخ هي أرض بركانية (بزالتية) متكوّنة من اندفاعات البراكين .

الأرض الطباشيرية : هي أوسع الأرضين في الشام وإليها تنتسب معظم جبال لبنان وسنير وحرمون وعجلون والكرك والصلت وسهول البلقاء وجبل نابلس وتدمر الخ .

الأراضي المنسوبة للدور الثلاثي : منها معظم جبل العلا الواقع بين حماة وسلمية ، ومنها جنوب البقاع بدءاً من مجدل عنجر وسهل متسع حوالى حلب وسواحل فلسطين وقمة جبل قاسيون في دمشق مع امتداده نحو قرية القטיפفة ، وقسم كبير من قلمون وقسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر ، ومساحة واسعة حول شواطئ الفرات بعد الراسيات الرباعية الخ .

الأراضي المنسوبة للدور الرباعي : في الشام كثير من الطبقات الأساسية سترت براسيات من الدور الرباعي وأكثر ما تكون الرواسب في السهول كالبقاع والغوطة والمرج ومرج ابن عامر وسهل الرملة ولدة وسهل عكار وعلى طول الفرات الخ .

حراج الشام :

إذا رجع المرء إلى كتب الأقدمين يرى أنه كان للحراج في الشام شأن وأي شأن . وأهم أشجار هذه الحراج ومواقعها ومساحتها لعهدنا هذا ، على وجه التقريب :

أشجار الحراج : أعظمها شأنًا أشجار البلوط وهي على قسمين قسم يظل

مكتسباً أوراقه في الشتاء وآخر تسقط أوراقه فيه . فمن الأول السنديان والبلوط الأخضر وهي أشجار صعبة المراس جبارة تعيش في الساحل وتعلو مع مختلف المناطق إلى ألف متر عن سطح البحر . ومن الثاني الملول والبلوط المسمى عفصاً . ولأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط . وأهمها الصنوبر المثمر وهو يشاهد في الساحل وفي المناطق التي لا يزيد علوها على ألف متر عن سطح البحر . ويغرس في لبنان (حمانا ، برمانا ، بيت مري ، بكفيا الخ) لأن خشبه وثماره مرغوب فيها . ويليه الصنوبر الحلبي وهو الأكثر شيوعاً يعيش في كافة الأقاليم الزراعية حتى في ارتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر . ومنه حراج ملتفة في عكار والضنية وقرل طاغ ويستخرج منه القطران ويستعمل في الدباغة . ومن أشجار الفصيلة الصنوبرية التي تشاهد في غابات الشام السرو والتنوب أو الشوح وهو يكثر في الجبال الشامخة حيث يختلط بالأرز ثم العرعر والدفران والأرز وجميعها تعيش في الجبال العالية .

وكثيراً ما يعثر المرء في غابات الشام على أشجار مثمرة برية مثل الكمثرى والزعرور والحوخ والسدر والزيتون والحروب وغيرها . كما يشاهد أشجاراً مختلفة كالبطم في البلعاس والذلب على شواطئ الأنهار واللبنة أو الأبر في لبنان ووادي التيم والعجرم وهو مبذول والغار في غور الأردن الخ .

مواقع الحراج: إذا سرنا اليوم من شمال الشام إلى جنوبها نرى الغابات الآتية:

(أ) حراج السفح الممتد بين سلسلتي جبال اللكام مساحتها نحو ١٠,٠٠٠ هكتار (الهكتار عشرة آلاف متر مربع) وأهم أشجارها البلوط والصنوبر الحلبي ويليها الأبر والأشجار المثمرة البرية . وفي منحدرات الجبال مثل هذه المساحة تقريباً مكسوة بالشجر لكن حالة شجرها سيئة .

(ب) حراج كرد طاغ وتمتد من راجو إلى الحمام ، ومساحة الشجر الملتف فيها ألف هكتار تقريباً وأشجارها السنديان والصنوبر الحلبي . ويلحظ أن فأس المحتطين لا تكف عن العمل بها ، وأن أضعاف هذه المساحة كانت فيما مضى حراجاً جميلة .

(ج) حراج رأس الخنزير (قرل طاغ) . أهم شجرها الصنوبر الحلبي وأنواع البلوط . تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ١٥,٠٠٠ هكتار إلا أن

ضعني هذه المساحة كانت غابات ملتفة فإذا هي اليوم جرداء أو فيها أشجار حقيرة متفرقة . ويصنع القطران من صنوبر هذه الحراج في أرسوس وأنطاكية .
 (د) حراج الأردو والباير والبسيط : مساحة القسم المكتسب بالشجر اليوم ١٠,٠٠٠ هكتار تقريباً . وأهم شجرها الصنوبر الحلبي وأنواع البلوط ويليهما الدلب فيما انخفض من الأرض . ويجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عيثة الماشية لأن بعض أشجارها بدأت تلتف .

(هـ) حراج العمرانية : شجرها السنديان والملول وقليل من الصنوبر الحلبي ومساحتها ٢٠,٠٠٠ هكتار تقريباً ، ويلاحظ أن أكثر أشجارها الباسقة قطعت إلا في المواقع الكبيرة الانحدار التي يشق الوصول إليها ، فإن أشجارها لا تزال باسقة . ومن المؤسف أن القطع لا يزال متواصلًا في هذه الحراج لنقل الحطب أو لصنع الفحم ونقله إلى حماة وحمص .

(و) حراج عكار والفضية : هي من أجمل الغابات وأهم شجرها السنديان والملول ويليهما الصنوبر الحلبي والسرو والعرعر والأرز . ومساحتها ١٠,٠٠٠ هكتار على وجه التقريب .

(ز) حراج الهرمل وإهدن وتنورين . تبلغ مساحتها نحو ٥,٠٠٠ هكتار .

(ح) حراج الصنوبر في لبنان : زرع اللبنانيون كثيراً من بزور الصنوبر المثمر وغرسوا كثيراً من غراسه فتكون منها حراج جميلة تشاهد في كثير من قرى لبنان . أما حراج الأرز القديمة فقد أتت عليها أيدي الجهل وبعض بقاياها في الباروك .

(ط) حراج البلعاس : يقع جبل البلعاس على نحو خمسين كيلومتراً شرقي سلمية وفيه أشجار قديمة من البطم . لعبت بها أيدي البدو والمحتطين الذين يأتون بمركباتهم كل يوم من سلمية إلى البلعاس فيقطعون الشجر ويبيعون الحطب في سلمية وحمص وحماة على بعد المسافة . وقد أكد بعضهم من بدو وحضر وبعض الضباط الذين اخترقوا البلعاس مراراً أن مساحته تبلغ ٣٠,٠٠٠ هكتار تقريباً ، وأن الشجر متفرق في أكثر أقسامه لكنه يلتف في بعض المواقع .

(ي) حراج عجلون : هي من أوسع حراج الشام وأجملها . أشجارها السنديان والملول والصنوبر الحلبي وغيرها . وفيها مواضع أشجارها ملتفة وأخرى أنهكها القطع .

هذه هي أهم غابات الشام وثمة غابات ومحتطبات لا كبير شأن لها اليوم لما لحقتها من الأذى بسبب انكباب الإنسان على قطعها أو عيث الماشية بها ، مثل غابات بعلبك وسنير وجبل الشيخ والقنيطرة وصفد والناصرية والكرمل والصلت وغزة وغيرها . وكانت الحكومة التركية خلال الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) تأمر بقطع الشجر بلا روية لاستعماله بدلاً من الفحم الحجري الذي كان يعوزها .

الري في الشام :

يروى اليوم في الشام (عدا فلسطين وشرقي الأردن) مساحة تقدر بنحو ٧٧,٠٠٠ هكتار على وجه التقريب وأهم المناطق التي تروى هي الغوطة والمرج اللذان يسقيان من بردى والفيجة والأعوج ومشتقاتهما ومن قنبي موضعية . وتقدر المساحة التي تروى من هذا السهل الواسع بنحو ٢٥,٠٠٠ هكتار ويسقى في وادي العجم من نهر الأعوج نحو ٥,٠٠٠ هكتار . ويسقى في حمص بمياه القناة التي تشتق من بحيرة حمص بساتين واسعة . وفي الزبداني سهل يبلغ ١٢٠٠ هكتار يروى من أنهار صغيرة وينابيع . ويسقى في القنيطرة والزوية نحو ٢٠٠٠ هكتار لا سيما في البطيحة وشمال بحيرة الحولة إلى الشرق . وفي حماة نواعير لا يقل عددها اليوم عن ثمانين ناعورة تبدأ بين حمص وحماة وتمتد شمالاً إلى العشارنة وتسمي نحو ١٥٠٠ هكتار . وفي سلمية والقرى التي في تلك المنطقة قنوات عديدة قديمة دائرة أخذ الأكارون منذ بضع سنوات يكرونها ويعيدونها إلى سالف عهدها وفي جبرود والنبك ويبرود ودير عطية والقرى المجاورة لها قنوات وينابيع تسقى ٢٥٠٠ هكتار تقريباً .

وفي لبنان نحو عشرة آلاف هكتار من الأرض التي تروى ، أهمها ١٢٠٠ هكتار تقريباً فيها من شجر الليمون والبرتقال في طرابلس . ويتلوها بساتين واسعة حول بيروت وصيدا وصور ورأس العين والهمل وبعلمك وبعض قرى البقاع الخ .

ومما يسقى سهل عكار والبقية وحول اللاذقية وبعض أرض العمق وأرباض

أنطاكية ومدينة حلب والإسكندرونة . أما في جنوب الشام (فلسطين) فأعظم الأرض شأناً ما يسقى شمالي بحيرة الحولة حيث نهر الحاصباني والبانياسي واللّدان أي أصل الأردن . ثم الغوير ومجدل طبرية ثم بيسان وما حولها مما يسقى من نهر الجالوت ثم سهل عكا ثم ضواحي مدينة يافا حيث يسقى نحو ٢٠٠٠ هكتار من شجر البرتقال والليمون بواسطة آبار ترفع مياهها بالمحركات .
 وما يستطاع إسقاؤه من الأرض في المستقبل إذا وجد رأس المال الكافي للقيام بأعمال عظيمة للري . حتى لتبلغ مساحته ضعفي المساحة التي تسقى اليوم وربما إلى ثلاثة أضعافها ، الأراضي الواقعة حول النهر الأسود عند مصبه وحول نهر عفرين وسهل العمق (نحو ٢٠٠,٠٠٠ هكتار) وسهل الغاب الممتد شمالي قلعة شيزر (سيجر) (نحو ٦٠,٠٠٠ هكتار) والسهل الواقع شرقي جسر الشُّغُر والسهل الممتد بين صيدا وصور وحول بحيرة الحولة وأرض واسعة في الغور بين بحيرة طبرية وبحيرة لوط الخ .

زروع الشام وأشجارها :

ذاكر هنا بإيجاز أهم ما يزرع في الشام من الحبوب والبقول والنباتات الصناعية وما يغرس من الشجر المثمر ، ثم ما ينبت لنفسه من النباتات الطبيعية المفيدة .

الحبوب : أهمها الحنطة فالشعير فالذرة الصفراء والبيضاء فالأرز فذرة

المكانس .

الحنطة : أعظم الزروع شأناً وأغزرها محصولاً وأعمها انتشاراً . يقدر ما نتج منها في (سنة ١٩٢٢) بـ ٣٤٥,٨٠٠ طن (الطن أربعة قناطير) في الشام عدا فلسطين وشرقي الأردن وأشهر أصنافها الحورانية والبياضية والبيرودية والباقية والحمارية والنورية وحنطة عين غرة والدوشانية والشلمونية والهيئية. فالحورانية تعرف بساق متوسطة الطول وسنبلة غليظة كثيفة مربعة ذات سفا لونها إلى سمرة وحب سمين قاس إلى حمرة . وهي أجود الأصناف وأعمها . تزرع في حوران ووادي العجم وفلسطين والبلقاء وحلب ، وبالاختصار في كل أنحاء الشام على درجات متفاوتة . أما موطنها الأصلي فحوران . وللحنطة البيضاء سنبلة بيضاء

طويلة وبيرة نصف فرقة ذات سفا ، وحب أبيض سمين مكسره نصف دقيقتي وهذا الصنف يزرع في الغوطة والمرج ووادي العجم خاصة .

وللمح البرودي ساق طويلة صلبة ثخينة نصف فارغة ، وسنبلة مستطيلة كثيفة ذات سفا ، وحبات ضاربة إلى بياض مكسرها قرني . وهذا الصنف يزرع في دومة وقلمون . وللحنطة البقاعية سنبلة دكنا إلى سواد ، وحب إلى سمرة وهي تزرع في البقاع . أما القمح الحماري فهو يزرع في حمص وحماة وما جاورهما . وأما النورسي فيزرع في فلسطين وهو يعرف بسنبلة مستطيلة ذات سفا ، وحبات مستطيلة حنطية إلى حمرة .

وقمح عين غرة أشهر الأنواع في الغوطة ، وله ساق طويلة فارغة . وسنبلة سمراء متوسطة الكثافة ذات سفا إلى سواد ، وحب سمين طحيني اللون . أما الدوشاني فله سنبلة فرقة طويلة لا سفا لها ، وحب أبيض ثخين ، وهو يزرع في البقاع وبعليك وفي الغوطة على الندور . ويزرع السلموني في الأمكنة الجبلية ويعرف بسنبلة مستطيلة فرقة ذات سفا ، وحب مستطيل ذي مكسر دقيقتي . والقمح الهيتي من الأصناف التي تزرع في الكرك والبلقاء ، وسنبلة ذات سفا ، وحب حنطي إلى حمرة . وقد جرب على القمح الطلياني في الغوطة فأتى بأحسن محصول .

الشعير : هو في الشام أشهر الزروع بعد الحنطة وأكثرها منتوجاً ، وقد قدرت غلاته في سنة (١٩٢٢) بنحو ١٨٢,٥٠٠ طن في الشام عدا فلسطين وعبر الأردن . وهو على صنفين العربي والرومي . فالعربي ساقه قصيرة فارغة وسنبلة على صنفين وهي مستطيلة ذات سفا طويل . وحباته أقل غلظة من حبات الشعير الرومي . ينضج قبل الرومي وهو أشهر منه ولا يتطلب مثله أرضاً غنية . أما الشعير الرومي فسوقه غليظة فارغة يتخللها عقد ملائمة وسنبلة على ستة صفوف ، وهي متوسطة الطول كثيفة ذات سفا . يكثر هذا الصنف في الغوطة والمرج وهو يتطلب أرضاً غنية مسمدة .

وتزرع الذرة الصفراء في أنحاء الشام في الأرض التي تسقى ، أما الذرة البيضاء فتزرع عدياً في أنحاء فلسطين وفي عجلون لا سيما في مرج ابن عامر . وأما الأرز

فيزرع في الحولة وهو قليل الشأن . ومن حبوب الفصيلة القرنية الشائعة ما تُعلفه الماشية كالبقية والجلبان والكرسته والحلبة . ومن الكاإ الفصفصة وهي ذائعة في الأماكن التي تسقى .

البقول: لا تعيش أكثر الخضر والأبازير بلا ري في أقاليم الشام كافة . ولهذا يستدل من وجودها في أرض على كونها مما يمكن إسقاؤه . وأنواع الخضر التي تزرع كثيرة جداً وكلها تستهلك في القطر .

الزروع الصناعية : أشهرها القنب والقطن والسمن . أما الكتان والنيلة والحناء والحشخاش والخروع فليست ذات بال في الشام . فالقنب يزرع في الغوطة وفي حلب ، لكنه في الغوطة أعظم شأنًا ، إذ تقدر فيها مساحة الأرض التي تزرع قنباً بنحو ألف هكتار في كل سنة ، أما في حلب فقلما تزيد على مائتي هكتار . وزراعة القنب رابحة لأسباب شتى أهمها كون هذا النبات لا يتطلب عنايات غير التعطين بعد قلمه ، وكونه في مأمن من الأمراض والحشرات حتى إن الماشية لا تأكل ورقه . وقد ألفت إقليم الغوطة الوسطى وصار من زروعها الأساسية التي لا يرجح عليها سوى أشجار الفواكه . ومن الغلط الفاحش أن يقوم بعضهم فيبحث في استبدال القطن به ، لأن للقطن أقاليم غير إقليم الغوطة ، ولأنه تصيبه عاهات لا تصيب القنب . هذا عدا العنايات التي تستلزمها زراعة القطن مما لا لزوم له في زرع القنب .

القطن : يمكن زرع القطن بلا ري في الشمال كمنطقة إدلب ودانة وريحا حيث قدر ما ينتج منه سنة (١٩٢٣) بنحو ١٣,٠٠٠ بالة . وقد علمت أنه نتج هنالك وفي باقي المناطق التي يزرع القطن فيها نحو ١٥,٠٠٠ بالة في سنة (١٩٢٥) . ولكن للقطن الذي ينتج في البعل من أرض منطقة إدلب شعر غليظ مجهد وهو لا يصلح إلا للمنسوجات الغليظة ، ولهذا لا يباع إلا بنحو نصف ثمن القطن المصري عادة . أما الأقطان المصرية فلا تنجب إلا في الأرض التي تسقى .

السمن : زرع السمن شائع في فلسطين وعجلون ولا سيما في مرج ابن عامر حيث ينجب في الأرض البعل كالذرة البيضاء . ويزرع منه قليل في الغوطة ووادي العجم وهناك يكون زرعاً مستقياً . والغاية من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره وتتكون أثناء عصر هذه البزور مادة الطحينية المعلومة .

المتوجات الطبيعية : تُنبت الطبيعة في بعض الأرجاء نباتات طبيعية لها شأن في اقتصاديات البلاد مثل السوس والكمأة . فالسوس ينبت في سهل العمق وجسر الشجر حيث أجود عروقه ، ثم في أنطاكية والباب ومنبج ودير الزور والسويدية وكلها في الشمال . وينبت أيضاً في الغوطة والمرج . ويقدر ما يقتلع من عروق السوس في الشمال بنحو عشرة آلاف طن كل سنة ، وكلها تنقل إلى إسكندرونة حيث تسحق وت شحن إلى أميركا خاصة . أما في الغوطة والمرج فيقتلع نحو ألف طن سنوياً . وفوائد عرق السوس عظيمة وهو يضاف إلى عدد كبير من الأدوية ويصنعون منه في دمشق شراباً سكرياً لذيذاً يزيد الإدرار .

وليس للكمأة مكانة السوس وهي لا تكثر إلا في السنين الغزيرة الأمطار . وتنبت في قلمون وجيرود وكثير من القرى الشرقية القريبة من البادية . ويختلف مقدار ما يرد منها إلى المدن باختلاف السنين .

الأشجار المثمرة :

أسمائها مكانة الزيتون فالكرم فالبرتقال فالليمون فالشمش فالتين فالفستق فالجوز . أما باقي الأشجار فتأتي في الدرجة الثانية وأنواعها كثيرة مثل التفاح والكمثرى والخوخ واللوز والرمان والدراق والسفرجل والموز والنخل والآس والصبار والتوت والعناب والخروب الخ .

الزيتون : أفضل الشجر وأعمه في مختلف المناطق . وهو يكثر في جزين والمختارة والشويفات وزغرته والكورة ، وفي الغوطة والمرج ، وضواحي طرابلس وفي طرطوس وصافيتا وجبله واللاذقية والباير وفي أرباض أنطاكية ، وفي السويدية والقصير وكردطاغ ، ويقبل حول حلب والباب وسلقين وإدلب . وقد اشتهر في الجنوب زيت الرامة كما اشتهر زيتون جبال نابلس والقدس وسهول لدة والرملة . وينجب الزيتون في البعل من الأرض ولا يسقى إلا في الغوطة والمرج وفي القرى القريبة من البادية . وأصنافه كثار أشهرها في دمشق الدان والأخضر (أو المصعبي) والخلط والتفاحي . وأشهرها في لبنان الصوري والشامي والمصري والشتوي والعيروني وبيض الحمام والبلدي . وأعمها في اللاذقية الحضيري والطمراني وقلب الطير . وفي الإسكندرونة القرماني والخلخالي والرماني والتفاحي الخ .

فالدان أنفع الأصناف بدمشق وأغناها زيتاً (١٨-٢٠ في المئة) يستخرج الزيت منه وقلما يؤكل أخضر أو مكبوساً. يبلغ طول ثمرته ٢٠ ميليمتراً وعرضها ١٣ ميليمتراً وهي تسود بعد أن تنضج. وشجرة الزيتون الأخضر أو المصعبي كبيرة أحد طرفيها حاد يبلغ طولها ٣٢ ميليمتراً وعرضها ٢٤ ميليمتراً، وهي تقطف خضراء وتكبس ولا تعصر لاستخراج زيتها. وثمره الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه ثمرة البلح شكلاً طولها ٣٥ ميليمتراً وعرضها ٢٥ ميليمتراً وهذا الصنف أغلى الأصناف وأجودها مكبوساً ويندر عصره لاستخراج زيت منه.

الكرم : الكرم شائع كثير في الشام ، وتقدر مساحة الكروم بنحو ستين ألف هكتار (عدا فلسطين وشرقي الأردن) . وأوسع الكروم اليوم في الصلت ودومة وداريا بالقرب من دمشق وفي زحلة وبجهدون وحمص وتليسة بالقرب من حمص وفي حلب الخ . ولا تخلو قرية من قرى لبنان ووادي التيم وجبال النصيرية وقلمون من قليل من الكروم . والكرمة تعيش في البعل من الأرض لا يسقى من الكروم إلا ما كان منها في الغوطة والمرج وفي أرجاء سلمية. وتؤكل الأعناب أو تصنع زيبياً أو دبساً أو خلاً أو عرقاً أو نبيذاً . والكرم أصناف عديدة ، أشهرها الزيني والبلدي والأحمر والأحمر الداراني والدربي والحلواني والأسود في دمشق والغوطة ، والفضي والقاصوفي والشقفي والقمحاني والمري والحانقي وبيض الحمام والزحلاوي في وادي التيم والبقاع ، والححافي والبياضي في سلمية . وعنب الشيخ واصبع الست في الإسكندرونة الخ .

وقضبان الزيني طوال سلامياتها متوسطة وعناقيده ضخمة نصف كثيفة وورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافاتها مسننة وثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة ولبها مائع . تؤكل ثمار هذا الصنف ولا يصنع منها زيبب أو خمر وهي من أجود الأعناب .

وعناقيد البلدي رهالة وثمرته أسطوانية طويلة بيضاء إلى خضرة ، ذات قشرة ملتصقة بالللب واللحمي قاس لذيذ . وثمار هذا الصنف كالسابق تؤكل ولا يصنع منها شيء . وليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة ويصنع منه زيبب ودبس وخمر وعرق . أما الأحمر الداراني فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شيء من الاستطالة لبها نصف لحمي لذيذ وهي تؤكل ويصنع منها زيبب ومسكرات

ويعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزيني .

والفضي من أجود أعناب وادي التيم ثمرته مستديرة متوسطة الحجم قشرتها رقيقة صفراء ولبها يكاد يكون مائياً وبزورها متوسطة . أما القاصوفي فثمرته أسطوانية منتفخة قليلاً في وسطها نصف لحمية بيضاء إلى خضرة وهي أصغر قليلاً من ثمرة العنب الزيني .

البرتقال والليمون الحامض : ذكر علماء النبات أن موطن هاتين الشجرتين الأصلية في شرق آسيا ، وأن الفضل يعود إلى العرب في نقلهما إلى سواحل بحر الروم . وهما ينجان في الغور وسواحل الشام ولا بد من إسقاتهما . أما في مناطق السهول المرتفعة والجبال كالغوطة وحوران وحلب والزبداني مثلاً فإن هبوط الحرارة في الشتاء إلى بضع درجات تحت الصفر يؤدي بجياتهما ، ولهذا لا يزرعان في تلك الأرجاء إلا في حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران تقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما .

وأوسع بساتين البرتقال والليمون اليوم في يافا (نحو ٢٠٠٠ هكتار) ثم في طرابلس (نحو ١٢٠٠ هكتار) ويليهما منطقة الإسكندرونة (درت يوليوياس) وبيروت وصيدا وصور وعكا الخ .

وأجود أصناف البرتقال اليافاوي أو اليافوني (شموطي) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة ولب قاسٍ لذيذ ، لكنه قليل العصارة لا سيما بعد تمام نضجه . وهو ينقل بسهولة إلى القاصية مثل إنكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف . وما يستملح فيه سهولة تقشيريه دون تلويث اليدين .

ومن أكثر الأصناف انتشاراً البرتقال البلدي وهو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوي قشرتها رقيقة ولبها كثير العصارة . وهذا الصنف لا يصلح للأسفار مثل اليافاوي . ومن أصناف البرتقال الماوردي وهو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب ولب أحمر كثير العصارة . وهذا الصنف لا يألف الأسفار الطويلة وتقسيره صعب .

كان يقدر محصول البرتقال في يافا في سنة (١٩١٤) أي في بدء الحرب الكبرى بنحو ١,٨٥٠,٠٠٠ صندق، أما بعد الحرب فقد هبط المحصول إلى ١,٤٠٠,٠٠٠ صندق تقريباً . وقد زاد في العهد محصول البرتقال اليافاوي وبعبارة أصح

الفلسطيني أربعة أو خمسة أضعاف ما كان عليه قبل ربع قرن . وكان محصول طرابلس قبل الحرب ٨٠٠,٠٠٠ صندوق من البرتقال و ٢٤٠,٠٠٠ صندوق من الليمون الحامض على وجه التقريب (يحتوي الصندوق على ١٥٠ برتقالة أو ٣٠٠ ليمونة) . أما بعد الحرب فهبطت هذه المقادير إلى نصفها . ويشحن معظم محصول يافا إلى إنكلترا ومصر ، أما محصول طرابلس فألى أوديسا وبلغاريا والقسطنطينية ومصر . وكذا محاصيل صيدا والإسكندرونة .

المشمش : يمكن غرس المشمش في جميع أقاليم الشام الزراعية وليس فيها ما لا يصلح له سوى الجبال العالية حيث يخشى على أزهاره وفراخه من تأثير الصقيع فيها في الربيع . وهو لا ينجب في غير الأرض التي يمكن إسقاؤها . وأعظم مغروساته في الغوطة والمرج ووادي العجم ووادي بردى وحول صيدا وبيروت وبعبك وأنطاكية وأرسوس . ومنه قليل في كثير من البلدان التي يمكن فيها إسقاؤه . وأشهر أصنافه اليوم الحموي والبلدي والسندياني والوزري والعجمي والكلابي في دمشق ثم اللوزي في الساحل .

وللحموي ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبية لامعة تدوب في الفم وتهضم بسهولة وداخلها بذرة حلوة . وهي أجمل ثمار المشمش منظرأً وألذها طعمأً وأعطرها رائحةً وأغلاها ثمنأً تؤكل رخصة ولا يصنع منها قمر الدين . أما ثمار المشمش البلدي فكبيرة ضاربة إلى حمرة ضمنها بزور حلوة وتجيء في اللذة بعد الحموي . تؤكل رخصة ويصنع منها ألذ المقلقات (التقوع) . وتبلغ أشجار هذا الصنف عشرين في المئة من مجموع شجر المشمش في الغوطة والمرج . أما الحموي فلا يزيد على خمسة في المئة . ويشبه المشمش السندياني الحموي بشكل ثماره وشتان بين الثمرتين في اللذة لأن السندياني هو تقليد الحموي كما يقول الدمشقيون . ونسبة البلدي إلى الوزري من هذه الوجهة كنسبة السندياني إلى الحموي أما المشمش العجمي فثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء إلى خضرة لبها قاسٍ وطعمها سكري لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصي بل هو يشبه طعم الدراق ، ولهذا لا نستملح هذا الصنف وهو غير شائع . وثمار المشمش الكلابي أصغر الثمار حجماً وأردؤها طعمأً وهي صفراء إلى حمرة بزورها مرة ، وهذا الصنف أشهر الأصناف في الغوطين إذ تبلغ نسبته نحو ٧٠ في المئة من مجموع

شجر المشمش ، ومنه يصنع قمر الدين المشهور . وهو يولد من بزوره ولا يطعم فهو إذن أقرب الأصناف إلى المشمش البري . وثمره المشمس اللوزي في الساحل شبيهة بثمرة الحموي بدمشق ولعلهما صنف واحد .

دمشق مركز تجارة المشمش وما يصنع منه ، ومنها يصدر قمر الدين والنقوع وبزر المشمش إلى مصر والأناضول وإلى أميركا الشمالية ويقدر اليوم متوسط حاصلات المشمش في الغوطة والمرج بنحو اثني عشر مليوناً من الكيلو غرامات سنوياً منها نحو ٨٠ في المئة من المشمش الكلابي الذي يصنع منه قمر الدين ، ويظهر أن مستغلاته قبل الحرب الكبرى كانت أعظم منها اليوم .

الفسق : إن غابات البطم في البلعاس وبقية أشجار الفسق الهرمة في قرية عين التينة تحمل على دعوى أن الشام من البلاد التي تعد بلاد الفسق الأصلية . وتكاد زراعة الفسق لا تتجاوز اليوم حلب حيث تأتي أجود ثماره وألذها وأغلاها ومن أصنافه في تلك المدينة الأبيض المراوحي والعاشوري والعلمي والباتوري وناب الحمل والعيتتاني ، ويقدر ما ينتج من ثماره حوالى حلب بنيف ومائة ألف كيلو في السنة .

الحيوانات الدواجن في الشام :

الخيل - الخيل في الشام ثلاثة أصناف العراب أو الأصيلة ، والبراذين أو ما تعرف اليوم بالكدش ، والمولدة وهي التي تولد من أم عربية وأب أعجمي أو على العكس . ففي الحالة الأولى يسمى المولّد هجيناً ، وفي الثانية مقرفاً .

تجلب الكدش من الأناضول خاصة وهي بشعة المنظر إذا قيست بالخيل العراب ، لا تتركب بل تصلح لحمل الأثقال أو جرها أو درس الحصائد وعددها عظيم يبلغ نحو سبعين في المئة من مجموع خيل الشام . أما الخيل المولدة فأجمل من البراذين وأقوى وهي تتركب أكثر ما تستعمل في جر المركبات في المدن ونسبتها للمجموع نحو ٢٠ في المئة .

وأجمل الخيل في العالم هي العراب وتحليتها علمياً كما يلي : مستقيمة الرأس متوسطة البنية طول أعضائها متوسط لها رأس مربع وجبهة مسطحة ومقدم مستقيم ووجه متوسط الطول ، وفكان متباعدتان ومنخران جامدان ومرنان معاً، وأذنان

حساستان وعينان كبيرتان تمان عن ذكاء ، وعنق رشيق شديد العضل ، وظهر مستقيم وردف أفقي مكنتر . وعجزان مستديران وصلبر واسع وبطن صغير ، وقوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها ، وأوتار جليلة ومفاصل عريضة وجلد رقيق مرن وشعر لامع قصير وعرف وسيب طويلان ناعمان متموجان . ومجموع الجواد العربي آية في انتظام تكوينه فهو جميل قوي شهيم ، ولا ريب أنه أكمل جواد على وجه الأرض .

ويختلف لون الخيل العرب وقد استفاضت شهرة الشهب والشقير والكُمْت . وأجملها الشهب المدنرة أي التي يخالط الشبهة فيها نكتٌ سودٌ (أبيض مبقج أو أزرق مبقج) .

وزن الجياد العرب بين ٤٠٠ و ٤٥٠ كيلو غراماً ارتفاعها ١,٤٢ إلى ١,٥٥ متر ، ودورة صدرها ١,٧٢ إلى ١,٧٨ متر ، وتصلح الخيل العربية للركوب والسباق خاصة وإن من إسفاد ذكورها على إناث إنكليزية غير كريمة منذ بضعة قرون تولدت الجياد الإنكليزية الصافية السبّاقة الشهيرة التي يقصر اليوم عن إدراكها كل جواد في حلبة السباق .

وأجمل الخيل العرب ما كان في دمشق وحمص وحماة ولدى بعض الأسر والعشائر القديمة كالدنادشة في تل كلح والموالي في شمال الشام . ولا تزيد نسبتها على عشرة في المائة من مجموع عدد الخيل لدى أهل الحضر من الشاميين .

الحمير - في الشام ثلاثة عروق من الحمير : الآسيوي والمصري والقبرصي أو الأوربي . فالصنف الآسيوي هو الأشهر (تبلغ نسبته ٩٥ في المئة من مجموع حُمّر الشام) لونه إلى سواد وارتفاعه متر إلى متر وربع ، وهو حيوان الفقراء ، يصلح للركوب والحمل ولا يوازيه حيوان بصره وقناعته وفوائده الجمّة إذا قيست بالعلف القليل الذي يُعلفه . أما الحمير المصرية فيبضاء اللون ارتفاعها أكبر من ارتفاع الحمير الآسيوية ولا تستخدم إلا للركوب وهي جميلة المنظر سبّاقة في نوعها وثمن الجياد منها غال لا سيما في المدن . أما الحمير القبرصية فتعرف من كبر قدها إذ يبلغ ارتفاعها ١,٣٠ إلى ١,٤٠ متر وهي تستعمل في سفاد إناث الخيل للحمول على بغالٍ عظيمة القد قوية البنية .

البغال - تحصل من إسفاد الحمير القبرصية على البراذين (كلش) وهي

ذات قَدِّ يقرب من قد البراذين فهي إذن صغيرة القد وفائدتها بقناعتها وقوتها وتحملها الأتعاب وقيامها بأعمال تشق على كل حيوان غيرها . فهي تستخدم مثلاً في الحرث بمحاريث حديثة لأن بقر الشام صغير الجثة لا يقوى على إثارة الأرض بها . وتحمل أثقالاً في المناطق الجبلية الوعرة المسالك كوادي التيم والقرى الجبلية من إقليم البلان وتجر المركبات الضخمة المحملة بضاعات وموتناً على الطرقات المعبدة في لبنان وبين دمشق وبيروت . ومن منام ير في لبنان وبيروت المركبات الشهيرة التي تسمى (كارات) يجرها أربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض على سطر واحد . ولقد ترك الجيش الإنكليزي في الشام عقب الحرب الكبرى عدداً عظيماً من البغال الكبيرة القد لا تبرح بقاياها في دمشق إلى يومنا هذا . وهي تتطلب عنايات كثيرة وعلفاً زائداً ولا تتحمل المشاق بقدر البغال الشامية .

البقر - بقر الشام من العرق الآسيوي القصير الرأس ذي الجبهة المستقيمة العريضة وهو على ثلاثة أصناف: البلدي والعكش والجولاني (أو الحميسي) فالبقر البلدي شائع في الغوطة وفي أرجاء العاصي ويسميه الحمصيون البقر الحلبي والحمويون البقر الشامي وهو كبير طويل القامة (متر وربع إلى متر ونصف) صلب العود قصير الرأس والقرون ناعم الجلد تغلب الشقرة على لونه وقد يكون كيتاً أو إلى سواد أحياناً . ووزنه ٣٠٠-٥٠٠ كيلو غرام وهو بالنظر إلى كِبَرِ قداه أقرب الأصناف إلى البقر الأوربية ولذا يصلح للحرث حرثاً عميقاً إذا علفت أثناءه علفاً غزيراً تحلب في الغوطة طول السنة تقريباً . ويُحسب أنها تدر عندئذ ١٢-١٥ كيلو في اليوم خلال ستة أشهر عقب الوضع و ٨-١٠ كيلو في اليوم في الثلاثة الأشهر التي تليها ثم ٤-٥ كيلو في اليوم خلال شهرين آخرين . فيكون الوزن المتوسط لما تدره من اللبن في السنة ٢٥٠٠-٢٧٠٠ كيلو .

ولا يألف البقر البلدي أقاليم الشام بأسرها بل يتطلب إقليماً معتدلاً ورطباً ، ولهذا يندر أن تراه في غير البساتين وهو لا يقاوم الحر في السهول التي لا ماء للري فيها كحوران والبلقاء وسهول حمص وحماة وغيرها . وعدده ليس عظيماً ولا يزيد على ١٠ أو ١٢ في المائة من مجموع بقر الشام . ويسمى البقر الجولاني بأسماء مختلفة فيقال له الحميسي في النبك والزبداني والبزري في حماة . ويغلب

على الظن أنه حصل من إسفاد الثور البلدي على البقرة العكش ولذا جاء قده ووزنه وتكوينه وطباعه بين بين . فإن له رأساً قصيراً وجبهة عريضة وقرنين متجهين إلى الأمام وثوباً أسود في الغالب وقد يكون أشقر أحياناً . وطوله نحو ١,١٥ إلى ١,٣٠ متر ووزنه نحو ٢٥٠ كيلو . وهو يعد في العوامل وتعطي أنثاه قليلاً من اللبن . وليس له رقة البقر البلدي وهو أكثر منه تحملاً للحر والقر والجوع والتعب . ونسبته للمجموع ١٥ في المئة تقريباً .

وأشهر البقر اليوم هو الذي يدعى البقر العكش في أكثر أنحاء الشام . ويسميه الحمويون القليطي والحمصيون الأناضولي . ولا تختلف تحليته من حيث تكوينه عما ذكر . وله جرم صغير ولا يزيد ارتفاعه على متر وعشرة سنتيمترات إلى متر وربع ووزنه نحو ٢٠٠ كيلو وقد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحاريث حديثة تغور في التراب كثيراً . ويغلب عليه اللون الأسود وقليلاً ما يكون أبرش أو أشقر . ويحتمل هذا الصنف من البقر الجوع والتعب والحار واليبوسة ولهذا تبلغ نسبته نحو ٧٥ في المئة من مجموع بقر الشام . ودرّ أنثاه قليل ويسهل علفه وتسمينه بالغذاء .

الضأن - ينتسب للضأن في الشام إلى العرق الشامي أو الآسيوي وهاك تحليته فنياً : رأسه طويل قليلاً وجبهته تكاد تكون مستقيمة ، وقرناه معقوفان متجهان إلى الوراء ، وقد يتفرعان ، ووجهه مستطيل ، وعظام منخره طويلة ، ومنظر رأسه ووجهه ينم عن احديداب قليل ، وذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن . ووزنه المتوسط نحو ٤٠ كيلو غراماً وطوله ٦٥-٧٥ سنتيمتراً . وهو يسمن بسهولة أما مقدار الدرّ في النعاج فمتوسط .

وفي الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عوّاس) أو ضأن الموصل وهو شائع في حمص وحماة والبقاع ودمشق ولبنان وغيرها . صوفه أبيض يبلغ كيلو غراماً ونصفاً إلى كيلو غرامين وقد يزيد على ذلك . وينقص نحو نصفه إذا غسل ويبلغ وزن إلبته ٥ إلى ٦ كيلو غرامات وطول الشعرة من صوفه ١٥-١٨ سنتيمتراً .

وما ذكر من الأرقام هو الحد الأوسط ، وربّ كبش سمن في لبنان بورق التوت والكرمة فبلغ وزنه ضعفي ما ذكر ، وبلغ طول الشعرة من صوفه ٣٠

ستتيمتراً وزاد وزن إلبته على ثمانية كيلو غرامات ، ورقّ صوفه ومسرّين . ويرد إلى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمرء والبرازية والشقراء والنجدية ثم ضأن أرزنجان أو المور في حلب وهو ذو صوف أحمر أو إلى سواد . وتدر النعجة لبنها ٤-٥ أشهر فتعطي في اليوم نحو ٥٠٠ غرام . وإذا علفت كما تعلق في حمص والبقاع تعطي ٧٥٠ غراماً إلى كيلو غرام من الحليب في كل يوم . ويبدأ جز الصوف في آذار وينتهي في أيار في المناطق الباردة ، وأكثر ما يكون في نيسان .

ويزيد عدد الضأن في الشام على مليوني رأس وتربيته شائعة لدى العشائر البدوية الضاربة في الشرق ومنها الجزيرة . وقد اشتهرت عشيرة الحديدية بحسن تربية الكباش والنجاج الصالحة للسفاد . واشتهر السمن الحديدية نسبة إلى تلك العشيرة التي تقطن منطقة الحمرء ومعرفة النعمان في الصيف . وينقل في كل سنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم والعراق إلى الشام حيث يستهلك بعضها ويرسل الآخر إلى مصر وجزر يونان وغيرها .

المعز - معز الشام من العرق الإفريقي وتحت العرق النوبي (نسبة إلى النوبة) وهي تعرف برأس طويل ووجه قصير على شكل مثلث قاعدته ضيقة ، وجبهته محدبة كثيراً . وهي على صنفين البلدية والجلبية ، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ٧٠-٧٥ سنتيمتراً ووزنها ٣٠-٣٥ كيلو غراماً ، ولها ثوب أحمر أو أحمر ملمع بيباض . وقد تكون شهباء أو سوداء أحياناً وقد تجمع ثلاثة ألوان متفرقة: بيباض وحمرة وسواد . وإذا كان لونها أحمر وجبهتها بيبضاء سميت صبحاء بدمشق ، أما إذا جمعت البيباض والحمرة فتسمى عجمية ، وهي جماء في الغالب . وإذا نجمت لها قرون تظل صغيرة وكثيراً ما تقطع ، وينمو لكل منها زنتان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء وهي شبة حسنة تزيد ثمنها وأذناها طويلتان متدلّيتان وكثيراً ما ينيف طول واحدهما على شبر ويقطعهما الأكارون إذا أفرطتا في الطول . والبلدية من أجود المعزى الحلوبة فهي إذا صادفت عناية تدر في اليوم ليرتين إلى ثلاثة من الحليب مدة ستة أشهر وتدر نصف هذا المقدار تقريباً خلال شهرين آخرين . وهي ترعى في الغوطة العشب النامي حول القني ومجاري الماء وترعى أيضاً الفصفصة والبيقية الخضراء ، وكثيراً ما تعلق نحو كيلو غرام من حب الجلبان

صباح كل يوم قبل تسريحها وهذا خاص بالحلوبة منها .
والماعز الجبلية تشبه البلدية بصفاتهما الفنية لكنها أقصر منها ، ولها ثوب أكثر
ما يكون أسود ، وهي ليست دروراً بقلر البلدية . والمعزى الجبلية منتشرة
في أنحاء الشام لا تخلو منها قرية وعلى العكس في البلدية التي تكاد لا تخرج عن
المدن والمناطق التي يكثر فيها الكلاً في فصول السنة .

الإبل - إبل الشام من ذوات السنام الواحد . أما ذوات السنامين فتوجد
في جبال فارس والأناضول وبلاد الكرد وتنقل إليها من آسيا الوسطى . ولما
كانت تحتمل البرد والسير في المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون في إسفاد فحولها
على النوق الشامية فحصلوا على هجن لها سنام واحد كأمهاتها وذات جلكد على
السير في الجبال والأوعار كآبائها . وهذه الهجن شائعة في الجزيرة ولبنان وعجلون
وغیرها وهي تعرف بقصر القامة وصغر الرأس .

والركائب من إبل الشام أصناف وأشهرها اليوم إبل الحرة لدى عشيرتي
بني صخر والشرارات وغيرهما في البلقاء . وينتقي الجيش ركائبه من هذه الإبل
غالباً . ومنها الإبل العُمانية أصلها من عُمان وهي ذات رأس نحيف وقد
أهيف ومزاج عصبي . وجيش الهند يبتاع منها ما يلزمه من الإبل ، ومنها الإبل
التيهية أصلها من السودان وترد إلى فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر .
وقد كانت إبل الجيش الإنكليزي من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى .

ويطلق الأوربيون كلمة مهري على الإبل السبابة عموماً أو على عرق معلوم
منها . ويُظن أن هذا الاسم مشتق من الإبل المَهْرِيَّة المنسوبة إلى مَهْرَة بن
حَيْدَان وهي مشهورة بالسبق .

والبعير صديق البلوي الحميم ولولاه لزالت البداوة ، فهو يحمل الخيام والماء
في المراحل الخالية من الماء وموثاً تكفي لسته أشهر يقضيها البلوي مع عشيرته
في صحراء الشام ، ويحمل البلوي نفسه وعياله وسلاحه وتحلب الناقة بعد
الوضع في كل يوم خمسة لترات إلى عشرة في مدة سنة أو أكثر ، وحليب
النوق اللذيذ ملين ، وليس لحم الحمل أردأ من لحم البقر الذي يأكله الأوربيون
ووبر الحمل ألين من صوف الضأن ومنه تصنع عباءات الوبر العراقية الشهيرة ،
وتصنع من جلده قرب عظام منها ما يسع ٢٠٠ لتر من الماء وتعمل أيضاً نعال

قوية لا تفنى من جلد ركبتيه وغيرهما من أعضائه التي تحتك بالأرض بينما يكون الحمل جالساً .

الصناعات الزراعية في الشام :

ليس في الشام اليوم معامل عظيمة للمصنوعات الزراعية كما في أوروبا، لكن لبعض هذه المصنوعات (وإن كانت تصنع على الطرائق القديمة) شأناً كبيراً في الحياة الاقتصادية . وأهم هذه المصنوعات قمر الدين والنقوع والزبيب والدبس والصابون والزيت والسمن والعرق والحمر والجبن والطحين والنشاء .

قمر الدين - يصنع أشهر قمر الدين في الغوطة والمرج وقليلاً في وادي العجم والزبداني وبعلبك وفي كل مكان فيه مقدار من شجر المشمش ويلزم أربعة أرتال إلى أربعة ونصف من المشمش للحصول على رطل من قمر الدين، وهو يصنع من المشمش الكلابي ويندر صنعه من المشمش البلدي ، واشتهر منه بدمشق ما يرد من قريتي زملكا وعربيل من قرى الغوطة ، وليس صنعه أمراً عسراً فالمشمش يسحق بالأيدي في غربال موضوع فوق بناء يسمى تيغار أمفروشة أرضه بالاسمنت ثم يغترف العصير بكيلة من خشب ويفرش بمهارة على لوح من خشب بعد أن يطلى اللوح بقليل من الزيت ، وبعدها يوضع اللوح في الشمس يوماً ونصف يوم فيجف العصير ويصير شرائح وزن كل منها رطل تقريباً وهي « لفات » قمر الدين المعلومة .

ومعظم القمر الدين الذي يصنع حوالى دمشق يشحن اليوم إلى مصر وشمال الشام ، ويقدر ما يصنع منه سنوياً بنحو ٤٠,٠٠٠ قنطار دمشقي وهو المقدار المتوسط ، (يساوي القنطار الدمشقي ٢٥٦ كيلو غراماً) .

النقوع - هي ثمار المشمش المجففة وتسمى بالعربية المُنْفَلَق، تصنع من المشمش البلدي وذلك بأن يوضع المشمش في الشمس على مسطح من القش مدة أربعة أيام ، ثم تكبس الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين ، ثم ترقق أطرافها بالأصابع ثم تترك يومين أو أكثر فتجف . ويلزم خمسة أرتال من المشمش للحصول على رطل من النقوع ، ويدل إحصاء المكس في بيروت على أنه صدر منها وحدها سنة (١٩١١) ٦٨٠,٠٠٠ كيلو غرام من النقوع ومليون ونيف كيلو

غرام من بزور المشمش وهي تصلح لاستخراج زيت منها .
 الزبيب واللبس - أجود زبيب في الشام ما يحصل من تزيب العنب الدريلي
 في جيرود والرحبية والريحان ودومة ، ويليهِ زبيب الصلت . ويصنع الزبيب في
 كل القرى التي فيها أعناب ، وليس في صنعه صعوبة ، فالعنب يغطس بماء فيه
 شيء من القني والزيت ثم يفرش على مسطاح مدة ثمانية أيام فيجف . ويحسب
 أن كل أربعة أرطال من العنب ينتج منها رطل من الزبيب . وللثمار المجففة شأن
 كبير إذا صحت العزيمة على الاعتناء بصفها وبقطفها وشحنها إلى الديار الأجنبية
 كما يفعل الزراع حول مدينة أزمير بزيبهم وتينهم المجفف .

ويصنع اللبس من الزبيب أو العنب ، ففي الحالة الأولى يدرس الزبيب في
 المعصرة بملرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة ، ثم يوضع في قلدور كبيرة
 ويغمر بالماء مدة ٢٤ ساعة ، ثم يؤخذ ماء الزبيب (جلاب أوصلية) ويوضع
 في مرجل وتضرم النار تحته حتى يتحصل اللبس . ويلزم مائة رطل من الزبيب
 للحصول على ٦٠ إلى ٨٠ رطلاً من اللبس . واشتهر دباسو قرى معربا ودومة
 وعربيل بصنع دبس لذيذ يعطرونه بعطر الورد أحياناً .

الصابون - أشهر مصابن الشام في طرابلس ونابلس ودمشق وحلب وكنز ،
 ويبلغ المقدار المتوسط للصابون الذي يصنع سوياً في الشام نحو ١٣,٠٠٠ طن .
 وصناعته على الأصول القديمة .

الزيت - أشهر الزيوت ما يصنع في معاصر لبنان وفلسطين وأشهرها جميعاً
 زيت الرامة ، واعتاد أرباب الزيتون في دمشق أن يتركوه مدة طويلة في المعصرة ،
 فيختمر ويتعفن ويحصل له طعم كريه ، حتى إنه ليشق تصريفه خارج الشام .
 والداعي إلى ذلك قلة المعاصر بدمشق وخصوصاً اعتقاد الزراع بأنه بقدر ما تطول
 المدة بين قطف الزيتون وعصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر . واعتقادهم
 هذا صحيح إلا أن زيادة نسبة الزيت لا توازي هبوط سعره المنبعث عن رداة
 طعمه .

ويتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية : (أولاً) سحق الزيتون
 بأسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاء مستدير من حجر . (ثانياً) كبس
 الزيتون المسحوق لتفريق الزيت عن الثفل وذلك بمكبس عادي أو مكبس مائي .

(ثالثاً) تفریق الزيت عن الماء والعناصر الأجنبية المختلطة به وذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافي لأنه يطفو على وجه العصير . أما الثفل فهو يسحق ويكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيون زيت الجفقت يستعمل في صنع الصابون .

وفي الشام اليوم أكثر من ٤٠٠ مكبس منها نحو ٢٠٠ مكبس مائي، ويستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر ، وإذا استثنينا فلسطين وشرقي الأردن فإن متوسط ما يستخرج من الزيت في باقي أنحاء الشام يقدر بنحو ١٠,٥٠٠ طن نصفها اليوم في لبنان .

السمن - هو المادة التي يطبخ بها الشاميون أكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبدة ولا يعرفون السمن ، ويصنع السمن بمخض اللبن في مباحض من جلد الغنم ، تعلق بجبلين يُشدان إلى دعائم ويدوم المخض نحو ساعتين ونصف فيلتصق السمن بداخل المخضة ويقشط بعد تفرغ اللبن . ويقدر أنه يحصل أربعة أرتال من السمن من مائة رطل من اللبن . والسمن من صناعات البلو ، وأجود السمن ما يصنعه عشيرة الحديديين بلبن الضأن .

العرق والحمر - العرق ألد المسكرات وأرجحها لدى الشاميين ، ويصنع منه ما لا يقل عن ١٥,٠٠٠ هيكوليتير في كل سنة في دمشق والنبك وحمص وزحلة وكثير من قرى فلسطين ولبنان ووادي التيم . يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الأنيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلو غرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأنيسون ، وبعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع العصير تقريباً ، وإذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه أكبر (عرق مثلث) يعمد إلى العرق الأول فيضاف إليه مقدار من الأنيسون ويقطر منه عرق ثقيل .

وليس شرب الحمر شائعاً في الشام شيوعه في أوروبا حيث يقوم مقام الماء أثناء الطعام . وأكبر المعامل لصنع الحمر هو معمل ريشون في عيون قارة في فلسطين وهو معدود من أكبر معامل العالم ويشحن نيئذ إلى مصر والعراق وإلى أوروبا ولا يستهلك من نيئذ في الشام إلا مقدار قليل ، ويليه معمل كسارة ومعمل شتورة في البقاع .

النشاء - يصنع في الشام لا سيما في دمشق وحلب مقدار من النشاء لاستهلاكه وقاعات النشاء في دمشق معروفة ، وهو يستخرج فيها من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها . تنقع الحنطة في الماء نحو عشرة أيام ثم تسحق بججر الرحي وتمرس بضع مرات بالماء حتى يخالط النشاء الماء وبعدها يترك المائع فيرسب النشاء في قعر الوعاء ، ويحسب أن القنطار من الحنطة يعطي ٦٥-٧٠ رطلاً من النشاء بهذه الطريقة ، أما النفل فتعلفه الجمال .

المطاحن - كانت مطاحن الشام إلى عهد قريب عبارة عن أحجار رحي يديرها الماء بقوة انحداره ، أما اليوم فيشاهد المرء عشرات من المطاحن البخارية في الأماكن التي لا ماء فيها عدا بضع مطاحن على آخر طراز من الفن أي إن أرحيتها أسطوانات تدار بالكهرباء وهي في دمشق وحيفا ويافا .

الجبين والقشطة - تعزل القشطة عن الحليب فتؤكل وحدها وتضاف إلى بعض الحلواء ، وتصنع جبنة لا لذة لها بالحليب الذي فرزت قشطته ، وأشهر أنواع الجبين المصنوع في الشام الأبيض والحالوم الحليبي ، وقد أخذ الشاميون يصنعون جبين البلقان المسمى قشقوان ولم يتوصلوا إلى تخميره كما في موطنه الأصلية وجميع أنواع الجبين المذكورة بعيدة عن أن تساوي أنواع الجبين الأوربية بلذتها وتعدد أنواعها .

زراعة الشام من الوجهتين المالية والاقتصادية :

نذكر في هذا البحث أقسام الأرض والضرائب الزراعية وطرائق استثمار الأرض وإقراض الزراعة .

أقسام الأرض - تقسم الأرض في الشام من الوجهة القانونية إلى خمسة أقسام وهي الأرض المملوكة والأميرية والموقوفة والمتروكة والموات ، ولكل قسم من هذه الأقسام نظام خاص في دفع الضرائب الزراعية . فالأرض المملوكة هي التي يملكها صاحبها ملكاً صحيحاً تاماً بحيث يستطيع وقفها وعدم زرعها مدة طويلة ، ومثالها الحدائق المتصلة بالبيوت وما يسمى الأرض العشرية والحراجية (بعض بساتين محيطة بمدينة دمشق الخ) . والأرض الأميرية هي التي يعود تملكها (رقيبتها) لبيت المال ، وهو يخول الأهلين استثمارها أي حق التصرف بها بصك يسمى

« سند التصرف » . ومعظم الأرض في الشام من هذا القسم . وليس من فرق كبير في الأمور الجوهرية بين المتصرف بالأرض الأميرية وبين مالك الأرض المملوكة ، لأن الأول وإن لم يملك الأرض قانونياً فإن له سلطة كافية في استثمارها والتزول عنها حسب إرادته ، وهي تنتقل لورثته بعد وفاته ، إلا أنه لا يستطيع وقفها إلا بإذن وهو إن لم يستثمرها ثلاث سنين بلا عذر مقبول يضطر إلى دفع قيمتها على شكل معلوم ، حتى إذا استنكف من الدفع عدت الأرض محلولة ووجب بيعها بالمزاد العلني . وثمة فرق بين الأرض المملوكة والأرض الأميرية ، وهو أن للورثاء من الدرجة الواحدة حصصاً يتساوى فيها الذكر والأنثى في الأرض الأميرية ، أما في الأرض المملوكة فللذكر مثل حظ الأنثيين . ولا يسمح للمتصرف بالأرض الأميرية أن يوصي بها بعد مماته وعلى العكس في رب الأرض المملوكة . والأرض الموقوفة هي التي حبست في سبيل البر وليس من شأننا البحث فيها ، والأرض المتروكة هي التي تركت للنفع العام كالطرق والساحات والبيادر والمحتطبات ومراعي القرى . وهي لا يملكها أحد ورقبتها لبیت المال والتصرف بها للجماعة . والأرض الموات هي الأرض البعيدة عن العمران التي لا يتصرف بها أحد . والحكومة تعطي رخصاً بإحياء الأرض الموات فبالصرف بها على شروط موضحة في قانون الأرض .

الضرائب الزراعية :

على الأرض الأميرية في يومنا هذا نوعان من الضرائب ، ضريبة تابعة لقانون ٧ رمضان سنة (١٢٧٤هـ) وقلدها ٤ في الألف من ثمن الأرض ، وضريبة أعظم شأنًا وأكبر تأثيراً في الزراعة وهي العشر أي استيفاء عشرة في المائة من محاصيل الأرض غير الصافية يضاف إليها اثنان ونصف باسم المعارف والمصرف الزراعي أما الأرض المملوكة (وهي كما قلنا قليلة في الشام إلا في لبنان الصغير حيث كل الأرض تعد مملوكة) فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها بل يدفع عشرة في الألف من ثمنها في كل سنة .

والعشر من المصائب المزمته في هذا القطر لأن ١٢,٥٠ في المئة من المنتجات

غير الصافية هي نسبة كبيرة في ذاتها ، ولأنه يصعب جداً تخمين الغلات على وجه الضبط لأخذ هذا المقدار منها . فقد حارت حكومات الشام في طريقة استيفاء العشر أو ثمنه ولا تزال حائرة ، لأنها إذا خمنت الغلات تخميناً فقد يضل المخمنون أو يتعمدون الخطأ أحياناً فيُظلم الفلاح إذا جاء التخمين زائداً عن الحقيقة ، وإلا فيخسر بيت المال . وإذا باعت العشر بالمزاودة العلنية من ملتزمين فهم لا يُقدمون على سوى قرى الفلاحين فيظلمونهم بطرق شتى دون أن يجسروا على المزاودة في عشر قرى الوجهاء ، فيكون الضرر مزدوجاً على الفلاح وعلى بيت المال معاً . وقد رأت الحكومة أخيراً أن تعمد إلى معدل عشر أربع سنين ماضية فقره وتستوفي ضريبة محدودة مساوية له سواء زرع الفلاحون الأرض أو لم يزرعوها . وهذه الطريقة في استيفاء العشر وإن كانت أصلح من الطريقتين السالفتين إلا أنها ليست عادلة إذا قلّ المطر في إحدى المناطق بعض السنين هذا عدا أن أساسها فاسد ، لأن متوسط عشر سنين أربع في قرى الفلاحين يكون قريباً من العشر الحقيقي غالباً . أما في قرى الوجهاء فيكون أنقص لأن الأعيان لا يدعون الحكومة تصل إلى حقها .

والخلاصة أن مسألة العشر في الشام من أعقد المسائل وكثيراً ما اقترح أرباب الفلاحة على الحكومة أن تسمح الأرض كما في بلاد الفرنج وتضع على الأرض وما تنتجه ضريبة واحدة لا تتبدل تخلصاً من العشر كما يجري العمل به في أرض مصر . وإن هذا الاقتراح في غير محله أو هو مما يتعذر اتباعه في كل أنحاء الشام على السواء ، لأن الأمطار في الشام متفاوتة التهطل . فقد يهطل في سنة ثلاثة أضعاف ما يهطل في السنة التالية ، لا سيما في سهول الشام الشرقية ، ولهذا يختلف محصول الأرض اختلافاً عظيماً كل سنة . وقد تحمل منطقة واسعة في إحدى السنين ولذلك لا يجوز أن يستوفي منها في تلك السنة ضريبة كالتالي تستوفي في سني الخصب . أما إذا كانت الأرض تسقى بماء نهر أو قناة فعندها يمكن وضع ضريبة ثابتة عليها كما في الغوطة مثلاً .

طرائق استثمار الأرض :

إذا قلنا إن أكثر من ستين في المائة من سكان الشام يعملون في الفلاحة رأساً

أو بالواسطة فلا نكون مغالين في قولنا لأن سكان المدن الكبيرة والمتوسطة وإن كان عددهم يقرب من نصف مجموع السكان في الشام فكثير منهم لا عمل له غير الفلاحة . ويتصرف الشاميون اليوم بالأرض على نسبة غير عادلة ، ومعنى هذا أن أرباب الوجاهة والثروة على قلتهم يتصرفون بمساحات واسعة جداً في كثير من المناطق ، بينا الفلاح يعمل في الأرض دون أن يكون له في تملكه نصيب ففي أطراف حماة مثلاً ١٢٤ قرية منها ثمانون في المائة لأرباب الوجاهة من عيال لا تتجاوز عدد الأصابع ، والباقي وهو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة من الشعب . وفي أرجاء حمص ١٧٦ قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم وعشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين إلا بضع قرى لم تمتد إليها أيدي المتغلبين فلبثت للفلاحين وحدهم . وهكذا قل عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان وغيرها في حلب . وليست الحالة كذلك في حوران حيث ترى ٩٥ في المائة من الأرض موزعة بين سكانه على نسبة عادلة ، وكلهم أرباب فلاحة وكذا في جبل حوران وعجلون والبلقاء والكرك ووادي التيم وإقليم البلان ، وما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة إلا ويملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الأرض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الأخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق .

وبعد، فقد كان السلطان عبد الحميد العثماني من أقدر السلاطين على تملك الأرضين وجمع الثروة، فقد تملك لشخصه شرقي حمص وسلمية نحو مليون هكتار من الأرض تشتمل على جبل البلعاس والشومرية وتمتد إلى مقربة من تدمر، وعمّر فيها نحو مائة وعشرين قرية ومزرعة تستثمر نحو مائة ألف هكتار . وتملك في أنحاء حلب نحو ٥٠٠,٠٠٠ هكتار فيها اليوم ٥٦٧ قرية ومزرعة عامرة حوالى منبج والباب وعلى الشاطئ الغربي من الفرات من مصب الساجور إلى مسكنة ويشمل معظم جبل الحاص ومساحات واسعة جنوبي حلب عند مصب نهر قويق واقنتى أيضاً سبع قرى في حوران منها قرية المسمية كما اقتنى بيسان وبضع قرى بالقرب منها . وكان يوظد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة ويعفي الزراع المستأجرين من الجندية ويحميهم من تعدي أرباب الوجاهة ويسلفهم المال بلاربا

حتى عمرت تلك الأنحاء بعد أن كانت منازل للعربان يعيشون فيها فساداً . ولما حصل الانقلاب العثماني سنة (١٩٠٨) اضطر السلطان المشار إليه إلى التنازل عن هذه المعمورات إلى بيت المال ، فأصبحت ملكاً له وأصبح فلاحوها مستأجرين لدى المالك الجديد ، وهو بيت المال أو الحكومة . ويدفع الفلاحون إلى الحكومة عشرين في المائة من المستغلات في بعض الأماكن و ٢٢,٥٠ في المائة في أماكن أخرى (عشر وأجرة أرض معاً) . وهم وإن كانوا مستأجرين لا يملكون الأرض رسمياً فهم يتوارثونها كأنهم مالكون لها والحكومة لا تُخرج فلاحاً من قريته إلا إذا أتى عملاً منكرأ من إحداه فتنة أو التماذي على الإضرار بالناس . ولما كانت الحكومة تسلف هؤلاء الفلاحين أموالاً بلا ربا وكانت تستوفي من غلات الأرض نسبة أقل منها في قرى الوجهاء ، رجحت حالة الفلاح في أملاك الدولة من كل وجه على حالة الفلاح المسكين الذي يستعبده المتغلبون في قراهم . ومع هذا اقترح على الحكومة منذ نحو سنتين أن تبيع هذه الأملاك من الفلاحين أنفسهم دون سواهم على أن يدفعوا الثمن أقساطاً خلال خمس عشرة سنة ، وعلى أن يضمن عدم مد المتغلبة أيديهم لهذه الأرضين ، فأقرت الحكومة البيع مبدئياً . وقد أثبتت لنا الأيام أنه لا يستطيع أن يزيد في غلات الأرض سوى الذين يملكون فيها مساحات متوسطة أو صغيرة .

ولنرجع إلى طريق استثمار الأرض المتبعة اليوم في الشام فنقول : إذا استئينا الغوطة والمرج وبعض ما يسقى وما حوالي المدن من المزارع ، حيث يستغل بعض أرباب الزراعة أرضهم مباشرة ويدفعون إلى الفلاحين المشتغلين بها أجوراً مقطوعة سنوية أو شهرية ، فإن الأرض في سائر الأنحاء تستغل على طريق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم) . ففي حمص وحماة يأخذ صاحب الأرض ربع المحصول فيدفع منه العشر وتبقى الثلاثة الأرباع للفلاح . وفي هذه الحال يلزم الفلاح بجميع النفقات والأعمال ، ولكن صاحب الأرض قد يقرضه البذار بربا في الغالب على أن يستوفيه من البيدر . ويأخذ أصحاب الأرض ربع المحاصيل في بعض قرى حوران ويدفعون منه العشر وضرية الأرض ويكون الباقي للفلاح مقابل النفقات والأنتعاب . لكن الطريقة الشائعة في حوران هي إيجار الأرض بمقدار معلوم من الحب كأن تؤجر (الربعة) بنحو ٥٠-٦٠ مداً

من الخنطة ، ولما كان يزرع في الربعة أرض تستوعب ٥٠-٦٠ مداً من البذار ، فإذا أغل المد أربعة أمثاله أو خمسة أمثاله تكون الأجرة التي استوفها صاحب الأرض معادلة لربع المحصول أو خمسه .

وكلما كانت القرية في منطقة سكانها كثار وأرضها ضيقة ، يزداد المقدار الذي يستوفيه صاحب الأرض من المحصول والعكس بالعكس . ففي البقاع مثلاً يأخذ صاحب الأرض نصف المحصول ويؤدي العشر منه إلى الحكومة . وفي الحولة حيث الأرض تروى تكون حصة صاحب الأرض ثلث المحصول ويكون عشر المحصول عليه . أما في الغوطة والمرج فحصة صاحب الأرض الثلث لكنه لا يدفع إلى الحكومة سوى عشر هذا الثلث ، وعلى الفلاح أن يدفع العشر عن ثلثيه .

هذه بعض طرائق استثمار الأرض وتعود فيها جميع النفقات والأنعاب على الفلاح . أما إذا أحب صاحب الأرض أن يكون رأس مال الاستثمار منه فالفلاح الذي يشتغل في أرضه يسمى (مرباعاً) وهو مطالب بأعمال فدان من البقر (زرع نحو ثمانية هكتارات حبوباً وتجهيز مثلها للسنة القادمة) . ويأخذ ربع المحصول أو خمسه بعد رفع العشر من المجموع في الغالب

إقراض الزراع :

يعوز الفلاحين في الشام النقود الكافية لاستثمار أرضهم على مقتضى قواعد الفن . وهم كثيراً ما يستدينون المال من المرابين بفوائد فاحشة لا يبعد أن تبلغ ١٠٠ في المئة أحياناً . ولهذا ترى غلة أرضهم تكاد لا تكفيهم للإنفاق على حاجياتهم الضرورية وقلما ترى فلاحاً في سعة ، يكسحون كلهم طول السنة لتحصيل بلغة من القوت ، وسبب ذلك ضيق ذات يد الفلاح ، فهو لا يستطيع أن يحرث الأرض حرثاً عميقاً بأبقاره الصغيرة المهزولة التي لا تُعلف غير التبن ، ولا يستطيع أن يتناع آلات زراعية حديثة أو أسمدة معدنية ، ويستحيل عليه أن يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يغلو ثمنه ، لأنه في حاجة دائمة إلى المال . والسعيد من الفلاحين من لم يثقل الدين كاهله ومن كان مفلتاً من برائن المتغلين والمرابين .

اتضح للحكومة العثمانية أن الأكارين وأصحاب الأرض في حاجة كبيرة

إلى مصرف زراعي يقرضهم المال بفائدة مملوذة إلى مدة طويلة فأست مصرف الزراعي وجمعت له رأس مال صغير بأن أضافت إلى العشر الذي تستوفيه من حاصلات الأرض ٥٠ في المئة من الربح باسم هذا المصرف ، وأنشأت له فروعاً في الأطراف وسنت له قانوناً محكماً بعد درس واختبار فأقبل الفلاحون عليه أيما إقبال . ولما كان رأس ماله قليلاً فقد لبثت فائدته مملوذة ، فعسى أن تهتم الحكومة الحاضرة بتزويد رأس ماله وهو من أنفع أعمالها ولعلها لا تسمح لبرائن الأجنبي أن يناله أذاها .

الخلاصة :

الشام فقير جداً بمعادنه المفيدة من الوجهة الاقتصادية . ومعناه أن عدد هذه المعادن وإن كان عظيماً وكذا أنواعها فهي لا كبير فائدة منها اللهم إلا معدن الحمر في حاصبيا . والأرجاء التي ليس فيها معادن ذات شأن (لا سيما الفحم الحجري الخالص لا اللينيت) لا يمكن أن يكون فيها صناعات كبيرة . ولهذا لا نرى في الشام إلا صناعات يدوية كنسج الملبوسات الأهلية في دمشق وحمص وحماة وكالمصنوعات الخشبية والنحاسية وغيرها . فالشام إذن لا يمكن أن يكون له عظيم شأن في المعادن والصناعة، وليس له اليوم شأن يذكر في التجارة لكن له مستقبل حسن في قضية الاتجار بالسيارات مع العراق وبلاد العجم عن طريق بادية الشام . ونستنتج من بحثنا عن الفلاحة أن لها في الشام شأناً غير شأن الصناعة والتجارة . فإذا أحصينا بالمكس مثلاً أنواع الأشياء الأهلية التي تصدر من الشام إلى البلدان الأجنبية نجد أن أكثر من ٩٠ في المئة من هذه الصادرات هي غلات أو مصنوعات زراعية نباتية أو حيوانية . ثم إذا أمعنا النظر في أنواع واردات الحكومة في الشام نرى أن نحو ٥٠ في المئة منها هي واردات زراعية مثل عشر المستغلات والضريبة على الأرض والماشية وواردات أملاك اللولة وواردات الحراج وغيرها . فزراعة القطر الشامي إذن وإن كانت لا تساوي زراعة الأقطار الغزيرة الأمطار أو التي منحتها الطبيعة أنهاراً كبيرة هي الركن الأعظم في حياة هذا القطر الاقتصادية اه .

الصناعات الشامية

مواد الصناعات :

تتوقف الصناعات في بلد على وجود الموارد الأولية فيه ، وكان ذلك في القديم أقوى عامل في قيام الصناعات ، والمواد الأولية في الشام على حصة موفورة لا ينقصها اليوم إلا الفحم الحجري وبعض الأصباغ . وكانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة من سطح أرضها وبطنها . وتسلسلت الثقافة بها تسلسلاً عجيباً في البيوت الصناعية ، وكانت الأمة الخالفة تأخذ عن الأمة السالفة هذه الثقافة والتربية على نحو ما يعلم الصناع أبناءهم . والصنائع كما قال ابن خلدون لا بدّ فيها من العلم ، وإنك لتجدها في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط ، فإذا ترايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل ، وعلى نسبة رسوخ الحضارة وطول أمدتها تكون جودة الصنائع في الأمصار .

إن قطراً هو معدن الحرير والصفوف والوبر والمِرْعَزَى والقطن والكتان والقنب يفيض عن حاجياتها وكمالياتها . وفيها الحديد والنحاس والقصدير وغيرها من المعادن ، وتوجد في سهولها وجبالها الأخشاب على أنواعها ، وتكثر في أرجائها الحيوانات الداجنة والمفترسة ، وفيها المياه الدافقة والشلالات البديعة . إن قطراً يحوي هذه الخيرات لا يحتاج إلا إلى أيدي صناع لصنعها ، وعيون عودت النظر إلى الجميل واقتباس النافع منه ، ونفوس طبعت على حب التقليد والاحتذاء ، حتى تخرج ما به تفاخر ، وتعيش من عملها عيشاً غنياً نضراً .

الغزل والحياكة والنساجة :

كانت النساجة والحياكة والغزل راقية في معظم ما عرف من أدوار الارتقاء وقلما أخرجت الشام رذالة المتاع ورديته . بل كانت تخرج جيدة ونفيسه ، وكان أهلها ولا يزالون يحسنون غسلها ونفشها ومشطها وحلجها وفتلها ومشقتها وحياكتها ونسجها . واشتهر القطر منذ القديم بيزه وقماشه وديباجه وخزه وبروده وكان للدباجين صناع الديباج والأكسية والمسوح صناعة رابحة ، وإلى اليوم لم يبرح حلاجو القطن ، ومنهم من يستعمل لها الآلات الإفرنجية الحديثة ، ومنهم من اقتصر على القوس والنداف على الطريقة القديمة في الحلج والغزل في مغازل أولية تدار بالأيدي يخرجون بها كل ما يقوم بالحاجة .

أخذت معظم المدن والبلدان حظها من هذه الصناعات ، فاشتهرت في غابر الدهر مدينة أعناك في حوران بأكسيتهما الجيدة اشتهارها ببسطها ، وعرفت بعلبك بثيابها المنسوبة إليها من الأحزام والمشدّات وثوبها المعروف بالبلبكي . وتأفقت شهرة الثياب البلعسية نسبة إلى كورة البلعاس من عمل حمص على الأرجح . وعرفت منبج بالأكسية التي كانت تعمل فيها وتنسب إليها فيقال « الأنبجاني » والأنبجاني كساء صوف له خمل ولا علم له وهي من أدون الثياب . ومن ثيابهم الحميصة الشامية وهي برّنكان أسود معلّم من المرعزي والصوف ونحوه أو كساء أسود مربع له علمان ، وقد تكرر في الحديث الشريف ذكر الأنبجاني والحميصة . والحميصة قد تكون من الحرير والبرّنكان والبرّكاني والبرّنكاني الكساء الأسود وجمعه برانك .

وكان يعمل في صفد من الثياب ما يقال له الصفدية . وتعمل الثياب الحفية نسبة لكورة الحفة غربي حلب . وكان لأهل رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة حذق في عمل الأكسية وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف والنساء ينسجن . وكانت تعمل في الشام الأكسية المرنبانية قال ابن سيده : يقال كساء مرنباني ومورنب فالمرنباني لأنه لون الأرنب والمورنب ما قد خلط في غزله وبر الأرناب ، ويقال بل هو كالمرنباني . وكانت تصنع فيها القطيفة المخملة أي ذات الحمل وهي المخمل .

واشتهرت حمص بمصنوعاتها من ثياب وفوط وغيرها وقيل : إن حمص تتلو

إسكندرية مصر فيما يعمل فيها من الثياب الفاتقة على اختلاف الأنواع ، وحسن الأوضاع ، لولا قلة مائه ، وقحولة جسمه ، مع أنه يبلغ الغاية في الثمن ، وإن لم تلحق بالإسكندرية فإنها تفوق صنعاء اليمن . وقال الإدريسي في صور : إنه يعمل فيها من الثياب البيض المحمولة إلى الآفاق ، كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ، ثمين القيمة ، وقليلاً ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها . وكذلك حماة وطرابلس وحلب . ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة تبرع فيها ، وأهم ما كان منها في مدينة دهشتى .

فقد ذكر الإدريسي أنها كانت في عصره جامعة لصنوف من المحاسن « وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالحز والديباج النفيس الثمن العجيب الصنعة ، والعديم المثال ، الذي يحمل منها إلى كل بلد ، ويتجهز به منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاغبة لها ، والمتباعدة عنها . ومصانعها في كل ذلك عجيبة ، تضاهي ديباجتها بديع ديباجة الروم ، وتقارب ثياب دستوا ، وتنافس أعمال أصبهان ، وتشف على أعمال طررز نيسابور ، من جليل ثياب الحرير المصمتة ، وبدائع ثياب تنيس ، وقد احتوت طررها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ، ومحاسن جمّة ، فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال » .

وقيل : إن اسم « الدمقس » مشتق من اسم مدينة دمشق . ونقل الشاميون إلى الأندلس صنعة الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت إليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثياباً على النمط الدمشقي . قال البلري : ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش ، وهو النسج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ، ومنها عمل القماش الأطلس بكل جنسه وأنواعه ومنها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه ، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله ، وتباين أوصاله ، ومنها عمل القماش الأبيض القطني . وكان من أنواع الثياب في القديم ما أنسيناه وأنسينا أسماءه ومنها المنير والمعين والمسير والمنقوف والمسهم والمعمد والمعرج والمهلهل والمكعب والمطير والمخيتل . ولاشتهار دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفاتقة بوشيا وحسن طرازها ، عرفت هذه الصناعات باسم المدينة فيقال لها « الداماسكو » والداماسكو ثوب غليظ برسوم جعلت في جسم الثوب ويتفتنون في ذلك تفنتاً غريباً ويعملون كل

ما يجمع إلى المتانة الإبداع في الصناعة . قال ابن عربشاه : إن الحريرين في دمشق نسجوا لتيمورلنك قباء بالحرير والذهب ليس له درز فإذا هو شيء عجيب .

ولما نجحت الصنائع الإفرنجية - وكانت صناعة الحرائر والطرائف تروج زمناً ثم تنحرق وتكسد - وابتدع أحد صناع الإنكليز نسج الشيت (اليمني) كاد يقضي على صناعتنا هذه ، لولا رجل دمشقي اسمه عبد المجيد الأصفر من أهل هذه الصناعة ، فابتدع القماش المعروف بالديما فحال دون النساجة والبوار دفعة واحدة . ثم إن رجلاً اسمه الروماني من أهل دمشق أيضاً ، تفنن في المنسوجات الحريرية تفناً عجيباً ، فلما مات كادت هذه الصناعة تموت معه ، وتغلبت المنسوجات الأوربية على منسوجات حلب وطرابلس وحماة وحمص ودمشق لرخص ثمنها ، وكثرة تفننهم في تلوينها ، وتغيير أشكالها وطرازها ، وإن كان البلى يسرع إليها ، وعلى الرغم مما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة أحوالها ، على ما أصاب القطر من الأزمات الاقتصادية . ويزعمون أن ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح وتصير أثواباً ، يقرب من سبعين صنعة . تصرف مصنوعاتنا في الشام ومصر والجزيرة ، وكانت قبل الحرب العامة تصرف منها كميات وافرة في آسيا الصغرى والروم ابني فلما وضعت في العهد الأخير الحواجز الجمركية في وجهها في تركيا عادت إلى الكساد .

ومع هذا لا يزال بعض أهل هذه الصناعة يصنعون الديما وأنواع الحرير والحرير والشال البديع والأعثة الحريرية للنساء ، ما يتفاخر سياح الإفرنج باقتنائه في بيوتهم ، وإلباس أسرهم منه في السهرات وأوقات السمر ، على حين كان الناس هنا ولا سيما في المدن يزهلون فيها على متانتها وجمالها ، لأنهم بلوا بداء التقليد يقبلون على كل ما تأتيهم به أوروبا ولو كان فيه بوارهم . وأهل معامل الحرير والقطن اليوم في المجدل من عمل غزة وبيروت وبكفيا وزوق مكابيل ودير القمر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة وحلب وأنطاكية ودمشق ، تعمل فيها الأعثة والكوفيات والزنانير والملاءات والشراشف والديما والألاجة والنمارق والأرائك والسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطبالسة والميازير والبراقع والأزر والجلابيب والقطائف (المخمل) .

ومن الصناعات^(١) التي كانت الشام وما برحت تفتخر بها صناعة الشقق الحريرية والقطنية، وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع . ولصنائه تفنن في نقشه وصبغه ، يدل على رسوخ قدم في الصناعة، وذوق جميل فيها ، واشتهرت مدن الشام بإتقان تلك الصناعة ، ومنها دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس . وأشهرها المسماة بالمصرية والحامدية والحموية والحمصية والحلبية . وتفصيل تلك الشقق على الطراز العربي وهي قطنية وحريريها على غاية من المتانة والجمال . وكانت قديماً لباساً عاماً للأهلين فقيرهم وغنيهم رجالهم ونسائهم وقل المنفق منها الآن لاعتیاد الناس اللباس الإفرنجي ، ولا تزال مع هذا لباس أكثرية الأهالي يعملون منها القفاطين (القنايز) وتلد تلك الصناعة عليهم أرباحاً وفيرة ، وتصدر إلى الأناضول ومصر والحجاز والعراق، ويعد تجار تلك الصناعة من الأغنياء غالباً . ومن الصناعات الدقيقة الصنع أيضاً الشال القطني والحريري والزنانير والشملات ، وأتقنها ما عمل في طرابلس وبيروت وحلب ودمشق ، ومن صناعات الشام الكوفيات الحريرية على اختلاف ألوانها ووشيتها بالقصب الفضي بنقوش ورسوم غاية في الإبداع وسلامة الذوق والمتانة ، وما فتئت هذه الصناعات إلى الآن زاهرة رغم مزاحمة الأوربيين بكل ما عندهم من قوة تجارية وصناعية وتفنن وإبداع .

ومن الصناعات التي كانت من متممات اللباس لكنها ضعفت للغاية صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويابين تشد على الخصور ، ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأوربوا أي لم يتشبهوا بالأوربيين فضعفت صناعتها . وقد أحدثت السادة كسم وقباني معملات لحياكة الحرير في دمشق ضاهيا به ما يصنع من نوعه في فرنسا ، وكذلك أحدثت السادة توفيق وكامل وسعيد الكحالة معملات لصنع ثياب الكتان والشراشف ينافس مصنوعات أوروبا ، وأحدث السيد أنطون مزنر في دمشق معملات لصنع الشال الحرير غاية الغايات إتقاناً وجمالاً . وفي دمشق ثلاثون آلة لغسل الحرير على الطرز الحديث . وما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعية نسج المآزر للنساء مما يستعمله في الحمام وتسمى المناشف ، وما تغطي به الفرش ويسمى الشرشف

(١) استرشدت في بعض الصناعات الحديثة برأي السيدين حسني العمري ومحمد شناشيرو .

وينسج بالكتان ويوشى بالحرير من كل الألوان وهو غاية الغايات في دقة الصنعة والمثانة يصدر إلى كثير من جهات العالم . وتصنع حلب من هذه المآزر أنواعاً كانت تضاهي بها المآزر التي ترد من العجم إلى أن بذتها وقامت مقامها .

ومن المنسوجات الرائجة أيضاً صناعة الأعبئة فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها ومنها الحشنة التي يلبسها الفلاحون ، وحياتها غاية في المثانة ولها ألوف من الأنوال في دمشق وحمص وحلب وقرى القلمون ، وذلك لتوفر مادتها الأولية ولأنها لباس عامة الفلاحين، ويوجد أيضاً ألوف الأنوال في دمشق وقرية جرمانا وحمص وهي تصنع أعبئة من الصوف النحيف والوبر يرسم الأمراء والكبراء ويصدر منها إلى الخارج ولا سيما إلى فارس وبيتناج الحجاج أيام الموسم من دمشق خاصة من تلك الأعبئة ألوفاً وهي مشهورة بحسن صناعتها وعلى غاية المثانة، مع أنها من النسيج النحيف الناعم، ومما يدل على ذوق صناعتها تفتنهم في ألوانها على اختلاف ضروبها، وفي دمشق وبيروت ولبنان وحمص وحلب من الأنوال لعمل الأعبئة من الحرير وهي على غاية الرواء والجمال والمثانة وفي النهاية من سلامة النوق بوشيتها وألوانها. وتصدر إلى أوروبا وأميركا ومصر وإيران. ومما يؤسف له الآن دخول الحرير النباتي إلى الديار الشامية وصنع العباءة منه مؤثرين له لرخص ثمنه مما يكون منه بعد بضع سنوات القضاء على صناعة العباءة الحريرية في الشام إن لم تتدارك بما يحفظ رواءها .

واشتهرت حلب بالمناديل الحريرية والمقصابة المعروفة بالبوشية وفيها ٥٣ معملات كما فيها ١٢٤ للخام و ٢٤٧ لمنسوجات الغزل و ١٥٩ للحرير و ٢١٧ للأغباني أو تقليد الزنار الهندي ، وصناعة الأغباني في دمشق رائجة كل الرواج وهي عبارة عن قطعة ثوب مربعة طولها ذراعان في مثلهما ، تعمل من الحرير الدقيق ، لونها أبيض وأدكن ، وتطرز بألوان الحرير الجميلة ، وبأنواع الرسوم التي قد تعجز عنها ريشة المتفنين من المصورين ، وكانت تلك الصنعة مختصة أولاً بالهند تصدر منها إلى أطراف العالم ، وكان قليل منها يطرز في حلب ويستعمل للعمائم فقط على قماش قطني وبعض الحرير . وأما الآن فقد تناولتها أيدي جميع الشاميين الأذكياء وأكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثواباً

طول الثوب تسعة أذرع وعرضه ذراع واحد ، وتعمل منها القفاطين ، وهي الألبسة الوطنية في الشام ، وفيه اليوم ألوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش ، وتسمى القطعة منه أي ما طوله ذراعان وعرضه كذلك « سُلُكْ أغباني » وهو يستعمل في الشام غطاء للرأس أي كوفية ، وزناراً ، وملفاً للأولاد الرضع ، وعمامة ، ويصدر منه إلى الخارج كميات وافرة ، وله تجار كثار إخصائيون في دمشق وحلب وبيروت وحماة وحمص وطرابلس وفلسطين وجميع المدن الصغيرة ويصدر إلى الهند وفارس وتركيا والحجاز والعراق ومصر والسودان والصين .

واشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب وأقمشة الجوخ المعمولة بالسليم والثياب المفصصة بالجواهر والزبرج أي الزينة من وشيٍ وذهب ويقال لهذه الصناعة صنعة القصبجية والأتونية فهي ممتازة بعمل الفضوي ومشهورة بالزرركشة والتطريز ، وعرفت زوق مكابيل بصناعة الوشي وزرركشة القصب والنسيج أيضاً ، واهتدى صناعتها منذ تسعين سنة إلى رسم الأشكال التي يريدونها على المنوال بالمحواك ، واصطنعوا من الأثاث والأكسية والطنافس ما يأخذ بمجامع القلوب إتقاناً ، وعملوا نسائج هذا القز فأبدعوا فيه وأظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد ، صنعوا بها صور العظماء والملوك والأمراء مجسمة ، فكانت من أنفس أعلاق القصور . وصناعة زرركشة القصب هذه كانت راقية جداً في دمشق ، وصفها أحد سياح القرن الحادي عشر بقوله : وبياب جيرون على يسار الخارج منه حارة الذهبين ، وهي أماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظاً أولاً ، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقاً بعد خرق ، وكل ثان أضييق من قبله ، حتى تنتهي إلى الرقة ، إلى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة اه .

وسمى هذه الصناعة البلدي « صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجروق والمرفوع والممدود والمرصوع » وكان القوم يغالون في لبس الأردنية والأكسية والمعاطف والسراويلات التي تعمل من هذا القصب على الجوخ ويلبسه المترفون

والعُرس وأرباب النعيم ، وبقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول والروساء الروحيين .

الدباغة وصناعات الجلود :

كان للدباغة شأن مهم في هذا القطر تعمل من الجلود الأحذية والسروج والمطارح والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمظاهر والركوات والإداوات وما أشبهها ، وكانت أهم معاملته في حلب وفيها اليوم ٤٠ مدبغة على الطريقة القديمة وفي حماة ودمشق وزحلة ومشغرة والخليل . وتدبغ جلود الثعلب وبنات آوى التي تصلح للفراء في جوار طرابلس وبيروت . ويقدر عدد ما يدبغ من الجلود في الشام بمليون ومائتي ألف جلد منها مليون من المعزى والغنم . وقد أنشأ في دمشق السادة رومية وعمري معملاً لدبغ الجلود وعمل الشرك والشسوع للأحذية ، فجاءت مصنوعات كمنوعات أوربا من كل وجه وزادت عليها رخص أثمانها ، فأصبحت تباع حتى في الغرب ، ومعظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع دمشق ولم يجلب له غير أدوات قليلة ، والصناع كلهم من أرباب هذه الصناعة القدماء ، وفي دمشق نحو ٣٠ دباغة على الطراز القديم ودباغات الخليل مشهورة وأشهر منها صناعة القرب في تلك المدينة ، تعمل من جلد الماعز وهي صناعة خاصة بها . وفي عكا معمل جيد للدباغة .

وصناعة الأحذية والسروج والكتايش والبرادع والرباطات والرشمات من أهم صناعات دمشق وحلب . وصناعة السروج من الصنائع المشتركة في الشام ، وما يعد في جملتها لوازم الحيوانات كالعنبر والهاميين « الخراج » والبرادع « المراسح » ويعمل كل ذلك على غاية من الإتقان . ومن السروج ما يصنع وجهه من الجوخ ، ويطرز أحسن تظريز بالحرير والقصب . والجلد الذي تعمل منه السروج هو غالباً من دباغة الشام .

ومن صناعة السروجيين أيضاً أحزمة الجلد ويسمونه « قشاطاً » وجعاب رصاص البنادق ويسمونها « جناداً » وأرسان للخيل ، وصناديق للسفر من الجلد وغير ذلك من الحاجيات المحلية ، ويصدر ذلك إلى الداخلية فقط وهو يضاهاى أعمال الأوربيين أنفسهم من ذلك النوع .

وتعمل الأحذية في جميع المدن ومنها ما تستخدم فيه الجلود الإفريقية

المعروفة بلمعانها ومتانتها وحذاءو الشام مشهورون منذ القدم ، وأهل الرفاهية والبذخ اليوم يأتون بأحذيتهم من الغرب جاهزة وخصوصاً النساء يرينها ألطف شكلاً وأدق صنعة ويقبلن عليها وإن كانت أغلى قيمة وأقل متانة مما يعمل هنا . ويلحق بصناعة الدباغة أو القرظية صناعة عمل الأوتار من المصير والمرى وهي نافقة يبعثون بها بعد تحضير قليل إلى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد والقيثارات وغيرها .

تربية دود الحرير :

ومن أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفياالج أو الشرائق) وهو عمل خاص باللبنانيين وبسكان أرجاء أنطاكية . وكانت مساحة الأراضي التي تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة أكثر من الآن في أرجائنا . فقد ثبت أن عمالي وادي التيم والبقاع كانتا كلتاهما مغروستين بشجر التوت . واقتبس أصحاب تربية الدود في العهد الأخير طريقة باستور في تربية دود القز فزادوه إتقاناً . وتصدر منه كميات وافرة إلى معامل ليون في فرنسا وهناك يصلح الإصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود في نسج الثياب والطرائف . ومن تربية دود الحرير يعيش عشرات الألوف من الناس في هذه الديار . والغالب أن مناخ لبنان وأنطاكية وما إليها وبعض الأرجاء المعتدلة القريبة من الساحل تصلح فقط لتربيته ومنذ القديم لم يحظَ الحظ سائر الأرجاء أن تشترك في صنعه . وقد أسس في الزبداني في العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث وتصدر مصنوعاته إلى إيطاليا وفرنسا .

النجارة :

لم يكتف الصناع في منجوراتهم بأخشاب الشام على كثرتها ، بل أخذوا يجلبونها من قلقية ورومانيا وغيرهما ، ومنهم من يجلبونه من أميركا وهو الجوز الأميركي . يعتمدون عليه وعلى خشب الحور والجوز والزيتون والشربين والتنوب والميس والعرعر والدردار ، وكان اعتمادهم يكثر في القديم على الصندل والصنوبر والسرو . وخشب السرو والصنوبر كما قال قسطا بن لوقا

من أشرف الأشجار التي تستعمل أخشابها في البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب والدعائم والسفن ويستعان بها في كثير من الأمور .

ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكية تدار بالبخار أو بالكهرباء أو بالطرق القديمة فيعمدون إلى أيدي العملة في إحضارها ، يصنعون منها مناخذ وأصونة للثياب وإطارات ومقاعد وكراسي ومغاسل وصناديق وتوابيت ورحالاً وألواحاً لدرس الغلة وأعواد الطرب . وهذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جداً في دمشق ودخلت حلب منذ نحو سبعين سنة . وقد اشتهرت دمشق بصناعاتها التي كانت تعمل من خشب الجوز وتبقى القرون لا تتشقق ولا يسرع إليها البلى ولا تتأكل ، وعليها من النقوش ما يدل على ذوق جميل ، كما اشتهرت إلى اليوم بمصنوعاتها الخشبية . وفي حلب معملان للنجارة بأنواعها ، وكذلك مدينة بيروت فإن معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز اللور والقصور والفنادق ومنها ما لا تقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه في الغرب مع الرخص والجودة والمتانة .

وإن ما يسمى بالحلقات في القصور والقاعات القديمة دليل كافٍ على رقي فن النجارة . فإن القصر أو القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة أمتار في مثلها عرضاً وارتفاعه أيضاً يتسامى إلى الستة أمتار ، فجهاؤها الأربع وسقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق وإتقان الصنع ، ويباع منجور بعض هذه القصور إذا كانت سليمة من الأوربيين بأثمان باهظة ، وهو عبارة عن أخشاب فقط . وصناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أروع الصناعات يشهد بذلك من له أقل إلمام أو ذوق من الناظرين في المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه في المساجد وغيرها من المحال العامة وكله يشهد للمتقدمين من النجارين الشاميين بالبراعة والحذق . والنجارون في الشام اليوم من أشهر نجاري العالم باعتبارهم بصنعتهم ، والنجار بطبيعته ينبغي له أن يكون ذكياً ، لما يقتضي لصنعتهم من الإلمام بالهندسة والمساحة وضبط المقاييس والحساب وأن يكون على جانب من سلامة الذوق في الوضع والصنع . فالنجار الذي يخلو من هذه الصفات لا يحق له أن يصير نجاراً . إن هذا النجار الشامي الموصوف آنفاً يعمل بيده وتدل عليه آثاره في البناء الخشبي في دور دمشق وحلب وغيرهما

وما يسمونه الصلب وغيره من أبواب ونوافذ غاية في الإتقان . ومن صنع التجارين أيضاً قديماً الصناديق الخشبية ومنها ما هو مغشى بالصدف ومنه ما يسمونه بالحفر . ومنذ نحو أربعين سنة دخلت بيروت ودمشق آلات النجارة الحديثة التي تدار بالكهرباء فاستطاع مديرو المعامل أن يقاولوا على بنايات كبيرة لصنع أبوابها ونوافذها بغاية السرعة .

وظهرت صناعة جديدة على الطراز الغربي تسمى صناعة (الموبيليا) أي فرش الدور وتنظيفها ويتناول اسم الموبيليا جميع أنواع الخزائن والمغاسل والمقاعد الخشبية المغلفة بالنسيج الحريري ولوازم غرف النوم وغرف الطعام وغرف الاستقبال ، وكل ذلك يصنع في دمشق وحلب وطرابلس وبيروت ، وهي تضاهي المصنوعات الأوربية جمالاً وإتقاناً ومثانةً ، وتعد هذه المعامل بالمئات ، ومما يدل على الذكاء في الصناعة أن تلميذات المدارس الصغيرات يشتغلن اليوم من جملة الأشغال اليدوية على اختلاف أنواعها وأوضاعها ما تقر به العيون ويبشر بمستقبل مجيد . وقلما تجد واحدة من النساء إلا وتجد أكثر من صنعة يدوية .

ومن الصناعات التي تمتاز بها دمشق خاصة ، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصري ، وهي بواقى خشب الجوز اليابس تفصل بحسب المطلوب ، وتصلق صقلاً تاماً ، ويرسم عليها بالقلم عروق غاية في الإبداع ، ويحفر على حسب رسم القلم ، وينزل به الغراء وفوقه الصدف . وتقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصري ، وما كان رسم عرقه ظاهراً كل الظهور يسمى في عرف الصناع بالعرق . ويصنعون منه أنواعاً ، فمنها ما يسمى « بالجاردينيه » وهي أثاثة يوضع فيها قحف زهور صناعية ، بعرض مترين أو ثلاثة أذرع ، ويجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران وعرضه متر . وفي داخل ذلك الإطار مرآة وبجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لهما رفوف توضع عليها التحف المنوعة ، وفوقها تاج على علو متر أيضاً . وكل ذلك محلي بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ أسود قليل يزيد في لمعان الصدف .

ويصنع من تلك الصناعة أشكال وأنواع متعددة منها الأصونة خزائن

الثياب ومنها ما يسمى بالعرف بالبيرو (مكتب) وهو عبارة عن أربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران ويصنع منه إطار للمرأة ، وإطارات للصور ومناضد ، وجميع ما يصنع من الخشب البسيط . ومنذ خمسين أو ستين سنة كثر طلب هذا الصنف إلى أوروبا. ولكن الحكومة والبلدية لم تأخذ تلك الصناعة تحت رعايتهما فكثرت الغش فيها ، وصارت إلى البوار وانقطع عنها الطلب إلى الخارج بناتاً ، وهي لا تروج الآن إلا في دمشق وضواحيها تقريباً ، ولو عُثيت البلدية بمراقبة صناعاتها ، وجعلت لهم رئيساً مسؤولاً لدرت تلك الصناعة على دمشق أرباحاً هائلة ولأصبحت أجرة الصانع يومياً نصف دينار وراجت في أقطار العالم أجمع لجمالها ودقة صنعها .

ومن أهم معامل النجارة والفرش معامل الياس جرجي السيوفي في بيروت زرتها في سنة (١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م) ومما قلته فيها : رأيت صورة مصغرة من صورة الغرب في الشرق ، وتمثل لي فضل الذكاء العربي ، وأنه وإن لم يفق الغربي فليس دونه ، وأن يد أبنائنا صنّاع في الأعمال لا يفوقها ابن فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وألمانيا وسويسرا وبلجيكا إلا بأن الإفرنج يرجعون إلى أساليب في العمل تنقصنا ، أو تكاد في أكثر الأصقاع لا تجد لها أثراً بيننا ، وهي ترجع إلى أسباب رئيسة مهمة ، أولها الصبر على العمل ، وثانيها تجويد العمل ، وثالثها القدر اللازم للعمل من المال والمعرفة ، ورابعها الاقتصاد في الوقت والأيدي العاملة ، وخامسها تنشيط الأهلين والحكومات للمصنوعات الوطنية وحماية التجارة الداخلية بقوانين تنفذ على الصادر والوارد ، وسادسها وجود المواد الأولية التي يمكن بها الاستغناء عن المواد الخارجية في الجملة .

دلت معامل السيوفي على أن الشرقي بمفرده أمة ، وأن الأمة بمجموعها ضعيفة ، بمعنى أن الشرقي يعمل مفرداً أحسن من عمله مجتمعاً ، وذلك لفقد التربية المشتركة بين المشاركة يرجعون إليها وتضم عراهم . فلو كان معمل الغزل في دمشق لفرد واحد منذ إنشائه له خيره وعليه شره ، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذي نراه عليه ، ولو كانت معامل السيوفي في بيروت لشركة لما رأينا فيها هذا النظام والنجاح ، وبذلك صح لنا إثبات ما قدمناه من أن الشرقي أمة بمفرده والأمة ضعيفة بمجموعها ، وأن لا سبيل إلى قيام الأعمال الكبرى

وأن نقدر لها النجاح المطلوب إلا إذا اتحدت مناحينا وتعلمنا تعليماً وطنياً اقتصادياً واحداً .

على هضبة من هضاب بيروت الجميلة في حي الأشرافية ، في مكان بعيد عن مركز حركة هذا الثغر ، يطل على سفوح لبنان وبيروت وعلى البحر الرومي من أخرى ، قامت هذه المعامل البديعة في بقعة فسيحة من الأرض تدخلها فتخال نفسك في إحدى معامل الغرب الكبرى ، وأول ما يبلوئك بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن اليمين والشمال بجانبهما صندوقان معلقان مقسومان إلى بيوت صغيرة ، وفي كل بيت مقواة كتب عليها اسم أحد العملة وطبعت عليها ساعات الغدو والغداء والرواح ، فمتى وصل العامل بعد الفجر وقبل الإشراق في الشتاء مثلاً يضع مقواته في بيتها ، فلا تلبث أن تكتب عليها ساعة مجيئه والدقيقة التي جاء فيها بحروف عربية ، وفي آخر اليوم أو الأسبوع يرجع إليها مدير المعمل ، ويحسب المتأخر من المتقدم ، ويعلمون ذلك بموجب نظام خاص لهم جروا فيه على مثال نظام العمال في سويسرا والبلجيك والنمسا وألمانيا . ومن قوانين العملة في هذه الممالك اختار مؤسس المعمل أحسن ما يلائم هذه الديار وينفع في نجاح عملته ويعود عليه وعليهم بالربح واقتصاد الوقت .

وهذه الساعة من أنفع ما يجب استخدامه في معاملنا ومطابعتنا ودواوين أعمالنا وبيوتنا التجارية والمالية ودوائرنا العسكرية والملكية ليتعلم قومنا مراعاة الوقت والتدقيق في حسابه حتى يبارك لهم بساعات العمل وأيام الحياة ، ويتعلموا أن التدقيق في المواعيد أحد دعائم التنظيم في فروع الأعمال ، ومن أهم أساليب النجاح الذي غفل عنه معظم سكان هذه الديار وعلموا من ينظم أوقاته ويدقق في وعوده واستقبال خاصته ومن لهم علاقة به في ساعات محبودة متكبراً أو مهوساً .

يباكر العملة في معامل السيوفي في الصيف والشتاء والحريف والربيع على سواء وينتطعون ساعة وقت الظهر ثم يعاودون العمل إلى قبيل الغروب أو إلى بعده بقليل بحيث لا يتجاوز معدل ساعات العمل في اليوم تسعاً بخلاف عملة أوروبا فإنهم يعملون في بعض الممالك كبلجيكا مثلاً زهاء اثنتي عشرة ساعة ، ولكثرة الأيدي العاملة وللعادة والإقليم دخل كبير في هذا الاصطلاح .

وفي معامل السيوفي اليوم ٢٨٠ عاملاً مع أن الأدوات التي اقتناها صاحبها تشغل ضعفي هذا العدد فيستفيدون ويفيدون .

أكثر ما يعمل في هذه المعامل منجورات الدور الخشبية وأنواع الفرش وأثاث البيوت تعمل كما تعمل في الغرب وتتأق الأيدي والعيون في تجويدها وتساعدنا الأدوات التي تدار بالفحم الحجري وتبلغ نحو الستين آلة ومنها لقطع الخشب وصقله وحفره وتقويره ونقشه وتشيفه، فترى خشب الجوز والزان من واردات الروم (الأناضول) والاكاجو من كوبا وشوح النمسا وسنديان أميركا والخشب البياسي من قلبية تُعمل في تلك الأدوات وتحركها تلك المحركات والآلات كأنها العجين في يد خبازه أو الملائط بيد البناء الحاذق .

قال لنا صاحب المعمل: إن الآلة الكبرى المحركة في معمله هي بقوة مئة حصان تنفق في النهار ١٣ فرنكاً من الفحم وكانت الآلات التي هي أصغر منها تصرف من قبل أكثر من ذلك، وبهذا يستدل أيضاً أن نفقات المعامل الكبيرة أدنى إلى الاقتصاد وأعمالها أقرب إلى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة لا سيما والمعامل الكبرى تتجلى فيها قاعدة تقسيم الأعمال فتجد العملة في معامل السيوفي مقسومين إلى عدة أقسام قسم الأدوات وقسم التجارة وقسم الحفر وقسم البرداخ ، وللمحل رسام خاص وكلهم من أبناء العرب ليس بينهم إفرنجي . وتختلف أجره العامل في اليوم من ستين بارة إلى ستين قرشاً ويحاسب عن أجرته كل يوم سبت من كل أسبوعين في الشتاء ويحاسب في الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج إن أحب إلى الجبل يصرف ليل الأحد وليل الإثنين فيه للترهة ؛ ويقضى على كل عامل أن يعمل ستة أشهر تحت التجربة أولاً ثم تحسم من مياومته أجره أسبوعين تجعل في صندوق المحل حتى لا تحمدته نفسه بالخروج من العمل كل يوم أو كل أسبوع كما يفعل بعض العملة في المعامل ويتركون أصحابها معطين . ومن جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى وموائد يتناول عليها العملة طعام الظهر، وآلة تضغط النشارة عندما توضع فيها ، وهي من اختراع أحد العمال هنا ، وتلقي بها إلى مكان بعيد خارج بناية المعمل ومن هناك يتاعها أرباب القمامين . وما رأيت خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة إليه على نفقة صاحب المعمل وغرس

بعض الأشجار على جانبيها ويبلغ طولها نحو كيلو مترين .
 هذا ما رأته في معامل السيوفي من النظام الذي لا أبالغ بأني قلما رأته
 في معمل يرأسه شرقي ، ولذلك يصفق لصاحبه لأنه بدأ به صغيراً سنة ١٨٨٨
 في مدينة بيروت وكبره في سنة ١٩٠٨ في حي الأشرافية على الصورة التي رأيناها
 اليوم ونفقة عمارته وأرضه وأدواته تساوي خمسة وعشرين ألف ليرة ، ولكن
 لا يتيسر لمن معه مئة ألف ليرة أن يقيم مثله بأدواته ونظامه إذا لم تسبق له معرفة
 كمعرفة السيوفي ولم يقض سنين مثله في النجارة ويحيط بما جل وقل من أساليب
 العمل وتجويده . فليت كل أعمالنا تجري على هذا المثال من النظام البليغ والنجاح
 الأكيد اه .

ومما يصح أن يلحق بالنجارة صناعة تنزير الخشب وتنزير الصدف أو
 خشب الليمون فيه ، وهذه الصناعة كانت رائجة جداً ثم عدت وجدد شبابها
 صناع دمشق منذ نحو سبعين سنة حتى أصبح ما يعمل منها مما يتنافس في اقتنائه .
 ونسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالإفرنجية (داماسكينه) .

القيانة والحداثة والنحاسية :

كانت العرب تطرق المعادن في دمشق بإتقان أكثر من إتقان الغرب على
 ما قال ميشو ، واشتهرت كثير من مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ
 القيانة أو القردحة أي صناعة عمل السلاح . وذلك لأن الحديد كان يكثر في
 الجبال ولا سيما في لبنان وحلب . وقد اشتهرت في الجاهلية سيوف مشارف
 الشام في أقصى تخوم الجنوب ، وكانت تطبع بها السيوف وتنسب إليها فيقال
 السيوف المشرفية ، وكانت حاضرة المشارف مدينة موثة قال كثير :

إذا الناس ساموكم من الأمر خطة لها خطة فيها السهام الممثل
 أبي الله للشم الأنوف كأنهم صوارم يجلوها بموتة صيقل
 والصيقل هو الذي يجلو السيوف . ونسبت السيوف إلى دياف وإلى بصرى
 وكتلتاهما في أرض حوران فيقولون السيوف البُصرية قال الحصين بن الحمام المرّي :
 صفائح بُصرى أخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داود محكما
 والقيون جمع قين صانع السلاح . وسيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن

الصياقلة في صنعها ، وقد عرفت بصفاء مائها ، واخضرار لونها ، وإرهاق حدها ، ولطف فرندها ، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب ، وكذلك على الخناجر والرماح ، عرفها الصليبيون في القرون الوسطى ونسبوا إلى دمشق وغدوا يفاخرون بتقلدها ولا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية والرماح السمهرية . وصناعة تنزيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى والبنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية ويحسب أربابها من أهل اليسار ويعدون اليوم على الأصابع ولا يسع المنصف إلا أن ينحني إعجاباً أمام جمال هذه الصناعة . وقد نقل الفاتحون من العرب إلى الأندلس صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت إلى دمشق حتى اليوم فقبل لها بالإفرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner .

وكانت تعمل السيوف في زحلة والشويز ودومة من عمل لبنان وتعمل النبال الفائقة في عماتا من بلاد الغور . وكانت الدروع تسرد بيد الدارعين والحوذ والسابرية تصنع في دمشق خاصة . ويعمل من الحديد كل ما يلزم من الطبر والخناجر والمرادن والمغازل والصنارات والأسياخ والعقافات والقيود والزررد والمباضع والمبازغ والمشارط والآنية ، يطرق كل ذلك في كيرة الحدادين وسندانهم ويضرب بمطارقهم ، وكانت وافية بالغرض .

ومن أهم أعمال صناعة النحاس في دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية في حي الخضيرية وكذلك الحلقتان اللتان على بابي المستشفى النوري . والأولى من القرن الثامن والحلقتان الأخريتان من القرن السادس وهي آية الإبداع والمتانة وفي هذا البيمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرايا المفاتيح على طرز الغرب إذ ذاك . وفي مستودع الجامع الأموي بقايا النحاس الذي كان على باب جيرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجاً من إتقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في القديم . وفي بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعتها من الحدق وفيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت والمدارس القديمة آية الجمال الصناعي . ومن صناعة الحديد أمثلة كثيرة مثل أبواب بعض خانات دمشق كخان الحرير وخان أسعد باشا

وخان الزيت وأبواب التكية السليمانية وشباييكها . وشباييك المدارس والديارات والجوامع والكنائس القديمة وأبوابها ودرقاتها في دمشق وحلب والقدس والناصرية وبيت لحم ولبنان وغيرها وكلها تدل على ترقى الحضارة والنحاسة دلالة عظيمة مثل أبواب القلاع كقلعة عكا وحصن الأكراد وغيرها . ولكثرة الحديد في أرباض حلب عمل كثير من أبواب حلب القديمة من الحديد .

وكذلك قل عن سائر صناعات الحديد والنحاس وكانت تعمل منها السرج والمصابيح والمواقد والشمعدانات والشباييك والكؤوس والصحاف والزهريرات والمباخر والقماقم وأوعية القهوة (الدلات) والألبان والطسوت والموائد الصواني والصحون والمصافي والمغارف والملاعق والقدور ، والقدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش ، والسطول والمساخن والهاوين والمدقات والمناشير والجرار والحقاق والأجراس والنعال والمسامير والمعاول والمساحي والمناجل والمطارق والأقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب والملاقط والسكاكين والمدى والمقال والمواسي والمبارد والقيود والجواشن والدروع والصنجات والجرز (العمد) والحسك والدرابزون والمناجيق والديابات .

ومن الصناعات النفيسة صناعة الأجراس أجراس الكنائس فإنها تصنع في بيت شباب ، واستأثر بهذه الصناعة لبنان من دون أقطار الشرق الأقرب ، وقد دخلت صنعتها أرضنا مع الصليبيين على الأكثر ، وكانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراساً من الخشب ، وما زالت هذه الصناعة محصورة ككثير من الصناعات في أسرة واحدة . ولما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد وتفنن صناعه في صنعه ومنهم من عمد إلى اتخاذ الأدوات الحديثة كعامل بيروت ، ومنهم من اعتمد على الطرق القديمة في تطريقه ، وكثير من الأدوات الزراعية كالقؤوس والقُدُم (جمع قديم) والسكك الزراعية والمقاريض وأدوات السيارات تعمل في حلب ودمشق وبيروت والقدس وسائر المدن الشامية . ولا يزال الحدادون على تفننهم حتى يساوا معمولات الغرب . والحاجة أم الاختراع .

وقد قامت دمشق في الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقنوم والمنشار والكلاب واللوب والفأس والرفش والقدر والمركن والمرجل

والدلو والبرميل وعجلة النقل والركوب ومحفة الجرحى والمرضى ، كنت إذا رأيتها تظنها بحمالها ومتانتها من صنع الغرب . وقد جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب ولبنان وبيروت ، ويستعمل فيها الحديد والنحاس والصفائح (التنك) وتوفر الجيش التركي في تلك الأيام على ملء الحراطيش وصنع القذائف والمدمرات واستجادة أحسنها طرازاً وأفعلها في وقت الحاجة وإصلاح البنادق والمدافع ما دل على ذكاء ابن هذه الديار إذا علّم التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية . ولقد صنع أحد مهرة الصناعة لمدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان أهل هذا الشأن في الدولة .

ويصح أن تلحق صناعة النحاسين والصفارين بالحدادة ، وكانت في القديم ذات شأن ، ولم يبرح في المتاحف والبيوت القديمة في المدن والقرى نموذجات منه صبرت على ممر الأيام بحالها ، وما عمل منذ ستة أو سبعة قرون كثير جداً ، والقديم أقل منه ، وكان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا ولا ندري أي ظاهر هو ، لأنه كان من المشطين لصناعته فنسب إليه تحبباً ، وما فتئت هذه الصناعة رائجة تعمل من النحاس الثريات والمصاييح والفوانيس والتعاليق والجفان والكؤوس والمباخر والقماقم والصحاف والصواني والظسوت والأباريق والصنجات ، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفاً لا تقرأ إذ تعاور صناعتها أناس أميون على الأكثر ، وكان يطرز ويرقش في القديم بكل معنى جميل . وفي حلب ودمشق وزحلة وبسكنتا وبتغرين ودومة لبنان مسابك حديد ، يقينون فيها الحديد قيناً جيداً ، والنحاس يعمل في كل بلد للآنية وامتهانات البيوت ، وأجله ما صنعه صنعوا الأيدي في دمشق وحلب . ومن أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النعسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات والكؤوس والثريات وغيرها والسياح يتنافسون في اقتناء مصنوعاته وكثير من أرباب الثراء في مصر وأميركا وأوربا يزينون ردهاتهم بقطع منه ولا يقل العاملون والعاملات فيه عن مائتي نفس .

وصناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام ، وكل ما كانت تستعمله قديماً في بيوتها وحوانيتها هو من صنعها ، من صحاف كبيرة وصغيرة

وبواط على غاية من دقة الصنعة والقديم منها يباع الآن بأثمان باهظة ، ويبيع من مدة من أحد تجار الآثار القديمة صحنان من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهباً ويشترى الأوروبيون ذلك تقديراً للفن وخدمة للتاريخ ، وفي الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش وله رواج عظيم وهو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك والعظماء تزين برسوم جميلة ، ومنها ما ينار بالكهرباء ومنها ما ينار بالشموع وصحاف كبيرة وصغيرة وما يلزم للاستعمال والزينة في البيوت وهو أنواع . والمعقول أن يدوم تصدير هذه الأنواع وترداد ، لما في نقوشها من الإتقان ودقة الصنعة والاعتدال في الأثمان .

الزجاجة :

من أهم الصناعات التي اقتصت بها الشام من القديم الزجاجة؛ صناعة الزجاج. وعدها الثعالبي من خصائص الشام وقال: إنه يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال « أرقّ من زجاج الشام » وقال بعض الحكماء : وارفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام ، إلى أن تجد الفرصة فيما أن يضربه الحجر فيفضه ، وإما أن تضربه بالحجر فترضه « وربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظير للعيون قال أحمد بن محمد الدنيسري القاهري المتوفى سنة (٧٩٤) .

أقى بعد الصبا شبي وظهري رمي بعد اعتدال باعوجاج
كفى أن كان لي بصر حديد وقد صارت عيوني من زجاج

وقد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها ، وكان الرمل الذي يعثر عليه في جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له في غيرها من البلدان . وكانت معامل الزجاج في حلب وأرمناز مشهورة تصلر منه إلى العراق ويتباهى به في قصور الخلفاء . واشتهرت معامل الزجاج في عكا إلى القرن الرابع عشر ، وعرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل فكانت الزجاجة من صناعاتها وهي مشهورة بعمل المصاييح التي تعمل فيها اشتهارها بأساور النساء . وكان الزجاج معروفاً بالدمشقي يتخذ للزخرفة والزينة ومنه الأكواب والآنية على اختلاف ضروبها ويفهم مما وصفه به الشعراء مبلغ تفنن الزجاجيين بزجاجهم . واشتهرت الرقة بصنع الزجاج . وفي دار المتحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش

المرقوش ، وهي أثنى المجموعات التي عرفت حتى الآن من نوعها . ومن أجمل النموذجات في هذه الطرائف البديعة ، ومنها الأكواب والأباريق والجامات والسكرجات والمضخات والأقداح والقوارير والكيزان والبواطي وكانت معاملها في دمشق وحلب والرصافة والحليل وصور وعكا على ما يظهر . وقد انحطت هذه الصناعة حتى انحصرت في دمشق وأرمناز والحليل بأناس فقراء يعملون من الزجاج القناني والبواطي العادية فقط . لأن صنع الزجاج النفيس الذي تعلمه البنادقة من معاملنا في الحروب الصليبية وتلقوه عن معامل صور وانتشر صنعه في أرجاء أوروبا بعد أن كانوا يستبضعونه من ديارنا قد نافس هذه الصناعة ففقدوا عليها أو كاد . وكانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي في دمشق رآها الرحالة بوجيوجي سنة (١٣٤٦ م) وبعد أن كانت معامل عكا وصور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال في هذه الصناعة . وقبيل الحرب العامة (١٩٠٨) أنشأ في دمشق السيد مسلم العمري معملًا لصنع الزجاج ، أنفق عليه عشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً ، وجرب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كالزجاج الذي يجلب من الغرب ، ووافق الرمل الذي استعمل لكن المعمل لا يزال معطلاً ، وكانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز في شرقي المدينة . وفي الحرب العامة الأخيرة قل الزجاج المجلوب من معامل الغرب فهب أرباب معامل الزجاج في دمشق وبيروت وأخذوا يصنعون الأكواب والصحون والأقداح من كسرات الزجاجات القديمة فسدت بعض حاجة الناس .

الدهان :

ومن الصنائع الدهان ، وكانت مما تمتاز به بعلبك . قال في مسالك الأبصار : ويعمل في بعلبك الدهان الفائق من الماعون وغيره ، ولكن دمشق وحلب وغيرهما من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة ، لم تكن دون بعلبك في هذه الصناعة ، فكان يدهن الخشب والحجر ويبقى بحاله القرون الطويلة . ومن يدخل قاعة من قاعات دمشق وحلب مثلاً يرّ الألوان زاهية باهرة كأنها نقشت الآن ، وفي دمشق اليوم قاعات وأبهاء وأواوين مضى عليها زهاء مئتي سنة ولا تزال

برونقها تدهشك كما يدهش الداخل إلى متاحف الآثار المصرية من نقوش بيان الملوك وبنو حسن وسقارة وكتاباتها ورسومها ، وقد مضى عليها قرابة أربعة آلاف سنة ، على حين تنصل الألوان المستعملة لعهدنا وتكمد في سنين قليلة . والسبب في نصول الدهان الحديد ، ومواده تأتي من الغرب ، أن الدهانات القديمة كانت من صنع القطر ترجع إلى أصل ثابت ويحافظ عليها من المطر والشمس لأن الأقدمين لم يكونوا يعنون بفتح الطيقان والنوافذ وتوسيع الأبواب مثل المحدثين ، ولذلك صبرت الأصباغ على الأيام ، زد إلى ذلك عنايتهم في تخير الأخشاب وأكثرها من الدف الرومي أو الجوز أو السرو وهذه مما يصعب تطرق التشقق والبلب إلى كالكريش والشوح وفيه مواد قطرانية أو غيرها ، وكانت لهم في دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر والتنزيل ويقال لها الأبلق وهي أن يرسم الدهان الحجر مما يريد من الأشكال والنقوش ويحفرها النقاش والحفار ثم يدفعها إلى الدهان فيدهنها بصب الأصباغ في الشقوق التي يريدونها ثم تجلى وتصقل فيجيء صبغها كأنه من أصل الحجر ثابتاً براقاً ، ولا يعمل منه شيء اليوم .

وفي دمشق أسرة عرفت بأسرة الدهان اختصت بصناعة الدهان الذي يقال له العجمي كما اختصت بصنع هذا الأبلق . وتصنع هذه الأسرة مناخذ وخزائن واسكملت بهذا الدهان المعروف بالعجمي من النوع المقرنص تكون آية الإبداع وحسن الذوق ويتنافس في اقتنائها العظماء لترتين قصورهم وتبقى السنين الطويلة زاهية زاهرة . وقد دهنت عدة قاعات فجاءت آية الإبداع . وذكر الغزي أن أحد شبان حلب تعلم في أميركا صناعة الدهان على الأصول الحديثة فجاء عمله غاية في الرونق والإتقان . والمتنظر تعميم هذه الصنعة على هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القديمة فيها .

هذا في دهان الغرف والأبهاء والقاعات ، وأما صبغ الثياب والحرير والقطن والغزل ، فكان الاعتماد فيها على أصباغ لهم جميلة يعرفونها ، ربما كان أكثرها من تركيبهم أو من معادن القطر . وكان للصبغ الدمشقي صيت بعيد في الأقطار ، لثبوت أوانه ولطافة لمعانه ، وكانت أصباغه معدنية ونباتية لا غش فيها فلما تغلبت الأصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل نسي

أمره واعتيضم عنه بالحديد . وجودة الأصباغ القديمة كانت السر في اشتهاار اللديباغ اللمشقي قديماً حتى أوشتكت لطفاته أن تجري مجرى المثل . وفي حلب اليوم نحو ٣٠ مصبغة بالنيل و ٥٦ مصبغة للغزل والحرير وفي دمشق مثلها ونحوها وكذلك في كل بلد بحسب حجمه وأرباضه .

وكان من أصباغهم الأصفران أي الزعفران والورس ، والبرفير أو القرفير وهو الأرجوان (أحمر وأزرق) وكان ولم يزل للنيل الذي يخرج من الحولة أو يوتى به من الهند ، شأن في صبغ ثياب العملة والفلاحين . وانحطت هذه الصناعة تبعاً لانحطاط أكثر الصناعات ، لما جاءت الأصباغ الألمانية الحديثة حتى إن بعض معامل ثياب الحرير ترسل حريرها إلى الغرب ليصبغ ويعاد إليها ، فتعمل منه الشقق والثياب وتوشى على ما يشاؤون ، والوشى في الثوب كالرقش في القرطاس والنقش في الحائط ، ويحاولون أن تكون ألوانها ثابتة لا تنصل .

الفخارة والقيشاني :

وصناعة الفخارين اشتهرت بها الشام أيضاً وكان في صور الخزافون المبدعون في العصر القديمة ، وكذلك في كفرطاب ، وكانت تعمل فيها قدور الخزف وتجلب إلى غيرها ومنها نموذجات لطيفة حفظت في داري الآثار في دمشق وبيروت ، وكان ولا يزال يعمل من الخزف القلل والخوابي والأجانات والدموارق وأصاصي الزهور وغيرها ، يصنع ذلك في حلب ودمشق وطرابلس وبيت شباب وصيدا وبيروت وغزة وعيتا وراشيا (ويقال لهاتين البلديتين عيتا الفخار وراشيا الفخار) وصناعة الفخار على كثرة منافسة الخزف الغربي لها لا تزال متماسكة ، لأنه لا يتيسر جلب كل شيء من الخارج . وأجمل الخزف اليوم ما عمل في حلب من الصيني الجميل .

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر البلدان على ما علمنا ، صناعة القيشاني التي دثرت وكانت مورد ربح ، وعنوان فخر ومباهاة . ترصف بها الجدران والمحاريب والفساقي والسلسييلات والباذهنجات والقماقم والزهريات والقلل وغير ذلك . وكان يصنع على ما يظهر من الرمل

الأبيض والجبس يجبلان معاً ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب ، وتكتب على سطوحها آيات وأحاديث أو أشعار ، أو ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة ، ويذر عليها مسحوق الزجاج ، أو تطلّى به ممدوداً بسائل غروي ، وتشوى في تنور معدّ لذلك ، فيسيل الزجاج ويكسوها قشرة رقيقة تقيها من الغوائل والمؤثرات زمنياً طويلاً ، وتظهر النقوش والكتابات زاهية بألوانها الطبيعية . وفي سلسبيل جامع الدرويشية بدمشق نموذج منه أرخ بسنة (٩٨٢) ، وقطعة أخرى كانت على قبر لطفي باشا أرخت بسنة (٩٩٨) وهي محفوظة بدار الآثار بدمشق وقد كتبت عليها الآية الكرّيمة ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ بخط تعليق مشرق وفي أعلاها رحمة المولى عليه كل حين . ولا تزال في بعض الجوامع والمدارس من هذا القيشاني العجيب نموذجات تأخذ بالأبصار .

وكان في المسجد الأقصى مصنع للقاشاني له كامل الأدوات وذلك في عهد سليمان القانوني العثماني وهو أول من استعمل القاشاني في زخرفة خارج قبة الصخرة ، ولا تزال بعض قطعه محفوظة في المسجد . ويوجد الآن مصنعان فيها لرجلين أرمنيين أتيا القدس من كوتاهيه ، وكانت هذه من أشهر معامل القاشاني في الدولة العثمانية، ويشغل المصنعان بالصف من القاشاني الذي يرغب الفرنج في اقتنائه وهي جيدة بعض الشيء لكنها لا تحاكي الأنواع القديمة . ويؤخذ تراب هذا النوع من مطحون حجر الصوان يسحق بآلة بخارية قوية .

ومن أجمل النماذج من القيشاني بدمشق عمودان منه على طول متر في محراب جامع التبان في المناخلية جوار باب الفرج ، ومنه نموذج كثير ويظن أنه حديث في تربة جامع المرادية ، وفي مدخل السويقة في مدرسة أقوش النجيبى كتبت عليه آية الكرسي بالقيشاني البديع . وفي تكيّة السلطان سليمان وسليم وفي قبر في زقاق القرشي بالميدان كتب عليه هذا قبر الحنينين الطفيلين يونس وفرج ، محفوظ في إدارة الأوقاف ، والقيشاني في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد وفي مدفن بلال الحبشي الصحابي ١٤٦ قطعة من القيشاني المعمول في كوتاهية .

ولا يعلم تاريخ اندراس هذه الصناعة ، والمشهور أنها كانت خاصة بأهل بيت يتوارثون صنعها خلفاً عن سلف ، فدثروا ودثرت معهم منذ أكثر من قرنين . أخبرني أحد أساطين العلم أنه رأى القيشاني في جامع الدرويشية بدمشق مصبوباً على الأحجار طبقة لطيفة وهو في غاية الحسن . ويظهر أن المادة القيشانية كانت تمدّ على الحجر كما تصنع صفائح وألواحاً . وقد قام في العهد الأخير في كثير من المدن أناس لعمل الخزف الملوّن لتبليط البيوت دعوه بالقيشاني وهو لا يشبه القيشاني إلا بالاسم فقط . وانتشر وعم استعماله في الشام كلها ونقل إلى الأصقاع المجاورة .

الوراقة :

فقدت الشام عدة صناعات كادت تكون خاصة بها ، وتعد في جملة موارد عيشها ، ومنها الوراقة صناعة عمل الورق . فقد كانت من الصناعات التي تعدها من حاجياتها . وكانت العرب تكتب أولاً في أكتاف الإبل والحجارة الرقيقة البيض وعسب النخل ، بعدما كانت الكتابة في الأديم والرقوق على ما قاله المقرئزي . وفي أيام بني أمية عمل الورق من الكتان وسمي بالخراساني . والغالب أن الشام أخذت في صنع الورق في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومنبج قبل هذا التاريخ . وعامة المؤرخين من الفرنج على أن الورق من اختراع أهل (الصين سنة ١٢٣ ق.م) ونقل صنعه أسرى من الصين إلى سمرقند في سنة (٧٥١) وفي سنة (٧٩٤ م) أسس معمل للورق في بغداد ثم في دمشق ويظهر من بيت طرفة في معلقته أن القرطاس ينسب للشام والبيت :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفّر كسبت اليماني قده لم يجرد (١)
وأن القرطاس كان يعمل في الشام على عهده أو قبله خلافاً لما قاله مؤرخو الفرنج ، وأن الورق من صناعات الجاهلية . وكان يرتفع منه كميات من دمشق ومن طبرية على ما ذكر ذلك المقدسي . وقد تعلم صنع الورق في دمشق أسيران فرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا إلى ديارهما نشرا صناعته في

(١) في جمهرة أعلام العرب أنه شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام وشبه مشفرها بالجلد المدبوغ بدباغ القرظ ليته .

فرنسا ، ومنها انتقل إلى جميع أوربا ، فلدمشق على فرنسا بل على المدينة بأسرها ، الفضل الأول في تعليم هذه الصناعة للغربيين ، وناهيك بأنها أهم صناعة نشرت العلم والأفكار في العالم . وقد حمل الشاميون الوراثة إلى الأندلس وصقلية في جملة ما حملوه من صناعاتهم ، على نحو ما حملوها إلى شمالي إفريقية . وكانت شلطة من مدن الأندلس تصدر منذ سنة (١٠٠٩ م) الورق بكثرة ويحمل منها إلى سائر أرض الأندلس .

وكان الورق يصنع أشكالاً في مكابس صغيرة ، ويعمل من الخروق البالية أو الحرير واستبدل ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي بالحرير في سنة (٧٠٦ م) رجل اسمه يوسف بن عمرو ، ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة (٢٦٦ هـ) على ورق يظن أنه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته . وقال الرحالة ناصر خسرو : إن الكاغد الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند إلا أنه أحسن صنفاً . وذكر القلقشندي أن الورق المعروف بورق الطير ، أي الورق الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة حمام الزاجل ، هو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطاقات الحمام . وهذا هو الورق الرقيق ، والورق القديم أشبه بالبردي أو الرقوق بمتانته . ولا نعلم في أي زمن انقرضت هذه الصناعة . وحدثني أحد علماء حلب أن الورق كان يصنع في الشهباء وأن حياً من أحيائها لا يزال اسمه الوراثة حيث كانت معامل الورق . والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور إلى عهدنا .

وقد قام في أوائل هذا القرن رجل بيروتي من بيت الباحوط ، فأسس معملًا مهمًا في أنطلياس على ساحل البحر ، وأصدر ورقاً جيداً كورق النمسا وفرنسا ، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق إلى الشام فاضطر هو أن ينزل أيضاً ثم خفضت السعر ولم تنزل تخفضه ، حتى قضت على هذا المعمل النافع في زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوي عشرات الألوف من الدينارين إلى الشام وأصبح الورق حاجة من حاجات المدينة .

المرايا :

المرآة (بكسر الميم) ما تراءيت فيه أو رأيت فيه صور الأشياء وجمعه المرايا والكثير المرايا وصنعها من صناعات هذا القطر كانت تصنع في صيدا على ما قال بليونس وتصلر إلى الخارج ، وقد وجدت في خرائب بومبي ألواح كبيرة من الزجاج وكانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن وهي المعروفة عند العرب بالوذائل واحدها وذيلة ، اتخذوها بادئ بدء من مزيج القصدير والنحاس ثم من الفضة خالصة أو ممزوجة بمعدن أدنى ، ومنها مرايا من الذهب ، وقد اطلعنا على مرايا من الشبّه والفضة استخرجت من أرض حمص . وهذه الصناعة مما تعلمه البنادقة على ما يظهر من الشاميين وانتقل إلى الغرب ثم تنوسي عمله عندنا . وكان يرتفع من فلسطين خلال القرون الوسطى المرايا وقلود القناديل في جملة ما يحمل منها من أنواع الصناعات .

الصياغة :

ومن أهم الصناعات القديمة التي لم تبرح على شيء من العناية الصياغة صياغة الذهب والفضة والتفنن في تصويرها ووضع الأحجار الكريمة عليها ، وكانت تعمل هنا أكلة الجواهر وأقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخيل على أشكال ورسوم جميلة . والغالب أن المصنوعات المزيفة من الصياغات الأجنبية نازعت هذه الصناعة وزاد كسادها اختلاف شروط الحياة في هذا العصر عما كانت عليه في الأعصر السالفة ، وصارت رفاهية القرون الحالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل إلا قليلاً . فصياغة الحلي كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جداً ، وهي تحتاج إلى ذكاء ومهارة لتغير أوضاعها وأشكالها بحسب ذوق كل عصر ورغبة أهله ، وهي تقسم كما أكد العارفون إلى سبعة أقسام رئيسة . الأول ما يحلى به الرأس وأعظمها شأنًا ورواء ما يسمى بالتاج ، وهو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق ، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة بأحجار الماس المختلفة حجومها ، وهي إجمالاً من أحسن ما صنع لتزيين رؤوس السيدات ، ويوجد اليوم أسماء كثيرة وأنواع عديدة لما يزين به الرأس ، منها ما يسمى بالمشط ،

والبرش ، والقمر ، وكثير من أشكال الطيور والحشرات كل ذلك من أبدع الأشكال والصور مرصع بالجوهر الكريمة .

وما تزدان به الصدور من الحلبي أنواع متعددة أيضاً منها ما يدعى بحسب صورته وأشكاله مثل « قلب ، حبة ، فراشة ، زنبقة ، غزال ، دبوس ، كردان ضفدع » كل ذلك جميل في صنع ذهبه وترصيعه ، وتناسب تركيب أحجاره يدل على رسوخ قدم في تلك الصناعة ، وغالب ما تزين به النحور عقود اللآلي وما تحلى به الزنود أساور الذهب الدقيق الصنع ويرصع غالباً بفص واحد كبير الحجم ورسمه على الأكثر حية أو أفعى ، وما تحلى به المعاصم ويسمى أساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب ، وترصع بأحجار ماس ، ولها بحسب أشكالها أسماء متعددة منها « حبة ، برغي ، ماس ، سحب ، عصفير » وغير ذلك . وكلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صناعها .

وحلي الأناامل وهو ما يسمى بالخواتم ، وعامتها من الذهب ويركب عليها غالباً فص كبير الحجم من الماس أو الياقوت أو الزمرد أو الفيروز أو فصوص صغيرة متناسبة الوضع ، ولها أسماء متعددة منها « مركيز ، زيتونة ، فريشة ، ذو الثلاثة أحجار » ومن أكثر أنواع الحلبي الأقراط حلبي الآذان وهو أشكال متعددة أيضاً منه ما يسمى قرط كف ماس قفل ، طارة ، خروسة ، عصفير ، تركي ، بغدادي ، حرية ، وقرط الطويل ، وهو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبير الحجم ، معلقة بسلسلة من الذهب ، بطول ثلاثة سانتيمات تقريباً لها خفقتان على الجيد جميل .

وبجيد فوقه القرط يلوح شبه نجم خافق خلف القمر

وفي الشام ألوف من صناع الحلبي وتجار الأحجار الكريمة ، وليس من بلد في القطر إلا وفيه عدد من أرباب هذه الصناعة النفيسة . ومن غريب الأمر فيها أنك لا تجد شكلاً راج في بلد إلا تجده قد راج في الشام من أقصاها إلى أقصاها خلافاً للباسهم وبقية أزيائهم .

ولا بد من الإشارة إلى سبب ترفي هذه الصناعة، ذلك أن الشام مدينة للفتح العربي بها ، فإن هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس ولا ذهب

ولكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم أغلب آسيا وإفريقية وعاصمتهم دمشق هادتهم الملوك ، وأغلب هداياهم هي الجواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنتهم ، وكان الخلفاء منهم يهدون منها القواد والأمرء والأطباء والشعراء والعلماء والفقهاء فكثرت في أيديهم وزادت بطبيعة الحال في أيدي الصاغة ، وتنافسوا في إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم في أعلى درجات الارتقاء .

ويمكن أن يعد في جملة الصياغة طبع الدراهم وضرب الدنانير من النقرة المذابة من الذهب والفضة ، فإن الشام كانت من أول الأقطار التي طبعت فيها السكة الإسلامية ، وكانت الدنانير تضرب في الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر ، وفي متاحف دمشق وأوربا نقود ضربت في دمشق وحمص وإيليا وأنطاكية وبعبلك وطبرية أيام عمر سنة (١٧) وعليها كلها رسم ملوك الروم ثم اسم المدينة بالعربية واليونانية .

وكان لهم مهارة في معرفة البهرج والزيوف من النقود الصحيحة ويذهب بعضهم إلى أن الأكسير إذا أضيف مثقال منه على ألف فنطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً ، ولم يثبت ذلك من طريق الكيمياء وما برح الأحمران الذهب والفضة معدنين خاصين ، ويمكن أن يعد في جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن ومنها نموذج في دار الآثار بدمشق . وفي التاريخ العام أن معامل الشام كانت تصنع الخرز والآنية الذهبية ذات الميناء ، أما صناعة الجواهر والصياغة فإن ما بقي منها يدل دلالة كافية على رقي العرب في صنعها . وكانت العرب تحسن قطع الأحجار الدقيقة ونقشها بالرسوم وزبرها بالصور .

صناعة الصدف والرخام :

واشتهرت بيت لحم والقدس بصناعة الصدف يعملون منه الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينة ، والمسابع والصلبان والدبابيس والدوي والمقاطع ورسوماً وطيوراً وحيوانات الفيل والأرنب ، وما يصنع من خشب الزيتون أشكالاً دليل على رسوخ الصناعة ، وتباع في الغرب كميات كثيرة منها ، لما فيها من دقة الصنعة وجمال الأسلوب والتفنن في الوضع والشكل ، ويتنافس الغربيون في

اقتناء هذه المصنوعات ويحبها إليهم كونها من الأرض المقدسة .
وتفرد أهل بيت لحم منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح والصلبان
وبعض مشاهد التوراة ، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان وحجر
الختزير أو الحجر المتين ، وهو مؤلف من الطباشير والحمر المستخرج من
بحيرة لوط .

وكانت عكا في الدهر السالف تعمل صنوفاً من حاجيات الكنائس . ولبعض
صناع الرخام صنائع دقيقة في دمشق فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع
صغيرة ، فيها أنواع الرخام الملون ، وقد عمل أحدهم خزانة للكتب من أنواع
الرخام الملون لا تتجاوز القطعة الواحدة الستمتر الواحد فكانت طرفة من
الطرائف التي آثروا بها القصر السلطاني في فروق . وهذه الصناعات من
الكماليات قلما يرغب فيها حتى الأغنياء أرباب القصور ، ولذلك رغب عن
صنعتها أربابها فكادت تدر . ولبعض الصناع مهارة في تقليد العاديات القديمة
وغيرها من الأغلاق ، لا تكاد تختلف عما صنع من نوعها منذ قرون ، يقتنيها
بعض السياح على أنها من القديم . وتقليد العاديات مما عمت به البلوى في الغرب
اليوم وهي مورد من موارد ربح الفقراء من الأغنياء وهي تحتاج إلى معرفة زائدة
ومهارة غريبة .

السجاد والحصير :

ومن أهم الصناعات صناعة نسج البسط ، يقلدون فيه السجاد العجمي
والتركي . وهو أحط من العجمي لأن هذا السجاد الشيرازي والأصفهاني يصعب
أن يدانيه سجاد في العالم لا يكاد ينفى حتى بعد استعماله قروناً ، كالأعبئة الشامية
تلبس عشرين سنة وهي برونقها ومتانتها . وبحق ما يقولون إن السجادات والأعبئة
أجراء دأتمون بلا أجر . واشتهرت البسط الشوبكية وبسط أعناك في البلقاء
وحوران وسجاد دمشق ، ومنها المصور بأشخاص ورسوم .

وفي دمشق وحوران وجبل قلمون ولا سيما في جيرود وفي حمص وحلب
ألوف من الأنوال ، تحيك البسط من الصوف الخالص وكانت تصبغ بالأصبغ
النباتية الثابتة من استحضار القطر ، فتحفظ بألوانها بعد عشرات من السنين

وتصنع الآن بأصبغ أوربية قليلة الثبات وهي على غاية من دقة الصنعة وتناسب النقوش ومئاته الحياكة بحيث تضاهي أحسن ما يعمل من نوعها في الأقطار الأخرى . ويأتي بعدها صناعة السجاد والطنافس ، وتعمل في قرى حمص وحماة وهي المسماة بالخزوري والعدموني ، نسبة لقرتي حزور وعدمون ، وهي على غاية الجودة والمثانة تعمل من الصوف الخالص ، ومما يعاب عليها أنها لم تنزل تعمل من لون واحد وهو الأحمر القاني ، ونقوشه متشابهة لا تفتن فيها . ودخلت صناعة الطنافس على طريقة أحدث من الطريقة القديمة في حلب وبيروت ودمشق وذلك بدخول جاليات من آسيا الصغرى في السنين العشر الأخيرة ، يحسنون صنعه جلد الإحسان ، لكن النفوس لا تزال ترغب في سجاد فارس ، فإنه لا يعادله شيء بمثاقته وثبات ألوانه وتصويره ورقشه . وفي بعض قرى قلمون يصنعون من الوير بسطاً غليظة متينة تستعمل في الضياع والبوادي ، وتوضع على الأدرج في المدن . ويعملون الجُواتق (الشوالات) والعلول على شيء من الجودة والمثانة وكذلك البلاس والمسوح .

وكان نسج الحصير والباري من أفضل الصناعات تقوم بالحاجة . واشتهر أنه كان « إلى جانب طبرية غابة حلفاء ورفقهم منها ، أكثرهم ينسجون الحصر ويفتلون الجبال » وقد رأى ناصر خسرو في القرن الخامس حصراً من هذه الحصر الطبرانية تستعمل للصلاة وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مغربية . وقد ضعفت هذه الصناعة بانهيال البسط الإفرنجية والحصر اليابانية الرخيصة ، ولكن القرى وكثيراً من المدن ما زالت تعتمد على المصنوع منها في أرض الوطن والحصر البيروتية مشهورة بحسن نسجها ولطافة ألوانها ومثانتها التي تفوق البسط الإفرنجية كثيراً .

الصناعات المحدثّة :

ومن أهم الصناعات المحدثّة صناعة القرميد وهو صنو الآجر القديم تفرمد به السطوح ، وفي لبنان واللاذقية ويافا معامل منه وفي سنة (١٩١٨) أسس رجل فرنسي في اللاذقية معملاً لعمل القرميد، والقرميد الآجرة العظيمة . ويعمل في هذا المعمل الفخار الصيني وبلاط الملاط لجودة التراب الخزفي في تلك الأرجاء

وفي القدس معمل للقيشاني أو البلاط الملون . ومن الصناعات الحديدية صنعة لفائف التبغ تصنع منها كميات مهمة في حمانا وبكفيا وزحلة وبعض قرى بيروت الساحلية وتعمل منها كميات عظيمة في فلسطين ودمشق وحلب . وقد استفادت فلسطين في الأيام الأخيرة من الإكتثار من زرع الدخان استفادة عظيمة وأخذت تصنع من اللفائف ما يقوم بحاجتها وتبيع منه إلى الخارج . ومنها صناعة الطباعة وصنع الصور والحفر على النحاس والزنك وفي بيروت أحسن مصانعها ودمشق تقلدها . ومن الصناعات المحدثه صنع الحديد وأهم معامله في بيروت وحلب وطرابلس وصيدا واللاذقية ودمشق وحيفا ويافا والقدس وهو يقوم مقام الثلج الطبيعي في التبريد . وكان الثلج السماوي يدخر إلى آخر أشهر الصيف بحاله وكان هذا ينقل في القرون الوسطى على البغال من صيدا وطرابلس إلى قلعة الجبل بالقاهرة في ثلاثة أيام لتبريد المياه في قصر الملك وعظماء الدولة هناك . وفي حيفا معمل للاسمنت المسلح يستخرج من حجر الجبل المتاخم لها ومعمل للبنزين والسيروتو . وقد أنشئ معملان للاسمنت أحدهما في شقة قرب طرابلس والآخر في دمر قرب دمشق ونجحا نجحاً باهراً . وفي كل من عكا ويافا معمل للثقاب (الكبريت) ومثله في دمشق . وأهم ما دخل مجدداً من الصناعات صناعة الجوخ في دمشق أنشئ لصنعه معملان أحدهما شرقي المدينة والآخر غربيها، وأنشئ فيها معمل لحفظ الفواكه والثمار والبقول نجح نجحاً كبيراً ، وأسس في حلب معمل عظيم للنسيج أتى بأعظم الأرباح وسد حاجة البلاد في الحرب الأخيرة .

هذه أهم الصنائع الشامية وغالب الصناعات « تتبدل عليها أيدي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناعات حتى يتم » وقد أفاض صاحب قاموس الصناعات الشامية بتعداد هذه الصنائع والحرف في دمشق خاصة على اختلاف اسمائها وضروبها فبلغت نحو ٣٤٠ حرفة وصناعة . ولابن الصنائع الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع قال ابن جماعة: واعلم أن هذه الصنائع استخرجها الحكماء بحكمتهم ثم تعلم الناس منهم بعضها وصارت وراثه من الحكماء للعلماء ، ومن العلماء للمتعلمين ، ومن الأستاذين للتلامذة ، ومن التلامذة للصنائع . وكان ولا يزال لكل حرفة زعيم أو نقيب أو شيخ أو

عريف، ويسمى شيخ الحرف كلها بسلطان الحرافيش ثم كني عنه احتشاماً بشيخ مشايخ الحرف والصنائع . وكان لأرباب الصنائع ترتيبات أشبه بالنقابات الصناعية في الغرب ولذلك دام رواجها طويلاً . في العهد الأخير نقبت الصناعات النقابات على مثال النقابات الصناعية في الغرب وأصبحت أصوات العمال تسمع ويزيد صداها رنة كلما كثر الصناع .

تأثير الصناعات في الماديات والأخلاق :

قلت من خطاب في الصناعات يوم الاحتفال بافتتاح الدباغة الوطنية الفنية (٥ كانون الأول ١٩٢٤م - ١٣٤٣هـ) لقد فقدت معظم الصناعات ويا للأسف وآخر ما سيفقد منها صناعة النسيج الضرورية النافعة ، فقد كانت صادراته من حلب وحماة وحمص وطرابلس ودمشق تسد جانباً عظيماً من الموازنة بما تأتي به من الأموال كل سنة ، فأصبحت الآن إلى انحطاط ونازعتها الأقمشة الإفرنجية البراقة الدقيقة . قيل : إنه كان في دمشق وحدها ثلاثون ألف نول للنسيج قبل الحرب فأصبح عددها اليوم نحو ثلاثة آلاف ، ولا تلبث إذا دامت الحال على هذا المنوال أن تضمحل كما اضمحل غيرها من الصناعات ، ويفتقر أربابها ويهاجرون أو يهلكون . وفي كل ذلك خسارة وفجيعة ، وأي فجيعة أعظم من الفجيعة بالمال أو الرجال أو بهما معاً .

ومما يجنيه القطر من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية تربية الروح القومي فيهم وإصلاح ما أمكن من شؤونهم الاجتماعية . وإليكم مثلاً جري في هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة . ذكر لي مدير مدينتنا هذه منذ مدة أن مستشار الأمور الاقتصادية في المفوضية العليا زار المعمل وسر بنجاحه كل السرور ونشطه بالقول والفعل ، إلا أنه بدت منه حركة استغربها ، وذلك أنه سأل كثيراً من العملة عن مذهبهم ، وبالطبع فيهم من أهل الأديان السماوية الثلاثة ومن غير الشاميين أيضاً . فاستغربت مع صاحبي هذا السؤال منه ولم أهتد لتعليقه . ولم يلبث المستشار أن زارني من الغد وذكر لي في جملة حديثه سروره بالمديعة الجليلة ، وقال : إنكم معاشر الدمشقيين قد حلتم مسألة من أعضل المسائل في بلدكم لم تتمكن نحن في بيروت من حلها . وذلك أننا أردنا

مرة أن نقوم بمشروع صناعي فيها فجاءنا أهل كل مذهب يريدون أن يستأثروا بأكثر المنافع لأبناء طائفتهم . ونحن كنا بالطبع نريد أن ينتفع به من يعمل ويعرف . وهكذا ضاع الوقت في المجادلة على غير طائل ولم نتقدم شبراً واحداً في الموضوع الأصلي ، وسقط المشروع وهو جنين لأن الناس هناك يريدون أن يقوم بذلك الروح . ولقد سررت أن رأيت في معملكم المسلم والمسيحي والإسرائيلي على اختلاف مذاهبهم . وكل فرد يعيش مع أخيه متسانداً متعاطفاً قلت له : ولذلك استغرب بعض عملة المذبغة سؤالكم أول أمس عن دين من رأيتموه فيه . فقال : ليس في العالم عمل اقتصادي قام على أساس الدين ، ولبنان الكبير غريب في حالته هذه فقلت له : هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الإسلامي فكل من يحسن عملاً يوسد إليه مهما كانت نحلته . فسرّ لقولي وسررت لتوفيقنا .

بقيت هناك مسألة لا بد من الإشارة إليها وأعني بها تأثير الصناعات في الأخلاق . فقد ثبت أن الأقطار التي تكثر فيها الأعمال الصناعية والزراعية أحسن أخلاقاً من غيرها ، ويقبل فيها المتشردون والثرثارون ، لأن من طبع العاملين الأخذ بالنافع وترك الفضول على الجملة . ولذلك يضعف الشغب في أرباب الصنائع ، وتقل الموبقات المهلكات ، لأنها لا تبقى للعامل إلا الوقت الكافي لراحته ونومه ، وهو على ثقة من أنه إذا لم يحرص ذهنه في عمله يخرج منه صاحب المعمل أو الحقل من خدمته . فالحكومة التي تحب أن يقل الشغب بين من وسد إليها أمرهم يجب عليها أن تفكر ليلها ونهارها في إيجاد أعمال رابحة لهم ، وبذلك يقل المتشائمون والمشاغبون والمرجفون والناقمون . وليس أحسن ولا أنجع من هذه السياسة .

لا جرم أن اشترك أهل البلد الواحد بل القطر الواحد والمملكة الواحدة في عمل اقتصادي مما يرفع مستوى القومية أيضاً ويلقن الناس معاني التكافل الوطني . فقد رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب وسكان الشمال من فرنسا يقتتلون ويتحاربون ولم تتقطع شأفة الفتن من بينهم إلا عندما اشترك الجنوبي مع الشمالي في الأعمال الاقتصادية ، فأصبحت مصلحتهما واحدة وارتفع النزاع من بينهما وأحسا أنهما أبناء أمة واحدة . لذلك نرى إلى اليوم من بقايا تلك الأخلاق

أن ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء في مناحيهم ومنازعهم ، بل إن أهل شمالي فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم وتجاراتهم على الأكثر ويقلّ فيهم السياسيون والشعراء الأدباء وهم كثار جداً في أهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة .

فيا حبذا اليوم الذي يشترك فيه قاصينا ودانينا ، فقيرنا وغنيا ، في إقامة الشركات على أنواعها ، إحياء لصناعاتنا واستبقاء للبقية التي صبرت على الأيام من ثروتنا . فالزراعة عشر الثروة العامة في العادة ، والباقي من أسباب السعادة والنماء ثمرة الأعمال الصناعية . وما السكك الحديدية والبواخر والسيارات والقصور والمصانع الفخمة وكل ما في المدنية من ضروب الراحة والرفاهية مما يلذ وينفع ، إلا نتيجة عمل العملة في المعامل ، وكل ما نشاهده وندهش به من أنواع الصناعات في أميركا وأوربا وفي اليابان والصين والهند هو ثمرة التعاون والعلم العملي . ولذلك ساغ لنا أن نقول : إن كل ما يدفعنا ولو خطوة واحدة إلى الأمام لتقرب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الأمة جمعاء ولا رجاء لنا في الحصول على الحاجيات ثم التطلع إلى الكماليات ، إلا بتأليف شركات صغيرة بادئ بدء تقوم برؤوس أموال وطنية ، وتستعمل من الأدوات الحديدية ما لا غنية عنه ، تنمو بنمونا في مظاهر الحياة والانبعاث . فنحن لا نقل عن الغربي ذكاء ونشاطاً وإنما ينقصنا التنظيم والتدريب . وفي أرجائنا أكثر المواد الأولية اللازمة في الصناعات لا تحتاج إلا إلى معرفة قليلة للانتفاع بها والله الموفق والملمهم .

التجارة الشامية

موقع الشام من التجارة وتجارة القدماء :

كان من وقوع الشام في طرف آسيا وإفريقية ، وقربها من الساحل المقابل لبحرها من أوروبا ، أعظم مركز تجاري في القديم ، ومن أهم ما حمل أبناءها على الرحيل بتجاراتهم ، منذ عرف التاريخ امتداد سواحلهم . وكثرة الأخشاب التي تجود في غاباتهم ، تساعدهم على صنع السفن المتينة الكثيرة ، ثم إن مرونة أخلاقهم تدعوهم إلى الاختلاط بغيرهم ، وتقليده وتعلم لغته ومماثلته في عاداته وبهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا على جزء مهم من تجارة شمالي إفريقية وجنوبي أوروبا ، وبلغوا جزائر بريطانيا ، وأقاموا لهم مكاتب تجارية في كثير من سواحل هذا البحر المتوسط وبحر الظلمات ، وما زال الفينيقيون أعظم أمة تجارية بحرية في الدهر السالف ، ينقلون إلى الغرب حاصلات الشرق وإلى الشرق بعض ما كان يعمل في الغرب ، إلى أن قامت دولتا الرومان واليونان .

عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الأرض . ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين وأشوريين ، ولا قبائل الغرب البربرية (الإسبان والغاليون والطيلىان) ، عهد بركوب البحار وشتق العباب . والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الأيام على تجشم البحر ومعاركة العباب . فصح أن يُدعوا من أجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء ، يبتاعون من كل شعب سلعه ويقايضونه على غلات البلاد الأخرى . تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برأ والغرب بحرأ .

واعتماد الفينيقيون أن يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاثاً . إحداها

إلى أرض العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر والعطور العربية واللؤلؤ والأبازير والعاج والآبنوس وريش النعام وقرود الهند . والثانية ترحل إلى بلاد أشور لتعود منها بأنسجة القطن والكتان والحرير والأحجار الكريمة والماء العطر وحرير الصين . وتقصد القافلة الثالثة إلى أنحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والأواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال القوقاز . وكانوا يتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة ، ويبحثون في الأصقاع المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل . يصطادون الصدف من شاطئ اليونان ، ومنه يستخرجون صباغاً أحمر وهو الأرجوان . وكانت الأنسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافةً ملابساً للملوك والأمراء ، ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل إسبانيا وسردانية من مناجمهم . وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الأصفر ، وهو مركب من نحاس وقصدير ولا أثر له في أرض الشرق ، يرحل الفينيقيون في طلبه ، وينشدونه حتى في شواطئ إنكلترا في جزائر القصدير وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يتاعونه تارة كما كان يتاع النحاس العبيد في ساحل إفريقية . وينزلون طوراً في إحدى السواحل فجأةً فيختطفون النساء والأطفال وينقلون بهم إلى أهلهم ويبيعونهم في القاصية . وإذا واتهم الحال ينقلون قرصاناً ، ولا يتحامون إطالة أيدي التعدي على غيرهم .

وقد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في الأرجاء التي اتجروا فيها ، وهي مراكز للبرد حصينة ، واقعة على مرفأ طبيعي يخرجون إليها بضائعهم من البحر وهي في العادة أنسجة وفخار وحلي وأصنام ، فيأتي أهل تلك الأقطار بغلاتهم يُقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الأوربيين زنوج إفريقية . وتقام أمثال هذه الأسواق في قبرس ومصر وجميع بلدان البحر الرومي مثل لإقريطش ويونان وصقلية وإفريقية ومالطة وسردانية ومالقة وقادس وربما أقاموها في موناكو من بلاد الغول — قاله المؤرخ سنيوبوس .

وكانت الشام في الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر ، وهي مدينة بوفرة سكانها واستبحار عمرائها ، لمركزها الطبيعي وتجارها العجيبة ورباعها الحصينة . وكان في وسع مصر أن تنازع الشام مكائنها التجارية ، بيد

أن الحسد المتأصل في الطبقات الدينية والسياسية كان يمزقها ويحول بين المصريين القدماء وبين كل صلة بالشام . فكانت الشام إذأً المستودع الوحيد للعالم المعروف تأتي حاصلات آسيا وإفريقية مع القوافل إلى موانئ الشام حيث تحمل على سفن فينيقية . وأنت أزمان على الشام كانت تخرب بأيدي الفاتحين ، وتخرب أيضاً بالحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التي كانت تنازع هذا القطر . فأوضاعها مكانته ، خصوصاً منذ تخلصت مصر من نفوذ كهنتها ، وغدت منافسة لها بأن جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعاً سهل التجارة بين أنحاء العالم .

وكان السبب في كثير من الحروب التي نشبت بين الشاميين والآشوريين والبابليين والمصريين ثم مع ممالك الروم في الغرب ، مسائل التجارة على الأغلب وإرادة الشاميين أن يفتحوا صدر أرضهم لتنفيذ إليها تجارات جيرانهم أو غيرهم من الشعوب . ومن أهم المدن التي استأثرت بالتجارة في القديم البتراء ثم تدمر ثم حلب ودمشق . وكانت مدن فينيقية لولعها بالتجارة تترك الزراعة حتى بلغت الحال بأهل صور أن أغفلوا تعهد الأرض وكانوا يشترون مؤونتهم من الجليل والسامرة واليهودية ، ولما حاصر الإسكندر صور اضطر أن يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال .

وذكر ديودوروس أن ثروة الأنباط أصحاب البتراء كانت من الاتجار بالطيوب والمر وغيرهما من العطريات ، يحملونها من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطئ البحر المتوسط ، ولم تكن تجارة تمر في أيامهم بين الشرق والغرب إلا على أيديهم ، وكانوا يحملون إلى مصر خاصة القار لأجل التحنيط . ولما استولى الرومان على القطر انتقلت التجارة إلى تدمر وفارس . ووفق الفرس إلى تحويل التجارة عن مصارفها القديمة إلى أصقاع الفرات والخليج الفارسي . وأخذ الرومان يعنون بإنشاء الطرق المعبدة في الشام ، والوصل بين الشام والأقطار الأخرى كالجزيرة والعراق والحجاز ومصر وآسيا الصغرى ، ولا تزال إلى اليوم بعض هذه الطرق ماثلة للعيان في صرخد والشرأة والكرك وأيلة وجرش ، وهذه كانت طرق البتراء إلى داخل الشام ، وكانت أنطاكية ترسل إلى رومية الأصواف والأنسجة والخنطة ، والشرق يبعث إليها بأدوات الزينة والرفاهية

كالعطور والأبازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والأحجار الكريمة وثياب الصوف والحريير والعييد السود والحيوانات النادرة ولا سيما القروذ فكانت تجلب إلى الإسكندرية من طريق البحر الأحمر أو في النيل وتأتي إلى أنطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام مع القوافل .

يقول بيرين المؤرخ البلجيكي في كتابه محمد وشارلمان: لقد عظم نفوذ الشاميين من وراء الغاية في رومية جاءوها بكثرة وكان عدة من الباباوات من الشاميين كما كان بعض أباطرة رومية من أصل شامي وإلى الشام تصل قوافل الهند والصين وبلاد العرب وكان الشاميون يومئذ رجال البحر على نحو ما صار الهولانديون في القرن السابع عشر وبواسطتهم تصدر الأبازير وأعمال الصناعة من المدن الكبرى في الشرق كأنطاكية ودمشق والإسكندرية الخ وكنت تراهم في كل الفرض البحرية كما كنت تجد منهم جاليات في داخل البلاد . وكان لهم على عهد ملوك الرومان منازل في الإسكندرية ورومية واسبانيا وغاليا وبريطانيا العظمى حتى مدينة كارنونتوم على نهر الدانوب . ثبت ذلك بنصوص العاديات التي عثر عليها. وفي القرن السادس كثر المشاركة في جنوبي غاليا وكان منهم من يستوطنها ولا سيما في الجنوب من أرجائها وكان سكان أربونة في سنة (٥٨٩) من القرط والرومان واليهود واليونان والشاميين . وكثر سواد الشاميين في نابل وفي جوار باريز . قال: وكانت الميناء التي نعرفها أكثر من غيرها مرسلية ويظهر أنها كانت فرضة كبرى منوعة السكان ويبين عن مكانتها تنافس الملوك في الاستيلاء عليها عند تقسيم الامبراطورية الرومانية وقد كثر فيها اليهود والشاميون والروم والقوط .

فالتدمريون ومن قبلهم النبطيون عُنوا بالتجارة جد العناية ، لأنها مورد معاشهم وعلة حياتهم ، لضعف الزراعة في كورهم ، فكانت القوافل على عهد ارتقاء تدمر تحمل إليها من جزائر العرب الذهب والبخزخ واليشب واللبان والصمغ والصبر وعود الند ، ومن العراق اللؤلؤ، ومن الهند أنواع المنسوجات والقرنفل والبهار والحريير الصيني والنيل والضجاج والفولاذ والعاج والآنوس . كل هذا يأتيهم من طريق القوافل في البوادي والقفار فيحملونه إلى رومية عاصمة الرومان. أما الأرفاق التي تأتيهم من البحر فكانت دون ذلك—قاله رنزال.

وقد اكتشف أمير روسي في سنة (١٨٨٢) كتابة رسمية كتبت بالتدمرية واليونانية يرتقي عهدها إلى سنة (١٣٧) للمسيح فهت منها أحوال التجارة القديمة ومضمونها تعريف جمركي مطول أصدره مجلس شيوخ تدمر حسماً لفنن وقعت بين التجار وعمال الخزانة ، وفيها بيان ما يضرب من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية إجمالاً وإفراداً وهي باهظة فكان كل حمل جمل أو حمار يرد أو يصدر تُضرب عليه أولاً ثلاثة دنانير رومانية (وكان الدينار الروماني يساوي نحواً من ٧٢ سنتيماً) ثم فريضة أخرى تختلف باختلاف جنس البضائع . والبضائع التي ورد ذكرها في هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق والحِزْر والأرجوانية والزيتون العطرية المجعولة في قماقم من الرخام الأبيض أو في ظروف من جلد المعز ، ثم زيت الزيتون والشحم والملوحات المتنوعة والحلود والثياب والأنسجة والغلال المختلفة والأفاويه والأثمار اليابسة كحب السنوبر والحوز واللوز والعقاقر والملح إلى غير ذلك . وينقسم كل حمل إلى ثلاثة أقسام حمل الحمار وحمل الحمل وحمل العجلة ، وكان ثقل الأول نحو مئة كيلو و الثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف والثالث يبلغ نحو ألف كيلو . قال دي فوكيه : وكانت القوافل التي تحمل إلى تدمر خيرات المشرق تستخدم من اللواب الإبل والحمير وإذا وصل التجار إلى حاضرة زينب (تدمر) أنزلوا عن ظهر اللواب الجواتي والأثقال المختلفة وحملوها على العجلات ليوصلوها إلى جميع أنحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية ، فإذا بحثت عن أسباب تقدم تدمر وبلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين : الأول مرور البضائع بها وإقامتها فيها مدة ودفع المكوس إلى خزانة المدينة ، والثاني شهرة أهالي تدمر دون سواهم بقيادة القوافل في المفاوز والصحاري ، فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح أشبه بمرفأٍ عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الأمم فتغني خزائنها كما جرى في القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطنة بحر الروم . وقد اكتشف علماء العاديات عمودين نصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلاً ميلاً عليها اسم زينب واسم ابنها وهبلات . وأول هذين العمودين قريب الجليل والجسر الواقع على وادي العذار والثاني برج الريحان شمالي الجليل . وكانت الشام أهم محال الحرير ولا سيما صور وبيروت ، والشام من

أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية . وذكر پروكوب عند كلامه على أنطاكية أنها أول مدينة رومانية مهمة في الشرق لغناها واتساعها ووفرة نفوسها وجمالها وعادياتها . وتعجب أنطونين الشهيد من الترف الذي كان على أتمه في أنطاكية ومن عظمة أفامية وبيروت وغزة . وقد اضمحل ذلك على عهد يوستينانوس لأنه أُرِد أن يضع سعراً وسطاً للحرير فهلك تجاره وصانعوه وخربت معاملته . ويرد تاريخ زراعة الحرير إلى القرن الأول للحكم اليوناني على الشام ولا سيما في ضواحي بيروت . قال هيد بعد أن ذكر ذلك : وقد حدا حب الربح تجاراً مسيحيين على أن يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لغرب اسبانيا وإفريقية والشام ، فاتخذ شارلمان والبابا زكريا وأدريانوس الأول الأسباب لمنع ذلك .

وقد وجدت في غاليا وغيرها من المدن التجارية في الغرب كتابات فيها أسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول ، ومنها ما وجد في جناي على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامي اسمه تيسم من قرية عتيل من أهل مدينة قنوات في جبل حوران كان يتجر مع غاليا بما يحمله إليه مواطنوه إلى أرل على سفنهم ومنها إلى ليون فما فوقها من مدن فرنسا .

ولم يكن تجار الغرب يهتمون بالسفر إلى الساحل الشامي لأخذ البضائع اللازمة لهم ، بل يحمل الشاميون أنفسهم بنشاطهم المعهود تلك البضائع ، مع أن حاصلات آسيا كانت مما يلفت نظر الغربيين . واشتهر خمر غزة في فرنسا على عهد الملك كونتران في القرن السادس للميلاد ، وحرير الشرق وأحجاره الكريمة تتألف منها زينة العظماء والسادات . قال هيد : إن الشاميين كانوا يرحلون إلى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين ونزلوا في جنوبي فرنسا مثل ناربون وبوردو بل في أواسطها مثل أورليان وتور وكانت تحمل إلى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين . والظاهر أن الشام كان يفوق غيره بأعماله الصناعية والتجارية ، وصلات الشاميين محكمة مع الشرق والغرب ، وكانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربي والخليج الفارسي وأواسط آسيا وهي أهم ولاية تجارية للروم . وفي الحق أن صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدام النصرانية في أوروبا ، وأصبح زوار بيت المقدس يأتون إلى فلسطين أفواجاً أفواجاً ويحملون معهم شيئاً من تجارتهم يأخذون ما عندنا مما يروج في أسواقهم .

تجارة العرب :

العرب أهل تجارة لضعف زراعتهم ، وكانوا يوغلون في الشرق والغرب لغرض الربح ، وقد كان لهم أسواق يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها عامة قبائل العرب ممن قرب منهم أو بعد ، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكان يعشرهم فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - وربما غلب على السوق كلها فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر ثم ينقلون إلى سوق هجر - قاله القلقشندي . وما زال يقام في الشام إلى اليوم في أماكن مختلفة أسواق لبيع المصنوعات والحاصلات أشبه بمعارض هذه الأيام في الغرب . وكانت تقام في دمشق في كانون الأول سوق تعرف بسوق قضيب البان، رواه البيروني. وروى القالي أن قريشاً كانت تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعلق مكة ، أي تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقبصر وتمكن عنده وقال له : إن قومي تجار العرب فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من آدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب . فجعل كلما مرّ بجي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً . والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم من غير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، وعلى أن قريشاً تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام، حتى قدم مكة فاتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزهم ، يوفيههم إيلافهم الذي أخذهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها ، فاتسعت قريش في التجارة في الجاهلية . وهاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت إليه فقيل لها غزة هاشم لأن الروم كانوا يقيمون لهم سوقاً في غزة في موسم معلوم وكانت قريش في الجاهلية تحضره وتمتار منه .

وكانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . قال الثعالبي : وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين ، إحداهما أن ذوبان العرب ، وصعاليك الأعراب ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائف ، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبنى طيء وخنعم وقضاعة. وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف إنما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق إليهم إيلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الأعداء ، فكان ذلك صلاحاً للقريشيين ، إذ كان المقيم راجحاً والمسافر محفوظاً . وفي غزوة استغنى عمر بن الخطاب في الجاهلية لأنها كانت متجرراً لأهل الحجاز .

وخصبت قريش وأتاه خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها وطاب عيشها ، ولما مات هاشم قام بذلك عبد المطلب ، فلما مات عبد المطلب قام بذلك عبد شمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل وكان أصغرهم . وذكر اللغويون من جملة التخريجات في اسم قريش التي كانت سادة العرب جاهلية وإسلاماً ، أنها سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها في البلاد بتبغى الرزق ، وقيل : لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع وضرع من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه . وكان ساداتهم على حبههم للتجارة إذا تولوا أمراً من أمور الأمة تخلوا عنها . ففي التذكرة الحمدونية أنه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر إلى المدينة فيبيعه وهو واليها ، فحدثه محمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم «أبما عامل انجر في رعيته هلكت رعيته » فأمر بما في السفينة فتصدق به ، وفكها وتصدق بخشبها على المساكين .

وكان الأنباط يحملون من الشام إلى الحجاز الزيت والدرمك « دقيق الحواري » ويعودون إلى هذا القطر بمواصلات الحجاز . وفي السنة الثانية للهجرة أقبل أبو سفيان بن حرب والد يزيد ومعوية من الشام في قريب من

سبعين راكباً من قبائل قریش كلهم كانوا تجاراً بالشام . وكانت تجارة أبي سفيان بيع الزبيب والأدم كما كان الصديق وعثمان وطلحة بزازين . وخافت قریش لما أسلموا من انقطاع السفر إلى الشام للتجارات لمخالفتهم أهل الشام بالإسلام فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا هلك قيصر فلا قيصر ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » معناه لا قيصر ولا كسرى بعدهما في الشام والعراق ، ولا ضرر عليكم ، فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين وكانوا من قبل يملكون المزارع في الشام ويقيمون وينعمون . واتجر الرسول في الجاهلية وكذلك بعض أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولما رفر علم الإسلام على الشام اتسعت الدنيا على الصحابة حتى إن عبد الرحمن بن عوف الزهري أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام كان تاجراً كثير الأموال بعد أن كان فقيراً ، باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعمائة جمل بأحماها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل الله بخمسائة فرس عربية، وكان الزبير بن العوام ابن عمته النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة كثير المتاجر والأموال قيل : كان له ألف مملوك يؤديون إليه الخراج فرمما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلف أملاً كثيراً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم وهذا لم يسمع بمثله قط - قاله الذهبي .

وكانت مراكز صور وطرابلس تطلع من هاتين الفرضتين بالتجارة إلى سواحل خليج القسطنطينية (بحر إيجه) وخليج البنادقة (الأدریاتيك) وبحر بنطس (الأسود) وجزائر قبرس ورودس واقريطش، وكل ما قام به خلفاء المسلمين ووزراؤهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق وإنباط المياه على طول الطريق إلى أم القرى ، وإقامة معالم الأمن والراحة فيها للحجاج قد أفاد التجارة .

وكانوا قسموا أرض الشام إلى مراحل وبرد وفراسخ وعُتوا بالأمن من وراء الغاية حتى يتجر الناس . وكانت طريق القوافل إلى مصر على الكرك أو على غزة ورفع . قال ريسون : وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة

مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر والشام ، وإن العرب رقوا الصناعة البحرية ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الإبرة من الصينيين ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أي ضبط وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ووضعوا السفائح المألوفة وردود التمسك وبعثوا روح الحركة في مصارفنا الحديثة وكنت تراهم حيثما سكنوا مهلوا السبيل وأمنوها ، وعمررو المرافق والفرض ، وأصلحوا وأنشأوا الفنادق والرباطات ورتبوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن الكبرى غير أوساط تجارية كبرى .

وكان الفرات بن حيان أهدى الناس بالطرق وأعرفهم بها وكان يخرج مع عيرات قريش إلى الشام وله يقول حسان :

إذا هبطت حوران من رمل عالج فقولاً لها ليس الطريق هنالك
فإن نلق في تطوافنا وانبعاثنا فرات بن حيان يكن وهن هالك

ويقول بيكولوتي: إن أربع موان: عكا وبيروت وطرابلس واللاذقية، وخمس مدن داخلية الرملة ودمشق وحماة وأنطاكية وحلب استفادت من التجارة مع اللاتين ولا سيما مع البيزيين والجنوبيين والطسقانيين والبنادقة وكلهم إيطاليون وهذه الجمهوريات الأربع ، بيزة وجنوة وطسقانة والبنديقية التي كانت تقسم إيطاليا هي أول من اتجر مع الشام من أمم الغرب وجاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا وإنكلترا ثم عدلوا لبعده ديارهم . وكان لهؤلاء الطليان ولتجار أمالفي ومارسيليا مكاتب تجارة في الإسكندرية وفي المدن الساحلية والداخلية في الشام ، يقايضون بواسطتها حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب ، ولما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة قبرس زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التي هي على ٩٣ كيلومتراً من ساحل الشام في طرف جون الإسكندرونة وتعد من الشام. وجعل ملوك فرنسا لهم تاجراً إسرائيلياً يذهب كل سنة إلى الشرق يتتاع منه حاصلات آسيا. وكثيراً ما كان اليهود سفراء في المفاوضات مع أمراء آسيا .

وذكر ابن خرداذبة أن التجار اليهود الراذائية، وكانوا يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفريقية (الفرنسية) والأندلسية (الإسبانية أو البرتغالية) والصقلية (السلافية) يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى

المشرق برأً وبحراً ، ويجلبون من الغرب الخلد والجواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف يركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالقرما «على ساحل مصر» إلى القلزم «البحر الأحمر» وإن شأوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجليية «في حوران» ، وأما تجار الروس وهم من جنس الصقلية فإنهم يحملون جلود الخنز وجلود الثعالب السود ، والسيوف من أقصى صقلية «بلاد الروس» إلى البحر الرومي والخارج منهم في البر يخرج من الأندلس أو من فرنجة ، فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقية «تونس» ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد .

وكان يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخروب والملاحم والصابون والقوط والجن والقطن والتفاح والقريش والمرايا وقذور القناديل والإبر والنيل والتمور والحبوب والخرفان والعسل وشقاق المطارح والسبج والكاغده والبز والأرز ، ومن قدس «حمص وحماة» الثياب المنيرة والبلعسية والحبال ، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ، ومن مآب قلوب اللوز ، ومن دمشق المعصور والبلعيس والديباج ودهن البنفسج والصفرييات والكاغده والجوز والقطين والزبيب ، ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة ، ومن بعلبك الملاين . واختصت حلب أيضاً— كما قال ابن الشحنة— بالصابون الذي يجلب منها إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر وهو أفخر صابون ، ويباع منه بحلب في اليوم الواحد ما لا يباع في غيرها في الأشهر ، ومن خصائصها نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصفوف واليزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنباج والثعلب وسائر الوبر والبضائع الهندية ، فإذا حضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه اه . وذكر ابن بطلان من أهل القرن الرابع من عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن اه . وكانت تجارة الشام في هذا القرن والذي يليه

زاهرة جداً ، وقد قسم جعفر بن علي الدمشقي التجار إلى ثلاثة أصناف وهم الخزان والركاض والمجهز .

التجارة في القرون الوسطى :

كانت مراكز باري تسافر إلى موالي الشام قبل الحرب الصليبية وقد عقد أمراء سالرن ونابل وجايت وأمالفي في سنة (٨٧٥ م) معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف وجمهورية بيزا معاهدة مؤرخة في ١٥ صفر سنة (٥٦٩هـ-١١٧٢م) منح بها البيزانين عدة امتيازات خاصة بالتقاضي والمملكة. وحصل الفلورنتيون (أهل فلورنسه) من قايتباي سلطان مصر والشام على عدة امتيازات وكانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما وضع من الامتيازات الأجنبية للأوروبيين في الشرق وكان المقصد منها ترويج التجارة الصادرة والواردة .

قال أحد كتاب الإنكليز: إن عكا بقيت بخليجها الجون الطبيعي الوحيد على طول ذلك الساحل ، وكانت مرسى السفن في العصور الوسطى ، ولما كثر اعتماد سكان الشام في طعامهم على الأرز عظم شأن عكا ، لأنها كانت الميناء الوحيد لتوريده . وكان الناس يقولون إذا أراد « باشا » عكا تضرب المجاعة أظنانها في الشام . ولذلك صار امتلاك عكا ضرورياً لكل فاتح يريد امتلاك القطر ، فحوصرت أكثر من سائر مدن الشام وكان اتصال أوروبا بها أكثر من اتصالها بسواها .

كانت التجارة من أعظم العوامل في الحروب الصليبية ، وأكثر أهم أوروبا انتفاعاً منها الإيطاليون أهل جنوة وطسقانة والبندقية وبيزا ، وهؤلاء كانت لهم قصور في الشام تدل على غنى ، وسفن الطليان هي أهم الأساطيل التجارية في القرون الوسطى .

واعتماد الأوروبيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق ، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها ، وملك أزمة التجارة في البحر مع الطليان الكاتالانيون والبروفانسيون والقبرسيون والروديسيون ، وأصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة وجبل طارق اليوم ، وكانت قبرس تهدد شواطئ الشام ومنافذ النيل .

قال صالح بن يحيى : إن مراكب الإفرنج أخذت تتردد إلى بيروت بعد الحروب الصليبية بالتاجر قليلاً قليلاً ، وكانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلت بعد أخرى ، وكان للقبارسة جماعة من التجار يسكنون فيها أي في بيروت ، ولهم خانات وحمامات وكنائس ثم بطل ذلك .

وتكاثر حضور مراكب طوائف الإفرنج وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ في بيروت ، وهي تبلغ جملة مستكثرة ، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاد يوليهم نائب دمشق والمتوفر من المرتبات يحمل إلى دمشق . وذكر لامنس أنه في نحو سنة (١١٣٦ م) جاءت مراكب فرنسية عليها تجار لإفرنسيون من مرسليليا ثم أخذت بعض مرافئ جنوبي فرنسا كمونيلية وارل تبعث سفنها ، وبذلت جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية في التجارة مع الشام ، وكانت عكا المرفأ الأعظم بين المواني وقاعدة التجارة ومركز القناصل العاملين ، ثم مرافئ صور وطرابلس والسويدية التي كانت تسمى ميناء مارسمعان ثم بيروت . ومنذ القرن الخامس عشر تقدمت بيروت سائر مواني الشام ، وكان تجار الإفرنج يستبضعون من ديارنا الحرير والقطن بكميات وافرة والكتان والحام والأنسجة الكتانية والحريرية ، وكانت صور لا تزال تتجر بالأرجوان واشتهرت بآنيتها الصينية وزجاجها الفاخر ، ويُقبل الأوروبيون على حرير أنطاكية وزجاجها ، ويتاعون السكر بالكميات الكبرى من صور وطرابلس وغيرهما من مدن الساحل ، إلى غير ذلك من ضروب الثمار والعقاقير والحشائش الطيبة والأفاويه العطرية ، وكان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن والشب والبهار ، وخيرات الهند والعجم تندفق إليها . ومبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب الصليبية . وقد أخذ تجار الإفرنج أنفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعدهم يغلبون ويروحون في هذا القطر ، والحرب ناشبة بين الفريقين لا يمس أحدهم بأذى ، ولا يعتدى على حقوقه ، حتى اضطر الصليبيون أن يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة في الأرض التي بقيت في أيديهم إلى آخر مدة الحرب مثل صور وعكا وأنطاكية لا ينال التجار منهم كبير

أذى ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في أرضهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في أرض المسلمين على سلعمهم . وقد تعقد المعاهدات مع ملوك الإفرنج وتذكر فيها أنواع المتاجر التي يحملونها إلى موالي هذا القطر ومنها الخشب والحديد .

ولم تكن جمهوريات إيطاليا في حرب الصليبيين دولاً بحرية من الطراز الأول بل كانت منظمة بأحسن النظم الجمهورية ، ومع هذا فكثيراً ما كانت تشب الحرب بينها حتى تستأثر إحداها بالتجارة في الشام ، فكان الجنويون أعداء البنادقة ، وكذلك كان الكنتلانيون ، واضطر البروفانسيون أن يدخلوا تجارتهم إلى هذه الديار بواسطتهم ، وهم يريدون أن يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس وأن تمر تجار ما وراء جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر في موالي إيطاليا ، وتنقل على سفنهم وتستوفى عنها رسوماً خاصة . ولما احتل الجنويون الماغوسة في قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق وبقيّة الشام ، وكانت حال التجارة في الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى في دمشق على أحسن ما يكون ، فكان التجار الأوربيون إذا انتهوا إليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من ممالك مختلفة مثل البندقية وجنوة وفلورنسة وبرشلونة وغيرها ، فيبيعون ويتبعون ، وكان اجتماعهم في خان برقوق وقد أقام بعض البنادقة في حماة ومنها كانوا يتبعون القطن . وكان للأوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول وأول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة (١٣٨٤ م) واسمه فرنسيسكو داندللو وكانت دمشق مستقر القناصل ، إلا أن لامنس يقول : إن أول ما ورد اسم القنصل في جملة التزالة الجنوية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر ودعوه أولاً بنائب القمص Vicomte, Vice-Comg ثم انتشرت هذه الرتبة في أماكن شتى في النصف الثاني من ذلك القرن وعرف أصحابها بالقناصل وأطلق أولاً على الإيطاليين ، وبعد زمن طويل صار للفرنسيس قنصل .

التجارة في القرون الحديثة :

كانت حلب في هذا الدور من أول المدن التي اتجرت مع الطليان ،

وقد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الأولى وكان البنادقة يتاجرون من مليونين إلى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة ، وقد احتفظت الشهباء بمركزها التجاري المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط . ثم انتشر فيها الفرنسيون ولكنهم اضطروا أن يغادروها للاضطرابات السياسية إلى أنطاكية ، كما اضطرت تجار الإفرنج في دمشق إلى مبارحتها إلى صيدا وبيروت وعكا . وفي سنة (١٥٠٧ م) عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتي إلى مواني الشام ولا سيما طرابلس وصيدا وتأخذ منها حاصلات وتجلب إليها بضائع . وكثر عديد الإفرنج في حلب أكثر من دمشق ، لأنها أقرب منفذ لاتصال الشرق بالغرب ، فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويدية يتجرون مع أهلها ويقايضون محاصيلهم بمحصولاتها ومحصولات الشرق ، ولا سيما الهند وفارس والعراق ، وكانت فرنسا والبندقية أول الممالك الأوربية التي تجرت مع حلب وعقدت معها الصلات التجارية وأقامت المكاتب ، ثم جاء الإنكليز في القرن السادس عشر وتلاههم الهولنديون ، وقد تناسل بعض الإفرنج في حلب وارتاشوا وتائلوا وعدوا كأنهم من أهلها ، وكان البنادقة يتجرون بالبهار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب والقطن .

وكان في حلب وكلاء لتجار الهند وبلاد الكرج والفرس والأرمن وغيرهم ، وللبنادقة بين أمم البحر المتوسط موقع ممتاز ، ولئن أفقد حلب فتح الطريق البحري إلى الهند الشرقية بعض مكانتها التجارية ، فقد كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاهرة بتجارتها . وكان في حلب سنة (١٧٧٥) ثمانون وكالة تجارية لبيوت تجارية أوربية ، وأكثر اعتماد الأوربيين على سماسرة من اليهود يتجرون بالصادر والوارد ، وكثر تجار الإنكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الأول (١٦١٣-١٦٢٥) .

ونما عدد تجار الأوربيين في عكا وصيدا وبيروت ولا سيما في هذا الثغر ، فأصبح على ما روى لامنس في القرن الخامس عشر ولا سيما بعد عهد تيمورلنك ملتقى شعوب البحر المتوسط . وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه

من العمائم والطرايش والكوفيات الحرير وأكسية وبرانس وقفاطين . وفي القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج أن تعمر ميناء اللاذقية مبيين للحكومة حسن مستقبلها ، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح وقال : ربما أكون غداً في جدة فلماذا أتخلى عن الموجود وأطلب مستقبلاً مجهولاً .

ومن كان لهم اليد الطولى في تنشيط التجارة في هذه الديار فخر الدين المعني الثاني في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة . وكثيراً ما كانت مراكب الإفرنج تأتي لمشتري الخنطة إلى مواني عكا وصور والرملة وطنظورة وربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية في عكا نحو ١٥٠ . ولقد توسع فخر الدين في الامتيازات الأجنبية فسمح للفرنسيين أن يبنوا خاناً عظيماً في صيدا ، ولأهل فلورنسة أن يفتحوا قنصلية ، فأصبحت صيدا وميناؤها أوائل القرن السابع عشر أهم مواني الشام .

وفي عصر فخر الدين كان يحمل من دمشق إلى الديار المصرية عشرة قافات كما قال صاحب محاسن الشام : وهي قصب الذهب . قبع . قرضية . قرطاس . قوس . قبقاب . قراضيا . قمر الدين . قريشة . قنبريس . ونقل الغزي عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ١٧٢٣ (١١٣٦) أن حلب لا تضاهيها بلد بتجارها الذين يقصلونها من أقطار الدنيا ، فإن خاناتها التي لا تقل عن أربعين خاناً لا تزال غاصة بالهنود والفرس والترك والفرنج وغيرهم بحيث لا تقوم بكفائتهم . قال : ومن خصائصها التجارية وجود الحمام الذي يأتي تجارها بالأخبار من إسكندرونة بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب وحمله إلى إسكندرونة بأقفاص ، فإذا طراً خبر علقت البطاقة في رقبة الطير وسرح ، فيصير إلى حلب طالباً لفراخه .

وفي كتاب « الشام على عهد محمد علي » : ما زالت حلب ودمشق المركزين العظيمين للتجارة في الشام ، وما برحت حيفا وبيروت وطرابلس وأنطاكية وإسكندرونة هي المواني التي يكثر اختلاف السفن الأوربية إليها ، وهي المحطات الرئيسة لتجارة الشرق ، فتأتي قوافل بغداد إلى دمشق وحلب حاملة من العجم التنيك والسجاد ، ومن غيرها اللؤلؤ والأحجار الكريمة ، ومن الهند الطيب والعقاقير والأفاويه ، وفي عودتها تحمل جوحاً وثياباً من

عمل أوربية ، وألبسة حريرية من صنع دمشق وحلب ، وبضائع متنوعة ومصنوعات خشبية وصدفية ونحاسية ، وبسوء السياسة المخالفة لما هو جار في أوربا ، إذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين ، أصبحت معظم التجارة العربية في الشام تجري تحت اسم أوربي . وقبل أن يفتح إبراهيم باشا الشام كان التجار الوطنيون يدفعون إلى الإفرنج ثلاثة ونصفاً أو أربعة في المئة ليتأتى لهم أن يتجروا بأسمائهم ، لأن الإفرنج لا يدفعون على الأكثر زيادة على أربعة في المئة من كل ما يطلب من المكوس والضرائب ، على حين كانت العرب خاضعة لاداء ١٨ أو ٢٠ وربما ٢١ في المئة . وقال : إن عمال إبراهيم باشا كانوا يتجرون ويحتكرون أصنافاً من التجارة .

ولما قلّ الأمن في البحر على عهد نابليون وبسوء الإدارة العثمانية وبثورات الإنكشارية سنة (١٨١٤ و ١٨٢٦) وبزلزال سنة (١٨٢٢ و ٢٧ و ٣٢) ووباء سنة (١٨٣٢) وطاعون سنة (١٨٣٧) خربت تجارة حلب ودمشق ، وكثرت البضائع الإنكليزية التي كانت تباع بأثمان بخسة تجيء من طريق ليفورنا في إيطاليا . وكانت الحاصلات الخام التي تعود إلى الشام معمولتاً ، سبب خراب هذا القطر ، مثل حراير ليون التي أخذت تسحق حراير دمشق وحلب ، وبمنافسة حراير ليون التي تقلد حراير دمشق أحسن تقليد وتباع بأثمان بخسة ، قضى على صنائع دمشق بعد أن كانت تعمل أكثر من ٤٠٠ ألف قطعة من الحرير والثياب الحريرية المزوجة بالقطن . وكانت تجارة الحاصلات التي تبتاع بالسلف والسلم ، خراب الفلاح الشامي البائس ، وكان كثير من تجار الأوربيين يستحسنون هذا النوع من التجارة ، ومنهم من كان يملكها وقد يربح المتجر بها خمسة وعشرين في المئة ، ويعدها صاحب الزمة غنياً ، وكان يصل إلى بيروت كل سنة ١٣٤٠ سفينة تحمل ٧٨٤٨ طناً ويخرج ٨٠٥ سفن تحمل ٥٠٠٥ يخرج منها القطن والحرير والتبغ والإسفينج والقوة والزيت والصابون بمقدار وافر والسهم والكمون والعفص . وتجارة الواردات تبلغ ٤٤,٣٦٦,٦٧٠ قرشاً منها نحو ١٥ مليوناً من مصر وتجارة الصادرات ٢٦,٨٧٤,٢٧٠ منها نحو ١٣ مليوناً لمصر ، فكانت الشام تخسر مساهمة نحو ١٨ مليون قرش تسدها سبائك ذهب أو نقوداً ، وهذا على عهد الحكومة

المصرية . وبعض هذه الصادرات قد بطل لإصداره اليوم من الشام .
ولقد تضررت حلب ودمشق بفتح البرتقاليين طريق رأس الرجاء الصالح
في جنوبي إفريقية سنة (١٤٩٧ م) ، وكان أول من اكتشفه من البيض الفينيقيون
نحو القرن السابع قبل المسيح ، وتأذت تجارة حلب ودمشق بفتح الفرنسيين
ترعة السويس سنة (١٨٦٨) ، وكان من نكبة الشام بفتح هذه الترعة أن انتقل
كثير من تجار دمشق وحلب إلى بيروت والإسكندرية والقاهرة وطنطا ولزهر
وسلانيك والإستانة ومانشستر ومارسيليا وميلانو وغيرها من المدن الأوربية
والإفريقية والآسيوية ، وقد تحولت تجارة الصين والهند إلى البحر ، وبطل
عمل القوافل التي كانت تغلو وتروح بين الشرق الأدنى والأقصى ، وقل
عدد الذين يعمرون بدمشق من الروم وغربي آسيا للذهاب إلى الحجاز ، وأصبح
معظمهم يركب البحر إلى البقاع الطاهرة تخفيفاً من عناء الأسفار في القفار
وانحصرت التجارة الداخلية في حدود ضيقة ، وأصبحت لا تتعدى حد
المستهلكات ، وصار لها مواسم قلما تروح في غيرها ، ولما انتظم سير السفن
البخارية ، وكثر اختلافها إلى مواني الشام ، وكانت رحلاتها من قبل
متقطعة مختلفة المواعيد ، تجرأ الناس على الاتجار وتضاعفت الصلات التجارية
بين الشام والأصقاع الإفريقية .

يقول بعض الكتاب: إن التجارة البحرية لم تنقطع في البحر الرومي في
القرن الأول للإسلام إلا بما كان يبدو من حركة الأسطول اليوناني، ولكن
تجارة الشام أصيبت بالتأخر مع أوروبا لما أصبح للشام منافس كالبحيرة التي
كانت لقربها من الهند أكثر منافسة للشام .

وظهرت ظاهرة مهمة في الشام منذ نحو ثمانين سنة أثرت فيه تأثيراً كبيراً
وذلك أن جماعة من تجار بيت لحم في فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية
والصدفية إلى معرض فلادلفيا سنة (١٨٧٦م) فربحوا كثيراً ولما عادوا كثر
المقتفون لآثارهم من التجار وغيرهم من أهل الشام وبدأ الناس بالهجرة
طلباً للربح ، وكانت الهجرة مقصورة أولاً على سكان الجبال من لبنان وعامل
واللكام ثم تعدت إلى سكان السهول ، وكان المستأثر بها سكان القرى فتعدت
إلى سكان المدن ، وكان التجار على الأغلب مسيحيين فأصبحوا بعد من

جميع أهل الأديان من الشاميين ، ولم يلبث نطاق الهجرة أن توسع ، وما نراه في اللبنانيين الشرقي والغربي ، وما إليهما من الجبال من الدور والقصور عمر أكثره بلراهم أميركا ، ويقدر اليوم المهاجرون إلى أميركا الشمالية والجنوبية وأستراليا وغيرها من البلاد التي ترحب بالأيدي العاملة بزهاء سبعمائة ألف مهاجر شامي .

وقد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجاري الاقتصادية في السلطنة العثمانية ، ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المنتدبة في إهمال الحركة الاقتصادية وإلقاء الحبل على الغارب . وقد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام ، لينجوا من دعوى أوروبا في حماية الأقلية ولكن بهجرتهم ضعفت التجارة ، وكيف تنجح التجارة في أمة والحكام هم التجار ، وقد رأينا من ذلك أمثلة خلال الحرب العامة ، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير والصغير منهم يحتكروا معظم الحاجيات دع الكماليات ، فكانت تراهم كلهم تجاراً يؤخرون الأرزاق عن الجند في ساحة الحرب ويقطعون مواد الحياة عن الرعية ، حتى يشحنوا بضائعهم ويغنموا فرصة ارتفاع أسعارها ، فاعتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افتقروا بعد حين . على أن بعض البلدان استفادت كثيراً من الحرب العامة ومعظم المدن التي استفادت حلب ودمشق وبيروت والقدس . قال الغزي : إن التجارة في حلب أخذت بالتقدم منذ ثلاثين سنة ولذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة ، وكان معظم هذه الزيادة في أيام الحرب العالمية فإن أرباح التجارة التي كانت في غضوننا جرت الجهد الكبير من ذوي الصنائع اليدوية من صنائعهم إلى الاسترزاق بالتجارة فنجحوا وربحوا أرباحاً طائلة ، ونشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر. إلى أن قال : وفي سنة (١٣٤١) بدأ دولاب التجارة يلور يبطئ فأخذت الثروة العامة في حلب بالانحطاط لإغلاق الأناضول أبوابه في وجه تجارة البضائع المعلودة من الكماليات وغلاء أجور النقل في السكة الحديدية وتلاعب الصيارفة والمحتركين بالأوراق النقدية والتقود الذهبية إلى غير ذلك من الأسباب .

ومن أعظم الفوائد التي نتجت للشاميين من تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية ، أن كان من هؤلاء المتعلمين وأكثرهم من غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب . واستأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون في الإسكندرية وطنطا والقاهرة والسودان والإستانة ولإزمير ، وكل بلد في الأرض مهما بعدت الشقة إليه ترى فيه تجاراً شاميين ، وأنجح تجارهم في مصر والأميركتين وأستراليا . ولنا تجار في العراق والحجاز وفارس والهند ويابان وجنوبي إفريقية وأواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ إبراهيم :

رجال الشام في كرة الأرض يبارون في المسير الغماما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العيش ويرون للنضال سهاما

ومن أهم المواسم التي كانت في فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة في التجارة موسم السياح ، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الأماكن المقدسة والمصانع التاريخية في فلسطين وبعلبك وتدمر ودمشق وغيرها ويقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الأكثر إلى المدن الوسطى والشمالية وبأكثر من ذلك إلى فلسطين فقط ، والموسم الآخر موسم حجاج إفريقية وآسيا وأوربا وكانوا يقدرون بخمسين ألف حاج ، والفضل في ذلك يرجع لسهولة المواصلات البرية في السكة الحجازية، ولرخص أجور البواخر في البحر . وموسم الحج بطل بالحرب فتزل معدل من يزورون الشام ويتجرون ويتاعون . أما موسم فلسطين فإن كثيراً من تجارها أصبح رزقهم موقوفاً على ما يربحونه في موسم الزوار في القدس وبيت لحم والخليل والناصره وغيرها ، وبدأ الشرق العربي يربح كثيراً من السياح الذين يختلفون إلى ذاك الصقع لزيارة جرش وعمان والبراء وقصر المشتى وغيرها ، كما تربح سورية ولبنان من القاصدين إلى زيارة بعلبك وتدمر وغيرها ، وصار لموسم الاصطياف في لبنان الغربي والشرقي مكانة اقتصادية ذات شأن كبير في تنشيط الصناعة والتجارة . ومتى انتشر الأمن في القطر ، وكثرت الخطوط الحديدية في البر ، والسفن التجارية في البحر ، وحمى الحكومة التجارة بقوانينها

وأحكامها العادلة ، ومعاهداتها مع الأمم المجاورة ، انتبه التجار إلى التجدد في متاجرهم. ولا نعد تاجراً من يحرق مخزنه أو ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة ، أو يتلكأ في أداء الذمم التي عليه ، أو يضارب في الأسواق فيؤذي الفقير. أو يعامل صاحب المعمل في الغرب بقليل من الذمة فيتلاعب في الأسعار والصوافي ، فإن هذا مما يؤخر الصادر عنا والوارد علينا ، وفي كل ذلك ما يزيد الغبن ويورث الخسارة في العاجلة والآجلة لا محالة .

ولقد ثبت في العهد الأخير ، وخصوصاً لما أخذ المسلمون يجارون مواطنيهم المسيحيين في تعلم اللغات الغربية ، ويتقنون أصول التجارة على أساليب أمم الحضارة ، ويتعرفون إلى أوضاعهم الجديدة في استثمار أموالهم في مصارف خاصة بهم ، أن الغربيين يتعذر عليهم أن يتوسعوا بعدد في الاتجار في القطر ، وفتح بيوت تجارية على المثال الذي كان لهم وحدهم في القرن الماضي ، وقطع أرزاق الشاميين في عقر دارهم . ذلك لأن التاجر الوطني أقل من التاجر الغربي في مطالبه ، يكتفي بالربح القليل ، ويصبر في الأزمات ، وهو في بلده يعرف ما يصلح له ويروج فيه ، ونفقاته إجمالاً أقل من نفقات الغرب . وإذا تساوى الوطني والدخيل من كل وجه ، فالوطني يؤثر معاملة مواطنه لا محالة .

وإذا جرى التاجر العربيّ التاجر الغربيّ أو كاد ، تجلت في ابن الشام أخلاق التجارة ، والنفوذ في قاعدة العرض والطلب ، وبدا في هذا الميدان ذاك الشرف المغيّب الذي كان كامناً في نفسه ، وورثه مع الدم المتسلسل فيه من آبائه الأقدمين ، عرباً كانوا أو روماً أو فينيقيين ، وبذلك أصبح الرجاء معقوداً بأن يستأثر الشاميون بتجارة ديارهم . فإن تعلموا باختلاطهم بالأمم الحية ما ينقصهم من ضبط ونظام ، وساعدهم على ذلك قلة من يأتي من الغرب من أرباب الطبقات الأولى في التجارة ، وكان التاجر المتوسط الحال بماله ومعرفته منهم أقل حظاً ممن يماثله من الشاميين في أسواق المتاجرات ، وإذا كان من البعيد على النوايح من كل صنف في الغرب أن يَغشوا بلادنا — كان في ذلك كله النفع العظيم لنا في تجارتنا ، ومتى حللنا روح الشامي وما انطوى عليه من مراعاة الشرف والاحتفاظ بالثقة ، والبعد عن التدليس

والمؤالسة ، وإرادة النصح في الحملة ، كان التاجر كل التاجر ، الذاهب في الأرض بجماع المفاخر ، وباستقامة تاجرنا في معاملته ، يدفع عن وطنه كثيراً من الغوائل الاجتماعية ، ولا يهنأ العيش ويطيب ، إلا إذا قلّ توافد الغريب من الجنس الذي قال فيه حافظ :

يُقْتَلْنَا بِلا قَوْدٍ ولا دِيَّةٍ ولا رَهَبٍ
ويمشي نحو رابته فتحميه من العطب

التجارة والاقتصاديات في العهد الحديث^(١) :

نشبت الحرب العامة سنة (١٩١٤) ولم تكن الشام على استعداد للدخول في غمارها ، ولم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوارئها ، وما لبثت الدولة العثمانية والبلاد الشامية التابعة لها أن دخلت في صفوف المحاربين إلى جانب الدولة الألمانية وحلفائها ، فحصرت مواني الشام ، وبدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجياً ، وذلك في أصناف الملابس كأنواع منسوجات القطن والصوف على اختلاف أنواعها ، أو في المأكولات كأنواع السكر والقهوة والأرز ، أو في سائر الحاجيات والكماليات كالبتروول (الكاز) والكحول (السيروتو) وأنواع المواد القرطاسية والزجاجية والأصباغ والمواد الكيماوية على اختلاف أنواعها ، وشعر الناس بالحاجة إلى الاقتصاد والتفكير في استجلاب هذه الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان .

وقد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدي العاملة أيضاً من المدن والقرى ، بسبب النفير العام والتجنيد في جميع أصقاع الشام ، وكان من تخلصوا من التجنيد الإجباري هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكري فدفعوا بدلات نقدية مرات خلال أعوام الحرب . وكانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة في السنين الأخيرة ، وأعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها .

ولم يلبث الضيق أن عمّ والنقد أن قلّ وخصوصاً بعد أن وضعت السلطة العسكرية يدها على جميع وسائل النقل في البلاد مثل السكك الحديدية ودواب

(١) كتب هذا الفصل السيد لطفى الحفار .

النقل والمركبات والسيارات ، فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافاً بيناً في بلاد الشام القريب بعضها من الآخر ، وذلك بالنسبة للتشدد أو التساهل الذي كانت تبديه الإدارة العسكرية في استخدام أسباب نقل البضائع . انقضت السنة الأولى للحرب فأصبحت دمشق مركزاً للجيش الرابع الزاحف على ترعة السويس . وأنشأ يعقد البيوع العظيمة والالتزامات الكبيرة سد لحاجات الجيش المذكور ، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج ، وأخذت إدارة الجيش تتساهل باستخدام المجندين في إدارات المتعهدين والملمتزمين ، ونشطت الحركة التجارية والصناعية في الشام . ولا ينكر أن الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة في أسواق التجارة لضمان حاجاته الكثيرة التي لم يتمكن من تأمينها بطرق الإكراه أو بواسطة الضرائب الحربية التي رأى أنها عقيمة لا تفي بالحاجة ، وبعدها فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التي غلت أسعارها وعزّ وجودها من بلاد نجد التي كانت تستورد بضائعها من الهند وفارس على أيسر وجه وطمأنينة ، لأن أمير نجد عبد العزيز ابن سعود كان موالياً لإنكلترا لا يجد ضيقاً ولا رهقاً في استجلاب البضائع ومواد الغذاء على اختلاف أنواعها .

ولقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائط لسد حاجات البلاد والجيش ، ولإيجاد حركة تجارية جيدة كانت تدرّ ذهباً وهاجاً على المتاجرين والمستوردين ، كما أن كثيراً من التجار اتخذوا وسائط عديدة لاستجلاب بعض البضائع الألمانية والنمسية بواسطة رجال الجيش واستخدام وسائطهم لنقل هذه البضائع بالاتفاق معهم ، وبتبادل المنفعة بينهم ، وبذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التي بدأت في الستين الأوليين من الحرب ، واغتنى كثير من التجار والعاملين والوسطاء من رجال الإدارة والجنديّة باستخدام هذه الوسائط في النقل ونقل أصناف التجارة ، والبلاد محصورة لم يرد إليها شيء قط من طرفها البحرية العديدة . وكثرت النقود الذهبية في التعامل بما أنفق من إدارات الجيش ، وما ورد البلاد من طرق البر من البضائع ، وما كانت بريطانيا العظمى تنفقه في أنحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية ، حتى أصبحت البلاد في أواخر سني الحرب على أحسن حالات اليسر والرخاء .

فارتفعت أسعار العقارات والمزارع ، وشعر الناس بكثرة النقد الذهب في أيديهم حتى كان المشتري لا يجد من يبيع عقاراً أو أرضاً إلا بثمن فاحش ، إلى أن دخلت الجيوش الإنكليزية والعربية هذا القطر تحمل معها الذهب وتنفقه بلا حساب ، ويقدر ما أنفقه الجيش الإنكليزي في سنة (١٩١٩) والأشهر الأولى من سنة (١٩٢٠) في أرض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية .

الورق النقدي والعوامل في تدني الاقتصاديات :

وحدث خلال الحرب أن اتجر كثير من المالين بأوراق النقد اللوولي على اختلاف أنواعه ، وأصبح بعضهم يستورده من طريق ألمانيا والنمسا وسويسرا إلى الإستانة ، ومنها توزع في أنحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوي والمارك الألماني والشلن الإنكليزي والفرنك الفرنسي والروبل الروسي وأوراق النقد التركية والأسهم اليابانية والعقارية المصرية والأرجنتينية على اختلاف أنواعها ، وأصبحت تباع بقيم تنحط أحياناً عن قيمتها الحقيقية ٢٥ إلى ٥٠ في المئة . وتلنى سعر الروبل الروسي إلى ١٠ و ١٥ في المئة وكذلك المارك والكرون ، فأقبل عدد كبير من التجار وأرباب الأملاك حتى والنساء على مقتناها وذلك على أمل أن تعود إلى أسعارها الأولى بعد أن تضع الحرب الغامة أوزارها . ويُقدر الخيرون أن الشام أدت قيمة ما ادخرته من أوراق النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، كان القوم يأمل بيعها بما يقارب أسعارها الأولى ، وبذلك يربحون ربحاً عظيماً من أيسر طريق .

ثم أعلنت الهدنة عام (١٩١٨) وبدأ تجار الشام يستوردون البضائع المنوعة التي اشتدت حاجتها إليها من البلاد المصرية أولاً ثم عقدوا المبيعات المختلفة من أوروبا بأسعار عالية ، وقد اضطر أرباب المصانع والمعامل إلى رفع أسعار بضائعهم لعوامل عديدة ، ومنها قلة الأيدي العاملة بعد الحرب العامة ، وغلاء المواد الأولية للصناعات المنوعة ، وارتفاع أسعار الفحم وأجور المواصلات ، وراح الكثيرون بالنظر للحاجة الماسة إلى عقد مبيعات عظيمة من أنواع البضائع المنسوجة والمغزولة على كثرة أنواعها ، ومن الأصناف

الأخرى كمواد الزجاج والقرطاس والكيمياء وغيرها فأدت الشام أثماناً باهظة وقيماً فاحشةً جداً في ابتياع البضائع المستوردة في سنتي (١٩١٩ و ١٩٢٠) حتى غصت المخازن والمستودعات بهذه الأصناف وضافت بها الأسواق ، وكان لهذا الاندفاع الكلي الذي لا نسبة بينه وبين حاجة البلاد بسبب الأرباح التي كانت تلتز أولاً ، فعل عنيف وصدمة قوية أصيبت بها الأسواق فكانت من بوادر الضيق وحلوث الأزمات الاقتصادية للأسباب الآتية :

أولاً : إن الشام ولا سيما دمشق كانت تكثر كميات عظيمة من ورق النقد المختلف الضروب فطراً عليها التزول العظيم وأصبح قسم منها في حكم المعلوم مثل الروبل الروسي والكرون النمساوي والمارك الألماني وغيرها ، وكانت خسارة بلاد الشام بها عظيمة ولم تعوض منها شيئاً .

ثانياً : نزول أسعار البضائع المتوالي منذ عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢ وورود كميات كبيرة من البضائع المتنوعة التي ما زالت مخزونة على التوالي عند أصحابها فطراً التزول التدريجي عليها ، وذهب بقسم كبير من ثروة كبار الأغنياء والتجار .

ثالثاً : حدث بعد أن دخلت الجيوش الفرنسية إلى المنطقة الداخلية في أواخر عام (١٩٢١) أن وضعت الحواجز الجمركية بين جنوب البلاد وشمالها وشرقها ، وكانت من قبل وخصوصاً دمشق مركزاً عظيماً لتصدير البضائع والمصنوعات الوطنية إلى الحجاز وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والأناضول فأصبحت بمعزل عن هذه البلاد المجاورة ، بالنظر للتبديل السياسي الذي حدث بعد الحرب العامة ، وصارت مصنوعات الشام التي كانت تصدر إلى هذه الأقطار حرة لا مراقبة عليها ولا قيد من القيود الثقيلة والحواجز الجمركية فكاد يقضى على هذه الصناعات وعلى تجارها وعمالها .

الحواجز الجمركية :

عقدت المفوضية الفرنسية العليا في الشام اتفاقاً مع المفوضية الإنكليزية العليا في فلسطين يوم ٢٢ أيلول سنة (١٩٢١م) لتأسيس جباية الجمارك على

البضائع التي تتبادل هاتان المنطقتان التجارة بها ، وإحداث دوائر مكس على الحدود وداخل البلاد لما تقتضيه هذه الحماية ، وعلى أثر ذلك اجتمع عدد كبير من تجار دمشق وتفاوضوا قضية هذه الحواجز وأضرارها على التجارة والصناعة ، وقر رأيهم على انتخاب لجنة من كبار تجار البلاد مؤلفة من عشرة أشخاص للعمل في هذه القضية ، فبدأت اللجنة عملها بأن قدمت تقريراً مطولاً للمراجع الرسمية بينت فيه مقدار الأضرار التي تنتاب الشام من وضع هذه الحواجز الجمركية بين جنوبها وشرقها وشمالها خصوصاً الصناعات الوطنية المنوعة وضمنته إحصاءاً دقيقاً في أنواع هذه الصناعات ومقدار النفوس والأموال والقيم المقلدة للأنواع المصدرة خلاصته أن في مدينتي دمشق وحمص نحو ١٠,٢٦٠ نولاً يشتغل بها ٤٦,٢٦٠ عاملاً ، وهذه الأنواع تخرج مقدار ٤,٥٦٨,٥٠٠ قطعة قماش قيمتها ثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، وذلك للأصناف الآتية فقط : الألاج الحريرية والقطنية التركية ، الديما ، الحامدية ، الملاءات الحريرية والقطنية ، العباءات ، الستور على اختلاف أنواعها ، السلوكات الأغباني ، الشال الحريري والصوفي ، والكمر والمضربات ، وفي مدينتي حماة وحلب مثل هذا المقدار من الأنوال والعمال لمختلف الصناعات الوطنية التي هي برسم التصدير إلى الجهات المجاورة. وتابعت بياناتها في الأضرار التي تعود على البلاد وقدمت احتجاجاً مطولاً بينت فيه الأضرار السياسية والإدارية والاقتصادية التي تنتج من وضع هذه الحواجز الجمركية وخلاصته .

أولاً: إنه ليس من مصلحة سورية وفلسطين إلغاء الاتحاد الاقتصادي وفصل إحداهما عن الأخرى هذا الفصل المضر لأنه يقلل العلائق التجارية ومبادلات الأعمال بين المنطقتين، وهذا يُفضي بالتدرج إلى انقسام هذه الأمة الواحدة إلى أمتين ويؤدي إلى تباعد المشارب وتباين الأطوار والخلال الروابط بينهما تدرجاً إلى أن يصبح البون عظيماً وتضعف عرى الألفة والاتحاد المستقرة الآن ، والصلات التجارية والمعاملات المدنية هي العروة الوثقى التي تربط بين الشعوب وتقارب بين القلوب ، والحواجز الجمركية هي الضربة القاضية على هذه المعاملات والصلات ، ولما كان السوريون لا يختلفون في شيء

عن الفلسطينيين كما أن الفلسطينيين يحسبون أنفسهم قسماً من الشعب السوري العربي فجميعهم لا يرضون بوجه من الوجوه أن تفتح بينهم هذه الهوة العميقة التي تقوض أركان وحدتهم القومية والعنصرية ، وتقضي على آمالهم الوطنية ويرجون من الدولتين المحتلتين أن لا تعاونا الدهر على تفريقهم والإيقاع بينهم .

ثانياً : سلطت السياسة على إخواننا في الجنوب مناظراً شديداً وخصماً للوداء ، ونعني بهم الصهيونيين الذين لا يفتأون يلدسون الدسائس لإضعاف الوطنيين وإذلالهم ليتمكنوا من الاستعلاء عليهم واستلاب أموالهم والأخذ بمخنت أوطانهم . وأي وسيلة أنجح لهؤلاء الصهيونيين من تفريق أهالي فلسطين عن إخوانهم في سورية وقطع العلائق بينهم تدريجياً ! .

ثالثاً : ما زالت جمارك البر الموضوعة في داخلية البلاد عرضةً لصعوبات عظي في ضبطها وجبايتها حتى عند أرقى الدول وأقلها ، والقيام بهذا العمل بين سورية وفلسطين شاق جداً لا يستطيع إتقانه ولا تُرجى سلامته ، ولذلك أسباب كثيرة لا تسهل إزالتها ، منها أن الوسائط الثقيلة بالقطر الحديدية بين المنطقتين محدودة جداً ، والطرق الأخرى مفتحة على طول الخلود تجتازها الجمال والبغال وسائر حيوانات النقل في الليل والنهار ، ولا سبيل لمنع التهريب منها ، وقد يكون المهرب من التجارات أكثر مما يمر بإدارة الجمرك فتكون النتيجة أن الذي يتمكن من تهريب بضائعه بلون جمرك يزاحم التاجر الأمين الذي يؤدي جمركها المفروض عليها ، ويتعذر بيع البضائع المدفوع رسومها فتضطر الحكومة إلى مراقبة جميع الطرق وإقامة الحفراء على الخلود ، وإنفاق الأموال الطائلة في هذا السبيل ، وينتج عن ذلك أشياء منها : القتال بين المحافظين والمهريين كما هي الحال في مسائل تهريب الدخان وإفساد أخلاق الناس بفتح السبيل أمامهم لمخالفة القانون وارتكاب جريمة التهريب التي تحملهم أحياناً على ارتكاب جرائم أخرى للفرار بأموالهم ، إفساد أخلاق المأمورين الذين يتولون أمر المحافظة بفتح سبيل جديد أمامهم لأخذ الرشوة ، والاشتراك مع المهريين كما هو المألوف المعروف في الأعمال التي هي من هذا القبيل .

العامل الاقتصادي :

ويقال على وجه الإجمال: إن الحاجز الجمركي بين القسم الشمالي والقسم الجنوبي من سورية يكون سبباً لبقاء عشرات الألوف من الخلق بلون عمل وتتعطل تجارة البلاد وصناعاتها ، لأن القسم الأعظم من الغزول والمنسوجات الأوربية التي ترد إلى دمشق وحمص وحملة وحلب ينسج ويفصل ويخاط ويصبغ ويحوّل إلى سلع تجارية من ألبسة وغيرها وأنسجة متنوعة وتصدر إلى الجنوب ، فإذا وضع عليها ضريبة جديدة بمعدل أحد عشر بالمائة رسماً جمركياً يتعذر تصريفها ويضطر المشتغلون بها إلى ترك هذه الصناعة والتجارة وعددهم عظيم جداً وهذه الصناعات القديمة في سورية هي المورد الوحيد لرزق الكثيرين من السكان، كما أن هذا الضرر يلحق أيضاً سكان فلسطين بحرماتهم من إصدار معدولاتهم ومصنوعاتهم إلينا وكساد العمل عندهم وعندنا في آن واحد .

ويناقض هذا الاتفاق الجمركي نصوص الحقوق اللولية ولا يتألف مع العادات المعمول بها ويضر بمصلحة الشاميين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويهدم عمران البلاد ، ويودي بالتجارة والصناعة الوطنية ، ويضعف العلائق التجارية مع أوروبا ويرجع بالصناعة السورية القهقري .

فألغى هذا الاتفاق وحل محله اتفاق آخر عقد بين المفوضيتين في سورية وفلسطين وجعلت فيه الصادرات والواردات بين هاتين المنطقتين حرة غير تابعة لتقاضي الرسوم الجمركية إلا ما كان من استيفاء واحد في المائة على قيمة البضائع الصادرة والواردة رسوماً للبلديات ، وعلى التجار أن يقدموا قوائم صحيحة بقيمة البضائع الصادرة والواردة ، وعلى أساسها يجري الحساب بين إدارة الجمارك في المنطقتين بنسبة ما يوجد في البضائع من المواد الأولية المؤدى عنها رسوم جمركية ، حين دخولها إلى ثغور الشام وهو ما يجعلونه على قاعدة الجمارك المشتركة ، وعلى قاعدة الجمارك المشتركة عقد اتفاق مع الشرق العربي أي حكومة شرقي الأردن .

ولما كانت قد حصرت جباية الرسوم الجمركية بجميع الواردات الأجنبية إلى البلاد السورية في الثغور البحرية نشأ خلاف كبير بين حكومتي الاتحاد

السوري التي كانت مؤلفة من ولايتي حلب ودمشق والإسكندرونة وأنطاكية ومنطقة العلويين وبين لبنان الكبير، ومع أن هذه البلاد تستهلك القسم الأعظم من الواردات الأجنبية ، كانت حصة الجمارك التي تدفعها الإدارة العامة إلى حكومة الإتحاد السوري لا تتجاوز ٣٢ في المئة وهي أقل بكثير مما كانت تدفعه إلى حكومة لبنان الكبير وذلك استناداً على طريقة الإحصاء التي كانت متخذة لمعرفة أنواع البضائع التي ترد إلى بلاد الإتحاد السوري . وبعد أخذ ورد أصغر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان حكمه في أن تأخذ سورية اثنين وخمسين في المئة والباقي يخص بلبنان الكبير ، كما أنه قرر فساد طريقة الإحصاء المتخذة قبلاً وإلغاءها .

الواردات والصادرات :

تستورد البلاد السورية البضائع المنوعة اللازمة لأسواقها من الخارج ، وأهم وارداتها أنسجة القطن والحرير على اختلاف أنواعها ، والأجواخ والأواني البلورية والأدوات القرطاسية والأدوات والآلات من الحديد والكاكز ومواد البناء كالخشب والاسمنت المسلح والمواد الكيماوية وحاجيات الصيدليات وغير ذلك . وتصل إلى الخارج ما يزيد عن حاجتها من حاصلات الزراعة وبعض المنسوجات من القطن والحرير المعروف بجودة صنعه وإتقانه وجماله في بلاد الشرق، وكذلك بعض المصنوعات من الخشب والنحاس الممتاز بدقة الصنع والسكاكر ومرببات الفواكه والحرير والصوف والجلود والتبغ والصابون وغير ذلك .

ويجري أكثر التصدير والتوريد في أسواق المدن الآتي ذكرها مرتبة حسب مكانها وهي : بيروت ، طرابلس الشام ، الإسكندرونة ، اللاذقية ، صيدا من الثغور البحرية . وحلب ودمشق من المدن الداخلية ، ويجب أن لا يفهم أن ما يستهلك في هذه المدن يتبع التصدير والتوريد ، بل بالعكس فإن شأن الاستهلاك غالباً في الحواضر الداخلية وما يتبعها من القرى وكثرة السكان كما تقدم في بحث تعيين الحصة الجمركية بين سورية ولبنان . ولكن المعمول في حركة التوريد والتصدير على الثغور البحرية كما لا يخفى وهي واسطة النقل والشحن .

وقد تبين أن فرنسا وإنكلترا هما في الدرجة الأولى بالنسبة للصادرات إلى الشام ويأتي بعدهما كل من إيطاليا وبلجيكا والولايات المتحدة . وكذلك يظهر أن المقايضات في التجارة بين الشام ومصر في تقدم مستمر ، وأن حركة التصدير من سورية إلى البلاد المجاورة كفلسطين وشرقي الأردن حسنة جداً وعليها المعول في كثير من المصنوعات الوطنية بالنظر للرغبة فيها والحاجة إليها في تلك البلاد المجاورة ، وكذلك حركة النقل (الترانسيت) بين الشام والعراق والبلاد الإيرانية فإنها قد ارتفعت وتحسنت، وذلك بعد فتح طريق السيارات بين سورية والعراق .

وقد بلغ محصول الشام من الصوف في سنة (١٩٢٥) ٤٦٠٠ طن ، ومن مجموع هذا المحصول الذي كان ينقص ٢٠ في المئة عن محصول سنة (١٩٢٤) نتج ٢٣٠٠ طن من الصوف المغسول ، وكانت الولايات المتحدة هي التي تستورد صوف البلاد الشامية بالدرجة الأولى .

وبلغ الوارد من الحيوانات إلى هذه البلاد خلال سنة (١٩٢٤) عدد ٣٠١,٦٤٣ رأس حيوان والوارد في سنة (١٩٢٥) ١٨٤,٧٣٨ رأساً . وأما الصادر في سنة (١٩٢٤) فكان ٢٠١,٧٢٦ حيواناً وفي سنة (١٩٢٥) كان ٢٨٤,٣٨٩ حيواناً . وهذه الحيوانات تشمل أجناس الخيل والبغال والحمير والبقر والجمال والخنازير .

صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥ :

ولاية حلب - إن التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية بشأن تغيير لباس الرأس الوطني قد أثرت تأثيراً سيئاً في نشاط الصناعة الحلبية . فقد اشتغل في حلب ٢٤٠٠ نول في شهر كانون الأول يقابلها ٢٧٠٠ نول في شهر تشرين الثاني، وبلغ معدل ما يحصل منها ٧٥٠٠ ثوب قطني مغزول بطول ستة أمتار و ١٢٠٠ ثوب بطول خمسة أمتار و ١٠,٧٥٠ سلكاً أغبانياً كوفيات ومناديل . ويصنع في ديرغطا وأبو الظهور الكتان الأهلي والقماش المستعمل لصنع الخيم (الوبر) . وقد بلغ محصول الصابون في حلب ١٢٦,٠٠٠ كيلو غرام ومحصول الزيت ١٨٢,٥٠٠ كيلو غرام والدباغات قد حضرت ٧٥٠٠

من جلود الخرفان و ١٩٠٠ جلد ماعز و ٢٠٥٠ جلد حملان و ٣٠ جلد ثور
يكون مجموعها ١١,٤٨٠ وطحنت المطاحن في حلب ما يقدر بـ ٢٥٥٠ طناً
من الطحين وأنواعه . وقد شوهد نقص محسوس في تحضير أدوات التعمير
في هذه النسبة بالنظر للأزمة الاقتصادية التي بدأت فيه .

لواء الإسكندرونة - لا يزال النشاط الصناعي عظيماً في حلالات الحرير
في السويدية وجبل موسى وفي معامل الصابون في أنطاكية وفي المطاحن .
حكومة العلويين - قد خطط لإنشاء معملين لحلج القطن أحدهما في
اللاذقية والثاني في جبلة كما أن المعاصر تعمل عملاً جيداً . وقد أخذت أنوال
القطن الحامي في قرى اللاذقية وصهيون تعمل بجد ونشاط وكذلك مدابغ
اللاذقية .

ويظهر للناظر الفرق الكبير بين الصادرات والواردات في البلاد الشامية
فيحكم بأنها سائرة في طريق الإفلاس ، والحقيقة أن الفرق أقل مما يظهر لأول
وهلة ، لأن للبلاد الشامية موارد أخرى غير صادراتها وإن كانت لا تسد
هذا العجز ، ولولا هذه الموارد لوقعت البلاد في هوة الإفلاس منذ زمن
طويل ، وهي تنحصر فيما يلي :

أولاً - الأموال المرسلة من المهاجرين الشاميين المنتشرين في أنحاء الأرض
ولا سيما في البلاد الأميركية حيث أصبح الشاميون يملكون ثروة كبيرة
فيعاونون أهلهم في الشام وتقدر هذه الأموال بمليون ليرة إنكليزية وبحسب
إحصاء سنة (١٩٢٢) .

ثانياً - واردات الاصطياف والسياحة وهي تقدر بخمسة عشر مليوناً
من الفرنكات .

ثالثاً - فوائده الأموال والأسهم والقطع المالية الموجودة في أيدي السكان
وهي تقدر بثلاثمائة وخمسين ألف ليرة إنكليزية . إلى غير ذلك من الموارد
الأخرى الضئيلة .

ما يجب للنجاح في الاقتصاديات :

لنجاح تجارتنا وورقي صناعتنا لا بد لنا :

أولاً - تأليف الشركات الصناعية لتأسيسها على الأصول الميكانيكية الحديثة ، ومتى تم لنا الظفر للقيام بمثل هذه المعاهد نعتقد أننا بدأنا نقاوم تيار الصناعات الغربية لتحل محلها صناعتنا الجميلة ، الممتازة بقوتها ومتانتها ، خصوصاً وإن رخص اليد العاملة ورخص المواد الأولية كفيلاً بنجاح كثير من صناعاتنا بالنظر لتوفر هذين الشرطين الأساسيين .

ثانياً - وضع الرسوم الجمركية على قاعدة حماية الصناعة الوطنية .

ثالثاً - العناية الفائقة بتحسين زراعتنا وعلى الأخص منها القطن والقنب والفاكهة والعناية بتصديرها إلى الخارج . وكذلك القول في زراعة التبغ . وعلى ذكر هذا الصنف العظيم لا بد من القول إن بقاء شركة حمير الدخان أضر بزراعة الدخان ضرراً بليغاً حال دون الاستفادة منه فائدة تعود بالخير والنماء ، إذا كانت حرة طليقة من قيود هذه الشركة واستبدال رجالها . ومن المحقق أن تنشيط زراعة الدخان على أنواعه وتشجيعه يقلل من هجرة المهاجرين وتخفيف قوة تيارها الجارف ويقتصد للبلاد مبالغ طائلة تدفعها ثمناً للدخان الأجنبي .

رابعاً - جعل عملة البلاد على قاعدة الذهب ، ذلك لأن وضع عملة البلاد الشامية على قاعدة (الفرنك) الفرنسي واستصدار الأوراق النقدية السورية على هذا الأساس قد أضر الأسواق التجارية ضرراً بليغاً ، وسبب لها خسائر كبيرة بسبب صعوده وهبوطه المتوالي .

خامساً - الإقلال من استعمال الكماليات وأدوات الزينة والترف وبذل الغيرة في استعمال المصنوعات الوطنية بقدر الإمكان لا سيما الحلويات والساكر الإفريقية فإن مصنوعات البلاد من هذه الأنواع تفوقها جمالاً وإتقاناً ولذة ، وقد ارتقت هذه الصناعة في البلاد رقياً حسناً كان من أثره تصدير كميات كبيرة منها إلى البلاد الغربية أيضاً وخصوصاً أصناف مربيات الفاكهة على اختلاف أنواعها، والاختصار على مصنوعات البلاد من هذه الأنواع يوفر مبالغ طائلة تقلر بمئات الألوف من الدنانير الذهبية .

سادساً - تخفيف الضرائب عن عاتق الأهلين فقد أصبحوا لا يطيقون

حملها بالنظر لكثرتها وتعددتها وزيادتها بالإضافة التي طرأت عليها ، مع قلة أسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد .

تجارة فلسطين في الدور الجديد :

كانت تجارة فلسطين في العهد الأخير في صعود وهبوط وصادراتها أقل من وارداتها لكن التحسن مطرد في حالتها ويؤخذ من تقرير إدارة الجمارك والمكوس والتجارة أن مجموع واردات الجمارك والمكوس والمواني كان سنة (١٩٢٥) ١,١٠٩,٩٥٥ جنيهاً مصرياً يقابله ٦٥٦,٨٨٠ ج.م في سنة (١٩٢٤) وقد زاد الدخل من مكوس التبغ على ١٠٠ ألف جنيه . وأُعفيت من الرسوم الجمركية الفحم والكاكس والوسخ وزيت ديزل وسدلسر والمازوت والبراميل والمواد الأولية التي تدخل في الصابون وكسر بزر الزيت واللباغة والنسج . وأُعفيت أيضاً بضائع قيمتها ٥٩,٢٤٤ ج لما تقضي به حقوق المعاهدات اللوية . وبلغ مجموع قيمة الواردات ٧,٣٣٨,٤٩١ ج مقابل ٥,٢٦٦,٣٤٩ في سنة (١٩٢٤) ومجموع قيمة الصادرات من نواتج فلسطين ١,٢٩٧,٥٥٩ مقابل ١,٢٠٠,٨١٢ في السنة التي قبلها وكانت أهم الزيادة في الواردات الحبوب والدقيق ومواد البناء والبضائع القطنية والأدوات والسيارات وأنواع الكاز . وبلغ ما بيع من الملح ٤٧٩٤ طناً مقابل ٣٤٥٧ طناً في سنة (١٩٢٤) .

إن انتعاش التجارة من أزمة سنة (١٩٢٣) الذي ابتدأ منذ سنة (١٩٢٤) قد ظلّ مستمراً بتأثير النازحين الجدد وما جلبوه معهم من رؤوس الأموال التي أودعوها المصارف فسهلوا بذلك إعطاء السلفات وقد هبط معدل الفائدة إلى أدنى رقم منذ الاحتلال، ولكن المشتريات المبنية على المضاربة توقعاً لزيادة الطلب وعلى الخصوص فيما يتعلق بتجارة المباني واستثمار الأموال في أبنية واسعة النطاق مع مشتري الأرض أدت إلى قلة النقد فتتج عن ذلك قبض المصارف يدها عن التسليف . وقد زاد معدل المعيشة بنسبة ٤,٤ بالمائة عن سنة (١٩٢٤) وارتفعت أسعار الحملة ٧,٢ بالمائة .

وبلغت صادرات البرتقال ١,٨٦٨,٢٩١ صندوقاً مقابل ١,٨٨٠,٧٨٣ في سنة (١٩٢٤) وكانت الأسعار عالية وكان معدل المبيعات الأولى ١٢-١٥ شلناً

الصندوق . وكسدت تجارة الخمر الصادرة وقل الوارد منها ٧٨٥٠ ج م
 وصدر من الصابون ٥٨٥٥ طناً قيمتها ٢٤٧,٧٢٥ وأدخل تحسين على صناعته
 فصار يعمل منه الصابون المطيب . وفي فلسطين سبعة معامل للتبغ واللفائف
 وسبعة معامل للتبناك وكان ناتجها من أول أيار ٢١٩,٨٠٠ كيلو غرام من
 اللفائف و ١٢,٠٠٠ من التبغ المفروم و ٤٠ في المائة من التبغ المصنوع في
 المعامل وهو من ناتج فلسطين والمساحة المزروعة تبغاً وتبناكاً في فلسطين هي
 ثلاثة آلاف آكر (الآكر ٥٢ آرأ والآر مئة متر مربع) وما زال تهريب
 التبغ مستمراً على درجة واسعة .

وقسمت الواردات المستهلكة في فلسطين في سنة (١٩٢٥) أربعة أقسام
 منها ١,٩٨٧,١١٠ ج ثمن مأكولات ومشروبات وتبغ و ٦٢٧,٥١٨ مواد
 خام وبضائع أكثرها غير مصنوع و ٣,٩٦٧,٥١٨ بضائع مصنوعة كلها
 أو معظمها و ٧٥٦,٣٤٤ صادرات شتى . وأهم مصادر الواردات ونسبتها
 إلى المجموع بريطانيا العظمى ٣,٠٨٣,١٥٦ ج أي ١٤,٥ بالمائة وسورية
 ١,٠١٧,٩٠٣ أي ١٤,٥ في المائة وألمانيا ٩٣٠,٤٣٩ أي ١٢,٥ في المائة وأميركا
 ١٦٦,٩٩٩ أي ٩,٥ وبلدان بريطانية أخرى ٥٨٣,٥٥٠ أي ٧,٥ وفرنسا
 ٥٦٣,٦٨٩ أي ٧,٥ ومصر ٣٧٥,١٦٩ أي ٥,٥ .

وتقسم الصادرات إلى مأكولات ومشروبات وتبغ وقيمتها سنة (١٩٢٥)
 ٨٨٢,٢٣٤ ج ومواد خام وبضائع أكثرها غير مصنوع ٦٦,٨٠٨ بضائع
 مصنوعة كلها أو معظمها ٣٠٠,١٢٨ وأشياء أخرى ٤٨,٣٣٩ وأهم موارد
 الصادرات مصر ويصدر إليها بما قيمته ٥٧٧,٢٧٧ ج أي ٤٤,٥ في المائة
 وبريطانيا العظمى ٤٤٣,٧٧٤ ج أي ٣٠ في المائة وسورية ١٥٨,١٠٢ أي
 ١٢,٥ وأميركا ٢٥,٦٠٠ وفرنسا ٢٢,٩٣٢ وألمانيا ٢٠,١٩٠ وإيطاليا ١١,٩٦٨
 وأهم الزيادة في الصادرات التي كانت في البرتقال وصابون الغسيل فزادت
 صادرات الأول ٩١,١١٥ والثاني ٤٣,٨٣٤ ج .

ويعرف مركز البلاد الحقيقي ويقدر ما لها وعليها من ميزان تجارة البلاد
 لسنة (١٩٢٣) وهو ميزان صحيح في الجملة مأخوذ من قلم إحصائي دائرة
 التجارة ومن بعض ذوي الخبرة والاختصاص .

المصروفات	جنيه مصري	الواردات	جنيه مصري
المصروفات الظاهرة		الواردات الظاهرة	
	٤,٨٢٥,١٨٥	قيمة الصادرات المعاد تصديرها .	١,٣٧٧,٢٠٧
المصروفات الخفية		الواردات الخفية	
واردات من شرقي الأردن	٥٠,٠٠٠	الصادرات إلى شرقي الأردن	١٥٠,٠٠٠
وفر الموظفين الأجانب	١٥٠,٠٠٠	تجارة السياح	١٦,٠٠٠
أرباح المصارف	١٠٠,٠٠٠	أهوال المهاجرين	٢٥٠,٠٠٠
أرباح شركات التأمين	١٠,٠٠٠	تجارة الترانسيت	٥٠٠٠
أرباح شركات غيرها	٢٥,٠٠٠	اللجنة الصهيونية	٥٠٠,٠٠٠
مصارف الطلبة الفلسطينيين	١٥,٠٠٠	الجمعيات الخيرية	٨٠٠,٠٠٠
خط سكة حديد يافا - القدس	٩٨,٠٠٠	أموال مستثمرة في الخارج	٢٠,٠٠٠
المجموع	٤٤٨,٠٠٠	نفقات الجيش البريطاني	١,٥٠٠,٠٠٠
		نفقات المهاجرين الشرقية	١٠٠,٠٠٠
		واردات المواني	٥٠٠٠
		المجموع	٣,٦٧٠,٠٠٠
		عجز سنة (١٩٢٣)	٢٢٥,٩٧٨
المجموع العام	٥,٢٧٣,١٨٥	المجموع العام	٥,٢٧٣,١٨٥

ومن الأسباب العديدة التي تحول دون الإنتاج في الوقت الحاضر وفي فلسطين قلة الأيدي العاملة من بشر وحيوان وقلة العمال النشيين في سبيل الإنتاج المختلفة ومشكلة الأرض وخصوصاً المشاع وقلة رؤوس الأموال اللازمة للقيام بالمشاريع الكبرى .

تجارات الأمم المختلفة في الشام^(١) :

يقدر الخبIRON الواردات إلى سورية ولبنان من القارات الخمس بشمانية

(١) كتب هذه المقالة السيد محمد شخاشيرو .

ملايين دينار ذهبي مسانته" وغالب ذلك من الأشياء الكمالية التي تقتضيها حالة الحضارة والترّف ، فمن أهم ما تستورده الشام من فرنسا الكتب المدرسية والمطبوعات العلمية والأدبية والسياسية وأدوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وأنوال النسيج الإفرنجية ومواد الصيدلة والعقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة ومعدات موائد الطعام من سكاكين وملاعق ومتممات أخونة الطعام ولوازم القاطرات الحديدية والشاحنات ، ومن مواد البناء الترابية الكلسية والطوب والقرميد والبلاط الصناعي وآلات التجارة ومعدات الأبواب والنوافذ الحديدية والآلات الكاتبة من عربية وإفرنجية وأسلحة الصيد والمسدسات مع ما يلزمها من القذائف والبارود ، والأجواخ الصيفية على اختلاف أنواعها ، وثياب النساء حريرية وقطنية ، وأوان خزفية وبلورية وروائح عطرية على اختلاف أنواعها، والخمور والدقيق والمطابع وما يقتضي لها عن حروف وآلات طباعة والمواد الكيماوية وغير ذلك .

ومن أهم ما نستورد من إنكلترا القصدير والمعادن والأجواخ الشتوية الغالية الثمن ، والمنسوجات القطنية وهي أنواع كثيرة والغزل بأنواعه والموسى والسكاكين المعروفة بالإنكليزية وسرر النوم على اختلاف أنواعها المعمولة من الحديد والنحاس وسرر السفر وبعض مطبوعات علمية وأدبية وأسلحة الصيد والمسدسات وما يتبعها وكثير من العقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة والأسلاك النحاسية والمركبات ولوازمها . وأهم ما يرد على الشام من إيطاليا ألبسة الصوف على اختلاف أنواعها وأكسية القطن كالمدام واليمني والأجواخ الرخيصة الثمن والرخام المرمر الملون وبعض مطبوعات علمية وأدبية وقسم من السيارات والمركبات . وأهم ما يردنا من ألمانيا المطبوعات العلمية والأدبية وورق الكتابة وأدوات التجارة على تعدد أنواعها وأشكالها من مناشير ومطارق وأدوات الأبواب والنوافذ الحديدية وسرر النوم من النيكل والحديد والنحاس وسرر السفر والمسامير وأساحة الصيد والمسدسات وتوابعها والرصاص والقصدير والأواني الخزفية وآلات الجراحة والعقاقير والمستحضرات الطبية والأواني النحاسية من طسوت وأباريق وأواني الحديد المدعمون المستعمل في المطابخ والأصباغ على أنواعها والأدوات الكهربائية

على تنوع ضروبها والآلات الرافعة للماء وأدوات الزراعة الحديثة والجوخ .
وأهم ما يرد من النمسا صناديق الحديد والمقاعد والكراسي الخشبية المعروفة
بالخيزران والورق . ومن المجر الكبريت والفاصوليا . ومن روسيا سخانات
بشاي الفاخرة (السماورات) منها الأبيض ومنها الأصفر، وخيطان الفضة المموهة
وتدخل في الصناعة الشامية لوشي الحرير ، والبترول والطنافس والبسط الغاليا
الثلث ، والفراء الفاخرة والأحذية المطاطة . وأهم ما تصدر إلينا بلجيكة
بلور المرايا وزجاج النوافذ وأسلحة الصيد والمسدسات وحديد البناء وحديد
المصناعة ولوازم حفلات الكهرباء وآلات الزراعة . وثياب وأجواخ كثيرة
والصودا والسلك والورق . ومن بولونيا الخشب والمسامير . ومن أسبانيا
القمصان والجوارب والفلين والزئبق وبعض الأدهان . ومن سويسرا الساعات
الذهبية والفضية للنساء والرجال والمطرزات الصيفية من الأكسية والدنتلا
والشوكولاته والجبن واللبن المعقم والزبدة وأدوات النسيج والأحذية . ومن
هولاندة الجبن والغليسرين والسبيرتو والجمعة والشمع والملبس (درويس)
والبسكوت والدهان والأواني الخزفية والحليب المعقم والكتب العربية الجميلة .
وأهم ما يردنا من السويد الكبريت والمقوى . ومن النروج زيت السمك
والقطران وزيت النفط (التربتين) . ومن الدانيمارك الحليب المعقم والسمك
المقعد والمغموس بالزيت والجمعة . ومن البرتغال سمك السردين . ومن
التشيكوسلوفاكيا السكر والبلور والمالقي والجوخ العربي والجوخ العادي والأزرار
والطرايش والحرامات الصوف والأواني الزجاجية . ومن بلغاريا الجبن البلغاري
ومن رومانيا الأخشاب وتعرف بالقطراني والشوح وقليل من البترول . ومن
اليونان التبغ والزيت والكونياك . ومن أيركا الشمالية والجنوبية آلات الخياطة
والسيارات وما ينبغي لها والدراجات والمركبات والزيت المعدنية والبترول
والألكحول والبتزين والأحذية والقهوة والخشب المعروف بالأميركاني والساعات
الأميركانية وآلات الهاتف والبرق والمطاط وأدوات الكتابة . ومن أستراليا
الدقيق الأسترالي وغير ذلك .

وأهم ما يرد علينا من اليابان والصين الخزف الصيني والياباني وهو أشكال
متعددة والحصر المنقوشة والحرير الياباني والصيني والغزل والشاي الصيني

والخام من اليابان والصين والحريير من شنغاي . ومن جاوة بطريق الحجاز الشاي والقهوة وثياب الحرير الصفيق المعروفة بالاستكروزة . ومن طرابلس الغرب وتونس والجزائر والغرب الأقصى نسيج صوف فاخر يعرف بالحرام وهو دثار الشتاء وحرير للصناعة هو أحسن أنواع الحرير . ومن الجزائر النيبد الفاخر . ومن السودان الفول السوداني وبعض البهارات والصمغ والريش والعاج . ومن الحبشة القهوة . ومن مصر الثياب الصوفية يخطونها عباءات في فلسطين والشال الحريري والأرز والسكر والمطبوعات العربية في مختلف العلوم والفنون .

ويردنا من تركيا الأحجار الكريمة وبعض مصنوعات الصياغ من الأواني الفضية الدقيقة الصنع ، والبسط الأورقلية نسبة إلى أورفة والطنافس وغالبها تعرف بأسماء البلدان التي تعمل فيها فيقال لها الرشواني والقيصري والكرداسي وتستورد الشام من بلاد الكرد الغم والحليل المعروفة بالحلب وهي لحمل الأثقال والحرث والبسط والطنافس والبلد المعروفة بالكردية . وأكثر ما تبعث العراق البسط المعروفة بالبغدادي والعباءات المعروفة بالجيلانية نسبةً إلى جيلان والملاءات الحريرية وتعرف بالبغدادية يتخذها نساء القرى الشامية غطاءً . وأهم ما نتناوله من اليمن والحجاز البن أو القهوة المعروفة بالعنيدية، ومن المدينة المنورة بعض الطيوب والمراوح والتمر والحناء . ومن نجد الإبل والخيول العربية المشهورة .

وأهم ما يرد من بخارى الطنافس والبسط المفتخرة وتعرف بأسماء حواضرها . ويرد من الأفغان الطنافس والبسط الجيدة وتعرف بالأفغاني . ومن الخليج الفارسي اللؤلؤ ومصنوعات يدوية من بسط وطنافس وخراج وأعبئة . ومن فارس الشال الثمين والبسط والطنافس وعباءات الوبر وتعرف بأسماء حواضرها فيقال الشيرازي ، التبريزي ، الهمداني ، الخراساني من حواضر فارس، ومن أهم مجلوباتنا التنباك الأصبهاني وهو كثير المقطوعة في الديار الشامية والأسلحة البيضاء من مدى وخناجر وسيوف وتعرف بالعجمية، والخوايار يجلب الآن من بحر الخزر .

وأهم الوارد من بلاد الهند الطيوب من مسك وعنبر وعود وكافور

والنيل والشاي على اختلاف أنواعه ومصنوعات النحاس من أباريق وطسوت وطاسات وأقداح صغيرة وكبيرة وصحاف تعرف بالهندي والبهارات والأفاويه بأنواعها. والشال البديع من صناعة كشمير ولاهور ، ويساوي الثوب منه وطوله ثلاثة أمتار بعرض متر ونصف من أربعين إلى خمسين ديناراً .

هذا مجمل ما يأتينا من الأرجاء المختلفة من ضروب الحاجيات والكماليات ، عدا أصناف المأكولات من شوكولاته وثمار محفوظة وبقول وحبوب ودقيق وفاكهة ولحوم مقددة وأنواع السكاكر الإفرنجية ، مما يصلر إلينا بحسب الزوم ورواج سوقه إذا أصيب القطر بآفة في نواتجه ، وهذه الأصناف المجلوبة تدل على دقة نظر تجارها وحسن انتقائهم ، وضربهم في طول الأرض وعرضها ، حتى لا تكاد ترى فيما نعلم بلداً في الأرض لم يتزله شامي يبيع أو يشتري . ويقال في الأمثال العامة: «أعرج الشام وصل الهند» ، وإذا تأملت هذه المجلوبات الصناعية وجدتها مثال الجمال والمثانة مما يدل على ذكاء مستهلكيها ورسوخ قدمهم في الحضارة والترف . وقطر كهذا بينه وبين الغرب صلات مستحكمة في التجارة منذ أكثر من ألفي عام وبينه وبين الشرق صلات مثلها منذ عرف التاريخ هو عميل قديم أمين جدير بأن ينظر إليه بعين العطف ويهتم بشأنه أهل الغرب اه .

رأي في ازدياد الثروة والتجارة :

بعد أن عرفنا بالفصول السالفة تاريخ التجارة في هذا القطر ، وعلائقة مع الأمم في القديم ، ووقفنا على حالة تجارته اليوم ، وصلاته الاقتصادية مع الشرق والغرب ، ورأينا العجز الظاهر في موازنته واختلال مجاربه الاقتصادية وأن دخله أقل من خرجه في الحملة ، يجدر بنا أن نلفت نظر أرباب الشأن في الأمة ، إلى أن الشام باعتدال أهويته وجميل طبيعته ، وتوسطه بين أقطار الشرق والغرب ، وما في تاريخه وآثاره من البلائع والروائع ، يستطيع أهله أن يجعلوه محط رحال معظم المسلمين في آسيا وإفريقية، وأقرب السبل إلى ذلك في نظر المفكرين ، أن يصلح ما تخرب في الثورة العربية من خط السكة الحجازية الممتد من دمشق إلى المدينة المنورة ، ويتم مد الخط الحديدي

إلى مكة المكرمة وجدة ، وعندها يستطيع حجاج العراق وفارس وأفغانستان وبلوجستان والهند والصين وغيرها أن يسلكوا إلى الأرض الطاهرة عن طريق الشام من العراق على السيارات ريثما يمد خط حميدي عريض ، وتكون دمشق المحطة المهمة للصادرين والواردين ، ودمشق هي المدينة الإسلامية الرابعة بقديسيها ، بين أكثر أقطار الشرق الإسلامي وبين الحجاز ، فإذا تم ذلك لا يقل عدد الحجاج الذين يؤمون دمشق عن ثلاثمائة ألف كل سنة ، فإذا صرف الفرد عشرة دنانير ، واصطاف في الشام من العراقيين والمصريين عشرون ألفاً كل سنة على أقل تعديل ، وزارها عشرون ألفاً من سياح الإفرنج ، لا يقل ربح الشاميين كل سنة عن أربعة إلى خمسة ملايين دينار من هذه الطرق التجارية . ومما يسهل الوصول إليه عقد معاهدة بين حكومة الشام والحكومات المجاورة . حينئذ يعمر الحجاز وتم للشام سعادتها لأنها بالسكة الحجازية كانت تمون الحجاز قبل الحرب الكبرى فيسافر كل يوم من دمشق سبع مركبات تحمل من الطعام والبضائع ما لا يقل وزنه عن مئة ألف كيلو ، وناهيك بذلك من تبادل المنافع بين هذه الأقطار والممالك ، وما في ذلك من تيسير سبل الحج على شعوب لا تقل عن مئة وثلاثين مليوناً في العدة ، كانت ترحل الأشهر لتحج واليوم تكفيها الأسابيع القليلة مهما بعُدت عليها الشقة إذا امتطت هذه السيارات وهذه القطارات ، ثم إذا تم إنشاء الخط الحديدي بين طرابلس وحيفا تتصل كالة في فرنسا بالقاهرة عن طريق أوروبا وتركيا وتصبح الشام نقطة الاتصال بين أوروبا وآسيا وإفريقية وفي ذلك من الفوائد لتجارة الشام ما لا ينكر .

انتهى الجزء الرابع من خطط الشام
ويليه الجزء الخامس وأوله التاريخ المدني - الجيش

فهرست

الجزء الرابع من خطط الشام

التاريخ المدني	٣ - ٨٩
العلم والأدب ما يراد بالعلم والأدب	٣
العلم والأدب عند أقدم شعوب الشام	٩
مواطن العلم في القطر قديماً	١٢
ما حمل العرب من العلم إلى الشام	١٤
جمع القرآن ونشره في الشام	١٥
العلم والأدب في القرن الأول	١٧
عناية خالد بن يزيد بالنقل وأوائل التدوين	١٩
علماء القرن الثاني والأدب والنقلة والمنشئون فيه	٢٢
العلم والأدب في القرن الثالث	٢٥
الأدب في القرن الرابع ونهضته على عهد سيف الدولة وأبي العلاء المعري	٢٧
الآداب في القرن الخامس	٣١
العلم والأدب في القرن السادس	٣٣
العلم والأدب في القرن السابع	٣٧
الإمام ابن تيمية والإصلاح الديني والأدب والعلوم في القرن الثامن	٤٤
العلوم في القرن التاسع	٤٩
انحطاط العلم والأدب في القرن العاشر	٥١
الآداب في القرن الحادي عشر	٥٤
العلوم والآداب في القرن الثاني عشر	٥٧
العلم والأدب في القرن الثالث عشر	٦٠
العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر	٦٢

٦٣	العلوم والآداب في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر
٦٦	المعاصرون من العلماء والأدباء
٧٠	تأثيرات الأجانب في التربية
٧٢	الآداب في القرن الرابع عشر
٧٧	الجامعات والكليات
٧٨	الإحصاء
٨٠	الصحافة العربية
٨٦	الطباعة والكتب
١٣٠ - ٩٠	الفنون الجميلة
٩٠	تعريف الفنون الجميلة الموسيقى والغناء
١٠١	التصوير
١١٤	النقش
١١٨	البناء
١٢٢	الشعر والفصاحة
١٢٥	الرقص
١٢٧	التمثيل
١٣٠	متى ترتقي الفنون الجميلة
١٣١ - ١٩٨	الزراعة الشامية
١٣١	العامر والغامر
١٣٢	قلة العناية بالأنهار
١٣٤	خراب الزراعة والمزارع
١٣٥	عوامل الخراب
١٣٧	آفة الهجرة على الزراعة
١٣٨	خصب الأراضي ومعالجتها وما يزرع فيها
١٣٩	تقسيم السهول والجبال
١٤١	من الذين أدخلوا الطرق الجديدة درس الزراعة
١٤٢	نقص كبير

١٤٣	التحسين الأخير
١٤٥	عناية الأقدمين بالزراعة
١٤٧	أصناف الزروع والأشجار
١٥٢	الأشجار غير المثمرة
١٥٥	الأشجار المثمرة وغيرها
١٥٦	الصناعات الزراعية القديمة
١٦٠	معادن الشام وحماتها
١٦٤	الحمات الشامية
١٦٧	نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة - أقاليم الشام
١٧٠	أترية الشام
١٧٢	حراج الشام
١٧٥	الري في الشام
١٧٦	زروع الشام وأشجارها
١٧٩	الأشجار المثمرة
١٨٣	الحيوانات اللواجن في الشام
١٨٩	الصناعات الزراعية في الشام
١٩٢	زراعة الشام من الوجهتين المالية والاقتصادية
١٩٣	الضرائب الزراعية
١٩٤	طرائق استثمار الأرض
١٩٧	إقراض الزراع
١٩٨	الخلاصة
٢٣٢ - ١٩٩	الصناعات الشامية
١٩٩	مواد الصناعات
٢٠٠	الغزل والحياكة والنساجة
٢٠٦	الدباغة وصناعات الجلود
٢٠٧	تربية دود الحرير النجارة
٢١٣	القيانة والحداثة والنحاسة

٢١٧	الزجاجة
٢١٨	الدهان
٢٢٠	الفخارة والقيشاني
٢٢٢	الوراقة
٢٢٤	المرابا الصياغة
٢٢٦	صناعة الصدف والرخام
٢٢٧	السجاد والحصير
٢٢٨	الصناعات المحدثة
٢٣٠	تأثير الصناعات في الماديات والأخلاق
٢٧٢ - ٢٣٣	التجارة الشامية
٢٣٣	موقع الشام من التجارة وتجارة القدماء
٢٣٩	تجارة العرب
٢٤٤	التجارة في القرون الوسطى
٢٤٦	التجارة في القرون الحديثة
٢٥٤	التجارة والاقتصاديات في العهد الحديث
٢٥٦	الورق النقدي والعوامل في تلذني الاقتصاديات
٢٥٧	الحواجز الجمركية
٢٦٠	العامل الاقتصادي
٢٦١	الواردات والصادرات
٢٦٢	صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥
٢٦٣	ما يجب للنجاح في الاقتصاديات
٢٦٥	تجارة فلسطين في الدور الجديد
٢٦٧	تجارات الأمم المختلفة في الشام
٢٧١	رأي في ازدياد الثروة والتجارة
٢٧٦ - ٢٧٣	فهرست الجزء الرابع من خطط الشام

حِطُّ السَّعْدِ

تأليف

محمد كرد علي

الجزء السادس

الناشر

مكتبة النوري
دمشق

الطبعة الثانية
صححة بقلم المؤلف
طبعت بإذن من ورثته
ومقره الطبع محفوظة لهم

طبع على مطابع :

مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

التاريخ المدني

البيع والكنائس والديرة

بيوت العبادة عند الأقدمين :

لم يخلف التاريخ الصحيح مستنداً يركن إليه في وصف بيوت العبادة عند قدماء سكان الشام أيام كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ثم بعد أن أصبحوا يعبدون النيران . فلا نعرف إذاً شيئاً يعتدّ به عن هياكل الفينيقيين في صور وصيدا وبيروت وجبيل ولا عن هياكل مشارف الشام الجنوبية ولا عن بيوت النيران في حلب ولا عن بيوت العبادة عند الحثيين والبابليين والاشوريين ولا عن هيكل الرب مرناس الذي كان يعبد في غزة، ويحجون إلى هيكله من الأقطار ولا عن معبد المشتري (جوبيتر) الذي أنشأه ألدريانوس الروماني في جبل جرزيم فوق نابلس، ولا عن هياكل المشتري معبود الرومان الذي وجد في السخنة بين تدمر ودير الزور ، ولا عن هيكل اليونان في أنطاكية ، ولا عن هيكل بزيزة بالغرب من كوسبة في لبنان ، ولا عن بعل مرقد في أطلال دير القلعة قرب بيت مري بلبنان ، ولا عن هيكل الزهرة في افقة في جبل كسروان . والهياكل الباقي من هياكل القدماء هو هيكل بعلبك وقليل أمثاله جداً مما صبر على ضربات الدهر .

أما كنائس اليهود فقد تبين أنهم شرعوا بإنشاء كنيس لهم في سبي بابل

يجتمعون فيه ويتعبدون . وأهم ما كان من كنائسهم كنيسهم في القدس بنوه بعد رجوعهم من بابل بجانب المعبد وقسموه قسمين قسم للرجال وقسم للنساء ، ثم كثرت الكنائس في المدن الصغرى والكبرى في كل بلد كان فيها لليهودية معتقدون وأنصار . ولكل كنيس خزانة مقدسة تقام في داخل البناء على خشب وتجعل متجهة نحو القدس وهي مغطاة بالكثبان وفيها الطوامير المقدسة وأمام الخزانة ستار يذكر بستار المعبد وفي وسطه أمام الخزانة شيء أشبه بمنبر .

هذا غاية ما يقال في هياكل القدماء وبيوت عباداتهم ، وكيف السبيل إلى وصف المعابد القديمة والتاريخ لا يعرف شيئاً يعتد به عن العالم الاسرائيلي بل ولا عن نصارى القرون الأولى، وكل ما يعرف عن موسى وعن قضاة إسرائيل وداود أو المسيح والحواريين لا يكاد يملأ سوى صفحات قليلة والنصرانية نفسها لم تنتشر في الشام إلا في القرن الرابع للميلاد على يد قسطنطين أو أم قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية وهو الذي بنى كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال إنه بنى في زمانه اثني عشر ألف كنيسة .

ولا بد لنا قبل وصف الكنائس والبيع والأديار أن نعرفها تعريفاً يقربها من جميع الأذهان ولا يوقع فيها لبساً . فالدير كما قالوا في تعريفه بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الأعظم إنما يكون في الصحاري وروؤس الجبال فان كان في المصر كانت كنيسة أو بيعة . وربما فرق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى . وقال بعضهم : البيعة متعبد النصارى وقيل : كنيسة اليهود . والأولى أن تطلق الكنيسة على متعبد النصارى والكنيس على متعبد اليهود . وجاءت لفظة الدير من الدار والجمع أديار والديراني صاحب الدير والذي يسكنه ويعمره . ويقال له ديار . ويقال دَيْرٌ ودَيْرَةٌ وأديار وديران ودارة ودارات ودَيْرَةٌ ودير ودور ودوران وأدوار ودوارة وأدورة .

منشأ الأديار والبيع :

أنشئت الأديار الأولى في الشام ، فهي موطنها الأول ، ذلك أن من

المسيحيين من أخذوا بألقون العزلة لأول ظهورهم في صعيد مصر وجبال أنطاكية ينقطعون للنسك . ولما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة إلى إنشاء أكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس . وأنشئت دور عظيمة يعيش فيها أولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف واحد وتسيّرهم إدارة رئيس واحد . ثم اتحدت تلك الأكواخ والبيوت . وأنشئت أديار في المدن تولاهها الأساقفة وانتقل ذلك إلى الغرب . وكما كانت الشام منشأ الأديار كذلك كانت أول من وضع هندسة الكنائس ذات القباب ، فقد جرت في هندستها لأول مرة على مثال المعابد القديمة ، فالشام إذاً أول من أنشأ الأديار والكنائس كما قامت فيها النصرانية واليهودية .

قلنا: إنه يردُّ إنشاء الكنائس إلى عهد قسطنطين وقد بدأت البيع بالتكاثر في سنة (٣٣٠) للميلاد وذكر بعض المؤرخين أن ثيودوسيوس الكبير حول بعض هياكل الوثنيين في بعلبك إلى كنائس فبنى كنيستين في القلعة إحداهما في وسط البهو الكبير القائم أمام هيكل الشمس . وقال المسعودي: إن هيلاني بنتُ بإيليا الكنيسة المعروفة بالقيامة في هذا الوقت الذي يظهر منها النار في يوم السبت الكبير الذي صبحه الفصح وكنيسة قسطنطين وديارات كثيرة للنساء والرجال على الجبل المطل على مدينة بيت المقدس المعروف بالطور وهو بإزاء قبة اليهود وعمرت مدينة إيليا عمارة لم يكن قبلها مثلها ولم يزل ذلك عامراً إلى أن أحرته الفرس حين غلبت على مصر والشام .

تكاثرت الكنائس والأديار في الشام فلم يمحض على انتشار النصرانية قرنان حتى زاد عدد الأديار والبيع على صورة مستغربة حتى إن الغسانيين ولعوا أيضاً بعمارة الأديار في الجزء الذي ارتفع سلطانهم عليه في الجنوب على عهد ملوك الروم فشادوا دير حالي ودير أيوب ودير الدهناء ودير ضخم ودير النبوة . واشتهر الغساسنة بإقامة الدير والبيع وكانوا كما قيل يعتمدون بنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ويجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب ومثلهم كان شأن آل المنذر بالحيرة وبني الحارث بن كعب بنجران من بيوتات العرب .

أعظم الكنائس وأقدمها :

ويظهر أن كنيسة القبر المقدس في القدس هي أقدم كنيسة في الشام قامت في مكان نظر إليه في كل وقت بأنه مقدس. وذكر الأسقف أوسابيوس القيصري (٣١٤-٣٤٠) وهو والد تاريخ الكنيسة أن في الحفريات التي جرت على عهد الملك قسطنطين اكتشفت مغارة المخلص المقدسة . وزاد المؤرخون المحدثون أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين المتوفاة نحو سنة (٣٢٦ م) زارت القدس واكتشفت القبر المقدس و صليب يسوع ، فالبنائيات التي أقيمت في ذلك المكان سنة (٣٣٦ م) هي من البناء المدور قد دعي كنيسة القيامة ومؤرخوا المسلمين يسمونها كنيسة القمامة كما كان هناك كنيسة كاتدرائية خاصة برمز الصليب وقد أحرق الفرس هذين المكانين سنة (٦١٤ م). وأعاد هرقل بناء ما كان خرب كسرى من الكنائس في مصر والشام ، وذكر المؤرخون أن الفرس خربوا كنائس القدس بمعاونة اليهود ومما خربوا كنيسة الجسمانية وكنيسة المنية وظلتا خراباً الى القرن الرابع من الهجرة، ولما انصرفوا عمر النصارى كنيسة القيامة والمقبرة والا كرايون ومار قسطنطين وأحدث الراهب مودست رئيس دير تيودوس في سنة (٦١٦ و ٦٢٦) كنيسة القيامة وكنيسة الصليب وكنيسة الحلجلة وأضيفت سنة (٦٧٠) الى الجنوب كنيسة للعنداء .

ولما فتحت القدس وجاء الخليفة عمر بن الخطاب أدركته الصلاة فلم يرض أن يصلي في كنيسة القيامة لثلاث يكون بعده للمسلمين حجة في أخذها وبني مقابلهام جامعاً ومصلى . ولما تنصر الروم على رواية ابن بطريق وبنت هيلانة أم قسطنطين الكنائس في بيت المقدس كان موضع الصخرة وحولها خراب فترك، ورموا على الصخرة التراب وهذه التي بني عليها المسجد الأقصى، ثم ذهب الخليفة الى بيت لحم فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبليّة ، وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء ، وكتب عمر للبترك سجلاً أن لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد واحد ولا يجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شيء . وكنيسة بيت

لحم من الكنائس القديمة المشهورة أنشأها قسطنطين سنة (٣٣٠) فكانت كاتدرائية كبرى وأنشأ يوستينانوس حيطانها وأقيمت فيها أديار وكنائس كثيرة حتى اطلق عليها سنة ستمائة للميلاد اسم المكان الزاهر .

ومن أشهر كنائس الشام كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة مار يوحنا مكان الجامع الأموي اليوم ، صالح المسلمون على نصفها الشرقي لأنهم اعتبروا دمشق بما فتح صلحاً وعنوة ، فكان النصف من هذه الكنيسة العظمى ، التي كانت أكبر معابدهم على رواية ابن كثير ، في النصف الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف . وكان بدمشق خمس عشرة كنيسة كتب بها عمر بن الخطاب كتاب أمان وأقر ما بأيدي النصارى أربع عشرة كنيسة، فجعل أبو عبيدة من الكنيسة الكبرى مسجداً. فكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الأصلي في القبلة؟ قال جرجس بن العميد: وقيل: إن الوليد بذل للنصارى في كنيسة مار يوحنا أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوا المال فأخذها فأخربها ولم يعطهم شيئاً . وفي تواريخ دمشق أن النصارى رفعوا إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته ما بيدهم من عهد أبي عبيدة بن الجراح من أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وأن الوليد أخذ كنائسهم بغير حق قهراً، فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالا يرضيهم به حتى بلغ مائة ألف فأبوا ، فكتب الى محمد بن سويد الفهري أن يدفع إليهم كنائسهم أو يرضيهم في ذلك . فلما وصل كتاب عمر إلى دمشق أعظم الناس ذلك وفيهم يومئذ بقية من أهل الفقه ، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا: هذا أمر عظيم ندفع إليهم مسجداً وقد أذنا فيه بالصلاة وجمعنا فيه يهدم ويعاد كنيسة . فقال رجل منهم: هنا مسألة فإن لهم كنائس عظيماً حول مدينتنا وهي دير مران والكنيسة بباب توما وغيرها من الكنائس ان أحبوا أن نعطيهم كنائسهم فلا يبقوا حول مدينة دمشق ولا بالغوطة كنيسة إلا هدمت أو نبقى لهم جميع كنائسهم ويتركوا هذه ونسجل لهم بذلك سجلاً، فرضي النصارى على أن يسجل لهم الخليفة سجلاً منشوراً بأمان على ما بدمشق والغوطة من كنيسة أن تهدم أو تسكن . وهكذا استحالت كنيسة مار يوحنا إلى مسجد جامع للمسلمين أخذوه بحكم الفتح

وأرضوا أبناء ذمتهم على كل حال . وما ندرى كيف آل إلى هؤلاء من اليهود أو إلى النصارى من الصابئة وغيرهم . ولعل التقليد القائل بأن في الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام أتى من كون الكنيسة كانت على اسم ماريوحنا . ويوحنا هو يحيى والله أعلم .

وخاصم النصارى حساناً بن مالك الكلبي الى عمر بن عبد العزيز في كنيسة بدمشق فقال له عمر: إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك إليها . وقال غيره: خاصمت العرب في كنيسة بدمشق يقال لها كنيسة ابن نصر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها الى النصارى فلما ولي يزيد ردها الى بني نصر . وفي كتاب سجل يحيى بن حمزة أن النصارى ذكروا لعمر بن عبد العزيز أن عتقاء العرب قد سخرُوا بهم وبرئيسهم وبدينهم وجماعتهم من أهل القرى وأن أولئك العتقاء أحلاف وفرق وأنهم غلبوهم على كنائسهم وسألوا الوفاء لهم بما في عهدهم وبما في الكتاب الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم ان يأتوا بحجنتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فاذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم وكنائسهم لا تهدم ولا تسكن لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول عليه الصلاة والسلام وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين لا يعرض لهم أحد إلا بخير إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ومعمر بن غياث (عتاب) وشرحبيل بن حسنة وعمير بن سعد ويزيد بن نبيشة وعبدالله بن الحارث وقضاعي بن عمر وكتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة» .

قال يحيى بن حمزة فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم ، وفحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار ، ووجدت ما وراء حائطها آثاراً وضعت لدفع الخيل ومراكز الرماح ، ونظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم ، ووجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلاً رومياً قتلته الحرب أو نفته ، ومساكنهم وكنائسهم قسمة بين المسلمين

معروفة لا تخفى ، ورجلاً من أهلها حقن دمه هذا العهد ، فمساكنهم
 وكنائسهم مع دمائهم لم لم تسكن ، ولم تقسم معروفة ليس تخفى ، فقضيت
 لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد وأبناء البلد ، ووجدت من
 نازعهم لفيماً طراً وذلك لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد
 ومساكن . فلهم في آخر الدهر ما لهم في أوله وأثبت في الأصول قبل وأشهد
 الله عليه وصالح المؤمنين ، وفاء بهذا العهد الذي عهد له السابقون
 الأخيار فلم يكن بينهم خاصة في ذلك اختلاف نظر لهم .. وقضيت لمن
 نازعهم بما كان لهم فيها من حلية أو آنية أو كسوة أو عريضة أضافوا ذلك
 إليها أن يدفع ذلك إليهم بأعيانها إن قدروا عليه وسهل قبضه ، أو قيمة
 عدل يوم ينظر فيه شهد الله على ذلك اه .

هذا ما كان من المسلمين مع أبناء ذمتهم ومراعاة العهود التي قطعوها
 على أنفسهم . ولم تزل سيرة خلفاء بني أمية وبعض بني العباس مع النصارى
 وكنائسهم سيرة الخليفة الثاني والفاحين من الصحابة الكرام . فقد بنى أبو
 جعفر المنصور كنيسة في دمشق لبني قبطياني الغوريق ، ذكر ذلك ابن
 عساكر . ولما وقع حريق في كنيسة مريم بدمشق أيام أحمد بن طولون أمر
 أن تفرق على أهل الحريق سبعون ألف دينار ففضل عنهم أربعة عشر ألف
 دينار فأمر أن تفرق عليهم على قدر سهامهم ثم أمر بفرق على أهل دمشق
 وغوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار .

مبدأ هدم الكنائس :

أول حادث وقع في تخريب الكنائس قبل الإسلام كان لما ثار بفلسطين
 أهل السامرة وهدموا في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة الكنائس كلها
 وأحرقوها من بيسان الى بيت لحم وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً
 فأعاد يوستينيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين أن يعفي أهلها من
 الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبني بيمارستاناً للغرباء في القدس .
 ويقدر ما رأى النصارى من عدل المسلمين معهم أيام عزهم أخذ
 بعض ملوكهم بعد القرن الثالث يحكمون العواطف بدل العقل في الكنائس

والبيع ، وكان من أثر ذلك أن نالت السياسة من بيوت العبادة فكان إذا أحس القائم بأمر المسلمين أن قومه في شدة في ديار الحرب انتقم من أهل ذمته في ديار الإسلام ، وسلط العامة من طرف خفي ليخربوا كنائس النصارى وبيعهم .

قال القلقشندي: وفي السنة الأخيرة من رئاسة البطريرك قسيما وهي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها وتبعوا كنائس اليعاقبة والنساطرة . وقال ابن بطريق: إن هذه الحادثة وقعت في رجب سنة اثني عشرة وثلاثمائة وذلك أن المسلمين في دمشق ثاروا فهدموا كنيسة مريم الكاتوليكية ، وكانت عظمة كبيرة حسنة أنفق فيها مائتا ألف دينار ، ونهبوا ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلي وستور ، ونهب ديارات وخاصة دير النساء الذي كان في جانب الكنيسة وشعثوا كنائس كثيرة للملكية ، وهدموا كنيسة النسطورية . وثار المسلمون بالرملة وهدموا للملكية فيها كنيستين كنيسة مار قزماش وكنيسة مار كورقس وهدموا كنيسة عسقلان وقيسارية وذلك سنة (٣١١) . وثار المسلمون بكنيسة بيت المقدس وأحرقوا أبواب كنيسة قسطنطين القبلية سنة (٣٢٥) .

وكان الداعي الى ذلك ما وقع من اضطهاد المسلمين في الروم على الغالب فلم يجد ملوك الإسلام واسطة لتخفيف الشر الواقع على رعاياهم من أهل الإسلام إلا بالضغط على النصارى في ديارهم والتأثير في ملوك النصارى بضربهم في أكبادهم في كنائس هي مهوى قلوب أبناءهم في بيت المقدس وما إليها بدليل أن ابن بطريق نفسه قال بعد إيراد تلك الحوادث : وقع بين الروم والمسلمين هدنة مرضية في سنة ست وعشرين وثلاثمائة وقال في حوادث السنة التالية: إن المسلمين ثاروا في عسقلان فهدموا كنيسة كبيرة تعرف بكنيسة مريم الخضراء ونهبوا جميع ما فيها وأحرقت وعاضد المسلمين اليهود في هدمها . وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر الى أعلا السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها وتقع عمدتها وخربت الكنيسة وبقيت خربة . وروى أيضاً أن الصناحي والي القدس

اضطهد بطريرك القدس فاستعدى عليه ملك مصر فأعداه فلم يستمع الوالي لذلك واختبأ البطريرك في كنيسة القيامة فهاجمها الوالي وأحرقوا أبوابها وسقطت القبة ، وتوجه الرعية الى كنيسة صهيون وأحرقوها ونهبوها . وهدم اليهود وأخربوا أكثر من المسلمين .

وأهم ما نال الكنائس في الشام من الأذى ، كان على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي فإنه لم يبق في مملكته ديراً ولا كنيسة إلا هدمها . ففي سنة (٣٩٨) كتب الحاكم الى دمشق بهدم كنيسة السيدة القاتوليكي فهدمت ، وكتب الى والي الرملة بهدم كنيسة القيامة في القدس وإزالة معالمها والقضاء على آثارها، وهدم الاقرايون كنيسة ماري قسطنطين وسائر ما اشتملت عليه حدودها واستقصوا في إزالة الآثار المقدسة ، وكان في جوار المقبرة دير للنساء يعرف بدير السري فهدم أيضاً . وكان ابتداء نقضها سنة أربعمائة ووضعت اليد على الأملاك والأوقاف وجميع ما في تلك الكنائس من آلتها وحلاها .

وعاد الحاكم بعد أن ضرب النصارى في كنائسهم في جميع أرجاء مملكته فأعطاهم عهداً كما كان يعطي الخلفاء العادلون ومنها هذا المنشور الذي أورده ابن بطريق :

«بسم الله الرحمن الرحيم أمر أمير المؤمنين بكتب هذا المنشور لتيقينفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته ، وإطلاق بغيته ، من صيانه وحياطته ، والذب عنه وعن أهل الذمة من نخلته ، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم ، وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها ، على اختلاف رأيه ومذهبه ، ومفارقتة في دينه وعقيدته ، وإقامة ما يلزمه في حدود ديانته ، وحفظ المواضع الباقية في قبضته ، داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد ، وما برسم هذه المواضع من الدور المنصوية إليها ، والمنع من نقض المصلبات بها ، والاعتراض لأحباسها المطلقة لها ، ومن هدم جدرانها وسائر أبنيتها ، إحساناً من أمير المؤمنين إليهم ، ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم ، وحفظاً لذمة الإسلام فيهم ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء

والولاية، ومتولي هذه النواحي وكافة الحماية ، وسائر المتصرفين في الأعمال ، والمستخدمين على سائر منازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم ، أو تعاقب نظرهم ، في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه ، ويعمل عليه وبحسبه ، وليحذر من تعدي حده ومخالفة حكمه ، ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه ، وليقرّ هذا المنشور في يده حجة لمودعه ، يستعين بها على نيل طلبته ، وإدراك بغيته ، إن شاء الله تعالى . وكتب في جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة وأربعمائة . وفي أعلاه بخط الحاكم توقيع : الحمد لله رب العالمين .

قال ابن بطريق ، وانفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها عليها ، وأطلق عمارة جميع الكنائس والديارات التي يستدعي منه الإذن فيها وفي عمارتها بمصر وفي سائر بلاد مملكته ، وكتب لكل منهم سجلاً لإعادة أوقافها إليها ، إلا ما كان من الأوقاف والكنائس قد بيع في وقت القبض عليها في دمشق وفي جميع بلاد الساحل ، وصرف ثمنه في النفقات السلطانية ، لضيق الأموال وقتها ، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين . ولما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس وتجديدها ورد أوقافها عاد الذين أسلموا من النصارى وقت الاضطهاد إلى دينهم بأمره وتسامحه . ولما هلك الحاكم وبويع لابنه الظاهر واستولت عمته على الملك بالفعل تقدمت بمسير نيقيفور بطريرك بيت المقدس إلى حضرة الملك ليطالبه بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة ببيت المقدس وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع أوقافها إليها .

وكان البطارقة أشبه بسفراء سلام بين ملوك الإسلام وملوك الروم . إذا وقع حيف على المسلمين في ديار أعدائهم يندبهم ولاية الإسلام إلى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام وغيرها من الاضطهاد إن هم أساءوا إلى المسلمين الواقعين في أسرهم ، أو الراحلين إليهم في التجارة . ومما اشترط ملك الروم على الظاهر العبيدي في عقد الهدنة ثلاثة شروط منها أن يعمر الملك الظاهر كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجدها من ماله ، ويصير بطريركاً على بيت المقدس ، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب

التي في بلاد الظاهر . فقبل الظاهر ما شرطه الملك من بناء كنيسة القيامة ومن إقامة بطريرك ومن تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجداً .

وقد علل مجير الدين الحنبلي عمل الحاكم في هدم البيع تعليلاً غير مقبول كثيراً قال: إنه بسبب ما أنهى إلى الحاكم من الفعل الذي يتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التي يوقدونها في سبت النور يوهمون أنها تنزل من السماء وقال: إن المستنصر بالله أبا تميم معداً ، هادن ملك الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليتمكن من عمارة القيامة التي كان خربها جده الحاكم فأطلق الأسرى . قال: والذي يظهر أن تخريبها لم يكن تخريباً كلياً بل كان في غالبها .

وقد وقع في العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة أو بيعة كان السبب فيه داخلياً كأن يميل أهلها إلى عدو خارجي يدهم القطر ، فقد استطالوا سنة (٥٦٥٨هـ) على المسلمين كما يقول المؤرخون فنهبهم المسلمون وخربوا كنيسة مريم بدمشق وكما وقع لهبة الله النصراني متولي خزانة السلطان فإنه « كان تمكن من المسلمين وأذاهم ، ورفع منار النصارى وتسلطوا بوجهه على المسلمين ، وجدد لهم بناء كنيسة مريم وشيد بنايتها ، ورفع بابها ، وحسن عمارتها ، ثم هدم ما زاده ، وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه ، وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم » .

وكل تخريب وقع كان عن دواعٍ كلية في الغالب يرجع في جملته إلى اعتداء النصارى في غير ديار الإسلام على المسلمين . فإن نيقيفور دومستيقس صاحب الروم لما غزا جزيرة اقريطش (كريت) في أسطول ونازلها في النصف من المحرم سنة خمسين وثلاثمائة وحاصرها ثمانية أشهر وفتحها وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقاً كثيراً قام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقاماً من الروم على فعلتهم وهكذا دواليك في تلك العصور المظلمة .

وفي سنة (٨٥٦هـ) صدر مرسوم الملك بالكشف على الأديار وهدم ما استجد بدير صهيون في القدس وانتزاع قبر داود من أيدي النصارى فهدم البناء

المستجد، وفيها أخرج المسجد من دير السريان وصار زاوية وهدم البناء المستجد ببيت لحم وفي كنيسة القيامة وكشفت جميع الأديار وهدم جميع ما استجد بها . وفي سنة (١٨٩٥) هدمت القبة التي أحدثها النصارى في دير صهيون . والسبب في ذلك على ما يبدو للنظر أن الدولة في تلك الأيام حاذرت من أن يكون من بعض الأديار والكنائس أماكن يعتصم فيها تساعد في الأيام العصيبة على أن تكون ثكناً وقلاعاً لمن يدهام الشام من غير أهل الإسلام .

ومع هذا لم يخل زمن من ظهور حكام استعملوا العدل في تلك الأعصار مع أبناء ذمتهم فقد ذكروا أن المفرج بن الجراح لما تغلب على أرجاء فلسطين ألزم النصارى ببناء كنيسة القيامة ببيت المقدس ، قال ابن بطريق: إنه عاون على بناء كنيسة القيامة وأعاد فيها مواضع بحسب إمكانه وقدرته .

كنائس دمشق :

ولم يحدثنا التاريخ بما كان من أنواع الكنائس بعد القرن الثامن ومعظم الكنائس والأديار في الشام اليوم بعد كنائس القدس وبيت لحم ودمشق هي مما أنشئ في القرون الأخيرة . فالكنائس في دمشق جددت بعد سنة (١٨٦٠) أي بعد أن خربت في حوادث تلك السنة . فلطائفة الروم الأرثوذكس ثلاث كنائس أكبرها المريمية وهي أعظمها ، ومن أقدم كنائس هذه الديار وفيها مقام البطريرك الأنطاكي خربت في أدوار كثيرة وآخر خرابها في وقعة تيمور يبلغ طولها نحو ٧٠ ذراعاً وعرضها نحو أربعين . والثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقي أنشئت بعد سنة (١٨٦٠) وفي جوارها مدرسة الروم . والثالثة كنيسة الميدان في محلة القرشي تم بناؤها سنة (١٨٦٢) . ولطائفة الروم الكاثوليك ثلاث كنائس أيضاً كانت الكبرى كنيسة لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك وأسست أيام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة (١٨٤٠) على اسم السيدة وهي في حارة زيتون قرب سور البلد القديم وحرقت في حادثة سنة (١٨٦٠) ايضاً وهي متينة راسخة البنيان وفيها مقام البطريرك الأنطاكي لتلك الطائفة . والكنيسة الثانية في باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس .

والثالثة في القرشي على اسم سيدة النياح . وللريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي في حي المسيحيين على الطريق العامة وفيها دار البطريركية ولها مدرسة متصلة بها حرقت في سنة (١٨٦٠) أيضاً ثم جددت . وللأرمن القدماء كنيسة قرب السور وهي قديمة احترقت في حوادث سنة (١٨٦٠) واسمها مار سركيس ولها مدرسة جدد بناؤها بعد الحوادث . وللريان اليعاقبة كنيسة بالقرب من الباب الشرقي في محلة حنانيا جددت سنة (١٨٦٠) باسم القديس جاورجيوس . وللأرمن الكاثوليك كنيسة أمام دير اللعازارين أنشئت بعد سنة (١٨٦٠) على اسم القديس غريغوريوس . وللبرتسانت كنيسة بنت لإحدهما مسز موط الانكليزية سنة (١٨٦٨) والثانية (١٨٦٤) بناها القس يوحنا كرفورد الأميركي .

وقد أنشئت عدة كنائس وأديار في دمشق أهمها دير اللعازارين كان شرع بينائه قبل حوادث (١٨٦٠) ثم أحرق وجدد بعد ذلك وفيه مدرستان إحدهما للذكور والثانية للإناث . ولليسوعيين مدرسة للبنات وفيها كنيسة صغيرة . وهناك دير الفرنسيسكان بالقرب من دير اللعازارية قيل: إنه أنشئ من نحو ٣٥٠ سنة وجدد عقيب حوادث (١٨٦٠) وفيه مدرسة للصبيان . ولطائفة الموارنة دير على اسم مار أنطونيوس البادواني حرق (١٨٦٠) وفيه دار البطريركية . وفي سفح الصالحية كنيسة صغرى للريان الكاثوليك . وأنشئت في العهد الأخير كنيسة في المدرسة الإيطالية بطريق الصالحية وأخرى وراء المستشفى العسكري لراهبات الفرنسيسكان وغيرها من الكنائس الصغرى .

كنائس حلب :

وليس في الشهباء كنائس قديمة وأقدمها لا يرد عهده إلى قبل منتصف القرن الماضي فمنها كنيسة الأربعين للأرمن الغريغوريين في الصليبية وهي من الكنائس القديمة جددت (١٨٦٩) وكنيسة السيدة للأرمن الغريغوريين (١٨٥٠) وكنيسة مار أنطونيوس البادوي للآباء الفرنسيسين أنشئت (١٦٦٠) ثم جددت، وكنيسة انتقال السيدة للريان الكاثوليك في حارة الصليبية جددت

(١٨٥٠) بعد حريق وقع لها . وكنيسة أم المعونات للأرمن الكاثوليك تم بناؤها (١٨٤٠) ومنها كنيسة بشارة الإنجيل للبرتستانات في محلة جقور القسطل جعلت كنيسة (١٨٦٧) . وكنيسة مار فرنسيس للآباء الفرنسيسيين في حي جلوم تم بناؤها (١٨٧٨) . وكنيسة السيدة للروم الأرثوذكس في الصليبية جدد بناؤها (١٨٥١) . وسيدة الانتقال للروم الكاثوليك جددت بعد حريقها (١٨٥١) . ومار جرجس للروم الكاثوليك في ثرعسوس تم بناؤها (١٨٥٠) وكنيسة قلب يسوع للآباء اليسوعيين في حي تراب الغربا تمت سنة (١٨٨١) . وكنيسة مار بطرس للكلدان في العزيزية (١٨٨٢) . وكنيسة مار جرجس للسريان الأرثوذكس في جقور قسطل وهي من الكنائس القديمة اختلف بها السريان بعد أن كانت مشتركة بينهم وبين الأرمن في سنة (١٨٩٣) وكنيسة القديس بوناونتورا للآباء الفرنسيسيين تم بناؤها في حي الرام سنة (١٩٠٧) وكنيسة للموارنة باسم مار الياس الحبي في الصليبية تمت سنة (١٨٩١) ، وكنيسة الأنفس المطهربة في الحميدية تم بناؤها سنة (١٩١٠) .

الكنائس والبيع في القدس :

وفي القدس أديار وكنائس كثيرة بحيث يصح أن تدعى بلد الكنائس ولطائفة كاثوليك الرومانيين كنيسة اسمها كنيسة البطريركية ودير المخلص للفرنسيسكان وله كنيسة وميتم وصيدلية ومطبعة ، وكنيسة القديسة حنة وكنيسة الاكسي هومو (أي صورة المسيح المكلمة بالشوك) وكنيسة الدورميسيون وكاتدرائية سان ايتيان ، وكنيسة الاغوني وأديار كنيسة القيامة ودي لافلاجلاسيون والدومنيكيين وإخوان البعثة الإفريقية واللعازاريين والآباء الپاسيونست والبندكتيين . ودير البندكتيين وأديار الكرمليين وسيدات صهيون وأخوات القديس يوسف وأخوات الوردية والكلاريس وأخوات ريباراتريس والبندكتيات . ولهم كنائس في المدارس . منها في المدرسة الاكليريكية البطريركية وميتم الأطفال في دير المخلص والمدرسة الصناعية في الدير نفسه ومدرسة الذكور للفرنسيسكان والمدرسة الصناعية

للكور لرهبان سيدة صهيون ومدرسة الذكور لإخوان المدارس المسيحية ومدرسة وميتم بنات أخوات القديس يوسف وميتم البنات لأخوات الفرنسيسكانيات ومدرسة للبنات لراهبات الوردية ومدرسة وميتم لبنات سيدات راتسيون ، ومدرسة البنين والبنات لجمعية الأرض المقدسة الألمانية . ومن المستشفيات مستشفى سان لويس ، تعاون فيه راهبات القديس يوسف وملجأ اللقطاء والعجزة والمرضى لأخوات الإحسان ، وملجأ الحجاج مثل كازانوف للفرنسيسكان . والملجأ الكبير الفرنسي لسيدة فرنسا وملجأ الاغسطيين والملجأ الكاثوليكي الألماني والملجأ النمساوي والروم المجتمعين أو الروم الكاثوليك كنيسة في البطريركية وبيعة في سانت فيرونك ومدرسة اكليركية كبرى لرهبان القديسة حنة لآخوان البعثة الإفريقية (الآباء البيض) وميتم للبنديكتيات وواحد للسوريين المتحددين وله مدرسة اكليركية يديرها الآباء البنديكتيون وقليل من الأرمن المتحددين مع كنيسة سيدة السهام وبيعة وملجأ ومدرسة متصلة بالكنيسة اللاتينية .

وللطوائف البرتستانتية الألمانية كنيسة المخلص الألمانية وملجأ فرسان القديس يوحنا ومستشفى الدياتكونيس قيصر ورت ودار للبرص للآخوان المورافيين وميتم للفتيات وميتم سوري للأولاد أسسه شنيلر وله ملجأ للعميان ومدرسة لأولاد العرب في القدس . وللطائفة البرتستانتية الانكليزية مدرسة وكنيسة أسقفية وجمعية التبشير الكنائسي لدعوة أبناء العرب من المسلمين واليهود للمذهب ولها كنيسة القديس بولس وميتم للذكور أسسه أسقف كوبا ومدرسة للذكور والبنات ومدرسة عالية وكنيسة يسوع لجمعية يهود لندرا ، وهذه الارسالية تقوم بنفقة مستشفى كبير وصيدليتين ومدارس للذكور والإناث ومدرسة صناعية ومطبعة . ولرهبة فرسان القديس يوحنا الانكليزية مستوصف للرمذ وبعض الأديار والمدارس تنفق عليها جمعية تبرعات فلسطين وجمعية مبرات ارسالية الشرق الانكليزية . ولطائفة الروم الارثوذكس عدة أديار وكنائس منها دير هيلانة وقسطنطين ودير إبراهيم ودير جيتسماني والقديس باسيلوس والقديس تيودوروس والقديس

جورج والقديس ميشل والقديسة كاترينا واوتيم وسيدة النجا واسبيريدون وكارالومبوس وديمتريوس ونيقولائوس وروح القدس ومدرسة للبنات وأخرى للذكور ومستشفى وغير ذلك . وللبعثة الروسية مدرسة كبرى في حي يافا والبنيات على جبل الزيتون . وكان للجمعية الروسية الفلسطينية ملجأ كبير للحجاج بالقرب من المعهد الروسي ، وملجأ للراهبات بالقرب من اليمارستان .

وللأرمن دير بالقرب من باب صهيون ولهم مدرسة اكليريكية ومدرستان للذكور وللإناث وكنيسة القديس يعقوب ودير للنساء اسمه دير الزيتوني ودير وبيعة جبل صهيون ولهم ملجأ . وللأقباط دير يقيم فيه أسقفهم ودير آخر يقال له دير القديس جورج . وللسريان اليعقوبيين كنيسة صغرى يقيم فيها أسقف لهم . وللحبش دير وكنيسة في الشمال الغربي من المدينة وللإسرائيليين زهاء ٧٠ كنيسة . وكثير من معاهد الخير والإحسان وملاجئ للزوار ومعاهد للفقراء أسس معظمها مونتفيور وروتشيلد وجمعية الاتحاد الإسرائيلي وغيرهم ولهم أربعة مستشفيات ودار للمعتوهين ومدرسة للعميان وملجأ للشيوخ ومدرسة ابتدائية وصناعية تقيم عليها جمعية الاتحاد الإسرائيلي ومدرسة انكليزية للبنات ومدرسة المانية للبنين وملاجئ منها الالمانى والاسباني وفي القدس مدرسة البنات لاسوج . ولما زار الامبراطور غليوم الثاني ملك ألمانيا مدينة القدس أمر بإنشاء أربع كنائس وكلها واقعة في أهم بقعة في المدينة ثلاث منها مشرفة عليها من الخارج والرابعة داخل المدينة أي السور .

وقبل الحرب العامة كان في القدس ٨ أديار للذكور و ٩ أديار للإناث من اللاتين وكنيستان للروم الكاثوليك وواحدة للأرمن الكاثوليك و ١٤ ديراً للروم الذكور و ٤ أديرة للإناث من الروم و ٤ أديار للروس و ٥ للأرمن و ٣ للأقباط و ٣ للحبش و ٢ للسريان و ٢ للبرتستانت الاسقفيين و ١ للإنجيليين و ١ للهيكلين من الطوائف البرتستانتية و ٤ كنيسة للإسرائيليين وربما زادت بعض الطوائف أماكن أخرى للعبادة . وكنائس القدس وأديارها وبيعها على غاية من الفخامة لأنها من إنشاء

دول كبرى ومكانة القدس في هذا الباب لا تنازعها فيه غير رومية العظمى ، وأهم تلك الكنائس في القدس كنيسة القيامة وهي ليست بالكبرى كثيراً بالنسبة لكنائس الغرب المهمة بل هي متوسطة الحجم استأثر أهل كل مذهب من مذاهب النصرانية ببقعة صغيرة منها لا يتعدونها يكنسونها ويوقدون سرجها ويتعهدونها بما يصلحها . والسدانة للمسلمين حتى لا يقع بين أهل تلك المذاهب شيء من التحاسد الذي أدى في الأزمان السالفة الى فتن وحوادث ، ولكل قطعة من قطع كنيسة القيامة وجدار من جدرانها وعمود من عمدتها حادثة تاريخية يذكرونها في تاريخهم الديني .

ولو كان عني بعمران كل بلد على مثل ما عني بإنشاء الأديار والكنائس في القدس وما إليها من الأرض المقدسة لكانت الشام أعمر أقطار العالم بكنائسها وأديارها فقد قدر بعضهم ما أنفق على هذه المعاهد الدينية الكبرى بخمسة عشر مليون جنيه قبل أن يحاول اليهود أن يجعلوا لهم من فلسطين وطناً قومياً ، وقبل أن ينشئوا فيها كنائسهم ومعابدهم ويشترك يهود العالم في إتمام مشاريعهم في فلسطين . ولا يدخل في هذا التقدير ما في معابد القدس من العاديات والآثار والتحف والطرف فإن ذلك لا يقوم بضمن . كل هذا بسائق المنافسة السياسية والدينية بين الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وبين المسيحيين من جهة والموسويين من أخرى .

كنائس فلسطين :

ولو جئنا نستقصي كنائس فلسطين لطلال بنا المجال فمن كنائسها كنيسة روسية في يافا مطلة على سهل سارون وكنائس صغيرة ثابتة للفرنسيين والروم الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة ، وكنيس لليهود . ولهم مدرسة مهمة في تل أبيب وأهم الأديار فيها دير اللاتين وفيها كنيسة للبرتستانات الالمان من طائفة الهيكليين واسمها أحباب القدس وقد كثرت الكنائس في المدن والقرى والغالب أن كنائس القرى سبقت بإنشائها كنائس المدن لأن النصرانية انتشرت أولاً في القرى وعصى أهل المدن على التدين بها لغلبة التعصب عليهم . ومن رأي بعض الواقفين أن النصرانية انتشرت أولاً في المدن

كالقدس وأنطاكية والإسكندرية وأفسس حتى وصلت الى داخل بلاط القياصرة .

وفي نابلس دير للاتين وكنيسة للروم وكنيس وكتاب للسامرة ومدرسة للانكليز ومدرسة للراهبات ولها بيع صغيرة وفي أريحا كنيسة للروم وأخرى للاتين. وكنيسة بيت لحم من أقدم الكاتدرائيات الباقية لم تخرب في جملة ما خربه الحاكم ، وقد رمت في أوقات مختلفة وزينت ولا سيما في عهد الصليبيين ، وفي بيت لحم عدة أديار وكنائس منها دير للفرنسيسكان مع دار ضيافة ومدرسة للذكور وصيدلية وكنيسة جميلة ولأخوات القديس يوسف دير وميتم ومدرسة للبنات ودير للكرمليات عُمر على مثال قصر سانت آنج في رومية وله كنيسة ومدرسة الكليكية لجمعية آباء القلب المقدس وجمعية الأب بيلوني وفيه مدرستان إحداها صناعية وكنيسة . ولراهبات المحبة مستشفى وإخوان المدارس المسيحية مدرسة عظمى وللروم دير الولادة وكنيستان إحداها باسم القديسة هيلانة والثانية باسم القديس جورج ومدرسة للذكور وأخرى للإناث . وللأرمن دير عظيم وهو دير الفرنسيسكان ودير الروم أشبه بقلاع . ولبرتستانت الالمان مدرستان وميتم ، وللانكليز مدرسة للفتيات يضاف إليها دار للمعلمات وكلها تحوي كنائس وبيعاً . وفي الناصرة أربع عشرة بيعة وكنيسة ومعظمها من ضخامة البناء ما يذكر بقصور الملوك ، ودير الفرنسيسكان يزار لبعض الآثار التاريخية فيه وهو أثر من آثار القرون الوسطى . وفي صفد كنيسة ومدرسة للروم الكاثوليك وخمس كنائس الإسرائيليين وخمس مدارس ابتدائية دينية ومدرسة عالية للاتحاد الإسرائيلي وكنيسة ومستشفى للبرتستانت . وفي طبريا كنيسة للروم وأخرى للكاثوليك وخمس كنائس لليهود . وللكاثوليك كنائس في حيفا والبصة وشفاعمر وترشيحة والمقار . وفي الطور دير وكنيسة لكل من الفرنسيين والروم الأرثوذكس ، وكنيسة الفرنسيين من أبداع كنائس العالم .

وفي الرملة دير للآباء الفرنسيسكانيين أسس سنة (١٤٠٠) على يد الأمير فيليب الاسباني ثم خرب سنة (١٧٠٠) ثم أعيد بناؤه . وخرب صلاح الدين

كنيسة لدّ التي أنشئت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، كما خرب كثيراً من الكنائس في عهده وخرب بعضها في الحروب وخرب الآخر قصداً لأسباب سياسية وحرية حافزة . وفي جينين دير ومدرسة للذكور وللرؤم كنيسة ولبرستانات وللكاثوليك ولكل كنيسة مدرسة تابعة لها . وبالجملة فكل بلد في فلسطين لا يخلو من دير أو كنيسة أو كنيس مهما بلغ من قلة ساكنيه من المسيحيين والإسرائيليين .

والفضل في إنشاء هذه الكنائس لجماعة الرهبان والمبشرين فهم الذين استوكفوا أكف المحسنين في الغرب وصرّفوا عقولهم وأوقاتهم في إقامة تلك المعاهد المهمة ، وقد جاء منهم نوابغ في كل قرن خلّدوا اسمهم بقدر ما بذلوا من العناية بنشر دينهم وإقامة شعائره ومعابده فاستفاد العمران من عملهم فوائد لا ينكرها منصف . كتب إيليا بطريرك بيت المقدس إلى أنسطاس ملك الروم: قد بعثتُ إليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صيّر بريتنا مدائن وأعمرها وهو نجم فلسطين .

كنائس الأردن :

وفي عبر الأردن كنائس أهمها كنيسة مادبا أو ميدبا وقد تقدم الكلام عليها في المصانع ونزيد الآن أن ميدبا (عن مجلة المسرة) فاقت أخواتها بكنائسها الفخمة العشر وأن سرجيوس مشيد الكنائس شيد كنيسة على اسم الرسل القديسين . ومن الكنائس التي بقي ذكرها إلى اليوم كنيسة البتول التي يرجع عهدها إلى أيام القيصر يوستينيانوس . ولما فاضت جيوش الأعاجم على هذه الديار حرقت الكنائس والديرة وذبحت الألوّف من الرهبان والنصارى ثم وطئتها أقدام الفاتحين من المسلمين فدثرت تلك الأسقفية وعادت أخربة ينقع فيها البوم عصوراً طويلة .

وكان في أكثر أمهات قرى حوران كنائس مهمة في الإسلام خربت بطول الزمن حتى قيل إنه كان في إقليم حوران فقط أربع وثلاثون أسقفية وناهيك بما يقتضي لها من الكنائس . واشتهرت اليوم كنائس تبنه وبصير وخبب . وفي جبل عجلون عدة كنائس منها ثلاث في الحصن أكبرها كنيسة اللاتين . وفي عجلون عدة كنائس صغرى جعل بجانبها مدارس .

وفي الكرك ثلاث كنائس للروم والكاثوليك والبرتستانت . وقد بلغ الغرام
برجال المذاهب المسيحية أن أهل كل مذهب إذا وجدوا خمس عيال في
قرية من رعاياهم أنشأوا لهم كنيسة فالكنائس الصغيرة كثيرة جداً في
كل بلد وكل قرية أنشأ فيها اللاتين كنيسة أنشأ فيها البرتستانت أيضاً
والعكس بالعكس .

كنائس لبنان :

أما كنائس لبنان فكثيرة جداً لا تكاد تخلو قرية من كنيسة أو
كنيستين وربما أكثر، وليست كلها على جانب عظيم من العظمة ولا يرد
عهدتها إلى زمن قديم ، فإن معظم ما كان منها في كسروان وما إليه إلى
جنوبي الجبل ليس له من العمر أكثر من مئتي سنة ، ذلك لأن الموارنة لم
يمتدوا إلى كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد ، وكان عشهم في
شمالى لبنان قبل ذلك . ولقد ترى في بعض المدن اللبنانية كزحلة وهي
أكثر القرى سكاناً في الجبل كثيراً من الكنائس التي لم تقم على ما يظهر إلا
بسائق المنافسة ففيها ١٢ كنيسة للكاثوليك وكنيستان للأرثوذكس وكنيستان
للموارنة وكنيسة ودير لليسوعيين وكنيسة للسريان الكاثوليك وكنيسة
للأميركان، وفي زحلة أيضاً دير القديس الياس الطوق للرهبنة الباسيلية وفيها
كنيسة في المدرسة الشرقية وغير ذلك من الكنائس الملحقة بالمدارس ولا
تقل عن ست وعشرين كنيسة . وفي مدينة بيروت وطرابلس واللاذقية
وصور وصيدا كنائس كثيرة لكل طائفة ولكل جمعية تبشيرية وأهمها
ما كان في بيروت فللروم الأرثوذكس وللروم الكاثوليك ولبرتستانت
الأميركان ولغيرهم من الطوائف كنائس وبيع مهمة ، وأهمها ما كان
لليسوعيين أو المرسلين الأميركيين .

وفي الهدنة التي عقدت بين المنصور قلاوون وولده الملك الصالح وبين
حكام الفرنج بعكا سنة (٦٨٢) أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من
أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم
وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية ويصلي

بالكنيسة الأقساء والرهبان وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، وإذا نقتب الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برأ ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بنيته ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دير الصليب .

ومن كنائس لبنان وما إليه كنيسة معاد وكنيسة رشكيدا وكنيسة حدنون وكنائس اهدن وعبدله وبجديدات وصربا وكفر سليمان وقنوبين وبكفيا واده وبشري وبكركي والديمان وزحلة ودير القمر والشرقة وبرمانا وغزير وبيت خشبو وبزمار وبعبدات والقريّة وحريصا وأميون وجزين وجبيل وأفقة والكورة والزاوية وبجنس ودير مار الياس والشوير وبسكتتا وكفتين ودير مار يعقوب المقطع ودير سيدة الراس ودير حماطورة ودير مار جرجس ودير مار الياس النهر ودير ناطور ودير سيدة النورية عند وجه الحجر ودير كفتون ودير جبرائيل ودير ميخائيل المعظمة في برج صافيتا ودير مار جرجس الحميرا ودير الأحمر . ودير مار شربين ودير مار توما قرب صيدنايا .

وكان الصليبيون أنشأوا عدة كنائس في أرواد وطرطوس وصيدا وبيروت وغيرها من الساحل فهدمت ، ثم بنيت مساجد ولأن بعضها كان بمثابة حصون في أيدي الرهبنات المتجندة مثل الهيكلين والاسبتاريين والتوتونيين . وفي أمهات المدن الصغيرة كنائس مهمة مثل بعلبك وعكار والحصن وحمص وحماة وبيروت والقيبات والإسكندرونة وأنطاكية . وفي هذه فقط تسع كنائس وفيها أنشئت أول كنيسة في الشام وكانت في جميع أديارها موضع إعجاب المؤرخين والسائحين ومنها ما هو في القرى مثل صدد ومعلولا وصيدنايا وهذه أليق بأن تذكر في باب الأديار لأنها بعيدة عن المدن والدير في الحقيقة كنيسة وزيادة . ولليهود في حلب ودمشق عدة كنائس ولكنها ليست من المكانة على شيء ولهم في تادف وجوبر وغيرها كنائس قديمة يتابونها للعبادة ومن عادة الإسرائيليين أن يكون في دار كل غني كنيس وهو عبارة عن غرفة كبيرة تجعل للعبادة وأشهرها في دمشق كنيس سوق الجمعة ولهم في حلب كنائس مهمة وكذلك في بيروت.

عمل الرهبان والراهبات العظيم :

يتصور القارئ مبلغ عناية الرهبان والراهبات بدينهم من إلقاء نظرة على الفصل التالي : للراهبات الالمانيات مدرسة ودار للأيتام في القدس ومستشفى في حيفا ومستشفى ومدرسة ليلى ونهارية للإناث في بيروت ومعهد في دمشق وآخر في حلب وقد جئن القدس سنة (١٨٨٧). وجاء راهبات السجود القدس سنة (١٨٨٨) وأسسن فيها ديراً كبيراً ثم جئن بيروت وأنشأن داراً للعبادة . وللعاذريين مجال مهمة وهم يقسمون قسمين قسم الرهبان للعاذريين الالمان جاءوا سورية عام (١٨٩٠) وأنشأوا في القدس مدرسة : والقسم الثاني رهبان فرنسيون جاءوا سورية منذ نحو قرنين وأخذوا الأديار التي كانت لليسوعيين ولهم مدرسة في بيروت وأخرى في عينطورة وأهدن في لبنان ورابعة في دمشق وخامسة في ريفون .

وجاء الآباء الساليزيون القدس سنة (١٨٩١). ولهم دار للأيتام في بيت لحم ودار للأيتام زراعية في بيت جمال وثالثة في الناصرة ومدرسة ابتدائية في بيت لحم . وجاء الراهبات الساليزيات القدس سنة (١٨٩١) وهن يشتغلن مع الرهبان الساليزيين . وأتى راهبات صهيون القدس عام (١٨٥٦) وأنشأن معهداً في كنيستهن المسماة اكس هومو . وقدم الآباء البيض القدس عام (١٨٧٨) وأنشأوا كنيستين فيها . ونزل آباء القلب المقدس القدس عام (١٨٧٩) وأنشأوا مدرسة في بيت لحم . ولراهبات الوردية عمل ديني مثل بنات جنسهن . وجاء القدس آباء سيادة صهيون عام (١٨٨٤) . والدومنيكان أو رهبان مار عبد الأحد وردوا على القدس عام (١٨٨٢) وأسسن الرهبان الصعوديون مأواهم في القدس عام (١٨٨٧) وأسسن الآباء الترابيون ديراً في الاطرون وهم معروفون بفن الألبان والزراعة . وجاء الراهبات البندكتيات القدس عام (١٨٩٦) وراهبات هورتوس كونكلوز وهن اميركانيات جئن القدس عام (١٩٠١) .

ولراهبات الناصرة مدرسة في حيفا وأخرى في شفاعمرو وثالثة في عكا ودير الناصرة في بيروت وقد جئن سورية سنة (١٨٥٥). وقدم الراهبات

الكرمليات الشام سنة (١٨٧٣) وأنشأ ديرهن المعروف في جبل الزيتون في القدس ولهن دير في بيت لحم وآخر في سفح جبل الكرمل قرب حيفا . وجاء رهبان الفرير الشام سنة (١٨٧٨) ولهم مدرسة في القدس وأخرى في حيفا وثالثة في الناصرة ورابعة في بيت لحم وخامسة في بيروت وسادسة في طرابلس وسابعة في إسكندرونة وثامنة في دمشق وتاسعة في يافا . وجاء رهبان مار يوحنا الالهي القدس عام (١٨٧٩) فأسسوا مستشفى في طنطور على طريق بيت لحم ولهم مستشفى ومستوصف في الناصرة .

وجاء راهبات سانت كلير الشام عام (١٨٨٤) وأنشأ ديراً على طريق بيت لحم ولهن دير في الناصرة . ووردت الراهبات الفرنسيات البيض القدس عام (١٨٨٥) وأنشأ ميثماً ولهن ميثم في بيت لحم وأنشأ مدرسة في دمشق . وجاء راهبات المحبة القدس عام (١٨٨٦) ولهن مستشفى ودار للأيتام في بيت لحم ومستشفى ومدرسة في حيفا ومستشفى في الناصرة ولهن في بيروت مستشفى عظيم ودار للأيتام ودار للصناعة للذكور والإناث وثلاث مدارس صغرى في بيروت ومكتب للصنائع في طرابلس ودور نقاهة في اهدن وبحس من لبنان ومدرسة في برج البراجنة وفي كل معهد منها دار للعبادة يختلف إليها أهل المذهب الذي يبشرون به .

ولقد قالوا: إن عدد الجمعيات الأجنبية التي تسعى لتنوير أفكار النصارى في سورية تبلغ ثمانين جمعية ، وأهمها جمعية اليسوعيين وردوا الشام قبل قرنين أو ثلاثة فأسسوا الأديار التي ينزلها اللاعازيون اليوم ثم غادروا الديار فلم يعودوا إليها إلا عام (١٨٣١) فأنشأوا مدرستهم في غزير من لبنان وفي عام (١٨٧٦) افتتحوا كليتهم العظمى في بيروت ولهم الآن عدة أديار ومدارس في بكفيا والمعلقة وزحلة وغزير ودمشق وحلب وتعايل وجزين وقد أنشأوا بعد الحرب العالمية مدارس صغرى كثيرة في ربوع جمهورية لبنان ويوشكون أن يتوسعوا في الداخلية كثيراً بمدارسهم وكنائسهم . أما الفرنسيون فكانوا يزالوا في الشام منذ الحروب الصليبية وزادوا عام (١٨٤٨) عدد أديارهم وأنشأوا ملاجئ للزوار في القدس ولهم فيها ستة ملاجئ ولهم أديار وملاجئ في بيت لحم وعين كارم وطبريا وجبل الطور والناصرة وقانا وعكا وصور

وصيدا وبيروت وحريصا وطرابلس واللاذقية ودمشق وحلب وإسكندرونة ولهم مدرسة في حلب .

وكان الكرمليون تركوا الشام مع القافلة الأخيرة من الصليبيين ثم عادوا إلى جبل الكرمل عام (١٦٣٦) وبنوا ديراً ومحلاً للضيافة في الجبل ولهم أديار في حيفا وطرابلس والقيبات من إقليم عكار ومدرسة في بشري . وديرهم في الكرمل من أجمل أديار الشام ترى منه أجمل المناظر . وجاء راهبات القديس يوسف أو الراهبات اليوسفيات من مرسليليا إلى القدس عام (١٨٤٨) ولهن في فلسطين ١٣ معهداً و ٣ مستشفيات أحدها في القدس والآخر في يافا والثالث في الناصرة . ولهن في هذه المدن ثلاث دور للأيتام ومدرستان نهاريتان وخمس مدارس دينية ومدرسة في بيروت ودير في صيدنايا ومدرسة فيها دير ومدرسة في دير القمر وديران ومدرستان ليليتان ومستشفى في حلب ودير ومدرسة في إسكندرونة .

الأديار القديمة في الشام :

« دير إسحاق » كان بين حمص وسلمية في موضع حسن نزه على نهر جارٍ وحوله كروم ومزارع إلى جانب ضيعة صغيرة يقال لها جدر ، وهي التي ذكرها الأخطل في قوله :

كأنني شارب يوم استبدت بهم من قرقف عتقتها حمص أو جدر

وقال فيه أبو عبد الرحمن الهاشمي السلماني من أهل سلمية :

وإذا مررت بدير إسحاق فقل جادتك غيث سحائب وبروق

ديرٌ يشبه ماؤه بهوائه وهوأوه بلطافة المعشوق

وليس لهذا الدير من أثر اليوم .

« دير الباعفي » كان قبلي بصرى من أرض حوران وهو دير بحيرا

الراهب كما زعموا ولا يعرف الآن . وبحيرا شخص خيالي .

« دير باعتل » من جوسية على أقل من ميل وجوسية على مرحلة من

حمص ولا يعرف اليوم هذا الدير .

« دير البتراء » كان في وادي موسى دير للراهبات وذكر البولونديون

ديراً للرهبان في البتراء كان يرأسه القديس موسى أسقف البدو الرحالة يقال: إن بانيه اثينوجينوس أوائل القرن السابع للميلاد . وذكر الرحالة تيمار أنه طاف تلك الفيافي سنة (١٢١٧) وعثر بين أخربة البتراء على كنيسة ودير لم يزل يسكنه بعض الرهبان . وهناك الكنيسة الكاتدرائية المثلثة السواعد وقد كانت أمّاً لسائر الكنائس الملكية الكاثوليكية في هذه البلاد الشرقية (عن مجلة المسرة) .

«دير البخت» كان على فرسخين من دمشق ويسمى دير ميخائيل وكان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختاً وهي جمال الترك فغلب عليها وكان لعلي بن عبد الله بن عباس قربة جنية ينتزه فيها . وقرية دير البخت معروفة الى اليوم في الجيدور . ووجه التسمية في هذا الدير بعيد لأنه عرف بهذا الاسم قبل الإسلام على ما ظهر من رواية ابن عساكر في بعض وقائع عمر بن الخطاب في الجاهلية ومروره بدير البخت واجتماعه براهب أكرمه وتفرس فيه الخير فيما قال .

«دير بصري» قيل هو الذي كان فيه بجيرا الراهب في حوران . مجهول محله .

«دير بلاض» من أعمال حلب مشرف على العمق فيه رهبان لهم مزارع وهو دير قديم مشهور لم يبلغنا أنه موجود .

«دير البلمند» من أديار الروم الأرثوذكس المشهورة على نشزعال قرب مدينة طرابلس في أقصى حدود جبل لبنان يقال: إنه من أديار الصليبيين وإن اسمه جاء من تركيب بل مونت أي الجبل الجميل وهو اليوم عامر .

«دير بلودان» مر به ابن فضل الله العمري ونزل إليه فقال فيه: إن بناءه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري ، بقربه قرية بلودان وهي محاذية لكفر عامر تطلّ من مشرفها على جبة الزبداني وبه رهبان نظاف ونظم فيه أبياتاً ومنها :

حبذا الدير من بلودان دارا أيّ دير به وأيّ نصارى
فيهم كل أحور الطرف أحوى فائق الحسن في حسان العنارى
وقال محاسن الشوا الحلبي :

حييا ساكني بلودان عني ورجالا بدير قانون زهرا
ولا يعرف متى زال هذا الدير، ودير قانون من قرى الوادي لا دير
فيه اليوم .

« دير بولس » كان بنواحي الرملة نزله الفضل بن إسماعيل وقال فيه
شعراً لم يسمه في أوله :

عليك سلام الله يا دير من فتي بمهجته شوق إليك طويل
ولا زال من جو السماكين وابل عليك لكي يروى ثراك هطول
قال البكري : ودير بولس آخر و « دير بطرس » (أو نظرس)
وهما معروفان بظاهر دمشق في نواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة وإياهما
عنى جرير بقوله :

لما تذكرت بالديرين أرفني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس
فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا يا بعد يبرين من باب الفراديس
ولا نعرف شيئاً عن هذا الدير .

« دير البنات » وهو دير أبيض البناء مشرف على أرض طرابلس
كان للرواهب قال فيه الطيبي :

دير البنات الزهر أنت المنى وأنت من دون الأمانى المرام
لم أنس يوماً قيك أذهبتة باللهو بل ذهبته بالمدام
ونحن في غرة أيامنا والعيش مثل الطيف حلو اللمام
والدوح ما جفت له زهرة والروض طفل ما جفاه الغمام
وبيننا خود كشمس الضحى وأغيد قد فاق بدر التمام
لولا نبات الشعر في خده لم تدر أي الأغيدىن الغلام

ولا نعرف اليوم أي أديار البنات هذا .

« دير يوتّا » أي يوحنا وروي بالباء بدل الياء كان يجازب الغوطة
بدمشق ليس بكبير ولا رهبانة بكثير ولكنه في رياض مشرقة وأنهار متدفقة
ويقال بأنه من أقدم ديرة النصارى . اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام فيه أياماً
وقال فيه :

حبذا يومنا بدير يوتّا حيث نسقى براحه ونُغنى

واستهنأ بالناس فيما يقولون إذا خُبروا بما قد فعلنا
قال ابن فضل الله وهذا الدير اليوم لا وجود له .

« دير حمطورا » هو في شرقي طرابلس في جانب الوادي الذي أسفل
من طرزيه والحدث . وهو بناءٌ في سفح الجبل من ذلك الجانب قبالة الطريق
السالك إلى طرابلس وهو حصين جداً لا يسلك إليه إلا من طريق واحد وظهر
الجبل الذي له ممتنع - قاله ابن فضل الله .

« دير الحنابلة » في تاريخ الصالحية لم يكن في الجبل أي قاسيون إلا بناية
يسيرة من الناحية الغربية دير أبي العباس الكهفي ودار بيت الضيا وغيرها ،
ومن الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابلة وكان أولاً لناس من الرهبان
فاتفق أنهم أحدثوا شيئاً فأخرجوا منه ثم بنى الشيخ أبو عمر المدرسة .
« دير حنيناء » دير بالشام وهناك مات معاوية بن هشام بن عبد الملك
فقال الكميث يرثيه :

فأي فتي دنيا ودين تلمست بدير حنيناء المنسايا فدلت
تعطلت الدنيا به بعد موته وكانت له حيناً به قد تحلّت

وقيل: إن الذي رثي بهذا الشعر البطال أحد قواد الأموية وفرسانهم مات
بدير حنيناء قافلاً مع معاوية بن هشام من غزوة فأمر معاوية الشعراء برثائه .
والرواية في شعر أبي تمام حنيناء بالباء المعجمة ولا يعلم عنه شيء في عصرنا .
« دير الحمان » كان هذا الدير بأرض أذرعات بُني بالحجارة السود
على نشز من الأرض يشرف على بركة الفوار وهو من البناء الرومي القديم .
ولا يعرف اليوم عنه شيء .

« دير خالد » وهو دير صليبا بدمشق كان مقابل باب الفراديس نسب
إلى خالد بن الوليد لتزوله فيه عند حصاره دمشق قال ابن الكلبي: وهو على
ميل من الباب الشرقي ولا يعرف عنه شيء آخر وفي هذا الدير يقول محمد
ابن علي المعروف بأبي البقاء :

جنة لقبت بدير صليبا مبدعاً حسنه كمالاً وطيبا
جنته للمقام يوماً فظلنا فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
شجر محدد به ومياه جاريات والرؤض يبدو ضروبا

من بديع الألوان يضحى به الثا
 كلُّ مما يرى لديه طروباً
 كم رأينا بدرأ به فوق غصن
 مائس قد علا بشكل كثيباً
 وشربنا به الحياة مداماً
 تطلع الشمس في الكووس غرباً
 فكأن الظلام فيها نهار
 لسناها تسرّ منا القلوباً
 لست أنسى ما مر فيه ولا أج
 حل مدحي إلا لدير صليباً
 «دير خناصرة» ورد ذكره في شعر بني مازن في قول حاجب بن ذبيان
 المازني مازن بن تميم من عمرو بن تميم لعبد الملك بن مروان في جذب أصاب
 العرب قال :

وما أنا يوم دير خناصرات
 بمرتد الموم ولا مليم
 ولكني ألت بحال قومي
 كما ألم الجريح من الكلوم
 وخناصرة بلدة في قبلي حلب وليس للدير ذكر الآن .
 «دير الدواكيس» شرقي القدس حسن البناء له سمعة وذكر وكان له
 وقف يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع ولا بن فضل الله فيه
 وقد مر به غير مرة أبيات منها :

دير الدواكيس أم ريش الطواويس
 أم الشموس سنّا تلك الشاميس
 مأوى المياسير لكن بعد أوبتهم
 منه يُعدّون في حزب المقاليس
 فانزل به وأقم فيما تريد وقل
 إملا كووسي وفرغ عندها كيسي
 واقدح زناد سرور من مدامته
 فهذه النار من تلك المقابيس
 «دير رمانين» جمع رمان بلفظ جمع السلامة يعرف أيضاً بدير السابان
 وهو بين حلب وأنطاكية مطل على بقعة تعرف بسرّمن وهو دير حسن كبير
 خرب قبل القرن السابع وآثاره باقية كما قال ياقوت وفيه يقول الشاعر :
 ألف المقام بدير رمانينا
 للروض إلفاً والمدام خديننا
 والكأس والإبريق يعمل دهره
 وتراه يجني الآس والتسربنا
 قال ياقوت ودير السابان وهو دير رمانين وتفسيره بالسريانية دير
 الشيخ .

«دير سابر» كان من نواحي دمشق وهو من إقليم خولان سكنه عمر
 ابن محمد الأموي . وخولان كانت بقرب دمشق خربت بها قبر أبي مسلم

الحولائي وبها آثار باقية - يا قوت. وبيت سابر اليوم قرية في سفح جبل الشيخ من عمل وادي العجم .

« دير سعد » كان من ديرة الشام نزله عقيل بن علقمة المري وكان يصهر إليه خلفاء بني أمية وهذا كل ما عرف عنه قديماً .

« دير سليمان » دير يجسر منبج وهو في جبل عال من جبال دلوك مطل على مرج العين وهو غاية في النزاهة قال أبو الفرج أخبرني جعفر بن قدامة قال: ولي لإبراهيم بن المدبر عقيب نكته وزوالها عنه الثغور الجزرية وكان أكثر مقامه بمنبج فخرج في بعض ولايته إلى نواحي دلوك برعبان وخلف بمنبج جارية كان يتحطاها يقال لها غادر فتزل بدلوك على جبل من جبالها بدير يعرف بدير سليمان من أحسن بلاد الله وأنزهها ودعا بطعام خفيف فأكل وشرب ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب :

أيا ساقينا وسط دير سليمان	أديرا الكؤوس فانهلاني وعُلاني
وخصا بصافيتها أبا جعفر أخي	فذا ثقني دون الأنام. وخلصاني
وميلاً بها نحو ابن سلام الذي	أود ، وعودا بعد ذاك لنعمان
وعُما بها النعمان والصحب إنني	تنكر عيشي بعد صحبي وإخواني
ولا تركا نفسي تمت بسقامها	لذكرى حبيب قد سقاني وغناني
ترحلت عنه عن صدود وهجرة	فأقبل نحوي وهو باك فأبكاني
وفارقتة والله يجمع شملنا	بلوعة محزون وغلة حرّان
وليلة عين المرج زار خياله	فهيج لي شوقاً وجدد أحزاني
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحاً	بألمح آفاق وأنظر إنسان
لعلي أرى أبيات منبج رؤية	تُسكن من وجدي وتكشف أشجاني
فقصّر طرفي واستهل بعبرة	وفدّيت من لو كان يدري لعدّاني
ومثله شوقي إليه مقابلي	وناجاه عني بالضمير وناجاني

« دير سمعان » بنواحي أنطاكية على البحر قال ابن بطلان وبظاهر أنطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة وقيل: إن دخله في السنة أربعمئة ألف دينار ومنه يصعد إلى جبل اللكام - قال هذا في

القرن الخامس للهجرة . وفي رواية أن دير سمعان بنواحي حلب بين جبل بني عليم والجبل الأعلى . ودير سمعان أيضاً في قرية تعرف بالبقرة من قبلي معرة النعمان وبه قبر عمر بن عبد العزيز مشهور لا ينكر ذكره السيد الرضي في رثائه بقوله :

يا ابن عبد العزيز ولو بكت العيون من فتي من أمية لبكيتك
أنت نزهتنا عن السب والشت م فلو يمكن الجزا لجزيتك
دير سمعان لاعدتك الغوادي خير ميت من آل مروان ميتك
وقال أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خراباً فغمه :
يا دير سمعان قل لي أين سمعان وأين بانوك خبرني متى بانوا
وأين سكانك اليوم الألى سلفوا قد أصبحوا وهم في الترب سكان
أصبحت قفراً خراباً مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عمر وعمران
وقفت أسأله جهلاً ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
أجاني بلسان الحال إنهم كانوا ويكفيك قولي إنهم بانوا

« دير السيق » كان معروفاً قديماً ويقع قبلي البيت المقدس على نشز عظيم عال مشرف على الغور غور أريحا يطل على تلك البسائط الخضراء ومجرى الشريعة وبه رهبان ظراف أكياس لا يأتيهم إلا قاصد لهم أو ماراً في مزارع الغور . تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة الى الكتيب الأحمر . ومشهد موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليه الملك الظاهر بيبرس وفي هذا الدير ومشرفه وأطلال قلاله وغرفه قال ابن فضل الله العمري :

أرى حسن دير السيق يزداد كلما نظرت إليه والفضاء به نصر
بنوه على نجد من الغور مشرف كتخت مليك تحته بسط خضر
وأشرق في سود الغمام كأنما تشقق ليلاً عن جلابيه الفجر
وقام على طود علي كأنما مصابيح تحت الدجى الأنجم الزهر
وزفت إليه الشمس من جنب خدرها وناغاه جنح الليل في أفنقه البدر
وألقت إليه الريح فضل عنانها وأحى عليها لا تبيل له عذر
ولو كان كالنسرين هان ارتقاؤه ولكنه قد حط من دونه النسر
علا نهر ريجا والمجرة فوقه فمن فوقه نهر ومن تحته نهر

« دير شق معلولا » وهو بباطن جبة عسال وهو بناء رومي بالحجر الأبيض مُعَلِّقٌ بسقيف وبها صدع فيها ماءٌ ينقط نحو الذي بصيدنايا ، ويأخذه النصارى للتبرك معتمدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر وإنما الاسم للذي بصيدنايا — قاله في مسالك الأبصار والغالب أنه دير الروم الباقي الى اليوم :

« دير صليبا » ويعرف بدير السائمة (السائمة ؟) وهو بدمشق مطل على الغوطة ويليه من أبوابها باب الفراديس نزل دونه خالد بن الوليد أيام محاصرة دمشق وهو في موضع نزه كثير البساتين وبنائه حسن عجيب وإلى جانبه دير للنساء فيه رهبان ورواهب وإياه أراد جرير بقوله :

إذا تذكرت بالديرين أرقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس
فقلت للركب إذ جد النجاء بهم يا بعد يبرين من باب الفراديس
وقد مر بنا هذان البيتان في دير بولس برواية أخرى . وقال الآخر :
يادير باب الفراديس المهيج لي بلا بلاً بقلاليه وأشجاره
لو عشت تسعين عاماً فيك مصطبحاً لما قضى منك قلبي بعض أوطاره

قال ابن فضل الله وهذا اليوم (أي في الثامن) لا عين له ولا أثر وإنما صار دوراً وأبنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس اه .

« دير صيدنايا » يؤخذ مما قاله صاحب مسالك الأبصار أنهما اثنان أحدهما يقصده النصارى بالزيارة وهو في دمنة القرية والآخر على بعد منها مشرف على الجبل شماليها بشرق وهو دير مار شربين ويقصد للتره من بناء الروم بالحجر الجليل الأبيض وهو دير كبير وفي ظاهره عين ماء سارحة وفيها ما يطل على بواطن ما وراء ثنية العقاب ويمتد النظر من طاقاته الشمالية إلى ما أخذ شمالاً عن بعلبك . وأما الذي في القرية فمن بناء الروم بالحجر الأبيض أيضاً ويعرف بدير السيدة وله بستان وبه ماء جارٍ في بركة عملت به وعليه أوقاف كثيرة وله مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة وطوائف النصارى من الفرنج تقصد هذا الدير وتأتيه للزيارة . وكنت أراهم يسألون السلطان في أن يمكنهم من زيارته وإذا كتب لهم زيارة قمامة ولم يكتب معها صيدنايا يعاودون السؤال في كتابتها لهم ، ولهم فيها معتقد . وقال جاءت مرة كتب ريد فرنس

(ملك فرنسا) وكتب الاذفونش (ملك اسبانيا) على أيدي رسلهم ومما سألوا فيها تمكين رسلهم من التوجه الى صيدنايا للتبرك بها فأجاب السلطان سؤالهم وحمل الرسل على خيل البريد إليها . وهذا الدير لم يزل عامراً الى اليوم يزوره الناس وفيه راهبات أرثوذكسيات . وفي عيد الصليب من كل سنة تجري في قربه اجتماعات وأفراح ويأتيه الناس من الأقاليم المجاورة وغيرها .

« دير الطور » الطور في الأصل الجبل المشرف ، والطور ها هنا جبل مستدير واسع الأسفل مستدير الرأس لا يتعلق به شيء من الجبال وليس له إلا طريق واحد وهو ما بين طبرية واللجون مشرف على الغور ومرج اللجون وفيه عين تنبع بماء غزير كثير والدير في نفس القلة مبني بالحجر وحوله كروم يعترضونها ويعرف عندهم بدير التجلي والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به ويشربون فيه وموضعه حسن يشرف على طبرية والبحيرة وما والاها وعلى اللجون . وما زال هذا الدير عامراً وقد جدد في أدوار مختلفة وفيه يقول مهلهل بن يوسف المزرع :

نهضت الى الطور في فتية	سراع النهوض الى ما أحب
كرام الحدود حسان الوجوه	كهول العقول شباب اللعب
فأي زمان بهم لم يتسرّ	وأى مكان بهم لم يطب
أنخت الركاب على ديره	وقضيت من حقه ما يجب
وأزلتهم وسط أعتابه	وأسقيتهم من عصير العنب
وأحضرتهم قمراً مشرقاً	تميل الغصون به في الكُثب
نحت الكؤوس بأهزاجه	ومرسوم أرماله بالعجب
وما بين ذلك حديث يروق	وخوض لهم في فنون الأدب
فيا طيب ذا العيش لو لم يزل	ويا حسن ذا السعد لو لم يتغيب

« دير عمان » قال ياقوت : بنواحي حلب وتفسيره بالسريانية دير

الجماعة قال فيه حمدان بن عبد الرحيم الحلبي :

دير عمان ودير سابان	هجن غرامي وزدن أشجاني
إذا تذكرتّ منهما زمناً	قضيته في عرام ريعاني

ومرّ به أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي فقال ارتجالاً :
 قد مررنا بالدير دير عَمَانَا ووجدناه دائراً فشحجانا
 ورأينا منازلًا وطلولاً دارسات ولم نرَ السكّانا
 وأرتنا الآثَار من كان فيها قبل تفنيهم الخطوب عيانا
 فبكينا فيه وكان علينا لا عليه لما بكينا بُسْكَانَا
 لست أنسى يا دير وقتنا في لك وإن أورثتني النسيانَا
 من أناس حدّوك دهرًا فخلّو ك وأمسوا قد عطلوك الآنَا
 ففرقتهم يدُ الخطوب فأصبح مت خراباً من بعدهم أسيانَا
 وكذا شيمةُ الليالي تمت ال حيّ منا وتهدم البنيانَا
 حرّياً ما الذي لقينا من الده ر وماذا من خطبه قد دهانَا
 نحن في غفلة بها وغرور وورانَا من الردى ما وورانَا
 ولا نعرف عنه شيئاً الآن .

« دير فاخور » وهو الموضع الذي تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمدان
 كما في كتب الجغرافية .

« دير فيق » هو في ظهر عقبة فيق — عقبة تنحدر الى الغور من أرض
 الأردن ومن أعلاها طبرية وبُحيرتها — وهذا الدير فيما بين العقبة وبين
 البحيرة في لحف جبل يتصل بالعقبة منقور في الحجر وكان عامراً بمن فيه
 من الرهبان ومن يطرقه من السيّار، والنصارى يعظمونه، واجتاز به أبو
 نُوَاس فقال في غلام نصراني فيه قصيدة منها :

بجحك قاصداً ما سرجسان فديّر النوبهان فدير فيق
 وبالطران إذ يتلو زبوراً يعظمه ويبكي بالشهيق
 وهذا الدير غير عامر الآن .

« دير القاروس » قال ابن فضل الله: إنه على جانب اللاذقية من شمالها
 وهو في أرض مستوية وبنائه مربع وهو حسن البقعة . وفيه يقول أبو علي
 حسن بن علي الغزي :

لم أنس في القاروس يوماً أبيضاً مثل الجبين يزينه فرع الدجى
 في ظل هيكله المشيد وقد بدا للعين معقود السكينة أبلجا

واللاذقية دونه في شاطيء
ولدي من رهبانه متنمس
أحوى أغنّ إذا تردد صوته
لا شيء ألطف من شمائله إذا
فله ولليوم الذي قضيته
معه بكائي لا اربع قد شجا

« دير القديس سابا » إلى الجنوب الشرقي من أورشليم على بعد ثلاث ساعات ونصف عنها على الراجل وعلى انخفاض ٥٦٠ متراً عنها عند الطريق المؤدي منها إلى البحر الميت على مقربة من وادي الراهب (النار) وعلى عدوة وادي قدرون إلى شمال بيت ساحور الشرقي . وهو أشبه بقلعة منيعة غربية الأبنية . ومن الدير إلى هضم الوادي ٢٧٥ ذراعاً فيصعد من الوادي إلى الدير بسلام بعضها منقور بالصخر والآخر مبني على شكل أدراج ولا يدخل إليه إلا باذن البطريك الأورشليمي . ورهبانه ستون راهباً يعيشون عيشة تقشف منقطعين إلى الصلاة والصوم والعبادة وفي كل جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس في أورشليم طعامهم مرة واحدة ولا يسمح للنساء أن يدخلنه ، وتلك عادة منذ تشييده إلى اليوم لم تدخله امرأة ، وقربه برج مار سمعان وهو دير خرب فيه بيت كبير يشرف على دير القديس سابا على بعد خمس دقائق فيسمح للنساء أن ينظرن الدير الكبير من بيت هذا البرج وقربه دير على قمة جبل تاودوسيوس وهو عامر الآن وفيه رهبان ويسميه العرب دير عبيد (من مجلة النعمة) .

« دير قنّسري » على شاطيء الفرات من الجانب الشرقي من نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل جرابلس (في الأصل جرابلس) وجرابلس شامية ، وبين هذا الدير ومنبج أربعة فراسخ وبينه وبين سروج سبعة فراسخ ، فهو دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلاثمائة وسبعون راهباً ، ووجد في هيكله مكتوباً :

أيا دير قنّسري كفى بك نزهةً لمن كان بالدنيا يلدنّ ويظربُ
فلا زلت معموراً ولا زلت أهلاً ولا زلت مخضراً تُزار وتعجب

« دير كعب » كان من أديار الشام وهو الذي جاء فيه المثل أطول من

فراسخ دير كعب قال الشاعر :

ذهبت تماذياً وذهبت عرضاً كأنك من فراسخ دير كعب

« دير كفتون » ولعله المعروف اليوم بدير كفتين قال فيه ابن فضل الله: إنه ببلاد طرابلس مبني على جبل وهو دير كبير وبنائه بالحجر والكلس في نهاية الجودة وبه ماء جارٍ وله حوض كبير مملوء من شجر النارج يحمل نارنجة إلى طرابلس يباع فيها ويرتقى بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع ومنه مكان يشرف عن بعد على البحر ، ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة وبه رهبان كثير و العدد والنصارى تقصده وتحمل إليه النذور ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو للتفرج به والتتره فيه، وفيه يقول الطيبي :

أدير كفتون تكفي كل نائبة من المسموم وتلقى كل سراء
من كل خضراء في الأشجار مائة وكل صهباء في الكاسات حراء
حللت في دير كفتون فلا عجب إذمت سكرأ بحمراء وخضراء

« دير مارون » قال المسعودي في التنبيه والإشراف: وفي أيام موريق من ملوك الروم ظهر رجل من أهل حماة من أعمال حمص يعرف بمارون إليه تنسب المارونية من النصارى . وأمرهم مشهور بالشام وغيرها أكثرهم يجبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرّة النعمان وكان له دير عظيم يعرف به شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم فعُرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان وهو بقرب نهر الارنط (العاضي) نهر حمص وأنطاكية . وقال ابن بطريق: وكان في عصر موريق ملك الروم راهب يقال له مارون وكان يقول: إن سيدنا المسيح طبيعتان ومشية واحدة وفعل واحد وأقنوم واحد وأكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من أرض الروم فسموا الموارنة ولما مات مارون بنى أهل حماة ديراً بحماة وسموه دير مارون. قلنا: ولعله دير آخر غير الدير الذي نشأ فيه مارون شرقي حماة وشيزر. وقد خرب دير مار مارون سنة (٧٥)

للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه ثم تحولوا من هناك إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبوا وخربا المساكن ولم يعفيا عن أحد من أتباع مار مارون . وقال الدويهي : كان قرب دمشق فوق نهر يزيد دير على اسم القديس مارون . قال : ولقد استدللنا برسومه وأطلاله الماثلة إلى اليوم على عظمه وشرفه ذكره ابن الحريري المؤرخ فيما كتبه عن الحاكم بأمر الله سنة (٣٨٦) . ولا أثر اليوم لدير حماة ولا لدير دمشق .

«دير مار مروثا» وهو دير صغير بظاهر حلب في سفح جبل جوشن على نهر العُرجان (العوجان؟) . وكان سيف الدولة محسناً إلى أهله وقلماً مرّ به إلا نزله ووهب لأهله هبة كبيرة وكان يقول : رأيت أبي في النوم يوصيني به — وفي رواية والدته — . وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران ويعرف بالبيعتين لأن فيه مسكنين للرجال والنساء . قال الخالدي وإياه عنى الصنوبري بقوله :

كأتما اختيرت الفصوص له بين عقيق وبين فيروزج
أما ترى البيعتين أفسردتا بمفرد الأقحوان والمزّوج
أثوابه المزن كيف ما اتصلت وناره البرق كيف ما أجاج

هذا ما رواه ابن فضل الله في هذا الدير، وفي رواية ياقوت أن هذا الدير ذهب ولا أثر له وقد استجد في موضعه مشهد زعم الحلبيون أنهم رأوا الحسين ابن علي رضي الله عنه يصلي فيه فجمع له المتشيعون بينهم مالاً وعمره أحسن عمارة وأحكامها وفيه أيضاً يقول بعض الشاميين :

بدير مارت مروثا ال شريف ذي البيعتين
والراهب المتحلي والقس ذي الطمرين
إلا رثيت لصب مشارف للحين
قد شفه منك هجر من بعد لوعة بين

قال وفيه يقول الحسين بن علي التميمي :

يادير مارت مروثا سقيت غيثاً مغيشا

فأنت جنة حسن قد حزت روضاً أثينا
«دير مارت مريم» قال الخالدي: وبالشام دير يقال له مارت مريم وهو
من قديم الديرة ونزله الرشيد وفيه يقول الشاعر :

نعم المحل لمن يسعى للذته ديراً لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كأمثال المها حور
«دير الماطرون» يروى لزيد بن معاوية فيه :

ولها بالماطرون إذا أكل النمل الذي جمعها
حرقة حتى إذا ربعت ذكرت من جلق يبعها
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

قال أبو محمد حمزة بن القاسم قرأت على الحائط من بستان الماطرون
هذه الأبيات :

أرقت بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس
وأعرضت الشعري العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سهيل عن يميني كأنه شهاب نجاة وجهه الريح قابس

ولم يبق في الوجود من هذا الدير غير اسمه .

«دير المصلبة» وهو بظاهر مدينة القدس الشريف في شامها بغرب وهو
دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من
أشجار الزيتون والكروم وشجر التين بإزاء قرية تجري على الدير بمرسوم
السلطان . قال في مسالك الأبصار بعدما تقدم: وهذا الدير دخلت إليه ورأيت
وفيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير وتناسب المقادير وصعدت
إلى سطحه فرأيت له حسن مُشترَف وسعة فضاء ورهبانه من الكرج . قال
وكان أخذ وجعل مسجداً للمسلمين ثم أعيد ديراً للنصارى وتوصل إلى هذا
بكتاب أحضر من ملك الكرج وأعان عليه قوم آخرون . قال: وحدثه رهبانه
بأن على ديرهم وقوفاً في بلادهم منها خيول سائمة تحمّل أثمان نتاجها إليهم
وأنة يجيء منها في كل سنة قدر جليل وأنها تنفق في مصالح الدير وابن السبيل .
وفيه يقول أبو علي حسن الغزي :

يا حسن أيام قطعت هنيئة بالدير حيث التين والزيتون

دير المصلبة الرفيعُ بناؤه
في ظل هيكله وأسراب الدمي
ومزنين إذا تلوا إنجيلهم
غزلانُ وجرة هم وبين جفونهم
نزعوا القلائس والمسوح فزحزحت
وسعوا بكاسات المدام وما دروا
فقضيت بينهم زماناً لم يزل
تلك المنازل قد سفحن مدامعي

ولا يزال هذا الدير عامراً وهو للروم الأرثوذكس .

« دير مرقس » الغالب أنه كان من نواحي حلب ورد في شعر حمدان بن عبد الرحيم في قوله :

أسكان عرشين القصور عليكم
ألا هل إلى حث المطي إليكم
وهل غفلات العيش في دير مرقس
إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم
بلاد بها أمسى الهوى غير أنني
سلامي ما هبت صباً وقبول
وشم خزامي حربنشوش سبيل
تعود وظل اللهو فيه ظليل
تلاقي عليها زفرة وعويل
أميل مع الأقدار حيث تميل

« دير مَرَّان » هذا اسم لديرين في الشام كان أحدهما على الجبل المشرف على كَنْفَر طاب قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز (رض) وهو مشهور بذلك كان يزار في عصر ياقوت. والثاني بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبنائه بالجص وأكثر فرشته بالبلاط الملون، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والأشجار محيطة به. روى ذلك الخالدي أما محل الدير فمحل خلاف منذ القديم قال ابن فضل الله: والناس في اختلاف ابن كان دير مران فمن قائل إنه كان بمشارق السفح نواحي برزة والأكثر على أنه كان بمغاربه وأن مكانه الآن (القرن الثامن) المدرسة المعظمية، وأما الذي كان بمشارق السفح فهو دير السائمة المسمى دير صليبا. وروى صاحب قضاة دمشق قال: لما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة ومائتين نزل بدير مران

ومكانه المعروف بالسهم إلى قرب النيرب خارج دمشق في سفح قاسيون فعمر المأمون هذا الدير وبني القبة التي فوق الجبل وهي المعروفة الآن بقبة النصر ولم يعثر على أثر لهذا الدير العظيم. وكان هذا الدير لقربه من دمشق ولجمال موقعه مقصد الملوك والراغبين في التزهة والشراب. قال ابن بطريق: إن كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون يتزلونها ويسكنون فيها. وقد نزل يزيد بن معاوية دير مران ومات فيه الوليد واجتاز به الرشيد والمأمون وقد أكثر الشعراء من ذكره حتى نسب ليزيد قوله وقد أصاب المسلمين سباء بأرض الروم :

وما أبالي بما لاقت جموعهم بالغدقونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً بدير مران عندي أم كلثوم^(١)

ومن جملة ما قيل في هذا الدير قول أبي بكر الصنوبري وهو :

أمر بدير مران فأحيا وأجعل بيت لهوي بيت لها
ويبرد غلتي بردي فسقياً على بردى ورعيا
ولي في باب جيرون ظبساء أعاطيها الهوى ظيباً فظيبا
ونعم الدار داريا ففيها حلالي العيش حتى صار أريا
سقت دنيا دمشق ليصطفئها وليس يريد غير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق يُسبِنن وشيا
مظلة فواكهها بأبهي الـ مناظر في نواظرها وأهيا

(١) الموم: البرسام، وأم كلثوم هي زوجة يزيد بنت عبد الله بن كرز والغدقونة ويروى الخندقونة وهو الثغر الذي فيه المصيصة وطرسوس وأذنة وعين زربة .

وروى البكري هذه الأبيات في دير سمان باختلاف قليل قائلا إن معاوية كان وجه ابنه يزيد لغزو الروم فأقام يزيد بدير سمان ووجه الجيوش ، وتلك غزوة الطوانة فأصابهم الوباء فقال يزيد بن معاوية :

أهون علي بما لاقت جموعهم يوم الطوانة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً بدير سمان عندي أم كلثوم

فبلغ شعره معاوية فكتب إليه : أقسم بالله لتلحقن بهم حتى يصيبك ما أصابهم ، فألحقه بهم . والاختلاف في رواية هذين البيتين وإنشادهما مع تبدل يسير تارة في دير سمان وأخرى في دير مران يوقع الشك في نسبتها ليزيد وحامل على أن القصة مفتعلة .

فمن تفاحة لم تعدُ خدأً
وله فيه :

متى الأرحل محطوطةٌ
بأعلى ديرِ مرانٍ
فشطى بردى في جندٍ
رباع تهبط الأنها
وروض أحسنت تكتيبه
وعير الشوق مربوطةٌ
فداريا إلى الغوطة
ب بسط الروض مبسوطة
ر منها خير مهبوطة
به المزن وتنقيطه

وقال فيه الحسين بن الضحاك :

يا دير مران لا عريت من سكنٍ
حتّ المدام فإن الكأس متسرعة
وقال البيضا أبو الفرج عبد الواحد :

ويوم كأن الدهر ساعني به
جرت فيه أفراس الصبا بارتياضنا
بحيث هواء الغوطتين معطر الـ
فمن روضة بالحسن ترفد روضة
وفي الهيكل المعمور منه انتزعتها
ونزهت عن غير الدنانير قدرها
فصار اسمه ما بيننا هبة الدهر
إلى دير مران المعظم والعمر
نسيم بأنفاس الرياحين والزهر
ومن نهر بالغيض يجري إلى نهر
وصحبي حلالاً بعد توفية المهر
فما زلت منها أشرب التبر بالتمر

وقال عون الدين الحلبي الكاتب المتوفى سنة (٦٥٦) وهو مما يستأنس به
من أن هذا الدير كان عامراً إلى أواسط القرن السابع وفيه ذكر ديرين آخرين
وهما دير متى ودير حنين والأول ليس له ذكر في ديرة الشام بل هو من
أديار الموصل ولما كانت القصيدة في التشوف إلى الشام استلزم ذلك أن يكون
دير متى من جملة أديارها التي ضاع اسمها ورسمها قال :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً
إن جزت بالشام شم تلك البروق ولا
واقصد علالي قلاله تلاقٍ بها
من كل بيضاء هيفاء القوام إذا
وكل أسمر قد دان الجمال له
بضامر لم يسكن في سيره واني
تعديل بلغت المني عن ديسر مران
ما تشتهي النفس من حور وولدان
ماست فيا خجلة المران والبيان
وكل الحسن فيه فرط إحسان

ورب صدغ بدا في الخدم مُرّ سلكه
 فليت ريقته وِردي ووجنته
 وعج على دير متى ثم حيّ به الـ
 فهمت منه إشارات فهمت بها
 واعبر بدير حيننا وانتهز فرص الـ
 واستجل راحاتها تحي النفوس إذا

« دير المُغان » بجمص في خربة بني السمط تحت تلهم، وهو دير عظيم
 الشأن عندهم كبير القدر فيه رهبان كثيرة وترا به يختم عليه لاعتقارب ويهدى
 إلى البلاد قاطبة وتتنافس النصارى في موضع مقبرته (ياقوت) .

« دير ميماس » نقلت من ياقوت: بين دمشق وحمص على نهر يقال
 له ميماس وإليه نسب، وهو في موضع نزه، وبه شاهد على زعمهم من حواربي
 عيسى عليه السلام زعم رهبانه أنه يشفي المرضى. وكان البطين الشاعر قد مرض
 فجاءوا به إليه يستشفى فيه فقيل: إن أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد
 واتفق أن مات عقيب ذلك فشاع بين أهل حمص أن الشاهد قتله وقصدوا
 الدير ليهدموه وقالوا: نصراني يقتل مسلماً لا نرضى أو تسلّموا لنا عظام الشاهد
 حتى نحرقها، فرشا النصارى أمير حمص حتى رفع عنهم العامة فقال شاعر
 يذكر ذلك :

يا رحمتا لبُطّين الشعر إن لعبت
 وافاه وهو عليل يرتجي فرجاً
 وقيل شاهد هذا الدير أتلفه
 وأعظمُ باليات ذات مقسدة
 لكنهم أهل حمص لا عقول لهم
 وحكي أن أبا نواس لما دخل حمص ماراً بها دعاه فتى من أدبائها إلى
 دير ميماس ودعا معه أشجع السلمي فجلسوا يشربون وأبو نواس ينشدهم
 له ولغيره فقال أشجع :

صبحت وجه الصباح بالكاس
 ونحن عند المدام أربعة
 ندير حمصية معتقة
 ولم تعفني مقالة الناس
 أكرمُ صحب وخير جلاس
 على نسيم النسرين والآس

ولم يزل مطرباً ومنشدنا أبو نواس في دبر ميماس
 « دبر نجران » بأرض دمشق من نواحي حوران بصرى وهو دبر عظيم
 عجيب العمارة ولهذا الدير يُنادى في البلاد من نذر نذراً لنجران المبارك
 والمنادي راكب فرس يطوف عامة نهاره في كل مدينة مناد، وللسلطان على
 الدير قطعة يأخذها من النذور التي تهدي إليه .

« دبر النقيرة » في جبل قرب المعرة ولا نعرف عنه شيئاً .

« دبر هزقيل » قال الخالدي هو بالشام وذكره دعبل بن علي حين
 هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال :

فكأنه من دبر هزقيل مُفَلَّتْ حنق يجر سلاسل الأقياد

قال ابن فضل الله: ولا أدري في قرب أي مدينة هو .

« دبر يونس » ربما كان في جهات الرملة في فلسطين وقد قيلت فيه
 قصائد كثيرة وما ندري إن كان اختلط بدير في جهات الموصل على
 جانب دجلة الشرقي وموضعه يعرف بنينوى ، ونينوى هي مدينة يونس .
 هذا ما أمكن تلقفه عن الأديار في الإسلام وكان قبل الإسلام أديار مهمة
 ضاعت أخبارها ولا يستغرب ما قيل في هذه الأديار من الأشعار في سالف
 الأعصار. فقد كان المسلمون يختلفون إلى الديرة يجعلونها محال التزّهة لأنها
 في أماكن نزّهة على الغالب تخيّر بانوها مواقعها، وبالنظر لتحريم الحكومات
 الإسلامية في الخمر وإباحة شربها وبيعها لأهل الذمة كان المولعون بالشراب
 من أهل الشأن وخلصاء الشعراء والأدباء يغشون الأديار فيجدون صدوراً رجة
 فيشربون ويطربون ولذلك خص الشعراء تلك الأديرة بأشعار لطيفة وقصائد
 ربما كان فيها شيء من المبالغة ومنها ما نبا عن طور الأدب اليوم ولكنه كان
 من المألوف في تلك العصور .

وفي ديار الشام اليوم ولا سيما في لبنان وبعض أنحاء فلسطين أديار عظيمة
 منها ما ورد ذكره في الجزيدة التي كتبناها هنا ومنها ما هو من البناء الجديد
 وفيها المهم بنيانه وهندسته أشبه بقلاع منه بطرايل وصوامع للمنقطعين للعبادة
 والتبتل وقد ظهر في يوم ٢٧ أيار ١٩٤٥ وقد قذفت فرنسا مدينة دمشق بحمم
 مدافعها أن معظم كنائس دمشق للآتين كان فيها ورشاشات وسلاح قاتلوا
 به السكان وعلى رأسهم الراهبات والرهبان !

المساجد والجوامع

في أول الفتح :

المسجد (بكسر الجيم) البيت الذي يسجد فيه وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد. ويقال مسجد الجامع والمسجد الجامع أي مسجد اليوم جامع. فالمسجد قد يكون صغير المساحة والحجم، والجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع والأعياد. وأول المساجد التي بنيت في الشام على ما يظهر كانت في البلدان التي سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل موثة والجرباء وأذرح وفحل وأجنادين وبُصرى .

ولما كانت السداجة في كل شيء قد غلبت على العرب لأول عهدهم بالإسلام كانت مصانعهم بحسب الحاجة، وإذا كان من الواجب إذا اجتمع بضعة أفراد منهم أن يقيموا الصلاة جماعة لم تلبث المساجد أن كثرت في الشام في المدن والقرى. وكان الفاتحون يصالحون الأهلين إما على النصف من كنائسهم أو على بعضها أو يكتفون بواحدة أو بنصف واحدة كما اكتفوا بكنيسة مار يوحنا من أصل خمس عشرة كنيسة في دمشق وضاحتها. وأعطى أبو عبيدة أهل بعلبك وأهل الرستن الأمان على كنائسهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد في الرستن. وصالح الفاتح أهل حمص على ربع كنيستهم للمسجد وظلت كذلك إلى القرن الرابع وبعض بيعتها المسجد الجامع وشطرها للنصارى وبيعتهم من أعظم بيع الشام. وترك الفاتحون لأهل اللاذقية كنيستهم وبنوا مسجداً جامعاً لصلاتهم ثم وسعوه .

بقيت المساجد على حالة ابتدائية حتى تولى معاوية أمر الشام، وكان بعيد

النظر في العمران، فسمت به همته إلى أن يخرج المساجد من دور التأسيس ويدخلها في مظهر مدني فيه الجلال والجمال. ولم يزل بعثمان حتى أذن له أن يبني المساجد ويكبر ما كان ابني منها قبل خلافته. وهكذا بدأ التوسع في المساجد والجوامع عقيب استقرار الفتح ورسوخ أقدام بني أمية.

واختط سليمان بن عبد الملك لما ولي جند فلسطين مدينة الرملة واختط المسجد وبناه فولي الخلافة قبل استتمامه ثم بنى فيه بعد في خلافته ثم أمته عمر بن عبد العزيز ونقص من الخطة وقال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه. ومعنى هذا أن جوامع القوم ومساجدهم كانت بحسب حاجة من يتزل في كل صقع من المسلمين والتوسع لم يبد إلا مع معاوية بن أبي سفيان وأخلافه .

عرضنا في فصل المصانع لوصف المسجدين الجامعين في هذه الديار المسجد الأقصى وجامع دمشق. ونحن الآن نعرض لغيرهما من المساجد نذكر المهم منها في الحواضر على الأكثر، ونقابل بين قديمها وحديثها، وبديهي أن المساجد لقيت من المصائب السماوية والأرضية ما لقي غيرها من المصانع والعاديات. فإن الزلازل قد نسفت في الإسلام مدناً برمتها فقد تقطع الجبل الأقرع فمات أهل اللاذقية سنة (٥٢٤٢هـ) وخربت طرابلس منه وفي هذا الزلزال خرب معظم الساحل وزلزلة سنة (٤٦٠هـ) خربت فلسطين وزلزال سنة (٥٥٢) خربت به أمهات المدن الشامية وهكذا يقال في معظم الزلازل التي وقعت بعد إلى القرن الماضي ومن أهمها زلزال سنة (١١٧٣) حتى إن من المدن ما لم يبق فيه جدار قائم ولا إنسان سائر. ومساجد الساحل أصيبت في الحروب الصليبية بما نفسها أو غير معالمها فأصبحت كنائس ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أعيدت بعض البيع أيضاً مساجد .

ومن المتعذر أن نعرف ما قام في كل عصر ومصر في الشام من المساجد والجوامع. ومن القرى اليوم ما كان فيه بالأمس عشرة مساجد والعمران يكثر ويقل بحسب حاجة الناس . والغالب أن العناية ببناء المسجد كان لغرض شريف للغاية بادئ بدء يراد به وجه المولى وثواب الآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين. فلما أوغل الناس في مضممار الحضارة كان من البائين من يجمعون

بين الدين والدنيا إذا تعلقتم همهم أن ينشئوا لهم جوامع يقصدون بها تخليد ذكرهم ونيل الثواب والأجر. ثم أتت قرون وقد أخذ بعض الناس ولا سيما الحكام يعمرن المساجد ويقفون عليها حتى يحفظوا بحجتها بعض ثرواتهم لندراهم، وفي هذه العصور الأخيرة وقع التخليط وكثرت المنافسة في إقامة المساجد والجوامع، حتى في الأماكن التي لا يحتاج فيها الناس إلى مساجد كثيرة إما لكثرتها أو لقلّة المصلين في جوارها. وأشبهت دمشق القاهرة في عهد المماليك وبعدهم، فكانوا يعمرن الجامع قرب أخيه على أشبار قليلة منه. وما حدثت البانين أنفسهم أن يشترك في إقامة مسجد جامع بضعة من أهل الخير أو عشرات منهم، لأن المقصد الأول استحال في الآخر إلى إحراز شهرة وإذا عمر إنسان جامعاً بالاشتراك مع غيره يضيع اسمه، وغايته أن يقال بنى فلان مسجداً، وهذا مسجد فلان، أو أن ينتفع هو أو أولاده بمغل وقف الجامع.

وكان للملوك والأمراء في كثرة المساجد وقتها يد طولى ومنها أن الملك أو الأمير أو غيره من طبقات الحكام والولاة إذا آنس منه قومه رغبة في الاستكثار من المساجد والقربات جاروه على أفكاره وتقربوا إليه بمثل هذه الأعمال الصالحة، وربما تقاضاهم هو ذلك سراً حتى يستخرج بذلك أموالهم وتوزع في الرعية فلا تجمد الثروة في يد واحدة. قال ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٤٤): لما كانت الملوك السالفة تهوى التزه والطرب عمرت في أيامهم بولاق وبركة الرطلي وغيرها من الأماكن، وقدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين وأمثالهم من المغاني والملاهي إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة، والعفة عن المنكرات والفروج، وأخذ في مقت من يتعاطى مسكرات من أمرائه وأرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم وتصلح وتزهد، وصار كل واحد يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، فمنهم من صار يكثر من الحج، ومنهم من تاب وأقلع عما كان فيه، ومنهم من بنى المساجد، ولم يبق في دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة.

مساجد حلب :

في حلب اليوم ١٦٩ جامعاً و١٨٢ مسجداً ومنها الجيد بنيانه، وأعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا في غربي القلعة. صالح المسلمون أهل حلب على موضع المسجد الجامع يوم الفتح، وكان محله حديقة كنيسة الروم القديمة التي بنتها هيلانة أم قسطنطين. قالوا: إنه كان يضاهي جامع دمشق بالزخرفة والرخام والفسيفساء، وإن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق. وقيل: إن بانيه الوليد نفسه، وإن بني العباس نقضوا ما كان فيه من الرخام والآلات ونقلوه إلى جامع الأنبار في جملة ما نقضوا من آثار بني أمية بالشام. ولما جاء الروم حلب سنة (٣٥١) أحرقوا الجامع والبلد فرم بعضه سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة، وأحرقته الإسماعيلية سنة (٥٦٤) مع الأسواق التي حوله فعمره نور الدين زنكي وقطع الأعمدة الصفر من بعادين ونقل إليه عمد مسجد قنسرين، وأحرقه الأرمن سنة (٦٧٩) أيام كانوا محالفين للتر. و عمره قراسنقر سنة (٦٨٤) وبني فيه غيره بعض جهات منه مثل الأمير ألتون بغا الصالح نائب حلب والأمير يشبك اليوسفي .

ويقول العارفون بالآثار: إن بناء الجامع الحالي قد قام على الصورة التي عملت عليه زمن سابق بن محمود بن أبي مرداس (٤٦٨ - ٤٧٢) على يد القاضي ابن الخشاب وإن في أسفل المنارة كتابة تاريخها سنة (٤٨٣) ذكر فيها اسم ملكشاه وابن الخشاب وفي جهة أخرى ذكر اسم تتش أخو ملك شاه ويستدل من مجموع البناء، وليس في جدرانها من كتابة مزبورة، أن هذا الطراز قديم صبر على الدهر. ومحرا به من عهد قلاوون والمنبر من عهد الناصر محمد، ويرد عهد الباب الأوسط للحرم إلى أوائل زمن المماليك وإن كانت فيه كتابات أحدث من عهد السلطان مراد الثالث (٩٩٦). وأسس المنارة المربعة ذات الخمس طبقات القاضي ابن الخشاب سنة (٤٨٢) وهي منقوشة أبدع نقش وهي بما كتب عليها من الكتابات الكوفية والنسخية المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية. قال أبو الفداء: وكان بحلب بيت نار قديم ثم صار أتون حمام فأخذ ابن الخشاب حجارتها وعمر منارة جامع حلب .

وصف ابن جبير في القرن السادس جامع حلب بقوله: وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها وقد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتوح كله أبواباً قصرية الحسن إلى الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفي صحنه بئران معيتتان، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائع الانشراح. وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله، وغرابه صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصنعة الغربية، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية، وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبداع منظر يكون في الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف اه.

هذا وصف المسجد الجامع وما كان فيه وليس هو بالعظيم كمسجد دمشق أو المسجد الأقصى وقد رمم في أوقات مختلفة. وفي حلب جامع الصالحين جنوبي المدينة أنشئ سنة (٤٧٩) أنشأه أحمد بن ملكشاه ومحراه مهم في بابه. وأول جامع بني بجلب فيما قالوا بعد الجامع الكبير جامع أطون بغا الصالحي تم سنة (٧٢٣) وفيه يقول ابن حبيب:

في حلب دار القرى جامع	أنشأه	ألطنبغا	الصالحي
رحب الذرى يبدو لمن أمه	لطف	معاني	حسنه الواضح
مرتفع الرايات يروي الظما	من	مائه	السارب والسارح
يهدي المصلي في ظلام الدجى	من	نوره	اللامع واللائح
من حوله روض يرى للورى	من	زهرة	بالفائق الفائق
لله بانيسه الذي خصه	بالروح	للغادي	وللرائح

وعد ابن الشحنة من أحسن الجوامع التي بنيت على أجمل الوجوه جامع منكلي بغا الشمسي نائب حلب عمر (٧٧٨). وعد ابن شداد في باطن حلب مائتي مسجد وسبعة عشر مسجداً داخل سور البلد منها ما نسبه لمنشئه ومنها

ما عرفه بالخطة التي هو فيها. وذكر المساجد التي بأرباض حلب وذكر منها ما هو بالحاضر السليمانى مائة مسجد وعشرة مساجد، وذكر مساجد الرابية وجورة جفال فعدها مائة وثمانية وستين مسجداً وأتى على ذكر المساجد التي بالظاهرية فعدها تسعة وتسعين مسجداً وعد بالرمادة أربعة وثلاثين مسجداً . وعد ببايقوسا ثلاثة عشر مسجداً وبالفرافرة اثني عشر مسجداً وبالضيق ستة عشر مسجداً وبالقلعة عشرة مساجد. قال ابن الشحنة وعنه لخصنا احصاء ابن شداد لمساجد حلب : فجملة هذه المساجد التي داخل حلب وخارجها إلى حين تأليف ابن شداد كتابه سبعمائة وخمسة وعشرون مسجداً. وقد بنى بعض الولاة الأول في الدولة العثمانية جوامع في حلب منهم جامع خسرو باشا (٩٣٨) وجامع عادلي محمد باشا (٩٥٧) وجامع بهرام باشا (٩٨٨) وابشير مصطفى باشا (١٠٦١) وجامع عثمان باشا (١١٥٠). ومن جوامع حلب التي بقيت عليها بعض الكتابات الحثية جامع القيقان ومن جوامعها الأطروش واشتهر بكتاباتة ونقوشه جامع البيادة في شمالي غربي القلعة .

جوامع عمالة حلب :

قامت في أنحاء حلب مساجد كثيرة ومنها مساجد قنسرين وهو البلد القديم الذي كان في الإسلام بمثابة حلب فخرّبه سيف الدولة سنة (٣٥١) أو (٣٥٥) وأحرق مساجده، لما نزل الروم حلب وقتلوا جميع من كان يربضها وذلك خوفاً من سقوطها في أيدي أعدائه. وأنشئت في أنطاكية عدة جوامع بقيت منها بقايا على ما انتابها من الزلازل وأهمها اليوم جامع حبيب النجار والجامع الكبير والشيخ علي والذخرية. وفي أنطاكية لعهدنا ١٣ جامعاً و٢٧ مسجداً ومجموع ما في عملها ١٣٥ مسجداً وجامعاً وزاويةً وتكية. وأنشئت منذ الفتح جوامع في مدينة المعرة وصف ناصر خسرو في أواخر منتصف القرن الخامس جامعها الأعظم فقال: إنه مبني على أكمة قامت وسط المدينة ومن أي جهة أتجهت إلى هذا الجامع كان عليك أن ترتقي سلماً ذات ثلاث عشرة درجة. وقد خربت المعرة بدخول الصليبيين، ثم عادت إليها بعض حياتها وفيها اليوم ٢٣ جامعاً ومسجداً أهمها الجامع العمري الكبير تقام فيه الجمعة دون غيره

من المساجد. ومجموع ما في عمل المعرة ٤١ مسجداً وجامعاً. وفي عمل جبل سمعان اليوم ١٨٣ جامعاً ومسجداً، وفي بيلان ٥ مساجد وجوامع. وفي قضاء إدلب ٣٧ مسجداً وجامعاً وجامعها في القصبية من عهد الفتح يسمونه العمري. وفي معرة مصرين وعملها ١١ جامعاً ومسجداً، وفي حارم جامع ومسجد وفي عملها عدة جوامع ومساجد وكذلك في اعزاز، وفي قضاء الباب ١٥ جامعاً ومسجداً وفي بزاعة وجسر الشجر ومعرة مصرين وسرمين وجبرين وسلقين وخنصرة والفوعة وأرمناز وديركوش والجبول والأثارب ودانيث وكلز وغيرها من البلدان القديمة مساجد وجوامع. ولا تكاد تخلو في يومنا هذا كل قرية من مسجد إلا إذا كانت مزرعة حقيرة لأحد أرباب الأملاك. وفي الشجر اليوم ثلاثة جوامع وخمسة مساجد ولا تخلو المدينة التي كانت عامرة جداً ثم خربت عن آخرها مثل بالس (مسكنة) ومنبج مثلاً من مساجد لا بأس بها .

ولقد تقلبت الأيام بهذه المساجد والجوامع فكثرت في الأماكن التي اشتدت إليها الحاجة وقلت حيث قل العمران وابتدع السكّان. فقد كانت سرمين مثلاً على طرف جبل السماق من المدن ولها مساجد كثيرة روى ابن شداد أن عددها كان ينيف على ثلاثمائة مسجد، قال: وليس بها الآن أي في عهده مسجد يصل في غير الجامع وأكثر أهلها إسماعيلية ولهم بها دار دعوة. وسواء كان هذا العدد مبالغاً فيه أو غير مبالغ فالحق أن الجوامع والمساجد كثرت في الأعصر السالفة في هذه الأرجاء بكثرة السكان وتوفر خيرات الأرض ثم لما خربت المدن دع القرى تراجع أمر بيوت العبادة .

ومن الجوامع القديمة في هذا الصقع جامع اعزاز عرف بالجامع الكبير قال الغزي: وهو صحن واسع فسيح في شماليه رواق وفيه مأذنة ضخمة وفي وسطه حوض يهبط إليه بدركات تجري فيه قناة جرّها إليه إسماعيل بن عبد الله العزازي المتوفى سنة (٧٤٨) وفي جنوبي صحن الجامع قبلية يبلغ طولها نحو ٥٠ في عرض ١٥ ذراعاً سقفها قباب محمولة على أعمدة ضخمة وقد كتب غلي باب الجامع المتجه إلى الغرب: بسم الله الرحمن الرحيم في سنة (٦٤٤) أمر بعمله مولانا السلطان العالم العادل الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن أيوب ناصر أمير المؤمنين خلد الله ملكه .

مساجد الساحل وجوامعه :

لما كانت مدن الساحل معرضة لهجمات الأعداء كل حين، وكانت الزلازل قد توالى عليها كثيراً وظلت مسرحاً للجيوش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع والمساجد فيها ما أصاب غيرها من العمائر، فليس في الإسكندرونة اليوم سوى جامعين وفي عمالتها بعض المساجد الحقيمة، وكذلك الحال في السويدية واللاذقية والمرقب وطرطوس وجبلة وبانياس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة، خربت جوامعها ومساجدها وعمرت غير مرة في الإسلام. ففي اللاذقية اليوم عدة مساجد وفيها جامع جميل مطل عليها من الهضبة المطللة على الثغر ولها منارة جميلة. وأهم جوامع اللاذقية جامع المغربي ومن جوامعهم جامع الحديد والكبير المنصوري وأرسلان باشا والصليبية وصوفان والشيخ ضاهر وجامع الاسكلة والشواف والصغير، وفي اللاذقية اثنا عشر مسجداً غير هذه الجوامع. وفي جبلة جامعان وهما جامع السيد إبراهيم والمنصوري ومن مساجدها القنطاري وبنى علي أديب والغزالي والأكراد وجامع واحد في بانياس، وفي طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة كاتدرائية، وفي صافيتا جامع وثلاثة مساجد في جوارها .

وفي طرابلس^(١) عدة جوامع ومساجد ومعظمها من آثار المماليك البحرية والجراسية، وما تجدد بعدهم فقليل جداً بالنسبة لآثارهم في هذه المدينة، وأكثرها لم يذكر عليه اسم بانيه. ولا ريب أن البواعث كانت دينية محضة ورغبة في ثواب الله بدار الآخرة فكان عدم ذكر الباني على البناء أبعد عن السمعة والرياء، وكان الأمير أو المتمول منهم إذا شيد مسجداً للصلاة جعل في أحد أطرافه مشهداً ليدفن فيه عند موته ولم يزل إلى الآن كثير من قبور المماليك الرخام محفوظاً في المساجد التي أقاموها على الطراز المخصوص بهم كأن يجعلوا في كل زاوية من زوايا القبر قاعدة بارتفاع ثلاثين سانتيماً وأعلىها كروي. وللمماليك من نوع هذه القبور في دمشق صنوف. وإن ما بقي إلى اليوم من القسيساء في محاريب تلك المساجد وجدرانها آية في الإبداع وحسن الصناعة .

(١) كتب وصف جوامع طرابلس السيد محمد كامل بابا .

ومن أعظم جوامع هذا الثغر الجامع الكبير بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفي على ما يرى في الكتابة المحضرة فوق باب الجامع الشمالي وذلك في سنة (٥٦٩٣هـ) وكان متولي العمارة سالم الصهيويني ابن ناصر الدين العجمي وفي سنة (٧١٥) وعلى عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة بنيت بأمره الأروقة المحيطة بصحن المسجد أيام نيابة المقر السيفي كستاني الناصري وكان متولي العمارة أحمد بن حسن الحرلبعليلي وتسميه أهالي طرابلس الجامع المنصوري وهو غلط بين لأن الملك المنصور قلاوون هو أبو الأشرفي باني الجامع المذكور .

ومنها جامع طينال وتسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال مملوك محمد الناصري وحاجبه وكان قد تولى ولاية طرابلس مرتين وبني الجامع المذكور للمرة الثانية سنة (٧٣٦). وفي منارته هندسة لطيفة ولها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر، فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعداً أعلاها وإذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد وعلى هذه الصورة فباب المنارة السفلي الخارجي أدنى من أرض المسجد بقدر قامة الإنسان .

ومن جوامعها جامع أرغون شاه وتسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الآخذة لبحانة باب الرمل ولا يعلم تاريخ بنائه وفوق بابه كتابة حفرت أيام قايتباي من المماليك الجراكسة سنة (٨٨٠) يأمر فيها بحماية زراع أراضي الوقف للجامع المذكور وتسليمها إلى محمود الأدهمي الحسيني وقد بني هذا الجامع حديثاً بعد سقوطه ووضعت له التساقل الحديدية لجر المياه .

ومن جوامعها جامع التوبة وهو ملاصق للجسر الجديد على نهر أبي علي ومن الثابت أنه بني أيام دولة المماليك وطرز هندسته يشبه الجامع الكبير من وجوه كثيرة وقد جدد بناءه بعدما تهدم من الفيضان الكبير الذي وقع في طرابلس سنة (١٠٢٠) أحمد بن محمد الشربداري الأنصاري كتخدائي حسين باشا السيفي، وتم بناؤه في شهر ربيع الآخر سنة (١٠٢١) والكتابات الأثرية التي عليه يرجع تاريخها إلى سنة (٨١٧) أيام دولة المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي من المماليك الجراكسة .

ومن جوامعها جامع المعلق بناه محمود بن لطفی الزعيم سنة (٩٦٧) أيام سليمان القانوني وهو في محلة بوابة الحدادين. وجامع العطار وسط البلد بقرب محلة الملاحه والمشهور عند أهالي طرابلس أنه كان كنيسة في زمن الصليبيين ثم تحول إلى جامع بعد الفتح الإسلامي وكان قد تداعى بناؤه، فأقيم وفي أعلى بابه الشرقي مكتوب هذا التاريخ « البسمله. هذا الباب المبارك والمنبر من عمل المعلم محمد بن إبراهيم المهندس في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ». وجامع البرطاسي في جانب الجسر العتيق على نهر أبي علي وفي الكتابة التي فوق بابه يقول: بنى هذه المدرسة عيسى بن عمر البرطاسي ووقفها على المشتغلين بطلب العلم على مذهب الإمام الشافعي ولم يعلم الزمان الذي تحولت فيه إلى جامع وقد ذهب من أصل الكتابة التاريخية القسم الذي يذكر به زمن البناء غير أن أسلوب تلك الكتابة وطرز بنائه الفخم ودقة الفسيفساء التي على محرابه وفي أرضه تدل على أن بانيه من الأثرياء أيام دولة المماليك البحرية. وجامع الأويسية بني في دولة المماليك غير أنه لم يكن عليه كتابات تاريخية إلا ما كان في أعلى منارته وفيها ذكر أنه جدد بناءها أيام السلطان سليمان القانوني سنة (٩٤١) رجل اسمه حيدرة وفي وقفية الجامع أن اسم بانيه محيي الدين الأويسية .

وجامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة بناه عبد الواحد المغربي المكناسي أيام السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة سنة (٧٠٥) وعليه زبرت كتابة تشعير بذلك. وجامع التفاحي ويسمى اليوم بالحميدي لم يبق من بنائه الأصلي أثر وتجدد بناؤه حوالي سنة (١٣١٠) بمعاونة أهل الخير وإعانة السلطان عبد الحميد الثاني فنسب إليه. وجامع محمود بك السنجق وهذا بناه في طرف البلد تقريبا للجهة الشرقية بالمحلة المعروفة بباب التبانة سنة (١٠٢٠) في عهد السلطان أحمد من ملوك بني عثمان ووقف عليه أوقافاً كثيرة لم تزال قائمة إلى الآن. وجامع الطحام داخل البلد ولم يعلم اسم بانيه ولا تاريخ بنائه وشكله وطرز منارته يدل على أنه بني زمن المماليك .

هذه جوامع طرابلس وقد وصف ناصر خسرو المسجد الأعظم فيها أواخر النصف الأول من القرن الخامس بقوله: والمسجد الأعظم قائم في وسط المدينة وهو جميل للغاية، مزدان بأحسن زينة، ومبني على غاية القوة

والمئات، وفي صحنه قبة عظيمة تعلو حوضاً من المرمر في وسطه فوارة يخرج
ماؤها من منقار نحاس أصفر اه. والغالب أن هذا الجامع خرب بخراب تلك
المدينة بعد .

وفي جبيل جامع قديم هو مما اتخذ جامعاً بعد الحروب الصليبية. أما مدينة
بيروت فكانت فيها جوامع صغيرة بعد الفتح ولم تكن بيروت بالثغر العظيم
إذ ذلك ولم يكن للمسلمين جامع فيها أيام استيلاء الصليبيين عليها، فلما انتزعت
منهم أخذوا كنيستهم وجعلوها جامعاً، وهي تعرف بكنيسة مار يوحنا الصايغ
ويقال لها جامع النبي يحيى أو الجامع الكبير اليوم. وبنى فيها الأمير منصور
عساف جامع السراية. وكان جامع الخضر كنيسة للموارنة باسم مار جرجس إلى
سنة (١٦٦١م) فأخذه أحد باشاوات الترك وجعله جامعاً. ومنها جامع المجيدية وغيره
ومجموع ما في بيروت اليوم من المساجد والجوامع ثلاثون جامعاً ومسجداً .
وفي صيدا سبعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير جامع يحيى وكان
كنيسة على الغالب باسم مار يوحنا وفي صور مسجد جامع. وفي عكا بضعة
جوامع أهمها جامع الجزائر، وفي حيفا وعملها عدة جوامع ومساجد، وفي يافا
وعملها كذلك وجوامع يافا قديمة في الحملة، وفي غزة اليوم عدة جوامع
ومساجد. وقد أعجب الظاهري في القرن التاسع بجوامع غزة، وكان مسجدها الجامع
من الكنائس المهمة في القرن الثاني عشر للميلاد على اسم القديس يوحنا
المعمدان، وكان كاتدرائية لأسقف الروم، وفيها جامع هاشم وجامع باب الداروم
وغيره من الجوامع التي فيها نقوش بديعة وأنقاض تدل على مجد قديم .

جوامع المدن الداخلية :

وفي الخليل و(حبرون) جامع فيه مقام الخليل إبراهيم في مغارة تحت
الأرض. قال شيخ الربوة: ومن المباني القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله
ثمانون ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً، في الطول منه عشرون حجراً مدماكاً
واحداً، وداخل المقام نصب على الضريح كل واحد حجر واحد، الطول
أربعة أذرع والعرض ذراعان ونصف والسّمك مثلها وأزيد. ويحتوي اليوم
سور الخليل على أساس يبلغ علوه ١٢ متراً وحجارته ملساء عليها مسحة

الأمبراطور هيرودوس . وقد بنى هذا الجامع الصليبيون من سنة (١١٦٧) إلى (١١٨٧) ، وربما كان إنشاؤه مكان كنيسة يوستينانوس وجدده المسلمون بعد ذلك . وأقدم ما في الجامع من الترميمات ما قام به قلاوون من سلاطين المماليك . وفي القدس عدا المسجد الأقصى ثمانية جوامع وهي جامع عمر بن الخطاب تهدم ومكانه الآن كنيسة القديسة حنة شمال كنيسة ماريوحنا والجامع الباقي مع المأذنة من آثار قلاوون (قاله الأستاذ البرغوثي) وجامع عكاشة وجامع سوق البيزار وجامع سلمان الفارسي وجامع الشيخ جراح وجامع سوقة علوان وجامع الخانقاه بالصلاحية قرب الكنيسة وجامع باب خان الزيت . والجوامع الحربية أيضاً تسعة وهي جامع بحارة الخدادين ، وآخر قرب دير اللاتين وثالث قرب بطريركية دير اللاتين ورابع اسمه الحيات وخامس جامع اليعقوبي قرب القلعة وجامع قرب دير الأرمن ومثله على مقربة من دير السريان وغيره في حارة اليهود وجامع الأزرق . وهناك ثلاثة جوامع معمورة أيضاً وهي جامع السبيل وجامع لؤلؤ وجامع أبي قصبه . وبعض هذه الجوامع لا شأن له من حيث النظافة والإتقان شأن المصليات البسيطة .

وفي الرملة عدة جوامع ومساجد قال ناصر خسرو في مسجدها الجامع : إن في وسطه صهاريج واسعة وإن مساحته ثلاثمائة قدم في مائتين . وقال الظاهري : إن من جملة مزاراتها الجامع الأبيض عجيب من العجائب . وكان فيها منارة من عجائب الدنيا بناها قلاوون . وفي لدة عدة جوامع ومساجد وكان بها في القرن الرابع جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبه وما حولها من القرى وجامعها الكبير اليوم من عهد الصليبيين كان كنيسة . وفي نابلس تسعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير ومسجد أولاد يعقوب وجامع النصر والخضراء والجامع الكبير بناه يوستينانوس . وعلى قيد غلوة من أرسوف بقايا حرم سيدنا علي بن عليل أو عليم . وفي قاقون بنى الملك الظاهر بيبرس جامعاً . والظاهر هذا جدد وبني عدة مساجد وجوامع في الشام ومثله قلاوون وتنكز من المماليك . وفي طور كرم وجنين عدة مساجد وجوامع أكثرها محدث .

ومن الجوامع التي رماها ديوان الأوقاف في فلسطين في العهد الأخير جامع المنشية والعجمي والبحر وأرشيد والطايبه في يافا ، وجامع العصا في الرملة ،

وجامع لدّ. ومقام النبي يحيى في قرية المزيرعة ومقام النبي روين وجامع سويقة علّون وجامع باب خان الزيت والزاوية النقشبندية وجامع سعد وسعيد، وجامع بيت لحم ومقام النبي شموبل في القدس وأرباضها. ورمت الأوقاف في نابلس جامع النصر والجامع الكبير الصلاحي وجامع العين وجامع التينة. وجامع قرية رفديا وقرية عقربة وقرية عصيرة الشمالية وقرية صيدا وجامع البئر في قرية زواتا وجامع سبسطية وجامع قرية برقة. وأجريت عدة إصلاحات في جامع الجزائر في عكا وأنشئ في حيفا جامع الاستقلال. وأصلحت الأوقاف الجامع الكبير في غزة أصابه خراب كبير بسبب معارك الحرب العامة « وهو من المساجد العظمى في فلسطين فخم البناء كبير القيمة الأثرية جميل الشكل والهندسة يحتوي على عدة سلاسل من العقود الحجرية » وأصلح جامع سيدنا هاشم وجامع ابن عثمان وجامع المجدل وحرم سيدنا زكريا في الخليل، وشرع أهالي الخليل ينشئون مسجداً فساعدهم المجلس الإسلامي الأعلى .

وكانت المدن القديمة غاصة بالجموع مثل قيسارية وأرسوف فذهبت بذهاب عمرانها. وفي طبرية اليوم جامعان قديمان الجامع الفوقاني من بناء عرب الزيادة عام (١١٥٦) والثاني جدد بناؤه عام (١٢٨٠). وفي صفد عدة جوامع ومساجد. وفي قلعة الشقيف بنى الظاهر بيبرس جامعاً وكانوا يقيمون الصلوات في القلاع أيضاً، كما بنوا جوامع لهم في قلعة دمشق وفي قلعة حلب . وفي صرخد عمر الظاهر بيبرس جامعاً، وكذلك فعل في بصرى وعجلون والصلت، وفي هذه البلدان اليوم مساجد صغيرة فقد قضت الأيام على المساجد المهمة. وفي عمان جامع ومسجد وكان فيه في القرن السابع « جامع ظريف في طرف السوق مسقف الصحن شبه مكة ». وقد أنشئ فيها في العهد الحديث جامع فخم .

وللدروز في الشوف من لبنان ووادي التيم الأعلى والأسفل ومرجعيون وصفد وضواحي دمشق وبيروت والجبل الأعلى وفي بعض قرى عكا خلوات أشبه بالمساجد لا منابر لها ولا مآذن، يجتمع فيها خاصتهم ليلة الجمعة ويسمونها مجالس كما أن للنصيرية (العلويين) في جبالهم خلوات صغيرة ذات قباب تكون على الغالب في أطراف قراهم، وكذلك لا تخلو أكثر قرى المتأولة

(الشيعة) في جبل عامل من مساجد صغيرة لهم لا مآذن لها ولا منابر، ومنها ما يسمونه « حسينية » نسبة للحسين بن علي رضي الله عنهما يقيمون فيها المآتم عليه في أوقات لهم مخصوصة. وفي بعلبك عدة جوامع ومساجدها بقي بعضها من عهد عزها. أيام غلبة مذهب أهل السنة والجماعة على سكانها أكثر من التشيع. وللإسماعيلية مجالس أيضاً كما للنصيرية .

ولقد زين بعض عمال السلطنة العثمانية للسلطان عبد الحميد الثاني أن يبني جوامع ومساجد في جبال النصيرية وجبل الدروز عسى أن يثوب أهلها إلى مذهب أهل السنة والجماعة، بنيت عدة جوامع في هاتين المقاطعتين، منها أربعون جامعاً في جبال العلويين على أمل أن يعود النصيرية والدروز إلى التسنن، فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين، فلما آتسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة أتى جهلاء النصيريين والدروز على ما بني من المساجد الحديدية ودمرها عن آخرها ودنسوا كرامتها بما لا يليق.

ومن الكتابات الأثرية في بعلبك ما زبر فوق باب قبة الأئمة على رابية الشيخ عبد الله « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الاسفسهلال الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ ابن عبد الله المعري الملكي الأحمدي، ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحساب، في سنة ست وتسعين وخمسمائة » .

وكتب في جامع الحنابلة ببعلبك هذا: « بسم الله الرحمن الرحيم. جُدد هذا المكان المبارك في أيام مولانا السلطان الأعظم، شاهنشاه المعظم مالك رقاب الأمم، سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم، الملك المنصور سلطان الإسلام والمسلمين، قانع الكفرة والمشركين، محيي العدل في العالمين، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، أبي المعالي قلاوون قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه، وشد أزره ببقاء ولده وولي عهده، مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين، وأدام نصرهما، وجعل البيسطة ملكهما، بتولي الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة ومدينتها، ونظر القاضي بهاء الدين بن خلكان وذلك في العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ثنتين وثمانين وستمائة والحمد لله وحده » .

والمساجد في لبنان قليلة جداً أنشئ بعضها حديثاً كجامع عالية، وأهم الجوامع في هذا الجبل جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعني وعهدي به والمسيحيون من أهل جواره يحافظون عليه إذ ليس هناك من يصلي فيه من أهل الإسلام. وقد كتبت على واجهته كتابتان هكذا بالخط العربي النسخي، الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم. في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب». والثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم. في بيوت أذن الله ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار. عمر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله العظيم ورجاء لثوابه العميم العبد الفقير إلى عفو ربه القدير المقر الفخري الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس ابن معن غفر الله له .

وكتب في ٥ من شهر الله المحرم الحرام من شهور سنة تسع وتسعين وثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وكانت الجوامع في حمص مهمة للغاية أوائل الإسلام وقد صالح المسلمون أهلها على ريع كنيستهم وكانت «على أربعة أركان وذلك من عجائب بنيان العالم» ومسجدها اليوم وسط السوق وليس بالكبير وفيه عقود وعمد ومحراب مزين بالفسيفساء المذهبة القديمة. وفي جهة أخرى محراب قديم معمول بالفسيفساء أيضاً. وأكد الأثريون أن بناء هذا الجامع هو من بناء الكنييسة، والغالب أنه جدد في أدوار مختلفة من عهد نور الدين زنكي إلى زمن قريب. ولا تزال في حمص منارة مأذنة من بناء بكجور الذي استولى على المدينة سنة (٣٦٧) وعليها كتابة مفيدة في باب الهندسة العربية. ومن جوامع حمص المهمة جامع سيدنا خالد خارج البلد جدد بناؤه مؤخراً وأنشئت له مأذنة على الطرز الرومي. ولم يثبت كون المدفون في هذا الجامع هو خالد بن الوليد الفاتح، لأن هذا على أغلب الروايات مات في مدينة الرسول والغالب أن هذا القبر

هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية على ما أكد ياقوت قال: وهو الذي بنى القصر بحمص وآثار هذا القصر في غربي الطريق باقية. وذكر المؤرخون أنه كان في جامع حمص عمود يقال: إنه من الكحل الأصفهاني .

وفي حماة ٣٤ جامعاً و ١١ مسجداً ومن أهمها جامع النوري بناه نور الدين زنكي سنة (٥٥٩هـ). ومنها جامع أبي الفداء الشهير بجامع الدهشة أو الحيات. وقد وصف الأثري هرزفلد المسجد الجامع في حماة وهو الجامع الكبير فقال: إنه أصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة، وثماني دعائم، وخمس قباب، ومن كل ناحية خمسة عقود أو أقبية. ويظهر أن الحائط الغربي كان حائط رواق الكنيسة، والحائط الجنوبي من العهد السابق للنصرانية، كما هو الحال في جامع دمشق كان معبداً ثم بيعه ثم جامعاً. وإلى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة وهي مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس، وتحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة، وهناك سدة بمحرايين أمام الحرم وسدة أخرى لها حوض ماء، ومحراب منفرد في الرواق الشمالي، وخزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة، وفي الرواق الشرقي تربة ومصلى ولها نوافذ صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك، ومن الرواق الغربي يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود الثالث (٦٨٣ - ٦٩٨) وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش، وهناك منارة ثانية قامت في الخارج وسط الرواق الشمالي ويستدل من كتابته وشكله أنه من زمن المماليك، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجلياً عظيماً، وذلك أن ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بألوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم في صنعها بين الحجر البركاني الأسود والحجر الكلسي الأبيض .

وفي الجامع النوري على الشاطئ الأيسر من العاصي في أرض منحدرية وعلى بناء تحتي عال بني هذا الجامع على عهد نور الدين، وعلى ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم، ولا سيما على طول الحرم، والعقود فيه حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع، وكذلك ثلاث قباب من الرواق الشمالي مختلفة الأشكال والأبنية التحتانية من الجهتين

الشرقية والشمالية والحائط الخارجي الشمالي من الجامع ربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد أيضاً. وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب ويرد إلى زمن نور الدين ثم محراب مزين أجمل زيتة له سوار من الرخام المجزع من زمن الملك المظفر تقي الدين (٦٢٦ - ٦٤٢) وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو سوار من المرمر زُبر في تيجانها اسم أبي الفداء .

والجامع الأول هو الذي قام على أنقاض الكنيسة أو حوّل منها في زمن الفاتح، وهو جامع السوق الأعلى وجدّد في خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه ، ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه وبنى مدرسة بجواره، ثم أتى إبراهيم الهاشمي فأنشأ منارته الشمالية سنة (٨٢٥) كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها، ومن بنائه الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ورواق الجامع أيضاً بناه سنة (٨٣٢)، وجامع الحيات أو جامع الدهشة الذي بناه الملك المؤيد وبنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعي ملتفة ولهذا يسمى جامع الحيات. وقد نقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وأرضه وعمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق، غير أنهما هدمتا وأدخلتا في البستان المجاور له، ولم يبق غير الشباكين. وذهبت خزانة الكتب الموقوفة وكان فيها سبعة آلاف مجلد. ويرى الداخل إلى حرمه حتى اليوم زناً على ساريتين محفوراً من الرخام وصورته :

« أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا والدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب في شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة » .

ومن الجوامع في حماة جامع السلطان في محلة الدباغة وهو متسع، بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء على هيئة جامع الدهشة وفي كل منهما رخام محفور بالآيات القرآنية كتبها يد واحدة، وله رواق كبير وفي محرابه كتبت آيات بالخط الكوفي. وفيها جامع العزة بناه محمد بن حمزة

العزي سنة (٧٢٣) وهو مهجور. وفيها جوامع بناها بعض آل الكيلاني الذين سكنوا حماة منذ القرن السابع ولها أوقاف عظيمة دارة إلى اليوم. ومن الجوامع الحديثة جامع الحميدية الخ .

جوامع العاصمة وضواحيها :

إذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموي مفخرة دمشق على توالي الأيام والمعدود من المصانع العظيمة في العالم، وعمدنا إلى وصف بعض جوامع العاصمة ومساجدها نجد عدد المساجد في العهد الأخير بحسب إحصاء ديوان الأوقاف ثمانية وخمسين مسجداً وجامعاً، منها جامع الباشورة في الشاغور ومسجد الحديد في مسجد الأقباب وجامع الأتابكية في الجركسية بالصالحية وجامع حسان في القماحين بباب الجابية ودرويش باشا في الدرويشة (٩٨٢) واسمه القديم الانحصافية وسعه درويش باشا، وجامع الدقاق في الميدان الفوقاني والركنية في الصالحية ومسجد رسم في العقبية وزيد بن ثابت في باب السريجة وجامع السقيفة في العمارة وجامع سيدي بشارة في باب المصلى وجامع سيدي صهيب في الميدان التحتاني وجامع السنجدار وشادي بك في القنوات والطاغوسية في البحصنة والعداس في القنوات ومسجد العداس الصغير في العمارة وجامع عبد الغني النابلسي في الصالحية وجامع برسباي المعروف بجامع الورد في سوق ساروجا (٨٥٢) وجامع كافل سيباي في الدرويشية .

وفي هذا الإحصاء نظر لأن جوامع دمشق ومساجدها أكثر من ذلك ولعل من مصلحة الأوقاف أن تقلل من عددها لكي يتسع لها المجال أكثر مما اتسع لاستصفاة وقوفها فقد فاتها في هذه الجريدة ذكر جامع السنانية عمره يوسف عبد الله سنان باشا سنة (٩٩٩) في محل مسجد البصل وجامع يلبغا أنشئ سنة (٨٤٧) وجامع التوبة في العقبية وجامع الجراح في باب الصغير عمره الملك الأشرف موسى (٦٣١) وله منبر جميل مهم. وجامع الحديد وهو جامع المعلق بين الحواصل أجمل بناء في دمشق جده نائب الشام سنة (١٠٥٨) ويظن أن أصله من القرن السابع أو السادس. وجامع الحنابلة في الجبل ويقال له جامع المظفري أنشأه ابن قدامة المقدسي (٥٩٨) وأتمه الملك المظفر كوكبوري صاحب إربل وهو جامع جليل .

ومن الجوامع الجليلة جامع المرادية في السويقة له منبر ومحراب بديعان .
ومنها جامع منجك في الميدان أنشأه الأمير إبراهيم بن سيف الدين منجك
(٨٠٠). جامع النحاس شرقي الركنية في الصالحية في بستان النحاس عماد
الدين بن عبد الله بن الحسين بن النحاس (٦٥٤). ومن الجوامع التاريخية
التي لم تشتهر كثيراً جامع الحشر في الجانب الغربي من القلعة لأرغون شاه
جدده سنان جاووش يكيچري (١٠٠٨). الحيوطية للأمير علي بن حيوط
(٨٨٥) العسالي لأحمد باشا كوجك (١٠٥٤) أنشأه أحمد بن علي العسالي
شيخ الحلوتية. جامع المراز (٨١٣) لعزران شاه السيد تقي الدين الزينبي الجنوبي
خرب في فنتة تيمور فجدده الطوش مرحاب. جامع الجوزة في العمارة
وسعه القاضي ناظر الجيخ (٨٣٠) جامع خليخان خارج باب كيسان من
الجنوب أنشأه نجم الدين بن خليخان (٧٢٦) جامع الكريمي (٧٢٤) بالقبليات
أنشأه عبد الكريم بن هبة الله المصري. جامع باب المصلى أنشأه (٦٠٦) الملك
العادل أبو بكر بن أيوب. وكان هذا السلطان مولعاً بالعمران أنشئت في عهده
مساجد كثيرة في مملكته. جامع الحاجب في سوق ساروجا (٨٨٠) جامع
السقيفة دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة فيما يقال أنشأه خليل الطوغاني
(٨١٤) وكان محله يعرف بالسبعة. وهناك مساجد دثرت لانها ليس في جوارها
من يتعهدها مثل جامع الأحمر في حي اليهود والبهاية في باب توما .

وفي مفكرات طارق أن اسم سوق القطن القديم بدمشق سوق النسقار
وفيه جامع هشام أنشأه القاضي بدر الدين بن مزهر (٨٣٠) وأن محراب جامع
التوبة مهم وكذلك منبره ونوافذه ومثل ذلك جامع الشامية وجامع التبان في
المناخلية فإن فيه عمودين مهمين وفيه قاشاني ومنبر قديم وملاصق جامع السيدة
سكينة جامع من بناء الملك الظاهر عليه كتابات وفي جامع ركن الدين منكورش
المعروف بالركنية في حي الأكراد نقوش وكتابات مهمة .

هذا غاية ما يقال في مساجد دمشق اليوم. وقد عدد ابن عبد الهادي القسم
الأعظم من مساجدها في القرن العاشر مع أنه لم يستقص أسماء كثير من الجوامع
في الضاحية بما يناهز خمسمائة قال: فناهيك ببلدة يحتوي وادها فقط على

زهاء ألف وخمسمائة مسجد، وأما ما هو عيظ بمعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية اه. وذيل على كتابة الدكتور أسعد طلس فأورد وصف ثلاثمائة وثمانية مساجد في دمشق زارها كلها وبحث في حاضرها وغابرها وبعضها من المساجد التي عرضنا لها في هذا الفصل وكان فات إدارة الأوقاف ذكرها في المساجد الباقية. قال كاتب چلبی في القرن الحادي عشر: إن عدد جوامع دمشق بين كبير وصغير يبلغ مئة وخمسين جامعاً وإن الدولة العثمانية أنشأت فيها عدة جوامع على طرز جوامع ديار الروم فبنت جامع السلطان سليمان بين الشرفين الأعلى والأدنى وأنشأت جامع درويش باشا مير ميران ولاية الشام وأنشأت جامع سنان باشا خارج باب الجالية وأنشأت جامع قره مراد باشا مير ميران ولاية الشام خارج السور فوق طريق الشام على سمت طريق باب المصلى اه .

وإذا توغلنا في التاريخ إلى القرن السادس نجد ابن عساكر قد عد من المساجد التي بنيت بدمشق ٢٤١ مسجداً وجامعاً في داخلها و١٨٤ في ظاهرها مما ليس في قرية مسكونة أو معمورة. قال ابن شاکر: وقد أحدثت بعد الحافظ ابن عساكر مساجد كثيرة داخلياً وخارجاً هذا مع ما اختصت به دمشق من كثرة المدارس والأوقاف. ومن المساجد التي عدها الحافظ منسوبة إلى أحد الصحابة مسجد ايمن بن خريم^(١) بن فاتك الأسدي الصحابي، ومسجد مروان بن الحكم ومسجد وائلة بن الأسقع، وفضالة بن عبيد الصحابي الأنصاري قاضي دمشق. ولتغير المعالم بها لا تعرف أسماء الأحياء التي ذكر أنها كانت فيها. قال ابن شاکر: وأما المساجد الخارجية عن البلد فمنها مسجد بين حجيرا وراوية (قبر الست) على قبر مدرك بن زياد ومسجد في راوية على أم كلثوم من أهل البيت. ومسجد كنان قبلي قذايا. قرية كانت قبلي مقابر اليهود فخرت، ومسجد في مقبرة باب توماء عند النهر المجدول بقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد لأنه صلى به وقت الحصار، ومسجد يعرف بمسجد النبي في أرض المصيصة له منارة. والمصيصة قرية كانت عامرة فخرت شرقي

(١) لا يؤيد التاريخ بعض قبور الصحابة والمساجد المنسوبة إليهم . وعن الحافظ عبد الغني قال : لم يتفق المسلمون على معرفة قبر نبيي و صحابي غير قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

بيت لهما، ومسجد عند بيت أبيات يعرف بمسجد آدم، ومسجد معاوية من أرض قيسية على طريق المزة وداريا، ومسجد الحجر ويعرف بمسجد النارج قرب المصلى، ومسجد القدم عند القطائع بقرب عالية وعويلية قديم له منارة .

ولقد كانت مساجد الغوطة عامرة كلها إلى دخول العثمانيين ثم أخذت تخرب في عهدهم، فقد كان في كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، وعشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الأخيرة فذهبت معها الجوامع بالطبيعة. ومن القرى التي مرت بنا وذهب اسمها ورسمها راوية وفذايا والمصيصة وبيت لهما وبيت أبيات وقيسية وعالية وعويلية والنيرب والربوة. ولقد كان في الربوة عدة مساجد ومدارس. وفي تاريخ الصالحية أن المقاصف كانت تعمر عمائرهما للترمة من غير طين، والعمائر المكلفة كانت للمدارس والجوامع وأن قاعة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين في الربوة قد بناها على شعب الجبل، سقفها نهر يزيد، وأساسها نهر ثورا من المقامات التي لا تدرك. قال: وبقي بعد الألف من هذا المسجد المأذنة وأثر العمار ثم دثر .

وكان بالنيرب تسعة مساجد عدها ابن عبد الهادي، والآن ليس فيها أثر لمسجد ولا لقرية. وكان في القابون الفوقاني ثلاثة مساجد وبالقابون التحتاني ثلاثة، وليس فيهما الآن سوى مسجد واحد حقير. وهكذا مساجد قرى الغوطة والمرج وقلمون فإنها كلها ليست ذات شأن، ومن أجملها اليوم جامع التل وعربيل ودومة وداريا. ومما دثر مسجد خاتون في منتصف الطريق بين دمشق والمزة . كما دثرت مساجد المزة وكانت بضعة مساجد وجوامع، منها مسجد بناه ابن عنين الوزير الشاعر في القرن السابع، وفي هذا القرن أيضاً بنى بها الوزير صفى الدين بن شاکر جامعاً، وهو الذي بلط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه وعمل الفوارة وبنى جامع حرستا . والجوامع والمساجد اليوم صورة من عمراننا، وعمراننا كان مترجعاً إلى عهد قريب، وهو اليوم آخذ بالتقدم فلا يبعد أن تقوم المساجد بعد الآن على قانون ينم عن حسن ذوق في البناء فيعيد الصورة القديمة مضمومة إلى التحسين الحديث .

المدارس

نشأة المدارس :

اتخذ المسلمون مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلوم اللسان، وما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها قيام أمرهم، وخدمة دينهم أولاً ولغتهم ثانياً، وظلوا على ذلك في الشام حتى أنشأ بدمشق رشاً بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي سنة (٤٤٤) مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دار قرآن، وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها أقام في بلده دار حكمة أو شبه مدرسة جامعة على نحو دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في مصر سنة أربعمائة. ولما أراد المعتضد بالله العباسي بناء قصره ببغداد استراد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فستل عن ذلك فذكر أنه يريد له ليني فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجري عليهم الأرزاق السنوية ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ثم مدرسة الأمير نصر بن سبكتكين وتبعه غيره. وعني السلاجقة بإنشاء المدارس في أقطار الشرق، وكان آلب أرسلان إذا رأى في بلد رجلاً متميزاً متبحراً في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وقرر فيها للفقهاء معاليم وجعل فيها دار كتب، ونظام الملك أحد وزراء السلاجقة الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد في القرن الخامس أيضاً .

أصبحت طرابلس بدار الحكمة التي أنشأها فيها ابن عمار كعبة علم،

كما كانت حلب على عهد سيف الدولة بن حمدان كعبة أدب. ويقال: إنه كان في طرابلس في ذلك القرن عدة مدارس وخزان كتب لم يبلغنا خبرها. وعلى هذا فالمدارس في الإسلام نشأت في أواخر القرن الرابع وعرفت جيداً في الخامس والسادس. ونقصد بالمدارس تلك الدور المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم، وتدر عليهم المعاليم والأرزاق، ويتولى تدريسهم وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء، وهم موسع عليهم في الرزق، يختارون بحسب شروط الواقف ممن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للدعوة إليه، ويجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الآلهية والبشرية.

ولقد كان من نور الدين محمود بن زنكي لما استولى على الشام همة عظيمة في إنشاء المدارس لأهل السنة والجماعة كما أنشأ القائد جوهر الأزهر في القاهرة، والقاضي ابن عمار دار الحكمة في طرابلس لبث التشيع، وأخذ نور الدين يستدعي فحول العلماء من الأقطار ويبني لهم المدارس ويدر عليهم المشاهرات حتى قالوا: إن الشام أصبح على عهده مقر العلماء والفقهاء والصوفية. بنى سنة (٥٤٥) في حلب المدرسة العسرونية واستدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون من أعيان فقهاء عصره وبني له مدرسة بمنجج وأخرى بحماة وثالثة في حمص ورابعة ببعليك وخامسة بدمشق، وفوض إليه أن يولي التدريس فيها من يشاء. وبني لقطب الدين النيسابوري المدرسة العادلية بدمشق ولم يتمها. وأول مدرسة بنيت في حلب أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان ابن عبيد الجبار بن أرتق صاحب حلب سنة عشر وخمسمائة وسميت المدرسة الزجاجية. وأول ما عرف من المدارس في القدس ما بناه صلاح الدين يوسف ابن أيوب ونُسب إلى جماعته.

وقد ذكر الرحالة ابن جبير الذي زار دمشق في سنة ثمانين وخمسمائة أنه كان فيها نحو عشرين مدرسة تقوم بالإنفاق على من يدخل فيها للتعليم والاستفادة. وقال: إن هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام والمدارس كذلك وأن الرباطات قصور مزخرفة. وقال في كلامه على مشاهد دمشق: ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع حتى: إن البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها وكل مسجد يستحدث

بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخددة. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك اه .

ومعظم المدن مدارس مدينة دمشق، كثرت في الدولتين النورية والصلاحية وقام بإنشاء بعضها العتقاء والخصيان والإمام والبنات، ومنها ما بني بالمال الحلال من أموال الغنائم، ومنها ما بناه بعض أهل الخير من بنات الملوك والملكات، ومن القواد والسادة، ومنها ما أنشأه أهل اليسار من التجار وغيرهم. وأكثر من بنوا المدارس في دمشق هم غرباء عنها، ولولا بضع مدارس أنشئت في القرن الثاني عشر في حلب ودمشق لقلنا: إن تاريخ المدارس فيهما ختم بانقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية الديار الشامية. ومن رأى كثرة المدارس في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع وقلة ما شيد منها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر، يستنتج معنا أن الأمة إذ ذاك كانت على جانب من التدين والغبى وحب الخير أكثر من القرون التالية، وأن بعض من جمعوا ثروات كانوا يجنون أن يتصدقوا من مالهم بشيء يعتقدون أنه قربى لهم يوم الجزاء، وقد فسد الناس في القرون الأخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها. وهي على الأكثر تقسم إلى أقسام، فمنها مدارس للشافعية يقرأ فيها فقه الإمام أحمد بن إدريس الشافعي، وأخرى للحنفية يتلى فيها فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة، وغيرها للحنابلة لفقه الإمام أحمد بن حنبل، وبعضها للمالكية أي فقه الإمام مالك بن أنس، ومنها مدارس أو دور للقرآن يتلقون فيها القراءات على الأصول وما يتعلق بذلك، ومنها دور للحديث يأخذون فيها فنون الحديث ويروونه. وكان في دمشق خاصة مدارس لتعليم الطب والصيدلة والكحالة ومدرسة للهندسة يتخرج فيها مهندسون وبنائون، ولم يتصل بنا أنه أنشئ في عواصم ذلك العهد: قسبة الوسط دمشق، وقسبة الشمال حلب، وقسبة الجنوب القدس، مدارس لتعليم الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية، ولعل بعض العلوم وخصوصاً الفلك والجغرافيا والتاريخ كانت تدرس في تلك المدارس كما كانت تدرس في الجوامع في بعض الأدوار،

وكان أبو شامة في القرن السادس يقرئ التاريخ درساً عاماً في الجامع الأموي بدمشق، وقد وصف أبو الفضل بن منقذ الكِناني هذه المدارس بقوله :

ومدارس لم تأتأها في مشكل إلا وجدت فتيً يحل المشكلا
 ما أمتها مرةً يكابد حيرةً وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
 وبها وقوف لا يزال مغلها يستنقذ الأسرى ويغني العيلا
 وأئمة تلقي الدروس وسادة تشفي النفوس وداؤها قد أعضلا
 ومعاشر اتخذوا الصنائع مكسباً وأفاضل حفظوا العلوم تجملا

وقال السابق أبو اليمن المعري في وصف مدارس حلب ومنه استدللنا أنها كانت تدرس العلوم المختلفة :

فليديها كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعي والفلسفي
 لا جرم أنه كان لإلقاء العلوم في تلك المدارس نُظُمٌ ومناهج، ويقرأ الطلبة أشهراً مخصوصة ويفحصون فيما تعلموه، ولا ينال الإجازة بالتدريس والخطابة والإمامة إلا من ثبتت لمشايقه كفايته، وكان على استعداد لأن يزداد علماً بعد إنجاز الطلب وإجازة الطلاب بمسموعات مشايخهم ومروياتهم .

دور القرآن بدمشق :

في مدينة الرسول بنيت أول دار للقرآن في الإسلام. وذكر الواقدي أن عبد الله بن أم كلثوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما وقيل: قدم بعد بدر بيسير فتزل دار القرآن. وكان في دمشق سبع دور للقرآن على ما في الدارس وهي :

(١) « الخيضرية » شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين وتنسب إليها اليوم محلة الخيضرية، أنشأها قاضي القضاة قطب الدين الخيضرى الدمشقي سنة (٨٧٨) ووقف عليها وعلى مسجد آخر أوقافاً جمّة، وقد بقي اليوم جزء صغير منها استحال زاوية للشاذلية .

(٢) « الدلامية » بالقرب من الماردانية على الجسر الأبيض بالجانب الشرقي من الشارع الآخذ إليه بالصالحية فوق نهر ثورة على طريق الحركسية، أنشأها زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله البغدادي البصري وكان من أجل

أعيان الخواجكية بالشام ووقفها سنة (٨٤٧) وهي الآن عبارة عن مصلى ومنزلين بالقرب من جامع كعكع . وفي كتاب وقفها أن صاحبها رتب بها إماماً وله من المعلوم مائة درهم ، وقيماً وله مثل الإمام ، وستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن ، ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر ، ومن شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهماً ، وستة أيتام بالمكتب الذي على بابها ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر أيضاً وقرر لهم شيخاً وله من المعلوم ستون درهماً في كل شهر ، ولقراءة البخاري في الشهور الثلاثة وللقارئ من المعلوم مائة درهم ، وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستمائة درهم ، ورتب للزيت في كل عام مثلها ، وللشمع لقراءة البخاري والتراويح مائة درهم ، ولأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلواء ورأسى غنم أضحية ، ولكل من الأيتام جبة قطنية وقميصاً .

(٣) «الجزرية» قيل: لأنها كانت بدرب الحجر نُسب لإيقافها لمحمد بن محمد الجزري المقرئ المحدث. ولعل درب الحجر هو طريق الجركسية قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد في حارة الشرباتي .

(٤) «الرشائية» شمالي الخانقاه السميساطية الملاصقة للجامع الأموي من شماليه أنشأها في حدود سنة أربع وأربعين وأربعمائة رشاً بن نظيف ابن ماشاء الله الدمشقي المقرئ. وقد درست الآن وبنيت المدرسة الاخنائية مكانها كما في الكواكب السائرة. وقيل: كانت بباب الناطفانيين أو بالعصرونية. قال الكتبي: هي التي جوار الخانقاه السميساطية من الشمال. قال ابن قاضي شهبه: وقد زالت عينها وأدخلت في غيرها .

(٥) «السنجارية» كانت تجاه باب الجامع الأموي الشمالي أنشأها علي بن إسماعيل السنجاري أحد التجار الأخيار المتوفى سنة (٧٣٥) وهي أمام الاخنائية استحالت داراً ولم يبق غير بابها وعليه وقفها^(١) .

(٦) «الصابونية» خارج باب الجابية قبالة تربة الباب الصغير لشهاب

(١) أشكر للشيخ عبد المحسن الأسطواني لتفضله بإطلاعي على مفكراته في مدارس هذه المدينة ومطالعاته الخاصة فيها .

الدين أحمد بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري المعروف بالصابوني تم إنشاؤها سنة (٨٦٨) وبني أيضاً تجاهها بشرق مكتباً لأيتام عشرة بشيخ لهم يقرئهم القرآن العظيم بمعاليم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة منها عدة قرى غربي مدينة بيروت تحت يد أمير الغرب تعرف بالصابونية ولا تزال هذه الدار باقية إلى اليوم وهي مدفن السادة بني البكري .

(٧) « الوجيهية » قبلي المدرسة العسرونية والمسرونية وغربي الصمصامية التي شمالي الخاتونية أنشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا الرئيس شيخ الحنابلة الدمشقي التنوخي سنة (٦٩٠) درست وأصبحت مخازن ودوراً .

وفي ترجمة تنكر أنه عمل داراً للقرآن إلى جانب داره دار الذهب بدمشق وعلى ذلك فتكون دور القرآن ثمانية. وما أجمل ما قال علي بن منصور السروجي في دمشق :

في كل قصر بها للعلم مدرسة	وجامع جامع للدين معمور
كأن حيطانه زهر الربيع فما	يملّه الطرف فهو الدهر منظور
يتلى القرآن به في كل ناحية	والعلم يذكر فيه والتفاسير

دور الحديث بدمشق :

عني المسلمون أي عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنة والكتاب وللتبرك والتفقه. وأول من بنى دار حديث في الشام وربما كانت مدرسته الأولى من نوعها في بلاد الإسلام نور الدين محمود بن زنكي وكثرت دور الحديث بعد ذلك. وكان في دمشق على ما ذكر في الدارس ثمان عشرة داراً للحديث وهي :

(٨) « الأشرفية » جوار باب القلعة الشرقي غربي العسرونية، وشمالي القايمازية الحنفية، وفي رواية أن القايمازية مدرسة، وكانت دار الأمير قايماز ابن عبد الله النجمي فاشتراها الملك الأشرف موسى بن العادل وبناها دار حديث ونجز بناؤها سنة (٦٣٠)، درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح وابن الحرساني وأبي شامة والنواوي والشريشي والفارقي وابن الوكيل وابن الزملكاني والحافظ المزني والسبكي وابن كثير وغيرهم، وكانت يد

التعدي تسطو على هذه المدرسة في أواخر القرن الماضي كما سطت على غيرها من المدارس فقام الشيخ يوسف البيباني المغربي واستخلصها وأعادها مدرسة وسكنها من بعده نجله الشيخ بدر الدين الحسيني جعلها مقره تقرأ فيها دروسه وقد حرقت في حريق سنة (١٣٣٠هـ) الذي دمر أربعة شوارع من شوارع المدينة ودمر ما فيها من المدارس ثم رمت ترميماً خفيفاً وعاد بعض الطلبة والغرباء فسكنوها .

(٩) «الأشرفية البرانية» بسفح جبل قاسيون على ضفة نهر يزيد تجاه تربة الوزير تقي الدين التكريتي وشرقي المرشدية الحنفية وغربي الأتابكية الشافعية، بناها الملك الأشرف المظفر موسى بن العادل باني دار الحديث المتقدمة قبل سنة (٦٤٣) ودرس فيها جلة من العلماء أخذها المجمع العلمي العربي من الأوقاف ليجعل فيها خزانة كتب يختلف إليها أهل تلك المحلة ولم يتم له ترميمها لقلّة المال .

(١٠) «البهائية» داخل باب توماء كانت دار بهاء الدين أبي محمد القاسم ابن بدر الدين أبي غالب المظفر المتوفى سنة (٧٢٣) وليس لها اليوم أثر .
(١١) «الحمصية» كانت معروفة بحلقة صاحب حمص في الجامع الأموي فقدت وجهل مكانها، وفي مفكرات طارق أن الحمصية في سويقة صاروجا أمام جامع الشامية بدى باختلاسها منذ سنة (٩٠٠) .

(١٢) «الدوادارية» دار حديث ومدرسة ورباط داخل باب الفرج وهو باب المناخلية اليوم، لعلم الدين سنجر الدوادار المحدث الحافظ المتوفى سنة (٦٩٩) من نجباء الترك وعلمائهم وهي غير معروفة لعهدنا ولعلها الدار الكائنة أمام بحرة الدفاقة فظاهاها يدل على ذلك .

(١٣) «السامرّية» وبها خانقاه بالقرب من محلة مأذنة الشحم في زقاق الشيخ الدسوقي، أنشأها أحمد بن محمد البغدادي السامرّي وهو مدفون بها . والسامرّي نسبة إلى سرّ من رأى بلد على دجلة. قال الصلاحى السكتي : إن سيف الدين السامرّي كان يسكن داره المليحة التي وقف عليها خانقاهاً ووقف عليها باقي أملاكه وكان السلطان صادرها (٦٩٦) . وهي موجودة اليوم ولكن لم يبق منها غير المدفن ويقال للحى زقاق السلمي .

ومن دور الحديث الدائرة .

(١٤) « السكرية » بالقصعين وهو أول سوق الخلق (القميلة) وكان أمس سوق القطن داخل باب الجاية ، وهي ما يظهر داخل الدخلة التي شرقي جامع شركس ، درست وكان درس بها ابن تيمية ووالده والحافظ الذهبي .

(١٥) « الشقيشقية » بدرب الباناسي في ظاهر المدينة أنشأها نصر الله الشيباني الصفار المعروف بابن الشقيشقة وهي من الدوارس، ومن الدوارس أيضاً .

(١٦) « العروية » بمشهد عروة من الصحن الشرقي من الجامع الأموي قبالة الحلبية المعروفة قديماً بمشهد علي ، أنشأها محمد بن عروة الموصلبي ووقف عليها مكتبة عظيمة توفي سنة (٦٢٠) ومحلها معروف وهي مستودع للجامع .

(١٧) « الفاضلية » بالكلاسة منسوبة للقاضي الفاضل البيساني من رجال صلاح الدين والمدرسة جوار تربة هذا السلطان وهي الآن مساكن .

(١٨) « القلانسية » غربي مدرسة أبي عمر بالصالحية بها رباط ومنارة يمر في وسطها نهر يزيد ، إنشاء أبي يعلى حمزة التميمي المعروف بابن القلانسي من كبراء دمشق المتوفى سنة (٧٢٩) وكان في رباطه هذا مأذنة ودار حديث وبر وصدقة ، وقد جعلت هذه المدرسة مسجداً صغيراً بمعاونة رجل اسمه إسماعيل التكريتي .

(١٩) « القوصية » بالقرب من الرحبة قال بعضهم : لأنها في الجامع الأموي بجوار الشافعية وهي إحدى حلقات الجامع قديماً .

(٢٠) « الكروسية » غربي مأذنة الشحم لمحمد بن عقيل بن كروس السلمي محتسب دمشق المتوفى سنة (٦٤١) كان فيها ثلاثة قبور وجعلت دوراً وهي شمالي السامرية .

(٢١) « النورية » هي من دور الحديث الباقية وأول دار أنشئت لهذا الغرض أنشأها نور الدين محمود بن زنكي ، وهي الآن مسجد جامع وبها قبره يزار ويتبرك به ، تولى مشيختها في عصره الحافظ أبو القاسم بن عساكر

هذه هي النورية الكبرى .

(٢٢) أما « النورية الصغرى » فهي في العسرونية بين دار الحديث الأشرافية ومدرسة العسرونية أمام العادلية الصغرى وقد حرقت في الحريق الأخير . وفي النورية الكبرى فيما نظن يقول عرقلة الدمشقي :

ومدرسة سيدرس كل شيء وتبقى في حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقاً وغرباً بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي وهذي في المدارس بيت ملكي

(٢٣) « النفيسية » قبلي البيمارستان الدقاقي (كذا) وباب الزيادة أي التوافين اليوم على يمنة الخارج منه شمالي غربي المدرسة الأمينية إنشاء النفيس إسماعيل بن محمد الحرآني ناظر الأيتام المتوفى سنة (٦٩٦) حدثنا الثقة أنه رأى حجر بابها باقياً بحاله وقد طمس بالطين حتى لا يظهر أثرها وأصبحت دوراً .

(٢٤) « الناصرية » كان بها رباط قبلي جامع الأفرم بسفح قاسيون وهي الناصرية البرانية إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة (٦٥٤) أمست حديقة الآن وكانت أنقاضها ظاهرة الى عهد قريب وأدخلت أحجارها في ترصيف ضفة يزيد وفيها جسر معقود جميل ربما كان الموصل إلى دمشق ويتجاوز عرضه ثلاثين متراً .

(٢٥) « التنكزية » دار قرآن وحديث شرقي حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطنة تنكز سنة (٧٢٨) وهي الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية وكان هندسها المعمار أيدير المعني .

(٢٦) « الصباية » دار قرآن وحديث قبلي العادلية الكبرى وشمالي الطبرية أنشأها شمس الدين بن الصباب . قال في مختصر المدارس إنها احترقت في الفتنة أي فتنة تيمورلنك ولم يبق لها أثر سوى سبيل الماء .

(٢٧) « المعبدية » دار حديث وقرآن والمشهور إنها دار قرآن، إنشاء الأمير علي بن معبد البعلبكي ليست معروفة .

مدارس الشافعية بدمشق :

في الدارس أنه كان في دمشق سبع وخمسون مدرسة للشافعية وهي :
 (٢٨) « الأتابكية » بالصالحية غربيها المرشدية ودار الحديث الأشرفية
 المقدسية ، أنشأها أخت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب الموصل المتوفاة
 سنة (٦٤٠) وبها قبرها وقد جعلت لعهدنا مصلى درس بها زمرة من مشاهير
 علماء الشافعية .

(٢٩) « الإسعدية » بالجسر الأبيض بالصالحية دثرت وهي في وسط
 البساتين ، أنشأها إبراهيم بن مبارك شاه الإسعدي من أرباب الثراء والسخاء
 توفي سنة (٨٢٦) ودفن بتربة مدرسته . قال ابن قاضي شعبة : كان الإسعدي
 هذا والشمس ابن المزلق أكبر تجار دمشق وله المتاجر السائرة في البلدان قد
 أعطاه الله المال والبنين ، وكان عنده كرم وإحسان إلى الفقراء ، وكان
 صاحب هذه المدرسة الإسعدية يقول: عجائب الدنيا أربعة وأحسنها غوطة
 دمشق ، وأحسن الغوطة الصالحية ، وأحسن الصالحية الجسر الأبيض !

(٣٠) « الأسدية » بالشرف القبلي ظاهر دمشق مطلة على الميدان الأخضر
 وهي على الفريقين الشافعية والحنفية ، إنشاء أسد الدين شيركوه من قواد
 نور الدين وهي في حديقة الشرف وأنقاضها ماثلة للعيان .

(٣١) « الأصفهانية » كانت بمحلة الغرباء بالقرب من درب الشعارين
 لتاجر من أصفهان، وفي رواية أنها خلف المدرسة القاجمازية وغرباً، محلتها
 ومكانها غير معروف على التحقيق ، ويذهب بعضهم إلى أنها كانت موضع
 تكية أحمد باشا وقد أدخلت فيها .

(٣٢) « الإقبالية » داخل باب الفرج وباب الفراديس وبينهما شمالي
 الجامع الأموي والظاهرية الجوانية وشرقي الجاروخية وغربي التقوية لشمال ،
 أنشأها جمال الدولة إقبال خادم نور الدين وعتيق ست الشام ، وقد استحالت
 داراً ثم استخلصت على يد الحاكم وألحقت بأملاك المعارف ولم يبق منها
 إلا الحجر الذي كان على بابها وفيه أوقافها وهي شمالي حمام العقيقي .

(٣٣) « الاكزية » قبالة الشيلية الحنفية ، إنشاء اكر حاجب نور الدين

محمود وهي غربي الطيبة والتنكزية وشرقي أم الصالح، غيرت معالمها وبابها موجود، وقد استحالت داراً .

(٣٤) « الأجدية » بالشرف الأعلى الشمالي مطلة على المرجة قرب مدرسة التجهيز، لإنشاء الملك المظفر عمران بن عبد الملك الأجد بهرام شاه صاحب بعلبك وهي دار فروخشاه وكان الملك الأجد أشعر بنبي أيوب، قال ابن الشحنة: دفن الأجد بمدرسة والده التي على الشرف بدمشق، وكانت هذه المدرسة عامرة إلى القرن الثاني عشر درس بها إبراهيم بن حمزة، ولكثرة ما في جوار هذه الدار من المدارس سمي اليوم الزقاق الموصل إليها وهو الذي يبتدىء من أمام جامع الطاووسية ومستودع الترامواي الكهربائي وينتهي بمستودع البارود بزقاق المدارس .

(٣٥) « الأمينية » قبلي باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموي، وهي شرقي المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح وكان به بابها وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب، وهناك دار مسلمة بن عبد الملك، قيل: إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الإسلام أمين الدين كمشتكين ابن عبد الله الطغتكيني المتوفى سنة (٥٤١) وقد بنيت المدرسة سنة (٥١٤) وفي تاريخ دمشق أن الحسن بن محمد النهريتي المقرئ الفقيه سمع الحديث بدمشق في المدرسة الأمينية وأول من درس بها علي بن المسلم الدمشقي سنة (٥١٤) وهي الآن في سوق الحرير جعلت كتاب صبيان واختلس الجيران بعضها .

(٣٦) « الباذرائية » جاء في الدارس أنها داخل باب الفراديس والسلامة شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية، وفي المختصر أنها على باب الجامع الأموي الشرقي المؤدي إلى العمارة، وكانت قبل ذلك داراً تعرف بأسامة وهو أسامة الجبلي أحد كبار الأمراء المتوفى سنة (٦٠٩) أنشأها أبو محمد الباذرائي البغدادي المتوفى سنة (٦٥٥) قال الذهبي: الباذرائي قاضي القضاة سفير الخلافة نجم الدين عبد الله بن الحسن الباذرائي الشافعي صاحب المدرسة التي بخط جيرون. ولا تزال أسوارها باقية وهي سائرة نحو الخراب وقد اقتطع جانب منها وجعل دوراً .

(٣٧) « البهنسية » بسفح قاسيون أنشأها مجد الدين المعروف بأبي الأشبال وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى المتوفى سنة (٦٢٨) وهي على طريق المهاجرين بطرف السكة بجوار حاكورة العدس .

(٣٨) « التقوية » داخل باب الفراديس (العمارة) شمالي الجامع شرقي الظاهرية والإقبالية كانت من أجل مدارس دمشق، بناها سنة (٥٧٤) الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ودرس بها جلة العلماء وفي عرف البشام أن المدرسة القصاصية والمدرسة التقوية كانتا عامرتين في القرن العاشر تقام بها الأذكار الآن باسم خانقاه ولها مخصصات شهرية من الحكومة .

(٣٩) « الجاروخية » داخل بابي الفرج والفراديس وفي حي السبعة طوالع بالقرب من الإقبالية الحنفية شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية المعروفة. بناها جاروخ التركماني برسم محمود بن المبارك المعروف بالمجير الواسطي البغدادي سنة (٥٩٠) درس بها كثير من العلماء ومنهم زمرة من الفقهاء بني جهبل. وهي دار بني الكيلاني اليوم .

(٤٠) « الحمصية » تجاه الشامية البرانية قال ابن كثير: في سنة (٧٢٦) فتحت المدرسة الحمصية ودرس بها محيي الدين الطرابلسي الملقب بأبي رباح . في مختصر الدارس أنها خربت بعد قليل من تشييدها، والغالب أنها درست وجعلت دوراً ولم يبق منها إلا قطعة خربة .

(٤١) « الحلبية » بمحلة السبعة طوالع وهي خلف دار الكتب الظاهرية أو المدرسة الظاهرية مجهول حالها ومنشئها من القديم. قال في الدارس: إن شهاب الدين ابن عبد الخالق المتوفى سنة (٨١٥) وقف إلى جانب المدرسة الحلبية مسجداً وأضافه إلى المدرسة ووقف عليها، ومن وقف عليها الأمير سيف الدين من مماليك برقوق.

(٤٢) « الحبيصية » قبلي الزنجاري، وخان الزنجاري هو جامع التوبة الآن، تولى مشيختها ابن قاضي أذرعان وقد استحالت دوراً .

(٤٣) « الحليلية » بانيها سيف الدين بكتمر الحليلي المتوفى (٧٤٦) ولا يعرف عنها شيء .

(٤٤) « الدماغية » كانت داخل باب الفرج وغربي الباب الثاني الذي

قبلي باب الطاحون وهي قبلي وشرقي الطريق الآخذ إلى باب القلعة الشرقي وهذا الطريق بينها وبين الخندق وهي أيضاً شمالي العمادية بين الشافعية والحنفية، أنشأها عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ زوجة شجاع الدين بن الدماغ (٦٣٨) درس بها جلة من العظماء وهي الآن قاعة النشا التي في المناخلية. وفي الصالحية مدرسة أخرى اسمها الدماغية أنشأها أو درس بها افتخار الكاشغري .

(٤٥) «الدولعية» بجزيرة قبلي المدرسة الباذرائية لجمال الدين محمد الثعلبي الدولعي خطيب دمشق، وقد كانت الدولعية والشبلية عامرتين في القرن الحادي عشر، درس بهما إسماعيل الحائك، والدولعية في الدخلة المشهورة بدخلة الداغستاني في نصف الطريق الآخذ من دار بني منجك إلى زقاق الباذرائية، اختلست وجعلت دوراً وفي إحدى الدور قبر مدفون فيه واقف المدرسة محمد بن أبي الفضل بن زيد الخطيب الثعلبي الأرقمي الدولعي ثم الدمشقي (٦٣٥) قاله الصفدي ودفن في الصفة الغربية من المدرسة وهاك نسخة التوقيع الذي كتب للفخر المصري المتوفى (٧٥١) بتدريس الدولعية ونظرها: رسم بالأمر العالي لا زال يرتفع به العلم الشريف إلى فخره، ويعيده إلى خير حبر تقبب الفوائد من نوره وتغترف من بحره، ويحمد الزمان بولاية من هو علم عصره وفخر مصره، أن يعاد المجلس العالي الفخري إلى كذا وكذا وضعا للشيء في محله، ورفعاً للوابل على طله، ودفعاً لسيف النظر إلى يد هي مألوف هزه وسله، ومنعاً لشعب مكة أن يتزله غير أهله، إذ هو لأصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه حجة، ولبحر مذهبه الزاخر لجة، إلى أن قال: فليباشر ما فوض إليه جرياً على ما عهد من إفادته، وألف من رياسته لهذه العصاة وزيادته، وعرف من زيادة يومه على أمسه، فكان كليل بلاده ولا يتعجب في زيادته، حتى يجيا بدرسه ما درس، ويشمر عود الفروع فهو الذي أنبته بهذه المدرسة وغرس، مجتهداً في نظر وقفها، معتمداً على تتبع ورقات حسابها وصحفها، عاملاً بشروط الواقف فيما شرط، قابضاً ما قبضه وباسطاً ما بسط الخ .

(٤٦) «الركنية الجوانية» شمالي الإقباليين شرقي العزية الجوانية والفلكية غربي المقدمة، واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان، درس

بها جلة من العظماء منهم ابن خلكان وأبو شامة وبنو حمزة وهي اليوم في زقاق بني مفلح أمام المقدمة وبينهما الطريق ويعرف بدخلة بني عبد الهادي في العمارة وهي منضمة إلى دار بني العمري ولم يبق لها أثر .

(٤٧) « الرواحية » شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه شمالي جيرون وغربي الدولعية وقبلي السيفية الحنبلية . بانها زكي الدين بن رواحة الحموي التاجر الغني المعدل المتوفى سنة (٦٢٢) درس بها ابن الصلاح والسهورودي وابن البازري وابن الزملكاني وأبناء السبكي وغيرهم ، وقد أنشئت هذه المدرسة نحو سنة (٦٠٠) . قال المؤرخون : إن زكي الدين بن رواحة بنى بحلب مدرسة للشافعية وبدمشق مثلها داخل باب الفراديس ووقف عليها أوقافاً حسنة ووقع بعد ذلك باليسير ، وكان يسكن في بيت المدرسة الدمشقية وهو الذي في إيوانها من الشرق ويقابله من الغرب خزانة الكتب التي وقفها وهي كتب جليلة كان من أرباب الثروة . وأصبحت المدرسة الرواحية الآن داراً .

(٤٨) « الزاوية الخضراء » بمقصورة الخضراء غرب الجامع الأموي وهي مكان داخل الجامع أشبه بالحلقات .

(٤٩) « الشامية البرانية » بمحلة العقبة ، إنشاء ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي المتوفاة سنة (٦١٦) وتعرف هذه المدرسة بالحسامية لأن ابنها حسام الدين دفن فيها كما أنها هي أيضاً دفنت فيها . وهي اليوم مدرسة ابتدائية للأيتام تقوم بها جمعية الإسعاف الخيري ، وكان درس بها من المشاهير ابن الصلاح وابن أبي عصرون ، وابن الزكي والفارقي والشريشي وابن الوكيل وابن قاضي شهبه وغيرهم .

(٥٠) « الشامية الجوانية » قبلي البيمارستان النوري ، إنشاء ست الشام أيضاً درس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح قال ابن خلكان في ترجمته : إن الملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب لما بنى دار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه ، ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب وهي شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب التي هي داخل البلد قبلي البيمارستان النوري ، وهي بنيت المدرسة الأخرى ظاهر دمشق وبها قبرها وقبر أخيها المذكور وزوجها ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ،

فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث. قلنا: وكثير من هؤلاء الفقهاء والمحدثين كانوا يدرسون في المدرستين والثلاث وربما أكثر. ومن مدرسيها سالم بن أبي الدر أمين الدين (٧٢٦) وزين الدين الفارقي شيخ دار الحديث الأشرفية. وقد خربت هذه المدرسة ولم يبق فيها سوى بابها وواجهتها الحجرية واتخذت داراً. ومن أوقافها قرية جرمانا .

(٥١) « الشاهينية » بالقرب من جامع التوبة بحارة العقبية لإنشاء الدوادار^(١) شاهين الشجاعى أحرقت (٨١٦) فأعاد عمارتها هو أيضاً .

(٥٢) « الشومانية » إنشاء خاتون بنت ظهير الدين شومان وهي المسماة بالطيبة، والطيبة كما في الدارس قبلي النورية الكبرى ليست معروفة .

(٥٣) « الشرفية » كانت عند حيّ الغرباء بدرج الشعارين عند باب السلام، وفي تاريخ مبرات الشام أنها قبلي الجامع الأموي بالصاغة لم يعرف واقفها، درست وأصبحت حوانيت .

(٥٤) « الصالحية » غربي الطيبة والجوهريّة الحنفية وقبلي الشامية الجوانية بشرق وتعرف بتربة أم الصالح إسماعيل صارت مساكن ولم يعرف لها أثر، وكان من جملة مدرسيها الذهبي وابن كثير .

(٥٥) « الصارمية » داخل بابي النصر والجابية قبلي العذراوية بشرق، إنشاء صارم الدين أزيك مملوك قايمآز النجمي (٦٢٢) أصبحت دوراً وكان درس بها طبقة عالية من المدرسين .

(٥٦) « الصلاحية » بالقرب من البيمارستان النوري، وهي من إنشاء نور الدين محمود بن زنكي وإليه نسبها ابن قاضي شهبة ومنسوبة للسلطان صلاح الدين. لم يبق لها أثر.

(٥٧) « التقطائية » داخل باب الصغير في الشاغور بنحو مائة ذراع إلى شرق شمال غربي بيت الخواجا الناصري قبلي منارة الشحم، عمر بعضها ومجهول بانيتها وليس لها أثر .

(٥٨) « الطبرية » بجوار باب البريد، أنشأها نور الدين الشهيد درس

(١) الدوادار هو مبلغ الرسائل عن السلطان ومقدم القصص إليه وله المشاركة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب .

بها الشرف ابن هبة الله. لا يعرف عنها شيء وليس لها من أثر .
 (٥٩) «الطبية» قبلي النورية الحنفية وشرقي تربة زوجة تتكرر بقرب
 الخواصين، وهي المسماة بالشومانية وإنما غير اسمها تيمناً، درّس بها جلة من
 الفقهاء، وهي الآن دار لبني العظمة وبني كيوان .

(٦٠) «الطبيانية» قبلي المدرسة الشامية الجوانية التي هي قبلي البيمارستان
 النوري وغربي المدرسة الصالحة الواقعة غربي مدرسة الطبية خربت .
 (٦١) «الظاهرية البرانية» خارج باب النصر شرقي الخاتونية الحنفية
 وغربي الخانقاه الحسامية بين نهري بانياس وقنوات بالشرف القبلي، بناها الملك
 الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين، درّس بها كثير من المشاهير منهم امام
 الدين وجلال الدين القزويني وابن صصري وابن جملة. ولم يبق لها أثر .

(٦٢) «الظاهرية الجوانية» وهي للحنفية والشافعية داخل باب الفرج
 والفراديس جوار الجامع شمالي باب البريد وقبلي الإقباليتين والجاروخية
 وشرقي العادلية الكبرى، أنشأها مدرسة ودار حديث الملك الظاهر بيبرس وهي
 التي دفن بها هو وابنه الملك السعيد سنة (٦٧٦) كتب على واجهة بنائها جريدة
 وقفها بجروف غليظة وزُبر اسم مهندسها في الزاوية الشمالية من المدخل «عمل
 إبراهيم بن غنائم المهندس»، ومن درّس بها نائب السلطنة أيدمر الظاهري
 والأذرعي والإختائي والسويدي والأسدي والرعييني والواسطي. وهي اليوم
 بيد المجمع العلمي العربي جعلت مخطوطاتها في القبة الظاهرية المعمولة حيطانها
 بالفسيفساء البديعة وقد أنشئت خزانة كتب منذ أواخر القرن الماضي .

(٦٣) «العادلية الكبرى» شمالي الجامع بغرب وشرقي خانقاه الشهابية
 وقبلي الجاروخية تجاه باب الظاهرية يفصل بينهما الطريق المؤدي إلى باب
 البريد، بدأ بإنشائها نور الدين محمود بن زنكي ولم تتم، ثم عمل فيها الملك
 العادل سيف الدين ولم تتم، ثم ولده الملك المعظم، ووقف عليها الأوقاف
 ونسبها لوالده الذي دفن فيها. أنشأها نور الدين للإمام قطب الدين النيسابوري
 فعاجل الأجل الباني والمبني له قبل إتمامها. قال صاحب الروضتين: وقد رأيت
 أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب

الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبنها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنیان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب (الروضتين) فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى اه. وقال أيضاً: وفي سنة (٦١٢) شرع في عمارة المدرسة العادلية المقابلة لدار العقريقي من الغرب وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار في رمضان المبارك سنة أربع عشرة.

وقال ابن أبي شامة أيضاً في ذيل الروضتين في حوادث سنة (٦١٩): وفيها نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقريقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، إلى أن قال: ولم تكن المدرسة كملت عمارتها وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين الحصري وحضر درسه أعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة. وكان الاجتماع بإيوان المدرسة وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري ويليهِ شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين بن عساكر ثم القاضي شمس الدين الشيرازي ثم القاضي محيي الدين يحيى بن الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين الحصري وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الأمدي ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم مصلون ملء الإيوان. وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين والفقهاء. وقبالة السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلساً جليلاً لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة اه. قال ابن كثير: وفي سنة أربع وسبعمائة جلس قاضي القضاة نجم الدين بن الحصري بالمدرسة العادلية الكبرى وعملت التخوت بعدما جددت عمارة المدرسة ولم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة غازان بسبب خرابها. وهذه المدرسة من أعظم مدارس الشافعية بدمشق وكان يحكم بها قاضي القضاة ويجلس نواب القاضي بالمدرسة الظاهرية المناوحة لها.

درس بها وسكنها جلة من العلماء. منهم ابن خلكان والجلال القزويني

والعلاء القونوي وأبناء السبكي وكمال الدين التفليسي وابن مالك النحوي وابن جماعة، ومن درس بها وسكنها الشهاب أحمد الميني صاحب التأليف المشهور من أهل المئة الثانية عشرة وسكنها ودرس بها أولاده من بعده. وقد أخذها المجمع العلمي العربي لما أسس في سنة (١٩١٩م) وجعلها مقره ورمتها بما يقربها من الهندسة الأصلية. وقد حرقت هذه المدرسة مرتين الأولى في فتنة غازان التتري سنة (٦٩٩) مع ما حرق من مدارس المدينة، والثانية في سنة (٧٧٨) ولعلها أحرقت في فتنة تيمور أيضاً (٨٠٣) هذا عدا ما تناوبها من الزلازل. ومع هذا لم يزل حائطها القبلي وحائطها الشرقي قائمين، أما الجدران الآخراة الغربية والشمالي فقد خربا وما بني بجانبها جديد. ومن الأسف أنا لم نعر فيها على كتابة ولو ضئيلة تدل على شيء من تاريخها ووقفها وإنشائها حتى ولا على قبر الملك العادل الذي نبش على ما يظهر في القرن الأخير لأخذ الذخائر التي كانت تدفن مع الملوك والعظماء. وكانت فيها خزانة كتب مهمة.

والعادية اليوم العضو الأثري المهم من تلك المدارس التي كانت في القرون الوسطى مفخر الشام والإسلام. قلت في التقرير الرابع للمجمع العلمي عن سنة (١٩٢٥-١٩٢٦-١٩٢٧): وفي العادية وضع المقدسي تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين، وفي العادية عمل ابن خلكان تاريخه المشهور، وعلى باب العادية كان يقف ابن مالك النحوي ويدعو الناس لحضور درسه، ينادي هل من متعلم هل من مستفيد، والتاريخ يعيد نفسه، وفي العادية نزل ابن خلدون فيلسوف العرب أوائل المئة التاسعة. وكان المولى تعلقته إرادته فقضى أن لا يخلي العادية والظاهرية من علم ينشر، وأدب يذكر، فاختارهما مباءة للمجمع العلمي يقيم فيهما سوق العلم والأدب بعد الكساد على النحو الذي كانتا عليه منذ وضع أساسهما نور الدين بن زنكي والظاهر بيبرس.

(٦٤) «العادية الصغرى» داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي قبلي الدماغية والعمادية، أنشأها زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب وقد حرقت مؤخراً وبقيت جدرانها قائمة.

(٦٥) «العدراوية» بحارة الغرباء داخل باب النصر الذي كان يسمى بباب دار السعادة كما في الدارس، وفي مختصره أنها في جوار دار العدل التي

سميت في القرن الماضي دار المشيرية حيث يقيم مشير العساكر في الدولة العثمانية، وجعل في عهد الانتداب مركزاً لدواوينه ودمر بالحريق، إنشاء عذراء بنت السلطان صلاح الدين يوسف في رواية. وهي للفريقين الشافعية والحنفية، درس بها الفخر ابن عساكر وابن أبي عصرون وابن الزكي والشمس بن خلكان وابن قاضي شعبة وغيرهم. وهي باقية اتخذت داراً يجتمع فيها النساء لسماع الوعظ. وكان فخر الدين بن عساكر أول من درس بالمدرسة العذراوية، ودرس بالنورية والجاروخية وهذه الثلاث مدارس بدمشق، والمدرسة الصلاحية بالقدس يقيم بالقدس أشهراً وبدمشق أشهراً .

(٦٦) «العزيزية» شرقي التربة الصلاحية وغربي التربة الأشرفية وشمالي دار الحديث الفاضلية، أول من أسسها الملك الأفضل وأتمها الملك العزيز، وعمن درس بها سيف الدين الأمدي وغيره من المشهورين، هدمها ضياء باشا والي سورية وجعلها حديقة ضمت إلى مدفن صلاح الدين أواخر القرن الماضي. وفي بعض التواريخ أن القاضي ابن الزكي أمر بأن تبنى دار الأمير أسامة مدرسة للتربة. وهي المدرسة المعروفة بالعزيزية ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجة. وذكر ابن خلكان أن السلطان صلاح الدين بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي في شمالي جامع دمشق ولها بابان: أحدهما إلى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية، ثم نقل صلاح الدين من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية ووقف عليها وقفاً جيداً. وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة وهي من أعيان مدارس دمشق هـ .

(٦٧) «العصرونية» داخل بابي الفرج والنصر شرقي القلعة وغربي الجامع، لقاضي القضاة شرف الدين أبي سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون ابن أبي اليسر التميمي الجوني ثم الموصلية الدمشقي المتوفى (٥٨٥)، درس بها جماعة منهم المشايخ بنو عصرون وغيرهم. حرق في الحريق الكبير سنة (٨١٣٢٨) ولم تعد إلى ما كانت وبقي اسم السوق منسوباً إليها ورُمّ قبر من أسسها بعض الشيء .

(٦٨) « العمادية » داخل باب الفرج والفراديس قرب الدماغية من قبله، بناء عماد الدين والواقف عليها السلطان صلاح الدين درس بها عماد الدين الكاتب وغيره، وهي الآن كتاب للصبيان في زقاق الخندق .

(٦٩) « الغزالية » في الزاوية الشمالية الغربية شمالي مشهد عثمان بالجامع الأموي وتعرف بالشيخ نصر المقدسي وهو أول من درس بها. ومن درس بها من المشهورين الدولعي وابن عبد السلام والقطب النيسابوري والشرف بن أبي عصرون وأبو حامد الغزالي وهي الآن مشهد من مشاهد الجامع .

(٧٠) « الفارسية » غربي الجوزية الحنبلية تجاه الخارج من باب الزيادة بالزورية وقفها فارس الدوادار التميمي (٨٠٨). وفي المدرسة الآن قبران. وهالك أبياتاً من نظم بانيتها أمر أن تكتب على تربته بعد وفاته وأظنها لغيره من المتقدمين وقد رأيتها مكتوبة على مدفن بني الشحنة مؤرخي حلب في باب المقام بحلب والأبيات هي:

دار حق وما سواها يزولُ	هذه دارنا التي نحن فيها
عن قريب يفضي بك التحويلُ	فاعتمر للممات داراً إليها
مثلما يؤنس الخليل الخليلُ	واعتمل صالحاً يؤانسك فيها

(٧١) « الفتحية » إنشاء الملك فتح الدين صاحب بارين وبها قبره كانت مدرستين إحداهما للشافعية وثانيتها للحنفية نسيتا ونسي مكانهما .

(٧٢) « الفخرية » بين السورين إنشاء فخر الدين، تم بناؤها سنة (٨٢١) وهي على أهل المذاهب الأربعة فيما يظهر، وبها درس جماعة منهم عز الدين الإربلي والشيخ المراغي .

(٧٣) « الفلكية » غربي الركنية الجوانية بالعمارة، إنشاء أخي الملك العادل فلك الدين سليمان ، دفن فيها سنة (٥٩٩). وفي بعض المظان أن المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس تنسب إلى أبي منصور سليمان بن شروه ابن جلدك .

(٧٤) « القليجية » داخل باب شرقي وباب توماء شرقي المسامرية إنشاء مجاهد الدين بن قليج محمد. قال البوريني : إن أحمد بن سليمان الدمشقي الصوفي عزل التراب الذي في المدرسة القليجية الذي كان من بقايا الخراب

في فتنة اللنك (أي تيمورلنك) وقطن بها وأسكن في حجراتها عدة من الفقراء، والمدرسة المذكورة كانت تعرف في القرن الحادي عشر بجزار سيدي سيف الدين، وسيف الدين هذا هو الأمير سيف الدين الاسفسهلاز من الأمراء النوزية، ويطل على تربته شباك كان على رأس كل واحد منهما حجر فيه أسطر منقوشة، فأما الأول فعليه من الكتابة هكذا: قال الأمير الكبير المجاهد المرابط الاسفسهلاز سيف الدين علي بن قليج رحمه الله هذه الأبيات وأمر أن تكتب على قبره. وعلى الحجر الثاني الأبيات وذكر الأبيات الثلاثة. الواردة في الكلام على المدرسة الفارسية، وبذلك رأينا أن هذه الأبيات ادعاها كثيرون وأحبها غير واحد من العظماء .

(٧٥) « القواسية » بالعقبة الصغرى قرب مسجد الزيتونة إنشاء الأمير عز الدين بن القواس درس بها جماعة .

(٧٦) « القوصية » هي حلقة بالجامع الأموي قرب مشهد يحيى، كانت محلاً للتدريس، أنشأها رجل يقال له جمال الإسلام في رواية وقف عليها أوقافاً جمّة درس بها بعض المشاهير .

(٧٧) « القيمرية الجوانية » بحارة القيمرية، أنشأها الأمير ناصر الدين القيمر أحد أمراء الجند، درس بها جملة من فقهاء الشافعية ولا تزال معروفة .

(٧٨) « القيمرية البرانية » ويقال لها القيمرية الصغرى في القباقيب العتيقة غربي المقدمة وشمال الحنبلية، خربت وأنقاضها إلى اليوم ظاهرة. ويقول طارق : إن بانيتها الأمير علي بن يوسف بن يوسك القيمري سنة (٦٥٣) .

(٧٩) « النجبية » قال ابن كثير في سنة (٦٩٠): درس الخطيب عز الدين الفارقي بالمدرسة النجبية عوضاً عن كمال الدين بن خلكان ولم يذكر في الدارس لها وفقاً ولا وقت بنائها ولا محلها .

(٨٠) « الكروسية » بجانب السامرية الشافعية وقفها سنة (٦٤١) محمد ابن كروّس محتسب دمشق، ومن درس بها كمال الدين بن الزملكاني والشريشي .

(٨١) « الكلاسية » متصلة بالجامع الأموي من شماله ولها باب إليه، أنشأها سنة (٥٥٥) نور الدين الشهيد سميت بذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس

أيام بناء الجامع، ثم أمر بتجديدها السلطان صلاح الدين درس بها جلة من الفقهاء وهي أطلال .

(٨٢) « المجاهدية الجوانية » بجوار تربة نور الدين وفي الدارس قرب باب الخواصين، واقفها مجاهد الدين أبو الفوارس الكردي أحد أمراء الدولة النورية. وفي الروضتين أنه الأمير مجاهد الدين بزبان بن مامين أحد مقدمي الأكراد المتوفى سنة (٥٥٥) له أوقاف على أبواب البر بدمشق منها المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دفن فيها وهي لصيق باب الفراديس المجدد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الحضرة بجامع دمشق وغير ذلك. وقد درس بها قطب الدين النيسابوري وكثير غيره من الأعلام .

(٨٣) « المجاهدية البرانية » أيضاً بباب الفراديس كما في الدارس واليوم في زقاق حمام أسامة غربي الباذرائية لواقفها المشار إليه ، وفي مختصر الدارس أنها بجوار سوق البطيخ وبها قبر واقفها، درس بها غير واحد من المشهورين وهي جامع السادات .

(٨٤) « المسرورية » بباب البريد، إنشاء مسرور الحصي الطواشي صاحب خان مسرور بالقاهرة، وقيل: مسرور الملك الناصر العادلي وقفها عليه شبل الدواة الحسامي واقف الشبلية. درس بها جماعة من نهباء الفقهاء .

(٨٥) « المنكلائية » لا يعلم عنها إلا كونها قرب المدرسة القيمرية الجوانية كما في مختصر الدارس وإلى اليوم لا يزال في تلك البقعة مقام للشيخ عبد الله المنكلائي .

(٨٦) « الناصرية الجوانية » داخل باب الفراديس شمال الجامع والرواحية بشرق، وغربي الباذرائية بشمال وشرقي القيمرية الصعري والمقدمة الجوانية من آثار الملك الناصر صلاح الدين وهي اليوم دار. درس فيها بعض المشهورين من العلماء .

(٨٧) « المقدمة الجوانية » إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ولعلها هي التي كانت عامرة في القرن العاشر كما يؤخذ من ترجمة الشمس البهنسي من أن المقدمة والقصاعية والسيبائية كانت عامرة في عصره، وقد

خربت المقدمة أوائل هذا القرن واستحالت دوراً .

(٨٨) « المجنونة » شرقي الشامية البرانية بالعقبة، إنشاء شرف الدين ابن شرف الرازي المعروف بالسبعة مجانين، وهي معروفة بالسبعة المجاهدين أيضاً وذلك بعد الثلاثين والستائة .

(٨٩) « النجيبية » ملاصقة للمدرسة النورية وضريح نور الدين من جهة الشمال، أنشأها النجيب جمال الدين اقوش الصالحى أستاذ الملك الصالح .

مدارس الحنفية بدمشق :

كان بدمشق أوائل القرن العاشر إحدى وخمسون مدرسة للحنفية كما في الدارس وهي :

(٩٠) « الأسيدي » تقدم محلها وهي في المرجة الخضراء في الشرف القبلي .
(٩١) « الإقبالية » تقدم محلها وهي على الأحناف والشوافعة، وقد زالت ولا يعرف غير أطلالها وحجر بابها .

(٩٢) « الآمديّة » بالصالحية جوار الميطورية من الغرب، جاء في الدارس أنه مجهول حالها من القديم وهي على ما فهم في بستان الميطور قرب حي الأكراد .
(٩٣) « البدرية » قبالة الشبلية بالجبل عند جسر كحيل ويعرف بجسر الشبلية، وهي في بستان السنوسكي بطريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قبة تهدم أعلاها بجانب نهر ثورا، إنشاء الأمير بدر الدين المعروف بلالا ابن الداية من أمراء نور الدين سنة (٦٣٨) .

(٩٤) « البلخية » داخل الصادرية وبابها من حمام باب البريد، أنشأها الأمير ككر الدقاق للشيخ إبراهيم البلخي بعد سنة (٥٢٥) درست واتخذت مع الصادرية دوراً في عهدنا .

(٩٥) « التاجية » بزواية الجامع الأموي الشرقية غربي دار الحديث العروبية، وكانت زاوية للدررايش عرفت قديماً بابن سنان وبالسلارية جددت في سنة (٦٢٤) وهي غير موجودة .

(٩٦) « الناشية » إنشاء الملك الناشي الدقائي سنة نيف وخمسين وخمسمائة وهي مجهولة اليوم .

(٩٧) « الجلالية » لقاضي القضاة جلال الدين أبي المفاخر أحمد بن قاضي القضاة حسام الدين الرازي، كانت ملاصقة للبيمارستان النوري وهي الآن خراب .

(٩٨) « الجمالية » كانت بسفح قاسيون للأمير جمال الدين يوسف وكان يسكنها في القرن العاشر أيام الصيف عبد الصمد العكاري درست مع الدوارس وأخذت أنقاضها للدور .

(٩٩) « الجقمقية » هي شمالي الجامع الأموي، أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانترعها الملك الناصر حسن سنة (٧٦١) وأمر بعمارها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنه تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقماق وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة، ودرس بها جماعة وجعلت في القرن الماضي مدرسة للذكور وهي اليوم في حالة خراب أو ما يقرب منه، ترعزعت بعض أركانها بمدافع الفرنسيين سنة (١٩٤١) .

(١٠٠) « الجركسية » ويقال لها الجهاركسية وهي مشتركة بين الحنفية والشافعية وقيل: هي للحنفية فقط، واقفها جركس فخر الدين الصلاحي وكان نائباً عن الملك العادل ببانياس وبلاد الشقيف وتبين وهونين، وهو من أرباب الهمم العالية مشهور بصداقته وصدقائه، وهذه المدرسة فوق نهر يزيد بالصالحية بالقرب من الجامع الجديد معروفة بأوي إليها المهاجرون والدراويش وتنسب إليها المحلة كلها، اندرست ولم يبق منها سوى قبتين عظيمتين أعلاهما متهدم وجدرانها حجر نحيت .

(١٠١) « الجوهريّة » شرقي تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة. إنشاء الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري سنة (٦٧٦) كان بعضهم أواخر القرن الماضي قسمها ثلاث دور وجعل عليها مرصداً، وقام ولداه بعده فأخذوا ما أنفق والدهما عليها وأعادها إلى الوقف فجعلت مدرسة للصبيان وحصل الانتفاع بها .

(١٠٢) « الحاجبية » والخانقاه بها قبلي المدرسة العمرية بالصالحية على

مقربة من مرقد الشيخ عبد الغني النابلسي، لإنشاء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الإينالي سنة (٨٦٥). وقد تداعت فأخذت أنقاضها منذ نحو سبعين سنة لتبليط الطريق، وهي أمام جامع الحاجب بالجركسية، أصبحت الآن عرصة محاطة بجدار وحوض مائها لا يزال موجوداً ومأذنتها كانت جميلة .

(١٠٣) « الخاتونية البرانية » مسجد خاتون على الشرف القبلي في مكان كان يسمى صنعاء دمشق مظل على وادي الشقراء، وفتتها زمرد خاتون أخت الملك دقاق صاحب دمشق، وهي أم شمس الملوك إسماعيل ومحمود زوجة تاج الملوك بوري توفيت سنة (٥٥٧)، وكانت حافظة للقرآن سمعت الحديث من أبي الحسن بن قيس واستنسخت الكتب وقد خربت هذه المدرسة في أواخر حكم المماليك فنقلت أنقاضها لتعمر بها مدرسة غيرها في باب الجابية، وكان من مدرسيها علي البلخي وشرف الدين عبد الوهاب الحوراني وصدر الدين البصروي وصدر الدين الأدمي .

(١٠٤) « الخاتونية الجوانية » كانت بمحلة حجر الذهب محلة البيمارستان النوري، لإنشاء خاتون ابنة سعيد الدين اتسز وزوجة نور الدين الشهيد، وقفها أخوه سعد الدين عليها، ومن درس بها ابن شداد وابن أبي جرادة .

(١٠٥) « الدماغية » تقدم محلها عند جسر ثورة قرب معمل الغزل القديم وأنها على الفريقيين الحنفية والشافعية، درس بها الافتخار الكاشغري والسنجاري وابن سحنون خطيب النيرب وغيرهم، أصبحت اليوم حدائق .

(١٠٦) « الركنية » ويقال لها الركنية البرانية تمييزاً لها عن الركنية الجوانية المار ذكرها، وهي من إنشاء الأمير ركن الدين منكورش عتيق فلك الدين سنة خمس وعشرين وستمائة، درس بها جلة من الفقهاء وهي في حي الأكراد بالسفح، اختلست منها قطعة وجعلت دوراً، ولا تزال تقرأ في حائطها كتابات كوفية .

(١٠٧) « الريحانية » جوار النورية، إنشاء ريحان الطواشي من أكبر خدام نور الدين سنة (٥٦٥) وهي كتاب للذكور. ولا يزال على بابها حجر زبر عليه بخط جميل الأوقاف المرصدة لها .

(١٠٨) « الزنجارية » خارج باب توماء وباب السلامة ويقال لها الزنجيلية

كانت تجاه دار الأطلعمة من أحسن المدارس. وفي مختصر الدارس أنها هي التي على بابها هذا الرخام من عجائب الدنيا وهذه الصناعة التي كانت كأنها بين أيديهم كالعجين. أنشأها نائب عدن فخر الدين الزنجيلي صاحب اليمن أيام الملك العادل أنشئت سنة (٦٢٦) وفي رواية أنه الأمير عز الدين عثمان ابن الزنجيلي صاحب عدن، درس بها أجلة الفقهاء ولا يعرف محل هذه المدرسة ولعلها كانت شرقي السقيفة وهي اليوم حدائق .

(١٠٩) « السيفية » بجوار الجامع الأموي ومن القديم لا يعرف عنها غير هذا .

(١١٠) « السبائية » خارج باب الحايبة وشمالي بئر الصارم والتربة والزاوية بها وهي في آخر شارع الدرويشة، إنشاء نائب الشام سيباي أمير السلاح بمصر سنة (٩٢١) جعلها جامعاً ومدرسة وزاوية وتربة. قال في المختصر عمرها بالحجر الأبلق ولم يدع بدمشق مسجداً مهجوراً ولا مدفناً معموراً إلا وأخذ منه من الأحجار والآلات والرخام والأعمدة ما أحب حتى سماها علماء دمشق « جمع الجوامع » وهي منذ سبعين سنة مكتب ابتدائي للذكور، وتقام فيها الصلوات والأذكار .

(١١١) « الشبلية البرانية الحسامية » بسفح قاسيون بالقرب من جسر ثورة، إنشاء شبل الدولة كافور الحسامي الرومي طواشي حسام الدين بن لاجين والدست الشام سنة (٦٢٦) وقد دفن بها، وهي فوق جسر ثورة من طريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قطعة يسيرة، درس بها وأعاد بها عظماء من الفقهاء منهم الصفي السنجاري والشمس ابن الجوزي وابن قاضي آمد وابن الغويرة والبصروي والأذرعي والكاشغري والطوسي والكفيري والتركاني والعماد الجيلي وابن بشارة. قال ابن خلكان: إن ست الشام بنت أيوب أنشأت مدرسة بظاهر دمشق وقد دفن فيها الملك المعظم وهي أيضاً وولده حسام الدين عمر بن لاجين وزوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وحسام الدين هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق قاسيون ، ولهما شهرة في مكانهما وأوقاف كثيرة اه . وإلى اليوم لا تزال

القبور ظاهرة للعيان ، وهناك حوض ماء وإيوان .
 (١١٢) « الشبلية الجوانية » قبالة الأكرزية داخل باب الجابية، إنشاء شبلي
 الدولة كافور المعظمي صاحب المدرسة قبلها، وهي أمام محكمة الباب الشرعية
 القديمة وقد أصبحت دوراً .

(١١٣) « الصادرية » داخل باب البريد على باب الجامع الأموي الغربي،
 إنشاء شجاع الدين والدولة صادر بن عبد الله قال صاحب الدارس : وهي أول
 مدرسة أنشئت في دمشق (٤٩١) درس بها ابن زنكي الكاشاني والبلخي وأبو
 العيش وأوحد الدين الدمشقي والغزنوي رشيد الدين وابن مسعود والكعكي
 والرضي الملتاني الهندي والبرهان الغزنوي المعروف بأبي الهول وابن الشجاع
 وابن أسد الدين الدمشقي. وهي دور مساكن منذ استصفها المستصفون من
 عهد قريب .

(١١٤) « الطرخانية » قبلي الباذرائية إنشاء ناصر الدولة طرخان أحد
 كبار أمراء دمشق وهي منازل ومساكن .

(١١٥) « الطومانية » تجاه دار الحديث الأشرفية غربي الشرفية والفقاعية
 بسوق العسرونية ولعل واقفها طومان النوري. وقد جعلت في أواخر القرن
 الماضي حانة تباع فيها الخمر ثم صارت حوانيت وداراً .

(١١٦) « العذراوية » مر محلها وأنها على الخفية والشافعية. درس بها
 العز السنجاري والسمرقندي والرازي .

(١١٧) « العزيزية » أنشئت (٦٣٥) جوار المدرسة المعظمية إنشاء الملك
 العزيز عثمان بن العادل شقيق الملك المعظم، وفي العزيزية دفن الملك الناصر
 صلاح الدين يوسف بن أيوب ولا يزال قبره معروفاً يزار ويقصده العالم من
 الأقطار .

(١١٨) « العزيزية البرانية » بالشرف الأعلى شمالي ميدان القصر خارج
 دمشق وهي البستان الذي أصبح معملاً للكهرباء وقد زال أثرها. أنشأها
 الأمير عز الدين استاد دار^(١) المعظمي المعروف بصاحب صرخد (٦٢٦)

(١) هو من يتكلم في إقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم . وبعضهم يرسمها
 استاد الدار .

درس بها جماعة منهم محمد الكريمي المتوفى سنة (١٠٦٨) أي إنها كانت عامرة إلى القرن الحادي عشر .

(١١٩) « العزية الجوانية » المعروفة بالكوشك أي القصر لإنشاء المقدم ذكره وهي غير معروفة .

(١٢٠) « العزية » بجامع دمشق منسوبة له أيضاً، قال في الدارس: وشرط واقفها أنه بنى مدرسة بالقدس الشريف على أنه متى كان القدس بيد المسلمين يكون الوقف على المكان المذكور ، وإن تعطل أي تعطيل القدس كان مدرسة بالجامع الأموي المعمور جوار مشهد علي. درس بها حين تعطل القدس القاضي مجد الدين قاضي الطور وهي غير موجودة .

(١٢١) « العكّمية » شرقي جبل الصالحية وغربي الميطورية إنشاء الأمير علم الدين سنجر المعظمي سنة (٦٢٨) لم يبق لها أثر .

(١٢٢) « الفتحية » نسي مكانها منذ قرون قال ابن شداد: وهي برحبية خالد وهي مجهولة أيضاً، ومنشئها الملك فتح الدين صاحب بارين .

(١٢٣) « الفُرّخاشية » تعرف بمعز الدين فرخشاه وواقفتها حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله والدة عز الدين فرخشاه وهي زوجة شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين سنة (٥٧٨) وهي مقابلة التكية السلیمانية بالشرف الأعلى شمالي حديقة الأمة، دثرت .

(١٢٤) « القچماسية » داخل باب النصر ودار السعادة إنشاء نائب الشام قچماس الإسحاقی الجركسي المتوفى سنة (٨٩٢). وأول من درس بها شمس الدين أبو تراب محمد الأمامي وهي عامرة في الجملة .

(١٢٥) « القصاعية » بجارة القصاعين إنشاء خطلشاه خاتون بن ككجا سنة (٥٩٣) كانت عامرة في القرن العاشر، ودرس بها محب الدين العلواني وهو آخر من درس بها من الفقهاء وهي في جهة الخيضرية جعلت دوراً .

(١٢٦) « القاهرية » بالصالحية على طريق الترام في الزقاق الذي وراء سوق الجمعة على ضفة نهر يزيد لصيق دار الحديث القلانسية المشهورة بالخانقاه وغربي العمرية يفصل بينهما الطريق، وهي مساكن ولم يبرح اسمها معروفاً بالقاهرة وهي أسرة اسمها بنو القاهرة وهي الآن دار بني الحشاش .

(١٢٧) «الظاهرية الجوانية» تقدم محلها في مدارس الشافعية وأنها للحنفية أيضاً، أول من درس بها الصدر سليمان وابن النحاس وابنه شهاب الدين والسمرقندي والجوبيري وابن العز وعفيف الدين الآمدي وقوام لطف الله الحنفي.

(١٢٨) «القليجية» واقفها سيف الدين بن قليج النوري بين الحضراء والصدورية السالفتين بالبرورية سنة (٦٢٠)، وجدد بناءها قاضي الشام محمد جلبي سنة (٩٢٣). درس بها الشمس علي بن قاضي العسكر وفخر الدين بن خليفة البصروي وتقي الدين أحمد وعلاء الدين علي القونوي وغيرهم، وهي في سوق التبن اتخذت بيتاً ملاصقاً لدار بني العظم، ولعلها هي التي كانت مجمع الفضلاء والعقلاء للاستشارة إذا دهم أهل دمشق أمر مهم لا القليجية التي كانت داخل باب توما كما روى بعض المؤرخين .

(١٢٩) «القايمازية» داخل بابي الفرج والنصر، لإنشاء صارم الدين قايماز النجمي المتوفى سنة (٥٩٦)، كان من عمال السلطان صلاح الدين يتولى أسبابه في مخيمه وبيتوته ويعمل عمل أستاذ الدار، وكلما فتح السلطان بلدة سلمها إليه ليروضها. وهي بالمناخلية درست عندما جرى توسيع الطريق .

(١٣٠) «المرشدية» على نهر يزيد بالصالحية جوار دار الحديث الأشرفية لإنشاء خديجة خاتون بنت الملك المعظم بن العادل أخت الناصر داوود سنة (٦٥٦)، وهي من المدارس التي بقيت إلا أن داخلها متهدم ومجموعها مختلس .

(١٣١) «المعظمية» بالصالحية بسفح قاسيون الغربي جوار المدرسة العزيزية، أنشئت (٦٢١) نسبة إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل صاحب دمشق وهي مدفن .

(١٣٢) «المعينية» بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العسرونية، إنشاء معين الدين أتمز، وهي دراسة .

(١٣٣) «الماردانية» على ضفة نهر ثورة لصيق الجسر الأبيض معروفة، أنشأها عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين زوجة الملك المعظم (٦١٠) درس بها جلة من الفقهاء، وهي جامع عامر بالصناعات وفيه مدفن بني المؤيد .

(١٣٤) «تقدمية الجوانية» داخل باب العمارة لإنشاء الأمير شمس الدين

محمد بن المقدم في الأيام الصلاحية أنشئت سنة (٥٧٥)، وهي في حكم المفقود استصفي قسم منها وجعل دوراً وداخلها غرف تؤجر وحرمها مخزن .

(١٣٥) « المقدمة البرانية » تجاه الركنية بسفح قاسيون شرقي الصلاحية لإنشاء فخر الدين إبراهيم بن المقدم، غير موجودة ولعلها دار الشريباتي وحوض مأها لم يزل كما كان أمام حمام المقدم .

(١٣٦) « المنجكية » بجوار خانقاه الصوفية بالحاقماقية ، وفي الدارس أنها بالخلخال. وكان الخللخال حديقة أخذت للشكنة الحميدية غربى المدينة . وهي قبلى الصوفية وغربها، إنشاء الأمير سيف الدين منجك من ممالك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة (٧٧٦) وهي اليوم حدائق ولا أثر لها .

(١٣٧) « الميطورية » شرقي جبل الصلاحية في حى الأكراد، وقفنها فاطمة خاتون بنت السلار سنة (٦٢٩) خربت .

(١٣٨) « المقصورة الحنفية » وهي محل التدريس في حرم الجامع الأموي وقف عليها كاتب الممالك القاضي فخر الدين أوقافاً .

(١٣٩) « النورية الكبرى » إنشاء نور الدين سنة (٥٦٣)، والصحيح أنها إنشاء ولده الصالح إسماعيل وهي بعض دار هشام بن عبد الملك الأموي، وفي الدارس أنها كانت قديماً دار معاوية بن أبي سفيان وكانت لمعاوية دار أخرى بباب الفراديس تحت السقيفة يقال: إنها الدار التي كانت معروفة بدار ابن المقدم. ولا تزال المدرسة عامرة إلى يومنا إلا أن بعض جيرانها اختلسوا بعضها من الشمال .

(١٤٠) (النورية الصغرى) كان في القلعة جامع تقام فيه الجمعة إلى القرن العاشر وبه مدرسة حنفية تسمى النورية الصغرى، قال: ابن شداد هي مدرسة بجامع القلعة، وكان مدرس القلعة أوائل القرن التاسع القاضي شمس الدين الزرعي وهو الذي أزم ببناء مأذنة الجامع بالقلعة سنة (٨٢٤) التي كانت أحدثت سنة (٧٦٢).

(١٤١) « النغمورية » بالصلاحية. إنشاء الأمير جمال الدين بن يغمور الباروفى اختلست .

مدارس المالكية بدمشق :

كان بدمشق أربع مدارس للمالكية وهي :

(١٤٢) « الزاوية المالكية » وقف السلطان صلاح الدين ملاصقة المقصورة الخفية من غربي الجامع الأموي درس بها بعض فقهاء المالكية .
 (١٤٣) « الشرايشية » في القنوت وفي الدارس أنها بدرب الشعارين لصيقة حمام صالح شمالي الميطوريين داخل باب الجابية، وكانت قبل أن تصبح مدرسة للأيتام محكمة شرعية واختلس الجيران بعضها. وهي إنشاء شهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرايشي التاجر السفار ولا يعلم عنها غير هذا .

(١٤٤) « الصمصامية » شرقي دار القرآن الوجيهية وقرب المسرورية، وقف عليها صاحب شمس الدين غبريال الأسلمي، وذكر المؤرخون أن سنان القرماني والد القرماني صاحب التاريخ خرب مدرسة المالكية بالقرب من البيمارستان النوري وتعرف بالصمصامية وحصل به الضرر بمدرسة النورية ببعلبك، وولي نظارة البيمارستان ونظارة الجامع الأموي وانتقد عليه أنه باع بسط الجامع وحصره فقتل بسبب ذلك هو وناظر السليمية حسين سنة (٩٦٦) خنقا معاً بدار السعادة بشاشيهما وعمامتهما على رأسيهما. ولو نفذ حكم الشرع هكذا في المختلسين والغاصبين لما ذهبت كل هذه المدارس مع أمس الدابر.
 (١٤٥) « الصلاحية » إنشاء السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النوري غير معروفة أيضاً .

وكان في زقاق حمام القاضي مدرسة للمالكية على ما في مفكرات طارق .

مدارس الحنابلة بدمشق :

كان بدمشق عشر مدارس للحنابلة وهي :

(١٤٦) « الجوزية » في البزورية كانت في عهدنا محكمة شرعية ثم جعلتها جمعية الإسعاف الخيري مدرسة للأيتام ثم حرقت في الثورة السورية، إنشاء محيي الدين بن جمال الدين بن الجوزي .

(١٤٧) (الجاموسية) غربي العقبة خارج دمشق ابتلعها وأوقفها كما ابتلع غيرها المتولون عليها .

(١٤٨) (الشريفية) عند القباقيبة العتيقة قديماً ودار بني الغزي في العمارة أمام القرن بالجانب الشرقي وهي الآن دار. من إنشاء شرف الإسلام عبد الوهاب أبي الفرج الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق المتوفى سنة (٥٣٦هـ) وظلت يتعاقب عليها أولاده وأحفاده حيناً من الدهر .

(١٤٩) (الصاحبة) بسفح قاسيون من شرق الصالحية. إنشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين وست الشام، دفنت في فنائها سنة (٦٥٣هـ) وجعلت اليوم مكتباً ابتدائياً للذكور .

(١٥٠) (الصدرية) إنشاء صدر الدين أبي الفتح أسعد المنجا التنوخي العدل سنة (٦٣٠هـ) وكانت يجوار الجامع في زقاق الريحان والعامّة تزعم أن قبر معاوية بن أبي سفيان بها وليس بصحيح .

(١٥١) (الضيائية المحمدية) شرقي جامع المظفرية بجبل قاسيون. إنشاء ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي سنة (٦٢٠هـ) كان علامة عصره درس بها بانيها أولاً ولا يعرف عنها شيء .

(١٥٢) (الضيائية المحاسنية) بسفح قاسيون شرقي جامع المظفرية وأمام جامع الحنابلة، بقي منها أربع نوافذ وجدار، أنشأها ضياء الدين محاسن ووقفها على من يكون أمير الحنابلة .

(١٥٣) «العمرية الشيخية» وسط دير الحنابلة بسفح الجبل، إنشاء أبي عمر الكبير الحنبلي الزاهد المعروف بابن قدامة سنة (٥٥٠هـ) وهو الذي نسبت الصالحية إليه لتزوله بمسجد أبي صالح بظاهر باب شرقي، وهي الآن خراب أكل النظار عليها أوقفها واستباحوا أخذ خزائنه كتبها المهمة. وفي تاريخ الصالحية أنها أكبر المدارس بدمشق والصالحية لأنها مشتملة على ثلاثمائة وستين خلوة على ما قيل، والعامر منها الآن (عصر مؤلف تاريخ الصالحية) أقل من ذلك اه. وقال في تاريخ الصالحية أيضاً: إن أبا عمر بنى المدرسة وولده الشيخ

أحمد بن المصنع ثم كثر البناء المتسع بالصالحية حول المدرسة حتى بلغ من القبلة حد المدينة ومن الشرق برزة إلى الميطور - وبستان الميطور الآن معروف بالقرب من جسر النحاس قرب حي الأكراد. أما الآن فهي خراب يباب، وقد درس بها أئمة أعلام فيما سلف .

(١٥٤) (العالمة) مدرسة للحنابلة ودار للحديث شرقي الرباط الناصري تحت جامع الأفرم غربي سفح قاسيون، وقفتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي سنة (٦٣٠) وهي خراب بلقع .

(١٥٥) (المسمارية) قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق قبلي الفتحية قرب مأذنة فيروز. واقفها التاجر الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المغربي من أهل القرن السادس جعلت الآن مخفراً للشرطة .

(١٥٦) (المنجائية) زاوية بالجامع الأموي تعرف بابن منجا . وكان في سوق القمح بدمشق :

(١٥٧) (المدرسة الحنبلية) تولى عمارتها سعد الدين بن عبد العزيز إمام الملك الأشرف موسى بن الملك العادل .

المدارس الحديثة :

هذا ما ذكره صاحب الدارس من دور القرآن ودور الحديث ومدارس الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة، وقد أنشئت بعد عهده في دمشق عدة مدارس في القرن الثاني عشر وهي :

(١٥٨) « المرادية » جنوب الظاهرية الجوانية وتفصل بينهما الآن سكة ضيقة لصاحبها الشيخ مراد المرادي (مراد بن علي بن داود بن كمال الدين بن صالح البخاري النقشبندي سنة (١١٣٢) وكانت قبل ذلك خاناً يسكنه أهل الفسق والفجور وقد خربت زمن الحرب العامة وهي الآن خراب .

(١٥٩) « النقشبندية البرانية » هي في سوق ساروجا بناها الشيخ مراد المرادي وكانت داره، وبني إلى جنبها مسجداً وهي الآن تكية ومترز لأحفاده .

(١٦٠) « السليمانية » مدرسة سليمان باشا العظم، أسست في باب البريد جعلت زمناً مكتباً للإناث وقد رمت بعد خرابها وسكنها دراويش .

(١٦١) « العبدلية » مدرسة عبد الله باشا العظم، أسست في سوق السلاح سنة (١١٩٣) ولا تزال موجودة .

(١٦٢) « الإسماعيلية » مدرسة لإسماعيل باشا العظم في سوق الخياطين، أسست سنة (١١٤١) والطابق السفلي منها من بناء إسماعيل باشا العظم والعلوي من بناء أسعد باشا العظم، ولكل منهما وقف خاص به، وكانت المدرستان الأخيرتان من المدارس العامرة إلى عهد قريب فأصبحتا مأوى الفقراء وذهبت أوقافهما أو كادت .

وهناك مدارس حدثت بعد عهد صاحب الدارس يعثر على أسمائها مبعثرة في كتب التاريخ والمدونات الحديثة ولا أثر لها لعدم مكانتها أو لطارئ طراً عليها. والطوارئ على مثل هذه المدارس قد تحدث في كل عقد أو عقدين من السنين مثل:

(١٦٣) « المدرسة الحجازية » التي نزل بها أحمد بن شمس الدين الصفوري ولا نعرفها الآن .

(١٦٤) « المدرسة الجوزية » انقطع إليها إبراهيم السقا سنة (١٠٥٨) ودرس بها إبراهيم بن حمزة سنة (١١١٩) .

(١٦٥) « المدرسة الحافظية » بصاحبة دمشق درس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة (١٠٦٧) .

(١٦٦) « مدرسة أحمد شمسي باشا » في سوق الأروام .

(١٦٧) ومن المدارس التي لم يذكرها صاحب الدارس مدرسة السلطان المؤيد التي بناها سنة (٨١٧) الملك المؤيد في دمشق وسماها « المؤيدية » وأنشأ سوقاً نسب إليه ولا نعلم عنها غير هذا .

ومنها (١٦٨) « القارية » مدرسة ابن القاري قال ابن طولون: لم يكن في الصف الشمالي مسجد غير مسجد البيع من باب الجابية إلى باب شرقي يوجه إلى القبلة، قيل: إن الصحابة بايعوا فيه، وهو الآن مدرسة بناها الخوارج محمد بن يوسف القاري سنة (٨٨٧) وبنى إلى جانبها داراً عظيمة بالغ في إتقانها وقد أصبحت هذه الدار والمدرسة دوراً صغيرة وحواصل للخشب .

ومنها (١٦٩) « المدرسة المزلقية » بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى

الصابونية، أنشأها تاجر الخالص الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة (٧٥٤) كان أبوه لباناً حكي عن نفسه أن أول سفرة سافرها في البحر كسب فيها مائة ألف دينار وثمانمائة ألف درهم وانفتحت عليه الدنيا وعمر أملاكاً كثيرة وأنشأ على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب وعيون التجار، أنفق على عمارها ما يزيد على مائة ألف دينار، وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية الحسن ولم يسبقه أحد من الملوك والخلفاء إلى مثل ذلك، وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز ووقف على سكان الحرمين الشريفين الأوقاف الكثيرة .

ومن المدارس الحديثة بناء مدرسة الحقوق على شاطئ بردى في المرجة، وهي من بناء الترك في آخر أيامهم وهي من أجزاء الجامعة السورية. ومدارس الدولة إلى اليوم تقوم على أنقاض البيوت القديمة أو الحديثة أو بقايا الجوامع والمدارس. وهمم الأفراد قاترة لسد هذه الثلمة. ومدارس الطوائف والتبشير تجعل في الكنائس والبيع على الأغلب. ومن أهم مدارس الحكومة مدرسة التجهيز والمعلمين وهي دار خاصة في شرقي المدينة كانت لغني إسرائيلي اسمه عنبر، فوقعت في ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها وجعلت مدرسة إعدادية في سنة (١٣٠٤) شرقية، وفيها من ضروب الصناعات في البناء شيء كثير وقد خلفتها المدرسة التجهيزية غربي البلد على الشرف الأعلى وهي من أجمل أبنية دمشق على عهدها الحديث، أما سائر المدارس الحديثة فيستحي المرء من ذكرها إذ لا شأن لها وليس للأمة ولا للحكومة يد في إنشائها .

مدارس الطب بدمشق :

كان بدمشق أربع مدارس للطب وهي :

(١٧٠) «الدخوارية» بالصاغة العتيقة قرب الخضراء قبلي الجامع وفي رواية شرقي سوق المناخيلين: إنشاء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، وفي رواية: عبد المنعم بن علي المعروف بالدخوار سنة (٦٢١) جعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن

يستغل منها ما ينصرف في مصالحتها وفي راتب المدرس والمشتغلين بها . ووصى أن يكون المدرس بها شرف الدين علي بن الرحبي . قال ابن أبي أصيبعة في ترجمة شرف الدين بن الرحبي من كبار أطباء دمشق المتوفى سنة (٦٦٧) إن مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وقف على الدار الشمالية وجعلها مدرسة للطب وربما هي الدخوارية بعينها . وفي رواية أنها وبستان الدخوار عند أراضي الجامع الأموي من قصر اللباد شمالها نهر ثورة ، درس بها واقفها وبدر الدين محمد بن قاضي بعلبك والديسري وابن حيدرة الرجيجي وكمال الدين الطبيب والجمال أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي وسليمان بن داود ومحمد ابن شهاب الدين أحمد الكحال وعز الدين السويدي . وهي اليوم دور ولا يعلم زمن دمارها .

(١٧١) «الديسرية» غربي باب البيمارستان النوري والصلاحية وبآخر الطريق من قبله لصاحبها عماد الدين محمد الديسري من مدرسي المدرسة السابقة ولم يعرف عنها غير هذا .

(١٧٢) «الربيعية» لم يذكرها في الدارس وقال في مختصره :إنها غربي البيمارستان النوري والمدرسة الصلاحية بآخر الطريق قبله يقال :إنها هي المسجد انذي أنشأه قاضي القضاة محمد بك وكان بها أيضاً صيدلية منظمة لإنشاء عماد الدين محمد بن عباس الربيعي المتوفى سنة (٦٨٦) . وجاء في الدارس :وفي سنة (٧٤٩) أقامها جديدة عبد الله بعد أن صارت تل تراب وجعلها يرسم تأديب الأطفال قاضي القضاة محمد بك الرومي الحنفي من مماليك السلطان بايزيد بن عثمان ثم جعلت دار بني البكري ونسفت في الثورة الأخيرة بالديناميت .

(١٧٣) «اللبودية» خارج البلد ملاصقة بستان الفلك وحمام الفلك ، لإنشاء نجم الدين يحيى بن اللبودي (٦٦٤) درس بها جمال الدين الزواوي . قال في الوافي : هو يحيى بن محمد الوزير الصدر نجم الدين بن اللبودي الدمشقي الطبيب ترقى بالطب عند صاحب حمص إبراهيم ووزر له ثم اتصل بالناصر صاحب الشام فجعله ناظر الدواوين توفي سنة سبعين وستمائة ودفن في تربته التي بالقرب من بركة الحميريين وجعل تربته دار طب وهندسة وقرر لها شيخاً وقراء . وقال فيه :إنه ألف في الرد على الموفق عبد اللطيف البغدادى

كتاباً وهو في الثالثة عشرة وهو صاحب دار الطب والهندسة. ومدرسته اليوم، متهدمة واسم البستان بستان اللبودي شرقي بستان الشموليات من أراضي باب السريجة. هذه هي المدارس الطبية بدمشق وقد دثرت ودثرت أسماؤها. ومن عرف أن القدماء كانوا يعنون بالطب أكثر مما نتصور لا يستكثر على دمشق أربع مدارس في الطب في الدهر الغابر. فقد ذكر المؤرخون أنه كان لكل من أبي المجد بن الحكم ومهذب الدين النقاش ورفيع الدين الجيلي مجالس عامة للمشغليين عليهم بالطب في دمشق. قال السبكي في معيد النعم: ومن حقهم - أي السلاطين - إقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها يعلم أهلها أمر دينهم، ومن العجب أن أولياء الأمور يستخدمون في كل حصن طبيباً ويستصحون أطباء في أسفارهم بمعلوم من بيت المال ولا يتخذون فقيهاً يعلمهم الدين، وما ذلك إلا أن أمر أبدانهم أهم عليهم من أمر أديانهم فعوذ بالله من الخذلان اه .

وفي المحرم من عام (١٣٢١) صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء مدرسة طبية ملكية بدمشق وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ومثلها لنفقتها السنوية ولوازمها لمنافسة مدرستي الطب في بيروت الأميركية واليسوعية. فشرع في خريف تلك السنة بالتدريس في دار استؤجرت موقفاً في طريق الصالحية ريثما تبنى المدرسة الجديدة .

وفي أوائل دخول الجيش العربي والإنكليزي آخر أيام الحرب العامة أنشئت .

(١٧٤) «مدرسة طبية» على أنقاض مدرسة الأتراك جعلت في مستشفى الغرباء التي كانت في مقابر الصوفية أو مقبرة البرامكة ثم أنشئ لها مدرج باسم مدرج الجامعة السورية .

مدارس حلب (*) :

نشأت المدارس في حلب في العهد الذي أنشئت فيه بدمشق ولكن على

(*) تفضل الشيخ مسعود الكواكبي فألقى نظره على هذا الفصل في المدارس وعلى الفصل الآتي في الزوايا والربط .

صورة مصغرة، وقد بنيت أول مدرسة فيها سنة (٥١٧هـ) وهي :
 (١٧٥) « المدرسة الزجاجية » بناها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب، ولما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك إذ كان الغالب عليهم التشيع، فكان جماعته يبنون في النهار والشيعنة تنقض ما بنوه في الليل .
 وقال بعض المؤرخين : إنها من بناء عبد الرحمن بن العجمي لأصحاب الشافعي، وقد خربت وأصبحت دوراً للسكنى، ويغلب أن يكون مكانها في محل خان الطاف من محلة الجلولم (إعلام النبلاء) .

(١٧٦) « النورية » أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٤٤هـ) وتعرف بالنفرية أيضاً وهي تجاه المدرسة الصحابية .

(١٧٧) « العسرونية » كانت داراً لأبي الحسن علي بن أبي الثريا وزير بني مرداس فصيرها الملك العادل نور الدين سنة (٥٥٠هـ) مدرسة وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، وقد كانوا سنة (٨٧٤) فوق المئة، واستدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون فولاه تدريسها والنظر فيها، وهو أول من درس بها فعرفت به، وبنى له نور الدين مدارس بمنجج وحماة وحمص وبلبلك ودمشق، وقد كان لها بقية إلى سنة (١٣٤٣) إذ شرعت إدارة الأوقاف بخرابها وإقامة دور للسكنى مكانها يضاف ريعها للأوقاف .

(١٧٨) « الصحابية » أنشأها القاضي بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد، قال ابن خلكان: إن حلب كانت قبل أن يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي للشافعية، وذلك في سنة إحدى وستمئة، ثم عمر في جوارها داراً للحديث وجعل بين المكانين تربة يدفن فيها، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء وحصلت بها الاستفادة والاشتغال وكثر الجمع بها. وتقع هذه المدرسة في الزاوية الغربية من الحنية المعروفة الآن بحنية الفریق شرقي محلة السفاحية، ولم يبق منها ولا من دار الحديث سوى حجر مكتوب وقد

كانتا عامرتين في القرن العاشر كما في إعلام النبلاء .

(١٧٩) «الظاهرية» وتعرف أيضاً بالسلطانية، وهي للشافعية والحنفية أسسها الملك الظاهر (٦١٣) وتوفي ولم تم وأكملها شهاب الدين طغرل أتابك وعلى بابها أنها أنشئت سنة (٦٢٠) وهي اليوم خراب إلا بضع حُجَرٍ جددت يسكنها بعض الفقراء ومحرابها من بدائع الصنعة .

(١٨٠) «الأسدية» أنشأها الأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة (٥٦٤) وهو عم صلاح الدين. وهي في محلة باب قنسرين باقٍ منها قبلية وقبة وقد جدد فيها سنة (١٣١٦) ثماني حجرات .

(١٨١) «الشعبية» كانت فيما قالوا مسجداً أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب يعرف بالغضايري نسبة لعلي بن عبد الحميد الغضايري. فلما ملك نور الدين حلب وصل الشيخ شعيب بن أبي الحسن الفقيه الأندلسي فصيرت له مدرسة فعرفت به، وعلى جدارها تاريخ بناء نور الدين سنة (٥٤٥) وهي في القرب من باب أنطاكية مسجد تقام فيه الصلوات وهي في إدارة الأوقاف (إعلام النبلاء) .

(١٨٢) «الشرفية» أنشأها شرف الدين عبد الرحمن بن العجمي، وأنفق عليها ما يربو على أربعمئة ألف درهم، ووقف عليها أوقافاً جليلة، وكان فيها غرف وإيوان وقاعة للدرس، وفي بنائها وأبوابها من بدائع الصنعة ما يفتخر به الصناع، وعلى بئرها قنطرة من الحديد مكتوب عليها بالقلم المجوز أنها صنعت سنة أربعين وستمائة وهي من بدائع الرسم. وفي سنة (١٣٤٣) شرع في تعمیرها واتخذ من الجهة الشرقية منها بهو كبير بأربعة أعمدة يصلح للمحاضرات وأماكن أخرى .

(١٨٣) «الرواحية» أنشأها ركن الدين هبة الله محمد بن عبد الواحد الحموي وقال في الوافي: زكي الدين بن رواحة الحموي الشاعر المعدل كان كثير الأموال محتشماً، أنشأ مدرسة بدمشق وأخرى بحلب وشرط على الفقهاء والمدرسين شروطاً صعبة، وأن لا يدخل مدرسته يهودي ولا نصراني ولا حنبلي حشوي توفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وقد اندثرت في وقعة تيمور ثم أصلحت في زمن قصره كافل حلب. أما الآن فقد صارت دوراً ولم

يبقى منها سوى باب ذي أحجار ثلاثة سود، وباب مسدود يعلوه حجرة عظيمة، وهي واقعة في أول الزقاق المعروف بزقاق الزهراوي شمالي المدرسة الشرفية الأنفة الذكر .

(١٨٤) « البدرية » أنشأها بدر الدين عتيق عماد الدين شادي في صدر درب البازيار ويعرف الآن بزقاق الزهراوي وهي دائرة .

(١٨٥) « السيفية » أنشأها الأمير سيف الدين علي بن علم الدين سليمان ابن جندر (٦١٧) مشتركة بين الشافعية والحنفية، وقد دثرت هي وسميتها التي جعلت لتدريس مذهبي مالك وأحمد بن حنبل كما يأتي، لكن يتعين موقع إحداهما في قبلي تربة الكليباتي بجانب محلة الكلاسة، بما هو موجود من تربة الباني التي لم يذكر التاريخ أنها في جوار مدرسته، وهي اليوم قبة قديمة سقفتها خرب فيها قبره .

(١٨٦) « الزيدية » وتعرف بالألواحية لتزول الألواحي فيها، هي داخل باب أنطاكية بالقرب من المدرسة الشعبية، أنشأها إبراهيم بن إبراهيم المعروف بأخي زيد الكيال انتهت سنة (٦٥٥) درس فيها أحمد بن محيي الدين العجمي .

(١٨٧) « القوامية » داخل باب الأربعين بالقرب من حارة الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل غياث الدين وداخلها ربط للقلندرية .

(١٨٨) « الشادبختية » أنشأها جمال الدين شادبخت نائب نور الدين محمود بحلب (٥٨٩)، وممن ولي تدريسها أحمد بن كمال الدين بن العديم المتوفى (٦٣٨) وكانت حلب يومئذ أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ. وقد تولى تدريسها بعده كثيرون من الفضلاء من بني الشحنة .

(١٨٩) « الظاهرية أيضاً » أنشأها الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب (٦١٦) للشافعية وأنشأ إلى جانبها تربة ليدفن فيها من يموت من الملوك والأمراء، وهي قبلي حلب مما يلي باب المقام لم يبق منها سوى المحراب وعمودين وحوض مضمن بديع .

(١٩٠) « الهروية » أنشأها الملك الظاهر غازي لأجل الشيخ الذي كانت له عنده منزلة رفيعة وهو علي الهروي السائح وهي قبلي حلب، خربت في فتنه

التتر ولم يبق منها سوى قبره في قبة داخل كرم فستق، وكانت وفاته سنة إحدى عشرة وستمائة .

(١٩١) «الفردوس» أنشأها الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب وهي جليلة، وجعلتها تربة ومدرسة وربطاً ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء والصوفية، ولا تزال أسوارها باقية وجامعها عامراً، لكنها جعلت مدفناً للفلاحين النازلين في جوارها وتحتاج إلى ترميم، وهي مثال جميل من أمثلة الهندسة العربية، كتب علي حائط فنائها بعد البسملة وآيات من سورة الزخرف: «هذا ما أمرت بإنشائه ذات الستر الرفيع، والجناب المنيع، الملكة الرحيمة، عصمة الدنيا والدين، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب تغمدهم الله برحمته، وذلك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ناصر أمير المؤمنين عز نصره، بتولي العبد الفقير عبد المحسن العزيزي الناصري رحمه الله في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة». وقد كتب على محرابها البديع (عمل حسان بن عفان).

(١٩٢) «البلدية» أنشأها الأمير حسام الدين بلدق عتيق الملك الظاهر سنة (٦٣٥) خربت سنة (١٠٢٤) وهي ظاهر حلب ونقلت حجارتها لبناء دار السعادة المنشأة في تلك السنة .

(١٩٣) «القيصرية» أنشأها الأمير حسام الدين القيمري سنة (٦٤٦) وهي خراب منذ قرون .

وهناك أربع مدارس ذكرها ابن الشحنة :

(١٩٤) الأولى بالجبل لشمس الدين أحمد بن العجمي وقد دفن بها أبو ذر المؤرخ سبط ابن العجمي وهي مشتركة بين الشافعية والمالكية أنشئت سنة (٥٩٥) وتسمى الآن جامع أبي ذر فيها قبلية ومنبر .

(١٩٥) الثانية أنشأها الأمير شمس الدين لولو .

(١٩٦) الثالثة بالمقام أنشأها بهاء الدين المعروف بابن أبي سبال .

(١٩٧) الرابعة أنشأها عز الدين مظفر الحموي (٦٣٢) .

هذه هي مدارس الشافعية في داخل المدينة وخارجها. أما مدارس الحنفية في المدينة فهي :

(١٩٨) « البلدية أيضاً » وهي بجانب سميتها المتقدمة الذكر بنيت كذلك سنة (٦٣٥) .

(١٩٩) « الخلاوية » كانت كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين ولما بعث الفرنج قبور المسلمين وأحرقوهم (٥١٨) انتقم المسلمون بأن أحالوا هذه الكنيسة مع ثلاث أخرى مدرسة، وفيها إلى الآن عمد الرخام في تيجانها نقوش تمثل أنواعاً من النبات تشبه نقوش قلعة سمعان، وكانت تعرف قديماً بمسجد السراجين جعلها نور الدين مدرسة، ووجد بها مساكن يأوي إليها الفقراء (٥٤٣) وهي من أعظم المدارس ، ومن أكثرها طلبة وأغزرها رواتب وجرايات، درس بها جملة من العلماء. وهي منفصلة عن الجامع الكبير بزقاق ضيق في السوق قبالة من الغرب. وقد ذكرها أحد علماء الآثار فقال: إن الجزء الجنوبي منها يحتوي على بقايا بناء ديني من عهد النصرانية الأولى، وقد أثبت ذلك التقليد القائل بأن هيلانة بنت في حلب كنيسة، ونقوش البناء تشبه نقوش الكنائس ذات السطح المتوسط في ديار بكر والرصافة . كل هذا يدل بالنظر لصورة تيجان الكنيسة أن أصلها من بناء قام في آخر القرن السادس. ويقول هرزفيلد: إن عهد الفراغ الذي قامت فيه القبة يرد إلى تاريخ قاعتها. وكذلك الرواقان المتلاصقان من الجنوب والشمال، وإن الناظر في مجموع هذا البناء يرى الجزء الغربي منه بيعة تغشاها قبتان أو ثلاث كان محراباً متصلاًً بالزقاق الآخذ اليوم إلى المدرسة والجامع الأعظم. وذكر القزويني أن في مدرسة الخلاوية بحلب حجراً على طرف بركتها كأنه سرير ووسطه منقور قليلاً يعتقد الفرنج فيه اعتقاداً عظيماً وبذلوا فيه أموالاً فلم يجابوا إليه. ومحراب هذه المدرسة العامرة اليوم بالطلبة من أجمل المحاريب عمل بخشب الآبنوس على صورة بديعة، وكان على قبتها طائر من نحاس يدور مع الشمس .

(٢٠٠) « الأتابكية » أنشأها شهاب الدين طغرل بك عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازي نائب السلطنة سنة (٦١٨) وخربت في فتنه التتر ثم رمت وما

زالت عامرة إلى القرن العاشر ثم خربت، والآن لا يعرف إلا مكانها الذي أصبح عرصة خالية شرقي جامع العادلية وقبلي خان الفرايين يفصلها عنهما الطريق الآخذ إلى السفاحية والطريق الآخذ إلى الحسروية .

(٢٠١) « الحدادية » أنشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وهي من الكنائس الأربع التي صيرها ابن الحشاش مساجد فهدمها وبنائها بناء وثيقاً، تولاها كثير من المدرسين وكانت عامرة في أواخر القرن العاشر. وهي في محلة السفاحية لم يبق من آثارها سوى عضادتي باب كبير مكتوب على طرفه الأيمن (الحمد لله) .

(٢٠٢) « الجردكية » وهي ملاصقة للصاحبية، أنشأها الأمير جرديك النوري بسوق البلاط كملت سنة (٦٠١) كانت عامرة إلى آخر القرن الثامن . وفي أواخر القرن الثالث عشر كانت قهوة ثم تحولت مكتباً ثم صارت دكاناً ثم عمرتها دائرة المعارف مخزناً واسعاً للنجارة وهو الآن كذلك .

(٢٠٣) « المقدمة » أنشأها عز الدين عبد الملك بن المقدم من أمراء صلاح الدين سنة (٥٦٤) وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيرها ابن الحشاش مساجد فجعلها مدرسة وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها. وهي في محلة الجلوم في زقاق يسمى خان التن باق منها قبلتها وبابها الذي فيه صنعة حسنة. وهي أخت المقدمة في دمشق التي بناها ابن المقدم أيضاً، والأوقاف التي في دمشق مشتركة بين الاثنتين .

(٢٠٤) « الجاولية » أنشأها عفيف الدين عبد الرحمن الجاولي النوري، وهي في محلة سويقة حاتم وقد كان الباقي منها قبلتها. أما الآن فقد هدمتها دائرة الأوقاف وعمرت في مكانها عقارات للاستغلال .

(٢٠٥) « الطمانية » أنشأها الأمير حسام الدين طمان النوري وخربت في القرن الثامن أو قبله، وكانت في درب الأسفريس الذي هو بجانب جامع منكلي بغا المعروف الآن بجامع الرومي من باب قنشرين .

(٢٠٦) « الحسامية » أنشأها الأمير حسام الدين محمود بن ختلو غربي قلعة حلب سنة (٦١٥) ، وأمام بابها القديم باب حادث كتب عليه أنه عمر سنة (١٢٨١) ، والباقي منها قبلتها وثلاث حجرات صغار. وهي خربة في إدارة

الأوقاف مسدودة الباب، أول من درس بها بدر الدين يعقوب النحاس ثم ولده محمد ثم العلماء بنو الشحنة .

(٢٠٧) « الأسدية » ثم الخسروية تجاه القلعة المعروفة حينئذ بالطواشية أنشأها بدر الدين الخادم عتيق أسد الدين شيركوه كانت داراً يسكنها فوقها بعد موته، وكان مكتوباً على بابها جددت سنة (٦٣٢) قال ابن الشحنة: إن هذه المدرسة خربها المنلا محمد ناظر الأوقاف بحلب سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ولم يبق لها عين ولا أثر، ودخلت في عمارة المدرسة التي أنشأها الوزير خسرو باشا المشتعلة على مسجد وجامع ومدرسة وخانقاه معدة للضيوف، وهي أول عمارة أنشئت بحلب منذ دخول الترك. وفي در الحبيب أن خسرو باشا كافل حلب لما تولى الوزارة أمر بإنشاء جامع وتكية في حلب بمشاركة معمار رومي، وأدخل عدة أوقاف فيها منها الدار التي عمرها ووقفها أبو الفضل ابن الشحنة والمدرسة الأسدية الملاصقة لها ومسجد ابن عنتر الملاصق لها وكانت هذه الدار إحدى دور حلب العظام مشتملة على حديقة وبجرة وسبع قاعات وفرن وآبار لخزن الغلال ودهلز يصل إلى حمامه المشهور بحمام القاضي . واتفق في هذه المدرسة أن جعلت ميضات للتكية المذكورة. وفي أعمدة التكية المذكورة عمودان كانا للمدرسة القديمة بزقاق سالار بحلب فأخذهما، ومتولياها إذ ذاك محمد چليبي ابن المرعشي ولم ينتطح فيها عتران اه .

قلنا : وهذا مثال صريح من العمران التركي فهو والخراب اسمان لمسمى واحد. وهذه المدرسة تسمى اليوم بالخسروية وهي عامرة بطلبة العلم بفضل النهضة الأخيرة ، ومحرابها ومنبرها وقبتها من أجمل آثار الصناعة الحلبية في القرن العاشر بقيت بحالها لم تمسسها أيدي المتولين والمتلاعبين، وفيها القيشاني من صنع حلب .

(٢٠٨) « القليجية » أنشأها الأمير مجاهد الدين محمد بن شمس الدين محمود بن قليج النوري سنة (٦٥٠) ملاصقة لدار العدل ثم تجدد من جوانبها الثلاثة دور مضافة إلى دار العدل، خربت في القرن العاشر .

(٢٠٩) « الفطيسية » أنشأها سعد الدين مسعود بن الأمير عز الدين أيبك المعروف بفطيس عتيق عز الدين فرخ شاه، كانت داراً يسكنها فوقها توفي

سنة (٦٤٩). وأول من درس بها أحمد القراولي المارداني المعروف بالفصيح وعليه انقضت الدولة الناصرية، وهي مما دخل في دار العدل وحكم القاضي شمس الدين بن أمين الدولة بانتقال وقفها إلى القليجية أقرب مدرسة إليها، قال ابن الشحنة: إنها درست في الفتنة التيمورية ولم يبق لها عين ولا أثر ولا يعلم أين كانت. وكذا صار في مدارس عديدة فإنني ما زلت أسمع أنه كان يجلب أربعون مدرسة للحنفية خاصة ولم يدع ابن شداد ذلك .

(٢١٠) «المجدية الجوانية» منسوبة إلى مجد الدين بن الداية في محلة بزة بالقرب من ضريح النبي بلوقيا خربت في سنة (٩٣٦) .

(٢١١) «المجدية البرانية» منسوبة إليه أيضاً دثرت بالكلية .

(٢١٢) «الكلتاوية» بناها الأمير طقتمر الكلتاوي المتوفى سنة (٧٨٧) داخل بانقوسا في محلة تسمى بالكلتاوية، وهي للحنفية لم يبق منها سوى قسم من قبليتها وكان فيها قبر الواقف لكنه دارس .

(٢١٣) «الالچانية» لصيق جامع الطواشي نسبة إلى الچاي أمين السلاح زمن اشقتمر أنشئت سنة (٧٤٤) .

(٢١٤) «الكينوشية» أو الكهنبوشية داخل باب النيرب ويقال بل هي زاوية .

(٢١٥) «الشهاية» تجاه الناصرية للحنفية . ولا أثر لها الآن، ولعلها دخلت في بناء خان الوزير .

(٢١٦) «الكاملية» بالقرب من الناصرية بناها ابن كامل. ولا أثر لها، ولعلها دخلت في بناء خان الوزير أيضاً .

(٢١٧) «الصاحبية» شمالي الجردكية أنشأها شهاب الدين أحمد بن الصاحب سنة (٧٦٥) وهي باقية إلا أنها متوهنة وفيها نقوش وآثار تعد من النفائس .

(٢١٨) «المدرسة التي في شرقي الجامع العمري» في بحسيتا فيها قبر الشيخ حسن الفول .

(٢١٩) «اليشبكية» بناها الأمير يشبك المؤيدي نائب حلب على أنها مكتب أيتام وبنى له فيها مدفناً دفن فيه سنة (٨٢٣) ووقف عليها سوقه الذي

بناه بالقرب منها ولا أثر لها، أما المسجد الذي بني معها فهو باق في سوق العبي .
(٢٢٠) « تغري الدرمنية » تحت القلعة بناها الأمير تغري درمش نائب حلب .

(٢٢١) « السفاحية » بناها القاضي شهاب الدين سبط بني السفاح ووقفها على الشافعية وشرط أن لا يكون لحنفي فيها حظ إلا في الصلاة .

(٢٢٢) « مدرسة أقجا » أنشأها أقجا خازن يشبك اليوسفي وهي قبلي السفاحية بالخط المذكور ولا أثر لها اليوم .

(٢٢٣) « الدلغادرية » بناها الأمير ناصر الدين باك محمد بن دلغادر ظاهر البلد من شماليه على كتف الخندق، ووقفها على الحنفية وقرر بها شهاب الدين أحمد بن موسى المرعشي .

(٢٢٤) « الأشودية » أنشأها الأمير عز الدين أشود التركماني دثرت في القرن العاشر .

(٢٢٥) « النقيب » أنشأها السيد الشريف المرتضى النقيب عز الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد الإسحاقى المؤتمنى الحسيني المتوفى سنة (٦٥٣) على جبل جوشن، وكانت عمارتها من البدائع يقال لها تاج حلب .

(٢٢٦) « الدقاقية » أنشأها مهذب الدين أبو الحسن علي بن الدقاق سنة (٦٣٠) خربت بعد القرن التاسع على الغالب، كانت شمالي الفيض .

(٢٢٧) « الجمالية » أنشأها جمال الدولة إقبال الظاهري عتيق ضيفة خاتون وهي قبلي الفردوس .

(٢٢٨) « العلائية » أنشأها علاء الدين علي بن أبي الرجا شاد^(١) ديوان الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل. وهذه إما أن تكون ليست مدرسة بل مسجداً وهو موجود الآن في محلة الكلاسة مكتوب عليه اسم الباني هذا سنة (٦٣٣) وهو مدفون في حجرة شرقي القبيلة، أو تكون المدرسة غيره وقد زال أثرها .

(٢٢٩) « الكمالية العديمية » أنشأها الصاحب كمال الدين عمر بن

(١) رتبة جليلة في قصر الملك كان يكون صاحبها مرافقاً للوزير والشد على أجناس ، منها شد المهمات وشد الدواوين وشد الأوقاف وشد الزكاة وشد العشر وشد دار الطعم .

العديم شرقي حلب خارج باب النيرب وبنى إلى جوارها تربة وجوسقاً وبستاناً ، ابتداء بعمارتها سنة (٦٣٩) وتمت في سنة (٦٤٩) .

(٢٣٠) « الأتابكية » أيضاً أنشأها الأتابك شهاب الدين طغرل عتيق الملك الظاهر سنة (٦٢٠) أول من درس بها الصفي عمر الحموي ثم نظام الدين البلخي والفخر عبد الرحمن بن إدريس وهي في محلة الجبيلة في صدرها قبلية في طرفها الأيمن لإيوان في وسطه ضريح الواقف وقد اتخذتها دائرة المعارف مدرسة ابتدائية مكتوب على بابها اسم بانيتها أبي سعيد طغرل وأنها على المدرس والحنفية .

(٢٣١) « الصهيبية » وراء باب أنطاكية مباشرة تجدد بقايا بناء عرفه قدماء السياح بأنه قوس قديمة ثم نقشت عليه بعد كتابة كوفية ويسمى جامع التوتوي. وهي المدرسة الصهيبية التي قامت على انقاض جامع في حلب بناه أبو عبيدة. قال سبرنهايم: إن النقوش الكثيرة والهندسة القديمة والكتابات الكوفية الموجودة في هذا البناء تجعله في الدرجة الأولى من المكائنة، ومنه يدرس التحويل التام المجهول سره حتى الآن والذي تم على عهد نور الدين في أسلوب الهندسة من حيث صور الكتابة والطرز السياسي في الكتابات .

(٢٣٢) « السيفية » أيضاً أنشأها الأمير سيف الدين علي بن سليمان ابن جندر تحت القلعة لتدريس مذهبي مالك وأحمد بن حنبل. هذا ما ورد في الدر المنتخب في الكلام على مدارس المالكية والحنابلة .

(٢٣٣) « الناصرية » كانت قديماً كنيسة لليهود تعرف بكنيسة مثقال ثم في سنة (٧٢٧) ثبت أنها محدثة في دار الإسلام فقلبت مدرسة وعمل بها منارة وهي معروفة الآن بجامع الحيات لرسم حيات من الحجر في قنطرة بابها وقد عراها الوهن (إعلام النبلاء) .

(٢٣٤) « الشادبختية » أيضاً وهذه هي الجوانية أنشأها الأمير جمال الدين شادبخت الخادم الهندي الأتابكي نائب نور الدين بحلب، أول من درس فيها موفق الدين محمود بن النحاس ثم ابن العديم ثم بنو الشحنة، وهي في سوق الضرب ويقال الآن الزرب تحريفاً مكتوباً على بابها أنها موقوفة على الحنفية سنة (٥٨٩) وتعرف اليوم بجامع الشيخ معروف، محراب قبلتها بديع كتب عليه

أنه عمل أبي الرجا وعبد الله بن يحيى .

(٢٣٥) «الطرنتائية» منسوبة إلى مجددها طرنطاي بن عبد الله الأمير سيف الدين نائب دمشق المتوفى سنة (٧٩٢) وهي في آخر محلة باب النيرب، جسيمة مكتوب على بابها كتابة حديثة بالاستناد إلى بعض الكتب: وقف هذين الجامع والمدرسة عفيف بن محمد شمس الدين سنة (٧٨٥)، وفيها رواقان وحجر وفوق الرواقين رواقان صغيران ووراء كل منهما خمس حجر وشماي باب المدرسة باب قديم داخله دار يظهر أنها خانقاه تابع للمدرسة . وكان في حلب داران للحديث أنشأهما الملك العادل وخمس دور تعد من مدارس المالكية والحنابلة :

(٢٣٦) الأولى أنشأها القاضي ابن شداد .

(٢٣٧) والثانية أنشأها مجد الدين بن الداية .

(٢٣٨) والثالثة أنشأها بدر الدين الأسدي .

(٢٣٩) والرابعة أنشأها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود .

(٢٤٠) والخامسة أنشأها صاحب مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطي

كانت تعرف بالفردوس .

هذا ما رواه ابن الشحنة عن ابن شداد وغيره في مدارس حلب الشهباء . وأنت ترى أنها من هذا القبيل تعد ثانية دمشق . وأن مدارسها على الأكثر نشأت في الدولتين النورية والصلاحية أو عمرت بأيدي الأمراء والأميرات، ولم يكتب لها البقاء كلها لأنها عمل أفراد كما قلنا . ولولا ذلك لكانت أقرب إلى مقاومة الحوادث . وهذا من جملة آفات هذا الشرق التعس . وأكثر هذه المدارس مما بدأ فيه الخراب في أيام العثمانيين كما هو الحال في مدارس دمشق وقد جاء في تقويم سنة ١٣٣٢ أن في الشهباء (٣٢) مدرسة، وما نظن العامر منها يتجاوز العشر وقد أنشئت فيها على عهد العثمانيين .

(٢٤١) «العثمانية» أنشأها أحد ولاة حلب في القرن العاشر وما زالت

عامرة يسكنها الطلبة .

(٢٤٢) «الشعبانية» .

- (٢٤٣) «القرنافية» .
- (٢٤٤) «السيافية»
- (٢٤٥) «الإسماعيلية»
- (٢٤٦) «المنصورية»
- (٢٤٧) «البهائية»
- (٢٤٨) «الחסروية» التي مرت
- (٢٤٩) «الكواكبية» أنشأها سنة (١١٦٧) السيد أحمد بن السيد أبي السعود ابن السيد أحمد الكواكبي في محلة الجلوم الصغرى وأودعها كتباً قيمة تفرقت أيدي سبا .
- (٢٥٠) «الأحمدية» أنشأها سنة (١١٦٦) على صلحاء أكراد ما وراء الموصل . وفيها نحو ثلاثة آلاف كتاب، القاضي أحمد بن طه زاده المشتهر بالجلبي .
- (٢٥١) «الهاشمية» في محلة الفرافرة، أنشأها هاشم الدلال باشي من أصحاب الأملاك بحلب سنة عشر وثلاثمائة وألف .
- (٢٥٢) «الدليوانية» كانت مسجداً فرمه محمد أسعد باشا الجابري سنة (١٣٢٣) وجعل فيها ست حجر للطلبة وحجرة للمدرس يدرس فيها الفقه الشافعي، وشرط أن يكون الطلبة غرباء .
- (٢٥٣) «البلاطية» هي زاوية مشروط فيها إقامة عشرة من الطلبة الحنفية ولها إمام ومؤذن ومدرس ولهم طعام، وقفها الأمير زين الدين الحاج بلاط الدوادار وهي خارج باب المقام، بقي من آثارها إيوان كبير وست حجر يسكنها الفقراء، عمرت في منتصف القرن التاسع .
- (٢٥٤) «التجهيز» أنشئت في صفر سنة عشر وثلاثمائة وألف باسم المكتب السلطاني، وهي في غربي حلب في محلة اسمها السليمية أو الجميلية وهي دار التجهيز والمعلمين .
- (٢٥٥) «الصنائع» أسست هذه المدرسة سنة (١٣١٩) في دار الصابوني من محلة باب قنشرين، ثم اتخذ لها بناء خاص في محلة السليمية .
- (٢٥٦) «الأميري» هو جامع لكن فيه حجر للدرس ومدرس للحديث والفقه والنحو .

هذا عدا المدارس الابتدائية والمدارس التي لغير المسلمين وهي عديدة .
وليس في تاريخ حلب ما يدل على أنه كان فيها كما كان في دمشق دور
للقرآن، بل كان فيها دار القرآن الحبشية المنسوبة إلى أبي العشائر المطل شباكها
على الجامع الكبير درس بها أبو الوفاء العُرُضي سنة (١٠٧١) .

وذكر ابن جبير في المئة السادسة أنه كان يتصل من الجانب الغربي
من جامع حلب مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة، فهما في
الحسن روضة تجاور أخرى قال: وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من
المدارس بناء وخرابة صنعة، ومن أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتوح
كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار
عريش كرم مشمر عنباً، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك
العنب متديلاً أمامها فيمد الساكن فيها يده ويحنتيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة .
وللبدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس. قلنا: ولعله يقصد
بكلامة المدرسة الحلاوية العامرة إلى اليوم .

وقد درس في هذه المدارس أجلة علماء الشهاء والوافدين عليها من
الأئمة، وكانت كمدارس دمشق والقدس تقرئ الطالب ما ينفعه في دينه
ودنياه. ويقول منش: إن المدارس تكاثرت في حلب على عهد أولاد صلاح
الدين وازدهرت معارفها وآدابها حتى بلغت أربعاً وأربعين مدرسة أو تزيد،
ثلاث منها لعلوم الطب ولم يتعرض من كتبوا على مدارس حلب لوصف
مدارس الطب .

(٢٥٧) « القرموطية » إنشاء عبد القادر بن قرموط سنة (٨٨٢) جددها
عبد الرحمن بن قرموط سنة (٩٧٨) وهي الآن مكتب .

(٢٥٨) « الشاذلية » وقيل هي دار حديث قرب مسجد النحويين في
سويقة الحجارين، كانت ضيقة فتجددت قبلتها وبابها واستخرج منها دكانان .

(٢٥٩) « البولادية » في محلة باب المقام في الصف الشرقي من الجادة،
خرابة يسكنها الفقراء .

(٢٦٠) مدرسة للشافعية هي تربة العلمي في محلة الدحديلة .

- (٢٦١) « القلقاسية » قبلي القلعة مندثرة .
 (٢٦٢) « الصروي » ملحقة في جامع الصروي في محلة البياضة أنشئت سنة (٩٢٠) .
 (٢٦٣) « الرحيمية » أنشأتها رحمة بنت عبد القادر بن أحمد بك في محلة مستدمبك سنة (١١٥٦) .
 (٢٦٤) « مدرسة تجاه زاوية الكيال » لا يعرف اسم بانيها هي اليوم مسكن للفقراء .
 (٢٦٥) مدرسة من مشتملات جامع السكاكيني في محلة الأعجام .
 (٢٦٦) « الدفردار » منسوبة لبيت العقاد بجانب سبيل البيك داخل محلة باب المقام .
 (٢٦٧) مدرسة داخل بوابة النبي لا أثر لها .
 (٢٦٨) مدرسة خارج بوابة النبي لا أثر لها .
 (٢٦٩) مدرسة بجانب الالجابية السالفة الذكر تعرف بالصاحبية أنشأها بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد لا أثر لها .
 (٢٧٠) مدرسة تجاه سابقتها لنور الدين زنكي لا أثر لها .
 (٢٧١) « تربة الطونبغا » وتعرف الآن بالمدرسة بلا اسم .
 (٢٧٢) « نصرالله » في محلة بحسيتا تجاه كنيس اليهود بزقاق المدرسة معطلة موهنة .

مدارس القدس (*) :

مدارس بيت المقدس كمدارس دمشق وحلب من حيث البناء والترتيب والوقوف عليها، ومعظمها مما أقامه الملوك والأمراء والأغنياء والعلماء، ولم يكتب لها البقاء كثيراً لأنها كلها من عمل الأفراد، وعمل الأفراد مهتد بالوهن في كل قرن، ضربها الدهر ضرباته، وعبث بجمالها وقطع أوصالها، ولو كانت من عمل الجماعات كمدارس الغرب في بيت المقدس نفسه، لكتب لها البقاء أكثر، ولكنها أحكم وأعظم .

(*) ألقى السيد عمر الصالح البرغوثي نظرة على ما كتبت في المدارس القدسية .

وأقدم مدارس بيت المقدس ما بني على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب عقيب استخلافه هذه المدينة من أيدي الصليبيين، ثم توفر أهل الخير من الأمراء والأغنياء، ومنهم النساء والإماء، فأنشأوا منها ما أنشأوا عنوان الغيرة على العلم وبث الفضائل. وقد عدد مجير الدين الحنبلي ما كان على عهده منها في القدس والتحليل فقال: إنه كان في بيت المقدس من المدارس:

(٢٧٣) « المدرسة الفارسية » بجوار المسجد الأقصى بالقرب من بئر الوردية منسوبة لوقف المدرسة الفارسية التي شرقي المسجد وقفها الأمير فارس البكي، وهي عامرة فيها دار كتب المسجد الأقصى.

(٢٧٤) « النحوية » على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب بانيها الملك المعظم عيسى سنة أربع وستمائة كان يُدرس فيها الكتاب لسبيويه.

(٢٧٥) « النصرية » كانت على برج باب الرحمة مدرسة تعرف بالنصرية للشيخ نصر المقدسي، ثم عرفت بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالي وقد اعتكف فيها وأتم تأليف كتابه إحياء العلوم فيما قيل. ثم أنشأها الملك المعظم عيسى وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتباً وتاريخ وقفها سنة (٦١٠) ويقول مجير الدين: لأنها دثرت في عصره وهي الآن غرفتان عامرتان معدتان للزيارة.

(٢٧٦) « التنكزية » واقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام، وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها عمرت سنة (٧٢٩) وهي بجانب باب الحرم بجوار باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب، ولا تزال عامرة وهي مقر المحكمة الشرعية.

(٢٧٧) « البلدية » بجانب باب الحرم جوار باب السلسلة، واقفها الأمير منكلي بغا الأحمدي نائب حلب ودفن فيها سنة (٧٨٢) وما برحت عامرة ولكنها دار للسكنى.

(٢٧٨) « الأشرفية » داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة، عمرها الملك الأشرف قايتباي وبدئاً بحفر أساسها (٨٨٥)، وكانت قبتها ثالث القباب المهمة في القدس. والأولى قبة الصخرة والثانية قبة الأقصى.

وقد تكاملت هذه المدرسة (٨٨٧) وكانت طبقتين سفلية وعلوية، ولعلها آخر المدارس الإسلامية الفخمة التي أنشئت من هذا الطراز في بيت المقدس، على كثرة ما وقف عليها من الأوقاف لم يبق منها إلا سطحها وبابها وعليه كتابة من عهد الأشرف .

(٢٧٩) « العثمانية » بباب المتوضأ بجوار الحرم، واقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون وتدعى خانم، وعليها أوقاف ببلاد الروم وغيرها، وعلى بابها تاريخها في سنة أربعين وثمانمائة وهي لا تزال عامرة وتسكنها أسرة .

(٢٨٠) « الخاتونية » بباب الحديد جوار الحرم واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه (٧٨٢) وما حبس عليها من المغل غير معلوم، وهي اليوم دار سكن فيها قبر السيدة خاتون القازانية البغدادية .

(٢٨١) « الأرغونية » بباب الحديد جوار الحرم، واقفها أرغون الكاملي نائب الشام وهو الذي استجد باب الحديد أحد أبواب المسجد، أكملت عمارتها سنة (٧٥٩) وهي الآن دار سكنى وقد ضاعت أوقافها وأجاسها وفيها قبر أرغون شاه .

(٢٨٢) « البزهرية » بباب الحديد جوار الحرم، وقفها المقر الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وبعضها راكب على ظهر الأرغونية، ولها مجمع على أروقة المسجد وكان الفراغ من بنائها في سنة (٨٨٥) وقد غدت داراً للسكنى وقسم منها خراب .

(٢٨٣) « الجوهريّة » بباب الحديد جوار الحرم الشريف وبعضها على رباط كرد . واقفها الصفوي جوهر زمام الادر الشريفة في سنة (٨٤٤) وهي الآن دار للسكنى .

(٢٨٤) « المنجكية » بباب الناظر جوار الحرم وقفها الأمير منجك نائب الشام ونقل مجير الدين أن الأمير كان وصل إلى القدس الشريف لبني المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن، فلما قتل السلطان في سنة اثنتين وستين وسبعمائة بناها لنفسه ونسبت إليه، ووقف عليها ورتب لها فقهاء وأرباب

وظائف ثم تلاشت ثم عمرت، ولا تزال معمورة إلى هذا العصر، وقد أتقن
عمارها في العهد الأخير وأقام فيها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى .
(٢٨٥) « الجاولية » في الجهة الشمالية، واقفها الأمير علم الدين سنجر
الجاولي نائب غزة توفي (٧٤٥) ضاعت أوقافها وهي اليوم قسم من كلية
روضة المعارف الوطنية .

(٢٨٦) « النصيبية » في الجهة الشمالية، واقفها الأمير علاء الدين علي
ابن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين، ولي نيابة القدس وعمر بها المدرسة
وتوفي بدمشق سنة (٨٠٩) ونقل إلى هذه المدرسة وهي اليوم قسم من كلية
روضة المعارف الوطنية .

(٢٨٧) « الإسعدية » جوار الحرم إلى الشمال، واقفها الخواجة مجد
الدين عبد الغني الإسعدي وتاريخ وقفها (٧٧٠) ولا تزال عامرة. وقد
شرع في ترميمها منذ عهد غير بعيد لنقل دار كتب المسجد الأقصى إليها
 وإقامة قاعة للمحاضرات فيها .

(٢٨٨) « المالكية » إلى شمالي الحرم، عمرها الحاج ملك الجوكندار،
وكان بناؤها في مستهل المحرم سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. وهي تابعة
للإسعدية وما برحت عامرة .

(٢٨٩) « الفارسية » إلى شمالي الحرم، واقفها الأمير فارس البكي ابن
الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبالية ونائب
غزة، وهو الذي نسبت إليه الفارسية بداخل المسجد الأقصى وهذه الآن دار
سكن وكان يدرس فيها الخالدية .

(٢٩٠) « الأمينية » بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية
بجوار المسجد، واقفها صاحب أمين الدين عبد الله في سنة ثلاثين وسبعمائة
وهي دار سكن .

(٢٩١) « الدويدارية » بباب شرف الأنبياء جوار الجامع، واقفها الأمير
علم الدين أبو موسى سنجر الصالح النجمي وتاريخ وقفها سنة (٦٩٦) وفيها
اليوم مدرسة البنات الإسلامية .

(٢٩٢) « الباسطية » بباب شرف الأنبياء، بعضها على المدرسة الدويدارية،

واقفها زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الحيوش المنصورة وعزيز المملكة وقفها سنة (٨٣٤) لا تزال موجودة تابعة للدوידارية وفيها مدرسة البنات الإسلامية .

(٢٩٣) « الكريمة » بباب حطة جوار الحرم، واقفها صاحب كريم الدين بن المعلم هبة الله بن مكائس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية سنة (٧١٨) وهي الآن دار سكن .

(٢٩٤) « الدلغادية » بباب حطة جوار الحرم، واقفها الأمير ناصر الدين ابن دلغادر بعد أن عمرتها زوجته مصر خاتون وقفها سنة (٨٩٧) وهي دارسة .

(٢٩٥) « الطولونية » داخل المسجد على الرواق الشمالي، كان يصعد إليها من السلم الموصل منه إلى منارة باب الأسباط، أنشأها أحمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهر زمن الملك الظاهر برقوق سنة (٨٢٧) وهي من المدارس الدائرة .

(٢٩٦) « الفرية » مقابل الطولونية من جهة الشرق، كان يصعد إليها من السلم المتصل منها إلى منارة باب الأسباط أيضاً، وهي من إنشاء الطولوني عمرها مع مدرسته المقدم ذكرها وجعلها للملك الظاهر برقوق، فلما توفي الظاهر وآل الأمر لولده الملك الناصر فرج رتب لها قرى وأقام نظامها وجعل لها معاليم تصرف عليها، ثم لما توفي الناصر فرج لم يكن لها كتاب وقف فاشتراها بعد وفاته رجل من الترك يقال له محمد شاه بن الفري الرومي ووقفها ونسبت إليه، وقد درست وأصبحت مساكن .

(٢٩٧) « الحسينية » على باب الأسباط، وقف شاهين الحسيني الطواشي من دولة الملك الناصر حسن المتوفى سنة (٧٦٢) هي الآن دارسة .

(٢٩٨) « الصلاحية » بالقرب من السور من جهة الشمال بباب الأسباط وقف صلاح الدين على الشافعية. ذكر المؤرخون أن صلاح الدين كان نازلاً في كنيسة صهيون ففاوض جلساءه من العلماء الأكابر في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصالحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة

القمامة للرباط، ووقف عليها وقوفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف، وقيل: كان موضع هذه المدرسة ديراً للراهبات أقيم في مكان بيت القديسين يواكيم وحنة فهدمه الملك وأقام المدرسة مكانه. وتاريخ وقفها (٥٨٨) ووظيفة مشيختها من الوظائف السنوية بمملكة الإسلام. وكان الأتراك نزلوا عن هذه المدرسة للآباء البيض في القرن الماضي فجعلوها مدرسة أكليركية، وفي الحرب العامة أخذها الترك وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية، فلما سقطت القدس في أيدي الخلفاء رجعت إلى المسيحيين كنيسة .

(٢٩٩) «الكاملية» بخط باب حطة بجوار الكريمة من جهة الشمال، واقفها الحاج كامل من أهالي طرابلس كتب محضر بوقفها سنة (٨١٠) تعد في الدوارس .

(٣٠٠) «المعظمية» وقف الملك المعظم عيسى مقابل باب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية، تاريخ وقفها سنة ستين وستمائة وهي معمورة وكان يدرس فيها الخالدية خصوصاً الكافية والهداية .

(٣٠١) «السلامية» بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية وهي بجوار المدرسة الدويدارية من جهة الشمال، واقفها الخواجا مجد الدين أبو الفداء إسماعيل السلامي والظاهر أنها وقفت بعد السبعمائة وهي دار قرآن ولا تزال دار سكن .

(٣٠٢) «الوجيهية» بخط درج الموله. وقف وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا الحنبلي المتوفى في سنة (٧٤٥) هي الآن دار للسكن .

(٣٠٣) «المحدثية» بالقرب من الوجيهية عند قبو باب الفواغة بجوار الحرم، واقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة (٧٦٢) وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٣٠٤) «الحسنية» بباب الناظر على رباط علاء الدين البصير، واقفها ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس، وكان بناؤها في سنة (٨٣٧) وهي لعهدنا دار سكن .

(٣٠٥) «التشتمرية» بباب الناظر بالقرب من الحسنية، واقفها الأمير تشتمر السيفي، تاريخ وقفها (٧٥٩) وهي دار سكن .

(٣٠٦) « البارودية » بباب الناظر بالقرب من التثتمرية، واقفها الست الحاجة سفري خاتون ابنة شرف الدين أبي بكر بن محمود المعروف والدها بالبارودي تاريخ وقفها سنة (٧٦٨) هي اليوم دار سكن .

(٣٠٧) « الجهاركسية » بجوار اليونسية من جهة الشمال، كانت كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين، جعل الأول المدرسة الجهاركسية والثاني الزاوية اليونسية. والجهاركسية نسبة لواقفها الأمير جركس الخليلي المتوفى سنة (٧٩١)، لا تزال معمورة .

(٣٠٨) « الحنبلية » بباب الحديد، واقفها الأمير بيدمر نائب الشام فرغ من بنائها (٧٨١) وهي دار سكن .

(٣٠٩) « دار الحديث » بجوار التربة الحالقية من جهة الغرب نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف بالخالق. واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين أبي القاسم الهكاري (٦٦٦) .

(٣١٠) « دار القرآن السلامية » تجاه دار الحديث، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلامي (٧٦١) لم تبرح معروفة .

(٣١١) « الطازية » بخط داود بالقرب من باب السلسلة، وقف الأمير طاز المتوفى (٧٦٣) موجودة إلى الآن دار سكن .

(٣١٢) « الأفضلية » وتعرف قديماً بالقبة بحارة المغاربة، وقف الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين على فقهاء المالكية بالقدس، ووقف أيضاً حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم، وهي دار سكن الآن .

(٣١٣) « اللؤلؤية » بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال أو بباب العامود، واقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن لا تزال موجودة وقسم منها زاوية .

(٣١٤) « البدرية » قرب اللؤلؤية بخط مرزبان، وقفها بدر الدين محمد ابن أبي القاسم الهكاري وهي دار سكن .

(٣١٥) « الميمونية » عند باب الساهرة وكانت كنيسة من بناء الروم، واقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون القصري (٥٩٣) حولت إلى

مدرسة في عهد العثمانيين، وهي الآن مدرسة بنات للمعارف وجعل اسمها «المأمونية» .

(٣١٦) «الأباصيرية» مدرسة تنسب للأمير علاء الدين الأباصيري، كانت بجوار باب الناظر وهي معمورة يسكنها فقراء السودان وكانت في عهد الأتراك قسماً من السجن .

(٣١٧) «الموصلية» يباب شرف الأنبياء بجوار المسجد الأقصى، ونسبت للخواجة فخر الدين الموصلية وهي عامرة .

هذه خمس وأربعون مدرسة عمرت كلها قبل عهد العثمانيين وما ندرى إن كانت أنشئت في زمنهم الطويل مدرسة للفقهاء أو دار للحديث أو القرآن، وأكثر هذه المدارس من البناء الحجري الجيد وفيها يتجلى جمال الهندسة العربية وبعضها لم يقو على عوادي الأيام فتداعى في عصر واقفه، وبعضه مما سطا عليه أكلة الأوقاف فاضمحل بالطبيعة، لم تشفع فيه متانة بنائه وإحكام بنيانه، وأكثره مما صبر على الأيام وبقي إلى الآن مثلاً ناطقاً بفضل البانين والواقفين لكنه تعطل عما كان وقف عليه من التدريس والملازمة. وكيف دارت الحال فعدد الباقي من مدارس بيت المقدس بالنسبة لما بقي من نوعه في دمشق وحلب أكثر ولا يعلل ذلك إلا أن أرباب العدوان على الوقوف والأحباس لم يتيسر لهم أن يتسلطوا عليها وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم ودياراتهم في القدس عبرة وعظة .

وكان في قرية الطور (٣١٨) «المدرسة المنصورية» وهي خراب .

وبمحلة الواد (٣١٩) «المدرسة العثمانية» .

وبباب السلسلة (٣٢٠) «المدرسة الكيلانية» .

(٣٢١) «الدقمرية» .

(٣٢٢) «المرمية» .

(٣٢٣) «البرقوقية» .

(٣٢٤) «الرشيدية» .

وبباب المناظر (٣٢٥) «الفرهادية» .

وبباب حطة (٣٢٦) «الصلاحية» .

وفي القدس اليوم مدارس مهمة لطوائف النصرى ولجماعة الصهيونيين تحتاج إلى درس خاص ففيها من حيث العمران ما هو ذو شأن وإن كان حديثاً على طراز غربي في البناء لاصلة بينه وبين هندسة هذه الديار، لذلك ليس له في النفس تلك الروعة التي يجدها المرء لمدارسنا القديمة المتقنة الأوضاع .

بقية مدارس القطر :

ذكر من زاروا حماة في القرنين السابع والثامن أنه كان فيها ثلاث مدارس وبيمارستان وأن فيها زوايا وربطاً. وليس لهذه المدارس من أثر اليوم. ومن جملة مدارسها :

(٣٢٧) « المدرسة الخاتونية » لمؤسستها مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة أنشأها ونسبت إليها فسميت الخاتونية ووقفت عليها وفقاً جليلاً وكتباً، وهي الآن بستان في مبدأ طريق محلة الجراجمة على يسار المنحدر إلى باب النهر .

(٤٢) « المدرسة الطواشية » في محلة المدينة ، وقفها الطواشي مرشد في دولة الملك المنصور تجاه باب الجامع الكبير الشمالي في جانب حمام الذهب الشرقي، خربت بعد الألف وهي الآن دارة، وكانت عظيمة جداً ولها أوقاف مهمة ولم يبق منها إلا آثار الجدران في البستان .

(٣٢٨) « المدرسة البارزية » وهي للشافعية وقد خربت أيضاً .

(٣٢٩) « المدرسة العسرونية » في باب حمص على ضفة العاصي قرب بستان الجبل، كانت دار قرآن وكان لها جامع وداران متصلان بها، وفي جدارها كتابة حجرية إلى اليوم مقروءة وخلاصتها أن الأمير نجم الدين التوتان بن ياروق أنشأها سنة (٥٨٤) وعمر مسجدها وكتب عليها: أمر بعمل هذه الدار المباركة السيد الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي خلا قبلها وما استثنى، جعلها دار قرآن ووقف عليها أوقافاً كثيرة لتسكن في هذه الديار من فقراء المسلمين الغرباء مقيمين بها ليلاً ونهاراً يتلون كتاب الله ويتذكرونه بينهم ويدعون للواقف ولوالديه وللمسلمين. وقرر بها شيخين يعلمونهم القرآن الكريم ويكون مقام الفقير فيها مدة خمس سنين

فإن ختم القرآن أو مضت المدة المعينة فيكسى ثوباً أو جبة، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم في شوال سنة خمس عشرة وسبعمائة .

(٣٣٠) « المدرسة العزية » كانت في محلة باب الجسر، بناها محمد ابن حمزة العزي بجوار جامع العزي في شهور سنة (٧٢٧) وهي خراب .

(٣٣١) « المدرسة النورية » كانت قريبة من جامع نور الدين وبعد أن عفت آثارها جدها سيف الدين الكيلاني وجعلت تكية .

(٣٣٢) « المدرسة الحنفية » هي القطعة الشرقية من حرم جامع نور الدين، بناها الملك المؤيد صاحب حماة. وهذه إحدى المدارس التي أشار إليها ابن جبير التي كانت حذاء المارستان والثانية النورية والثالثة لا يعرف مكانها .

(٣٣٣) « المدرسة الشيعية » وهي الزاوية السفاحية في الموقف بناها قاضي القضاة نجم الدين عبد الظاهر بن السفاح الحلبي وكانت تسمى مدرسة الشيخة وقد وقف لها حولها أوقافاً كثيرة .

(٣٣٤) « المدرسة المظفرية » كانت في جانب الجامع الكبير إلى الغرب، في محلة المدينة، بناها الملك المظفر تقي الدين عمر .

وكان لجميع هذه المدارس أوقاف دارة على الطلبة والمدرسين ومعالم لهم، وقد كتب على باب جامع النوري في الحجر ما يستفاد منه أن أحد الملوك وقف على طلبة العلم فيه خمسة عشر ألف درهم في كل سنة استجلاباً لأدعيتهم وإعانة لهم على طلب العلم. ويقال على الجملة: إن مدارس حماة حسنة من حسنات بيت أيوب فإن بضعة منهم تولوا مملكتها فعمروها بعلمهم وعلهم ونشطوا العلماء وأفضلوا على المعوزين .

وليس في حمص مدارس قديمة، وقد ذكر ابن جبير في المئة السادسة أن بها مدرسة واحدة وليس بها مستشفى على رسم مدن هذه الجهات. وقال ياقوت في القرن السابع: إنه كان بها مدارس. وقال الظاهري في القرن التاسع: إن بها مدارس. وهذه المدارس لا أثر لها .

ومن أهم مدارس طرابلس (٣٣٥) « المدرسة القرطائية » أفخم مدارس طرابلس كلها وهي ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية، وقد ذهب

اسم بانيتها بالتحقيق وزمن بنائها مع الكتابة التي طمست لإخفاء أوقافها التي كانت محفورة على ظهر جدارها القبلي، والمظنون أن بانيتها هو قرطاي^(١) ابن عبد الله الناصري الذي أقام المنبر بالجامع الكبير الأشرفي وذكر اسمه هناك، وكان تاريخ بنائه في شهر ذي القعدة (٧٢٦) وهذه المدرسة تشبه من وجوه كثيرة جامع البرطاي وتقام فيها الصلوات وهي ملحقة بالجامع الكبير .

(٣٣٦) «مدرسة تغري برمش» بباب الحديد على الطريق الآخذة إلى المولوية، والمشهور عند أهل طرابلس أن بانيتها الملك الظاهر بيبرس، وليس الأمر كذلك وهذه صورة الكتابة التاريخية التي فوق بابها :

«بسم الله الرحمن الرحيم. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً، قوله الحق وله الملك. عمر هذا المكان المبارك المقر السيفي تغري برمش الظاهري أعز الله أنصاره مسجداً لله تعالى وتربة لدفن ولديه الأخوين الشقيقين السعدين سيدي الأمير قاتمر وسيدي الأمير تغري بردي الطفلين المنغصين على الدنيا المتجاورين في دار الآخرة نغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنته، وجمع بينهما في دار كرامته. وذلك في ثالث شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة ورحم الله من يترحم عليهما». وهذه المدرسة متداعية للسقوط .

(٣٣٧) «المدرسة الزريقية» هي في محلة السويقة داخل طرابلس وهي متسعة ولا تقام فيها الصلوات وهذه صورة الكتابة التاريخية التي عليها: «أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين كرناي السيفي وذلك بتاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة» .

(٣٣٨) «المدرسة السقرقية» تقع في طرف المدينة للجهة الغربية على الطريق الآخذة إلى جبانة باب الرمل، بناها آقظرق الحاجب مسجداً لله تعالى وتربة للدفن وعلى حائطها لجهة الجنوب الشرقي كتب الوقفية بأحرف غليظة ظاهرة فيها اسم بانيتها وتعداد العقارات الموقوفة على المسجد وشروط الواقف

(١) المعروف أن الأمير سيف الدين أرطاي من ممالك المنصور قلاوون أنشأ مدرسة في طرابلس ودفن فيها .

لصرف ريعها وفيها أن كتاب الوقف مؤرخ بمنتصف ذي القعدة الحرام سنة (٧٥٧) .

(٣٣٩) « الخاتونية » تقع أمام المدرسة السقرقية، بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها ومعتقها عز الدين ايدمر الأشرفي والي طرابلس، وكان الفراغ من بنائها في سنة (٧٧٥) كما هو مذكور في كتاب الوقف المحفور عند مدخل المدرسة المذكورة وفيها أسماء العقارات الموقوفة عليها وشروط الواقفة لصرف ريعها وإقام الصلوات فيها .

(٣٤٠) « مدرسة دُبَّها » بناها الشيخ عبد الله الذهب الحلي من أصحاب الطريقة النقشبندية قريباً من سوق الصاغة سنة (١٢٣٤) على ما زبر ذلك على بابها، ووقف عليها أوقافاً حسنة ودفن فيها وتقام فيها الصلوات .

وفي طرابلس مدارس وزوايا وخوانق أخرى لا يعلم اسم بانيتها ولا زمن بنائها وبعضها مهجور مقفر وآخر متداع .

ومن مدارس الشام (٣٤١) « مدرسة حصن الأكراد » أنشأها والي هذه البلدة بكتمر بن عبد الله الحر الأشرفي زاوية ومدرسة وبمارستاناً بأموال جسيمة على الصادي والغادي من أبناء السبيل وذلك في سنة (٧١٩) . ومنها (٣٤٢) « رباط خليل الرحمن » أنشأه قلاوون سنة (٦٧٩) صاحب الآثار في دمشق والقدس والخليل وغيرها .

ومنها (٣٤٣) « مدرسة غزة » أنشأها للشافعية الأمير الكبير علم الدين الجاولي الذي سمع مسند الشافعي بالكرك على دانيال، وعمل نيابة السلطنة في غزة وبنى بها مدرسة وجامعاً حسناً، وله عمائر كثيرة وخانات توفي سنة (٧٤٥) .

ومنها (٣٤٤) « خانقاه النجمية » في بعلبك، عمره نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف أيام ولايته عليها وخصه بالصوفية .

ومنها (٣٤٥) « السيفية » بمدينة الصلت لمنشئها الأمير سيف الدين بكتمر والي الولاية سنة (٧٢٤) .

ومنها (٣٤٦) « الزبدانية » لواقفها محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن

حيدرة (٦٥٦) درس فيها في سنة (٦٩٨) ابن العدل محي الدين يحيى بن محمد بن عبد الصمد وهي مدرسة جده .

ومنها (٣٤٧) «الأمينية» بمدينة بصرى، وكانت عامرة في القرن السادس ولم نعلم اسم بانيتها .

وكان في المعرة (٣٤٨) «مدرسة المعرة» قديمة للشافعية بنيت على ما يفهم مما كتب على رتاجها الجميل زمن الملك المنصور محمد أحد ملوك الأيوبيين في حماة سنة (٥٩٥) وعمر فيها ابن الوردي مدرسة في النصف الأول من المئة الثامنة .

ومنها (٣٤٩) «مدرسة عزاز» أنشأها إسماعيل بن عبد الرحمن العزازي وساق إليها القناة الحلوة وانتفع الجامع وكثير من المساجد بهذه القناة وله آثار حسنة غيرها توفي سنة (٧٤٨) .

قال ابن طولون : كان في ربوة دمشق مدرسة يقال لها المضجعية (٣٥٠) وفي الأصل (المنبجة) موقوفة على مدرس حنفي وطلبته .

وكان في منبج مدرسة بناها نور الدين محمود بن زنكي لابن أبي عصرون في جملة ما بنى له من المدارس، وفي آثار البلاد أنه كان فيها مدارس ورُبُط . وفي جباع وميس وعيناتا وجزين ومشغرة والشقراء من جبل عامل مدارس دينية تخرج فيها جلة فقهاء الشيعة وأدبائهم، وقد خربت واضطر أهل عامل إلى إرسال بعض الطلبة إلى النجف الأشرف يدرسون في مدارسها التي هي للشيعة بمثابة الأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس لأهل السنة . .

ولا نعلم في سائر مدن الشام ساحلها وداخلها شيئاً من تاريخ المدارس وخططها فإن كانت فهي ضئيلة لأن قوة المسلمين في هذه الديار كانت في العواصم الكبرى حيث يتزل الملوك والأمراء والأغنياء، وسائر المدن ضعيفة الشأن في هذا المعنى . ومن الصعب أن تقوم المدارس للطلبة في القرى . وكانت الكرك وصفد وبصرى والزبداني ومنبج والرملة وغزة، وأكثرها اليوم أشبه بالقرى منها بالمدن أكثر من بيروت وصيدا وصور ويافا وحيفا وعكا واللاذقية وجبله والسويدية والإسكندرونة عبراناً، فقد ذكر الظاهري في القرن التاسع أنه كان في كل من غزة وصفد وبعلبك مدارس بصيغة الجمع، ومنها ما

كان مركزاً من مراكز العلم مثل صفد. ومانخال بعض المدن التي أصبحت قري كانت خالية أيضاً من مدارس مثل كفرطاب بين المعرة وشيزر ولكن أخبارها ضاعت .

ومن مدارس القطر مدرسة قايتباي في غزة درست ويظن أنها قرب المسجد، وفيها مدرسة هاشم حديثة العهد وفيها طلاب متعممون، ومدرسة أبي نبوت في يافا، ومدرسة الجزار في عكا، ومدرسة في الجامع الكبير المارستانية في نابلس، ومدرسة جامع الحنابلة، ومدرسة البيك والصلاحية في نابلس أيضاً ويجوارها الشيخ بدران شيخ المدرسة، كانت محكمة شرعية والآن تحولت مقهى .

الخوانق والربط والزوايا

خوانق دمشق :

الخانقاه كلمة فارسية قيل: أصلها خونكاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. وهي زوايا الصوفية لم تعهد على هذا النمط إلا في القرن السادس، وأول من بناها من الملوك بمصر كما قال السيوطي السلطان صلاح الدين يوسف ورتب للفقراء الواردين أرزاقاً معلومة. وقال المقرئزي: إن الخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمئة من سني الهجرة، وجعلت ليتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى، وإن أول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى دوراً وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وقيل: إن أول خانقاه بنيت في الإسلام للصوفية زاوية برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى حين استولى الفرنج على الديار القدسية، وسبب ذلك أنه رأى طائفة من الصوفية وألفتهم في طريقتهم، فسأل عنهم ما هذه الألفة والصحبة والأخوة الخاصة بينكم فقالوا له: الألفة والصحبة لله طريقتنا. فقال لهم: أبني لكم مكاناً لطيفاً تتألفون فيه وتتعبدون، فبنى لهم تلك الزاوية . وفي التاج أن معاوية كان يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة وله في كل يوم أربعون مائدة يتقسمها وجوه جند الشام .

ولقد كان بدمشق من هذه الخوانق أو الخانقات ست وعشرون خانقاهاً على ما في الدارس وهي .:

(٣٥١) «الأسدية» داخل باب الجابية في المحل المعروف بدرب الهاشمية قديماً بإنشاء أسد الدين شيركوه، ولي مشيختها نجم الدين بن القرشية العباسي وغيره وهي غير معروفة .

(٣٥٢) «الإسكافية» كانت على نهر يزيد بسفح قاسيون، إنشاء شرف الدين بن الإسكافي مجهول محلها .

(٣٥٣) «الأندلسية» شرقي العزيزية والأشرفية قرب الكلاسة ملاصقة للجمجمة غربي السمساطية وهي المعروفة بأبي عبد الله الأندلسي ومن صوفيتها^(١) شهاب الدين أحمد القباي. وهذه الخانقاه الآن عمد قائمة ليس إلا .

(٣٥٤) «الباسطية» كانت بالجرس الأبيض غربي الإسعردية وشمالي العزيزة إنشاء عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش بعد الثمانمائة، ولي مشيختها قاضي القضاة الباعوني وهي الآن في البساتين خراب .

(٣٥٥) «الحسامية الشبلية» شمالي الشبلية البرانية عند جسر كحيل منسوبة لأم حسام الدين عمر بن لاجين ولي مشيختها شرف الدين نعمان وهي غير معروفة .

(٣٥٦) «الخاتونية» ظاهر باب النصر المعروف بدار السعادة أول الشرف القبلي على نهر بانياس شرقي جامع تنكز وملاصقة له منسوبة إلى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين وهي الآن عمائر وبنائيات .

(٣٥٧) «الدويرية» كانت بدرب السلسلة بباب البريد منسوبة لمحمد ابن عبد الله الدمشقي المقرئ المعدل^(٢) .

(٣٥٨) «الروزنهارية» بالباب الشرقي من الجامع الأموي خارج باب الفرديس في المحل الذي كان يعرف ببرج المستجد، لأبي الحسن الروزنهاري ليست معروفة .

(٣٥٩) «السمساطية» للشمال الشرقي من الجامع الأموي، أسسها أبو

(١) الصوفية هم نساك هذه الأمة وزهادها، نشأت طريقتهم بعد عصر الصحابة والتابعين . والراجح أنهم نزعوا ثياب الخبز والديباج واكتسوا الصوف فسموا بالصوفية . وأول من تسمى بالصوفي منهم أبو هاشم الصوفي المتوفى في منتصف القرن الثاني ، ولبسهم الصوف أشبه بلبس نساك التصاوي المسوح .

(٢) كان القضاة يفوضون أمور التمديل والتركية لرجل يسمى قاضي التركية وهو المعدل .

القاسم علي بن محمد السلمي المعروف بالحجيش السميساطي المتوفى سنة (٤٥٣) قالوا: إنه دفن بداره بباب الناطقانيين المعروف الآن بباب العمارة وكان قد وقفها على فقراء المؤمنين والصوفية ووقف علوها على الجامع وحبس أكثر نعمته على وجوه البر . وكانت هذه الدار دار عبد العزيز بن الوليد وهو الأصبح الأموي وابن أخت عمر بن عبد العزيز، وقد سكنها عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة وتولاها أناس من أكابر العلماء. وجددها تنكز في سنة (٧٢٨) بناء جميلاً، وتنكز هذا جدد عمائر المساجد والمدارس ووسع الطرقات في دمشق وله في الشام عمائر وآثار . وقد نقضت منذ بضع سنين من أساسها وجدد بناؤها على أن تجعل مدرسة راقية للعلوم الدينية فلم لها هذا ورجعت حجرها مأوى البطالين .

ذكر القلقشندي من الوظائف الدينية بدمشق في القرن التاسع وظيفة شيخ الشيوخ ، وموضوعها التحدث على جميع الخوانق والفقراء بدمشق وأعمالها، والعادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه السميساطية بدمشق .

(٣٦٠) « الشومانية » أنشأها شومان ظهير الدين أحد ممالك بني أيوب ولم يذكر في الدارس غير هذا .

(٣٦١) « الشهائية » داخل باب الفرج غربي العادلية الكبرى وشمال المعينية لإنشاء الأمير ايدكين بن عبد الله مملوك الأمير الطواشي شهاب الدين رشيد النجمي سنة (٦٥٠) خربت في وقعة تيمور (٨٠٣) ولم تتجدد بعد، وهي الآن دور وأنقاضها ظاهرة بأحجارها النحيفة .

(٣٦٢) « الشبلية » إنشاء شبل الدولة كافور المعظمي بإزاء الشبلية البرانية المتقدمة على نهر ثورة بسفح قاسيون، وليها نجم الدين بن بركات بن القرشية البعلي وغيره ولا يعرف عنها غير هذا .

(٣٦٣) « الشبناشية » بحارة البلاطة تعرف بأبي عبد الله الشبناشي كانت مدرسة للإناث .

(٣٦٤) « الشرفية » تجاه العروية شرقي دار الحديث الأشرفية ملاصقة للطومانية شرقي باب القلعة وغربي العادلية الصغرى، إنشاء أحمد بن الفقاعي درس بها الفارقي وهي الآن حوانيت .

- (٣٦٥) « خانقاه الطاحون » خارج البلد منسوبة لنور الدين تولها الشيخ سعيد الغثاني وهي دائرة .
- (٣٦٦) « الطواويسية » منسوبة للملك دقاق أو لابنه وهي المشهورة بجانب الكوجانية والطريق الآخذ إلى المرجة والصالحية وهي اليوم جامع اقتطعت الأوقاف من غربها قطعة جعلتها للمستغلات .
- (٣٦٧) « الغزية » بالجسر الأبيض على نهر ثورة بالصالحية قبلي الباسطية وغربي الماردانية ومدرسة إبراهيم الإسعدي، إنشاء عز الدين آي ديمير الظاهري (٦٩٠) وهي محطة الترامواي الآن .
- (٣٦٨) « خانقاه القصر » مطلة على الميدان الأخضر، إنشاء شمس الملوك ذهب مع ما ذهب .
- (٣٦٩) « القصاعية » كانت بالقصاعين أو سوق مدحت باشا اليوم إنشاء فاطمة خاتون خطليجي، خربت ولم يبق لها عين ولا أثر .
- (٣٧٠) « الكججانية » بالشرف الأعلى بين الطواويسية والغزية وأمام شركة الكهرباء والترامواي، إنشاء إبراهيم الكججاني لم تبرح قبتها ظاهرة .
- (٣٧١) « المجاهدية » إنشاء مجاهد الدين إبراهيم على الشرف القبلي سنة (٦٥٦) ولم يعلم منها ولا مكانها .
- (٣٧٢) « النهرية » المشهورة بخانقاه عمر شاه بأول شارع القنوات شرقي سيدي خمار وهي الآن دار .
- (٣٧٣) « النجيبية » جاء في مختصر الدارس أنها بناحية باب البريد، إنشاء نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ولا يعرف لها أثر .
- (٣٧٤) « الناصرية » إنشاء صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد ابن غازي بن أيوب بجبل قاسيون على نهر يزيد تقدم ذكرها في دور الحديث صارت اليوم حاكورة صبار .
- (٣٧٥) « الناصرية » منسوبة للناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي كانت بدرب خلف القيسارية، وهي غير معلومة .
- (٣٧٦) « اليونسية » في أول الشرف الأعلى الشمالي شرقي الخانقاه الطواويسية، إنشاء الأمير الشرفي يونس سنة (٧٨٤) هدمت وجعلت طريقاً في أيامنا .

ومن الخوانق الحديثة (٣٧٧) «خانقاه أحمد باشا» الشهير بين أمراء الأروام أي العثمانيين بشمسي أحمد باشا تولى دمشق فطالت مدته وبنى فيها خانقاهاً قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها وجعل فيها حجرات للصوفية وهي من محاسن دمشق. هذه رواية الحسن البوريني، وما زالت هذه الخانقاه عامرة ولكن لا على الصورة التي أرادها الواقف بل صارت جامعاً. ومن خوانق دمشق القديمة (٣٧٨) «خانقاه النحاسية» أنشأها الخواجة الكبير شمس الدين بن النحاس الدمشقي سنة (٦٢٢).

رباطات دمشق :

الرباط ويقال له التكية بالتركية قال الأميري : والخانقاه بالكاف يعنى الخانكاه وهي بالعجمية دار الصوفية ولم يتعرضوا للفرق بينهما وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة. وأول من اتخذ دار الضيافة للواردين الوليد بن عبد الملك الأموي واتخذ بعده عمر بن عبد العزيز داراً لطعام المساكين والفقراء وابن السبيل. وكان لنور الدين محمود بن زنكي يد طولى في الاستكثار من الربط والخوانق بنى منها في جميع مملكته للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليها الإدارات الصالحة، وكان يكرم الصوفية والفقهاء والعلماء. وقد جدد الظاهر دور الضيافة للرسول والواردين . ويؤخذ مما قاله المقرئزي أن الرباط دار يسكنها أهل طريق الله، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ثم صار لزوم الثغر رباطاً، والرباط المواظبة على الأمر، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد، فالرباط بيت الصوفية ومرتزهم، ولكل قوم دار. والرباط دارهم . وكان بدمشق ثلاثة وعشرون رباطاً وهي :

(٣٧٩) «رباط البياني» داخل باب شرقي بحارة درب الحجر أو اليمارستان الآن. والبياني نسبة لأبي البيان محمد بن محفوظ القرشي ويعرف بابن الحوراني لا يعرف عنه شيء أنشئ سنة (٥٠١) .

(٣٨٠) «رباط التكريتي» بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون، إنشاء

- محمد بن علي بن سويد التكريتي التاجر المثري سنة (٦٧٠) غير معروف .
- (٣٨١) «رباط الشيخ محيي الدين» بالصالحية بناه على قبر محيي الدين ابن عربي السلطان سليم خان وجعله جامعاً وتكية لطعام الفقراء في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قاله القرماني. وهو موجود إلى اليوم .
- (٣٨٢) «رباط صفة القلعة» بالقرب من المدرسة الظاهرية لا يعرف عنه شيء غير هذا .
- (٣٨٣) «رباط زهرة» كان قرب حمام جاروخ وأمام فرن خليفة بجيرة دار الأمير مسعود ابن الست عذراء صاحبة المدرسة وهو غير معروف .
- (٣٨٤) «رباط طومان» إنشاء طومان أحد أمراء السلجوقيين تحت القلعة ولا يعرف عنه شيء .
- (٣٨٥) «رباط جاروخ التركماني» لا يعرف عنه إلا أنه كان بباب الجابية.
- (٣٨٦) «رباط غرس الدين خليل» من ولاية دمشق، كان معروفاً بباب الجابية وهو مجهول .
- (٣٨٧) «رباط المهراي» و
- (٣٨٨) «رباط البخاري» كانا عند باب الجابية ولا يعلم عنهما غير ذلك.
- (٣٨٩) «رباط البافلاطوني» و
- (٣٩٠) «رباط الفلكي» و
- (٣٩١) «رباط بنت السلاّر» داخل باب السلامة ولا يعلم عنها شيء .
- (٣٩٢) «رباط عذرا خاتون» كان داخل باب النصر غير معروف .
- (٣٩٣) «رباط بدر الدين عمر» .
- (٣٩٤) «رباط الحبشية» بمحلة المعينية غير معروف .
- (٣٩٥) «رباط أسد الدين شيركوه» بدرب زرعة لا يعرف ولا يعرف درب زرعة .
- (٣٩٦) «رباط القصاعين» و
- (٣٩٧) «رباط بنت الدفين» كانا داخل المدرسة الفلكية .
- (٣٩٨) «رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل» و
- (٣٩٩) «رباط الداوداري» داخل باب الفرج ، ولي مشيخته

نور الدين بن قوام وهما غير معروفين .

(٤٠٠) « رباط الفقاعي » من رباطات السفح سفح قاسيون .

(٤٠١) « رباط الوزار » بمحلة سويقة صاروجا .

وبعض هذه الرباطات قد ذكرت أولاً باسم مدارس وبنيت في محلها والغالب أن الرباطات كانت تستحيل في الأحياء جوامع أو مساجد أو مدارس كما شوهد ذلك في زماننا. ومما أغفله صاحب الدارس من الرباطات (٤٠٢) « رباط نجم الدين أيوب » والد صلاح الدين ، وقفه وكان داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد .

زوايا دمشق :

الزوايا كالحاناتها والرباطات إلا أنها تقام فيها الأذكار وقد كثرت بكثرة الطرق والمشايخ المعتقدين وذلك بعد القرن السادس. وكان بدمشق على عهد صاحب الدارس ست وعشرون زاوية :

(٤٠٣) « الأرموية » بسفح قاسيون، إنشاء عبد الله بن يونس الأرموي

المتوفى سنة (٦٣١) وهي خراب .

(٤٠٤) « الأرموية الشرفية » بالسفح أيضاً، إنشاء الشيخ شرف الدين

ابن عثمان بن علي الرملي غير معلومة .

(٤٠٥) « الحريرية » ظاهر دمشق بالشرف القبلي، إنشاء علي الحريري

أبي محمد ابن أبي الحسن بن مسعود سنة (٦٣٠) لم نحققها .

(٤٠٦) « الحريرية الأعفوية » لأحمد الأعف الحريري .

(٤٠٧) « الدهستانية » لإبراهيم الدهستاني، كانت عند سوق الخليل

العتيق .

(٤٠٨) « الحصنية » إنشاء تقي الدين الحصني بالشاغور وهي موجودة .

وفي ظهر نسخة من كتاب العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان للنعماني ما نصه : « الحمد لله : كان ابتداء عمارة الزاوية أعلى خان السبيل المعروف بخان الحصني قدس سره نهار الاثني عشر من شعبان سنة (١٠٩٢) اثنتي عشرة وتسعين وألف في مدة قليلة، ومطلعها من مسجده المعروف بالحصنية المجاورة

للخان المذكور، وقد أنشأ العبد الفقير فيه أيضاً عمارات كثيرة وكذلك عمارة مريضاته التي اختلسها بنو العجمي الغادرون وانتزعت منهم وأعيدت أحسن ما كانت بإمداد الله تعالى ومعونته ورفقه والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات، وكتبه العبد الفقير تقي الدين الحسيني الحصني الشافعي لطف الله تعالى به والمسلمين» .

(٤٠٩) «الدينورية» بالسفح إنشاء عمر بن عبد الملك الدينوري المتوفى سنة (٦٢٩) .

(٤١٠) «الدينورية الشيخية» بالسفح أيضاً إنشاء أبي بكر الدينوري باني الزاوية بالصالحية .

(٤١١) «السيوفية» بالسفح على نهر يزيد غربي دار الحديث الناصرية والعالملة، إنشاء الشيخ السيوفي نجم الدين بن عيسى بن شاه أرمن الرومي .

(٤١٢) «الداودية» بالسفح أيضاً تحت كهف جبرائيل، إنشاء زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود القادري .

(٤١٣) «السراجية» بالصاغة العتيقة منسوبة لابن سراج .

(٤١٤) «الشريفية التعارانية» شرقي الناصرية الجوانية، إنشاء محمد الحسيني التعاراني .

(٤١٥) «الطالبية الرفاعية» بقصر حجاج، إنشاء طالب الرومي .

(٤١٦) «الوطية» شمالي جامع جراح للمغاربة وتعرف بزاوية المغاربة، إنشاء الرئيس علي الشهير بابن وطية الموقت سنة (٨٠٢) .

(٤١٧) «الطيبة» شمالي القيمرية الكبرى داخل مدرسة القطاط، إنشاء طه المصري شرقي حمام أسامة سنة (٦٣١) .

(٤١٨) «العمادية المقدسية» عند كهف جبرائيل بالسفح، إنشاء أحمد ابن عماد الدين بن العماد المقدسي المتوفى سنة (٦٨٨) .

(٤١٩) «الغسولية» بالسفح أيضاً، إنشاء أبي عبد الله محمد ابن أبي الزهر الغسولي .

(٤٢٠) «الفقاعية» بالسفح أيضاً، إنشاء الشيخ يوسف الفقاعي .

(٤٢١) «الغويتية» بالسفح، لصاحبها الشيخ علي الغويتي .

(٤٢٢) «اللوثنية» بالسفح أيضاً، إنشاء علي اللوثني .

- (٤٢٣) « القوامية البالسية » غربي جبل قاسيون والزاوية السيوفية ودار الحديث الناصرية على حافة نهر يزيد، لصاحبها أبي بكر بن قوام البالسي .
- (٤٢٤) « القلندرية الدرگزبئية » بمقبرة باب الصغير لمحمد بن يونس الساجي من مشايخ القلندرية. وقلندر لفظة فارسية معناها الدرويش الذي نقض يده من الدنيا وزهدت نفسه في زخارفها .
- (٤٢٥) « القلندرية الحيدرية » كانت بمحلة العونية .
- (٤٢٦) « اليونسية » بالشرف الشمالي غربي الوراقية والعزية البرانية للشيخ يونس بن يوسف القتي أنشئت سنة (٦١٩) .
- (٤٢٧) « زاوية ابن اللقيمية » لإنشاء ناصر الدين بميدان الحصا، وهو من ذرية صلاح الدين أيوب غير معلومة .
- (٤٢٨) « زاوية عبد القادر الموصلي » .
- هذه أسماء الزوايا وبعضها لم يزل باقياً لم يُصَب بما أُصيبت به المدارس .
ومن الزوايا التي كانت في المزة :
- (٤٢٩) « زاوية خضر العدوي » على باب دمشق، وكان هذا مشهوراً بشيخ الملك الظاهر بيبرس وكان يعتقد، بنى له كما قال ابن طولون عدة زوايا في مصر والشام منها زاوية المزة ، وبدمشق زاوية وبظاهر بعلبك زاوية وبحماة زاوية . ومن الزوايا الحديثة :
- (٤٣٠) « تكية السلطان سليم » التي بناها أيام بنى القبة على قبر محيي الدين ابن عربي بالصالحية (٩٢٢) ووقف عليها أوقافاً دارة ولا يزال بعضها إلى الآن وقد بقي الرسم من هذه التكية وأضيفت إلى معاهد الجامعة السورية .
- (٤٣١) « التكية السليمانية » بجانبها منسوبة للسلطان سليمان القانوني ، جاء في كتاب الجوامع والمدارس أن فيها من الأحجار والآلات والرخام الصافي والملون والصنائع والقباب والترصيص ما يجير الناظر ويسر الخاطر . ثم مدح بجزتها ومأذنتها فقال : إنه يحصل للمسافر أنس بهما لأن غالب المهندسين متشرفون بدين الإسلام . ثم قال : تجددت مدرسة إلى جانب التكية السليمانية من الشرف برسم المدرس في سنة (٩٧٤) وهي من زوائد التكية وجاء مدرستها من الباب العالي اهـ . وقد رمت هذه التكية في الحرب العامة على آخر أيام

الترك وأزيل ما كان علق بقبتها ومسجدها وحجرها من الكلس والجبس وأعيدت إلى حالتها الأولى فظهر حسن هندستها وطرز بنائها الرومي ، ومنارتها شاهدتان بأنها من طرز بناء الجوامع في فروق، وكانت تتداعى منارتها الشرقية فنقضت وأعيدت كما كانت ، واستولت إدارة الجامعة السورية على جزء منها في العهد الأخير جعلته مخبر لمدرسة الطب، ولها أوقاف قيل: لأنها تبلغ نحو مئة ألف ليرة مسانحة. وهذه التكية من أجمل آثار العثمانيين، هندسها معمار سنان أشهر مهندس في دولة الترك المتوفى (٩٦٦) ولم يحصل الانتفاع بها مع أنها في الغاية بناء وهندسة وأوقافاً .

ومن التكايا التي عمرت أواخر القرن العاشر :

(٤٣٢) «تكية مولويخانة» تكية الدراويش بالقرب من جامع تنكز، وهي في غاية الحسن عمرت سنة (٩٩٣) والمولوية هي طريقة الدراويش المنسوبين لجلال الدين الرومي ، وكان مقرها في قونية وطريقتهم تمتاز بالرقص والتواجد والإنشاد وقد ألغى الكماليون طريقة المولوية من مملكتهم ولم يبق منها إلا بعض تكايا في الشام أكلت أوقافها ومن أهمها تكية حلب .

ومن الزوايا التي عمرت بعد صاحب الدارس على ما يظهر :

(٤٣٣) «الزاوية الغزالية» بالجامع الأموي شمالي مشهد عثمان، كان مدرستها سنة (١٠٨٣) مصطفى المحاسني .

(٤٣٤) «الزاوية المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى الصابونية لشمس الدين بن المزلق مولده سنة (٧٥٤) وكان من الأغنياء، عمر على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب وعيون التجار وغيرها، وأنفق على عمارتها ما يزيد على مائة ألف دينار ولم يسبقه أحد إلى مثل ذلك، وهو صاحب المآثر بدرب الحجاز، وقف جميع أملاكه من القرى وغيرها، وجعل النظر في ذلك لمن كان حاجب الحجاب ولمن كان خطيباً بالجامع الأموي، ولم يمض قرن وبعض الثاني حتى لم يبق جارياً من مبراته سنة (١٠٨٣) المعينة في كتاب الوقف سوى شيء قليل. قاله المحاسني . والغالب أن اسم واقف هذه المدرسة محمد بن علي بن المزلق المتوفى سنة (٨٤٨) وهي عند مسجد الذبان. ومن الزوايا الحديثة :

- (٤٣٥) « زاوية الصمادية » في الشاغور أنشئت سنة (١٠٥٣) أنشأها زاوية ومسجداً محمد بن خليل الصمادي .
- (٤٣٦) « الزاوية الشاذلية » أنشئت (١٢٩٠) في القنوات لأهل الطريقة الشاذلية وما زال يقام فيها الذكر .
- (٤٣٧) « الغواصية » زاوية أنشئت في الميدان لأصحاب الطريقة الرفاعية، حرقت في الثورة الأخيرة، وكانت عمرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني .
- (٤٣٨) « زاوية السعدية » في زقاق الحمامات وهي لأهل طريقة سعد الدين الجبائي .
- ويؤخذ من مجموع الإحصاء الرسمي أن بدمشق الآن إحدى عشرة تكية، ولعل الزوايا داخلة في هذا المجموع. وفي القنيطرة تكية أنشأها لالا مصطفى باشا الذي تولى دمشق سنة (٩٧١) .

خوانق حلب وربطها وزواياها :

(٤٣٩) « خانقاه البلاط » هذه أول خانقاه بنيت في حلب، سميت بذلك لأنها في سوق البلاط (الآن سوق الصابون) أنشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان سنة تسع وخمسمائة، كان لها بابان أحدهما من السوق المذكورة ثم سد وجعل صغيراً، والآخر من شارع شرقيها، قيل: هي موقوفة على الفقراء المتجردين دون المتأهلين بحلب، ثم هجرت واتخذت بيتاً، إلى أن أحيها الشيخ علاء الدين الجبرتي بنفقة الأمير تغري بردي، ثم إن الحكومة التركية اتخذت منها مخفراً ثم أجزته دائرة الأوقاف مدة طويلة فعمر مخزناً للتجارة ونقل باب الخانقاه القديم إلى شمالي باب المخزن وعمل له دهليز يدخل منه إلى الصحن والقبليّة، ووقع في هذين ترميمات بسعي أهل الخير ومعاونة مديرية الأوقاف فعاد للمحل بعض الحياة .

(٤٤٠) « خانقاه القديم » أنشأها نور الدين محمود بن زنكي سنة خمسمائة وثلاث وأربعين، كانت تحت القلعة إلى جانب الخندق ملاصقة لدار العدل، ثم عرفت بالمقشائية ثم خربت ودخلت في عمارة المستشفى الوطني .

(٤٤١) « خانقاه القصر » من إنشاء نور الدين أيضاً سنة خمسمائة وثلاث وخمسين، وهي تحت القلعة سميت بالقصر الذي كان هنالك من بناء شجاع الدين فاتك .

(٤٤٢) « خانقاه الست » أنشأها زوجة نور الدين أم الملك الصالح إسماعيل سنة خمسمائة وثمان وسبعين، وبنيت إلى جانبها تربة دفنت بها ولدها الملك الصالح. ثم كثرت الخوانق والربط من ذلك العهد. وعد ابن الشحنة منها عدا ما تقدم خمسة وعشرين رباطاً أنشئت في الدولتين النورية والصلاحية ثم في دولة المماليك، وكلها قامت بأيدي أهل الخير من الملوك والأمراء والأميرات وبعض أرباب الدولة .

(٤٤٣) « خانقاه الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل » في المحلة التي كانت تعرف بالسهيلة ثم عرفت بسويقة حاتم. هكذا في الدر المنتخب وهي تعرف بالزينية بزقاق يقال له زقاق القرن، مكتوب على بابها أنها جددت في دولة الملك الظاهر أبي المظفر ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب، وأن واقفها الأمير زين الدين علي ابن بكتكين سنة (٦٣٠). والآن فيها قبيلة وست حجر .

(٤٤٤) « خانقاه بعوضة الفراتي » أنشأها مجد الدين أبو بكر محمد بن محمد الداية ابن نويشتكين المتوفى سنة خمسمائة وخمس وستين، أخو نور الدين من الرضاع .

(٤٤٥) « خانقاه بمقام إبراهيم » أنشأها مجد الدين ابن الداية المذكور أيضاً.
(٤٤٦) « خانقاه سعد الدين كشتكين الخادم » مولى بنت الأتابك عماد الدين المتوفى سنة خمسمائة وثلاث وسبعين، كانت ملاصقة للمدرسة الصلاحية (البهائية اليوم) ثم عرفت بالقلقاسية ويرجح أنها والآية دخلتا في خان خيري بك .

(٤٤٧) « خانقاه طلوس » بجانب السابقة .

(٤٤٨) « خانقاه ابن النبي » أنشأها الأمير عبد القاهر ابن عيسى المعروف بابن النبي وقفها سنة (٦٣٩) عند وفاته، وهي ذيل محلة العقبة والآن صارت دارين وتحتهما في حجرة قبر الواقف .

- (٤٤٩) « خانقاه الأمير علاء الدين طاي بغا » كانت داراً يسكنها فوقها على الصوفية عند موته سنة (٥٥٠) وهي مما دخل في دار العدل ثم دثر وقام في محله المستشفى الوطني .
- (٤٥٠) « خانقاه العجمي » أنشأها أبو بكر أحمد بن العجمي وكانت داراً يسكنها، فوقها أخوه الشيخ شرف الدين على الصوفية .
- (٤٥١) « خانقاه حوشي » أنشأها بيرم مولى ست حارم بنت التعمنا (التعملي) خالة صلاح الدين في دهليز دار الملك المعظم وتعرف بخانقاه حوشي .
- (٤٥٢) « خانقاه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد » المتوفى سنة (٦٣٢) كانت داراً يسكنها فوقها للصوفية .
- (٤٥٣) « خانقاه الفطيسية » أنشأها مسعود بن عز الدين أيبك المعروف بفطيس المتوفى سنة (٦٤٩) وهو عتيق عز الدين فرخشاه، وكانت في مدرسته المعروفة بهذا الاسم ثم دخلنا في دار العدل كما ذكر في خبر المدرسة .
- (٤٥٤) « خانقاه سنقرجاه » وهي برأس زقاق البهاء قبلي دار العدل عمرت سنة (٥٥٤) ثم دثرت مع دار العدل ودخل الجميع في بناء المستشفى الوطني وما يليه .
- (٤٥٥) « خانقاه الكاملة » مكتوب على بابها وقفت هذه الخانقاه فاطمة بنت الملك الكامل محمد توفيت سنة (٦٥٦)، وهي في محلة الجلوم الكبرى في زقاق يسمى بزقاق الشيخ عبد الله، ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجر صغيرة مشرفة على الخراب .
- (٤٥٦) « خانقاه بنت صاحب شيزر » وهو سابق الدين عثمان أنشأتها قبالة دورهم، لا أثر لها وقد كانت في العرصه التي إلى شرقي جامع العادلية وقبلي خان الفرايين .
- (٤٥٧) « خانقاه بدرب البنات » شمالي البيمارستان الكاملى وقفتها ست العراق ابنة نجم الدين أيوب بن شاذي عن ولدها سيف الدين سنة (٥٧٤) وهذا الدرب يعرف اليوم ببوابة خان القاضي من محلة باب قنسرين لا أثر لها.

- (٤٥٨) « خانقاه بدر بن البنات » كذلك أنشأتها زمرد خاتون وأختها ابنتا حسام الدين لاجين عمر بن النوري وأمها أخت صلاح الدين يوسف .
- (٤٥٩) « خانقاه نور الدين » محمود بن زنكي ذكرها أبو ذر قال :
أظنها أنشئت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال ابن شداد: أظنها التي بجوار المدرسة الشاذبختية الجوانية، وفي هامش بخط محمد بن عمر الموقع أنها أصبحت تعرف بالشيخرية، ليس لها أثر .
- (٤٦٠) « خانقاه ضيفة خاتون » بنتها سنة خمس وثلاثين وستمائة داخل باب الأربعين تجاه مسجد حافظ عبد الرحمن بن الأستاذ، هذه الخانقاه الآن بمحلة الفرافرة أمام جامع الزينية ومدرسة الهاشمية، تسمى الناصرية لأن على بابها أنها أنشئت زمن الناصر يوسف بن أيوب، فيها إيوان عظيم ومحراب بديع، وهي ماثلة إلى الاندثار يسكنها بعض الفقراء من العبيد المعتقين .
- (٤٦١) « خانقاه بنت والي قوص » منثرة مجهولة المحل .
- (٤٦٢) « خانقاه القوامية » كانت تجاه خانقاه ضيفة خاتون، ليس لها أثر.
- (٤٦٣) « خانقاه محمد بن عبد الملك بن المقدم » بدر بن الخطابين الذي عرف بعد ذلك بدر بن ابن سالار سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ودر بن ابن سالار هو المعروف الآن بزقاق خان التين من محلة الجلوم، فيرجح أنها كانت بجانب مدرسة المقدمة التي مر ذكرها المنسوبة إلى محمد بن عبد الملك بن محمد الذي يظهر أنه ابن صاحب الخانقاه. لا أثر لها .
- (٤٦٤) « خانقاه الشمسية » في رأس درب البازيار ملاصقة لبيت أبي ذر المؤرخ، أنشأها أبو بكر أحمد وأوصى أخاه صاحب الشرفية أن يقفها على الصوفية، الدرب المذكور يعرف الآن بزقاق الزهراوي .
- (٤٦٥) « خانقاه الخادم » هي إلى جانب المتقدمة من شمالها وقفها الخادم من عتقاء بني العجمي على سكنى بني العجمي الإناث .
- (٤٦٦) « خانقاه تجاه المتقدمة » لا يعلم لمن تنسب ولعلها هي ما جاء في بعض التواريخ أنها إنشاء جمال الدولة لإقبال الظاهري، قال أبو ذر عن هاتين الأخيرتين إن في كل قبراً، والآن تحول جميع ذلك إلى دور مسكونة .
- (٤٦٧) « خانقاه طغرل بك » هو الأمير شهاب الدين طغرل الأتابك

وهي في خارج باب الأربعين بالحبيل، هي الآن مدرسة النجاة .
 (٤٦٨) « خانقاه الدورية » أنشأها محمد بن جمال الدين يوسف الدوري
 عين التجار بحلب ووقف لها ابنه وقفاً وهي موقوفة على شمس الدين الأطعاني ،
 كانت على شاطئ نهر قويق من جهة الناعورة، وهي دائرة مكانها مجهول .
 (٤٦٩) « خانقاه السحلوية » على شاطئ قويق قرب بستان حجازي
 وقفها كافل حماة الإسعدي على عبد الرحمن بن سحلول المتوفى سنة (٧٨٢)
 وجعل لها مدرساً هدمت في حادثة تيمور لا يعلم محلها .

(٤٧٠) « خانقاه الكاملة » أنشأته الكاملة زوجة علاء الدين بن أبي
 الرجاء خارج حلب .

(٤٧٢) « رباط » أنشأه سيف الدين علي بن سليمان بن جندر بالرحبة
 الكبيرة، وكان في دار تعرف ببدر الدين محمود بن شكري الذي خنقه الملك
 الظاهر غازي ، هو مندثر الآن ويرجح أنه كان في محلة باب قنسرين تجاه
 جامع الكريمة .

(٤٧٣) « رباط » قرب مدرسة النورية التي تعرف أيضاً بالنفرية،
 كانت في محلة السفاحية تجاه المدرسة الصاحبية في الزاوية الغربية من الجنيئة
 المعروفة اليوم بجنيئة الفریق وهي مندثرة .

(٤٧٤) « رباطان » تحت القلعة للخدم أحدهما برأس درب الملك
 الحافظ، والآخر اسمه الجمالية برأس زقاق المبلط بينه وبين السلطانية
 طريق، وهذا من إنشاء جمال الدولة لإقبال الظاهري في حدود الأربعين
 وستمائة .

(٤٧٥) « رباط قراسنقر » ذكره ابن خطيب الناصرية في ترجمة
 بانيه المتوفى سنة (٧٢٨) وقال: له وقف كبير، وهو مندثر لا يعلم محله .

(٤٧٦) « رباط الخدام » تحت القلعة، مندثر .

(٤٧٧) « رباط » بشرقي تربة ابن الصاحب أمام الظاهرية، أنشئ في
 دولة الناصر حسين علي بن أحمد .

(٤٧٨) « رباط » بجانب مدرسة ضيفة خاتون في الفردوس، أنشئ
 سنة (٦٣٣) .

(٤٧٩) «رباط» قرب الظاهرية التي في خارج حلب، أنشئ أيام يوسف الناصر .

(٤٨٠) «رباط للقلندرية» في داخل المدرسة المقدمة التي كانت في الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل، مندثر .

(٤٨١) «الثكنة العسكرية» أسسها إبراهيم باشا المصري (١٢٤٨) ثم أصلحت سنة (١٢٩٧) وتسمى بقشلة الشيخ يبرق لزاوية هذا الدفين بجانبها، وهي في الجهة الشمالية الشرقية من حلب طولها ثلاثمائة وأربعون ذراعاً وعرضها زهاء مائتين .

(٤٨٢) «ثكنة على قمة جبل البختي» بديء بتأسيسها (١٣٣٠) ثم زيد عليها بعد انسحاب الترك زيادات ولم تزال غير كاملة .
وقد درس كثير من الرباطات في باب المقام وغيره .

(٤٨٣) «زاوية معروفة ببني الحشاب» مكتوب على حجر في جدارها :
جدد عمارة هذه الزاوية المعروفة ببني الحشاب الحسن بن إبراهيم بن سعيد ابن الحشاب (٦٣٣) وفيها تربة كانت تسمى بالتربة الحشابية، هي اليوم في زقاق اسمه زقاق أبي درجين من محلة الجلوم، جددتها في سنة (١٣١٥) مصطفى الهلالي وجعل لها حجرة درس ومنبراً .

(٤٨٤) «الزاوية الهلالية» في محلة الجلوم بزقاق الهلالية، كانت مسجداً صغيراً قطنه هلال الرام حمداني، ثم وسعت وصارت تقام فيها الجمعة والأذكار .
(٤٨٥) (زاوية البنزاية) في الجلوم بزقاق خان البيض، تصلى فيها الأوقات الجهرية ولها قبلية .

(٤٨٦) (الزاوية الكمالية) في محلة العقبة في زقاق الكيزواني .

(٤٨٧) (زاوية الأخضر) في محلة السفاحية تجاه جامع الموازيني وقفها

الشيخ الأخضر ودفن فيها سنة (١٢٨٧) .

(٤٨٨) (زاوية الشيخ تراب) .

(٤٨٩) «زاوية الطواشي» .

- (٤٩٠) « زاوية النسيمي » تحت القلعة ، كانت مسجداً قديماً جدها قانصوه الغوري (٩١٠) .
- (٤٩١) « الزاوية الجوشنية الاقصر اوية » نسبة لمنشئها سنة (٧٤٧) علي الشيخ إبراهيم شهر يار الكازروني .
- (٤٩٢) « زاوية الصالحية » في سوقة الخجارين وتعرف بالقادرية أيضاً ، وكانت قديماً تعرف بالبهشنية من أقدم الزوايا متولوها بنو الحلوى .
- (٤٩٣) « زاوية البيلوني » في سوقة حاتم صغيرة معطلة يسكنها الفقراء ، إنشاء أحد بني البيلوني .
- (٤٩٤) « زاوية محيي الدين » في باب الجخين .
- (٤٩٥) « زاوية الكيالي » في سوقة حاتم .
- (٤٩٦) « زاوية الجعفرية » في زقاق فرن جقجوقة من سوقة حاتم أنشئت (٧٩٦) .
- (٤٩٧) « زاوية الهبراي » في محلة الكلاسة كانت داراً وقفها محمد خير الهبراي وسع ببعضها الجامع وجعل الباقي زاوية .
- (٤٩٨) « زاوية لبني الهبراي أيضاً » كانت تسمى مسجد الراعي .
- (٤٩٩) « زاوية في المقامات » مدرسة .
- (٥٠٠) « زاوية محمد الأطعاني » البسطامي في محلة الشماعين من المشاركة أنشئت سنة (٧٠٠) .
- (٥٠١) « زاوية خضر » تجاه بستان الكلاب في جنوبي بستان إبراهيم آغا ، أنشأها بدر الدين بن زهرة متزهاً ، ثم اغتصبها من بعده جلبان كافل حلب وجعلها زاوية سنة (٧٧٠) وهي مندرسة .
- (٥٠٢) « زاوية للقادرية » تنسب للأمير جلبان أيضاً على رأس باب الجنان ، منشأة سنة (٧٧٠) .
- (٥٠٣) « تكية المولوية » من أعظم التكايا ، أنشأها مرزا فولاذ ومرزا علوان فارسيان من أتباع شاه إسماعيل الصفوي ، ثم أحدث فيها زيادات كثيرة .
- (٥٠٤) « زاوية » غربي قلبية جامع قارلق ، أنشئت سنة (١٢٠٧) .

- (٥٠٥) « زاوية الحريلي » في قارلق، أنشأها علي الحريلي سنة (١٣١٢).
- (٥٠٦) « زاوية الشيخ طه بطيخ » في قارلق أنشئت سنة (١٢٨٠) .
- (٥٠٧) « تكية الحداد » في محلة تاتارلر .
- (٥٠٨) « زاوية للخلوتية » بالجانب الغربي من الجامع الأحمدى في محلة الدالين، وقف أحمد صديق .
- (٥٠٩) « زاوية » بجانب سابقتها للطريقة النقشبندية للواقف المذكور .
- (٥١٠) « زاوية لطريقة سعد اليماني » في محلة المشاطية .
- (٥١١) « زاوية الشيخ بلال » في محلة البلاط .
- (٥١٢) « زاوية بيت خير الله » في محلة بانقوسا .
- (٥١٣) « زاوية قطليجا » في محلة محمد بك أنشئت سنة (٧٥٧) .
- (٥١٤) « زاوية أبي الحدايل » بزقاق المزوق .
- (٥١٥) « الزاوية الصيادية » أنشأها أبو الهدى الصيادي سنة (١٢٩٥) ثم زيدت إلى سنة (١٣٢٧) .
- (٥١٦) « التكية الإخلاصية » نسبة لإخلاص الخلوقي المتوفى سنة (١٠٧٤) عمرها له محمد باشا الأرناؤوط .
- (٥١٧) « تكية القرقلر » مبنية فوق مغارة الأربعين تحت القلعة .
- (٥١٨) « زاوية الشيخ يبرق » في داخل التكنة العسكرية، أنشئت سنة (٦٧١) .
- (٥١٩) « تكية بابا بيرم » للقلندرية أنشئت سنة (٧٦٤) .
- (٥٢٠) « زاوية المصريين » في محلة اقبول .
- (٥٢١) « زاوية هي مسجد الغرا » أنشئ في حدود الألف، ثم اتخذ زاوية لبني الأنجق في محلة الأماحي .
- (٥٢٢) « زاوية الشيخ عبد الله » هي مسجد في محلة الشرعسوس .
- (٥٢٣) « زاوية تغري برممش » كافل حلب قرب جامع الأطروش، أنشأها سنة (٨٤١) .
- (٥٢٤) « زاوية العقيلية » في محلة محب .
- (٥٢٥) « تكية المخملجي » في ترب الغرباء ، أنشئت سنة (٦٤٣) .

(٥٢٦) « تكية الشيخ أبي بكر » للطريقة الوفاية أسسها حمد بن عمر القاري في القرن العاشر .

(٥٢٧) « زاوية البعاج » في محلة الطلبة .

(٥٢٨) « زاوية الشيخ جاكير » هي مدفن الشيخ تشبه زاوية .
وفي حلب خانقاهات ومدارس وزوايا كثيرة اندثر معظمها، جاء في ترجمة مظفر الدين صاحب إربل أنه بنى أربع خانقاهات للزمني والعميان وداراً للأرامل وداراً للأيتام وداراً للملاقيط وخانقاهين للصوفية .

رَبَطُ الْقُدْسِ وَزَوَايَاهَا :

كان في بيت المقدس عدة زوايا وربط منها :

(٥٢٩) « الزاوية العظيمة » وقد مر ذكرها في المدارس بقي منها

غرفتان والباقي دارس .

(٥٣٠) « الزاوية الحنفية » بجوار المسجد الأقصى خلف المنبر وقفها

صلاح الدين سنة (٥٨٧) على جلال الدين الشاشي، ثم من بعده على من يحدو حنوه، وقد وقف صلاح الدين نصف دار الأستبار رباطاً للمتصوفة وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة، ونصفها مدرسة للمتفهمة، وللطلبة المتعفة المنتزهة، فجمع بين العلم والعمل، وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل - قاله العماد الكاتب، ودار الأستبار اليوم أو هذا الرباط الآن خراب بلقع .

(٥٣١) « الخانقاه الفخرية » داخل سور الحرم، ويجوار جامع المغاربة،

واقفها أبو عبد الله محمد بن فضل ناظر الجيوش الإسلامية، وكانت له أوقاف كثيرة وبر وإحسان لأهل العلم (٧٣٢) ولا تزال عامرة إلى يومنا هذا وهي زاوية ودار سكن .

(٥٣٢) « الرباط الزمني » بباب المتوضأ تجاه المدرسة العثمانية. واقفه

الخوجا شمس الدين محمد بن الزمن وكان بناؤه في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة.

(٥٣٣) « رباط كرد » بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأرغونية،

واقفه المقر السيفي كرد في (٦٩٣) استحال الآن دار سكن .

(٥٣٤) « الزاوية الوفاية » بباب الناظر تجاه المدرسة المنجكية وعلوها

دار من معالمها تعرف بدار الشيخ شهاب الدين بن الهائم، ثم عرفنا ن بيني
الوفا لسكناهم بها، وتعرف قديماً بدار معاوية، وهي الآن دار سكنز .

(٥٣٥) « الزاوية الشيخونية » بالقرب من الصلاحية عند سوق يقة باب
حطة، واقفها الأمير قطيشا بن علي من رجال حلقة دمشق، جعل نظرها لنفسه
ثم من بعده لولده شيخون، فسميت بالشيخونية تاريخ وقفها (١ ٧٦) .

(٥٣٦) « الرباط المارديني » بباب حطة مقابل الكاملية وهي بجوار
التربة الأوحدية، وقفه منسوب لامرأتين من عتقاء الملك الصالح صاحب
ماردين، وشرطه أن يكون لمن يرد من ماردين تاريخ وقفه (٧٦٣) وهو موجود .

(٥٣٧) « الزاوية المهمازية » غرب المدرسة المعظمية من الغرب، منسوبة
للشيخ كمال الدين المهمازي، ووقفت على مربع من الملك الصالح لإسماعيل بن
الناصر محمد بن قلاوون في (٧٤٥) وهي معروفة .

(٥٣٨) « الرباط المنصوري » بباب الناظر، وقف قلاوون الصالح
(٦٨١) . كان سجناً في عهد الأتراك واليوم ينزله فقراء السودان .

(٥٣٩) « رباط علاء الدين البصير » تجاه الرباط المنصوري واقفه ،
علاء الدين آيدغددي (٦٦٦) .

(٥٤٠) « الزاوية المحمدية » بجوار البارودية من جهة الغرب، واقفها
محمد بن زكريا الناصري سنة (٧٥١) وهي خراب .

(٥٤١) « الزاوية اليونسية » مقابل البارودية، ونسبتها للفقراء اليونسية،
مجهول واقفها وهي موجودة .

(٥٤٢) « زاوية الطواشية » بحارة الشريف وتعرف قديماً بحارة
الأكراد ، واقفها محمد بن جلال الدين عرب سنة (٧٥٣) .

(٥٤٣) « زاوية المغاربة » بأعلى حارتهم، وقف عمر بن عبد الله
المصمودي المجرد سنة (٧٠٣) .

(٥٤٤) « زاوية البلاسي » بظاهر القدس من جهة القبلة، وهي قديمة
نسبتها لأحمد البلاسي .

(٥٤٥) « زاوية الأزرق » بظاهر القدس من جهة القبلة شرقي زاوية
البلاسي ، نسبتها لإبراهيم الأزرق (٧٨٠) وتعرف أيضاً بزاوية السراي .

- (٥٤٦) «زاوية الدركاه» بجوار البيمارستان الصلاحي، وكانت في زمن الفرنج دار الاستبار، وهي من بناء هيلانة أم قسطنطين التي عمرت كنيسة القيامة. واقفها الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين وذلك في سنة (٦١٣) قسم منها داخل في كنيسة الألمان (الدباغة) والباقي خراب.
- (٥٤٧) «زاوية الشيخ يعقوب العجمي» بالقرب من القلعة، وهي كنيسة من بناء الروم تلاشت أحوالها.
- (٥٤٨) «الخانقاه الصالحية» علو كنيسة القيامة وقف صلاح الدين على الصوفية (٥٨٥) وهي موجودة.
- (٥٤٩) «زاوية الجشنية» كانت بجوار المسجد الأقصى، وقفها صلاح الدين علي - بطلال الدين الشاشي الزاهد ولا يعرف عنها شيء.
- (٥٥٠) «الزاوية الحمراء» بالقرب من الخانقاه الصلاحية بجوار جامع عمر، منسوبة للفقراء الوفاة وهي باقية.
- (٥٥١) «الزاوية الميمونية» بجوار باب الساهرة، وهي كنيسة من بناء الروم، واقفها ميمون القصري (٥٩٣) دخلت في المدرسة المأمونية.
- (٥٥٢) «الزاوية اللؤلؤية» بباب العمود أحد أبواب المدينة وهي وقف بدر الدين لؤلؤ غازي واقف اللؤلؤية المتقدم ذكرها.
- (٥٥٣) «الزاوية البسطامية» بحارة المشاركة^(١) واقفها عبد الله البسطامي وكانت موجودة قيل (٧٧٠).
- (٥٥٤) «زاوية الصمادية» بجوار البسطامية من جهة الشمال، وهي بلصق درج البراق سد بابها في المئة التاسعة.
- (٥٥٥) «زاوية الهنود» بظاهر باب الأسباط، وهي قديمة كانت للفقراء الرفاعية ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم.
- (٥٥٦) «زاوية الجراحية» بظاهر القدس من جهة الشمال، نسبة لواقفها الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي (٥٩٨).

(١) قال لزوزني: «والله سارى الشرقيون في القدس أصلهم من أرض البلقاء وعمان عرفوا بالمشركين لأنهم من شرقي القدس، ولما استوطن بيت المقدس منهم من استوطنه سكنوا محلة هي شرقي القدس تعرف بمحلة المشاركة».

(٥٥٧) « تكية خاصكي سلطان » أنشأتها أم السلطان سليمان، ولا تزال عامرة تفرق الحساء والخبز، ولا يزال يأخذ قسم من وجهاء القدس وأشرفها هذه الصدقة والإحسان .

الربط والزوايا في المدن الصغرى :

في خليل الرحمن لعهدنا ثلاث تكايا وزوايا وهي :
(٥٥٨) « تكية سيدنا الخليل » لها مخصصات من دائرة الأوقاف وتعمل الحساء والطعام .

- (٥٥٩) « زاوية الأشرف » تقوم الأوقاف بالإدراج عليها .
(٥٦٠) « زاوية أبي بكر الشبلي » تدر عليها الأوقاف معاوناتها .
(٥٦١) « الزاوية القادرية » .
(٥٦٢) « زاوية الشيخ سعيد » .
(٥٦٣) « زاوية المجاهد » .
(٥٦٤) « زاوية حارة قيطون » .
(٥٦٥) « زاوية الشيخ الجعبري » .
(٥٦٦) « زاوية الشيخ الخيري » .

وفيها زوايا خاصة لإقامة الذكر
ووضع أنواع الأعلام ما يتبعها
ويجلسون فيها ويضيفون .

وكان في الخليل على عهد مجير الدين الحنبلي (٥٦٧) « زاوية الشيخ عمر المجرد » و(٥٦٨) « زاوية المغاربة » بجوار عين الطواشي و(٥٦٩) « زاوية الشيخ علي البكا » و(٥٧٠) « زاوية القواسمة » نسبة لأحمد القاسمي الحنيدى من ذرية أبي القاسم الحنيد وهو مدفون بها و(٥٧١) « الرباط المنصوري » تجاه باب القلعة، وقف الملك منصور قلاوون. و(٥٧٢) « زاوية الشيخ إبراهيم المزي » بين حارتي الأكراد والدارية و(٥٧٣) « زاوية الشيخ عبد الرحمن الأرزرومي » في حارة الأكراد. و(٥٧٤) « زاوية البسطامية » بجوار المسجد الجاولي من جهة الشمال و(٥٧٥) « زاوية السمانية » بجوار زاوية الشيخ عمر المجرد. و(٥٧٦) « زاوية أبي عقافة » و(٥٧٧) « رباط الطواشي » و(٥٧٨) « زاوية شيخون » و(٥٧٩) « رباط مكى » و(٥٨٠) « زاوية الشيخ رضوان » و(٥٨١) « زاوية الشيخ خضر » و(٥٨٢) « زاوية الصلاطقة »

بجوار البركة، وهي داخل زاوية الأدهمية و(٥٨٣) « زاوية الرامي » و(٥٨٤) « زاوية الشيخ علي كنعوش الأدهمي » و(٥٨٥) « زاوية الشيخ محمد البيضة » و(٥٨٦) « زاوية الموقع » و(٥٨٧) « زاوية الشيخ إبراهيم الحنفي » و(٥٨٨) « رباط الجماعلي » و(٥٨٩) « زاوية الخضر » بالقرب من متوضي المسجد و(٥٩٠) « زاوية الحدابنة » و(٥٩١) « زاوية القادرية » بظاهر البلد .

ومن رُبُط فلسطين (٥٩٢) « الخانقاه الصلاحي » في قرية حطين، إنشاء السلطان صلاح الدين ولم يبق منه الآن إلا مطبخه وأبقاضه .

ومنها (٥٩٣) « خانقاه الرملة » مهدم غير معلوم أثره .

. وفي أنطاكية ٥ تكايا وفي إدلب وعملها ١٥ تكية وزاوية، وفي كل من حارم وبيلان والحسر تكية، وفي كل من جبل سمعان ومنبج تكيثان. وفي حماة الزاوية الكيلانية، بنى الجامع القبلي منها ياسين الكيلاني (١١١٨) ولم يعرف اسم بانها الأول. وفيها رباط مرتضى الكيلاني ورباط محمد الحريري ورباط السبسي ورباط الكيالي. ومما كان في حماة ويصح أن يعين في جملة الربط دار الإكرام، كانت معدة للضيافة وسكنى الملوك، خربت وصار محلها مدابع وأنشأ فيها مبارز الدين أقوش داراً للضيافة الملوك وهي مما خرب. وكان فيها دار الضيافة المسماة بالطيارة الحمراء على سور باب النقيفي والطيارة الحمراء كانت فوق القبو، والباسطية شرقي الجامع النوري. وكان في حماة أيضاً دار الفرح كانت وفقاً للأفراح، فمن أراد أن يتزوج مثلاً يأخذها من متوليها وكان فيها ٣٥ بيتاً وهي اليوم بيوت السادة الكيلانية. وفي ربض حمص زاوية قام بإنشائها أبو الهدى الصيادي ولكنها لم تتم وهي حسنة البناء والطرز . وكان في حمص (دار صدقة) لأبي عبد الله صالح بن ثوبان من عبيد الرسول وهو الذي روى في مسجد دمشق: أنا الذي صببت الماء على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطيته قدحاً فأفطر .

وفي طرابلس ٨ تكايا وزوايا للخلوتية والقادرية والرفاعية والشاذلية والنقشبندية . وفي عكار تكية واحدة، وفي اللاذقية ٤ تكايا وزوايا .

مراقد العظماء ربط وخوانق :

هذه أسماء من هلك في أرض الشام من الصحابة الكرام: أبي بن كعب . أبو الدرداء. أبو أمامة. أبو عبيدة. أبو هاشم بن عتبة. أوس بن أوس. بلال الحبشي. تميم الداري. جعفر بن أبي طالب . جبارة بن مالك . الحارث بن هشام . الحباب بن منذر. حرملة بن زيد. خالد بن الوليد (؟) . خزيمة بن ثابت زيد بن حارثة. سعد بن عبادة. سبرة بن فاتك. سهيل الأنصاري . سهيل بن عمرو. شرحبيل بن حسنة. وشمعون وصهيب الرومي . الضحاك ابن قيس. ضرار بن الخطاب. ضرار بن الأزور. عبد الله بن حوالة. عبدون ابن السعدي. عبد المطلب الهاشمي. عبد الله بن سعد. عبد الله بن رواحة . عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. محمد بن أبي حذيفة. مدرك الفزاري . معاوية بن أبي سفيان. المقدام بن معدي كرب. معاذ بن جبل. وائلة بن الأسقع . عبد الرحمن بن عوف. فضالة بن عبيد .

أكثر مراقد العظماء من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين والزهاد أشبه بزوايا وتكايا يقصدها الناس للزيارة والتبرك وإن كان منها ما لم يثبت أن فلاناً بعينه دفنت تجاليدته في البقعة التي يعنونها . فمن المقامات والمزارات قبر يحيى بن زكريا والحسين بن علي في الجامع الأموي بدمشق، وقبر صلاح الدين يوسف بن أيوب شمالي هذا الجامع ، ومقام ذي الكفل وهود في سفح جبل قاسيون بدمشق، ومقام زين العابدين وبلال الحبشي وبلال بن حمامة وخديجة ورقية وأم كلثوم وأم حبيبة وزينب الكبرى والسيدة سكينة وغيرهم في مقبرة باب الصغير بدمشق . ومقام أبي الدرداء في قلعة دمشق. ومقام حجر بن عدي في مسجد الأقباب بدمشق. ومقام شريح بن حسنة وخوالة وأبي وضرار وبنات الأزور والبدر الغزي والشيخ رسلان في باب توما وباب شرقي بدمشق. وزيد بن ثابت في باب السريجة. وشمعون ابن خنافة في حي الشاغور. وصهيب الرومي وتقي الدين الحصني وغيرهما في الميدان. وعدي بن مسافر في بستان الورد، والشيخ السروجي في الشاغور. وعبد الرحمن الكردي في حي العمارة. وعبد الرحمن بن أبي بكر وكمال

الدين الحمزاوي وعبد الرحمن الدحداح والشهاب المنيني والشهاب العطار في مقبرة مرج الدحداح. ومقام محيي الدين بن عربي وعبد الغني النابلسي وأصحاب الكهف وعائشة الباعونية بصالحية دمشق. ونور الدين الشهيد والإمام ابن دقيق العيد في سوق الخياطين. ومقام سعد بن عباد في المنيحة . وعبد الله بن سلام في سقبا. والشيخ حرملة في جوبر. ومقام حزقيل في داريا . ودحية الكلابي في المزة. وهذه القرى الخمس من قرى غوطة دمشق. وتميم الداري في قرية الطيبة. والشيخ حسن الراعي في قطنا. ومعاذ بن جبل في القصير. والشيخ جندل في منين. ومقام السلطان أبي يزيد البسطامي في المرج . ومقام أيوب وسعد الأسود في قرية الشيخ سعد في حوران. وسلمان الفارسي في قرية السهوة. ومقام عكاشة في الجولان. والمقداد بن الأسود في تل المقداد . وسعد الدين الجباوي في جبة. وعمار بن ياسر في اللجاة. وقبر أبي عبيدة ابن الجراح ومعاذ بن جبل في الغور. ومقام جعفر بن أبي طالب وعبد الله ابن رواحة وزيد بن حارثة قرب قرية مؤتة في المزار من عمل الكرك .

ومقام الإمام الأوزاعي في بيروت، ومقام يوشع وشمعون في صور، ومقام هرون ويعقوب في صفد، ومقام الخضر والياس في حيفا. ومقامات شعيب والسيدة سكيئة ومعاذ بن جبل ونصر الدين الطيار في طبرية. ومقامات صالح وأبي عتية في عكا. ومقامات العزيز ولوط ويونس في الناصرة. ومقامات يعقوب وأولاده والخضر والشيخ مسلم وبشير ومسعود ورجال العمود والشيخ بدر والسلطان عماد الدين في نابلس. ومقامات دانيال ويامن ومعاوية وإسكندر ذي القرنين وابن سيرين والشيخ حمدان وغيرهم في جينين. ومقامات يامن وشمعون ويعقوب والياس وأبي خميس وأبي شعير وعامر وعمار وعدنان في بني صعب. ومقامات يحيى وذو الكفل ويوشع وناتون وإبراهيم وشيث والشيخ أبي الجود وأبي رماح وأبي عابد والجنيد والدجاني في جماعيل. ومقامات زكريا ويوسف وأنبياء بني إسرائيل والشيخ حاتم وغانم المقدسي في المشاريق. ومقامات الشيخ زين ونصر الله في الشعراوية . ومقامات إبراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي في وادي الشعير. ومقامات خالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز وأبي أمامة الباهلي وأبي ذر الغفاري

والنعمان بن بشير في حمص والمعرة وما إليهما. ومقام الشيخ أبي الليث السمرقندي والشيخ علوان في حماة .

ذكر مجير الدين قبة راحيل والدة يوسف الصديق إلى جانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا. وبظاهر الرملة من جهة الغرب بالقرب من البحر مشهد يقال له روبيل بن يعقوب. وبظاهر لدّ من جهة الشرق مشهد عبد الرحمن ابن عوف الصحابي، وبظاهر القدس في قرية العازرية مشهد العازار. وقبر شمويل بقرية ظاهر القدس من جهة الشمال على طريق الرملة في قرية رامة .

وللشيعة عدة مقامات في حلب وأرجائها وفي غيرها نسبت لعلي بن أبي طالب وللحسن وللحسين. كما أن للخضر عدة مقامات في كثير من الأرجاء ويشترك في تعظيمها النصارى والمسلمون غالباً. - وما ذكره ابن الشحنة من المقامات القديمة في حلب مسجد النور بالقرب من باب قنسرين كان أبو نمير عبد الرزاق بن عبد السلام (٤٢٥) يتعبد فيه تنذر له النور ويزار . ومسجد الغضائري ويعرف بمسجد شعيب وقبر كليب العابد ومسجد الأنصاري والمشهد الآخر في رأس جبل جوشن ومشهد قرية براق ومقام إبراهيم الخليل في قرية نوابل وكتلتاهما من عمل حلب .

وبقرية روحين من جبل سمعان مشهد فيه ثلاثة قبور: الأوسط منها قبر قس بن ساعدة الأيادي، والقبران الآخران قبرا سمعان وشمعون من الحواريين، وقيل: كانا من المتوحدين الرهبان. وبجبل برصايا من عمل اعزاز قبر برصيصا أي مقصورة العابد. وبقورس قبر أوريا. وبمنبج مشهد خالد ابن سنان العبسي صاحب الأخدود. وبجبل بزاعا من غربي الباب مشهد يطل على الباب. وبجبل الطور المجاور لقنسرين مقام يقال: إنه مقام النبي، وبدير سمعان من عمل المعرة قبر عمر بن عبد العزيز ووراءه قبر الشيخ أبي زكريا يحيى بن منصور. وبجبله قبر إبراهيم بن أدهم الزاهد. ومعظم هذه المزارات ما زالت معروفة يختلف إليها الناس وقام عليها شبه زوايا أو تكايا. وفي عبيه من شوف لبنان مزار الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي يزوره معظم الطوائف الإسلامية وعليه مدرسة .

المستشفيات والبيمارستانات

مستشفيات دمشق :

إقامة دور للباثسين ومآوي للضعفاء وأصحاب العاهات والزمانات من أمارات الحضارة ودلائل ارتقاء الإنسان في العطف على من خانتهم الطبيعة .

روى البلاذري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت. ووقف عثمان بن عفان محلة سلوان في ررض القدس على ضعفاء البلد. وأول من اتخذ المستشفيات صدر الإسلام الوليد بن عبد الملك، فإنه أقام في دمشق على ما يروى مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى الآن بالأعاطلة، ذلك لأن في ماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلا في الندر، وإذا حل الغريب المصاب به تكسر عنه عاديته أو يتوقف سيره في جسمه. قال ابن عساكر: كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم ، فرض للمجذومين وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً. وذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحاق بن قبيصة الخزاعي ديوان الرضى بدمشق قال: لأدعن الزمّن أحب إلى أهله من الصحيح، وكان يؤتى بالزمّن حتى توضع في يده الصدقة. وفي سنة (١٦٢) أمر المهدي أن يجرى على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق. وبذلك عرفنا أن القوم يخصون المجذمين بأماكن خاصة لئلا تسري العدوى منهم إلى غيرهم. أما المستشفيات فلأمراض الأخرى .

ولقد كان بدمشق ثلاثة مستشفيات أو بيمارستانات - والبيمارستان

كلمة فارسية مركبة معناها محل المرضى - الأول (٥٩٥) أنشأه نور الدين محمود بن زنكي كما أنشأ غيره في الشام. وكان بيمارستان دمشق أعظمها وأكثرها خرجاً ودخلاً. قال صاحب الروضتين بلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الإفرنج فقطع على نفسه في فدائه مالا عظيماً فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ، ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلاً ، فلما بلغ القرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين موت الفرنجي فبنى بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم. تولى بناءه كمال الدين الشهرزوري وكان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق، وهو الذي تولى بناء أسوارها وسن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز وملمز .

وذكر ابن جبير أنه كان في القرن السادس بدمشق مارستانان قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم، والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الحديد أكثر. وأغلب الظن أن البيمارستان الكبير هو النوري، والآخر غيره^(١) (٥٩٦) كان في باب البريد وخدم في هذا رشيد

(١) قال الظاهري: وفي دمشق بيمارستان لم ير مثله في الدنيا قط. واتفقت نكتة أحببت ذكرها وهي أنني دخلت دمشق في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وكان يصحني شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قاصد الحج في تلك السنة وألف مناسك الحج على أربعة مذاهب، فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المأكول والتحف والطائف التي لا تحصر قصد اختيار حال البيمارستان المذكور، فتضاعف وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلواء والأشربة والفواكة المتنوعة، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها أن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام . وهذا في غاية الحداقة والظرافة. وقيل: إن البيمارستان المذكور منذ عمر لم تطفأ فيه الناراه .

الدين بن علي بن خليفة وعزالدين السويدي من الأطباء المشهورين .
وفي شذرات الذهب أن المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري
كان مكانه في قبلة مطهرة الجامع الأموي وأول من عمره بيتاً وخرب رسوم
المارستان منه أبو الفضل الاخنائي ثم ملكه بعده أخوه البرهان الأحنائي وهو
تحت المأذنة الغربية بالجامع الأموي من جهة الغرب، وينسب إلى أنه عمارة
معاوية أو ابنه .

أما المستشفى الثالث (٥٩٧) فهو المستشفى القيمري في الصالحية بجوار
جامع محيي الدين بن عربي نسبة لمنشئه أبي الحسن القيمري المتوفى سنة (٦٥٣) ،
وواجهة الباب من أجمل الأبواب هندسة ، وقد رّمه حسن باشا المعروف
بشور يزي حسن ونظر إلى أوقافه وأقام شعائره كما فعل في البيمارستان
النوري ، وقد رمم في العهد الأخير وأعيد إلى ما كان عليه .

وقرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري
فإذا فيه : هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه
في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب، يصرف
إلى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهماً ونصف غرارة من قمح،
والأدنى ستون درهماً ونصف غرارة قمح، وللمشارف في كل شهر أربعون
درهماً ونصف غرارة قمح، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهماً
ونصف غرارة قمح، وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وربع غرارة
قمح، وإلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهماً
وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر
لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل
الأشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهماً وثلاث غرارة قمح،
ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون
درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير، وللإمام في كل شهر أربعون درهماً
وثلاث غرارة قمح، وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهماً
وسدس غرارة قمح، ويكون بواباً، وللحوائج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس
غرارة، وللناظر العشر عن المغل، وربع الوقف ويصرف إلى رجلين اثنين

بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة، وفي كل شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهماً، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، وبعد ذلك عاد وقفاً على الفقراء . وتاريخ الوقفية سنة (٦٥٢) وتاريخ المسجد سنة (٨٨٠) ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه .

وظل المستشفى النوري عامراً إلى سنة (١٣١٧هـ) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء (٥٩٨) في الجانب الغربي من التكية السلیمانية المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة (١٣١٧) بافتتاح المستشفى الجديد وخصصت أوقاف المستشفى النوري ومبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ مساهمة من ريع البلدية تصرف على المستشفى الذي سمي بادئ بدء بالمستشفى الحميدي نسبة إلى السلطان الذي بني في عهده. أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة وواجهتها لا تزال بحالها وفيها بعض الحجر والنوافذ من البناء القديم، والغالب أن الأيام سطت على بقية البناء فتغيرت معالمه. وقد رمت واجهته مؤخرأ . وزاد المستشفى الجديد رونقاً ورواءً مقبرة الصوفية التي ضمت إليه وجعلت حديقة للمستشفى. وقد سمي المستشفى على عهد الحكومة العربية بالمستشفى الوطني وأقيمت مدرسة الطب بجانبه والحكومة متكفلة بالإنتفاق عليه. وفي دمشق لهذا العهد عدة مستشفيات، الأول :

(٥٩٩) « المستشفى العسكري » وهو من بناء إبراهيم باشا المصري في القرن الماضي .

(٦٠٠) « المستشفى الإسكتلندي » وفي ١١ ذي القعدة ١٣١٥ (٢٤) أيار (١٨٩٩) احتفلت جمعية اسكتلندا الإنكليزية بافتتاح المستشفى الذي أسسته في أرض الزينية على طريق بغداد وهو علي غاية من حسن الهندسة وجمال الحديقة وسعتها .

(٦٠١) « المستشفى للعازري » بنته أخوية للعازريين الإفرنسية قبالة المستشفى الاسكتلندي وهو حسن البناء والنظام أيضاً .

(٦٠٢) « مستشفى الراهبات اللعازريات » وهو قديم قرب مدرسة اللعازرية .

« المستشفى الوطني » أو مستشفى مدرسة الطب وقد مر ذكره .

(٦٠٣) « المستشفى الطلياني » في الصالحية قبل الجسر .

(٦٠٤) « مستشفى المجاذيب » المسمى بمسشفى ابن سينا أنشئ له مكان في قصير دومة .

مستشفيات حلب :

(٦٠٥) « بيمارستان بني الدقاق » كان يعرف بهذا الاسم ثم دخل في دار سودون اللوادار غربي المدرسة الحلاوية لا أثر له اليوم .

(٦٠٦) « بيمارستان بني الدقاق » على باب الجامع الكبير، كان له بوابة عظيمة ينسب لابن خرخان، لما تعطل كان يجلس فيه الكحالون فعرف بدار الكحالة. بقي منه ثلاثة مخادع صغيرة يسكنها بعض الفقراء .

(٦٠٧) « بيمارستان نور الدين » هو في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى، مكتوب على بابه أنه أمر بعمله محمود بن زنكي بتولي ابن أبي الصعاليك. ويظهر أنه حصل فيه إصلاحات كثيرة، فإنه كان فيه قاعة للنساء مكتوب عليها أنها عمرت في دولة صلاح الدين يوسف سنة (٦٥٥) ومكتوب على إيوانه أنه عمر أيام الأشرف شعبان المتوفى سنة (٧٧٩) وعلى الشباك الذي على بابه أنه أحدث سنة (٨٤٠) وكانت قاعة المسهلين سماوية فسقفها القاضي شهاب الدين بن الزهدي. أما الآن فقد صارت حجراته تلالاً ولم يبق إلا بضع منها يسكنها بعض الفقراء. وقد جاء في بعض التواريخ أن هذا اليمارستان كان في الأصل من وضع ابن بطلان الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٥٨) ثم جدده نور الدين ووقف عليه أوقافاً كثيرة وهو في أصح بقعة هواء. حدثني الثقة أنه اطلع على صك وقف أحد المستشفيات في حلب قال: جاء فيه أن كل مجنون يخص بخادمين يخدمانه فيتزعان عنه ثيابه كل صباح ويحمانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثياباً

نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئٌ حسن الصوت، ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة .

(٦٠٨) «بیمارستان أرغون الكاملي» هو في محلة اسمها الآن باب قنسرین، أنشأه أرغون الصغير الكاملي نائب حلب سنة سبعمائة وخمسة وخمسين، رتب كل ما يحتاج إليه من رزق وآلات وأدوية وخدام، شرط واقفه أن التولية لكافل حلب فكان في كفالة تغري برمش على أم الوجوه، فيه حجر وأروقة ومحابس للمجانين مظلمة، يروى أنه كانت توضع فيه الرياحين ويؤتى بآلات الطرب والمغنين لتكون هذه المشاهد والأنغام من تمام العناية بالمداواة، ثم في أواخر عهد الأتراك نقل من كان فيه من المجانين إلى مستشفى الغرباء وأصبح هو مأوى لبعض الفقراء. وفي مدخله أفاريز ونقوش من أجمل ما نقش النقاشون تزيينه .

(٦٠٩) «مستشفى الرضائية» أنشأه إبراهيم باشا المصري، وهو مخصص لمرضى العسكر .

(٦١٠) «المستشفى الوطني» بديء به سنة ثلاثمائة وألف وبعد بلوغه نحو النصف ترك، ثم أكمل بعد نحو عشر سنين وجعل للمرضى الغرباء والفقراء .

(٦١١) «المستشفى الزهري» أنشأته إدارة الصحة للأمراض الزهرية بعد تأليف الحكومة العربية .

بقية المستشفيات :

المارستان النوري هو المستشفى الوحيد في حماة، بناه نور الدين محمود وكانت التولية عليه سنة ألف للشيخ صفا العلواني وكان مجموع نفقته كل يوم ثمانية وثمانين عثمانياً (العثماني أو السلطاني نحو سبعة قروش)، وهو الآن شبيه بالمدرس يستعمله بعضهم للسكنى وذهبت أوقافه إلا قليلاً. وقد وجد على حجر في المارستان بالجانب الغربي من أعلى البنيان كتابتان الأولى سنة خمس وسبعمائة وهي: رسم الملك لأمر بخشاي الكاظمي بحماة بإبطال ما كان

يؤخذ من البيمارستان بغير طريقه وأن وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر والأشربة وذلك بأمر السيفي. والثاني: لما كان بتاريخ الشهر المحرم سنة ثلاث وثمانمائة حضر الجناح العالي السيفي المارستان النوري بحماة المحروسة داود بن المقر السيفي درداس الخاصكي كافل المملكة الحموية أعز الله أنصاره وتبرع بمعلومه على الضعفاء المقيمين به وهو في كل شهر مائة درهم لاغتنام الأجر والدعاء اه .

وفي حماة اليوم مستشفى واحد، ومثله في حمص، وآخر في درعا، ورابع في القنيطرة، وخامس في يبرود، وسادس في دير الزور، وفي إسكندرونة مستشفى وذلك ما عدا المستوصفات في كثير من الأقاليم، وكل هذه المستشفيات والمستوصفات بإدارة الصحة والإسعاف العام ويقوم بإدارتها وتمريض مرضاها أطباء وطنيون .

وكان في طرابلس «مارستان» أنشأه بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر أحد الأمراء بحلب المتوفى سنة (٧٤٢). وفي طرابلس اليوم مستشفى كان سمي مستشفى عزمي بك أحد عمالها الذي قام بتنشيطه .

وقبل ٥٥ سنة جاء نابلس مبشر إنكليزي وأسس فيها مستشفى، وأخذ يعالج المرضى بأجور طفيفة ويكرههم على استماع وعظه فتحسب المسلمون وأسسوا سنة (١٣٢٦) شرقية المستشفى الوطني وهو إلى اليوم سائر سيراً حسناً يقوم بأموالهم وريع البلدية .

أسس البرتستانات عدة مستشفيات ومستوصفات في الشام منها في طبرية والناصرية وصفد والصلت وصيدا والقدس ويافا وحيفا وبيروت ودمشق وغيرها من البلدان، ولا تكاد تخلو المدن المهمة من مستشفى أو شبه مستشفى مثل اللاذقية وطرطوس ومنها مستشفى خاص بمرض السل ومستشفى العصفورية للمجاذيب في لبنان، وكان في الخليل مستشفى جميل اسمه المنصوري وقفه الملك المنصور قلاوون، ومستشفيات الصهيونيين في القدس وحيفا ويافا وغيرها مهمة في بابها .

وقد أقام الصليبيون في المدن التي احتلوها بعض مستشفيات منها واحد في صور وكان لهم في القدس مارستان وهو من الأماكن التاريخية كان عبارة

عن ١٥٥ متراً طولاً و١٣٧ متراً عرضاً وعليه قامت في القرون الوسطى الملاجئ والمستشفيات الخاصة بزوار الغرب ولا سيما رهينة فرسان القديس يوحنا ومستشفياته. وحوال ابن أخت صلاح الدين كنيسة الملجأ إلى مستشفى وبقي اسمه العربي الفارسي أي المارستان يطلق منذ ذلك العهد على مجموع تلك الأماكن. وفي سنة (١٨٦٩م) أعطى سلطان العثمانيين النصف الشرقي من المارستان إلى تاج بروسيا بمناسبة زيارة ولي عهد بروسيا للقدس. وقد كان صلاح الدين جعل دار الأسقف في القدس لما فتحها بيمارستان المرضى. ومستشفيات القدس اليوم كمستشفيات بيروت مهمة لكثرتها ووفرة ريعها وتنافس المبشرين في تجويدها وتخيرهم لها أحذق الأطباء، وفي بعض قرى لبنان مستشفيات صغيرة ومصاح منها مصح بحنس ومستشفى جمعية الفرنسيس في برمانا، ومصح ظهر الباشق وغيرها، وفي عمل دومة من دمشق مستشفى ابن سينا لأصحاب الأمراض العقلية.

لهفة على المدارس وغيرها :

أرأيت أيها الناظر في هذا الكتاب، كيف كان عمل الأجداد في إنشاء المدارس والربط والخوانق والمستشفيات، وكيف تساوى في تأييدها والوقف عليها الملوك والعظماء وجمهور الناس من الرجال والنساء. وكيف جودوا بناءها وأحكموا وقوفها الدارة، ومع هذا لم تقو على مقاومة المخربين والغاصبين فعاد أكثرها دوراً وحوانيت. أزهرت في أربعة قرون واستصفيت في أربعة، استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج، عملوا هذا وهم متمسكون بالدين يصلون ويصومون، ويقال عنهم : لأنهم المسلمون، وربما كان على أبدان بعضهم شعار العلماء وما هم في الواقع إلا من أهل الرسم لا من أهل العلم، وقد يكون أقرب الناس إلى مخالفة الشرع القائمون عليه.

ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس وانتهاك حرمتها أم تلام الأمة؟ لا شك أن الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة لأنها هيأت سبل السرقات، وربما كانت مشاركة بالسرقة أحياناً، ولكن اللوم كل اللوم

على الجماعة والمدارس مدارسهم والدين دينهم. ومنذ عبث العابثون بالمدارس، وسرق السارقون عينها ومغلها، تراجعت دروس الدين وتراجعت معها دروس العلوم الأخرى فنشا الجهل المطبق في الأمة، وكادت تعود سيرتها الأولى من الجاهلية الجهلاء، وأصبح من وسموا بالعلم إذا سئلوا أفتوا بغير علم، وجوزوا ما حرمه الشرع وحرموا ما جوزوه، ومن مساوئهم أكل أموال الأوقاف واستصفاة أعيانها، ومعدهم تهضم خصوصاً المساجد والمدارس. أضع الخلف ما أبقاه السلف معموراً زاهراً من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ما وصل إليه العقل البشري ظرفاً ومظروفاً، وبها أثبت أجدادنا أنهم كانوا شيئاً مذكوراً في إتقان الهندسة والبناء، وأنهم على جانب من سلامة الذوق، وأنهم حراس على مجد أمتهم، وأن الأعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة، وما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم والآداب، ولو لم تكن ذات قانون معقول. نعم لم نعرف سر هذه الصناعة التي مثلتها لنا هذه المدارس، ولعله يقوم في الجيل المقبل من أبنائنا علماء بالآثار والبحث يكشفون سر أعمال الأجداد كما توفر علماء الآثار في أوروبا مائة سنة حتى كشفوا لأممهم أسرار البيع العظمى التي قامت خلال القرون الوسطى، وعسى أن يبرهن الباحثون منا أنه لم يقم في الأرض شيء من العظمة إلا كان إلى جانبه عظماء يتعهدونه ويغلقونه بعقولهم، ويفيضون عليه من معين قرائحهم .

قلت مرة من محاضرة ألقيتها في الشهباء في ربيع سنة (١٩٢٣ ١٣٤١هـ) وقابلت فيها بين مدارس حلب ودمشق: من تأمل مدارس أرباب الخير من المسلمين في الشهباء والفيحاء، وقرأ ما كتب عليها بتأمل، وزارها المرة بعد المرة على تغير معالمها، وتشويه طراً على محاسنها، وفساد عرا أذواق الأبناء والأحفاد، إذا قيس إلى سلامة ذوق الأجداد، وجعل نسبة بين عدد ما عمر منها وما بقي في البلديتين الشقيقتين يؤكد معنا أن الفساد استحوذ عليها في دمشق أكثر من حلب، وأن من تجردوا من الوجدان فاستحلوا استصفاة تلك المدارس كانوا في الفيحاء أكثر من أمثالهم في الشهباء، ولذلك كان عدد الباقي في حلب أكثر وأجود من المدارس في دمشق .

ولا ينكر أن مادة البناء قد تختلف في بلد عن آخر. وقد كان الاعتماد في تلك القرون على الحجر الصلد، وفي دمشق عدة مقالع جميلة متنوعة منه كما في حلب، ولم يكثر الآجر والطوب والخشب إلا في القرون الحديثة، ولذلك لم تخرب المدارس الدمشقية لعدم متانة في بنائها، فإن الأمثلة الظاهرة منها إلى اليوم لا تجعلها تختلف في شيء عن مدارس حلب. ولكن القائمين على هذه المدارس في هذه المدينة كانوا يعتدلون في العبث بها، ومتانة الأخلاق من جملة ما امتاز به الحلبيون، يضاف إليها حب الاحتفاظ بآثار الأجداد على صورة كانت ظاهرة في قرون الارتقاء، كآمنة في عصور الشقاء والرجوع إلى الوراء.

والناظر إلى مدارس دمشق وحلب وهي لا تقل عن ثلاثمائة مدرسة، منها زهاء مائتين في دمشق يدرك أنها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار وأهل الخير. وكان منهم من يتوخى منها أن تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها إذا صودرت أملاكهم. بنى قليل من التجار المدارس لأن الشعب كان يقضى في أغلب العصور في كبرائه، فلم يكن شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد في جملتهم، وكان الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس، وفي بذل المال لإقامة دور العلم وإيواء اليتامى والمحاويج، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال.

وقلّ أن رأينا جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفخر به اللهم إلا قليلاً من المساجد، ولو فعلوا لأمنت أعمال الجماعات من اعتداء المعتدين أكثر من عمل الأفراد، ولما استصفيت واستحل هدمها، ولا غير خططها ومعالمها من لا يخافون الله ولا عباده، ولجأت ممثلة للعظمة الحقيقية في الأمة، على نحو ما قامت البيعة والأديار والمدارس في الغرب، بإرشاد رجال الدين من كرادلة وأساقفة وقساوسة، فكانوا يجمعون قليلاً من صدقات الملوك والأغنياء والفرسان والشعب، فيجيء مجموعها عظيمًا يدار بأيدي هيئة منظمة على كل حال، ويختطون خطة لا يخرج عنها الخلف إلا قليلاً.

للأثر القديم من الموقع في النفس ما ليس للأثر الحديث، فإن الأول

يذكر بأمر كثيرة، يذكر بمجد السلف وأيديهم البيضاء وإرادتهم الصحيحة، يذكرنا بأن فلاناً الذي تحترمه الأمة بنى ذلك المصنع وتلك الدار، وأن فلاناً العالم درس هناك أو كان يألف المكان الفلاني، وكم من أثر تاريخي أو مصنع من مصانعنا نمر به دون أن نحفل بما فيه من عبر، ولو كنا على شيء من مدينة أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع في تراثهم، ولو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها ومساوئها لرأيتنا أسرع إلى التقاط آثار الحدود والاحتفاظ بها من الماء إلى الحدور .

لا تستطيع أمة أن تقطع الصلة بينها وبين ماضيها ، خصوصاً إذا كانت ذات غابرٍ عظيم كغابر الأمة العربية، قام على أساس متين، وتقاليد جميلة، ومقدسات متسلسلة، أما ونحن لا نرقى بدون القديم والأخذ من نافع الحديث، فواجب العقلاء أن يفكروا في أقرب الطرق إلى هذه الغاية، وهذا لا يتم بغير إحياء دور العلم ومعاهد الفضل، وإحياء موقوف على قليل من العناية .

ليس للمدرسة الحديثة التي ننشئها اليوم تلك النضارة، ولا تتجلى فيها معاني الحسن والإحسان التي نشعر بها ونكاد نلمسها في المعاهد القديمة مثل مدرسة ضيفة خاتون رحمها الله فإنك إذا رأيتها تمثلت أمامك صفحة من تاريخ هذه الأمة المجيد، تمثلت بيت نبي أيوب وأفضالهم على ربوع الشام، وكفى بهم وبصلاح الدين حسنة عقم الدهر أن يلد مثلها. كثير من المصانع بناها الملوك بالسخرة وإرهاق الرعية، وإعنات الأسرى والمعتقلين، ولم نقرأ في التاريخ أن أحداً من آل البيت الصلاحي عمر مدرسة أو جامعاً أو مستشفى أو رباطاً من مال مشبوهِ، أو سخرة ممقوتة، فأكرم وأنعم بكل فرد أصيلاً كان في هذا البيت الشريف أو دخيلاً عليه

عمر أهل الخيرات من سلف هذه الأمة هذا القدر العظيم الذي نعجب به من معاهد التعليم الديني دع المساجد والجوامع، ولو كتب البقاء لبعضها لأغنت القوم بعض الشيء بمعارفها ونشرت النور بينهم. وكانت المدارس والجوامع في تلك القرون المظلمة في الغرب المستنيرة في هذا الشرق هي المتكفلة بتعليم الناس وإخراجهم من الأمية، وكان لمعظم المدارس والجوامع كتابية مرتبطة بها وخارجة عنها لتعليم الأطفال توهلهم لتلقي دروس

المدارس والجموع ، ولا نغالي إذا قلنا: إن عدد الأميين كان في تلك العصور أقل مما هو الآن في هذه الديار. ولو اطرده العمل اطراده في مدارس الغرب مثلاً لأصبحنا في هذا القرن والأميون أقل مما هم في ممالك المدينة الحديثة . ولكن الجهل قضى على تلك المدارس وأكل المتولون أوقافها فخربت وتغيرت معالمها. وكم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير في سبيل شهواتهم بدون محاسب من ذمهم ولا رقيب من أصحاب السلطان. ولو كتب لهم أن يأكلوا منها بالمعروف ويصرفوا حقوق تلك المعاهد أو بعض مغلها على رمها وإجراء الرزق على ساكنيها والدارسين فيها لأنت بثمرات جنية، ولما أكلوا في بطونهم النار، وركبوا متن العار والشنار، وكم من بيت كان موسوماً في القديم بالعلم والتقى فخلف من بعد السلف خلف عيشوا بالحرمان فاستحلوا أموال المدارس والمعابد فدثر البيت وانقضت الأسرة وذهبوا وما يملكون جملة. لم يرحموا لأنهم لم يرحموا .

ضبطت الحكومة السابقة أكثر أوقاف الملوك والسلاطين وكان ريعها كثيراً جداً في هذه الديار، فلم تصرفها فيما خصصت له ولم تنجح في الغاية التي توختها منها، واستقل بعض أرباب النفوذ بالأوقاف التي ائتمنوا عليها أو انتهت إليهم بحكم الوارثة فأساؤوا الاستعمال إلا من عصم الله. فالسبب إذاً في خراب مدارسنا الجميلة سوء إدارة الحكومات السالفة وعبث المتولين عليها وإخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع أولئك الذين يعدون أنفسهم في جملة حماة هذا المجتمع وهم أعدى عداته اه .

دور الآثار

المتاحف والعرب :

المتاحف العامة على الصورة التي نراها في الغرب لعهدنا ليست مما عهد في هذا الشرق. فإن آثينة منذ الزمن الأطول كان لها متاحف دعته رواق الصور . وعرضت رومية أجمل ما أخذته من الصور من آثينة. ولم يكن حتى في القرون الوسطى في أوروبا متاحف. وكانت بدائع الصنائع البشرية تحفظ في دور الملوك وفي قاعات البيع والأديار. حتى إذا كانت القرون الحديثة ونشأ كبار المصورين في إيطاليا وغيرها كثرت المتاحف التي تعرض فيها التصاوير العجيبة ومبدعات العقول والأنامل، بحيث كاد أن يكون لكل مدينة معرض منها. وأخذت تغص بما يهديها إياه الكبراء والملوك، ولما كثر الإخصاء عمّ المتاحف أيضاً. فصار للأمم العظمى متاحف لغرائب الصناعة في النقش، وآخر في الرسم، وغيرها في أدوات الحرب، وآخر في أدوات الزينة، وغيره في أدوات الموسيقى إلى غير ذلك .

ولا نعلم إن كانت للعرب متاحف أيام مدنيتهم على الصورة التي هي اليوم في كل بلد تذوق الحضارة، بل كانت متاحفهم في جوامعهم وقصورهم التي اختاروا لنقشها وتزيينها أمهر صناع أيامهم على نحو ما كان في جامع بني أمية في دمشق، والأقصى في القدس، وبعض جوامع بغداد والقاهرة، وفي الحمراء والزهاء في الأندلس، وفي قصور الخلفاء ببغداد وقصورهم في الأندلس وقصور الفاطميين في القاهرة. وكانت دور العظماء في الشرق كما كانت في الغرب تتنافس في بدائع الصناعة وتجعلها بحيث يراها من يختلفون

إلى قصورهم، ولا تزال البيوت القديمة إلى اليوم في الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصيني والقاشاني والسلاح القديم والحلي والأواني الفضية والذهبية القديمة على كثرة ما طرأ على القطر من الحوادث التي عزت فيها الحاجيات دع الرغبة في الكماليات. وكان اقتناء هذه البدائع في هذه الديار من دلائل الظرف وآيات التعيين والرياسة، كما كان اقتناء الكتب في قرطبة بل في حلب ودمشق إلى عهد قريب .

كان الفاتحون يغنمون في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة وأدوات الزينة والتحف. هكذا فعل تيمور فحمل معه من دمشق صناع هذه البدائع وما أبدعوه، وهكذا فعل سليم العثماني فاتح مصر فنهب منها أجمل آثارها التي استطاع حملها وزين بها قصره وقصور جماعته في القسطنطينية. وذكر المؤرخون أن بعض ملوك الأندلس من العرب كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير، وفيها صور الآدميين وغيرهم .

وكان أهل أوروبا زمن الحرب الصليبية وبعدها يتنافسون فيما يجلبونه من الأقمشة والبسط وأدوات الزينة من الشام، ولما جاء القرن الأخير أخذوا ينقلون إلى متاحفهم ما أبقته صنع الأيدي من أهل المدينت القديمة من تماثيل ونصب وأحجار زبر عليها رقم، وفي بعض متاحف أوروبا ولا سيما في متحف اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندن ومتحف برلين ومتاحف إيطاليا وغيرها كثير مما عثر عليه الباحثون من العاديات الحجرية في اليمن والشام ومصر ولا سيما من الديار الشامية. وقد أخذت عادياتنا تسافر من أرضنا منذ أخذ علماء الآثار يبحثون في سهولها وجبالها، وما كتبه كثير من علماء المشرقيات والعاديات في القرن التاسع عشر دليل يؤيد ذلك، وقد نشروا أبحاثهم في كتب خاصة ومقالات لهم في المجلات الأثرية والعادية والعلمية .

أما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلّ جداً من اهتدى إلى الاحتفاظ بما خبأته الأيام في بطون هذا الصقع. وكنا أزهدهم الناس فيها حتى نقلت آثارنا ونفائسنا أمام أعيننا كما نقلت مخطوطاتنا ونحن ضاحكون مستبشرون، وانفتح بها القوم هناك وأكملوا بها تاريخ المدينة، ولما وقع الانتباه في الحكومة العثمانية أخذت تمنع بعض الشيء في نقل هذه التحف

والطرف، ونقلت بعض ما عثر عليه من المصانع في خرائب صيدا وتدمر وغيرها فزينت بها متحف الاستانة. وقد ندب بعض علماء الآثار من الإنكليز وحفروا بطرق عجيبة مغارة الصخرة في المسجد الأقصى فذهب ما فيها ولم يعلم عنه شيء .

وكم من بعثة أثرية قامت بحفريات وأخذت ما عثرت عليه ولم تأخذ الدولة العثمانية حقها منه ولسان حال الباحثين ما ورد في الأمثال العربية « لا يحزنك دم ضيعه أهله ». وقد طلب منها في مؤتمر الصلح بباريز إعادة ما أخذته هي وألمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار. وفي ذلك برهان على مكانة العاديات في نظر الغربيين .

ولقد كنا نزين للحكومة التركية منذ ست وأربعين سنة أن تنشئ لدمشق متحفاً صغيراً يجعل فيه العاديات وبدائع الصنائع، فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك لأنهم يحبون أن يكون كل فضل في الاستانة، وأن تكون سائر الولايات قرى ومزارع للاستعمار على طريقتهم، حتى إذا نادى سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٩م) دار المدرسة العادلية من أجمل قصور الفيحاء، وأخذت تجمع بعناية المجمع العلمي ما بقي من الآثار النفيسة. فهو أول متحف عربي في هذه الديار، سار القائمون به على قدم الغربيين في نظامه، ثم بني له بناء خاص في غربي المدينة في المرج الأخضر واغتني في أسرع مدة غنى يغبط عليه بما اكتشف المنقبون عن العاديات من علماء الغرب .

حياة المتحف العربي بمعاوضة الأمة له. ولم يقصر بعض من لديهم مثل هذه التحف والطرف في إهدائها لتجعل في دار آثار الأمة عنوان ارتقاؤها ونموذجاً على معرفتها بتاريخها. لا جرم أن هذا المتحف هو البذرة الأولى التي ألقيت في هذه التربة المخصبة المهياة لأنواع النماء والإثراء يستفيد منه أهل الأجيال الخالفة ما يعني غناؤه في تربية عقولهم وعيونهم وأناملهم ويعتبرون بماضي الصناعة عند الأقدمين، وما كان لأجدادنا من الأيادي البيضاء في الفنون الجميلة بين المحدثين .

نشأة علم الآثار (*) :

عنيت الأمم منذ القديم بالفنون الجميلة، وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها. كان الأفراد يجمعون الآثار ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر. ودام هذا حالهم حتى سنة (١٧٦٤م) لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه وانكمان الألماني، وهو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث .

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ، ومن أصعبها مراساً، إذ يحتاج صاحبه إلى قوة انتباه وذوق سليم. فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها، بل يتطلب حل رموزها وفهم كنهها، واستجواب تلك الشهود الصامتة، واستنتاج الحقائق منها .

ولقد أصبح النظر في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم محتماً على كل مؤرخ ومحقق، ويستنير بها كل لغوي ومفسر. وكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم. وما هي كلمة فرعون التي لا يجهل اليوم الأحداث معناها، ذهب المتقدمون من علماء اللغة في تفسيرها مذاهب حتى قام علماء الآثار فأظهروا وثائق تثبت أنها لقب كل من ملك مصر. وكم من حوادث جاءت في كتب السلف وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها، وشك بعضهم في صحتها، ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام، وأظهرها للعيان ملموسة محسوسة، لقالوا: إنها أساطير الأولين. أليست جهود الذين اكتشفوا آثار آشور والكلدان ومصر وفارس ويونان وبعثوا ذكرها بعد أن كانت نسياً منسياً ألوفاً من السنين، شاهداً عدلاً على أخبار تلك الممالك .

لم يدون الأقدمون غير التزر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة، وأغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارها بزوال أصحابها، ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف، وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أخبار أكثر هذه الأمم، كما نعرف حوادث الأمم في القرون الوسطى، وقد توصلوا لمعرفة ما كان عليه الإنسان

(*) وضع هذا الفصل الأمير جعفر الجزائري .

قبل عشرات الألوف من السنين، يوم كان يأوي إلى الكهوف، ويقنت بالنبات، ويفترس الوحوش، مع أننا نجهل ونحن في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب الضاربة في مجاهل إفريقية وهي معاصرة لنا. ومن الإنصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا إلينا أخبار القدماء لأن هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئمة من الناس حب الاستطلاع، وكانت هذه النصوص نوراً يستضاء به، ومرجعاً يستأنس به. وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات، وهم وإن لم ينكروا وقوعها فلا يجزمون بصحتها إلا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها. ولأبحاث علماء الآثار ميزة جديدة بالاعتبار فإنها تكون في أكثر الأحيان مترهة عن الأغراض والغايات النفسانية. وقد يخطئ الأثري في استنتاجه، ولكنه لا يعتمد تشويه الحقائق، لأن همه الوحيد أن يخفي هذا الماضي البعيد، ويصبح معاصروه كأنهم يعيشون في ذلك العصر وذلك المحيط. ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفاً أو معبداً أو أطلالاً قديمة. وكيف يمكنه أن ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الأمم البائدة يقول:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقي هذا العلم الحديث إقبالاً عظيماً في الغرب فعنت حكوماتها به، وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم. وقد أبدى الأثريون على قلة عددهم نشاطاً عظيماً، ووضعوا في برهة قصيرة كثيراً من المؤلفات المفيدة. وقد نال الشام قسط وافر من هذه الأبحاث، فهي أول بقعة اتجهت نحوها الأنظار وخصوصاً فلسطين، لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الأطول، وأهمهم الشعب الإسرائيلي، لعلاقة الأمم الغربية بكتابهم المقدس.

البعثات الأثرية الغربية :

أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الإفريقية التي رافقت حملتها في سنة (١٨٦٠م) والجمعية الإنكليزية للبحث عن آثار فلسطين. ثم تضاعفت الهمم فجاء من

الفرنسيين رنان والدوق دولوين ودوسلسي ودوفوكوين وكلمون غانو ودوسو وفانزان وغيران، ومن الإنكليز روبنسون ومادن وسايس وويلسون وفارين، ومن الألمان أوتوتينيوس، ومن السويسريين ماكس فان برشم . وأهم الأمكنة التي نقبوا فيها هي تل الحسي وتل زكريا وتل الصافي وتل الحديدية وتل الجزر وتل تعناك وتل المتسلم وعكا ويافا والقدس وصيدا وصور وجبيل وعمريت وجزيرة أرواد وبعلبك إلى عدة أصقاع في الشام الشمالية. وبيننا هذه البعثات مجدة في عملها، كانت الدولة العثمانية في سبات عميق مكتفية بمراقبة هذه البعثات لاقتسام الغنيمة وإيداعها متحف الاستانة الوحيد. ولم تفكر بعمل حفريات قط، كما أنها كانت تأني إنشاء فروع لمتحفها في الشام أو في غيرها من السلطنة العثمانية، وحجتها في ذلك أن الآثار إذا جمعت في مركز واحد، وضم بعضها إلى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية وعملية لا ترجى من تعدد دور الآثار، وذلك أسوة بمتاحف أكثر الأمم الغربية، وعملاً برأي أكثر علماء الآثار. ولكنها تجاهلت بأن ما يصلح لأرض لها وحدة تاريخية لا يعمل به في أرض ضمت تحت لوأها شعوباً مختلفة ومدنيات متباينة كالامبراطورية العثمانية .

ولذلك كان جل اهتمام الدولة العثمانية مصروفاً إلى إنماء متحف الاستانة فأعملت أمر الآثار القديمة في ديارها، ولم تعهد إلى أناس يتعهدونها أو يراقبون سيرها، فدرس كثير من البنائات الأثرية البديعة، وأقبل الأهلون في كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها. فأصبحت هذه التجارة ذات شأن في القطر، وغصت متاحف أوروبا بآثار الشام، واقتنى غواة العاديات الأجانب كثيراً منها. وبهذه الصورة وبفضل الامتيازات الأجنبية تمكنت كل من الجامعة الأميركية والكلية اليسوعية في بيروت وغيرهما من المعاهد من إنشاء متحف نحاصر، وجمع الدكتور فورد في سيدا، وغيره في حلب من الأجانب مجاميع مهمة من آثار الشام. ولم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار، القديمة وكانوا لا يعبأون بها، ولا يقيمون لها وزناً. ومن كان منهم يملك طرفة أو أثراً يتنازل عنها مقابل درهيمات معدودة، حتى تجردت أكثر البيوت والأسر من نفائسها .

آثارنا وآثار جيراننا :

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في الشام ومن الآثار التي اكتشفت فيها أن آثارها تختلف كثيراً عما وجد من نوعها في الأقطار المجاورة، ولا يرجح أن نعثر في هذه الديار على آثار تثير بحسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة، كما هو شأن آثار مصر وآشور وفارس. والسداجة في الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم، وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم. فالشامي في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج، وهذا يظهر في صناعته وفلسفته الدينية، وتتجلى في هذه البساطة مواهبه الفنية، جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع. وتقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في الشام بالنسبة لما وجد في غيرها من الأقطار، وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامي وذوقه السليم، حاز بهما مكانة بين أقرانه من فئاني بقية الشعوب .

وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في القطر، بل لأنها لم تصل إلينا لأسباب وعوامل شتى. ذلك أن تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها. وأن الشاميين قلما يجعلون في مدافن موتاهم نفائسهم، كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة. بل يكتفون بالأشياء الساذجة المنوعة. فإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأغلاق، وما قد كتبه اشمونزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نابشي القبور، ناصحاً لهم أن لا يهتكوا حرمة، مؤكداً أن لا ذهب ولا فضة في قبره - ندرك من هذا سرّ ندرتها بين أيدينا. فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية. وخلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها، ودليل على سمو عقيدة سكانها، ونضج فكرتهم منذ القديم، لأن الشامي كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالإكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب. ومع هذا فقد انتشرت في الشام عادة وضع بعض الأشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية، واقتباس عادات الغالب، والشام في أكثر أدوار تاريخها خضعت لسلطان أجنبي .

الشام معهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر. وهذه الديانات

لم تكن ابنة ساعتها، بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها. ولذلك يهم كلاً منا معرفة تطورها .
وهذا ما يزيد في مكانة آثار الشام ويجعل لإقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر. وقد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة واستتار دواة بهذه الآثار دون سواها، فاشتربت في المادة (١٤) من صك الانتداب أن القانون الذي سيسن لحماية العاديات يجب أن يستمد روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه إلى التثبيط، كما أنها اشترطت على الحكومة المتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا تتصرف بشكل يرمي إلى حرمان علماء أي شعب كان تلك الإجازات دون أسباب موجبة، وهكذا أصبح الباب مفتوحاً لجميع الأمم .

تأسيس دور الآثار :

وقد تضاعف نشاط البعثات الأثرية الأجنبية عقب الهدنة في سنة (١٩١٨)، وأظهرت قيادة جيوش الحلفاء في الشرق عناية كبرى بالآثار، وعهدت للإحصائيين في جيوشها بدرس آثار الشام ورفع التقارير عنها، وشددت النكير على العابثين بها. ومن جملة مقررات المؤتمر الفرنسي الذي عقد في مرسيليا سنة (١٩١٩) للبحث بشؤون الشام العامة اقتراح على الحكومة الفرنسية بإنشاء ديوان للآثار القديمة، والتشيث باسترجاع ما أخذته الحكومة العثمانية من آثار الشام، وقد حققت المفوضية الفرنسية في الشام الاقتراح الأول، فأنشأت لها ديواناً للآثار القديمة، وحذت المفوضية الإنكليزية حنوها في فلسطين وشرق الأردن .

ولم تكن الشام في عهد الملك فيصل أقل عناية من تينك الدولتين. فقد اغتم هذه الفرصة بعض المفكرين وفي مقدمتهم الأستاذ مؤلف « خطط الشام » فاقترحوا على الملك إنشاء متحف في دمشق، فقبل هذا الاقتراح بارتياح عظيم. وما لبث الملك أن أصدر أمره بذلك إلى الأستاذ بأمر تحقيقه على أن يكون فرعاً للمجمع العلمي العربي الذي أسسه الرئيس أيضاً. وأنشأت الحكومة السورية متحفاً آخر في حلب، وأنشأت حكومات لبنان وجبل الدروز والعلويين

متاحف في بيروت والسويداء وطرطوس، وكذلك أنشأت كل من حكومتني فلسطين والشرق العربي متحفاً جعلته الأولى في القدس والثانية في عمان .
 وجميع هذه المتاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترته واستهدته من الآثار، وما نالها مما اكتشفته البعثات الأثرية في مناطقها فأصبحت الشام بتشجيع الحكومات المحلية والسلطات المنتدبة ساحة عمل دولي كبير .
 وقامت البعثات الفرنسية بالبحث عن الآثار في صيدا وأم العواميد وكفر الجرة وبيروت وجبيل والقرية ولبيا في منطقة الحكومة اللبنانية، وفي السويداء وقنوت والشهباء، وفي تل النبي مند (قدش القديمة) وفي المشرفة (قطنا القديمة) والنيرب وأرسلان طاش والقصر الأحمر، وقامت بعثتان مختلفتان بأعمال التنقيب في قلعة الصالحية (دوراسا أو روبوس القديمة) على شاطئ الفرات، وفي مدينة تدمر. وتحررت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد وتل أرفاد، ونقبت بعثة ألمانية في رأس العين شمالي الشام. وحصرت البعثات الإنكليزية والأميركية أعمالها في منطقة فلسطين والشرق العربي، فنقبوا عن الآثار في تل (مجدو القديمة) ويسان وسبسطية (سمرة القديمة) وسيشم وبيت جبرين والقدس والتابغة وجرش .

متحف دمشق :

تختلف مجموعة دار الآثار في دمشق عن مجاميع متاحف الشام للعناية التي بذلتها بآثار القطر الشامي على اختلاف أدواره التاريخية وخاصة العهد الإسلامي. وحرري بدمشق عاصمة الأمويين، ومهد الحضارة العربية، أن يكون لها متحف يحيي ذكرى هذا الماضي المجيد. ورغم ندرة العاديات الإسلامية المنقولة في ربوع الشام وأسعارها الباهظة، تمكنت دار الآثار من جمع أعلاق قيمة. منها مجموعة نقود إسلامية، ومجموعة خزف عربي، ومجموعة مصاحف مخطوطة ومذهبة. ومجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانباً من سدة جامع من خشب الحور الرومي آية في جمال الصنع وحسن الذوق، مزينة بنقوش عربية بديعة، وكتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جداً، وقد كتبت في أعلاها هذه الفقرة: « بن محمد بن الحسين بن

علي صفي أمير المؤمنين تقبل الله منه وذلك في شهور سنة سبع وتسعين وأربعمائة « وتابوت مزين مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشاً بديعاً وقد كتب على جوانبه « هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة الملكة فخر الخواتين عصمة الدنيا والدين، بختي خاتون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصر شاه ابن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم والأرمن قليج أرسلان قدس الله روحه ونور ضريحه، وذلك في مستهل ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة » وبين مجموعة الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بني أمية في شهور سنة (٤٧٥) وأخرى أيوبية تاريخها سنة (٥٧٥) ومجموعة وافرة من شواهد قبور أمراء الشام وعلمائها في القرن السابع والثامن هـ. ومما يلفت النظر جرة من رخام أبيض، وعلى القسم الأسفل منها نقوش عربية وعهداها من القرن الثامن للهجرة. وأخرى من الفخار عليها نقوش أشخاص وحيوانات وطيور وزهور محكمة الصنع وكتب في وسطها هذه العبارة (عز وإقبال وسلامة وسعادة وكرم وغبطة ورفعة)، وهذه الجرة فريدة في بابها وهي من صنع العراق في القرن الثالث عشر (م).

ومن أهم الآثار غير الإسلامية مجموعة زجاجية وهي أجمل مجموعات العالم، ومجموعة مهمة من الآثار التدمرية وهناك رأس تمثال أحد عظماء الحثيين يرجع عهده للألف الثانية قبل الميلاد. ونصب الفرعون سيتي الأول وعليه ذكر انتصاره على الحثيين، وطائفة من الآثار الرومانية واليونانية.

متاحف بيروت والسويداء وحلب وطرطوس والقدس وعمان :

وجمع في متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية وغيرها أهمها الأواني والحلي التي عثر عليها في مدافن جبيل وفي أقبية معبدها. ويرجع عهد بعضها إلى الألف الثالثة وبعضها إلى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد منها ناووس الملك أحيرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد نقشت على جوانبه صورة الملك بتناول القرابين من أتاعه وبعض الشعائر الدينية، وهو قائم على أربعة

أسود . وما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زُبرت عليه وهي أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم وهذه ترجمتها « عمل هذا الأران (التابوت) افسبعل بن احرام ملك جبيل لأبيه كي يكون مقره الأبدي، فإذا نصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداة لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت التبليط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيل إذا محا هذه الكتابة » وبين هذه الآثار آنية خزفية نقش عليها اسم الفرعون امنمحت الثالث (١٨٥٠ - ١٨٠٠) قبل المسيح . وآنيتان عليهما اسم امنمحت الرابع وآنية من الرخام جميلة الصنع مع غطائها، وكتب عليها بالهيروغليفية ما يأتي: « خدام الإله ابن الشمس فليعيش امنمحت إلى الأبد » وصندوق صغير للحلي من حجر كريم أسود محلى بالذهب وشكله على طراز الناووس وعلى الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها: « فليعيش الإله بون سيد الأرضين ملك مصر البحرية والقبيلية مع خرون راع المحبوب من ثوم سيد هيليوبوليس الممنوحة له الحياة الأبدية ». وجمع في هذا المتحف مقدار كبير من الفخار أهمه الأواني التي عثر عليها في كفر الجرة ويرجع تاريخ صنعها إلى الألف الثاني قبل الميلاد. ولآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة وهي من أهم ما عثر عليه حتى الآن في الشام .

وكان في متحف السويداء مجموعة حجرية نفيسة أكثرها من العهد اليوناني والروماني ضاع معظمها مع الأسف إبان الثورة السورية. ومتحف طرطوس حديث العهد ليس فيه إلا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير. وأما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد، ولكن مجاميعه جاهزة ستحفظ فيه متى هب لها المكان. وأكثر هذه الآثار حثية وأشورية من التي استخرجت في حفريات أرسلان طاش وتل الأحمر وتل أرفاد والتيرب .

وفي متحف القدس مجاميع خزفية ومعدنية تبين تطور نهضة فلسطين والأدوار التي مرت عليها في أهم عصورها التاريخية، كما أنه يخوي على عدد من النواويس من العهد اليوناني والروماني وأجملها مما نقش عليه صورة معركة بين اليونان والنساء المترجلات (أمازون) وطائفة آثار من الحجر البركاني من عهد الفرعون سيتي الأول ورعمسيس الثالث التي وجدت في

بيسان. وقد حفظت قطع الجمجمة التي وجدت في التابعة ويرجع عهدا إلى ما قبل التاريخ. وأما مجموعة متحف عمان فأكثرها مما يرجع تاريخه إلى العهد الروماني والبيزنطي .

وبعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التي بذلتها البعثات الأجنبية بآثار الشام غير الإسلامية وإعراضهم عن هذه الأخيرة. لا جرم أن معظم الآثار الإسلامية في القطر محفوظة في الجوامع والمساجد والمدارس تحت إشراف ديوان الأوقاف . وذلك يتحاشى الأجانب ما أمكن أن يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى إن السلطات المنتدبة تركت لدوائر الأوقاف حرية التصرف بهذه الأماكن المقدسة. وقد اكتفت بأن تسدي إليها من حين إلى آخر النصائح لبذل العناية بهذه الآثار. ولكن أكثر هذه الدوائر في شغل شاغل عنها. فكل يوم نسمع بضياح أثر أو تشويه لا عن قصد منهم بل لأنهم لا يقدرين قيمة ما هو تحت أيديهم، حتى أصبحت أكثر هذه الأمكنة الأثرية في حالة يخشى عليها من الاندثار، وبذلك يفقد القطر هذه المفاخر التي تشهد بمدنية السلف العظيمة في أزهى العصور الشامية. فعسى أن تحذو الشام حذو شقيقتها مصر وتؤلف لجنة للآثار الإسلامية تعنى بجمعها وتفقد شؤون الأبنية منها. وقد أنشأت الجمهورية الفرنسية في دمشق معهداً لإفريقيا لدرس الآثار وخاصة منها الإسلامية على منوال المعهد الإفريقي في القاهرة. وقد سبق للبعثات الأجنبية أن أسست في القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الأثرية الفرنسية، والمدرسة الأثرية الإنكليزية، والمدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية، ولهذا المعاهد فضل كبير بكشف غوامض تاريخ الشام القديم .

لم تدع السلطان الفرنسية والإنكليزية في منطقتي سورية وفلسطين باباً إلا وطرقاه لنشر الدعاية في الممالك الأجنبية عن آثار الشام ومكانتها. وقد تجلّى ذلك في دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولي الذي عقد في سورية وفلسطين في شهر نيسان سنة (١٩٢٦) فكانت نتائجه مرضية. وبفضل هذه الدعاية نرى عدد السياح بازدياد في كل سنة. ولا شك أن الشام إذا صرفت العناية بفنادقها وطرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من أهل الأرض، وتنجي من ذلك فوائد مادية وأدبية لاتقدر .

دور الكتب

نشأة الكتب :

عرفنا من سير القدماء أنهم كانوا يقيدون علومهم ومآثرهم وتواريخهم وأيامهم في صنوف من المواد، تكون على مقربة منهم، وتكثر في أرضهم وديارهم. فالبابليون كتبوا كتبهم على الآجر أي بالطين المشوي، وكتب الهنود على النحاس والحجارة والخزير الأبيض والطومار المصري، والعرب عمدوا إلى أكتاف الإبل واللخاف، أي الحجارة البيض الرقاق وعسب النخل. وبقي الأمر على ذلك حتى شاع الورق المعمول من الكتان في خراسان وسمرقند وبغداد ودمشق، منذ القرن الأول للهجرة على ما يظهر .

ولما شاع الورق قُضي على الرق بسهولة تناول القرطاس والمهرق، وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها. وكان من الخزير الأبيض ما يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، وقد اعتمدوا عليه قبل القرطاس بالعراق، وكتب بعض أهل الغرب في صفائح من معدن رقيق. وكان أهل فرغامة في الروم أول من استنبطوا الرق، كانت له تجارة رابحة بارت بظهور الورق، وكانت الكتب في العراق تجعل في جلود دباغ النورة أي الكلس، وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية، تدبغ الجلود بالتمر وفيها لين ولا رائحة لها .

ولما فتح الإسكندر فارس كان العلم منقوشاً مكتوباً في صخور وخشب، فأخذ حاجته منها وأحرق الباقي. ولما تولى أردشير بابك وابنه سابور على فارس والعراق جمع ما تفرق من الكتب فيهما، واستنسخ من الهند والصين والروم

كتبهم . ولما ملك بطليميوس (بطولوماوس) فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية فحص عن كتب العلم فعهده إلى رجل اسمه زُميرة فجمع من ذلك على ما حكى أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتاباً . وقال له : قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم . وذكروا أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطُّنوج أي الكراريس فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختر ابن عبيد قيل له : إن تحت القصر كنزاً فاحتفزه فأخرج تلك الأسفار . قالوا : فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل البصرة . وبلغ من عناية ملوك الفرس بصيانة العلوم ، وحرصهم على بقائها على وجه الدهر ، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض ، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث ، وأبقاها على الأيام ، وأبعدها عن التعفن والدروس ، فكتبوا في لحاء شجر الخدنك ، ولحائه يسمى التوز ، وكانت تعمل منه القسي ، وبهم اقتدى في ذلك أهل الهند والصين ومن يليهم من الأمم .

ولما حصل الفرس العلوم طلبوا لها من يفاع الأرض أصحابها تربة وأقلها رطوبة ، وأبعدها من الزلازل والحسوف ، وأعلكها طيناً ، وأبقاها على الأيام بناء ، يقيمون فيها خزائنهم ودور كتبهم فاختاروا مدينة جي من عمل أصفهان جعلوها في قُهَنْدَرز أي حصن ، فأنهت هذه المصنعة في الإسلام فظهروا فيها على أزج معقود من طين الشقيف ، أي بيت مستطيل من الخزف ، فوجدوا فيها كتباً كثيرة من كتب الأوائل مكتوبة كلها في لحاء التوز بالكتابة الفارسية القديمة ، وقالوا : إن الفرس كانوا يودعون كتبهم في سارويه ، أحد الأبنية الوثيقة القديمة المعجزة البناء ، وتشبه الأهرام في الجلالة وإعجاز البناء ، وكانت الكتب تكتب على صفحة صفحة أي من وجه واحد .

هذا ما يؤخذ من كلام ابن الذديم وغيره في منشأ الكتب عند القدماء ، ومع هذا لم تحفظ لغات الأقدمين لولا ما وجد منها مكتوباً على الأحجار ، وكان بعض تلك اللغات اندثر في القرون الأخيرة حتى لا يجلها إنسان ، مثل اللغة الهيروغليفية لغة قدماء المصريين المقدسة فعثروا في رشيد من ثغور مصر

في سنة (١٨٢٦) على حجر كان مكتوباً بالهيروغليفية والديموطيقي واليوناني، فحل شمبوليون الخط الهيروغليفية، وهو الخط الخاص بالآثار عند قدماء المصريين، وكان الخط المعتاد عندهم الخط الهيراطيقي يكتبون به حاجاتهم العادية وفنونهم وآدابهم. وهذا يكتب على البرديّ بقلم من البوص المعروف بالغاب، يغمس في مداد أسود أو أحمر ومنه أدراج طويلة قد يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين متراً، ومنها نماذج حفظت في متاحف الغرب ومتحف مصر، وكذلك ما عثروا عليه في رسائل تل العمارنة في المينا بمصر في سنة (١٨٨٨) وقد كتبت بالآجر بالحروف المسماة البابلية، وفيها سجلات الدولة في عهد فرعون مصر أمينوفيس الرابع وأبيه أمينوفيس الثالث، وانحلت بهذه الآجرات عُقد من التاريخ القديم استدلت بها على علاقة الشام بمصر .

ومثل ذلك يقال في الأثر النفيس الذي اكتشفه أحد أمراء روسيا في تدمر سنة (١٨٨٢) وانحلت به مشاكل كثيرة من الحضارة التدمرية. وقد حل الخط التدمري بارتلمي، واكتشف دوسو في الجنوب الشرقي من النمرة في الصفا حجراً مكتوباً بالخط الآرامي وهو بالعربية، وحل لغة الصفا بيمان وهاليفي. واكتشفت في البتراء المصانع المكتوبة بالآرامية، وحل علماء الآثار اللغة الحميرية السبئية في اليمن. وحل لغة البابليين دي مورغان، ومن أهم ما عثر عليه من آثارهم مسألة عظيمة عملت بمسحوق الحجر البركاني وقد زُبرت عليها شريعة حمورابي أحد أعظم ملوك البابليين، وكان من أصل عربي كما يقول هومل .

وأهم الكتابات الفينيقية التي ظهرت ما وجد مزبوراً على ناووس أحد ملوك صيدا سنة (١٨٥٥)، والخط الفينيقية أشبه بالخط العبراني، والخط المسند هو الذي كتبت به مصانع الفرس القدماء ومصانع آشور وبابل وأرمينية وخوزستان وما إلى ذلك من أرض العراق. ولا يزال العلماء يكتشفون الآثار والعدايات في أرض الشام، وإلى اليوم لم ينحل خط الحثيين أقدم شعوب هذه الديار، ولا يزال علماء الآثار منذ عثر بروكهار في حماة على حجر مكتوب بهذا الخط سنة (١٨١٢) متوفرين على حل هذا القلم وقد ظفروا بكثير من آثار الحثيين في هيرابوليس أو قرقيش عاصمة الحثيين وفي طرابلس

وحلب وأرفاد وحمص وغيرها .

ومعنى كل هذا أنه لم يصل إلى أهل العلم الحديث بعد تطاول الأعصار من تلك اللغات القديمة إلا ما كان مزبوراً على الأحجار والآجر، ثم ما كان على الخشب والرق ثم الورق، وكانت للعرب في الكتابة على الرق والورق يد طولى نقلوا بواسطتهما ما أمكن من علوم القدماء، وأعطوه لأهل الحضارات الحديثة بأمانة وإخلاص. فالقدماء إذاً وضعوا الكتب أيام عرفوا الكتابة، فكان لبعضهم كالفرس واليهود والهنود كتب مقدسة، وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية. قال سنيوبوس: وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا إذ ليس لدينا كتاب آشوري ولا فينيقي . أما ما بقي من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جداً. وكان القدماء يكتبون ولكن أقل منا، ولذلك كانت تأليفهم أندر، ولم يكن لهم من كل مصنف غير نسخ قليلة لما أن الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد، وقد دثر غالب هذه النسخ أو ضاع وتعدرت قراءة ما بقي منه، ويسمى علم حلها باليوغرافيا أي علم الخطوط والكتابات القديمة .

نشأة الخزان والعناية بحفظها :

عرفنا بما تقدم أننا لا نستطيع أن نحكم على العصور التي سبقت الإسلام في الشام في أمر الكتب والخزان فلا أنطاكية نطقت بما كان فيها من علوم القدماء، وانتقلت إليها من حران والإسكندرية، ولا بيروت ولا مدرسة الفقه التي كانت فيها قبل الإسلام، اطلعنا على ما كان فيهما من خزان وأسفار، فإن أخبار هاتين المدينتين أنطاكية وبيروت انطمست منذ القديم كما انطمست معالمهما بالزلازل المدهشة التي قضت على دور العلم فيهما، وأتت أيضاً على مدن برمتها في العصور الأولى للإسلام، والزلازل كالحريق تلتف الكتب وتدمر دورها .

ثبت أن العرب لم يدونوا في الجاهلية شيئاً من مآثرهم بالعربية، لأن الخط العربي محدث انتقل إليهم من الأنبار قبيل الإسلام، ولكنهم كانوا أول من أسرع إلى التدوين خارج جزيرتهم، ولاسيما في العراق والشام أوائل الإسلام.

ومن أهم الكتب القديمة في الشام مصحف سيدنا عثمان الذي أرسله عام ثلاثين للهجرة إلى دمشق ليكون الاعتماد عليه كما أرسل مثله إلى الأمصار الكبرى في الأقطار الأخرى. والغالب أنه نقلت عنه عدة مصاحف عدت من الأمهات منها ما جعل في طبرية، ومنها ما وضع في قنسرين. وكثرت النسخ بعد ذلك، لكن هذه المصاحف ذهبت في الحريق الذي أصيبت به الجوامع في عصور مختلفة، وكلما حرق مصحف قديم قال القوم: إنه مصحف عثمان، والأصح أن يقال المصحف المنقول عن مصحف عثمان. وحدثني الشيخ مسعود الكواكبي أنه تشرف غير مرة بزيارة مصحف كتب عليه حرره عثمان بن عفان وهو محفوظ في مكتبة جامع أياصوفيا في الاستانة .

ثبت أن أول خزانة كتب في الإسلام أنشئت في دمشق أو في حلب أنشأها حكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي المتوفى سنة خمس وثمانين، ولم يصل إلينا من أخبارها شيء، ولا شك أنها كانت تحوي بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية والسريانية، في الكيمياء والطب والنجوم وغيرها، وربما كان فيها شيء من كتب الجغرافيا لأنه ثبت مما قاله ابن السبدي الذي زار خزانة الكتب بالقاهرة في سنة (٤٣٥هـ) أنه كان فيها كرة من نحاس من عمل بطلميوس، كتب عليها حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد ابن معاوية. وقال: إنه كان في تلك الخزانة من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء. ولا شك أن خزانة خالد بن يزيد كان فيها أيضاً كتاب عبيد بن شربة الجهمي الذي كان استحضره جده معاوية من صنعاء اليمن وسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبليل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلدان. فأجابته إلى ما أراد، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شربة. ولعبيد كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين. وهذا من أول التدوين في النصف الأول من القرن الأول. ولوهب بن منبه المتوفى سنة (١١٠) أو ١٤ أو ١٦ تصنيف ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم، رآه ابن خلكان في القرن الثامن وقال: إنه من الكتب المفيدة .

وجاء القرن الثاني والشام تهتز أعصابها بانتقال الملك من بني أمية إلى

بني العباس فلم يؤثر عنها أنه كان فيها خزانة كتب، ولا عرف أحد من الخاصة بأنه كان مولعاً بجمع الأسفار، فكانت الكتب القليلة التي لهم تجعل في الجوامع أو في بعض دور الخاصة على ما كانت الحال في أكثر المدن الإسلامية. وإذا وقع التدوين في القرن الأول لم يدخل القرن الثاني حتى كثرت الكتب، وقد ورد في سيرة الزهري المتوفى سنة (١٢٤هـ) أنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشغلاً بها عن كل أحد، فقالت له زوجته: والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر. وهذا دليل على تكاثر الكتب حتى صارت للزهري مجموعة منها ينصرف إليها بكليته، وامراته تريده على أن يكون لها فقط. وكل هذه الكتب لم تبق الأيام عليها. والغرب كان أمهر منا في الاحتفاظ بما دون فإن أقدم كتاب في أوربا يرد إلى القرن الثاني للمسيح.

ولم يعرف قبل عهد الرشيد والمأمون أن جمعت الكتب في خزانة وسميت دار الحكمة أو بيت الحكمة أو بيت المعرفة. وكانت دار الحكمة أشبه بجامعة فيها دار كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطلعون وينسخون. ويدير شؤون تلك الدور من يثق الخليفة بعقلهم وأمانتهم وعلمهم. كان هذا في القرن الثاني واعتوره في القرن الثالث بعض الفتنور، وظل بيت الحكمة في القرنين الرابع والخامس في بغداد مفتح الأبواب. وأنشأ أحد وزراء العباسيين أبو نصر سابور بن أردشير في القرن الخامس داراً بالكرخ في بغداد سماها دار العلم، وقفها على العلماء ونقل إليها كتباً كثيرة. وأنشأ الفاطميون في القاهرة دار العلم في القرن الرابع تشبهاً بالعباسيين في بغداد، أنشأها الحاكم بأمر الله سنة (٤٠٠) وفرشها ونقل إليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنة شيخين. قال ابن قاضي شهبة: وبقي الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم أخذ يقتل أهل العلم وأغلق دار العلم. ولم تعهد الشام دار حكمة إلا في القرن الخامس أنشأها بنو عمار في طرابلس. وكان في كل من كفرطاب والمعرة في زمن أبي العلاء المعري خزانة كتب وقد زارهما كما زار خزانة طرابلس. وهذه الخزانة كانت قبل خزانة بني عمار بمدة خلافاً لما وهم بعض المؤلفين المعاصرين، لأن بني عمار لم يستولوا على طرابلس إلا بعد الأربعين وأربعمائة.

وكان أبو العلاء زار طرابلس قبل هذا التاريخ أي في أواخر القرن الرابع ،
وانتفع بخزانتها وكتبها الموقوفة.

وكانت في الشرقية التي يجامع حلب خزانة كتب مهمة اسمها خزانة
الصوفية. واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ونهبت
خزانة الكتب ، ولم يبق في خزانة الكتب إلا قليل. قال ابن العديم: وجد
الكتب بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم
وقف غيره كتباً أخر. وقد ذكر ابن سنان الحفاجي (٤٦٦) هذه الخزانة
في قصيدته البائية التي كتبها من القسطنطينية يداعب أحد أصدقائه قال فيها :

أبلغ أبا حسن السلام وقل له	هذا الجفاء عداوة الشيعة
فلأطرفن بما صنعت مكابراً	وأبث ما لاقيت منك شكية
ولأجلسنك للقضية بيننا	في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أثير عليك فيها فتنة	تنسيك يوم «خزانة الصوفية»

وقد ظلت هذه الخزانة في حلب عامرة إلى القرن السابع وهي مسبلة
على المطالعة، ولم يعلم هل كانت الخزانة المهمة التي أنشأها في حلب سيف
الدولة بن حمدان وجمع فيها الأمهات الجيدة عامة للناس أيضاً كخزانة
الصوفية أم هي خاصة به وبجماعته في قصره، وقد اشتهر عنه ولوعه بالكتب
إلى الغاية. وناهيك بخزانة كان من جملة خزائنها الخالديان الشاعران المشهوران.
وربما ذهبت هذه الخزانة في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة.
وقلت عناية الملوك بخزائن الكتب، لما كثرت المدارس في هذه الديار
في القرن الخامس «اكتفاءً بخزائن كتب المدارس التي أثبتوها من حيث
أنها بذلك أمس» ولم تكد تخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزانة
كتب. وكان لحلب ودمشق والقدس الحظ الأوفر من ذلك، لو لم تنازعها
طرابلس التي كان يراد من إنشاء دار الحكمة فيها نشر التشيع على ما يقال،
وساعد على كثرة الكتب في طرابلس ما كان فيها من معمل الورق الجيد.
وقد عرفنا أن معمل الورق كانت تخرج الكاغد والقراطيس والطوامير
الجيدة في طرابلس ودمشق وحلب ومنبج وطبرية وغيرها من المدن. ومن
أشهر خزائن الملوك والأمراء في القرن السادس والسابع خزانة الكتب التي

وقفها بحلب نور الدين محمود بن زنكي على مدرسته وسلمت إلى محمد بن علي ابن ياسر الجياني الأندلسي، زميل ابن عساكر مؤرخ دمشق، وأجريت عليه جراية ثم وقف كتبه على أصحاب الحديث توفي سنة (٥٥٣) ووقف نور الدين على البيمارستان الذي أنشأه بدمشق جملة كثيرة من الكتب الطبية كما وقف كتباً كثيرة على أهل العلم في أرجاء مملكته .

وأعطى صلاح الدين يوسف لمؤدب ولده الأفضل أبي سعيد البندهي (أو البنجديهي) كتباً كثيرة من خزانة كتب حلب، أباح له أن يأخذ منها ما شاء، وهذا جمعها وحصل من الكتب التي لم تحصل لغيره، ووقفها بخانقاه السميساطي بدمشق. وكثيراً ما كان صلاح الدين يبيح لرجاله أن يأخذوا ما شاءوا من الكتب التي وقعت إليه، كما فعل في مصر وأعطى وزيره القاضي الفاضل من خزانة الفاطميين قدراً كبيراً من كتبها، وأعطى عماد الدين الكاتب أيضاً بعض أسفارها، وكان في هذه الخزانة على ما قيل ألف ألف كتاب وفيها من تاريخ الطبري فقط ألف ومائتا نسخة. فبيعت خزانة الفاطميين وتشتت على هذه الصورة ولم يكن في ديار الإسلام أعظم منها . ووهب صلاح الدين القاضي الفاضل ما شاء من كتب خزانة أميد لما فتحها وكان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فانتخب منها الفاضل سبعين حملاً. وهذه الألوف من الكتب التي ملكها القاضي الفاضل وقفها بعد على إحدى مدارس القاهرة وكان هو وابنه من غلاة الكتب .

ومن الخزائن التي كانت بالشام خزانة علي بن طاهر السلمي النحوي (٥٠٠) كانت له حلقة بالجامع بدمشق ووقف فيه خزانة كتب. وكان لتاج الدين الكندي في الجامع الأموي خزانة كتب فيها كل نقيس. ووقف شرف الدين بن عروة الموصلي المنسوب إليه مشهد ابن عروة في الجامع الأموي خزائن كتبه فيه . ومن الخزائن خزانة بني جرادة العلماء في حلب فقد كتب أحدهم أبو الحسن ابن أبي جرادة (٥٤٨) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة وخزانة لولده أبي البركات وخزانة لابنه عبد الله. ومات موفق الدين ابن المطران (٥٨٧) وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه. وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدأ ولهم

منه الجامكية والحراية. ومات أمين الدولة السامري وقد اجتمع عنده نحو عشرين ألف مجلد لا نظير لها في الجودة. وكان مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسة الطب بدمشق من أهل القرن السابع اقتنى كتباً كثيرة، واقتنى من آلات النحاس التي يحتاج إليها في علم الهيئة والنجوم ما لم يكن عند غيره أي إنه كان عنده مرصد فلكي وخزانة كتب .

وجمع جمال الدين بن القفطي (٦٤٦) في حلب ما لا يوصف من الكتب، وكانت خزائنه تساوي خمسين ألف دينار. وكانت خزانة قطب الدين النيسابوري مهمة وقفها على إحدى المدارس بدمشق. وكان الملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى (٦٥٦) معنياً بتحصيل الكتب النفيسة، وكان جمع قبله محمد بن عمر ابن شاهنشاه صاحب حماة وابن صاحبها من الكتب ما لا مزيد عليه، وكان في خدمته ما يناهز مائتي متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب (٦١٠) ووقف الملك الأشرف موسى (٦٣٥) كتبه بالمدرسة الأشرفية بدمشق، واشتهرت في هذا القرن خزانة ابن أبي أصيبعة وتلميذه ابن القف بدمشق. ومن خزائن القرن الثامن والتاسع والعاشر التي بلغنا خبرها خزانة أبي الفداء صاحب حماة فإنه جمع من الكتب سبعة آلاف مجلد وقفها على جامع الدهشة. ولم يقم في هذا القرن بعد الملوك من بني أيوب أحد من الأمراء عني بالكتب وتسييلها على المطالعة، فالقرن الثامن كان خاتمة هذه الحركة المباركة في الشام .

ومن الخزائن في هذه الحقبة خزانة ناصر الدين العسقلاني (٧٢٣) فقد خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة. واقتنى ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية خزانة مهمة. وملك عمر القرشي الدمشقي (٧٩٢) من نفائس الكتب شيئاً كثيراً. ووقف تقي الدين اليلداني أكثر كتبه ومجاميعه بالخزانة الفاضلية بالكلاسة بدمشق سنة (٦٥٥) وحصل شمس الدين البعلي كتباً وكتب بخطه المليح شيئاً كثيراً (٧٧٤)، وخلف الفتح الفارقي (٦٩٤) ألفي مجلدة ومائتي مجلدة. وكانت خزانة ابن رواحة الحموي (٦٢٢) في مدرسته بدمشق. وخلف بدر الدين ابن غانم الدمشقي ألفي مجلدة. واجتمع لشرف الدين البارزي الحموي (٧٣٨) من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره. وكانت

خزانة أرغون نائب حلب (٧٣١) عامرة بالكتب النفيسة. ومن الخزائن المشهورة خزانة ابن فضل الله العمري وابن مالك النحوي وابن خلكان المؤرخ. واقتنى بعض ولاة العثمانيين في الشام كتباً نفيسة بطرق مختلفة ومنهم سنان باشا صاحب الجامع خلف مائة وستين مصحفاً مرصعاً بالدر والجوهر وخمسة وثلاثين صندوقاً مملوءة بالكتب التي لا تقدر بثمن، وكانت الصناديق مرصعة باليواقيت والمعدن. وكل هذا أخذه صاحبه من اليمن والشام وغيرها ونقل إلى الاستانة. وكان في القرن العاشر في الجامع الأموي بدمشق خزانة كتب خاصة بالملكية والأمين عليها مفتي أهل هذا المذهب. ووقف علي الدفتري من أهل القرن الحادي عشر كتباً نفيسة غالية بدمشق. وكان لبولس الزعيم اللبناني من أهل القرن السابع عشر للميلاد خزانة مخطوطة.

ولم يبلغنا أن قامت للكتب سوق في وراء جنوب دمشق من الأرجاء إلى أقصى حدود الشام، مع أن بعض أقاليمها أنجبت علماء أجلاء مثل قعمرأ وامتان وعمرّمان ونجران وشهبة وصرخد وبُصرى والصلت ووادي الأردن وجبل الشراة وعمّان ومعان والشوبك وعجلون وأذرعان وجرش والسويداء. وبعد فقد كانت الوراقة أو صنعة الكتب من نسخ وتجليد وتذهيب صناعة رائجة ومن أهم الصناعات في العهد القديم، والناسخ يرزق بقدر إجادته الخط أو الخطوط التي يعرفها ويحسنها. وكذلك المجلد والمذهب يكافأ كل واحد منهما بحسب غناهما. وكان كثير من العلماء يكتبون الخط المنسوب أي الخط ذا القاعدة وينسخون نسخاً لا بأس به ويعيشون من نسخهم. ومنهم من كانوا يتعففون عن القضاء، أو تولي شيء من أمر الأمة، ويؤثرون أن يعيشوا بالنسخ أو الوراقة أو الاتجار بالكتب، ومنهم من أثروا منها. وكان في كل حاضرة سوق لبيع الكتب يختلف إليه العلماء والأدباء. ومن العلماء من نسخوا المئة بل المئات من الكتب، ومنهم من نسخ ألف مجلد في حياته. ولم يكد الكتاب يخرج من يد مؤلفه خصوصاً إذا كان من المشاهير الثقات حتى تتاوره الأيدي بالنسخ، ويتنقل من قطر إلى قطر، ويتداول في الأيدي، ويجلد ويوضع في القماطر.

وقد جاء زمن علي دمشق (من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر)

وكل مدرسة من مدارسها الكثيرة لا تخلو من خزانة وافية بغرض الأساتيد والتلاميذ. ومن أهم المدارس التي حوت خزائن ذات شأن العمرية والعروية والناصرية والعادلية والأشرفية. جاء في فتاوى التقي السبكي صك وقف دار الحديث الأشرفية هذا: ويصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شهر وعليه الاهتمام بترميم الكتب، وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفي بذلك، وكذلك إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب أو مقابله. وجاء فيه: وجعل جزءاً من الوقف يصرف على مصالح المدرسة النورية ومن ذلك أن يصرف في شراء ورق وآلات نسخ من مركب (حبر) وأقلام ودويّ ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ في الديوان الكبير أو قبالة الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره، ويصرف إلى من يكتب في مجالس الإملاء، وإلى من يتخذ لنفسه كتباً أو استجازة، ولا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل دون التكبس والانتفاع بثمنه. قال: وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها. وكتب سنة ستمائة واثنين وثلاثين اه .

وكان رهبان الموارنة في لبنان منذ القرن الخامس عشر يصرفون أوقات فراغهم في نسخ المخطوطات الدينية والعلمية وكان بعض بطارقتهم وأساقفتهم يحملون الشماسة الرهبان وغيرهم على نسخ الكتب يزيدون بها مجاميع الأديار والبيع في الجبل ويتقبلون في ذلك مثال إخوانهم علماء المسلمين في المدن. وبهذه الطريقة كانت تنمو الكتب والأيدي تتناولها على أيسر وجه كأنها بعض المقدسات. وكان القوم كانوا يتعبدون الله بحفظها وإماطة الأذى عنها وتجليدها وتخليدها، وخدمتها بالتعليق عليها ومعارضتها بالنسخ الصحيحة ووضع الفهارس لها بحسب عرفهم في تلك الأيام، يتخبرون لها ما يبقى ويخلد طويلاً من الورق المتين والمركب الجيد والجلد النفيس الموجود الدبغ لندرتهما، والنادر موضع العناية وهو خليق بأن تشد عليه يد الضنائة وتحفظ النفوس به وتغتبط بتعاور الأيدي عليه من دون أن يناله سوء من عوادي الدهر .

مصائب الكتب ودورها :

ما برحت خزائن الكتب تزيد على الزمن بازدياد الحضارة في الإسلام وتنتقل الكتب من مصر إلى الشام، ومن الشام إلى العراق، ومن الحجاز إلى الشام مثلاً، ويُعنى بها العلماء والأدباء، ويتنافس في اقتنائها الملوك والأمراء، ويضعف الغرام بها يوم تضعف الحركة العلمية ويرغب عن الفضائل، ما برحت الحال على ذلك حتى دخل الروم حلب وأحرقوها سنة (٣٥١) ثم أحرقوا حمص وغيرها من المدن. ثم وقع الحريق الأعظم الذي في الجامع الأموي سنة (٤٦١) ودثر ما كان فيه من الكتب والمصاحف. وربما حرق فيه المصحف العثماني القديم. ومن أهم النكبات التي أصيبت بها الكتب نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون وإحراق صنجيل أحد أمراءهم كتب دار العلم فيها، وأخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها وكتب الخاصة في بيوتهم. واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار أو دار حكمتهم في طرابلس، وعلى أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن مائة ألف مجلد، وأوصلها بعضهم إلى ألف ألف وبعضهم إلى أكثر. وقفها الحسن بن عمار وجاء بعده علي بن محمد بن محمد الذي جدد دار العلم سنة (٤٧٢) ثم عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات في زمن آل عمار جميعها دار علم، وكان في تلك الدار مائة وثمانون ناسخاً ينسخون لها الكتب بالجراية والجامكية، فضلاً عما يشتري لها من الكتب المنتخبة من الأقطار. وابن الفرات هو ممن يقول بأن عدد ما كان في دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عند ما أحرقها الصليبيون سنة (٥٥٣). والغالب أنه كان في طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم ووقفت قبل بني عمار، وأراد ابن الفرات بهذه الثلاثة آلاف الألف عدد الكتب التي كانت في مكاتب طرابلس كلها.

ولا ينبغي أن يذهب عن الخاطر أن ما كانوا يسمونه جزءاً أو مجلداً أو مجلدة لا يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا، والكُراسة قد لا تكون أكثر من ثماني صحائف بمعنى أن ألف المجلدة أو المجلد لا تبلغ في مصطلحنا

أكثر من خمسين كتاباً أو ستين أو سبعين كتاباً، فكان المجلد في تلك العصور قليل الأوراق، لأن الورق أو الرق غليظ فإذا جعل كل مجلد مثنين أو ثلاثمائة أو أربعمئة أو خمسمئة ورقة يصعب تناوله وحمله ونقله ولا يصح ما قاله ابن الفرات من أنه كان في دار العلم في طرابلس ثلاثة آلاف ألف يوم نكتبها إلا على هذه الصورة، أي إن كتبها كانت بين المائتين وثلاثمائة ألف ومنها أجزاء صغيرة ورسائل، وقد يكون الجزء من كتاب لا تتجاوز سطوره سطور مقالة من مقالاتنا أو إملاءة من أمالينا أو محاضرة أو مسامرة من محاضراتنا ومسامراتنا .

فالمصيبة الأولى العظمى التي أصابت الكتب في الشام كانت على عهد الصليبيين والمصيبة الثانية ما حمله منها التتر في نوبة هولوكو وما أحرق في مدارس دمشق وجوامعها من أمهاتها، فقد ذكر المؤرخون أنه امتلأت خزانة الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام والعراق وغيرهما. وقدر ما حملة بأربعمئة ألف مجلد، ومنها ما حرق في فتنة غازان سنة (٦٩٩) وفي وقعة تيمور سنة (٨٠٣) فان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة أيام، فذهب في هذين الحريقين وغيرهما كتب المدرسة الضيائية والمدرسة العادية وغيرهما من المدارس .

ومن الخزائن التي دمرت في الحروب الصليبية خزانة أسامة بن منقذ أحد أصحاب قلعة شيزر فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة أرسل بها بعد أن أخذ عهداً من الصليبيين من دمياط إلى عكا في بطسة فنهبته ونهب معها ثلاثون ألف دينار قال: إن ذهابها خزانة في قلبه ما عاش. ومن مصائب الكتب ما وقع من حريق في دار صاحب حماة سنة (٦٨٧) ذهب فيه من الكتب مقدار عظيم .

ومنذ دخل الصليبيون الشام أخذوا على ما يظهر يقتنون الكتب العربية ولكن على صورة ضعيفة لأن العلم بها كان معدوماً عندهم ، يبتاعونها على أنها عاديات قديمة غريبة الشكل، ولما لمعت في القرن السادس عشر شعلة النهضة في إيطاليا أراد الباباوات اقتناء الكتب العربية، فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنة وحملوا إلى رومية من أديار لبنان ما كان محفوظاً فيها

من كتب الدين والعلم بالعربية والسريانية. وحمل يوسف السمعاني من لبنان (١٧٦٨م) كتباً في ثلاثة مراكز إلى رومية مملأها بالمخطوطات العربية وغيرها ففرق منها مركبان .

ومن المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين، وكان بلغ الجهل ببعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجموع أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به تصرفهم بملكهم. حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق، ويختلف إلى متولي خزانة الكتب في المدارس والجموع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعهما على الأغلب، وأكثرها في غير علوم الفقه والحديث، من قنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام حتى اجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها، والغالب أن معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الأمة في برلين هي من هذا القطر. وفهرس هذه الخزانة فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق. يتألف من فهرس الكتب العربية في خزانة الغرب اليوم خزانة برأسها. وإن بعيداً يحسن القيام على هذا التراث الوافر لأحرى به من قريب يبده جزافاً. وإن أماً عرفتنا أكثر مما عرفنا أنفسنا حتى قال أحد علماءهم: إن العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع أحدنا أن يقرأه طول عمره، بلجيرون يارث الشرق في ماديته ومعنوياته كما قلنا من فصل في مجلة المقتطف منذ أربع وأربعين سنة. نعم إن كتباً ترك للأرضة تعيث فيها، والعفن يعبث بجمال جسمها ورسمها، وتحرم النور ويعفسي أثرها الغبار والأوساخ، ويحرم النظر فيها على من يحسن الاستفادة منها، أو تفضّل عليها دربهات معدودة حرية بأن تكون في ملك من يستفيد منها ويفيد .

ومن الخزائن المشهورة التي بعثت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة قبة صحن الجامع الأموي، وكانت مملوءة برقوق نفيسة فتحت سنة (١٣١٧هـ) بأمر السلطان عبد الحميد الثاني لإجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني الألماني فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي، ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الأشعار المقدسة بالأرامية الفلسطينية وكتابات دينية وأدبيات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني ومقاطع شعرية لأوميروس، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية في موضوعات دينية، وجذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقويم أعياد السامريين وصلوات وصكوك للبيع والأوقاف وعهود زواج وبينها مقاطع لاتينية وإفرنسية قديمة وقصائد شعرية يرتقي عهدها إلى أيام الصليبيين ونسخ إنجيل برقوق. فأهدى السلطان بعضها لعاهل ألمانيا ووزع قسم منها على بعض رجال الاستانة ورجال دمشق واستخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في دمشق وأهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربة شريفة وقفها عبد المنعم بن أحمد سنة (٢٩٨) وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها. ورأى شيخنا طاهر الجزائري في تلك القبة جزءاً مكتوباً عليه أنه حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى أبنائه الأئمة سنة نيف وسبعين وأربعمائة .

وكانت في دير صيدنايا من جبل قلمون خزانة كتب حافلة بالمخطوطات النادرة ولا سيما السريانية، فحاذر وكلاء الدير من كثرتها (المشرق ٢ ص ٥٨٨) أن تكون حجة بيد السريان يتقنون بها على إثبات حقوقهم في الدير، فأجمع رأيهم على إخراجها وإتلافها تخلصاً منها، فجمعوها ومعظمها من النفائس المخطوطة على رق وبدأوا يحرقونها وقوداً للقرن خبزوا عليها خبزتين وكان هذا من نحو عشرين ومئة سنة. وهو عمل مثل الجهل المطبق والتعصب المقوت. وكم وقع من حوادث إفرادية من مثل هذه فضاعت فيها الكتب ولم تبلغنا تفاصيلها. ومما أعان على تشتت الكتب أن بعض من أولعوا في العهد

العثماني بتسم ذرى المناصب والقضاء، وكان لهم مشاكل وقضايا يريدون حلها في المراجع العليا أو لمجرد التقرب والتظرف كانوا يُمعنون في مهادة من يتوقعون الخير منهم بالكتب، وبذلك رحلت إلى الاستانة وغيرها أحمال من المخطوطات على هذا الوجه أيضاً فعدت هذه الهدايا في جملة مصائب الخزائن .

خزائن اليوم وأهم ما حوت :

من أهم الخزائن في الشام خزانة المسجد الأقصى في القدس وفيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه « كتبه محمد بن الحسن بن الحسين ابن بنت رسول الله » وإحدى ثلاث نسخ من مصحف مجزأ ثلاثين جزءاً كتبها بيده أحد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رق وهي مجلدة على الطريقة المراكشية وموضوعة في صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الأندلسية . ومصاحف كبيرة جداً وصغيرة كتبت في عهد المماليك وملوك بني عثمان . ومن كتبها « نشق الأزهار » لابن إياس و« حوادث الجو » لمؤلف مجهول و« كتاب المعرفة والتاريخ » رواية ابن درستويه عن ابن القطف .

ومن خزائن القدس مكتبة القبر المقدس ودير الروم ومكتبة دير الدومنيكان ومكتبة الآباء البيض ومكتبة دير الفرنسيسكان ودير الأرمن وخزانة الآثار الأميركية والآثار الإنكليزية ومكتبة المجمع العلمي الأثري البرتستاني والجامعة العبرية والمكتبة الحنبلية ومكتبة الشيخ الخليلي ومكتبة البديري، وأهمها المكتبة الخالدية العمومية أنشأها في القدس راغب الخالدي من أعيان تلك المدينة بمشورة أستاذاً تظاهر الجزائر ومعاونته وقد بلغت نحو أربعة آلاف مجلد، منها نحو ثلثها من المخطوط وزادت زيادات كثيرة بما أضيف إليها من خزانة الأسرة الخالدية. جعلت سنة (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م) على مقربة من المسجد الأقصى في مقبرة أحد الأمراء . ومن نوادرها « أنموذج العلم » للمولى شمس الدين محمد بن حمزة الفناري المتوفى سنة (٨٣٤هـ) ذكر فيه أصول مائة علم. « الطبقات السنوية في تراجم الحنفية » عليه خط مؤلفه تقي الدين بن عبد القادر المصري التميمي الداري المتوفى سنة (١٠١٠هـ). « الشعور بالعمور » للصلاح الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤)

في ذكر العلماء الذين أصيبوا بفقد إحدى عينيهم. «مناح المادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر» وهو المعروف بالمديجات لعبد المنعم الجلياني (٦١٣). «مختصر حياة الحيوان» لجلال الدين السيوطي (٩١١). «قهوة الإنشاء لابن حجة الحموي» (٨٣٨) وهو مجموع رسائله. «اختصار السيرة النبوية» لمحيي الدين بن عربي (٦٣٨). رواية ولده أبي سعيد وولده أبي بكر بن أبي المعالي محمد وابنته فاطمة عنه. «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين» لمرعي الحنبلي (١٠٣٣). «رونق الحفاظ بمعجم الألقاب» للحافظ يوسف سبط أحمد بن علي بن حجر وعليه خط الحافظ قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩) وهو المجلد الثاني ويرجح أنه بخط مؤلفه. «مثير الغرام بفضائل القدس والشام» لسرور المقدسي (٧٦٥) وفي آخره حواش فيها أسماء بعض تواريخ القدس. «إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى» لمحمد أبي شرف الشافعي المصري (٩٠٦). «شاناقي السموم والترياق» لشاناقي الهندي نقله من لغته الهندية إلى الفارسية منكه الهندي نقل للمأمون علي يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه وهو في معرفة السموم والترياق وهي نسخة ملوكية. «الوسيط» للواحد (٤٦٨) الجزء الثالث منه. «عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير» لابن سيد الناس اليعمر (٧٣٤). «أرجوزة محمد بن أحمد الباعوني» (٨٧١) في التاريخ وقعت في نحو ألف بيت من الهجرة إلى الملك برسباي. «تعاليق شهاب الدين أحمد بن الهائم» على الخصائص النبوية بخط أحمد الشهير بابن الهائم (٨١٥). «تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع» للدبوسي (٤٣٠). «مجموعة رسائل لابن كمال باشا» (٩٤٠). «تأويل مشكل الأحاديث والرد على الملاحدة والمعطلة وأهل الأهواء المبتدعة» من إملاء أبي بكر محمد بن حسن بن فورك (٤٠٦). «إيضاح الإشكال في من أبهم اسمه من النساء والرجال» أي رواية الحديث للحافظ محمد بن المقدسي (٥٠٧). «كتاب الأربعين الأبدال التساعيات» للبخاري ومسلم للحافظ عبد المؤمن الدمياطي (٧١٧). «ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد» للسخاوي. «كتاب قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام» لأحمد بن محمد بن عمر القدسي الشهير بابن زوجة أبي عذبية.

« كتاب التبيان في إعراب القرآن » لأبي البقاء العكبري (٦١٦). « دمية القصر وعصرة أهل العصر » للباخرزي (٤٦٧) ذيل يتيمة الدهر للثعالبي . ومن الخزائن المهمة في غزة خزانة المفتي، وفي يافا الخزانة الإسلامية وخزانة أبي نبوت وفي أرباض حيفا خزانة دير الكرمل وفيها صكوك قديمة لها علاقة بالدير. ومن الخزائن الخاصة في القدس خزانة عبد الله مخلص وفي عكا خزانة جامع الجزائر وفي نابلس خزانة آل الجوهري وخزانة آل صوفان وفي صفد خزانة آل النحوي وفي جبل عامل خزانة آل خاتون وإبراهيم يحيى والشيخ زين الدين وآل الصغير وأحمد رضا .

وأهم خزائن لبنان خزانة آل أرسلان في عبيه وخزانة جرجس صفا في دير القمر وخزانة دير الشرفة ودير السير ودير المخلص ودير البلمند وعين تراز وقزحيا وبزمار واللوزية ومار أشعيا ودير يوحنا مارون بكفريحي . وكان في بعض أديار اليسوعيين في لبنان مخطوطات نقلوها إلى ديرهم في بيروت كما نقلت المخطوطات المهمة في القرون الماضية من أديار الموارنة في الجبل إلى رومية العظمى .

ومن خزائن بيروت الخزانة الشرقية للآباء اليسوعيين وخزانة الجامعة الأميركية معظمها بالإنكليزية ومجموعة دار الكتب الكبرى في بيروت قليلة المخطوطات كثيرة المطبوعات وكان في بيروت مجموعة البارودي من المخطوطات بيعت كما بيعت مجموعة حيدر أحمد الشهابي ومجموعة جميل العظم ومجموعة رُشيد الدحداح في بيروت وغيرها من مجاميع الأفراد التي بعثت لقلّة العناية بالعلم أو لأسباب مادية قاهرة أحياناً . ومن خزائن الساحل خزانة آل كرامة وآل الجسر وآل المغربي وآل السمين في طرابلس، وخزانة آل الأزهري في اللاذقية وخزانة سليمان أحمد في جبل العلويين وخزائن بعض المدارس في أنطاكية . وأشهر الخزائن العامة في حلب خزائن المدرسة الأحمدية والمدرسة الحسرية والمدرسة العثمانية والمدرسة القرمانية وجامع الناصرية والخزانة المارونية والأرثوذكسية والكاثوليكية وخزائن آل الكواكبي والغزي والملاح والزرقا والكتخدا ومنش والأنطاكي والعيتابي وقطر أغاسي ومجموعة سباط . وفي الخزانة الأحمدية بحلب « المباحث الشرقية » للفخر الرازي . و« الوافي » للصفدي و« مختصر

تاريخ الذهبي المسمى بالعيار » و« تاريخ الذهبي » في سبعة مجلدات و « در الحبب في تاريخ حلب » لابن خطيب الناصرية في مجلدين و « التفسير المهمل » للفيض الهندي و« مثير الغرام لزيارة القدس والشام »، ومن مخطوطات المدرسة العثمانية المعروفة بالضيائية بحلب « عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ » للحلي السمين و« المقدمة السنية للصفدي » و« الدر الثمين في أسماء النبات والبنين » و« الحدائق الأنسية في الحقائق الأندلسية ». وكتاب « الناسخ والمنسوخ للحازمي، وفي خزانة المولوية بحلب « اختلاف الفقهاء » للوزير ابن هبيرة المسمى بشرح معاني الصحاح. وخزانة الجامع الكبير بحلب غنية بالكتب الفلكية وآلات علم الفلك وكان واقفها محمود الجزائر وأبوه من علماء هذا الفن. وفي المدرسة البهائية « عيون السير » لابن سيد الناس في السيرة النبوية وحاشية عليه في ثلاثة أجزاء لإبراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمي الحلبي. وفي بعض المدارس الحلبية الأخرى كتب متفرقة لكنها غير ذات بال. وفي الكنيس الكبير في حلب توراة مخطوطة قديمة الخط جداً. وفي حماة خزانة نوري الكيلاني في جامع الشيخ إبراهيم ومجاميع الكيلاني. وفي حمص مجاميع آل الأتاسي وخزانة القديس اليان الحمصي وخزانة الخوري عيسى أسعد وخزانة بني الجندي وكامل لوقا. وفي المعرة مجموعة آل الحراكي.

وكان في دمشق عدة خزائن بعثت منها خزانة آل حمزة، وخزانة الحضرة وآل الحسيني وخزانة آل عبد القادر الحسيني هدت أسرته كثيراً منها للمجمع العلمي فجعلها في الخزانة الظاهرية. وحرقت خزانة بدر الدين الحسيني وخزانة الشمعة وآل مردم بك وخزانة آل القوتلي. وتشتت خزائن آل الحسيني والطار والحلي والغزي وبايزيد والأيوبي. وخزانة آل السقطي وزعت، وإلى اليوم لا تزال محفوظة خزانة كل من آل الأسطواني وكان أحرقت قسم مهم منها في دار سعيد الأسطواني وذلك في حريق سوق الحميدية، وحفظت خزائن كتب آل البيطار وآل القاسمي وعابدين والمبارك وآل النابلسي وآل المنير وآل المرادي ودخل قسم مهم من كتب المنير والمرادي إلى دار الكتب الظاهرية. وحملت خزانة طاهر الجزائري وكان فيها الأمهات المحررة إلى مصر فأباعها من دار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية

والزكية. ومما حفظ من المجاميع مجموعة البطريركية الأرثوذكسية ومجموعة كنيسة السريان وهما مجموعتان جديدتان جمعتهما بعد فتنه سنة (١٨٦٠) التي ذهبت فيها مجاميع الكنائس والأديار في دمشق وبعض لبنان ولا سيما زحلة . وفي بعض البيوت القديمة في دمشق وحلب والقدس بل في معظم المدن القديمة مجاميع قليلة يحتفظون بها ورثوها من أجدادهم ومنهم من لا يرجعون إليها ولا عرفوا مضامينها ويتغالون بحفظها ويتنوقون في رصفها كأنها بعض الآنية اللطيفة والعروض التي يتنافس فيها ونعم الهوى هواها. وأهم الخزائن العامة في الشام خزانة دار الكتب الظاهرية وليست مكانتها منبعثة من كثرة أعداد كتبها بل من النوادر المحفوظة فيها وربما كانت مجموعتها أندر مجموعة في الشام، فيها بضعة آلاف كتاب ورسالة وفيها ما هو بخط مؤلفيه أو مقروء عليهم ومنها القديم جداً بل فيها أقدم كتاب في الشام من القرن الثالث . أنشئت هذه الخزانة سنة (١٢٩٦) بمساعي طاهر الجزائري وسليم البخاري ومعاونة غيرهما من العلماء وكان ملدحت باشا وحمدي باشا والي سورية يد في جمعها، وأهم رجل من عمال الدولة عطف على هذا المشروع وساعده مساعدة فعلية بهاء بك مدير ديوان الرسائل في ولاية سورية. فجمع ما تفرق من الأسفار في الخزانة العامة التي أبقت عليها الأيام وبعد ممانعات شديدة ممن يرومون كتم العلم وإبقاء الناس في عماية جمعوا مقداراً من الكتب جعلوها في شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس قبالة العادلية الكبرى ونصبوا عليها قواماً ووضعوا لها مثل شرائط المكاتب الكبرى فجاءت مؤلفة من ٢٤٥٣ كتاباً منوعة عدا اللدث والكراريس والأوراق المتفرقة. أخذت من عشر خزائن وهي :

- (١) خزانة المدرسة العمرية بالصالحية وهي قديمة العهد وقفها بعض أهل الخير ولكن كان الناظر قد سرق جانباً عظيماً منها لا تزال عند أبنائه ومنها ما في الظاهرية الجزء الأول أو الثاني والتتمة أو الأول في دار السارق .
- (٢) خزانة مدرسة عبد الله باشا العظم وقفها سنة (١٢١١) وضم إليها كتباً وقفها والده محمد باشا العظم سنة (١١٩٠). (٣) خزانة سليمان باشا العظم وقفها سنة (١١٩٦) كانت بمدرسته بباب البريد. (٤) خزانة الملا عثمان الكردي

كانت بمدرسة السليمانية أيضاً. (٥) خزانة مدرسة الخياطين وقفها أسعد باشا العظم بعد سنة (١١٦٥) وكان مقرها بمدرسة والده إسماعيل باشا العظم . (٦) خزانة المرادية بمدرسة مراد المرادي. (٧) مدرسة السيمساطية وهي قديمة وقفها بعض أهل الخير. (٨) خزانة الياغوشية كانت موضوعة في مدرسة سياوش باشا بالشاغور. (٩) خزانة الأوقاف وهي مؤلفة من عدة خزائن حفظت بقاياها. (١٠) خزانة بيت الخطابة كانت بحجرة الخطابة بالجامع الأموي. ومن كتب أخرى موقوفة .

وفي زمن رعوف باشا والي دمشق أوائل هذا القرن جمع لها نحو خمسمائة ليرة وابتاع لها مقداراً من الكتب المطبوعة في الغرب وغيرها وجلد بعض كتبها حتى إذا كانت سنة (١٩١٩م) وتألف المجمع العلمي العربي على يد كاتب هذه السطور بذلت العناية بابتياح أو استهداء الكتب المخطوطة والمطبوعة وقليل منها بغير اللغة العربية فناهز عدد الكتب المخطوطة الأربعة آلاف كتاب عدا المجاميع ، وعدد المطبوعة الأربعين ألفاً عدا الخزانة التي أعدها المجمع لأعماله في الفروع التي يبحث فيها وهي تربو على أربعة آلاف، وحصلت الفائدة من تنوع الأسفار والمجلات والصحف حتى قدر معدل الداخلين للاستفادة منها كل يوم بمئة إنسان وما زالت عناية المجمع بتكثير كتبها متوفرة، ومن الكتب المخطوطة التي حفظت في دار الكتب الظاهرية «الكواكب الدراري» لابن عروة الحنبلي وهو في أكثر من مئة وعشرين مجلداً في فن التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والرد على الفلاسفة وأسماء الرجال وعلوم شتى والموجود منه ٤٢ جزءاً. و«الغريب في الحديث» كثير منها أجوبة الإمام أحمد عن أسئلة أبي داود السجستاني كتب سنة مائتين وست وثمانين وهو أقدم كتاب عرف في الديار الشامية . و«البحر المحيط» في أصول الفقه للبدر الزركشي في خمس مجلدات والجزء الأول من «التذكرة» لأميرك من علماء المعتزلة في علم الكلام. والأول أيضاً من «الاشارات الإلهية» لأبي حيان التوحيدي في مخاطبة النفس. والأول من «سر الصناعة» لابن جنبي في أسرار العربية و«شعب الإيمان» في التصوف والأخلاق لعبد الجليل الأندلسي. و«الرسالة الجامعة» من جمع أصحاب

رسائل إخوان الصفا تقرأ عندهم بعد الرسائل المعروفة. و« الصحائف اليونانية في مخاطبة النفس الإنسانية » و« الضوء اللامع » للسخاوي في تراجم أهل القرن التاسع في خمس مجلدات كبيرة (طبع). والثاني من « مناقب الخلفاء الأربعة » لأبي بكر ابن الطيب الباقلائي. و« جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر الأندلسي (طبع). والثالث من « الجليس والأنيس » لأبي الفرج المعافا بن زكريا. وكتاب « الأحكام السلطانية » للقاضي أبي يعلى (طبع) و« تفضيل السلف على الخلف » لإبراهيم بن هبة الله و« ديوان خالد الكاتب » (المتوفى في حدود السبعين والمائتين). و« الطب الروحاني » لابن الجوزي في علم الأخلاق (طبع). و« الأطراف فيما يتعلق بالمحدثين » سبع مجلدات للحفاظ جمال الدين المزي. و« كتاب الأموال » لأبي عبيد بن سلام الأزدي (طبع). و « تاريخ دمشق » لابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١) في عشرين مجلداً. والجزء الخامس من « الفتاوى المصرية » لشيخ الإسلام ابن تيمية وهي في علوم شتى . و« أخبار الأذكىاء » ليوسف بن عبد الهادي (المتوفى ٩٠٩) بخط مؤلفه . و« فهرس الكتب الموقوفة » بخط يوسف بن عبد الهادي بعضها من تصنيفه وبخط يده. « المناقب والمثالب » تأليف هبة الله بن عبد الواحد الخوارزمي . « مساوى الأخلاق ومنمومها ومكروه طرائقها » لأبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي في خمسة أجزاء. « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد الدمشقي المتوفى سنة (١٠٨٩) (طبع). « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢) بخط إبراهيم البقاعي (طبع). « عقد الجمان في مختصر أخبار الزمان » المنسوب للمسعودي المتوفى (٣٤٣) وهو للشاطبي المتوفى (٨٧٢). (إرشاد السالك إلى مناقب الإمام مالك) ليوسف بن عبد الهادي بخط المؤلف. (طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضي شهبة الأسدي ويليهِ (مختصر النحاة للزبيدي). (المدهش) لأبي الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧). (طبع) (اللطف واللطائف) لأبي الفرج بن الجوزي. (أدب السلوك) لأبي الفضل عبد المنعم بن عمر ابن عبد الله الأندلسي (٦٠٣) مشتمل على مشاريع كلمات الحكمة والأدب والأخلاق. (قاموس الأطباء وناموس الألباء) لمدين بن عبد الرحمن القوصوني

المصري من أطباء القرن الحادي عشر للهجرة في المفردات الطبية. (ما لا يسع الطبيب جهله) ليوسف بن إسماعيل المعروف بابن الكبير من أهل القرن الثامن. (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان) لأبي العباس يحيى بن عيسى الكاتب الملقب بالرئيس الأجل المتوفى (٤٩٣) وهو في جزئين دخلا في مجلد واحد. (خلاصة تحقيق الظنون في الشرح والمتون) تأليف محمد بن مصطفى الصديقي وهو ذيل لكشف الظنون أمه (١١٨٠). (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧) جمع فيه مؤلفه زوائد الكتب الستة من مسند أحمد بن حنبل والبراز وأبي يعلى الموصلي والمعاجم الثلاثة للطبراني نسخة في مجلد كبير. (المجمل في اللغة) لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى (٣٩٠) اقتصر فيه مؤلفه على الألفاظ المهمة المستعملة أخذ أكثرها بالسمع عن تقدمه واختصر الشواهد ورتبه على الأبجدية منه جزء يبتدئ من حرف العين إلى آخر الكتاب بخط أبي بكر محمد بن محمد بن خلف في سنة (٥٨٩). (جنى الداني في حروف المعاني) لحسن بن قاسم المرادي المتوفى (٧٤٩) وهو كما في كشف الظنون من مأخذ المغني لابن هشام. (شرح الإيضاح) لأبي علي حسن بن أحمد الفارسي (٣٧٧) والشرح للجرجاني (٤٧١) شرحه أولاً شرحاً مبسوطاً في نحو ثلاثين مجلداً وسماه المغني ثم لخصه في مجلد واحد وسماه المقتصد وهو في مجلد ضخيم (٩٠٤ صفحات) بخط نقيس من القرن العاشر. (مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب) لعبد الرزاق القوطي المتوفى (٧٢٣) منه الجزء الرابع يبتدئ من حرف العين إلى القاف بخط مؤلفه. (الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة) للنجم الغزي المتوفى (١٠٦١) وذيله المسمى (لطف السمر وقطف الثمر) من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر. (طبقات الحنابلة) لابن رجب (٧٩٥). (نشر المحاسن اليمانية في خصائص ونسب القحطانية) لأحد أفاضل وصاب من بلاد اليمن. (أجزاء من عيون التواريخ) للصالح الكتبي (٧٦٤).

وفي خزانة المجمع العلمي الخاصة عدة مخطوطات نادرة أخذت بالتصوير الشمسي منها نسخة من (الدارس) للنعمي (أبي الفاخر محيي الدين) المتوفى

(٩٢٧) منقولة عن نسخة لابن المؤلف محفوظة في خزانة مونيخ. و(تراجم الأعيان) للبوريني (١٠٢٤). (الذيل على الروضتين) لابن أبي شامة (٦٦٥). (حكماء الإسلام) للبيهقي المتوفى في حدود سنة (٥٧٠). (رحلة الأمير يشبك) بن مهدي الدوادار (٨٨٥). (كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) لكمال الدين ابن العديم الحلبي المتوفى سنة (٦٦٠) ناقص من آخره. (مجموع فيه نقش خواتم الحكماء وآدابهم، واجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكمة وغير ذلك. (التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار) فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة في التصرف والاختيار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي صاحب كتاب لوامع الأنوار ومطالع الأسرار فرغ من تصنيف كتابه سنة (٨٥٤). (المثالث والمثاني في المعالي والمعاني) لصفى الدين الحلبي (٥٧٠) ومعه مجموعة أخرى للشاعر نفسه. (نظم درة الغواص) للسراج الوراق بخط محمد بن الصالح الهلالي المتوفى سنة (١٠٠٤). (تحفة ذوي الألباب) للصفدي سنة (٧٦٤). وفي المجاميع عشرات من الرسائل النادرة الجديرة بالنشر.

هذا ما أمكن استيعابه من الكلام على خزائن الكتب المخطوطة في هذا القطر عرفنا بها في الحملة كيف نمت وجمعت وكيف مزقت وتشتتت. وكان القوم يعتقدون أن اقتناء الكتب يورث الغنى ويبيحها يورث الفقر، ولذلك احتفظت بعض البيوت بكتبها وربما زادت عليها. وشهد أثر هذه العناية في البيوتات القديمة فإن المخطوطات على كثرة ما أصابها من التفريق ما برحت محفوظة في المدن بل في القرى في بيوت أفراد من الشعب قد لا يخطر في البال أنها تُعنى بمثل هذه الكنوز. ومنهم من يتبرك بها ويفاخر باقتنائها، ومنهم من يرتقب الزمن ليبيعها بالأثمان الغالية. وقد ابتاعت مصر في العهد الأخير مقادير عظيمة منها، لغنى مصر وشيوع العلم في بنيتها، وتفانيهم في إحراز آثار السلف. وقد يتعاون السفر المخطوط بضمن فاحش وربما كان مما مثل بالطبع مرات، لأن للمخطوط روعة غير روعة المطبوع، وقيمة تاريخية يدركها من يعاني هذه الصناعة ويقدر العاديات قدرها.

ومن الأسف أن صناعة النسخ ماتت من قطرنا وضعف بذلك التنافس

في الخطوط الجيدة المنسوبة وغيرها كما قضت الآلة الكاتبة في الغرب وفي الشرق على الخط أيضاً. ومن المؤلفين والكتاب اليوم من يملون على كُتّابهم على تلك الآلة مباشرة أو يكتبون هم بأنفسهم عليها دون أن يتعبوا أناملهم بتنسيق السطور ووضع الصفحات مما يفيد في الإسراع بالأعمال، ويقضي على الفن والجمال. ولولا الحرص المغروس في الفطر ما بقيت هذه البقايا التي نفاخر بها من عمل الأجداد، وهي في نظر العقلاء أغلى من التبر والعسجد، ولا سيما بعد أن سطت عليها كل يد أثيمة وأبيع من كتب الجوامع والمدارس بالألوف فسافرت عنا تنزل على الرحب والسعة على من يعرف قيمتها ويحسن تعهدها. والكتب كما قال أحد المولعين بها كالطيور لا تطلب إلا الهواء الطلق السالم من الشوائب. ولطالما انتقلت من يد إلى يد ومن جيل إلى جيل كما تنتقل الأعلام النفيسة أو كما تتداول النقود والحلبي ولكن بتجلة وحرمة .

هذا وخير طريقة تحفظ بها ثمالة تركة السلف الصالح أن يعمد كل من حوت رفوفهم وقماطرهم كتباً إلى كتبهم المخطوطة فيودعوها في الخزائن العامة لأنها أقل عرضة للحريق والتلف ولكارث ووارث، وأن يستعاض عنها بالكتب المطبوعة في الخزائن الخاصة، وتجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع إليها العلماء والباحثون، وتسبّل عليهم فتكون منهم على طرف الثمام، وبذلك يزيد النفع منها ويحيا بالطبع والنشر ما لم تساعده الحال أن يعرف حتى الآن، وبذلك تجتمع فائدتان فائدة الانتفاع وفائدة الحفظ، كما فعل المصريون وحفظوا بقايا كتبهم في داري الكتب المصرية والأزهر وخزانة المجلس البلدي في الإسكندرية والجامع الأحمدى في طنطا. والله يرث الأرض ومن عليها .

الأديان والمذاهب

أديان القدماء :

اهتدى الفينيقيون بفطرتهم إلى الاعتقاد بالتوحيد على ما يظهر. ودعوا معبودهم البعل أي الرب والسيد وقد يسمونه أدون ومعناه السيد أيضاً. ولقبوه بملوك أو ملوخ أي الملك أو ببعل شمائيم أي رب السماء، ثم أخذوا يصورون الرب ويحسمونه على الصورة التي يختارونها، خصوصاً لما جابوا الأقطار ومصر والأمصار، فأصبحت كل مدينة تخص الرب بها، فكان أهل صور يطلقون على معبودهم بعل صور، وأهل صيدا يقولون عن معبودهم رب صيدون، وأهل بيروت يعرف ربهم ببعل بيروت وهكذا يقولون بعل حرمون وبعل جاد وبعل تامار .

وتفننوا بعد في أربابهم فأخذوا ينسبونها إلى النار وعبادة الطبيعة وأنشأوا يؤهون قوات الوجود ومظاهره الرائعة والأفلاك والنجوم. وكما جعل الفينيقيون لأربابهم أنداداً اخترعوا لهم أزواجاً سموها عشتروت وقد عبّدت في سواحل الشام خاصة. ثم أخذت بعض المدن بالطبع تطلب لمعبوداتها زوجات وتنشئ لها معابد . وكان معبد بعلتة جبيل يحج إليه الناس من أنحاء القطر كما يحتفلون في الربيع بمقتل الرب أدونيس أو نهر إبراهيم. وكان من كهنة الفينيقيين أن أقاموا في أوقات مخصوصة من السنة حفلات دينية تجري فيها أمور غريبة من الرقص والفحش ومن تضحية البنات والأسرى على مذابح الهياكل التي كانت أشبه بمواخير يأوي إليها الفاحشات فيختلف إليهن من يريد الفجور باسم الدين .

ويقال على الجملة: إن الفينيقيين عبدوا في كل بلد مجموعة من الأرباب، فأهل صور عبدوا عشتروت وملكوت وبعلا، وأهل صيدا أشمون وعشتروت وبعلا، وأهل بيروت عشتروت وعطارد وبعل مرقد. وتجيء بعد هذه الطبقة من الأرباب طبقة أخرى منها كالرب أبيس والرب سلمان. ومجموع الأرباب الكبرى عند الفينيقيين كمجموعة ما عبده الرومان بعد قرون في بعلبك من عطارد والمشتري وغيرهما .

وكانت ديانة الآراميين كديانة الآشوريين والبابليين يعبدون الرب العظيم ورب الفكر ورب السماء والرب الأسد. ويجسمون رب الأرباب عندهم، على صورة إنسان في نصفه الأعلى، ونصفه الأسفل على صورة سمكة. وذكروا أن شيما كانت ربة أهل حماة. وعبد الآراميون النيازك والشمس والقمر والسيارات السبع والهواء والرياح والثيران وعبدوا أترعطي الربة السورية ودعوها دركيتو نصفها إنسان ونصفها السفلي سمكة. وكان عابدها إكراماً لها يمتنعون عن تناول السمك ويتوفرون على فتح أحواض يربون الأسماك فيها. ومن معبودات الآراميين هدد وسميسوس زوج الربة شيما وأترعطي زوج الرب هدد .

وكان الحثيون على مثال من تقدمهم من الأمم عباد أوثان أيضاً، فقد عبدوا الرب تيشوبو وهو مثل هدد الآراميين وبعل الكنعانيين. وروي أنهم عبدوا الشمس وأخذوا عن الكنعانيين عبادة عشتروت وغيرها من الأرباب وأهتوا مظاهر الطبيعة فعبدوا جمالها وجلالها .

وعبد الكلدان والآشوريون أولاً رب السماء ورب الأرباب ورب الأرض ورب البحر، وجعلوا لكل رب من هذه الأرباب ربة تكون قرينته. وبعد حين عبدوا القمر والشمس والزهرة. والزهرة هذه ينظرون إليها أنها قد تجسدت فيها الحياة والحرب ففيها اللطف والهمجية، وقد بنوا لها في مدينة أرك هيكلًا للفحش حتى دعيت هذه المدينة بمدينة العاهرات. وعبد البابليون على عهد حمورابي مردوك رب الأكوان وعبدوا رب الحكمة والعلوم والحرب والصيد والزراعة والموت والزواج والأنواء والأوبئة. واقتبس الآشوريون عامة معبودات البابليين وزادوا عليها ربهم أشور رب الأرباب عندهم،

يتزهونه عن الوالد والولد والزوج، ويعتقدون بحشر الأجساد أو ما يشبه ذلك في يوم الجزاء. ويرمزون إلى أربابهم بحيوانات ودواب كرمزهم بالأفاعي والطير والسماك والغزلان والبقر والحرفان .

أما قدماء المصريين فقد اهتموا إلى عبادة رب الأرباب وتمثله في الشمس الحاكمة على الأكوان . وقدسوا معبودهم على صور شتى ثم أصبح لكل مدينة ربه يعتقدون بأنه واحد يظهر في مظاهر مختلفة من مظاهر الطبيعة من نبات وحيوان وجماد وكواكب وأنهار ولا سيما النيل، وأقاموا لكل واحد من أربابهم الهياكل يخدمها الكهنة والسدنة ومن أهم معبوداتهم أوزيريس وإيزيس وهوروس أي الوالد والوالدة والولد. واعتقد المصريون بالآخرة والجزاء في العالم الثاني وحشر الأجساد، ولذلك عُنوا بتحنيط موتاهم على ما لم يصل إليه أحد قبلهم، علّ الميت يأنس بصورته .

وعبد الفرس قوى الطبيعة التي وقعت تحت حشهم من شمس وقمر ونار وماء وهواء، ثم عبدوا ميترًا التي هي الزهرة، ثم كان من مجوسهم على عهد زرادشت وأخلافه أن عبدوا رب الخير والشر، واسم رب الخير يزدان أو رب النور وهو الرب الأعظم مبدع الكائنات، واسم رب الشر أهرمن وهورب الظلمة وأصل كل بلاء. قال ماني: مبدأ العالم كونا أن أحدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر، فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدو وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء الحلم والعلم والعقل والغيب والفتنة، وخمسة آخر روحانية وهي الحب والإيمان والوفاء والمرورة والحكمة، وزعم أنه بصفاته هذه أزلني ومعه شيثان اثنان أزيلان أحدهما الجوى والآخر الأرض، وأعضاء الجوى خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفتنة وأعضاء الأرض النسيم والريح والنور والماء والنار، والكون الآخر وهو الظلمة وأعضاؤها خمسة الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة، ومن تلك الظلمة كان الشيطان. والصابئة هم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية أي الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، وينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب .

هذا وقد دان اليونان كما دان كثير من الأمم القديمة قبلهم بتأليه الجمال

على اختلاف مظاهره، عبدوا الجمادات لأول أمرهم ثم ترقوا إلى غيرها من تأليه الأشجار والرجوم والأحجار، وأنشأوا يكرمون الأفعى في هياكلهم كما يكرمون بعض حيوانات البحر وطيور البر. وكانوا يبالبغون في إكرام الموتى من عظامهم حتى ألقوهم بأربابهم، ونسبوا إليهم كل صفات البشر وأبشع رذائلهم. ويقدمون في المذابح ذبائح من الطيور والحيوانات والبشر مما كان عند الفينيقيين. وهكذا كثرت أربابهم إلى التي ليس بعدها، وكلما فتحوا أرضاً أضافوا إلى أربابهم بعض الأرباب التي وجدوها تعبد في الأقاليم المغلوبة على أمرها، وكثرت خرافاتهم حتى كان يستهدف للموت كل من يريدهم من عقلائهم على أن يقلعوا عن تخريفهم. هذا غاية ما يشار إليه من أديان قدماء الدول التي طال أمرها في هذه الديار.

ومن أجيال العرب التي حكمت هنا أجزاء مهمة قبل الإسلام النبطيون في الجنوب والايطوريون في بعض الساحل وقد عبد النبطيون اللات والعزّي، وكانت البتراء مركز عباداتهم قبل العهد اليوناني بستة قرون على الأقل. وعبد الايطوريون الكواكب والشمس والزهرة وذا الشرى، وربما تشابهت معبوداتهم ومعبودات النبطيين. وكان لهم في بعلبك مذبح قالوا: إنه بيت من بيوتهم عظيم عندهم جداً. وصنم الأقيصر كان في مشارف الشام لقضاة ولحم وجدام وعاملة وغطفان يحجون إليه ويخلقون رؤوسهم عنده وكلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعره قرّة من دقيق أي قبضة. وعرف من الآثار أن أهل صرخد كانوا يعبدون اللات على ما اكتشف على باب كنيستها. ومعظم هذه الأصنام كان مما ينحت من الأحجار ومنها ما كان من الشبّة (البرونز)، وقد نقلوا هذه الأصنام إلى الغرب خصوصاً منذ أوائل القرن الثالث قبل المسيح لما قبض على زمام الامبراطورية الرومانية أباطرة من الشاميين، وقد عثروا على بعضها في فرنسا والنمسا وإيطاليا. وكان ياهو المشهور في تاريخ الإسرائيليين حفيد يهو شافاط الذي قتل جميع أنبياء بعل وعبدته يعبد العجول في بيت ايل. وبيت ايل إلى شرقي خط يمتد من أورشليم إلى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين وكانت قديماً عاصمة الكنعانيين.

وقد عبد الرومان قوى الطبيعة من الأفلاك والشمس والأرض والنبات

والحيوان وأكرموا الينابيع والأشجار العظيمة والحجارة، ثم عبدوا المشتري وأظهروه في مظاهر عديدة وكانوا يقولون رب البرق ورب الرعد ورب النور. وجعلوا للمشتري ربة اسمها جونون وعبدوا المريخ رب الحرب يقدمون له ضحايا من الخنازير والبقر والغنم بل يقدمون له الذبائح البشرية يختارونهم من أسرى الحرب على الأكثر. ولهم أرباب أخرى كرب البيت وحارسه ورب نار البيت وجعلوا لها هياكل أقاموا على حراستها بنات عذارى يتعهدن نارا حتى إذا غفلن عنها فأطفئت وأدوهن على ما كان أهل الجاهلية يثدون بناتهم خشية العار. ولما اختلط الرومان بالأمم الأخرى اقتبسوا منها ما راقهم من أربابهم ومنها عشترت المعبود الشامي .

قال كلرمون غانو: لم تكد تظهر الوثنية اليونانية الرومانية حتى أصبح الناس يحبونها في أصقاع الشام كافة ويقبلونها راضين. وذلك لأنها قائمة على أساس التسامح القابل للظهور في كل مظهر وصورة. تلتئم بمرونة عجيبة مع أشكال الديانات التي تدين بها الشعوب الأخرى. وذلك بأن تمزج هذه الديانات بنفسها أو تمزج نفسها بها. ولم تدخل في ذلك المحيط الخاضع المدهوش إلا لإصلاحاً واحداً وهو معرفة الأشياء الحسنة، ولم تقض إلا بقضاء واحد وهو الابتعاد عن البشاعة، ولم تضع إلا نظاماً واحداً وهو نظام السرور، ولا تعليماً واحداً غير تعليم الذوق، ولم توح بغير الجمال. وكانت ترفق بالأديان التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا تشتد إلا على الأديان التي تحاول مقاومتها. فالعبادات القديمة التي عرفت عند الكنعانيين استقت من هذا النبع الصافي البارد مأخوذة بشيء من الجنون اه .

لما جاء كسرى إلى حلب وعمر بيتاً للنار كان في الشام أربعة أديان أمهات، وهي: اليهودية والنصرانية وعبادة الأوثان واليران. ولما جاء الإسلام كان الناس يدينون بهذه الأديان. وكانت النصرانية قبل الإسلام على رواية يعقوبي في ربيعة وغسان وبعض قضاة، واليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، والمجوسية في تميم، والزندقة في قريش أخذوها من الحيرة. وكان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهاً من حيسس،

والحيس تمر يخلط بالسمن والأقط فيعجن، فعبدوه دهرأ طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه. ولما مرض عمرو بن لُحَيّ وكان يلي أمر الكعبة في الجاهلية قيل له: إن بالبلقاء من الشام حَمّة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

اليهودية (١) :

يرجع البشر على اختلاف مذاهبهم وأديانهم إلى جد واحد وهو آدم وإلى أبناء سيدنا نوح الذين تناسلوا وتكاثروا وانتشروا على سطح الأرض. ومعلوم أن عرب الجاهلية واليهود هم أبناء سام ولذلك سموا بالساميين واستوطنوا في الأصل الديار الكنعانية المعروفة اليوم بفلسطين ومشوا منها إلى حدود مصر جنوباً وإلى العراق ثم إلى منتصف آسيا شرقاً. والهاميون أبناء حام سكنوا مصر والحبشة وانتشر القسم الثالث أي أبناء يافث فهم في القارة الأوروبية والأرض التركية.

ولما ظهر الأب الأولُ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، من بلدته الرّها (أورفة) من ديار الكلدان جاء متقاداً بمشيئة الله إلى الأرض الكنعانية وأقام في بلدة حبرون أي خليل الرحمن رمزاً لمودة الخالق له. وهنا نغضي عن سرد ما أوتي من المعجزات ونغفل أيضاً عن ذكر من جاء بعده من الآباء والأنبياء الكرام وما أوتوا هم أيضاً من المعجزات. والكتب المقدسة حافلة بكل ما يراد معرفته بهذا الشأن. ولا نرى بدأً من الإشارة فقط إلى أن سيدنا إسماعيل بن الخليل الأكبر قد نزع وأمه هاجر من الأرض الكنعانية إلى شبه

(١) رجونا بعض العارفين بهذه المذاهب أن يكتب كل واحد عن دينه فكتب على اليهودية الدكتور سليمان تاجر وعلى الأرثوذكسية الأرشمندريت توما ديبو المملوف وعلى الكثلثة الأب لويس شيخو اليسوعي وعلى المارونية الحوري بطرس غالب وعلى البروتستانتية القس أسعد منصور وعلى أهل الإسلام السنين الشيخ سليم البخاري وعلى المسلمين الشيعة الشيخ أحمد رضا ووصفنا نحن مذاهب الباطنية كالتصيرية والإسماعيلية والدروز والباوية ووصف السيد محمد عزة دروزة نخلة السامرة.

جزيرة العرب وبقي أخوه إسحاق في تلك الأصقاع الموصوفة بأرض المعاد، إشارةً إلى العهد الذي أعطاه الخالق سبحانه وتعالى خليله إبراهيم القائل بإعطاء الأرض الكنعانية على رحبها إلى نسله. وقد سميت بالأرض المقدسة أيضاً عندما بدأ اليهود يحجون إلى الهيكل المقدس الذي بناه سليمان الحكيم. وقد كان بناء هذا الهيكل مدعاة لتمسك اليهود بهذه الديار ولعدم التزوح عنها إلاّ لتعاطي التجارة لمن كان مكرهاً بحكم الضرورة على الإقامة مؤقتاً في الأقطار المجاورة. وقد وُجِدَت في الدهر الغابر آثار تاريخية كثيرة تدل على نزول اليهود حوران ودمشق وبلاد الفينيقين الواقعة على شاطئ البحر المتوسط .

ومما لا ريب فيه أن اليهود قد أقاموا عصوراً في القطرين اللذين دوختهما جيوش النبي داود وأعني بهما سورية وشمال ما بين النهرين . ولما أعمل نيوخذ نصر ملك بابل (٦٠٠ ق م) سيفه باليهود هاجر قسم منهم إلى فارس وآسيا الوسطى وأب قسم آخر إلى دمشق. وعادت البقية وعلى رأسها نحemia ودانيال وجددوا بناء الهيكل المقدس ولم يلبث أن جاء تيطوس الروماني (٧٠ ب م) وهدمه. وقد أعمل هو أيضاً السيف برقابهم واضطروهم إلى التزوح إلى الأمصار البعيدة كالغونان والأندلس وشمال إفريقيا. وقد رُوِيَ عن بولس الرسول أنه حاول اقناع اليهود القاطنين في الشام لاتباع السيد المسيح والتدين بدين النصرانية، وهذا مما يدل على وجودهم في تلك الأزمنة في هذه الديار .

ثم إن قائدي عساكر سيدنا عمر عندما فتح الشام انتقيا نقرأ غير قليل من اليهود والمسلمين الدمشقيين أرباب الصناعات والفنون الجميلة وحيء بهم بعدُ إلى بلاد بخارى فتوفروا على البناء المماثل تمام المماثلة للنسق الدمشقي من حيث طرز البناء ورسومه وأشكاله وأدواته حتى يخيل لمن يزور تلك الأصقاع أنه في سوق أو دار من أسواق الشام ودورها .

ثم إن نزول اليهود في دمشق منذ أمد بعيد مشهود ومحسوس من كنيس قرية جوبر التي تبعد بضع دقائق عن شرقي دمشق وقد جاء ذكره في التلمود الموضوع منذ أكثر من ألفي سنة وذلك بقوله بالحرف الواحد : « كنشتاديه جوبر » ومعناه كنيسة جوبر القائمة إلى يومنا هذا والتي كانت مقراً للنبيين

إيليا (الخضر) وتلميذه الإشاع (اليسع). وفي بعض دور الكتب العبرية في دمشق إلى اليوم آثار مخطوطة يرجع عهدها إلى القرن الحادي عشر للميلاد .
وصفوة القول أن اليهود لم ينقطعوا عن الشام لا سيما عند فتح المسلمين لها إذ ثبتت أقدامهم فيها وتوفرت لهم أسباب الهناء والرخاء .

ولم تؤثر التطورات والفتوحات التي وقعت في هذا القطر في اعتقاد اليهود الديني ولا غيرت شكلاً من مراسمهم، بل كانت بالعكس سبباً قوياً لتضافرهم وتحفزهم لدرء كل ما من شأنه أن يفسد لهم معاملاتهم وعاداتهم . وما زالوا منذ الحلقة كسائر اليهود يعبدون الله عزّ وجلّ ويوحّدونّه ويَعْرِفونّه بِبِهْوَةٍ كما تسمى إلى آدم وإلى الآباء والأنبياء بقوله لهم باللفظ العبري :
«إني يَ هَ وَهَ» أي أنا يَهْوَةٌ .

وقد فصل المجتهدون من علماء اليهود اسمه المقدس تفصيلاً وافياً خلاصته باللغة العبرانية : «ها ، هيو ، يهيه» ومعناه كان (في الماضي) وكائن (في الحال) وسيكون (في المستقبل) أي إنه تعالى حيّ قيومٌ دائمٌ إلى الأبد . وكان يرفق أحياناً اسمه الكريم في التوراة كلمة «إلوهيم أو شدّاي» ومعناها الجبروت والشدة . ويحترم اليهود أيضاً الأنبياء الذين أوحى إليهم في زمن ملوكهم وعددهم ٤٨ .

يتألف اليهود مع مواطنيهم مهما اختلفت نزعاتهم . فهم فرنسيس في فرنسا ، وروس في روسيا ، وإنكليز في بريطانيا ، وهنا أيضاً لا يختلفون عن الشاميين من حيث الأخلاق والزي . ولأسمائهم دخل قوي في الألفة مع مسلمي الشام . فهم يتسمون بأسماء لا يسمي بها غيرهم من اليهود كصبحي وصبري وعارف ومراد ويحيى وعبدّه وبهية وعائشة وجميلة إلى ما هنالك من الأسماء العربية المحضّة ، ومما يزيد ائتلافهم مع المسلمين أنهم مضطرون بحكم الدين الموسوي أن يراعوا مثلهم أحكام الختان والغسل والطهارة .

ولغة اليهود «العبرية» أيما حلّوا ورحلوا يتعرف بها بعضهم إلى بعض وبها يؤدون فروض صلواتهم اليومية وشعائرتهم الدينية ، ولغتهم هذه هي شقيقة اللغة العربية . فإن الصرفيين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبراني وكذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية والتعمق

في دقائقها . وهي كما قلنا لغة سامية تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال وأغلب كلماتها هي كشقيقتها لفظاً ومعنى . وعدد حروفها ٢٢ حرفاً وهي :
 ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت أي أيجد هوز
 حطي كلمن سعنص قرشت .

وقد كان للغة العبرانية الفضل الأكبر في حفظ حياة اليهود إلى هذا الزمن فهي التي جمعت شملهم في البلدان المختلفة وهي التي ذبت عن حياضهم وحافظت على كياناتهم . وقد حث العلماء المعاصرون على رفعها إلى مصاف اللغات الحية مما حدا بهم على تأسيس الجامعة العبرية في القدس الشريف في ١ نيسان سنة (١٩٢٥) وبدأوا بترجمة الآثار النفيسة والكتب المفيدة إليها . ولا يمضي زمن حتى يكون لهذه اللغة على ما أرى شأن عظيم ومركز سام . ورب قائل يقول: إنه قد يحول دون توسع علماء اليهود في الترجمة والإنشاء فقدان الكلمات الفنية الحديثة من اللغة العبرانية ، فالجواب، أن التلمود أتى على ذكر بعض المخترعات التي نظنها وليدة القرن الغابر أو الحاضر كالمناطيد والكهرباء وسماتها بأسمائها المخصصة . وقد أعيدت إلى اللغة في هذا العصر ومع هذا لم يحجم علماء اللغة في القرن الماضي عن استعمال الكلمات الدخيلة المحتاج إليها والتي تفني بالمعاني المقصود إدخالها على اللغة العبرانية .

السامرة^(١) :

ينسب السامريون أنفسهم إلى سبط يوسف وينسب كهانهم أنفسهم إلى سبط لاوي ويقررون أن هذا السبط هو بيت الكهنوت الإسرائيلي حصراً . و « السامرية » نسبة إلى إقطاع شمرونييم الذي كان في ملك سامير الأشوري الشمرونييم . وذلك إن الأشوريين لما غزوا فلسطين غزوتهم الأولى انتشروا في الأقاليم وامتلكوا كثيراً من الإقطاعات . وكانت فرقة شمرونييم تملك

(١) لا شك أن المظلمين على ما جاء في التوراة المعتبرة عند اليهود والمسيحيين معاً سيجدون بوئاً عظيماً بين ما ذكر في هذه الرسالة وبين ما جاء هناك ولكننا أردنا أن ننقل ما يقوله السامريون عن أنفسهم . وكتبت هذه النبذة اقتباساً من كتاب مخطوط ألفه أحد كهان الطائفة السامرية في نابلس .

إقطاع سبسطية وأخذوا يستغلون أرضه بعد أن خربوا المدينة المذكورة . ثم آل هذا الإقطاع إلى سامير أمير الفرقة فجاء إليه أحد ذوي اليسار من آل يوسف واشترى إقطاعه وأخذ يعمره هو وآله ، فلبستهم نسبة الأرض ثم ابتنوا أخيراً مدينتهم التي تسمت بالسامرية نسبة إلى أصل تسمية الإقطاع ومالكة الأشوري .

ويعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى خلاف ديني نشأ بينهم وبين هذه الأسباط . وذلك أن الإسرائيليين ظلوا إلى القرن الثالث من دخولهم أرض كنعان يقدسون جبل جرزيم الذي هو جبل « نابلس » الجنوبي ويقربون عليه قرابينهم اعتقاداً منهم أن يوشع أقام هيكل العبادة الأول في هذا الجبل . وكان إلى ذلك التاريخ مركز حجهم ومقام إمامهم الأكبر وكاهنهم الأعظم . فلما ورث الإمامة الكبرى الإمام عزي ابن بختي وكان حديث السن فحسده الكاهن الأعظم عالي وأنف أن يكون له مرعوساً وأخذ يدس الدسائس حتى نجح في استمالة فريق من الإسرائيليين فهجروا جرزيم وانتقلوا إلى سيلون - قرب القدس - وكان ماهراً في الشعوذة وأعمال السحر، فعظم حوله الجمع فأقام هيكلًا وصندوقاً للشواهد وادعى أنهما الأصليان وأوجب تقديسهما وصرف الوجوه عن جرزيم . وقد ساعده في عمله اختفاء الهيكل وصندوق الشواهد اللذين أقامهما يوشع على جرزيم بأعجوبة ربانية انتقاماً من اليهود لمخالفتهم الشريعة وانغماسهم في المعاصي . فاعتبر سائر اليهود قول عالي وأخذوا يقدسون هيكل سيلون . أما سبطا يوسف ولاوي فإنهما ظلّا على عهدهما من نصر الإمام عزي وتقديس جرزيم واعتباره المحل المختار الذي اختاره الله للهيكل والذبيح . ومن هذا الحين أصبح الإسرائيليون فرقتين: فرقة عزي ومركزهم جرزيم وحدوده ، وفرقة عالي ومركزهم سيلون . وقد استحكمت العداوة بين الفرقتين فأخذتا يتبعدان إحداهما عن الأخرى وطفقت كل فرقة تلصق بالأخرى التهم ، وجرت بينهما مناقشات ومنازعات كانت تؤدي في بعض الأوقات إلى إراقة الدم .

يقول السامريون: إن عالي الكاهن بعد أن عظم أمره أخذت مطامعه تظهر

وأساء السيرة في اليهود هو وأولاده وأخذوا يخالفون أوامر الله وشريعته ، وقد تبني ولدأ اسمه صمويل أتقن الشعوذة . واغتنم الفلسطينيون فرصة انشقاق الإسرائيليين فزحفوا على اليهود ونكلوا بهم ، فلما مات الكاهن خلفه صمويل فلم ير إلا أن يدعي النبوة ربطاً لقلوب اليهود به ، فصدقه هؤلاء لقوة شعوذته ودهائه ولكنهم طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً يدير شؤونهم ويجمع شملهم دفعاً لخطر الفلسطينيين فأقام عليهم شاوول الملك . وكان من أعمال هذا الملك إشهار الحرب على سبطي يوسف ولاوي لعدم اتباعهم لهم وعدم اعتبارهم هيكل سيلون وذبحهم معهم في مذبح سيلون . وقد كبس شاوول السبطين في عيد المظال فقتل منهم كل من وجده وذبح إمامهم الأكبر شيشي بن عزري وخرّب محلّ عبادتهم في جرزيم ونقض حجارة الهيكل . واحتل منطقتهم فتشتت قسم كبير من الذين سلموا من القتل منهم . وظل آل يوسف ولاوي اثنين وعشرين عاماً لا يقدرون على أداء فريضة الحج ولا يجرأون على التظاهر بشعائرهم الدينية . وقد حاول كاهنهم الأكبر باير إقناع داود حينما ملك باحترام جرزيم وبناء الهيكل فيه فلم ينجح ، وأخذ يقيم الهيكل في يابيس « القدس الآن » وادعى هو وابنه سليمان من بعده أنه المحل المختار وأناطوا به جميع المقدسات المنوطة بجرزيم دون أن يكون في أسفار التوراة الخمسة دليل على ذلك في زعم السامريين .

ولما غزا بختنصر فلسطين أجلي في من أجلاه آل يوسف إلى بابل وأسكن محلهم أمماً غريبة فسبب ذلك انحباس الأمطار وعطب الزيتون ، فالتمس القاطنون من الملك أن يسأل آل يوسف عن سبب ذلك فأجابته هؤلاء أن لنا جبلاً مقدساً نحج إليه ونتقرب إلى الله فيه بالقرايين لا نرى فيه حبساً ولا عطباً ، فعزم على إعادتهم إلى أرضهم ليقوموا شعائرهم . وقد وقع في هذا السياق بينهم وبين آل يهوذا خلاف على المحل المختار ولكن آل يوسف أقنعوا الملك بقوة نصوصهم فرجحهم وأعادهم وجعل لهم شيئاً من السلطة فجاءوا وأقاموا هيكلهم وزحفوا على يابيس وهدموا هيكلها . فكان نجاحهم هذا عاملاً جديداً في ازدياد النفرة بين الفريقين أولاً وتحريف اليهود نسخ التوراة الموجودة في أيديهم ثانياً .

وقد طعن اليهود في أصلهم فقالوا عنهم كوثيين وعتوهم بأنهم وثنيون وأن لهم صنماً اسمه أشيما نكايّة وتغرضاً وانتقاماً . وقد كان اليهود في عهد الحكم الروماني والفارسي كثار العدد . وكان لهم يد كبرى في الثورات الوطنية التي كانت تنشب من حين إلى آخر ، وقد أفنت هذه المنازعات عدداً كبيراً . فلما دخل العرب فلسطين أخذ السامريون يدينون بالإسلام فيقل عددهم رويداً رويداً إلى أن أصبحوا طائفة قليلة جداً ربما لا يتجاوز عددها الآن مائتي نفر ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً . وقد اقتبسوا من المسلمين واقتبس المسلمون منهم في نابلس على توالي الأيام كثيراً من العادات واللهجات . وهم الآن يتكلمون بالعربية النابلسية العامية . وقليل منهم يعرف العبرانية كما أن عبرانيتهم قديمة بينها وبين عبرانية اليهود اختلاف بين وإن امت اللغتان إلى أصل واحد . ولا يزال أصل بعض الأسر المسلمة في نابلس معروف النسبة والأرومة في الطائفة السامرية .

ينعت السامريون أنفسهم بالمحافظين لأنهم حافظوا ولا يزالون يحافظون على أدق شعائر العبادات والشريعة دون تأويل ولا انحراف . ويزعمون أن التوراة التي في أيديهم أصدق وأقدم توراة وأنها بخط أبيشع بن فينحس ابن العزر بن هرون نقلها أبيشع عن المدرج الذي كتبه بيده موسى عليه السلام . وتوراتهم هذه مدرج طويل من الرق له أسطوانة مفضضة محفوظة في معبدهم تكاد تكون سلوتهم الوحيدة في هذا العالم الذي أصبحوا فيه غرباء عن كل أممهم وأثراً تاريخياً أكثر مما هو شعب حي . وهم يزعمون أن توراة اليهود قد فقدت مراراً وحرقت كثيراً وأن التوراة التي بين أيدي اليهود ملفقة بالظن والحدس على غير أساس ، وأن اليهود عدا ذلك قد تساحوا بكثير من مظاهر الدين وأولوا نصوص الشريعة فصار بينهم فروق كثيرة . وفي أيدي السامريين كتب جدلية كثيرة في تثبيت طريقتهم والظن في طريقة اليهود وتفسيراتهم وتأويلاتهم .

وأول خلاف نشأ بينهم وبين اليهود خلاف القبلة . فالسامريون يعتبرون جبل جرزيم الجبل المقدس والمحل المختار الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده عليه والذي أمر يوشع من قبل موسى بإقامة الهيكل فيه ويقررون أن عيد

الفسح وقرابينه لا تجوز إلا في هذا الجبل وحدود منطقته التي لا تتعدى منطقة نابلس الآن. ومن الخلافات بينهم وبين اليهود وقت الختان. فالسامريون لا يقبلون عذراً لتأخير يوم الختان إلى ما بعد اليوم الثامن من الولادة على حين يتجوز اليهود في ذلك. وبين الفريقين خلاف في مواعيد الأعياد وشعائرها وفروعها وفرضية القرابين والطبقات الملزمة بها. وللسامريين أصول فلكية دقيقة يستندون إليها في حساب تولد الأهلّة وتعيين مواعيد الأعياد والشعائر .

ويخالف السامريون اليهود في تجويز بعض الأتكة فهم يحرمون نكاح امرأة الأخ الشقيق و بنت الأخ وزوج الأخت وامرأة العم وامرأة الخال واليهود يخلونها. وكذلك هم يختلفون في بدء عيد الفطير والطقس الحمسيني ذوي الأسابيع السبعة المقدسة التي يحيي بها الإسرائيليون ذكرى أسابيع الخروج من مصر ودخول أرض كنعان. والسامريون يتشددون في شعائره الدينية لا سيما يوم السبت، ويزعمون أنهم يطبقون أوامر التوراة حرفياً . ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة وكيفياتها ويحملون أنفسهم عبئاً لا يملك الإنسان نفسه من الشفقة عليهم من أجله. وهم اليوم لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم وإنما يستأجرون لهذين الغرضين أناساً من المسلمين لأن للميت وغسله ومائه نجاسات يتعذر طهر السامري منها في الحال الحاضر. ويقولون: إن السامري لا يطهر منها إلا إذا رش بعد عزلة الأيام السبعة برماد بقرة مقررة الصفات. وقد نفذ هذا الرماد الذي كانوا يتوارثونه منذ أمد طويل ولم يمكنهم تعويضه. وللسامريين صلوات مفروضة يوم السبت وغيره. ففي غير السبت لهم صلاتان مفروضتان هما صلاة الصبح وصلاة المغرب. وفي يوم السبت صلاتان زائدتان على تينك الصلاتين هما صلاة الظهر وصلاة الصرفة. وصلاتهم ذات ركوع وسجود وانتصاب يتلون فيها سوراً من التوراة. وهم يتوضأون قبيل الصلاة وضوءاً يقرب من وضوء المسلمين .

وأهم أعيادهم عيد الفسح في آخر أسبوع الفطير. ويكون في الرابع عشر من الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان. وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج. يصعد السامريون فيه كبارهم وصغارهم جبل جرزيم. ويوجبون

حضوره على كل سامري ولا يقبل للمتخلف عنذر. فإذا كان يوم العيد وأخذت الشمس بالزوال تهبأوا للعيد في ثياب بيضاء وجب زاهية واعتموا بعمائم بيضاء أو حرير (أغبانية) مطرزة وهبأوا سبعة أكباش سالمة من كل عيب ونقص وحفروا تنوراً عميقاً بينونه بحجارة مرصوفة من دون طين. فإذا آن وقت الغروب يأخذون بتلاوة التوراة وقراءة التراتيل مصطفين على شكل إمام ومؤتمين، فحينما يأزف الوقت المقرر وهو بين الغروبين يعطي الكاهن الأكبر إشارته فيذبح الذبائح الأكباش بسرعة البرق، ثم ينتهون من هذه الصلاة الأولى ويبادرون جميعاً لتحضير الذبائح ينتفها أناس ويملحها آخرون، وبعضهم يوقدون النار ويحمون التنور وهم في كل أعمالهم هذه في صلاة لا يفتر عن التلاوة والترتيل. ثم يحرقون شحوم القرابين وأطرافها على مذبح يصنعونه من الحجارة ويلقون بعد ذلك الذبائح في التنور، ويقضون بعد ذلك ثلاث ساعات في الصلاة ريثما تنضج القرابين فيرفعون عنها الحجارة ويخرجونها ويأكلونها، وبعد أن ينتهوا من الأكل يحرقون الفضلات والعظام، إذ أنه لا يجوز لغريب أن يمس الذبيحة ولا أثراً منها. وقد اعتاد المسلمون في نابلس أن يصعدوا الجبل في هذا اليوم للتفرج أولاً ولزيارة شيخ لهم اسمه الشيخ غانم يظن أنه من شهداء الحروب الصليبية اه .

وفي كتاب ولاية بيروت أن شروط العقيدة الأصلية عند السامريين خمسة وهي الاعتقاد بوحدانية الله، ونبوة موسى، وأن التوراة كتاب منزل، وأن جبل جرزيم هو مقدس، وأن الساعة آتية لا ريب فيها. ويعتقدون أن الله منزه عن جميع الصفات ولا يؤمنون بنبوة أحد من الأنبياء سوى موسى ويوشع ويعتقدون أن البشر يحاسبون على أعمالهم في اليوم الآخر ويؤمنون بمجيء المهدي ويطلقون عليه أسماء مختلفة فيسمونه «حاشا حيب» و«حاطا حيب» و«مرجع» وأن لظهوره علائم فيظهر كلمة الله وينقل عصا موسى وألواح العشرة ويحيى بقدره المن وهي الحاوى الإلهية. ويعتقد السامرة بالملائكة ويفرض على كل سامري أن يصلي ويزكي، فالصلاة صلاتان: إحداهما صلاة الصبح، والثانية صلاة الغروب، وكل صلاة إحدى عشرة ركعة،

جماعة أفضل، والصلاة مفروضة على الرجال والنساء ولكن النساء لا يخالطن الرجال خلال الصلاة، ويشترط أن يكون المصلي طاهراً والطهارة عندهم على نوعين الغسل أولاً والوضوء ثانياً، فالطهارة من الحدث شروط أولى على كل موسوي حتى إن لمس الحائض موجب للغسل، وعلى الحائض أن تحضر ثلاثاً من النساء يقفن على رأسها حين اغتسالها، وأما الوضوء فيغسل المتوضئ أولاً يديه، وإذا كان من أصحاب الأعمال اليدوية فيغسل يديه إلى المرفقين والساعدين ثلاث مرات. ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً ثم يغسل وجهه ويمسح أذنيه ويغسل رجليه ثلاثاً. ويتلون التوراة في الصلاة باللسان العبري القديم وتجوز تلاوتها باللغة السامرية. والحج عند السامريين هو عبارة عن زيارة جبل جرزيم وهو ثلاثة أشكال حج الفطير وحج العنصرة وحج المظال . ويمسكون في صومهم أربعاً وعشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة أيام، فلا يدخل السامري كبيراً كان أو صغيراً شيئاً إلى فمه حتى الطفل الرضيع فإنه يمنع من الرضاعة طول هذه المدة، ولا ينامون مطلقاً في هذه الأربع والعشرين ساعة، بل يقضونها بالطاعة والعبادة. أما الزكاة فهي عبارة عن إعطاء واحد في العشرة من الأرباح إلى الكاهن والفقير. ويحجب السامريون نساءهم ويجوز الزواج ثانية إذا كانت المرأة عاقراً أو مريضة أو ذات عيب شرعي. وأصول مواريثهم لا تخالف أصول الشريعة المتبعة عند جميع الموسويين .

الأرثوذكسية :

ليس من دين يدين به أبناء آدم إلا فيه مذاهب متباينة بتباين منازع زعمائه . فقد خصم أهل الختان المنتصرون رسل المسيح ليقنعوهم بوجود اختتان الوثنيين الراغبين في التدين بالنصرانية. ولكن الرسل والكهنة اجتمعوا في اورشليم في السنة الخمسين بعد الميلاد « وحكموا بالألّا بثقل بهذا الناموس على من يرجع إلى الله من الأمم » (اع ١١ : ٢ - ٣ و ١٥ : ١ - ٣١ و ١٦ : ١ - ٣) .

وفي القرن الثاني نشأت في الدين المسيحي بدع اليهود الناصريين والانيونيين والكلساعيين والشمشونيين والفتنوستيين على تفرق نحلهم فانتبذتهم الكنيسة

وعاجلهم سهم القضاء. وقام بعدهم مبتدعون كثيرون اشتهر منهم في القرن الرابع قس كنيسة الإسكندرية آريوس، إذ كفر بألوهة المسيح فجمعت عليه الكنيسة سنة (٣٢٥) مجعاً مسكونياً في مدينة نيقية حضره أول ملوك المسيحيين القيصر قسطنطين الكبير وثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ما عدا الكهنة والشمامسة والعلماء وحكمت عليه فعُري من الكهنوت ونفي وقُطع السبب بأتباعه .
وبتأثير ضلال آريوس كفر مكدونوس أسقف القسطنطينية بالروح القدس فحكمت عليه الكنيسة وعلى بدع أفنوميوس وأبوليناريوس وصباليوس وماركلوس وأفدوكسيوس وفوتينوس بالمجمع الثاني المسكوني الذي التأم سنة (٣٨١) في القسطنطينية على عهد القيصر ثيودوسيوس الكبير وحضره مائة وخمسون أسقفاً أثبتوا صلاحية المجمع الأول الشرعية وأكملوا دستور الإيمان الذي وضعه، قاضين بإقامته على كل أورثوذكسي فهو شعار إيماننا إلى يوم القيامة ومطلعه « أومن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض ... » وحطوا مكدونوس من رتبته الكهنوتية فسكن نيسس مشاييحه .

وأولع نسطوريوس أسقف القسطنطينية بعشق الإمامة نافرأ إليها في شاكلة من « خالف ليُعرف » فكفر بالمسيح وأمه مريم فرمته الكنيسة بإقحاف رأسه في مجعها الثالث المسكوني الذي اجتمع في مدينة أفسس سنة (٤٣١) على عهد القيصر ثيودوسيوس الصغير وحضره نحو مئتي أسقف قرعوا ضلال نسطوريوس بالحق فأسقط من الكهنوت ونفي إلى مصر وباتت بدعته تدمى في الكلدان كالخنفساء إلى اليوم .

وركب أوطينا الراهب رأسه في محاربة ضلال نسطوريوس حتى انتشر عليه رأيه في طبعتي المسيح ففسد إيمانه بهما وأغرق في غوايته حتى أنتصفت منه الكنيسة بحكمها عليه وعلى بدعته بمجمعها المسكوني الرابع الذي اجتمع في خلکیدون سنة (٤٥١) وحضره القيصر مركيانوس وستمائة وثلاثون أسقفاً .
وضرب الدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة فتشردوا قدّاداً رنقت عليها المنية لولا زعيمهم أسقف أرفا يعقوب الزنزلي المشهور بالبرادعي. فإنه لأم صدعهم بتجديده لهم مركز البطيركية في أنطاكية فتسموا « باليعاقبة » إكراماً له وانقسموا إلى سريان وأرمن ومصريين .

وفي سنة (٥٥٣) اجتمع المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية على عهد القيصر يوستينيانوس الكبير وكان أعضاؤه مائة وخمسة وستين أسقفاً حكموا على غوايات أوريجانوس الشهير وما يُعرف في التاريخ الكنسي « بالقضايا الثلاث » وأثبتوا أحكام المجمع المسكونية الأربعة .

وفي سنة (٦٨٠) إلتأم المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية وحضره القيصر قسطنطين اللحياني ومائة وسبعون أسقفاً وفي رواية أخرى مائتان وتسعة وثمانون أباً حكموا على القائلين « بالمشيئة الواحدة » في المسيح، منهم سرجيوس بطريرك القسطنطينية وأونوريوس بابا رومية وأقاموا المجمع المسكونية الخمسة فباتت هذه البدعة تعالج النزاع في شيعة الراهب يوحنا مارون التي عرفت « بالمردة » وانحصرت على قنن لبنان وتسمى الآن « بالمارونية نسبةً إلى الراهب المذكور الذي صار أسقفاً أول عليها حتى استوفت أنفاسها أيام حملات الفرنج الصليبيين على الشام سنة (١١٨٢) فإنهم جذبوا المواردة إلى الخضوع لكنيسة رومية فثبتوا فيه بعد أن طرد المسلمون الصليبيين، إلا أنهم أبدلوا بدعة « المشيئة الواحدة » بما ابتدعته رومية بعد أن قطعتها الكنيسة من شركتها في القرن الحادي عشر .

وفي سنة (٧٢٦) بدأ القيصر لاون الإيصوري محاربة صور الأولياء (الأيقونات وبقاياهم وشايهه أساقفة كثيرون فتأذت الكنيسة من هذه البدعة حتى حكمت عليها في مجمعها السابع المسكوني الذي اجتمع في مدينة نيقية سنة (٧٨٧) على عهد القيصره ايريني الوصية على ابنها قسطنطين السادس وحضره ثلاثمائة وسبعة وستون أباً. إلا أن هذه البدعة تجددت في الشيع البرتستانية في أوائل القرن الخامس عشر ولا تزال ترهقها بأضرار جمة عاملة على تشعث إلفتها وتمزق شملها .

وفي سنة (٨٧٩) إلتأم المجمع المسكوني الثامن في كنيسة أجيّا صوفيا وحضره القيصر باسيلوس المكدوني وعماله ليحافظوا على النظام جرياً على عادة أسلافه العواهل العظام وثلاثمائة وثلاثة وثمانون رئيس كهنة أثبتوا دستور الإيمان الذي وضعه المجمعان الأول والثاني على ما مرّ قاضين بانتباز من يزيد فيه أو ينقص منه. ولا يحصى هذا المجمع رسمياً مع المجمع السبعة

المذكورة، مع أن الكنيسة كلها شرقاً وغرباً اشتركت فيه وقررت أحكامه بالاتفاق التام جرياً على عاداتها فيها. وسبب ذلك أنه لم يلتئم بعده مجمع مسكوني تام الشروط ليثبت صلاحيته الشرعية اتباعاً لنظام المجامع .

ونشرت كنيسة رومية الدين المسيحي في شعوب أوروبا أيام كان الله خاتماً على قلوبهم، فبدلوا لها مقادتهم وخشع ملوكهم أمام أساقفتها فعصفت في رؤوس الباباوات زوايع المجد العالمي واسترسلوا في سعيهم وراء السلطة المطلقة على الممالك والكنائس، فتزل جهل الغرب المطبق على مقترحهم وأسدّر عيونهم نور الشرق - والشرق مبعث النور- فنصح لهم البطريركان المسكونيان أن يتزعوا، فما كان منهم إلا أن غلوا في طغيانهم فنبذتهم الكنيسة بمجمع التأم على عهد القيصر قسطنطين مونوماخس والبطريرك ميخائيل المذكور، فعمدوا بعد بأسهم إلى القوة البدنية توصلاً إلى ما اشأبت إليه أطماعهم فسيروا على الشرق الحملات الصليبية التي سوّدت بإفحاشها فيه مجلدات برمتها حتى محقها المسلمون وطهروه منها وردوا على الكنيسة الأرثوذكسية حقوقها التي منحها إياها الخليفة عمر بن الخطاب وخلفاؤه. فمقت الروم اللاتين حتى آثروا أن يروا عمامة السلطان محمد الثاني (الفتاح) في كنيسة أجبيا صوفيا على أن يروا فيها كمة البابا .

ولما انحجب نور الشرق عن رومية تاهت كنيستها في شعاب الباطل فأجفل منها معظم أمم أوروبا متعوذين بالمذهب البرتستاني، فأنشأت لهم « ديوان التفتيش » المشهور بفظائعه. ثم لما سطع فجر العلم في أوروبا وامتنع عليها إكراه الناس على التدين بما تمليه عليهم عمدت إلى دهاء الرهبانيات كالجزويت والكبوشيين وغيرهم فاستغوت بالمال حزائق من الطوائف الشرقية القديمة، منها حزيقة الروم الكاثوليك الذين استغوتهم من الملة الأرثوذكسية فانتحلوا لأنفسهم وصف « الملكيين » ليوهموا الناس أنهم الأصل ولكنهم لم يوهموا إلا أنفسهم فصدق فيهم قول المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ وصدق ما يعتاده من توهُم

أما الحقيقة التاريخية فهي أن القائلين « بالطبيعة الواحدة » من أقباط مصر

نعتوا الأرثوذكسيين « بالملكيين » لتمسكهم بإيمان ملوك القسطنطينية .
فمن هذه الحقائق التاريخية التي أيدتها شواهد العقل والنقل المثبتة في
المطولات يعلم المطالع :

١ أن الحقيقة الإنجيلية حُفِظت في الكنيسة الأرثوذكسية مصونةً عن
كل شائبة بدعة وضلال وستحفظ إلى منتهى الدهر (مت ١٦ : ١٨ و ٢٨ :
٢٠ يو ١٤ : ١٦) .

٢ وأن المملكة البيزنطية التي عاشت زهاء ألف ومئة وخمسين عاماً قد
ناصرت الكنيسة على صيانة هذه الحقيقة مؤثرة أياها على المصلحة المادية .
٣ وأن أمر الكنيسة الأرثوذكسية شورى لأنها تعمد في حل المشكلات إلى
المجامع اقتداء برسول المسيح المخلص فلا يستبد فيها شخص واحد برأيه
(مت ١٨ : ١٥ - ١٧ واع ١٥ : ٦) .

٤ وأن السلطة العليا فيها منحصرة في المجامع المسكونية وحدها فهي
تؤمن بما حدده من عقائد الإيمان المقررة في الكتاب المقدس وتأممر بأوامرها
وتحفظ قوانينها وتنبذ كل بدعة نبذتها وتحكم على من يتجاسرون على نقض
أحكامها والعبث بقراراتها أياً كانوا .

٥ وأن الشرق كان موطن أبحار الدين المحققين ، وجهابذة اليقين
الراسخين، الذين حددوا العقائد المسيحية تحديداً لا يحتمل التأويل والتبديل بما
أقاموا عليها من البينات الواضحة والحجج الدامغة مما اضطر الغرب أن يجعل
قيادته في يده ويتزل على حكمه في جميع الأمور الدينية .

٦ وأن الروم الأرثوذكسيين كانوا أصحاب البلاد وكان معتقدتهم سائداً
في من توطنها من العباد حتى افتتحها المسلمون وأسنوهم على دينهم وأموالهم
فعاشر بوجهاتهم في الممالك الإسلامية حتى اليوم بقية الطوائف النصرانية
التي حكمت عليها الكنيسة قبلاً، وقد قال القرآن الشريف في الروم « غلبت
الزوم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون » (سورة الروم) .

الكتلكة :

الكتلكة أو الدين الكاثوليكي أو الكنيسة الكاثوليكية اسم واحد للمذهب

الديني المعروف الذي يدين به اليوم نيّف وثلاثمائة مليون من البشر كما ورد في أضبّط الإحصاءات الحديثة. يعلن أصحابه ويثبتون قولهم بالبرهان أنه هو الدين الوحيد الذي بشر به السيد المسيح قبل تسعة عشر قرناً وأخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بأمره في كل العالم (متى ٢٨ : ١٨ - ٢٠ مرقس ١٦ : ١٥) تحت رئاسة الأساقفة الحاضرين للحبر الأعظم بابا رومية وخلف القديس بطرس المقام من السيد المسيح كالمقلد الرئاسة العامة المطلقة على كنيسته وكراعي نعاجه وخرافه (متى ١٦ : ١٨ - ١٩ يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٧) وأما اسمها فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة والمنتشرة في كل الأرض لأن الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت في جميع أنحاء المعمور حتى ما وراء حدود المملكة الرومانية .

وأصل الكتلكة تلك الجماعة الأولى التي أنشأها السيد المسيح بذاته ودعاها كنيسة (متى ١٦ : ١٨) أفها من الاثني عشر رسولاً (متى ١٠ : ٢ - ٥) ثم من الاثني والسبعين تلميذاً (لوقا ١٠ : ١) وأنبأهم بتبشير إنجيله في كل العالم (متى ٢٦ : ١٣) وأوصى تلامذته قبل صعوده أن يتلمذوا كل الأمم ويعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس ويعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصاهم به (متى ٢٨ : ١٩ - ٢٠) فما مر عليهم بضعة أيام حتى حل عليهم البارقليط أي الروح القدس الذي وعدهم بإرساله (يوحنا ١٥ : ٢٦) فأنطقهم باللسنة جميع الأمم التي كان حضر بعض أنبأها أورشليم لعيد العنصرة ووقفوا بذلك على الدين الجديد (أعمال ٢ : ١ - ١٢) فاعتمد في ذلك اليوم ثلاثة آلاف من اليهود (أعمال ٢ : ٤١) ثم بلغ عددهم خمسة آلاف بعد أيام (٤ : ٤) ثم شاع اسمهم فعرفوا بالمسيحيين (١١ : ٢٦) ثم صار التخصيص بظهور بعض الشيع فدعوا بالكاثوليك وكنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية قريباً من عهد الرسل كما ورد في كتاب القديس أغناطيوس تلميذهم والفيلسوف يوستينيوس النابلسي المستشهد سنة (١٦٥م) ولم يزل مذ ذاك الوقت اسمهم الخاص دون سواهم .

يؤمن الكاثوليك بكل العقائد التي أوحى الله في الكتب المنزلة وفي التقليد .
وتقسم الكتب المنزلة إلى قسمين أسفار العهد العتيق وأسفار العهد الجديد .

وأسفار « العهد العتيق » منها أولية ومنها ثانوية. فالأولية هي التي كتبت في الأصل باللغة العبرانية وهي: أسفار موسى الخمسة (التكوين والحروج والأخبار والعدد وثنية الاشرع) ثم الأسفار التاريخية (يشوع والقضاة وراعوت والملوك الأربعة وأخبار الأيام الاثنان وعزرا ونحميا وأستير) ثم الأسفار النبوية: أربعة كبار (أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال) واثنا عشر صغار (هوشع ويوثيل وعاموس وعويديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجاي وزكريا وملخيا) ثم الأسفار الحكمية (مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الأناشيد والجامعة) .

أما الأسفار (الثانوية) فهي التي كتبت بالكلدانية أو اليونانية ونقلت في الترجمة المعروفة بالسبعينية وهي: طوبيا ويهوديت وابن سيراخ والمكابيون (اثنان) .

وهذه كتب « العهد الجديد » : الأناجيل الأربعة القانونية للرسولين متى ويوحنا وللتلميذين مرقس ولوقا. ثم سفر أعمال الرسل للقديس لوقا . ثم رسائل القديس بولس الأربع عشرة ثم رسالة القديس يعقوب ورسالتا بطرس وثلاث رسائل يوحنا ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا .

وفي الكنيسة الكاثوليكية معتقدات أخر ليست مدونة في الأسفار المنزلة وإنما أخذتها بالتعليم الحي بسلسلة متواصلة من عهد الرسل إلى يومنا وأعلنت بها في مجامعها أو في براءات أخبارها وفي تعليمها اليومي. وخلاصة هذه المعتقدات المدونة في أسفار العهد العتيق ولا سيما في أسفار العهد الجديد مرجعها إلى ما يلي :

أولاً عقيدة التوحيد: أي اعتقاد وجود إله واحد روح بسيط أزلي لا أول له ولا آخر لا يحصر جوهره المكان، قائم بذاته ذو صفات وكمالات لا حد لها من قداسة وحكمة وقدرة ورحمة وعدل. وهو خالق كل الكائنات الروحية والهيولية من عدم بجوده واختياره .

ثانياً عقيدة التثليث: هذا الإله الصمد ذو الجواهر الفرد والطبيعة الإلهية الواحدة له ثلاثة أقانيم هي صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال وكل

قدرة لا يفرقها شيء سوى نسبة بعضها إلى بعض. فندعو الأَقنوم الأول «أباً» وهو أصل اللاهوت غير مولود وغير منبتق. والثاني «ابناً» مولوداً من الآب منذ الأزل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية بمعرفة الآب لذاته ولكمالاته يصدر بهذه المعرفة ابنه الشبيه به وضيء مجده وصورة جوهره (عبرانيون ١ : ٣ كولوسسي ١ : ١٥) فهو إله من إله نور من نور إله حق من إله حق من جوهر الآب (دستور نيقية). والثالث (روحاً قدساً) منبتقاً من الآب والابن ليس بطريق الولادة العقلية، بل بتبادل حب الآب لابنه وحب الابن لأبيه المولود منه. وهذا الحب ليس عرضياً بل جوهرياً ندعوه الروح القدس. وهذه عقيدة تثليث الأقانيم في الله أوصى بها الله بنوع خفي في العهد العتيق كما يؤخذ من بعض آياته، ثم صرح به السيد المسيح في نصوص عديدة في الإنجيل وقرره تلاميذه في رسائلهم بما لا يبقى في الأمر أدنى ريب وإن كان سراً يفوق الإدراك البشري .

ثالثاً عقيدة التجسد: هو سر الأَقنوم الثاني من الثالث الأقدس الذي تأنس واتخذ في أحشاء مريم العذراء دون زرع بشري طبيعتنا البشرية بكل خواصها ما عدا الخطيئة ليفدي بني آدم من تبعة الخطيئة الأصلية التي ارتكبتها الأبووان الأولان بمخالفتهما لأوامرته تعالى في جنة عدن وخلقاها لسائر نسلهما وبها حصل هلاك الجنس البشري ففقد البرارة الأصلية التي منحتها قبل خطيئته فلم يعد أهلاً للتمتع بالنعيم الأبدي ومشاهدة الله في السماء. وإذا كان الإنسان غير قادر على الوفاء عن خطيئته لجلال الله فإنه تعالى رحمه ووعدته بمخلص يُعيد له بفدائه ما فقدته من تلك النعم (تكوين ٣ : ١٥) وليس هذا المخلص إلا السيد المسيح منتظر الآباء والأنبياء وجميع الشعوب وهو الإله المتجسد ذو الأَقنوم الإلهي الواحد وذو الطبيعتين الإلهية والإنسانية (يوحنا ١ : ١٤ و ٣ : ١٦ لوقا ١ : ٢٦ - ٣٦) فهذا الإله المتأنس قضى على الأرض ثلاثاً وثلاثين سنة يعمل ويعلم وأنشأ كنيسة وأسلم نفسه اختياراً للعذابات وللموت ثم قام بقوة لاهوته من قبره في اليوم الثالث وتراءى مراراً لتلاميذه ثم صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً. وبكل ذلك أتم جميع ما تنبأ عنه الأنبياء دون أن يخل من نبواتهم حرفاً .

ولما كانت أعماله سواء صدرت من طبيعته الإلهية كالمعجزات التي صنعها أو من طبيعته الإنسانية كمولده وموته ذات قيمة غير متناهية لصدورها عن شخصه الوحيد الإلهي شخص ابن الله فقدّمها لأبيه ولا سيما موته على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر الذين يستطيعون بعد ذلك أن ينالوا نعمة البرارة والخلص الأبدي بواسطة المعمودية والأعمال الصالحة والتوبة عن الزلات .

رابعاً عقيدة القيامة: يؤمن الكاثوليك بخلود النفس فعند انفصالها عن الجسد بالموت تدخل السماء إن كانت طاهرة من كل خطيئة ثقيلة أو خفيفة وتعاقب بعقوبات جهنم إن كانت في حال الخطأ الميت دون توبة عند الموت . أما إن كانت مدنسة ببعض الخطايا الخفيفة أو لم تكفر تماماً عن خطاياها السابقة المغفورة فيحكم عليها بعذابات مؤقتة وذلك ما يدعونه المطهر ريثما تفي لعدل الله الوفاء التام. وفي آخر الأزمنة سيبعث الله الموتى من قبورهم فيعودون إلى أجسادهم ليحضروا الدينونة الأخيرة التي يتولاها السيد المسيح فيحكم نهائياً على البشر فيجازي الأبرار بالنعيم الأبدي ويعاقب الأشرار بالعذاب الدائم (يوحنا ٥ : ٢٦ - ٢٩) .

خامساً المعتقدات التقليدية: ما عدا المعتقدات السابقة التي وردت في الأسفار المقدسة يؤمن أيضاً الكاثوليك ببعض الحقائق التي لم تصرح بها الكتب المنزلة وإن أمكن إثباتها من بعض آياتها كعقيدة عصمة الخبير الأعظم عن الغلط في أمور الإيمان والآداب إذا علّم كنائب المسيح وكخليفة هامة الرسل وكعقيدة جبل العذراء مريم بلا دنس وكعقيدة وجود المطهر وهلمّ جراً : فهذه العقائد يمكن ترقيتها بسلسلة متواصلة إلى زمن الرسل تشهد عليها نصوص الآباء والمجامع جيلاً بعد جيل ويعلن بها أرباب الكنيسة في تعليمهم اليومي بالإجماع. لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلن بكونها هي كنيسة المسيح ويعارضها في ذلك غيرها من الكنائس المنفصلة عنها كان لا بدّ أن تمتاز الكنيسة الحقيقية عن سواها ببعض العلامات الخاصة. وهذه العلامات قد سبق الرسل ودونوها في دستور الإيمان المنسوب إليهم وتكرر ذكرها في كل دساتير الإيمان المتقررة بعدهم وهي أربعة: أن تكون الكنيسة واحدة

مقدسة جامعة رسولية. وهذه العلامات لا تستطيع أن تثبتها لنفسها أي كنيسة كانت إلا الكنيسة الكاثوليكية .

فهي « واحدة » باتفاق جميع أعضائها في خضوعهم لرأس واحد منظور هو نائب المسيح وخليفة بطرس هامة الرسل ثم في اعتقادهم كل ما تعلمه الكنيسة دون خلاف وأخيراً في اشتراكهم بالأسرار عينها .

وهي « مقدسة » لأن منشأها السيد المسيح هو القداسة بالذات ثم لأن كل تعاليمها وآدابها صالحة مقدسة ولأنها أيضاً تقدم لذويها وسائط جمّة لتقديس نفوسهم لا سيما بالأسرار السبعة التي رسمها المخلص أعني المعمودية والميرون والتوبة والقربان الأقدس ومشحة المرضى والكهنوت والزواج بقرينة واحدة دون طلاق. ولذلك قد أولدت عدداً لا يحصى من القديسين في كل أنحاء العالم تشهد على قداستهم أعمالهم العجيبة وفضائلهم السامية التي لا تزال آثارها ظاهرة لكل ذي عينين. وكفى دليلاً عليه وجود الرهبانيات الساعية وراء الكمال بنورها والمتفانية في عمل كل خير دون غاية زمنية .

وهي « جامعة » لأنها وحدها قد نشرت تعاليمها في جميع أقطار العالم المعروف فقام دعائها بأمر الرب الموصي بنشر إنجيله بين كل الأمم ومن ثم لا يكاد يخلو قطر من بعض تبعاتها. وهي أعظم عدداً من أي مذهب كان إذا قيس بها منفرداً منقسماً كالروم والشيع البرتستانية والبوذية والبرهمانية وهلم جراً. وفي اسمها دليل على هذه السمة فإن الكاثوليكية معناها الجامعة . وقد ظهرت هذه العلامة منذ عهد الرسل إذ يقول القديس بولس في رسالته إلى أهل رومية (١ : ٨) « إن إيمانكم يبشر به في العالم كله » .

وهي « رسولية » لأن سلسلة أجيالها الأعظمين تتصل دون انقطاع برأس الكنيسة الأول القديس بطرس هامة الرسل. وبيوس الحادي عشر الجالس اليوم سعيداً على كرسي رومية إنما هو خلفه المائتان والسادس والستون . هذه علامات الكنيسة الكاثوليكية الأصلية. أما ما يرى في بعض بلاد الشرق من الاختلافات في الطقوس واللغات والعادات الدينية فكل ذلك ثانوي ؛ عرضي يمكن تغييره مع الزمان دون أن يمس جوهر الكنيسة الكاثوليكية لا بل يزينها ويزيدها جمالاً .

ومعلوم أن الكنيسة الكاثوليكية انتشرت بكل سرعة في العالم كله منذ عهد الرسل الحواريين حتى تجاوزت حدود المملكة الرومانية. ولوقوع بلاد الشام في جوار فلسطين لا يستغرب انتشار النصرانية فيها قبل سواها. وذلك ما تثبته أقدم الشواهد التاريخية وأولها سفر أعمال الرسل الذي منه يلوح إنشلاء الدين المسيحي في أنطاكية (١١ : ٢٦) وفي سائر سواحل الشام ذُكر منها صور وعكة وقيصرية (٢١ : ٣ - ٨) .

ويمكننا أن نتبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في الشام جيلاً بعد جيل على الرغم مما حلّ بها من اضطهادات الوثنيين وعلى الرغم مما شاع من البدع كالأريوسية واليعقوبية والنسطورية والمنوئية فلم يكن بين الطوائف الشرقية ما يفصلها عن الكنيسة الرومانية في إيمانها وخضوعها لرأس الكنيسة الرومانية وآدابها غير الأعراض السابق ذكرها. والدليل على ذلك لإكرام كنائس الشرق لقسيس الغرب وإكرام الغربيين للقسيسين الشرقيين. وفي طقوس الشرقيين القديمة ما يشهد إلى اليوم بتلك الوحدة والاتفاق. وكذلك سير القديسين الشرقيين تثبت ذلك الأمر. وكثيرون منهم أزهروا في الشام كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس أفرام السرياني والقديس مارون الناسك .

غير أن تملك العرب على الشام واستفحال الشيع المضادة لتعاليم الكنيسة وصعوبة طرق المواصلات بين الشرق والغرب أضعفت الدين الكاثوليكي كثيراً في الشام، إلى أن عاد فتعزز بقدوم الصليبيين إلى الشرق ثم بدخول المرسلين منذ القرن الثالث عشر في هذا القطر، فظهرت آثاره الطيبة أولاً بين الموارنة ثم بعد ذلك بزمن بين الروم والأرمن، ثم بين الكلدان والسريان حتى قامت لكل هذه الطوائف كنائس منظمة لها بطاركتها وأساقفتها ورعاياها، ولكل طائفة تاريخها الخاص يترجم عن أعمال بنيتها ومشاهير ملتها وارتباطها مع الكرسي الروماني .

واليوم يبلغ إحصاء الكاثوليك في الشام نيفاً وستمئة ألف معظمهم الموارنة (٣٠٠,٠٠٠). ثم الروم الكاثوليك (١٢٠,٠٠٠). ثم الأرمن (٨٠,٠٠٠) . ثم السريان (٢٠,٠٠٠). ثم اللاتين (١٠,٠٠٠). ثم الكلدان (٢,٠٠٠) هذا ما عدا المهاجرين منهم إلى أميركا وغيرها.

وقد تعززت الكتلحة في الشام بدخول الرهبان وأقدمهم الفرنسيون في القرن الثالث عشر. ثم في القرن السابع عشر الكرمليون والكبوشيون واليسوعيون. ثم في أواخر القرن الثامن عشر للعازريون، وفي القرن التاسع عشر أخوة المدارس المسيحية والأخوة المريميون مع راهبات من رهبانيات مختلفة كراهبات الزيارة وراهبات المحبة واليوسفيات وراهبات القلبين الأقدسين وراهبات السجود وراهبات العائلة المقدسة وراهبات العجز الخ. ولكل من هؤلاء الرهبان والراهبات من المشروعات الجليلة ما يكفي وحده لتشريف الكنيسة الكاثوليكية. والله الحمد على كل حال .

المارونية :

الموارنة طائفة من النصارى الكاثوليكين الشرقيين يعرف من تواريخهم أنهم يتسبون إلى الناسك البار القديس مارون القورسي النشأة على ما يرجح . اعترل هذا الفاضل الدنيا في أواخر القرن الرابع ولجأ إلى صومعة في قمة جبل غير بعيد عن أنطاكية فما لبث عرف فضائله أن فاح في تلك الأنحاء فاجذب إليه جماعات قصدوه ليلتمسوا منه بركته وصلواته ويسترشدوا بتعاليمه ويقتدوا بسيرته. وقد زهد قوم منهم بالدنيا واختاروا العزلة والتفرغ لخدمة الله في المغاور وأعالي الجبال ليقيموا بعيدين عن ضوضاء العالم، على أن أريج حياتهم الطاهرة لم يمكن إخفاؤه فتقاطر المجاورون حول تلك المناسك وتألقت منهم طائفة عُرُفت فيما بعد باسم الطائفة المارونية، وكان أهم المراكز التي التفتوا حولها دير القديس مارون المبني على ضفاف النهر العاصي في نواحي أفامية .

ولما توافر عددهم مستت الحاجة إلى تنظيم أحوالهم الروحية فأقيم لهم بطريرك هو البار يوحنا مارون وبه تبتدى سلسلة بطاركة الموارنة، وعاش هذا البطريرك الأول في أواخر القرن السابع في حين كان للموارنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية، ثم أخذ الموارنة يهجرون إلى الأقطار المجاورة، فقتل قوم منهم في جبال عكار وعمروا فيها القرى، وسارت فئة نحو الجنوب إلى لبنان الشمالي فما عتموا أن قويت شوكتهم فيه فبلغ في القرن العاشر عدد

رجالهم الصالحين للقتال أربعين ألفاً على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية .
وقصد فريق منهم سورية الداخلية فاستوطن جوار دمشق واستغل الأرض
فيها وبني الدساكر والمرابط . وفريق أمّ القدس وآخر نزع إلى قبرس في
أيام الصليبيين وبعض الأسر سكنت حلب في أواسط القرن الخامس عشر
وهبط بعضهم مصر ورودس ومالطة . على أن الأغلب فضلوا الإقامة في
جبال لبنان فاعتصموا بها ونموا وكثروا رغم ما أصابهم من النكبات في
أوقات مختلفة . ولما ضاق بهم جبلهم رحل قسم منهم إلى بلاد المهجر كأميركة
وإفريقية وأوقيانية حيث ألفوا جاليات لها مقامها المعتر في عالم التجارة والصناعة
والأدب كسائر إخوانهم اللبنانيين والسوريين ، وبلغ عدد الموارنة ويدخل فيه
المهاجرون خمسمائة ألف نسمة .

أما في الدينيات فيتفق الموارنة مع الكاثوليكين بمعتقدهم وشرائعهم
الدينية والأدبية وهم مثلهم خاضعون لسلطة بابا رومية ، إنما لهم وللسريان لغة
طقسية واحدة هي السريانية لكنهم يختلفون عن سائر الطوائف بترتيباتهم
ونظام إدارتهم الروحي الميينة كلها في دستورهم المجمع اللبناني الذي عقد
سنة (١٧٣٦) وفي عاداتهم المشروعة ، ويرأس الطائفة بطريرك يعرف ببطريرك
أنطاكية مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين مركزه الشتوي دير سيدة بكركي
فوق جونبة ومقره الصيفي جديدة قنوبين في لبنان الشمالي فوق طرابلس .
ويخضع لإدارته مطارنة يقيم بعضهم نواباً له وبعضاً على أبرشيات معينة
مستقل بعضها عن بعض ، ويعهد إليهم في تدبير هذه الأبرشيات الروحي
والزمني وإدارة أوقافها مباشرة أو بواسطة وكلاء يسمونهم لذلك ويراقبون
أعمالهم ، وفي الأبرشيات كهنة يعنون بخدمة الرعايا . وفي الطائفة جمعيات
رهبانية يقيم أعضاؤها في أديارهم ومدارسهم ويتفرغون لخدمة الله والنفس .
وكان للموارنة شرع خاص يتماضون بموجبه أقره لهم جميع الذين حكموا
القطر من نصارى وغيرهم ، ولا تزال أغلب قوانينه مرعية الإجراء عندهم
حتى اليوم .

وينبغ منهم في رجال الدين كثيرون نذكر منهم البطاركة جرجس عميرة
الذي ألف أول غراماطيق سرياني ووضع قواعده باللغة اللاتينية ليسهل على

المستشرقين درس هذه اللغة، ثم العلامة أسطفانوس الدويبي المؤرخ المشهور، ويوسف حبيش وبولس مسعد ويوحنا الحاج، والبطيريك الحالي الياس الحويك صاحب المواقف المشهورة في القضايا الوطنية .

ثم الأساقفة كالمطران جرمانوس فرحات والسيد يوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس وغيرهم كثيرون من رجال الدين ممن خدموا اللغة العربية والقانون والتاريخ .

وبين العلمانيين أمراء شهاب وبيت أبي اللع وأناس امتازوا بخدمة وطنهم وأعمالهم المبرورة كآل خازن ودحداح وحبيش والسعد وكرم والظاهر ونبع غيرهم في خدمة العلم كآل البستاني والشدياق والنقاش والباز . ولا يمكن في عجلة سرد أسماء جميعهم .

البرتستانتية :

التأم في أوائل سنة (١٥٢٩) في إحدى مدن جرمانيا مؤتمر بأمر الأمبراطور كارلس الخامس قرر عدم السماح بإحداث تغيير في الرسوم الدينية وكان هذا القرار موجهاً ضد الإصلاح والمصلحين . وفي ١٩ نيسان من نفس السنة أرسل كثيرون من الأمراء والأشراف وأربع عشرة مدينة امبراطورية احتجاجاً قالوا فيه: إنهم مستعدون أن يطيعوا الامبراطور والمؤتمر في كل القضايا الواجبة والممكنة ولكنهم لا يخضعون لأحد في ما يعتقدونه مخالفاً لكلمة اللومضيرهم . فسموا من ذلك برتستانت أو محتجين، ومن هذا الوقت أطلق هذا الاسم على كل المسيحيين من غير اللاتين والكنائس الشرقية بفروعها. وهم يدعون أنفسهم غالباً إنجيليين ويدعون غيرهم تقليديين نسبةً إلى التقليد كما سترى . والبرتستانتية بمعناها اللغوي لا يخلو منها دين أو مذهب، ففي كل زمان ومكان أفراد وجماعات يحتجون على رسوم في الدين أو المذهب الذي ولدوا فيه قد ينجحون أو لا ينجحون، أما البرتستانت فقد نجحوا نجاحاً لم يقدره أحد لهم فعددهم الآن يتجاوز مئتي مليون في الدرجة الأولى عدداً بعد اللاتين وكل من انضم إليهم من الكنائس الشرقية، وفي الدرجة الأولى في الرقي وسعة الملك . ثم إن البرتستانت وإن افرقت أكثر فرقتهم في أمور أكثرها عرضية

فهم مجتمعون على أمور كثيرة، وإليك التفصيل في ما هم مجتمعون عليه وما هم مختلفون فيه : أهم ما تجمع عليه أكثر فرق البرتستانت (عدا ما هم مجتمعون عليه مع غيرهم مما يأتي بيانه) :

- (أ) : أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد في كل ما يلزم للخلاص .
- (ب) : أن المسيح هو المخلص الوحيد وليس بأحد غيره خلاص .
- (ج) : أن الخلاص كله نعمة مجانية من الله .
- (د) : أن الإيمان هو السبيل الوحيدة لنيل الخلاص .
- (هـ) : أن الأعمال الصالحة هي ثمر الإيمان الحي فنعمل لأننا مخلصون لا لكي نخلص .

والبرتستانت إجمالاً قسمان كبيران - الأول الايسكوبيليان أي الأسقفيون وهم الذين يقولون : إن درجات الأكليروس ثلاث : الأسقف والقسيس والشماس - الثاني البرستيريان أي القسوسيون وهم الذين ليس عندهم رتبة أساقفة . وأكثر فرق البرتستانت هذا القسم . فالأسقفيون مثلاً يجرون العبادة غالباً بموجب كتاب صلاة أي صورة معينة تتلى وقت عبادة الجماعة . وأما العبادة العائلية والاجتماعات الأخرى الروحية فيتركونها لحرية القسيس أو من ينوب عنه . أما القسوسيون فالحرية مفوضة للخادم في كل الأوقات . وعندهم بعض صلوات وإرشادات مكتتبة لمساعدة القسيس في أحوال خصوصية .

على أن هذا النظام لا يعد جوهرياً فهذه الكنيسة الانكليكانية وهي تجري عبادتها بموجب كتاب صلاة تقول في العقيدة ٣٤ « لا يلزم أن تكون التقاليد والطقوس في جميع الأماكن واحدة متساوية إذ قد اختلفت في كل الأزمان ويصح تغييرها على مقتضى اختلاف المكان والزمان وعادات الناس بحيث لا يرتب منها شيء مضاد لكلام الله ... وكل كنيسة تختص بأمة فلها سلطان أن تثبت وتغير وتبطل طقوسها ورسومها التي رتب بسلطان الناس فقط » . وكل الأسقفيين والأكثرية العظمى من غيرهم يجرون السرين المعمودية والشركة ويعمدون الأطفال والبالغين الذين لم يعمدوا أطفالاً ، أما بعض القسوسيين فلا يعمدون إلا البالغين ويسمون بالمعمدانيين ، وبعضهم لا يجري السرين مطلقاً وهم المعروفون بالفرنندس أو الكويكرس .

يتفق البرتستانات مع غيرهم في أمور كثيرة جوهرية ويخالفونهم في أمور أخرى وإليك التفصيل: أهم الأمور الجوهرية التي يتفق فيها البرتستانات مع غيرهم. يتفقون في قانوني الإيمان - أولاً القانون المعروف بقانون إيمان الرسل وهو يرجع إلى أواخر القرن الأول المسيحي بل قيل: إن الرسل أنفسهم وضعوه - ثانياً قانون الإيمان النيقاوي وضعه المجمع المسكوني الأول الذي التأم سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية مع ما أضيف إليه في ما بعد سوى عبارة واحدة بخصوص انبثاق الروح من الابن أضيفت فيما بعد لا يقبلها الروم الأرثوذكس. ويوجد قانون إيمان ثالث مجمع عليه يسمى قانون مار أناسيوس ولكنه أقل شهرة وأقل استعمالاً من الأولين. ويمكن تلخيص الأمور الجوهرية التي يتفقون فيها في ما يأتي: (١) التوحيد والتثليث (٢) الخلق والسقوط والفداء (٣) تجسد الكلمة الأزلية المسيح ابن الله من مريم العذراء بالروح القدس وكل ما يتعلق بتاريخ فداء المسيح من ميلاده إلى مجيئه الثاني للدينونة (٤) القيامة والدينونة (٥) وجوب التبشير بالمسيح ودعوة الغير إلى الإيمان به (٦) عدم تحريف الأسفار التي يتفقون على قانونيتها من الكتاب المقدس .

وأهم الأمور المختلف فيها سلطان الكتاب المقدس. ويعتقد البرتستانات أنه المرجع الوحيد المعصوم الذي يجب الرجوع إليه في عقائد الإيمان. ويعتقد غيرهم أن للكتاب والتقليد سلطاناً متساوياً ومن هذا يدعوهم البرتستانات تقليديين. والتقليد عند المسيحيين كالتلمود عند اليهود والحديث عند المسلمين . وبعد فلا خلاف بين البرتستانات وغيرهم في عدد أسفار العهد الجديد إنما الخلاف في عدد أسفار العهد القديم. فالبرتستانات لا يقبلون إلا الأسفار التي يقبلها اليهود وذكر عددها يوسفوس. وغيرهم يضيف إليها أسفاراً تسمى أبوكريفا وجدت في الترجمة السبعينية مضمومة إلى باقي الأسفار. ومع تسليم البرتستانات بلزوم المجامع وفائدتها فهم لا يحسبون لما تقرره قوة ولا سلطاناً إلا إذا أثبت من الكتاب المقدس. أما المجامع عند الروم الأرثوذكس والمجامع والبابا عند البابويين فهم معصومون من الخطأ في ما يقررونه من عقائد الإيمان . ويعتقد البرتستانات أن فرصة الخلاص تنتهي بالموت وبه يتقرر حال كل

نفس إما في النعيم أو في الجحيم. ويتفق معهم غيرهم في حال أهل الجحيم ويخالفون في حال أهل النعيم فعندهم مكان عذاب وقي غير الجحيم يسمى عند الباباويين المطهر وعند الروم الأرثوذكس عقالات الجحيم تذهب إليه الأنفس لتكفر عن ذنوب صغيرة، وتصرف فيه مدة تطول وتقصر بحسب عدد تلك الذنوب وصفتها، ويمكن تقصير هذه المدة بالصلوات والصدقات . يحصر البرتستانت الشفاعة وطلب الخلاص بالمسيح، وغيرهم يطلبها منه ومن الملائكة والقديسين .

عند البرتستانت سران فقط هما المعمودية والشركة وغيرهم يضيف إليهما خمسة فيصير العدد سبعة والمضافة هي: (١) التثبيت عند اللاتين والموارنة. والميرون عند غيرهم. (٢) الكهنوت. (٣) الاعتراف للكاهن . (٤) الزواج. (٥) المسحة الأخيرة قبل الموت. أما الإفاضة في تعريف السر وفاعليته وما يحدث فيه وما يحدثه هو من التغيير وفي سبب هذا الخلاف فإنها تخرجنا كثيراً عن المقصد .

والبرتستانت يعترفون لله وحده وللشخص الذي أخطأوا إليه، والله وحده عندهم السلطان على مغفرة الخطايا. وغيرهم يوجب الاعتراف للكاهن . وللكاهن سلطان مطلق على غفران الخطايا .

ولما كان البرتستانت في هذه الديار ثمرة الإرساليات نرى من الواجب أن نشير إلى الداعي إلى الإرساليات، فالداعي إليها أوامر الكتاب المقدس الكثيرة، وأهمها أمر المسيح الأخير الصريح « اذهبوا وتلمنوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس ». وقد أطاع رسله أمره وتفرقوا في أنحاء العالم المعروف حينئذ وليس لهم ما يستندون عليه أمام قوات هذا العالم سوى إيمانهم وثقتهم بوعده. وعدوا مخالفة أمره هذا جرماً عظيماً فقال الرسول بولس: « إذ الضرورة موضوعة عليّ فويل لي إن كنت لا أبشر ». ولا يزال هذا التبشير من مميزات الكنيسة الحقيقية ففي العقيدة ١٩ الانكليكانية « كنيسة المسيح المنظورة هي جماعة المؤمنين التي فيها يبشر بكلمة الله النقية » .

وقد وجه البرتستانت قواهم إلى هذا الواجب حالما تمكنوا من تنظيم

شؤونهم، فتألفت الجمعيات هنا وهناك، وربما كان أقدمها جمعية الموراثيين نسبة إلى مورافيا على ضفاف الدانوب، وتعرف بجمعية الأخوة المتحدين، وقد كانوا ولا يزالون في المقدمة بالنسبة إلى عددهم الذي لا يتجاوز ٣,٠٠٠,٠٠٠. وفي أواخر القرن الثامن عشر زاد عدد الإرساليات البرتستانتية وزاد نشاطها. وقد طلبت من أمين سر الجمعية (S. M. L.) المستر هاردمان في القدس بعض إحصاءات لهذه الإرساليات فأسل آخر ما عرفه منها أعربه بالشكر قال: عدد إرساليات البرتستانت في العالم ٣٨٠، عدد المرسلين رجالاً ونساءً ٢٩٠٤٩ والمال الذي صرفته خمسة عشر مليون ليرة إنكليزية. « هذا عدا ما جمع في حقول الإرساليات نفسها وصرف عليها أيضاً ». و عدد الإرساليات في فلسطين ١٧ وعدد المرسلين فيها ١٦٠ .

وعمل بعض هذه الإرساليات عام وبعضها خاص محصور في قارة أو مملكة أو إقليم أو دين أو مذهب أو رتبة من الناس أو الذكور أو الإناث أو الطب العام أو الخاص أو طبع الكتب أو نشرها أو التبشير مجرداً أو فتح المدارس فقط. وهذا الاختصاص في الغرب حتى في الأمور الدينية هو أساس نجاحه .

ومن المبادئ الأساسية لهذه الإرساليات أن تنظم المهتمين جماعات تشرع بإدارة شؤونها بنفسها، وتسير نحو الاستقلال الإداري والمالي. ومنها عدم التدخل في سياسة البلاد التي يرسلون إليها، ووجوب إطاعة أوامر حكوماتها، والمحافظة على قوانينها ونظاماتها في كل ما لا يخالف الضمير بناء على قول المسيح « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على أوامر رسله المتعددة بالصلاة والطاعة للحكام. ومع ذلك فقد أوقعت السياسة الأوربية تهمة المداخلة في السياسة على المرسلين، لأنها استعملت الإرساليات على غير قصد من المرسلين جسراً عبرت عليه إلى مقاصدها الاستعمارية فشوهت سمعة المرسلين .

ولقد كان من الطبيعي أن توجه الإرساليات أفكارها إلى هذه الديار مهبط الوحي ومهد المسيحية لإنعاش المسيحية وتبشير غير المسيحيين بها . وفي إحصاء بتاريخ سنة (١٩١٣) أن عدد الإرساليات في هذا القطر أكثر من

٣٠ أميركية وإنكليزية واسكوتلاندية وإيرلندية وألمانية ودانماركية ومورافية وأسوجية. ويقوم بأكثرها أفراد أو مدينة أو جماعة صغيرة، وأعمالها غالباً محصورة في العواصم كالقدس وبيروت ودمشق أو بعض المدن والقرى كيافا وحيفا والناصره وبيت لحم والخليل ورام الله وصفد والشويفات وبرمانا وبيت مري والشوير وشمعان وبعلبك والنبك ودير عطية وغيرها. وليس بين كل هذه الإرساليات سوى إرساليتين عموميتين كبيرتين هما طائفة منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مالية مستقلة عن ميزانية الإرسالية، الأولى أميركية قسوسية في الشمال، والثانية إنكليزية أسقفية في الجنوب.

إرسالية الشمال أميركية قسوسية أسست سنة (١٨١٠). وفي سنة (١٨٢١) نزل أول مرسلها من ميناء يافا وشرعت بعملها في القدس وجوارها، ولكن قضت الأحوال أن ينحصر عملها في الجزء الواقع شمالي رأس الناقورة، وقام مرسلوها بمبادئ الإرساليات البرتستانتية بكل أمانة ونشاط وكان لهم اليد الطولى وفضل السبق في نشر العلم والمدنية لا بما عملوه فقط بل بتحريض غيرهم أيضاً.

ودائرة عمل إرسالية الجنوب من رأس الناقورة شمالاً إلى حدود مصر جنوباً، وهي إنكليزية أسقفية أعضاؤها من كنيسة إنكلترا المثبته. أسست في لندن في ١٢ نيسان سنة (١٨٩٩) واسمها جمعية المرسلين الكنسية ويعبر عنها بالأحرف (C. M. L.) وللإحاطة بعمل إرسالية فلسطين لا بد من ذكر لمحة من تاريخ الأسقفية الإنكليزية فيها. في سنة (١٨٤١) أسست أسقفية انكليكانية في القدس بالاشتراك مع بروسيا. وكان من مبادئ المرسلين الأولية أن لا يشقوا من الطوائف الأخرى المسيحية طائفة برتستانتية وخصوصاً من طائفة الروم الأرثوذكس التي يعتبرونها أم الكنائس. بل قصدوا أن يعملوا بالاتفاق مع رؤسائها لإنعاش المسيحية من الغفلة التي استولت على معظم مسيحي الشرق. ولكن مقاومة هؤلاء الرؤساء وهيجهم طوائفهم على المرسلين وعلى كل من يقرب منهم، اضطرتهم بعد تردد طويل إلى تأليف طوائف. وقد دان بالمذهب البرتستاني من كل الطبقات، وارتقى كثيرون من أولاد الفقراء والفلاحين إلى أسمى ما يمكن الوصول إليه من المراتب. على أن تأثير المرسلين

لم يقتصر على العدد القليل من البرتستانات العرب، بل عم القطر بل هم كانوا من أول عوامل الرقي .

إن لكل من الإرساليات المذكورة عمالاً وأفراداً متعلقين بها وعددهم بحسب سعة عملها. ولكن للإرساليتين السابقتين فقط طوائف برتستانية منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مستقلة عن ميزانية الإرسالية كما مر .

ليس لطائفة البرتستانات العرب كما مر قسوسية مشيخية، وليس لها كتاب صلاة تجري بموجبه عبادة الجماعة سوى بعض إرشادات مطبوعة ضرورية لإرشاد القسيس في بعض الواجبات وهو مع ذلك غير مقيد بها. وتستعمل كتاب ترتيل فيه الآن (٤٣٢) ترتيلة بأنغام مختلفة غربية وبعض أنغام شرقية، وإنما العلامات الموسيقية كلها غربية. وهذا الكتاب مشترك بين سورية وفلسطين ومستعمل للعبادة في الكنيستين .

وعدد نفوس الإنجيليين في لبنان ١٠ آلاف نفس. بقي الكنائس الأخرى غير المشيخية منها كنيسة الفرندس في برمانا ورأس المن والكنيسة المعمدانية في راشيا الوادي وجوارها والكنيسة الإنجيلية في دمشق للكنيسة المشيخية الاسكوتلاندية والكنائس الإنجيلية في جهات القلمون وهي تابعة للإرسالية الدانمركية ولها عدة مراكز في النبك ودير عطية ويبرود وصدد وغيرها .

أما طائفة البرتستانات العربية في فلسطين فهي أسقفية انكليكانية تجري عبادتها بموجب كتاب الصلاة العامة المترجم عن الإنكليزية مع عقائد الدين التسع والثلاثين وكتاب الترتيل المشترك مع كنيسة سورية. رسم أول قسوسها الوطنيين سنة (١٨٧١) في الناصرة وكانت طائفة الناصرة في مقدمة كنائس فلسطين في إقامة الأوقاف والسعي نحو الاستقلال وكان أحد أفرادها عودة عزام المستوطن القدس في الربع الثالث من القرن الماضي وقف أملاكه كلها لكنيسة القدس وأصبحت الآن ذات قيمة كبيرة. وتبعه غيره في الوقف على الكنائس. ويبلغ مجموع البرتستانات في فلسطين وشرقي الأردن نحو ثمانية آلاف إنسان .

وبعد فإن في العالم أجمع الآن حركتين متضادتين نعبّر عنهما بالجناب والدفع، فبينما أنت ترى الشعوب تتحرك بدفع بعضها عن بعض فتتألف

كتلاً متفرقة تجدها في نفس الوقت تنجذب وتتقارب وتتفاهم وتسمى لتوحيد هذه الكتل أو ربط بعضها ببعض على الأقل، وعلى الرغم مما نجده من التباعد بحركة الدفع والتمركز نجد الناس يقرب بعضهم من بعض بحركة الجذب، والعامل الأقوى في حركة الجذب سرعة المواصلات وانتشار العلم، فسرعة المواصلات قربت الناس بعضهم من بعض فأخذوا يتفاهمون، والعلم جعلهم يحكمون العقل أكثر من العواطف فرأوا أن كثيراً من الفوارق إما وهمية أو عرضية أو مبالغ فيها. وما يجري في الدائرة البشرية الاجتماعية يجري في الدائرة الدينية. فعلى الرغم من بعد مسافة الفوارق الدينية والمذهبية نجد أهل هذه الأديان والمذاهب أكثر تسامحاً وأسرع سعياً نحو الاتفاق، حتى في الأديان التي نراها على أعظم مسافة من البعد، فلا تكاد تمر سنة حتى يعقد مؤتمر الأديان يجتمع فيه نواب معظم الأديان الإلهية كالمسيحية والإسلام واليهودية وغير الإلهية كالبودية وغيرها. وقد عقد أول مؤتمر رسمي في ١٦ أيلول سنة (١٩٢٤) في سوق الغرب اجتمع فيه نواب الجهتين للسعي في زيادة الاتحاد وتوحيد النظام .

أصل السنة :

لا يخفى أن الأحكام الشرعية التي علمت من الكتاب والسنة ثلاثة أقسام: الأول الأحكام الاعتقادية وأصولها المجلدة ستة الإيمان بالله وباللائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر وبالقدر. ويقال لجميع هذه الأحكام دين الإسلام وهي ما جاء به جميع الأنبياء. وهذه وإن كانت في تعيينها مذاهب عديدة إلا أن ما عدا مذهب السنة باطل .

القسم الثاني الأحكام العملية وهي عشرة: الفرض، الواجب، السنة، الاستحباب، الإباحة، الحرمة، الكراهة التحريمية، الكراهة التنزيهية، الصحة، الفساد. ولا يخلو فعل العاقل البالغ عن حكم منها، فالشرائع المتعلقة بأفعال المكلفين ثلاثة أنواع إجمالية: الأول العبادات وهي عبارة عن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر الفرائض والواجبات. الثاني المعاملات كالنكاح والطلاق والهبة والوصية والبيع والشراء والكفالة والوكالة. الثالث العقوبات كالدية

والكفارة والغدية والقصاص، وفي تعيينها مذاهب كثيرة إلا أنه تقرر فيها المذاهب الأربعة، وأصحابها أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، فما اتفق عليه هؤلاء الأئمة الأربعة هو حق وصواب، وما اختلفوا فيه يحتمل الخطأ والصواب، لأن كل مجتهد يخطئ ويصيب، والحق واحد لا يتعدد، وكل مؤمن مأمور باتباع مذهب منها إذا لم يكن بلغ مرتبة الاجتهاد، ويلزمه الاعتقاد بصواب متبوعه، إذ لا يجوز له تقليده إن اعتقد خطأه .

القسم الثالث الأحكام الشرعية المتعلقة بأحوال القلوب، والمتكفل بذلك علم الأخلاق والتصوف. والقصد هنا بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة في القسم الأول. وينبغي أن نبين أولاً من هم أهل السنة والجماعة ثم نذكر عقائدهم إذ ربما يظن بعض الناس أن كل من يطلق عليه اسم المسلم هو من أهل السنة والجماعة، وليس الأمر كذلك، فإن أهل البدع والأهواء مخالفون لأهل السنة والجماعة، والحال أن فيهم من يعد من أهل ملة الإسلام، لذلك رأيت من اللازم أولاً بيان من هم أهل السنة والجماعة، ثم بيان عقائدهم التي اتفقوا عليها، ولم أتعرض للمخالفين لهم ولا لذكر حجج الطرفين، وسرد المسائل التي وقع فيها اختلاف بين الأشعرية والماتريدية لما أن ذلك خارج عن موضوع الخطط وإنما هو من خصائص كتب الكلام، فاقترنت على أهم المسائل الاعتقادية التي يكلف كل مؤمن باعتقادها .

وقد ألّف العلماء كتباً لبيان الفرق الإسلامية ومقالاتها كالشهرستاني وابن حزم وعبد القاهر البغدادي وغيرهم. إذا أطلق أهل السنة والجماعة يراد بهم الأشعرية والماتريدية، أما الأشعرية فهم أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل من ذرية أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي الجليل. أخذ علم الكلام أولاً عن شيخه محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة وتبعه في الاعتزال حتى صار للمعتزلة إماماً، ثم رجع عن مذهبه وصنف كتباً في الرد عليهم، وأجمع على عقيدة الأشعري المالكية والشافعية وبعض الحنفية وفضلاء الحنابلة، ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، وإنما جرى على سنن غيره أو على نصرة مذهب معروف فزاد المذهب

حجة وبيانا، وليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتأليفه في نصرته. ولد سنة ستين ومائتين وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .
وأما الماتريدي ففهم أصحاب الإمام أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي نسبة إلى قرية بسمرقند، الحنفي المتكلم ناصر السنة وقامع البدعة ومحبي الشريعة، كان إماماً جليلاً مناضلاً عن الدين موطداً لعقائد أهل السنة قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم، وله مصنفات منها كتاب التوحيد وكتاب بيان وهم المعتزلة وكتاب تأويلات القرآن وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب .
وليس هو من أتباع الأشعري لكونه أول من أظهر مذهب أهل السنة كما ظن. لأن الماتريدي مفصل للمذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه المظهرين قبل الأشعري مذهب أهل السنة. وكانت وفاته بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .

والحاصل أن كلاماً من هذين الإمامين الجليلين أبي الحسن وأبي منصور لم يبدعان من عندهما رأياً ولم يشتقا مذهباً إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ . أحدهما قام بنصرة مذهب الشافعي وما دل عليه، والثاني قام بنصرة مذهب أبي حنيفة وما دل عليه. وناظر كل منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا.
ومما ينبغي أن يعلم أنه ليس بين هاتين الطائفتين اختلاف في أصول الدين، وإنما اختلفوا في بعض مسائل متفرعة عن الأصول لا تستلزم تضليلاً ولا تفسيقاً .

ثم إن عقائد أهل السنة والجماعة تنحصر في أربعة أركان هي مبنى الإيمان: الإلهيات والصفات والأفعال والسمعيات .

(الركن الأول في ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل) - العالم بجميع أجزائه حادث وجد بعد أن لم يكن، وهو قابل للفناء وله صانع واجب الوجود لذاته ممتنع العدم بالنظر لذاته، واحد لا شريك ولا مثل له في ذاته وصفاته وأفعاله، قديم لا بداية له، أبدي لا نهاية له، متصف بصفات الكمال، منزّه عن سمات النقص، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا تحله الجواهر

ولا الأعراض، ولا يحل في غيره ولا يتحد بغيره، ولا يقوم بذاته حادث، منزّه عن التحول والانتقال، استوى على العرش على الوجه الذي عناه وبالمعنى الذي أراه، استواء يليق بجلال ذاته، وهو فوق سمواته فوق عرشه، مباين لخلقّه لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بقدرته، ومع ذلك فهو قريب من كل موجود بل هو أقرب إلينا من جبل الوريد، وهو تعالى مرئي للمؤمنين بالأبصار في دار القرار، فيرونه لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي والمرئي.

(الركن الثاني في العلم بصفاته تعالى) الله تعالى متصف بالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والحياة، وهي صفات له أزلية ونعوت له أبدية، فهو تعالى قادر على جميع الممكنات، وجميع الحوادث واقعة بقدرته تعالى، وقدرة الله على المقدورات كلها قدرة واحدة، يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب، ومقدوراته تعالى لا تفتي.

وهو سبحانه مريد لأفعاله فلا وجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته، لا يقع شيء في العالم إلا بإرادته ومشيئته، فالخير والشر والطاعة والمعصية واقعة بإرادة الله تعالى وقضائه وقدره ومشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإرادته تعالى قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللاتقة بها على وفق سبق العلم الأزلي، والإرادة غير الأمر لأنه قد يأمر بالشيء ولا يريد، ويريد الشيء ولا يأمر به، ويريد الشيء ويأمر به، ولا يريد الشيء ولا يأمر به. وغير الرضا أيضاً فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى كالكفر الواقع من الكفار فإنه تعالى أراه ولم يرض به ولا يرضى لعباده الكفر، وليست عين العلم لأن العلم يتعلق بالواجب والمستحيل والباطل، والإرادة لا تتعلق إلا بالباطل.

وهو تعالى عالم بجميع الموجودات كلياتها وجزئياتها، ومحيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، وعلمه واحد يعلم به جميع المعلومات على تفصيلها من غير حس ولا بدهاة ولا استدلال عليه، وعلمه قديم لم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته، ومهما حدثت

المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة بالعلم الأزلي . وهو تعالى حي وحياته بلا روح ولا اغتذاء، وجميع الأرواح مخلوقة، والحياة شرط في العلم والقدرة والإرادة والرؤية والسمع، فمن ليس بحي لا يصح أن يكون عالماً قادراً مريداً سامعاً مبصراً .

وهو سبحانه سميع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، لم يزل راثياً لنفسه، وسامعاً لكلام نفسه، وأن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر، وأن كليهما غير الانكشاف بالعلم، بل لكل منها حقيقة يفوض علمها لله تعالى. وهو تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ليس بحرف ولا صوت هو به أمرناه ونخبر وأن القرآن كلام الله غير مخلوق .

(الركن الثالث في الأفعال) الله تعالى لا خالق سواه وكل حادث في العالم حدث بقدرته وخلقه لا يحدث له غيره، وجميع أفعال العباد اختيارية واضطرارية، مخلوقة له تعالى ومتعلقة بقدرته، وإنما الله تعالى خلق في العبد قوة تسمى الإرادة الجزئية وأقدر عبده على صرف هذه القوة إلى ما شاء من جزئيات الأمور والمنهيات باختياره، وهذا الصرف هو الذي يسمى بالكسب تارة وبالميل والجزء الاختياري تارة أخرى. ويسمى أيضاً بقدره العبد. وقد جرت عادة الله تعالى أنه لا يخلق القدرة على المعصية في أعضاء العبد حتى يصرف العبد إرادته الجزئية إليها، فإذا صرفها إليها بأن مال قلبه وعزم عليها فهناك يخلق الله تعالى القدرة في أعضائه على فعلها فيفعلها، فقدره العبد التي هي الميل المذكور مقارنة لإيجاد الله تعالى ليس لها تأثير في إيجاد الفعل بل مجرد مقارنة .

وهو تعالى لا يجب عليه شيء من فعل الأصلح لعباده، ورعاية الحكمة والمصلحة في فعله، فله أن يعذب على الطاعات ويثيب على المعاصي، وأن يبتلي عبده بضروب الآلام من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق، ولا يعد ذلك منه قبيحاً ولا ظلماً لأنه يتصرف في ملكه لا في ملك غيره، يفعل ما يريد، ولا حاكم عليه بل له الحكم، وإنما يثيب على الطاعة بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم، ويعاقب على المعصية عدلاً منه تعالى،

وقد راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلاً منه ورحمة ولا باعث له على الفضل .
بعثة الأنبياء ممكنة عقلاً وواقعة قطعاً، وفي وقوعها حكمة بالغة ورحمة
للعالم شاملة، واحتياج الناس إلى الأنبياء كاحتياجهم إلى الأطباء، النبوة إنما
تحصل بمجرد اصطفاء إلهي لا باستحقاق من المبعوث واجتماع شروط فيه،
بل الله يختص برحمته من يشاء وهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وقد
أرسل الله تعالى رسلاً من البشر إلى البشر مبشرين ومنذرين، لئلا يكون
للناس على الله حجة، وأيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات المقرونة بالتحدي،
وكلهم جاءوا بتوحيد الله تعالى والنهي عن الشرك وإخلاص العبادة له تعالى،
وهم صادقون فيما جاءوا به مصونون عن التحريف والتبديل، معصومون
من كل نقص حسي أو معنوي^(١) مبلغون أمهم جميع ما أمروا بتبليغه،
وأولهم آدم وآخرهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إن الله سبحانه أرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة
بشيراً ونذيراً، وجعله خاتم النبيين فلا نبي بعده وأيده بالمعجزات الباهرة،
والبراهين الظاهرة، وأنزل عليه القرآن الكريم الذي هو له معجزة باقية
إلى يوم الدين، فنسخ بشريته الشرائع التي كانت قبله إلا ما قرر منها، وفضله
على سائر الأنبياء، وجعل الشهادة له بالرسالة شطر الإيمان، وألزم الناس
تصديقه في جميع ما أخبر به عنه، وأمره بتبليغ ما أنزل عليه فقال تعالى :
« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك » فبلغ صلوات الله وسلامه عليه الرسالة
وأدى الأمانة ونصح الأمة حتى أتاه اليقين .

إن لله تعالى ملائكة هم عباد الله المكرمون ورسل الله بينه وبين أنبيائه
وأمنائوه على وحيه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون
بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يعلم حقيقتهم ولا عددهم
إلا خالقهم، وهم أجسام لطيفة نورانية يرونا ولا نراهم بصورهم الأصلية .
(الركن الرابع في السمعيات) إن لهذه الدنيا أجلاً محدوداً فإذا جاء أجلها
يتبدل نظام هذا الكون، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات،

(١) النقص الحسي يكون في الذات كالجذام والبرص والعمى والجنون، والمعنوي يكون
في الصفات كدناءة الحرقة ودناءة النسب وكالمعاصي الكبائر والصفات .

ويعيد الله تعالى الأرواح إلى الأجساد، ثم يجازي الله تعالى كل نفس بما كسبت إما بنعيم أبدي أو عذاب سرمدي، وجميع ما أخبر به الصادق من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين ووزن الأعمال، والمرور على الصراط، والشفاعة لمن أذن له الرحمن، جميع ذلك حق يجب الإيمان به .

الشيعية :

الشيعية لفظ معناه الأتباع والأنصار يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، تقول هو شيعة وهما وهم وهن شيعة وجمعه شيع وأشياع، ثم صار علماً بالغلبة على أتباع علي بن أبي طالب عليه السلام .

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاته علي في عصر رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والالتزام بعلي بن أبي طالب والموالاته له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة. ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب قيل له: وإنها لمفروضة معهن قال: نعم هي مفروضة معهن. ومثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري وخالد بن سعيد بن العاص. وقيس ابن سعد بن عبادة وكثير أمثالهم. ومن أرادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم .

عرف هؤلاء باسم شيعة علي ثم غلب فأطلق فقيل لهم شيعة. ذكر أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة في الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم على ما نقل في كتاب الروضات أن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ (الشيعية) وكان لقب أربعة من الصحابة وهم أبو ذر وسلمان وعمار والمقداد إلى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالي علي عليه السلام. ومهما تكن منزلة هذه الرواية من الثقة فالأمر الذي لا خلاف فيه أنه لما استقل الأمويون بالأمر وناهضوا الهاشميين وأتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على إطلاقه علماً على أتباع آل البيت .

أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة عبد الله ابن سبيل المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبيهم. ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك، علم مبلغ هذا القول من الصواب. لا ريب في أن أول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له. وكان التشيع هناك ضعيف الحول ولكنه مكين في قلوب أهله. ثم استفحل أمره في العراق زمن خلافة علي عليه السلام. أما في الشام فالمعروف بين الشيعة في جبل عامل خلفاً عن سلف أن الذي دلّهم على هذا المذهب أبو ذر الغفاري لما سبّر إلى الشام ولا يزال في قرية الصرند (بين صيدا وصور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجداً معموراً وهو غير مسجد القرية الجامع، وفي قرية ميس الجبل له مقام آخر. وميس هذه قرية في جبل عامل على طريق القادم من دمشق. وروى الحر العاملي في كتابه أمل الآمل أن أبا ذر لما أخرج إلى الشام تشيع فيها جماعة ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم. ثم ذكر رواية عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وقد سئل عن أعمال الشقيف فقال: أرنون وبيوت وريوع وتعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقاً.

وفي كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي رواية مسندة إلى عمار بن ياسر وزيد بن أرقم تدل على أنه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى أسعار أهلها من الشيعة، وأسعار هذه قرية خربة بين مجدل شمس وجباتا الزيت وهناك نهر يعرف بنهر أسعار. المتأولة جمع متوالي مأخوذ من الموالاة وهي الحب، لمواليتهم أهل البيت واتباعهم طريقتهم. والظاهر أن تلقيبهم بهذا اللقب في جبل عامل لم يتقدم عن القرن الثاني عشر للهجرة لأن كل المؤرخين قبل هذا القرن لم يعرفوا لهم هذا اللقب ولم ينبزههم به أحد منهم، وكانوا إذا أرادوا ذلك تجنبوا الشيعة وقالوا: الرافضة كما فعل المحبي في خلاصة الأثر. ولكن من تأخر عن القرن الحادي عشر لم يلزمهم بترك نبزههم به كما فعل المرادي في سلك الدرر فإنه لم يذكرهم في جبل عامل إلا باسم المتأولة وفاقاً للشهرة في عصره.

وقد جاء في إحدى « السالنامات » التركية أن ابتداء ظهور المتأولة سنة (١١٠٠) للهجرة. وعلى الجملة إن هذا اللقب أطلق عليهم لما أظهروا وجودهم السياسي وغلغوا طاعة أمراء لبنان واجتمعوا جملة واحدة في جبل عامل تحت قيادة آل نصار الوائليين، وفي بعلبك تحت لواء بني حرفوش، وفي شمالي لبنان بزعامة المشايخ آل حمادة .

كانوا يومئذ (ينتخون) باسم بني متوال فعرفوا به واشتهر عنهم، ويدلنا على ذلك أن هذا اللقب لم يكن إلا للذين دخلوا في غمار تلك الفتن فعرف به شيعة جبل عامل وبعلبك وشمالي لبنان، ولم يعرف لشيعة حلب وحمص وحماة، ولا لشيعة دمشق إلا الذين تديروا الصالحية وأطراف الميدان وهم من مهاجرة بعلبك وجبل عامل .

الشيعة في الشام هم في جبل عامل، وهو البلد الواقع بين صفد جنوباً، ونهر الأولي شمالاً، وغور الحولة وما حاذاه إلى أرض البقاع شرقاً، والبحر المتوسط غرباً. وفي مدينة بعلبك وأعمالها وزمنهم فيها قديم .

وفي أعمال حمص قرى قليلة لهم وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة، وفي أعمال ادلب قرى الفوعة ونبل وغيرهما وكلها شيعة، وفيهما إلى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف في مدينة حلب في الزمن السالف. وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم .

وفي دمشق ويرجع عهدهم إلى القرن الأول للهجرة، وفي أكناف حوران وهم من مهاجرة جبل عامل، وفي شمالي لبنان واليمن والبترون وهم من مهاجرة بعلبك. ولا يقل عدد نفوس الشيعة في الشام عن مائتي ألف من الإمامية.

معتقدات الشيعة، وهم فرقة من المسلمين، اعتقادات المسلمين العامة عينها ولكنهم في الأصول يخالفون أهل السنة بالإمامة، وهي عندهم رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص بحق النيابة عن النبي، وهي واجبة عقلاً على الله لأنها لطف وكل لطف واجب عليه تعالى، ولذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلاً، والأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً .

ويجب عندهم أن يكون الإمام معصوماً وانفرد بهذا الشرط الإمامية

والإسماعيلية من الشيعة، وأن يكون منصوباً عليه وأن يكون أفضل أهل زمانه .
 وإن الأئمة اثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب المنصوص عليه من الرسول
 ﷺ وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى عام (٢٦٠) في سرمن رأى
 وهو حي يرزق ولا يعلم الناس مقره وسيظهر في آخر الزمان في مكة
 المكرمة، وقد قال بقولهم هذا فريق من أهل السنة. وأما القول بأنه يخرج
 من سرداب سرمن رأى فلم يقل به أحد من الشيعة وإن نسبة إليهم من لا
 يعرف مذهبهم جهلاً بحقيقة الحال .

ويخالفون الأشاعرة في بعض صفاته تعالى فالأشاعرة تقول في كونه
 تعالى متكلماً: إن الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا
 شيء من أساليب الكلام وهو قديم. والشيعة والمعتزلة يقولون: إن الكلام
 قائم بالغير يراد من كونه متكلماً فعل الكلام لا أن الكلام قائم به ولذلك
 فالكلام حادث .

والأشاعرة تقول: إن أفعاله تعالى لا لغرض وإلا لكان ناقصاً مستكماً
 بذلك الغرض. وعند الإمامية أن أفعاله معللة بالعلل والأغراض وإلا لكان
 عابثاً. والغرض عائد لغيره إما لمنفعة العبد أو لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض .
 والأشاعرة تقول: إن الأفعال كلها واقعة بقدر الله وأنه لا فعل للعبد
 أصلاً. وقال بعضهم: إن للعبد من ذلك الكسب أي كونه طاعة أو معصية .
 وقال آخرون: إن العبد إذا صمم خلق الله الفعل عقيب التصميم وأنه تعالى
 فاعل لكل حسناً أو قبيحاً. والشيعة إمامية أو زيدية يقولون بقدرة العبد
 واختياره وأنه ليس بمجبر على فعله، بل له أن يفعل وله أن لا يفعل وأن
 الفعل منسوب إليه نفسه وأنه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح. وقالت الإمامية
 بوجود اللطف عليه تعالى وهو ما يقرب من الطاعة ويبعد عن المعصية ولا
 حظ له في التمكين ولا يبلغ درجة الإلجاء .

وقالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشعب مثلاً شيءٌ حادث عن الأكل
 لا أنه شيءٌ يحدثه الله عند الأكل .

وقالت الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى. وقالت
 الشيعة والمعتزلة باستحالتها مطلقاً .

وقالت الأشاعرة في الحسن والقبح بأنهما شرعيان أي أنه ليس في العقل ما يدل على الحسن والقبح، بل ما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه فهو قبيح، وقالت الشيعة الإمامية بأن الحسن حسن في نفسه يستحق صاحبه المدح، والقبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم ولا يتوقف ذلك على حكم الشارع .
ويقولون: إن العدل صفة من صفاته تعالى واجبة الثبوت له. هذه أمهات المسائل الأصولية التي يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالأشاعرة، وربما وافقهم في أكثرها غيرهم كالمعتزلة. وأما في الفروع فلا تكاد تجد لهم قولاً مخالفاً لا يكون قائلاً به غيرهم من فرق المسلمين اليوم .

نعم انفردوا اليوم بالقول بالمتعة وإن كان أثرها في العرب منهم قليلاً بل أندر من النادر. وهي متعتان متعة النكاح ومتعة الحج، فالأولى هي الزواج إلى أجل مسمى تحل عقده بانقضاء الأجل، وعلى الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الأجل أن تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجاً غيره حتى تنقضي عدتها، ولا بد فيها من ذكر المهر والأجل، ولا توارث بينها وبين الزوج للدليل الخاص إلا مع الاشتراط، ولكن الولد منها ولد شرعي لا فرق بينه وبين إخوته. وأما متعة الحج فهي الطواف الأخير المعروف بطواف النساء فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتي به .

ومنها في الميراث مسألة العول والتعصيب فهم ينكرون العول. ويقولون إمامهم جعفر بن محمد الصادق على أن الذي أحصى رمال عالج يعلم أن المواريث لا تعول، ويجرون فيما جاء من ذلك على قاعدة من له الغنم فعليه الغرم .

ولا يقولون بالتعصيب بل يرثه أقرب الناس إليه، وطبقات الإرث في النسب ثلاث: الآباء والأبناء، والإخوة والأجداد، والأخوال والأعمام . فالمتقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها، فإذا كان ذو فرض أخذ فرضه وردّ الباقي على نفس الطبقة لا يتعدها سواء كان المردود عليه ذكراً أو أنثى . فإذا مات الميت عن بنت وأب أخذت البنت النصف والأب السدس بالفرض ورد الباقي عليهما كل بقدر سهمه لأنهما من طبقة واحدة، فلو لم

يكن له أب بل جد أو أخ كان الرد على البنت لأنها من الطبقة الأولى والجد والأخ من الطبقة الثانية فهي أولى منه بآية وأولو الأرحام .

ويقولون بالجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء سفرأ وحضراً ولكن التفريق أفضل .

وإذا قال القائل لزوجته أنت طالق ثلاثاً فإن كانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة وإلا كان الطلاق باطلاً. وشرط صحة الطلاق أن تكون الزوجة طاهرة في طهر لم يواقعها الزوج فيه وأن يكون الطلاق بشهادة ذوي عدل .

وتجتمع الشيعة في أيام عاشوراء فتهنئ المآتم على الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام، وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة وأول من رثاه أبو دهبيل الجمحي بقصيدة يقول فيها :

تبيت النشاوى من أمية نوماً وبالطف قتلى ما ينسام حميمها
والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب الأغاني أن هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه. ثم إن بني بويه أيام دولتهم عنوا بها مزيد العناية. ولا تزال إلى اليوم تقام في جميع أقطار الشيعة، وليست هي من الفروض كما يتوهم بل يستحبونها لأنها تصدر عن ولاء ومحبة. وقد تطرف بعض العجم فأبدعوا فيها بدعاً يمجتها الله والناس من ضرب أنفسهم بالمدى وإسالة الدماء على أنوابهم وعمل ما يسمونه (الشبيه) وقد مقته العلماء من الشيعة ولم تدعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة .

الباطنية :

أطلق هذا اللقب على فرق خالفت الإسلام مدعية بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم قوم . فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان التعليمية والملاحدة، وهم يقولون: نحن إسماعيلية لأننا تميزنا من فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص، ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج - هذا ما قاله الشهرستاني. وقال عبد القاهر

البغدادى: إن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا ماثلين إلى دين أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين، فوضع الأعمار منهم أساساً من قبله صار في الباطن إلى تفضيل أديان المجوس، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه الصلاة والسلام على موافقة أساسهم. ولما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت أيضاً لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس. وذكر أنه خرج منهم أناس بالبحرين والقطيف والأحساء ومنهم من ظهر في طريق الحجاز واستولى على مكة. ومنهم من ظهر بالقيروان واستولى باتباعه على بلاد المغرب. ومنهم من استولى على هجر. ومنهم من ظهر باليمن وقتل الكثير من أهلها. ومنهم من خرج بالشام وهو أبو القاسم بن مهرويه. وأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسياً أولاً. ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بخران، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرائية. واستدل على ذلك أيضاً بأن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم. والباطنية أيضاً لا يظهر دينهم إلا لمن كان منهم، بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم. قال عبد القاهر: الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع. والأرجح أن المحور الأعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك والسلطان وهي أشبه من بعض الوجوه بالطريقة الماسونية.

وعلى الجملة فإن منشأ هذه المذاهب خلافة علي بن أبي طالب، وطلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغالاة عظيمة حتى أخرجه بعضهم عن البشرية. وقد كان أكثر أهل الشام في القرون الثلاثة الأولى للإسلام على ما يظهر من مذاهب النصارى، والمسلمون أقل منهم. ولقد انتهى الحال بجميع القبائل القديمة في الشام مثل بني كلاب وبني جذام وبني عاملة أن دانوا بالإسلام ولم يتخلف عنهم بادية بادية سوى تنوخ في حلب وتغلب في شمالي شرقي تدمر. ولما مر السائح ويليبالد في القرن الأول للهجرة بمحص كانت نصف

مسلمة وقويت حركة الإسلام في القرون التالية لما سكنها العباس من قواد الروانيين في خمسين من أولاده .

وكانت الشام في الإسلام توالي علياً وأصحابه تارة وتوالي غيره أخرى . وكان أهل حلب سنية حنفية حتى قدم الشريف أبو إبراهيم الممدوح فصار فيها شيعية وشافعية. وأتى صلاح الدين وخلفاؤه فيها على التشيع كما أتى عليه في مصر. وكان المؤذنون في جوامع الشهباء يؤذنون بحج على خير العمل . وحاول السلجوقيون مرات القضاء على التشيع فلم يوفقوا إلى ذلك. وكان حكم بني حمدان وهم شيعية من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع في الشمال. ولا يزال على حائط صحن المدفن الذي في سفح جبل جوشن بظاهر حلب ذكر الأئمة الاثني عشر وقد خرب الآن. وفي سنة (١٤١) ظهر في حلب قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحيران وكانوا يزعمون أنهم بمنزلة الملائكة، وصعدوا تلاً بحلب فيما قالوا ولبسوا ثياباً من حرير وطاروا من التل فكسروا وهلكوا .

وصف المقدسي مذاهب الشام في القرن الرابع للهجرة فقال: إن السامرة فيه من فلسطين إلى طبرية ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً، مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة. وأهل طبريا ونصف نابلس وقُدّس وأكثر عمان شيعية ولا ماء فيه لمعتري إنما هم خفية، وبيت المقدس خلق من الكرامية لهم خواتم ومجالس ولا ترى به مالكيّاً ولا داودياً، وللأوزاعية مجلس يجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث، والفقهاء شفعوية وأقل قسبة أو بلد ليس فيه حنفي، وربما كانت القضاة منهم قال: واليوم أكثر العمل على مذهب الفاطمي .

ووصف ابن جبير المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس فقال : وللشيعية في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم. وهم فرق شتى منهم الراضية وهم السبابون ومنهم الإمامية والزيدية وهم يقولون بالترفضيل خاصة. ومنهم الإسماعيلية والنصيرية يزعمون الإلهية لعلي رضي الله تعالى عنه. ومنهم الغرابية وهم يقولون: إن علياً (رض) كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الروح

الأمين عليه السلام قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً. إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء. قال: وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنسبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يجرّمونه سراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض اين ما وجدوهم. وشأنهم عجيب في الأتفة والائتلاف .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته الرد على النصيرية أيام استولى هؤلاء على جانب كبير من الشام: إن للقرامطة في معاداة الإسلام وقائع مشهورة وكتباً مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين وقد قتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرأهم وجندهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى النصارى على ثغور المسلمين، وبسببهم استولى النصارى على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. واتفقوا بعد صلاح الدين ونور الدين مع النصارى فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد. وقال: إن لهم ألقاباً معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحدة وتارة يسمون القرامطة وتارة يسمون الباطنية وتارة يسمون الإسماعيلية وتارة يسمون النصيرية وتارة يسمون الخرمية وتارة يسمون المحمرة. وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم. وهم كما قال العلماء فيهم، ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولا بشيء من كتب الله المتزلة لا التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه ولا بأن له ديناً أمر به، ولا أن له داراً يجزي الناس فيها على أعمالهم في غير هذه الدار، وهم يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة تارة وعلى أقوال المجوس الذين يعبدون النور. وقال: إن إخوان الصفا ونحوهم هم من أئمتهم

وينكرون على الرسل ودعوى أنهم من جنسهم طالبون للرئاسة فمنهم من أحسن بطلبها ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل، ويجعلون محمداً وموسى من القسم الأول والمسيح من القسم الثاني ويستهنون بالصلاة والزكاة والصوم والحج الخ هـ .

الإسماعيلية :

هم القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل، انتقلت إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم. وهم يوافقون الإمامية في سوق الإمامة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذي هو الإمام عند الإمامية إلى إسماعيل هذا. ثم يسوقونها في بنيه فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد أمير المؤمنين علي إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه علي زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه إسماعيل الذي تنسب إليه هذه الفرقة بالنص من أبيه. ثم يقولون: إنها انتقلت من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد الحبيب ثم إلى ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وهو جد الخلفاء الفاطميين بمصر، ثم إلى ابنه العزيز بالله أبي منصور نزار ثم إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم معدّ خامس خلفائهم بمصر. ومن هاهنا افرقت الإسماعيلية إلى فرقتين مستعلوية ونزارية. فأما المستعلوية فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر بالله إلى ابنه المستعلي بالله أبي القاسم ثالث خلفائهم بمصر ثم إلى ابنه الأمر بأحكام الله أبي علي منصور إلى آخر من جاء بعدهم وهو حادي عشر خلفائهم بمصر. وأما النزارية فإنهم يقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنص من أبيه المستعلي. ثم الإسماعيلية في الجملة من المستعلوية والنزارية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية تبعاً لإمامهم إسماعيل المذكور، وكان يسمى صاحب الدعوة الهادية - وفي القرن التاسع كانوا يسمون في ديوان الإنشاء بالقصاد وبين العامة بالفداوية - وهم يرون أن الأرواح مسجونة في هذه

الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية، وأن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية .

وذكر في العبر أن منهم من يدعي ألوهية الإمام بنوع الحلول، ومنهم من يدعي رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ والرجعة، ومنهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته، ومنهم من ينتظر عود الأمر إلى أهل البيت. ويتفق المستعلوية والترزارية في بعض المعتقدات ويختلفون في بعضها. ولدعاة الأئمة المستورين عندهم مكانة عظيمة لا سيما الداعي القائم بذلك أولاً وهو الداعي إلى محمد المكتوم أول أئمتهم المستورين، فإن له من الرتبة عندهم فوق ما غيره من الدعاة القائمين بعده. واشتهر من دعائهم رمضان وابنه ميمون وعبد الله القداح بن ميمون، اطلع هذا على أسرار الدعوة من أبيه وسار من نواحي أصفهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت. ثم أنشأ ابنه أحمد فأرسل هذا أحد دعائه إلى اليمن وإلى المغرب. ومن نسب أحداً من هؤلاء الدعاة إلى ارتكاب محظور أو احتقاب لثم فقد ضل وخرج عن جادة الصواب عندهم، ويرون تخطئه من مالا على الإمام عبيد الله المهدي أول أئمتهم القائمين ببلاد المغرب وارتكابه المحظور وضلاله عن طريق الحق، وكذلك من خذل الناس عن أتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله ثاني خلفائهم ببلاد المغرب أو نقض الدولة على المعز لدين الله أول خلفائهم بمصر، ويرون ذلك من أعظم العظائم وأكبر الكبائر .

ومن أعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدیر خُم (غيضة بين مكة والمدينة على ثلاثة أيام من الجحفة) وسبب جعلهم له عيداً أنهم يذكرون أن النبي ﷺ نزل فيه ذات يوم فقال لعلي: « اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار ». ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يرمى أحد من آل بيت النبي ﷺ ولا سيما الأئمة بكبيرة، أو ينسبها أحد إليهم أو يوالي لهم عدواً أو يعادي ولياً. ويقولون: إن الإمام منهم لا يموت إلا وقد خلف ولداً ذكراً منصوباً عليه .

وأصل هذه الفرقة كانت بالبحرين في المائة الثانية وما بعدها، ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ ثم ظهروا بأصبهان في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وبالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة فيما حول طرابلس كصيف والحوابي والقدموس والمرقب والعليقة والميقتة والكهف والرصافة وغيرها. وهم يعظمون راشد الدين سنان، وهو رجل كان بقلاع الدعوة وانتهت إليه رياستهم في زمن صلاح الدين .

ولما افرق الإسماعيلية إلى مستعلوية ونزارية أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية عملاً بدعوة ابن الصباح، وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونهم . روى هذا القلقشندي وقال ابن ساعد: ويلقب الإسماعيلية بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة، ويرون أن في كل دور سبعة أئمة، إما ظاهرون وهو دور الكشف، وإما مختفون وهو دور السر، ولا بد من إمام، إما ظاهر وإما مستور، لقول أمير المؤمنين رضي الله عنه لن تخلو الأرض عن قائم لله بحججه، ويلقبون أيضاً بالباطنية لقولهم: إن لكل ظاهر باطناً، وبالتعليمية لقولهم: إن العلم بالتعلم من الأئمة خاصة، وربما لقبوا بالملاحدة لعدولهم عن ظواهر الكتاب والسنة لأنهم يتأولون سائر النصوص، وعندهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه وليس في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية اه .

وذكر كاتب چلبي أنه كان للفداوية الذين اشتبهوا في زمن الظاهر بيبرس - هكذا كانت العامة تسمي الإسماعيلية - من طرابلس إلى صيدا إلى حلب على الساحل حتى حوران سبعون قلعة أهمها قلعة صهيون. وقد ذكر مؤرخو حلب أنه جاء إلى جبل السماق سنان بن سلمان بن محمد أبو الحسن البصري صاحب الدعوة النزارية ومتولي الحصون الإسماعيلية، وكان أديباً فاضلاً عارفاً بعلم الفلسفة وله شعر حسن وكلام منثور جيد، وتمكن

في الحصون وانقادت إليه الطائفة الإسماعيلية ما لم ينقادوا إلى غيره .
ويقضي مذهبهم على ما قال هوار في المعلمة الإسلامية بأن الله لا صفات له ولا تدركه العقول ولا تفهمه الألباب ولم يخلق العالم مباشرة ، بل تجلت إرادته في أمره وهو العقل العام وفيه تختفي جميع الخصائص الإلهية وهو الله المتجلي . وإذ كان لا يُصلى لكائن لا يدرك فإن الصلاة تنتج نحو صورتها الخارجية وهي العقل الذي هو حقيقة معبود الإسماعيلية . فكما أنه لا سبيل إلى معرفة الله بل يُعرف العقل فقط فهذا العقل يطلق عليه أسماء الحجاب والمكان والأزل والعقل والأول . والعقل يخلق الروح العام الذي هو الجوهر في الحياة ، وإذ كانت حياة العقل بالعلم وهو ناقص من هذا النظر فيرمي بالضرورة إلى تحقيق الكمال . ومن هنا تنشأ حركة بمعنى آخر عن حركة أخرى تتولد منها . الروح تخرج المادة الأولى التي تتألف منها الأرض والكواكب وهي غير عاملة بل تنجلي في أشكال تنطوي فيها الأفكار على العقل . وهناك كائنان ضروريان وأصليان وهما الأمد والزمان . والكواكب والعناصر نتيجة لازمة من عمل هذه المخلوقات الخمسة مشتركة . ويُفسر ظهور الإنسان بالضرورة التي يشعر بها الروح العام في إحرار العلم الكامل حتى يرقى إلى طبيعة العقل العام ومتى جرى الوصول إلى هذه الغاية تبطل كل حركة . وللخلاص يجب على المرء تحصيل العلم الذي لا يتأني أن يأتي إلا من تجسد العقل على هذه الأرض ويتجسد ذلك في الرسول وخلفائه والأئمة . ويسمى العقل المتجسد « الناطق » والروح المتجسد « الأساس » والأول هو الرسول الذي يتجلي فيه الكلام الموحى ، والثاني هو ترجمان هذا الكلام بما يحوي من المعاني التي تُؤوّل . والمبادئ الثلاثة الأخيرة هي الإمام والحجة ، الذي يبرهن على رسالة الأساس ، والداعية . وكان محمد الناطق وعلي الأساس .
والذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين هم طبقات كانوا أولاً سبعة ثم صاروا تسعة . ويبدأ الداعية مع من يريد تلقيه أسرار الدعوة بأن يضع له مشكلات في صعوبة فهم الشريعة وهي الطريقة التي يجري عليها الباطنية عامة ، ولا يزال به حتى يذكر له أن هذه المشاكل قد حلت على أيسر

وجه بتأويل القرآن ومعرفة رموزه . وللحساب المستخرج من قيمة الحروف العددية شأن كبير. ومتى اقتنع المدعو بقوة البراهين التي أوردتها له الداعية يستحلفه بأن لا يبوح بأذى سر من الأسرار التي سيفضي بها إليه، ويعلمه بأن الوساطة للنجاة أن يخضع خضوعاً أعمى لأوامر الإمام الروحية والزمنية . وجمهور المؤمنين بهذه الدعوة ما كانوا يقفون على أكثر من الدرجة الأولى أو الثانية من الأسرار، والدعاة يصلون إلى الدرجة السادسة إلا قليلاً. ولا يبلغ الدرجة العالية إلا بعض الممتازين. وهذا أشبه بتعاليم الشيعة والمتصوفة في تعيين درجة الإنسان الكامل .

والجنة معناها مجازاً حالة النفس الواصلة إلى كامل العلم، وجهنم معناها الجهل، وما من نفس يحكم عليها بالخلود في جهنم على الأبد، بل تعود إلى الأرض بالتناسخ حتى تعرف إمام الزمان وتأخذ عنه علوم الدين. والشر لا بقاء له ولا بد من زواله يوماً يتمثل كل الموجودات في العقل العام تمثلاً تدريجياً. ومع ما اشتهر عن الإسماعيلية من القتل يجب أن نذهب إلى أن ما اجترحوه لم ينشأ عن عقيدة لهم بل يجب أن ينظر فيه إلى الإفراط الذي عرف به رؤساؤهم في نيل السلطة السياسية. وقال رسو من السياح: إن من عرفهم من الإسماعيلية هم على جانب عظيم من الكرم ولطف الأخلاق، وقلما يجبون التنقل ويعملون في أرضهم ويتمسكون بأهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم كل المخالفة، وهم أشداء عند الحاجة خاضعون لزعمائهم. انتهى قول هوار .

ولم يعرف الزمن الذي نزل فيه الإسماعيلية بعض أرجاء الشام إذ لم يجر لهم ذكر قبل أوائل القرن الخامس للهجرة. وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ وهما من دعاة الإسماعيلية وأمثالهما من العجم أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام الملك رضوان بن تنش السلجوقي صاحب حلب الذي أغضى عنهم وأراد اتخاذهم حزباً له فقبل دعوتهم على ما قيل، واستمالوا إليهم خلقاً كثيراً بسرمين والجوز وجبل السماق وبني عليم وجعل لهم في حلب دار دعوة. ولم يلبثوا أن اغتالوا في جامع حمص (٤٩٦) عمه جناح الدولة صاحب حمص، تولى ذلك ثلاثة من العجم يلبسون لباس الصوفية

بينما كان يتهيأ لغزوة صنجيل أمير طرابلس من الصليبيين لرفع الحصار عن حصن الأكراد. ولم يلبث هذا الطبيب المنجم أن قضى نجه عاهداً بالدعوة إلى رفيقه أبي طاهر الصائغ. واستولى الإسماعيلية على أفامية من الصليبيين ثم استرجعها هؤلاء منهم (٤٩٨) ووُضع السيف في الإسماعيلية بحلب سنة (٥٠٧) و(٥٠٨) كما وضع فيهم في دمشق سنة (٥٢٢) (خطط الشام ج ١ وج ٢) وكذلك كان حالهم في الباب من عمل حلب. قال ابن جبير: فداخلت أهل البلاد الحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم. وقال: إن الإسماعيلية يبذلون الأنفس دون إمامهم سنان وحصلوا من طاعته وامثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى. وفي تلك السنة أيضاً قتلوا برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم. وفي سنة (٥٧١) حاول أحد الإسماعيلية من العجم اغتيال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فأنجاه الله وأغضى الطرف عنهم. وفي سنة (٥٨٨) قتل الإسماعيلية كونراد أمير صور. وبعد مدة قتلوا ريموند بن بويمند الرابع المعروف بالأعور أمير أنطاكية من الصليبيين قتلوه في الكنيسة. وفتح الظاهر بيبرس والتتار قلاعهم وخضعوا بعد ذلك لممالك مصر.

وكان للإسماعيلية في بلاد العجم وقائع عظيمة وهم الذين قتلوا الوزير نظام الملك في بغداد وغيره من رجال الإسلام حتى ضاقت بهم الصدور. وقد سموا أوائل دخول الصليبيين إلى الشام بالحشاشين أو القتلة (Les assassins) لأن رؤسائهم كانوا فيما قيل يعطون الحشيشة لمن يريدونه على قتل أحد خصومهم السياسيين. وكان الصليبيون يطلقون على رئيسهم شيخ الجبل. وقد نالوا من الصليبيين كثيراً كما نالوا من أمراء المسلمين. وهم جمعية سياسية ترمي إلى إقامة مملكة. وما كان هذا القتل منهم عن باعث مذهبي بل سياسي. على أنهم أخافوا رجال السياسة في هذه الديار وهي في أشد أوقات ضيقها زمن الحروب الصليبية وحروب التتار. ويبلغ عدد الإسماعيلية اليوم في الشام نحو خمسة وثلاثين ألفاً منهم جماعة في سلمية وفي قلاع الدعوة في جبل النصيرية. ومن الإسماعيلية عشرات ألوف في العجم والهند والأفغان وعُمان ومسقط وزنجبار وإفريقية الشرقية. وإسماعيلية هذه الديار يجوبون

الزكاة كل سنة ويرسلونها إلى إمامهم آغاخان في الهند أما، سائر الإسماعيلية فليسوا مرتبطين به. وقد ذكر بعض أعيانهم أن الإسماعيلية اليوم يقولون: إن كل زمن لا يخلو عن رجل من السلالة الطاهرة يسمونه إماماً واعتباره اعتبار علمي ديني خالٍ من كل غرض سياسي .

النصيرية أو العلوية :

قال القدماء: هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم يدعون ألوهية علي رضي الله عنه مغالاةً فيه ويزعمون أن مسكنه السحاب وإذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن ويقولون: إن الرعد صوته والبرق ضحكته ، وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب، ويقولون: إن سلمان الفارسي رسوله، وإن كشف الحجاب عما يقوله من أي كتاب بغير إذن ضلال، ويحبون ابن ملجم قاتل علي ويقولون: إنه خلص اللاهوت من الناسوت ويخطئون من يلعنه. وإن لهم خطاباً بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه ولو ضرب عنقه. وهم يخفون مقاتلتهم ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم. ولهم اعتقاد في تعظيم الخمر ويرون أنها من النور ولزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التي هي أدمل الخمر حتى استعظموا قلعها. ويزعمون أن الصديق وأمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين عثمان تعدوا على علي ومنعوه حقه من الخلافة .

وقال المحدثون منهم أنفسهم على ما ذكره صاحب تاريخ العلويين: إن النصيرية رجع لهم اسمهم القديم بعد انتهاء الحرب العامة (١٩١٨م) وسميت العلوية وكانت محرومته مدة (٤١٢) سنة أي من قتال الأتراك للعلويين وإن اسم العلويين الذي كان يطلق على طائفتهم دثر عدة قرون^(١) وسمى الموجودون باسم الجبل ويظن بعضهم أن اسم النصيرية هو نسبة للسيد أبي شعيب محمد بن نصير البصري النميري مع أن الأصح هو لأنه تغلب اسم

(١) أجمع المؤرخون ومن كتبوا في الملل والنحل أن النصيرية عرفوا بهذا الاسم في القرن السادس والسابع وبعده ، فدعوى أنه كان يطلق عليها اسم العلويين وحرّم عليهم أربعة قرون فيها نظر

الجليل عليهم وأصبحت كلمة النصيري أشنع كلمات التحقير .
وقال: إن قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم، معناه كمال الدين وكمال الدين هو ولاية علي، وهذه هي الحكمة المقصودة من نزول القرآن بالتدرج. ويقول العلويون: إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوماً وخفياً، ولذلك بقي إلى هذا اليوم مكتوماً بخصوصيته، وبتعبير أصح إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام وإعلانها مضرّ به لأن الرسول ﷺ بشر المؤمنين بولاية علي وبذلك كمل الإسلام، ولكنه بقي حريصاً على كتمان البقية ولذلك كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضاً. وهذا هو تعليل تكتم العلويين في عقيدتهم. وهم يقولون أيضاً: إن بني هاشم كانوا يعرفون في زمن النبي أحكاماً ما كان يعرفها الأمويون، وإن أهل البيت تعلموا علوماً لم يسمعها غيرهم. وهنا مبدأ أسرار العلويين. ومن جملة أسباب تكتم العلويين أن بيعة غدِير خُمّ لم تكن إلا إفشاء لبعض حقوق أهل البيت والأمر باتباعها واحترامها .

وقال: إن السلطان سليماً العثماني لما فتح الشام استدعى عشائر تركية من الأناضول إلى خراسان وقدرها تسعون ألف خيمة أي أكثر من نصف مليون تقريباً وأسكنهم في القلاع في جبال النصيرية والمواقع الغنية المرتفعة منه، ولم يمض أكثر من خمسين عاماً حتى انقرض الأتراك في المنطقة الضيقة التي لم تكن حاصلاتها تكفي سكانها الأصليين، ولم يبق من الأتراك سوى خمسة عشر ألفاً وهم اليوم في البايير والبوجاق وقليل منهم في الساحل، حافظوا على جنسيتهم ولسانهم، ومن نزل منهم أرجاء حماة وحمص تغلبت عليه العربية .

وليس بين العلويين اختلاف في المذهب بل تفرقوا عشائر وأفخاذاً فمنهم الكلبية وهي من أكبر العشائر والنواصرة والجهنية والقراحلة والجلقية والرشاونة والشلامية والرسالة والجرديّة والحياطية والبساترة والعبدية والبراعة والفقاروة والعمامرة والحدادية وبنو علي والبشالوة والياشوطية والعتارية والمتاورّة والحلبية والحرزجية والسوارخة والنيلاية والسرابية والصوارمة والمهالبة والدراسة والمحارزة والبشارغة والجواهرة والسواحلية والأنطاكيون

والأطنويون. والنسبة في هذه الأسماء إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم أو إلى قرى ومدن معروفة في أرضهم وغيرها .

وقال أيضاً: ليس للعلويين ديانة خاصة أو مذهب خاص كما يظن بعضهم ، بل إن العلويين مسلمون شيعيون جعفريون ، لا تفرق بينهم وبين سائر الجعفرية قيود دينية أو اجتهادات عملية ، ويعتقدون أن الأئمة الاثني عشر هم معصومون من الخطايا ، وإن أقوال الأئمة دلائل قطعية ، ولا يمكن أن يخالف الإمام القرآن والأحاديث ولا يحق لأحد أن يؤول القرآن ، ولا أن يفرق بين محكمه ومتشابهه سوى أهل البيت ، ولا تنفع عند العلوي القواعد الصرفية والنحوية أو الأصولية في استخراج الأحكام الشرعية ، بل كل ذلك من جملة حقوق أهل البيت . وإن العلويين يمتازون على بقية الجعفرية أي الاثني عشرية بانتسابهم في الآداب الدينية إلى الطريقة الجنبلائية ، وهذا الانتساب هو الذي أدى إلى افتراقهم عن بقية الاثني عشرية . ويرى المؤلف أن يتحد العلويون والشيعية المتأولة والإسماعيلية ، وليس بين هؤلاء وبين العلويين سوى الافتراق الخاص في اعتبار الأئمة بعد جعفر الصادق .

وقد سألنا الأستاذ الشيخ سليمان أحمد من علمائهم فأجاب معترداً عن التوسع في وصف مذهبهم وختم بقوله : أمة توالى عليها النواصب السياسية والاجتماعية خمسة أجيال فأخملتها أي إخمالت ، وانزوى علماؤها وصلحاؤها وعاث الجهل في عشائرها فساداً ، ليس من السهل الكتابة عنها ، وليس بالهين ضلال التاريخ ، وقل من جرى في ميدانه فلم يعثر . لا فرق بينهم وبين الإمامية إلا ما أوجبه السياسة والبيئة وعادات العشائر التي توارثها سكان الشام ، أكثر الناس اختلافاً ، وأقلهم ائتلافاً ، إذ شيخ مذهبهم الذي ينتمون إليه (الخصيبي) من رجال الإمامية تقرأ ما له وما عليه في كتب الرجال . إنما لهم طريقة كالتقشبندية والرفاعية وغيرهما من الطرق الصوفية بالنسبة إلى أهل السنة . وهذا مصدر التقولات الباطلة عليهم ، وما أبرئ جهلتهم من كل ما يقال ، ولكن أشهد بالعرض والتعرض على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم اه .

ويسكن النصيرية أو العلويون اليوم في جبال اللاذقية وطرابلس وحماة

ومنهم فئة قليلة في دمشق وصالحيتها وفي قرى عين فيت وزعورا وعجرا في الحولة، وعدد العلويين اليوم أكثر من مائتي ألف. وقد استعمل العنف معهم في أكثر الأدوار السالفة فنفروا وقد كان الظاهر بيبرس في القرن السابع أمر أن تبنى لهم جوامع في قراهم فبنوا في كل قرية جامعاً وما كانوا يدخلونها على عهد ابن بطوطة في القرن التاسع، بل كانت حظائر للغنم وإصطبلات للدواب، وأمر السلطان قلاوون أيضاً أن يبنى جامع في كل قرية من قرى النصيرية، وهكذا فعل عبد الحميد الثاني من العثمانيين فبنى لهم جوامع لم يلبثوا أن خربوها وأهانوها. وشأن العلويين شأن سائر الطوائف الإسلامية الصغرى كلما زادوا علماء وتربية رجعوا إلى الأصول الصحيحة. وفيهم كرم وشمم وشجاعة ومكارم وأخلاق.

الدروز :

لما طمع الحاكم بأمر الله الفاطمي سادس خلفاء الفاطميين أو العبيديين بمصر في دعوى الربوبية، أخذ يمهّد لذلك المقدمات ولقب نفسه الحاكم بأمره وأمر الخطباء بأن يقرأوا بدل البسمة (باسم الله الحاكم المحيي المميت) وفي رواية أنهم كتبوا بسم الحاكم الله الرحمن الرحيم. فلما أنكروا عليهم كتبوا بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم فجعلوا في الأول الله صفة للحاكم وجعلوا في الثاني العكس. وأنشأ يدعي علم المغيبات، وكان من دعائه رجلان عجميان من دعاة الباطنية يقال لأحدهما محمد بن إسماعيل الدرزي^(١) المعروف بنشتكين، وللآخر حمزة بن علي بن أحمد وهذا من أعظم دعاة الحاكم، كان يؤثره على جميع عشيرته، وكان صاحب الرسائل والمكاتبات عنده. وصنف الدرزي كتاباً كتب فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم بأمر الله. وقرأ هذا الكتاب في الجامع الأزهر بالقاهرة، فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم، وحدث شغب عظيم في القاهرة وقتلوا

(١) الدرزي بفتح الدال معناه الخياط فارسي معرب والعامية تضم الدال ويقولون في الجمع

الدروز والصواب الدرزة محرّكة .

كثيرين من أصحابه. وكانت بلغت جريدة أسماهم ستة عشر ألفاً. ولم يسع الحاكم بأمر الله بعد أن وقع ما وقع إلا أن يبعث إلى الدرزي في السر والعلانية وأوعز إليه أن يخرج إلى الشام وينشر فيها الدعوة، فتزل وادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق، وقرأ الكتاب على أهله واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال فكثر مشايعوه وأنصاره .

وكان الأمراء التنوخيون سكان لبنان على استعداد لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليه فسمي جماعته بالدروز. والدروز ينكرون هذه التسمية ويحبون أن يدعوا بالموحدين، وكان يسميهم أصحابهم بالأعراف. وغلب عليهم في حوران في العهد الأخير لقب آل معروف دعوا به تحبباً. وهذا كان من شعار اليمانيين لانقسام هذه الطائفة إلى أصليين من أمهات أصول العرب في هذا القطر وهما القيسية واليمينية. ولما أنشأ الدرزي يثون دعوتهم بين المسلمين غزوا في عقر دارهم في وادي التيم نحو سنة (٤١٠) على الأرجح وغزوا في جبل السماق من أرجاء حلب لما جاهروا بمذهبهم أيضاً وخربوا ما عندهم من المساجد فقتل دعائهم وأعيانهم سنة (٤٢٣) (خطط الشام م ١) .

ووقع خلاف بين الداعية الأول محمد بن إسماعيل الدرزي والداعية الثاني حمزة بن علي بن أحمد، فكتب التقدم لهذا ومات الدرزي في سنة (٤١١) فقام بالدعوة حمزة وأصبح القوم يقدسونه ويلقبونه بهادي المستجيبين وحجة القائم وغير ذلك. ولما هلك الحاكم كتب حمزة الرسالة المسماة بالسجل المعلق وعلقها على أبواب الجامع وفيها يقول: إن الحاكم اختفى امتحاناً لإيمان المؤمنين، وشرع حمزة يزرع في القلوب بذر الاعتقاد بألوهية الحاكم وتوحيده وعبادته، ويجتمع هو وأتباعه في المعبد السري، حتى ثار عليهم المسلمون وطردوهم ففروا من مصر إلى الشام .

قال سليم البخاري: إن الدرزي يخالفون في عقائدهم عقائد الفرق من أرباب الديانات يتظاهرون بالتبعية لمن يكونون تبعاً له، وأما في الباطن فإنهم ينكرون الأنبياء عليهم السلام وينسبونهم إلى الجهل وأنهم كانوا يشيرون إلى توحيد العدم وما عرفوا المولى، ويشنعون بالظعن على جميع أرباب الديانات من المسلمين والنصارى واليهود، والديانة الحققة عندهم هي توحيد الحاكم،

ويفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم وحفظ الإخوان بدل الصلاة .
ويقرأون القرآن ويؤولونه ويذهبون إلى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ويقولون
بالتناسخ معبرين عنه بالتمحص، فالجسد يسمى قميصاً عندهم، وأن الميت
حين موته تنتقل روحه إلى من يولد وقتئذ، فالأرواح الإنسانية لا تنتقل عندهم
إلا إلى قوالب إنسانية. ويقولون: الهوية الإلهية تنتقل من قالب وتحل في قالب
آخر في كل عصر، فتتجلى في كل زمن بصورة وتجلت أخيراً في الحاكم،
وأن حمزة أيضاً ظهر في كل عصر بقالب، ففي زمان كان فيثاغورس
الحكيم، وفي زمان كان شعيباً، وفي زمان كان سليمان بن داود، وفي
زمان كان المسيح الحق، فهو النبي الكريم عندهم، وحمزة العصر المحمدي
هو سلمان الفارسي، ويزعمون أن القرآن قد أوحى حقيقة إلى سلمان الفارسي
وأنه كلامه وأن محمداً أخذه وتلقاه عنه حتى زعموا بأن خطاب لقمان الذي
خاطب به ولده في معرض الوصية بقوله: « يا بُنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف
وانهَ عن المنكر » هو خطاب سلمان لمحمد والتعبير بالنبوة إنما هو من خطاب
المعلم للمتعلم .

وإذا أراد أحد من جهالم أن يدخل في سلك الموحدين ينبغي له أن
يستجلب رضاهم بتقديم وسائل العطف مدة حتى تتحقق توبته، فإذا قبلوه
أدخلوه على الإمام فيوصيه بحفظ السر وعدم إشهاره، ويأمره بتحرير العهد
الواجب تحريره، إذ لا يكون موحداً خالصاً بدون تحرير العهد على نفسه،
فإذا حرره وسلمه إلى الإمام صار واحداً منهم. وصورة العهد وهو المعروف
لأول انتشار الدرزية بميثاق ولي الزمان: « توكلت على مولانا الحاكم الأحد
الفرد المتزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه
وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره
ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات
كلها على أصناف اختلافاتها وأنه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم
جل ذكره والطاعة هي العبادة وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر
أو ينتظر وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا
الحاكم جل ذكره ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر

لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه أو أشار به إلى غيره أو خالف شيئاً من أوامره، كان بريئاً من الباري المعبود وحرماً الإفادة من جميع الحدود واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره، ومن أقر أن ليس له في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدین الفائزين. وكتب في شهر كذا وسنة كذا وكذا من سني عبد مولانا جل ذكره وملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرشدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده « وليس لأحد من الناس أن يدخل في مذهب الدرود لأن ذلك لا يتأتى إلا إبان الدعوة الأولى، وقد سد هذا الباب بعد ذلك. ويحرص الدرود كل الحرص على كتمان عقائدهم ولذلك يعبرون عن مرامهم في كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية فلا يفهم ما يراد منها إلا الطبقة العالية من أرباب الدين عندهم أو مشايخ العقل. ويذكرون مباحث من علم الكلام، وبعض مقالات غلاة المتصوفة، وتأويلات الرافضة والملاحدة، وخصوصاً الإسماعيلية من غلاة الشيعة. ولهم قضاة منهم يحكمون في المعاملات المدنية الجارية بينهم على مقتضى الشريعة، غير أنهم يخالفونها في بعض المعاملات بحكم العادة الموروثة وقد اصطلحوا على التوصية بما يشاءون لما يشاءون. ولا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين فإن لم يطلق التي عنده لا يمكنه التزوج بغيرها. وتطلق المرأة بأدنى سبب، ولا يجوز عندهم رد المطلقة ولو كان بعد زوج آخر .

ويقسم الدرود من حيث الدين إلى ثلاثة أقسام: العقال أو الأجاويد والشراح والجهال. ويرخص للشراح بالاطلاع على ما كتبه الشيخ الفاضل بشرح أحد أوليائهم الأمير عبد الله التنوخي الملقب بالسيد دفين قرية عبيه وهو الذي بنى المساجد وجدد الجوامع، وكان على ما قيل يريد أن يرجع بالدرود إلى مذهب أهل السنة والجماعة توفي سنة (٨٧٤).

ولا يباح للجهال من الديانة غير معرفة المسائل الأولية من الدين. ومن العقال طبقة أتقياء يقال لهم المتزهون وهم مثابرون على العبادة والورع، ومنهم من لم يتزوج، ومنهم من لم يأكل لحماً طول حياته، ومنهم من هو

صائم كل يوم، ولا يذوقون شيئاً من بيت أحد من غير العقال. والعقال جميعهم يعتقدون أن أموال الحكام والأمراء حرام فلا يأكلون شيئاً من طعامهم ولا من طعام خدَمهم ولا من طعام حُمّل على دابة مشتراً من مال حاكم، وقد يعتاشون من عمل لهم خاص يتعاطونه بأنفسهم من زراعة وصناعة. ويتزهون ألسنتهم عن ألفاظ الفحش والبذاءة ويتجنبون الإسراف.

واسمع بعد هذا رأي الأمير شكيب أرسلان (من مقالة في جريدة الشورى (١٥) جمادى الثانية سنة (١٣٤٤) في الدروز قال: الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية، والشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى. وإذا قيل: إن الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالإسلام فالجواب أن الدروز يقولون: إنهم مسلمون ويطبقون جميع شعائر المسلمين ويتواصلون بمرافقة الإسلام والمسلمين في السراء والضراء، ويقولون: إن من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم. ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث (فهل شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام. وفي الشرع المحمدي قاعدة: نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر. وقد قال الله تعالى: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» وهؤلاء لا يلقون السلام فقط بل يلقون السلام ويقولون: إنهم مسلمون، ويحفظون القرآن، ويلقن ملقنهم الميت «إذا جاء منكر ونكير وسألك ما دينك ومن نبيك وما كتابك ومن إخوانك وما قبلك فقل لهما الإسلام ديني ومحمد نبي والقرآن كتابي والكعبة قبلي والمسلمون إخواني» وليس من شعائر الإسلام شيء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز.

وإذا قيل: إنه مع كل هذه المظاهر تحتوي عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء فالجواب قد وجد في الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود! فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة؟ كلا فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من

الإسلام؟ وأما تجسد الإله فليس من عقيدة الدرّوز كما يتهمهم بعضهم والتجسد شيء والتراثي شيء آخر. وأما تأويل آي القرآن الكريم بحسب زعمهم فكلم من فرقة في الإسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة ... اهـ .

وبعد فإن للدرّوز روابط مهمة بينهم منها أنهم مهما كانت بينهم طوائف وحزابات يتخلون عنها ويصبحون جسماً واحداً يوم يريدون مقاومة عدوهم. وهم من التسامح على جانب حتى مع من يخالفهم. ومعظم عاداتهم إسلامية وأسماؤهم إسلامية وفيهم من الإسلام شيء كثير من جوهره. وقد رأينا لعهدنا أبناء هذا المذهب كلما تعلموا قربوا من الأصول الإسلامية وفيهم اليوم فئة صالحة مستنيرة تريد الجهر بالرجوع إلى مذهب أهل السنة . ومن أراد زيادة تفاصيل في مذهب الدرّوز فعليه بالرجوع إلى كتبهم ورسائلهم وهي محفوظة في دور الكتب العامة هنا وفي الغرب. ويتزل الدرّوز اليوم في شوف لبنان وجبل حوران ووادي التيم وبعض قرى الغوطة بدمشق والجبل الأعلى في حلب وبعض قرى عكا ولا يقل عددهم عن مئة وأربعين ألفاً .

البابية :

مؤسس هذا المذهب رجل من فارس اسمه الميرزا علي محمد الشيرازي ولد سنة (١٢٣٥هـ) وتوفي والده وهو حدث فكفله خاله وعلمه مبادئ الفارسية والعربية وحسن الخط واشتغل لأول أمره بالتجارة، وفي سن العشرين أخذ يكثر من الرياضة والعبادة فخاف خاله على صحته فأرسله إلى العراق وقضى أشهراً في كربلاء والنجف اجتمع خلالها إلى علماء الشيعة وخرج من العراق بأفكار تخالف ما عرفه الناس من الإسلام، وأخذ يبيث دعوته فمال إليه جماعة وحج في تلك الأيام. وكان يقول: ادخلوا البيوت من أبوابها « أنا مدينة العلم وعلي بابها » يشير إلى أنه واسطة السعادة الأبدية، ثم دعا نفسه « الباب » ومعنى الباب عند الشيعة نائب المهدي المنتظر وتخلي عن اسمه . وبعد مدة أرسل إلى بوشهر ومنها أرسل دعواته إلى شيراز وأصفهان يبيثون دعوته. فعقد والي شيراز لهم مجالس المناظرة مع الفقهاء فأفتى هؤلاء بكفر

الباية ووجوب قتلهم. لكن الوالي اكتفى بقطع العصب الكعبري من كعابهم وسجنهم. وجيء بالبواب من بوشهر (١٩ رمضان سنة ١٢٦١) وأنزل في دار أبيه ريثما يبدأ روعه، ثم استقدمه الوالي سرأ وبعد المفاوضة تظاهر الوالي بأنه اقتنع بصحة دعوة الباب وجعل هذا في قصره، ثم عقد له مجلساً لمناظرته فأفتوا بكفره فلم يسع الوالي إلا أن أشار بضربه على رجله فلما استغاث أوعزوا إليه أن يصعد المنبر ويعلن توبته ففعل. وظهر الوباء في شیراز واختلت أحوال فارس فبعث والي أصفهان يستدعي الباب إليه، فلما رأى والي شیراز ذلك نفى جميع أصحاب الباب من ولايته، ولما حُمل الباب إلى والي أصفهان أوعز هذا بأن يحسن القوم استقباله فاستقبلوه، ثم عقد له مجلس المناظرة فأفتى العلماء بقتله، فاعتذر الوالي عن تنفيذ فتواهم، وخبأه في قصره مطلقاً له حرية التأليف والكتابة وبقي في داره حتى قُتل الوالي وخلفه في الحكم ابن أخيه، فطالع هذا رجال عاصمة الملك بالأمر، فأمروا بنفيه إلى آذربايجان فحبس في قلعة جهريق ثم في قلعة ماكو .

وبث الباب دعواته وساعده المحيط واختلال الأمن في كثير من الولايات، فاشتد دعواته في بث دعوته فلقبت قبولاً من بعض الناس، وفي مقدمة أتباعه الملا حسين بشرويه الملقب بباب الأبواب في خراسان، والثاني الملا محمد علي البارفروشي بمازندران والثالثة امرأة من قروين اسمها زرين تاج من عائلة عريقة في العلم وزوجة أحد المجتهدين وهي جميلة الصورة جميلة الأدب، تحفظ القرآن وتعرف تفسيره وأسراره، فاقنعت بصحة دعوة الباب، ولم تلبث أن دعت إليه سرأ وجهراً وإن لم تجتمع به، فمال الناس إلى مواعظها وفتنتهم بفصاحتها وجمالها وجميل شعرها، وقد حسرت نقابها ولقبت بقرة العين، ثم خرجت إلى خراسان فالتقت في رشت بالبارفروشي أحد الدعاة ومعه جند من الباية فبعثا منادياً ينادي «عجلوا أيها الناس فقد ظهر الإمام المنتظر» فنصبوا منبراً ووقفت قرة العين سافرة وحشت الناس على الاعتقاد بالباب فأمن بعضهم وأنكر الآخر، ثم انتقلت على هودج إلى مازندران والناس يتبعونها، وأخذت تطوف القرى تبشر بدعوة الباب فقبضت عليها الحكومة وخنقتها وأحرقتها .

ثم قام الملا حسين بشرويه وقد كثر أنصار الباب وألف منهم جيشاً صغيراً قاتل جيش الشاه في مازندران وجعل الملا علي البارفروشي مقدساً وسماه حضرت أعلى» وحجبه عن الناس، وأصيب بشرويه في إحدى المعارك وأوصى جماعته بأن يطيعوا «حضرت أعلى» وتغلبت الحكومة على قلعتهم وقبضوا على ملا محمد علي وحاكمهم فقتلوهم على بكرة أبيهم. وبلغ عدد من قتل في هذه الوقائع ألفين وخمسمائة من البابية وخمسمائة من الجند وغيرهم. وحدث مثل ذلك بقيام أحد الدعاة الملا محمد علي الزنجاني في زنجان ولكنه لم يوفق. وكذلك وقع في مدينة تبريز فقاتلت حكومة فارس دعاهم حتى أبادتهم. أما الباب فكان مسجوناً في سجن جهريق. ولما اندلع لسان الثورة في مازندران وزنجان وتبريز وقتلت الأنفس، ارتأى رئيس حكومة فارس قتله فقتله بمشورة الشاه في ٢٨ شعبان سنة (١٢٦٦هـ). ووضعت حكومة فارس في أشياهم السيف في جميع مملكتها خصوصاً بعد أن ثبت أن الذي حاول اغتيال ناصر الدين شاه سنة (١٢٦٨) هو من شيعة البابية.

وكان من جملة العلماء الذين فتنوا بدعوة الباب رجل اسمه بهاء الله ميرزا حسين علي فلما وقعت هذه الحوادث قبض عليه وسجن ثم حوكم، وكان سفير روسيا يدافع عنه من تهمة الاتفاق مع الخارجين على الشاه، ثم أفرج عنه ونفي إلى العراق فأرسل مخفوراً بالجند الفارسي مع بعض فرسان من سفارة روسيا في طهران لثلاثين يوماً في الطريق فأقام في العراق ١٢ سنة ثم حمل إلى الاستانة ومنها إلى أدرنة فأقام فيها نحو خمس سنين ثم صدر الأمر بنفيه إلى عكا سنة (١٢٨٥هـ). ونفي أخوه مرزا يحيى نوري الملقب بعد بيحيى صبح أزل إلى قبرس وظل البهاء في عكا حتى وافاه أجله سنة (١٣٠٩) فدفن فيها، وخلفه ابنه عباس أفندي وكان كأبيه على غاية من حسن السمات والأخلاق وعظم النفس وبسط اليد وجمال الأدب وحسن العشرة حتى استمال بأخلاقه من يعتقد بالبابية ومن لا يعتقد. ولما توفي سنة (١٩٢٢) تفرق أمر الجماعة وانقلبوا فرقاً كما كان عباس أفندي في حياته مع صبح أزل متخاصمين متشاكسين. وسرت دعوتهم إلى عدد قليل من أبناء الشام وإلى بعض أهل أوروبا وأميركا. وبيالغون في عدد من دانوا بهذا المذهب

في الغرب. وهم في الشام وفي أميركا وأوربا بضعة آلاف على الأغلب .
يقولون: إن من تعاليم الباب تحريم الكتب المترلة قبله ونسخ القرآن وأحكامه .
وإنه قضى بهدم المزارات حتى الكعبة وقبر الرسول وفرض بناء ١٩ مزاراً
باسمه ومن دخلها كان آمناً، وأبطل الحج وقسم السنة إلى (١٩) شهراً وجعل
الشهر الواحد ١٩ يوماً فأيام السنة عنده (٣٦١) وأضاف إليها خمسة أيام
سماها المسروقة ورمز عنها بحرف (هـ) وجعل أول يوم من شهر (فروردين
ماه) الفارسي الموافق للحادي والعشرين من شهر مارس الإفرنجي الغربي
الذي هو يوم الاعتدال الربيعي وهو يوم عيد النوروز عند الفرس عيداً للفرط
وخصه بنفسه وسماه عيد رضوان. وجعل الصوم (١٩) يوماً من شروق
الشمس إلى غروبها وخصص الأيام الخمسة المذكورة للهو والطرب قبل
دخول شهر الصيام. والمطهرات عنده خمسة النار والهواء والماء والتراب
وكتاب الله (أي البيان كتابه) وكيفية التطهير بالبيان أن يتلى ما تيسر من
اسم النقطة أي الباب مع تلاوة آية التطهير (٦٦) مرة على كل شيء نجس .
وجعل الدم وروث البهائم وغيرها طاهراً. وللباب وخليفته بهاء الله عدة
رسائل وكتب منها ما كتبه بالفارسية ومنها بالعربية، من أهمها من قلم الباب
كتابه البيان وفيه شريعته وتعاليمه. ومن أهم كتب بهاء الله كتاب أقدس
سهج فيه منهج القرآن في ترتيب الآيات والسور ودون فيه شريعته وأحكامها
باللغة العربية. وقد أدخل البهاء عدة إصلاحات على مذهب الباب اقتضته
الحال ذلك. وبعضهم يطلق على أهل هذا المذهب اسم البابية نسبة للمؤسس
الأول وبعضهم يلقبهم بالبهائية نسبة لبهاء الله الذي زاد في المذهب ونقص
منه، وهم يسمون أنفسهم أهل البيان .

قال كليمان هوار: إن الباب أنشأ ديناً جديداً بتعاليمه وعقائده وأنشأ
مجتمعاً جديداً تحت ستار الإصلاح في الإسلام. فالله واحد وعلي محمد مرآته
التي ينعكس فيها النور الإلهي ويتأني لكل إنسان أن يشاهدها. وقال الباب
في كتابه البيان: عليكم أن تجعلوا من أنفسكم ومن أعمالكم مرآتي بحيث
لا ترون فيها إلا الشمس التي تجوبنها وقد برأ الله العالم على سبع صفات سميت
حروف الحقيقة وهي القدر والقضاء والإرادة والمشئمة والإذن والأجل

والكتاب. ويدير شؤون الطائفة (١٩) رجلاً وكل بابي يدفع لهم في السنة خمسة في المئة من قيمة رأس المال، وتلغى جميع العقوبات ما عدا الغرامة التي توضع على زوجين لا يريدان أن يتعاشرا بالمعروف. والتجارة والعقود مشروعة، ويسمح بدفع فائدة عن بضائع بيعت بالنسيئة. والزواج إجباري بعد الحادية عشرة والطلاق ممقوت، ويمهل الزوجان المتخاصمان سنة لتأليف ذات بينهما، وعلى الأراامل من الرجال والنساء أن يتزوجوا، وعدة الرجال منهم تسعون يوماً والنساء خمسة وتسعون يوماً وإذا لم يفعلوا يغرمان غرامة. ولا يضرب الولد قبل أن يبلغ الخامسة وبعد ذلك لا يضرب أكثر من خمس ضربات. ويسمح لمن يدينون بهذا المذهب أن يستعملوا الحلي والجواهر خلافاً لما أمر به الشرع الإسلامي. ويسمح لهم بالوضوء ولكن لا على أنه فرض، ويجب أن يكون في كل حي حمام، ولا يتحجب النساء ويؤذن بالتحديث إليهن من دون إكراه، وأن يكون الكلام معهن جهراً لا سراً. ويحج أتباع الباب إلى البيت الذي ولد فيه حيث يقام له مسجد، أو إلى المكان الذي سجن هو فيه أو خاصة حواريه، ولا يسمح لمن يدينون بمذهبهم بالارتحال والسياحة إلا لمن اضطر إلى ذلك، ولا يسمح بركوب البحار منهم إلا للحجاج والتجار، ولا تقام صلاة جماعة إلا على الأموات وخطبة المسجد واجبة، ويدفن الموتي في زجاج أو في حجارة منحوتة مصقولة، ويجعل في يد الميت اليمنى خاتم يكتب على فسه «لثلا يفرع الموتي في قبورهم». وليس من حق أحد أن يستعمل الشدة مع إنسان ولا أن يسيء إلى أخيه، ويجيبون على كل من يكلمهم أو يكاتبهم ويفرض عليهم أن يؤدوا الرسالة التي ائتمنوا عليها إلى صاحبها من دون عبث بها. ويحظر عليهم تعاطي المخدرات والمسكرات، ويجب أن يدعو كل واحد منهم في كل شهر تسعة عشر إنساناً، وأن يجتمع معهم ولو على شرب الماء القراح، ويحظر عليهم الكدية، ومن الضلال إعطاء الشحاذين. وتقسم مواريتهم على الصورة التالية بعد صرف نفقات الدفن والحنازة: للولد (٩) من ستين وللزوج (٨) من ستين وللوالد (٧) من ستين وللأم (٦) من ستين وللأخ (٥) من ستين وللأخت (٤) من ستين وللأستاذ (٣) من ستين، ولا يرث أحد من ذوي القربى بعد ذلك اه .

وحُظر على البابية لما نزلوا عكا الدعاية إلى مذهبهم في الشام. ولما أعلنت

الحرية سنة (١٩٠٨) انتقلوا إلى عكا وزاد أشياعهم قليلاً وهم هنا قلائل ربما لم يتجاوزوا المائتين وهم على غاية من حسن الأخلاق وجميل المعاملة قلما شكوا منهم إنسان أو اشتكواهم من إنسان، ولا تجد بينهم من لا يحترف حرفة ويعمل ويكد. ولا سيما رئيسهم الأخير عباس أفندي فقد كان محافظاً على صلواته مع الجماعة لم يخرج في سمته عن روح الشرع الإسلامي. فلما أن يكون صادقاً في إسلامه أو أنه عاش في تقية متقنة كما يعيش كثير من أرباب النحل الضعيفة بين المخالفين لهم من السواد الأعظم، ولا سيما الشيعة بين ظهرائي أهل السنة .

وكان عباس على علم وأدب إذا تكلم يمزج الفلسفة بالمثقولات فيتعذر على كل إنسان فهم كلامه، وله خطب ومواعظ انطلق بها لسانه في سياحة له في أوروبا وأميركا دامت خمس سنين، ويؤخذ من مجموع أقواله أن البهائية أو البابية ترمي إلى تطبيق الشرائع السماوية على العقل وحلّ المشاكل القائمة بين أهل الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام. وقال مرة: إن الباب صاحب المذهب كان يريد التوفيق بين السنة والشيعة. بل كان يرمي إلى وحدة العالم الإنساني ونشر السلام العام والتأليف بين قلوب البشر بقوة الدين وتحكيم العقل والعلم، ونبذ التعصب الديني والجنسي والوطني والسياسي، ونشر العلم وإنشاء محكمة عامة كبرى تفصل الخلافات التي تحدث بين الشعوب والدول، وإلى تربية نبي البشر على الفضائل الإنسانية وإلى إقامة القواعد الاقتصادية وتأليف لغة عامة تفهمها جميع الأمم .

ويقال على الحملة: إن التشيع كان منشأ البابية والإسماعيلية والنصيرية والدرزية. وكما كانت فارس مثابة كثير من أسباب المدنية الإسلامية كانت أيضاً منشأ معظم ما تفرع من الإسلام من النحل والطرق الغربية. ولو تسامح أهل هذه المذاهب في نشر حقائقها، لما تقول عليهم المتقولون، ولا رماهم المخالفون بما قد يكونون منه أبرياء. بقي أن يقال: إن في الشام مذهب اليزيدية عبدة الشيطان، ومن يتحلون هذه النحلة قريتان في ضواحي حلب، ولما كانت جمهرة أهل مذهبيهم في جبل سنجار من عمل الموصل لم نخصهم بمبحث خاص لأنهم لا يسترعون الانتباه ويتمثلون على الأغلب في سواد الأمة والله أعلم .

الاحلاق والعادات

عادات الدمشقيين :

كان سمر الشاميين قبل نصف قرن تقريباً في بيوتهم، تكتفي كل طبقة باجتماعها مع أهل طبقتها، فتتج عن ذلك أن ترى في المدينة الواحدة من مدن الشام الكبيرة تبايناً، يكاد يوهم لأول وهلة أنهم من أقاليم مختلفة يتباينون بأزيائهم وماكلهم ومشاربهم وسمرهم ولهجاتهم، وبالطبع بتصوراتهم وعقليتهم إلى أن ولي الشام مدحت باشا الوالي العثماني الشهير ووضع أسس الإصلاح العلمي والاجتماعي والإداري، وبدأت النهضة الأدبية عقب ذلك فتعارف الأولاد بالمدرسة أولاً، وتقومت ألسنتهم، واعتادوا التلطف بالفصيح الصحيح، وفتحت الأندية والمقاهي ودور التمثيل، ثم قاعات الصور المتحركة، وتعارف الناس وقلت الفوارق، وقضي على الأرستقراطية إلا قليلاً، وحلت محلها الديمقراطية، فنشأ عن ذلك اعتياد الشباب الراقي المتعلم ارتياد المحال العامة والاحتكاك بمن مضى وقت تعليمهم، فمرنوا أيضاً على التخاطب بالفصيح الصحيح ما أمكن، وعم ذلك جميع الطبقات حتى غير المسلمة وما نزال نرى ذلك في تقدم مستمر .

تنقسم حفلات الدمشقيين إلى مدنية ودينية. أما الدينية فتتخصر فيما يلي: عيد الفطر والنحر، والرجوع من الحج، والإياب من زيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وسنة الحتان، وبعض نذور الله يقوم بها من أبل من مرض شديد، وآب من سفر خطر أو بعيد، وعادات القوم في تلك

الأعياد لإخراج الصدقات والزكوات والتوسيع على الفقراء، وتكثر الزيارات، ويتصافح القوم عما بينهم من سيئات، ويصلون أرحامهم ويوسعون على عيالهم. وعادتهم في ذلك أن يبدأ الأصغر سناً بزيارة الأكبر، ويُقدّم الأكبر سناً ويحترم في كل شيء. ومنشأ ذلك على ما أعلم الأمية فإن غلبة الأمية على قوم تضطّروهم إلى احترام من كان أكثر تجربة منهم، ومن مرت عليه السنون، وحلب الدهر أشطّره وكثرت تجاربه، كان جديراً بالاحترام. أما اليوم فحقيق بالاحترام من يقدم الخدم النافعة لأمته، وليس للسّن دخل في ذلك. وخير الناس كما قيل أنفعهم للناس.

ويتقدم عيد الفطر شهر رمضان، وللمشقيين فيه عادات: منها إتمام فريضة الصيام، والانتقطاع عن بعض عادات ضارة، ويقضون نهاره في سماع المواعظ في المساجد، وليله في زيارات بعضهم بعضاً، وارتياح محال للهو المباح، وتكثر حركة الأخذ والعطاء والبيع والشراء، وهو من المواسم المذكورة.

أما حفلات الحج في هذا العصر، فتم حين رجوع أحدهم من بعد أداء فريضة الحج بأن يقدم إلى خواص ذوي قرباه وجيرانه وأصدقائه وأحبابه هدية، وتختلف هذه الهدية بحسب مقدرته المالية، ويبتدئ المهثون بزيارته في داره، ويقدم له خواص أصدقائه وأقربائه قبل وصوله إلى وطنه هدايا تكون غالباً من اللباس الفاخر، ويكون مثل ذلك بعد رجوع أحدهم من زيارة مسجد الرسول. وتختتم هذه الزيارات غالباً بإقامة حفلة يدعونها مولداً وهي عبارة عن اجتماع يضم أصدقاء المحتفى به وذوي قرباه وزملاءه وجيرانه في داره، ويدعون المنشدين ويفتتحون بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم وينشدون بعض قصائد في مديح الرسول يتلون المولد النبوي فيه وتعداد بعض مآثره ونسبه وبعض أرهاصات تقدمت بعثته، وحين مولده، يقصدون من ذلك التبرك.

ومثل ذلك حفلة الختان ومن المتعارف فيها أن يهدي إلى صاحب الحفلة أهله وأصدقائه شيئاً كثيراً من السمن والأرز والغنم والقهوة، بل من جميع ما يلزم لتلك الحفلة، ويكون ذلك ديناً عليه وفاؤه، حين إقامة حفلة مثلها

عند المهدين. وتختم هذه الحفلة مثل أخواتها أيضاً بتلاوة المولد .

ولم يبرح بعض من لا يعتدّ بقولهم يندرون بعض نذور غريبة وهي ما يسمونه بالنوبة يقيمون لها حفلة هي عبارة عن دعوة بعض الفقراء المشعوذين، ممن يضربون على الطار والطلبل، ويلعبون بالشيش، وبعض قطع من السلاح الأبيض ويطفثون بأفواههم النيران فيجتمع عليهم الأطفال وبعض صغار الأحلام فقط. وهي عادة أصبحت على وشك الزوال .

ومن الحفلات الدينية أيضاً حفلات تكايا أو زوايا المولوية، وأرباب هذه الطريقة لهم حين إقامة هذه الحفلات لباس خاص وهو ثوب أبيض فضفاض، ويلبسون على رؤوسهم ما يسمونه « كلاهاً » وهو من اللباد مستطيل الشكل، ويمتاز رئيس تلك الطريقة بوضعه عمامة خضراء فوقها ويدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة جداً من حيث الفن الموسيقي. وهي من حيث نظامها أتقن حفلات الشرق الدينية على الإطلاق، وهي بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية .

إذا حضرت أحدهم الوفاة تعلن وفاته إن كان من الأشراف والعلماء وأرباب الظهور في مآذن المدينة، ثم يحضر غسل المتوفى أصدقاؤه وذوو قرباه. وغسل الميت عند المسلمين يقوم مقام التقرير الطبي في هذه الأيام، يثبت بها أن الميت مات ميتة طبيعية فيطلع الغاسل على عامة جسمه، فإذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ظهر ذلك لحاضري غسله، وهم غالباً من محبيه، فيشيع ذلك ويتصل بالحكام، وبعد غسله يشيعون جنازته إلى أحد المساجد ويصلون عليه، ويذهبون به إلى المقبرة ويمشي المؤذنون أمام جنازته يذكرون الله وذلك إشهاراً لموته وإعلاناً له. وبعد رجوعهم من المقبرة يذهبون إلى منزل عميد الأسرة يعزونه ويحضرون على ثلاث ليال بعد العشاء أحد المساجد القريبة من دار المتوفى، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم، ويسمون ذلك « صباحية »، ويحضر تلك الحفلة أقباء الراحل وجيرانه وزملائه، ويصرفون على الفقراء والمعوزين الدراهم والطعام بحسب ثروة المتوفى. وهذه العادة كادت تبطل لمعرفة القوم بقيمة الوقت فأخذوا يكتبون بالتعزية في

بيت آل الفقيد. وعادة عيادة المريض معدودة عندهم من الواجبات يواسونه ويسلونه ويكررون الاختلاف إليه .

من عاداتهم المدنية أنه متى بلغ الشاب العشرين إلى الثلاثين أن يتولى عميد أسرته لإرسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أخت وعمة وخالة ونسيبة وبعض خواص الجيران إلى بيوت المدينة وأحيائها يبحثن وينقبن على زوجة لذلك الشاب، وتكون قاعدتهم في خطبتهم غالباً الكفاءة من جهة الثروة والسن والآداب. ولا يزلن يوالين بحثهن عاماً كاملاً على الأقل ومتى قر قرارهن على إحدى البنات يكررن التردد إلى دارها مرات عديدة ليرينها يجمع مظاهرها، يرينها في زينتها وفي وقت الغسيل ووقت الطبخ وتنظيف المنزل. وعادة الدور التي يكون بها بنات في سن الزواج وهي عادة من الخامسة عشرة إلى الخامسة والعشرين أن يناط بالبنات تقديم القهوة والشراب للخطابات فيتأمل الخطابات مشيتها ونقل أقدامها وأدبها في تقديم القهوة في الإياب والذهاب ويخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها، ومتى أصبح الأمر تقريباً واقعاً يذهبن إلى الحمام معاً ويرين جسمها عارية وشعرها ويشممن آذانها وفمها وتحت إبطها ورائحة عرقها وثيابها، وينقلن ذلك إلى الخاطب وعميد الأسرة مع وصف شكلها وجمال وجهها وطولها وغير ذلك. هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب .

أما وظيفة النساء من جهة الخاطب فيزرن الحي القاطن فيه سرّاً ويرسلن من يتقن به من أقربائهن وجيرانهن فيدخلن غالب بيوت ذلك الحي باحثات عن أخلاق الخاطب وثروته وتجارته أو وظيفته، وعن عدد آل بيته ومركز تلك الأسرة في الهيئة الاجتماعية. ويجري التقصي عن آداب بيت الخاطب وأصوله ويذهبن بالمخطوبة سرّاً إلى مقر الخاطب أو طريق ذهابه وإيابه فتراه فإذا راق الخاطب في أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة. وهنا تنتهي مهمة النساء، ثم يتألف شبه وفد من عميد أسرة الخاطب، والبعض من معارف عميد بيت المخطوبة، إلى دار ذلك العميد، ويطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب، بعبارات تختلف بحسب مركز تلك الأسر في المجتمع. ويكون الأمر مقضياً على الأغلب

بعد تلك التمهيدات، ويقررون المهر ويقرأون الفاتحة فاتحة القرآن الكريم للتبرك دليلاً على رضى الطرفين. وبعد ثلاثة أيام يقدم الخاطب خاتم الخطبة. وبعد أسبوع غالباً يحتفل بحفلة العقد يقوم بها الخاطب، فيدعو برقاع مطبوعة على غاية الإتقان أهله ومعارفه، معيناً وقت الدعوة ويومها، ويرسل إلى عميد أسرة المخطوبة بعدد من تلك الرقاع يتفقون عليه من قبل، فيدعو من أراد من أسرته وأصدقائه. فيجتمع المدعوون في المحل المعين ويجري على الأغلب افتتاح تلك الحفلة بقراءة المولد، وتدار المطربات وقراطيس الحلوى على المدعوين، بعد عقد قران الزوجين الشرعي، وينفض المدعوون، وتنتهي حفلة العقد بعد دفع المهر المقرر، وبعد شهرين أو ثلاثة غالباً يذهب وفد نسائي من قبل العروس بعد أن يكون أهل العروس أتموا لوازم عروسهم يحملن هدية تختلف بحسب مكانتهن، يسميها «تعيينة» فيجمن موعد حفلة العرس وعدد المدعوات من أهل العروس وتكون تلك الحفلة ليلاً في الغالب، ويرسلون بطاقات الدعوة، وليلة الحفلة يرسل وفد من النساء في مركبات على عدد المدعوات من النساء إلى دار العروس، يأتين بها من دارها مع المدعوات إلى دار العروس، وتكون هذه على غاية الرواء والبهاء والزينة، ويدعى عادة إلى تلك الحفلة المغنيات والمطربات ويقضين تلك الليلة بعد دخول العروس بعمره غرفة خلوتها بالغناء والرقص وسماع الموسيقى وآلات الطرب، ويمسح على ذلك إلى الصباح، وتعود السيدات المدعوات إلى دورهن ويبقى في بيت العروس بعض الخواص من أهلها، مثل أمها وعمتها وخالتها ومريبتها سبعة أيام.

هذه هي الحفلة النسائية أما الحفلة الخاصة بالعروس (الرجل) فيتقدم أحد وجوه أسرته أو أصدقائه غالباً يعد داره لتلك الحفلة ويسمونها «تليسة» ويدعون إليها جميع أقارب العروس وأصدقائه وأزباب مهنته وجيرانه، في جوقة موسيقية تدبر هذه الحفلة نحو ساعتين تطرب الحضور بأنغامها، ومتى حان للعروس لبس ثيابه يهزج الشباب عادة عند إلباسه كل قطعة من ثيابه بأهازيج وطنية عامية بحسب كل عصر ومصر. يذهب به الحضور عقب ذلك إلى دار حفلة العروس بالأهازيج، ويدخلونه الدار مع عميد الأسرة

فيدخله ويضع يده بيد عرسه ويدخل بهما إلى غرفتهما ويذهب بسلام .
 هذه حفلات الزواج وعوائد القوم قديماً، واليوم قد زيد عليها معاينة
 صحة الزوجين، وينظرون إلى الكفاءة العلمية قبل كل شيء مما يبشر الأسرة
 المقبلة بأعلى درجات السعادة الزوجية، وهذا الشكل في تأسيس الأسرة يعرض
 عليه المحافظون بالنواجذ، ويؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة، ويرونه أضمن
 لحفظ السعادة البيتية من جميع أشكال النظم المتبعة في العالم .

ومن عاداتهم الخروج أواخر فصل الشتاء وأوائل الربيع إلى المنتزهات
 العامة يوماً في الأسبوع لاستنشاق الهواء النقي، على اختلاف عاداتهم ومذاهبهم،
 نساء ورجالاً، وتكون أماكن جلوس النساء خاصة بهن غالباً، ولا يتيسر
 للرجال أن يخالطوهن بحكم العادة، والشاذ قليل. ومن العادات القديمة
 التي نشأت من الأمية أيضاً سماع القصص في المقاهي وقد تلاشت الآن هذه
 العادة، وكان يجتمع في المقهى عدد يختلف بحسب المحل والقصص، يتصدر
 القصص « الحكواتي » في صدر المكان ويقرأ لهم غالباً القصص التي يرغبون
 فيها مثل رواية عنزة والوزير وأبي زيد وهي روايات حماسية، تمثل الشجاعة
 والكرم والأنفة والحمية والوفاء والصدق والمروءة والجرأة وحفظ النمام
 ورعاية النمار والجار، إلى آخر ما هنالك من مكارم الأخلاق ينسبونها إلى
 أبطال الرواية، ويجعلون نهاية النصر لهم والدائرة على منائهم، ويصفون
 الخصوم بالخبين والكذب والبخل والرياء والغدر والخيانة والنكث بالعهد
 إلى آخر ما هنالك من مفاصد الأخلاق، مما يربي نفوس السامعين على حب
 الفضائل ويحبب إليهم العمل بها، ويبغض إليهم النقائص ويحملهم على البعد
 عنها، وغالب من يجتمعون لسماع تلك الأقاصيص من طبقة العوام، وهم
 متصفون ببعض تلك الفضائل .

ومن ملاحظهم خيال الظل والعوام يدعونه « قره كوز »، وكان في
 أول القرن الحاضر من أشد العوامل تأثيراً في تهذيب الأخلاق وتقويمها، بما
 يلقبه أستاذ هذا الفن المشهور بدمشق علي بن حبيب على ألسن تلك الخيالات
 من المواعظ الأخلاقية، بعبارات ملؤها انتقاد، تفعل في قلب أشد الناس
 بلادة، وكان يصور في كلامه العادات السيئة المتفشية في عصره، ويظهرها

في قلب ينفر الناس منها، ويصور ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وأغلاطهم، في صور نقد لطيف، وكان يحترمه عليه القوم ويعد أستاذاً كبيراً في الموسيقى تخرج به كل من ينتمي لهذا الفن بدمشق .

ومن العادات الشائعة تعاطي القهوة والشاي في المقاهي العامة شتاءً، وأنواع المرطبات صيفاً، والتدخين بالتبغ والنارجيلة على الدوام، وتكون صورة اجتماعهم حسب طبقاتهم، ويرتادون أماكن سمرهم هذا، بعد العشاء حين الانتهاء من مزاولة الأشغال وطلب الراحة. وأحاديثهم غالباً تدور على السياسة وفي موضوعات علمية واجتماعية يمتدحون فلاناً لمكرمة أتاها، ويذمون فلاناً لتقصية بدرت منه. ارتقت أحاديثهم في هذا القرن إلى الخوض في هذه الشؤون العامة، ولم تكن في القرن الماضي تتعدى أحاديث البطون والفروج إلا قليلاً. ومنهم من يقضي سمره ببعض الألعاب الشائعة كالشطرنج والبليار والدومينة والداما والزرذ وألعاب الورق على اختلاف أشكالها وأسمائها .

وقد فشت مؤخراً عادة ارتياد بعض الشباب أماكن الشراب، وموقعها غالباً بين الرياض والغياض، وعلى ضفاف الأنهار، وتكون أغلب تلك الاجتماعات متجانسة، فتراهم جماعات متشاكلين حول مناضد الشراب، يجتمع كل أليف إلى أليفه، وتجد جالساً إلى كل منضدة غالباً رجلٌ من أرباب الصوت الحسن ينشد أصحابه الأناشيد الحسان. ومنهم من يختلف إلى زمرة من الموسيقيين الفنانين، يصحبون آلاتهم كالعود والكمنجة والقانون والدائرة والناي. ومنهم من يقتصر على بعض تلك الآلات. وتجري غالب الاجتماعات في أماكن خاصة. وأما المحال العامة للشراب فتحتوي من كل شيء أحسنه كالمنشدين والمغنين والآلانية، وتسمى تلك الأماكن الجنائن، تضم غالباً الماء والحضرة والشكل الحسن، وتبتدىء وقت الغروب وتنتهي عند منتصف الليل.

هذا مجمل عادات دمشق ولا تختلف عنها عادات سكان القطر في الشمال والجنوب والغرب اختلافاً يذكر ما خلا بعض عادات دينية عند الطوائف غير المسلمة، وفيما عدا ذلك فهم متشابهون في أخلاقهم الاجتماعية، ويمتاز سكان هذه الديار من غيرهم في المحافظة على ما ورثوه من بعض أخلاق

الفاحين العرب منذ نيف وثلاثة عشر قرناً وهي الرزانة والوقار والصبر على المصائب، ويلتزمون هذه الرزانة وهذا الوقار في أعمالهم ومجالسهم بل وفي بيوتهم وبين ذويهم ومجالس سمرهم وشرايبهم وأنسهم، ويكرهون من يتصف بالطيش والرعونة والشكوى الصريحة ويتجنبون مجالسته، ولكل عادة من هذه العادات شذوذ وهي قليلة.

عادات الحلبيين (*) :

للحليين المسلمين عادات يستعملونها في أفراحهم وأتراحهم نذكر منها شيئاً يحفظه التاريخ إلى ما بعد أن يجتاحه تطور الزمن فيبقى ذكره من مستغرب الأخبار ورائع الآثار فنقول :

مما يستعملونه في قضية الولادة أن الطفل متى تمخضت به أمه وولده تلمسه القابلة فإن كان غلاماً صلت على محمد وإن كان جارية ترضت عن فاطمة الزهراء ثم يقدم إلى أحد أقاربه فيؤذن في أذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه ويطبخ لأمه حلوى بالشونيز والجوز لتكثير لبنها وتقتصر بالشرب على ماء الحمام المنقوع فيه أصول البنفسج مدة أسبوع ويرسل أحد أصدقاء الأسرة مائدة كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلابية معها أبلج السكر، ويوم أهل المولود في اليوم السابع وليمة حافلة بين أطعمتها حلوى قوامها الدبس والشمرة تعرف باسم « المغلي » وقد يحضر في ليلة تلك الوليمة قيان للنساء ومطربون للرجال، وكل صديق لأبوي المولود يقدم هدية بعضها مأكول وبعضها مما يتحلى به ومنها مسكوكات ذهبية قديمة تعلق في قلنسوة الطفل واسم ذلك « تهنية » وبعد مضي أربعين يوماً على الولادة تؤخذ النفساء إلى الحمام مع أترابها من النساء ويكبس بدنها « بالشدود » وهو المردقوش والخزامى المغربية. وإذا شعرت أم الطفل بمغص في بطنه تمضغ له لب عجو الدراقن وتعصر لفاظتها في فمه فيسكن مغصه وتدهن مرقه بالزيت وتذر عليه مسحوق ورق المرسين، ومتى بدأت أسنانه بالخروج تسلق له شيئاً من

(*) هذا الفصل لكامل الغزي أخذاً من كتابه نهر الذهب

الحنطة تدوفه بالسكر ولب الجوز واللوز والفسق وتطعمه منه وتفرق باقيه على الأهل والجيران .

متى بلغ الطفل الخامسة من عمره يرسل إلى المكتب أو إلى الشیخة أو المعلمة إذا كان جاریة ومتى ختم تعلم القرآن العظیم تعمل له حفلة تسمى « نشیدة » یحضر فیها إلى منزل الغلام جماعة الشداة والمطربین ودرأویش الطریقة المولویة وبعد أن تقام نوبة سماح یطاف بالغلام ورفقائه بعض شوارع البلدة وهم ینشدون أزجالاً فی المدائح النبویة ماشياً وراء الغلام حامل المبخرة ورجل آخر ینثر الشعیر علی رؤوس الناس دفعاً لإصابة عیون العینین ثم یعود هذا الموكب إلى منزل الغلام وتبسط له الموائد فیاكل وینصرف ویملأ جیب كل ولد فستقاً وزبیباً مضافاً لیهما شیء من النقود. وقد یختن الولد فی هذا الیوم إذا لم یکن ختن من قبل. واعتاد کثیر من الناس ختن أولادهم فی الیوم السابع من ولادتهم کما اعتادوا ثقب شحمة أذن الأنثی فیه. وقد یفرد لختان الغلام حفلة یدعی إلیها الأحباب والأصحاب ویولم لهم ثم یزین الغلام بالحلی والحلل ویركب علی برذون مزین ویركب وراءه ردیدف یقال له العریف، ویطاف به فی الشوارع یتقدمه أحد مشایخ الطرق راکباً علی برذون مجلل بسجادة الإرشاد مککلاً رأسه بطیلسان أحمر فی یده عقافة یشیر بها إلى جماعته وهم سائرون أمامه یحملون أعلام طریقتهم ویضربون طبوهم، وبعد أن ینتهوا من تطوافهم یعودون إلى منزل الغلام وتتلی قصة المولد النبوی وفی ختامها یختن الولد. وقد یرافق هذا الموكب طائفة من الدارعین ولا بسی الجواشن والحوذ فی أیدیهم السیوف والتراس یقفون فی فسحات الطرق ویلعبون بعضهم مع بعض بسیوفهم وقد سار وراء جموعهم رجل یقود جملاً علی ظهره منصة مهندمة یقوم رجل یرتدی کسوة نساء عرب البادیة یقال له « عبلة » قد أمسک بیدیہ صنوجاً یرقص بها حتی یصل إلى دار المختون وهذا الموكب یسمى « عراضة » .

للغلام فی أول یوم یصومه من رمضان طبق یملاً بأنواع الحلوی یفطر علیه. وإذا بلغ الغلام مبلغ الرجال وتاق للزواج تأخذ أمه وذوات قرابته یلتمسن له زوجة تنطبق أوصافها علی أذواقهن. والأغنیاء یغالون بالمهور

وربما بلغت جملة المهر ألف ذهب عثمانى وزيادة، والمهر عند الفقراء لاحد لأقله والمعجل منه ثلثاه والمؤجل الثلث الباقي. والزوجة الغنية تضيف إلى المهر من مال أبيها قدره وربما زادت وتصرف الجميع على شراء أثاث المنزل . وعقد الزواج يكون في بيت الزوجة باحتفال فائق يحضره المطربون ويطاف على الحاضرين بكؤوس المرطبات وأنواع الحلوى المجففة. وبعد أن يتم العقد بأيام ينقل الجهاز الذي أعدته الزوجة إلى بيت الزوج بموكب حافل يتقدمه جماعة الحمالين ولاعبو السيوف والعصي ، وشداة الأزجال، ويسبق ليلة القران ليال يسمونها «التعاليل» يحضر فيها المطربون والموسيقيون وتحرق الألعاب النارية ، وقبل ليلة القران بليلتين يدعو أهل الزوجة أقاربهم ويفرق عليهم الحناء ونقوشها فينلن منها على أيديهن ما تناله منها العروس على يديها ورجليها ومعصمها وتعرف تلك الليلة بليلة النقش. ثم في صبيحة اليوم الذي يكون القران في مسائه تقام وليمة العرس وتكون الدعوى إليها جفلى يجلس على سماطها من أحب. وفي هذا اليوم يأخذ أهل الزوج الزوجة من بيت أهلها فيركب العربات المزدانة ويأتين بها إلى بيت زوجها وكن قبل ظهور العربات يأتين بها إلى بيت زوجها ماشيات على أقدامهن يزغردن ولا يمررن بها على باب حمام زعماً بأن جنه يخطفها. وأصل هذا ما كان يفعله الانكشارية من اختطاف العرائس اللواتي يمررن على حمامهن فكانوا لا يطلقون سراح العروس إلا بعد أن يأخذوا شيئاً من حليها أو نقوداً من زوجها .

في مساء هذا اليوم يأخذ الزوج زيتته في منزل أحد أصدقائه ويحضر إلى منزله بموكب حافل من المطربين والموسيقيين وهو يسير الهوينى بين شابين يشبهانه يقال لهما سخاديح واحدهما سخدوج. قد حملت أمامه مصابيح ضخمة على عتلات في مقدمتهم شداة يترنمون بمواليات كلما أتم أحدهم مواليه يهتف بالجمع بقولهم: «الله يساور جوز جوز جيز» تحريف «الله يصور الزوج زوج جهاز». وقد تقدم صف الزوج صفوف المطربين وأصحاب الأزجال الحماسية وحملة المشاعل ومحرقو الألعاب النارية والمدرعون واللاعبون بالسيوف ألعاب الفروسية إلى أن يصل هذا الموكب منزل الزوج فيدخله وتلقاه عرسه ويضع يدها في يده أقرب إنسان إليه ويدخلان الغرفة المعدة لهما

ويفتح على رأسيهما طيلسان وردي اللون. وفي صبيحة تلك الليلة يدخل الزوج الحمام ومعه اللحم الغفير من الخلان والإخوان، وبعد خروجه منه يعمل له أصدقاؤه الولائم على عدة أيام وهي المسماة بالصباحيات. وفي اليوم الخامس عشر يولم الزوج لأهل زوجته وليمة شيقة تسمى عزيمة الخامس عشر .

ومما يستغرب من عادات بعض الأهلين من قطان أطراف حلب أنهم يفرشون ليلة القران في غرفة العروسين قטיפه يجعلون رؤوس ما التوى من ريشها إلى جهة صدر الغرفة، فإذا وجد الزوج الوردة زراً غير باسم الثغر حول القטיפه أي جعل رؤوس ما التوى من ريشها إلى جهة عتبة البيت وإلا أبقاها على حالها، وفي الغد يقوم الحصام سراً فإذا لم يقع التراضي بين الطرفين فإنهما يعلنان القضية وتعلو الضوضاء وتشتد الضجة ويفتضح الحال .

ومما يستعمله الحلبيون المسلمون في أتراحهم من العادات هو أن بعض سكان أطراف البلدة يُحضر حين وفاة رجالهم الأعراء عليهم - نائحات بدويات ينثرن على رؤوسهن الحناء ويشددن في أوساطهن المآزر ويخدشن حدودهن ويسودن وجوههن بسخام القدر، وحين خروج النعش من الدار يضربن جبهة بابها بإناء خزفي زاعمة أن هذا العمل يمنع من أن يلحق بالميت غيره من أهله، ونعش الميت يسرون به وهم يجهرون بكلمة التوحيد، وقد يكون في مقدمته من يؤذن أذان الجوق وينشد بعض المدائح النبوية، وقد يمشي أمام النعش جماعة الدراويش المولوية. وإذا كان الميت من مشايخ الطريق يتقدم جماعته ويحملون نعشه ويتجادبونه ويتماسكون به كأنه يحاول الطيران وهم يمنعون عنه وينادونه باسمه ويضرعون إليه بأن يعدل عن الطيران. وحملة أعلام الطريقة يفعلون بأعلامهم فعل حملة النعش به فيركضون بها إبهاماً بأنها تجرهم وتحاول أن تطير بهم إلى غير ذلك من الحركات التي ينكرها الشرع. إذا وصل النعش إلى القبر حطوه إلى الأرض وأخرجوا الميت منه ولحدوه، ومن الناس من يودع في نقرة من جدار القبر قنينة فيها شيء من زيت الزيتون قصد تعتيقه ليتنفع به بعد من يكون مصاباً بالريح فيطلي منه بدنه فيبرأ .

في الليالي الثلاث الأولى من الوفاة يجتمع في مسجد الحلي بين العشائين

نفر من الرجال والأطفال يكررون كلمة التوحيد وفي أيديهم سبحة كبيرة ينتظم في سلكها خمسمائة حبة كل حبة منها في حجم الجوزة. فإذا دارت دوراً سكتوا وتلا إمام المسجد شيئاً من القرآن. ثم تدور دوراً آخر في ختامه ينتهي الذكر ويفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة بالغريبة. في صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع الجُم الغفير على القبر وتمد البسط على أطرافه وتوضع عليه قمام ماء الورد وتنثر فوقه الزهور ويفرق على الحاضرين أجزاء الربعات وبعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس حلقة ويذكرون الله تعالى ويفرق على الفقراء شيئاً من النقود ويعزي الناس أهل الميت وهم في المقبرة. وهذا اليوم يسمى الثالث وفيه وفي كل من اليوم السابع واليوم الأربعين واليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من القراء إلى بيت الميت يتلون القرآن العظيم في نهارهم، وفي المساء تبسط الموائد ويفتح باب الدار للفقراء فيأكلون ويزودون .

ومما اعتاده الحلييون في أول يوم من المحرم أن يكون فطورهم من طعام حلوى، وأن يخرج جماعة من العجزة يتصدق عليهم الناس بشيء من البرغل يقال لهم « فاز من صلى » سموا بلازمة زجل ينشدونه على الأبواب وهو « فاز من صلى على تاج العلي طه النبي المصطفى جد الحسين » وبعض الناس يسمونهم الحسينية. وهذه العادة موروثه عن الطوائف العلوية التي كانت تقطن حلب. وفي يوم عاشوراء يوسع الناس على عيالهم بالمطاعم ويطبخون طعام الحبوب الذي يشير إليه ابن منير الطرابلسي الشاعر بقوله :

« وسهرت في طبخ الحيسو ب من العشاء إلى السحر »

وفي يوم عاشوراء كانت الحكومة قبل خراب مشهد الحسين تولم فيه وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه وينشد أحد المطربين قصيدة ابن معتوق في رثاء الحسين التي مطلعها « هلّ المحرم فاستهل مكبراً ». وتعطل الحكومة أيضاً في آخر أربعماء من صفر وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وتحتفل بتلاوة قصة المولد النبوي في الجامع الكبير، ويستمر الناس على تلاوة هذه القصة ليلاً ونهاراً إلى آخر هذا الشهر، ويولمّون من أجلها الولائم العظيمة. وتعطل أيضاً في اليوم السابع والعشرين من رجب وتحتفل بقراءة قصة المعراج

في المشهد المذكور. ويجتمع الناس ليلة النصف من شعبان في المساجد بين العشاءين ويقرأون سورة يس ثلاث مرات ويلقنهم الإمام دعاء ليلة النصف المذكور في كتاب نزهة المجالس وغيرها من الكتب، وتهجر المعاصي في شهر رمضان ويكثر ترداد الناس على الجوامع والمساجد ويقبلون على تلاوة القرآن ومنهم من يقصد المقاهي ليلاً للتفرج على المشعوذين والمتصارعين . ويخرج قرب السحر طبال يوقظ الناس للسحور ويعقبه شدة المدائح النبوية في منارات الجوامع . وبعد صلاة العيد يخرج الناس إلى المقابر لزيارة موتاهم، وكان يخرج قبل العيد بيومين رجل سُخْرَة معه حمار مدرع بالودع والحرز والأجراس يستجدي الناس بالرقص ويضحكهم بحركات حماره يقال له جحش العيد. وكان يخرج في أيام العيد ولدان قد صبغوا أجسامهم بالسواد وعلى رؤوسهم الطراير يستدرون لإحسان الناس بالرقص والقفز ويقال لهم «بيضه بيضه»، وبعد انتهاء العيد يأخذ رواد الحجاز أهبتهم ويسافرون لأداء فريضة الحج ويحتفل أحبابهم بوداعهم. وفي عيد النحر يقبل الناس على الضحايا. وفي تاسع آذار الرومي الشرقي يخرجون صباحاً إلى ضاحية البلدة لاستنشاق نسيم الصبا التي تهب في ذلك الوقت كما يزعمه بعض المنجمين. ويكثر خروج الناس في أوائل أيام الربيع إلى جبل الجوشن وما قرب منه فإذا نور الشجر وأورق يترددون على البساتين. وفي شهر نيسان يحتكرون مؤوناتهم من السمن والجن والفحم. وكان النساء في يومي أربعاء الزوبعة وخميس البيض (ويكونان قبل يوم الأحد وهو أول يوم من عيد الفصح) يخرجن إلى البساتين ويمضين فيها سحابة يومين ويفعلن مثل ذلك في يوم الاثنين الذي يلي عيد الفصح، ويزعمن أن من لم يخرج إلى التزهة في هذه الأيام لا يأمن الصداع ووجع الرأس، إلى غير ذلك من العادات التي بعضها مستحسن وبعضها مستهجن مما هو مذكور في كتاب نهر الذهب مسهباً مفصلاً .

وأما ما يستعمله النصارى الحلبيون من العادات في أفراحهم وأتراحهم فمنها أن يريد الزواج منهم يبدأ بتصفح وجوه النسوة في مجامع الناس وحين خروجهن من الصلاة فمتى أعجبتة أنثى سعى بإعلامها أنه يرغب أن تكون له زوجة وهذه هي الخطبة الأولى. ثم يسعى بالخطبة الثانية وهي أن يرسل

أحد أوليائه مع كاهن طائفته إلى ولي مخطوبته فيعلمه أن موليهما يرغب أن تكون موليته زوجة له فإذا أجاب طلبهما وضع الكاهن يد أحدهما بيد الآخر علامة على الرضى المتبادل، وبعض الكهنة يسأل المخطوبة بقوله هل رضيت أن يكون فلان زوجاً لك فتطأطي رأسها بالإيجاب وحينئذ يقدم لها قطعة من الحلبي مرسلة من زوجها وبعد ذلك يشرع الخاطب بزيارة مخطوبته. وطالما نهي الكهنة عن كثرة هذه الزيارة فذهب نهيهم سدى. وبعد مدة يرسل الكاهن إلى أهل المخطوبة ليتفق معهم على ميعاد عقد الخطبة وليقدم هدية الخاطب إلى مخطوبته. وهذا العمل يسمى المشورة وقد ينكث أهل المخطوبة ويفسخ عقد الخطبة فيقيم الكاهن الحجّة على أهل المخطوبة ويغرمهم ما أنفق الخاطب في مدة الخطبة. أما إذا لم يفسخ عقد الخطبة فإن رقاّع الدعوة ترسل بتوقيع الوليين إلى المدعويين لحضور حفلة الإكليل، فيقبل المدعوون إلى بيت الخاطب في اليوم المعين ثم يتوجهون إلى بيت المخطوبة فيضعون عليها خمارها وأزهارها وتكون جميع ثيابها بيضاء ويأتون بها في وقت العتمة إلى بيت خاطبها وهي تسير الهويني بين امرأتين على شاكلتها وأمامها المصاييح وجماعة الموسيقي، حتى إذا اقتربت من بيت خاطبها خف لاستقبالها فخاصرها ودخل بها إلى منزله وانتظم عقد المدعويين، ثم يقف العروسان بين يدي مطران الطائفة ومن معه من الكهنة وهم متحلون بملابسهم الكنائسية ويشرع المطران يترنم بآيات من الإنجيل مخصصة بعقد الزواج ويجري بين العروسين الإيجاب والقبول ويلقي عليهما النصائح ويأمرهما بالتحابب والطاعة أحدهما للآخر ويستغرق ذلك نحو ساعة من الزمن. وفي الختام يرفيهما هو والحاضرون ثم تعزف آلات الطرب وتندور أقداح الراح فيرقصون ويمرحون إلى الهزيع الأول من الليل، فيقدم للحاضرين سفرة « الدخلة » وهي قطع من لحم الدجاج الهندي والمهضم المحمضة المعروفة بالمخللات والخبز الحواري وغير ذلك وبعد أن يتم الحاضرون أكلهم يعودون إلى السماع والطرب. ثم في منتصف الليل يقوم بعض الأدباء ويهني العروسين بقصيدة، وفي الصباح يقدم للحاضرين الفطور من معمولات اللوز الهندي « الشوكولاتة » مع بعض الحلاوي واللحوم المقددة ثم يتحلق الحاضرون حلقاً ويمجلون العروسين بالرقص العربي والكردي ثم ينصرفون .

وفي هذه الصبيحة يهدي أحد أبوي الزوج إلى الزوجة قطعة من الحلبي تسمى الصبيحة وفي اليوم الرابع يحضر المدعوون إلى منزل الزوج لتهنئة العروسين، ثم في اليوم الثامن يزور العروسان أصحابهما فيحيون لهما ليلة طرب، ثم في اليوم الثاني عشر يولم الزوج إلى كهنة الطائفة وبعد شهر يطوف العروسان منازل الأئلي كانوا مدعوين ليلة القران ويردان إليهم الزيارة .

المهر يدفع من الزوجة إلى الزوج عكس ما هو معروف عند المسلمين ولا حد لأكثره إذا كانت الزوجة غنية والرغبة منها في الزوج فوق رغبته بها وهو يسمى « دوطه » وبعض الكتبة يترجمون هذه اللفظة بكلمة « بائنة » وإذا كانت رغبة الزوجين في الزواج متساوية فليس هناك دوطه إنما كل واحد من الزوجين يهدي الآخر قطعة من الحلبي قيمتها تناسب ثروته .

بعد انتهاء هذه الحفلات يصرف بعض المتفرنجين شهراً من حياته بالتغيب عن منزله يسمونه شهر العسل يمضيه الزوجان في موضع نزه جميل يطلقان فيه حريتهما، كأن العروسين يمضيان هذا الشهر في وداع الحياة المطلقة المؤذنة بفراقها لحلول ذلك الضيف الثقيل بل القيد الأبدي الذي لا يحل وثاقه إلا بالموت: عادة أخذها الغربيون عن الأمم الوثنية القديمة كأنها رمز إلى سرعة انقضاء راحة الإنسان بالزواج وطول عنائه بعده، ذلك لأن الزوجين لا يلبث فرحهما بعد الاقتران سوى أيام قلائل حتى يدخلها في العريض الطويل من تكاليف الحياة وأوصابها التي لا تنفذ إلا بنفاد العمر. فما أشبه الحياة وما فيها من الراحة والتعب بإناء مفعم من الصبر قد بسط على وجهه قليل من العسل، وكأن الإنسان لا يضطر إلى استعمال ما في هذا الإناء اضطراراً حقيقياً إلا بعد أن يتزوج فكأن مقدار ما يناله حيثئذ من الراحة وما يعقبها من التعب كمقدار ما في ذلك الإناء من الصبر والعسل فلا يلحق من العسل غير القليل حتى ينفد ويظهر تحته الصبر، فيجرعه مكرهاً ضرورة عدم إمكان الحياة إلا به وهذا مصداق قول الناس في الزواج « فرح شهر وترح دهر » .

ومما يستعمله النصارى في أتراحهم أنه متى احتضر المريض يحضر إليه كاهنه ويستأديه واجباته الدينية، وبعد أن يقضي نجهه يتربصون بدفنه مدة أربع وعشرين ساعة يضعونه في خلالها في صندوق من الصفيح، وفي هذه البرهة

يرسلون رقاع الدعوة لحضور الاحتفال بالحنازة، ثم في الوقت المعين يضعون الصندوق في نعش مزدان بالأيقونات وأكاليل الزهر فيحمل إلى البيعة ليصلى عليه، ثم يحمل إلى المقبرة وأمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل ووراءهم عظماء الطائفة وتلامذة المكاتب وحملة الصليبان والشموع، وقد اكتنف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود، وحينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم ويتقدم أحد الأدباء فيرثيه نظماً أو نثراً ثم يوارونه في لحده، ويصطف أهل المتوفى للتعزية ويمر عليهم المشيعون لحنازته لتعزيتهم وفي مقدمتهم المطران ولفيف الكهنة. ولبعض الأسر الغنية ديماس تحت الأرض مختص بدفن موتاهم يقال له خشخاشة يودعون فيه النعش دون أن يهيلوا التراب عليه، وقد يكون هذا الاديماس بناية تشبه البيت مبنية على وجه الأرض .

في اليوم الثالث من الوفاة يحتفل للمتوفى بصلاة في البيعة يسمونها جنازاً يسرجون فيها من المصابيح قدر ما يقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت وبين كهنة طائفته، وهذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع وفي يوم الأربعاء وفي نصف السنة وتمام السنة. وحداد الولد على أبويه ثلاث سنين والأخ على أخيه والزوجين أحدهما على الآخر والأبوين على ابنيهما ستان .

ومما يستعمله اليهود الحلبيون من العادات في أفراحهم وأتراحهم أن يخبثوا الطفل بعد يومين من ولادته، وإذا كان من سبط إسرائيل وكان بكر أبويه وجب على أبيه أن يفتديه من كاهن من سبط هرون يضع الطفل في حجره ويقول لأبيه: هذا المولود حق سبط الكهنة فيستوهبه أبوه منه بمقدار معلوم من الفضة. ومتى بلغ عمر الطفل سنة يأخذه أبواه كل سنة إلى وليمة قدوس أي زفاف يطعمانه من طعام (السيعداه)، فإذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم، وإذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه «كنفوت» وهو صدرية تربط أطرافها الأربعة بفتائل من الغزل ويشد على رأسه وعضده الأيسر «تيفلين» وهو سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر والإصحاح الأول

من سفر الوصايا، وحينئذ يعتبر رجلاً متمماً صلاة الجماعة التي لا تتم إلا بعشرة رجال ويرث سهمين من تركة أبيه .

وإذا بلغ الثامنة عشرة وجب عليه الزواج فيباشر الخطبة ومتى انتقى مخطوبة يكتب بينهما قنيان أي عهد يسمونه شيطاراً يعينان فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين ويذكران ما اتفقا عليه من الشروط، ثم في اليوم المعين تنعقد جمعية يسمونها (كيتبّة) فيها يكون تسلم الزوج الأمتعة والنقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها إليه، وبعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم «قدوس» فيحضر المدعوون وتعزف آلات الطرب وتدار كؤوس ابنة العنب من وقت العصر إلى وقت الغروب، ثم يقوم رؤساء الدين ويجرون العقد بين العروسين ويقرأ أحدهم قداشين يقف الزوجان مدة قراءة الأول متقابلين ومدة قراءة الثاني متحاذيين، ويفتح على رأسيهما ملاءة من الصوف يسمونها «طليطة» أي طيلسان. وفي هذه الساعة يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه ويشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة لأحد الطرفين، وحين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج يخاطبها بقوله (هاري آت ميقديشت لي بي طباعت زكيدات موشي وإسرائيل) أي أنت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى وإسرائيل. ثم يتقدم الحاخام الكبير ويبيده كأس من الخمر فيبارك عليه بدعاء طويل باللغة العبرانية ويشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين فيشرب من شفافته كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر، وبعد ذلك يدخل الزوجان البيت المعد لخلوتهما فإذا التقى آدم مع حواء في تلك الليلة وجب عليه أن يمسك عنها مدة خمسة عشر يوماً، وأن ينظبل أي يغمس في حوض خصوصي، وعلى الزوج أن يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين ويولم لهم، وعلى رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما يبارك على كأس الخمر يوم الزفاف .

ومما يستعملونه في أتراحهم أن المريض متى احتضر جلس عند رجله رجلان يذكرانه بقولهما (شيماع لإسرائيل أدوناي ايلو هينو أدوناي احاد) أي اسمع يا إسرائيل الديان إلهنا الديان واحد. فإذا قضى نحبه وضعوه على

« اللوحوت » أي المغتسل وغسلوه بالماء الفاتر وأدرجوه في ثوب من الكتان يعيونه بالتقريض والحروق كيلا يطمع به نباشو القبور، ثم يضعون جثة الميت في « الأورت » أي النعش ويحضر أحد أقربائه ويقرأ عليه قداشاً أي يصلي عليه صلاة الميت، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص وعلى كل من مرت به الجنازة أن يمشي معها أربعة أذرع أو أكثر ويطلب من الميت السماح، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيسة قرأ عليه أحد أقربائه قديشاً آخر ثم يحملونه إلى مدفنه ويوارونه في ترابه ويقوم أحد الحاضرين وبيبارك عليه بقوله: (باروخ ديان ها ايميت) أي تبارك من شرع الحق: ثم يقرأ ولده قديشاً ثالثاً ويعود هو ومن معه من الأقارب والأصحاب إلى بيت الميت، وفي أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه ويقول: (عينينو لو رأو ويادينو لو شافينخو بيدام هذه) أي عيوننا ما رأت وأيدينا ما سفكت هذا الدم. فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له وخرق ثوبه من زيقه وهو يقول: (باروخ ديان ها ايميت) ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين وبيبارك لهم بقوله: (باروخ ميناخيم ايليم) أي تبارك الذي يسلي الحزين. وعلى ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعلون فيها عللاً مطلقاً ويسمونها « التآيل » أي الحداد. وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء وهكذا في اليوم الثلاثين وبمرور تسعة أشهر ومرور السنة اه .

عادات لبنان وأخلاقه :

كانت عادات لبنان إلى أواخر القرن الماضي ، قبل أن يبدأ أهله بالهجرة إلى أميركا، كعادات معظم جبال الشام، تغلب عليها السداجة والقطرة السليمة ، وفي أهله مضاء ووفاء وإباء. يقل الكرم ويكثر الحرص في أهل القسم الشمالي منه وهم الموارنة والروم، وكان العكس في حال أهل القسم الجنوبي وهم الدرروز والسنة والشيعية والنصارى الذين كانوا من أصول عربية، فإن أخلاقهم ظلت عربية بحتة، ولهم في باب الكرم وحفظ العهد فصول . وقد يكون الشماليون ألين عريكة وأقرب إلى السكون في الأحياء. والجنوبيون

أشد بأساً وأقوى شكيمة. ودخل تبدل كبير في العادات بانتشار المدارس الأجنبية في الجبل منذ نيف وستين سنة، واستبدلت العادات الإفريقية ببعض العادات الوطنية إلا قليلاً. وحمل الذين عادوا من المهاجر بعض عادات من نزلوا عليهم، فأصبحت عادات الجبلين مزيجاً من الغربية والشرقية. ويكثر التقليد في سكان الشمال أكثر منه في سكان الجنوب. وهناك فروق ليست بقليلة بين سكان الجرد الشمالية والجنوبية.

كان اللبنانيون من أول من نفخ في ديارهم بوق الهجرة إلى أميركا، ولبوا دعوتها سراعاً قبل غيرهم من الشاميين، لأن حاصلات أرضهم قليلة لا تكفي لعولهم. وكانوا من قبل مولعين بمواطنهم، لا يحبون أن يتنقلوا ولو في أرجاء هذا القطر، وكان من يسافر من إحدى قرى الجبل إلى دمشق يضرب به المثل في بعد الهمة وكثرة الشجاعة. وكثيراً ما كانوا يتغنون بقولهم :

جوزك يا مليحة راح عالشام وحده

وكان أقصى ما يبلغه تصورهم من البعد «أنطاكية» شمالي الشام و«دققة» في السودان، ويقال إلى اليوم «أوصلك إلى دققة». وكان إذا نشط أحدهم للسفر إلى مصر أو الاستانة، يعد كمن وصل إلى المريخ، يقصدونه من القاصية ليسمعوا ما يقص عليهم من عجائب رحلته. فلما بدأوا بالهجرة وكثر عددهم، واستسهلوا ركوب المخاطر في بلاد المهجر، ونجحوا وارتاشوا، تبدلت عقليتهم بعض الشيء، وهم كأكثر من يهاجرون في طلب الرزق يعتمدون على أنفسهم ومضائهم وتضامنهم، لا علم يحميهم ولا دولة يهملها أمرهم. حملوا في جنوبهم عزماً وحزماً، وحملوا أيضاً روح التحزب والفرقة الذي امتازوا به لما نشأهم عليه رؤساؤهم. وكان المتعلمون منهم في هذه السبيل أشد مراساً من العوام. ولما كان العائدون من طبقة الفلاحين والعاملين إلى قراهم من ديار المهجر، أكثر من الراجعين من أصحاب المعامل والمزارع والتجارات، وبعبارة ثانية أن عدد الراجعين الأميين كان أوفر من عدد الآيبين من المتعلمين والمغتنيين - أصبح تسرب العادات الغربية لا يكاد يشعر به بين العامة على كثرتهم، وهو ظاهر محسوس بين الخاصة على قلتهم.

وقصارى ما يقال في هذا الباب أن أهل لبنان أخذوا مدنية الغرب من

مدارسه هنا وبالاختلاط بأهله وراء البحار بلا قيد ولا شرط، على حين كان غيرهم ولا يزالون يأخذونها ببعض الحذر والحيطه. ولبنان منذ عهد متطاوّل كانت علائقه بالغرب أكثر من غيره من أهل هذه الديار. والروح اللاتيني ترفرف عليه. يحمله إلى ربوعه الرهبان الموارنة من رومية وغيرهم من دعاة النصرانية والاستعمار. ولو مكنت طبيعة الجبل من إنشاء مدن كبرى فيه، لظهرت هذه الفروق على جليتها في أهله، كما تتجلى مثلاً في أهل المدن الداخلية .

لم يبرح الدروز يعدون في المحافظين على عاداتهم القديمة وأخلاقهم العربية من إباء ووفاء وحسن عشرة وكرم وحسن وفادة، يعظمون رؤساءهم ولو كانوا في سن صغيرة جداً. والدروز، ما خلا الطبقة المتمدنة منهم التي تلبس السراويل والمعاطف والسترات والأقمصة الإفرنجية على الأساليب الغربية، ما زال جمهورهم يلبس لباساً واحداً في جميع البلاد التي يتزلونها : عمائم بيضاء وقفاطين من الأقمشة الغليظة القطنية وأعبئة قصيرة مخططة وأحذية بلدية ساذجة. كأن لباسهم لم يتبدل منذ حلوا هذه الأرض، ونساؤهم محجبات قليلاً يسبلن على رؤوسهن شاشاً أبيض فإذا رأين غريباً أظهرن إحدى عينيهن فقط أي إن حجابهن الحجاب الشرعي .

كان أهل لبنان قبل حادثة سنة (١٨٦٠) يقسمون إلى خاصة وعامة، فالخاصة هم الأمراء والمقدمون والمشايخ. والمشايخ على ثلاث طبقات، مشايخ الإقطاع، والمشايخ الذين يدلون إلى مشايخ الإقطاع بنسب، وكانوا يعرفون بمشايخ الطبقة، ثم مشايخ الطبقة الثالثة. وتختلف مصطلحات هذه الطبقات باختلاف العصور، وكلامنا هذا يتناول الأخيرة منها التي ثبتت إلى ظهور الجبل بمظهر الاستقلال الداخلي بعد حادثة الستين. ولهم عادات راسخة في خطابهم وكتابهم ومجالسهم وأفراحهم وأتراحهم، أمست عندهم بمثابة القواعد العامة، وتختلف عن مجموع ما هو من نوعها في سائر الأقطار، والسرّ في ذلك أن لبنان مدين بظهوره بمظهر المنعزل المستقل منذ عهد المماليك والعثمانيين لأمراء كانوا يتولون جباية الجبل على سبيل الإقطاع مقابل مال يؤدونه، وهم ينصرفون إلى توظيف طبقات الناس، وتصنيف أهلها على

ما يرون. وما أثبت هذه الأصول بين أشراف لبنان أن الأرستوقراطية فيهم كانت ثابتة لا تتحول عنهم لفقر أو غيره. ويغلب على الظن أنهم جمعوا في عاداتهم بين العادات العربية، وشيء من العادات الغربية اكتسبوها في مخالطتهم الصليبيين .

وفي الحق أن لبنان القديم وليد أمرائه من المعنين والتنوخيين والشهابيين واللمعيين والأرسلانيين وآل علم الدين. وقد أقر هذه العادات المشايخ الجنبلاطية والعمادية والنكديّة والتلاحقة والملكية وبنو العيد، وفي المسيحيين آل الخازن والدحداح والضاهر وحبيش وغيرهم. وأخذت تحتفظ كل طبقة بأصولها وعاداتها، لا يباح لأهل طبقة أن يتزوجوا من أهل طبقة أخرى، ولا أن يختلطوا بهم الاختلاط اللازم. وكان الجلال والوقار يغلبان على أهل كل طبقة. ويعدون من أسباب السقوط أن يسفّ ابن أسرة من أسر الأمراء أو المقدمين أو المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته، ولذلك غلب ضعف الأجسام على بعض هذه الطبقات، وتأصلت فيها بالوراثة الأمراض العضالة لخروجهم عن الطبيعة في الزواج .

وكانت لهم عادات نشأهم عليها حكاهم في السلام والجلوس والخطاب . وهم يغالون في الحرص على كرامتهم، ويعد أكبر أعيانهم من الشرف أن يكتب إليه الحاكم ويلقبه بالأخ العزيز ويوقع له بالمحب المخلص. ويكتب الأمير إلى الطبقة الثانية من الشعب وهي طبقة المشايخ «عزيزنا» أو «أعز المحبين» أو «حضرة عزيزنا» أو «جناب» بدل «حضرة». وإذا كان طبق الورق صغيراً أو كبيراً، أو كان توقيع الحاكم في أسفل الكتابة أو في أعلاه فإن لكل ذلك معاني عندهم. والغالب أن القوم كانوا لقلة أشغالهم يتسلون بمثل هذه التافهات، ويضعون لها قواعد من عند أنفسهم، ويتنافسون في رضا الحاكم والوصول إلى مجلسه وتقبيله يده وثوبه، تأصل هذا الداء فيهم إلى العصر الأخير. فكان من كتب له هذا الشرف تناقل خبره أهل بيته خلفاً عن سلف وعدوه في مفاخرهم. وقد كثر فيهم حب الظهور حتى إن المرء ليبيع بستانه وداره ويبدل ماله لينال عملاً صغيراً في الحكومة أو ليكتسي الحرير هو وعياله ويتعاطم على أهل قريته. ومنهم من ابتعدوا

عن مواطن الشرف ليتزلقوا إلى من اعتقدوا أن في أيديهم إسعادهم. وكمن بيوت خربت بسبب هذا التمجيد بالباطل والتقرب من أصحاب السلطان بفساد الأخلاق .

وكانوا إلى عهد قريب يقدمون الرجال على النساء في إعطاء القهوة أو الخمر، يرفعون مقام الرجل فوق مقام المرأة، ولا يزال أثر ذلك ظاهراً في الطوائف الإسلامية. فلما اقتبسوا المدنية الحديثة أصبح الرجل عند المسيحيين لا شيء تقريباً في بيته، والحكم لامراته تصرفه على هواها، خصوصاً إذا كانت أكثر تعليماً منه، أو كانت أسرتها أغنى من أسرته وجاءته بباثنة أو جهاز. وهذه الأخلاق ماثلة في بيروت وفي بعض الأقاليم المكتظة بالسكان . ويحترم الأولاد آباءهم كما كان ذلك في سائر أرجاء القطر، على صورة فيها التشدد الزائد، حتى إن الولد لا يكاد يجالس أباه ولا يقعد أمامه، ولا يؤاكلة ولا يدخن أمامه ولا يرفع صوته، ولو تزوج وأولد، ولا سيما في البيوت التي احتفظت بتقاليدها. وكانت العادة أن لا يتفرق أهل البيت الواحد مهما كثر أفرادهم، يسكنون في دار واحدة، وإذا كانت الأسرة فقيرة ففي غرفة واحدة. وكثيراً ما يخصون الولد الأكبر في الإرث بشيء من العقار أو الأرض أو المال، يؤثرونه به على إخوته، لاحتياجه إلى الظهور وحفظ كرامة البيت وقبول الضيفان، والغالب أنهم يحرمون الابنة أرث أبيها، لثلاث تنقل الثروة إلى أسرة أخرى، شأن كثيرين من المنحطين، بل شأن من يعدون أنفسهم في الراقين أيضاً .

كان اللبناني يتزوج في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره ولا سيما في الطوائف الإسلامية، والمسيحيون قد يتأخرون إلى الثلاثين وبعضهم إلى الأربعين، وقد يخطف العروس عروسه في بعض الطبقات، إذا كانت من طبقة غير طبقته، وتظاهر أهلها بأنهم يابون زواجه، أو لعداء بين أهل الخاطب والمخطوبة، أو لعدم الكفاءة في النسب أو المال، وكانوا يحبون كثرة النسل بخلاف ما نراهم اليوم بعد الهجرة، فإنهم أصبحوا على مثال الأمم التي تريد تقليل الذرية في البيت ما أمكن حتى لا يدخله الفقر. وكانوا يعدون كثرة العيال من اليسر والبركة، ويقلقون لمن يتأخر حملها من تسأهم، ويشرعون

بمداواتها أو وضع التعاويذ المصطلح عليها بينهم، وينذرون النذور إن رزقت ولداً، يقدمونها إلى قديسيهم وأوليائهم. ولهم كثيرهم خرافات كثيرة منها تخويف الأولاد في صغرهم بخيالات، فبنشأ الولد عند بعض المسيحيين جباناً، والدروز يلقنون أولادهم الشجاعة والفروسية فيأتون شجعاناً أقوياء. ولذلك كان الدروز منذ القديم في هذا الجبل على قلة عددهم يخاف جيرانهم بأسهم. وقد زاد هذا الجبن كثيراً بعد انتشار التعليم ومعرفة قدر الحياة، فأصبح يجبن من لم يكن يجبن، ونزعت الأخلاق الحربية إلا من الدروز، وأصبح القوم يؤثرون الراحة ويتطلبونها حيثما وجدوها، ويزهدون في سكنى جبالهم على كثرة غرامهم بها، وتمجيدهم لهوائها ومائها ومناظرها وهنائها. وربما كان أهل لبنان من أكثر الشاميين اقتداراً على الإعلان عن أرضهم، والإعجاب بجبلهم، والتبجح بثروتهم وأثاث بيوتهم، وتمجيد رؤسائهم وعلمائهم وأدبائهم. وهذا مما ساعد على إعمار الجبل بما جلبه المهاجر اللبناني من المال إلى أرضه، وسمت الهمم بأهله أن يعمره هذا العمران الواسع بالنسبة إلى البقاع الأخرى، لولا ذلك لكان كسائر جبال الشام انحطاطاً وفاقة.

تسربت العادات الغربية إلى لبنان أكثر من غيره، فبعد أن كان اللبناني يأكل وأهله وضيوفه على سفرة في الأرض أو على خشبة مستديرة من صحفة واحدة، بأدوات منها الخبز ومنها ملاعق من الخشب من صنع أرضه، أصبح يجلس إلى خوان وأمامه صحاف وملاعق وشوكات وسكاكين ومائدته مغطاة بثوب أبيض، وعلى يده منديل الغمر أبيض، وألوان الطعام تأتيه أرسالاً. وأكثر هذا محسوس الأثر بين المسيحيين ولا سيما سكان الساحل. وقد بلغ ببعضهم حب التقليد أن أصبحوا لا يكتفون بخمر أرضهم، ويتغالى بعض أغنيائهم المترفين فيجلب خمور الغرب يسقيها ضيوفه على مائدته. وغدا لا يطيب له الزجل والمواليا والمعنى والقراديات والغناء العربي والقصائد العربية، وكانت تنبسط أرواح أجداده إلى سماعها، بل يحاول أن يسمع النغمات الإفريقية لأنها أجمل وهو «تفرنج» و«تأورب» ويجب أن يقطع صلته مع آبائه.

وهكذا يقال في الرقص والألعاب كلها فإنها أصبحت بين طبقات المتعلمين إفرنجية محضة في بيروت وفنادق لبنان الكبرى. وقد ولع بعض النساء في البيوت الراقية على الطراز الحديث بالرقص والمخاصرة والمقامرة ولا سيما في بيروت، ولوعاً لا تكاد تجد له مثيلاً فيما بلغنا وعرفناه من أخبار الأقطار الغربية. فقد ترى المرأة البيروتية ولا سيما من المسيحيات ترقص من الهزيع الأول من الليل إلى الساعة الثالثة والرابعة صباحاً. وترى السيدة المتقدمة في السن منهن تجلس إلى منضدة القمار تقضي الساعات الطويلة، وقد يكون بناتها الفتيات واقفات ينتظرنها ليذهبن إلى النوم وهي مستغرقة. وكثير عدد النساء اللاتي فقدن صحتهن وشرفهن لشدة ولوعهن بالقمار والرقص، وإذا رأيت أزياءهن، حسبتهن أوربيات وزيادة، أفرطن في التقليد، وغرتهن الظواهر من مدينة الغرب فاجتزأن بها، وكانت المرأة المسيحية في جنوبي لبنان في القرن الماضي تتحجب وتتجافى عن غشيان مجالس الرجال من غير محارمها.

وفي أندية بيروت في الشتاء والفنادق الكبرى في الجبل مدة الصيف، نموذج من الحياة البيروتية التي أصبحت مزيجاً غريباً من الأخلاق والعادات، يبدو فيها التكلف والتصنع، ويفقد منها الروح العربي، وليس المسلمون فيها على مستوى جيرانهم في النهوض الاجتماعي حتى ترسم لهم الآن صورة بعينهم. وقد أخذت بعض البيوت التي أخذت المدنية الحديثة لا تتكلم في بيوتها أو مجالسها واجتماعاتها إلا بالفرنسية وقليل منها بالإنكليزية، أو يمزجون لغتهم الأصلية باللغة التي تعلموا بعضها في المدارس، وأصبحت معظم عادات السكان إفرنجية مقتبسة منقولة لا أصلية أصيلة.

وأنت إذا دخلت اليوم دار لبناني متعلم ممن كتب له السفر كثيراً، ورأيت العادات القديمة محفوظة يأخذك العجب، لأن اللبناني يحاول أن يقلد، ولطالما عولج في هذه السبيل حتى تنزع منه عاداته وتقاليده، ويلحق بالإفرنج في مناحيه ومنازعه. ومن أشنع ضروب التقليد أنه أخذ بعد أن تعلم بعضهم في المدارس تعليماً ناقصاً أتر يستعمل في سلامه وحديثه بعض ألفاظ إفرنجية، تساوى في ذلك البحري الجاهل والتاجر المتمول، فصارت أحاديثهم مزيجاً

من العربية والإفرنجية كعادتهم وأخلاقهم. وأثبت ابن هذا الصقع أنه ما استطاع أن يتخلى عن القديم برمته، ولا استعد لأن يقتبس الجميل من الحديد بجملمته .
واللبناني أكثر من غيره من سكان هذا القطر اقتصاداً وتؤدة، ومعرفة بأساليب الحياة، وبعدهم هيمم، وشدة حذر. وهو نظيف لا كابن الجبال الأخرى، وفي مسكنه وزراعته وصنائه شيء من النظام. وقد تببت في بيت الفقير منهم في إحدى المزارع الحقيرة، ولا تستكف من مؤاكلته، ولا تأنف من النوم في فراشه، والجلوس على مقاعده، والاتكاء إلى وسادته . فالزعامة الزمنية من قبل عند غير المسيحيين، والرياسة الدينية عند المسيحيين، كانتا بين اللبنانيين على أتمهما لسهولة تسلط الزعيم أو الرئيس الروحي على رعاياه، لضيق الرقعة التي يمتد عليها نفوذه. وقد استفاد ابن الجبل من هذه الزعامة ترتيباً ونظاماً على الجملة، وولد فيه حب التضامن والصدق بما يلقنه إياه الشيخ أو الكاهن، وربط الناس بقيود يصعب التقلت منها بعض الصعوبة وهذا أقرب إلى النفع من فوضى تضرب أطنابها بين سكان الجبال الأخرى، وجهالة ممتدة الرواق على الكبار والصغار لا تدري متى ينقشع ظلامها. وقد اضطر السكان أن يقلد بعضهم بعضاً في باب الأخذ بأسباب الترتي والتعليم . وكان للموارنة التقدم ثم لمن يليهم من الروم والكاثوليك، ثم يأتي الدرروز فالسنة فالشيعة .

فقدت عادات ليست بقليلة من الجبل ومما فقد أو كاد لباس الفلاحين وهي العمامم والسراويل والعباءات، ولا سيما من القرى التي هي مصطاف البيروتيين والطرابلسيين والمصريين، ولباس جمهور عظيم منهم الآن هو اللباس الغربي، والقبعة الإفرنجية شائعة الاستعمال في النساء والرجال، ولا سيما عند من تعلموا التعليم الغربي في مدارس التبشير في بيروت وما إليها من القرى والمدن. والقبعة اليوم تهزم الطربوش والعمامة والكوفية والعقال أمامها، كما تنهزم المدنية الشرقية أمام المدنية الغربية طوعاً أو كرهاً، وربما كان لحالة لبنان السياسية مؤخراً دخل كبير في هذا التمثل السريع. والمغلوب أبداً مولع بشعار الغالب. وكل ما قام به اللبناني من اقتباس التمدن قبل هذا العهد كان مقدمة إلى هذه النتيجة. ولولا أن الهجرة نخرت عظام اللبنانيين،

وتغلغل حبها في شغاف قلوبهم ، لكان الخطر كبيراً من هذه السرعة في اقتباس عادات ليست عاداتهم ، وأخلاق قلما تلائم أخلاقهم ، في أرض هي مفتاح باب البحار . وكأنا بلسان إذا ظلّ غرام أهله بالرجيل عنه على هذه الصورة طلب الغنى ، يوشك أن يفرغ من سكانه ، وسكانه يتعلمون لا ليكونوا فلاحين وصناعاً بل تجاراً ومستخدمين . وقد أولعوا بتقليد الأمم العظيمة الغنية في عامة مناحيهم وهم لا ثروة ثابتة لهم ، وفي ذلك ما يخشى عليهم من عواقبه ، ومن أظهر شؤمه على مجتمعاتهم ما نسمع به اليوم بعد الآخر من كثرة الاختلاس والاحتيال في دواوين حكومتهم وبيوت تجارتهم بحيث كادت ترتفع ثقة الغرب منهم ، ذلك لأن الصعلوك فيهم يحاول أن يعيش عيش أرباب الطبقة الوسطى ، هؤلاء لا يقنعهم إلا أن يدانوا الطبقات العليا ، وتقليد أوربا أوقعهم في شر أمورهم ، وفاتهم أن الأمة لا تفلح إلا باقتباس الحديد ، والاحتفاظ بالقديم المفيد ، وأن كل شعب يحاول أن يرتجل عاداته ، ويصطنع أخلاقه ، يندغم في غيره ، ويندوب في بوتقة من يريدهم ولا يريدهم .

العادات في الأرجاء الأخرى :

تتخالف العادات في القرى وتتقارب ، بحسب قربها وبعدها عن الحواضر على الأغلب ، وبحسب أصول سكانها ، فإذا كانوا من أصول عربية تجلت فيهم عادات البادية كأهل حوران مثلاً فإنهم على قربهم من دمشق قد رسخت فيهم العادات البدوية ، كأهل الحواضر والبادية من سكان أقصى الجنوب . ذلك لأن العرب تسربوا إلى الشام أولاً من الجنوب قبل الإسلام بقرون ، وما زالت موجات الهجرة تأتيها من تلك الأصقاع . وبيننا نجد أهل غوطة دمشق كأهل الحاضرة في مناحيهم كما يقول الرحالة ابن بطوطة ، ترى أهل المريج مرج دمشق ، وما هم من الغوطة ببعيد ، كأهل حوران ، في عاداتهم ولباسهم وطراز معيشتهم . تتمثل فيهم عيش البداوة ، وهم فلاحون مقيمون على الحرث والكرث وماشيتهم قليلة . وعادات المسيحيين في حوران وجبل الدروز ومادبا والكرث كعادات المسلمين السنة والدروز ، والتعديل القليل يدخل على عادات المسيحيين لأنهم أسرع إلى التعليم من الأكثرية ون كانت

الأقليات في الغالب تفتى في الأكثريات. بيد أن الحال كانت على ذلك قبل الانتباه الأخير في الأقلية. مثال ذلك أن النساء المسيحيات في نابلس وحملة يحتجن كالمسلمات مراعاة لعادات الأكثرية .

ولباس أهل بلاد غزة والخليل ونابلس كلباس أهل حوران، كوفية وعقال وعباءة وقفطان. وكذلك أهل بر حملة وحمص والمعرة وما إليها مما هو في سمت الشمال من الأصقاع. وسكان قرى حلب القريبة، كسكان قرى دمشق يلبسون العمام. وهذه لا تلبث أن تزول بالطربوش، لأن المتعلمين من أبناء القرى يؤثرون لباس الطربوش على العمامة أو الكوفية. دع أهل المدن فقد قلت العمام فيها. ولذلك يصح أن يقال: إن القبعة تهزم الطربوش من الساحل، والطربوش يهزم العمامة في الوسط، والعمامة تهزم الكوفية والعقال من سائر أطراف القطر النائية. وهكذا لا ترى وحدة في اللباس في أية ناحية من أنحاء الشام اجتزت بها. وقد يظن الغربي الذي اعتادت عيونه رؤية التوحيد في الملابس، إذا مرّ بإحدى الحواضر عندنا، أنه في قاعة تمثيل هزلي، تعرض فيها صور من البشر غريبة في حركاتها وألبستها .

جاء في « دواني القطوف » أن عادات الحورانيين في أعراسهم وولاداتهم ومآتمهم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب، مثل دفع الخاطب لوالد عروسه نقدها في القديم عشرة آلاف غرش فخفض إلى ستة آلاف ثم إلى ألفي غرش فقط لعهدنا هذا عند المسيحيين. وعندهم الألفاظ (النقوط) ورشق العروس عند مرورها في البلد بالعنصل (بصل الفار) . وفي المآتم يحملون الطعام إلى بيت الميت. ومدة النوح سبعة أيام كاملة. ومن العار عندهم بكاء الرجال إلى غير ذلك. وأهم ملابس الرجال القمصان الطويلة البيضاء المرسله الأردن، والغنباز من نسيج الديما القطنية أو الحريرية، وسلطة (قنطيشة) واسعة الكمين قصيرة، من الجوخ الأزرق، مطرزة بالحرير الأحمر الناقى، والفقراء يتخلونها من الخام الأزرق بلا طراز. وعلى رؤوسهم الكوفية والعقال. وفي أرجلهم المداس و« الجزمة » (الخداء) أما ملابس النساء فقميص أزرق ملون التطريز، واسع الأردن والأكام، وفوقه « سلطة » أكبر مما يلبسه الرجال إما من الخام أو الجوخ. وعلى رؤوسهن

« شبر » أسود حريري. فالمتزوجات يتلفعن به ويربطنه من الوراء. والعزبات يعصبن رؤوسهن فوق المنديل. ويلبسن (البوابيح) الصفراء والخزومات القصيرة، ويتخذن زناً من الفضة (حياصة) قيمته أكثر من ألف غرش، وله ذوايب مسترسلة، وفي معاصمهن أساور فضية ضخمة، وفي أرجلهن خلاخيل فضية، وفي آذانهن تراكي ذهب (حلق مستدير)، وعلى رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبية تعرف بالشكة، وفي أصابعهن خواتم فضية. ويستعملون جميعهم نساءً ورجالاً الوشم إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف حالتهم اه .

وعادات السكان في القرى تتشابه وكذلك ألبستهم، وكلما بعدوا عما يقال له التمدن تمازجوا وتضامنوا، فما يزال المسلمون في بعض قرى وادي بردى إذا كان عند جارهم المسيحي فرح أو ترح يأتي المسلمون يخدمون ضيوفه، ويقدمون له الهدايا ليبيضوا وجهه أمام الواردين عليه وبالعكس . وهذا من أجمل العادات في التضامن بين أهل البلد الواحد. وعادات المسلمين في الساحل والداخل متشاكلة، وكلها مقتبس من عادات أهل دمشق. فدير الزور وحلب وحماة وحمص والمرة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وبعبك وبيروت وصيدا وصور وصفد والنبطية والصلت وناپلس وعكا وحيفا ويافا والقدس والخليل وغزة، وبالجملة فكل بلد فيه كتلة إسلامية أو مسيحية من السكان لا تجد عاداته إلا دمشقية، وأهله يقتبسون من دمشق إلى اليوم ما يروقهم من عاداتها، ومدينة دمشق محبوبة تهفو إليها نفوس الشاميين عامة، وأهلها محبوبون للركة التي فطروا عليها، ولأنهم يعطفون كثيراً على الغريب، وربما أغرقوا في عطفهم وآثروه على ابن حيمهم، وكل من دخلها ولاسيما من سكان القطر متى خرج منها اكتأب ودعا لها بالعمار ولو خسر فيها جزءاً من ماله . قال القزويني : « وأهل دمشق أحسن الناس خلقاً وخلقاً وزياً وأميلهم إلى اللهو واللعب ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب. » ووصف اجتماعهم هذا الذي يدعى اليوم سبتية أي يوم يسبتون وما يجري فيه من المسامر والصراع والغناء والألعاب بما لا يخرج الآن عما كان منذ نحو ألف سنة. والغالب أن السبتية من عادات اليهود سكان البلاد الأصليين كما

أن إضراب بعض المشايخ عن القراءة أيام الثلاثاء، من عادات الصابئة لأن يوم البطالة عند الصابئة يوم الثلاثاء. ومع هذا فقد مُدح الدمشقيون منذ القديم كثيراً وهجوا كثيراً. ولعل المادح والقادح لا يخلوان من مبالغة .
ومن يتزوج من أهل هذا القطر بامرأة دمشقية يحسب نفسه سعيداً، فالدمشقيات يتغرن كثيراً، وما برحت دمشق تضم إليها الغرباء من أهل الكور الأخرى وتمثلهم وتعويضها عنم يدخل إليها من الرجال بعض نساءها، يدخلن فيها عادات العاصمة الأموية، ويمزجن أهل الوطن الواحد من طريق الأسر والبيوت. والبدو والحضر من جميع النحل يؤثرون البنين على البنات، وكلهم يلدون كثيراً، ويعيش الأطفال في المدن أكثر من القرى، للعناية بصحتهم ووجود الأطباء والقوابل . ولولا أن البدوي يولد له كل سنة لانقرض نسله لكثرة الغزو والذبح في الدهر السالف .

وجميع نساء القرى من المسلمات في الشام سافرات يعملن مع الرجال في الحقول والمراعي على صيانة لا تبذل فيها، ما خلا بعض القرى القريبة من الحواضر فإن عادة الحجاب سرت إليهن، فليسن ملاءات من حبر أسود أو أزرق على الأغلب. وفي بعض المدن ملاءات ملونة بأصفر وأحمر معاً أو بأبيض فقط. ولكن نساء دمشق خاصة اخترن زياً من الملاءات ومناديل الوجه، اقتبسناها عن نساء الاستانة أيام كان الحجاب شائعاً في نساء الترك . فلما كشف الحجاب في تركيا في العهد الأخير وأصبح زيهن كزي الغريبات، قبعات على الرؤوس وأثواب قصيرة خفيفة. وزال الحجاب أو كاد عند نساء مصر بالطبيعة لتغلب المدنية عليهن، بقي نساء حواضر الشام كبيروت ودمشق وحلب وطرابلس حائرات يطمح بعضهن إلى تقليد التركيات والمصريات. ولكن شدة المسيطرين من الرجال، اضطرتهم إلى الوقوف الآن عند حد حجابهن القديم، فيظهرون في الشوارع في حبرات سوداء مسدولة إلى أعقابهن ومناديل سود مسبلة على وجوههن، وقد تكون في المتبرجات شفاقة جميلة لا تكاد تحجب الوجوه بل تزيناها وتدعو الناظرين إلى إرسال الطرف إليهن .
ومنذ هاجر الجركس من القافقاس بعد الحرب الروسية التركية سنة (١٢٩٤) إلى الشام وأسكنتهم الدولة العثمانية في بعض قرى منبج وحمص

وسلمية ودمشق وعمان وجرش والقنيطرة، أدخلوا إلى الشام بعض عاداتهم في تربية المواشي والفلاحة والصناعات الزراعية. ويغلب على الجراكسة الإمساك والتضامن لأنهم في حاجة إليه لدفع عادية البوادي عنهم، ويغلب التدين على شيوختهم والشجاعة على شبانهم. وإذا أراد الشاب منهم أن يخطب فتاة خطفها من بيت أبيها مهما كانت منزلتها ومنزلته. ونساؤهم يظللن سافرات ما دمن أبكاراً وعانسات، حتى إذا تزوجن عمدن إلى الحجاب وابتعدن عن مجالس الرجال. والفتيات يختلطن بالفتيان ويغنين ويرقصن معاً ويتسامرون ويتحدثون من دون نكير. ويقل فيهم تعدد الزوجات، والمرأة الجركسية مثال المرأة الصالحة في تربية أولادها وإدارة شؤون بيتها.

وقد أخذ الصهيوونيون في فلسطين يدخلون عاداتهم منذ كثر سوادهم فيها، ولكن من الصعب أن يقتبسها السكان الأصليون لأنهم ينظرون إليهم نظر أعداء، وإن كان في عاداتهم الحميل جداً كحب النظام والترتيب والنظافة والاقتصاد، وتجويد الأعمال الزراعية على اختلاف ضروبها. وكذلك الحال في المهاجرين من الأرمن الذين تسربوا من الشمال وامتدوا إلى الجنوب قليلاً وإلى الغرب، فإن من عاداتهم ما هو المعقول، وهو تضامنهم إلى ما لا حد له، واقتصادهم ومهارتهم في التجارة والصناعة، بيد أنهم لا يمتزجون بالشاميين ويريدون كالصهيوونيين أن يعاملوا أهل القطر ليرجوا منهم فقط، لا لتكون بينهم المنافع مشتركة كما هو الحال بين أبناء هذا الوطن الواحد على اختلاف نحلهم، وعلى كثرة ما يوقد الواقدون من الرؤساء المتعصبين من جنوة التعصب، يوشكون أن يقاطعوا غير أبناء جنسهم، ولكن السواد الأعظم إذا عاملهم بالمثل وعمدوا إلى مقاطعتهم لا يبقى أمامهم سوى الرحيل.

وأهل دمشق وحلب بل وأكثر المدن الداخلية من أشد الشاميين محافظة على عاداتهم وأخلاقهم، ولهم غرام إلى اليوم بالتلقيب بألقاب التشريف، واستعمال الألقاب الضخمة، راجت رواجاً كثيراً على آخر عهد الترك العثمانيين، لأن رتبهم وألقابهم مما كانوا أسرفوا في منحه للرفيع والوضيع، فصار أهل الطبقتين الوسطى والدنيا لا يتخاطبون إلا بلقب « باشا » أو « بك » أو « أفندي » و« دولتك » « عطوفتك » « سعادتك » « سماحتك » « فضيلتك »

« سيادتك ». أما ألقاب سيدنا ومولانا فتكاد تؤلف جزءاً مهماً من أحاديثهم . ابتليت الأمة بهذه الألقاب كما ابتليت باللقب بالدين في القرن الخامس إلى القرون الأخيرة . وقد وصف ابن جبير مآتم أهل دمشق وجنائزهم في الدولة الصلاحية فقال : ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانها ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين^(١) فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمس

(١) أول من لقب بالدين في الإسلام بهاء الدولة بن بويه ركن الدين وذلك في القرن الرابع للهجرة . وسرى هذا اللقب إلى العلماء ثم سمت نفوس العامة إلى اللقب بالدين فأصبحت بعد القرن الخامس لا تسمع إلا ألقاباً هائلة مضافة إلى الدين تساوى الناس في التمجيد بها ولم تخل من التحلي بهذه الحلية سوى الأندلس لأن دولهم بقيت عربية الروح والجسم حتى في الأيام التي كان الحكم فيها للبربر . وقد حمل بعض العلماء قديماً على هذه الألقاب المبتدعة لمخالفتها للشرع ولما فيها من تركية النفس المنهي عنها . قال القلقشندي : وبقي الأمر على اللقب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر بالله فافتتح اللقب بالإضافة إلى الدين وكان أول من لقب بالإضافة إليه أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه زيد على لقبه بهاء الدولة « نظام الدين » فكان يقال « بهاء الدولة ونظام الدين » . قال ابن حاجب النعمان : ثم تزايد اللقب به وأفرط حتى دخل فيه الكتاب والجند والأعراب والأكراد وسائر من طلب وأراد وكره حتى صار لقباً على الأصل . ولا شك أنه في زماننا قد خرج عن الحد حتى تعاطاه أهل الأسواق ومن في معناهم ولم تصر به ميزة لكبير على صغير حتى قال قائلهم .

طلع الدين مستغيثاً إلى الله — وقال العباد قد ظلموني
يتسمون بي وحقك لا أعرف منهم شخصاً ولا يعرفوني

وقال أبو الريحان البيروني : وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة ، وسواها فيها بين الموالي والمعادي ، ونسبهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم ، فإنهم أفرطوا في ذلك حتى احتجج للقائم بمحضرتهم إلى فرق بينه وبين غيرهم فثنوا له اللقب ورغب في مثل ذلك غيرهم ، وكان الراغب ينجح حاجته بالبدل ، وتنزاح علته بالأدلاء ، فاحتجج ثانياً إلى الفرق بين هؤلاء وبين المختص بمحضرتهم ، فثلثوا له اللقب وألحقوا به الشاهانشاهية . وبلغ الأمر غايته من التكليف والتثقيب ، حتى إن الذاكر يمل ذكرهم قبل أن يبتدئ به ، والكاتب يفني زماناً وأسطراً ، والخطاب لهم على خطر من فوت وقت الصلاة . قال : وكذلك وزراء الخلافة قد لقبوا بالأدواء كذي اليمينين وذي الرئاستين وذي الكفايتين وذي السيفين وذي القلمين وأمثال ذلك . وتشبه بهم آل بويه لما كانت الدولة منتقلة إليهم ، وبالغوا فيه واستغرقهم الكذب فسموا وزراءهم بكافي الكفاة ، والكافي الأوحده وأوحده الكفاة . ولم ترغب السامانية ولاة خراسان في هذه الألقاب بل اكتفوا بالتكنية . وكانوا يذكرون في حياتهم بالملك المؤيد والموفق والمنصور والمعلم والمتنصر ، وبعد

أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محبيه أو زكيه أو نجيبه إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعية، وتتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفرقين إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ثانياً عطفه وقذاله قال: ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامثال الخدمة وتعظيم الحضرة، وإذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عنقاء مغرب. وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هويًا. وهذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء. وعند استعراض رقيق الإمام، فيا عجباً لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتدلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه، لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل، فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الأذنان عندهم والرؤوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس اه .

بمثل هذا اللسان الغريب وصفنا ابن جبير. ولما أفرط القوم في عاداتهم في الجنائز والمآتم والأفراح والمجتمعات والقيام والقعود وتبادل السلام وتقديم القهوة والشاي وغيرهما، ودخلت في طور من الهزل عجيب، زهد فيها المتعلمون على المناحي الغربية، وأنشأوا يبنونها نبذ النواة. وخفت أيضاً

وقاتهم بالحميد والشهيد والسعيد والسديد والرضي وأمثال ذلك. ولكنهم لقبوا قواد جيوشهم بناصر الدولة وعامداها وحسامها وعميدها وسيفها وسانها ومعينها ونصيرها اقتداء بأفعال الخلفاء. وكذلك فعل بغراجان من تلقيب نفسه بشهاب الدولة، وجاوز نفر منهم هذا الحد فسموا أنفسهم بأبیر العالم وسيد الأمراء: فأذقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم اه

ألفاظ التكريم عن عهد الترك وهي آخذة بالزوال، وبقدر ما يكثر سواد المتعلمين يقل سواد المداهنين والمرائين، على ما يقلّ المخرفون والمعتقدون . فقد كان بعض الناس يعتقدون بالفعال والمندل والكيمياء والأحلام والكشف، فقلّ اليوم من يلتفتون إلى هذه المسائل، وخفت وطأتها حتى من القرى البعيدة. والمنورون من الناس قسماً: قسم وقف عند حدود الشرع واكتفى بأوامره ونواهيه، وآخر نزع ربة الدين ولكن في سره دون الجهر من القول . وبعض العادات لا تقوى على نزعها إلا الأيام الطويلة والنشوء السريع، وهذا متعذر الآن لتعذر نشر التعليم الإجماري في الشعب، فقد كان النساء إلى عهد قريب في الأحياء البعيدة عن مدينة حلب يخرجن في الجنائز مسخمت وجوههن مخمشات لها لابسات ثياب الحداد، باكيات مولولات منتحبات، وهذا من عادات الجاهلية التي منعها الإسلام. وأول المسؤولين عن إقرار مثل هذه العادات المشايخ والوعاظ وأرباب الصحف. وقل أن رأينا من المشايخ والوعاظ من يتعرض لإنكار مثل هذه البدع والعادات الضارة. أما الصحف فعلى كثرة ما نشرت من الأنوار في طبقات مخصوصة من الناس فقد بقيت في ناحية من النواحي مقصرة كل التقصير، وهو البحث في العادات المضرة والأخلاق الساقطة . ولنا ليحزننا أن كان في الصحافيين أناس لا يزيدون المجتمع إلا فساداً فوق فساد، لأنهم يلقنون العامة الكذب والخديعة والملق، ويدعون أن قراءهم لا يرضون منهم إلا بهذه الطرق. ولكننا على يقين من أنهم هم يبيعون من قرائهم ما يتفق مع مصلحة جيوبهم وأكياسهم . كان التدجيل إلى عهد قريب من خصائص بعض مشايخ الطرق فذهبت الآن ربحهم أو كادت وخلفهم هذا الضرب من الناس .

يمكن إرجاع أهم صفات الناس في هذا القطر إلى مادتين أصليتين «الوفاء والكرم» ولا تزال هاتان الصفتان ماثلتين في معظم الشاميين على كثرة ما اعتور مجتمعهم من تبديل وتعديل. وتجد هاتين المزيبتين على أتمهما في كثير من أهل الطبقات الوسطى والدنيا، يقومون عليهما غالباً من دون أن يتوقعوا عنهما أجراً سماوياً أو مظهرأ دنيوياً. أما الطبقة العليا فمن النادر أن يكون فيها الوفاء والكرم، وإن وفّت فلأمرٍ ما نفي، أو تكارمت فلغرض

ترجيئه. وكلما ضعف الوازع الديني في القوم، وهاجمتهم عادات الغربيين، انحلوا من عهدة الوفاء والكرم، ولذلك ترى الأوفياء والكرماء بعيدين إلا قليلاً عن المناطق التي اختلطت بالغريب على سواحل البحر، وأخذت من معارفه، وتخلقت بأخلاقه، واعتادت عاداته .

ومنذ شاع الكذب والحسد في الشاميين، ضعفت مادة حياتهم من التجارة والصناعة، وكادت ثقة الغرب ترتفع منهم، وإذا كتب لهم أن عاشوا في الحملة اليوم فبفضل الأسس القديمة التي قام عليها مجتمعهم وجامعتهم، وبفضل نشاطهم في مهاجرهم حيث رأوا أنفسهم أمام جاليات كثيرة من الأمم اضطرتهم الحال معها أن يظهروا بمظهر الأمانة ليعتاشوا ويرتاشوا. أما التحاسد والمشغبة فلم تنقطع شأفتهما فيهم حتى في ديار الغربية، وربما زادهم على ما كانوا ألفوه منها ما رأوه في مهاجرهم عند الأمم الأخرى فاقبسوه وأضافوه إلى رؤوس أموالهم. وربما بلغت الجالية الشامية نحو ألف ألف نسمة أي نحو سبع سكان القطر، فما أمرهم باليسير إذاً حتى لا يشار إليهم بجملة، لأنهم على الأقل يمثلون صورة من أهل القطر في الخارج، والأجانب لا يعرفون إلا أنها صحيحة مطابقة للأصل، أو أنهم من أمثل طبقات الشعب. ولو تفرقوا في الأرجاء التي يتزلونها، كما تفرقت قلوبهم في موطنهم الأصلي، لكان لزاماً أن يؤثر ذلك في أخلاقهم وعاداتهم، ولكنك تراهم في مهاجرهم يجتمعون أهل كل إقليم بإقليمه على الأكثر، وقد لا تختلط لفائفهم بسكان الديار التي يتزلونها إلا كما يختلط الشامي بالمصري إذا نزل مصر، يختلط به ليربح منه ويحتفظ بشاميته وتقاليده بعد جيلين وثلاثة وأحياناً بعد أربعة وخمسة .

عادات القبائل وأخلاقها :

تُمن أو سبع أهل القطر الشامي اليوم أي نحو خمسمائة ألف نسمة بادية أو قبائل رحالة، ويقال لهم في الاصطلاح: العرب أو العربان، تصطاف في مكان وتشتو في آخر، وقل من يألف منهم سكنى الدور، وبيوتهم من الخيام والمضارب تنسج من شعر المعزى، يعمدونها بعمد ويشدونها بأطناب،

ويضربونها حيث نزلوا لرعية ماشيتهم، يحملون معهم أثاثهم وخرثيهم ودوابهم ومؤناتهم، وهم شاوية يقومون على تربية الشياه والعنز ويربي بعضهم الأباعر، والشاوية من الأسماء التي تطلق على عشائر دير الزور على الفرات خاصة لأنهم جماعة شياه. ومعاش البدو من مواشيمهم وما تدرّ عليهم من السمون والألبان والأجبان والزبد وما يبيعون من نتاج قطعانهم، أو من غزو بعضهم بعضاً إن كانوا أشراراً على الفطرة لم تتدمت أخلاقهم قليلاً بالاحتكاك بالمتحضرين، وإذ كان سكان البادية على هذه الحالة من التنقل وأكثرهم يوغل في الشتاء إلى وسط ديار العرب انتجاعاً للكلا والماء، أصبح من المتعذر أن تنشأ لهم حالة ثابتة يتأق معها وصف كل قبيل منهم في عاداته وأخلاقه .

وعرب الشام من أصول شتى وقد تتغير أسماء قبائلهم مهما عظمت في كل قرن أو قرنين، فقد تغيرت أسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الإسلام الشام، في القرن الثالث أو الرابع، وما عرف من أسمائها في القرن الثامن أو التاسع تبدل في القرن الحادي عشر، وهكذا تتبدل أسماء العشائر تبعاً للمتأمر عليها، وقد تسمى القبيلة كلها باسم أميرها أو شيخها. والعشائر كلها تنقسم إلى أفخاذ وبطون، والإمارة أو المشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم من بيته، أو من كان أذكى قومه جنائناً، وأبسطهم بالكرم بدأ، وأشجعهم يوم النزال قلباً، وأصلبهم في الحوادث عوداً، ثم تنتقل بالوراثة .

وغزو القبائل بعضها بعضاً يحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامته فيهم، فقد تكون القبيلة اليوم في الغاية من طيب العيش، ناعمة البال بجلالها أي ماشيتها، فتغزى من الغد في عقر دارها، فلا تلبث أن تصبح أعرى من مغزل لا سيّد لها ولا لبد. دع ما يصيبها من نقص في الأنفس، فقد كان من النادر أن تجد رجلاً بلغ أقصى سن الشيخوخة لأنه يُعْتَبَط في الغزوات، ويُقتل في سن الفتوة غالباً. والحكومات الشامية اليوم تحظر على القبائل الغزو، وهم يخافون سطوتها لمكان السيارات ورشاشاتها في الأرض، والطائرات وقدأنفها في الجو، وتحاول كل حكومة أن تعطي البادية أرضاً تزرعها لتأوي

إلى البيوت الثابتة، وتتخلى عن عيش البداوة وما تستلزمه من شقاوة وشقاء .
ومن عشائر الشام ما عرف أنها كانت رحالة فأصبحت مزارعة مقيمة،
ولذّ لها عيشها الثاني فاغتنت يوم تحضرت، مثل الدنادشة أو بني دندش
فهم قبيلة يمانية جلت إلى حوران منذ نحو ثلاثمائة سنة، ثم انتقلت إلى أرجاء
تل كلخ من عمل حصن الأكراد، ولهم اليوم قرى عامرة وبيوت وقصور
في قرى الفتايا والحوز ومدان وحير البصل والموح ومشتى حمودة ومشتى
حمزة وبرج الدنادشة وغيرها، وظلت أخلاقهم إلى عهد قريب أخلاق
العشائر يجبون الغزو والسطو ويحمون الذّمار والجار، وهم على حصة موفورة
من الكرم والوفاء وصحة العهد. واتفق مثل هذا التحول لكثير من عشائر
الحديديين والموالي وبني خالد، فإنهم لما امتلك السلطان عبد الحميد الثاني
أرضاً واسعة في الشمال الشرقي من الشام في أرجاء حماة وحمص، حمى
العشائر ومنع الغزو بينها، فتحضر من هذه العشائر عدد كبير انصرفوا إلى
اعتماد الأرض والعناية بالزرع والضرع. وهكذا كانت الحال في القديم
والحديث، تدخل البادية في الحضارة، وقلّ أن خرج أفراد من الحضارة
إلى البداوة، لأن الترقى سنة الطبيعة، والبداوة أصل ثم يذوب أهلها على الزمن
في الحضرة .

تبعد منازل البدو عن سواحل البحر المتوسط غالباً، ولا تزال تمتد في
الداخل حتى ينتهي العامر من ديار الشام في الجنوب والشرق، وهناك البداوة
بأجلى مظاهرها. والأولى أن يقال مثلاً في عشائر الفضل والهوادجة والبحاترة
النازليين على ضفاف بحيرة الحولة، وبني صخر الضاريين في البلقاء، وبني
حسن في عجلون، والحسينة والفواعرة والعكيدات في أرجاء حمص، وبني
خالد عرب حماة، والحديديين والموالي واللهيب والغيّار عرب حلب.
والسبّعة والقدعان من عنزة النازليين من بحيرة الجبول إلى سلمية وعشائر
البشاتوة والبواتية الغزاوية والمساعيد ونقار والصقور عرب بيسان وناבלس
وجنين وطول كرم. وعشائر شرقي الأردن التي تشتو في وادي العربة أو
الأغوار، أو الحماد أي الصحراء العربية شرقاً، وتصطاف في أرض معينة
الحدود معروفة - فالأولى أن يطلق على هذه القبائل اسم نصف حضرية

لأن منها من يزرع الأرض، ومن أفلح في الفلاحة، وأيقن على الأيام أن العيش الثابت خير من المتقلقل، وأن من يدفع للدولة أجرة حمايته، أهناً بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وسيفه وعصبيته .

وهكذا يقال في عرب الغياث والعمور في اللجا والصفاء، وعرب العدوان والأيديات والعباد والمشالحة والحمايدة والشوابكة والدعجة والعجارمة والنمر والكايد في أطراف عمّان والصلت ومادبا، والخرشان والجبور في الموقر والعليا والتقىرة، وبني حميدة والسليط والحجايا والحباشنة والصرابرة والطراونه وكثربة والمعاطة والمجالي والمدانات في أرجاء الكرك، والحويطات والدمانية وأبي تايه والمطالقة والنعيمات والديابات وبني عطية في جهات معان، وعرب الشرور وبني عطا والهلالات والعبودية والعلايا في وادي موسى وجبال الشراة، والحמידات وعبدين والبحارات والكلالدة والوهبيات والمناعين في الطفيلة، فإن كثيراً منهم يزرعون الأرض، ويقومون على تعهد الماشية، وقد يبعدون في الانتجاع ثم يعودون أدراجهم.

وعلى مثل هذه الحال عشيرة العمور في أرجاء تدمر وعشائر بوشعبان في السخنة والجبور في البوكمال والكميدات في الميادين ودير الزور وغيرهم من العشائر النازلة على شط القرات الغربي، فإنها كلها نصف متحضرة وبقليل من العناية تدخل في المدنية وتترك عاداتها وشقائها، ويسوغ لنا أن نستنتج أن البادية حتى أكثرها إيغالاً في البداوة يمكن تحضيرها إذا أكرهت على التحضر خلافاً لما يذهب إليه بعض أهل الغرب. وفي الشام قبائل من البدو مثل عرب الروالة من عترة وهم لا يقلون عن عشرين ألف نسمة، ينتقلون أبداً كالنور أو العجر كل مدة في ناحية، ولا يتزلون المدن إلا لابتياح حاجاتهم وبيع جمالهم وأصوافهم وألبانهم. والنور جيل منحط من الناس يرتحلون كالبدو ويعملون الأعمال الخسيسة، ولذلك يحترقهم جميع أصناف العالم من أهل المدن والقرى والبدو، وهم قلما تخلو منهم بلد ومنهم عدد كبير في أوروبا .

ولا تختلف عادات العشائر لأنها كلها في حالة أولية فطرية هدتهم إليها الحاجة إلى الحياة، فعشائر ولد علي والسرحان والمعجل والسردية والنعيم

في حوران والقنيطرة والزوية، والزريقات في طرابلس والتيهاة والعزازمة
 والترابين والجبارات والحناجرة والكعابنة والصرايعة والجهالين وبقرة وثناني
 وهارين وفرحات وزويديين وضواحك وسلامات وصقيرير والرسيلات
 وأبي صونية والغوالبية في أقصى فلسطين أي في أرجاء بئر السبع وغزة والخليل
 والمجدل، وعشائر القدس ورام الله وبيت لحم وأريحا ويافا والرملة كالسويطرة
 وعرب النبي رابين والحماسين وأبي كشك والسوالمة والعوجا والديوك
 والنويعمة والخطباء والفهيرات والعريينات والنصيرات والتعامرة والعبيدية
 والسواخرة وعرب حيفا وعكا وزمارين والناصرية وطبرية وصفد وهم الغابة
 والعواضين والشقارات والزبيدات والتوائحة والكمابية والضيبية وبنبي غزة
 والنغناغية والرمل وعرب التركمان وجسر الزرقاء وقسارية والفقرة ونفيعات
 والدمائرية والسواعيد والسمنية والغوارنة والسويطات والحجيرات والطوقية
 والمريسات وصبيح الحجيرات والمزاريب والسبارجة والجواميس والغزالين
 والتلاوية والمواسي والسرجونة والسدور والسمايرة والحرامية والسماكية
 والمنارة وكراد الحيط والملاحة والشمالنة والبويزية والزنغرية وزبيد وقديرية
 وطوبا وحسينية وعلمانية ووقاس والصويلات والنميرات، وعشرات من
 القبائل كلها متشابهة في عاداتها وأحوالها الطبيعية وجلها لا تسد مطامعه إلا
 الغارات واستباحة حمى المعمور، عرفوا بذلك منذ عرف تاريخهم. وكان
 الرومان خاصة يقيمون المخافر خوفاً من اجتياحهم القرى ويقيمون لهم منهم
 زعماء يصدونهم عن الاعتداء بعضهم على بعض، أو يحولون دون اعتدائهم
 على المقيمين من سكان المزارع والديساكر .

وفي تاريخ فلسطين أن العزة والسيطرة كانت في جميع بلاد الساحل
 والسهل للبدو وأهل الدير، فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العزازمة
 والحناجرة والترابين والتيهاها والجبارات، فالعزازمة يمانيون ومشايخهم أجداد
 ابن سعيد، وأمراء الترابين عائلة أبي ست. وأمراء التياها الهزعليل، وأنساب هذه
 القبائل غير صريحة فإنها مزيج من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي
 واليماني، وبلاد الخليل أكثرها قيسية ومقاطعة القدس يمانية وقيسية اه .
 وكما عرف البدوي بأنه يجير الملتجئ إليه، فهو كذلك إذا آنس ضعفاً

من أحد أبناء السبيل في البرية سرق منه ماله وثيابه أو هميانه ودابته، وندر أن يقتله فشأنه شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها. ولطالما كان الجنود الشاميون أيام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن تطيل البادية عليهم أيدي الاعتداء تارة ويكسونهم ويطعمونهم تارة أخرى، وهكذا كان الفار يعرى ويكتسي مراراً حتى يصل إلى المعمور من دياره .

وماذا يعمل البدوي وماشيته ترعى أمامه، وكيف يصرف ليله ونهاره، وكيف تطيب له الحياة في الصيف والشتاء، وهو معرض لأشد الحرارة وأشد البرودة، وخائف على الدوام يتربص غزوة خصمه وقبيله الذي يعاديه؟ لا جرم أن البدوي، وهو بذكائه وفراسته معروف موصوف أكثر من الفلاحين أهل القرى، يعرف من الأخبار التي تهمة من أبناء العالم ما ينبغي له الإحاطة به، ويتناقله بسرعة البرق، حتى إن ما يحدث في الحجاز أو العراق، يصل خبره إلى ابن بادية الشام وما وراءه من العرب، قبل أن تصل السيارة والبريد، فينتقل الخبر في الأفواه من فم إلى فم، ويسمون الأخبار «العلوم» وأول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم. وإذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والأخبار التي تكون في العادة نطاً واحداً يأخذ شاعر القبيلة ربابه يضرب عليها، ويفكهم من نظمه أو من محفوظه بأشعار. وفي الغالب أن يكون ما ينشدهم إياه بلهجتهم التي يألفونها. ويحتوي على الأكثر الحماسيات وأخبار الغزاة والغزوات وأيام الشجعان وحوادث الكرماء والضيفان. والرقص معروف عندهم وهو الدبكة أو السحجة يرقص في الغالب الفتيان والفتيات، دون الرجال والنساء المتزوجات. ومهور النساء غالية في بعض العشائر، وتكون من الجمال والشيء غالباً لا من النقود لقلّة تداول النقد بينهم فهم يتقايضون الحاصلات، كما يتقايضون البنات بالحيوانات. والبدوي يُخصب إن جادت المراعي من خيرات السماء، وإلا فقد أترب وأجذب، ونفقت دوابه فأعوزته القيمات .

ويجلس الرجال في العراء في خيمة مضروبة تكون في الغالب خيمة الشيخ أو الغني، يتعاطون قهوة البن وهم يجيدون طبخها لفرغهم وتوفرهم على معالجتها. وقد يستغي البدوي عن الأكل أو يقلل منه كثيراً، ولكنه لا

يستغني بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة فهي نقله وحلواؤه وشرابه المنعش، وقد يصرف أحدهم ثمن بنّ في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه. وأحب الهدايا إلى قلب البدوي أن تحمل إليه مقداراً من البن. وطعامهم من أسهل الأشياء، مقصور على بعض الألبان والبرّ والجريش والأقط والعصيدة، ولباسهم ساذج للغاية وكسوتهم متشابهة: قفطان من القطن، وعباءة خفيفة، وزنار عادي، وكوفية وعقال، ولا يلبسون في الأعم من حالاتهم قمصاناً وصُدراً وسراويل، وأكثرهم حفاة، ويصطنع بعضهم كسكان وادي موسى نعالاً من جلود الأباعر ينيطونها بحبال يدخلون فيها أباهم أرجلهم تعلق بها .

قلّ أن تجد في البادية من يقرأ ويكتب، فقد تبلغ العشيرة ألف نسمة ولا تظفر فيها بمن يكتب جملة. ومن العشائر من تستأجر خطيباً من أهل الحضر يكون معها في مشتاتها ومصيفها، يقرئ بعض أبناء العشيرة القرآن، وينظر في الأنكحة والطلاق ويعظهم بما يعلم من أمور الدين. وأكثر البادية لا يتطهرون ولا يصلون ولا يصومون ولا يعرفون من الإسلام إلا أن الله واحد وأن محمداً رسوله. ولولا هاتان الكلمتان لقلنا إنهم كعرب الجاهلية حذو القذة بالقذة وقد تصلي بعض القبائل كالروالة، ولما كان الماء يعوزهم في منتجعاتهم وتنقلاتهم فهم يتيممون صعيداً طيباً، والله يعلم هل يحسن أكثرهم قراءة فاتحة الكتاب، أو يعرفون بعض سوره الصغار. وما كانت هذه العشيرة تصلي من قبل لولا أن لا بسها بعض دعاة الشيعة وعلموا كل فريق منهم إقامة الصلوات، ولقنوهم بعض معتقدات التشيع من حيث لا يدرون . وقد تدينّ اليوم أي دان بالمذهب الوهابي قسم من الروالة لما لحقوا بنجد، والمذهب الوهابي مذهب محمد بن عبد الوهاب وهو مذهب أحمد بن حنبل بأصوله وفروعه .

وإذ كان من الأمور العادية في البادية أن تكون القبائل في خصام دائم، وهي أشبه بحكومات صغرى تتقاتل وتستعين بالغريب على خصمها، مست الحاجة إلى قضاة يفصلون بينها في المنازعات، وقضاة منهم يتقاضون عندهم بأجر معلوم، وأحكامهم سريعة نافذة، ومن أحكامهم ما هو مطابق للشرع

الإسلامي ، ومنها ما هو من بنات أفكار القاضي ، أو يأخذه من العرف والعادة .
والاختلافات تفض بين المتخاصمين على أيدي الرؤساء صلحاً على الأكثر .
وقل أن يراجع البدوي الحكومة في مسأله لأن من أصولها البحث والتحقيق ،
وهو يجب قضاء عاجلاً ، وأن يحكم له أو عليه في جلسة واحدة ، وينفى
القاتل في بعض القبائل سبع سنين فإذا صالح أهل القتل ودفع الدية يعود
إلى عشيرته ، وتختلف دية القتل بين (٣٣) ألف غرش إلى (١٥) ألفاً ،
ولا يحق عند بعضهم لأحد بعد سبع سنين أن يثار للقتيل ، والأخذ بالثأر كثير
عندهم ، ولا مدة عند معظمهم للمطالبة بالثأر . ومن المأثور عنهم أن البدوي
أخذ ثأره بعد أربعين سنة وقال : إنني تعجلت أخذه . وجزاء السارق تعريمه
المال المسروق من ضعفين إلى أربعة أضعاف ، وينجو السارق بالفرار ، ويدفع
الضارب للمضروب إذا عطل منه عضواً نصف الدية . والزاني يرحم عندهم
حتى يموت ولكنهم تساهلوا في هذا الحكم ، والفحش عندهم على نسبة
ما هو عند الحضرة ويكثر في بعض العشائر ويقبل بحسب اختلاطها بأهل المدن
وبعدها عنها ، والحمور لا أثر لها في البادية لأن العرب قلما يشبعون الخبز
والإدام فمالهم إذا والمُدَام ، ولشظف العيش عندهم يعدون في الأعياد اليوم
الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة فإنهم في تلك الوجبة
مدعون كلهم بالطبيعة ، وعندما يأكلون اللحم فترى قطعانه تسافر من فوق
الرؤوس حتى يُطعم من « المنسف » البعيد منهم عنه ، وتسمع عندها تعريق
اللحم عن العظم أشبه بأصوات حيوانات وقعت على عظام .

ويكثر تعدد الزوجات بينهم خصوصاً عند من يملك بعض نعجات أو
بضعة أباعر فتراه طول النهار وجزءاً من الليل ، تحت خيمته يتقهوى أي
يشرب القهوة مستلقياً على قفاه ، يقص أقاصيصه وينعم ببطالته ، على حين
ترعى امرأته وبناته الغنم والجمال ، ويحتطن الحطب أو يجمعن العشب ، وتحمل
المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد ، أو تستقيه في قيرب تحملها على حمار
إن كان صاحبها من أهل اليسار ، وتستخرج المرأة الزبد والسمن وتعمل
الخبز وتخبز الخبز وتبي الطعام . ويعيش أولادهم كالسائمة في البرية بدون
عناية ويهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر ، ولهذا تكون أجسام من يفلتون

منهم من الموت قوية تبعاً لقاعدة بقاء الأنسب. وهم لا طيبب عندهم ولا جراح ولا قابلة إلا ما تعلموه من أجدادهم من الصفات، وثقفوه بطول الزمن في مداواة الجروح، ويداؤون أكثر الأمراض المستعصية بالكفي أو بأدهان وحشائش لهم يعرفونها. وأمراضهم قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم وقلة تطهرهم، وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة من أجسامهم ولندره ما يطعمون من الأطعمة المركبة من حامض وحلو وحر وبارد، ولقلة الهموم التي تساورهم وما تساور في العادة إلا سكان المدن والقرى ممن يفقهون واجبات الحياة، ويكدحون في طلب المعاش ولا يزالون مأخوذون بحب التقليد. والبدوي حاد النظر يرى الأشباح من مسافة بعيدة جداً، وقد يرى والقمر ليلة هلاله ما لا يبصره الحضري، ومن رآه في تمييز المرثيات عن بعد باعد، يكاد يصدق ما ذكرته العرب عن نظر زرقاء اليمامة. وكما كانت أبصارهم حادة كانت أسنانهم وأضراسهم سليمة براءة للطف أخلاطهم وتخليطهم.

قال أديب وهبة: « إن سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالأخطار والمشاق، وبعده عن الحامية وانتبازه الأسوار، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري، منها الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة فتوغل البدو في البادية، وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال أو استعداد دائم للقتال، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطهرهم للالتجاء إلى العصبية، وهي التضامن المطلق بين أفراد القبيلة، حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أحد أفرادها، وأقرب أسبابها لديهم الأخوة والأبوة والعمومة، ومنها تتألف الأسرة، ومن الأسر تتألف الفصيلة وتدرج بهذه الصورة إلى القبيلة. والذي عليه عشائر الشرق العربي أنها تطلب وتطالب بحقوق أفرادها إلى الجدد الخامس من جدود الطالب والمطلوب، أي لكل فرد يتصل مع أيهما بالجد الأول أو الثاني أو الثالث إلى الخامس الحق بطلب حق قريبه، وعليه أن يخضع للحق المطلوب منه، ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثه. ثم إن ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الأرض المقفرة يضطرهم إلى إكرام

الضعيف والقاصد وحماية الضعيف والمتجنى ، حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه. وقد قويت هذه المزية فيهم حتى ضرب بكرمهم المثل، وفاقوا به سائر الأمم. وإن مطاوي التاريخ العربي مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب. والبدوي يعتقد أنه لا ذكر له ولا إرث أفضل من سمعة الكرم والجود. وإن هذه المزية لا تزال عند بدو الشرق العربي على ما كانت عليه في زمن أجدادهم الجاهليين . فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنياً كان أو معدماً، إلا ويسرع لتهيئة كل ما يرضيه ويسره ، وإن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم. وإذا استأنهم مستأن على أمانة فدوا لحفظها أمواهم وأولادهم وأنفسهم، وكذلك إذا التجأ إليهم خائف، أو استجار بهم مظلوم، أو نزل عليهم موتور مطرود .

رأي في الأخلاق الشامية :

تمثل الأمم في العادة طبقتان من أبنائها «الوسطى والعليا». والطبقة الدنيا وهي طبقة العامة مستتعبة لا متبوعة، لأن ما هي فيه من تأخر أسباب الحياة، لا يترك لها مجالاً للتفكير في شيء ، غير ما يقع تحت حسها مباشرة ، وتشتد حاجتها الطبيعية إليه. وقد تقلد الطبقة السفلى الطبقة الوسطى تقليداً خفيفاً لا يكاد يشعر به، وتقليد الطبقة الوسطى الطبقة العليا أشد ظهوراً من تقليد الدنيا للوسطى . وتتجلى في الطبقة العليا مظاهر السعة في العيش ، والبسطة في العلم أو الحضارة، وهي أبدأ حريصة على مكانتها، تحاذر سقوط شأنها من أنظار الطبقتين التاليتين، وتعد السودد كل السودد ، ما هي فيه من جاه ومال ومجد وعلم .

يُعد من الطبقة العليا العلماء والعظماء والقواد وأرباب الأموال، ممن يسرون الجماعات إلى حياتها أو موتها، وينفثون في روعها ما يرفع مستواها العقلي، ويظهرون نفوسها من الآثام والآلام، وبأيديهم زبدة ثروة الأمة وجهودها، وإليهم منتهى ما بلغت قرائح أبنائها يمثلون التسلسل في الفكر، وتتجسم فيهم الإرادة الثابتة والعزيمة الصحيحة، وهم صورة البيوت الخالدة

ومنعكس التأثيرات الطريفة والتالدة، ومثال الشعب ورقيه ووجهه الواضح الجميل، وفي قبضتهم مفاتيح المفاخر ومغاليق المآثر وهم المذكورون وهم المشهورون، ومصير غيرهم إلى الحمول والعفاء .

من أجل هذا كان على تلك الطبقة أن تتحلى بجلى الفضيلة والشرف، وأن تكون عفيفة الطعمة حسنة الأحدوثة، بعيدة عن الموبقات والبذخ والسرف، حريصة على النهوض بالأمة تشارك في المسائل المدنية عن عقيدة راسخة وتأخذ بأيدي العاثرين والبائسين، وتلقن أبناء أمتها علماً ينتج الثروة ويحفظ المجد، ويولي الكرامة. وإذا جُنّت بالظهور من دون استعداد له وحاولت الاحتفاظ بمكانتها دون أن تتذرع بأسباب البقاء، وبتجديد مواد حياتها الحين بعد الآخر، فإن عزها لا يلبث أن يزول، وسعادتها توشك أن تضمحل، ومن العبث أن تعيش هذه الطبقة بشهرة أجدادها من الحكام وأهل الشرف وأرباب المظاهر، وأن تعتقد أن جماع المفاخر وقف على أحسابها وأنسابها، وتطلب من كل إنسان أن يرفع مقامها لأن من أجدادها من كان على شيء من الفهم أو الظهور، أو أنه كان يسفك الدماء ويستحل أكل أموال الناس حتى أثرى وخلف عقاراً وقرى وصامتاً وناطقاً. ورب صعلوك في نظر المتمجدين كبير في عيون الخلق. والكبير من كبرت أخلاقه، ونفع الناس وانتفع بهم .

وإذا جئنا نحاسب مثلاً بعض من انتسبوا إلى الدين، وهم أشرف الفئات في العرف نراهم أقرب الناس إلى امتهانه بأعمالهم، يأتون ما لا ينطبق على جلال منزلتهم. فقد فشت المطامع فيهم واستحلوا الأموال مهما كان لونها وطعمها ورائحتها، وأتوا للاحتفاظ بمظاهرهم القديمة من الأعمال ما بدت به مقاتلهم، فقصوا بفساد ذمهم على أوضاع الأمة، وركبوا مراكب الهوى واستمروا لأنفسهم أكل ما اعتقدوه حلالاً طيباً فأضاعت الأمة شخصياتها ومقوماتها، وأصبحت مزيجاً غريباً لا تعرف كيف تكيفه. وليس في المجتمع من يناقشهم الحساب، وكيف يناقشون وهم المرجع وهم الهادون. وكان المشار إليهم بالبنان من أهل هذه الطبقة في الدهر الغابر، يدلون بشمهم على الخلفاء والسلاطين، ويسيطرون بإخلاصهم على القضاة والحاكين، ومن هانت عليه عزة نفسه يوشك أن يستهين بكل محمدة. ولقد أدركنا أحد كبار شيوخ

العلم ، لما شاهد هذا التسفل في طبقة العلماء يشير على طلاب العلم الديني أن يتقن كل واحد منهم صناعة حتى لا يسفّ لأحد يستجدي نواله، ولا يمسي عالة على أبواب الحكومات وأرباب السلطات، إن احتاج إلى صناعته احترف بها. وإلا كان لمناصب الدين والدنيا مخطوباً لا خاطباً .

ولي سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك سنة (١٦٧هـ) وكان محتاجاً، فلقبه داود ابن أبي شيبان الدمشقي فقال له: يا أبا محمد وليت القضاء بعلم العلم والحديث. قال: نشدتك الله أتحت جبتك شعار؟ فقال داود: نعم. فرفع سويد جبته وقال: لكن جبتي ليس تحتها شعار. وقال: أنشدك الله هل هذا الطيلسان لك؟ قال داود: نعم. قال سويد: فوالله ما هذا الطيلسان الذي ترى عليّ لي، وإنه لعارية، أفلا ألي القضاء بعد هذا، فوالله لو ولوني بيت المال فإنه شر من القضاء لوليته اه. هذا قول عالم في زمن كان صاحب السلطان يطلب الأكفيا إلى القضاء فيفرون منه فرار السليم من الأجر. ومنهم من ضُرب لأنه لم يقبل أن يلي القضاء، وكان محتماً عليه قبوله لانتهاء الرياسة في العلم والعمل إليه. كان هذا في ذاك العصر الذهبي فما بالك بالعصر الأخير، والجهال يتطلبون مناصب الدين إلا في الندر، ويقدمون لتوليتها الرُشى والهدايا وقلّ فيهم التزيه الذي يستحق أن يطلق عليه اسم العالم، أفلا تسقط بجدّك هيبة هذه الطبقة من النفوس بعد هذا؟

وبينا نجد بعض القائمين على الدين من أهل السواد الأعظم لا يهتمون لغير إملاء جيوبهم وبطونهم، تشاهد بعض رجال الدين من أبناء الطوائف الصغيرة يجمعون شمل من التفوا حولهم، يقودونهم إلى محجة سعادتهم، ويؤسسون لهم دور التعليم والقربات، وينشلونهم من السقوط الذي صاروا إليه بحكم الأيام. فلا بدع إن جاء مجموع الطوائف المسيحية على قلته في الشام، أرقى من مجموع الطوائف الإسلامية على وفرة عدده وسعة ثروته . وكان من أثر الرياسة الدينية المنتفية من الإسلام أن استخدمها أهل النصرانية في المصالح المهمة، فكان لهم فيها عموم النفع. وكانت هذه الرياسة على ما فيها ناجعة في تهذيب الشعب عندهم، فأخرجوه من تيه الفوضى إلى باحة النظام. وهذا هو سر الترتيب الذي تراه ماثلاً في المجتمع النصراني وهو على

حصّة ضئيلة في المجتمع الإسلامي ولا يؤاخذ الإسلام بانحطاط أهله وما المؤاخذ إلا من أخذوا على أنفسهم عهداً بأن يطبقوا مفاصله فأهملوا واجبه، ولو كان الدين عاملاً من عوامل سقوط أمة ما كانت اليابان وهي تدين بالبوذية في مقدمة أمم الأرض علماء وعمراناً .

ولا مشاحة في أن من طبقة الدينيين فئة صالحة، ولكنها كانت في كل عصر تلقي الحبل على الغارب لغلبة اليأس عليها، وهناك فئة أشد تأثيراً وظهوراً وهي التي طالما قدمت وأخرت وباعت من هذه الأمة المسكينة ما شاءت وشاءت منافعها ودارت في كل دور مع مطامعها كيف دارت. إلا أن الدهر عاقب هذه الطبقة بما احتقبت من الكبائر، فضر بها ضربة آذنت بانقراضها لأنها لم تجار الزمن في نشوئه، كأن تكون مثال الفضائل ترباً بأنفسها عن الغيبة والنميمة وتتشرب أفئدتها حب الصدق والصدع بالحق وتحمى مزالق التغرير والتضليل وتحضر وكدها في واجبها من إرشاد العامة من طريق العلم الصحيح، في زمن اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث، أو بين الدين والإلحاد، وتجلى الانتقال في كل مظاهر الحياة. وما زالت هذه الفئة تحاول أن تسترد بالثرثرة والتبجح مجداً زائلاً، وهي في حالة المحتضر لا تبتدئ ولا تعيد . وما تحدثت أن تخرج من جهالتها، وتتطور بطور العصر، وتأخذ بحظ من العلم الديني والمدني، وتتحلى بشيء كثير من مكارم الأخلاق .

كان أحد أفراد هذه الطبقة أبلي في الدعوة الدينية بلاء حسناً، ورزق قلماً ماضياً، وعزماً مؤاتياً، واستعد للنزول والنزال في ميدان دعوته، يحمل أكثر أدواتها. وما عم أن ترك ما هيأته الفطرة له وأكسبته إياه التجربة وطول المدة وحاول بلوغ مظهر جديد اعتقد أنه جماع المظاهر، وهو لم يتمرس بأدابه، ولا عرف مداخله ومخارجه، وغلبه حب الشهرة فادعى ما لم يخلق له ولا تخلق به ونسي الغرض الذي يضطلع به، وراح يستغل موضع الضعف من فطرته ولا يعتمل فيما يرجى فيه كماله، ترك سيرته الأولى وهام بمظهره الثاني، زهد فيما يحسن وحاول التلبس فيما لا يحسن. وغريب من إنسان لم يقنع بمنزلة طيبة وضعته فيها بيئته وتربيته، ويجاهد جهاداً آخر في ساحة الوغى ولا سلاح معه يستخدمه، ولا آلة من أدوات الحرب يتقنها. الذكاء

وحده ينفع إلى حد معين، وأدوات النجاح في طريقه تحتاج إلى علم وفطرة .
والعلم بالتعلم والتريض، والفطرة هبة لا تُباع ولا تُشترى .

أنت يا هذا إذا حفظت قواعد علم من العلوم، يتعذر عليك أن تدعي الكيمياء والطبيعة أو السياسة والاجتماع، علوم مختلفة طويلة الذيل لا ينفع معها التخليط. القواعد المجملة التي تحفظ من كتاب في موضوع تحتاج في إتقانها إلى صرف طائفة طويلة من عمرك فلا تعطيك القرينة قياد كل أمر ولا تيسر في سبيلك كل دعوى. ولذلك ترى من هذا شأنه صاعداً متديلاً، ينفي اليوم ما أثبت أمس ويحارب حيناً من سالمه زمناً، يصانع أرباب القوة طوراً ثم يقلب لهم ظهر المجن تارة، إذا لم يستمرى ما أطعموه ولم يستقبل من أمره ما استدبر في وضع الخطط التي خطها لهم، والناس كلهم في نظره صغار عقول وأرباب فضول وهو لا يرى غير نفسه استجمعت ضروب المحامد، ولذلك لا يضمن عليها بما يمجدها، ويضع الألقاب الضخمة لها وينوه أبدأ بما انطوى عليه من شرف وعلم وعمل، ومن رضي عنه من الناس ينيله من عطفه ما لو وزن أيضاً في ميزان القسط لثالت كفته. والعاقل من أنصف نفسه قبل أن ينتصف الناس منه، ومن ظلم نفسه كان حرياً بأن يظلم غيره، ولهذا أمثال غير قليلة فيمن يلقبونها بـ « البارزين » والخواص أي النابيين .

نموذج آخر. بينا تجد الأول يجرع دعوته كما يجرع الصاب واللقم ويستعلي ويستطيل ويحاول أن يثبت أنه مصدر كل خير، لو استمع الناس له لثمت سعادتهم الدنيوية والأخروية، ترى أخاه قد اتخذ في الحياة غير طريقته وخالفه في سيره وسيرته، فقد لقن في صباه مجملات يحكم فيها بالجزئيات على الكليات حكماً مسمطاً ويتلطف ويتطرف ليجد السبيل إلى قلوب العامة والسوقة لأنهم كثير سوادهم يستميلهم بالدعابة والفكاهة، وماذا يهمه من الخاصة وهم قليل عديدهم، وما يناله من غضبهم ورضاهم ما دام الجمهور عنه راضياً. وأحسن ما يراه للوصول إلى قلوب العامة أن يرضي كل صاحب سلطان، لأن في رضي القوي تنطوي المظاهر والدنيا وهو عبدها وغايتها من الحياة السجود على أبواب سدنتها، لا يبالي أن يصعق

كل من لم يمالئوه، ويتوهم أن النقاد لا يفرقون بين الزيف والبهرج، ولا بين الهازل الماجن والمجد المجاهد، والعلم الحقيقي يولي صاحبه عزوفاً، وإذا قرن بالتهذيب لا يحاول صاحبه درجة إذا تخطاها أدركه العثار .

عرفت عالين دينيين أريداً على أن تفتح لهما أبواب الرزق، وتغدق عليهما المظاهر على أن يسفا إسفافاً خفيفاً يكون في السكوت عن رجل كان لهما صاحباً قديماً فحاز مظهراً كبيراً من مظاهر الدنيا حسده عليه عبيد المطامع والشهوات، وكان جوابهما كل مرة أن من لا يعمل للمصلحة العامة لا يستحق صداقتنا، ليأت ما استطاع من الخير ونحن بالطبع له الأخلاء الأوفياء لا نريد منه جزء . وهكذا قاطعاه وهو الحاكم المتحكم في الدولة، وهكذا عزفت نفسها عن أن يرقصا للقرود في دولته ويزينا للظالم ظلمه وهو في أوج عزته . زهدا في الجاه العريض لزهد صاحبه في الفضائل وشدة هيامه بدرهمه وديناره . رجلان يأكلان اللقمة بالتسفل والرياء وآخران جاهاً بأنها تؤكل بدون هذا . وهذا مثال من أخلاق بعض المعاصرين، وعبرة للأعقاب في الغابرين .

ظهر التعطيل في الإسلام منذ قرون، بما قام به المبتدعة من أهل الطرق وسخفاء الدجالين والقصاصين، فأنحطت العقول وضعف مستوى العلم والتهذيب في الناس فمن تصدى يا ترى لمحاربة هذه الضلالات التي لم ينزل بها سلطان؟ فشت أخلاق سيئة تخالف هدي الدين فتغافل الموكل إليهم هداية الخلق عن انتشار سمومها كأنهم يقرونها، وتركوا رعيتهم هملاً كالسائمة . وكانت دروس العلم مباحة مورودة إلى أوائل هذا القرن، وبتساهلهم كاد العلم الإسلامي ينقرض . وجاء كثير من مرتزقة الوعاظ والخطباء والأئمة والقضاة جهلاء يفتون بغير علم، ويخطبون بالمبتذل الساقط، ويلهون الجمهور بالقشور، ويبيعونه من سلعهم الكاسدة ما لو ائتمر العوام بأوامرهم لرجعوا ألف سنة إلى الوراء . وإذا اجتمع هؤلاء الدينيون إلى أكثر زعماء الأديان الأخرى، ظهر الفرق بين التقصير والعناية وتجلت المباينة بين من ساروا مع الزمن، ومن عاندوا الحقائق وحاربوا العقل وجمدوا في الفكر، ومالوا إلى الكسل عن العمل . وفوق هذا تراهم يجمعون أموالهم بخرق حرمة كل

قانون وشريعة، وهم متخاذلون متفائلون لا يكاد واحد منهم يزكي أخاه، ولا تجد خمسة منهم اتفقوا على مقصد واحد من مقاصد الخير. والعامل يرجح الأمية على هذا العلم الذي لم ينتج خيراً لأهله ولا لغيرهم، والأميون لا تصدر منهم هذه الجرأة على العبث بناموس الكمال. ومن تفلتوا من حدود الشرائع على قربهم منها، كانوا أشد انتقاضاً عليها من الجاهلين والغافلين. وتتصرف على هذه الطبقة، طبقة تلتحم بالخاصة أو العليا أيضاً، من جماعة المتعلمين على الأصول المدنية الحديثة، فقد دب في بعض هذه الطبقة سوس الفساد ولما تزل في بدء تأسيسها، وظهر لأرباب البصائر أن الدروس الطبيعية والرياضية والاجتماعية والفلسفية والحقوقية تنير العقل، ولكنها لا تحسن الأخلاق، إذا كانت منحطة من أصلها. وربما كان العلم في بعض هذه الطبقة أداة شر تستخدمه حبائل لصيد ما يسد المطامع. والأخلاق مغروسة في الدم والأسرة، والعلم صناعة يتعلمه الذكي الدائب.

ولقد تلونت صبغة هذه الفئة في هذه الأرض الطيبة، بألوان أهوية الأقاليم وجوانها، بل بألوان المدارس التي تخرجت بأساتيدها، فمن تعلم منها في مدارس التبشير التي أنعم بها أهل أوربة وأميركا على آسية وإفريقية، جاءت لإلا قليلاً منحلة من ربة حب الوطن وعهدة حب الجماعة، واستحكمت في كثير من أفرادها الأنانية والأثرة استحكاماً هون عليها كسر قيود الحكمة والخروج على الأدب الصحيح.

وقد اشتهر بعض هذه الطائفة بمعادة الدينيين والأعيان، والإزراء بسائر الطبقات وأكل الحسد والحقد قلوبها، فهي لا تتحاب بينها ولا تحب غيرها. ولا تعرف من محيطها أكثر مما يعرف الدخلاء: شمخت بأنوفها، واحتقرت كل من لم يجر على مثالها، ولا تثقف تثقيفها. ومنهم من دفعه ما لقفه من تربية وحصله من تعليم ناقص، إلى خدمة الغريب، والفناء في محبته والدهشة بكل ما يأتي على يده وقبول كل ما حمله من خُلق وثقافة والتغني بتاريخه ومجده والتغزل بجمال بلده والإعجاب بأوضاعه، أخذ كل ما أعطاه شاكرًا مغتبطًا، فخرج بذلك عن قوميته. وكثير منهم هجر بلده، إلى مكان ينبت بزعمه العز ويدبر أخلاف الرزق.

ومنهم من تعلموا في مدارس الدولة المنقطعة وتخلقوا بغير أخلاقهم، وانحلوا زمناً من قوميتهم فلا يفكرون ولا يتكلمون إلا بالتركية، ولا يكتبون إن كانوا ممن يحسنون الكتابة إلا بالتركية. فلما تبدلت الحالة السياسية بعد الحرب العامة دفعتهم الضرورة إلى ادعاء العربية وكانوا من قبل يعقونها وهم من أبنائها، زاعمين أنهم تبدلت أخلاقهم بمجرد الانتقال من دور إلى دور . وليست الأخلاق بذلة تنزعها، ولا طلاء تزيله وتستبدل غيره به. ولما كان معظم من تعلموا هذه العلوم في العهد السابق من أهل الطبقات النازلة في أصولهم، كان الموروث لهم والمائل فيهم من الأخلاق مثلاً من أخلاق أهل جرتومتهم، ولذلك هان عليهم ويهون في كل دور أن يتزلوا عن شخصياتهم لأول طارئ. وهذه الفئة مضرّة بأخلاقها أكثر من الجهال لأنها تعلمت تعليماً مسوخاً ظنته كل شيء . ومنذ فارقت المدارس التي تفاخر بأنها تحمل شهاداتها، وكثيراً ما نال شهاداتها المتوسط والغبي، ظنت أنها قبضت على قياد العلوم وودعت الكتب فصارت ترجع القهقري في معارفها الأولية وتجلت أخلاقها في كل ما عانته من الأعمال، فكانت إذا وسد إليها أمر تلتهم الأخضر واليابس، وإذا بدا لها طمع تهزأ بالفضائل إذا لم تجلب لها السعادة التي تتصورها .

رأى المجتمع من سقوط الأخلاق في بعض أهل هذه الطبقة ما تندى الجباه من تسجيله: رأى منهم من يقول ولا يخجل أنه إذا قيل له: إن الحالة الحاضرة ستبديل بعد عشرين سنة يفكر مذ الآن في أمر راتبه الذي يقبضه من سلك ما كان يلحظ أن يحشر في جملة أهله، ويقول أبدأ: اعذروني إذا خدمت أغراض كل صاحب قوة كما يشتهي، وإذا كنت له آلة في كل ما يجب . هو غني الجيب فقير النفس. جاهل يحشر نفسه في العلماء، والطبيعة تضعه حيث تريد .

ومنهم من جعل رأس ماله في مصانعة ولاة الأمر مهما كانوا والتقرب إليهم بكل حيلة، لينال مظهراً يظهر به ، لاعتقاده واعتقاد كثيرين أن الشرف كل الشرف في التقرب من الحكام، وأن كل مجد جاء من غير طريقهم لا وزن له إذا نصبت الموازين، وهؤلاء المتصدرون أسوأ مثال لمن حولهم .

يجبون إليهم الاتكال وضعة النفوس، وكأنهم يقولون: إن سبيلهم لا غيرها هي سبيل الفلاح والتمجد، وإن الفضائل لا شأن لها أمام المغانم. وإن العلم لا ينفع بغير تدليس، والطريق المسلك عندهم طريق المداجاة والمحابة، وإتقان المؤمرات والسعايات .

ومنهم أناس ظنوا ويا لسوء ما ظنوا، أن السعادة مناط القحة، والسعادة هي المال، والمال محلل أخذه من كل وجه، فتراهم يرتكبون كل شأن من العمل ليجمعوا مالاً ويعددوه ويستمتعوا بمتع الحياة، فهم حراص على كل ما يوصلهم إلى غايتهم، سلاط في التسور على مقامات أهل الفضل، يصمونهم بكل كبيرة وينبزونهم بالخفة والرعونة. جوزوا لأنفسهم السرقة، لأنهم لا مأرب لهم في غير الإثراء، وجمع المال جماع المزايا في نظرهم. احتقروا الشرائع فهان عليهم تبديل مذهبهم والتقرب إلى أهل كل دين وطريقة بدينهم وطريقتهم. ولو أنصفوا لعدوا لصوصاً عارفين باللصوصية، واللص يسرق خفية من طريق واحدة قد يكون فيها مكرهاً ليطعم نفسه وعياله، وهذا يسرق جهرة من كل طريق ويزيد على لؤم طباعه تبجحاً بالمبادئ والشرف والأمانة، ومن الغريب أن يرى حتى من الأذكياء من يجلونه أو يغالطون أنفسهم في انحطاط أخلاقه وهم يعرفونها، ورحم الله شاعر مصر إسماعيل صبري حيث قال :

غاص ماء الحياء من كل وجه	فغدا كالح الجوانب قفسرا
وتفشى العقوق في الناس حتى	كاد رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الأج	داث ورداً إن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلاً ولسواد	ين ما في الحشا لما قلن خيرا

ومنهم أناس ورثوا عن آبائهم استحلال أكل السمحت والعبث بحقوق العباد. فلما تلفقوا القشور اللازمة لهم في المدارس التي سموها بالعليا ومرنوا على النفاق والباطل ومردوا على آداب الأديان وخرجوا عن أوضاع المجتمعات، جاءوا سراقاً يسكنون القصور، وعاشوا طول حياتهم في ذل النفوس، يجمعون بين المنازع المختلفة في وقت واحد علماً بأن أحدها لا بد أن تكتب له الغلبة، فإذا نجح كان لهم حظ من نجاح أهله، وإذا أثمر الآخر لم تفتحهم خيراته، جعلوا

بيوتهم للخمر والقمر أندية ومسارح، وفطموا نفوسهم إلا عن إشباعها المال الحرام. وهم بأصحاب الملاعب أشبه منهم بالمتعلمين أصحاب المراتب، وإذا دخل الغيرة حانتهم وفيها كل مفعول جائز هان عليه انتهاك الحرمات، وإذا عاشرهم تعلم في بؤرتهم من التزوير والتغريب ما يعاب به الحيوان فضلاً عن الإنسان. ومنهم من ورثوا التذبذب من بيوتهم وأخذوا الدس والوقية بالسند المتصل بأبائهم، وكان قصاراهم أن يحرزوا مناصب تمكنهم من المتاجرة بحقوق الناس ودمائهم، ليتأثلوا وينفقوا في السفه ما تأثلوه، فهم لا يستنكفون عن التقرب من أصحاب الشأن بكل ما لديهم من الوسائط، ويسمون لعامة أصناف الناس بل ويصانعونهم على حين تلعنهم قلوبهم، وهم موقنون أن المصانع على الجملة يعرف كذب مصانعه، ومع هذا يمحضون في طريقهم وهم لا يحبون أحداً ولا يحبهم أحد. ونزع عقيدة عرفوا بها أمس، لتقلد غيرها اليوم، أسهل عليهم من نزع أحذيتهم وقمصانهم. قضا أعمارهم في نصب الخيل والمكابد، لا يلذهم من دنياهم غيرها، وأكبر أفراسهم يوم يغشون ويسري في الناس غشهم، كأن المدرسة التي تعلموا فيها لم تعلمهم غير ذلك. ولكن هي الفطرة إذا فسدت فكل خير يأتيها يكون عارضاً عليها، تنبذه ولا تسيغه.

ومنهم أناس عرفوا منذ قبضوا على زمام أعمالهم بسلب نعمة الضعيف ومحاولة التقرب من القوي نبذتهم الطبيعة أولاً، ثم عمي الدهر عنهم فبلغوا مأربهم من المراتب، ولم تسعهم جلودهم يوم شاهدوا العز بعد الذل، فظهروا في مظاهر من الكبرياء والعظمة، ومن أين للسافل بأصله أن يكون فرعه عالياً. حصروا همهم في العبث بالمصالح العامة، فلا يفكرون بغير إملاء جيوبهم، والدهان لساداتهم مهما كانوا، وتوفير المنافع لمن يحف من حول عروشهم، وإن كانوا من أخط الطبقات معرفة وأخلاقاً. وقد رأينا من هذه الطائفة من يغير سيرته في السنة الواحدة مرتين، ويدخل في آن واحد في عدة أحزاب وجمعيات سرية وجاهرية، ويقسم لكل واحد منها اليمين الغموس، معاهداً كل طائفة على الإخلاص لطائفتها وحزبها وطريقتها دون غيرها، وهو لا يتوقع من هذه المرونة المستغربة إلا أن يكون له شأن مع كل

حزب إذا كتب له الظهور .

ومن هذه الفئة أناس لا يهنا لهم بال إلا إذا اغتنوا، فلما انتفضت صناديقهم بالورق والورق، ضيقوا حتى على بنيتهم وبناتهم لثلا يسرفوا في أموالهم، فاضطروهم إلى ارتكاب كل شتاء، أما هم فعادوا يدعون الفاقة، فتراهم لا ينفقون إلا ما يحفظ عليهم مظهرهم، ويوصلهم إلى مراميهم، كأن الدينار جعل للخزن فقط، والسعيد من يجمعه ولو لم يستمتع به حياته، ويخلفه لمن هم عليه أشد الأعداء، يصرفونه في العهر والخمر والزمر والقمر. ولو أنصف هذا نفسه لأنفق بعض دخله على ما يرفع مستوى أمته ويزيل بؤسها، وفي هذا ظهور له أيضاً إن تآقت نفسه إلى الظهور .

ومنهم طائفة تصلي وتصوم، وتلزم المساجد ودروس الوعظ، وتظاهر بالدين، وتتقرب إلى حملة الشرع وأرباب الصلاح لا تفتل السبح من أيديها، تتظاهر بأنها تذكر اسم الله في غدوها ورواحها، وهي في باطنها من أشد الخلائق عداوة للإنسانية، تقول بألسنتها ما ليس في قلوبها، ولو كشفت عنها الغطاء لأيقنت أنها من الشفقة بحيث لو شاهدت صغاراً يتضورون جوعاً ما أطعمتهم فئات موائدها، ولو بصرت بيائسين يرتعدون دقاً وعرياً ما كستهم بلاس بلاطها ولا زودتهم حثالة مطابخها وأهرائها، وإذا وقع لها أن أكرهت على نجدة بائس مؤوف تبيحت بما أتت، وقامت تومئ بلسان الحال إلى أنه لولاها لانهار بناء الأمة وتداعت صروح مجدها، وتوهم أن وجودها رحمة، وعملها غبطة ونعمة، ولها في نشر ما تتخيله محامد، أساليب غريبة مضحكة .

ومنهم أناس إذا عرفتهم في العهد الماضي عرفتهم بعجمتهم التي لا غبار عليها، وهم ما كانوا يجوزون لأنفسهم التكلم بلغتهم الأصلية، فلما تبدلت السياسة تبدلوا لساعتهم، وصاروا لغير ما سبب معقول حرباً على من كانوا بالأمس يتمنون رضاهم، وأخذوا أنفسهم وأبناءهم بتعلم لغة من جاءوهم، وغيروا عاداتهم ولهجاتهم، وأنشأوا يستخدمون كل الطرق للاحتفاظ بكراسيهم، حتى إذا جلسوا عليها نسوا فضل المفضلين عليهم، وقد عاهدوا أنفسهم أن يخدموا كل صاحب قوة بالصورة التي تروقه مع

ذكاء فيهم وتجربة أحرزوها فهان عليهم أن يبيعوها مقابل عرض قليل ومظهر ضئيل. التجسس فيهم فطرة والإزراء بالقومية والوطنية من مألوفاتهم ما أساءوا استعمال ما ائتمنوا عليه إلا ليغتنوا بطرق عرفوها، ويغنوا أبناءهم ولو كان في ذلك هلاك مئآت من الناس .

ومنهم أناس كانوا في أخذ المال كالعلقة يمتصون الطاهر وغير الطاهر ثم يفيضون منه على القانع والمعتز، ويطعمون الطعام ويكسون الأيتام. ومنهم من جمعوا عشرات الألوف ومئات الألوف ولا تجود أنفسهم بدائق لتعليم أطفال الفقراء وإنجاد البائسين وإكساء العراة. وإذا تصفحت جرائد الجمعيات الخيرية التي قامت في العهد الأخير لتعليم اليتامى وإغاثة المحاويج، لا تسقط فيها إلا نادراً على أسماء بعض أرباب السعة، بمعنى أن هذه الطبقة كانت أقل الناس في معاونتها. والطبقتان الوسطى والنازلة هما اللتان جمعتا الدرهم فوق الدرهم، اقتطعتاه من رزق عيالها، لتطعما به من هم أجوع منها، وتنشل من السقطة من هم أكثر سقوطاً من بنيتها .

وفي هذه الديار عشرات من الأغنياء يدججون في سلك الأعيان يعتزون بأموالهم، ويضنون بها كل الضنائة، اللهم إلا إذا كان في صرفها لإرضاء شهواتهم، وتوفير أنواع رفاهيتهم. وإذا أشير إليهم أن يشاركوا في المصالح الوطنية لووا وجوههم، وهزأوا في باطنهم بهذه الأعمال التافهة، حتى إذا حلت بهم مصيبة أخذوا يستنجدون ولا ينجدون، ويطلقون ألسنتهم في رجال كانوا بالأمس يقدسونهم، وأنتى للأمة أن تعرفهم أيام شقاؤهم، وهم لم يتعرفوا إليها أيام سعادتهم. هذا وهم أنصار كل حكومة تسوغهم أكل حقوقها وحقوق الضعاف، وتطلق أيديهم في ظلم الفلاحين والمغفلين، وتعاونهم في محاكمها على فض قضاياهم بما يتفق مع رغائبهم، وتوسد إليهم أمورهم المنتجة لهم مالاً وجاهاً .

في هؤلاء الأعيان رجل كان عنده من أدوات الزينة والتبرج ما يساوي المئات من الديناير، وربما كان ثمن ربطات رقبته المعمولة من الحرير لا يقل عن ألف جنيه، لأن عددها كان ألفي ربطة معروضة في قاعة كبيرة، وكنت إذا أردته على أن يبتاع جريدة ليقرأها شكاً إليك ضيق ذات يده،

وأظهر أن القراءة مما لا تسمح له به أوقاته الثمينة، وكان يدفن أمواله في الأرض، حتى لا يظهر عليها الناس إذا وضعت في المصرف، فظهر منها ألاف بعد أن أصيب بنكبة اضطرته إلى نبشها. وبلغ الشح ببعضهم أنه كان يطعم خدامه وأولاده طعاماً غير ما يطعمه نفسه وزوجه، ويدعي مع كل من يجتمع إليه أنه فقير مملق، لا طاقة له على تحمل شيء، فلما اضطر إلى الكشف عن دفائنه كانت ألوفاً عدا ما يسلفه بالربا المقوت أضعافاً مضاعفة وعدا مزارعه وحداثقه. ومن الغريب أن يتطوع مثل هذا الرجل الذي رد إلى أرذل العمر في الجاسوسية وهو يتظاهر بالقوى. وأكثر هؤلاء الأشحة يظهرون في العامة بمظهر المتصدقين والمحسنين، كأن تجود نفوسهم ببعض درهيمات لبعض المستكدين على رؤوس الأشهاد، ليقال عنهم إنهم أهل خير وصلاح. وهناك رجل كذب على قومه طول حياته الطويلة، بنسبه وعلمه وتقواه، فلم يعد بين ضعاف العقول من صدقوه في دعاويه، وعاش بمداهنة الناس وبلغ من ثقة القوم به أنه إذا حانت منية أحدهم، يلوب على من يأتمنه على أولاده بعده، فلا يجد غير هذا المزور يقيمه وصياً على عياله لما اشتهر من أمانته بين السذج في كل دور، فلا يلبث مال الموصي أن يمزق بيد الوصي. وهكذا كان هذا الدعي بعد نصف قرن من المشار إليهم المجمع على تكريمهم، وقد عرف أيام تولى القضاء بتبرئة المجرم وتجريم البريء. ومن العجب أنه لم يسأله أحد من أين جاء بثروته، والعادة على الأكثر أن لا يسأل الغني عن طرق غناه بل يتمسح به ويتبرك بأنفاسه، ولو كان لا يتزل منه عن قطمير لأحد.

ظهر كثير من العامة في حوادث وقعت بمظهر الغبراء على المصالح الوطنية، وأبانوا عن حمية وأريحية ما كان يرجى صدور مثلهما من أرباب الطبقة العليا، ولا ممن اعتادوا أن يجعلوا من الأديان سلماً إلى درك شهواتهم، وقام من صفوف الأميين وأهل المتربة أناس جعلوا هدفهم ما اعتقدوه حقاً نافعاً مخلصين في أقوالهم وأفعالهم، معتقدين الخير فيما بذلوا أنفسهم ونفائسهم في سبيله. وتجلى النبوغ في أفراد منهم بحكم قانون الرجعة، فأثبتوا في الشدائد بهذا الشرف المغيب أنهم ربما كانوا من سلالة عظماء أكارم. وهناك أناس ظاهرهم مهذب براق آثروا

امتهان النفس في أخس الأعمال مقابل عرض ينالونه أو إقبال يتخيلونه، فارتكبوا كل ما يورثهم عار الأبد، فكان ظاهراً مجملًا، وباطنهم خبيثًا وخذية، يفادون بكل ما ليس لهم فيه مصلحة، ويداجون كل من يلقاهم بما يريد، ولعلك على حق إذا قلت إن صيغ الكلام تضيق عن وصف أفعالهم . فهم ممن حُبب إليهم من دنياهم أذى القريب لا ينامون ملء جفونهم إلا يوم يوقعون بأصحاب الشرف والمروءات .

وما لنا والإكثار من ضرب الأمثلة بفتنة هي معقد الآمال في الإصلاح وهي لم تكذب تحقق رجاء إلى الآن ، وليست في أخلاقها مما يرغب المرء كثيراً في تكثير سوادها، لأن منها من تجرد من معنى الحق والصدق. ولو حللت نفوس أكثرهم تحليلاً دقيقاً لرأيتهم أعرف الناس بالمدخل والمخرج وأعراسهم من أكثر الفضائل الكسبية واللدنية. ضعف عطفهم على جنسهم وهان عليهم أن يبيعوا وجداناتهم لمن يضمن لهم مظاهرهم. فهم أبدأ سلاح الغريب على القريب، وهم يده الباطشة وأظافره الحادشة .

ولطالما نصب حلم أبواب الحلوم من تلاعب أناس استناروا بقبس العلم الحديث، يتهارشون على أبواب جمعية مدنية وهم في الحقيقة لا يهمهم من دعوتها إلا أن يحموا بسلطانها سلطانهم ، ويستروا في حنى كهفها معايبهم، ومن الغريب أنه لا يكاد يرقى في درجاتها إلا من عرفوا بالاسترسال في حظوظهم، وكانوا من الممقوتين في العرف والعادة، هذا وقانون الجمعية شديد في التسامح مع أمثالهم، ولكن كل قانون ينصب بصيغة محيطه، وما دام المحيط على ما ترى فلا بدع إن كان بعد هذا أعظم قانون سماوي أو أرضي في حكم العدم .

ولا يفوتك أن الطبقة الوسطى في ديارنا هي التي تتمثل فيها الأمة حقيقة لا مجازاً ويكثر فيها الخير ويقل الشر، وهي التي تقوم بجلب المنافع ودرء المضار، وتعيش في خوف الديان، وتهم لسعادة الأوطان، هي في الغالب محدودة بعقول أبنائها، كثيرة بما يتم على أيديها من الخيرات باجتماعها، وهي التي تفكر وتقدر وقد قام كثير من الأعمال النافعة بصنيعها ومن وضعها. فيهم الصبر وفيهم الأناة وفيهم الرحمة، خسيسهم أقل من رفيعهم، هم قوة الظهر

في جيش الأمة بل في طبيعته المتيقظة. السخاء مغروس في أكثرهم والمروة والوفاء غريزتان يورثهما الآباء لأبنائهم، وهم يبعدون عن أرباب السلطات، دأبهم التوفر على صناعاتهم وزراعاتهم، وقلما تحدثهم أنفسهم أن يتخذوا بديلاً عن عمل عاناة آباؤهم وأجدادهم .

الأخلاق التي تعبت بالفضائل هي التي رسخت في بعض العلية من أهله .
 وشهد الله أن هذه الأمة لا تشكو قلة علمها بقدر ما تشكو ضعف أخلاقها،
 وإذا أخذت المطامع البشعة من قلوب دعاة الإصلاح وحماة الحوزة كيف
 يوجه اللوم على من كان دون طبقتهم؟ وما يسوء أن كان أقرب الناس
 إلى إدراك معنى الفضائل أسرعهم إلى عقوقها وانتهاك حرمتها. وإذا كانت
 في الطبقة الوسطى هنات لا يخلو منها إنسان فهي كالعوذة يتقى بها شر
 الحاسد، ويصان بها جمال المكرمات والمحامد، وقلما يخلو بشر من عيوب
 صغيرة ضررها على صاحبها وحده .

أكثر ما تعاب به هذه الأمة عصيانها على الأنظمة والشرائع لا تطبق
 منها إلا ما لا يمس بمصالحها الخاصة، فإذا كان في بعضها ما يخالف الشهوات
 والأغراض خرجت عليها وحاربتها والمهيمنين عليها. ولذلك صعبت هنا
 في كل قرن مهمة المصلحين في إصلاحهم لقلّة الثبات ووني الهمم. فقد
 يسرع بعضهم في التصديق خصوصاً إذا أحسنت الدعاية بادیء بدء ولكنهم
 سرعان ما ينقضون العهد. ومن أضرّ ما يضر هذا الشعب أنه قلما يخضع للزعيم
 خضوعاً حقيقياً تقرأ معانيه في حركاته وسكناته ولو كان الزعيم في الغاية
 من حسن الأخلاق وإرادة الخير لها. وهذه أخلاق العرب بعينها أفرطوا
 في حب حريتهم فحاول الصعلوك فيهم أن يكون وجيهاً فسارع الانحلال
 إلى دولهم بالطبيعة وظهر التخبط في إحرازهم الرياسات منذ فجر الإسلام .
 وظلت هذه الأخلاق متسلسلة في دماهم. وقد يريد الطامع في شيء أن تنقلب
 الدولة رأساً على عقب، وتنتقل ولو إلى عدوه، على أن يتولاها قريبه الذي لا
 يحبه وأن يهلك في اللحم والنيران المستعرة فريق عظيم من قومه إذا كان له
 من هذا الحريق ما يشوي به سمكته .

وأنت إذا حلت روح الشاميين تراهم فرادى لا يقلون كثيراً عن

غيرهم من الراقين، وإذا جثت تحللهم جماعات فهناك التفسخ في القوى والانحلال في الروابط. الشاميون إذا اجتمعوا تخالفوا عادة على الرياسة والتصدر، وتباينوا في الفكر والاجتهاد، لأن الذكاء غالب عليهم، وحب الذات مستحكم في شغاف قلوبهم، وكل واحد يريد أن ينفذ قوله ولو كان مغلطاً، وإذا لم يوافقهم رفقاؤه على ما ارتأى عاداهم وربما آذاهم، كأن الاختلاف في الاجتهاد يستلزم العداوة والسخيمة. فلا تستغرب بعد هذا إن أصيبت أكثر أعمال الجماعات عندهم بالشلل والفشل ومنها ما يموت كالخنين في بطن أمه قبل أن يتمثل بشراً سوياً. وقد ينشئ غير المسلمين الجمعيات والمجامع ويحالفهم النجاح أكثر من غيرهم لأنهم على تربية متقاربة وعلى تكافل ودؤوب في الجملة. وما ندري لعل العامل في هذا النجاح الضرورة التي دعا إليها تماسك الصغير أمام قوة الكبير، على حين ترى أن هذا الكبير لا يحسن على الأغلب إلا الإدلال بقوته الموهومة والإعجاب بماضيه يقف عند حده، ولا يعرف أن يبرهن على العظمة الغابرة بسداد أعماله الحاضرة .

ومن عيوب السواد الأعظم أن الهزل يغلب عليهم، والجد قليل فيهم، يحبون المداعبة والهزل واللهو، ويسوء بعض اللثام أن يروا في قريتهم من يجد يهزأون بمن يعملون وهم لا يعملون ولا يعرفون كيف يعملون، فسبيلهم سبيل العاطل والمعتل. ومن عيوبهم أنهم لا يصدقون صاحبهم لأن سوء الظن غالب عليهم، هذا ولو جاءهم مستنصحاً مسترشداً، لأنهم أميل إلى المصانعة لا إلى الصدق بالحق، وأقرب إلى أن يرضوا جليسهم ويسكتوا أمامه عن هفواته، وربما التمسوا له في حضرته المعاذير حتى إذا غاب عن عيونهم نحتوا أثلته وعابوه بما قد لا تلمه تبعته. ومن أجل هذا تأصلت في القوم عادات وأخلاق كان يتأتى نزعها لو كتب لها من ينقدها وينكرها غير مدالس ولا موالس . فالنعومة الظاهرة التي تشاهد في بعض الشاميين يحتاجون معها إلى شيء من الخشونة والقسوة .

كانوا في الأيام الماضية إذا أرادوا الخط من شخص سلبوه صفاته وأتهموه « بالمروق من الدين » وربما أوصلوه بهذه التهمة الشنعاء إلى ضرب عنقه، وهذا من بعض الأسباب في قلة النوايع في القرون المتأخرة. واليوم

نشأ لهم زي جديد من أزياء التهمات يلبسونها من لا ترضيهم حاله، أضافوا إلى من يحاولون النيل منهم تهمة « المروق من الوطنية » كأن الوطنية ما هم فيه من الختل والتخاذل وطلب الظهور بقاصمة الظهر. ويا لشقاء الدين والوطن كم أنجر بهما متجرون في الغابر والحاضر. ومن تدبر أحوال هذه الطائفة بأدنى نظر أدرك أن كل من يتبجحون بهذه الدعاوي هم أول من يدوس كل مقدس لبلوغ غرض حقير .

والدواء الناجع في مداواة هذه الأخلاق هو أن يكون للصغار مدارس وطنية متقنة تلقنهم العلم الصحيح والأخلاق الصحيحة والقومية الصحيحة . أما الكبار الذين اشتهروا بسوء القالة فيقاطعون ويتجههم لهم العقلاء في كل أفق، لا يدنونهم من مجالسهم مهما بلغ من سلطانهم وجاههم وما لهم. فإن من السخف التلطف مع الأشرار في المحضر، والتهامس في قبيح سيرتهم في المغيب. يجب أن يناقشوا الحساب ولا يؤمن لهم على خطاب و« المؤذي طبعاً يقتل شرعاً » .

سيقول فريق ممن يقرأون هذه الصفحات: إنها أغرقت في وصف أخلاق الطبقات وفضحت ما كان مكنوناً لا يعرفه إلا أرباب البصيرة، ونحن في زمن أحوج ما نكون إلى السكوت عن المعاييب حتى لا يبدو عوارنا لغيرنا، كأن غيرنا لا يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا. وكان الأولى في عرفهم أن نجامل ونججم، بيد أن السكوت عن العيوب عيب كبير، وكتمان العلة مدرجة إلى الهلكة، والتاريخ لا يكتب على الهوى ولا يُملى لإرضاء الناس. وما نخال منصفاً بصيراً إلا ويعترف وهو مثلنا جدّ آسف أن ما أصاب هذه الديار من المصائب منذ عهد طويل لم يكن إلا بسوء أخلاق من تولوا من أبنائها أمرها، وأنه من المستحيل بعد أن صرح الحق عن محضه أن تؤلف الشام كياناً يذكر وتقوم في ساحة الحضارة البشرية بعمل يشكر، ولو أوتيت علم الجرمانيين واللاتينيين، ورزقت غنى الإنكليز السكسونيين، ما دامت أخلاق أهل الحل والعقد فيها لا تعالج بالتقويم، ولا يحاول القضاء على مواطن الضعف من نفوسهم وعقولهم. الساكت عن الحق شيطان أخرس .

فصلته لكن على عقلي فما مقياس عقلك كان لي معروفا

حياة محمد كردعلي
مؤلف خطط الشام
« ترجمته بنفسه »

أصل أسرتنا من السليمانية تنسب إلى الأكراد الأيوبية، جاء جدي إلى دمشق في التجارة وكان من أهل اليسار فراقته وسكن فيها. ثم ذهب في بعض السنين إلى الحجاز متجراً، واتفق له أن انتقد ذات يوم عملاً من أعمال محافظ الحج، وكان ظالماً جباراً، فشق ذلك عليه، وأمر بمصادرته في كل ما يملك، فاضطر أن يذهب إلى الاستانة مستعدياً. وما زال يعمل الوسائط حتى اجتمع بالسلطان، واقترح عليه هذا أن يصرف النظر عن دعواه على محافظ الحج، ويأخذ مقابل ماله قريتين في الشام إقطاعاً له ولأولاده من بعده، فأبى وقال للسلطان: ما جئت لأخذ صدقة بل جئت أطلب عدلاً وإنصافاً. وهكذا رجع إلى دمشق مجرداً من ثروته وهلك قهراً بعد قليل. وخلف والذي يتيماً فقيراً فاشتغل لأول أمره في صناعة الخياطة ثم بالتجارة، فأثرى مرات وخسر مرات، وابتاع في آخر أمره مزرعة صغيرة في الغوطة تمزنتها أنا وإخوتي منذ كنا صغاراً وإلى الآن.

ولدت في دمشق أواخر صفر سنة (١١٦٩٣هـ) (١٨٧٦م)، من أم شركسية، ولما بلغت السادسة في العمر أخذت بتلقي القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعات في مدرسة كافل سيياي الأميرية، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى. ثم دخلت المكتب الرشدي العسكري فدرست مبادئ التركية، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة فأتاني والذي بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين،

وبرعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية من درجة متوسطة، لأنني لم أتمكن على ما يجب من الرياضيات لإصابتي بالحسر وضعف البصر - بحيث لم أكد أتبين عن بعد ما يرسم الأستاذ من أشكالها وخطوطها في اللوحة، ففانني التبحر فيها مع الأسف - عينت مدة ست سنين موظفاً في قلم الأمور الأجنبية، فأخذت في خلالها أتقن آداب التركية. وشرعت أنشي فيها كما أنشي بالإفرنسية، وقد اختلفت حولين كاملين إلى مدرسة العازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الإفرنسية، ودرست الطبيعيات ودروس الكيمياء بهذه اللغة لأزيد تمكناً منها.

وقد اقتطعت مع ذلك جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وتلقيت اللغة الفارسية حتى حدقتها ثم أنسيها. وفي خلال تلك المدة اتصلت بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائري والسيد محمد المبارك والشيخ سليم البخاري وأخذت عنهم وعن غيرهم من مشايخ الطبقة الثانية كل ما وسعتني قراءته، من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة. وكان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت أزره منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة (١٣٣٨هـ) حميد الأثر. وكنت بدأت بنظم الشعر فنهاني عن تعاطيه أستاذي المبارك، وأرادني على إتقان الإنشاء فقط، و ما ينبغي له من الأدوات، لثلا يشغلي الشعر بلذته عن طلب العلم. فصدعت بأمره، كما كنت قبلت نصيحة والدي، وأنا يافع، بترك الإنشاد بصوت رخيم. لأن ذلك كان يعدّ في نظره شيئاً ضيعاً كما روى ذلك عن شيخه. وهكذا حرمني والدي الموسيقى، وحرمني شيخي الشعر. ولولا نصيحتهما لعنيت بهذين الفنين، وكانا لي سلوى وأي سلوى. ولكن أستاذي المبارك خرجني باللغة والإنشاء. ووالدي، وكان عامياً يقرب من الأمية، أنفق عن سعة ليعلمني. فكان مدة سنين يدر الرواتب على أساتذتي، وقد ابتاع لي خزانة كتب كانت تعد في ذلك العهد شيئاً في بلدي.

وأهم ما أولعت بمطالعتة - بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه - كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، وأصول الشعوب ومدنياتهم. وطالعت بالإفرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتسكيو وبنتام وسبنسر وفوليه وتين ورنان وسيمون وبوتمي ولافيس وهانوتو وبوترو ولوبون وبرونتيروبي دي جولفيل ولمتر وسانت بوف، وتدارست المجالات الفلسفية الاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الفرنجية . وجريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب ، وقلما دوّنت موضوعاً لم أدرسه في الحملة ولم تتشربه نفسي . وعهد إليّ سنة (١٣١٥هـ) . بتحرير جريدة « الشام » الأسبوعية فحررتها ثلاث سنين كانت مدرستي الأولى في الصحافة . وساعدتني فيها معرفة التركية والإفرنسية . ثم دعيت إلى المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية أكبر مجلاتنا العربية . فنشرت فيها أبحاثاً جمّة في التاريخ والاجتماع والأدب مدة خمس سنين فبدأت لي شهرة في عالم الأدب العربي لمنزلة هذه المجلة إذ ذاك بين أبناء اللغة العربية ، وكثرة من تقع تحت أنظارهم من العلماء والأدباء والباحثين . وفي عام (١٩٠١م) هبطت مصر للسياحة بقصد الذهاب إلى باريز للدرس ، فعرض عليّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الأسبوعية أن أحرر في جريدته ، فلبيت الطلب متكارهاً ، إذ كانت عاقتني عن العودة إلى الشام أمور قام بها المشاغبون المتجسّسة في دمشق . واهموني تشفياً بأمر هي من المحرمات في عرف الحكومة العثمانية ، ثم رجعت إلى الشام بعد عشرة أشهر . ومن أعظم ما استفدته من رحلتي هذه الأخذ عن عالم الإسلام والإصلاح الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة .

وفي شتاء سنة (١٣٢٣) فتشت الحكومة العثمانية داري في دمشق بحجة أنه علقت مناشير في شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة ، وفيها مطاعن في أحد الأعيان والوالي ، ومثل هذه العبارة وهذه الأفكار لا يحسنها ولا يعرفها غيري ! فظهر للحكومة اقراء المقتريين واكتفت بأن شردتني أياماً عن داري . وفي هذه الواقعة نظم صديقي العلامة الأمير شكيب أرسلان قصيدة ارتجالية يداعبني بها ، ويصف ما حل بي مجسماً قال سماحه الله :

ألا قل لمن في الدجى لم يتم
ومن أرقته دواعي الهوى
فكم في الزوايا تخبي فتى
يرى الأرض ضيقاً كشق البراع
وكم ذا يجسر من ليلة
تمنى الأديب بها ندحة
وكم سروة تحت جنح الظلام
يخاف بها حركات الغصون
وإن تشد ورقاء في أبكة
وكم بات للنجم يرعى إذا
وطال به الليل حتى غدا
ومن ذعره خال أن النجوم
إذا ما السماك بدا راحماً
ولولا الدجى لم يتم النجا
ولله در القرى إذ خفته
«فجسرين» «زبدین» و«الأشعري»
ونحو «المليحة» رام الخفا
ديار أبي أهلها غدره
ولا شك رقوا لأحواله
ليالي كانون في الأربعين
بأرض تراها سماء وماء
يجول وقد صار مثل الخيال
وفوق الحدود كلون البهار
وفي كل يوم سؤال وبحث
وقد كان في كبسهم بيته
فكانت على كتبه غارة
وقالوا سينفى إلى «رودس»

طلاب المعالي سمير الألسم
فدون الذي أرقته الحكم
طريد الكتاب شريد القلم
ويهوى على ذا الوجود العدم
على مثل جمر الغضا في الضرم
ولو بات يرعى هناك الغم
كسر بصدر الأريب انكم
ويخشى التسم إذا ما نسّم
تورقه في صوتها والنغم
أديم السما بالنجوم اتسم
يظن عمود الصباح انحطم
لتهدي إلى مسكه عن أمم
توهمه نحوه قد هجم
وقد أمكن الظلم لولا الظلم
فما بالسهولة يخفى العلم
ديار بها قد أوى واعتصم
وكم بالمليحة من متهم
وأواه فيها الوفا والكرم
طريداً يعاني الجوى والسقم
وبرد العشيات أغلى الفحم
ف فوق السوافي وتحت الديم
ودق فلو لاح لم يقتحم
وتحت المآقي كلون العتم
وأنتى تولى وكيف انهزم
يجلق قال وقيل عمم
كغارات عرب «الصفاء» بالنعم
وقالوا سيجزى بما قد جرم

وقالوا سيحمله أدهم
وقد قيل « فزان » من دونه
وبعض بسجن عليه قضى
و« كرد علي » غدا عبرة
فيا كرد لا تخزنك الخطوب
ومن رام أن يتعاطى البيان
فذي حرفة القول حريفة
وكم نكتة أعقبت نكتة
ومن بالكتابة أبدى هوى
فيا كرد صبراً على محنة
وصبراً على ورقات لها
وواهاً لباقات زهر غدوت
أزاهر تسهر في جمعها
وما نمّ إلا بنشر ذكي
فقولوا لواش بكرد علي

بمراقه لا تستريح القدم
وتلك السموم وتلك الحمم
وبعض بضرب عليه حكم
فقات ومنه الرجاء انصرم
فإن المهموم بقدر المهمم
توقع أن يتلى بالنقم
وكم أدركت من لبيب وكم
وكم من كلام لقلب كلم
فإن الكتابة منها القسم
فكم محنة شبيت من لمم
عيون المعاني يبسكين دم
لها جامعاً يا أخي من قدم
فلا غرو إن فاح عرف فم
وطيب يفوق عرار الأكم
نشرت الثنا حين حاولت ذم الخ

كان التضييق عليّ في الشام يزيد كلما استفاضت شهرتي، والشهرة حقيقة كانت علي صاحبها آفة في الدور الحميدي، فرأيت بعد طول التأمل أن المقام فيه عبثاً، فأخذت بالاستعداد للهجرة إلى مصر لأصدر مجلة المقتبس، فأصدرتها في أول سنة (١٣٢٤هـ)، وتوليت معها رئاسة تحرير جريدة الظاهر اليومية، وبعد سنة عيّنت أمين سر تحرير جريدة المؤيد. والجرائد الثلاث التي توليتها في مصر هي « الرائد المصري » و« الظاهر » و« المؤيد » وكانت من الصحف التي تصدع بالوطنية المصرية، وتنتقد سياسة المحتلين، ولذلك كثر أصدقاؤني من الوطنيين المصريين، فعددت بهم مصر وطني الثاني، وكادوا هم يعدونني منهم. وقد آذرت في مجلة « العالم الإسلامي الباريزية » التي ما زالت تصدر في باريس باللغة الإفرنسية إلى عهد قريب. حتى إذا حدث الانقلاب العثماني (١٩٠٨م) رجعت إلى دمشق وأصدرت في ١٧ كانون الأول

(١٩٠٨) جريدة المقتبس يومية سياسية، بعد أن صدر المقتبس ثلاث سنين في القاهرة مجلة شهرية علمية، وعدت إلى إصدار المجلة أيضاً .
 وكان المقتبس السياسي معتدلاً بلهجته، وطنياً بمسلكه، ينتقد ما يمكنه نقده من مواطن الخلل في الإدارة العثمانية، وما رمى إلى الانفصال عن الترك قط، بل كان يرمي إلى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى، فلم يرق هذا أيضاً بعض رجال الدور الحميدي، وأخذوا يقاومون المقتبس وصاحبه، ويقيّمون عليه الدعاوي المزورة، يصدرها الظالمون المرتشون من الموظفين، ممن دأبنا على الكيد لهم، والعمل على تنحيتهم، حتى جاء زمن وعلى المقتبس عشرات من الدعاوي، يطلب فيها أصحابها جزاء المفترى على الأكثر، لأنهم أبرياء بزعمهم مما نسب إليهم .

ومن أغرب دعوى الوالي الحميدي عليّ في السنة الأولى اتهامه إياي بالارتجاج، أي إرجاع عهد عبد الحميد الاستبدادي، وهو الدور الذي بكيت من أهواله، وقد هجرت الأهل والوطن فراراً من كابوسه، ولكن أعماله في خدمة الحرية سنين طويلة، كذبتة وأشياعه من الحميديين الاتحاديين .
 وقد اضطررت في هذه الدعوى إلى مغادرة الشام، فركبت البحر إلى فرنسا، وأخذ الوالي يهدد التضاة بالعزل إذا لم يحكموا عليّ بالحناية، وصرفت الوقت في باريز أدرس مدينتها وأستفيد من لقاء علمائها وساستها، ووقفت وقوفاً حسناً على حركتها العلمية والسياسية، وذلك بواسطة جماعة من أصدقائي علماء المشرقيات، عرفوني إلى الطبقة العليا التي أردت التعرف إليها في عاصمة الفرنسيين، وفي مقدمتهم فيلسوف فرنسا المرحوم إميل بوترو. وقد سألته أن يكتب لي جريدة بأمهات الكتب التاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، فتفضل وكتب لي ما أردت، فابتنه وطالعه كله مطالعة درس، ولا أزال إلى اليوم أجعل تلك المجموعة المختارة سلوتي في خلوتي وجلوتي .

كتبت خمساً وثلاثين مقالة ومحاضرة في وصف سياحتي، ولا سيما في وصف عاصمة فرنسا، وطبعت هذه المقالات في كتاب سميت « غرائب الغرب » وما كان في الحقيقة إلا غرائب باريز ليس إلا. وبعد أن أقمت ثلاثة أشهر في « كارتيه لاتين » بباريز عدت إلى الاستانة عن طريق فينا

ميراً مما نسب إليّ. وفي سنة (١٩١٢) أقام نفس الوالي الحميدي دعوى على المقتبس وقبض على مديره المسؤول المرحوم أخي أحمد، وأخذ عالماً من علماء المدينة اسمه الشيخ إبراهيم الأسكوبي، وأرسلهما إلى الاستانة فسجنا مدة، وذلك بتهمة أن المقتبس نشر قصيدة لهذا العالم تمس الآل السلطاني. والحقيقة أنها تأوهات ونصائح، وكانت نشرت في جريدة من جرائد الشام قبل أن تنتشر في المقتبس بعشرين يوماً. أما أنا فتمكنت من الفرار كالمرّة الأولى، وهبطت مصر عن طريق البر مع تجار الجمال. فدخلت الإسماعيلية بعد سير أربعة عشر يوماً، قطعت فيها الشام من الوسط إلى أقصى تخومها الجنوبية. ثم برئت مما نسب إليّ كالمرّة الأولى، وعدت إلى دمشق بعد ستة أشهر، وعاد المقتبس إلى الصدور. إلا أن الوالي كان تمكن من إجبار أحد إخوتي على بيع مطبعتنا، فأباعها بثمان بخس، فأضيفت الخسارة بها إلى ما خسرناه في إغلاق صحيفتنا السياسية مرتين. ولم يعرض علينا أحد شيئاً ما خسرناه. واكتفى المقتبس إلى ذلك الحين باشتراكاته وإعلاناته ومطبوعاته فقط. وقد استقبلت يوم عودتي إلى دمشق كما يستقبل العظماء، فضحكت من تبدل الرأي العام، وبالغ بعض من استقبلوني بالخفاوة، وهم يزيدون على ألفين، كانوا يوم وقعت في الدعوى ينكرون عملي في انتقاد الحكومة، ومن قبل كانوا يصفقون ويستحسنون، وينحنون ويدعون، فلم أدر وجهاً لرضاهم ولا لغضبهم، فكتبت إلى صديقي المرحوم العلامة رفيق بك العظم أقول له: إن القوم لا قوفي في دمشق في هذه المرة كما يلاقون الملوك. فلم أفرح لهذا الإقبال، ولا ساعني ذلك الإدبار، وعجبت لحنون من ينخدع بالجماعات الذين لا يثبتون بحال على أفكارهم.

وفي سنة (١٩١٣) زرت إيطاليا وسويسرا وفرنسا والمجر والاستانة، وكتبت ٣٣ مقالة في وصف مدنية تلك الممالك. وكان الداعي إلى هذه الرحلة الثانية البحث عن المخطوطات التاريخية التي نقل عنها بالتصوير الشمسي صوراً، الأمير ليوني كايثاني من علماء إيطاليا وعظمائها. وقبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر وقف والي دمشق المقتبس، بدعوى أنه نشر عبارة في كشف الحجاب، وهي منقولة عن الصحف التركية، والحقيقة أن المقتبس

كان توفر على كشف حجاب الاتحاديين ، وأصلاهم حرباً عواناً هو وأنصاره من رجال البلاد وحملة الأعلام فيها، فأخذوا يخلقون له هذه التهم أو يكفّ عنهم. ولطالما تقاضوه ذلك، وله أن يتحكم في مطالبه الخاصة ما شاء فأبى، وربما كان رده لهم غير جميل لا يخلو من بعض خشونة، ثم ورد الأمر من نظارة الداخلية بعود المقتبس إلى الصدور، فأبیت إصداره، لما رأيت من الحيف والغرض وتربص الاتحاديين الدوائر به وبصاحبه، وكانوا الحاكمين المتحكمين في السلطنة العثمانية بلا منازع. وألح أرباب الشأن بإعادة المقتبس إلى الصدور، فكان جوابي أنني زهدت في هذه الصناعة صناعة الصحافة، ما دامت أحكامهم غاشمة ظالمة. إلا أن الحكومة بقيت تحاذرنني مدة أشهر. وأقامت شرطياً أمام داري يكتب كل يوم أسماء من يدخل عليّ من أرباب الطبقات المختلفة، حتى إذا خرجت إلى منتره أو زيارة أحد يتبعني الجواسيس حيث سرت. أما كتبي وجرائدي وبرقياتني فإنها كانت تراقب أشد مراقبة، بل أضحكها وأبكأها .

وبينا كان حالي كذلك أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام، وجاء الشام وال عاقل عادل اسمه خلوصي بك فنشأت بيني وبينه صداقة، ولا سيما عقب أن ظهر من تفتيش أوراق فنصل فرنسا أنني كنت دائماً إلى جانب خدمة العرب، ولم أمل إلى الخروج على الترك، ولا أسففت إلى خدمة غيرهم، مع أنني أردت على ذلك مرات، وأغلوا لي الثمن والجعالة، فاحتقرت كل نفيس في سبيل خدمة المصلحة العامة، وهذا سر نجاتي من محالب قتلة الاتحاديين الذين لم يراعوا عظيماً ولا غيره في الحرب، وصلبوا من صلبوا على أعواد المشائق بلا رحمة في مدن دمشق وبيروت وحلب .

أرادني خلوصي بك ست مرات على إصدار المقتبس وأنا أحاوله وأطاوله، ولكن فنصل ألمانيا كان يلح على الحكومة المحلية بإقناعي لإصداره، لما أيقن من تأثيره في أفكار الشاميين بل في بلاد العرب، فصحت بعد حين عزيمتي على إصداره، خصوصاً بعد أن أوحى إليّ أحد خلص أصدقائي، بأن القوم يتربصون بي الشر إذا لم أجههم إلى إصدار المقتبس، ولم أخدم الحكومة في تلك الحالة الحرجة. وأني إذا ظللت على إبائي يخشى أن يحاسبوني

عما اجترحته في الماضي حساباً غير يسير، وتكون حياتي في تهلكة، فاعتذرت بأن على المقتبس مبلغاً من الديون بسبب توقفه ثمانية أشهر وبيع مطبعته فقالوا إنهم يسددونها عني ففعلوا. وفي خلال ذلك جاء الشام أجد أساطين الاتحاديين «أحمد جمال باشا» قائداً للجيش الرابع، وحثني على التعجيل بإصدار المقتبس، وكان كلامه رجاءً في الصورة الظاهرة، وتهديداً في الحقيقة، فبادرت إلى امتثال الأمر فأصدرته، وبقيت سنة لا أكتب فيه إلا نادراً، ويتولى أخي سياسته، حتى تنبه جمال باشا للأمر وأرادني على كتابة مقالات افتتاحية باسمي ففعلت، وكثيراً ما كانت أفكارني ترشح اضطراباً من أفكار القائد العام مباشرةً أو بالواسطة، فكانت إرادتي مسلوبة لتهديدي كل ساعة بنشر الحسابات القديمة مع الاتحاديين، وفي أواخر السنة الأولى للحرب أرسلني جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام إلى الاستانة فچناق قلعة، وأوعز إليّ بإنشاء رحلة هذه البعثة، ووضع كتاب في رحلة أنور باشا، وكيل القائد العام وناظر الحربية، إلى الشام والحجاز. ففعلت مضطراً. وظهر هذان الكتابان الأول باسمي واسم ثلاثة من أرباب الصحف في الشام، والثاني باسمي فقط. وهما من كتب الدعاية السمجة في الحرب الممقوتة. وفي هذه السنة أيضاً أنشأت الدولة بإيعاز ألمانيا وترتيبها في مدينة دمشق جريدة يومية عربية أسمتها (الشرق) عهدت إليّ برئاسة تحريرها فوليته مدة، واضطرتني أحمد جمال باشا إلى رفع اسمي من جريدة المقتبس لتروج جريدة الشرق التي ظهرت إلى أواخر الحرب. وكانت جريدة ألمانية تركية بحتة يقصد بها الدعاية والتأثير في العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة.

ولما بدأت جيوش الحلفاء تتقدم في جنوبي الشام غادر أحمد جمال باشا البلاد، فأرادني خلفه جمال باشا المرسيني أن أظل على ما كنت في جريدة الشرق فقلت له: «لم يستعبدني أحد في حياتي غير سلفك العالي ولا أريد أن أستعبد مرة أخرى». وقصدت إلى الاستانة للتجارة فمانعني الاتحاديون هناك بإيعاز من أحمد جمال باشا، ومنعوني من معاطاة أعمال لا أعرفها في الحقيقة. وبينما كنت أفاوضهم بذلك سقطت دمشق بأيدي الحلفاء، وانقطعت الطريق بين الشام والاستانة، فعدت إلى دمشق بعد ثلاثة أشهر

من سقوطها، لأعواد إصدار المقتبس، لكن الحاكم العسكري العام وكان من أصدقائي، ألح عليّ أن أتولى رئاسة ديوان المعارف فقبلت متكارهاً، وأخذت في درس حالة المدارس لإصلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية، وبدأت بإنشاء دار للآثار وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث. ثم حصل خلاف بيني وبين الحكومة فأردت التنحي عن رئاسة ديوان المعارف، فألحت عليّ الحكومة بالبقاء، فقلت: إن كان ولا بد فينقلب ديوان المعارف بأعضائه ورئيسه إلى مجمع علمي، وتكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشرة، فقبل هذا الاقتراح وشرعت في تأسيس المجمع العلمي العربي في ٨ حزيران سنة (١٩١٩).

وفي آخر تشرين الثاني سنة (١٩١٩) صدر الأمر بدعوى الضيق المالي بصرف رئيس المجمع العلمي وأعضائه، إلا عضوين فقط للإشراف على داري الكتب والآثار. وكان ذلك تشفياً من بعض الأحزاب التي لم أشأ أن أسايرها على العمياء. ودمت منغزلاً في داري إلى أن عهدت إليّ وزارة المعارف في ٧ أيلول سنة (١٩٢٠) أول دخول السلطة الإفرنسية إلى المدن الأربع، وهي الوزارة التي غيروا اسمها بعد مع سائر الوزارات باسم « مديرية عامة ». وفي خلال ذلك أخذت عشرة من الطلاب للإخصاء في العلوم العالية في جامعات فرنسا. وزرتها للمرة الثالثة، كما زرت بلجيكا وهولاندة وانكلترا وإسبانيا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا، وكتبت الرحلة الثالثة في إحدى وخمسين مقالة، وأعدت طبع « غرائب الغرب » وأدخلت فيه الرحلات الثلاث، فجاء في مجلدين. وكان أحد أعوان الجنرال غورو أول مفوض سام للجمهورية الإفرنسية في سورية ولبنان نشر على لساني وبدون اطلاعي في إحدى المجلات الباريزية عبارة يقصد منها مدح الانتداب الفرنسي إلى التي ليس بعدها وتقرّظ غورو وأعوانه. فكذبت ما عزّني إليّ في الصحف. وكان أحد موظفي البعثة الإفرنسية في دمشق دسّ أيضاً على لساني في خطبة أردت على إلقامها باللغة الإفرنسية في معرض بيروت التجاري على جماعة من الفرنسيين - جملاً - بخصوص العهد الفيصلي لم تخطر لي في بال. فامتعضت مما وقع في المرة الأولى والمرة الثانية، ولما لم يرق عملي من التكذيب في نظر وكيل المفوض

استقلت من المعارف، وبقيت في رئاسة المجمع، وكنت أديره أثناء وزارة المعارف وبعدها. وكان في ذلك الخير لأني حصرت وكدي في خدمة المجمع وتأسيسه على ما يجب وبقدر ما يساعد المحيط والحالة المالية. وعرضت على وزارة المعارف في الحكومة الموقته خلال ثورة سنة (١٩٤٤هـ) فاعتذرت وآثرت الانقطاع إلى المجمع وإتمام كتابي «خطط الشام».

وفي ١٥ شباط سنة (١٩٢٨م) أسندت إليّ وزارة المعارف في حكومة صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسيني وبقيت أدير شؤون المجمع العلمي إلى الآن. وفي أواسط شهر تموز سنة (١٩٢٨) ندبني دولة سورية والمجمع العلمي لتمثيلهما في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بمدينة اكسفورد فرحلت إلى بلاد الانكليز وزرت بلجيكا وفرنسا. وقد اغتنمت فرصة وجودي في وزارة المعارف فأنشأت مدرسة العلوم الأدبية العليا جعلتها من فروع الجامعة السورية، كما هيأت جميع أسباب افتتاح كلية الإلهيات تضاف أيضاً إلى الجامعة وبذلك تمت لها أربع شعب، شعبة الطب، وشعبة الحقوق، وشعبة الآداب، وشعبة الإلهيات. وإذا انفسح الزمن للعمل ففي النية إضافة الفرع الأخير من فروع الجامعة وهو الفنون والعلوم.

كان المقتبس عقب الهدنة قد عاد إلى الصدور وظلّ يطرد نشره، حتى ألفت العصابات لغزو الساحل الشامي وأصبح القول الفصل لأناس من صعاليك العامة وأغرار الشباب، ممن أخذوا يهددوننا سراً وجهرأ إن لم نمالئهم على رغائبهم، في هيج الأفكار ودعوتها إلى الثورة، فأثرت توقيف المقتبس على إصداره آلة للفتنة بين الناس، وإهراق دماء الأبرياء ليربح المستعبدون. على حين كنت على مثل اليقين أن الانتداب الفرنسي واقع لا محالة. وقد شق عليّ بعد أن بلوت من السياسة حلوها ومرها، وكرعت خلها وخمرها، أن آتي ما يكون وباله عليّ قبل غيري من رجال الصحافة، في أمر لا فائدة منه إلا لمن يستثمرون الثورات لمصلحتهم الخاصة. وبقيت جريدتنا معطلة سنة كاملة، حتى دخل الجيش الفرنسي فعادت إلى الظهور. وظهرت جريدة المقتبس بتحرير المرحوم شقيقي أحمد كرد علي تصدر حرة في الحملة، وطينة الصبغة والمتزع، فلما هلك أصبح تحريرها أعبوبة في أيدي أناس أرادوا

تسخيرها في خدمة أحزابهم ، فاضطرت إلى إغلاقها في صيف سنة (١٩٢٨) بعد أن خدمت البلاد عشرين سنة .

كان مذهب المقتبس السياسي معاونة الحكومة بالمعقول، وانتقادها عند الاقتضاء. وتحييدها إذا أتت ما تجبذ عليه. يتزع أبدأ إلى إنارة الأفكار، وبث الملكات الصحيحة وتقوية روح القومية العربية، وسياسته وطنية ليس فيها شيء من روح الكراهة للأجانب، ويرمي إلى فتح صدر الأمة لمعظم ما في المدنية الغربية من أسباب الرقي. ولا يتحزب المقتبس لحزب إلا إذا تجلى له غناؤه وبلاؤه في خدمة الأمة. فقد دخلت في جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة، وخدمت ما استطعت وساعدت البيثة، ولم أجدد في الانقلاب للاتحاديين عهداً مع كثرة إلحاحهم عليّ. إذ رأيت ذلك حطة وتناقضاً في الخطة، لأن مرامي الاتحاديين تجلت بأنها تقصد إلى تريك العناصر، ومن أول مقاصدنا الدعوة إلى القومية العربية، وإنهاض العرب من كبوتهم .

ولما عبث الاتحاديون بالمقصد الذي رسموه لأنفسهم يوم نشأتهم الجديدة، تألفنا في الشام والاستانة كتلة من العرب والترك، وألفنا حزب الحرية والاتلاف اشتغلنا به مدة، ثم رأينا من المصلحة حله فحللناه. واقترح عليّ زمن الحكومة العربية غير مرة الدخول في الأحزاب فأبيت. ولكن لما تقافم الشر، وأصبحت دمشق عاصمة في الصورة، والمديرون لها أغماراً غرباء في الأكثر، صحت عزيمتنا مع جماعة من أهل الطبقة العالية مسلمين ومسيحيين وألفنا «الحزب الوطني» معدلاً لأمزجة الأحزاب الأخرى. فكان حاجزاً دون انبعاث ما يكدر من العوام .

وفي شباط (١٩٢٤) عهد إليّ تدريس الآداب العربية في معهد الحقوق بدمشق، فرأيت تفاوتاً في عربية الطلبة، وكان منهم المقتدر الذي يصلح للكتابة والخطابة، ومنهم الضعاف في مبادئ النحو والصرف، لأن مدرستي الحقوق والطب كانتا تحاولان تكثير سواد الطلبة وتقبل منهم حتى المقصرين في الفروع المهمة، ولا سيما اللغة العربية التي يعدونها ثانوية ! فاضطرت إلى إلقاء بعض دروس نحوية مختصرة على التلاميذ ريثما يستعدون لتلقي

الآداب، وحاولت تعليمهم الإنشاء والخطابة بالعمل أكثر من النظر. ولم ترق بعض الطلبة العلامات التي نالوها في الفحص العام، وكان بعض أساتذهم يشوقونهم من طرف خفي على رفع أصواتهم بالشكوى من المدرس ليضموا درسه إلى دروسهم، ورأى رئيس الجامعة الطبيب الكحال السيد رضا سعيد الايتوني استثمار هذه الحركة لمصلحته، ومصلحته أبداً في إقصاء الأكفياة أرباب الإيرادات المستقلة من تداريس الجامعة، فقام مدفوعاً أيضاً بيد رئيس الحكومة إذ ذاك السيد صبحي بركات. وكان هذا مغيضاً محققاً من صاحب الترجمة لأن جريدة المقتبس لم تمالئه على خطته، وصعب على أن أترضاه، ولو بأن أذكر له على الأقل أن لا علاقة لي بالمقتبس منذ مدة طويلة، وأني لا أديره ولا أحرره ولا ينطق بلساني .

وكانت المؤامرة فاستكتب رئيس الجامعة بعض الصحف للنيل مني، وأعطاهما فيما قيل دراهم لتكتب له المطاعن على بما يفيد في تنحيي. ومن الرسائل ما كتبه له بعض مستخدميه ممن كان يغضي عن سرقاتهم في مدرسة الطب مقابل هذا التطوع في خدمة أغراضه، ومنهم طلبة مقصرون في دروسهم كافأهم على ما نشره له من الطعن بي بأن منحهم شهادة الطب، ومعذرتة أنه في حاجة إلى من يحسن من جماعته كتابة سطرين بالعربية، لأنه هو ورئيس الحكومة ابن بركات لا يحسان كتابة سطر واحد، وإذا قرأ أو قرئ عليهما كلام عربي لا يفهمانه بحال. وهكذا جمع رئيس الجامعة بعض الطلبة المقصرين في دروسهم في دار أحد من يدهنون له من أطباء مدرسته، ولقنوهم كيف يجرأون على الشكوى من المدرس ويكتبون محضراً بهذا الطلب، ومن لم يوقعه من الطلبة يهدد بما يخاف منه على مستقبله. وأخيراً تقرر إرسال بضعة من طلبة مدرسة الطب إلى درس الخطابة في دار الحقوق لينادوا بإسقاط خمسة من الأساتذة من جملتهم مدرس الآداب العربية، وخطب بحضوري أحد الطلبة، وهو ابن أحد أخصاء رئيس الحكومة خطبة لُقنها، وكوفئ عليها بعدُ هو ووالده، فخرجت من المدرسة على أن لا أعود إليها، وتم لبعض الأساتذة ما أرادوه، فاستأثروا بأكثر الدروس الشاغرة، ولم يعد من المخطوب فيهم إلا واحد وهو مدير المعهد السيد عبد القادر العظم الذي

استرضى الطلبة وصانع رئيس الجامعة مع أنه أضعف الأساتذة المشتكى منهم ولا صلة له بالعلم .

أهم المطبوع من كتيبي مجلة المقتبس «ثمانية مجلدات وجزآن» صدر منها ثلاث سنين في مصر وخمس في الشام وهي تبحث في الاجتماع والأدب والتربية والتعليم والتاريخ ومنها «رسائل البلغاء» و«غرائب الغرب» و«غابر الأندلس وحاضرها» و«تاريخ الحضارة» و«القديم والحديث» و«رواية المجرم البريء» و«قصة الفضيلة والرذيلة». وأول ما نشرت رواية «يتيمة الزمان» سنة (١٣١٢هـ). وآخره «خطط الشام» وهو كتاب في مدينة الشام وتاريخه صرفت في تأليفه ثلاثين عاماً، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتي مجلد باللغات الثلاث العربية والتركية والإفريقية، وأنفقت في سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه، ويدخل في ستة مجلدات وربما كان معجمه في أربعة. وعندي من التأليف التي لم تطبع «حرية الوجدان» و«الحرية المدنية» و«الحرية السياسية» معربة عن جول سيمون الفيلسوف الإفريقي. ومنها «كنوز الأجداد» و«مكتشفات الأحفاد» و«أمراء الإنشاء» و«أخلاق المعاصرين» إلى غير ذلك من المقالات والأبحاث المنشورة في المجلات والصحف وآخرها مقالاتي وانتقاداتي في «مجلة المجمع العلمي العربي» خلال تسع سنين .

خلقت عصبي المزاج دمويه، مغرماً بالموسيقى العربية، محباً للطرب والأنس والدعابة، عاشقاً للطبيعة والسياحة. وقد كان للمزرعة الصغيرة التي أورثنا إياها المرحوم والدنا في قرية «جسرين» من قرى الغوطة أثر ظاهر في تربية ملكتي. وبها استغنيت أنا وإخوتي لأول أمرنا عن طرق الأبواب للتحويل أو التسفل للمعاش .

ولم أخلُ منذ اشتغلت بسياسة البلاد وحتى بعد أن تجردت للعلم المحض، من جرائد كان من جملة أغراضها ثلبي، وكثير من الكتاب الذين عرفوا بالسفاهة كانوا يرزقون الجنيهات الكثيرة على حساب النيل مني، والتطاول عليّ، وما زلت حتى الساعة لا أدخل من أناس يتطاولون عليّ حب الشهرة، ينالونها من طريق الطعن بمن اشتهروا، ولم يحدث لي أن أجبت أحد هؤلاء

الطاعين في وقت من الأوقات. اللهم إلا إذا كان هنالك تحريف لحقيقة وطنية أو قضية علمية، فأذكر الواقع بدون اسم المتحامل المخالف. وقد وقع مرة لمجلة ألبسها أصحابها ثوب الدين، أن سلخت نحو ثلاث سنين تكتب في المقالات والقطع الصغيرة فلم أجبها، ولم أقرأ أكثر ما كتبت، حتى إذا نضبت مادتها من المال والقول، أجبته بمقالة نشرت في كتاب «القديم والحديث» باسم «الإصلاح» وهي من المقالات التي لم تخل من حدة. أعشق النظام والتدقيق، وأحب الحرية والصراحة، وقد أولعت بالتجدد، ومن عادتي أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة، وأدور من الإصلاح التدريجي العلمي في دائرة لا تتعدى الثورة في الأفكار، أجاهر في الحق، وأطعن في المنافقين وأتجهم لهم، وأجبه المرتشين والمخربين، لذلك يكثر أعدائي من أهل هذه الطبقة. ولطالما كادوا لي وآذوني في مادياتي فلذ لي عملي ولم تسؤني نتائجه. أخلص للصاحب وأخدمه خدمة خالصة، وأغار على مصلحته. وربما أرفعه فوق قدره، حتى إذا بدرت منه بادرة سوء نحوي أو نحو المجتمع، ألوي وجهي عنه آخر الدهر. ولطالما آخذني بعض أصحابي على أسداء المعروف إلى من هم أول من ينكرونه، وإسراعي إلى تصديق من حولي، في زمن يكذب فيه معظم أهله، دعاني إلى الإحسان إلى أناس ليسوا أحرىء به، وإلى الأخذ بأيدي فئة كان الأولى لهم أن يظلوا مغمورين، ومعظمهم كانوا لمقاصد لهم يتخيلونها أول من حملوا عليّ وعادوني، فكان الجواب، أني أحمل الناس على محمل الخير، فإذا ظهرت تربيتهم الحقيقية، وتبين أني كنت مغروراً بهم كان جزاؤهم الإعراض، وهل يجوز العقل أن تعض الكلب الذي يعضك، والحيوان المفترس الذي يحاول إهلاكك ولو أطعمته وسقيته.

أكره الفوضى وأتألم للظلم، وأحارب التعصب، وأمقت الرياء، وإذا حاربت لأجل المظلومين، وهاجمت طغمة المتعصبين، فإنما أحارب وأهاجم بدوق وفهم على الأغلب، وأميل إلى الشدة، وقد تكون إلى الإفراط أحياناً، لتفعل البلاغة فعلها في عقول من يراد إرشادهم أو إسقاطهم، وتنقبض نفسي منذ الصغر من غشيان المجالس والمجتمعات الغاصة بأنواع الناس، وأحرص على الوقت فلا أكاد أنفقه إلا لمنفعة عامة أو خاصة اهـ.

مصادر الخطط

لم نذكر في هذا البيان الكتب المطبوعة ولا الأجنبية التي اطلع عليها المؤلف. لأنه لم يشر إلى مواضع ما أخذ منها، فلم يبين أجزاءها ولا صفحاتها مما أفقدها قيمتها لمن يجب الرجوع إليها. وإنما اقتصرنا على المخطوطات من تلك المصادر تعريفاً بها، ورجعنا في تحقيق وفيات مؤلفيها إلى الأعلام لخير الدين الزركلي، فما وجدناه فيه وضعناه بين هلالين وإلا استدركناه من معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة أو أبقيناه كما جاء في الأصل.

« الناشر »

أ

- إنحاف المحبين بجواز ما يفعل في الحماسين لإبراهيم الخضير الحنفي؟
الإحسان في دخول اليمن آل عثمان لعبد الصمد بن إسماعيل؟
الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى (٤٥٨).
أخبار ملوك اليمن لقاسم بن حسن الجرموزي (١١٤٦)
الإشارات إلى أماكن الزيارات لأحمد الصباغ وذيله بتراجم بعض المشاهير
من كتاب الزيارات لمحمود العدوي
الإشارات إلى معرفة الزيارات لعلي بن أبي بكر الهروي القاري (٦١١)
الإعانات في معرفة الخانات ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩)
الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة لابن شداد الحلبي (٦٨٤)
الإعلام في فضائل الشام لأحمد العدوي المنيني (١١٧٢)
إعلام الوري بمن ولي من الأتراك بدمشق الكبرى لابن طولون الصالح (٩٥٣)

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ للسخاوي (٩٠٢)
 إنباء الغمر في أبناء العمر لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) مسودة المؤلف ونسخة
 أخرى كتبت سنة (٨١٢)

الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري لابن العديم
 (٦٦٠)

ليضاح الظلم وبيان العدوان في تاريخ النابلسي الخارج الحوان لحسن بن أحمد
 ابن عربشاه؟

أيمان العرب لأبي إسحاق النَجِيرَمِي نحو (٣٣٥)

ب

الباشات والقضاة بدمشق زمن السلطان سليم لمحمود جمعة المقار (١١٥٦)

البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي (٧٧٤)

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١٢٥٠)

البرق المتألق في محاسن جلق للراعي الشهير باب خداويردي؟

بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا لمحمد بن أحمد الكنجي العسروني ١١٥٠

بهجة الصيانة في عجائب مصر والكنانة لأحمد محمد القزويني؟

ت

تاريخ الإسلام الكبير للذهبي (٧٤٨)

تاريخ الأمويين من أول خلافة الوليد بن عبد الملك إلى انقراض الدولة العباسية،
 قطعة منه

تاريخ ابن خلدون (٨٠٨) الكبير قطعة منه وفيها رحلة فيلسوف المغرب من
 الديار المصرية إلى دمشق سنة ٨٠٣ نقلها تلميذه محمد بن أحمد الزملكاني

تاريخ أبي المواهب بن ميرو الحلبي (١١٨٤)

تاريخ الأمم لمحمد الغزالي من أهل القرن الحادي عشر الجزء الثالث منه .

تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين علي بن زيد البيهقي (٥٦٥)

تاريخ حمص لعمر الأناسي لم يبرح في المسودة
تاريخ الحوري ميخائيل بريك من سنة ١٧٢٠م الموافقة ١١٣٢هـ وفيه الأخبار
الأخيرة إلى سنة ١٢٥٧

تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١)

تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من أهل الزمان
لأحمد المقدسي المشهور بابن زوجة أبي عذبية (٨٥٦)

تاريخ دولة الأتراك لحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (٧٧٩)

تاريخ سليمان باشا والي عكا من سنة ١١٩٠ - ١٢٢٩ لإبراهيم العورا ١٢٨٠

تاريخ سورية المجوفة لعيسى إسكندر المعلوف. (١٩٥٦م)

تاريخ عام لأكمل الدين بن مفلح المتوفى سنة ١٠١١ بلغ فيه زمن قايتباي
سنة ٨٧٢

تاريخ فخر الدين بن معن لأحمد بن محمد الخالدي الصفدي ١٠٣٤

تاريخ معرة النعمان لمحمد سليم الجندي ١٣٧٥

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده من سنة ٧٣٧ - ٧٤٥
لشمس الدين ابن السجاعي (جزء من أجزاء).

تاريخ ميخائيل مشاقة (١٣٠٥) وفيه حوادث أسرته وما جرى في لبنان
وبلاد الشام في عهده، وبعضها مما حذف من النسخة المطبوعة المحرفة.

تحفة الأدب في الرحلة من دمياط إلى الشام وحلب لأحمد بن صالح الأدهمي
الطرابلسي سنة ١١٥٩

تحفة الأدباء وخلوة الغرباء للخيارى (١٠٨٣) وهي رحلته من المدينة إلى
الشام والروم ومصر.

تحفة الأنام في فضائل الشام لجلال الدين البصري كتب سنة ١١٥٩.

تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب لصلاح
الدين الصفدي (٧٦٤).

التحفة الظريفة المسماة بمجموعة الحكيم لحسن بن عثمان الحكيم جمعها سنة

- تذكرة ابن العديم (٦٦٠) أجزاء منها .
 تذكرة الصلاح الصفدي (٧٦٤) الجزء الثامن والثلاثون
 تذكرة كمال الدين الغزي (١٢١٤)
 تراجم الأعيان من أبناء الزمان للحسن البوريني (١٠٢٤)
 تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور .
 التصوير عند العرب لأحمد تيمور (١٣٤٠) .
 تعطير المشام في مآثر دمشق الشام لجمال الدين القاسمي (١٣٣٢) .
 تقرير في التعليم في فلسطين على عهد الأتراك والإنكليز لأحمد سامح الخالدي
 (١٣٧٠)
 تنبيه الطالب وإرشاد الدارس لأحوال ومواضع الفوائد بدمشق لدور القرآن
 والحديث والمدارس الخ لعبد القادر النعيمي ٩٢٧ .
 تواريخ الحكماء للزوزني .
 التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار لمحمد الأسدي من أهل القرن التاسع .

ث

ثمار المقاصد في ذكر المساجد ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩)

ج

- الجامع المختصر لابن الساعي (٦٧٤) قطعة منه .
 جزء من تاريخ بدأ من سنة ٧٩٢ وانتهى بأخبار سنة ٨٥٦ مخروم أوله
 ولا يعلم مؤلفه كتب سنة ٩١٨ بقلم محمد بن المرحوم السيفي قرقماس
 العلائي أمير أخور والده (٩٤٢) ويظن أنه هو المؤلف .
 جماهير الأنساب لأبي محمد علي بن غالب الأندلسي .
 جنى الأزهار من الروض المعطار للمقريزي (٨٤٥)
 الجواهر والدرر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر لعبد الرحمن بن حمزة
 . (١٠٨١)

ح

حدائق الإنعام في فضائل ومحاسن الشام لعبد الرحمن بن عبد الرزاق من القرن الثاني عشر

الحسبة لمحمد بن محمد المعروف بابن الإخوة القرشي (٧٢٩)
الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز لعبد الغني النابلسي
(١١٤٣) .

حل الرموز في عقائد الدرود لسليم البخاري (١٣٤٧)
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار (١٣٣٥) .
حوادث جرت في دمشق من سنة ١٠٢٣ - ١٠٢٦ من خط حسن البوريني .
حوادث جرت في دمشق بعد سنة ١٢٠١ دونها من لم يذكر اسمه .
حوادث دمشق اليومية . من سنة ١١٥٤ - ١١٧٦ لابن بدير الحلاق
حوادث يومية من سنة ٩٨٥ إلى ١٠٠٦ نقلت سنة ١١٠١ من خط محمد
ابن داود المقدسي الدمشقي

د

در الحجب في تاريخ أعيان حلب لمحمد بن إبراهيم الحنبلي الربيعي التاذفي (٩٧١)
الدر المنتخب بتكملة تاريخ حلب للجبريني المعروف بابن خطيب الناصرية
(٨٤٣) كتب سنة ٧٨٥

الدر النضيد في مناقب الملك الناصر أبي سعيد ؟
الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) .
دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخري (٤٦٧)
ديوان النصائح الكافية لمحمد الحافظ النجار ١١٠٣ .

ذ

ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .
ذوب الذهب لمحسن بن حسن المنصور نحو (١١٧٠) .
ذيل التمتع بالأقران لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .

- ذيل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢) .
 ذيل الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (٦٦٥) .
 ذيل الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة واسمه لطف السمر وقطف الثمر
 من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر للنجم الغزي (١٠٦١)
 ذيل مختصر على تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠) .

ر

- رحلة الأمير يشبك الدوادر من مصر إلى الشام في سنة ٨٧٥ لشمس الدين
 ابن أجا الحلبي (٨٨١) .
 رحلة البطريرك مكاروريوس بن الزعيم الحلبي .
 رسائل في عقائد الدروز في ثلاثة مجلدات .
 رسائل القاضي الفاضل (٥٩٦) .
 رسالة الجوامع والمدارس الأول مختصر من كتاب أماكن الزيارات .
 رسالة لابن شداد (٦٨٤) كتبت في القرن الثاني عشر .
 رسالة في تاريخ جبل عامل ووصف قراه لأحمد رضا ١٣٧٢ .
 رسالة فيمن تولى وقضى وأفتى في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة
 إلى سنة ١٢٤٠ .
 روضة الأفكار والأفهام لحسين بن غنام الأحسائي (١٢٢٥) .

ز

- زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠) .
 الزبد والضرب في تاريخ حلب لمحمد بن إبراهيم الحنبلي الربيعي التاذفي
 (٩٧١) .

زلازل دمشق سنة ١١٧٣ لم يذكر اسم المؤلف
 زيادات ألحقها بعضهم بكتاب أخبار الدول وآثار الأول للقرماني (١٠١٩)
 فيها أخبار الولاة والقضاة بدمشق في القرن العاشر والحادي عشر والثاني
 عشر .

س

سانحات دُمى القصر في مطارحات بني العصر لدرويش محمد الطالوي (١٠١٤)
سيرة أحمد باشا الخزار انتهت سنة ١٢٢٥ وفيها ما حدث بعد مماته لمؤلف
مسيحي سوري .

ش

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد (١٠٨٩) .
الشعور بالعمور لصالح الدين الصفدي (٧٦٤) .
الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية لابن طولون الصالحى (٩٥٣) .

ص

صور الأقاليم لأحمد بن سهل البلخي (٣٢٢) .

ض

ضرب الحوطة على جميع الغوطة لابن طولون الصالحى (٩٥٣) .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٩٠٢) .

ط

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد لجعفر بن تغلب
الأدفيوي (٧٤٨) .

طبقات أئمة القراء لابن الجزري (٨٣٣) .

طبقات الحنابلة لابن رجب (٧٩٥) .

طبقات فقهاء جبال اليمن لعمر بن علي بن سمرة بن الحيمى بعد (٥٨٦)

طبقات المهندسين في الإسلام لأحمد تيمور (١٣٤٠) .

طبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة الأسدي (٨٥١) .

طرف الأخبار من نتائج الأسفار لشرف الدين حسين بن أحمد التميمي (١٠٧١) .

ع

- عدة الملمات في تعداد الحمامات ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) .
 عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام لتحليل المرادي (١٢٠٦) .
 عقد الجمان للشاطبي ٨٧٢ .
 عيون التواريخ لصلاح الدين الكتبي (٧٦٤) أجزاء منه .

غ

- غاية الأمان في أخبار القطر اليماني ليحيى بن حسين ١٠٨٠ .
 غربال الزمان المفتح بسيد ولد عدنان اختصار يحيى بن أبي بكر العامري
 (٨٩٣) من تاريخ أسعد اليافعي (٧٦٨) مرتب على السنين في التراجم
 والوقائع إلى سنة ٧٧٠ .
 غرر السير للحسين بن محمد المزغني؟ (المرعشي ٤٢١) .

ف

- فضائل الشام وجامعها ومن دفن بها من الصحابة والأولياء يظن أنها لعي بن
 محمد الربيعي (٤٤٤) كتبت سنة ١٠٠٥ وأكملت الورقتان الأوليان
 بخط سليمان المحاسني ١١٨٧
 فهرست الكتب الموقوفة ليوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) .

ق

- قاموس الصناعات الشامية المسمى بدائع الغرف في الصناعات والحرف لمحمد
 سعيد القاسمي (١٣١٧) .
 قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون لابن الديبع الزبيدي (٩٤٤) .
 قصيدة عبد الرحمن بن النقيب المعروف بابن حمزة (١٠٨١) ذكر فيها
 المغنين والندماء في الدولتين الأموية والعباسية بشرح خليل مردم بك .

ك

كتاب في التراجم يظن أنه جزء من طبقات الحنابلة .
 كراستان نقلتا من خط حسن البوريني فيها حوادث جرت في دمشق من
 سنة ١٠٢٣ إلى ١٠٢٦ .

الكشاف عن أسرار الأوقاف لمحمد سعيد الباني ١٣٥١ .
 كناش الشيخ إسماعيل المحاسني الدمشقي ؟ وفيه حوادث وقعت في أواخر
 القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر .

كناش الشيخ طاهر الجزائري (١٣٣٨) الكبير والصغير وفي الأول ذكر
 لبعض نوادر المخطوطات في دور الكتب بمصر والشام والاسنانة .
 كناش علي الكيلاني الحموي (١١١٣) .

كنوز الذهب في تاريخ حلب الجزء الأول مسودة المؤلف أبي ذر أحمد
 الشهرير بسبط ابن العجمي المتوفى سنة (٨٨٤) وهو ذيل على الدر المنتخب
 لشيخه الجبريني (٨٤٣) وهذا ذيل تاريخ حلب لابن العديم (٦٦٠)
 لابن قاضي شعبة (٨٥١)

الكواكب الدرية في السيرة النورية بخط محمد المرادي سنة ١١٦٠ .
 الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي (١٠٦١) .

م

المؤتلف والمختلف ومشتبه النسبة لابن نقطة (٦٢٩) .
 مجموع كتب سنة ١١٠٥ لإبراهيم بن سليمان الحنفي الجيني ١١٠٨ .
 مجموعة تاريخية فيها سيرة الشيخ طاهر العمر الزيداني مجهولة المؤلف
 ونبذة في سيرته أيضاً لفراج المقدسي ؟ .

مجموعة رسائل وأوراق عليها تعليقات يظن أنها لابن آقبيق كتبت أوائل
 القرن الثالث عشر .

محاضرة في شرقي الأردن لأديب وهبة .

- مختصر الدارس للعلموي ٩٨١ .
- مختصر تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨) .
- مخدرات القصور لابن قطري البحيري ٨٩٨ .
- المدبجات المسمى بمناح المادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك
الناصر لعبد المنعم الجلياني المتوفى (٦٠٢) .
- المدهش لابن الجوزي (٥٩٧) .
- المروج السندية بتاريخ الصالحية لمحمد بن كنان (١١٥٣) .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩) أجزاء منه .
- المشبه وضعاً والمختلف صقلاً لياقوت الحموي (٦٢٦) .
- معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب لأبي الوفاء بن عمر العرُضي
(١٠٧١) .
- المعزة فيما قيل في المزة لابن طولون الصالحي (٩٥٣) .
- المعلومات الزراعية والاقتصادية والإدارية عن لواء دير الزور لوجيه الجزائر؟
مفكرات توفيق طارق في مصانع دمشق ومدارسها وجوامعها وما حوت
من النفائس الفنية ثابتة كانت أو منقولة (بالعربية والتركية) .
- مفكرات نجيب نصار (١٣٦٧) في بلاد فلسطين .
- مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦) وفي آخره نور العيون في
سيرة الأمين المأمون لابن سيد الناس (٧٣٤) .
- المواكب الإسلامية في الممالك الشامية لمحمد بن كنان (١١٥٣) .
- منادمة الأطلال لعبد القادر بدران (١٣٤٦) .
- المنتخب من تاريخ علم الدين البرزالي (٧٣٩) .
- المنتقى من تاريخ الإسلام للذهبي مع ما أضيف إليه من تاريخي ابن كثير
والصلاح الكتبي وغيرهما انتقاه ابن قاضي شهبه (٨٥٦) وهو من
سنة ٣٠١ إلى سنة ٤٥٠
- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد لعبد الرحمن العليمي (٩٢٨) .

ن

- نبذة في ذكر من تولى القضاء بدمشق الشام نقلت من نزهة الخاطر وبهجة الناظر لموسى بن أيوب الأنصاري الدمشقي (١٠٠٠) .
- نبهة ذوي الاحتشام في فضائل الشام لمحمد بن محمد العيثاوي ؟
- النجوم الزواهر في معرفة الأواخر للبدرى (٨٩٤) .
- نزهة الأبصار في ذكر الأقاليم وملوك الأمصار لحسن بن أحمد بن علي مطر الشهير بحاكم البقاع النصف الأول انتهى سنة ١٢٤٢ .
- نزهة الأنام في محاسن الشام للبدرى (٨٩٤) .
- نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان مجهول مؤلفه .
- نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولي مصر في سالف العصر من الخلفاء والسلاطين لمرعي الكرعي (١٠٣٣) .
- نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر ليوسف بن يحيى (١١٢١) .
- نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية لأحد أفاضل وصاب من بلاد اليمن .
- نشق الأزهار في عجائب الأمصار لابن إياس (٩٣٠) .
- نصاب الاحتساب لعمر بن عوض الشامي (النسامي أو السنامي) .
- نفحات العنبر في القرن الثاني عشر لإبراهيم الحوثي (١٢٢٣) .
- نفحة الريحانة لمحمد أمين المحبي (١١١١) .
- نقش فصوص خواتم الحكماء واجتماعات الفلاسفة في الأعياد وتفاوض الحكمة بينهم
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري ٧٧٤.

و

- الوافي بالوفيات للصفاي (٧٦٤) أجزاء منه .
- واقعة بين خارجي الديار المصرية ووزير الشام عثمان باشا .

فهرست

الجزء السادس من خطط الشام

٤٤-٣	التاريخ المدني من خطط الشام
٣	البيع والكنائس والديرية
٣	بيوت العبادة عند الأقدمين
٤	منشأ الأديار والبيع
٦	أعظم الكنائس وأقدمها
٩	مبدأ هدم الكنائس
١٤	كنائس دمشق
١٥	كنائس حلب
١٦	الكنائس والبيع في القدس
١٩	كنائس فلسطين
٢١	كنائس الأردن
٢٢	كنائس لبنان
٢٤	عمل الرهبان والراهبات العظيم
٢٦	الأديار القديمة في الشام

٦٥ - ٤٥	المساجد والجوامع
٤٥	في أول الفتح
٤٨	مساجد حلب
٥٠	جوامع عمالة حلب
٥٢	مساجد الساحل وجوامعها
٥٥	جوامع المدن الساحلية
٦٢	جوامع العاصمة وضواحيها
١٢٩ - ٦٦	المدارس
٦٦	نشأة المدارس
٦٩	دور القرآن بدمشق
٧١	دور الحديث بدمشق
٧٥	مدارس الشافعية بدمشق
٨٨	مدارس الحنفية بدمشق
٩٦	مدارس المالكية بدمشق
٩٦	مدارس الحنابلة بدمشق
٩٨	المدارس الحديثة
١٠٠	مدارس الطب بدمشق
١٠٤	مدارس حلب
١١٦	مدارس القدس
١٢٤	بقية مدارس القطر
١٥٥ - ١٣٠	الخوانق والربط والزوايا
١٣٠	خوانق دمشق
١٣٤	رباطات دمشق
١٣٦	زوايا دمشق
١٤٠	خوانق حلب وربطها وزواياها
١٤٨	ربط القدس وزواياها

١٥١	الربط والزوايا في المدن الصغرى
١٥٣	مراقد العظام ربط وخواتق
١٦٧-١٥٦	المستشفيات والبيمارستانات
١٥٦	مستشفيات دمشق
١٦٠	مستشفيات حلب
١٦١	بقية المستشفيات
١٦٣	لهفة على المدارس وغيرها
١٧٩-١٦٨	دور الآثار
١٦٨	المتاحف والعرب
١٧١	نشأة علم الآثار
١٧٢	البعثات الأثرية الغربية
١٧٤	آثارنا وآثار جيراننا
١٧٥	تأسيس دور الآثار
١٧٦	متحف دمشق
١٧٧	متاحف بيروت والسويداء وحلب وطرطوس والقدس وعمان
٢٠٤-١٨٠	دور الكتب
١٨٠	نشأة الكتب
١٨٣	نشأة الخزائن والعناية بحفظها
١٩١	مصائب الكتب ودورها
١٩٥	خزائن اليوم وأهم ما حوت
٢٧٣-٢٠٥	الأديان والمذاهب
٢٠٥	أديان القدماء
٢١٠	اليهودية
٢١٣	السامرة
٢١٩	الأرثوذكسية
٢٢٣	الكثلكة

٢٣٠	المارونية
٢٣٢	البرتستانية
٢٣٩	أصل السنة
٢٤٥	الشيعة
٢٥٠	الباطنية
٢٥٤	الإسماعيلية
٢٦٠	النصيرية أو العلوية
٢٦٣	الدروز
٢٦٨	البابية
٢٧٤ - ٢٣٢	الأخلاق والعادات
٢٧٤	عادات الدمشقيين
٢٨١	عادات الحلبيين
٢٩١	عادات لبنان وأخلاقه
٢٩٩	العادات في الأرجاء الأخرى
٣٠٧	عادات القبائل وأخلاقها
٣١٦	رأي في الأخلاق الشامية
٣٢٣ - ٣٤٧	حياة محمد كرد علي - مؤلف الخطط
٣٤٩ - ٣٥٩	مصادر الخطط
٣٦١ - ٣٦٤	فهرست الجزء السادس من خطط الشام